مجمع القرآن الكريم بالشارقة

موسوعة التفسير البلاغي

المُجلَّدُ الخَمسُون

سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72

مَوْسُوعَةُ التَّفْسِيرِ البَلَاغِيِّ

حكومة الشارقة Government of Sharjah
مجمع القرآن الكريم بالشارقة
HOLY QURAN ACADEMY IN SHARJAH

موسوعة التفسير البلاغي

المجلد الخمسون

سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72

نُخبةٌ مِنْ عُلَماء مَجمَعِ القُرآنِ الكَريمِ بِالشّارِقَةِ

منشورات القاسمي
AL QASIMI PUBLICATIONS
2026

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الخمسون،
سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م

الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 50 ، 822 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 4-81-643-9948-978
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 50 : المجلد الخمسون، سورة الزُّمر من الآية 05 إلى الآية 72.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 4-81-643-9948-978
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-1291842 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الجُزْءُ
الثَّالِثُ وَالعِشْرُونَ

سُورَةُ الزُّمَرِ

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥﴾ [الزمر: 5]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

شروعٌ في تعدادِ الأدلَّـةِ الكونيَّة على ألوهيَّةِ الله وقاهريَّته

انتقلَ مِنَ الاستدلالِ باقتضاءِ حقيقةِ الإلهيَّةِ نَفْيَ الشَّريكِ إلى الاستدلالِ بخلقِ السَّماوات والأرض على أنَّه المنفردُ بالخلقِ؛ إذ لا يستطيعُ شركاؤهم خلقَ العوالمِ(1)، أي: بعد أنْ طَعَنَ تعالى في إلهيَّةِ الأصنام؛ ذكَرَ عَقيبَها الصِّفاتِ الَّتي باعتبارِها تَحصُلُ الإلهيَّةُ(2)، وفي هذا زيادةٌ في تقريرِ مضمون: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ وإبطالِ شِركهم الَّذي ذَكَرَهُ الله بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾؛ ولذا اشتملت الآيةُ على دلائل الرُّبوبيَّة مِن مظاهر الخَلق والتَّصرُّف المُطلَق، والتَّدبير العجيب المحكم في خلق الكونِ في قولهِ تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾، وبيان الخلقِ والتَّدبير للنّاس في قولهِ تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ [الزمر: 6](3).

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿يُكَوِّرُ﴾: (كور) أصلٌ يَدُلُّ على دَوْرٍ وتَجَمُّعٍ، وعلى إدارة الشَّيءِ على شيءٍ تهيئةً لجمعهِ عليه، يُقالُ: كارَ يَكورُ؛ إذا دارَ، وكَوْرُ العِمامَةِ: دَوْرُها، وقولُهُ تَعالَى: ﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ١﴾ [التكوير: 1] أي: كَأنَّها جُمِعَت جَمعًا، وقَوْلُهُ تَعالَى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾، أيْ: يُديرُ هذا على ذاكَ، ويُديرُ ذاكَ على هَذا، أو يُلحِقُ أحَدَهما بالآخر،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 328.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 423، وابن عادل، اللباب: 16/ 472.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 452.

أو تغشيةُ كلِّ واحِدٍ مِنهُما صاحبَه، أو إشارةٌ إلى جَرَيانِ الشَّمس في مطالعها، وانتقاص اللَّيلِ والنَّهار وازديادهما[1].

2) ﴿وَسَخَّرَ﴾: (سخر) أصلٌ يَدُلُّ على احتِقارٍ واستِذلالٍ[2]، وسَخَّرَهُ تَسخيرًا: كَلَّفَهُ عَمَلًا بِلا أُجْرَةٍ، وسَخَّرَهُ سُخْرًا وسُخْرِيًّا: كلَّفَهُ ما لا يُريدُ، وقَهَرَهُ، والتَّسْخيرُ: التَّذليلُ، وكُلُّ ما ذَلَّ، وانقادَ، أو تهيَّأ لَكَ على ما تُريدُ؛ فقد سُخِّرَ لك، فتَسخيرُ اللّٰه الأرضَ وما فيها والشَّمْسَ والقَمَرَ والنُّجومَ لِلآدَميّينَ هو إجراؤها على ما يوافقهم، وأنْ ينتفعوا بها مختلفَ وجوهِ الانتفاعِ مذلَّلَةً لهم فضلًا منه تعالى[3]، والتَّسْخيرُ: سياقةٌ إلى الغرضِ المختصِّ قهرًا، فالمُسَخَّرُ هو المقيَّض للفعل[4]، فالمقصودُ بتسخيرِ الشَّمس والقمر هو تذليلُهما للعملِ على ما جعلَ اللّٰهُ لهما مِن نظامِ السَّير، سير المتبوعِ والتّابع[5].

3) ﴿يَجْرِى﴾: (جري) أصلٌ يدلُّ على انسياحِ شَيءٍ، يُقالُ: جرى الماءُ يجري جريةً وجَرْيًا وجَرَيانًا[6]، وهو "انتقالٌ بحركةٍ خفيفةٍ سريعةٍ مسترسلةٍ متَّصلة"[7]، والجَرْيُ: المرُّ السَّريع[8]، وجَرَى الماءُ سالَ مندفعًا، خِلافُ وقَفَ، وسَكَنَ، وجرَتِ السَّفينةُ ونحوُها: سارَتْ، وانتقلَتْ من مكانٍ إلى آخر[9]، والجاريَةُ: الشَّمسُ، سُمّيَتْ بذلِكَ؛ لجَرْيها من القُطْرِ إلى القُطْرِ[10]، ومعنى ﴿يَجْرِى﴾ في الآيةِ موافقٌ للمعنى اللُّغوي، أي: السَّيرُ السَّريع[11].

4) ﴿لِأَجَلٍ﴾: الأجَلُ: غايةُ الوقت[12]، وهو المدَّةُ المضروبةُ للشَّيء، ويقالُ للمدَّةِ المضروبةِ لحياةِ الإنسان: أجلٌ، فيُقال: دنا أجلُهُ، عبارة عن دنوِّ الموت، وأصله: استيفاءُ الأجلِ، أي:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كور)، وابن جرير، جامع البيان: 21/ 254، وابن سيده، المحكم، والراغب، المفردات، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (كور).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سخر).
(3) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سخر).
(4) الراغب، المفردات: (سخر).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 329.
(6) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (جرى).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جرى).
(8) الراغب، المفردات: (جري).
(9) الفيّومي، المصباح المنير، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (جري).
(10) الزبيدي، تاج العروس: (جري).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 329.
(12) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).

مدَّة الحياة[1]، فأجَلُ الشَّيْءِ: مُدَّتُهُ ووَقْتُهُ الَّذي يَحِلُّ فيهِ، والأجلُ: هو وقتٌ يُحدَّدُ لانتهاءِ الشَّيءِ أو حلولِه[2]، ومعنى الأجلِ في الآية: هو أجلُ فناءِ الدُّنيا، والمعنى: كلٌّ يسيرُ لمُنتهى دورِه، أو لمنقطعِ حركتِه[3].

5) ﴿مُّسَمًّى﴾: اسمُ مفعولٍ مِنَ الفعل المزيدِ (سمّى)، وجذره اللُّغويُّ (سمو)، وأصله يدلُّ على العُلوِّ والارتفاع، والمعنى المحوريُّ له: ارتفاعُ الشَّيءِ أو شخوصه ملتئمًا ظاهره وأعلاه على ما تحته، يُقال: سما بَصَرُهُ: علا، وسما كلِّ شيءٍ شَخْصُهُ، ومنه الاسْمُ، وهو ما يعرفُ به ذاتُ الشَّيءِ[4]، والاسمُ: اللَّفْظُ المَوْضوعُ على الجَوْهَرِ أو العَرَضِ للتَّمييزِ، أي: ليفْصِلَ بِهِ بعضَهُ عَن بعضٍ[5]، والمسمّى في الآية صفةٌ للأجلِ، وهو المجعولُ له وسمٌ، أي: ما به يُعيّن، وهو ما عيَّنه اللَّهُ لأَنْ يبلغ إليه[6].

6) ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾: (غفر) أصلٌ يدلُّ على السَّترِ، والغُفرانُ والغفرُ: السَّترُ، يُقالُ: غَفَرَ اللَّه ذَنبَهُ غَفرًا ومَغفرةً وغُفرانًا[7]، والمغفرةُ مِن اللَّهِ: أن يصونَ العبدَ مِن أن يَمَسَّهُ العذابُ[8]، والغفورُ والغفّارُ من أسماءِ اللَّهِ جَلَّ ثَناؤُهُ، وهما مِن أبنيةِ المُبالَغَةِ، ومعناهما السّاترُ لذُنوبِ عبادِهِ، المُتَجاوِزُ عن خَطاياهُم وذُنوبِهم[9].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يُبيِّنُ اللَّه الواحِدُ القَهّارُ سُبحانَه مظاهِرَ وحدانيَّتِه وقدرتِه، فيُخبِرُ أنَّه خَلَقَ السَّماواتِ والأرضَ بالأمرِ الثّابتِ والحِكمةِ والصَّوابِ والنَّفعِ، خَلقًا تامًّا مُتقَنًا، لا خيالَ فيه ولا سِحرَ، ولا اختلالَ ولا عَيبَ ولا نَقصَ؛ خَلقًا دالًّا على وحدانيَّتِه وقَهْرِه لكُلِّ شَيءٍ، ﷻ، وأنَّه يُغشي اللَّيلَ النَّهارَ، ويُديرُه عليه حتَّى يَذهَبَ ضَوؤُه، ويُغشي النَّهارَ اللَّيلَ، ويُديرُه عليه، حتَّى تَذهبَ ظُلمتُه، كأنَّه يلفُّ كلَّ واحدٍ منهما على الآخر لفَّ اللِّباس باللّابس، أو يغيِّبه به، كما يغيبُ

---

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (أجل).
(2) الفيومي، المصباح المنير، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أجل).
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 37، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمو)، والراغب، المفردات: (سما)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سمو).
(5) ابن سيده، المحكم، والزبيدي، تاج العروس: (سمو).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 330.
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (غفر).
(8) الراغب، المفردات: (غفر).
(9) ابن منظور، لسان العرب: (غفر).

الملفوفُ باللِّفافة، أو يجعله كارًّا عليه كرورًا متتابعًا تتابُعَ أكوارِ العمامة، وذلَّل سُبحانَه الشَّمسَ والقَمَرَ، وكُلُّ واحدٍ منهما يَسيرُ سَريعًا لِوَقتٍ مَعلومٍ عندَ الله، ألا إنَّ اللهَ الَّذي خلَقَ هذه المخلوقاتِ، وسَخَّرها لِعبادِه هو شديدُ القوَّة، الغالبُ الَّذي لا يُغلَبُ، المُمتَنِعُ عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، الغَفَّارُ الَّذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، ويَتجاوَزُ عن مُؤاخَذتِهم بها[1].

دلائـلُ كـونيَّةٌ فلكيَّةٌ وأرضيَّةٌ لإثباتِ الإلهيَّة للواحِدِ القهارِ

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

عِلَّةُ فصل الآيةِ عمّا قبلها:

تفصيلٌ لبعضِ أفعالِهِ تعالى الدّالَّة على تفرُّدِه

جاءتْ جملةُ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ بيانًا للجملةِ الَّتي قبلها: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾، ولذا فصلهما، ولم يربطهما بعاطفٍ؛ إذ بينهما كمالُ اتِّصال؛ فإنَّ خَلْقَ هذه العوالم والتَّصرُّفَ فيها على شدَّتها وعظمتها يبيِّن معنى الوحدانيَّة ومعنى القهّاريَّة، فتكون جملةُ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾ ذاتَ اتِّصالين اتِّصالٍ بجملة: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ﴾ كاتِّصال التَّذييل، واتِّصال بجملة: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ - الَّتي جاءَتْ تفصيلًا لبعض أفعالِه تعالى الدالَّة على تفرُّدِه[2] - اتِّصالَ التَّمهيد[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿خَلَقَ﴾، وإشارة المضيِّ فيه:

إبداعُ الشَّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ أدلُّ على القدرةِ الإلهيَّة

التَّعبيرُ بالخلقِ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾؛ لكونِ لفظِ الخلق - وهو تقديرُ الأشياء، وإيجادها على مثالٍ لم يُسبق إليه[4]، أي: إبداعُ الشَّيء من غيرِ أصلٍ ولا احتذاءٍ - أنسبَ مع السّياقِ الَّذي يتحدَّثُ عن خلقِ السَّموات والأرض، وهي أجرامٌ خلقها اللهُ من عدمٍ على مثالٍ لم يُسبق إليه، وذلك في سياق الاستدلالِ على ألوهيَّته سبحانه ووحدانيَّته وقدرته وقهره.

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 37.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 328.
(4) ابن منظور، لسان العرب: (خلق).

تحقُّقُ وقوعِ الخلقِ بموجوداته السَّماوية والأرضيَّة دليلٌ مشاهدٌ

والتَّعبيرُ عن خلقِهِ سبحانه للسَّمواتِ والأرضِ بصيغة الماضي؛ للدَّلالة على وقوعِ هذا الخَلقِ منه سبحانه وتحقُّقه بموجوداتِهِ وأجرامه السَّماوية شمسًا وقمرًا وسماءً، ومخلوقاته الأرضيَّة أرضًا وجبالًا وسهولًا وبحارًا وأنهارًا، وتحقُّق وقوع الخَلق منه سبحانه أدلُّ على كمالِ قدرته وألوهيَّته؛ فهو مشاهَدٌ لهم، ولهذا كثرتِ الآياتُ الَّتي تأمرهم بالنَّظرِ والتَّأمُّل في ملكوتهما.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

تكاملُ خلقِ السَّماوات والأرض واتِّصالُ منافعهما دليلٌ على كمالِ قدرةِ منشئهما

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾[1]، والجمعُ بين السَّماوات والأرض لقصدِ التَّعميم؛ إذ هما محلُّ الموجوداتِ الخارجيَّة، أي: خَلْقُ اللّهِ سبحانه وإبداعُه لِما خلق من العدم يعمُّ السَّماواتِ والأرض وما بينهما، بما يدلُّ على تمامِ قدرةِ اللّه، وأنَّه المنفردُ بالخلق؛ إذ لا يستطيعُ شركاؤُهم خَلْقَ العوالم[2]، وصحَّ عطفُ الأرضِ على السَّماوات، مع أنَّ السَّماوات جمعٌ، والأرضَ مفردٌ؛ لأنَّ المرادَ بـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ جنسهما، فهو عطفُ جنسٍ على جنسٍ.

كما أنَّ في الجمع إشارةً إلى أنَّ منافعَ السَّماء متَّصلة بمنافع الأرض على بعد ما بينهما؛ ليعلمَ أنَّ منشئهما واحدٌ؛ إذ لو كان عددًا؛ لامتنعَ ذلك؛ إذ المعروفُ مِنَ عادةِ الملوك انفرادُ كلٍّ بملكه وسلطانه، والاستعلاءُ على ما استولى، وقبضٌ برأسِ الآخر، ونفاذُ أمره في سلطانه، فإنْ لم يمتنعْ ذلك؛ دلَّ على أنَّه فعلُ واحدٍ[3].

معنى (الباء) في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾:

باء ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ للملابسة، أي: خلقَ السَّماوات والأرضِ وما بينهما من الموجوداتِ

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 391.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 328.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 658.

خلقًا ملابسًا للحقِّ، أي: للأمر الثّابت الذي ليس بخيال ولا سحر، على وجهٍ لا نقص فيه بوجه، ولا تفاوت ولا خلل[1]، ولا عبَث، أي: خَلَقهما خَلْقًا ملابسًا للحكمة والصَّواب والنَّفع، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ٣٨ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ﴾ [الدُّخان: 38 - 39][2].

خلقُ السَّماواتِ والأرض ملابسٌ للحكمةِ والصَّوابِ والنَّفعِ

وفي هذا كلِّه تنزيهٌ لأفعالِ اللّهِ عن أيِّ نقصٍ أو خللٍ أو فسادٍ أو عبثيَّة، ومِن ثَمَّ فيه بيانٌ لعظمةِ خلقِ اللّه وكمالِ قدرتهِ وشمولِ علمه وإتقانِ صنعته بما يستلزم تفرُّده بالإلهيَّة، والردُّ على مَن نسبَ له الشُّركاء.

ويمكن أنْ تكون الباءُ سببيَّةً بمعنى التَّعليل، أي: للحقِّ، وهو البعث، فلو لم يكن البعثُ؛ لكانَ خلقُهما عبثًا باطلًا على ما ذكر في آية أخرى: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ١١٥﴾ [المؤمنون: 115][3]، أو المعنى: خلقَ السَّمواتِ والأرض لأجلِ إقامته للحقِّ[4].

معنى (ال) في ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾، ودلالة التَّعبير به:

خلقُ السَّموات والأرض لا تنفكُّ عنه الحكمةُ والصَّوابُ والنفع

(ال) التَّعريف في لفظ ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾ جنسيَّةٌ، أي: المقصودُ جنسُ الحقِّ، وهو الشَّيءُ الثّابتُ الذي لا يتغيَّر، وهو واسعُ الدَّلالة، فيُفسَّر بالصِّدق (المطابق لما وقع)، وبالصَّحيح الصَّواب (ضدَّ الباطل الزائف)، ويُفسَّر بالعدل، ويأتي بمعنى: ثبتَ، ووجب[5]، وكلُّ هذه الألفاظ ممّا يُفسَّر به الحقُّ يرجعُ إلى معنى الثَّبات.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 452.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 328.
(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 657.
(4) زكريا الأنصاري، فتح الرحمن، ص: 493.
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حقق).

وتعريفُهُ يدلُّ على التَّخصيصِ والتَّعيين لما تناولَتْهُ الآية الكريمة، وهو أنَّ خَلْقَ السَّموات والأرض - خلقًا ملابسًا للحِكمةِ والصَّوابِ والنَّفع - دليلٌ على وحدانيَّة اللّه، وأنَّه المتفرِّدُ بذلك، فلا عبثَ ولا باطلَ ولا ضررَ في هذا الحقِّ العظيم، وليس آلهةَ الكفّار المزعومة، وفي هذا ردٌّ على المشركين الذين لم يهتدوا لِما في ذلك الخلقِ من الحِكمةِ والصَّوابِ والنَّفعِ، وقد نسبوا للّهِ الشُّركاء.

عِلَّةُ فصلِ الآية عمّا قبلها:

بيانٌ لكيفيَّةِ تصرُّفِهِ تعالى في السَّماواتِ والأرض بعد بيانِ خلقِهما

جملة ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ﴾ بيانٌ ثانٍ للجملةِ الَّتي قبلها: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ﴾، أي: بيانٌ لِكيفيَّةِ تصرُّفه تعالى فيهما بعد بيانِ خلقِهما، فإنَّ حدوثَ اللَّيلِ والنَّهارِ في الأرض منوطٌ بتحريك السَّماواتِ، أي: يغشى كلُّ واحدٍ منهما الآخَرَ[1]، وهو كتعدادِ الجمل في مقام الاستدلال أو الامتنان، أي: فُصِلتْ عمّا قبلها لِما بينهما من كمالِ اتِّصال[2].

دلالةُ التَّعبير بالتَّكوير في الفعل ﴿يُكَوِّرُ﴾:

في التَّكوير إشارةٌ إلى كرويَّةِ الأرض وهذا من إعجازِ القرآن

عبَّر البيانُ الحكيم بلفظ التَّكوير للإشارة إلى معجزةٍ علميَّةٍ تزيدُ الاستعارة فيها إبداعًا، وذلك أنَّ مادَّة التَّكوير آتيةٌ من اسم الكُرة، وهي الجسمُ المستدير من جميعِ جهاته على التَّساوي، والأرضُ كُرويَّةُ الشَّكل في الواقع، وذلك كان يجهله العربُ وجمهورُ البشر يومئذٍ، فأشارَ القرآنُ إلى كرويَّةِ الأرض بوصفِ العَرَضَيْن اللَّذَين يعتريانها على التَّعاقب، وهما النّور والظُّلمة، أو اللَّيل والنَّهار؛ إذ جعلَ تعاقبهما تكويرًا؛ لأنَّ عَرَضَ الكُرةِ يكون كُرويًّا، تبعًا لذاتها، فالتَّكويرُ لا يكون إلّا للشَّيء الدّائريِّ، وكذلك آثرَ التَّعبيرَ بالتَّكوير دونَ الغشيان؛ مراعاةً للسّياق في الآية، وهو الاستدلالُ على الإلهيَّة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 328.

الحقِّ بإنشاءِ السَّماوات والأرض، ولذا اختيرَ التَّكوير للاستدلال على ما يتبع ذلك الإنشاء مِن خَلْقِ العَرَضَيْنِ العَظيمَيْنِ للأرض[1].

دلالةُ المضارعة في الفعل ﴿يُكَوِّرُ﴾:

تكويرُ اللّيلِ والنَّهارِ متجدِّدٌ متكرِّرٌ مَرَّةً بعد مَرَّةٍ

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بصيغة المضارع ﴿يُكَوِّرُ﴾؛ للدَّلالة على تجَدُّدِ التَّكوير، وتكراره مَرَّةً بعد مَرَّةٍ[2]، في كلِّ يوم وليلةٍ، والمعنى: يلفُّ، ويلوي، ويديرُ، فيغطّي مع السُّرعة والعلوِّ والغلبة تكويرًا كثيرًا متجدِّدًا مستمرًّا إلى أجلِه، فيسترُ أحدُهما الآخرَ، فلا يدعُ له أثرًا[3]، أو لاستحضارِ حالةِ التَّكويرِ تبعًا لاستحضارِ آثارها، فإنَّ حالةَ تكويرِ الله اللَّيلَ على النَّهارِ غيرُ مشاهدة، وإنَّما المشاهدُ أثرها، وتجدُّدُ الأثرِ يدلُّ على تجدُّد التَّأثير[4].

بلاغةُ الاستعارةِ في الفعل ﴿يُكَوِّرُ﴾:

تكويرُ اللّيلِ والنَّهارِ خِلْفَةً أو تغييبًا أو تعاقبًا كرورًا ومرورًا

التَّكويرُ حَقيقَتُه: اللَّفُّ واللَّيُّ، ودَورٌ وتَجَمُّعٌ، وكَور العمامة: دَورُها[5]، وكوَّرَ العِمامَةَ على رَأسِه؛ إذا لواها، ولَفَّها، ولذا فإنَّ قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ استعارةٌ له من عدَّة أوجه:

الأوَّل: أن يكونَ اللَّيلُ والنَّهار خِلْفَةً، يذهبُ هذا، ويغشى مكانه هذا، وإذا غشيَ مكانه؛ فكأنَّما ألبسه، ولفَّ عليه كما يلفُّ اللَّباسُ على اللّابس، أي: جعلَ غشيان اللَّيل والنَّهار أحدهما مكانَ الآخر، وجعله محيطًا بكلِّ ما أحاطَ به الآخر، حتى صار بمنزلةِ لباسٍ بمكانه، بحيث يصيرُ أسودَ مظلمًا بعد ما كان أبيضَ منيرًا، وبالعكس تكويرًا لأحدهما على الآخر، ولفًّا عليه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 329.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 452.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 328.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كور).

الثّاني: كلُّ واحدٍ يغيِّبُ الآخرَ؛ إذا طرأ عليه، فشُبِّه في تغييبهِ إيّاه بشيءٍ ظاهرٍ لُفَّ عليهِ ماغيَّبه عن مطامحِ الأبصار، أي: شبَّه تغييبَ أحدِهما الآخرَ عند طريانه عليه بلفٍّ ساتر على الظّاهر؛ ليخفى بعد الظُّهور، وهو معنى تكويره عليه.

الثالث: أنَّ هذا يكرُّ على هذا كرورًا متتابعًا، يشبهُ تتابعَ أكوارِ العمامةِ، وهذا تمثيلٌ بديعٌ وجهه منتزعٌ من عدَّة أمور، وقابلٌ للتَّجزئة بأنْ تُشبَّهَ الأرضُ بالرَّأس، ويُشبَّهَ تعاورُ اللّيل والنَّهار عليها بلفِّ طيّات العمامة[1]، أي: كرَّ هذا على ذاك وبالعكس، على سبيلِ التَّتابع والتَّلاقِّ كما في العمامة، وهي استعارةٌ تمثيليَّةٌ؛ إذ مُثِّلَتْ به هيئةُ غَشَيانِ اللَّيل على النَّهار في جزء من سطح الأرض، وعَكْسُ ذَلِكَ عَلَى التَّعاقُبِ والتَّرتيب المتتابع شيئًا فشيئًا على الكرة الأرضيَّة بهيئة كوْرِ العمامة؛ إذ تُغشي الليَّةُ جزءًا مِنَ الرَّأس، كما تُغشي الليَّةُ الليَّةَ الَّتي قبلَها[2].

البيان يقرب الصورة من الأذهان

ومِنَ اللَّطائف والفوائد البلاغيَّة في هذه الاستعارة أنَّها قرَّبتْ لأذهانِ المخاطَبين بالقرآن حين نزولِهِ تلكَ النَّظريَّة العلميَّة العظيمة للأرض وأحوالها؛ إذ كان من الصَّعبِ على العربيِّ الَّذي نزلَ القرآنُ بلغته أنْ يستوعبَ نظريَّةَ كرويَّةِ الأرض ودورانها في ذلك الحين، ولكنَّ النَّظمَ القرآنيَّ المعجز قرَّبَ تلكَ النَّظريَّة إلى أفهامِ المخاطَبين باستخدام لفظٍ يصوِّر لأذهانهم تلكَ الحقيقة، بتمثيلها بتكويرِ عمائمهم الَّتي لا يفارقونها، ولا يتخلَّون عنها[3].

والمقصودُ في الكلِّ واحدٌ، وهو التَّشبيهُ في الفعلِ على سبيلِ الاستعارة التَّبعيَّة، استعارة محسوسٍ لمحسوس، والاحتمالُ واردٌ في الجميعِ بالتبعيَّةِ والمكنيَّة والتَّخييليَّة والتمثيليَّة[4].

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 114 - 115، وزاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 227 - 228، والشهاب الخفاجي، عناية القاضي: 8/ 180.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 328.

(3) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 388.

(4) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 386.

معنى (ال) في ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾:

شمولُ التَّكوير كلَّ ليلٍ ونهارٍ دليلٌ على تمامِ قدرةِ اللهِ تعالى

(ال) التَّعريف في لفظَي ﴿ٱلَّيۡلَ﴾ و﴿ٱلنَّهَارِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ جنسيَّةٌ، تعمُّ، وتشملُ جِنْسَ اللَّيلِ والنَّهار، أي: كلَّ ليلٍ ونهار، فلا يقتصرُ التَّكوير على ليلٍ معهودٍ دون ليلٍ، أو نهارٍ معهودٍ دون نهار، وهذا يدلُّ على تمامِ قدرتِهِ سبحانه في سُنَّةِ تعاقبِ اللَّيلِ والنَّهار.

معنى ﴿عَلَى﴾ في: ﴿عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ و﴿عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾:

الاستعلاءُ إيذانٌ بتمكُّن تكويرِ كلٍّ مِنَ المَلْوين على الآخر

﴿عَلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ للاستعلاء، وهذا الاستعلاءُ يدلُّ على تمكُّنِ تكويرِ كلٍّ مِن اللَّيلِ والنَّهار على الآخر، والمعنى: يلفُّ، ويلوي، ويديرُ، فيغطّي مع السُّرعة والعلوِّ والغلبة اللَّيلَ عاليًا تكويره وتغطيته على النَّهار، والنَّهارَ عاليًا تكويره وتغطيته على اللَّيل، بأنْ يسترَهُ به، فلا يدعُ له أثرًا[1]، وهذا الاستعلاءُ والتَّمكينُ يشيرُ إلى كمالِ قُدْرَتِهِ تعالَى.

معنى (الواو) في: ﴿وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾:

فـي العطف تتميمٌ يُظهرُ كمالَ القدرة الإلهيَّةِ في الكونِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه جملة: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾، وهو من عطفِ الجزءِ المقصودِ من الخبر[2]، أي: في عطفهِ يكتملُ الخبرَ، وهذا تَتميمٌ لإظهارِ كمالِ صَلاحيَّةِ القُدرةِ الإلهيَّةِ في تعاقُبِ اللَّيلِ والنَّهار، وفي هذه السُنَّةِ الكونيَّةِ - الَّتي يتغلَّبُ فيها الظَّلامُ على النّورِ حينًا، ويتغلَّبُ النّورُ على الظَّلامِ حينًا آخر - دلالةٌ على أنَّ كلَّ واحدٍ منهما يكون مغلوبًا مقهورًا، ولا بدَّ من غالبٍ قاهرٍ لهما يكونان تحتَ تدبيره وقهره، وهو اللهُ تعالى[3]، وفيها كذلك إشارةٌ إلى سُنَّةِ تعاقبِ الحقِّ والباطل،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 452.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 329.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 423.

فينتصرُ الباطلُ على الحقِّ حينًا، وينتصرُ الحقُّ على الباطلِ حينًا آخرَ إلى أنْ تقومَ السّاعة التي يتحقَّقُ فيها العدلُ المطلقُ.

كما أنَّ في العطفِ إشارةً أيضًا إلى أنَّ منافعَ اللَّيلِ متَّصلةٌ بمنافع النَّهار، ومنافعُ النَّهارِ متَّصلةٌ بمنافعِ اللَّيلِ على اختلافهما وتناقضِهما وتضادِّهما؛ ليُعلم أنَّهما فعلُ واحدٍ أحدٍ سبحانه[1].

نكتةُ تقديم تكوير اللَّيل على تكوير النَّهار:

اللَّيلُ مقدَّمٌ على النَّهارِ باعتبارِ النَّهارِ منسلخًا منه

قدَّمَ النَّظمُ الحكيمُ تكويرَ اللَّيلِ على تكويرِ النَّهارِ في الذِّكر؛ مراعاةً للسَّبقِ في الإيجاد، فإنَّ الظُّلمةَ سابقةٌ للضّياء، واللَّيلُ إنَّما هو ظلمةٌ[2]، واللَّيلُ مقدَّمٌ على النَّهارِ باعتبارِ النَّهارِ منسلخًا منه، قال تعالى: ﴿وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ٣٧﴾ [يس: 37].

بلاغةُ الإطنابِ في الآية:

استقلالُ كلٍّ من التَّكويرين أدلُّ على كمالِ قدرةِ الله

عدلَ البيانُ القرآنيُّ عن أنْ يقولَ: (يكوِّرُ أحد المَلَوَين على الآخرِ) - رغم أنَّه أخْصَرُ - إلى الإطناب بذكرِ تكويرِ اللَّيلِ على النَّهارِ وتكويرِ النَّهارِ على اللَّيلِ؛ للإشارةِ إلى استقلالِ كلٍّ منهما في الدَّلالةِ على كمالِ قدرةِ الله الدالَّة على ألوهيَّته سبحانه، كما أنَّه أطنبَ بإعادةِ العامل ﴿يُكَوِّرُ﴾، فلمْ يقل: (يكوِّر اللَّيلَ على النَّهار والنَّهارَ على اللَّيل) مع كونه أخصرَ كذلك؛ للدَّلالة على عظمةِ هذا الصُّنع[3]، أي: هذا الفعل، وهو فعلُ التَّكوير.

معنى (الواو) في: ﴿وَسَخَّرَ﴾:

تكويرُ أحدِ المَلَوَين على الآخرِ مِن آثارِ تسخيرِ الشَّمسِ والقَمَرِ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ عاطفةٌ، عطَفتِ الجُملةَ على قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾؛ لأنَّ ذلك التَّسخيرَ مُناسِبٌ لِتَكويرِ اللَّيلِ على النَّهارِ وعَكسِه،

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 657.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 453.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 452.

فإنَّ ذلك التَّكويرَ مِن آثارِ ذلك التَّسخيرِ، "فإنَّ الشَّمسَ سلطانُ النَّهار، والقمرَ سلطانُ اللَّيل، وأكثرُ مصالحِ هذا العالم مربوطةٌ بهما"[1]، فتلك المُناسَبةُ اقتَضَتْ عَطفَ الجُملةِ الَّتي تَضَمَّنَتْهُ على الجُملةِ الَّتي قَبْلَها[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(سخّر)، وإشارة المضيِّ فيه:

التَّسخيرُ لآيتين عظيمتين يدلُّ على وحدانيَّةِ المسخِّر وقاهريَّته

آثرَ البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بلفظِ التَّسخير في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ دون غيرها من الألفاظ، كأمَرَ، أو جعل، أو ذلَّلَ؛ للإيحاءِ بالقوَّة والعظمة، وخاصَّةً أنَّ التَّسخيرَ لآيتين عظيمتين هما الشَّمسُ والقمر، بما يرسمُ مشهدًا عظيمًا فيه منافع جليلة لعموم المخلوقات، ومثل هذه المنافع مجتمعة تقْصُر في أدائها لفظةَ أمَرَ، أو جعل، أو غير ذلك[3]، وهذا يناسبُ السّياق الَّذي يؤكِّدُ على عظمة الله واستحقاقه للوحدانيَّة والقاهريَّة، ولهذا كلِّه ناسبَ استعمال لفظ التَّسخير الذي يدلُّ على عظمة المُسخِّر سبحانه، وضعفِ المسخَّرِ وذلَّتِهِ؛ إذ أصلُ التَّسخير يَدلُّ على احتقارٍ واستذلالٍ، وانقيادٍ بيُسر مع عدم مقاومة، وهو سياقةٌ إلى الغَرضِ المُختصِّ قَهْرًا"[4]، والمعنى: ذلَّلَ، وأكرهَ، وقهرَ، وكلَّفَ لِما يريد من غير نفعٍ للمسخِّر (الشمس والقمر)[5].

التَّسخيرُ محقَّقٌ مشاهَدٌ على منهاجٍ معلومٍ وحدٍّ محدود

وقد جاء لفظُ التَّسخير بصيغة الماضي (سخّر)؛ للدَّلالة على وقوعِ التَّسخير وتحقُّقه على منهاجٍ معلوم لا يتعدّاه، وحدٍّ محدودٍ لا يتخطّاه، وهذا التَّسخيرُ محقَّقٌ دائمٌ مستمرٌّ مشاهَدٌ لكلِّ عاقل[6]، أي: سخَّرهما اللهُ منذ خلقهما، قال تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ

(1) ابن عادل، اللباب: 16/ 473.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 329.
(3) الدبل، النظم القرآني في سورة الرعد، ص: 68.
(4) الرّاغب، المفردات: (سخر).
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 453.
(6) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 130، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 453.

﴿وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلۡأَرۡضِ ٱئۡتِيَا طَوۡعًا أَوۡ كَرۡهٗا قَالَتَآ أَتَيۡنَا طَآئِعِينَ ١١﴾ [فصلت: 11]، أي: لتسخيرِ أمرٍ لا تعدُّدَ فيه ولا تجدُّد، وإنَّما التَّعدُّدُ والتَّجدُّد في آثاره[1]، وهذا بخلاف التَّكوير الَّذي جاء بصيغة المضارع؛ لأنَّه يتجدَّدُ كلَّ لحظةٍ[2].

نكتةُ حذفِ المتعلِّق في: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾:

تركيزٌ على إظهارِ الآياتِ الدّالَّة على وحدانيَّةِ اللهِ وقاهريّته

حُذِفَ متعلِّقُ قوله: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾؛ إذ التَّقدير: (وسخَّرَ لكم الشَّمسَ والقمر) لظهوره، ولكون حذفِهِ أنسبَ للسّياق، وهو التَّركيزُ على إظهارِ الآياتِ الدّالَّة على وحدانيَّةِ اللّه وقاهريَّته، بخلاف قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [لقمان: 20]، فإنَّها في سياقِ تَعدادِ النِّعَم على الإنسان، فناسبَ ذلك إظهار لفظ (لكم).

معنى (ال) في ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ و﴿وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ ونكتة إفرادهما:

في ذكرِ الشَّمسِ والقمرِ المعهودَين تذكيرٌ بمنافعهما

(ال) التَّعريف في قوله: ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ و﴿وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ عهديَّةٌ، لتحديدِ الشَّيء المسخَّر من قِبَل اللّه سبحانه، ممّا يعني: أنَّ الحديث هنا يتعلَّق بالشَّمس والقمر المعروفَين، وهما الجرمان السَّماويّان اللَّذانِ يعرفهما الجميع، وهذا التَّخصيص يُعزِّز من فهم المعنى المقصود، ويُشير إلى أهمّيَّة هذين الجرمين في الكون، وتُظهرُ (ال) التَّعريف في سياقِ الآية قدرةَ اللّه تعالى على تسخيرِ هذه الكائنات العظيمة لخدمةِ الإنسان ولتيسيرِ حياته، فالتَّسخيرُ هنا يُعبِّر عن السَّيطرةِ الإلهيَّة على هذه الظواهر الطبيعيَّة.

وفي إفرادهما زيادةٌ في تحديدهما وتخصيصِهما، وإبرازٌ لأهمّيَّة كلٍّ منهما بشكلٍ منفصل، فكلٌّ منهما له دورهُ الفريدُ في النَّظام الكونيِّ، وإظهارٌ للقدرةِ الإلهيَّة على تسخيرِ كلٍّ منهما بشكل خاصٍّ، بما يُظهرُ عظمةَ اللّه في خلقِهِ وقدرتهِ عليها.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 76.
(2) السامرائي، لمسات بيانية: 9/ 198.

مُسَخِّرُ الشَّمس والقمر واحدٌ عالِمٌ مدبِّرٌ

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَٱلۡقَمَرَۖ﴾:

الواو في قوله: ﴿وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه: ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ بجامعِ اشتراكهما في التَّسخير للخلقِ من قِبَل الله سبحانه بما ينفعُ الإنسان، وجريانهما على سيرٍ واحدٍ منذُ كانا إلى آخرِ ما يكونان، وفي هذا إشارةٌ إلى أنَّ مُنشئهما واحدٌ، عالمٌ، مدبِّرٌ، عرَفَ حاجة الخلقِ إليهما، ومنافعهم بذلك[1].

تقديمُ الأصلِ والأعظمِ والأعجبِ مع مراعاةِ بديعِ المطابقة

بلاغةُ تقديمِ ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ على ﴿وَٱلۡقَمَرَۖ﴾:

قدَّمَ البيانُ القرآنيُّ ﴿ٱلشَّمۡسَ﴾ على ﴿وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ من باب تقديم الأصلِ على الفرع، فالشَّمسُ هي الأصلُ بضيائها ومنافعها، ومن بابِ تقديم الأشرفِ بالفضيلة[2]، فهي أسنى وأسمى مكانةً ومكانًا[3]، ولأنَّ الشَّمسَ لمَّا كانت أكبرَ وأعظمَ؛ كانت أعجبَ، والنَّفسُ تطلبُ سببَ الأمرِ العجيب أكثرَ ممّا تطلبُ سببَ الأمرِ الذي لا يكون عجيبًا[4]، ولأنَّ تقديمَ الشَّمسِ هو عادةُ القرآنِ الكريم، وكذلك لمراعاةِ المطابقةِ في التَّرتيب، فاللَّيلُ يُطابقُ الشَّمسَ، والنَّهارُ يُطابقُ القمرَ[5].

تصوُّرُ قدرة اللهِ سبحانه في أكملِ صورها وأوسعِ معانيها

بلاغةُ الطِّباق في الآية:

جاءتِ المطابقةُ بين السَّماوات والأرض، وبين اللَّيلِ والنَّهار، وبين الشَّمسِ والقمر في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾؛ لتصوِّرَ قدرةَ الله سبحانه في أكملِ صورها وأوسعِ معانيها، بقدرته على الخلق، والتَّصرُّفِ المطلق، والإنعامِ الكامل، والسُّلطانِ الشّامل،

(1) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 658.
(2) الزركشي، البرهان: 3/ 259.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 377.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 130.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 4/ 377.

ذلك أنَّ مِن أسرارِ بلاغةِ المطابقة تداعي المعاني، فالضِّدُّ يجلبُ إلى الذِّهن مُقابله، أي: إنَّ الطِّباقَ بين المذكوراتِ في الآية يجعلُ المخاطَبَ يتصوَّرُ كمالَ قدرةِ اللّه، وشمولَ تصرُّفِهِ المطلق، بأنْ يلفتَ ذهنَ المخاطَب إلى أنَّ دلائلَ وحدانيَّة اللّه وإلهيَّتهِ محيطةٌ بالمخاطَبِ مِن كلِّ جانبٍ وفي كلِّ الأحوال، وهذا أقوى أثرًا في المخاطَب؛ لكي يقتنعَ بتفرُّدِ اللّه بالعبادةِ الخالصة، وأنَّه المستحقُّ الوحيدُ لها، ولكي يرتدعَ عن شركهِ باتِّخاذ الأولياء، وهذا يحقِّقُ غرضَ الآية، وهو التَّدليلُ على وجوبِ إفرادِ اللّه بالعبادة الخالصةِ له وحده لا شريكَ له، والرَّدُّ على المشركين في اتِّخاذهم الأولياء من دون اللّه، وافترائهم على اللّهِ بأنَّ له ولدًا.

علَّةُ فصل جملة: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾:

في حركةِ الكون بيانٌ لِكيفيَّةِ تَسخيرِ الشَّمس والقمر

فَصَل البيانُ الإلهيُّ بين جملة: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾، والتي قبلها: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾، ولم يأتِ بالعاطف، لِما بينَهما من كمالِ اتِّصالٍ؛ بسببِ كون قوله تعالى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾ بيانًا لِكَيفيَّةِ تَسخيرِ الشَّمس والقمر، أيْ: كُلٌّ منهما يَجري لِمُنتَهى دَورَتِه، أو مُنقَطَعِ حَرَكَتِه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالكلّيَّة في جملة ﴿كُلّٞ يَجۡرِي﴾:

عمومٌ يناسبُ كمالَ قدرةِ اللهِ وعظيم ملكه، ويدلُّ على وحدانيَّته وقاهريَّته

عَبَّرَ البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿كُلّٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾؛ للدَّلالة على الإحاطةِ والشُّمولِ لكلِّ ما أُضيف إليها، وهذه الإحاطةُ تتناسبُ مع كمالِ قدرة اللّهِ وعظيم ملكهِ، بما يدلُّ على أنَّه الواحدُ القهّار، وتدعو القارئَ أو السّامع للتَّفكُّر في عظمةِ الخالق وقدرته على تنظيم كلِّ ما في الوجود، ويُشجِّعُ على التَّأمُّلِ في كيفيَّة جريانِ كلِّ شيءٍ وفقًا لأجلٍ مسمًّى، كما أنَّ ما تتضمَّنه من إبهامٍ يتعيَّن بالمضاف إليه له أثرٌ تشويقيٌّ، كما أنَّ في هذا العموم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.

إشارةً وتنبيهًا للسّامع إلى أنّه داخلٌ في ذلك العموم، فكما أنَّ تلكَ المخلوقات تجري لأجلٍ مسمًّى، فإنَّك أيُّها السّامع أيضًا سائرٌ إلى أجلٍ معلوم محدَّدٍ عند اللّه[1]، ما يزرعُ في نفسِه الخوفَ من خالِقه الَّذي سيرجع إليه، ويقوّي هذا المعنى ختْمُ الآية بذكرِ اسم ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾؛ لكونه يناسبُ ذِكْرَ المكلَّفين من بني البشر، الدّاخلين في هذا العموم، وبذكر اسم ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾؛ لكونه يناسبُ ذِكْرَ المخلوقات غيرِ المكلَّفة من الشَّمسِ والقمر، فهي لا تُذنبُ حتّى يَغفرَ لها اللّهُ.

لطيفةُ الحذفِ في قوله: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ﴾:

إيجازٌ في اللّفظِ واتِّساعٌ في المعنى

حُذفَ المضاف إليه في ﴿كُلّٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾، وعوِّضَ عنه بالتَّنوين، والتَّقدير: كلُّ ذلك، أو كلُّ واحدٍ يجري لأجلٍ مسمًّى[2]، والغرضُ البلاغيُّ للحذفِ - إضافةً إلى الإيجاز والاختصار - زيادةُ المعنى العامِّ الذي أفادته ﴿كُلّٞ﴾ شمولًا آخرَ، يفيدُ الاستغراقَ الشّاملَ للعددِ وللكيفيَّة[3]، كما أنَّ حذفَ المضاف إليه وتنوين ﴿كُلّٞ﴾ يشعرُ بالفخامةِ والعظمةِ الَّتي يوحي بها التَّنوين، وهذه الفخامةُ والعظمةُ تتناسبُ مع سياقِ الآية، ومقتضى المقامِ الذي يؤكِّدُ عظمةَ اللّهِ في الخلق والتَّدبير.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجري في الفعل ﴿يَجۡرِي﴾:

حـركـةٌ فلكيَّةٌ خاصَّةٌ في زمنٍ معلومٍ ونظامٍ محدَّدٍ يدلُّ على كمالِ القدرة

التَّعبيرُ بالجري دون الحركةِ في قوله تعالى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾؛ للدَّلالة على إتقانِ صنع اللّه سبحانه في جريانِ هذه الكواكبِ من الشَّمسِ والقمر والأرض، بما يدلُّ على كمالِ قدرته سبحانه؛ لأنَّ الجريَ ليس مجرَّدَ الحركةِ الَّتي تقابلُ السُّكون، وإنَّما هو حركةٌ خاصَّةٌ سريعةٌ مسترسلةٌ متَّصلةٌ في زمنٍ معلومٍ ونظامٍ

(1) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 307.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 160، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 454، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 329.
(3) عطية، الإيجاز، ص: 357.

محدَّد، أي: متقنةٌ، لا حركةٌ عشوائيَّةٌ، كما يدلُّ عليه معنى الجري في اللُّغة[1]، والمعنى: كلٌّ مِنَ الشَّمسِ والقمرِ والأرضِ يجري بحسبِ حركته الخاصَّة وحركته القسريَّة على المداراتِ اليوميَّةِ المتخالفةِ المتعدِّدةِ حسب تعدُّدِ الأيّامِ جريًا مستمرًّا[2].

دلالةُ صَوغِ الفعل ﴿يَجۡرِي﴾ مضارعًا:

نظامٌ كونيٌّ دقيقٌ لا يتوقَّفُ يدعو إلى التَّأمُّل في عظمةِ الخالق وقدرته

التَّعبيرُ بصيغةِ المضارعِ في قولِه: ﴿يَجۡرِي﴾؛ للدَّلالةِ على كونِ جريان هذه الأفلاكِ مستمرًّا في كلِّ حين، ممّا يوحي بأنَّ كلَّ شيءٍ في الكونِ مستمرٌّ في حركته وجريانه، وهذا يعكسُ نظامًا كونيًّا دقيقًا لا يتوقَّف، كما أنَّ في المضارعةِ إفادةَ تصويرِ حدثِ الجريان، وقد وصلَ إلى الأجل، بما يحفِّزُ القارئَ أو السّامع على التَّفكيرِ في حركةِ الكون وأهدافها، ممّا يدعو إلى التَّأمُّل في عظمةِ الخالق وقدرته.

معنى (اللام) في قوله: ﴿لِأَجَلٖ﴾:

في العلّيَّةِ وانتهاءِ الغايةِ دلالةٌ على كمالِ قدرةِ الله في خلقِ الأفلاك

اللّامُ في قوله: ﴿لِأَجَلٖ﴾ يجوزُ أنْ تكونَ لامَ التَّعليل على ظاهرها، والمعنى: تجري لعلَّةِ أنْ ينتهي جريهما إلى أجَلٍ مسمًّى، وهو أجَلُ فنائهما، فإنَّ جريهما لمّا كان فيه تقريبُ فنائهما؛ جعلَ جريهما كأنَّه لأجْلِ الأجَلِ، أي: لأجلِ ما يطلبهُ، ويقتضيه أجلُ البقاء[3]، ويجوزُ أنْ تكون اللّامُ بمعنى (إلى)، أي: تجري إلى أجلٍ مسمًّى، وهو قيامُ السّاعة[4]، أو إلى مدَّةٍ محدَّدةٍ عند اللّه[5].

وكلٌّ مِن المعنيين يدلُّ على كمالِ قدرةِ اللّه في خلقِ الأفلاكِ من الشَّمسِ والقمر والأرض.

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جرى).
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 76.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 330.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 254.
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 86.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ(أجَل) دون (وقت) أو (زمن):

التَّعبيرُ بما يدلُّ على غايةِ الوقتِ تذكيرٌ بالآخرة للاستعدادِ لها

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الأجل دون الوقت أو الزَّمن في قوله تعالى: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه وقتٌ يُحدَّدُ لانتهاءِ الشَّيء، أو حلوله[1]، فالأجلُ هو غايةُ الوقتِ[2]، ولذا كان استعمالُهُ هنا أنسبَ للمقام، فالمرادُ بالأجلِ في الآية ليس مجرَّد الوقت أو الزَّمن، وإنَّما هو أجلُ فناءِ الشَّمسِ والقمر والأرض، أو أجلُ حياةِ النَّاس الذي ينتهي بانتهاءِ الأعمار المختلفة، وليس العمرُ إلَّا أوقاتًا محدودةً وأنفاسًا معدودةً تُحسبُ بجري الشَّمسِ والقمر، فصار جريهما كأنَّه لأجل، وفي هذا تذكيرٌ بالآخرةِ للاستعدادِ لها.

دلالةُ التَّعبير بالتَّسمية في الوصْف ﴿مُّسَمًّىۗ﴾:

أجلٌ معروفٌ عند الله له وسْمٌ يُعرفُ به ويتميَّزُ به

عبَّر البيانُ الحكيمُ بلفظ ﴿مُّسَمًّىۗ﴾ في قوله: ﴿لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾ دون غيره؛ للدَّلالة على أنَّه أجَلٌ معروفٌ مجعولٌ له وسمٌ يُعرف به، ويتميَّز به عن غيره[3]، فالاسْمُ: هو ما يُعرفُ به ذاتُ الشَّيء[4]، وهو هنا يومُ القيامة، أي: أجلُ فناءِ هذه الكواكب، أي: هو وسمٌ للأجل، عيَّنه اللّهُ لأنْ يُبلغ إليه[5]، وللتَّناسبِ مع المقامِ، فالبيانُ القرآنيُّ لم يحدِّده بشكلٍ دقيقٍ ومُفصَّلٍ، كما هو معنى المحدَّد في اللُّغة[6]، ولذا لم يقل: لأجلٍ محدَّدٍ.

نكتةُ خلوِّ الجملتين الخبريَّتين من المؤكِّدات:

خلقُ السَّماواتِ والأرضِ وتسخيرُ الشَّمسِ والقمرِ آيتان كونيَّتان لا ينكرهما أحدٌ

خلتِ الجملتانِ الخبريَّتان: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ﴾ و﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ من المؤكِّدات؛ لأنَّ جميعَ المخاطَبين معترفون بذلك، مقرّون به حتّى المشركين، وقد أخبرَ سبحانه بذلك

---

(1) الفيومي، المصباح المنير، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أجل).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 330.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سمو)، والراغب، المفردات: (سما)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سمو).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 330.
(6) الزبيدي، تاج العروس، والمعجم الوسيط، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (حدد).

في سورة الزُّمر: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: 38].

بلاغةُ تصديرِ الجملة الكريمةِ بأداة الاستفتاح ﴿أَلَآ﴾:

إعلانٌ بأنَّه تعالى عزيزٌ في بطشِهِ وانتقامِهِ غفّارٌ لعبادِهِ التّائبين

﴿أَلَآ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أداةُ استفتاحٍ مركَّبةٌ من همزةِ الاستفهامِ وحرفِ النَّفي (لا)؛ لإعطاءِ معنى التَّنبيه على تحقُّقِ ما بعدها، وفي هذا التَّنبيهِ والتَّحقيق إيذانٌ بأهمّيَّة مدلولِ الجملةِ الصَّريح، وهو الإخبارُ بكونِهِ سبحانه العَزيزَ الغالبَ على كلِّ ما سواه، الكثيرَ المغفرةِ لذنوبِ عباده التّائبين إليه توبةً نصوحًا، ومدلولها الكنائي، وهو الوعدُ والوعيد، فإنَّ وصفَ العزيزِ كنايةٌ عن أنَّه يفعلُ ما يشاءُ لا غالبَ له، فلا تجدي المشركين عبادةُ أوليائهم، ووصفُ الغفّار مؤذنٌ باستدعائهم إلى التَّوبة باتِّباع الإسلام[1]، وفيه إشارةٌ كذلك إلى كمالِ الاعتناء بمضمونها، وإلى وجوبِ التَّدبُّر فيما اشتملَتْ عليه[2].

نكتةُ تعريفِ الاسمين الجليلَين ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾:

الكاملُ في قدرتِهِ ومغفرته يستحقُّ الإيمانَ به والشُّكر له

جاءتِ الصِّفتان ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ مُعَرَّفَتين؛ للدّلالةِ على التَّعظيم في الشَّأنِ والكمالِ في الوصف، والاختصاصِ بالاسم، فهو سبحانه الكاملُ في قدرتِهِ على كلِّ شيءٍ والكاملُ في مغفرته، بلغَ الغايةَ في الصَّفحِ عن المذنبين مِن عبادِه، وفي هذا نعيٌ على الكافرين؛ إذ يُعرِضون عن عبادةِ الكاملِ ليعبدوا من دونِهِ أصنامًا عاجزةً لا تجدي عنهم شيئًا.

نكتةُ صوغِ ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ على (الفعيل):

﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ جاء بصيغة (فعيل)، وهي من أبنيةِ المبالغة؛ لإفادةِ بلوغِ الغايةِ في كمالِ قدرة اللّه سبحانه، فهو الغالبُ القادر على كلِّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 330.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 197.

شيءٍ من الأشياء الَّتي من جُملتها عقابُ العُصاةِ[1]، فهو العزيزُ الَّذي لا يُغالَبُ، القاهرُ لِكُلِّ شيء، الذي لا يستعصي عليه شيءٌ[2]، وغرضُ المبالغة بيانُ كمال قدرته، والتَّنديدُ بالكفر والمعاصي، والتَّحذير منهما[3]، والحثُّ على الإيمان والشُّكر، أي: آمنوا به، واعتزّوا بعزَّته.

في المبالغةِ بيانُ كمالِ قدرة الله والتَّحذيرُ مِن الكفرِ به

لطيفةُ صوغِ اسم ﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ على (الفعّال):

﴿ٱلْغَفَّٰرُ﴾ صيغةُ مبالغةٍ على وزن (فعّال)، مشتقَّةٌ مِن المصدر (غفران)، وتعني: في الأصل لبس الإنسان لشيءٍ يقيهِ مِن التَّلوُّث، وعندما تستخدمُ بشأنِ الباري، فإنَّها تعني سترَهُ لعيوبِ عباده النّادمين وذنوبِهم، وحفظَهم مِن عذابِهِ وجزائه، فهو المبالغُ في المغفرةِ، ولذلك فهو مع قدرتِهِ على أخذِ الكافرين لا يُعاجلُ المُصرّينَ بالعقوبة، وسلبُ ما في هذه الصَّنائعِ البديعة من آثارِ الرَّحمةِ[4]، أي: سمّى عدمَ التَّعجيل بالعقاب مغفرةً، على الاستعارة الأصليَّة، واشتقَّ لفظَ غفّار على التَّبعيَّة، والجامعُ تركُ العقاب، أو الغفّارُ الَّذي يغفرُ للكافرين؛ إنْ تابوا[5]، أو أنَّه يغفرُ لأوليائه ما يجتنونه ممّا لا يليقُ بجنابِهِ، ومن معاني هذه المبالغةِ أنَّ صفةَ السَّترِ على الذُّنوبِ متكرِّرةٌ منه سبحانه، يمحو ذنوبَ من يشاء عينًا وأثرًا بمغفرته[6]، وغرضُ المبالغةِ بيانُ كمالِ رحمتهِ، والتَّرغيبُ في طلبِ المغفرةِ بالعبادة والإخلاص له[7]، وفي هذا حثٌّ على الإيمانِ به، أي: آمِنوا به؛ يغفرْ لكم.

في المبالغةِ بيانٌ لكمالِ رحمته سبحانه وترغيبٌ في طلبِ المغفرة بالعبادةِ والإخلاص له

بلاغةُ القصر في جملة: ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾:

أفادَ قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ﴾ أسلوبَ القصر، بتعريف

توحُّدٌ بعزِّ هيبته وتفرُّدٌ بكمالِ رحمته

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.
(2) السعدي، تيسير الرحمن، ص: 719.
(3) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 146.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 242.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 229.
(6) الشربيني، السراج المنير: 3/ 432.
(7) المراغي، تفسير المراغي: 23/ 146.

طرفَي الإسناد؛ حيث حصرَ صفةَ العزيزِ الَّذي لا يُغلَبُ، المُمتَنِع عليه كُلُّ عَيبٍ ونَقصٍ، وصفةَ الغَفّار الَّذي يَستُرُ ذُنوبَ عِبادِه، باللّٰه سبحانه، أي: هو وحدهُ العزيزُ الغفّار[1]، والقصرُ: هو قصرُ قلبٍ؛ لأنَّه قلبَ اعتقادَ المشركين النَّقصَ باللّٰه حين أثبتوا له الشُّركاء.

نكتةُ الجمعِ بين صفتَي ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾:

اجتماعُ الخوفِ والرَّجاءِ عاملٌ رئيسٌ وراء كلِّ تحرُّكٍ نحو الكمال

في الجمعِ بين ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ و﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾؛ إيجادُ حالةٍ مِنَ الخوف والرَّجاء عند العباد، ومنهم المشركون، وهما عاملانِ رئيسانِ وراءَ كلِّ تحرُّكٍ نحو الكمال، فالجملةُ بمنزلةِ تهديدٍ وترغيبٍ للمشركين، فهو (غفّار) في أوجِ عزَّته وقدرته، وهو (قهار) في أوجِ رحمتهِ وغفرانه، فبحكمِ عزَّته وقدرته المطلقة لا يمكنُ لأيِّ مذنبٍ ومشركٍ أنْ يهربَ من قبضةِ عذابه، وبمقتضى كونهِ الغفّار، فإنَّه يسترُ عيوبَ التّائبين وذنوبَهم، ويظلِّلهم بظلِّ رحمته، فهو سبحانه مع عزَّتهِ وعظمتهِ وكبريائهِ غفّارٌ لمن عصاهُ، ثمَّ تابَ، وأنابَ إليه.

نكتةُ تقديم ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾:

في التَّقديمِ مناسبةٌ لسياقِ قاهريَّتِه سبحانه وبيانٌ لكمالِ عظمته

قدَّم البيانُ القرآنيُّ اسمَ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ على اسمِ ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾؛ لكونِه أنسبَ للسّياقِ، الذي هو بيانُ قاهريَّته وكمالُ عظمته سبحانه، بتفرُّده في خلقِ السَّمواتِ والأرضِ، وتعاقبِ اللَّيلِ والنَّهار، وتسخيرِ الشَّمسِ والقمر، فناسَبَ أنْ يُقدِّمَ اسمَ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾ الذي يدلُّ على التَّهديدِ والوعيد، وأنْ يُؤَخِّرَ اسمَ ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ الذي يدلُّ على رحمتهِ؛ تحريضًا على البدارِ بالتَّوبةِ قبل الموتِ حين يفوتُ التَّدارك، ولأنَّ لفظَ ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ جاء تتميمًا للفظِ ﴿ٱلۡعَزِيزُ﴾، فإنَّه لَمّا كان الإخبارُ عن كونِه عظيمَ القدرةِ يوجبُ الخوفَ والرَّهبة؛ كان الإخبارُ عن كونه عظيمَ المغفرةِ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 454.

يوجبُ كثرةَ الرَّحمة، وكثرةُ الرحمةِ توجبُ الرَّجاءَ والرَّغبة[1]، بما يؤذنُ باستدعائِهم إلى التَّوبةِ باتِّباع الإسلام، وكذلك في تأخيرِ اسم ﴿ٱلۡغَفَّٰرُ﴾ مراعاةٌ للفواصل القرآنيَّة كـ﴿ٱلۡقَهَّارُ﴾ و﴿كَفَّارٌ﴾، بما يُحقِّقُ إحكامًا في اللَّفظ.

وجهُ مناسبةِ ذِكر اسمَي ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾:

مع كونِ الخالقِ سبحانه عزيزًا كاملَ القدرةِ هو غفّارٌ عظيمُ الرَّحمةِ

أعقبَ البيانُ الإلهيُّ ذكرَ الأنواع الثَّلاثة من الدَّلائل الفلكيَّة، وهي: (خلقُ السَّموات والأرض، واختلافُ أحوالِ اللَّيل والنَّهار، واعتبارُ أحوالِ الكواكب لا سيَّما الشَّمس والقمر) بقوله: ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ خلقَ هذه الأجرام العظيمة وإنْ دلَّ على كون الخالقِ سبحانه عزيزًا، أي: كاملَ القدرةِ، إلّا أنَّه غفّارٌ عظيمُ الرَّحمةِ والفضلِ والإحسان[2]، فهو مع عزَّته وعظمتهِ وكبريائه غفّارٌ لمن عصاه، ثم تابَ، وأنابَ إليه[3]، ولأنَّ اللّهَ تفضَّل على خَلْقِه بهذه الآياتِ: الشَّمس والقمر واللَّيل والنَّهار، وأعطاهم مُقوِّمات حياتهم، ومع ذلك لا ينظرُ إلى ذنوبهم وتقصيرهم في حقِّه تعالى؛ لأنَّه الغفّار، ويعفو عن كثير[4].

كما أنَّه لمّا كان الأجلُ المسمّى في قوله: ﴿كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ﴾ شاملًا للقيامةِ؛ أعقبه بقوله: ﴿أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ﴾، أي: يوم القيامة، وفي هذا ترهيبٌ مع ترغيب[5]، وفي وصفِ الغفّارِ مناسبةٌ لذكرِ الأجلِ؛ لأنَّ المغفرةَ يظهرُ أثرها بعد البعثِ الَّذي يكون بعد الموتِ وانتهاءِ الأجل؛ تحريضًا على البدارِ بالتَّوبةِ قبلَ الموت حين يفوتُ التَّدارك[6].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 423.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 423.
(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 86.
(4) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 13033.
(5) النيسابوري، غرائب القرآن: 5/ 615.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 330.

❁ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

التَّكوير واللفُّ:

التَّكويرُ أخصُّ من اللَّفِّ

فهو لفٌّ مع جمعٍ على جهةِ الاستدارة

التَّكويرُ أخصُّ من اللَّفِّ، الذي هو ضدُّ النَّشر، فاللَّفُّ عامٌّ في لفِّ شيءٍ ما حولَ شيء آخرَ على أيِّ شكلٍ كان؛ إذ أصلُهُ تَلَوّي شيءٍ على شيءٍ[1]، بينما التَّكويرُ: هو تلفيفٌ على جهةِ الاستدارة، كتكويرِ العمامة[2]، وهو لفٌّ مع جمع، فتكويرُ الشَّيء لفُّه، وضمُّ بعضه إلى بعض، كما تُكوَّرُ العمامةُ، وتُلفُّ[3]، والتَّكويرُ إدارةُ الشَّيء على شيءٍ، تهيئَةً لجمعهِ عليه؛ إذ أصلُ التَّكوير يدلُّ على دَوْرٍ وتَجَمُّعٍ، وكوَّرَ العمامةَ: دوَّرَها، وكوَّر المتاع: ألقى بَعْضَهُ على بَعْضٍ، أو جمعَه، وشدَّهُ، ومن معانيه كذلك: الزِّيادة، وتَكْويرُ اللَّيْلِ عَلى النَّهارِ تَغْشيَتُهُ إيّاهُ[4]، وقد ناسبَ استعمالُ لفظِ التَّكوير في الآية لكون تكوير النَّهار واللَّيل هو لفٌّ من نوعٍ خاصٍّ، فهو لفٌّ دقيقٌ منتظمٌ؛ إذ يُديرُ هذا على ذاكَ، ويُديرُ ذاكَ على هذا، وفيه إشارةٌ إلى انتقاصِ اللَّيل والنَّهار وازديادهما.

التَّسخير، والتَّذليل:

التَّسْخيرُ سياقةٌ إلى الغرضِ المختصِّ قهرًا، والتَّذليلُ خضوعٌ وانقيادٌ بسهولةٍ ولين

التَّسْخيرُ: سياقةٌ إلى الغرضِ المختصِّ قهرًا، فالمُسَخَّرُ: هو المقيَّضُ للفعل[5]، والتَّسخيرُ: هو القَهرُ على الفِعل بِلا إرادَةٍ مِنهُ[6]، وسَخَّرَهُ: كلَّفَهُ ما لا يُريدُ، وقَهَرَهُ، وكُلُّ ما ذَلَّ، وانقادَ، أو تهيَّأ لك على ما تُريدُ؛ فقد سُخِّرَ لك، وتَسخيرُ اللهِ الأرضَ وما فيها والشَّمسَ والقمرَ والنُّجومَ لِلآدَميّينَ هو إجراؤُها على ما يوافقهم، وأنْ ينتفعوا بها مختلفَ وجوهِ الانتفاعِ مذلَّلةً لهم فضلًا منه تعالى[7]، بينما التَّذليلُ

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (لفّ)، والزبيدي، تاج العروس: (لفف).

(2) الواحدي، التفسير البسيط: 23/ 247، ورضا، تفسير المنار: 8/ 404.

(3) السمين، عمدة الحفاظ: (كور).

(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (كور).

(5) الراغب، المفردات: (سخر).

(6) الكفوي، الكليات، ص: 163.

(7) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (سخر).

مِن الذُّلِّ، ويدلُّ على الخُضوعِ والانقيادِ[1]، وأصلُه الضَّعفُ والهَوانُ والاستِكانَةُ[2]، وضِدُّ الذُّلِّ: العِزُّ والقوَّةُ، وضدُّ التَّذَلُّلِ: الصُّعوبَةُ، وذَلَّ الشَّيْءُ: سَهُلَ، ولانَ[3]، والذَّلولُ: السَّهْلُ مِن كُلِّ شَيْءٍ[4].

ولَمّا كانتِ الشَّمسُ والقمرُ أجرامًا سماويَّةً، لا يمكنُ للإنسانِ أنْ يسيطرَ عليها، أو يجعلها منقادةً إليه بسهولةٍ ولينٍ؛ ناسبَ استعمال التَّسخير دون التَّذليل؛ للدَّلالةِ على أنَّ هذه الأجرامَ مهيَّئةٌ لغرضٍ معيَّن، وهو ما يوافقُ منافعَ الإنسانِ ومصالحَهُ.

الجري، والحركة:

جريُ الشَّمسِ والقمرِ هو حركةٌ خاصَّةٌ سريعةٌ مسترسلةٌ متَّصلة

الجريُ أخصُّ مِنَ الحركة؛ إذ الحركةُ عامَّةٌ، فهي ضدُّ السُّكون، وهي انتقالُ الجسمِ مِن مكانٍ إلى مكانٍ[5]، انتقالٌ قليلٌ ضعيفٌ[6]، وأمّا الجَرْيُ؛ فهو المرُّ السَّريعُ[7]، أي: الحركةُ السَّريعة، وأصلُه: "انتقالٌ بحركةٍ خفيفةٍ سريعةٍ مسترسلةٍ متَّصلة"[8]، وقد ناسبَ هنا استعمال لفظِ الجري دون الحركة؛ لكون حركةِ الشَّمس والقمر ليستْ حركةً عامَّةً عشوائيَّةً، وإنَّما هي حركةٌ خاصَّةٌ سريعةٌ مسترسلةٌ متَّصلةٌ في زمنٍ معلومٍ ونظامٍ محدَّدٍ.

الأجل، والوقت:

الأجلُ غايةُ وقتِ انتهاءِ الشَّيءِ وحلوله، والوقتُ مقدارٌ مِنَ الزَّمن

الوقتُ مطلقٌ، والأجلُ مقيَّدٌ، فالوقت: حركةُ الفلك، وهو مقدارٌ من الزَّمن، قُدِّرَ لأمرٍ ما، طالَ أم قَصُرَ[9]، والوقتُ وقتُ الشَّيء

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (سكن).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ذلل).
(3) الزبيدي، تاج العروس: (ذلل).
(4) اللخمي، شرح الفصيح، ص: 110.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حرك).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حرك).
(7) الراغب، المفردات: (جري).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جرى).
(9) ابن منظور، لسان العرب، والمعجم الوسيط، وعمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (وقت).

قدَّره مقدِّرٌ، أو لم يقدِّرْهُ[1]، بينما الأجلُ هو غايةُ الوقت[2]، فهو الوقتُ المضروبُ لانتهاءِ الشَّيء، فأجَلُ الشَّيْءِ: مُدَّتُهُ ووَقْتُهُ الَّذي يَحِلُّ فيهِ، والأجلُ: هو وقتٌ يُحدَّدُ لانتهاءِ الشَّيء أو حلوله[3]، فأجلُ الإنسانِ: هو الوقتُ المضروب لانقضاءِ عمره، وأجلُ الدَّين: محلُّهُ، وذلك لانقضاءِ مدَّةِ الدَّين، وأجلُ الموتِ: وقتُ حلولِهِ، وذلك لانقضاءِ مدَّةِ الحياة قبلَهُ، ولا يكون الأجلُ أجلًا إلّا بالإخبارِ والتَّوقيت[4]، فمفهومُ الوقتِ أوسعُ مِن الأجل الَّذي يدلُّ على وقتِ انتهاءِ الشَّيء، ومِن هنا كان استعمالُ لفظِ الأجل في الآية أنسبَ؛ للدَّلالة على أنَّ جريَ الشَّمسِ والقمر لَمّا كان فيه تقريبُ فنائهما؛ جعلَ جريهما كأنَّه لأجلِ الأجلِ، أي: إلى وقتِ فنائهما من الحياة.

---

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 271.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل).

(3) الفيومي، المصباح المنير، وأحمد مختار عمر، معجم اللغة العربية المعاصرة: (أجل).

(4) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 273.

﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ۝٦﴾ [الزمر: 6]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

اللهُ تعالى له الغِنى المطلق عن كلِّ شيءٍ بما له من القدرة المطلقة

بعد أن دلَّل سبحانه على قدرته المطلقة بدليل مشاهد في قوله سبحانه: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ ۝٥﴾ [الزمر: 5]؛ تأسيسًا على نفيه أن يكون له ولد، فهو منزَّه عن ذلك؛ إذ لا حاجة له إليه؛ لأنَّه الغنيُّ بنفسه عن كل شيء، ساق بعد ذلك دليلًا آخر على هذه القدرة المطلقة الدالَّة على استغنائه عن الولد؛ تعليلًا لهذا النفي أيضًا بقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿نَّفْسٍ﴾: أصل (نفس) يَدُلُّ عَلى خُروجِ النَّسيمِ كَيفَ كانَ، مِن ريحٍ أو غَيرِها[2]، والمعنى المحوريُّ الذي تدور حوله كلمة (نفس) هو: لطيف يسري في فُتوق أثناء الشَّيء، فيصلحه، ويتيح له التصرُّف[3]، والنَّفَسُ: الرّيحُ الداخلُ والخارجُ في البدن من الفَمِ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 423.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفس).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نفس).

والمِنْخَر، وهو كالغِذاء للنَّفْسِ، وبانقِطاعِهِ بُطلانُها[1]، والنَّفْس في قوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُۖ﴾ [الأنعام: 93] هي الروح[2]، والروح من نفخ الرَّحمن، كما جاء في قوله سبحانه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: 29]، والمراد بالنَّفْس الواحدة نفس آدم عليه السلام؛ إذ إليه يعود كلُّ النوع.

2) ﴿زَوْجَهَا﴾: أصل (زَوج) يدلُّ عَلى مُقارنَةِ شيءٍ لِشيءٍ[3]، والمعنى المحوريُّ الذي تدور حوله مادَّة (زوج) هو: تداخُلٌ بين شيء وآخر حتى يشتبكا، ويختلطا، ويرتبطا معًا، ولا يقال للشَّيء: زَوْجٌ إلّا وهو مرتبط بآخر ارتباطًا مادّيًّا أو معنويًّا، فهي تُطلق على الفرد بهذا القيد[4]، يقال لكلِّ واحد من القرينين من الذَّكر والأنثى في الإنسان والحيوان: زَوْجٌ، كقوله تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾ [القيامة: 39]، وقوله سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍۚ﴾، وهي الذَّكر والأنثى من الأنعام، فتصير ثمانية، ويقال لكلِّ قرينين فيها وفي غيرها: زوج، كالخفِّ والنَّعل، ويقال أيضًا: لكلِّ ما يقترن بآخر مماثلًا له أو مضادًّا: زوجٌ، قال تعالى: ﴿فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣٩﴾ [القيامة: 39][5]، ويُطلق على الأنواع المتشابهة، كقوله تعالى: ﴿أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ۝٥٣﴾ [طه: 53]، أي: أنواعًا متشابهة، وقوله: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠﴾ [لقمان: 10]، والمراد بقوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، أي: حواء عليها السلام، فهي زوج آدم عليه السلام، ومنهما نشأ الإنسان، ومنهما انتشر.

3) ﴿ٱلْأَنْعَٰمِ﴾: المعنى المحوريُّ الذي تدور حوله مادَّة (نعم) يَدُلُّ على رِقَّة الشَّيء أو ليونته وخلوِّهِ من الغلَظ والخشونة[6]، وهو بهذا يدُلُّ عَلى تَرَفُّهٍ وطيب عَيْشٍ وصَلاحٍ، ومِنهُ النِّعْمَةُ: ما يُنْعِمُ اللَّهُ تعالى عَلى عبدِهِ بِهِ مِن مالٍ وعيشٍ[7]، والأنعام جمع (نَعَم)، والنَّعَمُ مختصٌّ بالإبل، وتسميتُهُ بذلك؛ لكون الإبل عندهم أعْظَمَ نِعْمةٍ، والأَنْعامُ تقال للإبل

(1) الراغب، المفردات: (نفس).
(2) الراغب، المفردات: (نفس).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زوج).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (زوج).
(5) الراغب، المفردات: (زوج).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نعم).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نعم).

والبقر والغنم، ولا يقال لها: أنعامٌ حتى يكون في جملتها الإبل[1]، وهو المراد هنا، فالأنعام هنا هي: الإبل والبقر والضَّأن والمعز[2].

4) ﴿بُطُونِ﴾: المعنى المحوريُّ الذي تدور حوله كلمة (بطن): الجوف الداخلي للشَّيء؛ إذ يَخْفى فيه ما يدخل إليه[3]، والبَطْنُ: خِلافُ الظَّهْرِ، وباطِنُ الأمرِ: دَخْلَتُهُ، خِلافُ ظاهِرِه، ومنه قَوْلُهُم لدُخَلاءِ الرَّجُلِ الَّذينَ يَبْطُنونَ أمرَهُ: هُم بِطانَتُهُ، قالَ اللَّه تَعالَى: ﴿لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ﴾ [آل عمران: 118][4]، والبَطْن الجارحة، وجمعه بُطون[5]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ [النجم: 32]، وقوله سبحانه: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ البطون فيها كناية عن أرحام الأمهات؛ لأنَّها مكان استقرار الأجنَّة.

5) ﴿ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾: يدور المعنى المحوريُّ للفظة (الظُّلْمَة) حول: حجب ما ينبغي، أو ما يُسْتَحق وجوده أو كماله، أي: منعه أو انتقاصه، فالظَّلام عدمُ النّورِ، والظُّلْمُ عَدَمُ العدلِ[6]، وجمعُ الظُّلْمةِ: ظُلُماتٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ﴾ [النور: 40]، وقوله: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾ [النور: 40][7]، والظُّلمات الثلاث هي: المشيمة والرحم والبطن[8].

6) ﴿ٱلْمُلْكُ﴾: أصل (ملك) يَدُلُّ عَلَى قوَّةٍ في الشَّيءِ وصِحَّةٍ، يُقالُ: أملَكَ عَجينَهُ: قَوَّى عَجْنَهُ، وشَدَّهُ، ومَلَّكْتُ الشَّيءَ: قَوَّيْتُهُ[9]، والمِلْكُ بكسر الميم اسمٌ مِنْهُ، والفاعِلُ مالِكٌ، والجَمعُ مُلّاكٌ، مِثْلُ كافِرٍ وكُفّارٍ... ومَلَكَ على النّاسِ: أمرَهُم؛ إذا تَوَلَّى السَّلْطَنَةَ، فهو مَلِكٌ بِكَسْرِ اللّامِ، والجَمعُ مُلوكٌ، والاسمُ المُلْكُ بِضَمِّ الميم[10]، و(المَلِك) اسم من الأسماء الحسنى للّه ﷻ، ومعنى ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾، أي: السُّلطان المطلق في الدُّنيا والآخرةِ، وليس لغيره شركةٌ في ذلك بوجهٍ[11].

(1) الراغب، المفردات: (نعم).
(2) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 170.
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (بطن).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بطن).
(5) الراغب، المفردات: (بطن).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظلم).
(7) الراغب، المفردات: (ظلم).
(8) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 520.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ملك).
(10) الفيومي، المصباح المنير: (ملك).
(11) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 243.

7) ﴿تُصْرَفُونَ﴾: أصل (صرف) يَدُلُّ على رَجْعِ الشَّيءِ، أو تحوُّله، ومِن ذَلِكَ صَرَفْتُ القَومَ صَرْفًا، وانصَرَفوا؛ إذا رَجَعْتَهُم، فَرَجَعوا[1]، والصَّرْفُ أيضًا: ردُّ الشَّيء من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره، يقال: صَرَفْتُه، فانصَرَفَ، قال تعالى: ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: 152][2]، أي: حولكم عنهم، والصِّرْفُ بِالكَسْرِ الشَّرابُ الَّذي لم يُمزَجْ، ويُقالُ لِكُلِّ خالِصٍ مِن شَوائِبِ الكَدَرِ: صِرْفٌ؛ لأنَّهُ صُرِفَ عَنهُ الخَلْطُ[3]، ومعنى ﴿فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾، أي: فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره؟[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الخالقُ سبحانه يخلق تفضُّلًا وإنعامًا لا أنَّه يحتاج إلى مَن خلق

من دلائل قدرته واستغنائه سبحانه عن الولد والناصر والمعين أن خلَقَ الناس من نفس واحدة، هو آدم أبو البشر، وخلق من هذه النَّفس زوجها حواء، ويمكن أن يكون المعنى: خلق ذكرَكم، وأنثاكم من نوعٍ واحدٍ.

فلمّا ذكرَ خلْقَ أبينا وأُمِّنا؛ ذكر ابتداءَ خَلْقِنا، فقال: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾، أي: يخلقكم - أيُّها الناس، ويا مَن تنسبون له الولد، وتقلِّلون من شأن قدرته - في بطون أمَّهاتكم طورًا من بعد طور خلقًا عظيمًا لا يُكْتَنَه كُنْهُه، ولا تُعْرَف خفاياه من خلق عظيم عجيب بديع تعرفون بعض أطواره، في ظلمات ثلاث: هي ظلمة البطن والرحم والمشيمة، أو هي الأغشية الدَّقيقة الثَّلاثة التي تحيط بالجنين، فذلكم المنعم بهذه النِّعم هو الله مربّيكم ومالك أمركم، له لا لغيره الملك الخالص، فكيف يعدلون عن عبادته إلى عبادة غيره؟[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صرف).
(2) الراغب، المفردات: (صرف).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (صرف).
(4) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 170.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 719، ولجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 684.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

الاســتــدلالُ بطلاقة القدرة في خلْقِ الإنسان والأنـعـام على ألوهيَّته

قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ هو شروع في طرح استدلال جديد على ألوهيَّته ووحدانيَّته وعلى قدرته سبحانه المطلقة التي لا يحتاج فيها إلى أحد من خلقه، وذلك أنَّه خلقكم - يا مَن تنسبون له الولد، ويا كل الناس - ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾؛ ولذا فُصلت الجملة عن سابقتها على أنَّها استئناف ابتدائي تكريرًا للاستدلال[1]، فترك عطفه على ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الزمر: 5]؛ للإيذان باستقلاله في الدَّلالة في عدم احتياجه ﷻ للولد[2].

عود الضَّمير في ﴿خَلَقَكُم﴾:

كـثرةُ المعاني وصلاحيَّة الضَّمير لكلِّ هذه المعاني

الخطابُ في قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ لكلِّ مَن يصلح له، أي: هو لعموم الناس، وهو كذلك خطابٌ لمن زعموا له الولد - تعالى عن ذلك علوًّا كبيرًا - كما يُشعر به قوله سلفًا: ﴿لَّوۡ أَرَادَ ٱللَّهُ أَن يَتَّخِذَ وَلَدٗا لَّٱصۡطَفَىٰ مِمَّا يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ سُبۡحَٰنَهُۥۖ هُوَ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ٤﴾ [الزمر: 4]؛ إذ دلَّل على استغنائه عن الولد بدليلين: أحدهما علويٌّ مشاهَد بالنظر، وهو قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ كُلّٞ يَجۡرِي لِأَجَلٖ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفَّٰرُ ٥﴾ [الزمر: 5]، والآخر سُفليٌّ مدرك ومعاش، وهو قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقٗا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ فِي ظُلُمَٰتٖ ثَلَٰثٖۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 331.

(2) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 26/ 423، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 230.

نكتةُ إسناد الخلق إلى ضمير العظمة الغائب:

معرفةُ الناس للفاعل الحقيقيّ بلا منازعة حتى من المشركين

ضميرُ الفاعل في قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾ يعود على اللّه ﷻ، وهو إسناد حقيقيٌّ؛ إذ لا منازع له في هذا من الناس جميعًا، حتى من قِبَل المشركين أنفسهم الَّذين اعترفوا له سبحانه بالخالقيَّة، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [العنكبوت: 61]، وقوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: 87].

بلاغةُ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في ﴿خَلَقَكُم﴾:

الخطابُ أقوى في محاجَّة المعارض وأدعى ليقظته وانتباهه

في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [الزمر: 5] التفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، وسرُّ هذا الالتفات أنَّ الخطاب أقوى في المحاجَّة، وألْفَتُ لحصول اليقظة والانتباه، ثم هو أيضًا أشدُّ نكاية للمعارِض من المخاطَبين، وذلك مبنيٌّ على تصوُّر حال المشركين الذين ادعوا للّه الشَّريك والولد، وقيل: نكتتُهُ أنَّه لمّا أخبر اللّه رسوله ﷺ عن المشركين، بطريق الغيبة؛ أقبل على خطابهم؛ ليجمع في توجيه الاستدلال إليهم بين طريقَي التَّعريض والتَّصريح[1].

بلاغةُ الإدماج في قوله: ﴿خَلَقَكُم﴾:

الجمعُ بين أكثر من دليل على شيءٍ واحدٍ

في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ فنُّ الإدماج، فقد أدمج في الاستدلال بخَلْقهم على وحدانيَّته سبحانه وقدرته المطلقة "الاستدلالَ بخلْقِ أصلهم، وهو ﴿نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ تشعَّب منها عددٌ عظيم - وهي نفس آدم عليه السلام - وبخلق زوج آدم؛ ليقومَ ناموس التَّناسل"[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 331.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 331.

سرُّ التَّعبير بقوله: ﴿مِّن﴾:

الدَّلالة بابتداء الخلق ومعرفة أصله على الألوهيَّة

﴿مِّن﴾ في قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ ابتدائيَّة، والمعنى: ابتدأ خلقكم ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾، وهي نفس آدم عليه السلام، فكلُّ الناس يعودون لأصل واحدٍ، وهو آدم على السَّواء بلا تمايز، وفي ذلك دلالةٌ بابتداء الخلق ومعرفة أصله على استحقاق اللّٰه تعالى للألوهيَّة والوحدانيَّة.

نكتة تنكير النَّفس وبيان المراد بها:

تفخيمُ هذه النَّفس وتعظيمها

نكَّر النَّفس الواحدة، فقال: ﴿مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾ تفخيمًا وتعظيمًا لها؛ لكونها النَّفس التي خلقها اللّٰه بيديه، ونفخ فيها من روحه، وأمر الملائكة بالسُّجود لها، وجعلها خليفته في الأرض، وسَخَّرَ لها مخلوقاته، وهي نفس آدم عليه السلام، ووصفها بكونها واحدة لتأسيس مبدأ الإخوَّة الإنسانيَّة بين أبناء هذه النَّفس الواحدة جميعًا، فإنَّ البشر مهما اختلفت ألوانُهم وبيئاتُهم وألسنتهم، فإنَّ مرجعهم جميعًا إلى هذه النَّفس الواحدة، فكلُّهم لآدم وآدم من تراب، فلا يستعلينَّ بعضهم على بعض؛ وإن تمايز بعضهم على بعض في أسباب الدُّنيا بالغنى والسُّلطان، وكذا في أسباب الدين بالإيمان والتَّقوى، لكنَّهم جميعًا في أصل الخِلقة سواء.

فائدةُ وصف النَّفس بقوله: ﴿وَٰحِدَةٖ﴾:

مَنْعُ تَعالي بعضِ الناس على بعض لتساويهم في الإنسانيَّة

وصْفُ النَّفس بكونها واحدةً؛ لتأسيس مبدأ الإخوة الإنسانيَّة بين أبناء هذه النَّفس الواحدة جميعًا، وكذلك في وصف النَّفس بواحدة إدماجٌ بالجمع بين العِبرة والموعظة؛ لأنَّ كونها واحدة أدعى للاعتبار؛ إذ يَنْسَلُّ من النَّفس الواحدة أبناء كثيرون حتى ربَّما صارت النَّفس الواحدة قبيلةً أو أمَّة، ففي هذا الوصف تذكيرٌ بهذه الحالة العجيبة الدالَّة على عظم القدرة وسَعة العلم حيث بثَّ من نفس واحدة رجالًا كثيرًا ونساء[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 211.

بلاغةُ التعبير بحرف ﴿ثُمَّ﴾:

الـدلالـة بكل أنـواع التراخي في طريقة خلق كـلٍّ منهما على وحدانيَّة الله تعالى

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ على بابها من العطف والدَّلالة على التَّرتيب مع التَّراخي، لكنَّه التَّرتيب مع التَّراخي بكلِّ أنواعه - وهذا من جمال القرآن وبلاغته - **الأوَّل:** أن يكون الترتيب مع التراخي في الرُّتبة؛ إذ بين طريقة خلق كلٍّ منهما ما يدلُّ على طلاقة القدرة، مع أنَّهما من جنس واحد، وذلك لكونه قد سيق مساق الاستدلال على وحدانيَّة الله تعالى وإثبات قدرته المطلقة التي يستغني بها عن الشَّريك والولد، فالعطفُ هنا من باب عطف الجمل؛ إذ عطف ﴿جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ على جملة ﴿خَلَقَكُم﴾، **الثاني**: أن يكون التَّرتيب مع التراخي على أصله في الزَّمان، وذلك أنَّه يُرْوى أنَّه تعالى أخرجَنا من ظهرِ آدمَ كالذَّرِّ، ثم خَلَقَ حوّاءَ بعد ذلك بزمانٍ، **الثالث**: أن يكون التَّرتيب مع التَّراخي على أصله في الزَّمان أيضًا، ولكن لِمَدْرِكٍ آخرَ: وهو أن يُعْطَفَ بها ما بعدها على ما فُهِم من الصِّفة في قولِه: ﴿وَٰحِدَةٍ﴾؛ إذ التقدير: من نفسٍ توحَّدَتْ، أي: انفرَدَتْ، ثم جَعَلَ منها زَوْجَها، يعني: شفعها اللّه بزوجٍ، فصار مع زوجه اثنين، وزالت عنها صفة الانفراد، **الرابع**: أن يكونَ مع التَّراخي في الأخبار لا في الزَّمان الوجوديِّ، كأنَّه قيل: كان مِنْ أمرها قبل ذلك أن جعل منها زوجَها. **الخامس**: أن يكون الترتيب مع التراخي في الأحوالِ والرُّتَبِ.

تعدد الآيات من دلائل الوحدانية

قال الزمخشري: "فإن قلت: وما وجهُ قولِه: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾، وما يُعطيه من التَّراخي؟ قلت: هما آيتان من جملةِ الآياتِ التي عَدَّدها دالًّا على وحدانيَّته وقُدْرَته، بتشعيب هذا الخلقِ الفائتِ للحَصْرِ من نفسِ آدمَ عليه السلام وخَلْقِ حواء من قُصَيْراه، إلّا أنَّ إحداهما جعلها اللّهُ عادةً مستمرَّةً، والأخرى لم تَجْرِ بها العادةُ، ولم تُخْلَقْ أنثى غيرُ حوّاءَ من قُصيرى رجلٍ، فكانَتْ أدخلَ في كَوْنها آيةً، وأجْلَبَ

لعَجَبِ السّامعِ، فعطفَها بـ ﴿ثُمَّ﴾ على الآية الأولى؛ للدَّلالةِ على مباينَتِها فضلًا ومزيَّةً، وتراخيها عنها فيما يرجِعُ إلى زيادةِ كونِها آيةً، فهي من التَّراخي في الحالِ والمنزلةِ لا من التَّراخي في الوجودِ[1].

نكتةُ العدول عن لفظ الخَلق إلى الجعل في ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا﴾:

الدَّلالـة على الاخـتـلاف في الـخـلـق بين آدم وحـوّاء، ولـلإشـارة إلى الـغـرض من خَلْقها له

الفعل ﴿جَعَلَ﴾ يدُلُّ على أحد معنيين في الغالب: إمّا أن تكونَ بمعنى: خلق، أو تكون بمعنى: صيَّر، وغيَّرَ، وهي هنا بالمعنى الأول، أي: بمعنى (خلق)، وقيل: إنَّها هنا بالمعنى الثاني، أي: بمعنى: (صيَّر وغَيَّر)، وعلى كلا المعنيين فنكتةُ العدول إلى التَّعبير بها هنا دون التَّعبير بـ (خلق)؛ لأنَّ خَلْقَ حوّاء إنَّما كان من ضِلعِ آدم ﷺ على المشهور، فهو على هذا إنشاء شيءٍ من شيء، فكأنَّه في ضمنه[2]، ولذا عبَّر بالجعل هنا بدل الخلق، وقيل: عبَّر في جانب الأنثى بفعل جعل؛ لأنَّ المقصود من خَلْقِ الأنثى - على الصّورة التي خلقها اللّه عليها - جَعْلُها زوجًا للذَّكر، وليس مجرَّد الإخبار عن كون اللّه خلقها؛ لأنَّ ذلك قد عُلِم من قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾[3]، وللدَّلالةِ عَلى أنَّ خَلْقَ حَوّاءَ مِن ضِلعِ آدمَ أُدْخِل في كونِهِ آيةً باهِرَةً دالَّةً على كمالِ القُدْرَةِ؛ لأنَّ خَلْقَ آدَمَ كان على عادَةِ اللّه المُسْتَمِرَّةِ في خَلْقِهِ الأشياءَ ابتداءً، وخَلْقُها عَلى الصِّفَةِ المَذكورَةِ لم تَجْرِ بِهِ عادةٌ، لِكونِهِ لم يَخْلُقْ سُبحانَهُ أُنثى مِن ضِلعِ رجلٍ غيرَها[4].

نكتةُ التَّعبير بـ (مِنْ):

الـجـمـعُ بـين الـبـيـان والـتَّـبـعـيـض بكلمة واحدة

(مِنْ) في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ تبعيضيَّة على القول المشهور في خلق حوّاء، وأنَّها خُلقت من ضِلعِ آدم ﷺ، أو أنَّها لبيان الجنس، أي: وخلق لها من جنسها زوجها.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 113، 114، والسمين، الدر المصون: 9/ 409، 410.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 479.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 9/ 211.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 517.

نكتةُ إيثار ضمير المؤنَّث على المذكر:

الـدَّلالـةُ على الضَّعف باعتبار النَّفس

أعاد الضَّمير على النَّفس مؤنَّثًا ﴿مِنۡهَا﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ مع جواز إعادته مذكَّرًا؛ إذ التَّأنيث في النَّفس مجازي، وذلك للإشارة إلى ضعف تلك النَّفس المخلوقة في ذاتها وأمام نفسها، فالإنسان عاجز ضعيف؛ وإن تناهت قوَّتُه، وبلغت الذروة قدرته، لسبق قوله تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾ [النساء: 28]، بل قيل: إنَّه أضعف الموجودات[1].

غرضُ تقديم شبه الجملة على المفعول:

الاهـتـمـامُ والاعتناء بالمقدَّم والتشويق إلى المؤخَّر

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ الجعلُ إمّا أنَّه بمعنى التَّصيير، فقوله تعالى: ﴿زَوۡجَهَا﴾ مفعولُه الأوَّلُ، والثّاني: هو الظَّرفُ المقدَّم، وإمّا بمعنى الإنشاءِ، والظَّرفُ متعلِّقٌ بـ ﴿جَعَلَ﴾ قُدِّم على المفعول الصَّريح من باب الاعتناء بالمقدَّم، والتَّشويق إلى المؤخَّر[2].

بلاغةُ تذكيرِ الزَّوجِ في قولِهِ تعالى: ﴿زَوۡجَهَا﴾:

أقـوى ما تكون المرأة حين تكون زوجًا

خُلِقَ الإنسان ضعيفًا، والمرأة أضعف نوعيه، ولا يقوى ذلك الضعف الذي تتَّصف به المرأة إلّا برجل تَتَقَوَّى بسببه من أب أو أخ أو زوج أو ابن، ومن أجل ذلك فإنَّها تُنۡسَبُ إلى مصدر قوَّتها، فيقال: امرأةُ فلانٍ، أو ابنته، أو أخته، أو تُكَنَّى بابنها، فيقال: أمُّ فلان، ولا تكاد تُذۡكَرُ باسمها إلّا لحكمة كمريم عليها السلام، وأعظم قوَّة تستمدُّها المرأة من هؤلاء إنَّما تكون من الزَّوج، لأجل ذلك لمّا ذُكِرت حوّاء في الآية بوصف الزَّوجيَّة؛ قال اللّه تعالى: ﴿جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾، ولم يقل: زوجتها؛ لما في التَّذكير من معنى القوَّة ما فيه، وقد استمدَّت هذه القوَّة من إضافتها إلى زوجها.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 2/ 222، والبقاعي، نظم الدرر: 22/ 59.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/ 303.

نكتةُ إضافةِ الزَّوجِ إلى ضمير النَّفس:

قوَّةُ العلاقة القدَرية الوطيدة بين الذَّكر والأنثى

في إضافة الزَّوجِ إلى ضمير النَّفس في قوله: ﴿زَوۡجَهَا﴾ إشارةٌ إلى العلاقة القدَريَّة الوطيدة بين الأنثى والذَّكر الَّذي هو زوجها، لا سيَّما أنَّها خُلِقَت من ضلع أعوج، وأعوج ما في الضِّلع أعلاه، وفي هذه الإضافة ما يشعر بأنَّ كلًّا منهما خُلقَ للآخر، وأنَّه لا يستغني أحدهما عن الآخر.

بلاغةُ العطف بالواو في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم﴾:

الجمعُ بين دلائل قدرة اللهِ في أنواع المخلوقات للاستدلال بذلك على الألوهيَّة والوحدانيَّة

لمّا بيَّن اللّه تعالى طلاقةَ قدرتِه، وإبداعَه في خَلْقِ آدم من العدم - والَّذي هو أصل الإنسان - وخَلْقِ زوجه منه، مشيرًا إلى تناسُل سائر الخلق منهما، عطف عليه ما يدلُّ على طلاقةِ قدرته وإبداعِه في خلْقِ جِنسٍ آخر من المخلوقات السُّفليَّة، وهو الأنعام، للاستدلال بطلاقة قدرته تعالى في خَلْقِ كلٍّ من الجنسين على استحقاقه تعالى وحده الألوهيَّة والوحدانيَّة، وعدم احتياجه للولد.

بلاغةُ التَّعبير باللام في قوله: ﴿لَكُم﴾:

اللّام في قوله: ﴿لَكُم﴾ هي لام التَّعليل والأجْل، أي: أنزل لأجلكم أنتم دون غيركم، وفي ذلك من الدَّلالة على عِظَم الامتنان والإنعام ما فيه.

نكتةُ تعدية فعل الإنزال باللّام دون (على):

الدَّلالة على تسخير الأنعام للإنسان واستعلائه على سائر المخلوقات

إنَّما قال اللّه تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾، ولم يقل: وأنزل عليكم؛ للدَّلالة على أمور، منها: تسخير اللّه الأنعام للإنسان، فإنَّها مخلوقة لكم، ومن أجلكم وحدكم، وذلك للانتفاع بها دون غيركم، وأمّا استفادة غير الإنسان من الأنعام؛ فهو اعتداء على حقِّ الإنسان والأنعام غالبًا، ومنها: الإشارة إلى استعلاء الإنسان على سائر المخلوقات، بأن اختصَّه بخلق الأنعام من أجله، وذَلَّلَها له، ومنها: الإشارة إلى الإنعام على الإنسان بالأنعام، بل هي من أعظم النِّعَم.

تخصيصُ الإنسانِ وحده بمنافع الأنعام

بلاغةُ تقديم شبه الجملة على المفعول الصَّريح في قوله: ﴿لَكُم﴾:

من أغراض تقديم ما حقُّه التَّأخير الحصر والتَّخصيص، أي: خلقها، وأوجدها، وأنزلها لكم وحدكم دون غيركم، وخصَّكم بها مِن دون سائر المخلوقات، ويمكن أن يكونَ غرض التَّقديم هو تعجيل المسرَّة.

قدَّم شبه الجملة اعتناء بالمقدَّم وتشويقًا إلى المؤخَّر

نكتةُ تقديم شبه الجملة على المفعولِ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

قدَّم شبه الجملة على المفعول الصريح في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ من باب الاعتناء بما قُدِّم، والتَّشويق إلى ما أُخِّر، فإنَّ كونَ الإنزالِ لمنافعهم، وكونَه من الجهةِ العاليةِ من الأمورِ المهمَّة المشوِّقة إلى ما أُنزل - لا محالةَ[1] - كأنَّه لما قال سبحانه: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾؛ اشرأبَّت أعناق المخاطَبين، وطمعت نفوسهم في معرفة ما امتنَّ اللّه به عليهم من الأنعام، وما خصَّهم به منها وحدهم دون غيرهم، فكانت ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾.

إدماجُ الامتنان بفوائد الأنعام في الاستدلال بذلك على الوحدانيَّة والقدرة

بلاغةُ الإدماج في فعل الإنزال:

في قوله: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾ فنُّ الإدماج؛ إذ أدمج في هذا الاستدلال الامتنانَ بإنزال الأنعام، وما خلقه فيها من منافع وفوائد لا يستغني عنها الإنسان؛ لأنَّ بها قوام حياته؛ إذ يأكل لحومها، ويشرب ألبانها، كما أنَّه يحصل بواسطتها قضاء مصالحه من التَّنقُّل والرُّكوب، وكذا بناء بيوت الشَّعر منها، والاستدفاء من برد الشِّتاء بغزل أصوافها وأوبارها، وغير ذلك من المنافع والفوائد في غرض الاستدلال بإنزالها على الوحدانيَّة والقدرة، وقد ذكر اللّه تعالى كثيرًا من هذه الفوائد في مواضع أخرى من القرآن، ومنها ما في سورة النحل في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۗ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ ٥ وَلَكُمۡ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 243.

تَسۡرَحُونَ ٦ وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ إِنَّ رَبَّكُمۡ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ٧﴾ [النحل: 5 - 7]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتٗا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ وَمِنۡ أَصۡوَافِهَا وَأَوۡبَارِهَا وَأَشۡعَارِهَآ أَثَٰثٗا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ٨٠﴾ [النحل: 80].

نكتةُ التعبير بـ ﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

بيانُ الامتنان بالأنعام

﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿مِّنَ ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ الأصل فيها أنَّها للابتداء، أي: بدأ الإنزال بالأنعام، ويمكن أن تكون للبيان، أي: أنزل لكم الأنعام نعمة منه تعالى وتفضُّلًا وامتنانًا[1].

بلاغةُ التَّعبير بـ (ال) في ﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾:

شمول معنى (ال) لكل من الجنس والاستغراق والنوع والعهد

(ال) في﴿ٱلۡأَنۡعَٰمِ﴾ يمكن أن تكون للجنس، أو للاستغراق، أو للعهد، أي: وأنزل لكم أنتم وحدكم من جنس الأنعام، أو: من أنواع الأنعام، أو: من سائر الأنعام، أو: من الأنعام المعروفة عندكم، المعهودة لكم ﴿ثَمَٰنِيَةَ أَزۡوَٰجٖۚ﴾.

سرُّ التَّعبير بصيغة ﴿أَزۡوَٰجٖۚ﴾:

الدَّلالة على قلَّة هذه الأنواع من الأنعام

صيغة الجمع (أفعال) من الجموع الَّتي تدلُّ على القلَّة، وبهذه الصيغة يشير التَّعبير القرآنيُّ إلى قلَّة هذه الأزواج، فهي ثمانية أزواج من أربعة أنواع فقط، لكنَّها من جهة تتكاثر بسرعة حتى تعظم، على ما يأتي بيانه في بلاغة تنكير الأزواج.

بلاغةُ تذكير الأزواج:

الأزواج جمع زوج، والزوج مذكَّر، ونكتة التَّعبير بهذا اللَّفظ الدَّلالة على أنَّ هذه الأنواع من الأنعام تتكاثر بسرعة، على تفاوت فيما بينها في سرعة هذا التكاثر، فتقوى في ذاتها بكثرتها، وتعظم

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 481.

الدَّلالة على القوَّة الذاتيَّة في الأنعام والقوَّة الناشئة عن كثرتها وعِظَمِها

في عين صاحبها، وعين كلِّ مَن رآها، ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ۝٦﴾ [النحل: 6]، ويترتَّب على ذلك قوَّة صاحبها بكثرتها وعِظَمِها، وذلك مصدر من مصادر القوَّة الاقتصاديَّة، ثمَّ إنَّ هذه الأنعام قويَّة في ذاتها، على تفاوت فيما بينها في تلك القوَّة، ثم تزداد قوَّتها بكثرتها، وللإشارة إلى أنَّ كلًّا من الزَّوجين يقوى بصاحبه؛ إذ يكون كلٌّ منهما سندًا للآخر، مؤنسًا له، معتنيًا به، حتى في الأنعام.

نكتة تنكير ﴿أَزْوَٰجٍ﴾:

التَّنويع والتَّكثير والتَّعظيم

ونكتة تنكير ﴿أَزْوَٰجٍ﴾ الدَّلالة على التَّنويع في الأنعام، والتَّنويع في نوعي كلٍّ منهما من الذَّكر والأنثى، وبذلك تشير إلى أنواع الأنعام الأربعة من جهة (الإبل والبقر والضَّأن والماعز)، وتشير كذلك إلى نَوعَي كلِّ صنف منها من جهة أخرى، وهما الذَّكر والأنثى، ويدلُّ التَّنكير أيضًا على التَّكثير والتَّعظيم، فإنَّ هذه الأنواع من الأنعام تتكاثر بسرعة، على تفاوت فيما بينها في سرعة هذا التَّكاثر، فتعظم في عين صاحبها، وعين كلِّ مَن رآها، على ما سبق بيانه.

نكتةُ فصل قوله: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾:

الاتِّصال والاتِّحاد والتَّرابط في المعنى بين الجملتين، فالثانية بيان وتفصيل للأولى

نكتة فَصْلِ جملة: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ﴾ عن سابقتها هو ما بين هاتين الجملتين من كمال الاتِّصال والاتِّحاد والتَّرابط في المعنى بين الجملتين، مع زيادة بيان وتفصيل في الجملة الثانية؛ لأنَّ هذه الجملة بدلٌ من قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾(1)، ولأجل هذا الاتِّصال والاتِّحاد والتَّرابط جعلها البعض مستأنفة(2)؛ لبيان ما أُجْمِل في الجملة الأولى وتفصيله، أي: لمّا كان تكوينهم في تطويرهم عجبًا؛ استأنف مُبَيِّنًا بالاستئناف ما أجمل في قوله تعالى: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾(3).

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 333.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 243.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 457.

سرُّ تأخير جملة: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾:

الإشارة إلى أنَّ الأنعام تشبه الإنسان في كثير من أحوال الخلق وأطواره

إنَّما جاءت جملة: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ متأخِّرة بعد ذكر إنزال الأنعام، ولم تأتِ بعد ذكر خلق آدم وحواء مباشرة؛ للإشارة إلى أنَّ الأنعام تشبه الإنسان في كثير من أحوال الخلق وأطواره، كخَلْقِه من نطفة، وخلقِه في بطن أمِّه، وفي طريقة ولادته، وغير ذلك، أي: يقدر إيجادكم أنتم والأنعام على ما أنتم عليه من أخلاط العناصر[1] في بطون أمَّهاتكم.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع في ﴿يَخۡلُقُكُمۡ﴾:

إفادة التجدُّد والاستمرار، واستحضار الصّورة العجيبة في تكوين الخلق وتطوُّره

التَّعبير بصيغة المضارع في قوله: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ﴾؛ لإفادة التَّجدُّد والتَّدَرُّج في الخلق مع تكرار ذلك واستمراره، واستحضار صورة هذا التطوُّر العجيب[2] للخلق، كما فصَّلته سورة (المؤمنون) في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 12 - 14]، وكذا بيَّنه النبي ﷺ في قوله: (إنَّ أحدكم يُجمع خلْقُه في بطن أمِّه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث اللّه ملكًا، فيُؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله، وشقيٌّ أو سعيد، ثم ينفخ فيه الرّوح)[3].

نكتةُ إسناد الفعل إلى ضمير الفاعل المستتر:

ضميرُ الفاعل في قوله: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ﴾ هو للّه ﷻ، وهو إسناد حقيقيٌّ، لا منازعة لأحد فيه من الناس جميعًا، حتى من قِبَل الكفار والملحدين.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 457.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 231، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 333.

(3) صحيح البخاري، حديث رقم: (3208).

الاستدلالُ بتطوُّر خلق الإنسان على عظيم قدرة الله وطلاقتها

نكتةُ جعل ضمير المفعول للمخاطَبين في ﴿يَخۡلُقُكُمۡ﴾:

ضميرُ المخاطَبين هنا مراد به عموم الناس، أو مراد به عمومُ كلِّ من يصلح له الخطاب، أو: هو خاصٌّ[1] بمَن اهتمَّ السياق بمخاطَبتهم ومحاجَّتهم، وهم المشركون، وعلى كلِّ هذه الأقوال فهو استدلالٌ جديد مستقلٌّ عن سوابقه، وهو الاستدلال بتطوُّر خلق الإنسان على عظيم قدرة اللّه وحكمته ودقائق صنعه[2] وإبداعه في خلقه، الدال على انفرادهِ بالألوهيَّة، وعدم احتياجه للولد.

الدلالةُ على الإحاطة والتَّمكُّن

دلالة ذِكر الظَّرفيَّة ﴿فِي﴾:

إنَّما جاءت ﴿فِي﴾ الدالَّة على الظرفيَّة المكانية في قوله: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾؛ للدَّلالة على إحاطة البطن لأطوار خلق الإنسان العجيبة وتمكُّنها منه، أي: إنَّ بطونَ الأمَّهات محيطة بهذا المخلوق العجيب منذ بداية خلقه، ومتمكِّنة منه، بحيث تحافظ عليه، فلا يصيبه أذًى أو ضرر، وهي مِن جانب آخر جاءت لإفادة التصوير، فنُصَّ عليها لما فيها من تصويرٍ لحالة التخلُّق الواردة في الآية ليُتأمَّل ذلك، ومن فوائد هذا التَّنصيص كذلك الدَّلالةُ على أنَّ المراد في الآية هو الخلق الذي بدأ مع نسل آدم عليه السلام، وليس المراد الخلق الأول للإنسان الأول، فإنَّه كان من طين بالأمر (كن)، ويشرح الفرق بين الخَلْقين قوله سبحانه: ﴿وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ﴾ [السجدة: 7 - 9]، ثم إنَّه لم يكن قبل آدم عليه السلام بطنُ امرأة حتى يُخْلَق هو فيها.

بلاغةُ التَّعبير بالبطون في قوله تعالى: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾:

عَبَّر القرآن بالبطون في قوله تعالى: ﴿فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾؛

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 231، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 333.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 333.

الـدَّلالــة على خـفـاء الـخـلـق واسـتـتـاره مع عِظَمِه وإبداعه

للدَّلالة على خفاء الخلق واستتاره مع عِظَمِه وإبداعه؛ إذ الباطن هو الخفيُّ المستتر، وهو عكس الظاهر، فكأنَّه قال: يخلقكم في مكان خفيٍّ مستتر مظلم، مع كون هذا الخَلقِ في قمَّة الإبداع، لا يستطيع أكثركم رؤية ما فيه، فضلًا عن خلقِ أقلِّ شيءٍ من مثله؛ إذ إنَّ خفايا هذا الخلق وخباياه داخل البطنِ لا تصل إليه يدُ مخلوق، ولم يَدَّعِ أحدٌ فعل مثله[1].

فائدةُ ذِكر البطون والأمَّهات بصيغة الجمع:

الإشـــارةُ إلى عـموم ذلك في كلِّ الناس

إنَّما جاء لفظ البطون والأمَّهات جمعًا؛ ليوافق جمع المخاطَبين في قوله تعالى: ﴿يَخۡلُقُكُمۡ﴾، ومعروف أنَّ مقابلةَ الجمع بالجمع تُنْتِج القسمة آحادًا، فكأنَّه قال: يُخلق كلُّ واحد منكم في بطن أمِّه، وهذا الخلق والإبداع سنة مطردة، لا يَشِذُّ عنها واحد منكم إلّا على سبيل يريدها اللّه تعالى أعجب في القدرة من هذا الخلق المُطَّرِد كخلق آدم عليه السلام وحوّاء وعيسى عليه السلام.

نكتةُ إضافة لفظ الأمَّهات إلى ضميرهم:

الـحـــثُّ على التَّفكُّر في الخالق الذي يرعاهم في مراحل خلقهم

إضافةُ لفظ الأمَّهات إلى ضمير المخاطَبين هي إضافة تخصيص، أي: يخلقكم في بطون أمَّهاتكم أنتم، وهي إضافة حقيقيَّة، وفيها من الدَّلائل حَثُّ هؤلاء المخاطَبين على التَّفكُّر في أطوار تخلُّقهم وهم أجنَّة في بطون أمَّهاتهم، ومن الَّذي كان يرعاهم في هذا العالم المظلم حتى خروجهم إلى الحياة.

نكتةُ التَّعبير بالمفعول المطلق ﴿خَلۡقٗا﴾:

التَّعجيبُ من الإبداع في الخلق

قوله تعالى: ﴿خَلۡقٗا﴾ مفعول مطلق مُبَيِّنٌ لحال الخلق عمومًا، ثم دالٌّ على ما بين الخَلقين من الاختلاف الشَّديد في الخلق والإبداع: الأوَّل له أطواره المعروفة، المنتهية بالعظام التي كساها اللّه تعالى باللَّحم، والدّالُّ على طلاقة القدرة، والثاني: له أسراره المكنونة،

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 457.

بما فيها من نفخ الرّوح، الَّتي هي من أمرِ الله، وهذا الخلق أعجبُ مِن الخلق الأوَّل في الدَّلالة على طلاقة القدرةِ والقهرِ والإبداع[1]، ولذلك بدأ به في الذِّكر، مع أنَّه متأخِّر في الوجود، والذي يؤكِّد هذا أنَّ العلم مهما تقدَّم لا يستطيع أن يعرف أيَّ شيء من أسرار الخلق الثاني الَّذي يُنْفَخ فيه الروح، بينما استطاع بما لديه من نَوْعِ تَقَدُّمٍ أن يطَّلع على بعض خفايا الخَلق الأوَّل وأسراره.

نكتةُ ذِكر ﴿مِّنۢ﴾ في قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾:

الدَّلالةُ على كثرةِ تنقُّلات الأطوار وتقلُّبات الأدوار في الخلق

إنَّما أوثِرَ ذكر ﴿مِّنۢ﴾ في قوله: ﴿مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٖ﴾ مع جواز الاستغناء عنها في كلام البشرِ؛ إذ يمكن أن يُقالَ: خلقًا بعد خلق؛ للدَّلالة على كثرة تنقُّلات الأطوار وتقلُّبات الأدوار في الخلق الأوَّل والثّاني، وتكوينه شيئًا بعد شيء[2]، أمّا الخلقُ الأوَّل؛ فقد أخبرنا الله بتلك الأطوار والتقلُّبات في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ فِي قَرَارٖ مَّكِينٖ ١٣ ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةٗ فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمٗا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمٗا﴾ [المؤمنون: 12 - 14]، وأمّا الخلق الثاني؛ فقد أجملها الله تعالى، ولم يبيِّنها، وذلك في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ﴾.

فائدة ذكر الظَّرف ﴿بَعۡدِ﴾:

الإشارة إلى ترتُّب أطوار الخلق الأوَّل بعضها على بعض

عبَّر بـ ﴿بَعۡدِ﴾ الظرفيَّة الزَّمانيَّة؛ للدَّلالة على التَّرتيب، فإنَّه مقصود، وذلك أنَّ الخلق الثاني مترتِّب على الخلق الأوَّل، وأنَّ أطوار الخلق الأوَّل مترتِّب بعضها على بعض، فحين ينتهي كلُّ طورٍ يأتي ما بعده، وحين تنتهي أطوار الخلق الأوَّل يأتي بعده الخلق الثّاني.

نكتةُ تنكير ﴿خَلۡقٖ﴾:

نكَّر كلمة ﴿خَلۡقٖ﴾ للتَّعجيب والتعظيم والتهويل من أطوار الخلق

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 457.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 457.

الأوَّل، أي: من بعد خلقٍ عجيب عظيم لا يقدر أحد، كائنًا من كان، على الإتيان بشيء منه، ولا ادِّعائه لنفسه، وللدَّلالة على تَنَوُّع أطواره العجيبة الدّالَّة على طلاقة القدرة، وقد جاء تفصيل ذلك في قوله سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ [الحج: 5].

التَّنكيرُ لإرادة التَّعجيب والتَّهويل من أطوار الخلق الأول

فائدة ذكر شبه الجملة في قوله: ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾:

شبه الجملة: ﴿مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ﴾ صفة لموصوف محذوف، وهذا الموصوف المحذوف صفة لقوله: ﴿خَلْقًا﴾، والحذف في الموصوف سببٌ لزيادة المعاني وكثرتها فيه، أي: خلقًا كائنًا من بعد خلق، أو: خلقًا عجيبًا من بعد خلق، أو: خلقًا بديعًا من بعد خلق، وهكذا.

تنوُّع المعاني الممكنة وكثرتها تبعًا لموقع شبه الجملة

دلالة الظَّرفيَّة في قوله: ﴿فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ﴾:

قوله: ﴿فِى ظُلُمَـٰتٍ ثَلَـٰثٍ﴾ جاء مُصَدَّرًا بـ ﴿فِى﴾ المفيدة للظرفيَّة المكانيَّة، وفيه دلالة على الإحاطة والتَّمكُّن، أي: تمكُّن الرَّحم من الإحاطة بالجنين بحيث لا يخترقه ما يضرُّه؛ إذا أراد الله له اكتمال التخلُّق.

الدَّلالةُ على الإحاطة والتَّمكُّن

بلاغةُ التَّعبير بلفظ الظُّلمات:

في ذِكر هذه الظُّلمات بهذا اللَّفظ تنبيهٌ على سَعة علم الله تعالى وإحاطته بالأشياء، ونفوذ قدرته إليها في أشدِّ ما تكون فيه من الخفاء(1).

دلالةُ جمع ﴿ظُلُمَـٰتٍ﴾ جمع مؤنث سالم:

ذكر القرآنُ ﴿ظُلُمَـٰتٍ﴾ جمعَ مؤنَّث سالم؛ للدَّلالة على قلَّة عددها؛ إذ إنَّ جمع المؤنث السالم من جموع القلَّة، ويؤكِّد هذه القلَّة وصفُ الظلمات بكونها ثلاثًا فقط، ومع أنَّها ثلاث فقط؛ فهي عجيبة

الدَّلالةُ على عِظَمِ هذه الظُّلمات على قلَّة عددها

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 334.

عظيمة، فإنَّ كلَّ واحدة منها تكفي في الدَّلالة على كثير الخفاء والاستتار مهما تقَدَّم العلم، فكيف بها لو اجتمعت؟.

نكتةُ تنكير ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾:

الدَّلالة على عِظَمِها وشدَّتها

النُّكتةُ في تنكير لفظ ﴿ظُلُمَٰتٍ﴾ هو الدَّلالة على شدَّتها في خفاء ما فيها مجتمعةً، هذه الشِّدَّة المرتَّبة على شدَّة كلِّ واحدة منها منفردة، فكيف بها مجتمعة في ثلاث متراكمة بعضها فوق بعض؟ فالتَّنكير لتعظيمها وتفخيم شأنها.

نكتةُ تأخير العدد عن المعدود:

لفتُ النَّظر إلى هذه الحصون التي يُغلَّف بها الجنين حمايةً له

أخَّر العدد وقدَّم المعدود مع جواز العكس؛ لأنَّ المقصود الأهم هو لفت النَّظر إلى هذه الحصون التي يُغلَّف بها الجنين حمايةً له، وأمّا عددها؛ فيأتي في المرتبة التالية من الاهتمام، وهو كونها ثلاثًا.

نكتةُ فصل قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾:

الانتقالُ من الإتيان بالدَّليل إلى الإتيان بالمدلول

فصل قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ على الاستئناف الابتدائيِّ، ومحلُّه الرَّفع على الابتداء، أي: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ العظيمُ الشَّأنِ الَّذي عددت أفعالَهُ، فكانت أدلَّة على استحقاقهِ الألوهيَّة والتَّوحيد، وعلى عدم احتياجهِ للولد هو ﴿ٱللَّهُ﴾[1]، وقيل: فُصلت هذه الجملة عمّا قبلها؛ لكونها خلاصةً لكلِّ ما مضى من الأدلَّة السّابقة، ونتيجة أنتجتها[2].

فائدة التَّعبير باسم الإشارةِ للبعيد:

الدَّلالةُ على بُعد منزلتِه تعالى وعلوِّ مكانته

التَّعبير باسم الإشارة لتمييز صاحب تلك الصِّفات عن غيره، وما في اسم الإشارة من اللّام التي تدلُّ على البعيد؛ للدَّلالة على علوِّ مكانته، وبُعد منزلتِه تعالى في العظمةِ والكبرياءِ[3]، أي: ذلكم اللّه تعالى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 243.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 334.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 243.

صاحب تلك الصِّفات العلا، والأفعال العجيبة السّابقة المذكورة العالي المراتب بشهادتكم أيُّها الخلق كلُّكم، بعضكم بلسان قاله، وبعضكم بناطق حاله، الذي جميع ما ذكر من أوَّل السّورة إلى هنا أفعاله[1]، هو اللّه البعيد عن كلِّ شبهة تذكرونها، والمتعالي عن كلِّ باطل تنسبونه له، كنسبة الولد له، واتِّخاذ الشُّركاء معه، وهو كذلك العالي المنزلة والمكانة بذاته، الذي لا يدانيه غيره، ولا يقترب منه في عُلوِّه سواه.

نكتةُ التَّعبير باسم الإشارة الجمعيّ ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾:

الإشارة إلى تعدُّد صفاته وأفعاله سبحانه الموجبة للمبالغة في تعظيمه وشكره

في التَّعبير باسم الإشارة الجمعيِّ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ إشارة إليه تعالى باعتبارِ أفعالِه المتعدِّدة الكثيرة المذكورةِ، الموجبة للمبالغة في تعظيمه وشكره، وما فيه من مَعْنى البُعد للإيذانِ ببُعد منزلتِه تعالى في العظمةِ والكبرياءِ[2]، كما أنَّ التَّعبير باسم الإشارة لتمييز صاحب تلك الصِّفات، وهو اللّه تعالى، عن غيره، تمييزًا يفضي إلى ما يرد بعد اسم الإشارة، والمعنى: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾ الذي خلق، وسخر، وأنشأ الناس والأنعام أطوارًا، تعالى عمّا تقولون علوًّا كبيرًا، فلا تشركوا معه غيره؛ إذ لم تبقَ شبهة تعذر أهل الشِّرك بشركهم[3].

نكتةُ الإتيانِ باسم الجلالةِ:

استحضارُ المسمّى بما فيه من صِفات الجلال والكمال والجمال

وقد عُبِّر باسمِه تَعالى العَلَم في قَولِه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ﴾؛ بما فيه من صفات الجلال والكمال والجمال، وبما فيه من المهابة التي تستولي على القلوب، كلُّ ذلك لاستحضارِ المُسَمَّى في الأذهانِ باسم مُختَصٍّ به تعالى؛ زيادةً في البَيانِ؛ لأنَّ حالَ المُخاطَبينَ نُزِّلَ مَنزِلةً حالِ مَن لم يَعلَم أنَّ فاعِلَ تلك الأفعالِ العَظيمةِ هو اللّهُ تَعالى[4].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 458.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 243.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 243، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 334.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 334.

نكتةُ التَّعبير بالرُّبوبيَّة بعد اسم الجلالة:

التَّذكيرُ بِنِعَمِهِ تعالى الكثيرة العظيمة، كالإيجاد والإمداد

يجوزُ أنْ يكونَ اسم الجلالة خبرًا لقوله: ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، و﴿رَبُّكُمۡ﴾ نعتٌ له، أو بدلٌ منه، ويجوز أنْ يكونَ اسم الجلالة بدلًا مِن ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، و﴿رَبُّكُمۡ﴾ خبرُه، وعلى كلِّ الأوجه الممكنة في الإعراب، ففي الإتيان بِالرُّبوبيَّةِ بعد اسم الجلالة الجمع بين معاني الألوهيَّة والرُّبوبيَّة، والاستدلال بأفعال الرُّبوبيَّة على استحقاقهِ تعالى للألوهيَّة، فالمستحقُّ للتَّوحيد والانفراد بالعبوديَّة هو المُرَبّي بصغار النِّعَم قبل كبارها، وفي ذلك تَذْكيرٌ بِنِعَمِهِ تعالى الكثيرة العظيمة، من الإيجادِ والإمدادِ وغير ذلك، وهذا هو مَعنى الرُّبوبيَّةِ[1].

فائدةُ إضافة لفظِ الرُّبوبيَّة إلى ضمير المخاطَبين:

التَّسجيلُ عليهم بكفران نِعَمِه، وتنزيلهم منزلة الجاهل بها

في الإتيان بلفظ الرُّبوبيَّةِ مضافًا إلى ضمير المخاطَبين ﴿رَبُّكُمۡ﴾ تَذْكيرٌ لَهُم بِنِعَمِهِ تعالى الكثيرة العظيمة، كالإيجادِ والإمدادِ الذي هو مَعْنى الرُّبوبيَّةِ، وتَوْطِئَةٌ لِلتَّسجيلِ عَليهم بِكُفْرانِ نعمتِهِ الآتي في قولِه: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ [الزمر: 7]، ولتنزيلهم بسبب شركهم معه غيره، تنزيلَ الجاهل بالرُّبوبيَّة، أي: الخالق والمالك والمربّي لكم بالخلق والرِّزق[2].

الغرضُ من تعريف المبتدأ والخبر في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾:

قصرُ الصِّفات والأفعال الكثيرة السّابقة على موصوفٍ واحدٍ

في تعريف المبتدأ والخبر على كلِّ الأوجه الإعرابيَّة الممكنة في الجملة الاسميَّة: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾ قصْرُ كلِّ الصِّفات والأفعال العجيبة السّابقة، الَّتي هي من معاني الرُّبوبيَّة، على موصوفٍ واحدٍ، وهو اللهُ تعالى، دون غيرِه، واختصاصه سبحانه بها وحده، أي: ذلكم هو الله المستحقُّ للوحدانيَّة المنفردُ بالعبودية وحده، المختصُّ بها، أو: ذلكم المعبودُ بحقٍّ هو وحده الذي ربّاكم، لا غيره.

---

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 412، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 458، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 334.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 458، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 334.

نكتةُ فصل قوله: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾:

الجمعُ لله تعالى بين الألوهيَّة والرُّبوبيَّة والملك

قوله تعالى: ﴿لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾، هو في موقع الخبر الثّاني لاسم الإشارة ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، أو هو كلام مستأنفٌ مكوَّنٌ من مبتدأ وخبر، وعلى كلا الإعرابَيْن لا يجوز العطف لكمال الاتِّصال بين الجملتَيْن.

بلاغةُ التَّعبير بلام الجرِّ في قوله: ﴿لَهُ﴾:

إثباتُ مِلك الله تعالى للمُلك واختصاصه به

اللّام في قوله: ﴿لَهُ﴾ هي لام الملك أو الاختصاص، فإنَّ الملكَ كلَّهُ ملك له تعالى دون غيره، مختصٌّ به وحده، يتصرَّف فيه كيف يشاء سبحانه، وهو معنى مفصَّل في آيات كثيرة في القرآن الكريم، كما في قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَاۚ﴾ [المائدة: 17]، وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا فِيهِنَّۚ﴾ [المائدة: 120].

غرضُ تقديم شبه الجملة الخبريَّة ﴿لَهُ﴾:

إفـادةُ الاختصاص والحصر

في تقديم شبه الجملة ﴿لَهُ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ إفادةُ الحصرِ والاختصاص، فالملك الشّامل للكون ليس لأحد سواه سبحانه، فجميعُ الكائنات مملوكةٌ له سبحانه، مَخْصوصة به تعالى خلْقًا وتصرُّفًا[1]، فهو بهذا المعنى قصرٌ حقيقيٌّ، وبالنَّظر إلى كون الملك مشتركًا في الدُّنيا من جهة أنَّ في الأرض ملوكًا، فهو قصر ادِّعائيٌّ[2]، ولا مانع من كون القصر حقيقيًّا أيضًا على المعنى الثاني؛ لأنَّ الَّذي يؤتي ملوكَ الدُّنيا مُلْكَهُم، ويمكِّنهم منه هو الله تعالى وحده، حتّى ولو كانوا كفّارًا، والدَّليل على هذا قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِي حَآجَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ فِي رَبِّهِۦٓ أَنۡ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلۡمُلۡكَ﴾ [البقرة: 258]، وقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26].

معنى(ال) في ﴿ٱلۡمُلۡكُۚ﴾:

(ال) في الملك للجنس

(ال) في﴿ٱلۡمُلۡكُۚ﴾ هي الجنسيَّة الاستغراقيَّة، فالملك كلُّه بمعناه

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 481.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 336.

العام الذي يدلُّ عليه لفظ الملك باعتباره اسم جنس هو للّه تعالى وحده لا لسواه، أي: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ على الإطلاقِ في الدُّنيا والآخرةِ، ليس لغيره شركةٌ في ذلك بوجهٍ[1].

دلالةُ التَّعبير بلفظ ﴿ٱلْمُلْكُ﴾ مادَّة وصيغة:

المُلْكُ أشرف من المِلْك، وأشدُّ شهوة في قلوب الخلق

المُلْكُ: أصلُهُ مصدر مَلَك، وهو مثلَّث الميم إلّا أنَّ مضمومَ الميم (المُلك) قد خصَّه الاستعمال بمُلك البلاد ورعاية الناس، وفيه جاء قوله تعالى: ﴿تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، وصاحبه: مَلِك، بفتح الميم وكسر اللام، وجمعه: ملوك[2]، وأمّا مكسور الميم (المِلك)؛ فقد خصَّه الاستعمال بما يجوز التصرُّف في عينه بالبيع والشراء والهبة والإعارة ونحو ذلك، وصاحبه مالك، وجمعه مُلّاك، ولمّا كانت شهوة المُلْك أشدَّ في قلوب الخلق؛ عبَّر عنها القرآن بلفظها الصَّريح، بخلاف المِلْك، فقد أشار إليه باللّام في قوله: ﴿لَهُ﴾، والذي يدلُّ على ذلك أنَّ المالك يمكن أن يتنازل عن مِلْكه بالبيع والهبة وغير ذلك، أمّا المَلِك؛ فلا يتنازل عن مُلْكهِ غالبًا إلّا إذا انتُزِعَ منه انتزاعًا عُنْوةً، وهذا المعنى هو سرُّ التَّعبير بالنَّزع في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، دون التَّعبير بالأخذ أو السَّلب، الذي يقابل الإيتاء، فلم يقل سبحانه مثلًا: تؤتي الملك مَن تشاء، وتأخذ الملك ممَّن تشاء، بل قال: ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ [آل عمران: 26]، ثمَّ إنَّ كلَّ مالك لا يمكن أن يصيرَ مَلِكًا بحال، وكل مَلِك غالبًا ما يصير مالكًا بقوَّة المُلْك والسُّلطان، على الأقل مدَّة مُلْكه، فلذلك أيضًا عبَّر القرآن عن المُلك بلفظِهِ الصَّريح، بخلاف المِلْك، فقد أشار إليه باللام في قوله: ﴿لَهُ﴾.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 243.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 336.

نكتةُ فصل قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:

الاحــتراسُ من وجــود مَـلِـكٍ غيره يشركه في ألوهيَّته

قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ جملةٌ مستأنفة استئنافًا بيانيًّا، كأنَّ سائلًا سأل: ما الَّذي يترتَّب على كلِّ ما ذُكِرَ من صفات العلم والقدرة والخلق بالوحدانيَّة والألوهيَّة والرُّبوبيَّة؟ وهل يوجد إلهٌ غيره يشاركه في كلِّ هذه الصِّفات، أو في بعضها؟ فكان الجوابُ: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، وذِكْرُها كان من باب الاحتراس من وجود مَلِكٍ غيره يشركه في ألوهيَّته؛ لأنَّه لمّا كان المختصُّ بالمُلك قد لا يكون إلهًا؛ قال مثبتًا له الإلهيَّة على ما يقتضيه كلُّ الكلام السّابق: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، فهو بمنزلةِ نتيجة النَّتيجة[1].

بلاغةُ القصرِ ونوعه وغرضه في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:

التَّعبير بأقوى طُـرُقِ القصر لإثـبـات أنَّـه لا مـعـبـود بـحـقٍّ سواه

في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ قصرٌ حقيقيٌّ؛ حيث قصر صفة الألوهيَّة الحقَّة عليه سبحانه وحده؛ إذ لا معبودَ بحقٍّ سواه، فهو قصر صفة على موصوف، وقد استخدمت الآية أقوى طُرُقِ القصر، وهي النَّفي المدلول عليه بـ ﴿لَآ﴾، والاستثناء المدلول عليه بأداته ﴿إِلَّا﴾ لإثبات ذلك.

دلالةُ التَّعبير بلا النافية للجنس في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:

قــــوَّة نـفـي الألـوهـيَّـة عن غير الله وامتداد ذلك في الزَّمان

(لا) النافيَّة للجنس أقوى أدوات النَّفي؛ لأنَّها لا تنفي فردًا أو نوعًا من الأفراد أو الأعمال مثلًا، إنَّما تنفي جنس ما تدخل عليه من الأفراد أو الأعمال أو الأزمان أو الأمكنة، والنَّفي بها نفي لعموم جنس ما تدخل عليه دون احتمال تخصيص له بحال من الأحوال، ولذلك لا يدخل على اسمها أيُّ حرف جرٍّ زائدٍ ممّا يمنعُ احتمال التَّخصيص؛ إذ هي بذاتها مانعة من ذلك، ثم إنَّ ألِفَ المدِّ التي فيها، وفي (ما) النافية تُشير إلى امتداد النَّفي في الزَّمان المطلق، وهي أقوى في ذلك من (ما)، وبالتالي فهي هنا تنفي استحقاق كلِّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 459.

الآلهة للعبوديَّة الحقَّة إلّا للّه، وهذا الحكم العامُّ لا يختصُّ بزمان دون زمان، بل هو ممتدٌّ على مدى الزَّمان، فلا معبود بحقٍّ إلا اللّه في كلِّ زمان وفي كلِّ مكان، فلا ينبغي أن تكون العِبادَةُ إلّا له وحده.

نكتةُ تنكير لفظ ﴿إِلَٰهَ﴾:

المبالغةُ في نفي وجود أيِّ إلَهٍ سواه سبحانه

نكَّر قوله: ﴿إِلَٰهَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾؛ لإفادة عموم النَّفي، فالنَّكرة في سياق النَّفي من جملة صيغ العموم، وهي في سياق (لا) النّافية للجنس من أقوى صيغ العموم؛ إذ لا يمكن تخصيصها أبدًا بأيِّ حال من الأحوال، إلّا بدليل قوي كالاستثناء - كما هنا - وفي ذلك مبالغةٌ في نفي وجود أي إلَهٍ سواه سبحانه.

بلاغةُ الاستثناء بـ﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:

استحقاقُ الله تعالى الألوهيَّةَ الحقَّة وحده دون ما سواه

الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا هُوَۖ﴾ استثناء من عموم الإله المنفيِّ، أي: إنَّ جنس الآلهة منفيٌّ إلّا هذا الفرد[1]، وإنَّما عبَّر القرآن بـ﴿إِلَّا﴾ دون غيرها من أدوات الاستثناء للتَّأكيد على استحقاق اللّه تعالى الألوهيَّة الحقَّة وحده دون ما سواه؛ لأنَّ (إلّا) أصل باب الاستثناء وأقوى أدواته التي هي نصٌّ فيه من جهة، ولا تحتمل مع الاستثناء معنى آخر كغيرها، وهذا هو سرُّ قوَّتها في بابها، ولمّا كانت النَّكرة في سياق ﴿لَآ﴾ النافية للجنس من أقوى صيغ العموم، الَّتي لا يتطرَّق إليها احتمال تخصيص أبدًا إلّا بدلالة قويَّة كدلالة الاستثناء؛ ذكرت ﴿إِلَّا﴾ التي هي أصل باب الاستثناء، وأقوى أدواته لإثبات الألوهيَّة له سبحانه، ونفيها عن كلِّ ما سواه، بحيث لا يدخل معه في الاستثناء غيره.

نكتةُ إيثار الضَّمير على اسم الجلالة في قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾:

وإنَّما قال: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾، ولم يقل: إلّا اللّه، مؤثرًا الإضمار؛ لتقدُّم ذكر الاسم الجليل في قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾، وهو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 77.

متفرِّع عَلى ما قبله، أعني قوله: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۚ﴾، لكنَّه اكتفى في التَّفريع بأقوى القرائنِ، وهو ظهوره عند العقل، ولم يصرِّح فيه بالفاء التفريعيَّة[1] للعلم به، ووضوح الدَّلالة عليه، ورسوخه في الفطرة، وظهور آثاره في الوجود، وعلى هذا فإنَّ فائدة جملة القصر وغرضها النَّصُّ على وحدانيته سبحانه في ألوهيَّته دون غيره.

وضوحُ الدَّلالة عليه، ورسوخه في الفطرة، وظهور آثاره في الوجود

سرُّ التَّعبير بالفاء في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾:

الفاء في قولهِ تعالى: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾؛ لترتيبِ ما بعدَها على ما قبلها، أي: فكيفَ ﴿تُصۡرَفُونَ﴾ عن عبادتِه تعالى مع وفورِ موجباتِها ودواعيها وانتفاءِ الصّارفِ عنها بالكُلّيَّةِ، إلى عبادةِ غيرِه من غير داعٍ إليها مع كثرة الصَّوارفِ عنها[2]، وفي ذلك تعجُّبٌ من انصرافهم عن عبوديَّة اللّه تعالى وحده بعد إثبات استحقاقهِ سبحانه لها دون غيره.

التَّعجُّب مِن انصرافِهم عن عبوديَّة الله تعالى وحده بعد إثبات استحقاقِه لذلك

بلاغةُ التَّعبير بكلمة (أنّى):

كلمة (أنَّى) لها معانٍ كثيرة، فتكون بمعنى حيثُ، وكيفَ، وأينَ، ومتى، ومِن أين، وتكون استفهاميَّة، وشرطيَّة، وظرفيَّة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ﴾ [البقرة: 223][3]، وهي هنا في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ تحتمل أكثر هذه المعاني، لا سيَّما مع حذف متعلّق ﴿تُصۡرَفُونَ﴾ وبناء الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله، أي: فكيفَ ﴿تُصۡرَفُونَ﴾ عن عبادتِه تعالى إلى عبادةِ غيرِه؟ أو: من أيِّ جهة تصرفون؟ أو: أين تُصرفون منه تعالى في الدُّنيا وفي يوم القيامة؟ أو: متى تُصرفون عن الباطل إلى الحق؟ وغير ذلك من المعاني الَّتي قد يكون بعضها أقوى من بعض بدلالة السّياق.

كثرةُ المعاني المكنة للكلمة الواحدة

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 481.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 244.

(3) ابن منظور، لسان العرب: (أنى)، والزبيدي، تاج العروس: (أنن، أنى).

تعدُّد معاني الصَّرف التي تشمل كلَّ أنواع الكفر والشِّرك

دلالةُ التَّعبير بلفظ الصَّرف:

الصَّرف: رجْعُ الشَّيء، أو تحوُّله بذاته، أو تحويله بغيره، أو: ردُّه من حالة إلى حالة، أو إبداله بغيره[1]، وكلُّ هذه المعاني يحتملها الذِّكر الحكيم، أي: فكيف رجعتم من الإيمان والفطرة الَّتي فطر اللّه النّاس عليها إلى الكفر برغبتكم، أو: فكيف تحوَّلتم أنتم عنها من قِبَلِ أنفسكم، أو حوَّلكم غيركم من سادتكم وشياطينكم إلى الكفر؟ أو: فكيف رَدّوكم إليه؟ أو: فكيف بَدَّلتم أنتم دينكم؟

بلاغةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿تُصۡرَفُونَ﴾:

عبَّر هنا بالفعل المضارع؛ للدَّلالة على تجدُّد صرفِ الكفار من فطرة التَّوحيد إلى الكفر والشِّرك، واستمرار ذلك عبر الزَّمان؛ إذا طال عليهم الأمد.

نكتةُ حذف متعلّق الصَّرف في قوله: ﴿فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾:

إرادةُ عموم المعاني المكنة للعلم بها من فحوى الكلام

المصروفُ عنه أو إليه هنا محذوفٌ، ومن فوائد الحذفِ عند البلاغيّين إرادةُ العموم، وفائدته هنا إرادةُ عموم كثير مِنَ المعاني المكنة، والمنتزعة من فحوى الكلام ودلالة السّياق، والتَّقدير: فكيف تُصرَفونَ عن توحيده، أو: فأينَ تُصرَفونَ عن عِبادتِه، وأنتم مُقرّون بِهِ؟ أو: فأنَّى تُصرَفونَ عَن طريق الحَقِّ بَعدَ هَذا البَيانِ؟ أو: فكَيفَ تُصرَفونَ عَن عِبادَتِهِ إلى عِبادَةِ ما سِواهُ، وأنتُم تَعلَمونَ أنَّهُ الرَّبُّ الَّذي خَلَقَ كُلَّ شَيءٍ، والمُتَصَرِّفُ في كُلِّ شَيءٍ؟ أو: فكيف ومن أيِّ جهة تُصرَفون أنتم من صارف ما كائنًا ما كان، عن الحقِّ إلى الضَّلال؟ أو: فكيف ومِن أيِّ وجه تُصرَفون قهرًا عن الإخلاص له إلى الإشراك به بصارفٍ ما، وإن كان عظيمًا؟ أو: فكيف يعدل بكم عن عبادته إلى عبادة غيره؟ إلى غير ذلك من المعاني التي يحتملها السّياق[2]، بقرينة قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾.

---

(1) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (صرف).

(2) البغوي، معالم التنزيل: 4/ 132، 7/ 109، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 4/ 267، والبقاعي، نظم الدرر: 9/ 114، 16/ 459، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 170.

﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ٧﴾ [الزمر: 7]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

درءُ المفاسدِ مقدَّمٌ على جلب المصالح، وعليهما بُنيت شريعة الإسلام

لمّا ظهرت الأدلَّة على وحدانيَّته وقدرته، وبهرت الحجج من غطّاها بالإصرار على الإنكار، وكان سبحانه فيما مضى قد أرشد إلى الحقِّ، وهدَّد أهل الباطل إكمالًا للرَّحمة بعباده كلِّهم؛ قال مستأنفًا لما هو نتيجة ما مضى مترتِّبة على ما مضى من الأدلَّة الواضحة والحجج الدّامغة، معرِّفًا لهم نعمته عليهم بأنَّه ما عُبِدَ لشيء ينفعه، أو يضرُّه، وإنَّما هو لمصالحهم هم خاصَّة، بادئًا بما هو مِن درءِ المفاسد من التَّحذير من الكفر، وتاليًا بما هو مِن جلْبِ المصالح، وهو الأمر بالشُّكر الذي هو الإيمان، فقال: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾(1).

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَرۡضَىٰ﴾: الرِّضا: خلافُ السُّخطِ، تقولُ: رَضيَ يَرضَى رِضًى، وهو راضٍ، ومَفعولُهُ مَرضيٌّ عَنهُ، وأصلُه: تَشَبُّعُ النَّفسِ وامتلاؤُها بَلالًا ورِقَّةً(2)، ورِضا العبد عن الله: ألّا يكره ما يجري به قضاؤه، ورِضا الله عن العبد هو أن يراه مؤتِمرًا لأمره، ومنتهيًا عن نهيه، وقد جمع الله بينهما في قوله تعالى: ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾ [المائدة: 119](3).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 460، وأبو حيان، البحر المحيط: 12/ 233.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رضي)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رضو - رضي).
(3) الراغب، المفردات: (رضي).

2) ﴿تَشۡكُرُواْ﴾: أصل الشُّكر: امتلاءُ جوف الشَّيء برخو طيب وظهورُه عليه، ولو كان رافده قليلًا[1]، وحقيقة الشُّكر: الرِّضا باليسير[2]، وهو كذلك: تصوُّر النِّعمة وإظهارها، ويضادُّه الكفر، وهو: نسيان النِّعمة وسترها، وقيل: أصلُهُ مِن: عين شَكْرَى، أي: ممتلئة، فالشُّكْرُ على هذا هو الامتلاءُ مِن ذِكر المنعم عليه، والشُّكْرُ ثلاثة أضرب: شُكْرُ القلبِ، وهو تصوُّر النِّعمة، وشُكْرُ اللِّسان، وهو الثَّناء على المنعم، وشُكْرُ سائر الجوارح، وهو مكافأة النِّعمة بقدر استحقاقه[3]، وشُكر اللَّه للعبد إثابتُه إيّاه على الطّاعة، ولو قيل: رضاه عنه؛ لكان أقرب إلى المعنى الأصلي؛ لأنَّ الرِّضا كالشُّكر في أصل معناه رخاوة الباطن، والشُّكر يزيد عن الرِّضا في هذه الجزئيَّة معنى الظُّهور، والإثابة تالية للرِّضا[4].

3) ﴿تَزِرُ وَازِرَةٞ﴾: الفعل (وزر) لمعناه أصلانِ صَحيحانِ: أَحَدُهما الملجَأ، قالَ اللّٰهُ تعالى: ﴿كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١﴾ [القيامة: 11]، والآخَرُ الثِّقلُ في الشَّيءِ، فالوِزرُ: حِملُ الرَّجُلِ؛ إذا بَسَطَ ثَوْبَهُ، فجعلَ فيهِ المَتاعَ، وحملَهُ، ولذَلكَ سُمّيَ الذَّنْبُ وِزْرًا، ومنه قوله تعالى: ﴿لِيَحۡمِلُوٓاْ أَوۡزَارَهُمۡ كَامِلَةٗ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَمِنۡ أَوۡزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ۝٢٥﴾ [النحل: 25][5]، وقيل: إنَّ المحور الذي تقوم عليه كلمة الوِزْرِ: حِفْظُ الشَّيءِ بضَمِّه وحَمله واحتوائه مع ثِقَلِهِ، فالوَزَرُ: الجبل المنيع، الذي يحمي من لجأ إليه، والجبل ثقيل، والوَزَرُ: مطلقُ الملجا من جبل أو غيره، والوزيرُ سُمّيَ بِهِ؛ لأنَّهُ يَحمِلُ الثِّقلَ عَن صاحِبِه، وسمّيت الذُّنوب أوزارًا، كما سمّيت أثقالًا في قوله تعالى: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 13][6]، ومعنى قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾، أي: لا يحمل أحد ذنب أحد[7].

4) ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: كلمة (ذات) بمعنى صاحبة، وهي مؤنَّث (ذو) أحد الأسماء الخمسة[8]، ومعنى قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: مضمراتها ومكنوناتها

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (شكر).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شكر).
(3) الراغب، المفردات: (شكر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (شكر).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وزر).
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وزر).
(7) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 521.
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/ 25.

وأسرارها[1]، و(ذاتِ الصُّدورِ) كناية عن القلوب، أي: ما في القُلوبِ مِن خَيرٍ وشَرٍّ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الكفرانُ والشُّكران في ميزان رضا الرَّحمن

خاطبَ اللّه تعالى عباده، فقال: إن تكفروا - أيُّها الناس - بِنِعَمِ اللّهِ؛ فإنَّ اللّه غنيٌّ عن إيمانكم وشكركم، ولا يحبُّ لعباده الكفر، لما فيه من ضرِّهم، وإن تشكروه على نعمه؛ يرضَ هذا الشُّكر لكم، ولا تحمل نفس آثمة إثمَ نفسٍ أخرى، ثمَّ إلى ربِّكم مآلكم، فيخبركم بما كنتم تعملون في الدُّنيا، فيجازيكم عليه؛ لأنَّه عليم بما تكتمه قلوبكم التي في الصُّدور[3].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

التَّرهيب والتَّرغيب بعد ذكر استحقاقهِ تعالى الألوهيَّة والتَّوحيد

جملة: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ جملة مستأنفة استئنافًا ابتدائيًّا، فبعد ذكر طلاقة القدرة في المخلوقات الآفاقيَّة والأنفسيَّة، أو في المخلوقات العلويَّة والسُّفليَّة، والاستدلال بذلك على استحقاقه تعالى الألوهيَّة والتَّوحيد دون غيره؛ استأنف كلامًا، هو كالنَّتيجة لما سبق، والخلاصة لما تقدَّم، مُبَيِّنًا (مُرَهِّبًا ومُرَغِّبًا، ثم مُهَدِّدًا ومُتَوعِّدًا)، فقال: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾، ولأجل هذا فُصِلت عمّا قبلَها.

بلاغةُ التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة في الآية الكريمة:

زيادةُ التَّهديد والوعيد لهم، وبيانُ أنَّ اللّه غنيٌّ عن عبادتهم، وأنَّها لمصلحتهم

هذه الجملة الشَّرطيَّة: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ جملة مبيِّنة لإنكار انصرافهم عن التَّوحيد، أي: إن كفرتم بعد هذا البيان في ذلك الزَّمن؛ فاعلموا أنَّ اللّه غنيٌّ عنكم، ومعناه: غنيٌّ

(1) المراغي، تفسير المراغي: 22/ 134، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 10/ 25.
(2) البغوي، معالم التنزيل: 2/ 122.
(3) لجنة من علماء الأزهر، المنتخب في تفسير القرآن الكريم، ص: 684.

عن إقرارِكم له بالوحدانيَّة، أي: غيرُ مفتقرٍ له، وهذا كناية عن كون طلب التَّوحيد منهم لنفعهم ودفع الضُّرِّ عنهم، وليس يعود على الله تعالى من إيمانهم أو كفرانهم شيء، كما أنَّ في الجملة تذكيرًا لهم بهذا؛ ليقبلوا على النَّظر في أدلَّة التَّوحيد. فالخبر مستعملٌ كنايةً في تنبيه المخاطَب على الخطأ مِن فعله(1)، وفي ذلك إشارةٌ أيضًا إلى غناه تعالى عن الولد الذي نسبه الكفّار له زورًا وبهتانًا، وأشارت إليه الآية الخامسة من السورة، وفي كلِّ ذلك تهديد ووعيد.

نكتةُ الشَّرط بـ﴿إن﴾ دون (إذا) في الموضعَيْن:

الـدَّلالـةُ على الـواقـع المؤكَّد بـعـد الـدَّلالـة على المكن غير المتوقَّع

قوله: ﴿إِن تَكْفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾، وقوله: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ بإيثار ﴿إن﴾ على (إذا)؛ لكون (إن) إنَّما تكون للتَّقليل واحتمال الوقوع لا الجزم به، على معنى: أما وقد وضحت أمامكم الدَّلائل على التَّوحيد المطلق لله تعالى، فالأصل أن يتوقَّع منكم الإيمان لا الكفر، وأمّا إيثارها في قوله: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾؛ فللدَّلالة على عدم توقُّع الشُّكر منهم، وإن وقع؛ فسيكون من قليل منكم، فهو حكايةٌ عن الواقع، فالواقع أنَّ وقوعَ الشُّكر من الناس قليلٌ، كما قال سبحانه: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾ [سبأ: 13]، والخلاصة: أنَّ (إن) في الجملة الأولى؛ للدَّلالة على المكن غير المتوقَّع بعد بيان الدَّليل وإقامة الحجَّة، وهو عدم الكفر منهم، أو ندرته، وأنَّ (إن) في الجملة الثّانية؛ للدَّلالة على الواقع المؤكَّد منهم بعد العناد والجحود، وهو عدم الشُّكر منهم.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع في ﴿تَكۡفُرُواْ﴾، و﴿تَشۡكُرُواْ﴾:

إطماعُ الكفّار في الإيمان والعمل الـصّـالـح بعد بـيـان الـدَّلـيـل وإقامة الحجَّة

في التَّعبير بالمضارع في الموضعين، والذي يدلُّ على التَّجدُّد والاستمرار، إطماع لهم في تصحيح معتقدهم بإفرادِه تعالى بالألوهيَّة، وإطماع لهم أيضًا في تصحيح أعمالهم فيما يُستقبَل من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 337.

الزَّمان، بإخلاص العمل له سبحانه، وعدم جعل شيء منه لغيره تعالى، وذلك بعد بيان الدَّليل لهم، وإقامة الحجَّة عليهم، فيكون ثمَّة تأثيرٌ فاعل للخطاب.

نكتة دخول الفاء على الجملة الاسميَّة:

الانتقال من الفعل غير المتوقَّع إلى الإخبار بالواقع المؤكَّد

جاءت الفاء رابطة بين جملتين: الأولى جملة الشَّرط، والثانية جملة حلَّت محلَّ جواب الشَّرط، ودلَّت عليه؛ لتَنْقُلَ القارئَ والسّامع من الفعل الممكن غير المتوقع إلى الإخبار بأمر واقع مؤكَّد يغني عن الجواب المحذوف، ويكون عليه، وهو غِنى الله تعالى عن سائر الخلق، فهو سبحانه لا ينفعه إيمانُ مؤمن، ولا طاعة طائع، كما أنَّه تعالى لا يضرُّه كُفْرُ كافر، ولا معصية عاصٍ.

فائدةُ تتابعِ المؤكّدات في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾:

للاهتمام وتنزيل المخاطَبين منزلةَ المتشكِّكين أو الجاحدين

في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ عددٌ من المؤكِّدات منها: (إنَّ) التوكيديَّة واسميَّة الجملة وإظهار اسم الجلالة ﴿ٱللَّهَ﴾، وتتابع هذه المؤكِّدات مفيدٌ للاهتمام بمضمون الجملة؛ إذ لا مشكِّك في كونه سبحانه غنيًّا عن خلقِه، فالكفّار لم يزعموا أنَّ الله تعالى في حاجة إلى إيمانِهم، ولتنزيل المشركين منزلةَ المتشكِّكين في كونه غنيًّا عنهم، لتشكُّكهم في كونه سبحانه مستحقًّا للعبادة وحده دون سواه، حتى أشركوا معه غيره، وزعموا له الولد، أو لتنزيلهم منزلةَ الجاحدين المنكرين ذلك، لإنكارهِم استحقاقَه وحده للألوهيَّة، وهو الغنيُّ عنه وعنهم.

بلاغةُ الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾:

استحضارُ مهابةِ الله تعالى في القلوب، والتَّركيز على قضيَّة الألوهيَّة

قال تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾، ولم يقل: فإنَّه غنيٌّ عنكم، مع تقدُّم ذِكره بالألوهيَّة والرُّبوبيَّة في قوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ﴾؛ لاستحضار المسمّى بما فيه من صفات الكمال والجلال والجمال، التي تورث مهابته تعالى في القلوب، زيادةً في بيان كونه غنيًّا عنهم؛ لأنَّ حال المخاطَبين نُزِّلَ مَنزِلةَ حالِ من لم يعلم أنَّه

تعالى غَنيٌّ عنهم، وعن إيمانِهم وشكرهم وطاعتهم، وللتَّركيز على قضيَّة الألوهيَّة بما فيها من صفاتٍ، عُبِّرَ عنها ببعضها، وهو الغِنَى، وكأنَّه تعليلٌ للحكم الآتي؛ لأنَّه لمّا كان جامعًا لصفات الكمال؛ كان غنيًّا عنكم[1].

نكتة تنكير ﴿غَنِيٌّ﴾:

نكَّر قوله: ﴿غَنِيٌّ﴾ للتَّفخيم والتَّعظيم، فهو سبحانه الغني العظيم في غناه، المستغني بغناه عن الكون كلِّه بمن فيه وما فيه.

غرضُ تعديةِ ﴿غَنِيٌّ﴾ بـ(عَنْ):

تباينُ ما عند الله حقيقةً وما عندهم استخلافًا، فهو الغنيُّ وهم الفقراء

عدّى قوله: ﴿غَنِيٌّ﴾ بـ(عَنْ)، في قوله تعالى: ﴿غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾؛ لما تفيده (عَنْ) من معنى المجاوزة، فهو سبحانه مُستَغْنٍ عنهم وعن جميع خلقه، مجاوزًا إيّاهم جميعًا، بل ليس لهم من الوصف بالغنى أدنى نصيب، إلّا ما كان موجودًا عندهم ممّا أعطاهم الله استخلافًا لا ملكًا، لا يحتاج إلى خلقه أبدًا، بل هم الذين يحتاجون إليه، كما يعبِّر عن ذلك قوله تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾ [فاطر: 15].

فائدةُ حذفِ جواب الشَّرط وذكر جملة تدلُّ عليه:

الإيجازُ في الكلام، والجمع بين معنى جواب الشَّرط والدَّليل عليه

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ ليست جوابًا للشَّرط المتقدِّم: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ﴾، كما يتبادر لمن له علم بلغة العرب؛ لأنَّه يشترط في جواب الشَّرط أن يكون مترتِّبًا على فعله في الحدث والزَّمان، أي: أن يكون فعل الشَّرط سببًا في الجواب، ومتقدِّمًا عليه في الزَّمان، وكفر الكافر أو إيمان المؤمن لا يؤثِّر في كون الله غَنيًّا، ووصْفُ الله تعالى بالغِنَى قديمٌ قبل وجود الكفر والإيمان، بل قبل خلْقِ الخلق، فهذه الجملةُ جاءت مشيرة إلى معنى جواب الشَّرط

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 460.

المحذوف، ودليلًا عليه، أي: إن تكفروا فلن تضرّوا اللّه شيئًا، وإن تؤمنوا؛ فلن تنفعوا اللّه بشيء؛ لأنَّ اللّهَ غَنيٌّ عنكم، وعن إيمانكم وعبادتكم، إنَّما يعود ضرر كفركم عليكم وحدكم، وفي هذا الإيجاز من البلاغة وقوَّة المعنى ما فيه؛ لأنَّه أتى بالحُكم ودليله في جملة واحدة مؤكَّدة وجيزة.

بلاغةُ التَّعبير بـ (لا) في قوله: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ﴾:

قوَّتُها في النَّفي وامتداد النَّفي بها في الزَّمان

(لا) من أقوى أدوات النَّفي، ثم إنَّ ألِفَ المدِّ الَّتي فيها، وفي (ما) النافية، تُشير إلى امتداد النَّفي بهما في الزَّمان المُطلق، وهي أقوى في ذلك مِن (ما)، وبالتّالي فهي هنا تنفي رضاه تعالى لعباده الكفر، وهذا الحُكم العامُّ لا يختصُّ بزمان دون زمان، بل هو ممتدٌّ على مدى الزَّمان.

نكتةُ التَّعبير بفعل الرِّضا في قوله: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ﴾:

الرِّضا أقوى من الحبِّ وأكمل منه

آثر القرآن التَّعبيرَ بفعل الرِّضا منفيًّا بـ (لا)، دون الحبِّ مثلًا؛ لأنَّ الرِّضا أبلغُ في الدَّلالة على المراد من الأفعال القريبة منه في المعنى؛ إذ الحبُّ: اجتماعُ الدَّقيقِ الرَّقيق اللَّطيف، وأمّا الرِّضا؛ فهو تَشَبُّع النَّفس وامتلاؤها منه[1]، ولمّا كان الكفر أبشعَ أنواعِ الضَّلال وأشنعها؛ ناسب ذلك نفيه بأقوى الألفاظ في ذلك، وهو الرِّضا.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَرۡضَىٰ﴾:

استمرارُ نفي رِضا تعالى الكفر لعباده وتَجَدُّده

عبَّر بالفعل المضارع في قوله: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ﴾ لاستمرار النَّفي، أي: إنَّه سبحانه لا يرضى الكفر لعباده في أيِّ وقتٍ من الأوقات، وأمّا تَجَدُّدُ نفي رضاه لعباده الكفر؛ فإنَّما يكون ليوافقَ تَجَدُّدَ كفرِ البعض بعدَ البعضِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ باللّام في قوله: ﴿لِعِبَادِهِ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ﴾ هي لام العلَّة، أو لام

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حب، حبحب)، (رضي).

عدمُ رِضا الله الكفر لعبادِهِ ورضاه الشُّكر لهم إنَّما هو لمنفعتِهم في الدّارين

الأجّلِ، والمعنى: عدمُ رضاه بكفر عبادِهِ لأجل منفعتِهم ومصلحتهم ودفعِ المضرَّة عنهم رحمةً بهم، وليس لتضرُّرِه تعالى به؛ لأنَّ الكفرَ سبب شقاوتكم في الدُّنيا والآخرة.

دلالةُ التَّعبير بلفظ العبادِ في قوله: ﴿لِعِبَادِهِ﴾:

الجمعُ بين تعميم الحكم وتعليله

عادةُ القرآنِ جارية في تخصيص لفظ العباد بالمؤمنين، ولذلك لا يكاد يُذْكر في القرآن إلّا وهو مضاف إلى اسم من أسمائه تعالى، أو إلى ضمير يعود عليه سبحانه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحِجْر: 42]، وقوله سبحانه: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفُرْقان: 63]، وقوله ﷻ: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: 6]، فمَن نظر إلى هذه العادة القرآنيَّة الغالبة؛ قال: إنَّ المُراد بالعباد في هذه الآية: المؤمنون، فيكونُ عامًّا في اللَّفْظِ خاصًّا في المَعنى، يُرِيدُ بَعضَ العِبادِ، والمعنى: ولا يرضى لعباده المؤمنين الكفرَ، وهو قول ابن عبّاس والسدي وجماعة، ومن نظر إلى سياق السّورة، وأنَّها مكيَّة، قال: إنَّ اللَّفظ على عمومه، والمعنى: ولا يرضى لكلِّ عباده الكفرَ، ويُرْوى ذلك عن قتادة وغيره[1]، وعلى كلا القولَين، فالعموم باقٍ؛ لأنَّه جمع أُضيفَ إلى معرفة، أمّا على القول بأنَّ المُرادَ بالعباد كلُّ عباده؛ فالعموم واضح، وأمّا على القول بأنَّ المُرادَ بالعباد المؤمنون منهم؛ فالعموم في المعنى المراد بلفظ العباد، أي: عموم المؤمنين، وهذا معنى قول أبي السُّعود: وإنَّما قيل لعباده لا لكُم؛ لتعميم الحكم وتعليله بكونهم عبادَهُ تعالى[2]، وأمّا تعليلُ الحكم؛ فلأنَّ عبوديَّتهم له باعتبار ألوهيَّته وربوبيَّته جلَّ شأنُه تقتضي ألّا يرضى لهم ذلك، وأنَّهم إذا اتَّصفوا بالكفر؛ فكأنَّهم قد خرجوا عن رتبة عبوديَّته تعالى، وبقوا في الذُّلِّ الدّائم[3].

(1) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 109، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 425، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 231، 232.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 244.

(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 233.

دلالة وضع الظّاهر موضعَ المضمر في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ﴾:

الـدَّلالـة على الـعـمـوم والإشـارة إلى تـنـاقـضِـهـم في الـتَّـعـامـل مع الأمر الواحد

أظهر في موضع الإضمار في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾، فلم يقل: ولا يرضى لكم الكفر؛ ليعمَّ بهذا الحكم كلَّ العباد، على اختلاف المفسِّرين في المراد بلفظ العباد، وليذكِّرهم بما يجدونه في أنفسِهم من أنَّ أحدًا منهم لا يرضى لعبده أن يؤدّي نتاج عمله ورِبْحَ تجارته إلى غيره بغير إذنه[1]، فكيف يرضَون ذلك للّه تعالى؟ إذ هم عباده، ويؤدّون العبادة لغيره.

نكتةُ إضافة العباد إلى ضمير يعود على الاسم الأعظم في قوله: ﴿لِعِبَادِهِ﴾:

في الإضافة إلى الاسم الأعظم تشريفٌ

وإضافةُ لفظ (عباد) إلى ضمير يعود على الاسم الأعظم في قوله: ﴿لِعِبَادِهِ﴾؛ لإبراز عنايته سبحانه بهم، وحرصه على ما فيه منفعتهم؛ لكونهم عباده، وفيه أيضًا جذبٌ لانتباههم واستمالة لقلوبهم، ليعودوا إلى سَيِّدِهم، فهُم - مهما بلغوا - عبادُه، ولا يرضى واحد منهم أن يصرف عبدُه عملَه إلى غير سيِّده.

نكتةُ الالتفات من الخطاب إلى الغيبة في قوله: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾:

من مقتضيات الرُّبوبيَّة ولوازم العبوديَّة ألّا يرضى اللّه لعباده الكفر لما فيه من ضرر عليهم

إنَّما التَفَتَ من الخطاب في قوله: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ﴾ إلى الغيبة في قوله: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾، فلم يقل: ولا يرضى لكم؛ للتَّنبيه على أنَّ عبوديَّتهم للّه وربوبيَّته لهم ممّا يقتضي ألّا يرضى سبحانه لهم ذلك، فمِن مقتضيات الرُّبوبيَّة ولوازم العبوديَّة ألّا يرضى اللّه تعالى لعباده الكفر؛ لما فيه من ضرر عليهم، ولِما تقدَّم من أنَّهم إذا اتَّصفوا بالكفر، فكأنَّهم قد خرجوا عن رتبة عبوديَّته تعالى، وبقوا في الذُّلِّ الدّائم[2]، كما أنَّ مِن فوائدِ هذا الالتفات الدَّلالةَ على أنَّهم إذا بقوا في الكفر؛ فلا يصلح أن يكونوا أهلًا لشرف الخطاب الإلهيِّ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 460.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 233.

نكتةُ تقديم شبهِ الجملة ﴿لِعِبَادِهِ﴾ على المفعول الصَّريح ﴿ٱلۡكُفۡرَۖ﴾:

للاهتمام بالمقُدَّم والتَّشويق إلى المؤَخَّر

قدَّم شبه الجملة: ﴿لِعِبَادِهِ﴾ على المفعول؛ لإفادة الاهتمام بالعباد، فإنَّهم محور الحديث، والدَّلالة على أنَّ أهمَّ لوازم العبودية رعاية السَّيّد مصالح عبده، وطاعة العبد أمرَ سيِّده، لا أمر غيره، وللتَّشويق إلى المؤَخَّر، فيريد السامع أن يعرف ما الَّذي لا يرضاه الله لعباده؟ فتكون الإجابة أنَّه الكفر.

بلاغة التعبير بـ (ال) في ﴿ٱلۡكُفۡرَۖ﴾:

تعدُّد المعاني المترتِّبة على احتمالات (ال)

(ال) في ﴿ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ يحتمل أن تكون للعهد، فيكون المرادُ به كفر الاعتقاد المفهوم من قوله: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ﴾، لا كفر النِّعمة، أي: هو الكفر، لا الكفران[1]، أي: لا يرضى لعباده إلّا الإيمان الخالص، ويحتمل أن تكونَ للجنس، أي: جنس الكفر، فيشمل كفر الاعتقاد وكفر النِّعمة؛ لأنَّ كفرَ الاعتقاد كفرُ نعمة أيضًا؛ لأنَّ الكافر يجحد نِعَمَ المنعم بكفره، ولأنَّه قابل في جملتَي الشَّرط بين الكفر والشُّكر، في قوله تعالى: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾، ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾، ويحتمل أن تكون للاستغراق، أي: سائر أنواع الكفر، اعتقادًا وعملًا ونِعْمَةً، ومع احتمال كونها للجنس أو الاستغراق يدخل كفر الاعتقاد دخولًا أوَّليًّا لمناسبة السياق.

دلالةُ التَّعبير بالمصدر في ﴿ٱلۡكُفۡرَۖ﴾:

شمولُ معنى المصدر لسائر الأزمنةِ الدّالِّ على المبالغة والعموم

الفعل يدلُّ على حَدَثٍ وزمان، أو حَدَثٍ في زمان، أمّا المصدرُ؛ فيدلُّ على الحَدَثِ مجرَّدًا عن الزَّمان، ولذلك يُخْبَرُ به، أو يوصف به للمبالغة في الخبر والوصف، فيقال: فلان عدلٌ؛ مبالغةً في كونه عادلًا، كأنَّه نفسُ العدلِ، فحين يقول ربُّنا: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ دون قولهِ مثلًا: ولا يرضى لعباده أن يكونوا كُفّارًا، ليشمل عَدَمُ رضاه

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 482.

الكفر سائرَ الأزمنة من جهة، ويشمل عَدَمُ رضاه سائرَ أفعال الكفر مِن كلِّ العِباد من جهة أخرى، وليس من المخاطَبين فقط.

بلاغةُ جملةِ الاعتراض في قوله: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾:

الاحتراسُ من تَوهُّمِ غير المراد

قولهُ تعالى: ﴿وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ﴾ اعتراضٌ بين جملتي الشَّرط ﴿إِن تَكۡفُرُواْ﴾ و﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ﴾؛ لقصد الاحتراس من أن يتوهَّم السّامعون أنَّ اللّه لا يكترث بكفرِهم، ولا يعبَأُ به، فيتوهَّموا أنَّه والشُّكر سواءٌ عنده، وليتأكَّد للسّامعين بذلك معنى استعمال الخبر في تنبيه المخاطَب على الخطأ[1].

نكتةُ التَّعبير بلفظ الرِّضا وتردُّده بين الحقيقة والمجاز:

من لوازم رضا الله عن العباد غفرانه لذنوبهم

الرِّضا يترتَّب عليه نفاسةُ المرضيِّ عند الراضي وتفضيله واختياره، وقد أبقاه السَّلف، والمحدثون في القرون الثَّلاثة الأولى، وبعض المتأخِّرين على أصله في لفظه، وأنَّ المراد منه بالنِّسبة للّه تعالى مخالف لمعناه المُتَبادَرِ منه، وأنَّ اللّه تعالى يوصَفُ به على معنى يليق به سبحانه، على حَدِّ قول البقاعي في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾، أي: الرِّضا اللّائق بجنابِهِ سبحانه، بأن يقرَّكم عليه، أو يأمركم به، ويثيبكم على فعلِهِ، وقال كثير من المتأخِّرين: تردُّد لفظِ الرِّضا بين الحقيقة والمجاز المرسل.

وحقيقةُ الرِّضا أنَّه: حالة نفسانيَّة تَعْقُبُ حصولَ مُلائِمٍ مع ابتهاج به، وهو آيل إلى معنى القبول، وإذا أسند الرِّضا إلى اللّه تعالى؛ تعيَّن أن يكون المقصودُ لازمَ معناه الحقيقيِّ؛ لأنَّ اللّه منزَّهٌ عن الانفعالات، فيؤول الرِّضا بلازمه من الكرامة والعناية والإثابة؛ إن عُدّي إلى الناس، ومن النَّفاسة والفضل؛ إن عُدّي إلى أسماء المعاني[2]، وعليه فهو مجازٌ مرسل بعلاقة اللُّزوم فيهما.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 337.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 337، 338.

بلاغةُ العطف بالواو في قوله: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ﴾:

الاشتراكُ في الحكم بين جملتي الشَّرط بجامع الضِّدّيَّة بينهما

الواو في قوله: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ﴾ عاطفة، عطفت جملة: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ﴾ على الجملة الَّتي قبلها ﴿إِن تَكۡفُرُواْ﴾، فهو عطفُ جملة على جملة بجامع المضادَّة بينهما في الشَّرط والجزاء، فالكفرُ ضدُّ الشُّكر الذي يُراد به هنا الإيمان، وعدم رضا اللّٰه عن كفر الكفار، ضدُّ رضاه عن شكر الشّاكرين وإيمان المؤمنين.

بلاغةُ التَّعبير باللّام في قوله: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾:

شكرُ الشّاكرين إنَّما هو لمنفعتهم في الدُّنيا والآخرة

اللّام في قوله: ﴿يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾ هي لام العلَّة، أو لام الأجْل، إنَّما آثرَ التَّعبير بلام العلَّة دون غيرها من الحروف، كـ(مِن) مثلًا، فلم يقل: يرضه مِنكم، مع أنَّه معنًى مستقيمٌ جائزٌ؛ للإشارة إلى أنَّه تعالى يرضى الشُّكرَ لأجل مصلحتكم ومنفعتكم، أي: إنَّ رضاه بشكر عباده الشّاكرين إنَّما هو لجلب المنفعة لهم، ودفعِ المضرَّة عنهم رحمةً بهم، في الدُّنيا والآخرة، أمّا في الدُّنيا؛ فالشُّكر يحفظ النِّعم، ويمنعها مِنَ الزَّوال، ويستوجبُ المزيد منها، ﴿لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡۖ﴾ [إبراهيم: 7]، وأمّا في الآخرة؛ فإنَّه يقي من عذاب اللّٰه تعالى: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ [النساء: 147][1]، ثم إنَّ من فوائد التَّعبير باللام هنا أيضًا التَّنبيهَ على مزيد الاختصاص[2]، أي: إن تشكروا؛ يَرْضَ الشُّكرَ لكم أنتم لا لغيركم.

دلالةُ إظهار جواب الشَّرط في قوله: ﴿يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾:

إظهارُ فضلِ الشُّكر وبيان ثمرته للشّاكرين

أظهر اللّٰه تعالى جواب الشَّرط في قوله تعالى: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡۗ﴾؛ لإظهار فضل الشُّكر، وبيان ثمرته للشّاكرين، وأنَّه سببٌ في رضا اللّٰه تعالى.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 244.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 233.

نكتةُ تقديم الكفر على الشُّكر في الجملتين الشَّرطيَّتَيْن:

لكثرة الكفّار وقلّة الشّاكرين عمومًا، وفي وقت نزول الآية خصوصًا

قدَّم الكفر في قوله: ﴿إِن تَكْفُرُواْ﴾ على الشُّكر في قوله: ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ﴾؛ للدَّلالة على كثرة الكافرين، وقلَّة المؤمنين الشّاكرين[1] على مدى الزَّمان، ولكونِ الكفّار في الواقع وقت نزول الآية أكثر، فهو يخاطب الكفّار في وقت هُم فيه الكثرة الكاثرة، والمؤمنون فيه قلَّة مستضعفة، ولأنَّ درْءَ المفسدة - وهي الكفر - مقدَّمٌ على جلب المصلحة، وهي الإيمان والشُّكر، ولأنَّ إبطال الباطل ببيان عدم رضا اللّه عنه طريق إلى إحقاق الحقِّ بأنَّ اللّه يرضاه.

نكتةُ حذْفِ متعلِّقَي الكفر والشُّكر:

حذف المتعلّقين للعلم بهما، وللدّلالة على عموم المعنى فيهما

حذفُ متعلِّقي الكفر والشُّكر في الجملتين للعلم بهما؛ إذ مِن المعلوم أنَّ المعنى: تكفروا باللّه، وتشكروا اللّه، وما لا يُستدعى ذكره؛ فإنَّ القرآنَ الكريم يؤثر حذفه إيجازًا، وهذا شأنُ الكلام البليغ، فكيف بالكلام المعجز؟ ثمَّ إنَّ مِن فوائد الحذف في لغة العرب الدَّلالةَ على العموم، أي: تكفروا باللّه، وبأسمائه وصفاته، وبنعمه، وتجحدوا فضله عليكم، وربوبيَّته لكم، وتشكروا اللّه ونِعَمَه، وتشكروا الرسول صلى اللّه عليه وآله وسلم، فإنَّه الَّذي دَلَّكم على اللّه، وعَرَّفكم به، وهداكم إليه، فأخَّركم اللّه به من الظُّلمات إلى النّور، وتشكروا كذلك كلَّ مَن أسدى إليكم معروفًا؛ لأنَّه مِن شُكْرِ اللّه تعالى.

بلاغةُ الطِّباق بين (الكفر) و(الشّكر)، ﴿وَلَا يَرْضَىٰ﴾ و﴿يَرْضَهُ﴾:

وضوح المعنى وبيانه

في الآية طباقان: **الأوَّل**: طباق الإيجاب بين قوله: ﴿تَكْفُرُواْ﴾ و﴿تَشْكُرُواْ﴾؛ جمع في المراد بالشُّكر بين الشُّكر على سبيل الحقيقة، والإيمان على سبيل الكناية، لمقابلته بالكفر، وهو يصلح لكفر الإيمان وكفر النِّعمة، **والثاني**: طباق السَّلب بين قوله: ﴿يَرْضَهُ﴾

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 482.

و﴿وَلَا يَرۡضَىٰ﴾، وكلٌّ منهما محسن بلاغيٌّ بديع؛ لأنَّه يزيد في وضوح المعنى وبيانه؛ إذ ذِكرُ الضِّدِّ أوضح في الدَّلالة على الضِّدَّين والحكم عليهما حُسْنًا أو قُبْحًا ممّا لو ذُكِرَ كلُّ واحد منهما لحاله، والطِّباق كذلك يُضْفي على الكلام بهاءً وجمالًا، فكيف وقد اجتمع طباقان في آية واحدة في التَّعبير القرآنيِّ المعجز؟.

دلالةُ التَّعبير بالواو في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ﴾:

جمال المعنى بتردُّد الواو بين العطف والاستئناف

الواو في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ﴾ استئنافيَّةٌ، والجملة بعدها مستأنفةٌ لا محلَّ لها من الإعراب(1)، والقصدُ من الاستئناف الانتقالُ إلى تقرير حكم جديد، بعد الحكم السّابق بعدم رضا اللّٰه لعباده الكفر، ورضاه الشُّكر لهم، وهو عدم تحمُّل نفسٍ آثمة إثمَ نفس أخرى، ويجوز أن تكون عاطفةً جملةً على جملة، والقصدُ من العطف الاحتراسُ من أَخْذِ اللّٰه الكلَّ بذنب البعض، وهو ما يُعرف بالعقاب الجماعي، وهذا المعنى المحترس منه أكَّده القرآن إثباتًا ونفيًا، أمّا الإثباتُ؛ ففي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَكۡسِبۡ إِثۡمٗا فَإِنَّمَا يَكۡسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفۡسِهِۦۚ﴾ [النساء: 111]، وقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ٣٨﴾ [المدثر: 38]، وأمّا النَّفي؛ ففي مثل هذه الآية.

بلاغةُ التَّعبير بـ(لا) في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾:

امتدادُ نفي هذا الحكم واستقباله

(لا) هنا في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ﴾ نافية، وهي تدلُّ بما فيها من حرف المدِّ على امتداد النَّفي مع الاستقبال باتِّفاق، أي: ولا تزر يوم الجزاء نفس وازرة وزر نفس أخرى، فكلُّ نفس بما كسبت رهينة.

دلالةُ التَّعبير بلفظ الوِزْر في قوله: ﴿تَزِرُ﴾:

الآثامُ والسَّيِّئات ثقيلة على ظهر صاحبها يوم القيامة

الوِزْرُ: الثِّقلُ تشبيهًا بِوزْرِ الجبلِ(2)، أي: ثِقْلُه، وسمّي به الإثمُ تنبيهًا على أنَّ الآثام والسَّيِّئات ثقيلةٌ على ظهر صاحبها يوم القيامة،

(1) الخطيب وآخران، التفصيل: 23/ 354، صافي، الجدول: 23/ 155.

(2) الراغب، المفردات: (وزر).

وهي تُحمل كما تحمل سائر الأثقال، كما قال سبحانه: ﴿وَلَيَحۡمِلُنَّ أَثۡقَالَهُمۡ وَأَثۡقَالٗا مَّعَ أَثۡقَالِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: 13].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعل المضارع في ﴿تَزِرُ﴾:

تجدُّد الحكمِ واستمراره على مدى الزَّمان المستقبل مع دلالته على العموم

عبَّر بالفعل المضارع في ﴿تَزِرُ﴾ بعد النَّفي بـ (لا)؛ للدَّلالة على تجدُّد النَّفي واستمراره، أي: إنَّه لا تحمل نفس مثقلة بذنوبها وزر نفس أخرى، وقد ذكر جمهور اللُّغويّين والأصوليّين أنَّ الأفعال نكرات، أو: الفعل في قوَّة النَّكرة[1]، بل قال الزَّركشي في البحر: "قال أبو القاسم الزجاجي في كتابه الإيضاح لأسرار النَّحو: أجمع النَّحويّون كلُّهم من البصريّين والكوفيّين على أنَّ الأفعال نكرات"[2]، فهذا الحكمُ عامٌّ في الحدث والزَّمان، أي: لا يتغيَّر مع أيِّ فردٍ من الأفراد في أيِّ وقت من الأوقات.

سِرُّ التَّعبير باسم الفاعل في ﴿وَازِرَةٞ﴾:

الدَّلالةُ على رسوخ الوصف في الفاعل

في التَّعبير باسم الفاعل في قوله: ﴿وَازِرَةٞ﴾ جمعَ بين الفعل والاسم والوصف من جهة، فـ(الوازر) هو مِن حمل الوزر، وفيه أيضًا دلالة على رسوخ الفعل أو الوصف في الفاعل من جهة أخرى.

نكتةُ تنكير ﴿وَازِرَةٞ﴾:

المبالغةُ في الدَّلالة على العموم

نكَّر قولَهُ: ﴿وَازِرَةٞ﴾؛ لأنَّ المرادَ العموم، والنَّكرة في سياق النَّفي تفيد العموم، بل هي من أقوى صيغ العموم، ثمَّ إنَّ العموم بالنَّكرة في سياق النَّفي في قوله: ﴿وَازِرَةٞ﴾ جاء بعد العموم بالفعل في قوله: ﴿تَزِرُ﴾ في سياق النَّفي أيضًا - كما تقدَّم - وفي الجمع بين كلمتين متتاليتين تفيدان العموم مبالغة في الدَّلالة على هذا المعنى أو الحكم المراد بيان عمومه، وهو بيان عدم سراية كفْرِ الكافر إلى غيره

(1) ابن رجب، تفسيره المجموع: 1/ 442، والزركشي، سلاسل الذهب، ص: 235، والبحر المحيط: 4/ 165 وما بعدها، تقي الدين السبكي، وتاج الدين السبكي، الإبهاج في شرح المنهاج: 4/ 1290.

(2) الزجاجي، الإيضاح، ص: 119، والزركشي، البحر المحيط: 4/ 175.

أصلًا، أي: ولا تحمل أيُّ نفسٍ وازرة آثمة أوزار نفس أخرى، بل كلٌّ مطالب بعمل نفسه خيرًا كان أو شرًّا[1].

بلاغةُ الحذف في ﴿وَازِرَةٌ﴾ و﴿أُخۡرَىٰۚ﴾:

الإيجازُ مع الوضوح واحتمال أكثر من معنى

أصلُ الكلام: ولا تَزِرُ نفس وازِرَةٌ وِزۡرَ نفس أخرى، فقوله: ﴿وَازِرَةٌ﴾، وقوله: ﴿أُخۡرَىٰۚ﴾ صفتان لموصوفين محذوفين، الموصوف المحذوف الأوَّل فاعل، والموصوف المحذوف الثّاني مضاف إليه، أو معمول المصدر ﴿وِزۡرَ﴾، أُضيف إليه، وقد حُذِفت هاتان الكلمتان لوضوح المعنى من جهة، وللإيجاز بِقِصَر العبارة من جهة أخرى، ثم إنَّ من دلالات الحذف إرادة العموم في معنى المحذوف؛ إذ يجوز أن يكون المحذوف فيهما كلمة (نفس)، وهذا ما ذكره أكثر المفسِّرين، أي: لا تحمل نفس وازرة وِزۡرَ نفس أُخۡرَى، كما يجوز أن يكونَ المحذوف فيهما كلمة (امرأة)، أي: لا تحمل امرأة وازرة وِزۡرَ امرأة أُخۡرَى، فإذا كان الضَّعيف - وهو المرأة - لا يُحۡمَل عنه أثقالُهُ مع ضعفِه، فكيف بالرِّجال الأقوياء الأشدّاء؟ وفي اجتماع هذه الأمور الثَّلاثة وغيرها منتهى البلاغة.

نكتةُ التَّأنيث في قوله: ﴿تَزِرُ﴾، و﴿وَازِرَةٌ﴾، و﴿أُخۡرَىٰۚ﴾:

الدَّلالة على عِظَمِ المحمول الثَّقيل مع ضعف الحامل

في تأنيث كلٍّ من ﴿تَزِرُ﴾، و﴿وَازِرَةٌ﴾، و﴿أُخۡرَىٰۚ﴾ دلالةٌ على ضعف الحامل (الوازِر)؛ إذ إنَّ الضَّعفَ من معاني التَّأنيث، وفي تأنيث هذه الكلمات الثَّلاث أيضًا تعريضٌ بالكفار، وأنَّهم كالنِّساء، لضعفهم عن اتِّباع الحقِّ؛ بسبب شهواتهم وأهوائهم، فإذا أضفنا إلى ذلك دلالة معنى الوزر، وهو الثِّقَل الشَّديد، الذي لا يستطيع أحدٌ حمۡلَهُ، كالجبل مثلًا، صَعُبَ على القويِّ حمۡلُهُ، فما ظنُّك به إن كان ضعيفًا.

بلاغةُ الاستعارة في لفظة الوزر:

في استخدام كلمة الوِزر في قوله تعالى: ﴿وَازِرَةٌ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ﴾

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 490.

استعارةٌ تصريحيَّة؛ إذ شبَّه تحمُّل الآثام، وهي شيءٌ معنويٌّ معقول، بتحمُّل الأثقال وهو شيءٌ ماديٌّ محسوس، بجامع الثِّقل في كلٍّ، ثم حذف المشبَّه، وأبقى المشبَّه به مصرَّحًا به، وفي هذ التَّشبيه - الذي هو أصل الاستعارة - تقريبُ المعنى للأذهان، وتَصَوُّر هذه الصّورة لضعيف يحمل حملًا ثقيلًا، وهو غير مستطيع، ولا يستطيع أن يتخلَّص منه، ومِن ثَمَّ تكون هذه الصورة مستبشعة عند الناس، لا سيَّما أصحاب النُّفوس المستقيمة منهم، وكذلك الثِّقَل المترتِّب على الذُّنوب والآثام.

في الاستعارة حقيقةٌ وفيها بيانٌ لا تسدُّ مسدَّه الحقيقة

غرضُ الجملة الخبريَّة ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ﴾:

غرضُ هذه الجملة إقرارُ أصلِ العدلِ في تحمُّل التَّبِعات من فاعليها لا من غيرهم، فالعدلُ كلُّ العدل أن يؤاخذَ المرءُ بجريرة ما يفعل، لا أن يحملَهُ عنه غيره، كما يكون في الدُّنيا من مؤاخذة النّاس بعضِهم بعضًا بما اقترف إثمَهُ واحد من العائلة، ولا ذنب للمؤاخَذ فيما أُخِذ به، وفي الجملة "تعريضٌ بالمتاركة وقطع اللِّجاجِ مع المشركين وأنَّ قصارى المؤمنين أن يرشدوا الضُّلّالَ لا أن يلجِئوهم إلى الإيمان"[1].

العـدلُ أن يتحمَّل التَّبِعات والأوزار فاعلوها وحدهم دونَ غيرِهم هو أصل العدل

بلاغةُ جناس الاشتقاق في قوله: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰۚ﴾:

في هذه الكلمات الثلاث ﴿تَزِرُ﴾، ﴿وَازِرَةٌ﴾، ﴿وِزْرَ﴾ جناس الاشتقاق؛ إذ الفعل واسم الفاعل والمصدر مرجعهم إلى مادة لغويَّة واحدة، اشتُقَّتْ منها، وهي (وزر)، وهذا من بديع الكلام مع خفَّته على أُذنِ السّامع دون ثِقَل.

الدّلالة على بديع الكلام مع خفَّته على الأذن

نكتةُ التَّعبير بـ﴿ثُمَّ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾؛ للتَّرتيب والتَّراخي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 341.

الرُّتبي والزَّمن، أي: وأعظم من كونِ اللّه غنيًّا عنكم أنَّه أعدَّ لكم الجزاء على كفرِكم، وسترجعون إليه[1]، بعد حين، فيجازيكم عليه، ويجوز أن تكونَ على بابِها من إرادة التَّرتيب والتَّراخي الزَّمني، أي: ﴿ثُمَّ﴾ بعد طول الإمهال لكم لطفًا منه بكم[2]، يكون مرجعكم إليه، على معنى: أنَّه بعد كفر من يكفر في الدُّنيا، وإيمان من يؤمن سيكون مرجعكم جميعًا إلى ربِّكم، ليحاسبكم يوم القيامة على أعمالكم، إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ، فالجملة على هذا "خطاب للفريقين"[3]؛ لتكون تهديدًا ووعيدًا للكافرين، ووعدًا وبشرى للمؤمنين.

الدَّلالةُ على التَّرتيب والتَّراخي في الرُّتبة والزَّمن معًا

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿إِلَىٰ رَبِّكُم﴾:

التَّقديم لإفادة القصر والاختصاص

قُدِّم في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾ شبه الجملة - الجار والمجرور - وهو خبر مقدَّم على قوله: ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾، وهو مبتدأ مؤخَّر؛ لإفادة القصر والاختصاص، أي: إلى ربِّكم وحده لا غيره المرجع؛ لأنَّه وحده هو الذي سيحاسبكم على أعمالكم.

نكتةُ إضافة لفظ الرُّبوبيّة إلى ضمير المخاطَب:

زيادةُ التَّهديدِ والوعيد بالخطاب

إنَّما أضاف لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير المخاطَبين في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ﴾؛ ليكونَ التَّهديد والوعيد مع الخطاب أقوى وآكد؛ لأنَّ مخاطبةَ المُتوعَّدِ المهدَّد المتمكَّن منه، بوجوده في قبضة المخاطِب، أشدُّ في الوعيد والتَّهديد مع كمال الخزي والذُّلِّ.

دلالة التَّعبير بقوله: ﴿مَّرْجِعُكُمْ﴾:

أصل الرُّجوع: العود إلى ما كان منه البدء[4]، ولأنَّ بدءَ خلق الإنسان هو مِنَ اللّه تعالى، فإنَّ رجوعَهُ إليه عند انقضاء حياته، هو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 341.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 7/ 343.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 484.
(4) الراغب، المفردات: (رجع).

عود إلى مَن كان منه البدءُ، وهو اللّه تعالى، كما قال سبحانه: ﴿إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗاۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ إِنَّهُۥ يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلۡقِسۡطِۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ شَرَابٞ مِّنۡ حَمِيمٖ وَعَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡفُرُونَ ٤﴾ [يونس: 4]، وقال أيضًا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ﴾ [الروم: 27].

كما كان البدءُ من الله وحده، فكذلك يكون المرجع والمآب؛ ليقعَ الجزاءُ والحساب

نكتةُ التَّعبير بصيغة مَفعِل في قوله: ﴿مَّرۡجِعُكُمۡ﴾:

إفادةُ الصّيغة الواحدة جملةً من المعاني المختلفة

صيغة مَفعِل في قوله: ﴿مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ تصلح أن تكون مصدرًا ميميًّا بمعنى الرُّجوع، وتصلح أن تكونَ اسم مكان واسم زمان، وفي التَّعبير بهذه الصّيغة على هذا النَّحو إيجازٌ بليغٌ، والمعنى: إليه وحده رجوعكم، وإليه وحده أيضًا زمان ذلك الرُّجوع، تحديده ومعرفته، وإليه كذلك مكان رجوعكم، وتهيئة ذلك المكان للرُّجوع، ومعرفة كيفيَّته حال رجوعكم بعد تهيئته.

وللتَّأكيد على أنَّه سبحانه كما كان منه البدء، فإنَّه يكون إليه وحده المرجع والمآب، ليقع الجزاء والحساب.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾:

تجدُّد الإنباء في المستقبل مع تجدُّد المُنبَّأ به وتتابعه

عبَّر بالفعل المضارع في قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾؛ للدَّلالة على الاستقبال، وللدَّلالة على تتابع الإنباء بأعمالهم السَّيِّئة مرّات ومرّات وتجدُّد الإنباءِ في هذا الموقف حتى يتمنّى هؤلاء أنَّهم لم يُخلَقوا، ولا شكَّ أنَّ أعمالهم السَّيِّئة كثيرةٌ؛ لأنَّ الكافر لا يرعوي من إضافة ذنوب أخرى كثيرة إلى ذنبه الأكبرِ، وهو الكفرُ، وفي ذلك الموقفِ يقرأ عليه كتاب أعمالِهِ المعبَّأ بقبيح الفعال والأقوال؛ ليكونَ شاهدًا على نفسه حين يعلم فداحة جزائه.

نكتةُ التَّعبير بالإنباء بدل الإخبار في قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾:

الإنباءُ: هو الإخبار بالأمور العِظام، التي لها خطرها، فلا يكون

الإنباء بسفاسف الأمور، ولمّا كان السّياقُ في الآية يشير إلى كفرِ هؤلاء، وكان الكفرُ أمرًا عظيمًا؛ ناسب أن يكونَ التَّعبير بالإنباء، الَّذي يشمل الكفر وتوابعه من الذُّنوب.

خطورةُ ذلك الموقف وعِظَمُهُ

بلاغة الخطاب في قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾:

لمّا كانت الآيةُ في سياق تهديد الكفّار، وأنَّه سبحانه سينبِّئهم بقبيح أعمالهم، ليعاقبَهم بها، وكان الخطاب والمواجهة به أنكى في التَّهديد والوعيد، وأوفر حظًّا في الخزي والذُّلِّ؛ ناسب أن يخاطبَ هؤلاء بفعل الإنباء في قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم﴾.

زيادة التَّهديد والوعيد

نكتة التَّعبيرِ بالباء في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾:

يحتملُ أن يكونَ حرفُ الباء هنا للإلصاق والملابسة، وأن يكون للمصاحبة أو لغير ذلك، والمعنى: فينبِّئكم بما لصق بكم في الدُّنيا، أو صاحبكم، وصحبتموه، أو لابسكم، ومضى معكم في حياتكم.

احتمالُ الباء لجملة من المعاني

بلاغةُ التَّعبير بـ(ما):

(ما) يحتمل أن تكون موصولةً، أي: فينبِّئكم بكلِّ الَّذي كنتم تعملونه، والجملة بعدها صلةُ الموصول، ويحتمل أن تكونَ (ما) مصدريَّة، أي: فينبِّئكم بعملكم، وفي كلا الأمرين دلَّت (ما) على العموم، إمّا بذاتها؛ إذا كانت موصولةً، وإما بمصدرها المؤوَّل المضاف إلى الضَّمير؛ إذا كانت مصدريَّةً.

الإيجازُ وإفادة العموم مع احتمالها الموصوليَّة والمصدريَّة

نكتة التَّعبير بفعل الكينونة في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾:

عدّى القرآن فعل الإنباء بقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، ولم يقل مثلًا: بما عملتم؛ ليجمعَ بين قوَّة الصِّلة بين الإنباء والمنبَّأ به من جهة، وبين الدَّلالة على الماضي في ﴿كُنتُمْ﴾، والمضارع في ﴿تَعْمَلُونَ﴾، وللدَّلالة على لصوق العمل بهم، فإنَّ الفعل (كان) يدلُّ على زمانٍ بلا حدث؛ ليتوصَّل بقوَّة صلته بالفاعل إلى المفعول الَّذي تعدّى إليه بحرف الجرِّ (الباء).

قوَّة التَّرابط بين الإنباء والمنبَّأ به

بلاغةُ التَّعبير بالفعل الماضي في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾:

الدَّلالة على أنَّ الإنباء ناتج عن علم ويقين

إنَّما عبَّر بالفعل الماضي في قوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ﴾؛ ليؤكِّد على أنَّ هذا الإنباءَ إنَّما يكون عن علم ويقين، لا عن ظنٍّ وتَخَرُّص؛ لأنَّ أعمالهم كانت، وانتهت، والماضي في ﴿كُنتُمْ﴾ التي ربطت بين الفعل والمفعول أقوى في الدَّلالة على العلم من المضارع؛ لأنَّ الإنسان قد يشكُّ فيما يحدث الآن، لكنَّه لا يمكن أن يشكَّ فيما حدث، وانقضى.

دلالةُ التَّعبير بالمضارع في﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

استحضارُ حال الكفار الماضية

عبَّر بالمضارع في قوله: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ لاستحضار الحال الماضية الَّتي كانوا يكفرون فيها، ويعملون ما يشاؤون من أعمال السّوء التي لم يحسِبوا ليوم الجزاء عليها حسابًا.

فائدةُ التَّعبير بالعمل دون الفعلِ في قوله: ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

الدَّلالةُ على قصدهم الكفرَ وتكراره منه

كان التَّعبيرُ القرآنيُّ ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ بإيثار لفظ العمل على الفعل، فلم يقل: بما كنتم تفعلون؛ لأنَّ الفعل يكون بقصدٍ وبغير قصدٍ، بخلاف العمل فإنَّه لا يكون إلّا بقصد، ولذلك لا يقع إلّا من المكلَّف، ولأنَّ العمل يتكرَّر غالبًا، ويطول زمانه؛ إن لم يتكرَّر، بخلاف الفعل، ولأنَّ العمل له أثرٌ في صاحبه، لتكراره منه، أو لطوله معه[1]، وعليه فإنَّ التَّعبير بالعمل يدلُّ على أنَّ أعمالَهم السَّيِّئة من الكفر وتوابعه مقصودة متكرِّرة تؤثِّر فيهم قسوة قلب وعناد وجحود.

نكتةُ حذف مفعول ﴿تَعۡمَلُونَ﴾:

العلمُ به مع الدَّلالة على العموم

حُذِفَ مفعولُ ﴿تَعۡمَلُونَ﴾؛ لكونه معلومًا ممّا سبق، ولدلالتهِ على العموم، فإنَّ مِن فوائد حذْفِ المفعول دلالتَهُ على العموم، أي: فينبِّئُكم بكلِّ ما كنتم تعملونه مِنَ الكفرِ وما ترتَّب عليه مِن أعمال أخرى نتيجة عدم الإيمان برقابة اللّهِ عليهم وعلى أعمالهم.

---

(1) الراغب، المفردات: (عمل).

نكتة فصل قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

هذه الجملة كالنتيجة والعلَّة لسابقتها

قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تُرِكَ العطف هنا؛ لكمال الاتِّصال على أنَّه تعليلٌ لما قبله؛ لأنَّه إذا علمَ مضمراتِ الصُّدورِ - وهي أخفى ما يكونُ - كان أعلمَ بغيرِها[1] من أعمال العباد، أو على أنَّه كالنَّتيجة لما قبله، فإنَّ الكفر والإيمان ممّا يضمر في القلوب والصُّدور، ويدلُّ عليه ظواهر الأعمال، فيلزم من عمومِ علمِ اللّٰه بغيب السَّموات والأرض علمه بما في صدور النّاس[2].

فائدةُ توالي المؤكِّدات في قوله: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

تحقيقُ معنى جملة التَّذييل

في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ ذِكرٌ لعدد من المؤكِّدات بغرض الاهتمام بالحكم الَّذي في جملة التَّذييل، وحثُّ الكفّار على الارعواء والانتهاء عمّا انطوت عليه قلوبُهم مِنَ الكفر وتوابعه، وحثُّ جميع النّاس على التَّحقُّق بالإخلاص الكامل للّٰه ﷻ في أعمالهم الصّالحة والبُعد عن الشِّرك الخفي وهو الرّياء، وفي سبيل تقرير ذلك كلِّه أكَّد هذا التَّذييل بـ (إنَّ) التَّوكيديَّة المؤكِّدة لمضمون الجملة، واسميَّة الجملة المؤكِّدة لثبوت المعنى ودوامه، والعموم والشُّمول، والمبالغة في صفة ﴿عَلِيمُۢ﴾ التي تعني شمولَ عِلمه سبحانه بكلِّ شيءٍ، وإن دقَّ وصغر، وأنَّ المعلومات مهما كانت كثيرة؛ فإنَّها لا تعزب عن علمهِ سبحانه المطلق الشّامل.

بلاغةُ استعمالِ صيغة فعيل للإخبارِ عن علم اللّٰه:

المبالغة في سَعة علمه تعالى ولزوم ذلك ودوامه

قال اللّٰه تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، ولم يقل: عالم أو علّام مثلًا، لما في صيغة عليم من الدَّلالة على المبالغة في متعلِّقات الصِّفة (معلومات اللّٰه تعالى)، لا في ذات الصِّفة (لا يضلُّ ربي ولا ينسى)؛ لأنَّ صفاتِ اللّٰه تعالى في أعلى درجات الكمال المطلق، وأيضًا لما في صيغة عليم من الدَّلالة على الصِّفة المشبَّهة باسم الفاعل، مع معاملة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 155.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 321.

الفعل المتعدّي معاملة الفعل اللّازم، وعلى هذا الوجه تفيد الصّيغة لزوم الصِّفة للموصوف ورسوخه فيها، كعظيم وشريف ورحيم.

فائدة تنكير ﴿عَلِيمُۢ﴾ وتنوينه:

التَّعظيم والتَّفخيم

الفائدةُ من تنكير كلمة ﴿عَلِيمُۢ﴾ وتنوينها، تعظيم علمه سبحانه وتفخيمه، والدَّلالة على شموله وسعته، بحيث لا يغيب عنه سبحانه منه مثقال ذرَّة، فضلًا عن أن يغيب عنه أيُّ شيء ممّا تكنُّه الصُّدور وتخفيه، أو تنطوي عليه.

نكتةُ تذييل الآية بصفة العلم:

كمال العلم بأحوال الخلق يدلُّ على كمال جزائهم على أعمالهم مهما حاولوا إخفاءها

التَّعبيرُ بقوله: ﴿عَلِيمُۢ﴾ فيه إشعارٌ للخلق بأنَّ خالقهم لمّا كان متَّصفًا بكمال العلم وسَعته وشموله كلَّ شيء؛ كان هو الأعلم بمدى ما يصلحهم، فلا يعلم مَن يصلح الخلق إلّا مَن خلق: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾ [الملك: 14]، فمَن خلق السَّماوات والأرض، وعلم غيبيَّهما، هو من خلَقَهم، وبعث إليهم الرُّسل لحاجة أنفس المبعوث إليهم، ولوجود منفعة لهم في ذلك، لا لحاجة المرسل والباعث أو لمنفعة له، فحاشاه، ولذا فإنَّ عليهم الإيمان به والإخلاص له، فإنَّهم مهما حاولوا إخفاء شيء عليه من كفر أو غيره، فإنَّ اللّٰه يعلمه؛ لأنَّه ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، أي: خفاياها، فكيف بما هو أقلُّ منها؟ ثمَّ إنَّه مجازيهم بحسب علمه بما يستحقّون مِن جزاء.

فائدة الباءِ في قوله: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

الجمعُ بين الإلصاق والمصاحبة

الباء في قوله: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ للإلصاق، الذي هو أصل معنى الباء، والذي لا يفارقها مهما تعدَّدت معانيها، وهي أيضًا للمصاحبة، وذلك أنَّ "المراد ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ الأسرار التي تحتويها أو القلوب التي فيها، وأحوالها بجعلها لاختصاصها بالصُّدور وشدَّة التصاقها بها، كأنَّها صاحبة للصُّدور المالكة لما فيها"[1].

(1) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 5/ 71.

بلاغةُ حذفِ الموصوف في قوله: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

الــدَّلالــةُ على عموم ما يصلح له الوصف

(ذات)، معناها: صاحبة، وهي مؤنَّث (ذو) بمعنى صاحب، وهي صفة لموصوف محذوف يحتمله كلُّ معنى يصلح له ذلك الوصف، وتقديره الأعمالُ أو النّيّات أو أمور الإيمان والكفر، أو الأسرار والخبايا، ويكون المعنى: بالأعمال صاحبة الصُّدور، المستقرَّة في النّيّات، أو بالنّيّات المستترة في الصُّدور أو بأمور الإيمان والكفر الخفيَّة في الصُّدور، فعبَّر بـ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ عمّا يحلُّ بها[1].

نكتةُ مجيءِ (ال) التَّعريفيَّة في﴿ٱلصُّدُورِ﴾:

شـمـولُ عِـلـمه تعالى لكلِّ ما في الصُّدور

(ال) في﴿ٱلصُّدُورِ﴾ للجنس باعتبار أفراده، أو لاستغراق الأفراد، فتفيد العمومَ والشُّمول، فاللّٰه تعالى يعلم كلَّ ما في جميع الصُّدور في آنٍ واحد، بحيث لا يخفى عليه شيءٌ ممّا تكنُّه، وتعمل على إخفائه وعدم إظهاره.

بلاغةُ التَّعبير بقوله: ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾:

الـجـمـعُ بين الـحـقـيـقـة (الكناية) والمجاز

التَّعبيرُ بذات الصُّدور - وهي القلوب - مرادٌ به ما حلَّ فيها مِنَ المعتقدات والأسرار، فهو من هذه الجهة مجازٌ مرسل بإطلاق المحلِّ وإرادة الحالِّ فيه، وأيضًا هو كناية عن موصوف، فذات الصُّدور هي القلوب؛ لأنَّ الصُّدور هي موضعها، ثمَّ إنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ "كناية عن انتفاء أن يفوت علمَهُ تعالى أيُّ شيء، وذلك كناية عن الجزاء عليه، فهي كناية رمزيَّة"[2]، وبهذا يكون التَّعبير ﴿بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ دالًّا على الحقيقة ولازمها والمجاز في آن واحد، أمّا الحقيقة؛ فلأنَّ الكناية تجمع بين المعنى الحقيقيِّ ولازمه، وأمّا المجاز المرسل؛ فظاهرٌ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 342.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 322.

﴿۞وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةٗ مِّنۡهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادٗا لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦۚ قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ ٨﴾ [الزمر: 8]

۞ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

دعاء الله عند الضُّرِّ، والإعراض عنه عند زواله، فسادٌ في الطَّبع وتناقض

لما بيَّن اللّه تعالى فيما سبق فسادَ القول بالشِّرك، وبيَّن أنَّ اللّه تعالى هو الَّذي يجب أن يُعبَد؛ بيَّن في هذه الآية أنَّ طريقة هؤلاء الكفّار الذين يعبدون الأصنام متناقضةٌ، وذلك لأنَّهم إذا مسَّهم نوعٌ من أنواع الضُّرِّ؛ لم يرجعوا في طلب دفْعِهِ إلّا إلى اللّه، وإذا زال ذلك الضُّرُّ عنهم؛ رجعوا إلى عبادة الأصنام، ومعلوم أنَّهم إنَّما رجعوا إلى اللّه تعالى عند حصول الضُّرِّ؛ لأنَّه هو القادر على إيصال الخير ودفع الضُّرِّ، وإذا عرفوا أنَّ الأمر كذلك في بعض الأحوال؛ كان الواجب عليهم أن يعترفوا به في كلِّ الأحوال، فثبت أنَّ طريقتهم في هذا الباب متناقضةٌ[1].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضُرٌّ﴾: أصل الضَّرِّ: امتلاءٌ بِرخوٍ مجتمعٍ يلزمه التَّضييق أو الضَّعف والنَّقص[2]، فالضُّرُّ: الهُزالُ، وهو ضَعفٌ، والضِّرُّ: تَزَوُّجُ المَرْأةِ عَلى ضَرَّة، وهو نَقصُ نصيب كلٍّ منهما من الزَّوج، وضَرَّةُ الدّابَّة: ضرْعُها المُمتَلِئُ، وهو لا يَخلو مِنَ اللَّبَنِ، والضَّريرُ: الَّذي به ضَرَرٌ من ذهابِ عَينِه، أو ضَنَى جِسمِه، والأوَّل نقصٌ، والثّاني ضَعفٌ وهُزالٌ، والاضطرار: الاحتياجُ إلى الشَّيءِ بسبب نقصٍ أو ضَعفٍ، والضّيق

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 427.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضر)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (ضرر).

والضاروراء: القحط والشدَّةُ، وكلُّ ذلك نقص وتضييق وضَعف، والضرُّ خِلاف النَّفْع، يُقالُ: ضَرَّهُ يَضُرُّهُ ضَرًّا ثُمَّ يُحْمَلُ عَلى هَذا كُلُّ ما جانَسَهُ، أو قارَبَهُ[1]، والضَّرُّ - بفتح الضّاد - المَصْدَرُ، والضُّرُّ - بضمّها - الاسمُ، وقيلَ: هُما لُغَتانِ كالشَّهْد والشُّهْد، فإذا جَمَعْتَ بَينَ الضَّرِّ والنَّفع؛ فَتَحتَ الضّادَ، وإذا أفردت الضُّرَّ؛ ضَمَمت الضّادَ؛ إذا لَم تَجْعَلْهُ مَصْدَرًا، كقولِكَ: ضَرَرْتُ ضَرًّا؛ هَكَذا تَستَعمِلُهُ العَرَبُ[2]، والضُّرُّ: سوءُ الحال بإطلاق، إمّا في النَّفس لقلَّة العلم والفضل والعفَّة، وإمّا في البدن لعدم جارحة أو نقص، وإمّا في حالة ظاهرةٍ من قلَّة مال وجاه، وقوله تعالى: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّۖ﴾ [الأنبياء: 84]، وقوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾ محتمل لثلاثتها[3].

2) ﴿مُنِيبًا﴾: أصل النَّوْب: عَوْدٌ إلى الشَّيءِ ومُضامَّةٌ له مَرَّة بعد أخرى[4]، أو هو: اعتيادُ مَكانٍ ورُجوعٌ إلَيهِ - أي: مرَّة بعد مرَّة حتى يصير عادة[5]، والنّائِبَةُ: المُصيبةُ، وجمعها نوائب، وهي ما ينزل به من المهمّات والحوادث؛ لأنَّها تنزل بهذا مرَّة وبغيره أخرى فهي من المعاودة، والنّائِبَةُ: النّازلةُ[6]، والإنابة إلى الله تعالى: الرُّجوع إليه بالتَّوبة وإخلاص العمل، قال تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص: 24][7]، ومعنى: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾، أي: راجعًا إلى الله بالدُّعاء لا يدعو غيره[8].

3) ﴿خَوَّلَهُۥ﴾: (خول) أصل يَدُلُّ عَلى تَعَهُّدِ الشَّيءِ[9]، والتَّخويل: إعطاء الخَول، أي: إعطاء ما يصير له خولًا، وقيل: إعطاء ما يحتاج أن يتعهَّده، من قولهم: فلان خالُ مالٍ، وخايِلُ مالٍ، أي: حسن القيام به[10]، والخَول ما أعطى اللّهُ ﷻ الإنسانَ مِنَ النِّعَم، والخَول: العَبيدُ والإماءُ وغَيرُهُم مِنَ الحاشيَةِ[11]، ومعنى ﴿خَوَّلَهُۥ﴾، أي: أعطاه، ومَلَّكه.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ضر).
(2) ابن منظور، لسان العرب: (ضرر).
(3) الراغب، المفردات: (ضر).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نوب).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوب).
(6) ابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (نوب).
(7) الراغب، المفردات: (نوب).
(8) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 171.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خول)، والحديث رواه البخاري بنحوه في كتاب العِلْم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم، كي لا ينفروا، وفي كتاب الدعوات باب الموعظة ساعةً بعدَ ساعة.
(10) الراغب، المفردات: (خول).
(11) ابن منظور، لسان العرب: (خول).

4) ﴿أَندَادًا﴾: أصل النِّدِّ تباعُدُ بَعْضِ الشَّيءِ من بَعْضِه امتدادًا إلى أعلى أو تفرُّقًا وشرودًا، ومن ذلك النِدُّ: النَّظير، والمِثل والشِّبْه، كأنَّه أصله المُطاول له، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [البقرة: 22]: نُظَراء وعُدَلاء[1]، أي: الآلهة الَّتي جعلوها مستعلية معه، ومطاولة له في الألوهيَّة، وهي أبعد ما تكون عنها، والجذر (ندد) يَدُلُّ عَلى شُرودٍ وفِراقٍ، ونَدَّ البَعيرُ نَدًّا ونُدودًا: ذهبَ عَلى وجْهِهِ شارِدًا، ومِنَ البابِ النِّدُّ والنَّديدُ: الَّذي يُنادُّ في الأمرِ، أي: يَأتي برأيٍ غيرِ رَأيِ صاحِبِهِ[2]، ونَديدُ الشَّيءِ: مُشارِكه في جَوْهَره، وذلك ضربٌ من المُماثلة، فإنَّ المِثْل يُقال في أيِّ مشاركةٍ كانت، فكلُّ نِدٍّ مثلٌ، وليس كلُّ مثلٍ نِدًّا[3]، و(النِّدُّ) هو الشَّبيه والضدُّ أيضًا، فحقيقة (النِّد) المِثْل المناوئ، ولهذا يقال للضِّدِّ: (ندٌّ)، ثم استُعمل في المِثل، وإن لم يكن هناك مخالفة[4]، ومعنى: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، أي: أمثالًا، ونُظَراءَ، وشُرَكاءَ.

5) ﴿تَمَتَّعۡ﴾: (متع) أصل يَدُلُّ عَلى مَنفَعَةٍ وامتِدادِ مُدَّةٍ في خَيرٍ، ومِنهُ: استَمتَعتُ بِالشَّيءِ، والمُتعَةُ والمَتاعُ: المَنفَعَةُ[5]، ويقال لما يُنتفع به في البيت: متاعٌ، ومنه قوله تعالى: ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥۚ﴾ [الرعد: 17]، وكلُّ ما يُنتفع به على وجه ما؛ فهو مَتاعٌ ومُتْعَةٌ[6]، ومعنى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، أي: تمتَّع بالسَّلامة من العذاب في زمن كفرك أو متكسِّبًا بكفرك تمتُّعًا قليلًا، أو زمنًا قليلًا، فأنت آيل إلى العذاب؛ لأنَّك من أصحاب النّار[7].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

يبيِّن اللّه تعالى في هذه الآية أنَّ الإنسانَ إذا أصابَه ضُرٌّ وشِدَّةٌ؛ دعا رَبَّه راجعًا إليه ومخلصًا له؛ ليَكشِفَ عنه ضُرَّه، ثمَّ إذا كشَفَ اللّهُ ضُرَّه، وأعطاه نِعمةً منه، نَسيَ الضُّرَّ الذي كان يتضَرَّعُ إلى رَبِّه أن يَكشِفَه عنه مِن قَبلُ، وجعَلَ لله شُرَكاءَ ونَظائرَ يَعبُدُها؛ ليُضِلَّ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (نوب).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ند).
(3) الراغب، المفردات: (ندد).
(4) الواحدي، التفسير البسيط: 2/ 230.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (متع).
(6) الراغب، المفردات: (متع).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 344.

الإقبالُ على الله عند الحاجة والتولّي عنه عند زوالها من صفة أهل الكفر

النّاسَ بذلك الفِعلِ عن سَبيلِ اللّهِ وعن دينِه الذي ارتضاه لِعِبادِه، قُل أيُّها النَّبيُّ لهذا الإنسانِ الذي جعَلَ لله شُرَكاءَ في العبادةِ: تمتَّعْ بكُفرِك زَمانًا قَليلًا أو متاعًا قليلًا، إنَّك مِن أصحابِ النّارِ الملازِمينَ لها، والخالِدينَ فيها[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ التَّعبير بالواو في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ﴾:

جمع الواو بين الاستئناف والعطف

الواو استئنافيَّة[2]، والجملة بعدها مستأنفة؛ لبيان تناقضِ الكافر مع نفسه؛ حيث إنَّه يكفر باللّه عند الرَّخاء، فإذا ما ألَمَّت به شدَّة؛ هُرِع إلى ربِّه يدعوه؛ ليخرجه منها، فالاستئناف "شروعٌ في بيان قبح الإنسان في حالتَي الضُّرِّ والسُّرور"[3]، وتناقضه مع نفسه في التَّفرقة بينهما حين يتعامل مع ربِّه.

ويمكن أن تكون الواو عاطفة، والجملة بعدها معطوفة على جملة: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمۡ لَهُ ٱلۡمُلۡكُۖ﴾؛ لاشتراك الجملتين في الدَّلالة على أنَّ اللّه منفردٌ بالتَّصرُّف مستوجب للشُّكر، وعلى أنَّ الكفر به قبيح[4].

بلاغةُ التَّعبير بالجملة الشَّرطيَّة:

الدَّلالة على الاستقبال والدَّوام والاستمرار

الشَّرط مفهوم من استهلال الآية بـ (إذا)، وهي ظرف في الغالب لما يستقبل من الزَّمان، ومتضمِّنة مع ظرفيَّتها معنى الشَّرط، ويأتي التَّعبير بها حال كان المقصود من الكلام التَّعبير بما يقطع بوقوع المظروف مستقبلًا، أو الدَّلالة على أنَّه يقع كثيرًا، وما هنا هو من هذا الباب الثاني، أي: إنَّ أكثرَ حالات الإنسان وخصوصًا الكافر منه أنَّه لا يجأر بالدُّعاء إلى اللّه تعالى، ولا يتوجَّه إليه بقلبِه

(1) مجموعة من المؤلفين، التفسير المحرر: 29/ 72.
(2) الدرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 396.
(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 484.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 342.

إلّا حينما تصيبه نائبةٌ من نوائب الدَّهر، فإذا أنجاه اللّه منها، وصرفها عنه؛ رجع إلى حالتهِ الأولى، وكأنَّه ليس هو نفس الإنسان الَّذي كان عمّا قريب مبالغًا في الالتجاء إلى ربِّه.

بلاغةُ التَّعبير بـ(إذا) ودلالة التَّعبير بها دون (إن):

تحقُّق وقوع ما بعدها وكثرته وتكراره

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ (إذا) التي تفيد تحقُّق وقوع ما تدخل عليه مستقبلًا، أو الدَّلالة على كثرة وقوعه دون (إن) التي يعبَّر بها في الشَّرط في المشكوك في وقوعه أو الَّذي إن وقع؛ فهو قليل ونادر؛ لأنَّ وقوع الإنسان في الضُّرِّ أمرٌ متحقَّق، ويقع كثيرًا[1].

دلالةُ التَّعبير بفعل المسِّ:

المسُّ أوَّل درجات الإصابة وأدناها، فكيف لو أصيب الإنسان بمعظمها

ممّا يلفت النَّظر في دقَّة التَّعبير القرآنيِّ هو إيثارُه التَّعبير بالمسِّ الَّذي يعبِّر عن اللَّمس الرَّقيق، وهو أوَّل درجات الإصابة وأدناها، دون التَّعبير بالإصابة، فلم يقل: (وإذا أصاب الإنسان ضر)، فيشعر بعمق الإصابة والإيلام؛ وذلك للدَّلالة على سرعةِ الالتجاء إلى اللّه من قبل الإنسان في أوَّل مراحل إصابته بالضُّرِّ وأدناها، وهي المدلول عليها بالمسِّ، فكيف إذا تعمَّقت الإصابة، وبلغ الضُّرُّ غايته؟ وهذا من باب التَّنبيه بالأدنى على الأعلى.

نكتةُ التَّعبير بالفعل الماضي في جملة الشَّرط ﴿وَإِذَا مَسَّ﴾:

تحقُّق وقوع المسِّ

(إذا) تدلُّ على تحقُّق ما تدخل عليه، أو كثرته وتكراره، ودخلت على الفعل الماضي (مسَّ)؛ للدَّلالة على تحقُّق وقوع الفعل، فإنَّ التَّعبيرَ بالماضي في مجال الحال أو الاستقبال يفيد تحقُّق وقوعه وتأكيده، كما أخبر ربُّنا عن السّاعة أو عن يوم القيامة بالفعل الماضي في قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: 1]، وعلى هذا يكون قد اجتمعت الدَّلالة على تحقُّق وجود الفعل في المستقبل

(1) ذكر الفرّاء أنّها تجيء للدَّوام والدَّأب، ويُنظر: السامرائي، معاني النحو: 2/ 207.

بأمرين: التَّعبير بـ(إذا) دون (إن) أوّلهما، وثانيهما دخول (إذا)، والتعبير عن المستقبل بالفعل الماضي.

بلاغةُ المجازِ في التَّعبير بالمسّ عن الإصابة:

التَّنبيه بالأدنى على الأعلى

في التَّعبير بالمسِّ في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ﴾ استعارة تصريحيَّة تبعيَّة؛ حيث استُعمِل المسُّ في معنى الإصابة، وسرُّ العدول عن التَّعبير بالإصابة إلى التَّعبير بالمسِّ، هو أنَّ التَّعبير بالمسِّ أرقُّ من التعبير بالإصابة، فإذا عبَّر به؛ فقد اكتنف ما هو أعلى منه من باب أولى، فيكون من باب التَّنبيه بالأدنى على الأعلى، كما مضى ذكره.

دلالةُ التَّعبير بـ(ال) في﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

احتمالها للعهد والجنس والاستغراق

(ال) في لفظ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ يمكن أن تكون للعهد، أي: الإنسان الكافر المعهود بذلك الأمر، والمدلول عليه بقوله في آخر الآية: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا﴾، ويمكن أن تكون لاستغراق الجنس، أي: جنس الكفار، ويمكن أن يكون لاستغراق الأفراد، أي: كل أفراد الإنسان، فهو في الكافر أصالة، وفي المؤمن تبعًا، على قدر ضعف الإيمان فيه، فإذا اشتدَّ ضعف الإيمان عنده؛ كان أقرب ما يكون في حاله إلى الكافر، وإذا قوي إيمانه؛ ضعف هذا الحال فيه، وإن كان السّياق يرجِّح المعنى الأوَّل مع احتمال الثّاني والثّالث.

نكتةُ تقديم المفعول على الفاعل:

الاهتمام بالمفعول

قدَّم المفعول على الفاعل في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾؛ لأنَّ المفعول هنا - وهو الإنسان - هو محورُ الحديث ومحلُّ الاهتمام، وليس الضُّرَّ، ولذا قدَّمه.

نكتةُ وضع الظاهر موضع المضمر في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرٌّ﴾:

ذِكرُ الإنسانِ إظهارٌ في مقام الإضمار؛ لأنَّ المقصود به المخاطَبون بقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ﴾، إلى قوله: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ

﴿تَعۡمَلُونَۚ﴾، فكان مقتضى الظّاهر، أن يقال: وإذا مسّكم الضُّرُّ؛ دعوتم ربَّكم... إلخ، فعدل إلى الإظهار؛ لما في معنى الإنسان من مراعاة ما في الإنسانيَّة من التَّقلُّب والاضطراب والنّسيان وكفران النِّعم، إلّا من عصمه اللّه بالتَّوفيق، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوۡفَ أُخۡرَجُ حَيًّا ٦٦﴾ [مريم: 66]، وقوله: ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ٣﴾ [القيامة: 3]، وغير ذلك، ولأنَّ في اسم الإنسان مناسبةً مع النِّسيان الآتي في قوله: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ مِن قَبۡلُ﴾[1].

التَّقلُّب والاضطراب والنسيان صفات مركوزةٌ في طبع الإنسان عامّةً والكافر خاصّةً

دلالةُ التَّعبير بلفظ الضُّرِّ:

مضى في شرح المفردات أنَّ الضُّرَّ بِالضَّمِّ: الهزالُ وسوءُ الحالِ بإطلاق، إمّا في النَّفس لقلَّة العلم والفضل والعفَّة، وإمّا في البدن لعدم جارحة أو نقص فيه، وإمّا في حالة ظاهرة من قلَّة مال وجاه[2]، وهذا يُبرز أنَّ إيثار استخدام لفظ الضُّرِّ هو ما يدلُّ عليه اللَّفظ من عموم في الدَّلالة على مطلق الإيلام بكلِّ أنواعه النفسي والبدني والمالي، الحسّي والمعنوي، "فيدخل فيه جميع المكاره سواء أكان في جسمه أم في ماله أم في أهله وولده"[3].

لفظُ الضُّرِّ يدلُّ على مطلق الإيلام النَّفسي والبدني والمالي

نكتة تنكير﴿ضُرّٞ﴾:

يحتمل تنكير ﴿ضُرّٞ﴾ وتنوينه أن يكون للتَّعظيم والتَّكثير، أي: إذا مسَّ الإنسان ضرٌّ عظيم شديد كثير، لا يستطيع أحدٌ كشفه إلّا اللّه تعالى، ويحتمل أن يكون للتَّحقير والتَّقليل، أي: وإذا مسَّ الإنسانَ ضرٌّ قليلٌ ضئيلٌ أو حقير؛ دعا ربَّه، والسياق يرجِّح الثاني لقوله: ﴿مَسَّ﴾.

الجمعُ بين التَّعظيم والتَّكثير من جهة، والتَّحقير والتَّقليل من جهة أخرى

نكتةُ اختيار ﴿دَعَا﴾ دون نادى:

اختيار لفظ ﴿دَعَا﴾ بدلًا من نادى؛ للدَّلالة على أنَّ صاحب هذا

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 342، 343.

(2) ابن منظور، لسان العرب: (ضرر)، والرّاغب، المفردات: (ضر).

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 427.

صاحب الضُّرِّ ملهوف مستغيث يتمسَّك بمن يكشف الضُّرَّ عنه، ويحسن الأدب معه

الضُّرِّ، ملهوف مستغيث، ولذلك فإنَّه يتَّجه إلى مَن يعينه، ويكشف الضُّرَّ عنه وحده، كما أنَّ في الدعاء إسرارًا ومناجاة، وأمّا النِّداء؛ ففيه رفْعُ الصَّوت غالبًا، وفي الدُّعاء من معنى الخصوصيَّة ما ليس في النِّداء غالبًا، فأغلب النِّداء يكون عامًّا، ثمَّ إنَّ في لفظ دعا معنى القرب الحسّي والمعنوي، بخلاف نادى فإنَّ أغلب النِّداء يكون للبعيد أو ما في حكمه.

فائدةُ مجيءِ جواب الشَّرط ماضيًا ﴿دَعَا﴾:

سرعةُ الدُّعاء وتحقُّقه

جاء جوابُ الشَّرط فعلًا ماضيًا ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾، مع جواز مجيئه مضارعًا؛ للدَّلالة على تحقُّق هذا الدُّعاء وسرعته، فإنَّ الكافر إذا مسَّه الضُّرُّ؛ سارع بدعاء ربِّه عند مسِّ الضُّرِّ مباشرة، فكأنَّه ليس بين مسِّ الضُّرِّ والدُّعاء فاصلٌ، وهذا السِّرُّ من أسرار عدم دخول فاء الجواب على الفعل الماضي، أي: إذا مسَّه ضرٌّ لم تتَّجه همَّته إلّا إلى ربِّه، فدعاه، واستجار به، وناداه، ولم يؤمِّل في كشف الضُّرِّ سواه، فدلَّت جملة الجزاء على تناقض الإنسان مع نفسه في الإعراض حينًا والالتجاء حينًا، وأنَّه في حال الضَّعف والحاجة لا يملك إلّا أن يصدقَ مع نفسه، فيتَّجه إلى من يملك وحده كشْفَ الضُّرِّ، وهو ربُّه الَّذي لن يخزيَه إن التجأ إليه؛ فهو وحده ملجأ المضطرّين.

سرُّ إيثار التَّعبير باسم (الرَّبِّ):

الدَّلالة على كثرة العطاء وسعته

آثر القرآن اسم الربوبيَّة؛ لدلالة هذا اللَّفظ على سَعة العطاء، وكثرته وتنوُّعه، فهو سبحانه الذي ربّاه بصغار النِّعم قبل كبارها، وأعطاه عطاء واسعًا، في شتى نواحي الحياة، ومن دلائل ربوبيَّته تعالى كشْفُ الضُّرِّ عن مَن مسَّه الضُّرُّ، ودفْعُ الأذى عنه، وإجابة دعاء المضطرِّ والمظلوم، وإن كان كافرًا، فكيف بأهل الإيمان؟.

نكتةُ إضافةِ لفظ الرَّبِّ إلى ضمير يعود على الإنسان:

الكافر متحقِّق من عطاء الرُّبوبيَّة إيجادًا وإمدادًا، صغيرًا كان أو

الإشارةُ إلى استفادة الكافر من عطاء الرُّبوبيَّة

كبيرًا، وإذا مسَّه ضرٌّ؛ لم تتَّجه همَّته إلّا إلى ربِّه، فدعاه، ولم يؤمن في كشف الضُّرِّ سواه، وكأنَّه ربُّه وحده، فكان عليه أن يستحي من ربِّه بعد كلِّ ذلك أن يجعل له ندًّا، وهو صاحب الفضل عليه.

دلالةُ التَّعبير بلفظ الإنابة:

الإنابةُ تكرار اللُّجوء إلى الله تعالى بحسب تكرار وقوع الضُّرِّ

الإنابة هنا تعني الرُّجوعَ إلى الله تعالى بالدُّعاء لكشف الضُّرِّ ورفع البلاء، وأوثِرَ التَّعبيرُ بها في قوله: ﴿مُنِيبًا إِلَيۡهِ﴾؛ لدلالة اللَّفظ على الكثرة والاعتياد، فإنَّ أصل (نوب) يدلُّ على اعتيادِ مَكانٍ ورُجوعٍ إلَيهِ - أي: مرَّةً بعد مرَّةٍ حتى يصيرَ عادة - ولذا قيل للنَّحْل: النّوب، قالوا: وسُمّيَتْ بِهِ لِرَعْيِها ونَوْبِها إلى مَكانِها[1]، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ الإنسان عامَّة والكافر خاصَّة يعتاد الرُّجوع إلى ربِّه واللُّجوء إليه عند النَّوائب، "مرَّة بعد مرَّة بمجاذبة النَّفس والفطرة الأولى"[2]، فإذا صرفها الله تعالى عنه؛ عاد أدراجه الأولى إلى ما كان عليه من قبل من اتِّخاذ الأنداد والشُّركاء، وكأنَّه لم يدعُ ربَّه أبدًا إلى ضرٍّ مسَّه، وفي استعمال الإنابة هنا أيضًا دلالةٌ على أنَّه كان على التَّوحيد بالفطرة قبل أن ينتكس بتحوُّله من الإيمان إلى الكفرِ بنفسه أو بفعل غيره كأبويه، فهو ينوبُ، ويؤوب عند كلِّ ضرٍّ إلى توحيد الفطرة.

نكتةُ التَّعبير باسم الفاعل ﴿مُنِيبًا﴾:

رسوخُ الإنابةِ في الكافر حال الضُّرِّ

يدلُّ اسم الفاعل غالبًا على رسوخ الصِّفة في الموصوف، والجمع بين ذاته وفعل واقع منه راسخ فيه مجرَّد عن الزَّمان، كأنَّه لم يتَّصف إلّا بهذه الصِّفة في حال الضُّرِّ، فتثمر صفة الإنابة - الّتي فيه - دعاءً صادقًا يدعو به ربَّهُ.

فائدة التَّعبير بالحال في ﴿مُنِيبًا﴾:

غالب الحال أن يكون وصفًا لا يدوم إلّا وقتًا قليلًا، فإذا قلت:

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نوب).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 15/ 89.

الحال وصف لا يدوم إلّا وقتًا قليلًا

رأيت عليًّا مبتسمًا؛ دلَّ ذلك على أنَّ ابتسامَهُ غير دائم، إنَّما كان في حال رؤيتك له، بحيث لا يدوم هذا الوصف أبدًا، فدلَّ إيثار الحال في التَّعبير عن الإنابة ﴿مُنِيبًا﴾، على أنَّ صفة الإنابة لا تدوم معه أبدًا، إنَّما تكون في حال مسِّ الضُّرِّ فقط حتى تدفعَهُ تلك الحال لأن يدعو ربَّه.

بلاغةُ المتشابه اللَّفظيِّ مع قوله تعالى في الرّوم: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ﴾:

آيةُ الرّوم في عموم الظّالمين المؤمن منهم والكافر، وآية الزُّمر في خصوص الكفار

قال تعالى في سورة الروم: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنۡهُم بِرَبِّهِمۡ يُشۡرِكُونَ ٣٣﴾ [الروم: 33]، فلوحظ أنَّ التَّعبير فيها بلفظ ﴿ٱلنَّاسَ﴾ [الروم: 33]، بينما التَّعبير في آية الزُّمر بلفظ الإنسان، وذلك لأنَّه في آية الرّوم قد سبقها إخبار عامٌّ بصيغة الجمع عن الظّالمين في قوله: ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم بِغَيۡرِ عِلۡمٍۖ﴾ [الروم: 29]، والظّالمون منهم الكافرون والمؤمنون، ثم قال بعدها: ﴿فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ﴾ [الروم: 30]، فناسب أن يكون الإخبار فيها بلفظ الناس لمناسبة العموم الَّذي قبلها في السّياق ذاتِه، ومضى نسق الكلام بعد ذلك بصيغة الجمع في قوله: ﴿دَعَوۡاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيۡهِ﴾ [الروم: 33]، والذي يؤكِّد هذا، ويقوّيه أنَّ جواب الشَّرط الثاني في آية الرّوم جاء بالحُكم على البعض دون الكلِّ، مصدَّرًا بـ(إذا) الفجائية: ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنۡهُ رَحۡمَةً إِذَا فَرِيقٌ﴾ [الروم: 33]، وأمّا آيةُ الزُّمر؛ فالخطاب فيها متَّجه إلى الكفّار وحدهم، فهُم المرادون في لفظ الإنسان المرادِ به العمومُ العرفيُّ - كما مضى بيانه - إذ "هو وصفٌ للجنس بحالِ بعضِ أفرادِه"(1).

نكتةُ تعدية اسم الفاعل بـ(إلى) في قوله: ﴿مُنِيبًا إِلَيۡهِ﴾:

الله وحده غاية الكافر في ضرِّه

عدّي اسم الفاعل منيبًا بـ (إلى) التي تدلُّ على الغاية؛ للدَّلالة

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 244.

على أنَّ الكافر حال الضُّرِّ لم تكن له غاية في ضُرِّه إلّا اللّه وحده، كأنَّه قال: دعا ربَّه، وأناب إليه ذاهبًا بدعائه وإنابته إليه وحده.

سرُّ التَّعبير بالضَّمير في ﴿إِلَيۡهِ﴾:

استحضارُ الكافر معنى الرُّبوبيَّة في دعائه وإنابته

الضَّمير في قوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾ يعود إلى الرَّبِّ في قوله: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ﴾، وفي استحضار الكافر معاني الرُّبوبيَّة حال دعائِهِ وإنابته، دلالة على يقينه بأنَّه لا يكشف الضُّرَّ أحدٌ سواه سبحانه.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿ثُمَّ﴾:

كـثرةُ المـعـاني المـمـكـنـة من الكلمة الواحدة

﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةً مِّنۡهُ﴾ للتَّراخي الرُّتبي؛ لأنَّ إشراكهم باللّه بعد الدُّعاء والإنابة وحصول رحمته أعجبُ من إشراكهم السّابق، ففي التَّراخي الرُّتبيِّ معنى التَّعجيب من تجدُّد إشراكهم[1]، أو أنَّ التَّرتيب هنا هو ترتيب في الإخبار على سبيل التَّرقّي فيما يتعجَّب به من تحوُّلهم المعبِّر عن تناقضهم واضطرابِهم، ولا مانع يمنع من أن تكونَ للتَّراخي الزَّمني بالنَّظر إلى حال الداعي وقت الاضطرار، ثم تحوُّله وإعراضه بعد زوال الاضطرار.

دلالةُ التَّعبير بـ﴿إِذَا﴾ دون (إن) في قوله: ﴿إِذَا خَوَّلَهُۥ﴾:

الدَّلالةُ على كثرة هذا الصِّنف من الـنـاس، وكـثرة تـخـويـل الـلـه النِّعم لهم

في مجيء ﴿إِذَا﴾ في الشَّرط دون (إن) في قوله: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُۥ نِعۡمَةً مِّنۡهُ﴾ دلالة واضحة على أنَّ هذا الأمر يقع كثيرًا من الإنسان الذي يعود إليه ضمير المفعول في ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ حتى صار ذلك الموقف منه - أي: الإعراض مع الإنعام بعد الالتجاء حال وقوع الضُّرِّ - إلفًا وعادة، وهذا مقام لا تناسبه (إن) الَّتي تدخل على القليل والنّادر والمشكوك فيه، وإنَّما تناسبه ﴿إِذَا﴾ الَّتي تقع على محقَّق الوقوع، وما يقع كثيرًا، أي: إنَّه "لمّا كان الرَّخاء محقَّقًا، وهو أكثر من الشِّدَّة؛ عبَّر بأداة التَّحقُّق"[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 21/ 98.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 463.

دلالةُ التَّعبير بالتخويل في قوله: ﴿خَوَّلَهُۥ﴾:

الـدَّلالـةُ على إنـعـام الـلـهِ المتكرِّر لكلٍّ من المؤمن والكافر

أصل (خول) يَدُلُّ عَلى تَعَهُّدِ الشَّيءِ، والمراد به ما أعطى اللّهُ ﷻ الإنسانَ مِنَ النِّعَم ابتداءً دون مقابل من العبد ولا سؤال، فهو محضُ إنعام متكرِّر خالص منه سبحانه، "يُقال: خَوَّلَه نِعْمَةً، أي: أعطاها إيّاه ابتداءً مِن غيرِ مُقتَضٍ، ولا يُستَعمَلُ في الجزاءِ بل في ابتداءِ العَطيَّةِ"[1]، على أنَّ هذا الإنعام لا يقع مرَّة واحدة، ولكن مرَّة بعد مرَّة، ولأجل هذا التَّكرار للفضل والإنعام كرمًا منه سبحانه أوثِرَ التَّعبير عنه بالتَّخويل دون الإعطاء[2].

نكتةُ إيثارِ الفعل الماضي في قوله: ﴿خَوَّلَهُۥ﴾:

الـدَّلالـةُ على تـحـقُّق وقـوع التَّخويل

أوثِرت صيغةُ الماضي في ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ الدالَّة على تحقُّق الوقوع؛ لأنَّه سبحانه يرزق كلَّ عباده ابتداء، مؤمنهم وكافرهم، وينعم عليهم بمقوِّمات حياتهم، وإن عصوه، أو كفروا به.

سرُّ نصبِ الفعل (خوَّل) لمفعولين:

الإيجازُ بتضمين خـوَّل معنى أعطى، الـدّالِّ عـلى معنى جملتين بجملة واحدة

نصب الفعل خوَّل مفعولين؛ لأنَّه بمعنى أعطى، عومل معاملته في الإعراب، فنصب مفعولين، ليجمع القرآن بين معنى أعطى الَّتي تدلُّ على معنى التَّفضُّل في العطاء، ومعنى خوَّل الذي يدلُّ على معنى تكرار العطاء، والابتداء من غير مقتضٍ؛ لأنَّ التخويل لا يُستعمل في المجازاة، إنَّما يُستعمل في ابتداء العطاء[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بضمير الفاعل المستتر في ﴿خَوَّلَهُۥ﴾:

معرفةُ الفاعل والعلم به

آثر القرآنُ التَّعبيرَ بقوله: ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ بدلًا مِن: (ثمَّ إذا خوَّلته)، أو (إذا خوَّلناه)، بمعرفة الناس جميعًا بالفاعل، وأنَّه هو اللّه بداهة؛ إذ إنَّه المنعم الحقيقيُّ، وكلُّ النِّعم منه تعالى، وهذه المعرفة جعلته لا يحتاج إلى ذكر الفاعل.

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 413.
(2) ابن التمجيد والقونوي، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 484.
(3) السمين، الدر المصون: 9/ 413.

سرُّ مجيء المفعول الأوّل ضميرًا متَّصلًا في قوله: ﴿خَوَّلَهُۥ﴾:

عدمُ اللَّبس في المعنى

آثر القرآنُ الإتيانَ بالمفعول الأوَّل ضميرًا متَّصلًا في قوله: ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ دون التَّصريح به، كأن يقول: خوَّل الإنسان، لعدم اللَّبس؛ إذ إنَّ النّاس جميعًا يعلمون أنَّ المُخَوِّلَ هو الله الخالق، وأنَّ المُخَوَّلَ هو الإنسان المخلوق، ثم اتِّصال الضَّمير بالفعل إشارة إلى اتِّصال النِّعم بالإنسان وتكرارها في كلِّ وقت.

نكتة تنكير ﴿نِعۡمَةً﴾:

التَّعظيم والتَّكثير

نكتة تنكير ﴿نِعۡمَةً﴾ هو التَّعظيم والتَّكثير؛ لكونها تتكرَّر، وتقع مرَّة بعد مرَّة، فإنعام الله على عبادة بحاجيات حياتهم ومقوِّماتها متكرِّرٌ مستمرٌّ لا ينقطع.

بلاغةُ الطِّباق بين ذكر الضُّرِّ والنِّعمة:

شدَّة وضوح المعنى بذكر الضِّدَّين

بين كلمتي الضُّرِّ والنِّعمة طباقٌ معنويٌّ غايته وضوح المعنى بذكر الضِّدّين، وإبراز الفرق بين حالتي العسر واليسر في تقلُّب الإنسان بينهما؛ إذ إنَّه في حال العسر يجأر إلى ربِّه، ويلتجئ إليه، فإذا تبدَّل الحال إلى حال يسرٌ؛ نسي إيمانه بالله ودعاءه إيّاه، فهذا الإنسان متناقض مع نفسه متضادٌّ معها كالتَّضادِّ الحاصل في مقابلة الضُّرِّ بالنِّعمة.

بلاغةُ التَّعبير بـ(مِنْ) في قوله: ﴿مِّنۡهُ﴾:

ابتداءُ النِّعم كلِّها مِنَ الله

إنَّما عبَّر القرآنُ بـ(مِنْ) في قوله: ﴿مِّنۡهُ﴾ الَّتي تدلُّ على الابتداء المطلق، أو ابتداء الغاية، أو غير ذلك من المعاني؛ للإشارة إلى أنَّ النِّعم كلَّها ناشئةٌ منه سبحانه لا من غيره، فهو مبدأُ كلِّ نعمة ومُبدِئها.

نكتةُ مجيءِ الضَّمير المجرور المتَّصل في ﴿مِّنۡهُ﴾:

اتِّصالُ نِعم الله بالإنسان وعدم انقطاعها

عبَّر القرآنُ بقوله: ﴿مِّنۡهُ﴾ بدل أن يقول: (من الله) أو (من

ربِّه)؛ للعلم بمرجع الضَّمير من جهة، وللدَّلالة على اتِّصال النِّعم بالإنسان، وعدم انقطاعها عنه، ولو كان كافرًا من جهة أخرى.

نكتةُ التَّعبير بشبه الجملة ﴿مِّنۡهُ﴾:

النِّعمُ كلُّها كائنةٌ منه تعالى بتخويل أو غيره

شبه الجملة ﴿مِّنۡهُ﴾ يجوز أن تكونَ متعلِّقةً بـ(خَوَّل)، فيكون ابتداء تخويل النِّعم منه سبحانه، ويجوز أن تكونَ متعلِّقةً بمحذوف على أنَّه صفةٌ لـ ﴿نِعۡمَةٗ﴾[1]، أي: نعمة كائنة أو ناشئة منه، فهذا يدلُّ على أنَّ إيجادَ النِّعم وابتداءَها قبل التَّخويل ناشئٌ منه سبحانه، وكلا الأمرين مقصودٌ في الآية.

نكتةُ مجيءِ جواب الشَّرط ماضيًا في قوله: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ﴾:

تَحقُّقُ وقوعِ النِّسيان

التَّعبيرُ عن المستقبل بالفعل الماضي يدلُّ على تحقُّق وقوع الفعل؛ لأنَّ الفعل الماضي قد حدث، وانتهى، ولا يشكُّ أحد فيه، بخلاف الفعل المستقبل فإنَّه قد يُشَكُّ فيه، فإذا عبَّر عنه بالماضي؛ دلَّ ذلك على تحقُّق وقوعه.

فائدة عدم وجود الفاء في جواب الشَّرط:

سرعةُ نسيان الإنسانِ ربَّه بمجرَّد تخويله من نِعَمه

لم تأتِ الفاءُ في جواب الشَّرط؛ لأنَّ الفعل هاهنا فعل ماضٍ، والفعل الماضي يدلُّ على تحقُّق الوقوع إذا عُبِّر به عن المستقبل - كما سبق - وهذا يدلُّ مع تحقُّق الوقوع على سرعته، كأنَّه بمجرَّد وجود النِّعمة لم يكن ثمَّة وقتٌ فاصل بين تخويله النِّعمة وبين نسيانه ربَّهُ الَّذي خوَّله تلك النِّعمة.

نكتةُ التَّعبير بـ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ﴾:

التَّفخيم المستفاد من الإبهام في (ما)

الظاهر أنَّ ﴿مَا﴾ موصولة بمعنى الَّذي، وتعود على الضُّرِّ، أي: نسي الضُّرَّ الَّذي كان يدعو الله إلى كشْفِه، أو تعود إلى الله تعالى، فتكون ﴿مَا﴾ بمعنى (مَنْ)، أي: نسي ربَّه الذي كان يتضرَّع إليه،

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 413.

ويبتهل في كشف ضرِّه، وعليهما فالجملة بعدها صلة الموصول لا محلَّ لها من الإعراب، ويحتمل أن تكون ﴿مَا﴾ مصدريَّة، أي: نسي دعاءه ربَّه وقت مسِّ الضُّرِّ، والمصدر المؤوَّل في محلِّ نصب مفعول به لـ ﴿نَسِيَ﴾، وقيل: تمَّ الكلام عند قوله: ﴿نَسِيَ﴾، أي: نسي ما كان فيه من الضُّرِّ، و﴿مَا﴾ نافية، نفى أن يكون دعاء هذا الكافر خالصًا للّٰه مقصورًا من قبل الضَّرر، أي: إنَّ دعاءه السّابق كان كالعدم، وعليه فالجملةُ مستأنفة لا محلَّ لها من الإعراب(1).

نكتةُ إقحام ﴿كَانَ﴾ بين ﴿مَا﴾ والفعل في قوله: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾:

إعراض الإنسان عن ربِّه حال النِّعمة سجيَّة فيه وطبع

إقحام ﴿كَانَ﴾ في الجملة في قوله: ﴿نَسِيَ مَا كَانَ يَدۡعُوٓاْ إِلَيۡهِ﴾ دالٌّ على أنَّ إعراض الكافر عن ربِّه حال النَّعماء هو سجيَّة فيه، وطبع لازم له، لا ينفكُّ عنه بحال؛ بسبب كفرِه.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾:

استحضارُ الحال الماضية لتأنيب صاحبها على تحوُّله بعدها

آثر التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾؛ استحضارًا للحالة التي كان الإنسان الكافر والجاحد عليها حالَ وقوعِ الضُّرِّ به، وهو أنَّه كان يكرِّر الدُّعاء، ويُلِحُّ فيه؛ طلبًا للنَّجاة وكشف الضُّرِّ، وفي ذلك مزيد تأنيب له وزجر.

نكتةُ حذف مفعول ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾:

علمُ كلِّ الخلق به

حذفُ مفعول ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾ اختصارًا للعلم به؛ لأنَّ المدعوَّ هنا - بلا ريب - هو اللّٰه تعالى المدلول عليه بقوله: ﴿دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيۡهِ﴾؛ لأنَّ الإنسان وقت الضُّرِّ لا يمكن أن يلجأ إلى أحد إلّا إلى اللّٰه ﷻ، ولا يدعو أحدًا سواه.

فائدة تعديةِ الفعل ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾ بالحرف (إلى):

سرُّ تعدية الفعل ﴿يَدۡعُوٓاْ﴾ بالحرف (إلى) الذي يدلُّ على الغاية،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 188، والخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 23/ 357.

الـدَّلالـةُ على أنَّ الـلـه ﷻ غـايـة الـنَّـاس جـمـيـعًا مع تضمُّن الفعل معنى التَّضرُّع والابتهال

هو الإشارة إلى أنَّ اللّه هو غاية الناس جميعًا، حتى الكافر يكون غايته وقت الضُّرِّ، ولتضمُّن الفعل ﴿يَدْعُوٓاْ﴾ معنى التَّضرُّع والابتهال، أي: نسي الكفّار ما كانوا يبتهلون، ويتضرَّعون إليه من قبل، وهو اللّه تعالى، فالضَّمير هنا مرادٌ بِهِ اللّه تعالى، وعليه فإنَّ لفظ ﴿مَا﴾ أقيم مقام (مَن)؛ لما في الإبهام المستفاد من ﴿مَا﴾ من التَّفخيم(1).

بلاغةُ التَّعبير بالضَّمير المتَّصل بحرف الجرِّ في قوله: ﴿إِلَيۡهِ﴾:

اتِّـصـال الـكـافـر بالله تعالى وقت الضُّرِّ مع اتِّساع المعاني واتِّحاد الغاية

يمكن أن يكونَ المعنى نسي ما كان يدعو به إلى اللّه متَّجهًا إليه، أو نسي الضُّرَّ الذي كان بسببه يتَّجه إلى اللّه داعيًا مبتهلًا متضرِّعًا، أو نسي اللّه الذي كان يدعوه، وكلُّ هذه المعاني محتملةٌ صحيحة.

بلاغةُ اختيار ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾:

ابـتـداءُ الإنسان عــلـى الـفـطـرة وتـقـارب وقـتَـي النِّسيان والإنابة

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلُ﴾ ابتدائيَّة، والظَّرف ﴿قَبۡلُ﴾ مبنيٌّ على الضَّمِّ في محلِّ جرٍّ؛ لأنَّه سبقه حرف الجرِّ ﴿مِن﴾، ثمَّ إنَّه منبئ عن مضاف إليه محذوف، والتَّقدير: من قبله، وسرُّ اختيار حرف الجرِّ ﴿مِن﴾ الابتدائيَّة الدَّلالة على أنَّ ابتداء الإنسان كان على الفطرة، وهو يعود إلى تلك الفطرةِ في كلِّ حال يمسُّه فيها الضُّرُّ، وكأنَّه لم يكن بين النِّسيان والإنابة فارق زمنيٌّ يذكر، فبمجرَّد أن أناب خوَّله اللّه نعمة، وبمجرَّد تخويل النِّعمة نسي ما كان يدعو إليه من قبل، كأنَّه لم يكن ثمَّة زمان فارق بين الإنابة إلى اللّه وبين النِّسيان.

نكتةُ حذف المضاف إليه في ﴿قَبۡلُ﴾:

الـعـلـمُ بـه مع تعدُّد المعاني

﴿قَبۡلُ﴾ مضاف، والمضاف إليه محذوف، وتقدير المحذوف يحتمل جملةً من المعاني، **الأول:** نسي ما كان يدعو إليه من قبل الضُّرِّ، وهو الظّاهر، وسرُّ حذفه هو العلم به لسبق ذكره في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَا رَبَّهُۥ﴾، ويؤيِّد ذلك أيضًا التَّصريح به في قوله تعالى في موضع آخر: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوۡ

(1) التفتازاني، حاشية على الكشاف: 6/ 369.

﴿قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: 12]. **الثاني**: أن يكون التَّقدير: من قبل كشف الضُّرِّ، **الثالث**: أن يكون التَّقدير: مِنْ قبل تخويلِ النِّعمة[1]، **الرّابع**: أن يكون التَّقدير من قبل كلِّ ذلك، أي: من قبل الضُّرِّ ثم كشفه وتخويلِ النِّعمة.

نكتةُ التَّعبير بالواو في ﴿وَجَعَلَ﴾:

الجمع والتَّشريك بين المعطوف والمعطوف عليه

الواو في قوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ عاطفة للجملة بعدها على جملة ﴿نَسِيَ﴾ الَّتي قبلها، بقصد الجمع والتَّشريك بينهما، أي: بين النِّسيان والجَعْل؛ لكون كلٍّ منهما تصلح أن تكون علَّة للأخرى والأخرى معلولة لها، أي: هو من باب "عطف المعلول عَلى العلَّة أو بالعكس"[2]، وهي جملة لا محلَّ لها من الإعراب؛ لكونها معطوفة على جملة جواب الشَّرط الَّتي لا محلَّ لها من الإعراب، فيكون المعنى على هذا: جعل للّه أندادًا؛ لأنَّه نسي ما كان يدعو إليه من قبل، أو نسي ما كان يدعو إليه من قبل؛ لأنَّه جعل للّه أندادًا.

بلاغةُ التَّعبير بالجعل بدل الاتِّخاذ وغيره:

احتمال الجعل معنى الإيجاد والتَّصيير بلفظ واحد

إنَّما قال: جعل للّه أندادًا، ولم يقل: اتَّخذ مع اللّه أندادًا، أو غير ذلك؛ للدَّلالة على أنَّ الجعل هاهنا قد يكون ابتداء لشيء لم يكن موجودًا، فتكون بمعنى أوجد، وتكون لشيء موجود، لكنَّه ليس ندًّا للّه، فقد جعله للّه ندًّا، ويكون المعنى صَيَّرَ هذا الموجود ندًّا للّه تعالى، والفارق بين المعنيين، أنَّ (جعل) الأولى الَّتي بمعنى (أوجد) تنصب مفعولًا واحدًا، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: 1]، وجعل الثانية الَّتي بمعنى: (صَيَّرَ وغَيَّرَ) تنصب مفعولين كقوله سبحانه: ﴿وَجَعَلُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا﴾ [الزخرف: 19]، وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الكفار ليسو على نهج واحد، فمنهم من ينشئ إلهًا،

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 414.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 485.

ويجعله للّه ندًّا، كأن يتَّخذ إلهًا من حجر أو من غير ذلك، ومنهم من يتَّجه إلى شيء موجود، فيجعله للّه ندًّا، كمن يعبد النُّجوم أو الملائكة أو غير ذلك.

بلاغة حذف الضَّمير في (جعل):

الحذفُ للعلم به بداهة

ضمير الفاعل في (جعل) محذوف، وهو يعود إلى ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، أي: جعل هذا الإنسان - الذي نسي كشف اللّه تعالى الضُّرَّ عنه عندما دعاه وقت الحاجة - للّه أندادًا وشركاء.

فائدةُ تقديم شبه الجملة على المفعول الصَّريح أندادًا:

التَّقديم للأهمِّ ولأنَّــه محلُّ الإنكار والعجب

قدَّم هنا الجار والمجرور اللفظ الأجل ﴿لِلَّهِ﴾ على المفعول الصَّريح ﴿أَندَادًا﴾، فقال: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، ولم يقل: (وجعل أندادًا للّه)؛ لأنَّ مجرَّد جعْلِ الأنداد ليس محلَّ الإنكار، إنَّما جعل الأنداد له سبحانه هو محل الإنكار؛ ولذا قدَّمه، فهو الأهمُّ، كما أنَّ هذا التقديم يقتضي نفي أن يكون للّه ﷻ أندادًا - كما زعموا - والتَّعجُّب من كونهم فعلوا ذلك، والإنكار عليهم فيه.

نكتةُ الإظهار في موضع الإضمار في قوله: ﴿لِلَّهِ﴾:

تربيةُ المهابة في القلوب، والتَّنْبيه عَلى فرط الغواية وكمال الحماقة

كان المقتضى في التَّعبير أن يقولَ: (وجعل له)، لكن أوثر الإظهار، وعُدِل عن الإضمار؛ "لتربية المهابة في قلوب السّامعين لما في اسم الجلالةِ من صفات الكمال والجلال والجمال، وللتَّنْبيه عَلى فرط الغواية وكمال الحماقة"(1).

بلاغةُ تنكير: ﴿أَندَادًا﴾:

نكَّر الأنداد، فقال: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾، ولم يقل: (الأنداد) تحقيرًا للأنداد، وتقليلًا من شأنها، فهي أحقرُ، وأقلُّ من أن تُعرَّف.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 485.

احتمالُ الكلام أكثر من معنى

بلاغةُ التَّعبير باللّام في قوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾:

اللّام في قوله: ﴿لِّيُضِلَّ﴾ تحتمل التَّعليلية، وذلك أظهرُ في قراءة ضمِّ الياء ﴿لِّيُضِلَّ﴾، وهي قراءة الجمهور، والأرجح أن تكون لام العاقبة، وهي أقوى في قراءة ابن كثيرٍ وأبي عمروٍ (ليَضِلَّ) بفتح الياء، أي: ليفعلَ الضَّلالَ بنفسِه، وعليه فالمعنى: ليزدادَ ضلالًا، أو يثبتَ عليه، فتكون كاللام في قوله تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَطَهُۥٓ ءَالُ فِرۡعَوۡنَ لِيَكُونَ لَهُمۡ عَدُوّٗا وَحَزَنًاۗ﴾ [القصص: 8][1].

سلوكُ الإنسانِ سُبُلَ الضَّلال يؤولُ به إلى سوءِ العاقبة

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله: (ليَضِلَّ) على قراءة ابن كثيرٍ وأبي عمروٍ:

في قوله: (ليَضِلَّ) - بفتح الياء على قراءة ابن كثيرٍ وأبي عمروٍ - استعارة تبعيَّة في الحرف؛ إذ استعار الحرف من العلَّة إلى العاقبة، أي: شَبَّه لام العاقبة بلام العلَّة، ثم حذف لام العلَّة؛ لبيان أنَّ سلوكَ الإنسانِ سُبُلَ الضَّلال علَّةٌ وسببٌ يؤول به إلى سوء العاقبة.

الجمعُ بين إضلال نفسه وإضلال غيره

توجيهُ القراءاتِ في الفعل ﴿لِّيُضِلَّ﴾:

قرأ الجمهور ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾، والمعنى: ليُضِل غيره من النّاس، غير مكتفٍ بضلال نفسه، ولكن متعدّيًا به إلى إضلال غيره، وقرأ ابنُ كثيرٍ وأبو عمروٍ (ليَضِلَّ) بفتح الياء، والمعنى: ليوجد الضَّلال في نفسه، أو ليزداد ضلالًا على ضلال، أو ليثبت على ما فيه من الضَّلال، وعلى القراءة الأولى تكون اللّام للعلَّة، وعلى القراءة الثانية تكون اللّام للعاقبة، كما تقدَّم.

الكافرُ حريصٌ على الاستمرار في الضَّلال وعلى إيقاع غيره فيه معه

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع: ﴿لِّيُضِلَّ﴾:

عبَّر بالفعل المضارع في قوله: ﴿لِّيُضِلَّ﴾؛ للدَّلالة على حرص ذلك الإنسان على إضلال غيره حرصًا يدعوه إلى تَكرار محاولات الإضلالِ والابتكار والتَّجديد في وسائله، وهذا على قراءة ضمِّ الياء،

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 244، والسمين، الدر المصون: 9/ 414.

وأمّا على قراءة فتْحِها؛ فلتنزيلِهِ منزلةَ الحريص على الاستمرار على الضَّلال والاستزادة منه، كحرْصِه على إضلال غيره.

نكتةُ حذفِ المفعول في قوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾:

لإفادة العمومِ وللعلم به مع الإيجاز

أمّا ضمير الفاعل على كلتا القراءتين؛ فإنَّ المراد به الإنسان المذكور في قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾، وهو مكتفٍ بفاعله على قراءة فتح الياء، وأمّا على قراءة ضمِّ الياء - وهي قراءة الجمهور - فإنَّ المفعول محذوف، والتَّقدير: ليُضلَّ كلَّ الناس، أو ليُضلَّ غيره، وإنَّما حذف المفعولُ اختصارًا؛ لكونه معلومًا من السّياق، مع الإيجاز الَّذي هو مقتضى البلاغة، وللدَّلالة على العموم، وهذا واضح من حذف المفعول.

بلاغةُ التَّعبير بـ ﴿عَن﴾ في قوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾:

تجاوزُ الكافرِ الفطرةَ والشَّرعَ معًا

إنَّما عدّى الضَّلالة بـ ﴿عَن﴾ في قوله: ﴿لِّيُضِلَّ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾، الَّتي تفيد المجاوزة؛ للدَّلالة على أنَّ الكافر إنَّما تجاوز كلَّ حدود الفطرة والعقل والشَّرع، حين أراد أن يستمرَّ على ضلاله، وأراد أن يضلَّ كلَّ الناس سواه معه.

بلاغةُ الاستعارة في لفظ السَّبيل:

تقريبُ المعنى والصّورة بتشبيه المعنوي بالمحسوس الذي يرى ويُعاش

في قوله: ﴿عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾ استعارةٌ تصريحيَّةٌ أصليَّة؛ إذ شبَّه الإيمان بالله تعالى - لكونه الحقَّ الذي لا محيد عنه - بالسَّبيل القويم الَّذي ينبغي أن يُسلك دون غيره لاعتداله واعوجاج ما سواه، ثم حذف المشبَّه، وأبقى المشبَّه به.

نكتةُ إضافة السَّبيل إلى ضمير يعود في الظاهر على اسم الجلالة:

أُضيف السَّبيل إلى ضمير يعود في الظاهر على اسم الجلالة في قوله: ﴿عَن سَبِيلِهِۦٓۚ﴾؛ تفخيمًا لسبيل الله، وتعظيمًا لشأنه؛ لأنَّه سبيل الحقِّ الَّذي لا سبيل للحق غيره، كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٥٣﴾ [الأنعام: 153]، وبقدر التَّشريف الذي

أفادته هذه الإضافة، كان التَّعريض والتَّنديد بموقف الإنسان المندَّد به في الخطاب الذي آثر البُعد والإعراض والتَّجاوز عن سبيل الله الَّذي دلَّت عليه ﴿عَن﴾، ويجوز أن يعودَ الضَّمير في قوله: ﴿سَبِيلِهِۦ﴾ على قراءة فتح الياء: (ليَضِلَّ) إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والتي ينبغي للإنسان أن يدوم عليها، أي: ليَضِلَّ الكافر نفسه عن سبيلها التي فُطِرَت عليه من التَّوحيد بجعلها لله أندادًا.

الإضافة للتَّشريف والتَّفخيم لسبيل الله وهو سبيل الحقّ

نكتةُ فصل قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ﴾:

الفصل في قوله: ﴿قُلۡ﴾ على الاستئناف البيانيِّ على أنَّه جواب لسؤال مقدَّر، فكأنَّه ﷺ، قال لربِّه: ماذا أفعل مع ذلك الإنسان الَّذي يقع منه هذا النِّسيان، وما ترتَّب عليه من الكفر والإعراض؟ فقال: قل له: ﴿تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، والمخاطَب بـ(قل) هو رسول الله ﷺ، أي: قل له يا أيُّها النَّبيُّ ذلك القول، وكلُّ من كان على ميراث النُّبوَّة الصَّحيح له من هذا الأمر نصيب، أو يكون الخطاب فيه عامًّا لكلِّ مخاطَبٍ على ميراث النُّبوَّة، فهو مأمور أن يقولَ ذلك لكلِّ مَن كان على شاكلة هذا الإنسانِ الكافر، وهو أمرٌ له بتبليغ ذلك التَّهديد الَّذي دلَّت عليه جملةُ مقول القول المستهلَّة بالأمر الذي فيه من التَّهديد والوعيد لذلك الإنسان الضّالِّ المُضِلِّ ما هو ظاهر، وهو قوله: ﴿تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا﴾[1]؛ إذ محالٌ أن يأمر الله تعالى أحدًا من عباده بالكفر، فضلًا عن التَّمتُّع به.

التَّهديدُ والوعيدُ لمن يحيد عن الطَّريق السَّديد

دلالةُ الأمر في قوله تعالى: ﴿قُلۡ﴾:

لَيۡسَ المُرادُ من قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا﴾ الأمْرَ، بَلِ الزَّجۡرُ، وأنۡ يُعَرِّفَهُ قِلَّةَ تَمَتُّعِهِ في الدُّنۡيا، ثُمَّ يَكونُ مَصيرُهُ إلى النّارِ[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 465، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 245.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 428.

فائدةُ الأمر بقوله: ﴿قُلۡ﴾:

إنَّما قال اللّه ﷻ له: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا﴾؛ للدَّلالة على أنَّه مأمور أن يقول هذا الكلام بلفظه؛ ليكون أشدَّ تأثيرًا في هذا الكافر.

دلالةُ الأمر في قوله: ﴿تَمَتَّعۡ﴾:

الأمـرُ للتَّهديد والوعيد

مضت الإشارة إلى أنَّ هذا الأمر ﴿تَمَتَّعۡ﴾ يحمل معنى التَّهديد والوعيد للكافر، فهو كقوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ٤٠﴾ [فصلت: 40]، فهو ليس أمرًا على سبيل الطَّلب، فمحال أن يطلب اللّه منه التَّمتُّع بالكفر على سبيل الحقيقة؛ لأنَّ الأمر بالتمتُّع بالكفر هو أمر بالكفر[1]، واللّه تعالى لا يأمر به ولا بغيره من المناهي أبدًا، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا وَٱللَّهُ أَمَرَنَا بِهَاۗ قُلۡ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَأۡمُرُ بِٱلۡفَحۡشَآءِۖ أَتَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٢٨﴾ [الأعراف: 28].

بلاغةُ الاستعارة في قوله: ﴿تَمَتَّعۡ﴾:

التَّـهـكُّـم مع التَّهديد

لما كان الأصل في الأمر أنَّه للوجوب، واستحال الوجوب هاهنا؛ لأنَّ اللّه لا يأمر بالكفر، وكان الأمر هاهنا للتَّهديد والوعيد، فيكون في الأمر بقوله: ﴿تَمَتَّعۡ﴾ استعارة تهكُّميَّة؛ "إذ الجامع بينه وبين الأمر - الحقيقي - التَّقابل فيكون من الاستعارَة التهكُّميَّة بتنزيل التَّضاد منزلةَ التَّناسبِ بواسطة التَّهكُّم، والحاصل أنَّ ﴿تَمَتَّعۡ﴾ بمنزلة (لا تتمتَّع بكفرك)، عبَّر بالأمر تهكُّمًا"[2]، أي: لا تتمتَّع بكفرك؛ لأنَّك من أصحاب النّار، بل ارجع عن كفرك هذا حتى تبتعدَ عن هذه النّار.

بلاغةُ الباء في قوله: ﴿بِكُفۡرِكَ﴾:

تـعـدُّد معاني الـكـلام تبعًا لـتـعـدُّد معنى الباء

الباء في قوله: ﴿بِكُفۡرِكَ﴾ هي باء السَّببيَّة، أي: إنَّ ذلك التَّهديد كائنٌ وقائم بسبب كفرك بمَن أنعمَ عليك وجحودك فضله عليك،

(1) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 329.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 486.

وإنقاذه لك وقت الحاجة، أو الباء للمصاحبة، أي: مصاحبًا كفرك، أو الباء ظرفيَّة، أي: تمتَّع مدَّة كفرك، أو للملابسة المعنويَّة، أي: ملابسًا كفرك، بحيث يحيط بك إحاطة اللِّباس بالجسد(1)، وقيل: الباء للتَّعدية على الاستعارة التَّبعيَّة في الباء.

نكتة إضافة الكفر إلى ضمير المخاطَب:

توجيه العتاب والتَّهديد بالخطاب أقسى من توجيهه بالغيبة

نكتة إضافة الكفر إلى ضمير المخاطَب، وهو الكافر؛ ليكونَ الخطابُ أشدَّ بأسًا عليه وأشدَّ تنكيلًا، فتوجيه العتاب والتَّهديد بالخطاب أقسى من توجيهه بالغيبة؛ ليكون رادعًا له؛ إن كان في جوفه قلبٌ يعي، ويشعر، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾ [ق: 37].

سرُّ إفراد الضَّمير الَّذي يعود على الكافر:

إرادةُ الجنس ومناسبة سياق الآية

إنَّما أفرد الضَّمير في قوله: ﴿بِكُفْرِكَ﴾ لإرادة الجنس، والمراد: قل لكلِّ واحد من ذلك الجنس هذا الكلام، أو أنَّه روعي في الإفراد سياقُ الآيةِ كلِّها من أوَّل لفظ الإنسان، والأفعال التي جاءت بعده، وكلُّها تعود على مفرد ﴿دَعَا﴾ - ﴿رَبَّهُۥ﴾ - ﴿إِلَيْهِ﴾ - ﴿خَوَّلَهُۥ﴾ - ﴿نَسِيَ﴾ - ﴿وَجَعَلَ﴾ - ﴿لِّيُضِلَّ﴾؛ لمواءمة لفظ الإنسان، والتَّقدير: (قل تمتعوا بكفركم قليلًا إنَّكم من أصحاب النار)، وعلى مثل هذين الاعتبارين جاء إفراد كاف الخطاب بعد الخبر عن الإنسان في قوله تعالى: ﴿يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝١٢﴾ [القيامة: 10 - 12](2).

نكتةُ حذف متعلِّق التَّمتُّع:

حُذِفَ المتعلِّق للتَّعميم

حذف متعلِّق التَّمتُّع في قوله: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾؛ لإرادة التعميم؛ لتذهب النَّفس في تقديره كلَّ مذهب، والتَّقدير: "تمتُّعًا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 344.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 344.

قليلًا، أو زمانًا قليلًا"[1] ونحو ذلك، ويمكن أن يكون سببُ الحذف هو الدَّلالة عليه بسياق التَّهديد، والتَّقدير: تمتَّع بالسَّلامة من العذاب في زمن كفرك، أو متكسِّبًا بكفرك تمتُّعًا قليلًا، فأنت آيل إلى العذاب؛ لأنَّك من أصحاب النّار[2].

نكتةُ ذكر ﴿قَلِيلًا﴾ وتنكيرها:

كلُّ زائلٍ قليلٌ وإن بدا كثيرًا

عبَّر بالقليل وصفًا لمحذوف؛ لأنَّ تمتُّع الكافر إنَّما يكون في الدُّنيا، وهو متاعٌ زائل، وكلُّ زائل قليل، وإن طال زمانه؛ إذا ما قيس بنعيم الآخرة الَّذي يدوم، ولا ينقطع، كما قال سبحانه: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ١٩٦ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١٩٧ لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّلْأَبْرَارِ ١٩٨﴾ [آل عمران: 196 - 198]، وقال: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ٣٨﴾ [التوبة: 38]، ولمّا كان المقدَّر نكرةً؛ جاءت الصِّفة نكرة، وفي الموصوف المحذوف قولان: **الأوَّل:** أنَّه مصدر محذوف، وقد نابت عنه صفته، والتقدير: تمتُّعًا قليلًا، **والثاني:** أنَّه ظرف محذوف، والتَّقدير: (زمنًا قليلًا)[3].

نكتةُ فصل قوله: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾:

بيانُ المقصود من الجملة السّابقة أو تعليلها

فُصلت جملة: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾؛ لكونها بيانًا للتَّهديد المقصود من جملة: ﴿تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾، وهو الإنذار بالمصير إلى النّار بعد مدَّة الحياة[4]، فيكون بين الجملتين (كمال اتِّصال)، وجائز أن تكونَ علَّة لها، أي: لأنَّك مِن أصحاب النّار؛ إذ مقصود الأمر بالتَّمتُّع القليل هو إشعارُهم بأنَّ الكفر نوعُ تشهّي لا سند له،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 245.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 344.
(3) الخطيب وآخران، التفصيل في إعراب التنزيل: 23/ 358.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 345.

وتقنيطهم[1] وتيئيسهم من النَّعيم الدّائم الذي يكون للمؤمنين في الآخرة، فيكون بين الجملتين شبه كمال اتِّصال، أو ما يُسمّى الاستئناف البياني، بتقدير سؤال: ولمَ هذا التَّقنيط بتقييد التَّمتُّع بكونه قليلًا؟[2] فكان الجواب: ﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، أي: لأنَّك كذلك.

فائدةُ تتابع المؤكِّدات في قوله: ﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾:

الـرَّدُّ على الكفر والـجـحـود بتحقق عـذابِ الله

تتابعت المؤكِّدات في هذه الجملة، وهي: (إنَّ) التوكيديَّة، واسميَّة الجملة، والتَّعْبير بـ ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، ومثل هذا يفيد التَّأْكيد والمُبالَغَة، كما هو في قوله تعالى: ﴿لَأَجۡعَلَنَّكَ مِنَ ٱلۡمَسۡجُونِينَ ٢٩﴾ [الشعراء: 29]؛ إذ الظّاهر لأجعلنَّك مسجونًا، أو: لأسجنَّنك، أي: إنَّك في النار، مقيم فيها، أو (إنَّك صاحب النّار)[3] الملازم لها.

فائدة استعمال ﴿مِنۡ﴾:

المـبـالـغـةُ في الـدَّلالـة على كثرتهم

﴿مِنۡ﴾ في قوله: ﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ تبعيضيَّة؛ لأنَّ أصحاب النار كثيرون، والمخاطَبون هنا هم بعضُ أصحابِها ومن جملتهم، كأنَّه يريد أن يقولَ: إنَّ الذين سيدخلون النّار من الكفار كثيرون، وأنت واحدٌ منهم، لا تستطيع أن تدفعَ عنك عذاب النار مثلهم، والتَّعبير بقوله: ﴿مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ فيه بلاغةٌ ومبالغةٌ "فإنَّ قولك: زيد من العلماء، أبلغُ مِن زيد عالم"[4]؛ لأنَّه قد يكون عالمًا، لكنَّه لا يرقى أن يصل إلى صفِّ العلماء.

نكتةُ استعمال لفظ الصُّحبة مع النار من خلال الإضافة:

الملازمةُ الأبديَّة الطَّويلة

وعبَّر بالصُّحبة؛ إذ جعلهم أصحاب النّار لأبديَّة ملازمتهم لها، فإنَّ الصُّحبة تشعر بطول الملازمة[5]، فهُم أصحابها الذين

---

(1) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 329، وشيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 232.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 486.
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 38، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 487.
(4) ابن التمجيد والقونوي، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 486.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 345.

لا يفارقونها أبدًا؛ لأنَّهم مخلَّدون فيها على الدَّوام، وملازموها ملازمة الصّاحب للصّاحب، ولهذا أضافهم بوصف الصُّحبة إلى النّار تصويرًا لهذه الملازمة.

بلاغة التَّعبير بـ(ال) في قوله: ﴿ٱلنَّارِ﴾:

المبالغةُ في الجزاء تبعًا للمبالغة في الفعل

(ال) في﴿ٱلنَّارِ﴾ للجنس، فهُم أصحاب النّار على إطلاقها، وفي ذلك مبالغةٌ من حيث إنَّ النار دركات، وهم سيكونون في بعض دركاتها، لكنَّ لسوءِ صنيعهم ومبالغتهم في الإسراع إلى الكفر والجحود، بعد مبالغتهم في اللُّجوء والدُّعاء حال وقوع الضُّرِّ بهم، بالغت الآية كذلك، فأنزلتهم منزلةَ الملازمين لجنس النّار بكلِّ دركاتها.

بلاغةُ الكنايةِ أو المجاز في قوله: ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾:

أبديَّةُ ملازمة هؤلاء للنّار

قوله: ﴿أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾ كناية عن طول الملازمة بل أبديتها، فهُم لمكثهم الأبديِّ في النار صاروا كأنَّهم أصحابها، أو أنَّها استعارة مكنيَّة؛ إذ شبَّه النّار بإنسان له أصحاب يلازمون صحبته، فحذف المشبَّه به، وترك شيئًا من لوازمه، وهو الصُّحبة، وأسندها إلى المشبَّه على سبيل الاستعارة المكنيَّة التَّخيُّليَّة.

﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٩﴾﴾ [الزمر: 9]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

ذِكرُ أحوال الصالحين إثر ذِكر أحوال المشركين

بعد أن ذكرت الآيات السّابقة بعض ما يتعلّق بالمشركين، انتقلت لتتكلّم عن بعض ما يتعلّق بالمؤمنين الصالحين، على سبيل الموازنة والمقارنة بين المشركين والمؤمنين، فقال سبحانه فيهم: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ﴾؛ ليتبيَّن بذلك عدم استوائهما أبدًا.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿قَٰنِتٌ﴾: (قنت) أصلٌ يدلُّ على طاعة وخير في دين، والأصل فيه الطاعة، يقال: قنت يقنت قنوتًا، ثمَّ سُمّيت كلُّ استقامة في طريق الدّين قنوتًا، فقيل لطول القيام في الصَّلاة: قنوتٌ، وسُمّي السُّكوت في الصَّلاة والإقبال عليها: قنوتًا، قال اللّه تعالى: ﴿وَقُومُوا۟ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ﴿٢٣٨﴾﴾ [البقرة: 238][1]، فجماع القُنوت: لزومُ الطّاعة مع الانقياد والخضوع[2]، ومعنى ﴿قَٰنِتٌ﴾ قائمٌ بوظائف الطّاعات[3].

2) ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾: (أنى) أصلٌ يدلُّ على ساعة من الزَّمان[4]، والآناء: جمع أَنًى مِثْلُ أمعاءٍ ومَعًى، وأقْفاءٍ وقَفًى، وقيل: واحِدها أَنًى

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قنت).
(2) الراغب، المفردات: (قنت).
(3) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 38.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أنى).

وإنَّى، وقيل غير ذلك، وآناء اللَّيل: ساعاته...[1]، وهو كناية عن شدَّة العبادة[2]، واستفراغ الوقت والجهد فيها.

3) ﴿وَقَآئِمًا﴾: (قوم) أصلٌ يدلُّ على انتصاب إلى أعلى مع اهتمام وعزم ... يقال: قام قيامًا؛ إذا انتصب[3]، ومعنى ﴿وَقَآئِمًا﴾ هنا، أي: انتصب للصَّلاة في اللَّيل عن اختيار[4].

4) ﴿يَحۡذَرُ﴾: (حذر) أصلٌ يدلُّ على التَّحَرُّز والتَّيقُّظ، يُقالُ: حَذِرَ يَحْذَرُ حَذَرًا، ورَجل حَذِر وحَذور وحِذْريان: مُتَيَقِّظٌ مُتَحَرِّزٌ[5]، والحَذَر: احتراز من مخيف، ومنه قوله تعالى: ﴿خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ﴾ [النساء: 71]، أي: ما فيه الحذر من السِّلاح وغيره[6]، ومعنى قوله تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، أي: يحترز من عذابها بفعل الطّاعات وترك المنهيّات.

5) ﴿يَسۡتَوِي﴾: (سوي) أصلٌ يَدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بَيْنَ شَيئَينِ، يُقالُ: هذا لا يُساوي كذا، أي: لا يُعادِلُهُ، وفُلانٌ وفُلانٌ على سويَّةٍ من هذا الأمر، أي: سَواءٍ[7]، والتَّسْويَةُ: ضِدُّ المُفاضَلَة، وتأتي بِمعنى العَدْلِ والإنصافِ، فيُقال: سَوَّيْتُ بين الشَّيئَينِ؛ إذا عَدَلت بَينَهُما[8]، وهي أيضًا: تَقويمُ الشَّيءِ وتَعديلُهُ، تَقولُ: سَوَّيْتُ الشَّيءَ، فاستوى، أي: قَوَّمتُهُ فاستَقامَ[9]، ومعنى المساواة في الآية: جعْلُ الأشياء متساوية، والمقصود هنا: استنكار جعل الأشياء المتضادَّة متساوية.

6) ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾: أصل اللُّبِّ: جوف شيء أو وسطه المتمكّن، ويلزم من ذلك نقاؤه وخلوصه؛ لكونه محوطًا محفوظًا[10]، والألباب جمع لُبٍّ، وأصل اللُّبِّ: الخُلوصُ والجَوْدةُ، والشَّيء المُنتقَى[11]، واللُّبُّ من كلِّ شيء هو الخالص منه، وسُمّي العقل لُبًّا؛ لكونه خالص ما في الإنسان من قوَّةٍ كاللُّباب من الشَّيء[12].

(1) السجستاني، غريب القرآن، ص: 69، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 346، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (أنو - أني).
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 414.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قوم).
(4) الراغب، المفردات: (قوم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حذر).
(6) الراغب، المفردات: (حذر).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(8) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوا).
(9) الجوهري، الصحاح: (عدل).
(10) جبل، المعجم الاشتقاقي: (لبب - لبلب).
(11) السجستاني، غريب القرآن، ص: 51، وابن فارس، مقاييس اللغة: (لب).
(12) الراغب، المفردات، ص: 733.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

لا يستوي مشرك جاحد، ومؤمن قانت

تقرِّر الآية الكريمة نفيَ المُساواةِ بينَ هذا الإنسانِ المُشرِكِ الذي لا يلتجئ إلى ربِّه إلّا عند وقوع الضُّرِّ، ثمَّ إذا كشف عنه ضرَّه؛ عاد إلى الشُّركاء والأنداد، وبينَ الإنسانِ الملازِمِ لطاعةِ رَبِّه: فذكرت: أن الَّذي هو مُطيعٌ لِرَبِّه قائِمٌ ساعاتِ اللَّيلِ لعبادته ساجِدًا وقائمًا، يحترز من عذاب الآخِرةِ بالاجتهاد في الطّاعة، ويرجو رحمةَ رَبِّه طمعًا فيها بعد أن قدَّم بين يديها إيمانَهُ بربِّه وقنوته له: أفَيَستوي هو ومَن يجعل للّه تعالى شُرَكاءَ في العبادةِ؟ قُل - يا رسولنا - لمن يجهلون هذا الفرق، أو يزعمون أنَّهم كذلك: هل يَستوي العُلَماءُ العامِلونَ بعِلمِهم، القانِتونَ للّه، والذين يَعلَمونَ انفراد اللّه بالألوهيَّة، ولا يَعمَلونَ بمقتضى علمهم، فيدخل الإيمان في قلوبهم؟ كلّا، لا يَستوونَ، إنَّما يتذكَّرُ أصحابُ العُقولِ السَّليمة[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

احتمالها لنوعي الاستئناف والعطف

قوله: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ جملة استئنافيَّة استئنافًا نحويًّا[2]، سيقت لتقرير عدم مساواة المشرك الجاحد لربِّه الكفور لنعمه، بالمؤمن القانت العابد لربِّه الشَّكور لنعمه، ولذلك فُصلت عن سابقتها على الاستئناف الابتدائي، ويمكن أن يكون الاستئناف بيانيًّا؛ تعليلًا للوعيد السابق في قوله: ﴿إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، كأنَّ سائلًا سأل: لماذا يدخل هذا النار؟ فتكون الإجابة: كما لا يستوي الجاحد الكافر مع القانت المؤمن في الفعل، فكذلك لا يستوي معه في الجزاء، ويمكن أيضًا أن تكون الجملة من تمام الكلام المأمور به السّابق[3]، أي: قل للجاحد الكافر تمتَّع بكفرك قليلًا، وقل له: أأنت

(1) مجموعة من المؤلفين، موسوعة التفسير المحرر: 29/ 95.

(2) الخطيب وآخران، التفصيل: 23/ 359، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 413.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 245.

خير أم من هو قانت؟ فيكون ما بعده: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾، على اللَّفِّ والنَّشر غير المرتَّب (المشوش)، أو المعنى: وقل له أيضًا: أمّن هو قانت خير أم الجاحد الكافر؟ فيكون ما بعده: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾، على اللَّفِّ والنَّشر المرتَّب، وبالجملة ففي هذا إشارة إلى أنَّه لايستوي الجاحد الكافر مع من هو قانت.

الغرضُ من التَّعبير بقوله: ﴿أَمَّنۡ﴾:

احتمالُ الكلمة الواحدة أكثر من معنى

كلمة ﴿أَمَّنۡ﴾ مركَّبة من: (أم)، و(مَن)، ثم صارتا كالكلمة الواحدة (أمّن)، بعد إدغام الميم في الميم، وفي (أم) احتمالان:

الأوَّل: أن تكون متَّصلة - أي: غير منقطعة - ومعادلها محذوف قبلها ثقةً بدلالة مساقِ الكلام عليه، كأنَّه قيل له تأكيدًا للتَّهديد وتهكُّمًا به: أأنت أحسنُ حالًا ومآلًا أم من هو قائمٌ بمواجب الطّاعاتِ، ودائم على أداء وظائف العبادات في ساعاتِ اللَّيل حالتَي السَّرّاءِ والضَّرّاءِ، لا عند مساس الضُّرِّ فقط كدأبك؟ أو التَّقدير: أهذا الكافر خير أم من هو قانت؟ أو يكون معادلها محذوفًا بعدها بدلالة ما بعده، أي: أمَّن هو قانت... خير أم أنت أيُّها الجاحد الكافر؟ على خطاب الكافر؛ ليكون متَّسقًا مع ما قبله في الخطاب: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًاۖ إِنَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، أو: أهذا - الذي يدعو اللّه مرَّةً، ويدعو غيره ممَّن يجعله له ندًّا مرَّةً أخرى - أسدُّ طريقةً وأقوم قيلًا؟ ويكون في هذا التَّقدير التفاتٌ، أمَّن هو قانت خير أم أنت أيُّها الجاحد الكافر؟ وعلى كلا التقديرين يكون التَّرتيب وفق ما بعده في قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾.

والثاني: أن تكون منقطعة بمعنى (بل) والهمزة، والتَّقدير: بل

أمَن هو قانت صفته كذا، كمن ليس كذلك[1]؟ والإضراب بـ (بل) حينَئِذٍ هو للانتقال من التَّهديدِ إلى التَّبكيت بتكليف الجواب الملجِئ إلى الاعترافِ بما بينهما من التَّباينِ البيِّن، ويمكن أن تكون (أم) منقطعة بمعنى (بل) وحدها على قول النَّحّاس، و(مَن) بمَعنى الَّذي، والتَّقديرُ: بَلِ الَّذي هو قانِتٌ مِن أصحابِ الجَنَّةِ، يَدُلُّ على ذلك مُقابِلُهُ السّابق: ﴿إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾[2].

بلاغةُ القراءات المتواترة في قوله: ﴿أَمَّنْ﴾:

الجمعُ بين الاستفهام والإضراب والتَّقرير والنِّداء

في قوله: ﴿أَمَّنْ﴾ قراءتان، قرأ أبو عمرو وابن عامر وعاصم والكسائي ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ مشدَّدة الميم، وقرأ نافع وابن كثير وحمزة: (أمَن هو قانت) خفيفة الميم.

أمّا على قراءة التشديد ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾؛ فيمكن أن تكون (أم) متَّصلة أو منقطعة بمعنى بل والهمزة، والجملة التي عادلت (أم) على الوجهين قد حُذفت قبلها أو بعدها - كما مضى بيانه - والمعنى: أيكون، أو بل أيكون الجاحد الكافر بربِّه خير أم من هو قانت؟ أو: أيكون، أو بل أيكون القانت خير أم أنت أيُّها الجاحد الكافر، و(مَن) موصولة بمعنى (الذي)، وليست باستفهام، ودلَّ على الجملة المحذوفة المعادلة لـ (أم) ما جاء بعدها من قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ودلَّ عليها أيضًا ما جاء قبلها من قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ﴾، ويمكن أن تكون (أم) منقطعة بمعنى (بل) وحدها، و(مَن) بمَعنى الَّذي، والتَّقديرُ: بَلِ الَّذي هو قانِتٌ مِن أصحابِ الجَنَّةِ، كما سبق بيانه أيضًا.

وأمّا على قراءة التَّخفيف ﴿أَمَنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾؛ فقد خُرِّجت على أنَّ همزة الاستفهام التَّقريري قد دخلت على (مَنْ)، والمقابل محذوف،

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 189، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 245.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 189.

أي: الذي هو قانت خير أم أنت أيُّها الكافر؟ أو المعنى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ كمن هو بخلاف هذا الوصف؟.

ويمكن أن تكونَ الهمزةُ للنِّداءِ و(مَنْ) منادى، ويكون المنادى هو النَّبيَّ ﷺ، وكلَّ من يصلح له النِّداء ممَّن كان على سنَّته من بعده، فكمل هذا الوصف فيه، ويكون النَّبيُّ هو المأمور بقولِه: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ﴾، كأنَّه قال: يا مَنْ هو قانِتٌ ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ﴾[1].

بلاغةُ الاستفهام في نوعه وغرضه:

الجمعُ بين النَّفي والإنكار والتَّقرير والتَّهكُّم في نفي المساواة بين الكافر والقانت

غرض الاستفهام في قوله: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ﴾ هو نفي المساواة بين الكافر والقانت على ما مضى بيانه من تقدير المعادل المحذوف، أمّا نوعِ الاستفهام المضمَّن في الهمزة؛ فهو: استفهام إنكاري قُصِد به النَّفي، ولمّا كان في الإنكار معنى النَّفي؛ أفاد التَّقرير؛ لأنَّ نفي النَّفي إثبات، والاستِفهامُ مُستعمَلٌ في التَّهكُّم أيضًا لِظُهورِ أنَّهُ لا تَتَلاقى تلك الصِّفاتُ الأربَعُ مع صِفَةِ جَعْلِهِ للّٰه أندادًا[2].

دلالةُ التَّعبير بالاسم الموصول (مَنْ):

الدَّلالة على كثرة الموصوفين بهذا الوصف من جهة وانفرادهم به من جهة أخرى

(مَنْ) اسم موصول مشترك، لفظُه لفظُ المفردِ، ومعناه معنى الجمع، فقُصِدَ بلفظه انفراد من يتَّصف بهذه الصِّفات عن عموم أهل الإيمان وتميُّزه عنهم، لكمال الطاعة فيهم بالقنوت، وليس يعني أنَّ مثل هؤلاء آحاد قلائل، بل هم كثير في أنفسهم، على مرِّ الزَّمان بما دلَّ عليه معنى (مَنْ)، لكنَّهم مع كثرتهم قليل بالنِّسبة لغيرهم.

(1) الفارسي، الحجة: 6/ 93، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 189، والسمين، الدر المصون: 9/ 415، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 236، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 345.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 236، والجمل، حاشية على الجلالين: 6/ 418، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 345، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 412.

نكتة التَّعبير بضمير المفرد الغائب ﴿هُوَ﴾:

دخولُ القانت في زمرة أهل الفضل ولو كان غائبًا أو غير معروف

التَّعبيرُ بضمير المفرد الغائب ﴿هُوَ﴾ يشير إلى دخول القانت في زمرة أهل الفضل والتُّقى، وحصوله يوم القيامة على الدرجات العلا، ولو كان غائبًا وحيدًا غير معروف، وقول بعض المفسِّرين: إنَّه أريد بمَن هو قانت: رسول الله ﷺ، على أنَّ الضَّمير ﴿هُوَ﴾ يعود إلى من أُمر بالقول في قوله تعالى: ﴿قُلۡ تَمَتَّعۡ بِكُفۡرِكَ قَلِيلًا﴾، فالجملة "من تمامِ الكلامِ المأمورِ به"[1]، وقيل: أريد بمن هو قانت أبو بكر، وقيل: عمّار بن ياسر، وقيل: صهيب، وقيل: أبو ذر، وقيل: ابن مسعود رضي الله عنهم جميعًا، ولا جرم أنَّ هؤلاء المعدودين هم مِن أحقِّ مَن تصدُق عليه هذه الصِّفة الَّتي في تلك الصِّلة، فهي شاملة لهم ولغيرهم ممَّن تحقَّقت فيهم؛ لأنَّ محمل الموصول في الآية على تعميم كلِّ مَن يصدق عليه معنى الصِّلة[2]، ودخوله ﷺ في هذا العموم دخول أوَّلي، فلا أحد يسبقه ﷺ في هذا الباب أبدًا.

فائدةُ إفراد المبتدأ والخبر في جملة الصِّلة ﴿هُوَ قَٰنِتٌ﴾:

أهل الولاية منفردون بعظيم الطّاعات

جاء المبتدأ والخبر في جملة الصِّلة مفردين ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ﴾؛ لأنَّ القنوت أعظمُ ما يكون؛ إذا كان المؤمن القانت بمعزل عن النّاس، منفردًا في قنوته، لا يعلم أحدٌ عنه شيئًا، وذلك أجمع للقلب، وأقرب إلى الإخلاص.

دلالةُ التَّعبير بالقنوت في الآية:

الدَّلالة على دوام الطّاعة ولزومها

القُنوتُ: لزوم الطّاعة مع الخضوع[3]، أو طول الطّاعة مع الخشوع والطُّمأنينة، وعليه فمعنى ﴿قَٰنِتٌ﴾، أي: ملازم للطاعة والعبادة مداوم عليها لا يفارقها، ولا تفارقه، مع خضوع لله ﷻ وخشوع، وإن

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 245.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 437، 438.

(3) الراغب، المفردات: (قنت).

اختلف المفسِّرون في المراد بالقنوت في القرآن، أهو طول القيام، أم طول القراءة، أم طول الصَّمت، أم طول السُّكون والتَّطامن، أو طول الذُّلِّ والانكسار، فكلُّها داخلة في مضمون الطاعة والعبادة.

نكتةُ التَّعبير في القنوت بصيغة اسم الفاعل ﴿قَٰنِتٌ﴾:

قوَّة اتِّصاف الموصوف بالصِّفة مع الدَّوام والاستمرار

أوثر التَّعبيرُ باسم الفاعل: ﴿قَٰنِتٌ﴾؛ للدَّلالة على قوَّة اتِّصاف الموصوف بالصِّفة وثبوتها فيه، مع الدَّوام والاستمرار، وللإشعار بأنَّ القنوت فيه ﷺ سجيَّة وطبع، وكذلك ينبغي أن يكون في كلِّ قانت، ولذلك كان التَّعبير باسم الفاعل أبلغَ من التَّعبير بالفعل الذي يدلُّ على التَّجدُّد والحدوث.

فائدة تنكير ﴿قَٰنِتٌ﴾:

التَّفخيم والتَّعظيم

قال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ﴾، ولم يقل: أمَّن هو القانت، مع تنوين اسم الفاعل النَّكرة؛ للدَّلالة على تعظيم ذلك القانت وتفخيم أمره، كأنَّه قال: هو عظيم القنوت، عالِ القدر والمنزلة.

بلاغةُ التَّعبير بالجملة الاسميَّة في صلة الموصول:

الدَّلالة على الثَّبات والاستمرار

الأصل في الجملة الاسميَّة أنَّها تدلُّ على الاستمرار والدَّوام والثَّبات، فإيثارُ صلةِ الموصول بكونه جملة اسميَّةً دلالةٌ على ثبات هذا الوصف فيه، ودوامه واستمراره؛ لأنَّ الجملة الاسميَّة تدلُّ على وجود حدث غير مقترن بزمان، كأنَّ القنوت في صاحبه صفة ملازمة له لا تنفكُّ عنه انفكاك وجوده.

فائدة ذكر الظَّرفيَّة في ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾:

قوله: ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ منصوب على الظرفيَّة لـ ﴿قَٰنِتٌ﴾، وفي تخصيص قنوته بساعات اللَّيل دلالةٌ على أنَّ قيام اللَّيل والعبادة فيه أفضلُ من قيام النَّهار والعبادة فيه[1]؛ لأنَّ اللَّيل أسترُ، فيكون

(1) شيخ زاده، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 232.

الـلَّـيـلُ أعــون من النَّهار على الإخـــلاص في العبادة والتَّفرُّغ لــهـا وعـــدم الانشغال عنها

أبعدَ عن الرّياء، ولأنَّ ظلمة اللَّيل تجمع الهمَّة، وتمنع البصر عن النَّظر إلى الأشياء، وإذا صار القلب فارغًا عن الاشتغال بالأحوال الخارجيَّة؛ رجع إلى المطلوب الأصلي، وهو الخشوع في الصَّلاة ومعرفة من يصلي له، أو: لأنَّ اللَّيل هو وقت النوم ومظنَّة الراحة، فيكون قيامه أشقَّ على النَّفس، فيكون الثَّواب فيه أكثر[1]، ويشعر بهذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيۡلِ هِيَ أَشَدُّ وَطۡـًٔا وَأَقۡوَمُ قِيلًا ۝٦﴾ [المزمل: 6]، لكن تخصيص اللَّيل بالذِّكر لا يعني أنَّه المخصوص وحده بالعبادة، وأنَّه لا قنوت في النَّهار، بل هو دالٌّ بدلالة فحوى الخطاب على أنَّ هذا القانت لا يخلو من السُّجود والقيام آناء النَّهار أيضًا، كما يدلُّ له أيضًا قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي ٱلنَّهَارِ سَبۡحًا طَوِيلًا ۝٧﴾ [المزمل: 7]، وبذلك يتمُّ انطباق هذه الصِّلة على حال النَّبيِّ ﷺ[2].

نكتة إضافة ﴿ءَانَآءَ﴾ إلى ﴿ٱلَّيۡلِ﴾:

شـمـــولُ كــلِّ ساعـات اللَّـيـل للطاعة والعبادة وصلاحيتها لكلِّ النّاس

إضافةُ الجمع إلى المعرفة في ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾ أفاد العموم، أي: قانتٌ في كلِّ ساعات اللَّيل، أي: إنَّ كلَّ ساعات اللَّيل مظنة للقنوت، ولمّا كانت (مَنْ) تفيد العموم أيضًا؛ أفاد تعلُّق اللَّفظ العام بالظَّرف العام تداخلَ كلٍّ منهما في الآخر، من باب: "مقابلة الجمع بالجمع تنتج القسمة آحادًا"، أي: إنَّ كلَّ قانت له ما يخصُّه من ساعات اللَّيل يكون فيها قانتًا، وأنَّ كلَّ ساعات اللَّيل لا تخلو من قانت للّه تعالى، وأنَّ كلَّ ساعة من هذه السّاعات فيها من القانتين الجمُّ الغفير والعدد الكثير، وفي هذا إشارةٌ إلى تيسير اللّه ﷻ للناس حتى يكون اللَّيل كلُّه مجالًا للقانتين من صلاة المغربِ إلى صلاة الفجرِ؛ ليختار كلُّ واحد من هذه السّاعات ما يناسب طبيعة عمله وعمره وصحَّته وغير ذلك.

(1) الخازن، لباب التأويل: 4/ 52.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 346.

سرُّ مجيءِ (ال) التعريفيَّة في ﴿ٱلَّيۡلِ﴾:

إفادةُ لفظ اللَّيل معنى الجنس والاستغراق في وقت واحد

(ال) التَّعريفيَّة في ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ قد تكون للجنس، والمقصود بـ ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ على هذا جنسه ومطلقه، وليست لياليَ بعينها، ولا يمنع هذا من كون بعض اللَّيالي أنشطَ مِن بعضها تبعًا لخصوصيّاتها ونفحاتها كليلة الجمعة وليالي رمضان، فإنَّ الدَّواعي فيها أقوى، والاستعداد لها أشدُّ وأنشط، وإلّا فإنَّه ﷺ كان يقوم كلَّ اللَّيالي بأمر القرآنِ له بذلك في قوله تعالى: ﴿قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ٢ نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ٣ أَوۡ زِدۡ عَلَيۡهِ﴾ [المزمل: 2 - 4]، وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا ٧٩﴾ [الإسراء: 79]، وقد تكون (ال) التعريفيَّة في ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ للاستغراق، فتفيد العموم والشُّمول، وهو حينئذٍ يشمل، ويعمُّ الأجزاء؛ لأنَّ العموم حين يكون في المفرد يكون في أجزائه، مثل: كلُّ البيت واسعٌ، ويؤكِّد هذا أيضًا إضافة ﴿ءَانَآءَ﴾ إلى ﴿ٱلَّيۡلِ﴾ التي تفيد العموم في ﴿ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ﴾، أي: ساعات اللَّيل، التي هي أجزاؤه.

فائدةُ التَّعبير عن السُّجود والقيام باسم الفاعل ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾:

الـدَّلالـةُ على دوام الإخـلاص بـدوام السُّجود والقيام

عبَّرَ عن السُّجود والقيام باسم الفاعل ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾، دون الفعل المضارع مثلًا (يسجد ويقوم)؛ للإشارة إلى دوام إخلاصه في حال سجوده وقيامه، دون انقطاع أو فتور، الدّالِّ على دوام الإخلاص[1]، بخلاف الفعل المضارع الَّذي يدلُّ على التَّجدُّد والحدوث مع الاستمرار، والتَّجدُّد لا يكون إلّا مع انقطاع.

علَّةُ الاقتصار على السُّجود والقيام ﴿سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا﴾:

كونهما أفضلَ أركان الصَّلاة في اللَّيل

أعظمُ أركانِ الصَّلاة وأفضلُها في الليل القيامُ والسُّجود، ولذلك جاءت السُّنَّة بالتطويل فيهما، وسُمّيتِ الصَّلاة في اللَّيل قيامًا (قيام اللَّيل)، وثمرة طول القراءة التي تكون في القيام إنَّما تكون في السُّجود، ولذلك قُدِّم على القيام في الآية، كما سيأتي بيانه.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 466.

غرضُ تقديم السُّجود على القيام:

السَّجـود أليقُ بـحال القانت، وأقـرب حـالات عبادة العبد من ربِّه

والسِّرُّ في تقديم السُّجود على القيام كون المقام مقام قنوتٍ وإخلاص، والإخلاصُ أقربُ مقرَّب إلى الله؛ لأنَّه تَجَرُّدٌ عن كلِّ ما سواه تعالى، والسُّجود أليق الأشياء بهذا الحال، ولذلك كان أقربَ مقرِّبٍ للعبد من ربِّه[1]، ولأنَّ السُّجود أفضل من القيام[2]، لحديث: «أقرب ما يكون العبدُ من ربِّه، وهو ساجدٌ»[3].

نكتةُ وقوع العطف بالواو في ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ وترك العطف على ﴿قَٰنِتٌ﴾:

السُّجود والقيام ركـنـان في عـبـادة واحـدة، والـقـنـوت حال المخلص في هذه العبادة

الواو العاطفة هي للتشريك في الحكم بين المتعاطفين، ولذلك قال: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾؛ لأنَّ الجمع بينهما في الحاليَّة مرادٌ؛ إذ يستحبُّ الطول فيهما في قيام اللَّيل، وهما أدخل في الإخلاص لدى القانتين، وللدَّلالة على تمكُّنه من الوصفين بالعطف[4]، ثم إنَّ كُلًّا منهما ملازمٌ للآخر في العبادة، فالسُّجود يأتي عقب القيام، وكذلك القيام أيضًا يأتي أثناء الصَّلاة وأداء الركعات من سجود، وفي سرِّ ترْكِ العطف على ﴿قَٰنِتٌ﴾؛ لأنَّ طول القيام والسُّجود عمل، والقنوت حال أهل الإخلاص عند أداء ذلك العمل، فليس من جنسهما حتى يُعطفا عليه، بل جاء حالًا له، ولأنَّ القنوت مطلق العبادة، أو هو القيام بوظائف العبادات، فلم يكن مغايرًا للسُّجود والقيام، فلم يُعطفا عليه؛ إذ لا مساغ للعطف، فالذّات وصفتها كالشَّيء الواحد، بخلاف السُّجود والقيام، فإنَّهما وصفان متغايران؛ فلذا عُطِف أحدهما على الآخر، أي: بتنزيل تغاير الصِّفتين منزلة تغاير الذَّوات[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 466.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 236.
(3) صحيح مسلم، حديث رقم: (482).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 466.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 236، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 488.

نكتة تنكير ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾:

التَّعظيم والتَّكثير

التَّنكير في ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ يفيد التَّعظيم والتَّكثير، أي: هو ﷺ قانتٌ لله متقن لعبادته، كثيرُ السُّجود والقيام، وقد أخرج البخاريُّ بسنده عن عائشة رضي الله عنها: «أنَّ نبيَّ الله ﷺ كان يقوم من اللَّيل حتى تتفطَّر قدماه، فقالت عائشة: لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّر؟ قال: أفلا أحبُّ أن أكون عبدًا شكورًا»(1).

بلاغةُ الحذف في قوله: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾:

الإيجازُ بذكر الأهمِّ للدَّلالة على حذف المهمِّ

قوله تعالى: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ فيه حذفُ كلمتين من جهتين، فالكلمتان هما الرُّكوع والقعود، من جهة دلالة السُّجود والقيام عليهما، فقوله: ﴿سَاجِدًا﴾، أي: وراكعًا، وقوله: ﴿وَقَآئِمًا﴾، أي: وقاعدًا، فالآيةُ من الاحتباك: ذَكَرَ السُّجودَ دليلًا على الرُّكوع، وذَكَرَ القيامَ دليلًا على القعود، والسِّرُّ في ذكر ما ذكر وترك ما ترك أنَّ السُّجود يدلُّ على العبادة، وقرْنُ القيامِ به دالٌّ على أنَّه قيام منه، فهو عبادة، ولذلك جاء بعده في ترتيب الآية، وذلك مع الإيذان بأنَّهما أعظم الأركان، فهو ندب إلى تطويلهما على الرُّكنين الآخرين؛ لأنَّ القعودَ إنَّما هو للرِّفق بالاستراحة، والرُّكوع إنَّما أريد به إخلاص الأركان للعبادة؛ لأنَّه لا يمكن عادة أن يكون لغيرها، وأمّا السُّجود؛ فيطرقه احتمال السُّقوط، والقيام والقعود ممّا جرت بهما العوائد، فلمّا ضمَّ إليهما الرُّكوع تمحُّضًا للخضوع بين يدي الملك العليم العزيز الرَّحيم(2).

بلاغةُ الطِّباق بين السُّجود والقيام:

في قوله: ﴿سَاجِدًا وَقَآئِمًا﴾ طباق الإيجاب، حيث قابل بين السُّجود

---

(1) صحيح البخاري حديث رقم: (4837).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 466، 467.

في المقابلة بينهما تحسُّن لفظيٌّ ومعنويٌّ

والقيام، فأبرز الجمال اللفظي، وكذلك القيمة المعنويَّة، فكلاهما من أحوال الصَّلاة ومظاهرها؛ لإبراز قيمة كلٍّ منهما في الصَّلاة نفسها وبمجموعها تتمُّ الصَّلاة، فكلٌّ منهما ركنٌ من أركانها لا تتمُّ الصَّلاة إلّا به حال الصِّحَّة والقدرة، وبالعِوض عنهما بما يدلُّ عليهما حال المرض والعذر.

نكتةُ الفصل والوصل في الآية:

بيانُ علَّة القنوت والرُّكوع والسُّجود، وأنَّ الرَّجاء لا ينفكُّ عن الخوف

لما كان الإنسان محلَّ الفتور والغفلة والنِّسيان، وكان ذلك في محلِّ الغفران، وكان لا يمكن صلاحه إلّا بالخوف من الملك الدَّيّان؛ فُصِلَ قوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ عمّا قبله على الاستئناف البيانيِّ علَّة لما قبله، وجوابًا عن سؤالٍ مقدَّرٍ، كأنَّه قيل: ما شأنه يَقْنُتُ آناءَ اللَّيل، ويُتْعِبُ نفسَه، ويَكُدُّها؟ فقيل: لأنَّه ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾[1]، أي: يحذر بقنوته وسجوده وقيامه عذاب الآخرة، ويطمع في نوال رحمة ربِّه بدخول الجنَّة، فيكون بين الجملة المفصولة وما قبلها شبه كمال الاتِّصال، وأمّا سرُّ الوصل والعطف بالواو في ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾؛ فهو قصد الجمع والتَّشريك بينهما في الحكم والمعنى؛ لكونهما متلازمين، ويكون بين الجملتين الموصولتين (توسُّط بين الكمالين)؛ "لأنَّ الجملتين خبريَّتان لفظًا ومعنًى"[2].

نكتة التَّعبير بالفعل المضارع في قوله: ﴿يَحۡذَرُ﴾ و﴿وَيَرۡجُواْ﴾:

لا يضرُّ مع دوام الأعمال الصالحة الانقطاع اليسير أو الفتور

في اختيار صيغة المضارع في قوله: ﴿يَحۡذَرُ﴾ و﴿وَيَرۡجُواْ﴾ دلالة على أنَّه لابدَّ من وجود سبب قويٍّ دافع للمؤمن القانت المخلص يدفعه إلى المداومة على العمل الصالح، ولا يؤثِّر في ذلك وجود فتور أو انقطاع في هذا السَّبب الدّافع؛ لأنَّه سرعان ما يتجدَّد، فيبقى مع

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 38، والسمين، الدر المصون: 9/ 416، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 467، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 346.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 415.

تجدُّده كالدائم الَّذي لا ينقطع، بدلالة الفعل المضارع في: ﴿يَحْذَرُ﴾ و﴿وَيَرْجُواْ﴾ على التَّجدُّد والاستمرار، فهو دائم التَّجدُّد للحذر والرَّجاء؛ كلَّما غفل عنهما.

غرضُ حذف الفاعل في الفعلَيْن:

العلمُ بالفاعل لفضله ومكانته

حذف الفاعل في جملتي: ﴿يَحْذَرُ ٱلْأَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ اختصارًا للعلم به لظهور فضله وشرفه وعُلوِّ منزلته ومكانته عند اللّٰه تعالى، ولعدم طروء ما يدعو إلى ذكره والتَّصريح به، فالفاعل في كليهما ضمير مقدَّر راجع إلى الموصول في قوله: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ﴾.

بلاغةُ الحذف المتقابل في الآية:

دلالــةُ المـذكـور الأهـــمِّ علـى المحذوف المهمِّ

في قوله: ﴿يَحْذَرُ ٱلْأَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ حذْفٌ متقابل ومتكرِّر، والتَّقدير: يحذر عذاب اللّٰه في الدُّنيا والآخرة، ويرجو رحمة ربِّه فيهما، وإنَّما حذف من الجملة الأولى (عذاب اللّٰه)؛ لدلالة الحذر عليه، وحذف منها (الدُّنيا)؛ لدلالة الآخرة عليها، وذكر الحذر من الآخرة دون الدُّنيا؛ لأنَّ عذاب الدُّنيا بالنِّسبة إلى عذاب الآخرة كالعدم، ولأنَّه لا مطمع له في الدُّنيا؛ إذ الدُّنيا ليست هَمَّهُ، إنَّما همُّه في الآخرة، وذكر في الثّانية رجاءه رحمةَ ربِّه، وحذف منها الدُّنيا والآخرة؛ لأنَّ رحمة ربِّه إذا لحقته في الدُّنيا؛ فلن تنفكَّ عنه في الآخرة، ولأنَّ رحمةَ ربِّه إذا حلَّت به؛ كانت بشارة له بألّا يلحقه شقاء أبدًا.

نكتة إضافة المولى سبحانه الرَّجاء إلى نفسه دون الحذر:

تعليمُ العبادِ الأدبَ مع اللّٰه تعالى في التَّعبير في كلِّ سياق بما يليق بمقامه الأسنى

ممّا يُلحظ في الآية أنَّه قال في مقام الخوف: ﴿يَحْذَرُ ٱلْأَاخِرَةَ﴾، فلم يجعل سبحانه الحذر من نفسِهِ أو من عذابه، فلم يقل: يحذر اللّٰه، أو يحذر عذاب اللّٰه، وفي مقام الرَّجاء أضافه إلى نفسه، حيث جعل رجاء القانت مِن رحمته سبحانه، فقال: ﴿وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾، وهذا يدلُّ على أنَّ جانبَ الرَّجاء أكملُ وأليق باللّٰه تعالى[1].

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 429.

نكتةُ تقديمِ الحذر على الرَّجاء:

ما يُخاف ويُتقى مقدَّم في الأولويات على ما يُرتَجى ويُبتَغى

نكتةُ تقديم الحذر على الرَّجاء تبرز في أنَّ ما يُخاف، ويُتَّقى مقدَّم في الأولويات على ما يُرتَجى، ويُطمَع فيه، ويُبتَغى؛ "لأنَّ النُّفوس ممّا يضرُّها أفزع، ولطلبها النَّجاة منه أسرع"[1]، ولما هو معلوم من أنَّ درءَ المفاسد مُقدَّم على جلب المصالح، أو لأنَّ الإنسان عند المواظبة على الاستقامة من القنوت والسُّجود والقيام ينكشف له في الأوَّل مقام القهر، وهو قوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾، ثم ينكشف له بعد ذلك مقام الرَّحمة، وهو قوله: ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾[2]، أو لأنَّ المؤمن يغلب عليه الخوف والحذر أوَّل أمره وغالب حياته، فإذا اقترب الأجل؛ غلب عليه الرَّجاء، وبذلك يصلح له أمره كلُّه، ويكون التَّرتيب في الآية مطابقًا للواقع على الوجهين الأخيرين.

نكتة التَّعبير بـ (ال) في ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾:

تردُّد (ال) في (الآخرة) بين العهد والاستغراق

(ال) في ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ الظاهر أنَّها للعهد، وعليه فالمقصود بالآخرة الدار الآخرة، أي: يوم القيامة، ويمكن أن تكون (ال) في ﴿ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ للاستغراق، فتفيد عموم أجزاء يوم القيامة؛ لأنَّ العمومَ حين يكون في المفرد يكون في أجزائه، أي: يحذر كلَّ موطن من مواطن يوم القيامة، ولا يأمن إلّا بدخول الجنَّة، وهي أعظم رحمة تأتيه من ربِّه.

بلاغةُ حذف الموصوف في ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾:

احتمالُ الموصوف المحذوف أكثرُ من تقديرٍ

في قوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ﴾ حُذِفَ الموصوف، والظاهر أنَّ التَّقدير: يحذر الدار الآخرةَ؛ لكثرة ورود ذلك في القرآن، ويحتمل أن يكونَ التَّقديرُ: يحذر الحالةَ الآخرةَ الَّتي يُخۡتَمُ له بها، ويلقى اللّٰه عليها، فإنَّ العِبرة بالخواتيم.

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 414.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 429.

نكتةُ الجمع بين الحذر والرّجاء:

مـن عـلامـات صـحَّـة قـلـب المؤمن اعتدال ميزان الخوف والـرَّجـاء فيه وتغليب أحدهما في ظرفه وحينه

كلٌّ مِنَ الخوف والرَّجاء من أعمال القلوب الَّتي لا ينفكُّ عنها قلب المؤمن، فالقلب في سيره إلى اللّه ﷻ بمنزلة الطّائر، فالمحبَّة رأسه، والخوف والرَّجاء جناحاه، فمتى سلم الرَّأس والجناحان؛ فالطَّير جيِّد الطَّيران، ومتى قُطِعَ الرَّأس؛ مات الطّائر، ومتى عدم الجناحان؛ فهو عرضةٌ لكلِّ صائدٍ وكاسرٍ، ولكنَّ السَّلف استحبّوا أن يقوى في الصِّحة جناحُ الخوف على جناح الرَّجاء، وعند الخروج من الدُّنيا يقوى جناح الرَّجاء على جناح الخوف، وقال بعضهم: أكمل الأحوال اعتدالُ الرَّجاء والخوفِ وغلبةُ الحبِّ، فالمحبَّةُ هي المركب، والرَّجاء حادٍ، والخوف سائق، واللّه الموصل بمنِّه وكرمه[1]، وبهذا يُعلَم أنَّ اعتدال ميزان الخوف والرَّجاء في القلب وتغليب أحدهما في ظرفه وحينه من علامات صحَّة قلب المؤمن.

نكتةُ إضافة الرَّحمة إلى لفظ الرُّبوبيَّة:

الـرَّحـمـة من تجلّيات الرُّبوبيَّة المنعمة

أُضيفتِ الرَّحمةُ إلى لفظ الرُّبوبيَّة دون لفظ الألوهيَّة، فقيل: ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾؛ لأنَّ الرَّحمة في أصلها هي من تجلّيات الرُّبوبيَّة المنعمة، وليست من تجلّيات الألوهيَّة القاهرة، وأيضًا فإنَّ المقام مقام استمالة لقلوب المعرضين عن ربِّهم، فناسب التَّعبير بلفظ الرُّبوبيَّة الَّتي تميل القلوب بما تفيض عليها من الإنعام والإكرام.

دلالةُ التَّعبير بلفظ الرَّبِّ وإضافته إلى ضمير القانت:

الرَّبُّ هو المنعم المربي والإضافة إليـه إطـمـاعٌ وتطلُّع إلى بلوغ كمال الفوز

الرَّبُّ هو المربّي جميع عباده بالتَّدبير وأصناف النِّعم، وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامَّة وخاصَّة، فالعامَّة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدُّنيا. والخاصَّة: تربيته لأوليائه، فيربّيهم بالإيمان، ويوفِّقهم له، ويكمله لهم، ويدفع عنهم الصَّوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه،

(1) ابن القيم، مدارج السالكين: 2/ 188.

وحقيقتها: تربية التَّوفيق لكلِّ خير، والعصمة عن كلِّ شرٍّ، ولعلَّ هذا هو السِّرُّ في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرَّبِّ، فإنَّ مطالبهم كلَّها داخلة تحت ربوبيِّته الخاصَّة[1]، وما في قوله: ﴿وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ هو من هذه التَّربية الخاصَّة، كما أنَّ في التَّعرُّض لعنوان الربوبيَّة هنا مع الإضافة إلى ضميرِ الرّاجي إطماعًا وتطلُّعًا إلى بلوغ كمال النَّجاة من كلِّ محذور، والفوز بكلِّ مرغوب، ليس في الدُّنيا فقط، ولكن في الآخرة أيضًا، وذلك بالفوز فيها بالجنَّة والنَّجاة من النّار ومن كلِّ ما يُخافُ، ويُحذَر[2]، وفي إضافة اسم الرَّبِّ إلى ضمير الراجي أيضًا تشريفٌ له وإعلاء لقدره ورفعة لشأنه؛ لما وفَّق إليه في هذا الرَّجاء مع خِذلان غيره من أهل الكفر والإعراض.

بلاغةُ الطِّباق في التَّعبير بالحذر والرَّجاء:

كلا المتقابلين مطلوب، وحصول كلِّ واحدٍ منهما يستلزم حصول الآخر

في قوله: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ﴾ طباق إيجاب دقيق المسلك؛ إذ يُبرِز حسن المقابلة بين الجملتين، وكلاهما مطلوب، فالحذر من عذاب الآخرة يجب أن يصاحبَهُ رجاء وطمع في رحمة الله، وهي الجنَّة، فالمتقابلان هنا مطلوبان؛ لكونهما متلازمين من حيثُ إنَّ تحقيقَ أحدِهما مستلزمٌ تحقيق الآخر.

نكتةُ فصلِ قولِه: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي﴾:

التَّتابعُ في إقامة الحجَّة على الكفار

يعودُ سرُّ فصل جملة: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي﴾ إلى كونها استئنافًا بيانيًّا[3]، مبنيًّا على تقدير سؤال أثاره وصفُ المؤمن الطّائع، فكأنَّه قيل: ما الَّذي مكَّن هذا المؤمن من أن ينقاد كلَّ هذا الانقيادِ لطاعة ربِّه؟ فكان الجواب عبر هذه الجملة الاستئنافيَّة المنطوية في مقول قولها على استفهام إنكاريٍّ موجَّه إلى المشركين المعرضين عن ربِّهم.

ولا مانع من أن يكون سرُّ الفصل هو كون هذه الجملة توكيدًا

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 39.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 245.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 348.

للإنكار في جملة: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ﴾، أو لكونها جملة إنشائية لفظًا ومعنًى، وسابقتها خبريَّة لفظًا ومعنًى[1]، فيكون بينهما كمالُ انقطاعٍ، لكن حمْلُها على الاستئناف البيانيِّ أوفقُ للنَّظم والسّياق، فيكون موقعها كموقع جملة: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾[2].

دلالةُ الأمر بـ﴿قُلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى﴾:

الأمرُ هنا دالٌّ على أهمّيَّة مقول القول ووجوب تبليغه على الفور

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى﴾ على أصله من الوجوب، والوجوب هاهنا على الفور لا على التَّراخي، أي: بمجرَّد أن تلقى الموصوفين بهذا الوصف، قل لهم: هل يستوي الَّذين يعلمون، والذين لا يعلمون، وهذا القول يقال لكلٍّ واحد من هؤلاء، ويقال للنّاس عمومًا رجاء أن يؤثِّر هذا القول في أيٍّ واحد من هؤلاء؛ إذا قرأه، أو سمعه، فيرجع عن غيِّه، ويعود إلى رشده.

المخاطَبُ بالأمرِ في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى﴾:

كلُّ مَن كان على ميراث النُّبوَّة الصَّحيح له من الخطاب بهذا الأمر نصيب

المخاطَب بالأمر بـ﴿قُلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ هو المخاطَب به في قوله: ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا﴾، وهو رسول الله ﷺ، وإنَّما أورد هنا أيضًا؛ "تنبيهًا عَلى أنَّه أهمُّ"[3]، أي: إنَّ الأمرَ بالقول هنا دالٌّ على أهمّيَّة المأمور بقوله، وهو مقول القولِ، فينبغي عليك يا رسول الله أن تواجه به فورًا هؤلاء المشركين الجاحدين الذين يزعمون أنَّهم يعلمون، وهم لا يعلمون، أي: قل لهم أيُّها النَّبيُّ ذلك القول، وكلُّ من كان على ميراث النُّبوَّة الصَّحيح له من الخطاب بهذا الأمر نصيب.

بلاغة الاستفهام ونوعه وغرضه:

دورانُ الاستفهام في الآية بين الإنكار والنَّفي والتَّهكُّم

الاستفهام في قوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ إنكاريٌّ متضمِّن معنى النَّفي قُصد به إثباتُ عدم

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 415.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 348.

(3) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 489.

المساواة بين الذين يعلمون، والذين لا يعلمون، أو يقال: هو لنفي هذه المساواة، واختيار ﴿هَلۡ﴾ الدّالَّة عَلى طلب التَّصديق تهكُّمًا بالمشركين[1] وتوبيخًا لهم على عدم تمييزهم بين الإيمان والشِّرك، فأشبه حالهم حال الَّذي لا يعلم بدهيات الأشياء.

دلالةُ التَّعبير بلفظ الاستواء:

استـمـرارُ نفي وقـوع التَّسوية بين المتضادَّين

أصلُ (سوي) يَدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بين شيئَين، يُقالُ: هذا لا يُساوي كذا، أي: لا يُعادِلُهُ[2]، والتَّسويةُ: ضِدُّ المُفاضَلَةِ، وتأتي بمعنى العَدْلِ والإنصافِ، فيُقال: سَوَّيْتُ بين الشَّيئَين؛ إذا عَدَلت بَينهُما[3]، والمقصود في الآية: استنكارُ جعْلِ الأشياء المتضادَّة متساوية بطريق الاستفهام الإنكاري المتضمِّن معنى النَّفي.

فائدةُ التَّعبير بالفعل المضارع في ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي﴾:

تَـجَـدُّدُ نفي الاسـتـواء بين الذين يعلمون والـذيـن لا يـعـلـمـون واستمراره

فائدةُ التَّعبير بالفعل المضارع في ﴿يَسۡتَوِي﴾ الدَّلالة على استمرار نفي وقوع التَّسوية بين المتعادلين هنا، وهما الذين يعلمون، والذين لا يعلمون بأيِّ حال من الأحوال، ولا في أيِّ وقت من الأوقات، وتَجَدُّد ذلك النَّفي في كلِّ زمان.

نكتةُ التَّعبير بالاسم الموصول مع العالمين وغيرهم:

المـرادُ بالموصول مع العالِمين المدحُ والـثَّـنـاء، ومع غيرهم الـقـدحُ والإغضاء

عبَّر بالاسم الموصول مرَّتين: مرَّةً مع العالِمين، فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ﴾، وهو مقتضٍ للمدح والثَّناء، ومرَّةً مع غير العالِمين، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾، وهو مقتضٍ للقدح والذَّمِّ والإغضاء، وعدل في كليهما عن التَّعبير بالموصول الحرفي مع اسم الفاعل، فلم يقل: العالِمون وغير العالِمين؛ للتَّنبيه على ما تضمَّنته جملة الصِّلة بفعلها المضارع من معانٍ.

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 489.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوي).
(3) الأزهري، تهذيب اللغة: (سوا).

سرُّ إيثارِ التَّعبير بالفعل المضارع في جملتَي الصِّلة:

التَّجدُّد والتَّكرار والاستمرار

أوثر التَّعبيرُ بالفعل المضارع في جملة الصِّلة؛ للدَّلالة على التَّجَدُّد والتَّكرار مع الاستمرار؛ قصدًا إلى مدح العالِمين بربِّهم بتَجَدُّد علمهم باللّه والاستزادة منه، فهُم يجدِّدون علمهم بربِّهم، فيزدادون معرفةً إلى معرفةٍ وإيمانًا إلى إيمان، وعلى النَّقيض من ذلك الَّذين لا يعلمون، فإنَّهم يستزيدون باستمراء عدم علمِهم باللّه، مع عِلمهم بأنَّه خالق كلِّ آثار الكون الدالَّة عليه، ثم بعنادهم واستكبارِهم يستزيدون بذلك كلِّه بُعدًا عن اللّه ﷻ.

فائدة تَكرار اسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع العالِمين وغير العالِمين:

الدَّلالةُ على المغايرة التامَّة بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون

كرَّر الموصول مع الذين لا يعلمون، ولم يكتفِ بالأوَّل؛ للدَّلالة على المغايرة التامَّة بينهم وبين الذين يعلمون، فهُم في جانب، وأولئك في جانب آخر.

بلاغةُ التَّعبير بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾:

الجمعُ بين التَّشبيه والمجاز والتَّعريض مع حسن الإطناب

يجوزُ حمل التَّركيب على التَّشبيه على تقدير: كما لا يستوي العالِمون وغير العالِمين، كذلك لا يستوي القانتون والعاصون، كما يجوز أن يكون المراد بالعِلم هنا العمل الذي هو لازم العِلم، فتكون المقارنة هنا بين العاملين الطّائعين وغيرهم من العاصين المعرضين، بتنزيل مَن يعمل، ويطيع، منزلةَ العالِم، وتنزيل مَن لا يعمل منزلةَ غير العالِم[1]، وعليه ففيه (مجاز مرسل) بإطلاق السَّبب وإرادة المسبَّب، أو بعلاقة اللُّزوم، وفي هذا التركيب تعريضٌ بمَن يعلمون، ثم لا يعملون بعلمهم، وفيه أيضًا - بالعدول عن العالِمين وغير العالِمين إلى الذين يعلمون والذين لا يعلمون - حسنُ الإطْناب؛ إذ لم يكتفِ بالقَوْل: هل يستوي العالِمون وغير العالِمين؟ من أجل هذه الفوائد السّابقة وغيرها[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 117.

(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 489.

معنى الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾:

الجمع والتَّشريك في الحكم بين الفريقين بطريق المضادَّة

الواو في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ هي الواو العاطفة المقتضية للجمع بين المتعاطفين، وهو هنا جمع بطريق المضادَّة، فيستبين الفرق بينهما، فيظهر فضل ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ﴾ واستحقاقهم كلَّ ثناء، وأمّا ﴿ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٥٩﴾؛ فيستحقون كلَّ مذمَّة ومعرَّة.

نكتةُ حذف مفعولي الفعلَيْن في ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ و﴿لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾:

الدَّلالةُ على شرف العِلم في ذاته من حيث هو، وقُبْحِ فقْدِهِ أو زواله

حُذِفَ مَفعول ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ في الموضعين لإفادة التَّعميم، أو لجعْلِ الفعل مُنزَّلًا منزلة اللازم(1)، فلا يفتقر إلى مفعول؛ إذ المقصود بيان حال الفاعل من حيث كونُه يعلم، أو لا يعلم، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ [النحل: 17]، أي: هل يستوي من فيهم أهليَّة العِلم مع مَن ليسوا له أهلًا؟ وهذا يكفي في عقد المقارنة التي هي مقصد المقام، وفيه - بناءً على هذا التَّوجيه - دلالةٌ على شرف العِلم في ذاته من حيث هو، وكذلك قَبُحَ فقْدُ العلم في ذاته من حيث هو، بقطع النَّظر عن ماذا يعلمون؟ أو ماذا لا يعلمون؟.

بلاغةُ الإدماجِ في التَّعبير بالاسم الموصول:

إدماجُ الأغراضِ من وسائل الإيجاز في القرآن

في التَّعبير باسم الموصول في الجملتين المتقابلتين إدماجٌ أغنى عن ذِكر جملتين، واحدة في كلٍّ منهما، وذلك أنَّ التَّعبير بالموصول في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ﴾ أدمج فيه الثَّناء على أهل الإيمان بالعلم، وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ أدمج فيه ذمَّ الكفّار بعدم العلم، كأنَّه قال: هل يستوي الذين يعلمون، ويؤمنون، ويعملون، والذين لا يعلمون، فلا يؤمنون، ولا ويعملون، "وفي ذلك إشارةٌ إلى أنَّ الإيمان أخو العلم؛ لأنَّ كليهما نور ومعرفة حقٍّ، وأنَّ الكفر أخو الضَّلال؛ لأنَّه والضَّلال ظلمةٌ وأوهام باطلة"(2)، وهذا المعنى مُصرَّح به في مواضع

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 489.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 349.

أخرى كثيرة، كقوله تعالى في حقِّ المؤمنين: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ [آل عمران: 18]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: 28]، وقوله في حقِّ الكافرين: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤﴾ [الزمر: 64].

بلاغةُ الكناية في نفي استواء العالم وغير العالم:

التَّعبيرُ بنفي الاستواء بين العالِم وغير العالِم كنايةٌ عن إثبات الفضل للعالِم

في التَّعبير بنفي الاستواء - بين الذين يعلمون، والَّذين لا يعلمون - كنايةٌ عن إثبات الفضل للَّذين يعلمون مطلقًا وعلى وجه العموم، فإنَّك ما تأمَّلت مقامًا اقتحم فيه عالم وغير عالم، إلّا وجدت للعالم فيه من المزيَّة والتَّفوُّق والسَّعادة بالعلم ما لا تجده لغيره(1).

بلاغةُ الطِّباق بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون:

طباقُ السَّلب هنا يبرز فضل العالِمين وتدنّي غير العالِمين

في قوله تعالى: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ طباق سلب؛ إذ قابل بين: ﴿ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾، وفي ذلك لفتٌ لانتباه السّامع إلى شناعة ما عليه غير العالِمين حينما وُضِعوا في كفَّة، ووُضع العالِمون في الكفَّة الأخرى، فأين يميل لسان الميزان؟.

نكتةُ فصل قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

عدمُ العلم بالله مسبَّب عن عدم إعمال العقلِ

بينَ هذه الجملةِ وما قبلها شبهُ كمال اتِّصال، فهي تعليل للإنكار الذي هو بمعنى الانتفاء بأنَّ سببَ عدم علمهم بالحقِّ أنَّهم ليسوا أهلًا للتَّذكُّر؛ لأنَّ التَّذكُّر من شعار أولي الألباب؛ إذ مدار التَّذكُّر الَّذي به الصَّلاح والفساد هو القلب؛ لأنَّه مركز العقل الَّذي هو آلة العلم، ولأنَّ القلبَ الَّذي لا يحمل على الصَّلاح عدمٌ أو كالعدم، بل العدم خير منه، قال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾، فيعلم أنَّ المحسن لا يرضى بالإحسان إلى مَن يأكل خيره، ويعبد غيره(2)، أي: لا يتذكَّر إلّا أولو الألباب.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 349.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 468.

بلاغةُ القصر ونوعه وغرضه:

القصر بـ"إنَّما" دالٌّ على أنَّ التَّذكُّر والاتِّعاظ والاعتبار إنَّما هو مقصور على أولي الألباب وحدهم دون غيرهم، فهو قصر صفةٍ على موصوف، والمراد بأولي الألباب أصحابُ العقول السَّليمة النافعة، فهُم وحدهم الذين يتذكَّرون، ويعتبرون بدلائل الحقِّ الهادية إلى الطُّرق القويمة.

الانتفاع بالدَّلائل مسبَّب عن إعمال العقول

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿يَتَذَكَّرُ﴾:

والتَّعبير بالتَّذكُّر هنا، وإيثاره على التَّفكُّر ونحوه؛ لما له من دلالة على ما هو من طبع كلِّ إنسان في كونه قابلًا لأن تعتريَهُ الغفلة أو النِّسيان في بعض الأحيان، ولا ضير على أولي الألباب في هذا؛ لأنَّ هذا العارض معهم لا يطول، بل سريعًا ما يزول؛ لكونهم سرعان ما يتذكَّرون، وينتبهون، فيُذَكِّرون أنفسهم، ويراجعونها حتى لا تركن إلى الغفلة، وهذا من دواعي كونِهم منتفعين بنعمة العقل الَّتي منحهم اللّه إيّاها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾ [الأعراف: 201].

أولو الألبابِ لا يغفلون، وإن غفلوا؛ فسريعًا ما يتذكَّرون، فيعودون

وفيه تعريضٌ بالمشركين الغافلين أبدًا، بأنَّهم ليسوا أهلًا للتَّذكُّر، فعقولهم بما سيطر عليها من داعي الغفلة والهوى والجحود والعناد، قد حجبت عن أن تعِظ صاحبها، فتذكِّرَه.

سرُّ اختيار ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ دون (يذَّكرُ)، كما في قوله: ﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ٥٢﴾:

التَّعبيرُ هنا بالفعل ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ دالٌّ على تمام معنى التَّذكُّر وعِظَمِه بدلالة تمام معنى الفعل دون حذف أو إدغام، وهذا ما أشار إليه البقاعيُّ في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾، أي: تذكُّرًا عظيمًا بما أفهمه إظهار التاء[1].

الفعلُ (يَتَذَكَّرُ) دالٌّ على العِظَمِ والكمال بما دَلَّ عليه تمام الفعل

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 468.

سرُّ التَّعبير بـ ﴿أُوْلُواْ﴾ دون (أصحاب) في قوله تعالى: ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

لا يقال صاحب إلّا باعتبار الملازمة

إنّما عبَّر بـ ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ دون (أصحاب الألباب)؛ لأنَّ الصّاحب هو الملازم للشَّيء، إنسانًا كان، أو حيوانًا، أو مكانًا، أو زمانًا[1]، ومِن ثَمَّ فإن لم تكن ملازمة؛ فلا يقال لها: صحبة، ولذلك قيل عن المؤمنين حال كونهم ملازمين الجنَّة في الآخرة، خالدين فيها: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ [البقرة: 82]، كما في قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾ [البقرة: 82]، وقيل عن الكافرين: ﴿أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ﴾ [البقرة: 39]، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾ [البقرة: 39]، أمّا العقول والألباب وسائر ما لا يلازم صاحبه، بل تعتريه المفارقة له قليلًا أو كثيرًا، فلا يقال له: صاحب، كما في التَّعبير بأولي الألباب، ومنه أيضًا قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ [الطلاق: 4]، فالمرأة لا تلازم الحمل أبدًا.

نكتةُ حذف مفعول التَّذكُّر:

الحذفُ إمّا لقصد التَّعميم أو لإنزال الفعل (تذكَّر) منزلةَ الفعل اللازم

حذف مفعول التَّذكُّر في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ إمّا للتَّعميم، وإمّا للاكتفاء بالنَّصِّ على كونهم يتذكَّرون، ويتَّعظون؛ لأنَّه المقصود والأهمُّ، فلا تكون هناك حاجة إلى ذكر مفعول، ويتنزَّل الفعل (تذكَّر) في هذه الحالة منزلةَ الفعل اللازم الذي يكتفي بفاعله.

بلاغةُ التَّعبير بالألباب دون غيرها:

مناسبةُ اللَّفظ للسّياق

إنّما كان التَّعبير هنا باللُّبِّ الذي هو خلاصة الشَّيء دون غيره من الألفاظ لمناسبة السياق؛ لأنَّ السياق للإخلاص، واللُّبُّ خالصُ كلِّ شيءٍ[2].

(1) الراغب، المفردات، ص: 457.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 469.

سرُّ مجيءِ (ال) في ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

إفادة (ال) أكثر من معنى

(ال) في ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ قد تكون للجنس، أي: جنس العقول الزّاكية والقلوب النَّقيَّة التي ينتفع بها أصحابها، كما يحتمل أن تكون للاستغراق؛ لأنَّ كلمة ﴿أُوْلُواْ﴾ لمّا أُضيفت إلى ﴿ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، وهي معرفة؛ أفادَتِ العموم والشُّمول؛ أيْ: كلُّ أولي الألباب.

نكتة التَّعبير باللُّب دون غيره:

اللُّبُّ خلاصة الشيء وعُصارته

آثر السياق الحكيم التعبير باللب دون غيره كالعقل والفهم، وفي ذلك يقول الإمام البقاعي رحمه اللّه: "وما أَحْسَنَ التَّعْبيرَ هُنا بِاللُّبِّ؛ الَّذي هو خُلاصَةُ الشَّيْءِ؛ لِأنَّ السّياقَ لِلْإخْلاصِ"[1].

نكتة التَّعبير بأولي الألباب بصيغة الجمع:

القلوبُ المؤمنةُ القانتة والعقول الواعية المتنبِّهة تجتمع على الحق دائمًا

لم يرد في القرآن الكريم هذا التَّعبير ﴿أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ إلّا مجموعًا،؛ إذ لم يذكر مفرده، وهو (لُبّ) أبدًا؛ وذلك لاستثقاله، ومعهود القرآن أنَّه يستغني عن المفرد بالجمع أو عن الجمع بالمفرد؛ إذ كان أحدهما ثقيلًا، فمن الأوَّل استغناؤه بـ(الألباب) عن مفرده الثَّقيل، وهو (لُبٌّ)، وذلك في كلِّ مواضع وروده في القرآن الكريم، ومن الثاني استغناؤه عن الأرضين، وهو جمع مستثقل بمفرده، وهو الأرض، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ﴾ [الطلاق: 12].

وأيضًا يُلمح من جمع لفظ (الألباب) أنَّ الرَّأي الحكيم الصّائب الذي ينتجه عقلُ لبيبٍ إنَّما تتَّفق عليه، وتقبله، وتثمِّنه سائر العقول الزاكية الراقية الَّتي هي الألباب، فيكون الرأيُ مع صدوره عن لبيب واحد كأنَّما صدر عن عدد كبير من أولي الألباب.

فائدة الجملة الخبريّة ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

في ختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ تنويهٌ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 469.

تنويهٌ بشأن المؤمنين وتعريض بالمشركين واتِّهام لهم بالخفَّة والغفلة

بشأن المؤمنين الذين أعانتهم عقولهم لبلوغ الحقِّ، فعرفوا اللّه، وآمنوا به، وأذعنوا لأوامره، واجتنبوا نواهيه، وفي المقابل فيه تعريضٌ بالمشركين واتِّهام لهم بالخفَّة والغفلة، وأنَّهم ليسوا من أصحاب العقول الفاعلة المبصرة.

﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر: 10]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

استثمار الأحوال والأوقات المناسبة للوعظ والنُّصح

بعد أن أثنى اللّه سبحانه فيما مضى على عباده المؤمنين بإقبالهم على عبادته في أشدِّ الآناء، ومراقبتهم إيّاه بالخوف والرَّجاء، وبتمييزهم بصفة العِلم والعقل والتَّذكُّر، بخلاف حال المشركين في ذلك كلِّه؛ أتبع ذلك بأمر رسول اللّه ﷺ بالإقبال على خطابهم للاستزادة من ثباتهم ورباطة جأشهم[1]، فأمره أن ينصحَ المؤمنين بتقوى اللّه وطاعته والمداومة على ذلك والصَّبر عليه، ولو بالاغتراب عن بلدانهم؛ إن تعذَّرت عليهم الطاعة فيها، فقال سبحانه: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَرْضُ﴾: (أرض) أصل يُطلق على كلِّ شيء يسفُل، ويقابل السَّماء، والأرض: التي نحن عليها، وتجمع أرضين، ولم تجئ في كتاب اللّه مجموعة[2].

2) ﴿وَٰسِعَةٌ﴾: (وسع) أصل يدل على انفساح وانبساط في جوف الشَّيء الملتحم ليضُم ما يوضع فيه[3]، فهو خلافُ الضّيقِ والعُسْر، يُقالُ: وسُعَ الشَّيءُ، واتَّسَعَ[4]، والوُسْعُ، بالضَّمِّ: الطاقة، وهو: كلُّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 352.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أرض).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (وسع).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وسع).

مُخْتَزَنٍ في باطن الإنسان من قدرة[1]، والسَّعَةُ تقال في الأمكنة، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾، وفي الحال نحو قوله تعالى: ﴿لِيُنفِقۡ ذُو سَعَةٖ مِّن سَعَتِهِۦۖ﴾ [الطلاق: 7]، وفي الفعل كالقدرة والجود نحو قوله تعالى: ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ﴾ [البقرة: 236][2].

3) ﴿يُوَفَّى﴾: (وفى) أصل يدل على نموّ أو زيادة يبلغ بها الشَّيء تمام قوامه[3]، فهي كلِمَةٌ تَدُلُّ على إكمالٍ وإتمام، ومنه الوفاءُ: وهو إتمامُ العَهدِ وإكمالُ الشَّرطِ، ويقولونَ: أوفَيتُكَ الشَّيءَ؛ إذا قَضَيتُهُ إيّاهُ وافيًا، وتَوفَّيتُ الشَّيءَ، واستَوفَيتُهُ؛ إذا أخَذتَهُ كُلَّهُ حتَّى لم تَترُكْ منه شيئًا، ومنه يُقالُ للمَيِّتِ: تَوفّاهُ اللَّهُ[4]، أي: أخذ ما كُتِبَ له في الدُّنيا وافيًا، لا ينقص منه شيء، والمرادُ بتوفيَةِ الأجر في الآية: استيفاؤُهُ، أي: تناوله وافيًا تامًّا[5] لا نقيصَةَ فيه ولا غبنَ.

4) ﴿حِسَابٖ﴾: الحساب في الأصل جمع ما هو منتشر في حيِّزٍ يضمُّه حتّى يمتلئَ به، إلى حدِّ الكفاية، ومنه الحُسبان، بالضَّمِّ: سهام صغار، واحدها بتاء، يُحْشَى نحو عشرين منها في جَوف قصبة، ويُرمى بها، ﴿وَيُرۡسِلَ عَلَيۡهَا حُسۡبَانٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الكهف: 40]، والحساب: العَدُّ؛ لأنَّك تَصِلُ بالعدِّ إلى تمام المعدود، والمحاسبة: عَرْض كلِّ أعمال الشَّخص بجمعها، ثم تقويمها، واسم الله ﷻ (الحسيب)، أي: الكافي، فعيل بمعنى مُفْعِل، مِن أحسَبَ: يكفي عبده في جميع أحواله وأشغاله، أو بمعنى المحاسب، من حاسَبَ أو من حسب[6]، واحتَسَبَ فُلانٌ ابنَهُ، وذَلِكَ أن يَعُدَّهُ في الأشياء المَذخورَةِ لَهُ عند الله تعالى، والحِسبَةُ: احتِسابُكَ الأجرَ[7]، وأطلق على عدِّ الأشياء التي يُراد الجزاء عليها أو قضاؤها، فصار الحساب يُطلق على الوفاء بالحقِّ، يُقال: حاسبه، أي: كافأهُ، أو دفع إليه حقَّه، ومنه سُمّي يوم القيامة يوم الحساب[8]، وقوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ كناية عن الوفرة والتَّعظيم[9].

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي: (وسع).
(2) الراغب، المفردات: (وسع).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (وفى).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفى).
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 355.
(6) جبل، المعجم الاشتقاقي: (حسب).
(7) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).
(8) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 2/ 249.
(9) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 355.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

لا خلق أوفى أجرًا من الصَّبر بكلِّ أنواعه

يأمر اللّه تعالى رسوله محمَّدًا ﷺ قائلًا له: ﴿قُلْ﴾ - يا مُحمَّدُ - لعبادي المؤمِنينَ: اتَّقوا رَبَّكم الَّذي خلقكم، ويرزقكم لِلَّذين أحسنوا العَمَلَ في هذه الحياةِ الدُّنيا حسنة جزاء إحسانه، وأرضُ اللّهِ واسعة فَسيحةٌ، وبلادُه كَثيرةٌ، فإذا عجَزْتُم عن عبادتي في أرضٍ؛ فتحَوَّلوا إلى بلادٍ أخرى غيرها، تتمَكَّنونَ فيها مِنَ العبادةِ؛ إذ لا عُذرَ لأحَدٍ في تَركِ الهجرةِ عند توفُّر مقتضياتها وحدوث دواعيها، فـ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم﴾؛ لأنَّ الصّابرين وحدهم دون غيرِهم يُعطَونَ أجرهم تامًّا كثيرًا ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾، أي: بغيرِ حَدٍّ ولا عَدٍّ ولا مُحاسَبَةٍ.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصل الآية عن سابقتها:

التَّثبيتُ بالإيناس، وبيان الاحتراس من تأثير كثرة المخالف وتثبيط الموالف

قوله: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ﴾ كلام مستأنف، كما ينبئُ عنه الأمر: ﴿قُلْ﴾، قُصِد به تثبيت المُخاطَب من قِبَلِ أفضل مُجانِس، وتأنيسه من جهة أعظم مُشاكِلٍ ﷺ؛ ليكونَ ذلك أسكنَ للقلبِ وأشرح للصَّدر؛ احتراسًا عمّا قد يعرض للقانتين من الكسل والخمول؛ بسبب كثرةِ المخالفين لهم، ولهذا فُصِل عمّا قبله.

دلالةُ فعل الأمر﴿قُلْ﴾:

الوجوبُ على الفور وأهمّيَّة تبليغ مقول القول بلفظه

فعل الأمر ﴿قُلْ﴾ يفيد الوجوب على الفور، ويفيد كذلك تعيين المقول بلفظه الذي أوحي به، وهو جملة النِّداء وما في حيِّزها، فلا يزيد عنه المُبلِّغ ﷺ، ولا ينقص، أي: أبلغهم هذا البلاغَ، وقل لهم هذا القول بمجرَّد توجيهه إليك لأهمّيَّته، والمعنى: قُل لهم قولي هذا بعينه، فإنَّ نقلَ عينِ أمرِ اللّه أدخلُ في إيجابِ الامتثالِ به[1].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 246.

العلم بالمُخاطَب لظهور فضله وشرفه

نكتةُ حذف المخاطَب المأمور بالقول في قوله تعالى: ﴿قُلۡ﴾:

المأمور بالقول والمخاطَب به هو الرَّسول ﷺ أصالة، وإنَّما لم يُذْكَرْ صراحةً للعلم به؛ إذ هو المخصوصُ بالخطاب ما لم يدلَّ دليلٌ على غير ذلك، لظهور فضله وشرفه، بل هو المخاطَب بالوحي كلِّه بداهة ﷺ، بل هو المستحقُّ لشرف الخطاب الإلهيِّ، ويدخل في هذا الأمر بالقول والخطاب به تَبَعًا كلُّ مَن كان على سبيله ﷺ، واستَنَّ بسنَّته، فإنَّه عليه أن يقول ذلك لعباد الله المؤمنين.

تعيينُ المقول وكونه جنسًا مغايرًا لسابقه

فائدة إعادة الأمر بقوله: ﴿قُلۡ﴾:

فائدة إعادة لفظ ﴿قُلۡ﴾ هنا، وقد سبق عمّا قريب في قوله: ﴿قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ ما سبق ذكره من تعيين المقول، والفوريَّة في البلاغ، ويضاف إليه كون المقول هنا جنسًا آخر مغايرًا للمقول الَّذي قبله(1).

لفتُ انتباه السّامع الموصوف بالعبوديَّة والإيمان

بلاغةُ أسلوبِ النِّداء في قولِه: ﴿يَٰعِبَادِ﴾:

لما أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يأمرَ عباده المؤمنين بالتَّقوى؛ أمره أن يناديهم؛ ليبلِّغهم أمرَ الله لهم بذلك، لما في أسلوب النِّداء من لفت انتباه المنادَى السّامع الموصوف بالعبوديَّة والإيمان، وتنبيه الغافل منهم، ليُقبل على مَن يناديه بكلِّيَّته، وينتبه لما سيقوله له.

غرضُ النِّداء بـ(يا):

جاء النِّداء بـ(يا) التي تُستعمل في نداء البعيد غالبًا تنزيلًا للقريب منزلةَ البعيد للاهتمام بما بعد النِّداء من تبليغ أمرِ الله لهم بالتَّقوى وما بعده.

تشريفُ المخاطَبين والاعتناء بشأن المقول

فائدةُ نداء المؤمنين بوصف العباد المضاف إلى ضمير الله تعالى:

النِّداء بوصف العبوديَّة المضاف إلى ضمير الله تعالى، يؤذن بالاهتمام بما سيقال، وبأنَّه سيقال لهم عن ربِّهم، لا عن غيره،

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 490.

وهذا وضع لهم في مقام المخاطَبة من الله، وهي درجة عظيمة، كما لا يخفى ما في هذه الإضافة أيضًا إلى ضميره سبحانه من تشريفٍ لهم وإعلاء لشأنهم[1].

فائدةُ التَّعبيرِ بجمع الكثرة في قوله: (عباد):

كثرةُ المؤمنين في أنفسِهم بإيمانهم بالله

عبَّر بجمع الكثرةِ في قوله: (عباد) مع أنَّ أهلَ الإيمان قلَّة؛ للدَّلالة على أنَّهم وإن كانوا قلَّة في العدد، إلّا أنَّهم كثير في أنفسهم بإيمانهم بالله وقوَّة تماسكهم ورباطة جأشهم، فهُم على قلب رجلٍ واحد، وهم يدٌ واحدة على مَن عاداهم، بينما الكفّار كثيرون، لكنَّهم ليسوا على قلب رجل واحد، (تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتّى).

نكتةُ حذفِ ياء المتكلِّم المضاف إليها (عباد) في خطِّ المصحف وعند جميع القرّاء:

انتسابُ المؤمنين إلى اللهِ مقرَّر ظاهر لا يحتاج إلى ذِكر

حُذِفت ياء المتكلِّم المضاف إلى لفظ العباد في قوله: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾؛ لأنَّ المخاطَبين بهذه الآية هم عبادٌ مخصوصون قليلون، وهم أهلُ الإيمان والتَّقوى، وتقليل الحروف بالحذف أو غيره يدلُّ على نوع قلَّة في المعنى، فاستغنى عن إظهار ضمير يعود عليه تعالى في إضافتهم إليه، ولأنَّ هؤلاء أهلُ قُربٍ ومحبَّةٍ يُختَصَر لهم الكلام اختصارًا، مع ما في الحذف من فائدة لفظية؛ إذ قد تُحذف في النِّداء تخفيفًا لكثرة الاستعمال[2].

غرضُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلته ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾:

مدحُ المخاطَبين بالاسم الموصول وبيان أنَّ سببه تحقُّقهم بالإيمان

التَّعبير بالاسم الموصول للإشارة إلى أنَّ الصِّلة علَّة في الحكم عليه بمدح أو ذمٍّ أو غير ذلك، ولمّا كان الغرض الأساس من التَّعبير بالاسم الموصول هنا مدحهم والثَّناء عليهم؛ أشار إلى ذلك بجملة الصِّلة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الَّتي تدلُّ على مدحهم وتشريفهم بالإيمان،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 352، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 246.
(2) ابن خالويه، الحجة، ص: 309.

وبيان سبب أهليَّتهم لأن يكونوا عبادًا لله، وتشريفهم بإضافتهم إليه سبحانه، ثمَّ أن يكونوا أهلًا لتلقّي خطابه الإلهي الَّذي كَلَّف رسولَه ﷺ أن يبلِّغه إيّاهم بالأمر ﴿قُلْ﴾، إنَّه الإيمان الَّذي تحقَّقوا به، فأضاء أفئدتهم، وحكَم سلوكهم، ثمَّ الدَّلالة بما في جملة الموصول مِن "إيماء إلى أن تقرَّر إيمانهم ممّا يقتضي التَّقوى والامتثال للمهاجرة"[1].

نكتةُ حذف متعلّق الإيمان:

حذفُ المتعلِّق للعلم به

النُّكتةُ في حذف متعلّق الإيمان في الآية هو العلم به، بحيث لا يحتاج أن يقال: (آمنوا بي) أو (آمنوا بالله)، وبالأخصّ أنَّه قد أضافهم إليه في جملة النِّداء، فقال: ﴿يَٰعِبَادِ﴾، وأكثر آيات القرآن في مقام الإخبار لا يذكر فيها المتعلِّق؛ لكونه معلومًا، لكنَّه يذكر في مقام الطَّلب، كما في قوله تعالى: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ﴾ [آل عمران: 179]، وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: 136].

دلالةُ الأمر بالتَّقوى بعد ندائهم بوصف الإيمان في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ﴾:

زيادةُ التَّقوى والمداومة عليها بعد تحقُّق أصلها بالإيمان وإن لحقهم أذًى

الأمرُ بالتَّقوى هنا مقصودٌ به طلبُ المداومة على أصلها الذي حصل فيهم كنتيجة لإيمانهم، ثمَّ الاستزادة منها، فالتَّقوى لا حدود لها تنتهي عنده، والتَّزوُّد منها خير ما يتزوَّد به في هذه الدُّنيا، كما قال سبحانه: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ﴾ [البقرة: 197]، ومن هذا الباب أيضًا أمرُه ﷺ بالتَّقوى في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]، وثمَّة سببٌ آخر يسوِّغ هذا الأمر بالتَّقوى بعد وصْفِهم بالإيمان الَّذي يدلُّ على أنَّهم متَّقون من قبل، هذا الأمر، وهو كونه يشعر بأنَّهم قد نزل بهم من الأذى في الدين ما يُخشى عليهم معه أن يقصِّروا في تقواهم، وهنالك احتمالٌ آخر هو أن يكونَ هذا الأمر تمهيدًا لما سيوجَّه إليهم من أمرهم بالهجرة

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 352.

للسَّلامة من الأذى في دينهم، وهو ما عرَّض به في قوله تعالى: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾[1].

بلاغةُ حذف المفعولِ المضاف في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾:

الدَّلالةُ على العموم والعلم بالمحذوف بداهة

حذْفُ مفعول الفعل ﴿ٱتَّقُواْ﴾ المضاف إلى لفظ الرَّبِّ في قوله: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾؛ للدَّلالة على العموم في المعنى من جهة، والتَّقدير: اتَّقوا غضبَ ربِّكم، اتَّقوا سخطَ ربِّكم، اتَّقوا عذابَ ربِّكم، اتَّقوا عقابَ ربِّكم، وللعلم بالمحذوف بداهةً من جهة أخرى؛ إذ مِن المعلوم بالضَّرورة أنَّ الإنسان لا يتَّقي إلّا ما يضرُّه، ويؤذيه.

بلاغةُ إضافةِ لفظ الرُّبوبيّة إلى ضمير المخاطَبين:

في إضافة لفظ الرُّبوبيَّة إلى ضمير المخاطَبين تشريف لهم، وإعلاء شأنهم، وترغيبهم في التَّرقّي في مقامات تقوى مَن شرَّفهم بالإضافة إليه سبحانه.

نكتة فصل قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ﴾:

بيانُ المقصودِ من الأمر بالتَّقوى، وتعليل له ولوجوب الامتثال به

سرُّ فصل جملة: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ﴾ وما عطف عليها عن الَّتي قبلها هو كونُها استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ إيراد الأمر بالتَّقوى للمتَّصفين بها يثير سؤالَ سائلٍ عن المقصود من ذلك الأمر، فأريد بيانه بقوله: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾، ولكن جُعِلَ قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ﴾ تمهيدًا له لقصد تعجيل التَّكفُّل لهم بموافقة الحسنى في هجرتهم[2]، فينشأ عن ذلك أن يكونَ بين الجملتين المفصولتين شبهُ كمال اتِّصال.

أو فُصلت جملة: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾؛ لكونها تعليلًا للأمر بالتَّقوى أو لوجوبِ الامتثال به[3]، وكأنَّه لمّا أرشدهم إلى التَّقوى؛ كان ذلك

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 352.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 352.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 246.

باعثًا لهم على أن يسألوا: فما لنا إن فعلنا؟ فقال مجيبًا معلِّلًا: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾[1].

بلاغةُ التَّعبير باللّام في ﴿لِلَّذِينَ﴾:

الجمعُ بين عددٍ من المعاني كالاختصاص والاستحقاق وغيرهما

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ يمكن أن تكون للاستحقاق، وقد تكون للملك، وقد تكون للتَّعليل (لام أجل)، ويُحتمَلُ تكون لغير ذلك، والمعنى: أنَّ هذه الحسنة المذكورة مختصَّة بالذين أحسنوا، أو: لا يستحقُّها أحد غيرهم، أو: هي ملك لهم وحدهم، ولا تُنْتَزَعُ منهم بحال، لامتلاكهم لها، أو: هذه الحسنة كانت لهم لأجل أنَّهم أحسنوا.

غرضُ التَّعبير بالاسم الموصول وصلته:

مدحُ المخاطَبين بالاسم الموصول وصلته، ودلالته على إفادة العموم

غرضُ التَّعبير بالاسم الموصول: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ إفادة العموم، ولذا لم يقل: (اتَّقوا ربَّكم لكم في الدُّنيا حسنة)، وذلك "ليشمل المخاطَبين وغيرهم ممَّن ثبتت له هذه الصِّفة المذكورة في جملة الصِّلة"[2]، وهي جملة ﴿أَحۡسَنُواْ﴾، فهي صلة الموصول، وغرضها مدحُهم بالإحسان والثَّناء عليهم بتحقُّقه في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم ومعتقداتهم، وبيان لكونه السَّبب في أنَّ الله تعالى جعل مكافأتهم من جنس عملهم؛ إذ قال: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ﴾، وهو قانون ربّاني عبَّر عنه القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ٦٠﴾ [الرحمن: 60].

وممّا لوحظ هنا: إيراد الإحسان في حيِّز الصِّلةِ دون وروده مع التَّقوى، فلم يقل: (الذين اتقوا) كوروده مع الإيمان قبلَهُ، ثم مع الإحسان بعده، وذلك "للإيذانِ بأنَّه - أي: التَّقوى - من باب الإحسانِ، وأنَّهما مُتلازمانِ، وكذا الصَّبرُ - أيضًا - كما وردَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ ١٢٨﴾ [النحل: 128]، وفي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 471.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 352.

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٩٠﴾ [يوسف: 90]"[1].

بلاغةُ التَّعبير بشبه الجملة: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾:

كثرةُ المعاني مع قلَّة الألفاظ

شبه الجملة، أو الظَّرف ﴿فِي﴾، أو الجار والمجرور ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾، يحتمل أن يكون متعلّقًا بـ ﴿أَحۡسَنُواْ﴾ - على أنَّه ظرف لغويٌّ - أي: عملوا الأعمالَ الحسنةَ في هذه الدُّنيا على وجه الإخلاصِ[2]، فيكون المقصود من إيراده التَّنبيه على المبادرة بالحسنات في الحياة الدُّنيا قبل الفوات، والتَّنبيه على عدم التَّقصير في ذلك[3]، ويُحتمل أن يكون متعلِّقًا بـ﴿حَسَنَةٌۗ﴾ على أنَّه بيانٌ لمكانها، أو حالٌ من ضميرِها في الظَّرفِ، فالمرادُ بها حينئذٍ الصِّحَّةُ والعافيةُ[4]، فتكون الحسنة هنا قد أريد بها المكافأة في الدُّنيا، وتكون علَّة تقديم الحال على صاحبها التَّنبيه من أوَّل الكلام على أنَّ الحسنة جزاؤهم في الدُّنيا، لقلَّة خطور ذلك في بالهم، فيكون قد ضمن الله لهم تعجيل الجزاء الحسن في الدُّنيا قبل ثواب الآخرة، على نحو ما أثنى على مَن يقول: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةً﴾ [البقرة: 201][5].

وعلى الأوَّل يكون قد قَيَّدَ الفعل بالظَّرف، وهو قوله: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا﴾؛ للإشعار بأنَّ الدُّنيا مكان الإحسان ومزرعة لحرث الآخرة[6]، فالظَّرف هنا قيد أفاد تعيين دار العمل، ولا مانع من أن يتعلَّق بهما معًا في وقت واحد، ويكون المعنى: للَّذين عملوا الأعمالَ الحسنةَ في هذه الدُّنيا حسناتٌ كثيرة في الدُّنيا أيضًا، كالصِّحَّة،

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 246.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 246.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 352.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 246.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 352.
(6) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 354.

والعافية، والتَّثبيت على الحقِّ، والاستخلاف في الأرض، وتمكين دينهم لهم، والأمن، ورغد العيش، وغير ذلك، فيكون قوله: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾ بيانًا لمكان الأعمال الحسنة وزمانها، وبيانًا كذلك لزمان جانب من جزائها ومكانها والثّواب عليها، على أنَّها مكافأةٌ لهم في الدُّنيا، ويكون مَن ضَمِنَ لهم تعجيل الجزاء الحسن في دار الدُّنيا حقيقًا بأن يعطيهم أعظم الثَّواب والأجر في الدار الآخرة.

نكتةُ التَّعبير باسم الإشارة القريب:

استحضارُ المشار إليه في الأذهان وتمييزه وتعيينه

أوردَ اسمَ الإشارة الدالَّ على القرب في قوله: ﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا﴾؛ لتمييز المشار إليه واستحضاره في الأذهان[1].

وزيادة في تعيينه وللإشعار بأنَّ هذه الدُّنيا الدَّنيَّة الوضيعة، لا تطهر الحياة فيها إلّا بالتقديس بعبادة الخالق، والتخلُّق بأوصافه[2]، وعليه، فاسم الإشارة هنا للمدح، وذلك للإشعار بأنَّ دارَ الدُّنيا نِعم الدّارُ؛ إن جُعلت مكانًا للعمل الصّالح وحرثًا للآخرة، أو لتقرير كونِ هذه الدُّنيا دنيَّةً، وأنَّها لا ترقى إلّا بالعمل الصّالح، وهذا من اللَّطائف الخفيَّة والنِّكات السَّريّة[3].

بلاغةُ مجيء (ال) في ﴿ٱلدُّنْيَا﴾:

الإشــــارة إلى المعروف المعهود والــــدَّلالــــة عـلى الـعـمـوم والشُّمول

يجوز أن تكون (ال) في ﴿ٱلدُّنْيَا﴾ للعهد، والمعهود هي دار الدُّنيا المعروفة التي يعيشها الإنسان وغيره، المقابلة للدّار الآخرة، ويجوز أن تكونَ للاستغراق، فتفيد العموم والشُّمول، ويكون العموم هنا في الأجزاء؛ لأنَّ (ال) الاستغراقيَّة دخلت على مفرد، لا جمع له، فلا يوجد إلّا دنيا واحدة، وهي التي نعيشها، ويكون المعنى: في سائر هذه الحياة الدُّنيا، في كلِّ أماكنها وأزمنتها.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 237، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 354.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 471.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 355.

نكتةُ حذف موصوف ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾:

إرادةُ الوصف بالدُّنيا دون موصوفها

موصوف الدُّنيا محذوفٌ، والتَّقدير: للَّذين أحسنوا في هذه الحياة الدُّنيا حسنة، أو: في هذه الدار الدُّنيا حسنة، وإنَّما ذُكِرَ الوصف بالدُّنيا؛ للدَّلالة على دُنوِّها ودناءتها، مهما أينعت، وأزهرت، وعلت، وارتفعت، وحُذِفَ الموصوف؛ لأنَّه لا قيمة له في الحقيقة، فالدُّنيا لا تُعَدُّ حياة ولا دارًا حقيقةً؛ إذا ما قورِنَتْ بالآخرة، بل حياتها ودارها بالنِّسبة للحياة الآخرة كالعدم.

نكتةُ تنكيرِ المسند إليه ﴿حَسَنَةٌۗ﴾:

الجمع بين التَّعظيم والتَّكثير وللدَّلالة على العموم

يمكن أن تكون علَّةُ تنكير المسند إليه ﴿حَسَنَةٌۗ﴾ هي التَّعظيم، فهنالك صفةٌ محذوفةٌ لـ﴿حَسَنَةٌۗ﴾، والتَّقدير: حسنة عظيمة، أو حسنات كثيرة؛ لأنَّه لا يوعَدُ مَن عمل حسنةً في الدُّنيا، حسنةً مطلقًا بل مقيَّدةً بالعِظَم[1] أو الكثرة، ثم إنَّ هذه الحسنةَ قد تكون في الدُّنيا كالصِّحَّة والعافية[2]، وقد تكون في الآخرة، وهي الجنَّة[3]، والنَّظر إلى وجه اللّٰه تعالى، ويمكن أن تكونَ علَّةَ تنكيرِ المسند إليه ﴿حَسَنَةٌۗ﴾ إفادة العموم والشُّمول؛ لأنَّ ﴿حَسَنَةٌۗ﴾ نكرةٌ في سياق الامتنان، والنَّكرةُ في سياق الامتنان تفيد العموم والشُّمول، وإن كانت مثبتة غير منفيَّة، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورٗا ٤٨﴾ [الفرقان: 48]، ويمكن أن يكونَ المراد بالحسنة الحالة الحسنة، واستُغني بالوصف عن الموصوف على حدِّ قوله تعالى: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ﴾ [البقرة: 201]، وقوله في عكسه: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: 40].

علَّة تقديم المسند، وتأخير المسند إليه:

وإنَّما قدَّم المسند ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ في قوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ

(1) السمين، الدر المصون: 9/ 417.
(2) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 491.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 237.

تقديم المسند للاهتمام وتأخير المسند إليه للتشويق

﴿فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٞۗ﴾؛ للاهتمام بالمحسَن إليهم، وأنَّهم أحرياء بالإحسان[1]، وأخَّر المسند إليه ﴿حَسَنَةٞۗ﴾ تشويقًا إلى الجزاء، ويمكن أن يكون الغرضُ من تقديم المسند إفادة الحصر أو الاختصاص؛ أي: للَّذين أحسنوا حسنة وحدهم دون غيرهم، أو أن يختصَّ الذي أحسنوا بهذه الحسنة، فلا يشاركهم فيها أحد سواهم.

بلاغةُ مجيء الواو في ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾:

تعدُّد معاني الكلام وتنوُّعها تبعًا لمعنى الواو

يمكن أن تكون الواو في قوله: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ للاستئناف، والجملة بعدها مستأنفة لا محلَّ لها من الإعراب، ويمكن أن تكون الواو عاطفة، عطفت ما بعدها على ما قبلها عطفَ المقصود على التَّوطئة، وهو خبر مستعملٌ في التَّعريض بالحثِّ على الهجرة في الأرض؛ فرارًا بالدين من الفتن، ويمكن أن تكونَ الواو اعتراضيَّة، وأنَّ جملة: ﴿وَأَرۡضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ قد جرت مجرى المثل[2].

فائدةُ وصف الأرض بأنَّها واسعة:

وجوبُ الهجرة على كلِّ مستضعَفٍ مقهور

في إضافةِ الأرض إلى اسم الجلالة، ثمَّ وصفِ الأرض بأنَّها واسعةٌ، فتحٌ لباب الهجرة على المستضعفين وإيجابها عليهم، وإبطالٌ لحجَّة من يقصر في أداء شعائر دينه بحجَّة أنَّه مظلوم مقهور، فلا يعتذر بذلك أحدٌ لتفريطه في الأعمال بالاعتلال بالأوطان، وأنَّه لم يكن متمكِّنًا من التَّوفُّر على الإحسان في أرضه، كأنَّه قيل لهم: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ فيما تأتون به، وتذرون، وتيقَّنوا بحصول أمرين: جزاء الإحسان وفسحة المكان، فهاجروا، وتحوَّلوا إن لم تتمكَّنوا من التَّقوى في أرضكم[3]، وفي هؤلاء المتعلِّلين جاء قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمۡ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمۡۖ قَالُواْ كُنَّا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 353.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 353.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 354.

﴿مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ [النساء: 97].

بلاغةُ الكناية في قوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾:

في أرض اللهِ متَّسعٌ لمن ضاقت بهم ديارهم

جملة: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾ كنايةٌ عن الهجرة حين العسرة[1]، أي: كناية عن لازم قوله: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌۗ﴾، وهو حثُّ المستضعفين المظلومين على الخروج والهجرة فرارًا بدينهم إذا ظلموا، ومنعوا من إقامة شعائره، فإنَّ التَّعبير بكون الأرض واسعةً أمرٌ معلوم، لا يتعلَّق الغرض بإفادته، وإنَّما كُنِّي به عن لازم معناه الَّذي سلف ذكره، "ونكتةُ الكناية هنا إلقاءُ الإشارة إليهم بلطف وتأنيس، دون صريح الأمر، لما في مفارقة الأوطانِ مِنَ الغمِّ على النَّفس"[2]، وهذا المعنى الكنائيُّ قد صَرَّح به القرآن في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِيٓ أَنفُسِهِمْ قَالُواْ فِيمَ كُنتُمْۖ قَالُواْ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِۚ قَالُوٓاْ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَاۚ﴾ [النساء: 97]، وفي قوله سبحانه: ﴿۞وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ﴾ [النساء: 100].

نكتةُ فصل قوله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ﴾:

الفصلُ للاستئناف البيانيِّ، وكونها تذييلًا لسابقتها

فُصِلت جملة: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ﴾ عمّا قبلَها على الاستئناف البيانيِّ، على أنَّها جواب عن سؤال نشأ عن الوعد بالحسنة، بأن يكون اتَّجه لهم أن يسألوا، ويقولوا: فماذا يكون بعد تلك الحسنة لنا من الأجر حينئذٍ؟ فأجيبوا: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٖ﴾[3]، وأيضًا فإنَّها في موقع التَّذييل لجملة: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُواْ﴾ وما عطف عليها[4]؛ تشجيعًا لهم على تحمُّل

---

(1) القونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 492.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 355.

(3) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 354.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 354.

مشاقِّ الهجرة عن الأوطان، والصَّبر عليها طمعًا في أجر الصّابرين الَّذي هو بغير حساب.

بلاغةُ القصر ونوعه وغرضه:

تأكيدُ ما للصّابرين من الأجر العظيم غير المعدود بأسلوب قصر القلب

قولُه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ بأسلوب القصر الَّذي دلَّت عليه أداته ﴿إِنَّمَا﴾ دالٌّ على أحقيَّتهم لهذا الأجر العظيم، الذي لا يُحسَب، ولا يُعَدُّ لعظمه، وهو من قصر الموصوف على الصِّفة، وهو قصرٌ إضافيٌّ، وهذا الحصرُ المستفاد من ﴿إِنَّمَا﴾ متَّجه إلى القيد الأخيرِ، وهو قوله: ﴿بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ والمعنى: ما يوفّى الصّابرون أجرهم إلّا بغير حساب؛ لأنَّ (إنَّما) فرع (ما) و(إلّا)[1] معًا، وهو (قصر قلب) مبنيٌّ على قلب ظنِّ الصّابرين أنَّ أجْرَ صبرِهم بمقدار صبرِهم، أي: إنَّ أجرَهم لا يزيد على مقدار مشقَّة صبرهم[2].

دلالةُ التَّعبير بالتَّوفية:

عدمُ نقص أجر الصّابرين عمّا ينبغي أن يكون عليه

التَّوفية: إعطاء الحقِّ أو الأجر وافيًا غير منقوص، والاستيفاء أخذه وافيًا غير منقوص، وفي التَّعبير بالتَّوفية هنا دفْعُ ما قد يتوهَّمه البعضُ من احتمال نقصان أجر الصّابرين عمّا ينبغي أن يكونَ عليه.

علَّة بناء الفعل لما لم يُسَمَّ فاعله:

العلمُ بالفاعل والدَّلالة على العموم

إنَّما بُنِيَ الفعل ﴿يُوَفَّى﴾ لما لم يُسَمَّ فاعله للعلم به من جهة؛ إذ الَّذي يعطي النّاس أجورهم على أعمالهم في الآخرة هو اللّٰه تعالى، وللدَّلالة على عموم توفيتهم أجورهم، وعدم قدرة أيِّ أحدٍ كائنًا من كان على نقصانها.

نكتةُ مجيء (ال) في ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾، وسرُّ العدول فيها:

(ال) في ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ موصولة تفيد العموم، أي: تشمل، وتَعُمُّ

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 354.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 354.

كلَّ أفراد الصّابرين، وليس المخاطَبين في الآية فقط، ولذا عدل عن المضمر إلى المظهر لأجل هذا؛ إذ كان المقتضى أن يقال: (توفون أجوركم بصبركم)، وهو ما علّله الطِّيبي بقوله: وضع ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ موضع الضَّمير للغلبةِ[1]، أي: ليفيد العموم، فيشمل جميع الصابرين في كلِّ أنواع الصَّبر، لكن على أن يدخل فيهم دخولًا أوَّليًّا الصابرون على ألم المهاجرة[2].

الدَّلالة على العموم؛ ليشمل كلَّ الصابرين

دلالةُ التَّعبير باسم الفاعل الجمعيِّ ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾:

أوثِرَ التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ باسم الفاعل دون التَّعبير بالفعل؛ للدَّلالة على ثباتهم على الصَّبر، وأنَّه لاعتيادهم تحمُّل الشَّدائد والصَّبر عليها صار الصَّبر كأنَّه فيهم سجيَّة وطبعٌ حاضر عند كل ملمَّة.

الدَّلالة على أنَّ الصَّبر فيهم طبعٌ وسجيَّةٌ

سرُّ إيثار ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على المتَّقين:

إيثارُ التَّعبير بـ ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ على التَّعبير بـ (المتَّقون) راجعٌ إلى أنَّ المقصودَ خصوص الصّابرين، وليس عموم المتَّقين؛ تأكيدًا على فضيلة الصَّبر الَّذي هو أمرُّ الأخلاق وأشدُّها على النَّفس، وتنويهًا بشأنه؛ لكون الحاجة إليه دائمة، فالطاعات مفتقرةٌ إلى الصَّبر؛ لضمان دوام الاستمرار عليها، والبُعد عن المعاصي أيضًا مفتقرٌ إليه؛ ليعينَ المرءَ على نفسه وهواها، وشدائدُ الدُّنيا وقسوتها تحتاج في تحمُّلها صبرًا جميلًا يعينها عليه، فخُلُق الصَّبرِ إذًا هو مطيَّة المؤمن وسبيله إلى النَّجاح في كلِّ ما يواجهه في معترك هذه الحياة من خير أو شرٍّ، ولهذا كان جزاء الصّابرين أخصَّ من جزاء غيرهم، ففيهم وحدهم قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

الصَّبر أخصُّ من التَّقوى؛ إذ يشمل التَّقوى وزيادة، والتَّأكيد على فضيلة الصَّبر

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 355.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 237.

أو للإيذانِ بأنَّ المتَّقين حائزونَ لفضيلة الصَّبر كحيازتهم لفضيلةِ الإحسانِ، لما أشير إليه من استلزام التَّقوى لهما، مع ما في التَّعبير بـ ﴿ٱلصَّٰبِرُونَ﴾ من زيادة حثٍّ على المصابرةِ والمجاهدةِ في تحمُّل مشاقِّ المهاجرةِ ومتاعبها[1]، أي: إنَّ التَّعبيرَ بالصَّبر يشمل التَّقوى وزيادة.

نكتةُ إضافة الأجرِ إلى ضمير الصّابرين:

اختصاص الصّابرين بهذا الأجر

إضافةُ الأجر إلى ضمير الصّابرين هي إضافة اختصاصٍ، فهذا الأجرُ الَّذي لا يُحسَب، ولا يُعدُّ، ولا يُكال، ولا يوزَن ليس لأحدٍ سواهم، ولذا لم يُذكر في القرآن الكريم لغيرهم، وذلك لما في الصَّبر من مشقَّة في تحمُّل الشَّدائد.

بلاغةُ التَّعبير بشبه الجملة في قوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾:

صحَّة هذا الوصف للصّابرين ولأجرهم

قوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٍ﴾ الجارُّ والمجرور متعلِّق بمحذوف في موضع الحال، إمّا مِن الأجر، أي: إنَّما يوفَّون أجرهم كائنًا بغير حساب، وذلك بأن يُغرف لهم غرْفًا، ويُصبَّ عليهم صبًّا، وإمّا من الصّابرين، أي: إنَّما يوفَّون ذلك كائنين بغير حساب ولا سؤال على ما عملوا في الدُّنيا، والمرادُ على الوجهين المبالغة في كثرة الأجر[2] مِن جهة، والمبالغة في فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى، بما يدلُّ عليه من عدم حسابهم، وعدم سؤالهم يوم القيامة على ما عملوا مِن أعمال في الدُّنيا.

نكتة تنكير ﴿حِسَابٍ﴾:

الدَّلالة على العموم

قوله: ﴿حِسَابٍ﴾ نكرةٌ في مقام الامتنان، ثم إنَّها أُضيفت إلى كلمة فيها معنى النَّفي، وهي (غير)، وكلٌّ منهما يفيد العمومَ، مع ما في تنكير لفظ ﴿حِسَابٍ﴾ من التَّفخيم والتَّعظيم.

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 246.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 237.

بلاغةُ الكنايةِ في قوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾:

على القول بأنَّ قوله: ﴿بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ حال من المفعول، الذي هو الأجر، فيكون تعبيرًا كُنّي به عن الوفرة والكثرة والتَّعظيم؛ لأنَّ الشَّيء الكثير لا يُتصدّى لعدِّه، والشَّيء العظيم لا يُحاط بمقداره، فإنَّ الإحاطة بالمقدار ضربٌ من الحساب، وذلك شأن ثواب الآخرة الَّذي لا يخطر على قلب بشر[1]، وقيل: هو تمثيل للتَّكثير[2].

الـدَّلالـةُ على الكثرة التي من شأنها ألّا تُعَدَّ

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الصَّبر والرِّضا والشُّكر:

الصَّبر: حبسُ النَّفس على تحمُّل الشَّدائد والمكاره والمصائب، وقيل: إنَّما سُمّي الصَّبر صبرًا؛ لأنَّ تمرُّره في القلب وإزعاجه للنَّفس، كتمرُّر الصَّبر في الفم[3]، وهو أكثر الثَّلاثة شيوعًا في سلوك الإنسان، وهو داخل في كلِّ خُلُق، وله في كل حالة اسم: " فاسمه الصَّبْر في المُصيبَة، وأمّا في المُحاربَة؛ فَهو شجاعة، وفي إمساك النَّفس عَن الفضول قناعة وعفَّة، وفي إمساك كَلام الضَّمير كتمان، فاختلاف الأسامي باختلاف المواقع"[4].

الرِّضا أخصُّ من الصَّبر والشُّكر، وأعلى منهما

والرِّضا: قيل: هو سرور القلب بِمُرِّ القضاء[5]، وقيل: طيب النَّفس بما يصيبها، ويفوتها مع عدم التَّغيُّر[6]، والرِّضا مترتِّب على الصَّبر لتوقُّف الرِّضا عليه، واستحالة ثبوته بدونه[7].

والشُّكر: عبارةٌ عن معروف يقابل النِّعمة، سواء كان باللِّسان أو باليد أو بالقلب، وقيل: هو الثَّناء على المحسن بذكر إحسانه، فالعبدُ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 355.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 118.
(3) ابن الجوزي، ذم الهوى، ص: 58.
(4) الكفوي، الكليات، ص: 560.
(5) الجرجاني، التعريفات، ص: 111.
(6) المناوي، التوقيف، ص: 178.
(7) ابن القيم، مدارج السالكين: 1/ 153.

يشكر اللّٰه، أي: يثني عليه بذكر إحسانه الذي هو نعمة، واللّٰه يشكر العبد، أي: يثني عليه بقبوله إحسانه الذي هو طاعته[1].

وقيل: الشُّكْرُ: تصوُّر النِّعمة وإظهارها، قيل: هو مقلوب عن الكشر، أي: الكشف، ويضادُّه الكفر، وهو: نسيان النِّعمة وسترها[2].

وهذه الثَّلاثة (الصَّبر والرِّضا والشُّكر) من أعلى مراتب الأخلاق وأرفع مقامات السُّلوك، وبعضها يترتَّب على بعض، فكلٌّ من الصَّبر والرِّضا والشُّكر داخلٌ في حقيقة الآخر، ومتلازم معه، فالرِّضا لا يكون إلّا عن صبرٍ، والشُّكر لا يكون بدون الصَّبر والرِّضا.

(1) الجرجاني، التعريفات، ص: 128.

(2) الراغب، المفردات: (شكر).

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ١١ وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ١٢﴾ [الزمر: 11 - 12]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

بعدَ الخطابِ الموجّهِ للمؤمنين خطابٌ موجّهٌ لمن أرادوا صرفَ النّبيّ عن دعوته

بعد أنْ أمرَ اللّهُ رسولَه ﷺ بخطابِ المؤمنين بقوله: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [الزمر: 10] أمرَ رسولَه ﷺ أنْ يقولَ قولًا يتعيّنُ أنَّه مقولٌ لغيرِ المسلمين؛ من الَّذي كانوا يَبْتَغون صَرْفَهُ عَن الدعوةِ إلى اللّه، ويؤيّدُهُ ما جاءَ في سببِ النّزولِ؛ أنَّ كفّارَ قريش قالوا للنَّبيِّ ﷺ: ما يحملكَ على هذا الدّين الَّذي تأتينا به؟ ألّا تنظرُ إلى ملَّةِ أبيك وجدِّك وساداتِ قومك؟ يعبدون اللّاتَ والعزّى، فأنزلَ اللّهُ: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾[1]، وأمرهُ بعدها بأنْ يكونَ أوّلَ المسلمين بقوله: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾؛ تنبيهًا لهم على أنّه رسولٌ من اللهِ وطاعته واجبةٌ[2]. أو أنّه لمّا خوطبَ النَّبيُّ ﷺ بأمرِ المؤمنين بالتّقوى، وكانت الأعينُ ناظرةً إلى الآمرِ هل يفعلُ ما يأمرُ به؛ أمرَهُ اللّهُ بما يرغّبهم في المجاهدة، بأنْ يكونَ قدوةً لهم في ذلك، بل هو أوّلُ المنفّذين لما يأمرهم به[3].

ولَمّا كان للعبادةِ رُكنانِ: عَمَلُ القَلبِ وعَمَلُ الجَوارِحِ، وكان عمَلُ القلبِ أشرَفَ مِن عَمَلِ الجوارحِ؛ قَدَّمَه سُبحانَه بقَولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾؛ أي: مُخلصًا له التَّوحيدَ، لا أُشرِكُ به شيئًا، ثمَّ ذَكَر عَقِبَه ما هو دونَهُ، وهو عَمَلُ الجوارحِ، وهو الإسلامُ المذكورُ[4].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 357.
(2) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 475.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 473.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 432، والشربيني، السراج المنير: 3/ 437.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مُخۡلِصًا﴾: المعنى المحوريُّ له: نفاذُ الشَّيءِ نقيًّا من أثناءِ ما كانَ يُخالطُه أو يَشوبُه[1]، وأخْلَصَ الشَّيءَ: اخْتارَهُ، والمُخْلَصون: المُخْتارون، والمَوَحِّدون، وخَلَصَ إليه الشَّيءُ: وصَلَ، والمُخْلَصُ: الَّذي جَعَلَه اللّهُ مُخْتارًا خالِصًا مِن الدَّنَسِ، والمُخْلِصُ أيضًا: الَّذي وحَّدَ اللّهَ تَعالى خالِصًا[2]، وهو المعنى المراد في الآية؛ أي: أخلصَ له الألوهيَّةَ، وأفردهُ بالعبادةِ، فلم يجعلْ له في عبادته إيّاهُ شريكًا.

2) ﴿ٱلدِّينَ﴾: جذره اللّغويّ (دين)، والأصلُ في معناه "جِنْسٌ مِنَ الانقيادِ والذُّلِّ، فالدّينُ: الطّاعةُ، يُقالُ: دانَ له يَدينُ دينًا، إذا أَصْحَبَ وانقادَ وطاعَ، وقَوْمٌ دينٌ؛ أي: مُطيعونَ مُنقادون"، "والدّينُ يُقالُ للطّاعة والجَزاء، واستُعيرَ للشّريعة، والدّينُ كالملّة، لكنّه يُقالُ اعتبارًا بالطّاعة والانقياد للشّريعة"[3]، ووَرَدَ الدّين في القرآن على أوْجُهٍ، بلغَ بها ابنُ الجَوْزيِّ أحَدَ عَشَرَ وجْهًا[4]، والدّين في الآية: العبادة والطاعة[5].

3) ﴿أَوَّلَ﴾ الأوَّلُ مُفتتَحُ العَدَدِ، والأوّلُ: المتقدّمُ، ونقيضُ الآخر، وأوّلُ الشَّيْءِ: جزؤهُ الأسبق[6]، ومعنى ﴿أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾: المقتدى به في الإسلام[7]، أو مقدّمهم في الدُّنيا والآخرة[8].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

تنبيهٌ موجّهٌ لمن أرادوا صرف النَّبيِّ عن دعوته بأنّه الرَّسولُ المبلّغُ وأوّلُ المطيعين

أمرَ اللّهُ رَسولَه ﷺ ببَيانِ ما أُمِرَ به هو نَفْسُه مِنَ الإخلاصِ في

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (خلص).
(2) الزَّبيديّ، تاج العروس: (خلص).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (دين).
(4) ابن الجوزي، نزهة الأعين، ص: 297، 299.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 270، والهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 500.
(6) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 2/ 88، والكفوي، الكليات، ص: 207.
(7) السمين، عمدة الحفاظ: (أول).
(8) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 500.

عِبادةِ اللّهِ، فقال: قُلْ يا مُحمَّدُ لقومك: إنّ اللّهَ أمرني أنْ أعبده مفرِدًا له الطاعةَ في جَميعِ عِباداتي الظّاهِرةِ والباطِنةِ، دون كلّ ما تدعون من دونه من الآلهةِ والأنداد، وأمرني ربّي جل ثناؤه بذلك؛ لأنْ أكونَ بفعلِ ذلك أوَّلَ من أسلمَ منكم، فخضعَ له بالتّوحيد، وأخلصَ له العبادة[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرُّ فصل الآية عمّا قبلها:

استئنافٌ بيانيٌّ ردًّا على سؤالِ المؤمنين، أو استئنافٌ ابتدائيٌّ جوابًا للمشركين

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا﴾ جملةٌ مستأنفة؛ إمّا استئنافًا بيانيًّا؛ لِتوقّعِ سؤالٍ من المؤمنين الَّذين أُمروا بعبادةِ اللّهِ في الآية السابقة: هل أنتَ مأمورٌ بما تأمرنا به؟ فجاء الجواب: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾، وإمّا استئنافًا ابتدائيًّا؛ جاءتْ جوابًا للمشركين الَّذين سألوا النَّبيَّ ﷺ: "ما يحملكَ على هَذا الدّينِ الَّذي أتَيْتَنا بِهِ؟ ألا تَنْظُرُ إلَى مِلَّةِ أبيكَ وجدِّكَ وساداتِ قَوْمِكَ؟ يَعْبُدُونَ اللّاتَ والعُزّى، فَأنْزَلَ اللَّهُ: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾"[2].

الغرض من التَّعبير بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾:

توجيهُ المخاطبين إلى مضمونِ القولِ لأهمّيّته

فعلُ الأمر ﴿قُلۡ﴾ موجَّهٌ إلى النَّبيِّ ﷺ؛ لبيانِ أهميّة المقولِ، وتوجيهِ أسماعِ المخاطبين إلى مضمونه، وللإشارةِ إلى صدقِ رسالته ﷺ، وأنّه المبلِّغُ عن اللهِ إنْ كان الخطابُ للمشركين، وقد يكون المرادُ بضميرِ المخاطَب بالأمر ﴿قُلۡ﴾ كلَّ واحدٍ من المسلمين؛ لبيانِ أنّه مأمورٌ بإعلانِ الإخلاصِ لله، ويتحمّلُ مسؤوليّةَ التّبليغ.

الغرضُ من التَّعبير بجملةِ مقول القول اسميّةً مؤكّدة بـ﴿إِنِّيٓ﴾:

أمرُ اللهِ لنبيّه بأنْ يكونَ إخلاصُ العبادةِ منه ثابتًا مؤكّدًا لا يتغيّر

عبَّر البيانُ القرآنيُّ بجملةِ مقول القول اسميّةً مفتتحةً بحرف التَّأكيد (إنَّ) في قوله: ﴿إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾؛ لتأكيدِ هذا المقول؛

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 270، والمراغي، تفسير المراغي: 23/ 154.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 357.

وهو أمرُ اللهِ لنبيّه ﷺ بإخلاصِ العبادة له، وأنّه أمرٌ إلهيٌّ ثابتٌ مؤكّدٌ لا يتغيّر؛ وذلك لأنّه لمّا كان الرئيسُ لقربِه من الملكِ بحيث يُظَنُّ أنّه يسامحه في كثيرٍ ممّا يُكَلِّفُ به غيرَه أكّدَ بقوله: ﴿إِنِّيٓ أُمِرۡتُ﴾[1].

الغرض من التَّعبير بما لم يُسمَّ فاعله في قوله: ﴿أُمِرۡتُ﴾:

الأمرُ بالإخلاصِ لله وحده أمرٌ عظيمٌ ينبغي امتثالُه

لم يصرِّحِ البيانُ الإلهيُّ بالفاعلِ الآمرِ في قوله تعالى: ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾؛ لكون الفاعلِ الآمر معلومًا سبحانه[2]، وللتَّركيزِ على الفعلِ؛ وهو مضمونُ الأمر، ولتعظيمِ الأمرِ؛ بأنَّه قُطِعَ ومضى، بحيث لم يبقَ فيه مشوبةٌ، وإنْ كان الخطابُ في قوله: ﴿قُلۡ﴾ لكلّ مسلم؛ ففيه إشارةٌ إلى أنّ هذا الأمرَ ممّا ينبغي امتثالُه، سواءٌ صدرَ منه تعالى أمْ صدرَ من رسوله[3].

سرّ التَّعبير بالمصدر المؤوَّل ﴿أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾:

تأكيدُ مواظبةِ النَّبيِّ ﷺ على الإخلاصِ في العبادةِ لله وحده

آثرَ البيانُ القرآنيُّ استعمالَ المصدرِ المؤوّل ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾ دون الصَّريح، فلم يقلْ: (أُمرتُ بعبادة اللّه)[4]؛ لإفادةِ الثَّباتِ والاستمرار على عبادة اللّه في كلِّ الأزمنة؛ لأنَّ المصدر حدثٌ مجرَّدٌ من الزَّمان، وإفادةُ التَّجدُّدِ والحدوث بالتَّصريحِ بالفعل.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿أَعۡبُدَ﴾:

جاء التَّعبيرُ بالفعلِ المضارع ﴿أَعۡبُدَ﴾ للدّلالةِ على استمرارِ العبادةِ وتجدُّدِها من النَّبيِّ ﷺ أو من كلّ مسلم.

الغرض من التَّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾:

تنبيهٌ على استحقاقِ اللهِ للعبادةِ وحده وتعريضٌ بمَنْ عبدوا غيره

جاء التَّعبيرُ بالاسمِ الجليل في قوله تعالى: ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾؛ لكونهِ الاسمَ الَّذي اختصّ به سبحانه وتفرّدَ به؛ وهو الجامعُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 473.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 239، وابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 121.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 239.
(4) الدرة، تفسير القرآن: 8/ 218.

لكلّ صفاتِ الكمالِ والجلال، تنبيهًا على استحقاقهِ للعبادةِ وحده، فهو الغنيُّ عن كلّ شيء، والخلقُ كلّهم سواءٌ بالنِّسبةِ إلى قبضتهِ وعلوّه وعظمته، لا الأصنام المخلوقة التي يعبدونها من دونه[1]، كما أن فيه تربيةً للمهابة والجلال.

سرُّ التَّقييد بالحال ﴿مُخْلِصًا﴾ بصيغة اسم فاعل:

ثباتُ النَّبيِّ على الإخلاصِ أدعى لاقتداءِ المسلمين بـه ويـأسِ الكافرين منه

التَّقييدُ بالحال ﴿مُخْلِصًا﴾؛ للدّلالةِ على وجوبِ الإخلاص في العبادةِ، وأنَّ مَن لم يُخْلِصْ لم يَكُنْ قد أتى بالأمْر[2]، والتَّعبيرُ عن الحالِ بصيغةِ اسم الفاعل؛ للدّلالةِ على بلوغهِ الغايةَ في الثباتِ على إخلاصِ الدّين للّه من شوائبِ الشِّرك، وأنّ ذلك هو المطلوبُ منه ﷺ ومن كلّ أحدٍ.

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَّهُ﴾ على المفعول به ﴿ٱلدِّينَ﴾:

العبادةُ المأمورُ بها هي ما كانت للهِ وحده دون غيره

في تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَّهُ﴾ على المفعول به ﴿ٱلدِّينَ﴾ إفادةٌ للحصرِ والقصرِ والاختصاص؛ أي: عبادتي مخصوصةٌ للّه وحده دون غيره، وفي التّقديم كذلك مراعاةٌ للفاصلةِ القرآنيّة.

الغرض من التَّعريف باللّام: ﴿ٱلدِّينَ﴾:

الإسلامُ هو الدّينُ الكاملُ القائمُ على الإخلاصِ للهِ وحده

اللّامُ في ﴿ٱلدِّينَ﴾ لام العهد؛ لأنّ الدّين معهودٌ لدى النَّبيّ ﷺ، وهو الإسلامُ، وهو معهودٌ ذكريّ؛ قد سبقَ ذكره أوّل السّورة في قوله: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر: 2]، وقد جاءَ هنا إعلانًا بتنفيذِ هذا الأمر، إضافةً إلى أنّ السّياقَ يتحدَّثُ عن اتّخاذِ المشركين دينًا مشوّهًا لا إخلاصَ فيه للّه، وهذه اللّامُ العهديّة تدلّ على الكمال؛ أي: مخلصًا له الدّينَ المعهودَ الكاملَ الَّذي أرادهُ اللّهُ، وليس وراءه دينٌ.

دلالة تكرار الفعل في ﴿وَأُمِرْتُ﴾:

عُطِفَ الفِعلُ (أُمِرْتُ) في قوله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 16/ 473.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 123.

مع إخلاصه ﷺ هو أوّلُ السّابقين للإسلام والمقدَّمُ في الشَّرفِ والعملِ

﴿ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ على الفعلِ ﴿أُمِرْتُ﴾ في قوله: ﴿إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾؛ لكونهما ليسا بمَعنًى واحِدٍ؛ لاختِلافِ جِهَتَيْهما؛ وذلك أنَّ الأمْرَ بالإخلاصِ والتَّكليفَ به شَيءٌ، والأمْرَ به ليُحرِزَ القائمُ به قَصَبَ السَّبقِ في الدّينِ شَيءٌ آخَرُ، وإذا اختَلَفَ الشَّيءُ وجهًا ووصفًا نُزِّلَ بذلك مَنزلةَ شَيئَينِ مُختَلِفَينِ[1]. فالأوّلُ أمرٌ بالعبادةِ مع الإخلاص، والثّاني أمرٌ بالسَّبقِ، فلاختلافِ جهتيهما تنزَّلا منزلةَ المختلِفين[2]. ويمكن أنْ يكون لَفظُ ﴿أُمِرْتُ﴾ الأوَّلُ في عَمَلِ القَلبِ، والثّاني في عَملِ الجوارِحِ، ومِن ثَمَّ لا يكونُ هذا تكريرًا[3].

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لِأَنْ﴾:

عبادةُ رسولِ اللهِ جعلَتْهُ أوّلَ المسلمين وأعظَمَهم

اللّامُ في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾ إمّا أنْ تكونَ لتعليلِ الفعل المحذوف[4]، والتقدير: وأُمرتُ بما أُمِرْتُ به لأنْ أكونَ في شرعي ووقتي أعظمَ المسلمين[5]، ومقدَّمهم في الدُّنيا والآخرةِ، فمن أخلصَ كان سابقًا[6]، أو أوّلَ من أسلمَ في زماني ومن قومي، فهو أوّل من خالفَ دين آبائِه وخلعَ الأصنام وحطَّمها[7]، وإمّا أنْ تكونَ صلةً للتَّوكيد، بدليل مجيئها بغيرِ لام في قوله: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ٧٢﴾ [يونس: 72]، و﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١٠٤﴾ [يونس: 104]، و﴿أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ﴾ [الأنعام: 14][8]، وإمّا أنْ تكونَ بمعنى الباء؛ لأنّ (أمرَ) إنّما يتعدّى بالباء ولا يتعدّى باللّام، والمعنى: (أُمرت بأنْ أكون)[9].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 118، والطيبي، فتوح الغيب: 23/ 356، وأبو حيان، البحر المحيط: 19/ 191.
(2) الشهاب، عناية القاضي: 7/ 331، والعليمي، فتح الرحمن في تفسير القرآن: 6/ 58.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 432.
(4) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/ 406.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 474.
(6) الزمخشري، الكشاف: 4/ 118، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 247.
(7) الزمخشري، الكشاف: 4/ 118.
(8) الزمخشري، الكشاف: 4/ 119، وابن عادل، اللباب: 16/ 488.
(9) ابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 124.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿أَكُونَ﴾:

أسبقيّةُ النّبيّ في دعوةِ نفسه إلى الخيرِ وفي الشَّرف مستمرَّةٌ لا تنفكُّ عنه

التّعبير بصيغةِ المضارع في قوله: ﴿لِأَنۡ أَكُونَ﴾؛ للدّلالة على استمراره ﷺ بالأسبقيَّة في دعوةِ نفسه إلى الأوامرِ قبلَ غيره، ويُعلَمُ بذلك استمرارُ أسبقيَّته في الشَّرفِ والرُّتبةِ صلوات ربّي وسلامه عليه.

دلالة التَّعبير بالأوَّليّة والغرض من الإضافة:

في تعدّدِ معنى الأوَّليّة دلالةٌ على عظيم شرفِ النّبيّ ﷺ

الأوَّليّةُ المضافةُ إلى لفظ ﴿ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ إمّا أوَّليّةٌ حقيقيّةٌ، وفي معناها أوجهٌ، منها: أنْ أكونَ أوَّلَ مَن أسلمَ في زماني ومِن قومي، وأنْ أكونَ أوَّلَ الَّذين دعوتُهم إلى الإسلام إسلامًا، وأنْ أكونَ أوَّلَ مَن دعا نفسَه إلى ما دعا إليه غيرَه؛ لأكونَ مقتدًى بي في قولي وفعلي جميعًا، ولا تكونَ صفتي صفةَ الملوكِ الَّذين يأمرون بما لا يفعلون، وأنْ أفعلَ ما أستحقُّ به الأوَّليّةِ من أعمالِ السّابقين؛ دلالةً على السَّببِ بالمسبَّبِ[1]، ومِنْ ثَمَّ فالإضافةُ فيها بيانيّة.

وإمّا أوَّليّةٌ مجازيَّةٌ، وليس المقصودُ من الأوَّليّة السَّبْقَ في الزَّمان؛ فإنّ ذلك حصلَ فلا جدوى من الإخبارِ به، وإنّما المقصودُ أنّه مأمورٌ بأنْ يكونَ أقوى المسلمين إسلامًا، بحيث إنّ ما يقومُ به الرَّسولُ ﷺ من أمورِ الإسلامِ أعظمُ ممّا يقومُ به كلُّ مسلم[2]، ومِنْ ثَمَّ فالإضافةُ مع كونها للبيان تفيدُ التَّشريفَ والتَّكريم والتَّعظيم، وفي تعدُّدِ معنى الأوَّليّة ثراءٌ في المعنى؛ للدّلالةِ على عظيمِ شرفِ النَّبيّ ﷺ.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 119، والخفاجي، عناية القاضي: 7/ 331، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 239.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 358.

﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٣﴾ [الزمر: 13]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعدَ الأمر بالإخلاص بيانٌ بأنّ الأمر للوجوب

لَمّا بَيَّنَ اللهُ تعالى أمْرَه بالإخلاصِ بالقَلبِ، وبالأعمالِ المخصوصةِ، وكان الأمرُ يَحتمِلُ الوُجوبَ ويَحتمِلُ النَّدبَ؛ بيَّنَ أنَّ ذلك الأمرَ للوُجوبِ، فقال: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَخَافُ﴾: معنَى الخوفِ عامّةً "توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونة، أو معلومةٍ... ويضادّ الخوفُ الأمنَ، ويُستعملُ ذلك في الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأخرويَّةِ"[2]، والواردُ في الآيةِ بهذا المعنَى المقابلِ للأمنِ، وأكثرُ ما يردُ في القرآنِ الكريمِ من لفظِ الخوفِ هو المضادُّ لمعنَى الأمنِ[3].

2) ﴿عَصَيۡتُ﴾: جذرُ الكلمةِ هو (عصو)، عَصى يَعصي عِصيانًا إذا خرجَ عنِ الطّاعةِ، قالَ تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ [طه: 121][4]، والعاصي: اسمُ الفصيلِ خاصَّةً؛ إذا عصى أمَّه في اتِّباعها، يقالُ: عَصا؛ إذا صَلُبَ واشتدَّ، واستعصى عليه الشَّيءُ: اشتدَّ، ومن هذا جاء العِصيانُ، فأصلهُ الصَّلابةُ وعدمُ الانثناءِ أو الانقياد[5]، ومعنى ﴿عَصَيۡتُ﴾ في الآيةِ موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ؛ أي: عدم الطّاعة.

المَعْنى الإجْماليُّ:

الخوفُ من عذابِ يوم القيامة لمن عصى أمرَ ربّه

قُلْ - يا محمَّد - لأُمَّتك: إنّي أخافُ - مع تأمينه لي بغفران ما

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 432.
(2) الراغب، المفردات: (خوف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خوف).
(4) الرّاغب، المفردات: (عصا).
(5) الخليل، العين: (عصو)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (عصا).

تقدّم وما تأخّر - إنْ عَصَيتُ ربّي - المحسنَ إليّ المربّيَ لي فيما أمَرَني به مِن تَوحيدِه وإخلاصِ العِبادةِ له - عذابَ يومٍ عظيمٍ هو يوم القيامةِ، ذلك هو اليومُ الَّذي يعظمُ هوله[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ﴾:

الارتقاءُ في مدارجِ الإيمان تجنّبٌ للشِّركِ وأهله

هذا استئنافٌ مكرّرٌ لِما قبله، وتدرّجٌ في الغرضِ المشترك بينها، فقوله: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ أمرٌ بإخلاصِ العبادة للّه، وقوله: ﴿وَأُمِرۡتُ لِأَنۡ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾ أمرٌ "بأن يكونَ أقوى المسلمين إسلامًا بحيث إنّ ما يقومُ به الرَّسولُ ﷺ من أمورِ الإسلام أعظمُ ممّا يقومُ به كلّ مسلم"[2]. فقد جاءتِ الآيات مترتِّبةً، وهو من قبيل التَّرقّي في رفض الشِّرك بحسب الغرض الَّذي سيقت له، فقوله: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ﴾ آيسَ المشركين عن عوده إلى دينهم، وقطعَ طمعهم عنه، فسياقُ الخوف هنا أعطى معنى العلم، كأنّه قال: (إنّي أعلم إنْ عصيت ربّي عذاب يوم عظيم)[3].

الغرض من التَّعبير بالأمر ﴿قُلۡ﴾ ونكتة تكراره:

تكريرُ الأمرِ بإبلاغِ المأمورين أوقعُ في قلوبهم وأشدُّ إقبالًا بنفوسهم

على القَولِ بأنَّ الخِطابَ مِن قِبَلِ النَّبيِّ ﷺ بقولِه: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ للمشركينَ؛ أي: قلْ للمشركين الَّذينَ كانوا يُحاوِلونَ أنْ يَترُكَ النَّبيّ ﷺ الدَّعْوَةَ وأنْ يُتابِعَ دينَهُم؛ فإعادةُ الأمْرِ بالقَولِ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ لِلتَّأكيدِ؛ اهتمامًا بهذا المَقولِ، وعلى القول بأنّ الخطابَ للمؤمنينَ؛ فإعادةُ فعلِ ﴿قُلۡ﴾ لِأجْلِ اختِلافِ المقصودينَ بتَوجيهِ القَولِ إليهم[4].

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 270، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 474.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 358.

(3) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 8/ 667.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 358 - 359.

وعلى القولين فإنّ تكريرَ الأمرِ بإبلاغِ المأمورين أوقعُ في قلوبهم وأشدُّ إقبالًا بنفوسهم(1).

الغرض من التَّعبير بمقول القول جملةً اسميَّةً مؤكَّدة بـ﴿إِنِّي﴾:

خوفُ النّبيّ ﷺ من عذابِ ربّه ثابتٌ مستمرٌّ

آثر البيانُ القرآنيُّ التَّعبيرَ بجملةِ مقولِ القول اسميَّةً لإفادةِ الثُّبوتِ والدّوام، وبحرفِ التَّأكيد ﴿إِنِّي﴾؛ لما في الأوهام أنّ الرئيسَ لا يخافُ؛ أي: خوفُ النَّبيِّ ﷺ من عذابِ اللّه ثابتٌ مستمرٌّ، والمعنى: إنّي أخافُ ربّي مع تأمينه لي بغفران ما تقدّم من ذنبي وما تأخّر؛ إخلاصًا في إجلاله وإعظامه، وفعلًا لما على العبد لمولاه الّذي له جميعُ الكبرياء والعظمة(2).

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿أَخَافُ﴾:

تجدّدُ واستمرارُ خوفِ النَّبيِّ ﷺ من ربّه دليلٌ على شدّةِ إخلاصه

دلّ التَّعبير بالفعل المضارع ﴿أَخَافُ﴾ على التَّجدّدِ المستمرِّ لخوف النَّبيّ ﷺ من ربّه، ممّا يدلُّ على شدّة إخلاصِ النَّبيِّ ﷺ وإجلاله وتعظيمه لربّه، وكما جاء في الحديث عن النَّبيِّ ﷺ: «واللّهِ؛ إنّي لَأَعْلَمُكُمْ بِاللّهِ ﷻ، وأَخْشاكُمْ لَهُ»(3).

دلالة التَّعبير بـ ﴿إِنْ﴾ الشَّرطيَّة:

عصيانُ النَّبيّ لله تعالى أمرٌ غيرُ متحقّقٍ ولا يُتوقّعُ منه

في قوله تعالى: ﴿إِنْ عَصَيْتُ﴾ عبّر بـ﴿إِنْ﴾ الشَّرطيَّة التي تفيدُ عدمَ التَّحقّق دون (إذا) المفيدةِ في الأصل الجزمَ بوقوع مدخولها، وهذا التَّعبيرُ مناسبٌ لمقام النَّبيِّ ﷺ، وفائدةُ ذلك أنّ عصيانَ النَّبيّ للّه تعالى أمرٌ غير متحقّقٍ، ولا يُتوقّع منه، فهو أوّل المسلمين، وإنما غرضه المُبالَغةُ في زَجرِ الغَيرِ عن المعاصي؛ لأنَّه مع جلالةِ قَدرِ النَّبيِّ ﷺ وشَرَفِ نُبوَّته إذا وجَب أنْ يكونَ خائِفًا حَذِرًا من المعاصي، فغَيرُه بذلك أولى(4).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 474.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 474.
(3) مسند الإمام أحمد، مسند الصديقة عائشة بنت الصديق رضي الله عنها، رقم: (24912).
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 432.

بلاغة الاعتراض بالجملة الشَّرطيَّة ﴿إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾:

قولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ أصلُ التَّركيب فيه: (قل إني أخافُ عذابَ يوم عظيم)، لكنّه اعترضَ بجملة الشَّرط ﴿إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ بين الفعل ﴿أَخَافُ﴾ ومفعوله ﴿عَذَابَ﴾، فالتَّقدير: (إن عصيتُ أخفْ)، فأفادتِ الجملة الاعتراضيَّة التَّعبيرَ بالخوف مرّتين؛ المرّةَ المصرّحَ بها، وعلى التَّقدير في جواب الشَّرط، مما يدلُّ على عظيمِ الخوف، ففي الكلامِ مبالغةٌ في الزَّجر عن المعاصي، وتعريضٌ باستحقاقِ المشركين للعذابِ لكونهم عصاةً، وأيُّ معصيةٍ أقبحُ من الشِّرك؟

في التَّعبير بالخوفِ مرّتين مبالغةٌ في الزَّجر عن المعاصي

بلاغةُ التَّعبير بعنوانِ الرُّبوبيّة وإضافته إلى الضَّمير:

في التَّعبيرِ بلفظ الرُّبوبيّة في قوله: ﴿إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ لفتةٌ مهمّة وتعبيرٌ بليغ؛ لأنّ الرُّبوبيّة فيها معنى الرَّحمة والتَّربية والإحسان والعطاء؛ فالمحسنُ والمربّي لكلِّ مخلوقٍ بكلّ جميلٍ يستحقُّ الطّاعةَ وعدمَ المعصية، كما أنّ وصفَ الإحسان ربَّما جرّأ على العصيان، فنبّه البيانُ الحكيمُ على ذلك بلفظِ الرُّبوبيّة، وأنْ لا يكون ذلك إلّا لعدم العرفان[1].

المحسنُ والمربّي لكلِّ مخلوقٍ بكلّ جميلٍ يستحقُّ الطّاعةَ وعدم المعصية

سرُّ إضافة العذاب لـ﴿يَوۡمٍ﴾ في قوله: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ﴾، وسرّ تنكيره:

كان من الممكن أنْ يكون الكلام: (إني أخاف إنْ عصيتُ ربي عذابًا عظيمًا)، لكنّه أضافَ العذاب إلى لفظِ ﴿يَوۡمٍ﴾، والمعنى: عَذابَ يَوْمِ القيامَةِ، ذَلِكَ هوَ اليَوْمُ الَّذي يُعْظُمُ هَوْلُهُ، وهذا اليوم وعدٌ محتوم، وهو آتٍ لا محالة، فأفادتْ هذه الإضافة مزيدَ تهويلٍ لعظم هذا العذاب، وتحذيرٍ من عاقبة العصيان، وفي تنكير ﴿يَوۡمٍ﴾ تعظيمٌ وتفخيمٌ لهذا اليوم العظيم المهول بكلّ ما فيه،

يومُ القيامة الّذي يعظمُ هوله يومٌ آتٍ لا محالة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 474.

فكانتْ إضافةُ العذاب إلى ﴿يَوۡمٍ﴾ وتنكيره ووصفه بالعظيم أبلغَ من وصف العذاب بالعظمة.

سرُّ وصف اليوم بـ ﴿عَظِيمٍ﴾:

اليومُ العظيمُ يستلزمُ عِظَمَ ما يقعُ فيه

المرادُ بقولِه: ﴿عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٍ﴾ هو يَومُ القيامةِ، ووُصِفَ بالعَظَمةِ؛ لِعَظَمةِ ما فيهِ مِنَ الدَّواهي والأهوالِ[1]، وإذا كان اليومُ عظيمًا فكيف يكون عذابه[2]؟ فعِظَمُ الظَّرفِ بعِظَم مظروفه وكل ما يحصلُ فيه من أمورٍ عظيمة، فاليومُ العظيم يستلزمُ عظمَ ما يقعُ فيه عرفًا.

الغرض من التَّعبير بمقول القول جملةً خبريَّةً:

خوفُ رسولِ الله من عـذابِ يومٍ عظيمٍ دليلٌ على أنّ أمرَ الإخلاص للوجوب

ألمحت الجملةُ القرآنية: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي﴾ إلى شدّةِ عبوديَّةِ النَّبيِّ ﷺ لربّه، "فكأنّه يقول: أنا لم آخذْ هذه المنزلة حكمًا مطلقًا أنّني نبيّ مُكرَّم، بل أنا كعامّةِ النّاسِ؛ إنْ عصيتُ ربّي تعرّضتُ للعقاب؛ يعني: تقديمُ اللّه لي أوَّلًا واصطفاؤه لي لا يشفعُ لي إنْ حَدَثتْ منّي معصية"[3].

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 247.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 474.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 1366.

﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ ١٥﴾ [الزمر: 14 - 15]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

تصريحُ النَّبيّ ﷺ بالامتثالِ لأمرِ ربّه بعد التّكنية عنه

لَمّا بَيَّن ما أُمِرَ به، وأعلَمَ أنَّه يَخافُ مِن مُخالَفةِ الأمرِ له بذلك، فأفهَمَ أنَّه مُمتثِلٌ لِما أُمِرَ به؛ أمَرَه سُبحانَه بأن يُصَرِّحَ بذلك؛ لأنَّ للتَّصريحِ مِن المَزيَّةِ ما لا يَخفَى، فقال: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾[1]، وذلك التّصريح على أبلغِ وجه؛ إظهارًا لتصلُّبه في الدّين، وحسمًا لمادَّةِ أطماعهم الفارغة، وتمهيدًا لتهديدهم بقوله: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿دِينِي﴾: معنى ﴿دِينِي﴾ هنا في الآية: طاعتي وعبادتي[3].

2) ﴿دُونِهِۦۗ﴾: (دون) أصل يَدُلُّ عَلَى المُداناةِ والمُقارَبَةِ، ويقال: هوَ عِنْدَهُ مِنَ الشَّيْءِ الدّونِ؛ أيِ: الهَيِّنِ[4]، وهذا دون ذاك؛ أي: هو أخسُّ منه، وأدنى منزلةً[5]، ويكونُ بمعْنَى أمامَ، وبمعْنَى وراءَ، وفوقَ، وضِدّ، وبمعنى غير، وسوى[6]، ومعنى ﴿مِّن دُونِهِۦۗ﴾: ممّا سواه من الأوثان والأصنام وغير ذلك ممّا تعبدون من سائر خلقه[7].

3) ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾: (خسر) أصلٌ يدلُّ على النَّقْصِ، يُقال:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 474.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 62.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 271، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 243.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (دون).
(5) الزمخشري، أساس البلاغة: (دون).
(6) الزبيدي، تاج العروس: (دون).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 271.

خَسَرْتُ الميزانَ وأخْسَرْتُه، إذا نَقَصْتَهُ[1]، وخَسِرَ التّاجِرُ: وُضِعَ في تجارَتِهِ أو غُبِنَ، والأوّل هو الأصلُ، وصفقةٌ خاسرةٌ: غير رابحةٍ، وكَرَّةٌ خاسِرةٌ: غيرُ نافِعةٍ، والخَسار والخَسارةُ: الضَّلالُ والهَلاكُ[2]، ومعنى ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ في الآية: "الهالكين الَّذين غَبَنوا أنفسَهم"[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يأمُرُ اللّهُ تعالى رسولَه ﷺ أنْ يُبيِّنَ لمشركي قومه ما أمَره به سبحانَه، فيقولُ: قُلْ - يا مُحمَّدُ -: اللّهُ وحْدَه أُفرِدُه بعبادتي وأُخلِصُ له في طاعتي، لا أجعلُ له في ذلك شريكًا، ولكنّي أُفرده بالألوهيَّة، وأبرأُ ممّا سواه من الأنداد والآلهة، فاعبُدوا - أيُّها المُشركونَ - من دونِ اللّهِ أيَّ شَيءٍ شِئتُموه مِنَ الأوثانِ أو غيرِها؛ اتِّباعًا لأهوائِكم بلا بُرهانٍ، فستعلمون وبالَ عاقبةِ عبادتكم الباطلة إذا لقيتم ربّكم[4]. وقل لهم: إنَّ الخاسِرينَ حَقيقةً هم الَّذين خَسِروا أنفُسَهم بحِرمانِها مِنَ الجنَّةِ، واستِحقاقِها دُخولَ النّارِ، وخَسِروا أهليهم يومَ القيامةِ كذلك، ألا إنَّ خُسرانَ المُشرِكينَ أنفُسَهم وأهليهم يومَ القيامةِ هو الخُسرانُ الواضِحُ الَّذي لا خُسرانَ مِثلُه[5].

الإعلانُ قمَّةُ الإخلاصِ للّه، والإصرارُ على الشّرك هو الخسرانُ الحقيقيّ

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾:

هذا استِئنافٌ مكرّرٌ لِما قبله، حيث تتدرّجُ الآياتُ وتتتابعُ في تأكيدِ توحيدِ اللّه وحده، وإخلاصِ العبادة له، وترك عبادةِ ما عبده الآباءُ والأجداد، والهلعِ والخوف من التَّقرّب للأصنام، فإنّ ذلك شركٌ،

إخبارٌ بأنّه ﷺ امتثلَ للأمرِ بالإخلاص وفعلَ ما أُمرَ به على أكملِ وجه

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خسر).

(2) ابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (خسر).

(3) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 271.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 180، والواحدي، التفسير الوسيط: 3/ 575، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 243.

(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 271، ومكي، الهداية: 10/ 6313، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 359.

يعرّضُ صاحبه لعذابِ يوم القيامة، فقوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ إخبارٌ بأنّه ﷺ امتثلَ الأمرَ، وفعلَ ما أُمرَ به على أبلغِ وجه[1].

الغرض من التَّعبير بالأمر ودلالة تكرار ﴿قُلِ﴾:

تأكيدٌ على الإخلاصِ لله والصَّلابةِ في الدّين والثَّباتِ على الطَّريقِ القويم

في التَّعبير بلفظ ﴿قُلِ﴾ تلقينٌ للرَّسول ﷺ، واستعمالُ ﴿قُلِ﴾ في بدايةِ الكلام وتكرارُهُ دليلٌ على أهمّيَّةِ المقولِ دائمًا، وإلّا لعطفَ مباشرةً من دون تكرار لفظة ﴿قُلۡ﴾، وفيه إشارةٌ إلى أنّه ينبغي للإنسانِ أنْ يُعلِنَ بالحَقِّ الَّذي هو عليه، وأنْ يصدحَ به، ولا يُباليَ بمَنْ خالَفَه[2].

التكرار تأكيد على التمسك بالحق

و إعادةُ التَّصريح بعبادةِ اللّهِ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ بعدَ قولِه: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ ليس بتكرار؛ لِأنَّ الأوَّلَ إخبارٌ بأنَّه مَأمورٌ من جهةِ اللّهِ بإحداثِ العِبادةِ والإخلاص، "ولا يفيدُ الحصر"[3]، والثّانيَ: إخبارٌ بأنَّه يَختصُّ اللّهَ وحْدَه دونَ غَيرِه بعِبادَتِه مُخلِصًا له دينَه، ولِدَلالَتِه على ذلك قَدَّمَ المَعبودَ (اللّه سُبحانَه) على فِعلِ العِبادةِ، وأخَّرَه في الأوَّلِ؛ فالكَلامُ أوَّلًا واقِعٌ في الفِعلِ نَفْسِه وإيجادِه، وثانيًا فيمَن يَفعَلُ الفِعلَ لِأجْلِه[4]؛ أيْ: أخبَرَ بامتِثالِه بالأمْرِ على أبلَغِ وجهٍ وآكَدِه؛ إظهارًا لِتَصلُّبِه في الدّينِ، وحَسمًا لِأطماعِهمُ الفارِغةِ، وتَمهيدًا لِتَهديدِهم بقَولِه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾[5].

التكرار والتأكيد فيه قطع على التساهل مع المشركين

وكذلك أُمِرَ بأنْ يُعيدَ التَّصريحَ بأنَّه يَعبُدُ اللّهَ وحْدَه؛ تَأكيدًا لقولِه: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾؛ لأهمّيّتِه، وإنْ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 61.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 135.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 433.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 119.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 247.

كان مُفادُ الجملتَين واحدًا؛ لأنَّهما معًا تُفيدانِ أنَّه لا يَعبُدُ إلّا اللّٰهَ تعالى، باعتبارِ تَقْييدِ ﴿أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾ الأوَّلِ بقَيدِ ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾، وباعتبارِ تَقديمِ المفعولِ على ﴿أَعۡبُدُ﴾ الثّاني، فتأكَّدَ معنى التَّوحيدِ مرَّتينِ؛ ليَتقرَّرَ ثلاثَ مرّاتٍ، وتَمهيدًا لقولِه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾، وهو المقصودُ[1]. ومِنْ ثَمَّ جاءَ الأمرُ للنَّبيّ ﷺ بإعلانِ ما أُمِرَ بإعلانه وتكراره؛ لأجلِ قطعِ أيّ أملٍ للمشركين في تساهله معهم فيما كان المشركون يبذلون جهدهم في سبيلِ تحقيقه.

الغرض من تقديم المفعول به ونكتة التعبير بالاسم الجليل:

اختصاصُ العبادةِ به سبحانه، فهو وحده المستحقُّ للعبادة

تَقديمُ اسمِ الجَلالةِ في قولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ﴾؛ لإفادةِ الاختصاص[2]، والحصر[3]؛ أي: أعبدُ اللّٰهَ وحده لا غيره، لا استقلالًا، ولا اشتراكًا[4]، ولا أنحو أصلًا بالعبادةِ نحوَ غيره أبدًا[5]، ويدلُّ التقديمُ كذلك على الاهتمامِ بمَن يُعبَدُ ويُفعلُ الفعلُ لأجله سبحانه[6].

وعبّر بالاسمِ الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ الجامعِ لكلّ صفاتِ الجلالِ والجمالِ دون غيره من الأسماءِ الحسنى، أو دون اسمِ الرُّبوبيّة؛ لكون الاسمِ الجليل اختصّ به سبحانه دون غيره؛ فكذلك وحده سبحانه المستحقّ للعبادة دون غيره؛ ولتربيةِ المهابة في النُّفوس، والتّحذير من الإشراك في عبادته.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿أَعۡبُدُ﴾:

تأكيدُ استمرار النَّبيّ ﷺ في عبادته لله وإصراره على التَّوحيد

أتى الفعل ﴿أَعۡبُدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ بصيغة المضارع التي تدلّ على التَّجدُّدِ والحدوثِ والاستمرار والتّصوير؛ للدّلالة على تأكيدِ استمرار النَّبيّ ﷺ في عبادته لله

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 359.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 119.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 497.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 247.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 475.
(6) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 191.

وحده مخلصًا له العبادةَ؛ ممّا يدلّ على إصراره على التّوحيد، وقطعِ أيّ أملٍ للمشركين في تساهله معهم.

سرّ التَّقييد بالحال ﴿مُخۡلِصٗا﴾ بصيغة اسم الفاعل:

حالٌ لرسول الله مؤسّسةٌ أو مؤكّدةٌ تُظهِرُ امتثالَهُ للأمرِ وثباتَهُ عليه

﴿مُخۡلِصٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ حالٌ من فاعل ﴿أَعۡبُدُ﴾؛ وهي إمّا جاءت مؤكِّدةً؛ لأنّ تقديم المفعول أفادَ الحصر الدّالَّ على إخلاصه للّه بعدمِ عبادةِ غير اللّه معه، أو جاءتْ مؤسِّسةً، ويكون إخلاصُ الدّين له تعالى بعبادته سبحانه لذاته من غير طلب شيءِ من ثوابٍ أو نجاةٍ من النّار، كقول رابعةَ: "سبحانك! ما عبدتك خوفًا من عقابك ولا رجاءَ ثوابك"؛ أي: فإنّما خوفي لأجل إعطاء المقام حقَّه من ذلّ العبوديَّة وعزّ الرُّبوبيَّة[1]، وأتى بصيغة اسم الفاعل ﴿مُخۡلِصٗا﴾؛ لتأكيد ثبات النَّبيِّ ﷺ على هذه الحال وهي الإخلاص.

والحالُ من رسول اللّه ﷺ سواء كانت مؤكِّدةً أو مؤسِّسةً تُظهِرُ تصلُّبَهُ في الدّينِ وامتثالَهُ للأمرِ على أبلغِ وجهٍ وآكدِه، وثباته على هذه الحال، بما يحسمُ أطماعَ المشركين الفارغةَ.

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَّهُۥ﴾ على المفعول به ﴿دِينِي﴾:

اخــتــصــاصُ إخلاصِ النَّبيّ في عبادته لله لأجلِ وجهه سبحانه

تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿لَّهُۥ﴾ على ﴿دِينِي﴾؛ للدّلالة على الاختصاص؛ أي: مخلصًا ديني وعبادتي وتوحيدي له لا لغيره، وفي هذا تأكيدُ الإخلاص للّه وحده في العبادة والطّاعة؛ أي: مخلصًا له وحده ديني امتثالًا لِما أُمرت به، فلا أشينُهُ بشائبةٍ أصلًا؛ لا طلبًا لجنّة ولا خوفًا من نار، فإنّه قد غُفرَ لي ما تقدّم وما تأخّر، فصارت عبادتي لأجلِ وجهه[2].

الغرض من الإضافة لياء المتكلّم في ﴿دِينِي﴾:

في قولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ مُناسَبةٌ حَسنةٌ، حيثُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 475.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 475.

تحقّقُ عبادةُ النّبيّ ﷺ الخالصة لله

جاءتْ هنا بتَعريفِ لَفظِ الدّينَ بالإضافةِ، وجاءَ قبلُ: ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ مُعَرَّفًا بأل؛ ووَجْهه: أنَّ قَولَه: ﴿ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ﴾ إخبارٌ عنِ المُتكلِّم؛ بأنّه تحقّقت منه العبادة الخالصة لله؛ فناسَبتْ فيه الإضافةُ إلى ياء المتكلّم، وأمّا قَولُه: ﴿أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ﴾ فليس إخبارًا عنِ المُتكَلِّم، وإنَّما الإخبارُ: ﴿أُمِرۡتُ﴾ فَقَطْ، وما بَعدَه فَضلةٌ[1].

الغرض من حذف متعلّق ﴿مُخۡلِصٗا﴾:

كمالُ عبادةِ النّبيّ ﷺ الإخلاصُ لله غيرَ مَشوبٍ بشائبة

حُذفَ متعلَّق ﴿مُخۡلِصٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾ - والتَّقدير: مخلصًا له ديني من الشِّرك[2] - اختصارًا؛ لدلالةِ السّياق على أنّ المراد هو الإخلاص من الشِّرك، فقد قال بعدها: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ أو لإفادةِ العموم، والمعنى: مخلصًا له ديني من كلِّ شَوْبٍ[3]؛ أي: خالصًا للّه غير مشوبٍ بشركٍ، ولا رياء، ولا غيرهما[4]، أو أمتثلُ ما أُمرتُ به فلا أشينهُ بشائبةٍ أصلًا، لا طلبًا لجنّةٍ ولا خوفًا من نار؛ فإنّه قد غُفر لي ما تقدّم وما تأخّر[5].

نكتة تنوّع الصّيَغِ في التَّعبير عن الإخلاص في الدّين:

تأكيدٌ على أهمّيّة الإخلاصِ في العبادة

أتى القرآنُ بالصّيغِ المختلفة في التَّعبيرِ عن إخلاصِ العبادةِ للّه، فقال هنا: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي﴾، مقدِّمًا الاسمَ الجليل، ومعبِّرًا بـ﴿دِينِي﴾، وسبقَها قولُه: ﴿قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾؛ وفي تنوُّعِ هذه الصّيغ تأكيدٌ على الإخلاص، فسورةُ الزُّمر هي سورةُ الإخلاص، ولا تكادُ تجد سورة ركّزتْ على الإخلاص مثلها، وكذلك بيانًا للتَّرقّي فيه؛ فبعدَ أنْ أخبرَ ﷺ بأنّه

(1) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/ 406، والأنصاري، فتح الرحمن، ص: 495.
(2) السيوطي والمحلي، تفسير الجلالين، ص: 608.
(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 247، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 62.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 522.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 475، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 291.

مأمورٌ بالإخلاص لله، وبأنْ يكونَ أوّلَ المسلمين أعلنَ بأنّه يعبدُ اللّهَ وحده ولا يعبدُ غيره، فالعبادةُ خالصةٌ للّهِ جلّ ثناؤه.

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَٱعۡبُدُواْ﴾:

الفاءُ في قَولِه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ﴾ لِتفريعِ الكَلامِ الَّذي بَعدَها على الكَلامِ قَبلَها؛ فهو تَفريعٌ ذِكريٌّ[1]، فترتّبَ الكلامُ على ما قبله؛ تهديدًا وخذلانًا للمشركين[2].

الغرض من فعل الأمر ﴿فَٱعۡبُدُواْ﴾:

أمـرُ تـهـديـدٍ وتقريعٍ يدلُّ على شـدّةِ الغضبِ عليهم

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ واردٌ على وجه التَّخيير، والمرادُ منه المبالغةُ في الخذلان والتَّخلية، ويُعبَّرُ عنه بالتَّسويةِ، والمَقصودُ: التَّسويةُ في ذلك عِندَ المُتكَلِّم، فتَكونُ التَّسويةُ كِنايةً عن قِلَّةِ الاكتِراثِ بفِعلِ المُخاطَبِ؛ أيْ: إنَّ ذلك لا يَضُرُّني[3]، أو هو مستعملٌ للتَّهديدِ والتَّقريعِ والتَّوبيخِ، كقَولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ﴾ [فصلت: 40][4]، ويحتمِلُ أنْ يكونَ مع التَّهديد تَحدّيًا، والقاعدةُ في التَّفسيرِ: أنَّه إذا كانتِ الآيةُ تَحتمِلُ مَعنيَينِ لا يَتنافَيانِ تُحمَلُ عليهما جميعًا[5]، كما أنّ في هذا الأمرِ من الدَّلالةِ على شِدَّةِ الغَضَبِ عليهم ما لا يَخفى، كأنَّهم لَمّا لم يَنتَهوا عمّا نُهوا عنه أُمِروا به؛ كي يَحِلَّ بهمُ العِقابُ[6].

معنى ﴿مَا﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مَا شِئۡتُم﴾:

رائِدُهم في تَعيينِ مَعبوداتِهم هو مُـجـرَّدُ المَشيئةِ والهَوى بلا دَليلٍ

﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ اسمٌ موصول

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 359.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 497.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 119، وأبو حيان، البحر المحيط: 9/ 191، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 359.

(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 524، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 39، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 475.

(5) ابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 133.

(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 247.

يدلّ على العموم، وجُعِلَتِ الصِّلةُ فِعلَ المَشيئةِ ﴿شِئۡتُم﴾؛ إيماءً إلى أنَّ رائِدَهم في تَعيينِ مَعبوداتِهم هو مُجرَّدُ المَشيئةِ والهَوى بلا دَليلٍ[1].

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿شِئۡتُم﴾:

تحقّقُ عبادتهم لغيرِ الله كان باختيارهم ومشيئتهم

في التَّعبير بالفعل الماضي ﴿شِئۡتُم﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ إفادةُ تحقّقِ عبادتهم لغيرِ اللّه وتمكّنِهم من ذلك، "وإيذانٌ بأنّهم لا يعبدون اللّه تعالى"[2]، وأنّ ذلك كان باختيارهم ومشيئتهم.

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتها في ﴿مِّن دُونِهِۦۗ﴾:

توبيخٌ لهم على عبادتهم معبودًا غيرَ الله مخالفًا لصفاته

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ حرفُ جرٍّ، يحتملُ أن يكون للتَّأكيد إنْ كانت (دون) بمعنى غير، والمعنى: فاعبدوا ما شئتم غيرَه، أو ابتدائيَّة إنْ كانت كلمة (دون) اسمًا للمكانِ المُباعِدِ، فهي إذن مُستعارةٌ لمعنى المخالفة، والمعنى: فاعبدوا ما شئتم من جمادٍ أو غيره موصوفٍ بأنّه مخالفٌ لصفاتِ اللّه.

الغرض من الإضافة في ﴿دُونِهِۦۗ﴾:

عبادةُ من هو في غايةِ السُّفول دليلٌ على سَفاهةِ العقول

إضافةُ لفظ (دون) إلى الضَّمير العائد إلى اللّه سبحانه في قوله: ﴿مِّن دُونِهِۦۗ﴾ إشارةٌ إلى سُفولِ رُتْبَةِ كلِّ شَيءٍ بالنِّسبة إلى اللّه سبحانه؛ وتَسْفيهٌ لِمَن يَلْتَفِتُ إلى سِواهُ؛ فَإنَّ عِبادَةَ ما دونَه تُؤَدّي إلى قَطْعِ إحسانِهِ؛ ولا إحسانَ إلّا إحسانُهُ سبحانه؛ فَإذا انْقَطَعَ حصل كلُّ سوءٍ؛ وفي ذلك جميعُ الخَسارَةِ[3].

موقع جملة ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ ممّا قبلها ودلالته:

استئنافٌ يبيّن أنّ المشركين هم الخاسرون

جاء قولُه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ استئنافًا، فقد قال لهم: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم﴾، فلمّا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 359، والهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 512.
(2) السيوطي والمحلي، تفسير الجلالين، ص: 608.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 475.

أيسوا منه أنْ يرجعَ إلى دينهم قالوا: خسرتَ إنْ خالفتَ دين آبائك، فقال اللّه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾؛ يعني: أنتمُ الخاسرون، لا أنا[1].

غرض فعل الأمر ﴿قُلۡ﴾:

في الجمع بين الإرشاد والتَّوبيخ موعظةٌ على طريق التَّعريض

فعلُ الأمر ﴿قُلۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ يعطي معنى الجمع بين الإرشاد والتّوبيخ للمشركين؛ إذ أعقبَ أمْرَ التَّسويةِ في شَأنِهم بشَيءٍ مِنَ المَوعِظةِ؛ حِرصًا على إصلاحِهم، على عادةِ القُرآنِ، ولوحِظَ في إبلاغِهم هذه المَوعظةَ مَقامُ ما سَبَق مِنَ التَّخليةِ بيْنَهم وبيْنَ شَأنِهم؛ جَمعًا بيْنَ الإرشادِ وبيْنَ التَّوبيخِ؛ فجيءَ بالمَوعظةِ على طَريقِ التَّعريضِ والحَديثِ عنِ الغائِبِ، والمُرادُ المُخاطَبون[2].

دلالة التَّعبير بجملة مقول القول اسميَّةً مؤكَّدةً:

الخسرانُ الكامل للمشركين أمرٌ مؤكّدٌ وواقع

دلّ التَّعبيرُ بالجملة الاسميَّة في جملةِ مقولِ القول - وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ - على تأكيدِ الخسران الكامل للمشركين، والتَّنبيهِ على أنّه واقعٌ[3]، وثابتٌ لهم، وفي هذا ما ينبّههم على غباوتهم بما يصيرون إليه من شقاوتهم.

معنى اللّام ودلالتها، والغرضُ من تعريف المسند إليه والمسند:

خَسارَتُهم أعظَمُ خَسارةٍ وأوضَحُها لِلعيانِ

اللّامُ في: ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ جنسيَّةٌ لاستغراق خصائص أفراد الخاسرين؛ أيْ: إنَّ الجِنسَ الَّذين عُرِفوا بالخُسرانِ همُ الَّذين خَسِروا أنْفُسَهم وأهليهم[4]. والغرضُ من تَعريف المُسنَدِ والمُسنَدِ إليه تحقيقُ القَصرِ؛ إذ يُفيدُ هذا التَّركيبُ قَصرَ جِنسِ الخاسِرينَ على الَّذين خَسِروا أنْفُسَهم وأهليهم، وهو قَصرُ مُبالَغةٍ؛ لِكَمالِ جِنسِ

(1) السمرقندي، بحر العلوم: 13/ 181.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 360.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 360.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 360.

الخُسرانِ في الَّذين خَسِروا أَنْفُسَهم وأهليهم، فخُسرانُ غيرِهم كَلا خُسران[1]، وخَسارَتُهم أعظَمُ خَسارةٍ وأوضَحُها لِلعيان، ولهذا يقال في لام التَّعريف في مثل هذا التَّركيب: إنّها دالَّةٌ على معنى الكمال؛ أي: "الكامِلينَ في الخُسْرانِ الَّذي هو عِبارَةٌ عَنْ إضاعَةِ ما يُهِمُّهُ، وإتْلافِ ما لا بُدَّ مِنهُ"[2]، والمعنى: "إنّ الكاملين في الخسران الجامعين لوجوهه وأسبابه هم الَّذينَ خَسِروا أَنْفُسَهُمْ؛ لوقوعها في هلكةٍ لا هلكةَ بعدها، وخَسروا أَهْليهِمْ؛ لأنّهم إنْ كانوا من أهلِ النّار فقد خسروهم كما خسروا أنفسهم، وإنْ كانوا من أهلِ الجنَّة فقد ذهبوا عنهم ذهابًا لا رجوعَ بعده إليهم"[3].

الغرض من التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الذين خَسِروا أنفُسَهم وأهليهم هم الَّذين جَرى الجِدالُ معهم

الكَلامُ مَسوقٌ بطَريقِ التَّعريضِ بالَّذين دارَ الجِدالُ معهم مِن قَولِه: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ﴾ [الزمر: 7]، إلى قَولِه: ﴿فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾، ومن ثَمّ عُلِمَ أنَّ المُرادَ بالَّذين خَسِروا أنْفُسَهم وأهليهم همُ الَّذين جَرى الجِدالُ معهم، فأفادَ مَعنى: إنَّ الخاسِرينَ أنتم، إلّا أنَّه عدلَ عن الضَّميرِ إلى المَوصوليَّةِ ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾؛ لِإدماجِ وعيدِهم بأنَّهم يَخسَرونَ أنفُسَهُم وأَهْليهم يومَ القيامة[4]، وكذلك في التَّعبيرِ بالموصوليَّة تعريفٌ لهم، وكأنَّه لا يُعرف لهم من أحوالهم المختصّة سوى الخسران؛ لزيادةِ وتقريرِ جريان الخسران عليهم ولزومه لهم.

دلالة التَّعبير بالفعل الماضي ﴿خَسِرُوٓاْ﴾:

خسرانُ الكافرين لأنفسهم وأهليهم يومَ القيامة حقيقةٌ ثابتة لا تقبلُ الشَّكّ

التَّعبير بالماضي ﴿خَسِرُوٓاْ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ - رغم أنّه أمرٌ يحصل في المستقبل -

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 360.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 247.
(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 119.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 360.

يفيدُ التَّحقُّق والوقوع، ويُظهِرُ خسران الكافرين في صورة الحقائق الثّابتة الواضحة التي لا تقبلُ الشَّكّ، وفي هذا من التَّهديدِ والوعيد ما فيه.

دلالة العطف في ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾:

في الجمعِ بين خسارتهم أنفسَهم وخسارتهم أهليهم كمالُ الخسران لهم

في العطف بلاغةُ التَّتميم؛ فقوله: ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ تمّم المقصود من الكلام، وزاد حُسنه، كأنَّه قيلَ: خَسِروا رَأسَ المالِ والرِّبحَ[1]، ففي الجمعِ بين خسارتهم أنفسَهم وخسارتهم أهليهم كمالُ الخسران لهم يوم القيامة.

الغرض من الإضافة في ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾:

أعزُّ ما على الإنسان بعدَ نفسه أهلُه

الإضافةُ في ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ إلى الكفّار؛ زيادةٌ في التّهديد والوعيد؛ لأنّ أعزّ ما على الإنسان بعد نفسه أهلُه الَّذين عزّه بهم؛ لأنّهم إنْ كانوا مثلهم فحالهم في الخسارة كحالهم، ولا يمكنُ لأحدٍ منهم أنْ يواسيَ صاحبه بوجهٍ، فإنّه لكلّ منهم شأنٌ يغنيه، وإنْ كانوا ناجين فلا اجتماعَ بينهم[2].

سرّ تقييد الخسران بالظَّرف المضاف ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾:

ظهورُ الخسران الحقيقيِّ الدّائم إنَّما يكونُ في يَوْم القيامَة

قيّد الخسران بيوم القيامة في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾؛ لأنّ ظهورَ الخسران - وهو إضاعة رأس المال، ومآلُهُ الهلاك الدّائم - هو في يَوْم القيامَة، وكمالُ ظهوره حين دخول النّار؛ لأنّه يعلمُ الخسران بحقّ اليقين بعد علمه بعينِ اليقين[3]، فالعبرةُ في الرِّبح أو الخسارة هي في الحسابِ الختاميِّ، الَّذي يسوّى فيه حسابُ الإنسان، أمّا هذا الحسابُ اليوميُّ في هذه الدُّنيا؛ فإنّه لا يكشفُ عن المركزِ الصَّحيح للإنسان[4]، فهم

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 360.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 475.
(3) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 498.
(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1133.

الخاسرون يومَ القيامة، ومن يكنْ خاسرًا يومَ القيامة فهو الخاسرُ لكلّ شيء[1].

الخسارةُ والرِّبحُ الحقيقيّان في اليومِ الَّذي يقومُ فيه النّاسُ لربّ العالمين

إيثار التَّعبير باسم ﴿ٱلۡقِيَـٰمَةِۙ﴾:

آثَرَ النَّظمُ القرآنيُّ التَّعبيرَ باسم ﴿ٱلۡقِيَـٰمَةِۙ﴾، ولم يعبّر مثلًا بـ(الساعة أو الآخرة)؛ لكون يوم القيامة من أشهرِ أسماءِ الآخرة، فذلك اليومُ هو الفيصلُ الَّذي لا يمكنُ لِما فاتَ فيه تداركه أصلًا؛ ولكون يوم القيامة - الذي هو مأخوذٌ من قيامِ النّاس لربّ العالمين - أنسبَ للسّياق ولمقامِ إقامةِ العدل في ذلك اليوم العظيم، الَّذي يكون فيه الخسارة والرِّبح الحقيقيّان.

تذييلٌ يطوي المبالغةَ في خسرانِ الكافرين يومَ القيامة

دلالة الاستئناف في جملة ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾:

دلّ الاستئنافُ على المبالغةِ في خسرانِ الكافرين يوم القيامة[2]، فبعدَ أنْ بيّن في الجملة السّابقة أنّهم خسروا أنفسهم وأهليهم يومَ القيامة - وفي ذلك غايةُ الهول - جاءتِ الجملة المستأنفة تذييلًا؛ لتنبّهَ على رسخوهم في ذلك الوصف على طريق النَّتيجة لما أفهمه ما قبله[3]، ولتؤكّد أنّ هذا الخسران هو الخسران الواضحُ البيّنُ الَّذي ليس بعده خسران.

الاهتمامُ بوصف خسرانهم للتّنبيه على أنّه في غايةِ الفظاعة

دلالة ﴿أَلَآ﴾ ومعناها:

﴿أَلَآ﴾ حرفُ تنبيه، ويكون استعماله في غرائبِ الأمور، وقد أتى به البيانُ القرآنيُّ هنا؛ للإشارةِ إلى العنايةِ والاهتمام بوصفِ خسرانهم[4]، ولا يُعتنى بشيءٍ إلّا إذا كان بالغًا أقصى مراتبه، وللتَّنبيهِ على أنّه خُسرانٌ بغايةِ الفظاعة[5]، بحيث لا

(1) دروزة، التفسير الحديث: 4/ 306.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 498.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 475.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 361.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 119.

تصلُ العقولُ إليه، فتنبّهوا لـه، وهذا مشعرٌ بكمالِ هذا الخسران وتفخيمِ شأنه.

الغرض من التَّعبير باسم الإشارة مصحوبًا بلام البعد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

تمييزُ خسرانهم وجعله بمنزلةِ المحسوس، مبالغةً في عظمِهِ وبُعده في الشَّرّ

استعمالُ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ لإفادةِ تمييز المشارِ إليه أكملَ تمييز[1]، وتصويرِ المشار إليه - أي: ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾، وهو أمرٌ معنويٌّ - في صورةِ الشَّيءِ المحسوسِ المشاهَدِ، وأتى بلام البعد؛ تهويلًا للمُشارِ إليه، وإشارةً إلى بُعد منزلته في الشَّرِّ وعِظَمه؛ أي: الأمرُ العظيم البعيدُ الرُّتبةِ في الخسارة جدًّا، وهذا فيه من المبالغةِ ما فيه[2]؛ تهديدًا للمخاطبين؛ لكي يتنبّهوا وينقذوا أنفسهم من ذلك الخسران العظيم.

دلالة التَّعبير بالضَّمير ﴿هُوَ﴾:

ضميرُ فصلٍ يؤكّدُ ويحصرُ جنسَ الخسارة بالكافرين

﴿هُوَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾ ضميرُ فصلٍ توسّطَ بين المُبتَدأ والخَبَر؛ للإشارةِ إلى العِنايةِ والاهتمام بوَصفِ خَسارَتِهم وتَهويلِها، والتَّأكيدِ على أنّها بلغتِ الغايةَ في فظاعتها، ويفيدُ كذلك القصرَ، وهو قصرٌ ادّعائيٌّ؛ أي: هم الَّذين انحصرَ فيهم جنسُ الخسران، فخسارتهم أعظمُ خسارةٍ وأوضحها للعيان[3].

معنى اللّام والغرض من تعريف الخبر بها في قوله: ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾:

لامُ التَّعريف في ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ عهديّةٌ، معهودها ذكريّ، وردَ بيانه في الآية، وهو خسرانُ أنفُسِهم وأهليهم.

ما وصلَ إليه خسرانهم هو في غايةِ الفظاعةِ ونهايةِ الشَّناعة

وغرضُ تعريفِ الخبر في الآية هو بيانُ ما وصلَ إليه هذا الخسران؛ من الغايةِ في الفظاعة والنِّهايةِ في الشَّناعة، كأنَّه ممّا تُعورِفَ أمْرُه، واشتُهِرَ هَوْلُه[4]، وأنّه لا نوعَ من الخسرِ وراءه.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 361.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 247، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 475، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 498.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 361.

(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 403، والهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 519.

دلالة التَّعبير بالخسران مادَّةً وصيغةً:

هلاكُهم هو أعظمُ خسارةٍ وأوضحُها وأدومُها، وليس فوقه خسران

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظِ الخسارة دون غيره من الألفاظ، فلم يقلْ: (إنّ النّادمين أو المعذّبين أو المهلَكين)؛ للإشارةِ إلى شدّةِ هلاكهم ووقوعهم في العذاب؛ فإنّ الخسارةَ الكاملة في التِّجارة تكونُ في خسارةِ الفائدةِ ورأس المال، وفي هذا استعارةٌ تصريحيَّةٌ؛ إذ عبّر بالخسرانِ عن الهلاكِ المبينِ والثُّبور والتَّبار، كما أنَّ إيثارَ التَّعبير عن خسارتهم بلفظ الخُسران الَّذي هو مصدرٌ على وزن فُعلان مفهمٌ للمبالغة مطلقًا، وهو أكثر المصادرِ تعبيرًا عن هذا المعنى؛ لأنّنا نقولُ في العربيَّة: خسِرَ خُسْرًا، وخَسِرَ خَسارًا، وخسرَ خُسرانًا، فخُسران بالضَّمِّ الَّذي هو أثقلُ الحركات يدلُّ على قوّة المصدر والمبالغة فيه؛ أي: خُسرانُهم هو أعظمُ خسارةٍ وأوضحُها وأدومها، وليس فوقه خسران[1].

سرّ تقييد الخبر بالوصف ﴿ٱلْمُبِينُ﴾:

رسوخُهم في خسرانٍ بيّنٍ واضحٍ دليلٌ على غبائهم

وَصَفَ الخسرانَ بالمبينِ في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾، فجَعَلَهُ غايةً في الفَظاعةِ، ونِهايةً في الشَّناعةِ[2]؛ ليدلّ على أنّه خسرانٌ بيِّن واضحٌ ومحيطٌ بكلّ شيء، فقد أحاطَ بنفسه وبأهله وماله وتعبِهِ وسَعْيه[3]، ومع ذلك هم راسخون في هذا الخسران، وفي هذا زيادةُ تقريعهم بالغباوة[4].

بلاغة الجناس الاشتقاقيِّ في الآية:

خسارةُ الكافرين ثابتةٌ عليهم متحقّقةٌ لهم محيطةٌ بهم من كلّ جهة

ورد في الآية ثلاثةُ ألفاظ اجتمعتْ في الأصلِ الاشتقاقيِّ (خسر)، وهي قولُه: ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ بصيغةِ اسم الفاعل المجموع الَّذي يدلُّ على الثُّبوت، وقولُه: ﴿خَسِرُوٓاْ﴾ بصيغة الفعل الماضي التي تفيدُ التَّحقُّقَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 361، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 475.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 403، والهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 519.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 21/ 1368.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 475.

والوقوع، وقولُه: ﴿ٱلۡخُسۡرَانُ﴾ بصيغة المصدر الَّذي يفيدُ المبالغة في الخسران، وهذا الجناس لونٌ من ألوانِ البديع جاء على أحسنِ صورة، وأجملِ موقع، وأفادَ تأكيدَ خسارةِ الكافرين يومَ القيامة، وكأنّ الخسارةَ ثابتةٌ عليهم متحقّقةٌ لهم محيطةٌ بهم من كلّ جهة.

الغرض من توالي المؤكّدات في الآية:

تقريراتٌ حاسمةٌ تـتـنـاسـبُ مع إصـرارِ المشركين عـلى موقفهـم المعاند

أكّد البيانُ القرآنيُّ خسران المشركين، ووصفَه بأنّه في غايةِ الفظاعة وأنَّه لا خُسران وراءه في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡخُسۡرَانُ ٱلۡمُبِينُ﴾؛ وذلك من خلال افتتاحِ الجملة بحرف التَّوكيد ﴿إِنَّ﴾، وباسميَّة الجملة، وبالقصرِ المستفاد من تعريفِ المسند والمسند إليه، ثُمَّ بتكرارِ مضمون الخبر، وباستئنافِ الجملةِ وتصديرِها بحرفِ التَّنبيه، وباسم الإشارة للبعيد الدّالِّ على بُعد منزلةِ المشارِ إليه في الشَّرِّ، وبضميرِ الفصل الَّذي توسَّطَ بين المبتدأ والخبر، وبإيثارِ التَّعبير عن خسارتهم باسم الخُسران الَّذي هو أبلغُ مصدرٍ في إفادة معنى الخسارة، وبتعريفِ الخسران ونعته بالمبين[1]. وهي تقريراتٌ حاسمة كأنّها تقريراتٌ ختاميَّةٌ للموقف الَّذي ظلّ فيه الكفّارُ مصرّين معاندين، وتعقيبًا عليه جاءتْ تنديدًا وإنذارًا وتعنيفًا لاذعًا للمشركين، متناسبًا مع الموقف وباثًّا في الوقت نفسه الوثوقَ والاستعلاءَ في النَّبيِّ صلَّى الله عليه وآله وسلَّم وأتباعه، فليعبدوا ما شاؤوا من دون الله، فهم الخاسرون يوم القيامة، ومن يكن خاسرًا يوم القيامة فهو الخاسرُ لكلّ شيء[2].

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 119، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 247.

(2) دروزة، التفسير الحديث: 4/ 306.

﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ١٦﴾ [الزمر: 16]

استحقاق المشركين لعذاب جهنَّمَ معَ خُسرانِهم أنفسَهم وأهليهم

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا ذَكَر البيانُ الحكيمُ خُسرانَ المشركين أنفُسَهم وأهليهم بقوله: ﴿إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾؛ عقَّبَ بذكر حالِهم في جَهنَّمَ فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾[1]؛ أي: لَمّا شرَحَ اللهُ تعالى أحوالَ حِرمانِهم من الرِّبح، وبيَّن كَيفيَّةَ خُسرانِهم؛ بيَّن أنَّهم لم يَقتَصِروا على الحِرمانِ والخُسرانِ، بل ضَمّوا إليه استِحقاقَ العَذابِ العَظيمِ، والعِقابِ الشَّديدِ؛ فقال: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿ظُلَلٞ﴾: الظُّلَلُ: جمعُ ظُلَّةٍ، أو جمعُ ظِلّ، والظِّلُّ: ضدُّ الضَّحِّ، وهو أعمُّ من الفيء[3]، وأصلُ (ظَلَّ) يَدُلُّ عَلَى سَتْرِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ[4]، والظِّلالُ: ما أظَلَّك من سحابٍ ونحوه، والظِّلُّ في الحقيقة إنَّما هو ضوءُ الشَّمسِ دونَ شُعاعها، فإذا لم يكنْ ضوءٌ فهو ظُلْمَةٌ وليس بِظِلٍّ، والظَّلَلُ: الماءُ تحتَ الشَّجر لا تصيبهُ الشَّمس[5]، ومعنى ﴿ظُلَلٞ﴾ في الآية: ما يَستظِلُّ به الجالس تحته، وهي هنا استعارةٌ للطَّبقة التي تعلو أهلَ النّار في نارِ جهنَّم[6].

2) ﴿يُخَوِّفُ﴾: فعل مضارع، جذرُه اللُّغويّ (خوف)، وأصله يدلُّ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 191.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 434.
(3) الراغب، المفردات: (ظلل).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظل).
(5) الجوهري، الصحاح: (ظلل).
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 361.

على الذُّعرِ والفزَعِ[1]، ومعنَى الخوفِ عامّةً "توقُّعُ مكروهٍ عن أمارةٍ مظنونةٍ، أو معلومةٍ... ويضادّ الخوفُ الأمنَ، ويُستعملُ ذلك في الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأخرويَّةِ"[2]، والتَّخويفُ الواردُ في الآيةِ بهذا المعنى المقابلِ للأمنِ[3]، فالخوفُ هو الشُّعورُ بما يؤلمُ النَّفسَ بواسطة إحدى الحواسِّ الخمس[4].

3) ﴿عِبَادَهُۥۚ﴾: (عبد) أصلٌ يَدُلُّ على لينٍ وذُلّ[5]، ومنه قولهم: طريقٌ مُعبَّدٌ؛ أي: سَهْلٌ مُذلَّلٌ؛ لكثرةِ وطءِ الأقدام له[6]، والعَبْدُ: الإنسانُ، يُقالُ: فُلانٌ عَبْدٌ لِلَّهِ؛ أيْ: مَمْلوكٌ لَهُ، ويُجْمَعُ عَلَى عَبيدٍ وعِبادٍ[7]، والاِسْتِعْبادُ والإِعْبادُ: اتِّخاذُ الشَّخْصِ عَبْدًا ورَقيقًا[8]، والعُبوديَّةُ: إظهارُ التّذلّل، والعِبادَةُ أبلغُ منها؛ لأنَّها غاية التَّذلُّل، ولا يستحقّها إلّا من له غايةُ الإفضال، وهو اللّه تعالى[9]، والمقصودُ بالعِباد في الآية: كلُّ إنسانٍ من مؤمنٍ وكافر، فهو مملوكٌ للّه؛ إذ الجميعُ يخافون العذابَ على العصيان[10]، أو المراد بالعباد المؤمنون[11].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يبيّن اللّهُ حالَ المشركين في جَهنَّمَ الَّذين خسروا أنفسهم وأهليهم فيقول: للخاسِرينَ يومَ القيامةِ أطباقٌ مِن النّارِ مِن فَوقِهم ومِن تَحتِهم، محيطةٌ بهم، تلتهِبُ عليهم، ذلك الَّذي أخبَرَ اللّهُ به مِن عذابِ الخاسِرينَ يومَ القيامةِ؛ يُخَوِّفُ به عِبادَه، فاتَّقوا اللّهَ يا

إخبارُ اللهِ بعذابِ المشركين في النّار تخويفًا لعباده؛ للنّجاة من سخطه وعذابه

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خوف).
(2) الراغب، المفردات: (خوف).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (خوف).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 363.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (عبد).
(6) الجوهري، الصحاح، وابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 7.
(8) الخليل، العين، والجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب: (عبد).
(9) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (عبد).
(10) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 363.
(11) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 434.

عبادَ اللهِ، بامتِثالِ ما أمَر، واجتِنابِ ما نهَى عنه وزَجَر؛ للنَّجاةِ مِن سَخَطِه وعَذابِه.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقع جملة ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ﴾ ممّا قبلها ودلالته:

في البدليّة بيانٌ لخُسْرانِ المشركين بعدَ تهويلِهِ بطريق الإبهام

قولُه تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌۚ﴾ بَدَلُ اشتِمالٍ مِن جُملةِ ﴿أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: جملة بدليّة من نوعِ الخسران تشرحُ إبهامه وتوضّح إجماله[1]، فالتَّفْصيلُ بعد الإجمال أشدّ وقوعًا في النّفس، ومن ثَمَّ فبينَ الجملتين كمالُ اتّصال؛ فهي بيانٌ لِما في التي قبلها من التَّهويلِ النّاشئ عن الخسران، ولكونه بيانًا تركَ العطف[2]، وخُصَّ هذا بالإبدالِ؛ لِأنَّه أشَدُّ خُسرانِهم عليهم؛ لِتَسلُّطِه على إهلاكِ أجسامِهم، والخسرانُ يشتملُ على غير ذلك من الخزي وغضبِ اللهِ واليأسِ من النَّجاة[3].

معنى اللّام ودلالتها ومرجع الضَّمير في ﴿لَهُم﴾:

العذابُ مستحقٌّ للمشركين الّذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة

اللّام في ﴿لَهُم﴾ إمّا للاستحقاق؛ أي: هذا العذابُ مستحقٌّ لهم، وإمّا للمنفعةِ تهكّمًا[4]؛ لِإنّ عادةَ اللّام عند مصاحبة المجرور - ولا سيَّما الضَّمير - إفهامُ المحبوب للضَّمير[5]، وضميرُ ﴿لَهُم﴾ عائدٌ إلى مجموعِ أنفسهم وأهليهم؛ أي: عائدٌ على المشركين المخاطبين في قوله: ﴿فَٱعْبُدُواْ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾، وهم المقصودون بقوله: ﴿ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ﴾.

الغرض من تقديم الخبر ﴿لَهُم﴾:

قدّم الجارَّ والمجرور ﴿لَهُم﴾ على ﴿ظُلَلٌ﴾، ولم يقلْ: (ظللٌ كائنةٌ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 248.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 499.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 361.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 499.
(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 477.

لهم)؛ لإفادةِ الاختصاص، فهذا العذابُ الشَّديدُ المحيطُ بهم خاصٌّ بمن لهم الخسرانُ الكاملُ الَّذي لا خسرانَ يساويه، وفي هذا زيادةُ تخويفٍ للنّاس أجمعين يجعلهم يحذرون أنْ يصيبهم ما أصابَ هؤلاء الخاسرين، وللتَّهكّم بهم؛ لأنّ اختيارَ لفظ ﴿لَهُم﴾ دون (عليهم) يعطيهم الأملَ ويوهمهم الرّاحةَ؛ فإنّ عادةَ اللّام عند مصاحبة المجرور - ولا سيَّما الضَّمير - إفهامُ المحبوبِ للضَّمير لا سيَّما مع ذكرِ الظُّلل، لكنّها تأتي من النّار، فتبدّدَ هذا الأمل[1]، وفي ﴿لَهُم﴾ ترشيحٌ لاستعارةِ الظُّلل للطَّبقة التي تعلو أهلَ النّار[2].

اختصاصُ العذابِ الشَّديد بمَن لهم الخسرانُ الكاملُ، تهكُّمًا بهم وتخويفًا للنّاس

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتها في ﴿مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٌ﴾ ابتدائيَّةٌ؛ أي: النّارُ تبدأُ مباشَرَةً مماسَّةً فوقَ رؤوسِ المشركين ملاصقةً لهم، ولو قال: (لهم فوقهم ظلل) لِما دلَّ على ذلك؛ إذ مِن الممكنِ أنْ تكونَ بعيدةً، وفي هذا دلالةٌ على شدّةِ العذاب؛ فالنّارُ قريبةٌ منهم[3]، بل هم محصورون في النّار من فوقهم ومن تحتهم.

النّارُ تبدأُ مباشَرَةً فوقَ رؤوسِ المشركين ملاصقةً لها

الغرض من الإضافة ﴿فَوۡقِهِمۡ﴾:

أُضيف الظَّرف ﴿فَوۡقِهِمۡ﴾ إلى أهلِ النّار، فدلّتِ الإضافةُ مع ﴿مِّن﴾ الابتدائيَّة على أنّ ظُللَ النّارِ ملاصقةٌ لهم مماسَّة تماسًّا مباشرًا لهم، وهذا فيه مزيدٌ من التَّخويف والتَّهديد والوعيد.

ظللٌ من النّارِ فوقَ أهلِ النّار مباشرة جزاءً لهم

الغرض من تنكير ﴿ظُلَلٌ﴾ وجمعها:

نكّرَ البيانُ الإلهيُّ لفظَ ﴿ظُلَلٌ﴾ وجمعه في قولِه تعالى: ﴿مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٌۚ﴾؛ لإفادةِ التّهويل والتّكثير وتفظيع شأنها وشرّها؛ أي: ظللٌ من النّار شديدةُ الهول، عظيمةٌ لا يُقادَرُ قدرُها، وفي هذا مزيدٌ من التّخويف.

للمشركين ظللٌ كثيرةٌ من النّار مهولةٌ عظيمةٌ لا يُقادَر قدرُها

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 477.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 362.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 477.

الظُّللُ التي فوقَ المشركين يومَ القيامة هي من النّارِ

معنى ﴿مِّنَ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ﴾ بيانيّة، أزالتِ الوهمَ والرّاحةَ الحاصل من جرّاء استعمالِ لفظ ﴿لَهُمْ﴾ ولفظ ﴿ظُلَلٌ﴾، فبيّنت أنّ هذه الظُّللَ هي من النّار، وذلك أنكأُ ممّا لو أفهمهم الشَّرّ من أوّل الأمر[1].

تشبيهُ الطَّبقةِ التي تحيطُ بأهلِ النّار بالظُّلَّة تهكُّمٌ بهم

الغرض من التَّعبير بالاستعارة التَّهكُّمية في قوله: ﴿ظُلَلٌ﴾:

كلمةُ ﴿ظُلَلٌ﴾ جمعُ ظلَّة، وهي شيءٌ مرتفعٌ من بناءٍ أو أعوادٍ مثل الصّفة يستظلُّ به الجالسُ تحته، مشتقّةٌ من الظِّلّ؛ لأنّها يكون لها ظلٌّ في الشّمس، وهي هنا في الآية في قوله: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٌۚ﴾ ليستْ مستعملةً في معناها الحقيقيّ، إنّما مستعملةٌ للغشاءِ والطَّبقةِ التي تعلو أهلَ النّار في نارِ جهنَّمَ بقرينة قوله: ﴿مِّنَ ٱلنَّارِ﴾، شُبِّهتْ بالظُّلّة في العلوّ والغشيان[2]، بدليل قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن جَهَنَّمَ مِهَادٞ وَمِن فَوۡقِهِمۡ غَوَاشٖۚ﴾ [الأعراف: 41]، وفي هذه الاستعارة تهكّمٌ بهم؛ إذ في لفظِ الظُّللِ إطماعٌ لهم بشيء من الرّاحة؛ لأنّهم يتمنّون ما يحجبُ عنهم حرّ النّار، ثُمَّ تأتي كلمةُ النّار تقضي على كلّ ما طمعوا به، ولذلك أخّرها؛ تهكّمًا بهم؛ لأنّه ليس للنّار ظُلل، بل هم في نارٍ شديدةٍ يريدون أنْ يستظلّوا من نارها بشيء، يبحثون عن أيِّ شيء، يعطيهم نسمةَ هواءٍ باردةً، فاللّهُ أرادَ أنْ يتهكّمَ بهم، "فعبّر عن طبقاتِ النّارِ بالظُّلل؛ إشارةً إلى أنّهم لا واقيَ لهم من حرّ النّار على نحو تأكيد الشَّيء بما يشبهُ ضدَّه"[3].

بلاغة التَّعبير بقوله: ﴿وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٌۚ﴾:

الإنسانُ يستظلُّ بشيء فوقه، فكيف يكون الظِّلُّ تحته؟! والجواب:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 477.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 362.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 362.

النّـارُ محيطةٌ بالكافرين لا يجدون منها خلاصًا ولا عنها فكاكًا

إمّا أنْ يكون التَّعبيرُ في الآية من بابِ المشاكلة؛ شُبِّهتِ النّارُ التي تحت أرجلهم بالنّار التي فوقَ رؤوسهم فكلتاهما تحرقُ، فكلتاهما ظلّة من النّار، ولأنّ ما تحت أرجلهم هو ظللٌ فوقَ آخرين ممّن دونهم؛ لِأنَّ جهنّمَ دَرَكاتٌ كثيرةٌ[1]، وإمّا أن يكون للمبالغة في شدّة العذاب، فالنّارُ محيطةٌ بهم ولا يجدون أيّ راحةٍ؛ ففي القَرارِ - كائنًا ما كانَ؛ وعَلى أيِّ حالٍ كانَ - نَوْعٌ من الرّاحةِ بالسُّكونِ؛ ولذا بَيَّنَ أنَّهم مُعَلَّقونَ في غَمَراتِ الِاضْطِرابِ؛ يُصْعِدُهُمُ اللَّهيبُ تارَةً؛ ويُهْبِطُهُمُ انْعِكاسُهُ عَلَيْهِمْ بِرُجوعِهِ إلَيْهِمْ أُخْرى؛ فلا قَرارَ لَهم أصْلًا؛ كَما يَكونُ الحَبُّ في الماءِ عَلى النّارِ؛ يَغْلي بِهِ صاعِدًا وسافِلًا؛ لا يَقَرُّ في أسْفَلِ القِدْرِ أصْلًا[2].

كما لا يخفى ما في الظَّرفين ﴿فَوۡقِهِمۡ﴾، و﴿تَحۡتِهِمۡ﴾ من الإشارةِ إلى إحاطةِ النّار بهم من جميعِ الجوانب، واتصالِ ما فوق بما تحت، واختلافِ جهاتِ العذاب، وتنوّع وسائله، وتعدّد طرقه، حتى انتهى إلى الإحاطةِ الشّاملة بهم، كأنهّم صاروا في قبضة الظُّلل النّارية، لا يجدون لهم خلاصًا، ولا عنها فكاكًا[3].

في الإطناب زيادةُ تهكّمٍ وغرابةٍ ومشاكلةٍ ومقابلة

بلاغة الإطناب في قوله: ﴿وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾:

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ بتكريرِ لفظ ﴿ظُلَلٞۚ﴾ في قوله: ﴿وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾، ولم يقلْ: (من فوقهم ظللٌ من النار ومن تحتهم) - رغم أنّه معلومٌ من السّياق، وهو القياس اللُّغويُّ في القرآن - زيادةً في التَّهكّم بهم؛ لأنّ الظُّللَ لا تكونُ إلّا للرّاحةِ لا للعذاب، ولكونِ الظُّلّة - المأخوذةِ من الظِّلّ - من تحت في غايةِ الغرابة، ولذا أعادَ ذكرها ولم يكتفِ بالأولى[4]، فدلّ على أنّ النّارَ أدراكٌ وهم بين أطباقها[5]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 362.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 477.
(3) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 155.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 477.
(5) ابن فورك، تفسير القرآن العظيم: 2/ 315.

أو لأجلِ المماثلة والمشابهة؛ لأنّ الظّلّةَ السُّفلى مشابهةٌ للظُّلّةِ العُليا في الحرارة والإحراق والإيذاء[1]، وكذلك لفائدةٍ أخرى وهي المشاكلةُ والمزاوجةُ والمقابلةُ بين عذابِ الجحيم والنَّعيم لأهلِ الجنَّة في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾.

بلاغةُ الإيجاز بحذف المتعلّق في قوله: ﴿وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾:

من بلاغةِ القرآن الإيجازُ والاختصار

حذفَ البيانُ القرآنيُّ المتعلّقَ في قوله تعالى: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾؛ إذ التقديرُ: (ومن تحتهم ظللٌ من النّار)؛ إيجازًا واختصارًا؛ لأنّه سبقَ في الكلام، ولفهمها في التَّحت من باب الأولى[2].

الغرض من فصل جملة ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ عن سابقتها:

استئنافٌ يهدّدُ بالوعيد ويبيّن الغايةَ من ذكرِ عذابِ أهلِ النّار

قولُهُ تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ إمّا تذييلٌ للتّهديد بالوعيد من قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، وإمّا استئنافٌ بيانيٌّ بتقدير سؤالٍ يخطرُ في نفس السّامع لوصف عذابهم بأنّه ظللٌ من النّار من فوقهم، وظللٌ من تحتهم؛ كأنّ يقول سائل: ما فائدةُ ذكرِ ما أعدّه اللّهُ لهم في الآخرة من عذابٍ بعد فواتِ تداركِ كفرهم؟ أو لِمَ كلُّ هذا الوصف يا ربّ؟ فأجيبَ: بأنّ اللّهَ جعل ذلك العذاب في الآخرة لتخويفِ عباده، وهم النّاس أجمعون حين يأمرهم بالاستقامة ويشرّعُ لهم الشّرائع؛ ليعلموا أنّهم إذا لم يستجيبوا للّه ورسله يكون ذلك عاقبتَهم[3].

الغرض من تقديم المسند إليه على خبره الفعليّ ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ﴾:

وعيدُ اللهِ بالعذابِ في النّار أمرٌ مؤكّدٌ متحقّقٌ في الآخرة

تقديمُ المسند إليه على الخبر الفعليِّ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾ مفيدٌ لتقوّي الحكم وتحقيقه وتوكيده، وهو تخويفُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 241.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 477.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 362.

اللّه تعالى عبادَه بالإخبارِ عن عذابِ النّار ووصفه لهم، فوعيدُ اللّه تعالى بالعذاب على الكفر والعصيان في الآخرة لا يكون إلّا صدقًا، وإذا اقتُهم إيّاه في الآخرة أمرٌ مؤكّدٌ متحقّق.

الغرض من التَّعبير باسم الإشارة مصحوبًا بلام البعد ﴿ذَٰلِكَ﴾:

جعلُ العذابِ الفظيعِ بمنزلة المحسوس أبلغُ في التَّخويف

﴿ذَٰلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾ إشارةٌ إلى ما وصف من الخسران والعذاب بتأويل المذكور[1]، وقد جَعَلَ اسمُ الإشارة هنا العذابَ الغائبَ في الآخرة بمنزلةِ الحاضرِ المشاهَد في الدُّنيا، وهذا أنفعُ في التّخويف به، وأنجعُ في التّأثير على المخاطب، وفي استعمال اسم الإشارة الّذي يُستخدم للبُعد إشارةٌ إلى علوّ أثرِ هذا الوصف أو العذاب في التّخويف، وإلى فظاعةِ هذا العذاب[2]؛ أي: ذلك الأمرُ العظيم الشّأنِ يخوّف اللّهُ به عباده[3]، ومن ثَمَّ تومئ هذه الإشارة إلى أنَّه ينبغي للإنسانِ أنْ يَسيرَ إلى اللّهِ ﷻ على جانبٍ من الخَوفِ مِن العذابِ، وأنْ يَخافَ ممّا خَوَّفَه اللّهُ؛ حتَّى يُحَقِّقَ العبوديَّة[4].

دلالة التَّعبير بالمضارع في قوله: ﴿يُخَوِّفُ﴾:

تخويفُ اللهِ عباده بما أعدّه للمشركين من العذاب مستمرٌّ متجدِّد

أتى بصيغة المضارع الدّالَّةِ على التَّجدّد والحدوثِ والاستمرار؛ للدّلالة على أنّ تخويفَ اللّه تعالى عبادَه من خلالِ وصفِ عذاب المشركين وما أعدّه لهم في جهنَّمَ مستمرٌّ، ويتجدّدُ كلّما قرأنا وعيدَ اللّه في هذه الآيات، كما أنّ المضارع يفيدُ تصويرًا لهذا التّخويف، ممّا يبعثُ في النُّفوس الإقبالَ على الطّاعةِ والإخلاصَ للّه.

الغرض من التَّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

الملكُ الأعظمُ الّذي صفاتُهُ الجبروتُ والكبر؛ عذابُهُ لا يُقادر قدْره

عبّر البيانُ الحكيم بالاسم الجليل في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾؛ تربيةً للمهابة، وزيادةً في تعظيمِ هذا الأمر المهول،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 363.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 248.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 478.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 141.

وهو عذابُ النّار المحيط بالكافرين والعاصين، وهم لا يرهبونه ولا يرجعون عن غيّهم؛ لأنّ الملكَ الأعظم الَّذي صفاتُه الجبروتُ والكبر عذابُه لا يُقادر قدْرُه ولا يُحدُّ حدُّهُ(1).

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾:

اهتمامٌ وتركيزٌ على المخوَّفِ به؛ لتفاديه والوقايةِ منه

ترتيبُ الكلام: (ذلك يخوّفُ اللّهُ عبادَه به)، ولكن قدّمَ الجارَّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على المفعول به ﴿عِبَادَهُۥ﴾؛ للتَّركيز والاهتمام والعناية بالمخوَّفِ به، وهو الخسرانُ وما أعدّه من عذابٍ لأهلِ النّار، وذلك لتفاديه والوقايةِ منه.

المرادُ بالعباد ودلالته في قوله: ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾:

التَّخويفُ من العصيان يعمُّ المؤمنَ والكافرَ، وينتفعُ به المؤمنُ فيتّقي الله

كلمةُ (عباد) المُضافةُ إلَى ضَميرِ الجَلالَةِ في المَوْضِعَيْنِ في قوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ تعمُّ كلَّ عبدٍ من النّاس من مؤمنٍ وكافرٍ؛ إذ الجميعُ يخافون العذابَ على العصيان، والعذابُ متفاوتٌ، وأقصاه الخلودُ لأهلِ الشِّرك، فالكافرُ لعلَّه ينزجر، والمؤمنُ لعلَّه يزدادُ إيمانًا ويخافُ من المعاصي، وذلك بدلالة المقام، وهو مقامُ التّخويف، ولأنَّ قرينة قوله: ﴿عِبَادَهُۥۚ﴾ تدلّ على أنّ المنادَين جميع العباد، ففرقٌ بينه وبين نحو: ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [الزخرف: 68](2)، وقيل: المراد المؤمنون؛ لأنّهم المنتفعون بالتّخويف، فإذا سمعوا أنّ حالَ الكفّارِ ما تقدّم خافوا فأخلصوا في التّوحيد والطّاعة، ولأنّ لفظ العباد في القرآن مختصٌّ بأهل الإيمان(3).

سرّ الإضافة في ﴿عِبَادَهُۥۚ﴾ و﴿يَٰعِبَادِ﴾:

العبوديَّةُ لله هي للتَّشريفِ والتّكريم والاختصاص

الإضافةُ في ﴿عِبَادَهُۥۚ﴾ و﴿يَٰعِبَادِ﴾ إلى اللّه سبحانه في قوله تعالى: ﴿يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ للتَّشريفِ والتَّكريم

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 478.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 363.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 13/ 241، ومجمع البحوث، التفسير الوسيط: 8/ 548.

والاختصاص؛ أي: عبدًا جليلَ الشَّأنِ ممّن اختُصَّ بنا وشُرِّفَ بالإضافةِ إلينا، فالإضافةُ إضافةُ تشريفٍ لا إضافةُ تعريفٍ؛ لأنّ وصفَ العبوديّة للّه متحقّقٌ لسائرِ المخلوقات، فلا تفيدُ إضافته تعريفًا[1].

موقع جملة ﴿يَٰعِبَادِ﴾ ممّا قبلها ودلالته:

أمرُ النّاس بالتَّقوى للتّفادي من العذابِ الّذي أُعدّ لأهلِ العصيان

جملةُ ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ تَفْريعٌ وتَعْقيبٌ للتّحذير في جُمْلَةِ ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ﴾؛ للإلفاتِ إلى طريقِ السَّلامة والنّجاة من هذا البلاء الرّاصد، وذلك بتقوى اللّه؛ لِأَنَّ التَّخْويفَ مُؤْذِنٌ بِأَنَّ العَذابَ أُعِدَّ لِأَهْلِ العِصْيانِ، فناسَبَ أَنْ يُعَقِّبَ بِأَمْرِ النّاسِ بِالتَّقْوَى لِلتَّفادي مِنَ العَذابِ[2]، فلمّا أهّلهم للإضافة إليه وخوّفهم سَطَواتِه؛ أقبلَ عليهم عند تهيئتهم للاستماع منبّهًا على أنّه تخويفُ استعطاف[3].

الغرض من النِّداء بـ(يا):

إشعارٌ بأهمّيّة الخطابِ وتنبيهٌ لهم على أنّه تخويفُ استعطافٍ

(يا) حرفُ نداءٍ وضعَ في أصله لنداءِ البعيد، فإذا نودي به القريب؛ فذلك للتَّأكيدِ المُؤْذِنِ بأنّ الخطابَ الَّذي يتلوهُ معنيٌّ به جدًّا؛ أي: إعلانًا وتنبيهًا، ولمراعاةِ مقام الرُّبوبيّة الرَّفيع في الأمر والنَّهي والتّوجيه، إذْ هو سبحانه العليُّ الأعْلَى، وللإشارةِ إلى أنّ من شأنِ الإنسان أنْ ينسى ويغفلَ وينشغلَ بالدُّنيا فيحتاج إلى التّنبيه، فكان هذا تنبيهًا لهم أنّ تخويفهُ لهم هو تخويفُ استعطافٍ.

سرُّ التَّعبير بالمنادى المضاف (عِبادِ) مع بيان سرّ حذف ياء المتكلّم:

موعظةٌ من ربّ كريمٍ منطويةٌ على غايةِ اللُّطفِ والرَّحمة

جاء التَّعبيرُ بالمنادى المضاف لياء المتكلِّم المحذوفة - وهو أكثرُ أنواع المنادى في القرآن - في قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾؛ أي: (يا عباد اللّه)؛ والخطاب في الأصل: (قل لعبادي الّذين آمنوا)، ولكنّه كلّفَ النَّبيّ ﷺ تبليغهم بأنْ يناديهم باسم اللّه، فالنِّداءُ في حقيقته من اللّه،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 15/ 12.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 363، والخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1135.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 478.

فنداءُ اللّه تعالى عباده مضيفًا إيّاهم إلى ضميره؛ تلطّفٌ ورحمة ورأفة بهم واستعطافٌ لهم، فهذه موعظةٌ من اللّه بالغةٌ، منطويةٌ على غايةِ اللُّطف والرَّحمة والمنَّة والفضلِ منه سبحانه على عباده[1]؛ وهو نداءٌ من ربّ كريم ليأخذوا طريقهم إليه سبحانه، حيث الأمنُ والسَّلامةُ والنَّعيمُ والرِّضوان[2]، كما أنّ التَّعبيرَ بالمنادى المضاف يفيدُ الخصوصيَّة، فيشيرُ إلى معنى: أنّ من خصوصيَّةِ عبادي أنْ يتّقوني دون من سواي، وحُذفتْ ياءُ المتكلّم في (عباد) إذ أصلها (عبادي)؛ اتّباعًا لرسمِ المصحف، وحذفُها - على أحدِ وجوهٍ خمسةٍ في المنادى المضاف إلى ياءِ المتكلِّم - هو الأفصح، وهي لغةُ القرآن والأكثرُ استعمالًا[3].

سرّ تقديم النِّداء ﴿يَٰعِبَادِ﴾ على الأمر ﴿فَٱتَّقُونِ﴾:

تهيئتُهم لتلقّي الأمرِ بالتَّقوى؛ استعطافًا وتحبُّبًا للإقبالِ على العبادة

ورَدَت صيغةُ الأمرِ في تعبيراتٍ قرآنيَّةٍ متقدِّمةً على النِّداء، كقوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٧﴾ [البقرة: 197]، ولكنّه هنا قدّمَ النِّداءَ على الأمر؛ لجذبِ المشركين ولتحبيبهم في العودةِ والعبوديَّة، ولموافقةِ فواصل الآيات، ولأنّ المقامَ هنا مقامُ تحذيرٍ وترهيب، فهو جديرٌ باسترعاء ألبابِ المخاطبين إلى ما سيردُ مِن بَعْدُ من التّفريع على التّخويف[4]، فأتى بالنِّداءِ منبّهًا لتهيئتهم للاستماعِ إلى خطابهم بالأمرِ بالتَّقوى؛ للوقاية ممّا حذّرهم منه من العذاب.

معنى الفاء ودلالتها في قوله: ﴿فَٱتَّقُونِ﴾:

التَّعقيبُ بالأمرِ بالتَّقوى للتّفادي من العذاب

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ للتَّفريع والتَّعقيب لجملةِ ﴿ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥۚ﴾؛ لأنّ التّخويفَ مؤذنٌ بأنّ العذابَ أُعدّ لأهلِ العصيان؛ فناسبَ أنْ يُعقبَ بأمرِ النّاس بالتّقوى للتّفادي من العذاب[5].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 248، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 62.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1135.
(3) السَّمين، الدر المصون: 1/ 359، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 2/ 442.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 363.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 363.

الغرض من فعل الأمر ﴿فَٱتَّقُونِ﴾:

تقوى الله واجبةٌ على العبادِ للوقايةِ ممّا يسخطه

الأمرُ في قوله تعالى: ﴿يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ﴾ أمرٌ حقيقيّ يفيدُ الوجوب؛ طُلبَ فيه فعلُ التَّقوى من جميعِ النّاسِ مؤمنِهم وكافرِهم على وجهِ الاستعلاءِ من اللّه تعالى؛ ليتسبّبَ عن هذا الأمرِ أنْ يجعلوا بينهم وبين ما يُسخطُ اللّه وقايةً ممّا يرضيه ليرضى عنهم[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الظِّلّ والسَّقف:

ظِلُّ النّارِ أغشيةُ عذابٍ في صورةِ الظِّلِّ الّذي يغمرُ مَن تظلّلَ به لا تفارقه

الظِّلُّ: هو ضوءُ شعاعِ الشَّمس إذا استترَ عنك بحاجز؛ أي: يُقال لكلّ موضعٍ لا تصلُ إليه الشَّمس[2]، وأصله يدلّ عَلَى سَتْرِ شَيْءٍ لِشَيْءٍ[3]، بينما السَّقفُ هو كلُّ ما علاك من مظلّة ونحوها[4]، وأصْله يَدُلُّ على ارْتِفاعٍ في إطْلالٍ وانْحِناءٍ، ومِنه سَقْفُ البَيْتِ؛ لِأَنَّهُ عالٍ مُطِلٌّ[5]، فهو أعلاه المقابلُ لأرضه، فالسَّقفُ: غِماءُ البيتِ، والسَّماء سَقفٌ فَوق الأرْض[6]، وقد ناسبَ استعمال لفظ الظُّلل مع النّار في الآية دون السَّقف، للدّلالةِ على قربها من أصحاب النّار؛ فهي تسترهم، وتحيطُ بهم، ومن المعلوم أنّ ظلَّ الشَّيء لا يفارقه، وظللُ النّار أغشيةُ عذابٍ في صورة الظِّلِّ الّذي يغمرُ مَن تظلّلَ به[7].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 478.
(2) الجوهري، الصحاح، والسَّمين، عمدة الحفاظ، ومجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (ظلل).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظل).
(4) السَّمين، عمدة الحفاظ: (سقف).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سقف).
(6) الأزهري، تهذيب اللغة، والمعجم الوسيط: (سقف).
(7) جبل، المعجم الاشتقاقي: (ظلل).

﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٨﴾ [الزمر: 17 - 18]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

اقـتـرانُ الـوعـدِ بـالـوعـيـد؛ لـيـحـصـلَ كـمالُ التّرغيب والتّرهيب

لما انتهى تهديدُ المشركين وموعظةُ الخلائقِ أجمعين؛ ثُنيَ عَنانُ الخِطابِ إلى جانب المؤمنين فيما يختصُّ بهم من البشارةِ مقابلةً لنذارةِ المشركين[1]؛ أي: لمّا ذكر ما أُعِدَّ لمن عبدَ الطاغوت من العذاب؛ عطفَ عليه أضدادهم؛ ليقترنَ الوعدُ بالوعيد، فيحصلَ كمالُ التَّرغيب والتَّرهيب، فقال: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ الآية[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱجۡتَنَبُواْ﴾: (جنب) أَصْلانِ مُتقارِبانِ أحدُهما: النّاحيةُ، والآخرُ البُعدُ[3]، ومِنْهُ الجَنْبُ، والجانِبُ، والجَنَبةُ: شِقُّ الإنسانِ وغيرِه، ومِنْ كَوْنِ الجَنْبِ ناحيةً خارجيَّةً جاءَ معْنى البُعدِ والإبعادِ[4]، وجنَّبَه الشَّيءَ تجْنيبًا؛ أيْ: نحّاهُ عنه وجعلَه ناحيةً منه وجانبًا، وكذلك جنَّبتُه، وقولُه تعالى: ﴿وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النَّحل: 36]؛ أي: اتْرُكوه بالكلّيَّة[5]، فالاجْتِنابُ المرادُ في الآيَةِ ﴿ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ أنْ يَكونَ العَبْدُ في ناحيةٍ بَعيدًا عَنِ الطّاغوت.

2) ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾: الطّاءُ والغَيْنُ والحرفُ المعتلُّ، أَصْلٌ صحيحٌ مُنْقاسٌ، وهو مجاوَزةُ الحَدِّ[6]، وكُلُّ شيءٍ جاوَزَ حَدَّه حَتّى غَطّى ما

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 363.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 478.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (جنب).
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (جنب).
(5) الرّاغب، المُفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جنب).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (طغي).

حَوْلَهُ فقد طغى[1]، والطَّغْوَى، والطّاغيةُ: الجبّارُ العنيدُ[2]، والطّاغوتُ يُطْلَقُ على كُلِّ مَعْبودٍ مِنْ حَجَرٍ أو صورَةٍ أو شيطان، والطّاغوتُ من الإِنْس والجنِّ: شَياطينُهم، وكلُّ رأْس ضَلالٍ صارِفٍ عَن طريقِ الخيْرِ، وجِماع مَعْنَى الطّاغوت: أَنَّهُ كُلُّ ما تَجاوَزَ به العَبْدُ حدَّهُ من مَعْبودٍ أو مَتْبوعٍ أو مُطاعٍ[3]، والمراد بالطّاغوت هنا جماعةُ الأصنام[4]، أو الشَّيطانُ[5]، أو كلُّ ما عُبِد من دون اللّه[6].

3) ﴿وَأَنَابُوٓاْ﴾: (نوب) أصل يدُلُّ على اعْتيادِ مَكانٍ والرُّجوعِ إِلَيْهِ[7]، والإنابةُ: الرّجوعُ عن مُنكرٍ بالتّوبة وإخلاصِ العمل، وسُمّي النّحلُ نَوْبًا؛ لرجوعها إلى مقارّها[8]، والمَقْصود بالإنابَةِ في الآيَة: التَّوْبةُ إلى اللّهِ من كلّ ذنبٍ ومعصية، والرُّجوعُ إلى الإقرار بتوحيده والعمل بطاعته والبراءة ممّا سواه من الآلهة والأنداد[9].

4) ﴿ٱلْبُشْرَىٰۚ﴾: البشرى اسم من البشارة، وهي الإخبارُ بما يسرُّ، ولا يقعُ في الشَّرِّ إلّا على سبيلِ التَّهكُّم، فإذا أطلقتْ فالبشارةُ بالخير، والنِّذارةُ بغيره، وقيل: تستعملُ في الخير والشَّرِّ؛ لأنَّ البشارة: خبرٌ يتغيَّر له البشر، وأصلُ البُشرى: ظهورُ الشَّيءِ مع حُسنٍ وجمالٍ، وذلك يكون في الشَّرِّ، كما يكون في الخير، والمعنى هنا: خَبَرٌ بِحُصولِ ما فيهِ نَفْعٌ ومَسَرَّةٌ لِلمُخْبَرِ بِهِ[10]، والمراد بها هنا البشرى بالجنّة عند الموت وفي القبر وعند القيام من القبور[11].

5) ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾: الأصلُ في السَّمع: قوَّةٌ في الأُذن تُدرِكُ بها المسموعاتُ، وفِعلُه يُقال له السَّمْعُ أيضًا، يُعبَّرُ تارةً بالسَّمع عنِ الأذن نحو: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ﴾ [البقرة:

(1) جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (طغو - طغي).
(2) الخليل، العين: (طغو - طغي).
(3) الرّاغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيديّ، تاج العروس: (طغَى).
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 364.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 273.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 433.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نوب).
(8) الرّاغب، المفردات، وأبو حيّان، تحفة الأريب: (نوب).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 273، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 365.
(10) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللغة، وابن عبّاد، المحيط: (بشر).
(11) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 365، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 476.

7، وتارةً عن فِعله كالسَّماع، نحو: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ ۝٢١٢﴾ [الشّعراء: 212]، وتارةً عن الفَهم، وتارةً عنِ الطّاعة، تقول: اسمَعْ ما أقول لك، ولم تَسمَع ما قلتُ، وتعني: لم تفهم[1]، والاستِماعُ: الإصغاءُ، نحوَ: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: 47][2]، والمراد بقوله: ﴿يَسْتَمِعُونَ﴾: فعل السَّمع؛ أي: يستمعون القول من كلّ قائل[3].

6) ﴿ٱلْقَوْلَ﴾: القولُ هو الكلامُ على التّرتيب، أو اللّفظ الموضوع لمعنى[4]، و"القولُ منَ النّطقِ، يُقالُ: قالَ يقولُ قولًا، والـمِقوَلُ: اللِّسانُ، ورجلٌ قوَلَةٌ وقوّالٌ: كثيرُ القولِ"، ويُطلق القولُ على الكلام أيضًا[5]، وهناك استعمالات أخرى للقول كالاعتقاد، والدّلالةِ على شيء، والعنايةِ الصّادقة بالشّيء، وكذلك الحدّ والإلهام، ومن أظهر استعمالات القول: "أنْ يكون للمركَّب من الحروف الـمُبرَز بالنّطق، مفردًا كان أو جملة"[6]، ومعنى القول هنا موافقٌ للمعنى اللُّغويِّ؛ أي: الكلام.

7) ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾: (تبع) أصلٌ يدل على التُّلوّ والقَفْو، يُقالُ: تَبِعْتُ فُلانًا؛ إذا تَلَوْتَهُ واتَّبَعْتَهُ، وأَتْبَعْتُهُ؛ إذا لَحِقْتَهُ، والاتِّباعُ: اقتفاءُ الأثَرِ، وقد يكونُ الاتّباعُ بالجِسم، نَحوَ: تَبِعْتُه في الطَّريقِ واتّبعتُه فيها، وتارَةً بالامتِثالِ[7]، والمعنى المحوريُّ: هو لُحوقُ الشَّيء بمتقدِّم أو سابقٍ بلا فَصْلٍ مع رقَّة ولين، وقد يكون الاتّباعُ حسّيًّا؛ كمن يتَّبعُ خطواتٍ وعلامات محدَّدة، وقد يكون معنويًّا مثل: اتَّبَعَ القرآنَ؛ أي: ائتمَّ به، وعَمِلَ بما فيه، كأنَّ القرآن أمامه، وهو يَتْبعه، ويَتَهيَّأ بهيئته الَّتي يرسُمها[8]، وهذا المعنى الأخير هو المراد في الآية.

8) ﴿أَحْسَنَهُۥٓ﴾: الحُسْنُ ضدّ القُبْحِ[9]، والحُسْنُ: نَعْتٌ لما حَسُن، والحُسْنُ: الجَمالُ[10]، والحَسَنَةُ: ضدّ السَّيِّئَة، والإحْسانُ: ضدّ الإساءَةِ، والحَسَنُ: ما حَسُنَ من كلِّ شيءٍ،

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفّاظ: (سمع)، والمناويّ، التّوقيف على مهمّات التعاريف، ص: 197.
(2) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفّاظ، والزّبيديّ، تاج العروس: (سمع)، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 5/ 19.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 433.
(4) جبل، المعجم الاشتقاقي: (قول).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (قول).
(6) الرّاغب، المفردات: (قول).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسَّمين، عُمدة الحُفّاظ: (تبع).
(8) جبل، المعجم الاشتقاقي: (تبع).
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(10) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس: (حسن).

ويُقال: الأَحْسَنُ على إرادَةِ أَفْعَلِ التَّفْضيلِ[1]، فالأَحْسَنُ: الأَفْضَل[2]، والحُسْنُ: عبارة عن كلّ مبهجٍ مرغوب فيه، وذلك ثلاثة أضرب: مستحسنٌ من جهة العقل، ومستحسنٌ من جهة الهوى، ومستحسنٌ من جهة الحسّ، والحُسْنُ أَكْثَر ما يقالُ في تَعارفِ العامَّةِ في المُسْتَحْسَن بالبَصَرِ، وأَكْثَر ما جاءَ في القُرْآن في المُسْتَحْسَن مِن جهَةِ البَصيرَةِ[3]، ومعنى ﴿أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ في الآية: أرشده وأهداهُ، وأدلّهُ على توحيدِ اللّه، والعمل بطاعته[4].

المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ ما أعدَّ اللهُ للذين اجتنبوا الشِّركَ وأنابوا إلى الله بأنّ لهم البشرى

يبيِّنُ اللّه تعالى ما أعدَّه للمتَّقينَ الَّذين ابتَعدوا عن عبادةِ الشَّيطان وكُلِّ ما يُعبَدُ مِن دونِ اللّهِ تعالى، وتابوا إلى اللّهِ ورجَعوا إلى الإقرارِ بتوحيده، والعملِ بطاعته، والبراءةِ مما سواه من الآلهةِ والأنداد، ويَعِدُهم بأنّ لهم البُشرى في الدُّنيا والآخِرةِ؛ ويخاطبُ النَّبيّ ﷺ أنْ بَشِّرْ عبادَ اللّه، الَّذين يَستَمِعونَ القَولَ فيَتَّبِعونَ أحسَنَ ما فيه، فأولئك المنعوتون بتلك المحاسنِ الجميلة هم الَّذين أرشَدَهم اللّهُ ووفَّقَهم، وأولئك هم أصحابُ العُقولِ الصَّحيحةِ[5].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة العطف في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ﴾:

عطفٌ يُظهرُ المغايرةَ بين ما أعدّه اللهُ للمؤمنين وما أعدّه للمشركين

عطفَ البيانُ القرآنيُّ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ على قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَأَهۡلِيهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾؛ لبيانِ المغايرةِ بين ما أعدّه اللّهُ للمؤمنين الَّذين اجتنبوا الطّاغوت، وأنابوا إلى اللّه

---

(1) الفيروزابادي، القاموس المحيط: (حسن).
(2) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (حسن).
(3) الراغب، المفردات: (حسن).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 273.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 273، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 63.

من البشارةِ بالجنّة، وما أعدّه للمشركين الَّذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة[1].

استحقاقُ المؤمنين للبشرى؛ لاجتنابهم عبادةَ الطّاغوت وإنابتهم إلى الله

الغرض من التَّعبير بالاسم الموصول (الذين):

أوثِرَ التَّعبيرُ بالاسم الموصول (الذين) عن المُؤمِنينَ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ لِما في الصِّلةِ مِنَ الإيماءِ إلى وجهِ بناءِ الخَبَرِ، وهو ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾[2]، ووجهِ استحقاقهم لها؛ أي: أكرمهم اللّهُ بالبشرى؛ لاجتنابهم عبادة الطّاغوتِ، ولإنابتهم إلى اللّهِ سبحانه، ولإفادته المدحَ والتّعظيم.

المبالغةُ في البعدِ عن الطّاغوت وكأنّهم جعلوه في ناحيةٍ أخرى غير ناحيتهم

دلالة التَّعبير بـ﴿ٱجۡتَنَبُواْ﴾ مادَّةً وصيغةً:

عبّر البيانُ القرآنيُّ بلفظ ﴿ٱجۡتَنَبُواْ﴾ دون ابتعدوا؛ لكونه أبلغَ في المعنى؛ لأنَّ الجنبَ يجمعُ بين معنى النّاحية والبُعد، وجنّبهُ الشَّيءَ: نحّاه عنه وجعله ناحيةً منه وجانبًا[3]؛ فالتَّعبيرُ بالاجتناب هنا لم يدلّ على مجرّدِ البُعد عن الطّاغوت، وإنّما جعله في ناحيةٍ أخرى غير ناحيته[4].

وأتى بالفعل الماضي؛ للدّلالة على التَّحقّق والوقوع، فهم اجتنبوا الطّاغوت حقيقة، كما أنّه لم يقلْ: (جانبوا الطّاغوت)، وإنما عبّر بلفظ اجتنبَ على وزن افتعل، للدّلالة على زيادة المعنى، وفي فعلهم تفعّلٌ وتكلّفٌ ومشقّة ومجاهدةٌ لتجنّب طريق الطّاغوت، والمعنى: "كلّفوا أنفسهم ذلك؛ لِما لها في الانسياق إليه من الهوى مع تزيين الشَّيطان، وقد قال ﷺ: «حُفّتِ النّارُ بالشّهوات»"[5]، وهذا فيه امتداحٌ لهؤلاء المؤمنين، وإشارةٌ لسببِ ما أعدّه اللّهُ لهم من نعيمٍ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 364.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 364.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (جنب).

(4) ابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 142.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 478.

إيثار التَّعبير بلفظ ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾:

من بلاغةِ القرآن إيصالُ المعنى المراد باللَّفظِ الجامع

اختلفَ المفسِّرون في المراد من ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ في الآية على معانٍ، منها: الشَّيطان[1]، وجماعةُ الأصنام[2]، وغير ذلك، ولو عبّر بأحدِها لَما شملَ باقيَ المعاني، ومن ثَمّ تظهرُ بلاغةُ اختيارِ لفظِ الطّاغوت؛ لِما يحويه من العموم والتّعليل؛ أمّا العمومُ فهو اشتماله على جميع ما عُبِدَ من دون اللّه[3]؛ وأمّا التَّعليلُ فلتضمُّنه معنى تجاوز الحدِّ، بما يشيرُ إلى حكمةِ التّحذير منه، ولما في لفظ الطّاغوت - باعتبار أنَّ معناه الشَّيطان - من وُجوه المُبالَغةِ من حيث البناء؛ فإنّ صيغة (فَعَلوتٌ) للمبالغة؛ أي: البالغ أقصى غايةِ الطُّغيانِ، كالرَّحَموتِ، وهي الرَّحمةُ الواسِعةُ، وكالمَلَكوتِ؛ وهو المُلْكُ الواسِع، ومن حيث التّسمية بالمصدر كأنّ نَفْسَ الشَّيطان طُغيانٌ، وتَقديمُ لامِه على عَينِه[4]؛ ليُفيدَ اختِصاصَه بهذه التَّسميةِ[5].

معنى اللّام في ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾:

اللّام في ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾ جنسيَّةٌ، تشملُ كلّ معبودٍ سوى اللّه؛ كالشَّيطان والأصنام وما يشبههما، وتشملُ كلّ مَن أمرَ أنْ يعبده النّاسُ، فهو طاغوت مثل فرعون.

سرّ إيراد المصدر المؤوّل بدلًا من المصدر الصَّريح:

لشدّةِ اجتنابِهم لعبادةِ الطّاغوت واستمرارِهم على ذلك استحقّوا البشرى

جيءَ بالمصدر المؤوّل ﴿أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ دون الصّريح؛ إذ لم يقلْ: (واجتنبوا عبادة الطّاغوت)؛ لإفادةِ اعتبارٍ من شأنه أنْ يقوّيَ المعنى، ويزيدَ توكيده، وذلك لأنّ المصدرَ المؤوّلَ جعلَ الكلامَ صالحًا لدخولِ الفعلِ المضارع ﴿يَعۡبُدُوهَا﴾ على الجملة، وقد أعطتْ صيغة المضارع من التَّجدّد والحدوث والاستمرارِ ما يدلُّ على شدّةِ اجتنابِ المؤمنين

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 273.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 364.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 433.
(4) السَّمين، عمدة الحفاظ: 2/ 407.
(5) الزمخشري، الكشاف: 4/ 120، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 248.

لعبادةِ الطّاغوت واستمرارهم على هذا الاجتناب، واستحقاقهم لهذا الفضلِ الكبير.

سرّ التَّعبير بالضَّمير العائد على الطّاغوت مؤنَّثًا ﴿يَعۡبُدُوهَا﴾:

فـي تـأنـيـثِ الطّاغوت تنفيرٌ من عبادةِ أصنامٍ غير عاقلةٍ

الطّاغوتُ يُذكّر ويؤنّث، وقد جاء التَّعبيرُ بالضَّمير العائدِ على الطّاغوت مؤنَّثًا في قوله: ﴿أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ باعتبارِ أنّه جمعٌ لغيرِ العاقل؛ وليترجّح عودهُ على جماعةِ الأصنام، بدلالةِ كون سياقِ الحديث عن المشركين، وعبادتهم للأصنام، وإنْ كان الطّاغوتُ يطلقُ على كلّ ما يُعبد من دون اللّه، كما أنّ في تأنيثِ الطّاغوت إثارةً لمشاعرِ البغضاءِ والكراهية، التي عند الجاهليّين للأنثى؛ ليلتقوا بهذه المشاعر مع معبوداتهم، ولينظروا إليها في صورةِ أنثى يعبدونها، ويخرّون للأذقانِ سجّدًا بين يديها، فتظهرَ المتناقضاتُ التي تعيشُ في عقولهم الفاسدة؛ إذ كيف يستقيمُ لذي عقلٍ أنْ يُحقِّرَ الأنثى ويكرهَ وجهها فى صورةِ ابنةٍ هي فلذةٌ من كبده، ثم إذا هو عبدٌ ذليلٌ بين يدي أنثى سوّاها بيدهِ من حجر، أو خشب[1]؟! وهذا فيه من التَّنفيرِ ما فيه.

دلالة العطف في قوله: ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾:

الـبـشـرى لمن جـمـعَ بـين اجتنابِ عبادةِ الـطّـاغـوت والإنابةِ إلى الله

جملةُ ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا﴾ فكلاهما امتداحٌ للمؤمنين، فلمّا ذكرَ اجتنابَ الشِّرك، أتبعهُ التزامَ التَّوحيد، فمن جمعَ الأمرين من المؤمنين استحقّ البشرى، فقوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ خبرٌ للجملتين قبله: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾.

الغرض من تقديم فعل اجتناب الطّاغوت على الإنابة إلى الله:

قدّم البيانُ الحكيمُ اجتنابَ المؤمنين للطّاغوت على إنابتهم إلى اللّه؛ مراعاةً للتّرتيب الواقعيِّ، ومن بابِ تقديم التّخلية على

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1137.

التّحلية؛ أي: فرّغوا قلوبهم من الشِّرك، ثمّ أنابوا إلى اللّه وأقبلوا عليه بكلّيَّتِهم؛ إذ لا فائدة من الإنابةِ إلى اللّه إذا كانوا ما يزالون يعبدون الطّاغوت، وليصفَهم بالصّفتين؛ إذ لو قال: أنابوا إلى اللّه واجتنبوا الطّاغوت، لقال قائل: إنابتهم إلى اللّه أدَّتْ بهم إلى اجتنابِ الطّاغوت، وهذا غير صحيح؛ فهم اجتنبوا الطّاغوت أوَّلًا، وأحرزوا الأجرَ العظيم بتوحيدِ اللّه، ثمَّ ازدادوا إنابةً وتوبةً، وهذا أسلوبُ التَّرقّي؛ إذ لا يصحّ أنْ ينيبَ إلى اللّه من هو عابدٌ للطّاغوت.

التَّخليةُ قبل التَّحلية، فلا تصحُّ الإنابة إلى الله قبل اجتنابِ الطّاغوت

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿وَأَنَابُوٓاْ﴾:

عبّر بالفعل الماضي في قوله: ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ للدّلالة على تحقّقِ وقوعِ الإنابة منهم والرُّجوع إلى اللّه، فهم قد "رجعوا رجوعًا عظيمًا أزالوا فيه النّوبةَ، وجعلوها إقبالةً واحدة لا صرف فيها"[1]، فمن تحقّق منه ذلك فله البشرى.

البشرى لمن تحقّقت منه الإنابةُ إلى الله بعدَ اجتنابِ الطّاغوت

سرُّ إسناد الأفعال إلى واو الجماعة في (اجتنبوا - يعبدوا - أنابوا):

أسند البيان القرآنيّ الأفعال (اجتنبوا - يعبدوا - أنابوا) إلى واو الجماعة في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰۚ﴾؛ لتطابقَ أفعالُ الصِّلة الاسم الموصول (الَّذينَ) في إرادة العموم، ولتتناسبَ مع الضَّمائر في الآيات التي قبلها وبعدها، فمعظمها جاء بصيغة الجمع، وللإشارة إلى كثرةِ المؤمنين الَّذين اجتنبوا عبادة الطّاغوت وأنابوا إلى اللّه، واجتمعوا على إخلاص العبادة للّه وحده، وفي هذا ترغيبٌ في الإقبال على عبادةِ اللّه ونبذِ الشِّرك؛ ليستحقَّ البشرى كما استحقّوها.

بيانُ كثرة المجتنبين للطّاغوت والمنيبين إلى الله؛ ترغيبًا في الإقبالِ على ذلك

معنى ﴿إِلَى﴾ ودلالتها في ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾:

جاء التَّعبيرُ بحرف الجرّ ﴿إِلَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لِما فيه من الدّلالة على انتهاءِ الغايةِ إلى اللّه ﷻ، فتوبتُهم

غايةُ ما يرجوه المؤمنُ هو الرُّجوعُ إلى الله وإخلاصُ العبادة له وحده

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 479.

ورجوعهم انتهى إلى اللّه سبحانه لا إلى غيره، وقصروا هِمَمَهم على اللّه وحده، وكان غايةَ ما يرجونه الرُّجوعُ إليه سبحانه والإقبالُ عليه بالعبادةِ والطّاعة والإخلاص له دون غيره، فاستحقّوا البشرى على ذلك.

الغرض من التَّعبير بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾:

بَوْنٌ شاسعٌ بين عبادةِ المحيطِ بصفاتِ الكمال وعبادةِ البالغِ الحدَّ في الطُّغيان

أتى البيانُ القرآنيّ بالاسمِ الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾؛ لتربيةِ المهابة في النّفوس، ولتتحقّقَ المقابلةُ بين اللّهِ سبحانه الجامعِ لكلّ صفاتِ الجلال والجمال المستحقِّ للعبادة، "المحيطِ بصفاتِ الكمال فلا معدلَ عنه"[1]، وبين من تجاوزَ الحدَّ في الطُّغيان، وعُبدَ من دون اللّهِ وهو ﴿ٱلطَّٰغُوتَ﴾، فيظهرُ البونُ الشّاسعُ بين الشِّركِ والإيمان، فالذين رجعوا إلى اللّهِ وأقبلوا عليه بكلّيَّتهم بعدما اجتنبوا الطّاغوتَ وابتعدوا عنه وجعلوه في ناحيةٍ أخرى غيرِ ناحيتهم استحقّوا أنْ تكون لهم البشرى دون غيرهم.

علّةُ فصلِ جملةِ ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ عمّا قبلَها:

إخبارُ اللهِ تعالى بالبشرى للذين اجتنبوا الطّاغوت وأنابوا إليه

فَصَل البيانُ الإلهيّ جملةَ ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ عمّا قبلها، ولم يأتِ بالعاطف؛ لِما بينَهما من كمالِ الاتّصال؛ إذ جاءتْ خبرًا للمبتدأ ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ﴾[2]، فلمّا ابتدَأ سبحانه بذكرِ المؤمنين الَّذين اجتنبوا الطّاغوتَ وأنابوا إلى اللّه؛ انتظرَ السّامعُ ما سيخبرُ اللّهُ عنهم، وما أعدّ لهم، فجاء الجوابُ: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾.

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمُ﴾ على ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾:

البشرى مقصورةٌ على مَن اجتنبَ عبادةَ الطّاغوت وأقبلَ بكلّيّته على الله

تَقديمُ الخبر ﴿لَهُمُ﴾ على المبتدأ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾؛ لإفادةِ القَصر، وهو مثلُ القصر في ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ أي: قَصرُ صِفةٍ على مَوصوفٍ، وهو

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 479.

(2) المنتجب، الكتاب الفريد: 5/ 452، وصافي، الجدول: 23/ 165، ودعّاس، إعراب القرآن: 3/ 135.

قَصرٌ إضافيٌّ[1]، فلهم البشرى لا لغيرهم، ولا بشارةَ لأحدٍ إلّا إذا اجتنبَ عبادةَ غيرِ اللّه تعالى، وأقبلَ بالكلّيَّة على اللّه تعالى[2].

معنى اللّام في قوله: ﴿لَهُمُ﴾:

هم يستحقّون البشرى على اجتنابهم عبادةَ الطّاغوت وإنابتِهم إلى الله

لامُ ﴿لَهُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ حرف جرّ معناه الاختصاص والاستحقاق والمنفعة، فهم يستحقّون البشرى على اجتنابهم عبادةَ الطّاغوت والإنابة إلى اللّه، وهذه البشرى مختصّة بهم دون غيرهم، فحصولُ البشرى لهم يدلّ على نهايةِ الكمالِ والسّعادة لهم؛ لكونها صادرةً من السُّلطانِ العظيم سبحانه[3].

الغرض من تعريف ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾:

البشرى من اللهِ بتمامها لمن اجتنبَ الطّاغوت وأنابَ إلى الله

الألف واللّام في لفظ ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ مفيدٌ للماهيّة؛ فيفيدُ أنّ هذه الماهيّة بتمامها لهؤلاء، ولم يبقَ منها نصيبٌ لغيرهم[4]، فهي بشرى عظيمة لا يُقادِرُ قدْرَها، ولا يَعلَمُ وصفَها إلّا من أكرمهم اللّهُ بها[5].

نكتة عدم تقييد ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾:

كلّ المبشّرات في الدُّنيا والآخرة لمن اجتنبَ الشِّركَ وأقبلَ على الله

عدمُ تقييد ﴿ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ لكونها معلومة من السّياق بأنّ لهم البشرى بالجنّة، وكذلك لإفادة العموم، فتشملُ البُشْرى من اللّه تعالى في الدُّنيا وفي الآخرةِ، كما قال تعالى: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس: 64]، وتشملُ البشرى النَّجاةَ والفلاح والثّواب، ولا شكّ أنَّ ممّا يَدْخُل في البشرى التَّبشيرَ بالجنّة - وهي أعظمها - والتَّبشيرَ عند الموت؛ تتلقّاهم الملائكة، وفي القبر، وفي القيامة، وغيرُها كثيرٌ من المبشّرات، كما دلّ على ذلك القرآنُ والسُّنَّة؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 365 - 366.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 436.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 436.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 436.
(5) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 721.

﴿أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ٣٠﴾ [فُصِّلَت: 30]، والرُّؤْيا الصّالِحَة يراها المؤمن لِنَفْسِه أو تُرى له، فإنّ هذه مِنَ البُشْرى، ومِنَ البُشْرى أنْ يوفَّقَ للعملِ الصّالِح(1).

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَبَشِّرۡ﴾:

الفاءُ بين التَّفريعيَّة والفصيحة

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ إمّا تفريعيَّةٌ؛ فرَّعَ على قوله: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾ قَوْلَه: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ ١٧ ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ وهُمُ (الَّذينَ اجْتَنَبوا الطّاغوتَ)(2)؛ أي: هؤلاء يستحقّون البشرى؛ فبادِرْ يا مُحَمَّدُ فبَشِّرْهم، وإمّا فصيحةٌ؛ لأنّها أفصحتْ عن جوابِ شرطٍ مقدّر، تقديره: إذا عرفتَ يا محمَّدُ ثبوتَ البشرى لهم، وأردتَ تبليغَ البشارةِ إليهم فإنَّني أقولُ لك: بشّرْ عبادي؛ أي: بلّغ بشارتي إليهم(3).

الغرض من فعل الأمر ﴿فَبَشِّرۡ﴾:

التَّأكيدُ على أنّ البشارةَ من مهمّته ﷺ

دلّ توجيهُ الأمر إلى النَّبيّ ﷺ بفعلِ الأمر ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ على التَّأكيد على مهمّته ﷺ في الرِّسالة، فمهمّته هي البشارة، والنّذارة، وتبليغُ ذلك للنّاس، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ [سبأ: 28]، فقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ معناه: بلّغ بشارتي إليهم، وفيه تصريحٌ بكون التّبشير من لسانِ الرَّسول ﷺ، وهو تبشيرٌ في الدُّنيا، وأمّا تبشيرُ الملك فتبشيرٌ في الآخرة، كما قال: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس: 64]، وبالجملة فتبشيرُ الآخرة مرتّبٌ على تبشيرِ الدُّنيا، فمن استحقَّ الثّانيَ استحقَّ الأوّل(4).

(1) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 721، وابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 145.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 365.
(3) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 548.
(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 524.

بلاغة وضع الظّاهر موضع الضّمير، وسرُّ إضافته إلى ضمير الله في قوله: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾:

إضافةُ المبشّرين إلى الله تشريفٌ لهم واهتمامٌ بهم وزيادةٌ في مدحهم

العبادُ في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾ همُ المَوصوفونَ بالاجتِنابِ والإنابةِ بأعيانِهم، وقد عدَلَ البيانُ القرآنيُّ عن الإتيانِ بضَميرِهم في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجۡتَنَبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعۡبُدُوهَا وَأَنَابُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾، فلم يقل: (فبَشِّرهم)، بل أظهر اسمَ العِبادِ مُضافًا إلى ضَميرِ اللّهِ تعالى؛ "لتكريرِ استحقاقِ البشارة"[1]؛ وتشريفًا للمبشَّرين الموصوفين الَّذين أهّلوا أنفسهم بقصرِ هممهم على اللّه؛ فاستحقّوا الإضافةَ إليه سبحانه[2]؛ أي: فبشّرْ عبادي الَّذين لا يَنْتَسِبونَ لِغَيْري، وللاهتمام بهم، وزيادةِ مَدحِهم بصِفةٍ أُخرى، وهُي: صِفةُ العُبوديَّةِ للّهِ؛ أيَ: عُبوديَّةِ التَّقرُّبِ[3]؛ أي: أرادَ بهم أنْ يكونوا مع الاجتنابِ والإنابةِ على هذه الصِّفة (صفة العبوديَّة)[4]، وليترتّب على الظّاهرِ الوصفُ، وهو: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ﴾[5].

موقع جملة ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ﴾ ممّا قبلها ودلالته:

من صفاتِ عبادِ للهِ استماعُهم للقولِ واتّباع أحسنه

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ﴾ إما نعتٌ لـ(عبادي) في قوله: ﴿فَبَشِّرۡ عِبَادِ﴾، أو بدَلٌ منه، أو بيانٌ له[6]؛ أي: لَمّا أخبَرَ اللّهُ تعالى أنَّ لهم البُشرى، وأمَرَ نبيَّه ببشارتِهم ذكَرَ الوَصفَ الَّذي استحَقّوا به البِشارةَ[7]، ويجوز أنْ يكونَ مبتدأ و﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الخبر[8].

الغرض من التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

التَّعبيرُ عن المُؤمنينَ بالاسمِ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله تعالى:

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 362.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 479، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 248.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 365، ودرويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 402.
(4) الزمخشري، الكشاف: 4/ 120.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 192.
(6) السَّمين، الدر المصون: 9/ 419، وابن عادل، اللباب: 16/ 493.
(7) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 721.
(8) السَّمين، الدر المصون: 9/ 419.

استحقاقُهم للتّبشير هو اتّصافهم باستماعِ القولِ واتّباعِ أحسنه

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ مدارَ اتّصافِهم بالوصفينِ الجليلينِ - الاجتنابِ والإنابة - كونُهم نُقّادًا في الدّينِ يميِّزون الحقَّ من الباطلِ، ويميّزون بين الحسنِ والأحسنِ والفاضلِ والأفضل، ويُؤثرون الأفضلَ فالأفضلَ[1]، ولزيادةِ مدحِهم مع صفةِ الاجتناب والإنابةِ والعبوديَّة للّه وحده بصفةِ استِماعِ القَوْلِ واتِّباعِ أحْسَنِه، وهذا على اعتبار ﴿ٱلَّذِينَ﴾ صفةً للعباد أو بدلًا منه أو بيانًا له، وأمّا على اعتباره مبتدأ فتكون الصِّلةُ إيذانًا بوجهِ استحقاقهم لوصفِ اللّه لهم بالهداية، وبأنّهم أولوا الألباب؛ أي: أنّ اتِّباعَ أحسَنِ القَولِ سَبَبٌ في حُصولِ هِدايةِ اللّهِ لهم[2].

دلالة التَّعبير بالمضارع مسندًا لواو الجمع في ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾:

تجدّدُ وتكرارُ استماعهم للقولِ بقلوبهم دليلُ بحثهم عن الحقِّ لاتّباعه

التَّعبيرُ بصيغة المضارع للدّلالة على تجدّدِ وتكرارِ استماعهم القولَ بقلوبهم؛ أي: يفهمونه، ولاستحضارِ صورةِ استماعهم في الذّهن بما يُظهرُ حرصهم على استماعِ القول، ويشيرُ إلى امتداحهم وامتداحِ فعلهم.

وجاء المضارع مسندًا لواو الجمع؛ تناسبًا مع السّياقِ الَّذي هو حديثٌ عن جماعةِ المؤمنين الَّذين اجتنبوا الطّاغوت وأنابوا إلى اللّه، والذين جاءتْ ضمائرهم بصيغة الجمع، وللإشارةِ إلى اجتماعهم على الاستماعِ لقولِ الحقِّ بجميعِ قلوبهم[3]، فيكون في ذلك ترغيبٌ لهذا الفعل.

معنى اللّام في ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾ ودلالة التَّعريف:

لامُ تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡقَوۡلَ﴾ يحتمل أن تكون جنسيّةً تشملُ كلَّ قولٍ[4]، فتدلّ على العموم؛ أي: يستمعونَ الأقوالَ ممّا يدعو إلى

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 120، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 248.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 366.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 479.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 479.

ثناءٌ على الّذين يستمعون كلّ قولٍ من القرآن وغيره ويتّبعون الأحسنَ منه

الهدى كالقرآن وإرشاد الرَّسول ﷺ، ويستمعون الأقوالَ التي يريدُ أهلها صرفهم عن الإيمان من ترّهاتِ أئمَّة الكفر، فإذا استمعوا ذلك اتّبعوا أحسنه؛ وهو ما يدعو إلى الحقّ[1]، وفي هذا ثناءٌ عليهم بنفوذِ بصائرهم وتمييزهم الأحسنَ، فإذا سمعوا قولًا تبصّروه[2].

ويحتمل أنْ تكون اللّام عهديَّةً معهودها ذهنيٌّ، والمقصودُ القرآن وما أمرَ اللّهُ به، ﴿فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾؛ أي: أحۡسَنَ ما يُؤۡمَرونَ به من قصاصٍ وعفوٍ واحتمالٍ على صبر ونحو ذلك فيعملونه[3].

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾:

اتّباعُهم للأحسنِ عقبَ سماعهم للقولِ دليلُ مسارعتهم إلى اتّباعِ الحقّ

الفاءُ في قوله: ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾ عاطفةٌ، والمعطوفُ عليه قوله: ﴿يَسۡتَمِعُونَ﴾[4]، وفيها معنى التّعقيب؛ أي: اتّباعهم للحقّ عقبَ سماعهم للقولِ الّذي يشملُ الحقَّ والباطل، ممّا يدلُّ على مسارعتهم في اتِّباع الحقّ.

دلالة التَّعبير بـ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾ مادّةً وصيغةً:

اجتهادُهم في اقتفاءِ أثرِ أحسنِ القولِ دليلٌ على شدّةِ امتثالهم للحقّ

التَّعبيرُ بالاتّباع في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ﴾ للدّلالةِ على مدى امتثالِ العباد - الذين بشّرهم اللّه - للحقّ، وائتمارهم به، واقتفاءِ أثره؛ لأنّ أصل الكلمة يدلّ على التُّلوّ والقَفْوِ[5]، والاتّباع: اقتفاءُ الأثر؛ فتارةً يكونُ بالجسم؛ نحو تبعته في الطريق، وتارةً بالامتثالِ والائتمار[6]، وفي التَّعبيرِ بلفظ ﴿فَيَتَّبِعُونَ﴾ دون فيتْبَعون؛ للدّلالة على أنّ هؤلاء العبادَ الّذين يُبشِّرهم اللّه تعالى مطالبونَ أنْ يبذلوا الجهدَ في الاتّباع، وأنْ يجتهدوا في التَّمييز،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 365.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 192.
(3) البغوي، معالم التنزيل: 4/ 83، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 174.
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 402.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (تبع).
(6) الراغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفاظ: (تبع).

والمعنى: فيتَّبعون بكلّ عزائمهم بعد انتقاده[1]، وذلك لأنّ الاتّباعَ جاءَ على صيغة الافتعالِ التي تدلُّ على شدّةِ الطلبِ والمحاولة والتَّحرّي، والاجتهادِ في الطَّلب، والمبالغةِ في الفعل.

وقد جاءَ بالمضارع مسندًا لواو الجماعة للدّلالةِ على تجدّدِ الاتّباع من هؤلاء المؤمنين وعدم انقطاعهم عنه، فكلّما استمعوا القولَ اتّبعوا أحسنه، ويشيرُ إلى تعاونهم على تمييزِ الحقّ عن الباطل، وبذلِ الجهدِ الجماعيِّ في ذلك، فيدُ اللّه مع الجماعة.

دلالة التَّعبير بأفعل التَّفضيل ﴿أَحۡسَنَهُۥٓ﴾، والغرض من الإضافة:

ثَناءٌ على عبادِ اللهِ بنُفوذِ بَصائِرِهِم وتَمييزِهِمُ الأحسَنَ

كلمةُ ﴿أَحۡسَنَهُۥٓ﴾ اسم تفضيلٍ على وزن (أفعل)، وأضيفتْ إلى ضمير القول؛ أي: أحسنَ القول، والمراد منها هنا: يتّبعونَ القولَ الحسنَ من تلكَ الأقوال التي يستمعون إليها؛ أي: "أرشده وأهداه، وأدلّه على توحيدِ اللّه، والعملِ بطاعته، ويتركونَ ما سوى ذلك"[2]، فاسمُ التَّفضيلِ (أحسَن) ليس مُستَعمَلًا في تَفاوُتِ المَوصوفِ به في الفَضلِ على غيره؛ فهو لِلدَّلالةِ على قوَّةِ الوَصفِ[3]؛ أي: صيغةُ التَّفضيل هنا للمبالغة، ولذا فإنّ في التَّعبير بها "ثَناءً عليهم بنُفوذِ بَصائِرِهم وتَمييزِهمُ الأحسَنَ، فإذا سَمِعوا قَولًا تَبَصَّروه"[4]، فهم "أهلُ نقدٍ يميّزون بين الهدى والضَّلالِ والحكمةِ والأوهام؛ نُظّارٌ في الأدلّة الحقيقيَّة؛ نُقّادٌ للأدلّة السّفسطائيَّة"[5].

دلالة الاستئناف بقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾ الآية:

ثناءٌ آخرُ من اللهِ على الَّذين اجتنبوا عبادة الطّاغوت وأخلصوا لله

جملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ مُستَأنَفةٌ؛ لاستِرعاءِ الذِّهنِ لِتَلَقّي هذا الخَبَرِ، وأُكِّدَ هذا الاستِرعاءُ بجَعلِ المُسنَدِ إليه اسمَ إشارةٍ؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 480.
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 273.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 365 - 366.
(4) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 192.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 366.

مع التَّنبيهِ على أنَّهم كانوا أحْرياءَ بهذه العِنايةِ الرَّبّانيَّة لِأجْلِ ما اتَّصفوا به مِنَ الصِّفاتِ المَذكورةِ قبْلَ اسمِ الإشارة(1)، فجملةُ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ "ثناءٌ آخَرُ من اللهِ تعالى على هؤلاء المؤمنين الَّذين اجتنبوا عبادةَ الطّاغوت، وأخلصوا للهِ تعالى العبادة"(2).

الغرض من التَّعبير باسم الإشارة مصحوبًا بلام البُعد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾:

تمييزُ المشارِ إليهم أكملَ تمييزٍ للإشارة إلى علوّ رتبتهم في الفضل

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ اسمُ إشارة يشيرُ إلى مَن ذُكِرَ من الّذين اجتنبوا الطّاغوت وأنابوا إلى الله، الَّذين يستمعونَ القولَ فيتّبعون أحسنه، وجاء التَّعبيرُ باسم الإشارة؛ اهتمامًا بالمحكوم عليه، وهم المتّصفون بالصِّفاتِ المذكورة؛ وليَتَميَّزَ المُشارُ إليهم أكمَلَ تميُّزٍ، مع التَّنبيه على أنَّهم كانوا أحْرياءَ بهذه العِنايةِ الرَّبّانيَّةِ لِأجْلِ ما اتَّصَفوا به مِنَ الصِّفاتِ المَذكورةِ قبْلَ اسم الإشارة(3)، وما فيه من مَعنى البُعدِ لِلإيذانِ بعُلوِّ رُتبَتِهم، وبُعدِ مَنزِلَتِهم في الفَضلِ(4).

بلاغة القصر في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ﴾:

المؤمنون الموحّدون المتّبعون للحقّ هم المهتدون لا غيرهم

أفادَ تَعريفُ الجزأيْن في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ قَصْرَ الهِدايةِ عليهم، وهو قَصرُ صِفةٍ على مَوصوفٍ، وهو قَصرٌ إضافيٌّ قَصرَ تَعيينٍ(5)؛ أيْ: الَّذين اجتنبوا الطّاغوت وأنابوا إلى الله وأتّبعوا أحسن ما استمعوا له من القول هم المهتدون لا غيرهم.

الغرض من التَّعبير بالخبر اسمًا موصولًا ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

كلُّ من اتّصفَ بالصِّفاتِ المشارِ إليها في الآية يستحقُّ الهداية

ورَدَ التَّعبيرُ بالخبر في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ اسمًا موصولًا، فلم يقلْ: (أولئك المهتدون)؛ للإيماءِ إلى استحقاقهم للهداية، فإنّ اتّباعَ أحسنِ القول سببٌ في حصولِ هدايةِ اللّهِ لهم(6)،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 366.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 209.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 366.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 248.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 366.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 366.

ولإفادةِ العمومِ؛ لأنّ ﴿ٱلَّذِينَ﴾ من ألفاظِ العمومِ، فيشملُ الخبرُ كلّ المشارِ إليهم بأنّهم مهتدون، وكذلك للتَّشويقِ لمعرفة المبهم، ولفتِ الانتباه في الإبهام؛ ليقعَ بعده التَّفصيلُ فيتمكَّنَ معناه من الذّهن.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿هَدَىٰهُمُ﴾:

نيلُ الهدايةِ من اللهِ متحقّقٌ للمتّصفين بالصِّفاتِ العظيمةِ الواردةِ في الآية

التَّعبيرُ بالماضي في قوله: ﴿هَدَىٰهُمُ﴾؛ لإفادةِ تحقّقِ وقوعِ نيلهم لهذه الفضيلة؛ بأنْ خلقَ اللهُ نفوسَهم قابلةً للهدى الَّذي يخاطبهم به الرَّسولُ ﷺ، فتهيّأتْ نفوسُهم لذلك، وأقبلوا على سماعِ الهدى بشَراشِرِهم، وسَعَوا إلى ما يبلّغهم رضاه، وطلبوا النَّجاةَ من غضبه، فاتّصفوا بهذه الصِّفاتِ العظيمة؛ فتحقّقتْ لهم الهدايةُ من الله.

الغرض من تقديم المفعول به في ﴿هَدَىٰهُمُ﴾ على الفاعل ﴿ٱللَّهُۖ﴾:

اهتمامٌ بالمؤمنين المهتدين لأجل ما اتّصفوا به من الصِّفات

قدّمَ المفعولَ به (هم) على الفاعل ﴿ٱللَّهُۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾، للاهتمام بهؤلاء المُجْتَبَيْنَ مرتفعي الرُّتبةِ جدًّا، وأنّهم أحرياءُ بهذه العناية الرَّبّانيَّة؛ لأجلِ ما اتّصفوا به من الصِّفاتِ المذكورة.

الغرض من التَّعبير بالفاعل بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُۖ﴾:

مَن له صفاتُ الكمالِ هو الهادي، فلا وُصولَ إليه إلّا به سُبحانه

عبّر البيانُ الحكيم بالاسم الأعظَم في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾، ولم يقلْ: (أولئك المهتدون) أو (الذين اهتدوا)؛ إشارةً إلى عَظيمِ هِدايتِهم؛ فقال: هَداهُمُ اللَّهُ بما له مِن صفاتِ الكمالِ؛ فبيَّنَ سُبحانه أنْ لا وُصولَ إليه إلّا به[1].

دلالة العطف في ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ بإعادة اسم الإشارة الدّالِّ على البُعد:

عَطْفُ قولِه تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ على قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ﴾ يشيرُ إلى تعدّدِ عطاءاتِ اللّهِ لهم، فمع مدحِهم بأنّهم أصحابُ عقولٍ صافيةٍ من الشَّوائبِ سليمةٍ من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 480.

معارضةِ الوهمِ ومنازعةِ الهَوَى؛ استحقّوا هدايةَ اللّهِ لهم[1]، كما أشارَ إلى معنى تهيُّئِهم للاهتداء بما فطرهم اللّهُ عليه من عقولٍ كاملة، فالهدايةُ تحصلُ بفعلِ اللّهِ وقبولِ النَّفس لها[2].

الهدايةُ تحصلُ بفعلِ اللّه وقبولِ النّفسِ لها بما تهيَّأتْ من عقولٍ كاملة

وفي العطف بإعادة اسم الإشارة (أولئك) الدّالِّ على البُعدِ زيادةٌ في تعظيمهم وتفخيم شأنهم[3]، وتَمَيُّزِهم بهذه الخَصلةِ مِن بَينِ نُظَرائِهم وأهلِ عَصرِهم[4].

الغرض من التَّعبير بضمير الفصل ﴿هُمْ﴾ مع كلمةِ ﴿أُوْلُواْ﴾:

أصْلُ الخِلقةِ مَيّالةٌ لِفَهمِ الحَقائِقِ، غَيرَ مُكتَرِثةٍ بالمَألوفِ ولا مُراعاةِ الباطِلِ، على تَفاوُتِ تلك العُقولِ في مَدى سُرعةِ البُلوغِ لِلاهتداء، وقد أُشيرَ في قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ إلى رُسوخِ هذه الأحوالِ في عُقولِ من اجتنبوا الطّاغوت، وأنابوا إلى اللّه، واتّبعوا أحسنَ القول؛ بذِكرِ ضَميرِ الفَصلِ ﴿هُمْ﴾، مع كَلِمةِ ﴿أُوْلُواْ﴾ الدّالَّةِ على أنَّ المَوصوفَ بها مُمسِكٌ بما أُضيفَتْ إليه كَلِمةُ ﴿أُوْلُواْ﴾، وبما دَلَّ عليه تَعريفُ الألبابِ من مَعنى الكَمالِ[5]؛ أي: أولئك خاصّةً؛ وكأنّهم هم أصحابُ العقول حقًّا لا غيرهم؛ لأنّهم هم الَّذين انتفعوا بعقولهم، ولم ينتفعْ مَنْ عداهم بعقولهم[6]، فإنّ الَّذي لا يميّزُ بين الأقوالِ؛ حَسَنِها وقبيحِها ليس من أهلِ العقولِ الصَّحيحة[7]، ولهذا كان أصحابُ العقولِ السَّليمة الكاملةِ هم المستحقّينَ للهداية لا غيرهم[8].

أصحابُ العقولِ السَّليمةِ الكاملةِ هم المستحقّون للهدايةِ لا غيرهم

معنى اللّام في ﴿ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ وسرّ التَّعريف بها:

التَّعريفُ في قوله: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ ليس لتعريفِ الجنس؛ لأنّ

المهتدون هم أصحابُ العقولِ الكاملةِ التي تنظرُ إلى حكمةِ الأشياء

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 248.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 39، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 367.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 480.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 367.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 367.
(6) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 524.
(7) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 721.
(8) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 248.

جنسَ الألبابِ ثابتٌ لجميعِ العقلاءِ بأصلِ الخِلْقة، وإنّما هو دالٌّ على معنى الكمال[1]؛ أي: المهتدون هم أولو الألبابِ الصَّحيحة؛ أصحابُ العقولِ الكاملة الصّافية عن كلّ شوبٍ وكدرٍ، التي تنظرُ إلى حكمةِ الأشياء[2].

نكتة التَّعبير بأولي الألباب:

تَـهَـيُّـؤُهـم لِلاهـتِداءِ كان بما فَطَرَهمُ اللهُ عليه مِن عُقولٍ كامِلةٍ

آثر النَّظمُ الحكيم استعمالَ لفظ (اللُّبِّ) دون العقل؛ لكون اللُّبِّ أخصَّ من العقل؛ فكلّ لبٍّ عقلٌ وليس كلُّ عقلٍ لبًّا، فهو ما زكا من العقل، وهو عقلٌ خالٍ عن الشَّوائب[3]؛ لذلك أخبر اللّه عن الَّذين اجتباهم من الَّذين اجتنبوا الطّاغوتَ وأنابوا إلى اللّه واتّبعوا أحسنَ القولِ بأنّهم أولو الألباب؛ للدّلالة على أنّهم أصحابُ عقولٍ كاملةٍ صافيةٍ عن شوبِ كلِّ كدرٍ، تنظرُ إلى حكمة الأشياء[4]، وفيه كذلك إشارةٌ إلى مَعنى تَهَيُّئِهم لِلاهتِداءِ بما فَطَرَهمُ اللّهُ عليه مِن عُقولٍ كامِلةٍ[5]، سليمةٍ من معارضة الوهم ومنازعةِ الهَوَى، مستحقّةٍ للهدايةِ[6]، "وفي ذلك دلالةٌ على أنّ الهدايةَ تحصلُ بفعل اللّه وقبولِ النّفس لها"[7].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 367.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 480.
(3) السَّمين، عمدة الحفاظ: (لبب).
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 480.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 367.
(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 248.
(7) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 39.

﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾

[الزمر: 19]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بعد تخصيص البشارة بالمحسنين تسليةٌ للنَّبيّ بعدمِ إنقاذِهِ لمَن حُكمَ بشقاوته

لمّا خَصَّ اللّه سُبحانَه البِشارةَ بالمُحسِنينَ عُلِمَ أنَّ غَيْرَهم قد حُكِمَ بشَقاوتِه، وكان ﷺ - لِما جُبِلَ عليه مِن عَظيمِ الرَّحمةِ ومَزيدِ الشَّفَقةِ - جَديرًا بالأسَفِ على مَن أعرَضَ؛ وقد دلَّ على أسَفِه عليهم بقَولِه: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾، وهذا تسليةٌ وتوطينٌ للنَّبيّ ﷺ على الصَّبرِ وعلى التّسليم لقضاءِ اللّه وقدره، وتعريفُه بسنّةِ الهداية والإضلال؛ فمن حقّ عليه كلمةُ العذاب فإنّ محمَّدًا ﷺ لا يستطيعُ هدايته.

كما أنّ هذه الآيةَ تكملةٌ للأسئلةِ التي طرحتها سورةُ الزُّمر بشكلٍ عامٍّ عندما قال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: 9]؛ أي: هل يستوي هذا مع من هو غافلٌ لاهٍ كافرٌ لا يحذرُ الآخرة ولا يرجو رحمةَ اللّه؟!

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿حَقَّ﴾: (حقّ) أصل يدلُّ على إحكام الشَّيءِ وصِحَّتِه[1]، يُقال: حَقَّ الشَّيْءُ، يَحِقُّ، حَقًّا: إذا ثَبَتَ ولَزِمَ[2]، ويأتي الحَقُّ بمعنى الصَّحيح، وضِدُّهُ: الباطِلُ[3]، وتحقَّقَ الأمرُ: إذا صَحَّ، ومعنى ﴿حَقَّ عَلَيْهِ﴾ في الآية: وجبتْ عليه كلمةُ العذاب[4]، وتحقّقتْ في الواقع[5].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(2) الخليل، العين، والأزهري، تهذيب اللغة: (حق).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 275.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 369.

2) ﴿كَلِمَةُ﴾: الكلمةُ: الواحدة مِنَ الكَلِم والكَلام، كلَّمته تكليمًا، وتكلَّمتُ تكلُّمًا، وذكر أبو زيدٍ أنَّ العربَ تقول: الرَّجلان لا يَتَكالَمَانِ، في معنى لا يتكلَّمان[1]، وأصلُ اشتقاقِ الكلام مِنَ الكَلِم، وهو التَّأثير المُدرَكُ بإحدى الحاسَّتين، فالكلامُ: مُدرَكٌ بحاسَّة السَّمع، والكَلْمُ: بحاسَّة البَصَر[2]، وكَلَمتُه: جرحتُه جِراحةً بانَ تأثيرُها[3]، والكَلِمَةُ تَقَعُ على الحرف الواحد مِن حروفِ الهجاءِ، وتقعُ على لفظةٍ مُؤَلَّفةٍ مِن جماعةِ حُروفٍ ذاتِ مَعْنًى، وتقعُ على قَصيدةٍ بكمالِها وخُطبةٍ بأسرها[4]، والمقصودُ بـ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ في الآية: كلامُ وعيدِ اللّه إيّاهم بالعذاب في الآخرة[5]، على من قد سبقَ له في علم اللّهِ أنّه من أهلِ النار[6].

3) ﴿تُنقِذُ﴾: الإنْقاذُ: التَّخليصُ من ورْطَة، وأيُّ ورْطةٍ أشَدُّ وطْئًا وعذابًا من النّار؟ كما في الآيةِ الّتي معنا في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، والنَّقْذُ: ما أنقَذْتَه، وفَرَسٌ نَقيذٌ: مأخوذٌ من قوم آخرينَ، كأنَّه أُنقِذَ منهم، وجمعُه: نَقائِذُ[7]، وأنقَذَه مِنْ فلانٍ؛ أي: نَجّاهُ وخلَّصه[8]، فمعنى ﴿تُنقِذُ﴾: تُخَلِّصُ وتمنعُ وتُنجي[9].

المَعنى الإجماليُّ:

يقولُ تعالى مسَلّيًا نبيَّه ﷺ: أفمَنْ وجَبَ عليه عَذابُ النّار في سابقِ عِلمِ اللّه بسببِ إصراره على كفرِه حتّى النّهايةِ؛ أفتستطيعُ

تسجيلٌ على عَبَدةِ الطّاغوتِ ومتَّبعي خطواتها بحرمانِ الهداية

(1) ابن دريد، جمهرة اللّغة: (كلم).
(2) الرّاغب، المفردات، والسَّمين، عمدة الحفّاظ: (كلم)، والمناويّ، التّوقيف، ص: 283.
(3) ابن سلَّام، تفسير يحيى بن سلَّام: 2/ 568، وابن جنّي، المحتسب: 2/ 189.
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (كلم)، والنّوويّ، تهذيب الأسماء: 4/ 118.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 369.
(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 275.
(7) الرَّاغب، المفردات: (نقذ).
(8) الجوهري، الصحاح: (نقذ).
(9) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 434.

أنتَ - أيُّها الرَّسولُ الكريم - على هدايتِه في الدُّنيا، وإنقاذِه مِن النّارِ يومَ القيامةِ؟[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

الغرض من الاستفهام، ومعنى الفاء ودلالتها في ﴿أَفَمَنۡ﴾:

استِفهامٌ إنكاريٌّ أفادَ انتِفاءَ الطَّمعِ في هدايةِ مَن حَقَّتْ عليه كَلِمةُ العَذابِ

لَمّا أفادَ الحَصرُ في قَولِه: ﴿لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰۚ﴾، والحَصرانِ اللَّذانِ في قَولِه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾؛ أنَّ مَن سِواهم - وهمُ المُشرِكونَ - لا بُشْرى لهم، ولم يَهدِهمُ اللهُ، ولا ألبابَ لهم؛ لِعَدَمِ انتِفاعِهم بعُقولِهم، وكان حاصِلُ ذلك أنَّ المُشرِكينَ مَحرومونَ مِن حُسنِ العاقِبةِ بالنَّعيمِ الخالِدِ؛ لِحِرمانِهم مِنَ الطّاعةِ الَّتي هي سَبَبُه؛ فُرِّعَ على ذلك استِفهامٌ إنكاريٌّ مُفيدٌ التَّنبيهَ على انتِفاءِ الطَّمعِ في هِدايةِ الفَريقِ الَّذي حَقَّتْ عليه كَلِمةُ العَذابِ، وهمُ الَّذين قُصِدَ إقصاؤُهم عن البُشرى والهِدايةِ والانتِفاعِ بعُقولِهم، بالقَصرِ المَصوغةِ عليه صِيَغُ القَصرِ الثَّلاثُ المتقدِّمةُ[2]. والفاءُ عاطفة على جملةٍ محذوفة تقديرها: أأنتَ مالِكُ أمرِ النّاس، فمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ العذاب فأنتَ تُنقذه[3]؟.

الغرض من حذف المعطوف عليه قبل الفاء:

إيجازُ الحذفِ لدلالةِ الكلامِ عليه بلاغةٌ قرآنيَّةٌ

حُذفَ المعطوفُ قبل الفاءِ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ إيجازًا واختصارًا لدلالةِ الكلامِ عليه، وهذا من بلاغة القرآن، وأصلُ الكلامِ: (أأنتَ مالِكُ أمرِ النَّاسِ فمن حقَّ عليه كلمةُ العذابِ فأنتَ تنقذه؟)[4]، فالفاءُ عَطفت الجملةَ المذكورة على جملةٍ مستتبِعةٍ لها مقدَّرةٍ بعد الهمزة؛ ليتعلَّقَ الإنكارُ والنَّفيُ بمضمونيهما معًا، على معنى: لستَ أنتَ مالِكَ أمرهم، ولا أنتَ تقدرُ على الإنقاذ، بل المالكُ والقادرُ على الإنقاذِ هو اللّهُ ﷻ.

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 186، وطنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 209.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 368.

(3) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 65.

(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 248، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 65.

معنى (مَن) والفاء في قوله: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾:

(مَن) في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ إمّا أنْ تكونَ اسمًا موصولًا بمعنى الَّذي في محلّ رفعٍ بالابتداء، وخبَرُه محذوفٌ، والتَّقديرُ: تُنقِذُه مِن النّارِ، كما دلَّ عليه ما بَعْدَه، وتكونُ جُملةُ ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ تَذييلًا، أو مذكورٌ، وهو قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، وتكونُ الفاءُ في قوله: ﴿أَفَأَنتَ﴾ مؤكِّدةً للفاءِ الأولى في قولِه: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾، وأصلُ الكلامِ على اعتبارِ (مَنْ) موصولة: الَّذين تَحِقُّ عليهم كلمةُ العذابِ أنتَ لا تُنقِذُهم مِن النّار.

وإمّا أنْ تكونَ شرطيَّةً، بناءً على أنَّ الفاءَ في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ يَحسُنُ أنْ تكونَ لِمَعنًى غيرِ معنَى التَّفريعِ المستفادِ مِن الَّتي قبْلَها، وإلّا كانت مُؤكِّدةً للأولى، وذلك يَنقُصُ معنًى مِن الآيةِ؛ أي: الفاءُ رابطةٌ لجوابِ الشَّرط، وأصلُ الكلامِ: أمَنْ تَحَقَّ عليه كلمةُ العذابِ في المستقبَلِ فأنت لا تُنقِذُه منه[1].

> النَّبيُّ لا يستطيعُ هدايةَ مَن وجبتْ عليه كلمةُ العذابِ ولا إنقاذَه مِن النّارِ

نكتة التَّعبير بلفظ ﴿حَقَّ﴾ دون (صَدَق):

آثرَ البيانُ الحكيم لفظ ﴿حَقَّ﴾ في الآية دون (صدق)؛ لِما تُشعرُ به مادةُ حقَّ من تقريرِ العدل ونفي الظُّلم، ولتضمّنها معنى الثَّباتِ والاستقرار، والتَّحقّقِ في الواقع، فلفظُ الحقّ أوسعُ دلالةً من لفظِ الصِّدق الَّذي هو ضدُّ الكذب، فالحقُّ: ضدُّ الباطل، والتَّعبيرُ بـ﴿حَقَّ﴾ دلّ على استحقاقِ هؤلاء حكمَ اللّه عليهم بالعذاب، ووجوبه وثبوته عليهم ثبوتًا لازمًا، وأنّه حُكمٌ صحيحٌ صادقٌ عدلٌ مطابقٌ لواقعهم ملازمٌ لِما تقتضيه الحكمة؛ إذ إنّ الحقّ يدلُّ في أصله على إحكامِ الشَّيء وثبوته وصحّته[2]، وعلى المطابقةِ والموافقة، ويُقال للفعلِ والقول بحسبِ ما يجبُ وبقدرِ ما يجب[3]، وفي الوقت الَّذي

> مـن ثبتَ عليه حكمُ الله تعالى بأنّه من أهلِ النّارِ لا يستطيعُ أحدٌ إنقاذه

---

(1) الصاوي، حاشية على الجلالين، ص: 1639، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 370.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حقّ).

(3) الراغب، المفردات: (حق).

يجب، ومن معانيه الصِّدقُ والعدلُ والثَّبات[1]، وهذا يتناسبُ مع سياقِ الآية في بيان أنّه لا أحدَ يستطيعُ هدايةَ وإنقاذَ من ثبتَ ووجب عليه حكم اللّه تعالى بأنّه من أهلِ النّار، فاللّهُ تعالى وحده هو القادرُ على الإنقاذ لا غيرُه.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿حَقَّ﴾:

المبالغةُ في تأكيدِ ثبوتِ حكمِ الله تعالى على من حقَّ عليه العذاب

آثرَ البيانُ القرآنيُّ في قوله: ﴿حَقَّ﴾ صيغةَ الماضي التي تدلّ على التَّحقُّق والثُّبوت؛ للمبالغة في تأكيدِ ثبوتِ حكم اللّه تعالى وتحقّقه ووقوعه على من حقّ عليه العذاب، وفي هذا التَّوكيد توكيدٌ للإنكار؛ إنكارِ هدايةِ اللّه لمنْ لم يردِ اللّه هدايته؛ عقابًا له على اختياره الكفرَ على الإيمان.

معنى (على) في قوله: ﴿عَلَيۡهِ﴾:

ثبوتُ الانتقامِ على من وجبت عليه كلمةُ العذابِ لاستحقاقه لذلك

معنى حرف الجرّ (على) في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ﴾ الاستعلاءُ المجازيُّ المُكنى به في الآيةِ عن الإلزامِ والوجوب، وتعديةُ الفعل ﴿حَقَّ﴾ بـ(على) للإشعارِ بالمضرّة؛ لأنّ من حقَّ عليه غيرُ من حقّ له، فاللّامُ للمنفعة، و(على) للمضرّة، والمعنى: صدقتْ ووجبتْ عليه كلمةُ العذاب؛ أي: انطبقتْ وكانت أحواله موجِبةً للانتقامِ منه[2].

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾ على الفاعل ﴿كَلِمَةُ﴾:

لفتُ الانتباهِ إلى اختصاصِ عدمِ إنقاذِ من ثبتَ في علمِ الله أنّه من أهلِ النّار

أفادَ تقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَيۡهِ﴾ على الفاعلِ ﴿كَلِمَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ اختصاصَ الحكم به؛ أي: عدمَ قدرةِ النَّبيِّ ﷺ على هدايةِ وإنقاذِ من ثبتَ في علم اللّه أنّه من أهلِ النّار، كما أفادَ التَّقديمُ لفتَ الانتباهِ إلى المقدَّم ﴿عَلَيۡهِ﴾ والتَّشويقَ لمعرفة المؤخَّر؛ وهو ما حقَّ عليه.

(1) الزبيدي، تاج العروس، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (حقق).
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 417.

فائدة الإطناب بلفظ ﴿كَلِمَةُ﴾:

أطنبَ البيانُ الحكيمُ بذكرِ لفظ ﴿كَلِمَةُ﴾ في قوله تعالى: ﴿حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾، ولم يقلْ: (حقّ عليه العذاب)؛ وذلك لِلإشارة إلى أنَّ ذلك أمْرُ اللّهِ ووَعيدُه[1]، وأنّ حكمه عليهم بالنّار أمرٌ مقضيٌّ به، مقطوعٌ فيه، ثابتٌ منذ الأزل، فكلمةُ العذاب هي كلامُ اللّه المقتضي كونَ الكافرِ في العذاب، وكلمةُ اللّهِ لا تتبدّلُ ولا تتغيّرُ، فإصدارُ حكم اللّه تعالى على من حقّ عليه أنْ يكونَ من أهلِ النّار هو حكمٌ ثابتٌ، ولا يمكنُ لأحدٍ أنْ ينقذَ من حُكم عليه أنّه من أهلِ النّار ولو كانَ رسولَ اللّه ﷺ.

كلمةُ اللهِ لا تتبدّلُ ولا تتغيّرُ فيمن حُكمَ عليه أنّه من أهلِ النّار

الغرض من الإضافة في قوله: ﴿كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾:

إضافةُ ﴿كَلِمَةُ﴾ إلى ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾ إضافةٌ بيانيّةٌ؛ أي: الكلمةُ التي يستتبعها العذابُ لا الرَّحمة، و﴿كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾ كنايةٌ عمّا ورد في القرآن الكريم في عدّة آيات، منها قوله تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمۡلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلۡجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١١٩﴾ [هود: 119].

الكلمةُ التي حقّتْ على أهلِ النّار هي التي يستتبعُها العذابُ لا الرَّحمة

الغرض من الاستفهام في قوله: ﴿أَفَأَنتَ﴾ وتكرّره:

الاستفهامُ بالهمز في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ إنكاريٌّ، مسلّطٌ على الفاعل (أنت)، ولكن لمّا كان الخطابُ موجّهًا للنَّبيّ ﷺ؛ كان إنكارُ الفاعلِ في الآية كنايةً إمّا عن أيّ فاعلٍ ممّن عداه، وإمّا عن إنكارِ الفعل، وهو الإنقاذُ من النّار نفسه، لا أنّ الإنقاذَ واقعٌ من غيره ﷺ؛ لأنّ اللّهَ قدّرَ دخولَ أهلِ النّارِ النّارَ؛ جزاءً وفاقًا على كفرهم ومعاصيهم[2]، وكُرّرتِ الهمزةُ لَمّا طالَ الكلام؛ للاهتمام بشأنِ هذا الاستفهام الإنكاريِّ[3]، ولتأكيدِ الإنكار والاستبعاد[4]،

استفهامٌ يؤكّدُ إنكارَ إنقاذِ من قَدّرَ اللهُ عليهم دخولَ النّار

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 371.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 418.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 369.
(4) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 40، وابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 65.

ولتهويلِ الأمرِ وتفخيمه؛ للنَّهي عن تعليقِ الهمِّ بهم لِما عنده ﷺ من جبلَّةِ العطفِ والرِّقَّة على عبادِ اللّه[1].

معنى الفاء ودلالتها في ﴿أَفَأَنتَ﴾:

الفاءُ بين عاطفةٍ مؤكّدةٍ أو رابطةٍ لجوابِ الشَّرط

الفاءُ في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ إمّا أنْ تكونَ عاطفةً، فهي مؤكِّدةٌ للفاءِ الأولى في قولِه: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ﴾، على اعتبارِ (مَن) موصولةً، والمعنى: الَّذينَ تَحِقُّ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ العَذابِ أَنْتَ لا تُنْقِذُهُمْ مِنَ النّارِ.

وإمّا أنْ تكونَ رابطةً لجوابِ الشَّرط، على اعتبارِ (مَن) شرطيَّةً، والمعنى: أمَنْ تَحِقَّ عليه كلمةُ العذابِ في المستقبَلِ فأنت لا تُنقِذُه منه[2].

الغرض من التَّعبير بضمير الخطاب (أنت):

خطابٌ يحملُ تسليةً للنَّبيِّ ﷺ وتهوينًا عليه بسببِ إعراضِهم

الخِطابُ في قولِه: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ لِلنَّبيِّ ﷺ تسليةً له وتَهوينًا عليه بعضَ حِرصِه على تَكريرِ دعوَتِهم إلى الإسلامِ، وحُزنَه على إعراضِهم وضَلالِهم، وإلّا فلم يَكُنِ النَّبيُّ ﷺ بالَّذي يَظُنُّ أنَّه يُنقِذُهم من وعيدِ اللّهِ؛ ولذلك اجتُلِبَ فِعلُ الإنقاذِ هنا؛ تَشبيهًا لِحالِ النَّبيِّ ﷺ في حِرصِه على هَدْيِهم وبُلوغِ جهدِه في إقناعِهم بتَصديقِ دَعوَتِه، وحالِهم في انغماسِهم في موجِباتِ وعيدِهم؛ بحالِ مَن يُحاوِلُ إنقاذَ ساقِطٍ في النّارِ قد أحاطَتِ النّارُ بجَوانِبِه استِحقاقًا قَضى به مَن لا يُرَدُّ مُرادُه، فحالُهم تُشبِهُ حالَ وُقوعِهم في النّارِ مِنَ الآنَ؛ لِتَحقُّقِ وُقوعِه[3].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿تُنقِذُ﴾:

إنكارٌ متجدّدٌ ومستمرّ لمحاولةِ إنقاذِ من سبقَ في علمِ الله أنّه من أهلِ النّار

في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ أتى بالمضارع الَّذي يدلُّ على الحدوث والتَّجدُّدِ والاستمرار؛ لإفادةِ الإنكارِ المتجدّد والمستمرّ لمحاولة إنقاذِ من سبقَ في علمِ اللّه أنّه من أهل النّار.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 481.
(2) الصاوي، حاشية على الجلالين، ص: 1639، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 369 - 370.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 371.

وفيه تصويرٌ أيضًا لاجتهادِ النَّبيّ ﷺ ومبالغته في تحصيلِ هدايتهم من خلالِ دعوته المتكرّرة لهم إلى الإيمان باللّهِ بحالِ من يريد أنْ يخلّصهم من النّار.

الغرض من تَقديم المُسنَدِ إليه في قوله: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ﴾:

إنكارُ إنقاذ مَن تَحقَّقَ الوَعيدُ عليهم من النّار

تَقديمُ المُسنَدِ إليه على الخَبَرِ الفِعليِّ في قَولِه تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ يفيدُ تقويةَ الحُكم؛ وهو إنكارُ أنْ يَكونَ النَّبيُّ ﷺ بتَكريرِ دَعوَتِه لهم إلى الإيمان يُخَلِّصُهم مِن تَحقُّقِ الوَعيدِ عليهم، أو يُحصِّلُ لهمُ الهِدايةَ إذا لم يُقَدِّرْها اللّهُ لهم[1].

الغرض من التَّعبير بالاسم الموصول ﴿مَن﴾ في قوله: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾:

في الموصوليَّةِ تَشهيرٌ بحالِهم وإظهارٌ لِخِسَّةِ مَنازلِهم في تحقُّقِ وقوعِهم في النّار

﴿مَن﴾ اسم موصول بمعنى الذين، وهم مَن حَقَّ عليهم كَلِمةُ العَذابِ؛ لِأَنَّ كَلِمةَ العَذابِ هي أنْ يَكونوا مِن أهلِ النّارِ، فوَقَعَ إظهارٌ في مَقامِ الإضمارِ، والأصلُ: (أفأنتَ تُنقِذُه مِنَ النّارِ؟)، وفائِدةُ هذا الإظهارِ تَهويلُ حالَتِهم؛ لِما في الصِّلةِ مِن حَرفِ الظَّرفيَّةِ المُصوِّرِ لِحالةِ إحاطةِ النّارِ بهم، مع ما فيه مِن تَشهيرٍ بحالِهم، وإظهارٍ لِخِسَّةِ مَنازِلِهم؛ أيْ: أفأنتَ تُريدُ إنقاذَهم مِنَ الوُقوعِ في النّارِ وهمُ الآنَ في النّارِ؟ لأَنَّ مَصيرَهم مُحقَّقٌ إلى النّارِ، فشَبَّهَ تَحقُّقَ الوُقوعِ في المُستَقبَلِ بتَحقُّقِه في الحالِ[2].

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتها ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾:

النّارُ تحيطُ بالذي حقَّ عليه كلمةُ العذابِ إحاطةَ الظَّرفِ بالمظروف

﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ حرفُ جرّ يفيدُ الظَّرفيَّةَ، وقد عبّر به البيانُ القرآنيُّ؛ لتهويلِ حالتهم، وللتّنبيهِ على أنّ هذا الَّذي حقَّ عليه كلمةُ العذاب متمكّنٌ فيها شديدُ الانغماسِ في طبقاتها، بحيث إنّها قد أحاطتْ به من كلّ جانبٍ إحاطةَ الظَّرفِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 371.

(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 193، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 23/ 248، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 370 - 371.

بالمظروف، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٤﴾ [العنكبوت: 54][1]، ففيه تصويرٌ لحالةِ تطويقِ النّار لهم، وإحاطتِها بهم، وإطباقِها عليهم.

بلاغة التَّعبير بالمجاز المرسل في الآية:

في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾ مجازٌ مرسل، حيث أطلقَ المسبَّبَ وأرادَ السَّببَ؛ لأنّ الإدخالَ في النّارِ مسبَّبٌ عن الضَّلالِ وتركِ الهدى، كأنّه قال: أأنتَ تهدي من أضلّه اللّهُ، وجعلَ له النّار بسببِ ضلاله[2]؟.

الإدخالُ في النّار مـسـبَّـبٌ عـن الـضَّـلالِ وتـركِ الهدى

بلاغة التَّعبير بالاستعارة في قوله: ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾:

في تنزيلِ المتوقَّع منزلةَ الواقعِ استعارةٌ في زمنِ الفعل؛ لأنّ دخولَ النّار لم يقعْ بعدُ، وسوفَ يقعُ يومَ القيامة، فشبّهَ استحقاقَهم العذابَ بالدُّخولِ إلى النّار؛ أي: عبّر عنه كما لو كان واقعًا، والتَّقدير: أفأنتَ تريد إنقاذَهم من الوقوعِ في النّار وهم الآن فيها؟! فنُزِّلَ المعدومُ منزلةَ الموجود، وأُعطيَ الكامنُ حكمَ البائن؛ لتحقُّقِ الوقوعِ لا محالة، وفي تنزيلِ محاولاتِ صاحبِ الرِّسالة ﷺ هدايةَ قومِه وتحمّلِه المشاقّ في سبيلها منزلةَ من يحاولُ إخراجهم فِعلًا من النّارِ بعد انكبابهم على وجوههم فيها استعارةٌ في معنى الفعل[3].

محاولاتُ النَّبيِّ ﷺ هدايةَ قومه تشبهُ مَن يحاولُ إخـراجَ مَـن وقـعَ فِعلًا في النّار

بلاغة الإطناب في وضع الظّاهر موضعَ المضمر في قوله: ﴿مَن فِي ٱلنَّارِ﴾:

أطنبَ البيانُ الإلهيُّ بذكر المُظهَر موضعَ المضمَر، في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ﴾، ولم يقلْ: (أفأنت تنقذه) رغم أنّه معلومٌ أنّ العذابَ يومَ القيامة في النّار؛ "لمزيدِ تشديدِ الإنكار والاستبعاد،

في التَّنبيهِ على أنّ المحكومَ عليه بالعذابِ بمنزلةِ الـواقـعِ في النّار تخويفًا وتهويلًا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 481.

(2) الصاوي، حاشية على الجلالين، ص: 1639.

(3) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 418، والدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 130.

والتَّنبيهِ على أنّ المحكومَ عليه بالعذابِ بمنزلةِ الواقعِ في النّار"[1]، فيتأكّد في الآية معنى الاستعارة، وأنّه مُثِّل حالهُ ﷺ في المبالغةِ في تحصيلِ هدايتهم، والاجتهادِ في دعوتهم إلى الإيمانِ بحالِ من يريدُ أنْ يُنقذَ من هو ساقطٌ في النّار، ولتهويلِ حالتهم؛ لِما في الصِّلَةِ مِنْ حَرْفِ الظَّرْفيَّةِ المُصَوِّرِ لِحالَةِ إحاطَةِ النّارِ بِهِمْ[2]، وكذلك لِما في الإظهارِ من تخويفٍ وترهيبٍ للكافرين؛ لأنّ النّارَ أشدُّ وأقوى وأبشعُ وسائلِ العذاب.

بلاغةُ ترتيبِ الآية ونظمِها:

في نظمِ الآيةِ من الرَّونقِ والهولِ والإرهابِ ما لا يقدرُ البشرُ على مثله

كان أصلُ الكلام: (أأنت تنقذ من حقّ عليه العذاب؟)، ولكنّه قال: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِى ٱلنَّارِ﴾، فقدّمَ المفعولَ وجعله عمدةَ الكلام؛ ليقرعَ السَّمعَ ويترقّبَ الخبرَ عنه، ثمَّ حذفَ خبره؛ ليكونَ أهولَ، فتذهبَ النَّفسُ فيه كلَّ مذهب، ثمَّ أنكرَ أنْ يكونَ أعلى الخلق ينقذه، فغيرُه من بابِ الأولى، فصارَ في الكلامُ بذلك من الرَّونقِ والبهجةِ والهولِ والإرهابِ ما لا يقدرُ البشرُ على مثله[3].

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 249.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 371.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 481.

﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ ٢٠﴾

[الزمر: 20]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانٌ لحسنِ عاقبةِ المؤمنين بعد بيانِ سوءِ عاقبةِ الخاسرين

لَمّا ذَكَر حالَ الكُفّارِ في النّارِ وأنَّ الخاسرينَ لهم ظُلَلٌ، وبَيَّنَ أنَّ مَن عَبَدَ الأنْدادَ هالِكٌ؛ لِخُروجِه عَنْ دائِرَةِ العَقْلِ بِجُرْأَةٍ؛ وعَدَمِ تَدْبيرٍ؛ بَيَّنَ حالَ أضْدادِهِمْ من المؤمنينَ، وناسَبَ الاستدراكُ هنا؛ إذ هو واقعٌ بينَ الكافِرينَ والمؤمنينَ؛ فقال: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿غُرَفٞ﴾: جمع غُرْفة، والغُرفَةُ: عليّة من البناء، وبيتٌ فَوقَ بيت، وسُمّيتْ منازلُ الجنّة غُرَفًا؛ لعلوّها وارتفاعها، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الفرقان: 75][2]، وتطلقُ الغرفةُ على الحُجرة التي تكون مرتفعةً عن الأرض[3]، ومعنى ﴿غُرَفٞ﴾ علاليّ بعضُها فوق بعض[4].

2) ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾: (بني) أصل يدل على بِناء الشَّيْءِ بِضَمٍّ بَعْضِهِ إلَى بَعْضٍ[5]، والبِناءُ: اسمٌ لما يبنى بناءً[6]، ومعنى المبنيّة في الآية: المسموكةُ الجدرانِ بحجرٍ وجصٍّ، أو حجرٍ وترابٍ، أو بطوبٍ مشمَّس، ثم توضعُ عليها السُّقُف، وهذا نعتٌ للغرفِ التي فوقها غرفٌ[7]، وأنّها في غايةِ الشِّدَّةِ والقوّة[8].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 193، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 481.
(2) الخليل، العين، والراغب، المفردات: (غرف).
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 210.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 276، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 373.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بني).
(6) الراغب، المفردات: (بنى).
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 374.
(8) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 439.

3) ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِۖ﴾: (وعد) أصلٌ يدلُّ على ترجيةٍ بقولٍ، يُقال: وعَدْتُه أعِدُه وعْدًا، ويُستعمل في الخير والشرِّ، ويُعدّى بنفسه وبالباء، فيقال: وعَدَهُ الخيرَ، وبالخيرِ، وغلبَ الوعدُ في الخير، والإيعادُ في الشَّرِّ[1]، ووعده الأمرَ: قال له: إنَّه يُجريه له، أو يُنيله إيّاه، ووعده بالخير: منّاهُ به، وبالشَّرِّ: هدَّدَه به[2]، ومعنى ﴿وَعۡدَ ٱللَّـهِ﴾ هنا هو ما وعدهم به من أنّ لهم غُرَفًا[3].

4) ﴿يُخۡلِفُ﴾: مادَّة (خلف) تأتي لمعانٍ، منها التَّغيّرُ وخلافُ القدّام، ومن التَّغيُّر إخلافُ الموعِد، يقال: وعَدَني فأخلَفَني؛ أي: خالَفَ في الميعادِ، ومنه قوله تعالى: ﴿بِمَآ أَخۡلَفُواْ ٱللَّهَ مَا وَعَدُوهُ﴾ [التوبة: 77]، والخُلفُ يكونُ في المُسْتَقبَلِ كالكَذِبِ في الماضي، أو هو أنْ تَعِدَ عِدَةً ولا تُنْجِزَها[4]، ومعنى ﴿لَا يُخۡلِفُ﴾: أنّه سبحانه سينجزُ ما وعدَ به لا محالة.

5) ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾: الميعاد: مِفْعالٌ من الوعد[5]، والوَعْدُ كما ذكرنا أصله يدلُّ على ترجيةٍ بقولٍ لِما يوجد مستقبلًا، ويُستعملُ في الخير والشَّرِّ[6]، والميعادُ لا يكونُ إلّا وقتًا أو موضعًا[7]، والمعنى: أنّه سبحانه لا يخلفُ ما وعدَ به.

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

بيانُ ما وعدَ اللهُ بـه المتّقين في الجنّة وأنّه وعدٌ مؤكّدٌ

يُبيِّنُ اللهُ ﷻ حُسنَ عاقبةِ المتَّقينَ، فيقولُ: لكِنِ الَّذين اتَّقوا ربَّهم في الدُّنيا، بامتثالِ أمْرِه، واجتِنابِ نَهْيِه؛ لهم في الجنَّة غُرَفٌ عاليةٌ، بَعضُها فَوقَ بَعضٍ، تجري مِن تحتِها الأنهارُ المُتدَفِّقةُ، وعَدَهم اللهُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والفيومي، المصباح المنير: (وعد).
(2) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (وعد).
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 439.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والرّاغب، المفردات، والفيروزابادي، القاموس المحيط: (خلف).
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 1/ 405.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (وعد).
(7) الأزهري، تهذيب اللغة: (وعد).

تعالى بذلك وعْدًا مؤكَّدًا لا يَتخَلَّفُ؛ فهو سُبحانَه لا يُخلِفُ ما وعَدَ به عِبادَه[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الافتتاح بحرف الاستدراك ﴿لَٰكِنِ﴾:

الإشعارُ بتَضادِّ حالِ المؤمنين وحالِ المشركين وتقريرُ الفارِقِ بيْنَهما

أُعيدَتْ بِشارةُ الَّذين اجتَنَبوا الطَّاغوتَ؛ تَفصيلًا لِلإجمالِ الواقِعِ مِن قَبْلُ، وافتُتِحَ الإخبارُ عنهم بحَرفِ الاستِدراكِ ﴿لَٰكِنِ﴾؛ لِزيادةِ تَقريرِ الفارِقِ بيْنَ حالِ المُؤمِنينَ وحالِ المُشرِكينَ والمُضادَّةِ بَيْنَهما، فحَرفُ الاستِدراكِ هنا لِمُجرَّدِ الإشعارِ بتَضادِّ الحالَيْنِ؛ ليَعلَمَ السّامِعُ أنَّه سيَتلَقَّى حُكمًا مُخالِفًا لِما سبَقَ[2]، وللإشعارِ بذلك الباعثِ على إبلاغِ المسرّة، وتزجيةِ البشرى على أحسنِ وجهٍ ينعمون له، وتطييبُ ذواتهم به، ولغيرِهم عكسُ ذلك من تأسيسِ اغتمامهم، ومواجهتهم بالسّوء، والتَّسجيلِ عليهم بالخسران؛ إذ في الاستظهارِ على حالهم بحالِ مخالفيهم زيادةُ غمٍّ، وبالغُ أسًى وحزنٍ لهم، وعذابٌ مضاعفٌ مكرَّرٌ[3]، وفيه بيانُ عُلوِّ مَنزلةِ المتَّقينَ؛ لأنَّ الاستِدراكَ هنا كأنَّه انتشالٌ لهم ممَّا سَبَق ذِكرُه من الوَعيدِ الشَّديدِ لهؤلاء الَّذين حَقَّت عليهم كَلِمةُ العَذابِ[4].

الغرض من التَّعبير بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾:

التَّقوى سببٌ لنوالِ الغُرَفِ العظيمةِ الفخيمةِ الكثيرةِ في الجنّة

المُرادُ بـ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾: الَّذين اجتَنَبوا عِبادةَ الطّاغوتِ، وأنابوا إلى اللّه، واتَّبَعوا أحسَنَ القَولِ، واهتَدَوْا بهَدْيِ اللّه، وكانوا أولي الألبابِ؛ فأتى بالمَوصولِ؛ لِقَصدِ مَدحِهم بمَدلولِ الصِّلةِ، ولِلإيماءِ إلى أنَّ الصِّلةَ سَبَبٌ لِلحُكمِ المَحكومِ به على المَوصولِ، وهو نَوالُهمُ الغُرَفَ[5].

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 187، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 722.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 373.
(3) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 131.
(4) ابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 167.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 373.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾:

للمتَّقين غرفٌ عاليةٌ في الجنّة لتحقّقِ التَّقوى منهم في الدُّنيا

أوثر التَّعبيرُ بالفعل الماضي ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾؛ للدّلالةِ على تحقّقِ التّقوى ووقوعها منهم، فهم اجتنبوا محارمَ اللّه، وأدَّوا فرائضه في الدُّنيا، فاستحقّوا في الآخرةِ الغرفَ العالية في الجنّة على تقواهم التي تحقّقَتْ منهم في الدُّنيا.

إيثار التَّعبير بالرُّبوبيّة ﴿رَبَّهُمۡ﴾، وإضافتها إلى ضميرِ المتَّقين:

تشريفُ المتّقينَ برضا ربّهم المحسنِ إليهم؛ لاتّقائهم ما يُسخِطُه

عُدِلَ عن اسم الجَلالةِ إلى لفظِ الرَّبِّ المُضافِ إلى ضَميرِ المُتَّقينَ في قَولِه: ﴿ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ﴾؛ لِما في تلك الإضافةِ مِن تَشريفِهم برضا رَبِّهم عنهم[1]، ولِما في معنى الإحْسانِ في لفظ الرُّبوبيّة؛ من الإشارة إلى كَرَم المُتَّقينَ بما لَهم مِن أصالَةِ الرَّأْيِ؛ الَّتي أوْجَبَتْ خَوْفَهُمْ؛ مَعَ تَذَكُّرِ الإحْسانِ؛ لِيَدُلَّ عَلى أنَّ خَوْفَهم عِنْدَ تَذَكُّرِ الانْتِقامِ أوْلى، فقد جَعلوا بينهم وبينَ سخَطِ المحسنِ إليهم وقايةً في كلِّ حركةٍ وسكنةٍ، فلم يفعلوا شيئًا من ذلك إلّا بنظرٍ يدلّهم على رضاه[2].

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿لَهُمۡ﴾ على ﴿غُرَفٞ﴾:

المبالغةُ في تخصيصِ الغُرَفِ بالمتّقين واستحقاقِهم لها إكرامًا لهم

في تقديم شبه الجملة ﴿لَهُمۡ﴾ على المسندِ إليه ﴿غُرَفٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ﴾ مبالغةٌ في تخصيصِ الغُرَف بالمتّقين، فهي خاصّةٌ بهم مقصورةٌ عليهم، وكذلك الاهتمام بالمقدَّم والتَّشويق للمؤخَّر، والغرضُ من كلّ هذا المبالغةُ في استحقاقهم لهذا الجزاء، وبيانُ إكرامِ اللّهِ لهم.

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لَهُمۡ﴾:

اختصاصُ المتّقين بالغُرَف مبالغةٌ في إكرامهم

اللّامُ في قوله: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾ للاختصاص، والمعنى: أنَّ الغُرَفَ مخصّصةٌ لَهم في الجَنَّةِ دون غيرهم، وقولُه: ﴿مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾ لهم أيضًا؛ لأنّ ما فوق البناءِ تابعٌ له، والمعنى:

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 373.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 482.

أُعِدَّتْ للَّذين اتّقوا ربّهم في الجَنَّةِ أطباقٌ من الغُرَفِ[1]، والغرضُ المبالغة في إكرامهم باختصاصهم بهذه الغُرَف.

الغرض من تنكير ﴿غُرَفٌ﴾:

غُرَفٌ كثيرةٌ عظيمةٌ محكماتٌ شديدةُ العلوّ للمتّقين تزيدُ في بهجةِ ساكنيها

نكّرَ البيانُ القرآنيُّ لفظةَ ﴿غُرَفٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾؛ لإفادةِ التّفخيم والتّعظيم والتّكثير، بما يدلُّ على علوِّ هذه الغرف؛ ويزيدُ من بهجةِ ساكنيها، فهي غُرَفٌ كثيرةٌ وعظيمةٌ محكماتٌ "شديدةُ العلوّ"[2]، لا يُحدُّ حدّها ولا يُقدر قدْرُها، فيها ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بَشَر، وحسبُك إشارةً إلى رفعةِ شأنها أنّ اللّهَ جلَّ شأنُهُ بانيها، وقد أشارَ النّبيُّ ﷺ إلى علوّها بقوله: «إنّ أهلَ الجنَّةِ يتراءَون أهلَ الغُرَف من فوقهم، كما تتراءَون الكوكبَ الدُّرّيَّ الغابِرَ في الأفق، من المشرقِ أو المغرب؛ لتفاضلِ ما بينهم، قالوا: يا رسولَ اللّه، تلكَ منازلُ الأنبياء لا يبلغُها غيرهم؟ قال: بلى، والذي نفسي بيده؛ رجالٌ آمنوا باللّه وصدَّقوا المرسلين»[3]، وفي هذا تبشيرٌ للمتّقين وتثبيتٌ لهم على الحقّ.

نكتة التَّعبير بالغرف دون الغرفات:

غُرفٌ كثيرةٌ أعدّها اللّهُ للمتّقين في الجنّة

عبّر البيانُ القرآنيُّ بجمعِ التَّكسير ﴿غُرَفٌ﴾ لا بجمعِ القلّة (غرفات)؛ للدّلالةِ على كثرةِ هذه الغُرف التي أعدّها اللّه للمؤمنين، وهذا أنسبُ مع تنكيرِ الغرف الدّالِّ على عظمتها وكثرتها، ومع تكرارِ ذكرِ الغرف في الآية، فكان في التَّنكيرِ وجمعِ التَّكسير وتكرارِها مبالغةٌ في كثرةِ وعظمةِ الغرف التي أعدّها اللّه للمتّقين في الجنَّة، وفي هذا مزيدُ إنعامٍ وإكرامٍ وتبشيرٍ لهم.

معنى ﴿مِّن﴾ ودلالتها في قوله: ﴿مِّن فَوْقِهَا﴾:

﴿مِّن﴾ في قوله تعالى: ﴿غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ﴾ إمّا ابتدائيَّةٌ، أو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 373 - 374.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 482.

(3) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم: (3256).

غرفٌ ملتصقةٌ يتنعّمُ المتّقون بالتَّنقُّلِ فيها

هي لتأكيدِ تطابقِ الغُرَفِ بعضِها فوقَ بعضٍ، وفي المعنيين دلالةٌ على التصاقِ هذه الغرفِ، فهي أطباقٌ من الغرفِ الملتصقة، بما يومئ إلى أنّ المتّقين متنعِّمون بالتَّنقُّل فيها[1].

في الغرفِ الشَّديدةِ العلوِّ مزيدُ تنعّمٍ فيها

الغرض من الإضافة في ﴿فَوۡقِهَا﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾ أضافَ البيانُ القرآنيّ لفظ (فوق) إلى الضَّميرِ العائد إلى الغُرَف، لا إلى الَّذين اتّقوا، فلم يقلْ: (لهم غُرفٌ من فوقهم)؛ لكونِ الغُرَفِ في قَرارٍ تَقَرُّ بِهِ العُيونُ؛ بخلافِ ظُللِ أهلِ النّار[2]، وللإشارةِ إلى أنّ المتّقين مُتَنعِّمونَ بالتَّنقُّلِ في تلك الغُرَفِ، وليسوا محبوسينَ في مَكانِهم، والغرفُ ملتصقةٌ برؤوسهم[3]، وللإشارةِ إلى أنّ الغرفَ شديدةُ العلوِّ، وفي هذا من التّنعّم والإكرام ما فيه[4].

من نعيمِ الجنّة أنّ الأنهار تجري من تحتِ الغرفِ العليا والسُّفلى

الغرض من تقديم ﴿مِّن فَوۡقِهَا﴾ على ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾:

في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ قدّم ﴿مِّن فَوۡقِهَا﴾ على ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾؛ للدّلالةِ على أنّ الأنهارَ تجري من تحتِ تلكَ الغرف العليا والسُّفلى، ولو قال: (لهم غرفٌ مبنيّة تجري من تحتها الأنهار ومن فوقها غرف) لدلّ على أنّ الأنهارَ تجري من تحتِ الغرفِ السُّفلى فقط، ولكنّه في التَّقديمِ شملَ الجريانُ العليا والسُّفلى، ولا عجبَ من جري الماءِ عليها فوقًا وتحتًا، فهي مبنيّةٌ بناءً يتأتّى معه جريُ الأنهارِ من تحتها، وذلك على خلافِ علالي الدُّنيا، فيفيدُ الوصفُ بذلك أنّها سويّتْ تسويةَ البناءِ على الأرض، وجُعلتْ سطحًا واحدًا يتأتّى معه جريُ الأنهارِ عليه، على أنّ مياه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 374.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 482.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 374.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 482.

الجنّة لَمّا كانت منحدرةً من بُطْنانِ العرشِ - على ما في الحديث - فهي أعلى من الغرف[1].

بلاغة المقابلة:

شتّان بين ما للمتّقين من درجاتٍ عاليةٍ وما للكفرةِ من دَرَكاتٍ سافلةٍ

ما أعدَّهُ اللّه للمتَّقين في قوله: ﴿لَهُمۡ غُرَفٞ مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ مُقابِلٌ لِما جعلَه لأهلِ النّارِ في قَولِه: ﴿لَهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ ظُلَلٞ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحۡتِهِمۡ ظُلَلٞۚ﴾، وقد خولِفَ بيْنَ الحالَتَين: فجُعِل لِلمُتَّقينَ غُرَفٌ مَوصوفةٌ بأنَّ فَوقَها غُرَفًا تجري من تحتها الأنهار، وجُعِلتْ لِلمُشرِكينَ ظُلَلٌ مِنَ النّارِ، وكذلك مِن تَحتِهم ظُلَلٌ؛ لِلإشارةِ إلى أنَّ المُتَّقينَ مُتَنعِّمونَ بالتَّنقُّلِ في تلك الغُرَفِ، وإلى أنَّ المُشرِكينَ مَحبوسونَ في مَكانِهم، وأنَّ الظُّلَلَ مِنَ النّارِ مِن فَوقِهم ومِن تَحتِهم؛ لِتَتَظاهَرَ الظُّلَلُ بتَوجيهِ لَفحِ النّارِ إليهم مِن جَميعِ جِهاتِهم[2]، إضافةً إلى ما تتضمّنهُ المقابلةُ من بيانِ ما أعدّ اللّهُ للمتّقين من درجاتٍ عاليةٍ في جنّاتِ النَّعيمِ بمقابلة ما للكفرةِ من دَرَكاتٍ سافلةٍ في الجحيم[3].

سرّ وصف الغرف بالوصف ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ ومجيئه مفردًا:

غرفٌ حقيقيّةٌ عاليةٌ مهيَّأةٌ من الآن للمتَّقين تكريمًا لهم

وصْفُ الغُرَفِ بأنّها مبنيَّةٌ في قولِه: ﴿مِّن فَوۡقِهَا غُرَفٞ مَّبۡنِيَّةٞ﴾ للإشارةِ إلى رفعةِ شأنِ الغرفِ، حيث إنّ اللّهَ تعالى بانيها[4]، ولِلدَّلالةِ على أنَّها غُرَفٌ حَقيقيَّةٌ، ليستْ أشياءَ مُشابِهةً لِلغُرَفِ؛ فَرقًا بَيْنَها وبيْنَ الظُّلَلِ الَّتي جُعِلتْ لِلَّذين خَسِروا يَومَ القيامةِ؛ فإنَّ ظُلَلَهم كانتْ مِن نارٍ، أو تشبيهًا لها بالمنازلِ اللّاصقةِ للأرض؛ أي: ذِكرُ الوصفِ تَمهيدٌ لقولِه: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾؛ لأنَّ المعروفَ أنَّ الأنهارَ لا تَجْري إلّا تحتَ المنازلِ السُّفليَّةِ؛ أي: لم يَفُتِ الغُرَفَ العلويَّةَ شَيءٌ مِن مَحاسنِ المنازلِ السُّفليَّةِ، أو أُريدَ أنَّها مُهيَّأَةٌ لهم مِنَ الآنَ، "قبل أنْ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 244.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 374.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 249.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 244.

يقدموا عليها؛ زيادةً في تكريمهم وحسنِ لقائهم"[1]، فهي موجودةٌ؛ لأنَّ اسمَ المفعولِ كاسمِ الفاعلِ في اقتضائه الاتِّصافَ بالوصفِ في زمَنِ الحالِ؛ فيكونُ إيماءً إلى أنَّ الجنَّةَ مَخلوقةٌ مِنَ الآن، أو أنْ يكونَ الوصفُ احترازًا عن نَوعٍ مِن الغُرَفِ تكونُ نَحتًا في الحَجَرِ في الجبالِ، كغُرَفِ ثَمودَ، أو أنْ يكونَ ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ وصفًا للغُرَفِ باعتبارِ ما دلَّ عليه لَفْظُها مِن معنى المبنيِّ المُعْتَلي؛ فيكونَ الوصفُ دالًّا على تَمكُّنِ المعنى الموصوفِ؛ أي: مَبنيَّةٌ بِناءً بالغًا الغايةَ في نَوعِه، فقد بُنِيتْ عَلَى وجهِ الإحكامِ وأنواعِ الزِّينة، وجري المياه وغير ذلك، كقولِهم: لَيلٌ ألْيَلُ؛ أي: شديدُ الظُّلمةِ، وظِلٌّ ظَليل[2].

وجاء بالوصف ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ مُفْرَدًا؛ كَما هو المُطَّرِدُ في وَصْفِ جَمْعِ الكَثْرَةِ لِما لا يَعْقِلُ[3].

سرّ فصل جملة ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ عمّا قبلها:

لغرفِ المتّقين في الجنّة وصفٌ آخر وهو أنّها تَجري مِن تحتِها الأنهارُ

قولُه تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ تتمّةُ وصفِ الغرف التي أعدّها اللّٰه للمتّقين في الجنَّة؛ فجملةُ ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا﴾ صفةٌ ثانية لـ﴿غُرَفٞ﴾ أو حالٌ منها[4]، ولَمّا كانتِ المنازِلُ لا تَطيبُ إلّا بالماءِ، وكان الجاري أشرَفَ وأحسَنَ[5]؛ بيّن أنّه تَجري مِن تحتِ تلك الغُرَفِ الأنهارُ المُتدَفِّقةُ[6].

غرضُ وصفِ الغُرف بوصفين: ﴿مَّبۡنِيَّةٞ﴾ و﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾:

في تعددِ وصفِ الغرفِ مبالغةٌ في تنعُّمِ المتّقين وزيــــادةٌ في سرورهم

وَصَفَ سبحانه الغُرفَ بوصفين: أنّها مبنيّة، وأنّها تجري من تحتها الأنهار؛ وذلك للإشارةِ إلى المبالغةِ في التّنعُّم؛ و"ليكون ذلك

(1) سيد طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 210.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 505، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 374 - 375.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 482.

(4) الهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 550.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 482.

(6) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 40، والشوكاني، فتح القدير: 4/ 524.

أدعى إلى زيادةِ سرورهم"[1]، فهي بالإضافةِ إلى أنّها مبنيّةٌ عاليةٌ معدّةٌ للمتّقين من الآن وتنتظرهم، فهي أيضًا تجري من تحتها الأنهار؛ لأنّ المنازلَ لا تطيبُ إلّا بالماء، ولأنّ الماءَ الجاريَ أشرفُ وأحسن[2]، والمعنى: تجري من تحتِ الغرفِ جميعًا من الطَّبقة السُّفلى والطَّبقة العليا من غيرِ تفاوتٍ بين العلوّ والسّفل؛ لأنّ القدرةَ صالحةٌ لأكثرَ من ذلك[3].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿تَجۡرِي﴾:

أنــهــارٌ تـجـري تـحـت الـغـرفِ باستمرارٍ وتجدّدٍ دائـمـةٌ بـدوامِ نعيمِ الجنَّة

استعمالُ الفعلِ المضارع في قوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾؛ للدّلالةِ على تجدّدِ واستمرارِ جريان الماءِ تحتَ هذه الغرف، فهو جريانٌ دائمٌ لا ينقطعُ، وهذا يتناسبُ مع دوامِ نعيمِ الجنّة الَّذي لا ينقطع، وفيه تأكيدٌ على حقيقةِ جريانِ الأنهارِ وتقرّرها بشكلٍ قاطع، ممّا يضفي قوّةً على الوعدِ الإلهيّ وثباته، كما أنّ فيه تقريبًا لصورةِ مشهدِ جريان الماء في الجنَّة، فنعيمُ الجنّة ما لا عينٌ رأتْ ولا أذنٌ سمعتْ ولا خطرَ على قلبِ بشر.

الغرض من تقديم الجارّ والمجرور ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾:

الاهتمامُ بوصفِ موضعِ جريانِ الأنهارِ إشارةً إلى مزيدِ التّلذّذ

قدّمَ البيانُ القرآنيُّ شبهَ الجملة ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾ على الفاعل ﴿ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾؛ اهتمامًا بالمقدّم وهو جريانها "من تحتِ تلكَ الغرف؛ أي: عَلَى الأرْض؛ أي: من تحتِ أشجارها، فيتلذَّذُ بذلك أصحابُ الغرف العليا والسُّفلى"، وتشويقًا للمؤخّر، وهي الأنهار[4].

معنى ﴿مِن﴾ ودلالتها في ﴿مِن تَحۡتِهَا﴾:

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾ إمّا ابتدائيَّةٌ؛

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 210.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 482.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 482.
(4) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 505.

أنهارُ الجنّةِ تبدأُ مماسَّةً لتحتِ الغرفِ ملاصقةً لها لكمالِ التّنعُّمِ والتّلذُّذِ

أي: الأنهارُ تبدأ مباشَرَةً مماسَّةً تحتَ الغرفِ وملاصقةً لها، ولو قال: (تجري تحتها) لِما دلَّ على ذلك؛ إذ من الممكن أنْ تكونَ بعيدةً، وفي هذا إشارةٌ إلى كمالِ التّنعُّمِ والتّلذُّذِ والبهجةِ والسُّرور في هذه الغرف، وإمّا صلةٌ؛ لتأكيدِ جريانِ الأنهارِ من تحتِ الغُرف.

الغرض من الإضافة في ﴿تَحۡتِهَا﴾:

من كمالِ وصفِ الغرفِ بأنّ الأنهارَ تجري من تحتها جميعًا

أُضيفَ الظَّرفُ (تحت) إلى الغرف في قوله: ﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾، ولم يضفْ إلى أهلِ الجنَّة، فلم يقلْ: (تجري من تحتهم)؛ وذلك للدّلالةِ على أنّ الأنهارَ تجري من تحتِ تلك الغرفِ العلويَّة والسُّفليَّة، فيعودُ الضَّميرُ إلى جميعِ الغرف، ولأنّ السّياقَ هنا عن وصفِ هذه الغرف والتَّنعّمِ فيها، فكان الأنسبَ إضافتُها إلى الغرفِ لا إلى أهلها، وكذلك تناسبًا مع قوله: ﴿فَوۡقِهَا غُرَفٞ﴾ ولم يقلْ: (فوقهم).

سرّ فصل جملة ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾ عمّا قبلها:

ما أعدّه اللهُ لأهلِ الجنّةِ من نعيمٍ هو وعدٌ مؤكّدٌ لا بدّ منه

فصَلَ البيانُ القرآنيُّ قولَه تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ عمّا قبلها؛ لِما بينهما من كمالِ اتّصال؛ إذا جاءتِ الآيةُ تأكيدًا لِما أعدّه اللّٰهُ للمؤمنين من الغرفِ والمنازل وما فيها من نعيم؛ أي: لَمّا ذَكَرَ يومَ القيامةِ وما يكونُ فيه؛ بَيَّن أنَّه أمرٌ لا بُدَّ منه[1]؛ أي: وعَدَهم اللّٰهُ تلكَ الغُرَف والمَنازِل وعَدًا مؤكَّدًا لا يُخلِفُه؛ فاللّٰهُ لا يُخلِفُ ما وعَد به عِبادَه، بل يوفي به سُبحانَه[2].

سرُّ التّعبير بالمفعول المطلق ﴿وَعۡدَ﴾:

مفعولٌ مطلقٌ مؤكّدٌ للوعدِ الموجود

عبّرَ البيانُ القرآنيُّ بالمصدرِ الدّالّ على الفعلِ النّاصبِ له، وهو واجبُ الإضمارِ في قوله تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾؛ تأكيدًا للوعدِ الَّذي تتضمّنه الآية؛ من كونِ المتّقين لهم تلكَ الغرف المبنيّة[3]؛ أي: وعدهم

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 482.

(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 276، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 92، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 722.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 482.

تعالى بذلك وعدًا لا يخلفه؛ لأنّه سبحانه ليس من شأنه أنْ يخلفَ الموعدَ الَّذي يعدهُ لعباده[1]، ولم يأتِ لفظُ ﴿وَعۡدَ﴾ منوَّنًا؛ لكونه جاءَ مضافًا للاسم الجليل؛ ليفيدَ مع التّأكيدِ نوعَ هذا الوعد؛ بأنّه وعدُ اللّهِ الَّذي لا يتخلّف أبدًا.

الغرض من إضافة الوعد إلى الله ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾:

وعـــدُ الــلــهِ مـتـحـقّـِقٌ، فلا يُتصوَّرُ مع اسمه الجليلِ إخلافٌ

إضافةُ ﴿وَعۡدَ﴾ إلى الاسمِ الأعظم الجامع لكلّ صفات الجلال والجمال والكمال في قوله تعالى: ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ مُؤْذِنةٌ بأنَّه وعْدٌ عظيمٌ من العظيمِ سبحانه وموفًى به[2]؛ فإنّه لا يتصوّرُ مع استحضارِ الاسمِ الأعظم وما له من الجلالِ إخلافٌ[3]؛ أي: كلمةُ ﴿وَعۡدَ﴾ اكتسبتْ قيمتها والتّأكيدِ والتَّحقّق فيها من إضافتها إلى الاسمِ الجليل.

كما أنّه تعالى في كثيرٍ مِن آياتِ الوَعدِ صَرَّح بأنَّ هذا وعْدُ اللّه، وأنَّه لا يُخلِفُ وعْدَه، ولم يَذكُرْ في آياتِ الوَعيدِ ألبتَّةَ مِثلَ هذا التَّأكيدِ وهذه التَّقويةِ؛ وذلك يدُلُّ على أنَّ جانِبَ الوَعدِ أرجَحُ مِن جانبِ الوَعيدِ[4].

موقع جملة ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ ممّا قبلها ودلالته:

تذييلٌ يؤكّدُ أنَّ الوعدَ من اللهِ لا يتخلَّف

وَقَعتْ جُملةُ ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ بَيانًا لِمَعنى ﴿وَعۡدَ ٱللَّهِ﴾[5]؛ لأنّ إضافةَ الوعدِ للاسم الجليل تؤذنُ بعدمِ تخلّفه؛ أي: أتبعَ ذلك بيان ما يلزمُ من كونه وعدَهُ بقوله على سبيلِ النّتيجة: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ﴾[6]، وهو تذليلٌ يحقّقُ الكلامَ السّابق ويؤكّده.

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 12/ 210.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 375.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 482.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 439.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 375.
(6) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 483.

دلالة النَّفي بـ﴿لَا﴾:

استمرارُ عدمِ خُلفهِ سبحانه للميعادِ دليلٌ على كمالِ صدقه وقدرته

﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ نافيةٌ، وقد استعملها دون (ما) لأنّ ﴿لَا﴾ تخلّصُ المضارعَ للمستقبل، بخلاف (ما)؛ فإنّها تخلّصُ المضارعَ للحال؛ أيْ: أرادَ الحقُّ سبحانه أنْ يبيّنَ استمرارَ عدم خُلفه للميعادِ في الحاضر وفي المستقبل، ولا سيَّما أنّ ما وعدَ اللّهُ به المؤمنينَ من نعيم الجنَّة هو المستقبل، فدلّ على كَمالِ صدقه، وكَمالِ قُدرته؛ لأنَّ إخلافَ الميعادِ إمّا أنْ يكونَ لكَذِبِ الواعِدِ، وإمّا أن يكونَ لِعَجزِه، واللّهُ تعالى مُنَزَّهٌ عن هذا وذاك؛ فهو كامِلُ الصِّدقِ، كامِلُ القُدرةِ[1].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يُخۡلِفُ﴾:

في استمرارِ وتأكُّدِ حقيقةِ عدمِ خُلفِ الله لوعده أبدًا مزيدُ طَمْأنةٍ للمؤمنين

استعملَ القرآنُ صيغة الفعل المضارع المنفيِّ فقال: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾؛ للدّلالة على تجدّدِ واستمرارِ هذا النَّفي، فاللّهُ تعالى لا يخلفُ الميعاد أبدًا، ففي هذا التَّعبير تأكيدٌ على حقيقةِ عدم خلفِ اللّهِ تعالى لوعده أبدًا، وتقرّرُ ذلك بشكلٍ قاطع، ممّا يضفي قوّةً على الوعدِ الإلهيِّ وثباته، وعدم تخلّفه، وفي هذا مزيدُ طمأنةٍ للمؤمنين بما أعدّه اللّه لهم.

الغرض من التَّعبير عن الفاعل بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾:

لا يتصوّرُ مع استحضارِ الاسمِ الأعظم وما له من الجلال والجمال إخلافٌ

في التّعبير عن الفاعلِ سبحانه بالاسم الجليل الجامعِ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمال في قوله تعالى: ﴿لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ مزيدُ تأكيدٍ بأنّ مَن كانتْ هذه صفاته لا يخلفُ وعده أبدًا، فهو وعدٌ حاصلٌ لا محالة؛ فإنّه لا يتصوّرُ مع استحضارِ الاسمِ الأعظم، وما له من الجلالِ إخلافٌ[2].

سرّ التَّعبير بالميعاد وإيثاره على غيره:

التَّعبيرُ بكلمةِ ﴿ٱلۡمِيعَادَ﴾ - التي يرجعُ معناها إلى التَّرْجية

(1) ابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 167.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 482.

بالقول[1] - في فاصلةِ الآية؛ للإيحاءِ بها إلى التّرغيب فيما عندَ اللّه، والبعثِ على كاملِ الإطماع به، وثوّقًا بوعدِ اللّهِ الكريم، الَّذي لا يمكن أنْ يُنقض، وفي ذلك تهييجٌ إلى القيام بأسبابها، والتَّشميرِ لها، والعملِ بمقتضاها، وفيه الإشارةُ إلى أنّ أسلوبَ التّرْجيةِ والإطماعِ من أساليبِ القرآنِ في التَّربية والتَّثقيفِ والتَّقويمِ والدَّعوةِ والإرشاد[2].

في زيادةِ تأكيدِ المعنى بعثٌ على كاملِ الإطماعِ بما عند اللهِ وثوْقًا بوعدِه

وقد أوثِرَ هذا اللَّفظُ على غيره كـ(الوعد)؛ لكونِ المصدرِ الميميِّ فيه زيادةُ تأكيدٍ للمعنى، والزّيادةُ في المبنى تدلُّ على الزّيادةِ في المعنى، ولم يُعبّر بلفظِ (الموعِد)؛ لأنّه مع كونه مصدرًا ميميًّا يحملُ معنى المكانِ والزَّمانِ فهو على وزن مَفْعِل.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وعد).

(2) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 156.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ حُطَٰمًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر: 21]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

في اقترانِ التَّرهيبِ بالتَّرغيبِ كمالُ التَّربية

لَمّا وصَفَ الآخِرةَ بصِفاتٍ توجِبُ الرَّغبةَ العَظيمةَ لأولي الألبابِ فيها؛ وصَفَ الدُّنيا بصِفةٍ توجِبُ اشتِدادَ النُّفرةِ عنها[1].

ولَمّا أخبَرَ سُبحانَه بقُدرتِه على البَعثِ؛ دَلَّ عليها بما تتكَرَّرُ مُشاهَدتُه من مِثلِها[2].

شَرحُ المُفرَداتِ:

1) ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾: (سلك) أصلٌ يَدُلُّ على نُفوذِ شَيءٍ في شَيءٍ، والسَّلْكُ، بالفَتحِ: مَصدَرُ سَلَكْتُ الشَّيْءَ في الشَّيْءِ فانْسَلَكَ؛ أيْ: أدْخَلْتُه فيه فدخَلَ، وكلُّ شيءٍ أدْخَلْتَهُ في شيءٍ فقد سَلَكْتَهُ فيه، واللهُ يُسْلِكُ الكفّارَ في جَهنَّمَ؛ أيْ: يُدْخِلُهُمْ فيها، والسُّلوكُ: النَّفاذُ في الطَّريقِ، يُقالُ: سَلَكْتُ الطَّريقَ، وسَلَكْتُ كذا في طريقِه[3]، ومعنى ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾: فأدخلهُ وأجراهُ عيونًا في الأرضِ[4].

2) ﴿يَنَٰبِيعَ﴾: جمع يَنبوعٍ، يُقال: نبعَ ينبعُ نبعًا ونبوعًا؛ أي: ظهَرَ[5]، واليَنْبوعُ: الجَدْولُ الكثيرُ الماءِ، ومَنابعُ الماءِ: مَخارِجُه[6]، ومعنى ﴿يَنَٰبِيعَ﴾ في الآيةِ موافِقٌ للمعنى اللُّغويِّ؛ أي: عيونًا في الأرضِ، وأحدها ينبوعٌ، وهو ما جاشَ من الأرضِ[7].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 439.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 483.
(3) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (سلك).
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 276، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 377.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والسَّمين، عمدة الحفاظ: (نبع).
(6) الفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 5/ 13.
(7) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 276.

3) ﴿مُّخۡتَلِفًا﴾: أصله: أنْ يجيءَ شيءٌ بعدَ شيءٍ يقومُ مَقامه، ومنه قولهم: اخْتَلَفَ النّاسُ في كذا، والنّاسُ خِلْفَةٌ؛ أي: مختلفون؛ لأنّ كلَّ واحدٍ منهم يُنَحّي قولَ صاحبه، ويُقيمُ نفسه مُقامَ الَّذي نَحّاهُ(1)، واختلفَ الشَّيئان: لم يتَّفقا ولم يتساويا، والاختلافُ: عدمُ الاجتماع على رأيٍ أو موقفٍ أو حكم... إلخ، كأنَّ كلًّا يذهبُ إلى ما جعله الآخرُ خَلْفه(2)، والاختلافُ والمخالفة: أنْ يأخذَ كلُّ واحدٍ طريقًا غيرَ طريق الآخر في حاله أو قوله، والخِلافُ أعمُّ من الضّدّ؛ لأنّ كلَّ ضدّين مختلفان، وليس كلُّ مختلفين ضدّين(3)، والمرادُ بـ﴿مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ في الآية: لم يتّفقا في اللَّون.

4) ﴿أَلۡوَٰنُهُۥ﴾: أصلُ (لون) سَحْنَةُ الشَّيْءِ، مِنْ ذَلِكَ: اللّوْنُ لَوْنُ الشَّيْءِ، كالحُمرَةِ والسَّوادِ، ويُقالُ: تَلَوَّنَ فُلانٌ: اخْتَلَفَتْ أخْلاقُهُ(4)، ووَرَدَ في القرآن الكريم في مواضعَ كان الكلامُ فيها على اختلافِ ألوانِ بعض ما خلقَ اللّهُ في الطَّبيعة، كالجبالِ والنَّباتِ والإنسان، ويُعبّر بِالألْوانِ عن الأجناسِ والأنواع، يُقال: فلان أتى بالألوانِ من الأحاديث، وتناول كذا ألوانًا من الطَّعام(5)، ومعنى ﴿مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾: في الأصنافِ والكيفيّاتِ والطَّبائعِ والطُّعوم وغير ذلك(6)، ولكلّ صنفٍ من الزَّرعِ ألوانٌ مختلفةٌ في أطوارِ نباته وبلوغهِ أشدَّهُ(7)، وأعراضٌ مختلفةٌ من الحمرةِ والصُّفرةِ وغير ذلك(8).

5) ﴿يَهِيجُ﴾: أصلُ الهَيَجان: شدّةُ الحركة، فالهاءُ والياءُ والجيمُ أصْلانِ صَحيحانِ: أحَدُهُما يَدُلُّ عَلَى ثَورانِ شَيْءٍ، والآخَرُ عَلَى يُبْسِ نَباتٍ، فالأوَّلُ: هاجَ الفَحْلُ هَيْجًا وهياجًا، وهاجَ الشَّيْءُ: ثارَ، والثّاني: هاجَ البقلُ يَهيجُ طالَ واصْفَرَّ وأخذَ في اليُبس، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرًّا﴾ أي: ثمّ يطولُ(9) ويغلُظُ ويرتفعُ، وييبسُ من بعد خضرته(10).

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خلف).
(2) المعجم الوسيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (خلف).
(3) الراغب، المفردات: (خلف).
(4) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (لون).
(5) الرّاغب، المُفردات: (لون).
(6) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 276، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 436.
(7) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 378.
(8) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 527.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزمخشري، أساس البلاغة، والسَّمين، عمدة الحفاظ: (هيج).
(10) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 276، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 378.

6) ﴿مُصۡفَرّٗا﴾: الصُّفْرَةُ: لونٌ من الألوانِ التي بينَ السّوادِ والبياض، وهي إلى السّوادِ أقرب[1]، وقوله: ﴿فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾؛ أي: فتراهُ من بعد خُضرته ورطوبته آخِذًا في الجفافِ، وييبسَ فصارَ أصفرَ[2].

7) ﴿حُطَٰمًاۚ﴾: (حطم) أصْلٌ واحِدٌ، وهوَ كَسْرُ الشَّيْءِ، والحُطْمَةُ: السَّنَةُ الشَّديدَةُ؛ لِأنَّها تَحْطِمُ كُلَّ شَيْءٍ، والحَطْمُ: كسرُ الشَّيء، مثل الهشمِ ونحوه، ثمّ استعملَ لكلّ كسرٍ متناهٍ، والحُطام: ما يتكسّرُ من اليُبسِ، وهو معنى قوله هنا: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾[3]؛ أي: ثمّ يجعلُ ذلك الزّرعَ بعدما صارَ يابسًا فُتاتًا متكسّرًا باليًا[4].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

في سَوقِ آياتِ اللهِ لرحلةِ إنزال الماء تثبيتٌ للمؤمنين وحجّةٌ على المعاندين

يقولُ تعالى مُبيِّنًا سرعةَ زوالِ الحياةِ الدُّنيا: ألمْ تَرَ أنَّ اللّهَ أنزَلَ مِن السَّماءِ مَطَرًا، فأدخَلَه في الأرضِ، وجعَلَه فيها عُيونًا جارِيةً، ثمَّ يُنبِتُ به زُروعًا مُختَلِفةَ الألوانِ، ثمَّ يُصابُ هذا الزَّرعُ بالجَفافِ، فتَراه مُصفَرًّا مِن بَعدِ اخضِرارِه ونَضارتِه، ثمَّ يَجعَلُه اللهُ فُتاتًا مُتكَسِّرًا؟! إنَّ في ذلك لَذِكرى لأهلِ العُقولِ الصَّحيحةِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئناف وضرب المثل:

استئنافٌ مَسوقٌ للعظةِ والاعتبار أو للتّنويه بهدي القُرآنِ

قولُه سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ استئنافٌ مسوقٌ للعظةِ والاعتبار؛ إمّا لتمثيلِ الحياةِ الدُّنيا في سرعةِ الزَّوالِ وقُربِ الاضمحلالِ بما ذُكِرَ من أحوالِ الزَّرعِ في نموِّه واخضراره، ثمَّ يُبسِه وزواله؛ ترغيبًا عن زخارفِها وزينتها، وتحذيرًا من الاغترارِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (صفر).

(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 277، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حطم).

(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 277، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 484، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 378.

بزَهرتِها، وتوقيفًا للسّامعِ على ما يَعتبرُ به من أفعالِ اللّه الدّالّةِ على فناءِ الدُّنيا[1]، وإمّا للاستشهادِ على تحقُّقِ الموعودِ من الأنهارِ الجاريةِ من تحتِ الغُرفِ بما يُشاهَدُ من إنزالِ الماءِ من السَّماءِ، وما يترتّبُ عليهِ من آثارِ قدرتِه تعالى وأحكامِ حكمتِه ورحمتِه[2].

ويحتملُ أن تكون الآيةُ استئنافًا ابتدائيًّا انتُقِلَ به إلى غَرَضِ التَّنويهِ بالقُرآنِ، وما احتوى عليه مِن هُدى الإسلام، وهو الغَرَضُ الَّذي ابتُدِئتْ به السّورةُ، وانثَنى الكَلامُ منه إلى الاستِطرادِ بقَولِه: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ [الزمر: 2] إلى هنا؛ فهذا تَمهيدٌ لِقَولِه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾ [الزمر: 22]، إلى قَولِه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ [الزمر: 23]، فمُثِّلَتْ حالةُ إنزالِ القُرآنِ، واهتِداءِ المُؤمنينَ به، والوَعدِ بنَماءِ ذلك الاهتِداءِ؛ بحالةِ إنزالِ المَطَرِ ونَباتِ الزَّرعِ به واكتِمالِه[3]، أمّا قولِه: ﴿يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾ فهو إدماجٌ؛ للتّذكيرِ بحالةِ المَماتِ.

الغرض من الاستفهام في ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾:

تقريرُ اللهِ للعبادِ بدلائلِ قدرتِه الموجبةِ للإيمانِ به

الاستفهامُ في صدرِ قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ تقريريٌّ، والرُّؤيةُ بصريّةٌ[4]، وصالحةٌ لتناولِ الرُّؤية العلميّة معًا، ومُحالٌ هنا فصلُ إحداهما عن الأخرى، والمعنى: اللّه يقرّرُ عباده بهذه الحقائقِ العظيمة، والمعنى: قد رأيتَ واتّضحَ لكَ، ويدعوهم لمعرفةِ مكانةِ النّعمِ فيها، وتقديرِ المُنْعِم بها حقَّ قدْرِه، فيؤمنون به ولا يكفرون، وهذا يتناسبُ مع عَجُزِ الآية: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، ويضافُ إلى التّقريرِ معانٍ أخرى، وفي مقدّمتها الامتنانُ على العبادِ، والتّعريضُ بأهلِ الكفرِ الَّذين لم يُلقوا بالًا للاعتبارِ

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 194.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 249.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 376.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 377.

بما ذُكر، ولفتُ الأنظارِ إلى دلائلِ قدرةِ اللّه الموجِبةِ للإيمانِ به، والامتثالِ لِما يأمرُ به أو ينهى عنه[1].

دلالة التّعبير بفعل الرّؤية مادّةً وصيغةً:

تجدُّدُ مَشاهِدِ حياةِ النّباتِ، والاعتبارُ بها متجدِّدٌ بتجدُّدها

عبّرَ بالرُّؤية دون العلم في الآية؛ لاتّساع دلالةِ لفظ الرُّؤية؛ إذ يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بالعينِ أو القلب، وإذا عُدّيَ إلى مفعولين اقتضى معنى العلم، فالرُّؤيةُ: إدراكُ المرئيّ بحاسّةِ البصرِ أو بالفكرِ والعقلِ[2]، أمّا لفظُ العلم فيدلّ على الإدراكِ والمعرفة.

والتَّعبيرُ بصيغة المضارعة لإفادةِ تجدّدِ رؤيةِ ما هو مشاهَدٌ من إنزالِ الماءِ من السَّماء، وسلْكِهِ ينابيعَ في الأرض، وإخراجِ أنواعِ الزَّرعِ المختلفة، وهيجانها، واصفرارها، وجعلها حُطامًا؛ ليكون دليلًا واضحًا مستمرًّا في كلّ حينٍ على تفرّدِ اللّهِ بالإلهيّة وعظيم قدرته على البعث، وفي تجدّدِ الرُّؤية تجدّدٌ للتَّقريرِ بهذه الحقائق.

ولمعرفةِ مكانةِ النّعمِ المذكورة وتقديرِ المنعم، وتجدّدِ الامتنانِ على العباد، والتّعريض بأهلِ الكفر والعناد.

ولإفادةِ تصويرِ رؤيةِ مَشاهدِ حياةِ النَّبات في الأرض المتجدّدة، بما يكون أدعى للاعتبارِ بمشاهدَ ذهبتِ الألفةُ بجدّتها وما فيها من عجائبَ في كلّ خطوةٍ من خُطواتها، ولتحقيقِ هذا التَّصوير أطنبَ بذكرِ السَّماء رغمَ أنّ إنزالَ الماءِ لا يكونُ إلّا من السَّماء[3].

المراد بالخطاب في ﴿تَرَ﴾:

تقريرُ اللهِ لدلائل قدرته شاملٌ لكلِّ مكلّفٍ

الخطابُ في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾ لكُلِّ مَن يَصلُحُ للخِطابِ؛ أي: تصلحُ منه الرُّؤيةُ والتّأمُّلُ؛ لأنّ المرئيَّ مشهورٌ، وليسَ المرادُ به مُخاطَبًا مُعَيَّنًا[4]، وإنْ كان الأصلُ في

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 420.
(2) الراغب، المفردات: (رأى)، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 3/ 116، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (رأى).
(3) عبد السلام الراغب، وظيفة الصورة الفنية في القرآن، ص: 223.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 377.

الخطاب أنْ يكونَ لمعيّن، وقد يتركُ إلى غيره ليعمّ كلَّ مخاطب، وفي هذا إشارةٌ إلى وضوحِ الحجّةِ وقوّتها، ويحتملُ أنّ الخطابَ للنَّبيِّ ﷺ، وكُلُّ بَشَرٍ داخلٌ معه في معناه[1]، ولكن في تخصيص النَّبيِّ ﷺ بالخطابِ حثٌّ على تأمّل هذا الدَّليل؛ تنبيهًا على عظمته[2].

دلالة التَّوكيد بـ﴿أَنَّ﴾ واسميَّة الجملة:

مبالغةٌ في بيانِ عظمةِ دلائلِ قدرةِ الله على إنزالِ المطرِ وإنباتِ النَّبات

أكّدَ البيانُ القرآنيُّ الخبرَ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ بحرف التَّوكيد ﴿أَنَّ﴾ وباسميّة الجملة التي تَدلُّ على الثُّبوتِ وقوّةِ الحُكْم وبَقائِه؛ فإنزالُ اللّه للماءِ من السَّماءِ ثابتٌ دالٌّ على قدرته سبحانه، فالتَّوكيدُ لأنّ مضمونَ الخبرِ من الآثارِ العظيمة الدّالّةِ على قدرةِ اللّه سبحانه، والتي من حقّها أنْ تُصاغَ بأساليبَ عظيمةٍ مثلِها؛ ليُكافئَ الشَّكلُ المضمونَ.

الغرض من التَّعبير بالاسم الجليل:

مَن له كلُّ صفاتِ الكمالِ قادرٌ على إنزالِ المطرِ وإنباتِ الزَّرع

في التَّعبيرِ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾ الجامعِ لكلّ صفاتِ الجلالِ والجمال والكمال تربيةٌ للمهابةِ، ومبالغةٌ في تقديرِ قدرته على هذا الخلقِ من دورةِ حياةِ النَّبات، وعلى البعثِ؛ فهو الَّذي له كل صفاتِ الكمال والقدرة[3]، أنزلَ من السَّماء ماءً بقدرته القاهرة.

دلالة التَّعبير بالخبر جملةً فعليَّة ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

إنزالُ اللهِ الماءَ من السَّماء أمرٌ متحقّقٌ متأكّدٌ ومشاهَدٌ

أتى البيانُ الإلهيّ بالخبر في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ جملةً فعليّة؛ لإفادةِ تقويةِ الحكمِ - وهو إنزالُ اللّهِ للماءِ من السَّماء وما ترتّبَ على ذلك - وتوكيدِه، بسببِ تكرارِ الإسناد؛ فقد وقعَ الفعلُ ﴿أَنزَلَ﴾ خبرًا عن المسندِ إليه؛ وهو ﴿ٱللَّهَ﴾، ووقعَ كذلك - أي: الفعلُ ﴿أَنزَلَ﴾ - في الوقتِ نفسه مسندًا إلى الضَّميرِ المستترِ العائدِ على اللّه، فكأنّ الحكمَ هنا ذُكرَ مرَّتين؛ مرّةً حين

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 526.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 483.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 483.

أُسندَ الفعلُ إلى المبتدأ، ومرّةً حين أُسندَ إلى ضميره المستترِ العائدِ إلى المبتدأ، بخلافِ ما لو تأخّرَ المسندُ إليه فقيل: (أنزلَ اللّه)، فلا يحدثُ هذا التَّكرار، بل يحدثُ الإسناد مرّةً واحدة فقط.

وقد أتى الفعلُ بصيغة الماضي؛ للدّلالةِ على تحقّقِ الوقوعِ وتأكّده، فهو واقعٌ مشاهَدٌ قد عاينوه، ويدلُّ عليه قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ التي تعني: ألم تعلم، أو ألم تخبر، والإعلامُ والإخبارُ يكونُ عن شيءٍ حدثَ وانقضى.

معنى ﴿مِنَ﴾ ودلالتها في ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

ابتداءُ نزولِ المطرِ من السَّحابِ المتكوّن في السَّماء

﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ ابتدائيّة؛ فإنّ المطرَ يبتدئ من السَّماء، أو من جهتها؛ أي: من السّحاب، ومنه إلى الأرض؛ لأنّ ماءَ المطرِ يتكوّن في طبقاتِ الجوّ العليا الزَّمْهريريَّة عند تصاعدِ البخارِ الأرضيِّ إليها، فيصيرُ البخارُ كثيفًا - وهو السَّحاب - ثمَّ يستحيلُ ماءً[1].

معنى اللّام ودلالتها في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾:

نزولُ المطرِ من أعلى طبقاتِ الجوّ حيث تتكوّنُ الأمطار

اللّام في ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ عهديَّةٌ، وهي السَّماء المعهودة التي ينزلُ منها المطر، وهي ما علا الإنسانَ، فالسَّماءُ هنا اسمٌ لأعلى طبقاتِ الجوّ حيث تتكوّنُ الأمطار[2].

فائدةُ ذكرِ قيدِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾:

تصوّرُ المشهدِ كاملًا أقوى حضورًا في الذّهنِ وأكثرُ تأثيرًا في النّفس

في كلام اللّه تعالى على إنزالِه المطرَ بأنّه ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ إطنابٌ؛ إذ المطرُ لا ينزلُ إلّا من السَّماء، وفائدةُ هذا الإطنابِ التّذكيرُ بنعمةِ إنزالِ المطر وقدرةِ اللّه على ذلك، وتصوّرُ هذا الإنزال؛ ليكونَ المشهدُ كاملًا؛ بدءًا من إنزالِ المطر، ومرورًا بسلوكهِ ينابيع في الأرض، وإنباتِ النَّباتِ وارتفاعه واخضراره إلى أنْ يصبحَ حطامًا؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 398.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 7/ 398.

فهذا أقوى حضورًا في الذّهنِ، وأكثر تأثيرًا في النّفس، ولا سيَّما أنّ الآيةَ خُتمتْ بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

الغرض من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المفعول به ﴿مَآءً﴾:

الاهتمامُ بمبدأ نزولِ المطر، والتَّشويقُ للنّازلِ، مع التَّنبيه على قدرةِ المُنزِل سبحانه

قُدّمَ الجارُّ والمجرور ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ على المفعولِ به ﴿مَآءً﴾، فلم يقلْ: (أنزل ماءً من السَّماء) باعتبارِ كونِ ﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ مبدأً لنزولِ الماء، أو لتشريفِه، فالسَّماءُ لا يستمسكُ الماءُ فيها إلّا بقدرةٍ قادرةٍ تقهره على ذلك، وللاهتمام بالمقدّم والتَّشويق إلى المؤخّر؛ لأنَّ الذِّهنَ عند تأخيرِ ما حقُّه التَّقديم يبقى مترقّبًا له مشتاقًا إليه؛ فيتمكّن لديه عند وُروده عليه أيَّما تمكُّن.

الغرض من تنكير ﴿مَآءً﴾:

ماءٌ كثيرٌ مباركٌ نازلٌ من السَّماءِ يعمُّ نفعُه كلَّ شيء

نكّرَ البيانُ الإلهيّ ﴿مَآءً﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ في سياقِ الامتنانِ والاستدلالِ على قدرةِ اللّه؛ للدّلالة على التّكثيرِ والتّفخيم والتّعميم، فهو ماءٌ عظيمٌ كثيرٌ مباركٌ يعمُّ نفعُه كلَّ شيء، فهو - فضلًا عن كونه سببَ استمرارِ الحياة - سببٌ لكلّ نعمة، كما دلّ لفظُ ﴿مَآءً﴾ هنا على التّبعيضِ وبيانِ النَّوعيّة؛ أي: نوعًا من الماءِ وهو المطر.

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾:

في ترتيبِ السَّلْكِ على الإنزالِ وتعقيبه عليه تصويرٌ رائعٌ للواقعِ المحسوس

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ عاطفةٌ، وقد أفادتْ معنيين بلاغيَّين؛ هما ترتيبُ السَّلْكِ على الإنزالِ، وتعقيبُه عليه، بما يدلُّ على قدرةِ الخالق سبحانه، وفي هذا التَّرتيبِ والتّعقيبِ تصويرٌ رائعٌ للواقعِ المحسوس الَّذي ألِفَهُ النّاسُ في حياتهم.

دلالة التَّعبير بالماضي ﴿فَسَلَكَهُۥ﴾:

سَلْكُ الماءِ بعد نزولِه من السَّماءِ متحقّقٌ؛ فهو واقعٌ ومُشاهَدٌ

جاء التَّعبير بالفعل (سَلَكَهُ) بصيغة الماضي؛ للدّلالةِ على تحقّقِ الوقوعِ وتأكّده، فهو واقعٌ مشاهَدٌ قد عاينوه، فبعدَ إنزالِ اللّهِ تعالى للمطرِ يُدخِلُه في الأرضِ على شكلِ ينابيع، وكذلك في التَّعبير بالماضي تناسبٌ مع الفعل (أنزل) الَّذي جاء بصيغة الماضي.

موقع ﴿يَنَٰبِيعَ﴾ في الإعراب ودلالته:

(يَنابيع) في قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ مَنصوبٌ على نَزعِ الخافِضِ؛ أي: سَلَكه في ينابيعَ؛ أي: في أمكِنةٍ يَنبُعُ منها الماءُ، أو مَفعولٌ به ثانٍ بتَضمينِ (سَلَكه) معنى (جعَلَه)؛ أي: جعله فيها عيونًا جاريةً[1]، أو مَنصوبٌ على الحالِ مِن الضَّميرِ في (سَلَكَه)؛ أي: فأجْراه عُيونًا في الأرضِ[2].

الماءُ النّازلُ من السَّماءِ يُدخَلُ ويُنظَّمُ في الأرضِ ثم يخرجُ عيونًا

غرض تنكير ﴿يَنَٰبِيعَ﴾:

نكّرَ البيانُ الحكيم ﴿يَنَٰبِيعَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ لإفادةِ التّكثيرِ والتّنويعِ والتّفخيم؛ فهي ينابيعُ وعُيونٌ ومجارٍ كالعروقِ في الأجسادِ كثيرةٌ ومتنوّعةٌ، تدلُّ بأفرادها ومجموعها على عظيمِ قدرةِ اللّٰه سبحانه.

ينابيعُ عظيمةٌ وكثيرةٌ تدلّ على عظيمِ قدرةِ مَن سَلَكها

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتها ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾:

﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ حرفُ جرّ يفيدُ الظَّرفيّة المكانيّة، ويدلُّ على أنّ الماءَ الَّذي نزلَ من السَّماءِ هو مستقرٌّ في جوفِ الأرض؛ غيّبهُ اللّٰهُ فيها؛ لينفذَ إلى أعماقٍ بعيدة، فهو بهذا يأخذُ وضعًا متمكّنًا ثابتًا قارًّا فيها، ويخزّنُ تحتَ طبقاتها، فهو كقوله تعالى: ﴿فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ [المؤمنون: 18].

الماءُ النّازلُ من السَّماءِ ثابت مستقرّ متمكّن في جوفِ الأرض

معنى ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتها في قوله: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ﴾:

عُطِفَ قَولُه: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعًا﴾ بحَرفِ العطف ﴿ثُمَّ﴾؛ لإفادةِ التَّراخي الرُّتَبيِّ، أو الزَّمانِ؛ وللتّنبيه على تعظيم الأمرِ فيما تلاها بأنّه محلُّ الشّاهد؛ لأنَّ إخراجَ الزَّرعِ مِنَ الأرض بعدَ إقحالِها أوقعُ في نُفوسِ النّاسِ؛ لأنّه أقرَبُ لأبصارِهم، وأنفعُ لعَيشِهم؛ إذْ هو المَقصودُ مِنَ المَطَرِ[3].

التّنبيهُ على تعظيمِ أمرِ إخراجِ النَّباتِ بعد نزولِ المطر متراخيًا

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 525.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 60، والخراط، المجتبى: 3/ 1079، والنحاس، إعراب القرآن: 3/ 136.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 249، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 377، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يُخۡرِجُ﴾ على خلاف النَّسق الماضي:

التَّعبيرُ في قوله: ﴿يُخۡرِجُ﴾ بصيغةِ المضارع على خلافِ النّسقِ الماضي في قوله: ﴿أَنزَلَ﴾ و﴿فَسَلَكَهُۥ﴾؛ للتّركيزِ على محلِّ الشّاهدِ؛ وهو تجدّدُ إخراجِ الزّرعِ من الأرضِ وحدوثه حالًا فحالًا، ولقصدِ استحضارِ الصّورةِ في الذّهن واستمرارها، بما يُظهرُ عظيمَ قدرةِ اللّه تعالى أكثر[1]، فالقادرُ على إحياءِ الأرض بعد موتها وإخراجِ النَّبات قادرٌ على البعثِ بعد الموت.

استحضارُ صورة إخراج الزَّرعِ بعد نزول المطر؛ إظهارًا لعظيم قدرة الله تعالى

معنى الباء، والغرض من تقديم الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على المفعول ﴿زَرۡعٗا﴾:

معنى الباء في ﴿بِهِۦ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا﴾ السَّببيّة، فالماءُ جعله اللّهُ سببًا في إخراجِ الزّرع، وتقديمُ الجارِّ والمجرور ﴿بِهِۦ﴾ على المفعولِ ﴿زَرۡعٗا﴾ من باب تقديم السَّببِ على المسبَّب، وهذا يتناسبُ مع ترتيبِ الآية من إنزالِ المطر أوّلًا ثم إخراجِ الزّرع.

الماءُ جعله اللهُ سببًا في إخراجِ الزّرع

الغرض من تنكير ﴿زَرۡعٗا﴾:

أفادَ تنكيرُ لفظ ﴿زَرۡعٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُخۡرِجُ بِهِۦ زَرۡعٗا مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ التّعظيمَ والتّفخيمَ والتّكثيرَ والتّنويعَ لهذا الزّرع؛ فيشملُ كلّ ما يُستنبتُ؛ فهو زرعٌ كثيرٌ ومتنوّعٌ وفخيمٌ يدلُّ على عظمةِ قدرةِ اللّه سبحانه الَّذي أخرجه.

زرعٌ كثيرٌ فخيمٌ ومتنوّعٌ يدلُّ على عظيمِ قدرةِ الَّذي أخرجه سبحانه

نكتة الإفراد في لفظ ﴿زَرۡعٗا﴾ وبلاغة الإدماج فيها:

أفردَ البيانُ القرآنيُّ لفظ ﴿زَرۡعٗا﴾ ولم يقلْ: (زروعًا)؛ لمحًا للأصلِ، وهو المعنى المصدريّ؛ أي: الإنباتُ؛ من إطلاقِ المسبّب ﴿زَرۡعٗا﴾ وإرادة السَّبب (الإنبات)، لما فيه من دلالةِ على طلاقة قدرة اللّه تعالى، فألمحَ بالإفرادِ إلى السَّبب، وألمحَ باللَّفظ ﴿زَرۡعٗا﴾ إلى المُسبَّب، فشملتِ الدَّلالةُ المَعْنيين معًا، وهذا من بديعِ الإدماج[2].

في الإدماجِ دلالةٌ على قدرةِ الله تعالى المطلقة

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 249، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 377.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 421.

سرّ تقييد الزَّرع بالوصف بصيغة اسم الفاعل ﴿مُّخۡتَلِفًا﴾:

اختلافُ المسبَّبِ مع اتِّحادِ السَّببِ أعجبُ في الصَّنعةِ وأدلُّ على بديعِ القدرة

لَمّا كان اختلافُ المسبَّب مع اتحادِ السَّببِ أعجبَ في الصَّنعةِ وأدلَّ على بديعِ القدرة قيَّده بـ﴿مُّخۡتَلِفًا﴾[1]، كما ألمَحَ تقييدُ الزَّرع ﴿زَرۡعٗا﴾ بالوصف ﴿مُّخۡتَلِفًا أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ إلى كثرةِ أنواعه، وتبايُنِها في اللَّونِ والطَّعمِ والقيمةِ الغذائيّة، والتَّعبيرُ باسم الفاعل؛ للدّلالةِ على ثبوتِ ودوامِ هذا الاختلافِ في جميعِ أنواعِ الزّرعِ رغم كثرتها وتباينها.

نكتة إيثـار الدَّلالة على التّباينِ باختلاف الألوان دون غيرها، ونكـتة جمعها ﴿أَلۡوَٰنُهُۥ﴾:

فـي الألـــوانِ الكثيرةِ والمتنوّعة التي يخرجُ بها الزّرع دلائلُ على عظمةِ الخالق

آثرَ البيانُ القرآنيُّ الدَّلالةَ على التَّباينِ في الزّرع باختلافِ الألوانِ دون غيرها، فلم يقلْ: (مختلفًا طعومه أو أشكاله أو أحجامه أو فوائده الغذائيَّة)؛ لأنّ الألوانَ أظهرُ للنَّظرِ من تباينِ الطُّعوم والأشكال والأحجام، والفوائدِ الأخرى التي لا تكادُ تُحصر، وكذلك لاتّساعِ دلالةِ لفظ (لون)؛ "فإنّ اللَّونَ يُطلقُ على النَّوعِ ولو مَجازًا، يُقال: ألوانُ الطَّعام"[2]، قال في المفردات: "اللَّونُ معروفٌ، وقد يعبّرُ بالألوانِ عن الأجناسِ والأنواع"[3]، فالتَّعبيرُ بلفظ ﴿أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ تناولَ أنواعًا كثيرة متضمّنةً لكيفيّاتٍ متعدّدة، وفي مجيء لفظ ﴿أَلۡوَٰنُهُۥ﴾ مجموعًا إفادةٌ للتّكثير والتّنوّع، ممّا يعطي مزيدًا من الدَّلائل على قدرته سبحانه، حيث إنَّ جميعَ هذا الزَّرع يُسقى بماءٍ واحد، ويخرجُ الزَّرعُ بهذه الألوان الكثيرة والمتنوِّعة.

سرُّ التَّعبير بـ﴿ثُمَّ﴾:

تـراخـي إخـراجِ الزّرع بعد إنزالِ المـطـر أوقـعُ في نفوسِ النّاس

عَطَفَ البيانُ الحكيمُ بـ﴿ثُمَّ﴾؛ لإفادةِ التّراخي الرُّتَبي، كَشَأْنِها في عَطْفِ الجمل؛ لأنَّ إخراجَ الزّرع من الأرض بعد إقحالها أوقعُ في نفوسِ النّاس؛ لأنّه أقربُ لأبصارهم وأنفعُ لعيشهم؛ إذ هو المقصودُ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.

(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 506.

(3) الراغب، المفردات: (لون).

من المطر(1)، فكان استعمالُ ﴿ثُمَّ﴾ لعطفِ الأخبارِ فيه إلغاءً للوازمِ الرُّتبيَّة بين إخراجِ الزَّرعِ وبين إنزالِ المطر بعد إقحالِ الأرض، حتى كأنّما يقعُ التَّقابلُ بين مرتبتين: الإقحالِ، والإخراجِ، فيُفضي الحالُ عند ذلك إلى التَّأثيرِ في النّفوس أيَّما تأثير(2).

دلالة التَّعبير بـ﴿يَهِيجُ﴾ مادَّةً وصيغةً:

هيـاجُ الـدُّنيـا واستواءُ زهرتها يـنـطـوي علـى بـادرةِ فنائها وسرعةِ زوالها

لفظُ ﴿يَهِيجُ﴾ له أصلان: أحدهما يدلُّ على ثَوَرانِ شيء، والآخرُ على يُبْس نبات(3)، فيُبْسُ النَّباتِ مُؤْذِنٌ بثورته وانفصاله، وهذا موحٍ بأنّ هياجَ الدُّنيا، واستواءَ زهرتها الأخّاذَ الخلابَ ينطوي على بادرةِ فنائها، وسرعةِ زوالها، ودنوّ انقضائها، وفي ذلك إرشادٌ للعبادِ إلى عدمِ الاغترارِ بمتعِ الحياة الدُّنيا والرُّكونِ إليها، ففي التَّعبيرِ بالهيجانِ إشارةٌ إلى أنّ الخروجَ عن الحدِّ غيرُ محمودٍ في شيء من الأشياء، فإنّه يعودُ عليه بالنَّقص، فالإيقافُ بعد قوةِ الإشراف دالٌّ على القهرِ ونفوذِ الأمر(4).

وقد جاء اللَّفظُ بصيغة المضارعة الدّالّة على التَّجدّدِ والحدوث؛ لإفادةِ تصويرِ هيَجان الزَّرعِ وفنائه، وتجدُّدِ ذلك للرّائي؛ ممّا يكون له بالغُ الأثرِ في بيانِ حقيقةِ الدُّنيا وفنائها وتزهيدِ النَّفسِ بها.

بلاغة المجاز في قوله: ﴿يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾:

إسنادُ الهيَجانِ إلى الزَّرعِ مجازٌ والفاعلُ الرّياح

الزُّروعُ ذاتِ المواسم إذا نضِجتْ جفّتْ أعوادها فخفّتْ، فترى تحريكَ الرّياحِ لها أبينَ وأظهرَ، وتسمعُ لحركاتها صوتًا ملحوظًا، ولذا عبّر البيانُ الحكيم بفعل ﴿يَهِيجُ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾؛ أي: يتحرّكُ الزّرعُ بعملِ الرّياحِ حركاتٍ تشبهُ هياجَ الهائجِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 377.

(2) الدسم، سورة الزمر دراسة بلاغية تحليلية، ص: 131.

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هيج).

(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.

وثورةَ الثّائرِ من ذوي الحياة، ولذا فإسنادُ الفعل ﴿يَهِيجُ﴾ إلى ضميرِ الزَّرع (هو) مجازٌ عقليٌّ علاقته المفعوليّة، لأنّ الرّياحَ هي الفاعلُ لتحريكه وتمايله[1].

هيَجانُ الزَّرعِ وانصرامه يترتّبُ عليه ويتسبّبُ عنه رؤيته مصفرًّا

معنى الفاء ودلالتها في ﴿فَتَرَىٰهُ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ عاطفةٌ تفيدُ التَّرتيبَ والتّعقيبَ، والسَّببيةَ، "فيتسبّبَ عن هيجه - وهو شدّةُ ثورانه في نموّه بعد التّمامِ بتوقيعِ الانصرامِ - أنّك تراهُ مصفرًّا"[2].

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿فَتَرَىٰهُ﴾ ومرجع الضَّمير فيه:

رؤيةُ مشهدِ هيجانِ الزَّرعِ واصفراره متجدّدٌ من المخاطَبِ وحاضرٌ أمامَ عينه

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾ أسندَ القرآنُ فعلَ (الرُّؤية) إلى خيرِ الخلقِ ﷺ أو إلى المخاطَب في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾؛ للزّيادةِ في تعظيمِ هذا المعنى - وهو هيجانُ الزَّرعِ وفناؤه - وللحثّ على تدبّره[3]، وزادَ في هذا المعنى التَّعبيرُ بالفعلِ المضارع (تراه) الّذي يدلُّ على التَّجدّدِ والاستمرارِ، ويفيدُ التّصوير، فرؤيةُ مشهدِ هيجانِ الزَّرعِ واصفراره متجدّدٌ متكرّرٌ من الرّائي، فهو مشهدٌ حاضرٌ يراهُ المخاطَبُ أمامَ عينه في كلّ وقتٍ، ممّا يبعثُ على مزيدِ التَّفكُّرِ والتَّدبُّرِ فيه.

دلالة التَّعبير باسم المفعول ﴿مُصۡفَرّٗا﴾:

مشهدُ شدّةِ اصفرارِ الزَّرعِ بعد هيجانه دليلٌ على القدرة التّامّةِ للخالقِ سبحانه

عبّر النّظمُ الحكيم بصيغةِ اسم المفعول ﴿مُصۡفَرّٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا﴾؛ للدّلالةِ على ثبوتِ هذا الاصفرارِ لكلّ زرعٍ بعد هيجانه، وكذلك للمبالغةِ في اصفراره؛ ليعطيَ صورةً دقيقةً وواضحةً للتَّغيُّر الَّذي يحدثُ للزَّرعِ بعد أنْ يهيجَ، فيساعدُ ذلك في تصويرِ المشهدِ بشكلٍ حيٍّ وواقعيٍّ، حيث يتحوّلُ الزّرعُ من شدّةِ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 422.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.

الاخضرارِ إلى شدّةِ الاصفرار نتيجةَ هيجانِهِ؛ أي: الاصفرارُ حاصلٌ بسببِ هيجانِ الزّرع، وهذا كلّه وفقَ دورةٍ طبيعيَّةٍ للنَّبات، ممّا يدلّ أنّ لهذا الكون خالقًا، قدرتُه تامّةٌ في خلقهِ وتدبيره سبحانه.

دلالة التَّعبير بالمضارع ﴿يَجۡعَلُهُۥ﴾:

جعلُ الزّرعِ حطامًا بعد هيجانهِ أمرٌ متجدّدٌ صورتُه حاضرةٌ للمُشاهِدِ

عبّر البيانُ القرآنيُّ عن فعلِ الجعل بصيغةِ المضارع في قوله تعالى: ﴿يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾؛ توافقًا مع الأفعالِ الواردة بصيغةِ المضارع في الآية: (﴿يُخۡرِجُ﴾، ﴿يَهِيجُ﴾، ﴿فَتَرَىٰهُ﴾) وللدّلالةِ على التَّجدّدِ والحدوث، فجعلُ الزُّروعِ ذاتِ المواسم كالقمحِ والشَّعير وغيرها حطامًا أمرٌ متجدّدٌ في دورةِ حياةِ هذه النَّباتات، وهي صورةٌ مشاهدةٌ للرّائي لا ينكرها أحدٌ، ففي إحضارِ الصّورةِ إلى الذّهنِ بليغُ الأثرِ في النّفوسِ الغافلةِ عن تأمّلِ عظيمِ خلقِ اللّهِ سبحانه.

الغرض من إسناد الفعل ﴿يَجۡعَلُهُۥ﴾ إلى الذّات العليَّة:

كما الإخراجُ والحطامُ منه سبحانه فالمبدأُ والمصيرُ منه سبحانه

في قَوله: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾ عُلِّقَتْ هذه الحالةُ بجَعْلِ اللّهِ تعالى، كالإخراجِ؛ لكون السّياقِ لإظهارِ القدرةِ التّامَّة[1]، ولكَونِ الإخراجِ والجعلِ مِنَ الآثارِ القَويَّةِ الدّالّة على عظيم قدرته ﷻ؛ إذ لا طمَعَ لمخلوقٍ في شَيءٍ مِن ذلك، وفي هذا إيذانٌ بأنّ المبدأ - وهو الإخراج - منه سبحانه، وأنّ المصير - وهو الحطام - منه سبحانه، أمّا ما بينَ المبدأِ والمصيرِ فقد أُسندتْ فيها الأفعالُ إلى فاعليها بإقدارِ اللّهِ لها على الفعل[2].

بلاغة الإدماج في قوله: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾:

التّذكيرُ بحالةِ الموتِ هو المقصودُ من ذكرِ جعلِ الزَّرعِ حطامًا بعد خضرته

في قوله: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾ إدماجٌ؛ للتّذكيرِ بحالةِ المماتِ واستواءِ النّاس فيها من نافعٍ وضارٍّ[3]، فحالةُ جعلِ الزّرعِ حطامًا مُفتَّتًا بعدما خرجَ بألوانٍ مختلفةٍ تشبهُ حالةَ الموتِ عند الإنسانِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 422.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 377.

وفنائه بعدما كان حيًّا يتنفّس؛ إذ الآيةُ مسوقةٌ للدّلالةِ على قدرةِ اللّٰهِ على البعثِ بعد الموت.

توجيه المتشابه اللَّفظيِّ بين قوله: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾ وقوله: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾:

اختيارُ الألفاظِ بما يتناسبُ مع سياقِ الآيةِ بلاغةٌ قرآنيَّة

بينَ قوله تعالى هنا: ﴿ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾، وقوله في سورةِ الحَديدِ: ﴿كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ [الحديد: 20] مُناسَبةٌ حَسَنةٌ، حيثُ أتى في الزُّمر بلفظ ﴿يَجۡعَلُهُۥ﴾ وفي الحديد بلَفظِ ﴿يَكُونُ﴾ [الحديد: 20]؛ ووَجْهُ ذلك: أنَّ آيةَ (الزُّمَر) ورَدَتْ مَورِدَ التَّنبيهِ على الاعتبارِ، وبالنَّصّيَّةِ على ذلك افتُتِحَت الآيةُ، فقال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ﴾؛ فنسَبَ سُبحانه كلَّ حالةٍ من تقلُّباتِ الزَّرعِ وتَنقُّلاته إلى نفْسِه - من لَدُنْ خُروجِه ونَباتِه وما بعْدَ ذلك إلى تحطُّمِه - إذ لا طمَعَ لمخلوقٍ في إعادةِ شَيءٍ من ذلك، ثمَّ قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾، فافتُتِحَت الآيةُ واختُتِمَتْ بالتَّنبيهِ على الاعتبارِ، فلمّا كان مَبْناها على ذلك ناسَبَ نِسبةُ الفعلِ إليه تعالى؛ فقال: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ﴾.

وأمّا آيةُ (الحديدِ) فورَدَتْ مِثالًا للدُّنيا وغُرورِها، وإعراضِ الكافرِ عن سُرعةِ تَقلُّبِها وزَوالِها وفَنائِها؛ فلمّا قُصِدَ هنا المثالُ ناسَبَ هذا المقصودَ قولُه: ﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ﴾ [الحديد: 20]؛ إذ لمْ يَتقدَّمْ في أوَّلِ الآيةِ النِّسبةُ للفاعلِ، اكتِفاءً بما هو غيرُ خافٍ على كلِّ ذي عقْلٍ سليم؛ فجَرى آخِرُها على ما يَجْري عليه أوَّلُها، كما جَرى في آخرِ آيةِ (الزُّمَرِ) من التَّنبيهِ على ما جَرى عليه أوَّلُها، وتَناسَبَ ذلك كلُّه، ولم يناسبْ - بناءً على ما صُدِّرَت به كلُّ آيةٍ منهما - أنْ يقالَ في آيةِ الزُّمَرِ: (ثُمَّ يَكونُ)، ولا أن يقالَ في آيةِ الحديدِ: (ثُمَّ يَجْعَلُهُ)، بلْ ورَدَ كلٌّ على ما يُناسِبُ(1).

(1) الإسكافي، درة التنزيل، ص: 1255 - 1256، والغرناطي، ملاك التأويل: 2/ 426، والأنصاري، فتح الرحمن، ص: 495، والكرماني، أسرار التكرار في القرآن، ص: 219، والفيروزابادي، بصائر ذوي التمييز: 1/ 407.

الغرض من التَّعبير بالمفعول الثّاني مصدرًا ﴿حُطَٰمٗا﴾:

المبالغةُ في قدرته تعالى على جعلِ الزَّرعِ مُفتَّتًا متكسّرًا أدعى للتَّفكُّر والاعتبار

في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾ جاءَ المفعول الثّاني ﴿حُطَٰمًاۚ﴾ بصيغة المصدر؛ لإفادةِ التَّأكيدِ والمبالغة في قدرةِ اللّه التامَّة سبحانه، فهو قادرٌ على جعلِ الزَّرعِ حطامًا مُفتَّتًا متكسّرًا بعد خضرته واشتداده، ممّا يدعو إلى التَّفكّرِ والاعتبارِ؛ فإنّ القادرَ على ذلك قادرٌ على إماتةِ الإنسانِ وفنائه، وقادرٌ على بعثِه بعد الموت.

الغرض من تنكير المفعول به ﴿حُطَٰمًاۚ﴾:

تحوّلُ الزَّرعِ إلى حطامٍ حقيرٍ يدلُّ على عظمةِ قدرةِ الله

أفادَ تنكيرِ لفظ ﴿حُطَٰمًاۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَجۡعَلُهُۥ حُطَٰمًاۚ﴾ التَّحقيرَ فهو حطامٌ كثيرٌ حقيرٌ، وفي ذلك دلالةٌ على عظمةِ قدرةِ اللّهِ سبحانه الَّذي سلبهُ الحياةَ، فجعلهُ حطامًا بعد أنْ كان زرعًا مختلفًا ألوانه، وهو من أظهرِ مواطنِ التّذكُّرِ والاعتبار في الآية.

نكتة الفصل في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾:

استئنافٌ يقرّرُ قدرةَ اللهِ على البعثِ بعد الموت

لَمّا تَمَّ هذا المِنوالُ البَديعُ الدّالُّ بلا شَكٍّ لكُلِّ مَن رآه على أنَّ فاعِلَه قادِرٌ على الإعادةِ لِما يُريدُ بعدَ الإبادة، كما قدَرَ على الإيجادِ مِن العَدَم، والإفادةِ لكُلِّ ما لم يكُنْ؛ جاءتْ جملة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مستأنفةً؛ لتعليلِ وتقريرِ أنّ ما سبقَ دالٌّ على قدرةِ اللّهِ على البعثِ بعد الموت، ولهذا الغرضِ جاءتْ مؤكَّدةً؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إنكارَهم غايةٌ في الحُمقِ والجُمودِ[1].

الغرض من جملة التَّذييل ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ﴾:

في التَّذييل خلاصةٌ ونتيجةٌ لِما سبق من الأطوارِ من مَبدَئِها إلى مُنتَهاها

قولُه تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ مُبَيِّنٌ لِلاستِفهام التَّقريريِّ، وفَذْلَكَةٌ لِلأطوارِ المُستَفهَم عنها؛ فهي إشارةٌ إلى ما ذُكِر تفصيلًا[2] وتفريعٌ عنه وخلاصةٌ له ونتيجةٌ عنه؛ أي: إنّ كلَّ ما سبقَ من هذه الأطوار والأحوال من مَبدَئِها إلى مُنتَهاها ذكْرى بالدَّلالة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 484، والهرري، حدائق الروح والريحان: 24/ 551.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 250.

على ما يَغفُلُ عنه العاقِلُ من تَقريبِ البَعثِ وإمكانِه، مع الاستِدلالِ على انفِرادِ اللّهِ تَعالى بالتَّصرُّفِ[1].

بلاغة توالي المؤكِّدات في ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾:

التَّنبيهُ على أنَّ إنكارَهم غايةٌ في الحُمقِ والجُمودِ

أكّدَ البيانُ القرآنيُّ الخبرَ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ بعدّةِ مؤكِّدات: ﴿إِنَّ﴾ التي تُفيدُ توكيدَ النِّسبةِ بين المسندِ والمسندِ إليه، واسميّةِ الجملة التي تدلّ على الثُّبوتِ والدَّوام، ولامِ التَّوكيد؛ لأنّ مضمونَ الخبر من الحقائقِ العظيمة التي يصوغها القرآنُ في أساليبَ عظيمةٍ مثلها، وللإيحاءِ بالاعتبارِ من هذه الآيات والعبرِ على وجهِ الإيجاب[2]، فكان كلُّ هذا التَّأكيدِ "للتَّنبيهِ على أنَّ إنكارَهم غايةٌ في الحُمقِ والجُمودِ"[3].

الغرض من تقديم ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على اسم ﴿إِنَّ﴾ ﴿لَذِكْرَىٰ﴾:

فــي الـتَّـقـديـم اهتمامٌ بالمقدَّم وتـفـخـيـمٌ لـه، وتـــشـــويــقٌ للمؤخَّر

قدّم البيانُ الحكيم الجارَّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على اسم ﴿إِنَّ﴾ ﴿لَذِكْرَىٰ﴾، ولم يقلْ: (إنّ ذكرى لأولي الألباب في ذلك)؛ اهتمامًا بالمقدَّم - وهو المشارُ إليه ممّا ذُكر مِنَ الإنزالِ إلى آخرِ الأطوارِ - واعتناءً بشأنه وتفخيمًا له، لعلّ النّاس يقبلونهُ على تدبّرِ هذه الأطوارِ والأحوال والانتفاعِ بها دينًا كما انتفعوا بها دُنيا، وتشويقًا للمؤخَّر؛ وهو التَّذكُّرُ والاعتبارُ، ومراعاةً لفاصلة الآية.

معنى ﴿فِي﴾ ودلالتها في قوله: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

في تشبيهِ المُشارِ إلـيـه بـالـظَّـرفِ والـــذِّكـــرى بالمظروفِ تفخيمٌ لشأنها

حرفُ الجرّ ﴿فِي﴾ يفيدُ معنى الظَّرفيّةِ المجازيَّة، ودخوله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ مؤذنٌ بأنّ في الكلام استعارةً بالكناية، فقد شبَّهَ فيها المُشار إليه بالظَّرف، والذِّكرى بمظروفٍ في ذلك الظَّرف؛ اعتناءً بها وتفخيمًا لشأنها[4]، فهي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 378.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 422.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 423.

ذكرى متوغّلةٌ متمكّنةٌ في تدبّرِ هذه الأطوار من إنزالِ الماء وسَلْكه ينابيعَ في الأرض وإخراجه زرعًا وهيجانه وتحوّله بعد ذلك إلى حطامٍ، وذلك لمن كان له قلبٌ أو ألقى السَّمعَ وهو شهيد.

الغرض من التَّعبيرِ باسم الإشارة مصحوبًا بلام البُعد ﴿ذَٰلِكَ﴾ وتحديدِ المشار إليه:

تفخيمُ المشارِ إليه وتعظيمه وعلوّ رتبته؛ لدلالته على كمالِ قدرة الخالق سبحانه

الإشارةُ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ إلى جميع ما ذُكر قبله؛ مِنَ الإنزالِ إلى آخرِ الأطوارِ، واستعمالُ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الَّذي يُستخدمُ للبعيد لتفخيم المُشار إليه وتعظيمه، ولِلإيذانِ ببُعدِ مَنزلته في الغَرابةِ والدَّلالةِ على ما قُصِدَ بَيانُه[1]، تنزيلًا لبُعد المكانة منزلةَ بُعد المكان، فالمعنى المشارُ إليه يدلّ على كمالِ قدرته سبحانه، وتمام حكمته، حيث أنشأه مُدرَّجًا من حالٍ إلى حالٍ تُغايِرُ الأولى؛ وأظهرَ في كلٍّ منها صنعًا وحكمًا يتجدّدُ فيها لأولي الأبصار[2]، وفيه إشارةٌ أيضًا على علوّ رتبته في الدَّلالةِ على قدرةِ اللّهِ على البعث بعد الموت.

نكتة تنكير (ذِكْرَى):

تذكيرٌ عظيمٌ واضحٌ على قدرته سبحانه على الخلق والبعثِ وما يكون بعده

أفاد تنكيرُ (ذكرى) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ التَّفخيمَ والتَّعظيم لها؛ أي: إنّ في ذلك الَّذي ذكرناه - من الإنزالِ إلى آخر الأطوار - تذكيرًا عظيمًا واضحًا على البعث وما يكون بعده لأولي العقولِ الصّافيةِ جدًّا[3].

معنى اللّام ودلالتها في ﴿لِأُوْلِي﴾:

ذكرُ مَشاهدِ إنزالِ المطر وباقي الأطوار؛ لأجلِ التَّفكُّرِ والاعتبار

(اللّام) في قوله تعالى: ﴿لِأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ حرفُ جرّ، وهي بمعنى (كي) أو (لأجْلِ)، والمعلَّلُ هو ما في مدلولِ الآيةِ من مضمّنِ معنى الدَّلالةِ على قدرةِ اللّه تعالى، فهذا المَذكورُ مِنَ الإنزالِ إلى

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 250، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 378.
(2) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 507.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 484.

آخِرِ الأطوارِ تذكيرٌ لكلّ العقلاء، إلّا أنّ المنتفعينَ بهذه الذِّكرى هم أولو العقولِ الصّافية جدًّا؛ أي: إنّ اللّهَ تعالى ذكر هذا الدَّليلَ - من إنزال المطر وإخراجِ الزَّرع إلى أنْ يجعله حطامًا - لأجلِ التَّفكُّر والاعتبارِ وتذكُّرِ قدرةِ اللّه على البعث، فمن لم يتذكّر ولم يعتبرْ فليس من أولي الألباب.

نكتة تخصيص أولي الألباب بالذِّكرى دون غيرهم:

الـذيـن لـم يـستـفيـدوا من الأدلّةِ بمنزلةِ مَن عَدِموا العقولَ

خَصَّ اللّهُ تعالى أولي الألباب في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ دون غيرهم؛ للدّلالةِ على أنّه لا يتذكّرُ بهذه الدَّلائل إلّا أصحابُ العقولِ الصَّحيحة الخالصة السَّليمة من شوائبِ الخلل؛ فهم الَّذين ينتفعونَ بألبابهم فيهتدون بما نصبَ لهم من الأدلّة، وهم الَّذين استدلّوا فآمنوا، وفي هذا تعريضٌ بأنّ الَّذين لم يستفيدوا من الأدلّةِ بمنزلة من عَدِموا العقول[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 23/ 379.

﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزّمر: 22]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من الاستدلالِ بالأدلَّةِ الكونيَّةِ إلى الاستدلالِ بالأدلَّةِ القرآنيَّةِ

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة حالَ الذين اتَّقوا ربَّهم، وما لهم في الجنَّةِ من الغُرفات، وأتْبَعَ ذلك تمثيلَ ما في الحياةِ الدُّنيا من إنزال الماء من السَّماء، وإخراجِ النَّبات من الأرضِ، وما يتبعه من دورة الحياة حتّى يكون حطامًا، وختم الآيةَ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر: 21]؛ ناسبَ بعد ذلك بيانُ أولي الألباب الَّذين ينتفعون من المشاهداتِ الكونيَّة؛ للاستدلال بها على الحقائق النّورانيَّة، الذين يستمعون القرآنَ، فتنشرُح صدورُهم له، فقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾، فهو انتقالٌ من الانتفاع بالأدلَّةِ الكونيَّة، إلى الانتفاعِ بالأدلَّة القرآنيَّة.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شَرَحَ﴾: (شرح) أصلٌ يدُلُّ على الفَتْحِ والبيانِ، واشتقاقُهُ من تشريحِ اللَّحم[1]، يُقالُ: شَرَحْتُ اللَّحمَ، وشَرَّحْتُهُ، ومنه: شَرْحُ الصَّدرِ، أي: بَسْطُهُ بنورٍ إلهيٍّ وسكينة من جهة اللّٰه تعالى وروحٍ منه، وفي التَّنزيل: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ﴾ [الأنعام: 125][2]، والشَّرح كذلك: الكشفُ، يُقال: شرح فُلانٌ أمرَهُ، أي: أوضحَه، وشرحَ مسألةً مُشكلةً: بيَّنها، وشَرحَ الشَّيءَ يشرحُهُ شَرْحًا، وشرَّحه: فتحَه، وبيَّنه، وكشَفه، وكلُّ ما فُتح من الجواهر، فقد شُرح أيضًا[3].

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرح).
(2) الرّاغب، المفردات: (شرح).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (شرح).

والمراد بشرحِ الصَّدْرِ للإسلامِ في الآية: جَعْلُهُ مُستعِدًّا لقَبول الحقِّ، فهو بمقتضى هذا الشَّرح والقبول صار على نورٍ وهدايةٍ من ربِّه[1].

2) ﴿فَوَيْلٌ﴾: أصلُ اللَّفظ يدلُّ على إعلانٍ باصطلاءِ عاقبة مُهلكة لعملٍ أو تصرُّف[2]، فالوَيْلُ: الحُزْن والهَلاك والمشقَّة مِنَ العَذاب[3]، وتُقالُ لمن وقَعَ في هَلَكة يَستَحِقُّها، تقول: ويلٌ لِزَيدٍ، فإن وقع في هَلَكة لَم يستَحِقَّها؛ يُقال: ويحٌ لِزَيدٍ، يَكونُ فيهِ مَعنى التَّرحُّم[4]، والوَيلَةُ: الفَضيحَةُ والبَلِيَّةُ، والجَميعُ الوَيلاتُ[5]، ومن قال: ويلٌ وادٍ في جهنَّم؛ فإنَّه لم يُرد أنَّ ويلًا في اللُّغة هو موضوع لهذا، وإنَّما أراد مَن قال اللَّه تعالى ذلك فيه؛ فقدِ استَحقَّ مقرًّا من النّار، وثبتَ ذلك له[6]، والمقصود بالوَيْلِ في الآيةِ: سوءُ الحالِ، والوعيدُ، والتَّهديدُ.

3) ﴿لِّلْقَٰسِيَةِ﴾: (قسو) أصلٌ يدلُّ على صلابةٍ في شيءٍ، يُقالُ: قَسا الجِسْمُ يَقْسو قَسْوًا وقَساوَةً، أي: صَلُبَ، مِن ذلك: الحَجَرُ القاسي؛ أي: الصُّلْبُ[7]، والقَسوةُ: الشِّدَّةُ والغِلظةُ، وضِدُّها: اللّينُ والرِّقَّةُ[8]، وتأتي بمعنى: اليُبْسِ، يُقال: أرضٌ قاسيةٌ؛ إذا كانت يابسةً لا تُنبِتُ شيئًا[9]، وقسوةُ القَلْبِ: مُستعارةٌ لِقلَّة تأثُّر العَقْل بما يُسْدَى إلى صاحبِه مِنَ المواعِظ ونحوِها، وعليه فالمُراد بالقاسي في الآية: المُتَّصف بالقَساوة في الحال[10].

4) ﴿ذِكْرِ﴾: أصلُ الذِّكرِ الحِفْظُ الَّذي تَذْكُرُه، وهو خِلافُ النِّسيان[11]، ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ بِاللِّسانِ، يقولونَ: اجْعَلْهُ منك على ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذّالِ، أي: لا تَنْسَهُ، والذِّكْرُ: الصّيتُ والثَّناءُ[12]، وهو أيضًا: الكتابُ الَّذي فيه تفصيل الدّين، وكلُّ كتابٍ من كُتبِ الأنبياء عليهم السلام

---

(1) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 212.

(2) جبل، المعجم الاشتقاقيّ المؤصّل: (ويل).

(3) ابن منظور، لسان العرب: (ويل).

(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ويل).

(5) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ويل).

(6) الرّاغب، المفردات: (ويل).

(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيديّ، تاج العروس: (قسو).

(8) ابن منظور، لسان العرب: (قسا).

(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 302.

(10) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 381.

(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).

(12) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).

ذِكْرٌ[1]، والذِّكْرُ كذلك: الصَّلاةُ، وقراءةُ القرآن، والتَّسبيحُ، والدُّعاء، والشُّكرُ، والطّاعة[2]، والمقصود بالذِّكر في الآية: القرآنُ الكريم، الَّذي هو سببٌ لاطمئنان قُلوبِ المُؤمنين.

5) ﴿ضَلَٰلٍ﴾: (ضلل) أصلٌ يدلُّ على ضياعِ الشَّيءِ وذَهابه في غير حقِّه[3]، والضَّلالُ: الغَيبوبَةُ والخَفاءُ والسَّتْرُ، يُقالُ: ضلَّ الماءُ في اللَّبن؛ إذا غاب، وضلَّ الكافِرُ: غابَ عَن الحُجَّة، وضلَّ النّاسي؛ إذا غابَ عَنهُ حِفْظُه[4]، والضَّلالُ أيضًا: الانحرافُ والميلُ عنِ الطَّريق، وأضْلَلْتُه، أي: أضَعْتُه[5]، وضِدُّه: الاهتداءُ، والاستقامةُ، والرَّشادُ، والمقصود بالضَّلالِ في الآيةِ: الضَّياع والخُسران.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المؤمنُ صاحبُ انشراحِ صدرٍ واتِّساعِ قلبٍ، وعلى ضدِّه قاسي القلب

تُبيِّن الآية الكريمةُ التَّقابل بيْنَ المؤمنِ والكافِر، وبيْنَ المُهتدي والضّالِّ، فمَنْ وسَّع اللّهُ قَلبَهُ لِمَعرفته، وفَسَحَهُ للإقرارِ بوَحدانيَّته، والخُضوعِ لطاعته، والعَمَلِ بدينِه، فهو على بَصيرةٍ ويَقينٍ من رَبِّه، وشُعورٍ بالرّاحةِ والطُّمأنينةِ والسُّرورِ، كمَنْ ليس كذلك ممَّن هو ضَيِّقُ الصَّدرِ عنِ استِماعِ الحَقِّ واتِّباعِه، قاسي القَلبِ، مُعرِضٌ عن ذِكرِ الرَّبِّ تعالى؟ فوَيلٌ للَّذين تَقسو قُلوبُهم؛ إذا سَمِعوا ذِكرَ اللّهِ، فلا تَلينُ لِكتابِه، ولا تَتذكَّرُ آياته، ولا تَطمَئِنُّ عندَ ذِكْرِه، ولا تَخشَعُ، ولا تَعي، بل هي مُعرِضةٌ عن رَبِّها، أولئك القاسيةُ قُلوبُهم مِن ذِكرِ اللّهِ، في ضَلالٍ ظاهرٍ عن الحَقِّ[6].

(1) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (ذكر).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ذكر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضلَّ).
(4) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ضلَّ).
(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضلَّ).
(6) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 527، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 247، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 93، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 722.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الفاءِ وأثرُ ارتباطِها الدَّلاليِّ:

شرحُ الصَّدر بالإسلامِ ثمرةُ التَّذكُّرِ الحقِّ

إذا اعتبرنا الفاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ عاطفةً على مذكورٍ قبلَ الهمزةِ، فالكلام تفريعٌ على السّابق، وإذا اعتبرناها عاطفةً على مُقدَّر بعد الهمزةِ، فالكلام "جارٍ مجرى التَّعليلِ لما قبلَه، من تباينِ حالَي المُهتدي والضّالِّ"[(1)]، وعليه: فالجملة مستأنفةٌ استئنافًا تعليليًّا لما قبلَهُ، فلمّا ذَكَر أولي الألبابِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿٢١﴾﴾ [الزمر: 21]؛ بيَّن أنَّ علَّة ذلك بما تفضَّل اللهُ تعالى به على عباده المؤمنين بأن شرح صدورَهم للإيمان.

بلاغةُ الاستفهامِ:

بعد معرفةِ أدلَّة الحقِّ لا سبيل إلّا الإقرار

جاء التَّعبيرُ بأسلوبِ الاستفهام في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ لتقرير حال النّاس بالانتفاع من القرآن من عدمه[(2)]، فإنَّ النّاس قسمان: مؤمنٌ منتفع بالقرآن، وكافر ضالٌّ ظالم لنفسه معرض عن تعاليم الإسلام، وشأنُ الاستفهام أن يُؤثِّر في المخاطَب، فيقرِّرَه بالحقِّ، بعد معرفةِ أدلَّته.

براعةُ تقديمِ الهمزةِ على الفاءِ:

تقديرُ المحذوفِ بعد الهمزة بما يتَّسق مع مضمون الآيةِ

قدَّم النَّظمُ الجليل حرفَ الاستفهام على الفاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَـٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾؛ لأنَّ الاستفهام له الصَّدارةُ في ترتيب الجملة في النَّظم العربيِّ، والفاء تكون على هذا إمّا عاطفةً على سابقٍ للهمزةِ كما سبق، وإمّا على مقدَّر بعد الهمزة، ويكون المقدَّرُ بعد الهمزةِ كلامًا عامًّا يدخل فيه الصِّنفان: مَن شُرِحَ صدرُه، ومَن قسا قلبُه، وتقديرُ الكلامِ: "أكلُّ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 252.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 379.

النّاس سواء، فمَن شرح اللّه تعالى صدره، وخَلَقَهُ مستعدًّا للإسلام، فبقي على الفطرة الأصليَّة، ولم تتغيَّر بالعوارض المكتسبة القادحة فيها، فهوَ بموجب ذلك مستقرٌّ عَلى نورٍ عظيم مِنْ رَبِّهِ، كمَن قسا قلبُهُ، وحَرِج صدرُه بتبديل فطرة اللّه تعالى بسوء اختياره، واستولى عليه ظُلُمات الغيِّ والضَّلال، فأعرض عن تلك الآيات"[1].

دلالةُ الاسم الموصول:

عبَّر النَّظمُ الجليل باسم الموصول (من) في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾؛ للدَّلالة على العموم، فيدخلُ فيه كلُّ من شرح اللّه صدره للإسلامِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في مفردةِ الشَّرحِ:

تصويرُ المعاني وتجسيدها أوقع في الذّهن وأرسخُ في الفهم

استعار النَّظمُ الجليل لفظَ الشَّرح في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾؛ للدَّلالة على قَبول الحقِّ والاهتداء إلى سبيل اللّه تعالى، فمعنى الشَّرح: البسط والمدُّ، واستُعير هنا للدَّلالة على أنَّ الإنسان المؤمن قد خلقه اللّهُ تعالى مستعدًّا لقبول الحقِّ والإيمان باللّه من غير امتناع[2]، فالاستعارة تصريحيَّة تبعيَّةٌ؛ إذ شبَّه قبولَ الحقِّ بشرح الصَّدر، والاستعارةُ أبلغُ من الحقيقةِ؛ لما فيها من تصوير الحَدَثِ وتجسيده، فكأنَّ الصَّدر يُفتَح، ويوضَع فيه الهُدى، مع ما فيه من إسناد الأمر إلى اللّه تعالى.

دلالةُ التَّعبير بصيغةِ الماضي:

لا ينالُ المدحَ إلّا من أيقن بعد توفيقٍ

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة الماضي للفظ الشَّرح في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾؛ للدَّلالة على قَبولِه الإسلام، فإنَّ ما يكتسبه المؤمنُ من تعاليم الإسلام ودعوته تجعله فَرِحًا بحاله، مسرورًا برضا ربِّه، مستخِفًّا

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 246.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 334، وينظر: ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 527.

بما ينالُهُ من مصائب الدُّنيا؛ لما لديه من يقين بكونه على الحقِّ، وأنَّه مثابٌ على عملِهِ وصبرِهِ[1]، فالتَّعبيرُ عن ذلك بالفعل الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّق شرح الصَّدر، فإنَّ المدحَ لا ينالُ إلّا المتيقّن من الإسلام، المتحقِّق من الإيمان.

غرضُ إسنادِ فعلِ الشَّرحِ إلى اسمِ الجلالة:

تشريفُ الأمرِ وتنويرُ الصَّدرِ بذكرِ صاحبِ الجلالِ والكمالِ

أسند النَّظمُ الجليل لفظَ الشَّرح إلى اسم الجلالة في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه قد وقع على أتمِّ الوجوه؛ لأنَّه فعلٌ صادر من الخالق العظيم ذي العِلْم والقدرة والكمال[2]، ولتشريفِ مَن شُرِح صدرُه للإسلام، وهنَأ قلبُه بالإيمان، ولإكسابِ النَّظم هيبةً وجلالًا، فإنَّ الأعمال الجليلةَ تزدادُ جلالًا عند إسنادِها إلى الجليلِ سبحانه.

نُكْتَةُ ذِكْرِ الصَّدرِ دونَ القلبِ:

الصَّدر هو موضعُ الشُّعورِ بالرّاحةِ والطُّمأنينة

آثرَ النَّظمُ الكريم أن يعملَ فعلُ الشَّرح في الصُّدور دون القلوب في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ﴾، فلم يقل: (شرح اللّه قلبه للإيمان)، فجعل الصَّدرَ محلَّ الشَّرحِ لدخولِ الإسلام؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ أثرَ الإسلام والشُّعور ببردِهِ إنَّما يكون في الصَّدرِ، فالصَّدرُ هو موضع الرّاحةِ والسَّكينة، وأمّا القلبُ؛ فهو موطن القَبولِ والإيمان، ولذلك إذا تحيَّر الإنسانُ، وتردَّد في أمر يجد في نفسِه غمًّا يتأثَّر منه جهازُه العصبيُّ، فيظهر تأثُّره في انضغاط نفسه حتّى يصيرَ تنفُّسُهُ عسيرًا، ويكثرَ تنهُّدُه، وكان عضو التَّنفُّسِ في ذلك الصَّدر، فشُبِّه الانضغاط بالضّيق والانطباق، فقالوا: ضاق صدره، وقالوا في ضدِّ ذلك: شرح اللّهُ صدره، وجمع بينهما قولُه تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 380.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 334.

﴿وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ﴾ [الأنعام: 125][1].

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

الفاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾ للتَّفريعِ، أي: إنَّ كونه على نورٍ وهدًى من ربِّه مترتِّبٌ ترتُّبَ السَّببِ على شرح صدره للإسلام[2]، فإذا شرح اللّهُ صدرَ العبادِ للإسلامِ، فأسلموا، وآمنوا، وأيقنوا، كانوا حينَئذٍ على نورٍ من ربِّهم، يهديهم به إلى الخير، ويصرفهم عن السّوءِ، وهذا من عظيمِ الوعدِ لما ينالُ المؤمنين من النّورِ الرَّبّانيِّ.

نــورُ الـبـصـيرة مـسـبَّـبٌ عـن شرح الصَّدر

بلاغةُ الجملة الاسميَّة:

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالجملة الاسميَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾؛ للدَّلالة على تأكيد الخبر، وتقوية المعنى، وأنَّ تلك الكينونة ثابتةٌ لا تزول، فهو ثابت على الهدى والنّور.

التَّمكُّنُ من النّور لطفٌ من الله لا يزول

بلاغةُ الاستعارةِ التَّمثيليَّة:

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿عَلَىٰ﴾ الدّالِّ على الاستعلاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾، وهو استعلاء مجازيٌّ، فإنَّ النّور لا يُعلى عليه، بل المراد الدَّلالةُ على تمكُّنهم من النّور والهدى، فشَبَّه المؤمنَ الرّاسخَ بالهداية بمَن ركب الدّابَّة، وثبت على ظهرها، فهي استعارة تمثيليَّة؛ للدَّلالة على التَّمكُّن من النّور، كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5][3].

ثبوت المؤمن على الـهـدى كثبوت الـرّاكـب على دابَّته

نُكتَةُ استعمالِ حرفِ الاستعلاءِ دونَ الظَّرف:

عدل النَّظمُ الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 379، 380.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 485.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 381.

التَّمكُّن من الشَّيء أدلُّ على ثبوته وبقائه مَن حَوْزه ومُلْكه

بالتَّعبير بالاستعلاء دون المِلكيَّة بأن يقول: (عنده نور)، أو: (له نور)؛ وذلك للدَّلالة على استمرار ذلك النّور، واستقراره فيه[1]، فإنَّ التَّمكُّن أبلغُ من الامتلاك والحوز، فإنَّ ما تحوزه قد تفقدُه، أمّا المتمكِّن من الشَّيء؛ فإنَّه لا يزول عنه.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة في مفردةِ النّور:

انكشافُ الحقِّ للمؤمن بالهدى كانكشاف الظَّلام بالنّور

استعار النَّظمُ الجليل لفظَ النّور في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾؛ للدَّلالة على الهداية والمعرفة، كما أنَّ الظَّلام يُستعار للضَّلال[2]؛ لأنَّ النّور تتجلي به الأشياءُ، كما أنَّ المهتديَ يخرج بالهدى من غياهب الضَّلالة[3]، فشَبَّه الهدى الَّذي يُظْهِر الحقَّ للنّاس بالنّور الذي يكشف الأشياء، فيُبْصِر به النّاسُ ما كان مستورًا بالظَّلام، فالاستعارة تصريحيَّةٌ، والجامعُ الانكشافُ والمعرفةُ والظُّهور.

والاستعارة أبلغُ من الحقيقةِ، وذلك أنَّ النّور أداةٌ موصلة لرؤية الحقِّ، وغايةٌ عظيمةٌ لاستمرارِ ذلك، فإذا غاب النّورُ؛ غابت الرُّؤيةُ، فهو خادِمٌ للبصر والبصيرةِ، وبه يتحقَّق الانكشافُ والظُّهور، فذِكْرُه أبلغُ من ذكر الهداية؛ لأنَّه يلزم ذِكْرُها بذِكْره، دونَ العكس.

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظِ ﴿نُورٖ﴾:

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ النّور بصيغة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾؛ للدَّلالة على عظَمة ذلك النّور وفخامة شأنه[4]، فهو نورٌ أيُّ نورٍ.

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتُها في ﴿مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾:

النّورُ مِنَ اللهِ كاملٌ طاهرٌ موصِلٌ للكمالات

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾، وهي هنا ابتدائيَّة، أي: إنَّ هذا النّورَ موصوف

(1) الخفاجيّ، عنايه القاضي: 7/ 334.
(2) الخفاجيّ، عنايه القاضي: 7/ 334.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 381.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 485.

بأنَّه واردٌ وصادرٌ عن اللّٰه تعالى، فهو نور كامل لا تخالطه ظلمةٌ[1]، ونورٌ طاهر لا يعتريه أيُّ خَلَلٍ، ونورٌ موصِلٌ للّٰه تعالى بدون وساطة.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ الرَّبِّ دونَ اسمِ الجلالةِ:

توحيدُ الرُّبوبيَّةِ هو المُعين على الطّاعة الحَقَّة والعبادة التّامَّة

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الرَّبِّ دونَ اسم الجلالة، مع تقدُّم ذكرِه في صدر الآية في قوله جلَّ شأنُه: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾؛ للدَّلالة على عظيم تلك الهداية؛ إذ جعلها من مظهر الإحسان والتَّربية، لا من مظهر الجلالة، وبيان أنَّ ذلك النّورَ هو محض فضلٍ من مولاه الَّذي سبق منه الإحسان[2]، ولبيانِ أنَّ هذا النّورَ هو نورُ رعايةٍ وعنايةٍ ورحمةٍ يوصِل إلى المطلوب الحقِّ، الوارد على لسانِ الحقِّ، ولا يُعلم توحيدُ الأُلوهيَّة ما لم يوقف على توحيد الرُّبوبيَّة.

نُكْتَةُ الإضافةِ في ﴿رَّبِّهِۦۚ﴾:

كمالُ عناية اللّٰه بالمُهتدي

أُضيفَ لفظ الرَّبِّ إلى الضَّمير في قوله سبحانه: ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ﴾؛ للدَّلالة على كمال العناية به، وأنَّ انقيادَهُ إنَّما كان بإحسان ربِّه إليه[3]، ولتشريفه في هذا الانتساب.

دلالةُ الفاءِ التَّفريعيَّة:

بيانُ مآلِ الباطل عند مخالفةِ الحقِّ

افتتح النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ بالفاء التَّفريعيَّة، ففرَّع جزاء الكافرين على ما وصف من حال المؤمنين الَّذين شرح اللّٰه صدورَهم للإسلام، فهُم على نور من ربِّهم، فأتبع الضِّدَّ بضِدِّه، فدلَّ التَّفريعُ على أنَّ حال الكافر الذي لم يشرحِ اللّٰهُ تعالى صدرَه - فكان قلبُهُ قاسيًا - ليس لدعوة الخير إلى قلبِه من سبيل[4]، وفي ذلك ربطٌ ضديٌّ بين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 381.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 485، 486.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 486.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 381.

الجزاءَين، فالَّذي لم يَسِر على نهج الهدى، ولم يُشرح صدرُه، فهو مِن قُساةِ القلبِ، وويلٌ للَّذي قسا قلبُه، ورَضيَ بالباطِلِ.

بلاغةُ الكنايةِ في مفردة (ويل):

مآل الكافرين إلى أقصى درجات الشَّقاء والبُؤس

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الويل في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم سيبلغون أقصى غايات الشَّقاوة والتَّعاسة، فاللَّفظةُ أجملت سوءَ حالِهم(1)، وجاء التَّعبير عن ذلك بصيغة التَّنكير؛ تعظيمًا له وتهويلًا، ومن قال: ويْلٌ وادٍ في جهنَّم، فإنَّه لم يُرِد أنَّ ويْلًا في اللُّغة موضوعٌ لهذا، وإنَّما أراد أنَّ مَن قال اللّٰهُ تعالى ذلك فيه؛ فقدِ استحقَّ مقرًّا من النّار، وثبت ذلك له(2)، فهو كنايةٌ عن الوعيدِ والتَّهديدِ الشَّديد.

نوعُ اللّامِ ودلالتُها:

(اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ دالَّةٌ على الاستحقاق، أي: الويل مستحَقٌّ لمن قسا قلبه عن ذِكْر اللّٰه، كقوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾ [الفاتحة: 2](3).

بلاغةُ استعمالِ مفردة القسوة مادَّة وصيغة:

القلبُ القاسي لا يدخله إيمانٌ، كالحجر الذي لا يدخله ماء

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ القسوة في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ لدلالة القسوة على الصَّلابة والشِّدَّة والغِلَظة، وهي ضدُّ اللّين(4)، ممّا يُشير إلى صلابة قلوبهم وانتفاءِ تأثُّرها بذِكْر اللّٰه تعالى، وجاء التَّعبيرُ عن ذلك بصيغة اسم الفاعل؛ للدَّلالة على رسوخ صفة القسوة فيهم، ونظير ذلك قولُه تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتۡ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ [البقرة: 74]، فإنَّ قسوةَ القلبِ عنوانُ الصُّدودِ عن الحقِّ؛

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 381.
(2) الرّاغب، المفردات: (ويل).
(3) الزّجاجيّ، اللّامات، ص: 65.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قسو)، وابن منظور، لسان العرب: (قسا).

لأنَّ القسوةَ تمثِّل عدمَ قابليَّةِ القلب لماءِ الإيمانِ، كما أنَّ الحجارة لا يدخل في جوفها ماءٌ.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة:

قلوبُ الكافرين كالصَّخرة القاسية التي لا تُنبِت شيئًا

استعار النَّظمُ الجليل لفظَ القسوةِ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ للدَّلالة على عدم تأثُّر عقولِهم وقلوبهم بما يسمعون من المواعظ والتَّذكير[1]، فشَبَّه عدمَ تأثُّرهم بالحقِّ بالقسوة التي تعتري الشَّيءَ، كالحجرِ الذي لا يتأثَّر بالماء إن صُبَّ عليه، والجامعُ انتفاءُ الانتفاعِ من روّاد الخير، فالاستعارةُ تصريحيَّة تبعيَّة، وهي أبلغُ من الحقيقةِ؛ إذِ القسوةُ تمثيلٌ محسوسٌ يفقهه النّاس عند إطلاقه، ويتصوَّرون سوءَه.

علَّةُ اختلافِ التَّقابل في الآية:

قسوةُ القلوب نتيجةُ الصُّدود، وشرحُ الصَّدرِ بتوفيق الحقِّ

آثَر النَّظمُ الكريم إسنادَ القسوة إلى القلوب في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم﴾ دونَ أن يقول: (فويل للذين أقسى اللّه قلوبهم)؛ تبعًا لقوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ﴾؛ وذلك للإشارة إلى أنَّ قسوة قلوبهم من فِعلهم، وأنَّ ضلالهم بمحض اختيارهم، وليس مِن عند اللّه تعالى، فاختلف التَّقابلُ بين الجملتين لبيانِ الفارق في المعنى، فإنَّ قسوةَ القلبِ نتيجةُ الصُّدود، وشرْحَ الصَّدرِ ثمرةُ توفيق اللّه تعالى.

نوعُ ﴿مِّن﴾ ودلالتُها التَّعليليَّة في ﴿مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾:

القرآنُ سببُ طمأنينة القلوب وشقاءِ المشمئزّين

استعمل النَّظمُ الجليل حرفَ الجرِّ ﴿مِّن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ الدّالِّ على التَّعليل، أي: إذا ذكر اللّهَ تعالى بمسمع منهم، أو تُليت عليهم آياتُه، فإنَّهم يشمئزّون من ذلك، فتزداد قلوبُهم قساوةً[2]، فكما أنَّ القرآنَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 381.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 122.

الكريم سببٌ لاطمئنان قلوب المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ [الرّعد: 28]، فهو كذلك سببٌ لقساوة قلوب الكافرين[1]، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۚ وَٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ فِيٓ ءَاذَانِهِمۡ وَقۡرٞ وَهُوَ عَلَيۡهِمۡ عَمًىۚ﴾ [فصّلت: 44].

غرضُ الإضافةِ ودلالتُها:

أُضيفَ لفظُ ﴿ذِكۡرِ﴾ إلى اسمِ الجلالة في قوله تعالى: ﴿مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ تفخيمًا لشأن الذِّكر، وتشريفًا له[2]، وفيه مزيدُ تعنيفٍ وتقريعٍ لهم بسببِ تَرْكِهم لهذا الذِّكر الشَّريف.

علَّةُ التَّصريحِ باسمِ الجلالةِ:

أشدُّ النّاس قسوةً مَن ثبت له الذِّكر قلبًا وعقلًا

أظهر النَّظمُ الجليل اسمَ الجلالة في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ دون أن يقول: (مِن ذكره)؛ وذلك للدَّلالة على عِظَم قسوةِ قلوبهم، فإنَّهم أعرضوا عن ذِكر الله تعالى الذي يتَّصف بجميع الأسماء الحسنى والصِّفات العُلا[3]، الَّذي خلقهم، ورعاهم، وربّاهم، وأوصلهم إلى ما هم عليه، وللإيماءِ إلى أنَّ هذا الذِّكر هو الَّذي يجب أن يكون ذِكرًا في القلوبِ؛ لأنَّه مِن الله جلَّ في علاه، ففي التَّصريح باسم الجلالةِ إشارةٌ إلى تعليلِ ذمِّ المعرضين عن الحقِّ.

بلاغةُ الاستئناف البيانيّ:

علَّةُ قسوةِ القلوب التَّمكُّنُ في الضَّلال

فصل النَّظمُ الجليل جملةَ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾؛ لأنَّها مستأنَفة استئنافًا بيانيًّا؛ لأنَّ الحُكم بأنَّ ذِكر الله تعالى يُسبِّب قساوةً في قلوبهم يُثير في نفس السّامع سؤالًا؟ فكأنَّه قال: كيف كان ذِكْرُ الله سببَ قساوة قلوبِهم؟ فجاء الجواب: لأنَّهم متمكِّنون

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 382.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 382.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 486.

مِن الضَّلالة، وضلالهم من الشِّدَّة بحيثُ إنَّه لا يُزال بسماع ذِكر اللّه تعالى[1].

سرُّ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

شدَّة خُسْرانهم، وبُعد مرتبةِ ضلالهم

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ اسم الإشارة للبعيد في قوله جلَّ شأنه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾؛ للدَّلالة على شدَّة خُسْرانهم، وبُعْد مرتبةِ ضلالهم، كما أنَّ فيه ذمًّا لهم، فهُم الأباعد[2].

بلاغةُ استعمالِ حرف الظَّرفيَّة:

المنغمسُ في الضَّلال لا يخشع قلبُه لذِكر الله تعالى

استعمل النَّظمُ الجليل حرفَ الجرِّ ﴿فِي﴾ الدّالِّ على الظَّرفيَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، والظَّرفيَّة هنا مجازيَّة؛ إذِ الضَّلال لا يكون ظرفًا يحوز داخلَه شيئًا ما، والمراد: بيانُ شدَّة رسوخِ قلوبِهم في الضَّلال، فدلَّ على "أنَّهم متمكِّنون منَ الضَّلالة، منغمسون في حمْأتها، فكان ضلالُهم أشدَّ من أن يتقشَّع حين يسمعون ذِكر اللّه"[3].

بلاغةُ الاستعارة المكنية:

تشبيهُ الضَّلالِ بقاربٍ مخروقٍ

شبَّه النَّظمُ الكريم الضَّلالَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾ بشيءٍ مظروفٍ كقاربٍ مخروق، وأولئك الضُّلّال فيه لا يخرجون منه مع معرفتهم بفساده وضيقهِ ونتيجته المهلكة، على سبيل الاستعارة المكنيَّة، والاستعارةُ أبلغ من الحقيقة، لما يعتريها من تصوير مشهدِ سوءِ الضَّلالِ، وما يُحيط به من الأخطار الواضحة.

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿ضَلَٰلٖ﴾:

نُكِّر لفظُ الضَّلال في قوله جلَّ شأنه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾؛ للدَّلالة على عِظَم ضلالهم وشدَّتِه، فهو ضلال تفاحَشَ حتّى صار مبهمَ القَدْرِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 382.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 486.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 382.

نُكْتةُ وصفِ الضَّلالِ بالمُبِين:

سببُ الضَّلالِ القسوةُ لا العكسُ؛ لإبانةِ الضَّلالِ عن نفسِه

وصف النَّظمُ الجليل الضَّلالَ بكونه مُبينًا في قوله جلَّ شأنه: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ ضلالهم واضحٌ لا يخفى شأنه عن أحد، كما أنَّه يشير إلى قوَّته وظهوره، فهو ضلالٌ يبين لأدنى متأمِّل[1]، والإبانةُ ذاتيَّة في الضَّلالِ، فمن ضلَّ؛ بان له، وبان لغيرِه وجهُ الضَّلال، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ قسوةَ القلب هي سببُ الضَّلال لا العكس، فإنَّ الضَّلالَ مبينٌ غيرُ خافٍ على أحد.

بلاغةُ الاحتباكِ:

يجمعُ الاحتباكُ بين مذكورٍ مطلوب، ومحذوفٍ مقصود

بنى النَّظمُ الجليل الآيةَ بطريقة الاحتباك للإيجاز، فقال: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَـٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ﴾، فـ "ذَكَر أوَّلًا الشَّرحَ والنّورَ دليلًا على حذف ضِدِّهِ ثانيًا، وثانيًا الويلَ للقاسي، والضَّلالَ دليلًا على حذف ضِدِّه أوَّلًا"[2]، والتَّقدير: أفمن شرح اللّهُ صدرَه، فهو على نور من ربِّه، فبشرى لهم، وأولئك على هدًى مبين، كمَن أعمى اللّهُ بصيرتَه، فهُم في ظلمات، فويلٌ لهم، وأولئك في ضلالٍ مبينٍ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 383.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 486.

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ٢٣﴾ [الزّمر: 23]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بـعـد ذكـر الأحوالِ يُنبِّه على أسبابِها

لمّا ذَكرتِ الآيةُ السّابقة تباينَ حال من شرح الله صدرَه للإسلام، ومن قسا قلبُه عن قبولِ الإيمانِ؛ أتبعه بما يدلُّ على أنَّ القرآن سببٌ لحصول النّور والشِّفاء والهداية وزيادة الاطمئنان، وأنَّ الإعراض عنه سببٌ لمزيد القسوة في القلوب[1]، فناسب ذِكرُ العلَّة الَّتي لأجلِها كان هذا التَّباين، وهو إنزالُ القرآنِ من الله تعالى، فالمؤمنون بعد أن تُشرح صدورُهم للإسلام يُقبلون على القرآنِ قراءةً وتفاعلًا، فتلين قلوبُهم إلى ذِكر الله، وأمّا الضّالّون؛ فلا هادي لهم، فهو انتقالٌ مِن ذِكر حال الأضداد، إلى ذِكْرِ سبب ذلك.

ومِن المناسبة: أنَّه تعالى لمّا ذَكرَ القاسيةَ قلوبُهم مِن ذِكْره؛ أتبعَه بذِكر المؤمنين الَّذين تلين قلوبُهم بذِكر الله تعالى، وبسماع الآيات البيِّنات مِنَ الذِّكر الحكيم[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾: (حدث) أصلٌ يدُلُّ على كَونِ الشَّيءِ بعدَ أن لم يكُنْ، وإحداثُه: إيجادُه[3]، والحديثُ مِن هذا؛ لأنَّهُ كلامٌ يَحدُثُ منه الشَّيءُ بعد الشَّيءِ[4]، والحديث الجديد من الأشياء[5] الَّذي لم يكن،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 441.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 487.

(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (حدث).

(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وابن سيده، المُحكَم: (حدث).

(5) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح، وابن منظور، لسان العرب: (حدث).

فَحَدَث، وما يُخبر اللّهُ تعالى به يجوز أن يُسمَّى حديثًا على معنى حدوثه بالإخبار عنه، ومن هذا المعنى سُمّي القرآن حديثًا في الآية؛ لحدوث تلاوتهِ فيما بيننا، أو بمعنى الخَبَر؛ لأنَّ شأن الإخبارِ أن يكون عن أمرٍ حَدَث، وجَدَّ[1].

2) ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾: (شبه) أصلٌ يدُلُّ على تشابُهِ الشَّيءِ وتشاكُلِه لونًا ووصفًا[2]، والشَّبَهُ: المِثْلُ والمُساوي، والجَمْعُ: أشباهٌ، تقولُ: هذا شَبَهُ هذا وشبيهُه، أيْ: مِثْلُه، والمُشابهةُ: المُماثلةُ، وشابَه الشَّيءُ الشَّيءَ؛ إذا ماثله في صِفاتهِ[3]، والاشتِباه هو الالتباسُ والاختلاطُ، يُقالُ: اشتبه الأمرُ يَشتبه اشتباهًا، أي: التبس واختلَط، والشُّبْهَةُ: ما يُشكِلُ، ويلتبِس على النّاسِ، والجَمْعُ: شُبَهٌ وشُبُهاتٌ[4]، والمُراد بالتَّشابُهِ في الآية: التَّماثُلُ في حالةٍ مع الاختلافِ في غيرها من الأحوالِ، ومعناه: أنَّ أجزاء القرآن مُتماثلةٌ في فصاحة ألفاظها وشرفِ معانيها، فهي مُتكافئةٌ في الشَّرف والحُسْنِ[5].

3) ﴿مَّثَانِيَ﴾: (ثني) أصلٌ تكريرُ الشَّيءِ مرَّتينِ، أو جَعْلُه شيئَين متواليين أو مُتباينين، وذلك قولك: ثَنَيْتُ الشَّيء ثَنْيًا[6]، والاثنان أصلٌ لـمُتصرِّفات هذه الكلمة، ويُقالُ ذلك باعتبار العدَد، أو باعتبار التَّكرير الموجود فيه، أو باعتبارهما معًا[7]، والثِّنَى: الأمرُ يُعادُ مرَّتين، والثِّنايةُ: حَبْلٌ من شَعَرٍ أو صوفٍ، ويُحتمَلُ أنَّه سُمّيَ بذلك؛ لأنَّه يُثْنَى، أو يُمكن أن يُثْنَى، والمَثْناةُ: ما قُرِئَ من الكتاب وكُرِّرَ[8]، وكُنّيَ عن معنى التَّكرير بمادَّة التَّثنية؛ لأنَّ التَّثنيةَ أوَّلُ مراتب التَّكرير، فالقرآنُ مثانٍ؛ لأنَّه مُكرَّرُ الأغراضِ[9]، أي: تُثَنَّى، وتُكرَّر فيه الأنباءُ والأخبارُ، والقَضاءُ والأحكامُ والحُجَجُ.

4) ﴿تَقْشَعِرُّ﴾: (قشعر) أصلٌ يدُلُّ على تَغيُّرٍ في جِلْدٍ أو غيره، والقُشَعْريرة منه:

---

(1) الواحديّ، التّفسير البسيط: 7/ 26، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 384.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شبه).
(3) الرّاغب، المفردات: (شبه).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (شبه).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 385.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثني).
(7) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (ثني).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ثني).
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 368.

الرِّعْدَة من فَزَعٍ ونحوه[1]، وكُلُّ شيءٍ تَغَيَّر؛ فهو مُقْشَعِرٌّ، يُقال: اقشَعَرَّتِ السَّنَةُ من شِدَّة المَحْل، والجِلْدُ من الجَرَب، والنَّباتُ إذا لم يُصِب ريًّا، والشَّعرُ؛ إذا قفَّ[2]، والجمع قَشاعِرُ، والقُشاعِرُ: الخَشِنُ المَسِّ[3]، وعليه يكون معنى اقشَعَرَّ: انقبض، واضطرب من الخَوفِ، كالَّذي يَحْصُلُ عند شِدَّةِ بَرْدِ الجَسَدِ ورِعْدَتِه[4].

5) ﴿تَلِينُ﴾: (لين) أصلٌ يدُلُّ على الرِّقَّةِ والسُّهولةِ واليُسْرِ، ومنه قولُك: طَريقٌ لَيِّنٌ، أي: سَهْلٌ، وضِدُّه الخُشونة، ويُستعمل ذلك في الأجسام، ثمَّ يُستعار للخُلُق وغيره من المعاني، فيُقال: فلانٌ لَيِّنٌ، وفلانٌ خَشِنٌ، وكلُّ واحدٍ منهما يُمدَح به طورًا، ويُذَمُّ به طَورًا بحسب اختلاف المواقع[5]، ويُقالُ: هو في ليانٍ من عَيْشٍ، أي: نِعْمَةٍ، وفُلانٌ مَلْيَنَةٌ، أي: لَيِّنُ الجانبِ، والجمع ألْيناء[6]، واللّينُ في الآية: مُستعارٌ للقَبولِ والسُّرور، وهو ضِدٌّ للقساوة الَّتي في قوله تعالى: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾[7]، وفيه إشارةٌ إلى إذعانهم للحقِّ وقبولِهم له بعد تأبّيهم منه، وإنكارِهم إيّاه[8].

المَعنى الإجماليُّ:

تشابهت آياتُ القرآنِ في شرفِ معانيه وقوَّةِ مبانيه

هذه الآيةُ من آياتِ مَدْحِ القرآن الكريمِ، وأثرِه في المؤمنين، فيقول الحقُّ سبحانه: اللّهُ نَزَّل القرآنَ الَّذي هو أحسَنُ الحَديثِ، كِتابًا يُشبِهُ بَعضُه بَعضًا في صِدقِ الأخبارِ، وعَدلِ الأحكام، وبَلاغة الألفاظِ، وشَرَفِ المعاني، فلا تَفاوُتَ فيه في لَفظٍ ولا مَعنًى، ويُصَدِّقُ

(1) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (قشعر).
(2) الخليل، العين، والأزهريّ، تاج العروس، والزّبيديّ، تاج العروس: (قشعر).
(3) ابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (قشعر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 388.
(5) الرّاغب، المفردات: (لين).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (لين).
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 389.
(8) الرّاغب، المفردات: (لين).

بَعضُه بَعضًا، فلا اختِلافَ فيه ولا تَضادَّ، تُثَنَّى، وتُردَّد قصصُه وأنباؤه وأوامرُه ونواهيه، ووعدُه ووعيده، إذا تُليَت منه آياتُ العذاب؛ اقشعرَّتِ الجلودُ، ووَجِلَت القلوبُ، وإذا تُليَت آياتُ الرَّحمةِ والوعدُ؛ لانتِ الجلود، وسكنتِ القلوبُ، واطمأنَّت النُّفوس، ذلك هُدى اللّٰهِ، يَهدي به مَن يَشاءُ مِن عِبادِه، ومَن يُضلِلْه اللّٰهُ عنِ الحَقِّ؛ فلا أحَدَ يَهديه إليه[1]، وفي الآية الكريمةِ تَنبيهٌ على الإعجازِ الرّوحي في عدَمِ الملَلِ مِن سَماعِه، وأنَّه كُلَّما تكَرَّر غَرَضٌ مِن أغراضِه؛ زادَه تكَرُّرُه قَبولًا وحلاوةً في نُفوسِ السّامِعينَ، إضافةً إلى ذلك أنَّ القُرآنَ جَمعَ بيْنَ تأثيرين متضادَّين: مَرَّةً بتأثيرِ الرَّهبةِ، ومرَّةً بتأثيرِ الرَّغبةِ؛ وذلكَ ليَكونَ المُسلِمونَ في مُعامَلةِ رَبِّهم جارينَ على ما يَقتَضيه جَلالُه، وما يَقتَضيه حِلمُه ورَحمتُه[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

الصُّدورُ المنشرحة للآيات المنزَّلة وأحسنِ الحديث المتشابِه

فصل النَّظمُ البليغُ قولَهُ جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾ عن السّابق؛ لأنَّه مستأنَفٌ استئنافًا بيانيًّا، سيق للجواب عن سؤالٍ نشأ عن ذِكْر القلوب القاسية، كأنَّه قيل: ما وجهُ قسوةِ قلوبِهم؟ فبيَّنَتِ الآيةُ أنَّ قساوة قلوبهم من سماع القرآن إنَّما هي لِرَينٍ في قلوبهم وعقولهم، لا لِنَقصٍ في هداية القرآن[3]؛ لأنَّ القرآنَ هو أحسنُ الحديثِ، تشابهت آياتُه، وتكرَّرت بما لا تناقض بين آحادِها، بل وفاقٌ بين معانيها ومبانيها.

غرضُ تقديمِ المسندِ إليهِ على المسندِ الفعليِّ:

قدَّم النَّظمُ الجليل المسندَ إليه، وهو اسمُ الجلالة في قوله جلَّ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 190، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 527، والمراغي، تفسير القرآن: 23/ 161.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 386، 390.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 383.

تأكيدُ مضمونِ الكلامِ وبيانُ مصدرِ الإعجاز

شأنه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، دون أن يقول: (نزَّل اللّه)؛ تفخيمًا لمضمون الخطاب، وبيانًا لعُلوِّ رتبةِ القرآن الكريم، وتأكيدًا لنزوله من اللّه تعالى، وأنَّ مِثلَه لا يجوز أن يصدر إلّا عنِ اللّه تعالى، كما أنَّه يدلُّ على أنَّه وحيٌ معجزٌ مباينٌ لما سواه من الأحاديث[1]، فتقديمُ المسند إليه على المسند الفعليِّ يُحيل الجملةَ الفعليَّة إلى جملة اسميَّة، وهذا يدلُّ على تأكيد المعنى وثبوتِه، والمبالغةِ في الحُكم المساق فيها.

نُكْتَةُ إظهارِ اسم الجلالةِ:

فخامةُ المُنَزَّل من عظَمة المُنَزِّل

آثرَ النَّظمُ الكريم ذِكْرَ اسمِ الجلالة دونَ الضَّمير في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾، فلم يقل: (هو نزَّل) بناءً على تقدُّم وروده في قوله جلَّ شأنه: ﴿مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾، وذلك لتفخيم شأن القرآن المنزَّل، ففخامةُ القرآنِ مستندةٌ على فخامة مَن أنزله، وهو الجليل جلَّ ذِكْره[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿نَزَّلَ﴾ دون (أنزل):

تدرُّجُ القرآنِ في التَّنزيل وبراعتُه في النُّزولِ

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالتَّنزيل دونَ الإنزال في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ﴾؛ للدَّلالة على النُّزول بالتَّدريج، لما فيه من الفوائد الجمَّة، كالتَّثبيت والإجابة عن الأسئلة والشُّبهات حسبَ الحوادث[3]، وجاء التَّعبيرُ بصيغة الماضي تحقيقًا لنزوله، فهو مُنزَّلٌ بحسب الحوادث ومقتضيات الأحوالِ، وبالبلاغةِ العالية، والنَّظم البديع.

فائدةُ العدولِ عن الإضمارِ إلى الإظهار:

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالاسم الظّاهر دون الضَّمير في قوله

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 123.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 487، 488.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 488.

التَّصريح بالأوصاف البديعة الجامعة للحُسْنِ والبَراعة

جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾، فلم يقل: (اللّه نزَّله) بناءً على اعتبارِ أنَّ ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ هو ذاتُه ذِكْر اللّه تعالى المذكور في الآية السّابقة: ﴿فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ وذلك للتَّصريح بهذا الوصفِ البديع الجامع للحُسْنِ، والتَّعريفِ بكونه حديثًا ليس كباقي الحديثِ، ولقصد إجراء الأوصاف الثَّلاثة الآتية عليه، وهي المذكورة في قوله جلَّ شأنه: ﴿كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾[1].

بلاغةُ التَّعبيرِ باسمِ التَّفضيلِ:

القرآنُ أحسنُ الحديث مصدرًا ومضمونًا وغايةً

عبَّر النَّظمُ الجليل عن القرآن باسم التَّفضيل في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه أفضلُ الأحاديث وأعظمُها، وذلك لجهة نزولهِ من اللّه تعالى[2]، فما كان من اللّه تعالى فهو الأحسن، وما كان مضمونُه حقًّا؛ فهو الأحسن، وما كان لخيرِ البشرِ؛ فهو الأحسن، فاجتمع فيه حُسْنُ المصدرِ والمضمونِ والغاية.

غرضُ الإضافةِ والتَّعريف في قوله: ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾:

نزولُ القرآنِ محتويًا على الفضل كلِّه

أضاف النَّظمُ الجليل اسمَ التَّفضيل ﴿أَحۡسَنَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا﴾ إلى ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾، والإضافة بمعنى (من)؛ فالنّازلُ هو الأحسنُ مِنَ الأحاديث الَّتي سمعَتْها أُذُنُ بشرٍ، ولتسويغ مجيءِ الحال منه، فقوله: ﴿كِتَٰبٗا﴾ حالٌ من ﴿أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾؛ لأنَّ إضافةَ اسم التَّفضيل محضةٌ، أي: اللّه نزَّل القرآنَ حالَ كونِه جامعًا لكلِّ الخير[3]، وتعريفُ ﴿ٱلۡحَدِيثِ﴾ بالألف واللّام في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ﴾ للجنسِ، وأفرده لذلك، فهو دالٌّ على جميع الأحاديث[4] على وجه الاستغراق.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 384.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 488.
(3) السّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 422، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 488.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 384.

دلالة استعمال مفردةِ (كتاب)، ونُكْتَةُ تنكيرِها:

القرآنُ جامع للخير فهو أحسن الحديث وأوثقُ الكتبِ

وصف النَّظمُ الجليل القرآنَ بكونه كتابًا في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّه جامعٌ للخير، وأنَّه مأمور أن يُحفظ بالكتابة ليبقى حجَّةً على طول الزَّمان[1]، وجاء ذلك بصيغة التَّنكير تفخيمًا لشأنه مكتوبًا جامعًا للخير، فهو كتابٌ ليس كباقي الكتب، فإذا كان متميِّزًا بديعًا في كونه أحسنَ الأحاديث؛ فهو كذلك أحسنُ الكتب، ففيه انتقالٌ من وصف القرآن بأنَّه حديثٌ، إلى وصفه بكونًا كتابًا محفوظًا.

بلاغةُ وصفِ القرآنِ بالتَّشابه:

في التَّشابه أسرارُ الجمالِ ودواعي الكمال

استعمل النَّظمُ الكريم مفردةَ ﴿مُّتَشَٰبِهًا﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾، وهي صفةٌ من صفات المدح، فأجزاؤه متماثلةٌ في الفصاحة والبلاغة لفظًا ومعنًى، فكلُّ آياتِه وألفاظه متكافئةٌ في الشَّرف والحُسْن[2]، فالتَّشابهُ هو تشابهُ النَّظم والبلاغة والفصاحة والعذوبة، وقوَّةِ السَّبك، وجمالِ الرَّصف، وبَراعةِ الوصف، تشابهت آياتُه وجُمَلُه وكلماتُه، وفي التَّشابه مضامينُ الجمالِ، ودواعي البهاء.

نُكْتَةُ الوصفِ بـ ﴿مَّثَانِيَ﴾:

من صفات القرآن كثرةُ تكرار تلاوته لعِظَم فوائده

استعمل النَّظمُ الكريم مفردة ﴿مَّثَانِيَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾؛ للدَّلالةِ على التَّكرير، فإنَّه تُكرَّر قراءتُه في الصَّلاة وغيرها، كما أنَّ نظمه متماثل لا يختلف بعضُه عن بعضه[3]، وهذا على جَعْلِ التَّثنيةِ في تكرارِ القراءةِ، وإذا جعلناها بمعنى التَّقابل الدَّلاليِّ - كما هو رأي طائفة من المفسِّرين - فهو كذلك صادقٌ على معاني القرآن، فإنَّ "أكثر الأشياء المذكورة

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 488، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 385.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 385.

(3) القونويّ، حاشية القونويّ على البيضاويّ: 16/ 512.

وقعت زوجين زوجين، مثل: الأمر والنَّهي، والعامِّ والخاصِّ، والمجملِ والمفصَّل، وأحوالِ السَّماوات والأرض، والجنَّةِ والنّار، والظُّلمةِ والضّوء، واللَّوحِ والقَلم، والملائكةِ والشَّياطين، والعرشِ والكرسي، والوعدِ والوعيد، والرَّجاءِ والخوف، والمقصودُ منه: بيانُ أنَّ كلَّ ما سوى الحقِّ زوجٌ، ويدلُّ على أنَّ كلَّ شيء مبتلًى بضدِّه ونقيضه، وأنَّ الفردَ الأحد الحقَّ هو اللّه سبحانه"[1].

علّةُ فصلِ ﴿تَقۡشَعِرُّ﴾:

من صفاتِ القرآن تأثيرُه في النُّفوسِ

فَصلَ النَّظمُ الجليل قولَهُ جلَّ شأنه: ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾؛ لأنَّه كلامٌ مستأنَف "مسوقٌ لبيانِ آثارِه الظّاهرةِ في سامعيه، بعد بيانِ أوصافهِ في نفسِه، ولتقريرِ كونِه أحسنَ الحديثِ"[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بمفردة القُشَعْريرةِ مادَّةً وصيغةً:

إظهارُ الإعجازِ الرّوحي والأثرِ النَّفسيِّ للقرآنِ

عبَّر النَّظمُ الجليل بالفعل ﴿تَقۡشَعِرُّ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على انقباض الجِلْد عند سماع القرآن الكريم، وذلك لبيان خشيةِ المؤمنين من اللّه تعالى، فهُم إذا سمعوا القُرآنَ وعيدَه؛ أصابتْهم هيبةٌ وخشيةٌ تَقْشَعِرُّ منها جلودُهم[3]، وجاء استعمالُ هذه المفردةِ لبيانِ قوَّةِ أثر القرآن في قلوبِ سامعيه وتاليه، فإنَّ الأثرَ يظهر جليًّا على الجلود، ثمَّ تلين تلك الجلودُ ومعها القلوبُ إلى ذِكْرِ اللّه تعالى، فأظهرت هذه المفردةُ أثرَ القرآنِ الرّوحيَّ في النُّفوسِ، وهو الذي يُعرَف بالإعجاز الرّوحيِّ، وجاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع لبيانِ أنَّ أثرَ القرآنِ في تلك الجلودِ مستمرٌّ؛ فكلَّما استجدَّت القراءةُ والسَّماعُ؛ استجدَّت القُشَعْريرةُ معها.

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 446.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 251.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 251.

براعةُ استعمالِ حرفِ (مِنْ) في بيان الحذفِ:

سماعُ القرآنِ ابتداءً يكون سببًا في القشعريرة مآلًا

استعمل النَّظمُ الجليل حرفَ (مِن) في قوله جلَّ شأنه: ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾، وهو دالٌّ على الابتداءِ على تقديرِ محذوف، والتَّقديرُ: تقشعِرُّ من سماعه أو تلاوته جلودُ الذين يخشون ربَّهم، وما قيل بأنَّ هذا الحرف دالٌّ على التَّعليل، فإنَّهم إذا سمعوا القرآنَ وآياتِ وعيدِه؛ أصابتهم خشيةٌ تقشَعِرُّ منها جلودُهم[1]، أي: إنَّ الخشوعَ والرَّهبة وقعت بسبب سماع القرآن؛ لأنَّ سماعَهُ يؤول إلى قشعريرة الجلد.

غرضُ تقديمِ القيدِ على المسندِ إليه:

تقديمُ سببِ الخشيةِ أهمُّ من ذِكْرِ أثرِها

قدَّم النَّظمُ الجليل شِبهَ الجملة من الجارِّ والمجرور على الفاعل في قوله جلَّ شأنه: ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾، فلم يقل: (تقشعرُّ جلودُهم منه)؛ اهتمامًا ببيان سبب الخشوع والرَّهبة، فهو أهمُّ من بيان أنَّ موطن تلك الخشيةِ هو الجلود، ولتوجيه الأنظارِ إلى أنَّ مبدأ القشعريرة وسببَها هو القرآن الكريم.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

امتزاجُ الباطنِ الخاشعِ بالصَّوتِ الصّادعِ يُحَصِّلُ المقصودَ النّادر

عبَّر النَّظمُ الجليل عن المؤمنين الَّذين تقشعرُّ جلودُهم بالاسم الموصول في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾؛ وذلك لإظهار العِلَّة لتلك القشعريرة، وهو ما تضمَّنته صلةُ الموصولِ، فخشيتُهم هي سببُ القشعريرة، فالخشيةُ في القلبِ الباطنِ عندما تمتزج بسماعِ القرآن من الخارج، تتهيَّأ قُشَعريرةُ الجلودِ للإدلاءِ بالإحساس النّادر، والشُّعور العزيز.

براعةُ التَّعبير بالخشية مادَّةً وصيغةً:

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الخشية في قوله جلَّ شأنه: ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ خوفهم من اللّٰه تعالى

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 177.

رقَّت قلوبُ العبادِ حُبًّا حتّى خَشيَتْهُ تعظيمًا

نابعٌ من تعظيمهم له، فالخشيةُ هي خوفٌ يشوبُه تعظيمٌ[1]، فَذَكر هذه الصِّفةَ تعبيرًا عن خوفهم من الجليل لمدحهم والثَّناء عليهم[2]، وعبَّر عن ذلك بصيغة الفعل المضارع؛ للدَّلالة على دوام خشيتهم، والإشارةِ بأنَّها صارت سلوكًا معتادًا لهم على طول الزَّمان.

سرُّ التَّعبيرِ بعنوانِ الرُّبوبيَّةِ:

من كمال الإيمان هيبةُ صاحبِ البرِّ والإحسان

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾، ولم يقل: (الذين يخشون الله)؛ للثَّناءِ على خوفِهم، فهم يخافون المُحْسِنَ إليهم[3]، ولم يُنسِهم الإحسانُ عن إيرادِ عظيمِ الامتنان هيبةً وخشيةً من ذي العظَمة والجلال.

فائدةُ الإضافةِ:

الإيماءُ إلى تعليلِ الخشية والعبادة

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الرَّبِّ إلى ضمير الغيبة في قوله جلَّ شأنه: ﴿تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ خشية المؤمنين للمُحْسنِ إليهم هي خشيةُ الحبِّ والتَّقديس، لا خشيةُ الإكراه، والإضافةُ بمعنى اللّام، فهم يخشونه؛ لأنَّه ربُّهم الذي يُسنِدون حوائجَهم إليه، ففيه إيماءٌ إلى أنَّ توحيد الرُّبوبيَّةِ هو أصلُ الطّاعة والانقياد.

نوعُ ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتُها:

القُشَعْريرةُ سابقةٌ للّينِ رتبةً وزمانًا

عطفَ النَّظمُ الجليل لينَ الجلودِ على القُشَعْريرة بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ للدَّلالة على طول مدَّة خشيتِهم وتأثُّرِهم بسماعِ القرآن، ويَصِحُّ أن يكون التَّراخي رُتَبيًّا، ففي البَدءِ تكون قُشَعْريرةُ الجُلود، ثمَّ يكون لينُ الجُلودِ والقلوب رتبةً أخرى، وهذا التَّراخي بين الرُّتبتين يُشير إلى الموازنةِ بين التَّرهيب والتَّرغيب.

(1) الرّاغب، المفردات: (خشي).

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 489.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 489.

نُكْتَةُ المضارعِ في ﴿تَلِينُ﴾:

تجدُّدُ لين الجُلود والقلوب إلى ذِكْر الله تعالى

جاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع عن لين الجُلودِ والقلوب في قولهِ جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ لينَ جلودِهم وقلوبِهم يتجدَّدُ، ويدوم[1].

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ (اللّين):

الاستعارةُ التَّصريحيَّة تُصَوِّر المعنى وتُجسِّدُ الحقيقة

استعار النَّظمُ الجليل لفظَ اللّين في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ للقَبول والسُّرور، وهو مقابل للقساوة المذكورة آنفًا في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾، فالمؤمنُ يقشعِرُّ جِلْدُه؛ إذا سمع آياتِ الوعيد، فإذا سمع بعد ذلك آياتِ الوعدِ؛ استبشرَ، وفرح[2]، فهو تشبيهُ القبولِ باللّين على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، والاستعارةُ أبلغُ من الحقيقة؛ إذ فيها تجسيدُ المعنى وتصويرُ الحقيقةِ ماثلةً أمامَ السّامعِ، فيقشَعِرُّ جِلْدُه لذلك، ثمَّ يلين لقَبولِ الكلام المُبين.

فائدةُ عَطفِ القلوبِ على الجُلودِ:

اختصاصُ القُشَعْريرة بالجُلود، واشتراكُ اللّين في الجُلود والقلوبِ

عطف النَّظمُ الجليل القلوبَ على الجلود في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾، فجمع بين الجلود والقلوب في شأن اللّين، وكان قد ذَكر الجلودَ منفردةً في شأن الخشية في قوله تعالى: ﴿تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ﴾، فعطف القلوبَ على الجلود، ولم يكتفِ بذِكر لينِ الجلود فحسب؛ وذلك للدَّلالة على أنَّه لينٌ ناشئٌ عنِ اطمئنان القلوبِ بذِكْر اللّه تعالى، ولأنَّ القلوب هي محلُّ الخشيةِ، ولم تُذْكَرِ القلوبُ سابقًا؛ لأنَّ القلب لا يصِحُّ وصفُه بالقُشَعْريرة[3]، فكان العطفُ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 490.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 389.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 336، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 390.

مُفضيًا لمعنى اختصاصِ القُشَعْريرة بالجُلودِ، واشتراك اللّين في القلوبِ والجُلودِ.

علَّةُ تقديمِ الجُلودِ على القلوبِ:

تقديمُ الجُلودِ باعتبارِ الأصلِ ووضوحِ الأثر

قدَّم النَّظمُ البليغ ذِكْرَ الجُلودِ على القلوب في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ لأنَّه وصفَ الجلودَ بالاقشعرار أوَّلًا، وهو دالٌّ على اليُبْس، وأخَّر ذِكْرَ القلوبِ تنزيهًا لها من الصَّلابة واليُبْس[1]، ولأنَّ الجُلودَ المذكورةَ أوَّلًا قدِ اعتراها ما اعتراها من القُشَعْريرة دونَ القلوب، فَذَكر الجلودَ ثانيًا؛ لأنَّ الوصفَ باللّينِ يبدأ بها، باعتبار اختلافِ حالِها المذكورِ ابتداءً، ولأنَّها هي الظّاهرة للعَيانِ، ولأنَّ الشُّعور بها أوضحُ لصاحبِها، فإنَّ الإحساس البدنيَّ أسرعُ من الإدراك القلبيِّ، وأثرُه أوضحُ، فالتَّقديمُ باعتبارِ الأصل والأثر.

بلاغةُ التَّضمين:

لينُ القلوبِ سكونٌ وطمأنينةٌ للذِّكرِ

عدّى النَّظمُ الجليل فِعلَ اللّين بحرف الجرِّ ﴿إِلَىٰ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ وذلك لتضمين الفعل دلالةَ الاطمئنان والسُّكون، فهو ثناءٌ على قلوبهم بأنَّها ساكنةٌ مطمئنَّةٌ إلى ذِكْر اللّٰه تعالى[2].

سرُّ إظهارِ اسمِ الجلالةِ في مقامِ الإضمارِ:

الاسمُ الجليلُ يخلعُ الفخامةَ على السّامعين

وضع النَّظمُ الجليل اسمَ الجلالةِ الظّاهرَ موضعَ المضمرِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِۚ﴾، فلم يقل: (إلى ذِكره)؛ تفخيمًا لشأن الذِّكر، فاسمُ اللّٰه تعالى جامعٌ لصفات الكمال والجلال[3]، فذِكْرُه يَخْلَعُ فخامةً على الكَلِم المذكورِ معه.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 490.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 41.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 491.

بلاغةُ إضافةِ الذِّكر إلى الله تعالى:

أشرفُ الذِّكر وأعظمُه ما أُضيف لله تعالى

أضاف النَّظمُ البليغ الذِّكرَ إلى الاسم الجليل في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾؛ تشريفًا للذِّكر وتعظيمًا، وتفخيمًا له بإيراده بنسبته لذي الجلال والإكرام(1)، ولم يُسنَد إلى عنوان الرُّبوبيَّة، ذلك أنَّ الذِّكرَ هو طاعةٌ وانقيادٌ وعبادةٌ، والأنسب لذلك كلِّه هو اسم الجلالةِ.

علَّةُ فصلِ جملة الإشارة:

الأمرُ مفوَّضٌ لصاحبِ الأمر

فصل النَّظمُ الجليل جملةَ: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾؛ لأنَّها مستأنَفة استئنافًا بيانيًّا، فإنَّ وصف القرآن بتلك الصِّفات الجليلة الدّالَّةِ على كماله وبلاغته، يُثير سؤالًا في نفس السّامع، فكأنَّه قال: كيف لم يتأثَّر به المُصِرّون على الكفر، وهو بتلك المكانة؟ فقيل: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ جوابًا عن هذا السُّؤال(2)، ولتفويض الأمرِ لصاحبِ الأمر.

تعيينُ مرجعِ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ:

القرآنُ هو هدى الله الجامعُ لكلِّ خير

مرجعُ اسم الإشارة في قوله جلَّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ القرآنُ، أي: ذلك القرآن الذي هذه صفتُه هو هدى اللّه، ويحتمل أنَّه إشارة إلى الخشية واقشعرار الجُلود، أي: تلك الخشيةُ واللّين هي أمارة هدى اللّه(3)، وقد جاء التَّعبيرُ بصيغة البُعد؛ للدَّلالة على تعظيم الكتاب المنزَّل، أو الخشيةِ واللّين(4)، وكلاهما لهما مكانةُ العظَمة والجلالِ.

نُكْتَةُ الإضافةِ:

القرآن هدًى مباركٌ في نزولِه وآثاره

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الهُدى إلى اسم الجلالة في قوله جلَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 491.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 391.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 528.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 491.

شأنه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾؛ للدَّلالة على كمال هداية القرآن، والإشارةِ إلى أنَّه نزلَ من عند اللّه تعالى[1]، فالإضافةُ هنا تتضمَّن التَّزكيةَ والتَّشريفَ والإقرارَ بأنَّ الكتاب كافٍ بتحقيق الهداية بعد توفيق المولى تعالى.

سرُّ إظهارِ اسمِ الجلالةِ:

ذِكْرُ اسمِ الجلالة تعظيمٌ لشأن الهدى

وضع النَّظمُ الجليل اسمَ الجلالةِ الظّاهرَ موضعَ المُضمرِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ﴾، فلم يقل: (ذلك هداه)؛ وذلك لتفخيم شأنِ الهداية، فهي هدايةٌ من اللّه تعالى الذي لا يتمنَّع عليه شيءٌ[2]، والإضافة بمعنى (من)، أي: ذلك الهدى كائنٌ من اللّه تعالى، مع ما فيه من الإيجازِ اللَّفظيِّ، والتَّكثيرِ من المعاني الجليلة.

دلالةُ صيغةِ المضارعِ:

جاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾؛ للدَّلالة على دوام هدايته لمن شاء لهم الهداية؛ تعبيرًا عنِ استمرار تفضُّله على عباده.

نوعُ الباءِ ومعناها:

اهتداء الأنام كائنٌ بهداية المَلِك العلّام

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الجرِّ (الباء) في قوله جلَّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾، وهي هنا دالَّةٌ على السَّببيَّة، أي: إنَّ هدايةَ النّاسِ تقع بسبب هدى اللّه تعالى لهم.

غرضُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ:

تقديمُ السَّببِ أهمُّ من تقديم النَّتيجة

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملةِ من الجارِّ والمجرور على المفعول به في قوله جلَّ شأنه: ﴿يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ للاهتمام، فإنَّ ذِكْرَ سببِ الهدايةِ أهمُّ مِن ذِكْرِ المهديِّ بالقرآنِ، وذلك لتوجيه الأنظار إلى كمالِ العناية بالقرآن.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 391.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 491.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالموصول:

مشيئةُ الله تعالى بالهداية عامَّةٌ لكلِّ خَلْقِهِ

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاسم الموصول ﴿مَن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ للدَّلالة على العموم، فمَشيئةُ اللّه تعالى تتعلَّق بعموم عباده، ولا تنحصر بأحدٍ ما، وأتى بلفظ ﴿مَن﴾ دون (الذي) لدفع توهُّمِ مخصوصٍ معيَّن، فالهدايةُ تَعُمُّ كلَّ مَن أرادَ اللّهُ تعالى هدايتَه.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

مشيئةُ الهداية الرَّبّانيَّة دائمةٌ متجدِّدة

عبَّر النَّظمُ الجليل عن المشيئة بالفعل المضارع في قوله جلَّ شأنه: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مشيئتَه تعالى بهداية النّاس دائمةٌ مستمرَّة لا تنقطع في زمن ما.

نُكْتَةُ حذفِ المفعول:

حُذِف مفعولُ فعلِ المشيئة في قوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ والتَّقدير: (مَن يشاء هديَه)[1]؛ اكتفاءً بدلالة السّياق عليه، مع ما فيه من الإيجاز.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

الهدى والضَّلال كلاهما من أمر الله تعالى

الواوُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، إمّا أن تكون استئنافيَّةً بغرضِ التَّذييل للجملة السّابقة، وهو الأظهر، وتحتمل أن تكون عاطفةً على جملة: ﴿ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾[2]، وفائدةُ العطفِ بيانُ أنَّ مَن لم يَهتدِ بالقرآن؛ فإنَّه لا هدى بعدَه، وأنَّ الهدى والضَّلال من أمرِ اللّه تعالى، فدلالةُ العطفِ دلالةٌ تقابليَّة بين ضِدَّين مختلفَين في المنشأ والمآل.

بلاغةُ أسلوبِ الشَّرطِ:

ما أراده الله تعالى فهو محقَّق يقينًا

أورد النَّظمُ الجليل قولَهُ جلَّ شأنه: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 392.
(2) محمود صافي، الجدول: 12/ 172.

﴿هَادٍ﴾ بأسلوب الشَّرط؛ وذلك للدَّلالة على تأكيد وقوعِ الجواب عند وقوع الشَّرط، فمَن لم يُرِدِ اللّهُ تعالى هدايتَهُ؛ فإنَّه لن يجد هاديًا على سبيل القطع واليقين.

علَّةُ إظهارِ اسم الجلالةِ:

ذِكْرُ المولى يومِئ إلى الوعيدِ والتَّهديد

وضعَ النَّظمُ الجليل اسمَ الجلالةِ الظّاهرَ موضعَ المضمر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾، فلم يقل: (ومَن يضلِلْه)؛ لتأكيد تحقُّقِ الضَّلال، فاللّهُ تعالى هو المَلِكُ الأعظم، فإذا أضلَّ أحدًا؛ فإنَّ ضلالَهُ سيكون راسخًا في قلبه[1]، ليس له إلى خروجٍ عنه من سبيلٍ، ففيه مزيدُ تهديد ووعيد.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

توكيدُ الوعيد والإيماءُ إلى طلبِ الهداية من الله وحدَه

افتتح النَّظمُ الجليل الجملةَ الاسميَّة بالفاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾، وهي الفاء الرّابطة لجواب الشَّرط بفعله[2]؛ وذلك لبيان أنَّ الجملة المنفيَّة مِن تمام جملة الشَّرط، وأنَّها ليست لمعنًى مستقلٍّ، فهي مؤكِّدةٌ معنى التَّهديد، مع ما فيها من الإيماءِ إلى ضرورةِ المسارعةِ في طلبِ الهدايةِ من اللّه تعالى.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالجملة الاسميَّةِ:

آثرَ النَّظمُ الكريم إيرادَ النَّفي بالجملة الاسميَّة في قولهِ تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾، فلم يقل: (فلا يُهدى)؛ لتأكيد النَّفي، وللدَّلالة على أنَّه ثابت لن يزول.

معنى اللّامِ في ﴿لَهُۥ﴾:

استعمل النَّظمُ الكريم حرفَ (اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾، وهي هنا للمُلْك، أي: لا يملك هاديًا يهديه، ونفي ذلك تأكيدٌ للتَّهديد المذكور.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 491.

(2) صافي، الجدول: 12/ 172.

غرضُ تقديمِ الجار والمجرور ﴿لَهُۥ﴾:

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملةِ من الجارِّ والمجرور على المبتدأ المؤخَّر في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾؛ وذلك لتخصيص انتفاء الهادي به، مبالغةً في انتفائه عنه، فكأنَّ الهادي انتفى عن ذلك الضّالِّ وحده، وهذا مبالغةٌ في النَّفي؛ لترشيح معنى التَّهديد وتقويتِه.

من معالم رحمةِ الضّالِّ تشديدُ التَّهديد عليه

نوعُ ﴿مِنۡ﴾ ودلالتُها في ﴿مِنۡ هَادٖ﴾:

استعمل النَّظمُ الجليل حرفَ ﴿مِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾؛ لتأكيدِ الكلامِ، وجيء به لاستغراق النَّفي، أي: إنَّه لن يجد هاديًا ما، أيًّا كان ذلك الهدى.

بلاغةُ التَّعبير بصيغةِ اسمِ الفاعلِ نكرةً:

عبَّر النَّظمُ الجليل عن الهادي المنفيِّ باسم الفاعل في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ الضّالَّ لن يجد أحدًا، له رسوخٌ في الهداية، يمكن أن يهديَه، وجاء التَّعبيرُ بصيغة التَّنكير؛ لأنَّ النَّكرة في سياق النَّفي تدلُّ على الاستغراق، أي: لا هاديَ له بأيِّ حالٍ من الأحوال.

الاغترارُ بالمُضلّين لا يُؤدّي إلى النَّجاةِ يومَ الدّين

بلاغةُ الاحتباكِ:

أورد النَّظمُ الجليل قولَهُ جلَّ شأنه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ على طريقة الاحتباك؛ طلبًا للإيجاز والتَّفنُّن في الكلام، فقد "ذكر أوَّلًا إطلاقَ أمرِه في الهداية دليلًا على حذف مثلِه في الضَّلال، وثانيًا انسدادَ بابِ الهداية على مَن أضلَّه دليلًا على حذف مثله فيمن هداه"[1]، أي: إنَّ التَّقدير: ذلك هدى اللّه يهدي به مَن يشاء، ومن يهدِ اللّه؛ فما له مِن مُضلٍّ، وذلك إضلالُه يُضِلُّ به مَن يشاء، ومن يضللِ اللّهُ؛ فما له من هادٍ.

اختزالُ الألفاظِ مع معرفةِ معانيها من وجوه الإعجازِ البديعة

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 491.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ٢٤﴾ [الزُّمر: 24]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانتقالُ من حُكْم القُساة في الدُّنيا إلى حالِهم في الآخرة

لمّا ذكر النَّظمُ الجليل حُكمَ اللّه تعالى على القاسية قلوبهم بحُكم في الحياة الدُّنيا، وهو الضَّلال التّامُّ، كما قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾؛ ناسبَ أن يُتبعه بحُكمٍ واقعٍ في الآخرة، وهو العذاب الشَّديد، فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾[1]، فهو انتقالٌ من أحكام الضّالّين في الدُّنيا إلى حالِهم في الآخرة، ومن المناسبة: أنَّه لمّا بيَّن التَّباينَ بين حالَي أهلِ القلوب اللَّيّنة والقلوبِ القاسية، أتبعه ببيان علَّة ذلك التَّباينِ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَّقِي﴾: (وقى) أصلٌ يدُلُّ على دَفْعِ شَيءٍ عن شَيءٍ بغيره، يُقالُ: وقَيْتُ الشَّيءَ أقيه وِقايةً ووِقاءً، واتَّقِ اللّه: تَوَقَّهُ، أي: اجْعَلْ بَيْنَك وبَيْنَهُ كالوِقايةِ[3]، والمُتَّقي مَنِ اتَّصَفَ بالاتِّقاء، وهو طَلَبُ الوِقاية، وهو الحَذرُ المُتطلِّبُ للنَّجاةِ من شيءٍ مكروهٍ مُضرٍّ[4]، والاتِّقاءُ: تَكلُّفُ الوِقايَةِ، وهي الصَّونُ والدَّفْعُ[5]، والمقصود بالاتِّقاء في الآية: تجنُّبُ المكروه، وحِفظُ الشَّيءِ ممّا يُؤذيه، ويُضرُّه[6].

2) ﴿ذُوقُواْ﴾: (ذوق) أصلٌ يدلُّ على اختبارِ الشَّيءِ من جهة تَطَعُّمٍ، ثمَّ يُشتقُّ منه مجازًا[7]، فيُقال: ذُقتُ فلانًا، أي: خَبَرْتُه وبُرْتُه،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 448.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 252.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (وقى).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (وقى).
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 393.
(6) الرّاغب، المفردات: (وقى).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذوق).

واستذقْتُ فلانًا؛ إذا خَبَرْتَهُ، فلَم تَحمد مَخْبَرَتَهُ[1]، فالذَّوق وجودُ الطَّعم بالفَم، واستُعمِل في العذاب بكثرة، قال تعالى: ﴿ذُقۡ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡكَرِيمُ ٤٩﴾ [الدّخان: 49]، واستُعمِل في الرَّحمة: ﴿وَلَئِنۡ أَذَقۡنَٰهُ نَعۡمَآءَ بَعۡدَ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾ [هود: 10][2]، فإن كان التَّذوُّق للنِّعمة زيادةً في التَّنعُّم، فالتَّذوُّق للعذاب زيادة في الألم، وهو في الآية مُستعارٌ لإحساسِ ظاهر الجَسَد؛ لأنَّ إحساس الذَّوْقِ باللِّسان أشدُّ من إحساس ظاهر الجِلْدِ، والمَذوقُ هو العذابُ، فهو جزاءُ ما اكتسبوه في الدُّنيا من الشِّركِ وشرائعه[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

نفيُ مساواةِ أهل الجحيم بأهل الجنَّةِ كنايةٌ عن فظاعة حالِهم

نفتِ الآية الكريمةُ المساواةَ بين هؤلاء الَّذين يخشون ربَّهم، وبين غيرهم ممَّن قسَت قلوبُهم، وانحرفت نفوسُهم عن الحقِّ، فقال سبحانه: أفمن يتقحَّم نارَ جهنَّم، فلا يجد ما يتَّقي به سوى وجهه؛ ليتَّقيَ العذابَ الشَّديد يومَ القيامة، كمَن هو آمنٌ لا يعتريه شيءٌ من المخاوف أو المكروه، ولا يحتاج إلى اتِّقاء المخاوف، بل هو سالم من كلِّ سوء، مُطمئنٌّ في جنَّة الله تعالى، أي: لا يستوي هذا وذاك، ثمَّ قيل لهم تهكُّمًا واستهزاءً: ذوقوا جزاءَ ما كُنتُم تَعمَلونَهُ في الدُّنيا مِن كُفرٍ وعِصيانٍ[4]، وفي الآية الكريمة تهويلُ عذاب يومِ القيامة؛ إذ جرت عادة الإنسان أن يتَّقي الآلام بيديه وجوارحه، فإذا ما اتَّقاها بوجهه الَّذي هو أشرف أعضائه؛ كان ذلك دليلًا على أنَّ ما نزل به في نهاية الفظاعة والشِّدَّة[5].

---

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذوق).

(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، الدّرّ المصون: 5/ 282، والمناويّ، التّوقيف، ص: 172.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 394.

(4) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 194، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 251، والمراغيّ، تفسير القرآن: 23/ 162، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 23/ 280.

(5) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 216.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ الجملةِ الدَّلاليُّ:

الاختيارُ السَّرمديُّ بين نورِ القرآنِ وحرِّ النّيران

جملةُ: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ إمّا أن تكونَ مستأنَفة استئنافًا تعليليًّا، جيء بها لبيان علَّة تباين حال المهتدين وحال الضّالّين[1]، فمَن شرح اللّهُ تعالى صدره؛ حالُه مُباينٌ لَمن يتَّقي بوجهه سوءَ العذاب، والتَّعليلُ كامنٌ في المقابلةِ بين الحالَين، وإمّا أن تكونَ الجملةُ اعتراضًا بين الثَّناء على القرآن فيما مضى وقولِه الآتي: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾[2].

نوعُ الاستفهامِ وغرضُه:

معنى التَّقريرِ والنَّفي متآيلانِ في المآل

آثرَ النَّظمُ الجليل استعمالَ أسلوبِ الاستفهام في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ على الإخبارِ المُجرَّدِ؛ لما في الاستفهامِ من قوَّة تحريكِ الأذهان، وإثارةِ الأفهام، والاستفهامُ مجازيٌّ، فهو دالٌّ على التَّقرير، والمراد منه: التَّعجيب من الحالة، والمعنى: أفَمَنْ يَتَّقي بِوَجْهِهِ سوءَ العَذابِ كالمنعَّمين في الجنَّة[3]؟ أو أن يكون الاستفهامُ إنكاريًّا، والمقصود من نفيِ التَّسوية بين الضّالِّ الَّذي هو في العذاب، والمهتدي الذي هو في النَّعيم[4]، فهُم لا يستويان في النَّتيجةِ السَّرمديَّة، والمعنيان متآيلان في المآلِ.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

الفاءُ إمّا تفريعيَّة على سابقٍ للهمزة، أو عاطفة على مقدَّرٍ بعدَها

الفاءُ في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ إمّا أن تكون تفريعيَّةً، حيثُ فُرِّع الاستفهامُ على قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾، والمرادُ من هذا التَّفريع:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 252.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 392.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 528.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 392.

تعيينُ ما صَدقَ عليه الاسمُ الموصول[1]، أي: الذي يُضلُّه اللّهُ تعالى سيتَّقي بوجهه سوءَ العذاب، وإمّا أن تكون عاطفةً على جملة مُقدَّرة تُفْهَم من مضمون السّياق، أي: أكُلُّ النّاسِ سواءٌ[2]، فمَن يتَّقي بوجهه حَرَّ النّيران؛ ليس كالمنعَّم في الجِنان، وهذا على اعتبارِ أنَّ المعطوفَ عليه واقعٌ بعد الهمزة.

دلالةُ الاسمِ الموصولِ (مَنْ):

كـلُّ خاسـرٍ لن يُنجيَهُ اتِّقاؤه عذابَ النّار

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاسم الموصول (مَنْ) في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾؛ للدَّلالة على العموم، فإنَّ انتفاء التَّسوية بين الآمن مِنَ العذاب يومَ القيامة، وبين الَّذي يتَّقي النّارَ بوجهه، هو أمرٌ عامٌّ لا يتعلَّق بمعيَّن، فأفضليَّةُ النّاجي من العذاب عامَّةٌ في كلِّ آمنٍ ناجٍ منه.

بلاغةُ التَّعبيرِ بمفردةِ الاتِّقاءِ مادَّةً وصيغة:

لا مَـفـرَّ مِـنَ العذابِ إلّا بما هو مفرورٌ لأجلِه

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاتّقاء في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۚ﴾؛ للدَّلالة على الوقاية من العذاب، وهو صونُ النَّفسِ عن الوقوع فيه، ودفعُ العذابِ عنها، ودلَّت صيغةُ (الافتعال) على تكلُّف ذلك الاتِّقاء[3]، والاتِّقاء: هو دفعُ السّوءِ خشيةَ الوقوعِ فيه، وأتى النَّظمُ الكريمُ بهذه المفردةِ لبيانِ أنَّ الخاسرَ يوم القيامةِ سيبذل كلَّ ما يملك، ولو كان أعزَّ ما عنده، وهو وجهه؛ ليكون وقايةً بينَه وبين سوءِ العذابِ، وهو ما يدلُّ على شديدِ العذابِ الذي لا مفرَّ منه إلّا بما هو مفرورٌ لأجلِه.

نوعُ الباءِ ودلالتُها في ﴿بِوَجْهِهِۦ﴾:

الباء في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ﴾ للسَّببيَّة، كما

(1) ابن عاشور، التَّحرير والتّنوير: 23/ 393.
(2) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 412.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 393.

يقال: وقى بترسه[1]، ويجوز أن تكونَ للاستعانةِ، أي: اتَّقى العذابَ مستعينًا بوجهه.

توجيهُ تخصيصِ الوجهِ بالذِّكر:

الكنايةُ عن هولِ الموقفِ وعظيمِ العذابِ

خصَّ النَّظمُ الجليل ذِكرَ الوجه دونَ سائر البدن في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾؛ وذلك لأنَّ الوجه أشرفُ أعضاءِ الإنسان، وإنَّ المَرءَ إذا وقع في سوءٍ؛ فإنَّه يُسارع بأن يجعلَ يدَهُ وقايةً لوجهه وفداءً له، فالوجهُ لا يُتَّقى به، بل يُتَّقى بغيرِه لأجلِه؛ فدلَّ ذِكرُ الوجه على أنَّ المراد أنَّهم عاجزون عن الاتِّقاء[2]؛ فـ "إذا كان القادرِ على الاتِّقاء يجعل كلَّ ما سوى الوجه فداءً للوجه، لا جَرَم حَسُنَ جَعْلُ الاتِّقاءِ بالوجه كنايةً عن العَجْز عنِ الاتِّقاء"[3] عمومًا، كما دلَّ على أنَّ يده التي هي آلة الوقاية من المخاوف مغلولةٌ مكبَّلة[4]، فهو كنايةٌ عن عُسْرِ الموقفِ، وهولِ العذابِ، وعظيم الألم.

غرضُ تقديمِ ﴿بِوَجۡهِهِۦ﴾ على المفعولِ:

تعكيسُ الوسائلِ تنكيسٌ للغايات

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة من الجارِّ والمجرور على المفعول به في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ للاهتمام بالمقدَّم؛ تنبيهًا على شدَّة سوءِ الحال، فالوجهُ الَّذي هو أكرم ما في الإنسان اتَّخذه الضّالّون واقيًا من حرِّ النّار، فقدَّمَ ذِكرَهُ تنبيهًا على سوء حالهم؛ إذ جعلوا المخدومَ خادمًا، والمصونَ صائنًا، والغايةَ وسيلةً، وهذا مِن التَّعكيس الدّالِّ على التَّنكيس.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردةِ ﴿سُوٓءَ﴾:

لفظُ السّوءِ يشملُ الذُّلَّ والشِّدَّةَ والألمَ

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ لفظِ السّوءِ دونَ مقارِباته كالشِّدَّةِ في

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 393.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 336.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 448.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 492.

قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ﴾؛ لأنَّ لفظَ السّوءِ أعمُّ وأدلُّ على المقصود، فسوءُ العذاب يتّصف بالشِّدَّة والألم والقَهْر والذُّلِّ ضِمنًا، مع دلالته على الكراهة، فالتَّعبيرُ به أنسبُ لقسوة القلوب؛ لأنَّه أتبع نفسَه هواها حتّى قسا قلبُه عن ذِكْر اللّه تعالى[1]، كما أنَّ فيه تنبيهًا على أنَّ العذابَ فيه مساءةٌ لهم مع شدَّته وهوله.

علَّةُ إيقاعِ فعلِ الاتِّقاءِ على سوءِ العذابِ لا على العذابِ:

الـــواصـــلُ للمُعذَّبين سوءُ الـعـذابِ، وهـو الـذي يُتَّقى بما لا يَقي

أوقع النَّظمُ الجليل فعلَ الاتِّقاء على سوء العذاب، لا على العذاب ذاتِه في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾، فلم يقل: (أفمن يتَّقي بوجهه العذابَ)؛ وذلك للدَّلالة على أنَّ العذاب متَّصفٌ بكونه شديدًا سيِّئًا[2]، فإنَّ المُعذَّبين به أقصى ما يتمنّون النَّجاةَ من سوئِه، فيتَّقون ذلك بوجوههم الَّتي لا تقي، والعذابُ بالجملة لا يُتَّقى، وإنَّما يُتَّقى ما يصل إلى المُعذَّبين منه، وهذا الواصل هو سوءُ العذابِ.

نوعُ الإضافةِ وبلاغتُها في ﴿سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ﴾:

إضـافـةُ الصِّفةِ إلـى موصوفِها أشدُّ في التَّهويلِ والوعيدِ

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ ﴿سُوٓءَ﴾ إلى ﴿ٱلْعَذَابِ﴾ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ﴾، والمراد: وصفُ العذابِ بالسّوء، أي: يتّقي العذابَ السَّيّئَ الشّديدَ[3]، فهو من إضافة الصِّفة إلى الموصوف بها[4]، ولم يقل: (العذابَ السَّيّئَ)، بل قدَّم الصِّفة، فأضافها لموصوفها اهتمامًا بها، وتنبيهًا على شدَّتها، وأنَّها هي موضعُ العِبرةِ.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْعَذَابِ﴾:

العذابُ المعهودُ في الأذهـان هو عذابُ جهنَّم

عرَّف النَّظمُ الجليل العذابَ بالألف واللّام في قوله جلَّ شأنه:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 492.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 252.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 252.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 336.

﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾، والتَّعريف عهديٌّ، والمراد به العذابُ الذي ذُكِر في قوله تعالى: ﴿أَفَمَنۡ حَقَّ عَلَيۡهِ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ أَفَأَنتَ تُنقِذُ مَن فِي ٱلنَّارِ ١٩﴾ [الزّمر: 19]، فالعذاب الذي يتَّقيه أهلُ النّارِ بوجوههم هو العذاب الَّذي حقَّ عليهم، وهو عذابُ جهنَّم.

علَّةُ انتخابِ مفردةِ العذابِ دونَ العقابِ:

مـراعـاةُ سياقِ الكلامِ أصلٌ في اختيارِ المفردات والأساليب

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ العذاب في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ دونَ العقاب، وذلك لأنَّ المقصودَ هو بيانُ عذابِهم في النّارِ، لا التَّنبيهُ على العقوبةِ الَّتي لاقاها هؤلاءِ المُعذَّبون بسببِ أعمالِهم، فالسّياقُ سياقُ تهويلٍ وترهيب، لا تنبيه على جزاء الذُّنوب والأعمال.

فائدةُ التَّقييدِ بذِكرِ يومِ القيامة:

تنبيهُ العبادِ إلى ضرورةِ المسارعةِ إلـــى الـتَّـوبـةِ والإنابة

قيَّد النَّظمُ الجليل العذابَ بكونه يومَ القيامة في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾؛ للإشارة إلى انتفاء النَّجاة منه، وقد تقرَّر أنَّ ذلك اليوم لا وليَّ فيه ولا نصير، فأنَّى لهم النَّجاةُ، فأفاد القيدُ الانتقالَ إلى زمنِ الحسرةِ الذي لا مرجعَ عنه لَمن وصله، ولا محيدَ عنه لَمن بلغه، فيومُ القيامةِ هو الفاصلُ بين زمن التَّكليف وزمن الحساب والجزاء، ففي ذِكْر القيدِ فائدةٌ عظيمةٌ، وهي تنبيهُ العبادِ على ضرورةِ المسارعةِ إلى الإنابة والتَّوبة قبلَ مجيءِ الموتِ المُفضي إلى دار النَّدامةِ.

سرُّ حذفِ المقابلِ الضِّدّي:

تـمـحـيـصُ الخطابِ لتهويلِ عذابِ الكافرين والإيـمـاءِ إلى نعيمِ المؤمنين

آثرَ النَّظمُ الكريم حذفَ المستفهَم عنه في قوله جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾، والتَّقدير: (أفمن يتَّقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمنٌ من العذاب)، فتركَ ذِكْرَ الخبر[1]، وقد أفاد هذا الحذفُ تهويلَ شأنِ العذاب

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 448.

تقريعًا للكافرين وتهجيجًا لهم[1]، وإرشادًا للمتلقّي إلى أنَّ المقصودَ هو تبكيتُ المعذَّبين، لا المقارنةُ بين الفريقين، وإن كان ذلك ملموحًا إيماءً وإشارةً، لا تصريحًا وعبارةً.

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

اجتماعُ العذاب الجسديِّ والنَّفسيِّ إيغالٌ في التَّنكيل

افتتح النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ بالواو، وتحتمل أن تكون للعطف، فهي تعطف (قيلَ) على قوله: ﴿يَتَّقِي﴾، والتَّقدير: ويقالُ لهم من جهةِ خَزَنةِ النّارِ[2]، فقد جمع لهم بين العذاب الجسديِّ والعذابِ النَّفسيِّ المتحصِّل من تقريعهم بذلك القول، وتحتمل أن تكونَ الواو حاليَّةً، فتكون الجملة للتَّذييل، أي: ويُقال لهؤلاء وأشباههم[3]، فيفيدُ الحالُ أنَّ اتِّقاء النّارِ بالوجه يكون في حالة تلقّيهم ذلك القول.

نُكْتَةُ التَّعبير بالقول مادَّةً وصيغةً:

تمثيلُ وقوعِ العذابِ باعتبارِه خبرًا عمّا سيكون

عبَّر النَّظمُ الجليل بالقول في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾؛ لأنَّ إسماعَهمُ الأمرَ بتذوُّق العذاب زيادةٌ في شدَّة العذاب، فهو نوعٌ من العذاب النَّفسيِّ، وجاء التَّعبيرُ بصيغة البناء للمفعول؛ لأنَّ المراد مطلقُ التَّوبيخ والتَّقريع، لا بكونه من مُعيَّن[4]، وعبَّر بالفعل الماضي مع أنَّه واقعٌ في المستقبل؛ للدَّلالة على تحقُّق وقوعه، فنزَّله منزلةَ فعلٍ قد حصل، ومضى، ويجوز أن تكون جملةُ: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ في موضع الحال بتقدير (قد)، ولذلك لا يحتاج إلى تأويل صيغة المُضيِّ على معنى الأمر المحقَّقِ وقوعُه[5]، أو لأنَّه إخبارٌ عمّا سيحصل لهم يومَ القيامةِ، فنُقِل الخبرُ باعتبارِ ما هو كائنٌ في المستقبل، فهو تمثيلٌ للمشهد يومئذٍ.

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 516.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 252.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 394.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 492.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 394.

نوعُ اللّامِ ودلالتُها:

استعمل النَّظمُ الكريم حرفَ (اللّام) في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾، ومعناها التَّبليغ، فالمقصودُ بهذا القول هو تبليغ الظّالمين بمضمون الخطاب.

بلاغةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

سلوكُ سبيلِ الظُّلم هو العِلَّة في سوء العذاب

وضع النَّظمُ البليغ الاسمَ الظّاهر موضعَ المُضمر في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾، فلم يقل: (وقيل لهم)؛ وذلك لتسجيل ظُلْمهم وإظهاره، وبيانِ علَّة الأمر بتذوُّق العذاب، أي: إنَّ ذلك كان بسبب الظُّلم[1]، كما أنَّه يدلُّ على أنَّ الحُكم عامٌّ في كلِّ ظالم، وليس خاصًّا بالمخاطَبين[2].

معنى تعريفِ لفظِ (الظّالمين):

العذاب شامل لكلِّ ظالم

عرَّف النَّظمُ الجليل الظّالمين بـ (ال) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾، والألف واللّام إذا دخلت على مشتقٍّ؛ أفادتِ الموصوليَّةَ، فكأنَّه قيل: (وقيل للذين ظلموا)، مع إفادتها للجنس، والمرادُ عمومُ الظّالمين، فالخطابُ شاملٌ لكلِّ أحدٍ منهم[3]، فيدخلُ في ذلك الظّالمون الذين أتَوا الظُّلمَ العقديَّ والسُّلوكيَّ وظُلْمَ الآخَرين، فكلٌّ يُحاسَب على ما كسبته يداه.

نُكْتَةُ التَّعبيرِ بصيغةِ اسمِ الفاعلِ:

رسوخُ ظُلْمِ الظّالمين سببُ الوعيدِ الشَّديدِ

جاء التَّعبيرُ باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾، دون أن يُعبِّر بالاسم الموصول الَّذي هو ترجمة اسم الفاعل؛ للدَّلالة على رسوخ صفة الظُّلم فيهم، وأنَّهم استحقّوا سوءَ العذابِ بسببِ كسبهمُ العظيمَ في الدُّنيا.

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 252.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 492.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 492.

نُكْتَةُ جمعِ لفظِ (الظّالمين):

كلُّ الظّالمين إلى جهنَّم يحشرون

جاء التَّعبيرُ بصيغة الجمع في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ﴾ ولم يقل: (وقيل له)؛ مراعاةً لمعنى الجمعِ في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجۡهِهِۦ﴾ دون لفظِ الإفراد، لتعيين كلِّ الظّالمين، فهُم على كثرتِهم مشمولون في هذا الحُكم، وأنَّ كثرتهم تلك لم تُغنِ عنهم شيئًا[1]، بل كانت سببًا في شديد الوعيد.

بلاغةُ استعمالِ مفردة الذَّوقِ:

ألـمُ العذابِ يبلغ الكافرَ كبلوغ الطَّعْم إلى اللِّسان

استعمل النَّظمُ الجليل مفردةَ الذَّوق في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾؛ للدَّلالة على مباشرتهم إيّاه[2]، وهو دالٌّ على بلوغ ألمِ العذاب إليهم كبلوغ طعم الزّاد إلى لسان المُتذوِّق، ففي اللَّفظِ استعارةٌ تصريحيَّة تبعيَّة؛ إذ شبَّه بلوغَ العذابِ ووصولَهُ إلى جسدِ الظّالمين بتذوُّقِ الطَّعام، فهو مستعارٌ لإحساس ظاهر الجسد؛ لأنَّ إحساسَ الذَّوق باللِّسان أشدُّ من إحساس ظاهر الجلْد، فوَجْهُ الشَّبهِ قوَّةُ الجنس.

غرضُ الأمرِ ودلالتُه:

التَّهكُّمُ بالظّالمين وتقريعُهم بالإهانة

فعلُ الأمر في قوله جلَّ شأنه: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ مستعملٌ للدَّلالة على الإهانة والتَّهوين[3]، وليس المرادُ طلبَ تذوُّق العذاب منهم، بل التَّغليظَ عليهم، والتَّقريعَ بإسماعهم الأمرَ بالتَّذوُّق، فخرج الأمرُ عن غرضِه الحقيقيِّ إلى غرضِه المجازيِّ، مع ما فيه من التَّهكُّمِ بالمخاطَبين؛ فإنَّ العذابَ لا يُذاق.

معنى ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا كُنتُمۡ﴾:

سينالُ الظّالمون جزاءَ كسبِهم مهما كان نوعُه

استعمل النَّظمُ الاسمَ الموصول ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾؛ للإشعارِ بالعموم، فإنَّ الظّالمين

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 492.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 529.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 516.

سينالون جزاءَ كسبِهم، مهما كان نوعُهُ، وللدَّلالة على أنَّ ما يذوقونه إنَّما هو بسبب ما اكتسبوه كما جاء في صلة الموصول[1].

نُكْتَةُ إيقاعِ فعلِ الذَّوقِ على الموصول:

المبالغةُ في بيان أنَّ الجزاءَ وفْقَ الأعمالِ

أوقعَ النَّظمُ الكريم فعلَ الذَّوقِ في قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾ على ما كسبوه في الدُّنيا، فلم يقل: (ذوقوا عذاب ما كنتم تكسبون)، فجعل المَذوقَ نفسَ ما كانوا يكسبون؛ مبالغةً مُشيرةً إلى أنَّ الجزاءَ وفقَ أعمالِهم، وأنَّ اللّه عادلٌ في تعذيبهم[2]؛ ليقعَ الارتداعُ عن الغيِّ والظُّلم في الدُّنيا، فإنَّ ما يكتسبه الظّالمون سيلاقيهم عذابًا أليمًا في الآخرة، فنبَّه بذلك على كمال عدلِه فيهم، بحيثُ إنَّ عذابهم هو نفسُه ما كَسَبوه.

نُكْتَةُ ذِكْرِ فعلِ الكون الماضي:

العذابُ لا يكون على المعاصي العابرة بل على الظُّلم الرّاسخ

أدخل النَّظمُ الجليل فعلَ الكونِ الماضي على الفعل المضارع في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾؛ للدَّلالة على الدَّوام والاستمرار، أي: ذوقوا جزاء ما كنتُم تكسبونَه على وجه الدَّوامِ من الكفرِ والمعاصي[3]، وهو يشير إلى إصرارهم على كفرهم وعصيانهم ورسوخهم فيه، واللّه تعالى لا يُعذِّب النّاس على معصيةٍ غير مقصودة، وظُلم عابر، بل يعذِّب الظّالمين على ما استمرّوا عليه، واستوثقوا بعُراه عنادًا وإصرارًا إلى ساعة الموت.

نُكْتَةُ حذفِ المفعول:

كلُّ كسبٍ من الحرام له نصيبٌ من العذاب

حذف النَّظمُ الجليل متعلِّقَ فعلِ الكسبِ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ﴾، والتَّقدير: ما كنتُم تكسبونَه من الكفرِ والمعاصي[4]، فحذف ذلك لكون ما كَسَبوه ممّا يوجِب لهم العذابَ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 394.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 394.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 252.

(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 252.

كثيرًا متعدِّدًا من الآثام والكبائر، فدلَّ بالحذف على شمول كلِّ ذلك، كما أنَّ الحذف يُحقِّق التَّوافقَ الصَّوتيَّ في الفاصلة القرآنيَّة.

براعةُ فنِّ الاحتباكِ:

أورد النَّظمُ الجليل قولَهُ جلَّ شأنه: ﴿أَفَمَن يَتَّقِى بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۚ وَقِيلَ لِلظَّـٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ على طريقة الاحتباكِ، فقد "ذَكَر الاستفهامَ أوَّلًا دليلًا على حذف متعلِّقه ثانيًا، وما يُقال للظّالم ثانيًا دليلًا على ما يُقال للعَدْل أوَّلًا"[1]. والتَّقدير: أفمن يتَّقي بوجهه سوءَ العذابِ يومَ القيامة كمَن يأتي آمنًا، وقيل للمؤمنين العادِلين: أبشروا بما كنتم تعملون، وقيل للظّالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 493.

﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ٢٥ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ ٢٦﴾ [الزّمر: 25 - 26]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقالُ من ذِكْرِ عذابِ الآخرةِ إلى ذِكرِ عذاب الدُّنيا

لمّا بيَّنتِ الآياتُ السّابقة كيفيَّةَ عذابِ قُساةِ القلوب في الآخرة، وأنَّ ما نالوه مِنَ العذابِ الشَّديد والأليم ما كان إلّا بما اكتسبته أيديهم في الدُّنيا؛ ناسبَ بعد ذلك بيانُ وقوعِ العذاب في الدُّنيا لِمَن ظلم من أولئك، ومِن المناسبة: أنَّه لّما بيَّن ما أعدَّ اللّهُ تعالى للقاسية قلوبهم في الآخرة مِنَ العذاب؛ أتبعَهُ ببيان عملهم الَّذي استحقّوا به ذلك، وهو التَّكذيبُ والإنكار[1]، ثمَّ بعد أن ذَكر أنَّه أتاهمُ العذابُ في الدُّنيا - وهو ما يقع به الألمُ - بيَّن أنَّه أتاهمُ الخزيُ والذُّلَّ في الحياة الدُّنيا؛ ليجمعَ لهم بين الألم والهوان والذُّلِّ[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿كَذَّبَ﴾: (كذب) أصلٌ يدُلُّ على خِلافِ الصِّدْقِ، وتلخيصُه: أنَّه لا يَبْلُغُ نهايةَ الكلامِ في الصِّدْقِ[3]، والتَّكذيبُ: النِّسبةُ إلى الكذب، أو الوصفُ بالكذبِ سواءٌ كان مِن اعتقادٍ أم لم يَكُنْهُ[4]، والكذّاب الَّذي لا يَصْدُق أثَرُه، يَكْذِبك من حيثُ جاء[5]، ويُطلَق الكذبُ صِفَةً للخَبَر الَّذي هو بخلاف الواقِعِ، فيُقال: كلامُك كذبٌ، أيْ: خلافُ الواقع، وضِدُّه: الحقيقةُ، ويُستعمل بمعنى الزَّيْفِ والخِداعِ، تَقول:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 493.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 449.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كذب).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/ 171.
(5) الزّبيديّ، تاج العروس: (كذب).

جوهرٌ كاذبٌ، أيْ: زائفٌ، ومِن مَعانيه أيضًا: الجُحودُ، والافتراءُ[1]، والمُرادُ به في الآية: ضِدُّ الصِّدق، وهو الخَبَر المُخالف للواقع.

2) ﴿يَشْعُرُونَ﴾: (شعر) أصلٌ يدُلُّ على عِلْم وعَلَم، فالإشعارُ: الإعلامُ، والشِّعار: العَلامة[2]، والأصلُ قولُهُم: شَعُرتُ، أي: أصبتُ الشَّعَرَ، ومنه استُعير: شَعَرْتُ كذا، أي: عَلِمتُ عِلمًا في الدِّقَّة كإصابة الشَّعر، والمَشاعِرُ: الحواسُّ، ومنه قوله: ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾ [الحجرات: 2]، أي: لا تدركونه بالحواسِّ[3]، والشُّعورُ يُطلَقُ على العِلْم بالأشياءِ الخَفيَّةِ، ومنهُ سُمِّيَ الشّاعِرُ شاعرًا؛ لِعِلْمِهِ بالمعاني الَّتي لا يَهتدي إليها كُلُّ أحَدٍ[4]، وأمّا المقصود بالشُّعور في الآية؛ فهو نفيُ العِلْم بِحُصولِ الشَّيءِ الحاصِلِ.

3) ﴿ٱلْخِزْىَ﴾: (خزي) أصلٌ يدلُّ على ذُلٍّ يُستَحى مِنهُ؛ ولذلكَ يُستَعمل في كلٍّ منهما، أي: الذُّلُّ والاستِحياء[5]، وقيل أصلُه: الإبعاد، فقولُهُم: أخزاهُ اللّهُ، أي: أبعَدَهُ، ومَقَتَهُ[6]، والخِزيُ: الفضيحة، وقد خَزيَ يَخزَى خِزْيًا؛ إذا افتَضَح، وتَحيَّر فَضيحَةً[7]، والخِزْيُ أيضًا: السّوء والعذاب[8] والهَوانُ[9]، والمرادُ في الآية: عذابُ الذُّلِّ والصَّغار، وذلك باعتبار أنَّ الخِزْيَ وَصفٌ للعذاب، وهو مُخزٍ للَّذي يُعذَّب به، أي: العذاب الَّذي يُذِلُّهم، ويُخزيهم في الحياة الدُّنيا[10].

۞ المَعنى الإجماليُّ:

ذكَرتِ الآيةُ الكريمة عذابَ مُكذِّبي الرُّسلِ من قَبْل قريشٍ من الأُمم السّابقة عليهم، فأتاهمُ العذابُ المُقدَّر لكلِّ أُمَّة منهم من الجهة الَّتي لا يحتسبون، ولا يدور بخَلَدهم إتيانُ الشَّرِّ منها؛ لأنَّ ذلك أقسى على النَّفس وأشدُّ إيلامًا لها، فعَجَّل سبحانه لهم عَذابَ الذُّلِّ

(1) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح: 1/ 209، والجرجانيّ، التّعريفات، ص: 183.
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (شعر).
(3) الرّاغب، المفردات: (شعر).
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 1/ 278.
(5) الزَّبيديّ، تاج العروس: (خزي).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خزي).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (خزي).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (خزي).
(9) الزّبيديّ، تاج العروس: (خزي).
(10) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 217.

والهَوانِ في الحياةِ الدُّنيا، ولَعذابُ الآخِرةِ أكبَرُ مِن عَذابِ الدُّنيا، فلو كانوا يَعلَمونَ ذلك؛ لاعتبَروا، واتَّعَظوا، فآمَنوا، ولم يُعَرِّضوا أنفُسَهم لِعَذابِ اللهِ تعالى[1].

العذابُ التّامُّ هو أن يَحصُلَ فيه الألمُ مَقرونًا بالهَوانِ والذُّلِّ

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئناف البيانيِّ:

يجمع الاستئنافُ البيانيُّ بين الإخبارِ والإيماء

جاء قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ مفصولًا عمّا قبله؛ لأنَّه مستأنفٌ استئنافًا بيانيًّا، فسيقَ للجواب على سؤال من يقول: فهل يُعذَّب الظّالمون في الدُّنيا؟ فأخبر أنَّه قد نزل العذابُ بالمكذِّبين قبلَهم[2]؛ إيماءً إلى أنه قد يَنزلُ بالمكذِّبين بالقرآنِ.

نُكْتَةُ التَّعبير بصيغة الماضي:

نزولُ العذابِ بمَن تحقَّق فيه التَّكذيبُ تكرارًا ومرارًا

جاءَ التَّعبير عن التَّكذيب بالفعل الماضي في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ لإظهار تحقُّق كَذِبهم وحتميَّته، والتَّعبيرُ بصيغة التَّفعيل؛ للدَّلالة على شدَّة تكذيبهم وكثرته، فالسّابقون كذَّبوا قطعًا وتحقيقًا، وتكرارًا ومرارًا، حتّى أتاهم ما يستحقّونه من شديدِ عذابهم، وأتاهم وعيدُهم في الدُّنيا، ولَدار الآخرةِ أشدُّ وأبقى.

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ:

مكذِّبو الرُّسل أقوامٌ معروفون معهودون

جاء التَّعبيرُ بالاسم الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ لبيانِ أنَّ المُكذِّبين هم أقوامٌ اختصّوا بصفاتٍ لم تكن في سواهم، وهي الكفر والتَّكذيب والإصرار والعِناد، والكِبر عن التَّوبة والإنابة، وتحدّي الرُّسل، بطلبِ نزولِ العذابِ، فالاسمُ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 195، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 251، والسّعديّ، تيسير الكريم الرحمن، ص: 723.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 493.

الموصول يُشير إلى المُكَذِّبين قبلَ قريش ممَّن عُرفوا بصفاتٍ معهودةٍ في القرآن.

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتُها:

استعمل النَّظمُ الكريم حرف ﴿مِن﴾ في قولِه تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ الدّالَّة على الابتداء، وذلك للإشارةِ إلى قربِ زمان المُعذَّبين من زمانهم[1].

دلالةُ ذكرِ الظَّرف ﴿قَبۡلِهِمۡ﴾:

التَّذكيرُ بقصصِ السّابقين إيماءٌ وتلويحٌ ضمنيٌّ بقصد الاعتبار

آثرَ النَّظمُ الكريم ذِكرَ الظَّرف ﴿قَبۡلِهِمۡ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ تذكيرًا لهم بما وقع للأقوام الَّذين بلغتهم أخبارُهم، كسَبأٍ وقوم تُبَّع وأمثالهم[2]، ودلَّ الظَّرفُ على أنَّ التَّكذيبَ كان في الأقوام السّابقين لهم، ففيه إيماءٌ وتلويحٌ أن يكون للمتحدَّث عنهم ما كان للأقوامِ السّابقين.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَأَتَىٰهُمُ﴾:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ للسَّببيَّة؛ لتنبيه السّامعين على أنَّ السَّببَ - وهو التَّكذيب - إذا وُجد؛ فإنَّ النَّتيجة واقعةٌ لا محالة[3].

نُكْتَةُ التَّعبير بالإتيان مادَّةً وصيغة:

مجيءُ العذابِ أمرٌ يسيرٌ محقَّق

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الإتيان في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مجيء العذاب إليهم كان أمرًا يسيرًا على اللّه تعالى[4]، فالإتيانُ دالٌّ على سهولة المجيء، والتَّعبيرُ بصيغة الماضي للدَّلالة على تحقُّق الإتيان ووقوعه.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 493.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 493.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 449.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 493.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾:

عذابُ السّابقين معهودٌ معلومٌ سماعًا أو إخبارًا

تعريفُ لفظِ العذاب في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ للعهد، أي: العذاب المُقدَّرُ لكلِّ أُمَّةٍ منهم[1]؛ وذلك لأنَّ من تمام إنذار الرُّسل أن يُحَذِّروا أقوامَهم مِن العذاب، فيكون المرادُ العذاب الذي وقع الإنذار به، فالعذابُ المراد هو العذابُ المعروف الذي نزل بالأقوامِ السّابقين، وعرفه اللّاحقون إمّا بما سمعوه، أو بما أُخبروه.

نوعُ ﴿مِنۡ﴾ ودلالتُها:

العذابُ يأتي من جهةِ استغلاقِ الشُّعورِ

حرفُ ﴿مِنۡ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾ للابتداءِ، أي: صدر العذاب من الجهةِ التي لا يحتسبونَ، ولا يخطرُ ببالِهم إتيانُ الشَّرِّ منها[2]، ففيه تنبيهٌ على أنَّ العذابَ يأتي من حيثُ استحكامُ الغَفلةِ، واستقفالُ الشُّعورِ، واستغلاقُ الأفهام.

دلالةُ استعمالِ الظَّرف ﴿حَيۡثُ﴾:

من مأمنه يُؤتَى الحَذِر

عبَّر النَّظمُ الجليل بالظَّرف ﴿حَيۡثُ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾، وهو للظَّرفيَّة المكانيَّة، والمقصود به الجهةُ، أي: يأتيهم العذاب من الجهة الَّتي لا يخطر ببالهم أنَّ الشَّرَّ يأتيهم منها[3]، أي: إنَّه قد أتاهم من مأمنهم، وهذا أفجعُ لهم وأشدُّ وقعًا عليهم.

بلاغةُ المضارعِ المنفيِّ:

غفلةُ الكافر عن ورود العذاب دائمةٌ حتّى يحلَّ بساحتهم

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع المنفيِّ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ للدَّلالة على تجدُّد النَّفي، أي: إنَّ انتفاء توقُّعهم لجهة ورود العذاب دائمٌ متجدِّدٌ؛ وذلك

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 252.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 252.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 449.

للتَّعبيرِ عن شدَّة ثقتهم ومأمنهم بهذه الجهة، والمرادُ: بيان شدَّة فاجعتِهم بهذا العذاب، ووقوعِ الحسرة من حيثُ أتى المُصاب.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَأَذَاقَهُمُ﴾:

عطف النَّظمُ إذاقةَ العذابِ على التَّكذيب بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؛ لبيان أنَّ إذاقة العذاب إنَّما هي بسبب التَّكذيب[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي:

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالماضي في قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؛ للدَّلالة على تحقُّق إذاقتهم الخزي في الواقع، وتأكيد حدوثها.

بلاغةُ الاستعارةِ في لفظِ الإذاقةِ:

بلوغُ العذابِ متحقِّقٌ بهم كبلوغِ المَذاقِ للمتذوِّق

استعار النَّظمُ الجليل لفظَ الإذاقةِ لمعنى الوصول في قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾؛ فإنَّه "يُقال لكلِّ ما نال الجارحة من شيء قد ذاقته، أي: وصل إليها كما تصل الحلاوةُ والمرارة إلى الذّائق لهما"[2]، فشبَّه وصولَ العذابِ إليهم بوصول مَذاقِ الطَّعام إلى المُتذوِّق، وهي استعارةٌ تخييليَّة؛ إذ شبَّه المعقولَ - وهو الخزي - بالمحسوس وهو المَذاق[3].

نُكْتَةُ إسنادِ الإذاقةِ إلى اسم الجلالة:

هولُ الموقفِ يُترجمه إسنادُ العذابِ إلى الله تعالى

أسندَ النَّظمُ الجليل لفظَ الإذاقةِ إلى اسم الجلالة في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ﴾؛ للدَّلالة على انتفاء مانعها عنهم، فهي صادرةٌ عن الله تعالى الَّذي لا رادَّ لأمره[4]، ولبيان هول الموقفِ أن يصدر عذابُ الخزي عن الله تعالى، وهو كنايةٌ عن شديد الغضبِ،

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 494.
(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 251.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 396.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 494.

فإنَّ ذِكْرَ اسم الجلالةِ في هذا السّياقِ يدلُّ على غضب اللّه تعالى على الظّالمين.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡخِزۡيَ﴾:

التَّعريف في لفظِ الخزي في قوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ﴾ للجنس، فيشمل جميعَ أنواعِ الذُّلِّ والصَّغار والهوان[1]، ممّا يُتصوَّر وما لا يُتصوَّر.

نُكْتَةُ تقييد الإذاقة بأنّها في الحياة الدُّنيا:

الإيماءُ إلى خِزيٍ آخرَ في الحياةِ الآخرة

قيَّد النَّظمُ الجليل فعلَ إذاقة الخزي بكونهِ وقعَ في الحياة الدُّنيا، في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾، وذلك للدَّلالة على أنَّ العذاب الَّذي حلَّ بهم قد صحبَهُ الذُّلُّ والهوان، وذلك للإشارة إلى أنَّ "العذاب التّامَّ هو أن يحصلَ فيه الألمُ مقرونًا بالهوان والذُّلِّ"[2]، وأنَّ إذاقةَ الخزي المذكورة هي مقيَّدة في كونها في الحياة الدُّنيا؛ للإشعارِ بوجودِ خزيٍ آخرَ في الآخرة.

فائدة العطفِ بالواو:

الاحـــتراسُ عن أوهامِ الأفهام

الواو في قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ للعطفِ، وفائدةُ العطفِ الاحتراسُ، أي: إنَّ عذاب الآخرة هو الجزاءُ على كفرِهم، أمّا العذابُ في الدُّنيا؛ فقد يصيب بعضَ الظَّلمةِ زيادةَ خزيٍ لهم[3]، فاحترس من أن يُظنَّ أنَّ عذاب الدُّنيا هو عذابُ الخِزي الوحيد على الكفر.

دلالةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

عــذابُ الآخــرة ثابتٌ واقع، وهو الأكــبر والأشــدُّ ممّا سواه

عبَّر النَّظمُ الجليل بالجملة الاسميَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على تأكيد الخبرِ وثبوت معناه، فعذابُ الآخرة ثابتٌ له حكم الأشدِّ والأكبر عمّا سواه.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 449.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 449.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 396.

دلالةُ اللّامِ في ﴿وَلَعَذَابُ﴾:

عذابُ الآخرة أكبرُ مِن عذاب الدُّنيا على وجه التَّحقيق

عبَّر النَّظم الجليل بحرف اللّام في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، وهي لامُ الابتداء المفيدة للتَّأكيد؛ وذلك لتأكيد مضمون الخطاب، ولأنَّ الكافرين دأبوا على إنكار يوم القيامة وما فيه من العذاب، فجاء التَّأكيدُ للرَّدِّ على إنكارهم.

نُكْتَةُ الإضافةِ:

العذابُ في الآخرة يُقابل العذاب في الدُّنيا

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ العذابِ إلى الآخرة في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه العذاب الذي انتقلوا إليه بعد موتهم، والذي يصيرون إليه في البعث[1]، والإضافة بمعنى (في)، أي: عذاب في الآخرة، ليُقابلَ عذابَ الدُّنيا، كما أنَّ الإضافة تدلُّ على اختصاص ذلك العذابِ الشَّديد بذلك اليوم العظيم، وهو العذاب الأخير الدّائم الأبديُّ.

لطيفةُ اسمِ التَّفضيلِ:

استعمل النَّظمُ اسمَ التَّفضيل في قوله تعالى: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾؛ وذلك للدَّلالة على زيادته في الشِّدَّة والدَّوام[2]، فهو أشدُّ كمًّا وكيفًا ووقتًا.

براعةُ الاحتباكِ:

خزي الدُّنيا كبير، وهو في الآخرة أكبر

عبَّر النَّظمُ الجليل بطريقة الاحتباك؛ للإيجاز في التَّعبير في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾، فذكر الخزي في الحياة أوَّلًا؛ للدَّليل على إرادة ذكره في شأن الآخرة ثانيًا، وذكر صفة الأكبر ثانيًا دليلًا على صفة الكبير أوَّلًا[3]، والتَّقدير: أذاقهمُ الخزيَ الكبيرَ في الحياة الدُّنيا، ويذيقهم الخزيَ الأكبر في الآخرة.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 494.
(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 41.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 494.

سرُّ الجمعِ بين الخِزي والعذابِ:

العذابُ المعنويُّ بين يدي العذاب الحسّيِّ

جمع النَّظمُ الجليل بين الخزي والعذاب جزاءً للكافرين في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ﴾؛ للتَّغليظ عليهم؛ لشدَّتهم على الرُّسل عليهم السلام، ولإنكارهم دلائل التَّوحيد المتواترة[1]، وجَعَل الخزيَ في الدُّنيا والعذابَ في الآخرة؛ ليكونَ العذابُ الغالب عليه الجانب المعنوي بين يدي العذاب الحسّيِّ.

براعةُ استعمال أداة ﴿لَوۡ﴾:

التَّلويح ببهيميَّة الكفّار وحيوانيَّة الظّالمين

عبَّر النَّظمُ الجليل بأداةِ ﴿لَوۡ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على انتفاء العِلْم عنهم؛ إذ إنَّ مَنْ عَلِم أنَّ فعلَهُ يورثه العذابَ؛ يكفُّ عنه، ولكنَّهم لمّا لم يتَّعظوا بذلك، ولم يكفّوا أنفسَهم عن الكفر؛ نفى عنهم العِلم، أي: لو كان لهم عِلمٌ ما؛ لاتَّعظوا، وآمنوا، ولكنَّهم كالأنعام، لا عِلمَ لهم أصلًا[2].

بلاغةُ ذِكرِ (كان):

استطالةُ نفي العِلم عن الكافرين في الزَّمانِ كلِّه

ذكر النَّظمُ الجليل الفعل الماضي (كان)، في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على تجدُّد انتفاء عِلمهم واستمرارِه، فهُم جاهلون على مرِّ الزَّمان، لا يقع منهم اتِّعاظٌ ولا تذكُّر، ولإشعارِ المخاطَبين بالانتفاء الكلّيِّ للعلم، فإنَّ دَيْدَن العقلاء أن يعلموا على الدَّوام، لكنَّ أولئك لم يكونوا يعلمون في أي وقتٍ من أوقات كينونتهم، فإنَّ النَّفي قدِ استطال وقتُهم كلُّه.

دلالةُ حذفِ المفعولِ:

المُعذَّبون كانوا جهلةً لا يعلمون شيئًا

حذَفَ النَّظمُ الجليل مفعولَ الفعل ﴿يَعۡلَمُونَ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على شمول انتفاءِ علمهم، فهُم لا يعلمون شيئًا ما، "أي: لو كانَ من شأنِهم أنْ يعلموا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 494.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 494.

شيئًا؛ لعلموا ذلكَ، واعتبروا به"[1]، أو لتنزيل الفعل المتعدّي منزلةَ الفعل اللّازم، أي: لو كانوا من أهل العِلم والفهم.

نُكْتَةُ حذفِ جوابِ ﴿لَوۡ﴾:

انتفاءُ العِلم بعِلَّة العذاب جرَّأهم على الكفر بالنُّبوَّة

حذَفَ النَّظمُ الجليل جوابَ ﴿لَوۡ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾، وتقديره: لآمنوا[2]؛ لأنَّ نقيض الإيمانِ هو التَّكذيبُ المذكور في صدر الآية، والتَّكذيبُ هو السَّبب في عذاب الكافرين، والمعنى: "لو كانوا يعلمون أنَّ ما حلَّ بهم سببُه تكذيبُهمُ رسلَهم، كما كذَّب هؤلاء محمَّدًا ﷺ"[3]؛ لآمنوا، فلمّا انتفى العِلمُ عنهم؛ نُفي الإيمان، وعليه يكون المرادُ بالعِلم الإيمان.

براعةُ اختلاف المفردة في الفاصلتين:

التَّعريضُ بالمشركين في كونهم لا يعلمون ما سيكون في الآخرة

اختار النَّظمُ الكريم لفظَ الشُّعور في قوله جلَّ شأنه: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ﴾؛ للدَّلالة على شدَّة خفاء العذاب عند مجيئه، أي: "لا يَشْعُرونَ مِنَ الجهة الَّتي لا يخطر ببالهم أنَّ الشَّرَّ يأتيهم منها"[4]، كما اختار لفظَ العِلْم في قوله جلَّ شأنه: ﴿فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم لم يدركوا حقيقةَ ما هم فيه، فضاعَ عنهمُ الاعتبارُ بما أمامهم، أي: "لو كانوا مِن أهل العِلْم والنَّظر؛ لعلموا ذلك، واعتبروا به"[5]، فنفى الشُّعورَ عنهم عند وقوع العذاب، ونفى العلمَ عنهم؛ لما سيكون من عظيم العذاب في الآخرة، ففيه تعريضٌ بالمشركين.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 252.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 178.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 396.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 41.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 41.

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾

[الزُّمر: 27 - 28]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقالُ من أحوالِ النّاس مع القرآنِ إلى اشتمالِه على أسباب الإيمان

بعد أن ذكرتِ الآياتُ السّابقة أوصافَ القرآنِ الكريم، وأحوالَ أهلِه معه في التَّدبُّر والخشوعِ والانقياد، وحالَ المُكذِّبين وما يُصيبهم من مصائب الدُّنيا وعذابِ الآخرة؛ رجعَ السّياقُ لبيان أنَّ اللّه تعالى ضربَ في القرآن للنّاس من كلِّ مثلٍ لعلَّهم يتذكَّرون، فَضَرْبُ الأمثالِ نهجٌ سديدٌ لمنع أهلِ الطُّغيانِ من طغيانِهم إن عقلوها، وعملوا بما يقتضيه العِلْم الحقُّ، فهو انتقالٌ من الحديث عن أحوال النّاس مع القرآن، إقبالًا وإعراضًا، إيمانًا وكُفْرًا، إلى الحديثِ عنِ اشتمالِ القرآن على ما يقود النّاسَ إلى الإيمان والإذعان، ففي المناسبةِ إقامةُ الحُجَّة على أهل النّيران، ومساندةُ أهلِ الإيمان.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ضَرَبْنَا﴾: (ضرب) أصلٌ يدلُّ على إيقاعِ شَيءٍ على شَيءٍ وإصابتِه به، ثُمَّ يُستَعارُ، ويُحملُ عليه، يُقالُ: ضرَبه بالعصا، يَضْرِبُه ضَرْبًا، أيْ: أوقعَها عليه[1]، والضَّربُ: الصِّنف من الأشياء، يُقال: هذا من ضَربِ ذاك، أي: مِن نَحوه، وجمعُه ضُروب[2]، وضَرْبُ الأمْثالِ: اعتبارُ الشَّيْءِ بالشَّيءِ وتمثيلُه به، يُقالُ: ضَرَبَ اللّه مثلًا، أي: وصَفَ، وبَيَّنَ، وقيل: مأخوذٌ من ضَرْبِ الدِّرْهَم صَوْغُه لإيقاعِ المَطارِق، سُمّيَ به لتأثيرِه في النُّفوسِ، وقيل: إنَّه مأخوذٌ من الضَّريبِ، أي: المَثيلِ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضرب).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ضرب).

تقولُ: هو ضَريبُه، وهما من ضَريبٍ واحدٍ؛ لأنَّه يَجْعَلُ الأوَّلَ مِثْلَ الثّاني[1]، والمراد بضَربِ المَثَلِ في الآية: إيقاعُهُ ووضعُهُ، والقَصْدُ منه التَّبيينُ والتَّوضيح[2].

2) ﴿مَثَلٍ﴾: (مثل) أصلٌ يدُلُّ على مُناظَرةِ الشَّيءِ للشَّيءِ[3]، والمَثَلُ: عبارةٌ عن قولٍ في شيءٍ يُشبِهُ قولًا في شيءٍ آخَرَ بينهما مُشابهةٌ؛ ليُبيِّنَ أحدُهما الآخَرَ، ويُصَوِّرَهُ[4]، ويُستَعمَلُ للتَّسويَةِ بين شَيئَيْنِ، يُقال: هذا مِثْلُه ومَثيلُه، كما يُقال: شِبْهُهُ وشَبيهُهُ، وضَرْبُ المَثَلِ: ذِكْرُهُ ووَصْفُهُ[5]، ويأتي بمعنى نَفْسِ الشَّيءِ وذاتِهِ، والجمع: أمثالٌ، والمقصود بالمَثَلِ في الآية: النَّظيرُ والمُشابِهُ.

3) ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾: أصل (ذكر) الحِفْظُ الَّذي تَذْكُرُه، وهو خلافُ النِّسيان[6]، ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكْرُ باللِّسانِ، فالذِّكْرُ ما ذَكَرْتَهُ بِلِسانِكَ وأظهرتَهُ، والذُّكْرُ - بضَمِّ الذّال - بالقَلْبِ، يُقالُ: ما زالَ مِنّي على ذُكْرٍ، أي: لَمْ أَنْسَهُ[7]، والتَّذْكِرَةُ: ما تُسْتَذْكَرُ بِهِ الحاجَةُ، والتَّذَكُّر: تَذَكُّرُ ما أُنسيتَه[8]، والمقصود بالتَّذَكُّرِ في الآية: التَّأمُّلُ والتَّدَبُّرُ.

4) ﴿عِوَجٍ﴾: (عوج) أصلٌ يدُلُّ على المَيْلِ في الشَّيء، سواء كان حِسًّا أم معنًى، يُقالُ: عَوِجَ الشَّيءُ يَعْوَجُّ عِوَجًا، أي: مال[9]، والعوَج بكسر العين وفتحها، وقد فرَّق العرَبُ بينهما، فخَصّوا المكسورَ بالمعاني، والمفتوحَ بالأعيان، تقولُ: في دينه عِوَجٌ (بكسر العَين)، وفي الجِدار عَوَجٌ (بالفتح)[10]، والاعوجاجُ: الانحناءُ والانعطافُ، يُقالُ: اعوجَّ العودُ يَعْوَجُّ اعوجاجًا؛ إذا انحنى، وكلُّ شيءٍ تعطفُه تقول: عُجْتُهُ فانعاجَ، وضِدُّ الاعوجاجِ الاستواءُ والاستقامة[11]، ويُطلَق الاعوجاجُ أيضًا بمعنى: الانحراف، تقولُ: في رأي فُلانٍ اعوجاجٌ،

---

(1) الزّبيديّ، تاج العروس: (ضرب).
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 85.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (مثل).
(4) ابن سلّام، الأمثال، ص: 247، والعسكريّ، جمهرة الأمثال: 1/ 324.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 397.
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(7) الشّيبانيّ، الجيم، وابن دريد، جمهرة اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(8) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن عبّاد، المحيط في اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (ذكر).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عوج).
(10) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (عوج).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب، والزّبيديّ، تاج العروس: (عوج).

أي: مَيَلانٌ وانحرافٌ عن الصَّوابِ، ومن معانيه أيضًا: الزَّيْغُ والاختلافُ(1)، والمراد بالعِوَجِ في الآية: اللَّبْسُ والاختلاف، أي: لا لَبْسَ ولا اختلافَ فيه بوجهٍ مِنَ الوجوه(2).

المَعْنى الإجْماليُّ:

القرآنُ الكريم عِظةٌ وتذكيرٌ، وسببُ اتِّقاءِ الكفر وتكذيبِ الرُّسل

يقولُ الحقُّ سبحانه مُثْنيًا على كتابِه الكريم: ولقد ذكَرْنا، وبَيَّنّا في هذا القُرآنِ لهؤلاء المشركين باللّه تعالى أمثالَ القرونِ الخالية؛ تخويفًا لهم وتحذيرًا، ليتَّعظوا، ويَزْدَجِروا، ويُقلِعوا عمّا هم عليه مُقيمون من الكفر بربِّهم، بكلامٍ عربيٍّ لا لَبْسَ فيه ولا اختلافَ، ولا خَلَلَ ولا تناقُضَ؛ ليَفْهَمَهُ النّاسُ، ويَعْملوا به، فيَتَّقوا سخَطَ اللّهِ وعذابَهُ، بامتِثالِ أوامرِه، واجتِنابِ نواهيه(3).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

غرضُ عطفِ الجُمَلِ ودلالتُها:

تكميلُ بيانِ مكانةِ القرآن، وإقامةُ حُجَجِه على العالَمين

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ على الجملة في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ﴾، وفائدةُ العطفِ أنَّ الآية متمِّمةٌ للتَّنويه بالقرآن والثَّناء على تعاليمه وإرشاده، ولتسفيه المُكَذِّبين به(4)، ولتكميلِ الغَرَض الذي أُنزِل لأجله القرآنُ، فإنَّه نزلَ ليهديَ المؤمنين، وليُقيمَ الحُجَّة على الكافرين، ومن أعظم الحُجَجِ الَّتي أقامها القرآنُ على المُكَذِّبين ذِكْرُ الأمثالِ المضروبة في القرآن؛ ليقعَ التَّذَكُّرُ والتَّأمُّلُ في مواضعه، فيستجيبَ العَقلُ لمقاصده.

---

(1) الجوهريّ، الصّحاح، وابن سيده، المحكم، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (عوج).
(2) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 529.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 195، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 252، والمراغيّ، تفسير القرآن: 23/ 163، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 723.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 396.

دلالةُ التَّأكيدِ:

إلجامُ المستهزئين بتأكيدِ كفايةِ القرآنِ على إقناعِ العالَمين

أكَّدَ النَّظمُ الجليل الجملةَ باللّام الموطِّئَة للقَسَم، وبـ (قد) الدّالَّةِ على التَّحقيق في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ وذلك للرَّدِّ على إنكارهم بأن يكون في القرآن بيانٌ شافٍ، وعلى ادِّعائهم أنَّه شِعْرٌ وكَهانةٌ وسِحْرٌ[1]، فالتَّأكيدُ للرَّدِّ على الطّاعنين، وتحقيقِ الحَقِّ المُبين.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردةِ الضَّربِ مادَّةً وصيغةً:

مناسبةُ القوَّة والرَّصانة لضَرْبِ الأمثالِ

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ الضَّرب في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾، إذِ الضَّرب هو إنزالُ شيءٍ على شيءٍ بما يترك أثرًا، وضَرْبُ الأمثال هو إنزالُها في العقول لتتركَ أثرًا مِنَ الموعظة والفهم، وللدَّلالة على تكرار الأمثلة والمواعظ بوجوه مختلفة، وذلك للزّيادة في التَّقرير والبيان[2]، ولما تحويه مادَّة الضَّرب مِنَ القوَّة والبيان؛ كانت الأنسب في بيان أمثال القرآن المتَّصفة بالقوَّة والجزالة والرَّصانة، وجاء التَّعبيرُ عن ذلك بالفعل الماضي؛ للدَّلالة على تحقُّق المعنى ووقوعه.

نُكْتَةُ إسنادِ الضَّربِ إلى ضميرِ العظَمةِ:

الإشعارُ بالعنايةِ والرِّعايةِ بضَرْبِ الأمثالِ وتقويةِ الأذهانِ

أسند النَّظمُ الجليل الضَّربَ إلى ضمير العظَمةِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾؛ تعظيمًا للضَّرب، أي: ضربنا تلك الأمثلة بما لنا مِنَ العظَمة[3]، مع ما في هذا الإسنادِ من الإشعار بالرِّعاية والعناية للمضروب لهم، فإنَّ من شأن العظيم سبحانه أن يضرب الأمثالَ للنّاس؛ لتقعَ الهدايةُ في قلوبهم، والبصيرةُ في صدورهم، وليعلموا الطَّريقَ الصَّحيح الموصلَ للهداية.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 495.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 517.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 495.

نوعُ اللّامِ ودلالتُها:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ للتَّعليل، أي: كان ذلك الضَّرب والتَّنويع لأجل النّاس؛ ليتَّعظوا[1] بالأمثال المضروبة، ويهتدوا إلى المعاني المطلوبة.

معنى تعريفِ لفظِ (النّاس):

القرآنُ خطابٌ للنّاس كافَّة

تعريفُ لفظِ (النّاس) بالألف واللّام في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ للجنس؛ فالمرادُ عمومُ النّاس؛ لأنَّ اللّه تعالى بعث النَّبيَّ ﷺ للنّاس كافَّة[2]، فيدخلُ في مفهومِ النّاسِ جميعُ الأُمم إلى يوم القيامة.

غرضُ تقديم ﴿لِلنَّاسِ﴾:

تقديمُ الغايةِ المقصودة على الوسيلة الموصلة

قدَّم النَّظمُ الجليل شِبهَ الجملة من الجارِّ والمجرور ﴿لِلنَّاسِ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ﴾، فلم يقل: (ولقد ضربنا في هذا القرآن للنّاس)؛ وذلك من باب تقديم الغايةِ المقصودةِ على الوسيلة الموصلةِ؛ ليعلمَ النّاسُ أنَّهم مقصودون ابتداءً بالخطاب، وأنَّ ضربَ الأمثالِ كان بعنايةٍ لهم، وهو ما يُرشِد إلى بيان عنايةِ النَّظم بإظهار ملامح الهداية والرَّشاد.

معنى حرف الظَّرفيَّة:

استعمل النَّظمُ الجليل حرفَ الظَّرفيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾، أي: إنَّ مكان تلك الأمثلةِ هو القرآن.

بلاغةُ التَّعبيرِ باسم الإشارة القريب:

آثَرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ باسم الإشارة في قوله جلَّ شأنه:

---

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 178.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 397.

تشخيصُ القرآنِ في القلوب أقوى من الإخبار المجرَّد

﴿فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ دون أن يقول: (في القرآن)؛ وذلك للرَّدِّ على تعنُّت المتعنِّتين، أي: في هذا القرآن الَّذي تنكرونه، فعرَّفه باسم الإشارة الَّتي هي معرفة، وجاء التَّعبير بصيغة القرب دون أن يقول: (في ذلك القرآن)؛ إشارةً إلى أنَّه قد خلع القلوبَ وملأها، فلا حاضر في تلك القلوبِ سواه[1]، ولتجسيد القرآن وإحضاره في قلوب المخاطَبين، فإنَّ الإشارةَ إلى حاضرٍ مشاهد، ليست كالإخبارِ المُجرَّد، وتشخيص المعاني المسموعة أقوى أثرًا مِنَ الأخبار المجرَّدةِ المسموعة.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡقُرۡءَانِ﴾:

لفظُ القرآن في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ للعهد، فهو أحسنُ الحديثِ الذي نزَّله تعالى، وهو الجامع لكلِّ علمٍ[2].

توجيهُ اختيارِ اسم القرآنِ:

الأنسبُ بسياقِ الأمثال ذِكْرُ القرآن، فهو المتلوُّ المسموع

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ باسم القرآن دونَ غيرِه في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾؛ إشارةً إلى معنى القراءة والتِّلاوة، فهو متلوٌّ في المساجد والمحاريب إلى قيام القيامة[3]، والقرآنُ هو الاسم العَلَم الأشهر، فالأصلُ أن يكون هو المذكور، ولمّا كانت الأمثالُ مسموعةً متلوَّة؛ ناسبَ ذكرَ القرآنِ المتلوِّ المسموع، فهو يُقرأ، ويُسمَع، فكان اختيارُ الاسمِ العَلَم هو الأنسب لهذا المقام.

نوعُ ﴿مِن﴾ ودلالتها:

الأمثالُ المضروبةُ في القرآن بعض الأمثال وأصولها

حرفُ ﴿مِن﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ﴾ للتَّبعيض، والمعنى: "ذكرنا للنّاس في القرآن

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 495.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 495.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 449.

أمثالًا هي بعضٌ مِن كلِّ أنفع الأمثال وأشرفها"[1]، فأبعاضُ الأمثالِ المضروبة في القرآن كافيةٌ في البيان لإقامة الحُجَّة[2]، والأمثالُ المضروبة في القرآن هي بعضُ الأمثال، وهي تُمثِّل أصولَ الأمثالِ النّافعةِ للنّاس.

نُكْتَةُ استعمالِ لفظِ العموم ﴿كُلِّ﴾:

الأمثالُ المذكورةُ في القرآنِ هي ما يحتاجه النّاس في أصول الهداية

استعمل النَّظمُ لفظَ ﴿كُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ للدَّلالةِ على الشُّمول، وهو شمولٌ مقيَّد عرفيًّا، أي: ضَربَ لهم الأمثلةَ ممّا يحتاجون إليه[3]، فإنَّ الأمثال الخادمةَ لفروع العلوم والمعارف لا تُحصى كثرةً، والمضروب في القرآن ما يحتاجه النّاس في أصول الهدايةِ.

بلاغةُ استعمالِ مفردةِ المثَل:

المعاني البليغة الدَّقيقة تُثير الأفكارَ، وتلفت الأنظارَ

استعمل النَّظمُ لفظَ ﴿مَثَلٍ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ للدَّلالة على المعاني الغريبة التي لها وقعٌ في الأنفس[4]، فالمرادُ من الأمثال المعاني التي تحقِّق العِظة، وتوقِدُ الفِكْرة، فإنَّ المَثَل هو مجمعُ المعاني العريقةِ، والحقائقِ البليغة، والدَّلالات العميقة، بألفاظ رصينة جَزْلة، تُؤْتي ثمارَها لدى المُتفكِّرين، وتهدي إلى سبيل الرَّشاد لدى المتبصِّرين.

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظِ المَثَل:

كلُّ مَثَلٍ في القرآن عظيمُ البُنيان فَخْمُ البيان

نُكِّر لفظُ ﴿مَثَلٍ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾؛ للدَّلالة على عموم الأمثال وكثرتها؛ لذلك أضافه إلى ﴿كُلِّ﴾ الدّالَّةِ على الشُّمول، وهذا العموم مخصوصٌ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 397.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 495، 496.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 252.

(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 517.

بالأمثال الَّتي تنفع المَرءَ بشأن دينه[1]، كما أنَّ التَّنكير يدلُّ على تعظيم الأمثالِ الواردة في القرآن وتشريفِها[2]، وذلك لما فيها من الغاية السّامية من البيان، والمرتبةِ الشَّريفة من المعاني.

نُكْتَةُ استعمالِ أداةِ الرَّجاء:

الأمثال لا تُضرَب إلّا ويُرجى من النّاس الاستجابةُ لها، والارتياضُ في مراتعها

استُعمِلت أداةُ الرَّجاء (لعلَّ) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ لمعنى الحال، أي: ليكون حالُهم بعد ضَرْب تلك الأمثالِ كحالِ مَن يُرجَى منه التَّذكُّر بما ضُرِبَ له[3]، وهي تمثِّل غايةَ ضربِ الأمثالِ، فإنَّ الأمثال لا تُضْرَب إلّا ويُرجى من النّاس الاستجابةُ لها، والارتياضُ في مراتعها.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالتَّذكُّر، مادَّةً وصيغةً:

التَّأمُّلُ والتَّدبُّر في الأمثلة مطلوبٌ على وجه الاجتهاد والدَّوام

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظ التَّذكُّرِ في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ المطلوبَ من ذلك التَّأمُّلِ والتَّدبُّر، فبذلك تزولُ غفلتُهم، وينكشفُ الحقُّ الَّذي هم غافلون عنه، فمعنى التَّذكُّرِ معنًى بديعٌ شاملٌ لكلِّ ذلك[4]، وجاء التَّعبيرُ بصيغة التَّفعُّل؛ للدَّلالة على الاجتهاد في ذلك، وتكلُّفِ التَّذكُّرِ، وآثرَ النَّظمُ التَّعبيرَ بالفعل المضارع؛ لأنَّ التَّذكُّرَ مستقبلٌ بالنِّسبة لزمن ضَرْبِ الأمثالِ، كما أنَّه مطلوبٌ على وجه الدَّوام والاستمرار.

نُكْتَةُ تنكيرِ لفظ القرآن:

نُكِّرَ لفظُ ﴿قُرْءَانًا﴾ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾؛ تفخيمًا لشأن القرآن، وتعظيمًا له، فهو في غاية العظَمة والشَّرف[5].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 252.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 397.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 496.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 397.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 496.

دلالةُ وصفِ القرآنِ بالعربيِّ:

القرآنُ فصيحُ الألفاظِ، جليلُ البيانِ، جارٍ على بيانِ اللِّسانِ العربيِّ

وصف النَّظمُ الجليل القرآنَ بكونهِ عربيًّا في قوله جلَّ شأنه: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه جارٍ على سنن كلامهم اتِّساعًا ووضوحًا، حتّى أعجزَ الفصحاءَ والبلغاءَ منهم عن معارضته[1]، وأنَّ الأمثال جاءت بلسانٍ عربيٍّ يفهمه المخاطَبون دونَ أدنى ريبةٍ أو اضطراب، فهو منظومٌ مِن لسانِهم، ومرصَّعٌ بجواهر حروفِهم ومفرداتِ كلامهم.

براعةُ نفي العِوَجِ بعدَ وصفِ القرآن بالعربيِّ:

جمعت الأمثالُ بين الألفاظ الرَّصينة والمعاني المستقيمةِ القويمة

جاء نفيُ العِوَجِ عن القرآن بعد وصْفِه بأنَّه عربيٌّ في قوله جلَّ شأنه: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾؛ لأنَّه بعدَ أن أثنى على القرآن الكريم باستقامة ألفاظِه بكونه عربيًّا؛ أتبَعَه بوصفه بكمال معانيه، بكونه خاليًا من العِوَجِ[2]، فجمعَ النَّظمُ بين إثباتِ الفصاحةِ والبلاغة لألفاظه ونَظْمِه، ونفي العِوَجِ عن معانيه وحقائقِه، وأمثالُ القرآنِ هي ألفاظٌ بليغةٌ، ومعانٍ بديعةٌ، فاجتمع لها هذان الوصفان، وانتفى عنها خلافُهما.

نُكْتَةُ إيثارِ نفي العِوَجِ دونَ إثباتِ الاستقامة:

نفيُ العِوَجِ أشملُ وأبلغُ من مُجرَّد إثباتِ الاستقامةِ

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عنِ استقامة معاني القرآن بنفي العِوَجِ لا بإثبات الاستقامة في قوله جلَّ شأنه: ﴿قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ﴾، دون أن يقولَ: (قرآنًا مستقيمًا)؛ لأنَّ نفيَ العِوَجِ أدلُّ على استقامته، وأبلغُ من إثبات ذلك بلفظ الاستقامة، فالاستقامةُ قد تكون من وجهٍ دونَ آخر، أمّا نفيُ العِوَجِ؛ فيكون شاملًا للمعاني والألفاظ، فنَفْيُ العِوَجِ أبلغُ من إثبات الاستقامة[3].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 449، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 496.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 398.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 336.

بلاغةُ ذِكْرِ ﴿ذِى﴾ دونَ الوصف المُطْلَق:

نفيُ مصاحبة العِوَجِ مبالغةٌ في انتفاء وجودِ العِوَج من الأصل

آثرَ النَّظمُ الكريم نفيَ مصاحبةِ العِوَج في قولِه جلَّ شأنه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ دونَ نفي العِوَج، فلم يقل: (غير معوجٍّ)؛ لما في ذلك من المبالغة في النَّفي؛ لأنَّ نفيَ مصاحبةِ العِوَج يقتضي نفيَ الاتِّصافِ به بالطَّريق الأوْلَى[1]، فهو أبلغُ لعموم دلالتِه، ولدلالة الالتزامِ النّاشئة عن ذِكر المصاحبة، لا مطلقَ الاتِّصافِ.

غرضُ تنكيرِ ﴿عِوَجٍ﴾:

أقلُّ أنواعِ العِوَجِ منفيَّةٌ عن القرآنِ

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بتنكير لفظ ﴿عِوَجٍ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾؛ للدَّلالة على انتفاء العِوَج نفيًا شاملًا لكلِّ نوعٍ مِن أنواع العِوَج، أي: ليس فيه عِوَجٌ أصلًا، فإنَّ النَّكرة في سياق النَّفي تدلُّ على استغراق النَّفي[2]، فأقلُّ شيءٍ من العِوَج، أو أيسرُ نوعٍ من العِوَج، فهو منفيٌّ نفيًا مطلقًا.

نُكْتَةُ استعمالِ أداةِ الرَّجاء:

بيانُ القرآنِ كافٍ في معرفةِ مصدرِه، وأنَّه كلامُ الله تعالى

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الرَّجاء (لعلَّ) في قوله جلَّ شأنه: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾؛ للدَّلالة على الحال المرجوَّة، أي: ليكونَ حالُهم بعد التَّذكير كحال مَن يُرجى له أن يتَّقيَ غضبَ اللّهِ تعالى[3]، وهي الغايةُ المطلوبُ مِن العبادِ تحقيقُها بعد قراءة القرآن، ومعرفةِ أنَّه من عند اللّه تعالى.

نُكْتَةُ المضارعِ ﴿يَتَّقُونَ﴾:

الدَّوام على التَّقوى مقصِدٌ لضَرْبِ الأمثال

جاء التَّعبيرُ بالفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، وحصولُ التَّقوى مستقبلٌ بالنَّظر إلى ضَرْب الأمثال، كما أنَّ التَّقوى مرادةٌ على وجه الدَّوام والاستمرار، فكان التَّعبيرُ بصيغة المضارعِ مُرادًا بها أن تحصل التَّقوى بتجدُّدٍ دائمٍ كلَّما استجد تفكُّرٌ في الأمثال.

(1) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 336.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 336.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 497.

نُكْتَةُ حذفِ مفعولِ فعل الاتِّقاء:

مقصودُ التَّذكيرِ وضربِ الأمثالِ تحقيقُ التَّقوى في كلِّ ما يُتَّقى

حذفَ النَّظمُ الجليل المفعولَ من الفعل في قولهِ جلَّ شأنه: ﴿لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، فلم يبيِّن ماذا يتَّقون؟ وذلك للدَّلالة على العموم، فمَقْصِدُ تلك الأمثالِ إحداثُ التَّقوى في النّاس، فهُم يتَّقون اللّهَ تعالى، ويتَّقون النّارَ، ويتَّقون الكفرَ، فالحَذْفُ دلَّ على العموم، أو لتنزيل الفعل المتعدّي منزلةَ الفعلِ اللّازم، أي: لعلَّهم يتحلّون بالتَّقوى الَّتي تمنعهم عن الكفرِ والمعاصي.

سرُّ التَّعبيرِ بالاتِّقاءِ بعدَ التَّعبيرِ بالتَّذكُّرِ في الفاصلتَين:

التَّذكُّرُ مهادُ التَّقوى وهي ثمرتُه

جاء اختيارُ مفردةِ التَّقوى في فاصلة قوله تعالى: ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِى عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾، كما جاء اختيارُ مفردةِ التَّذكُّر في فاصلة قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾؛ وذلك لأنَّ "التَّذكُّر متقدِّم على الاتِّقاء؛ لأنَّه إذا تذكَّره، وعرفه، ووقف على فحواه، وأحاط بمعناه، حصل الاتِّقاء والاحتراز"[1]، فالتَّذكُّرُ مهادُ التَّقوى، فهو عملُ العقلِ والفِكْرِ، والتَّقوى استجابةُ القلبِ والنَّفس، ولا يزال الفِكْرُ السَّليمُ يعمل عملَهُ بالقلبِ المريض حتّى يُعالجَه، ويشفيَه من سقيم أمراضِه.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 450.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلٗا رَّجُلٗا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٢٩﴾

[الزّمر: 29]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانـتـقـالُ إلى المـقـصـودِ بعد الإخبارِ بعمومِ الأحوالِ

بعد أن ذكرتِ الآياتُ السّابقة ضرْبَ القرآنِ للأمثال؛ ليحصلَ للنّاسِ الاعتبارُ والاتّعاظ، والإقبالُ وتركُ العِنادِ، وجَعْلُ الأمثالِ أداةً موصلةً لفهم المقصود؛ ناسب ذِكرَ مثلٍ من تلك الأمثال يتعلّق بأصلٍ من أصول الدّين، وهو التّوحيد، فالآيةُ دخولٌ في المقصودِ بعد ذِكْرِ عموم الحال.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شُرَكَآءُ﴾: أصلُ (شرك) أن يكونَ الشَّيءُ بين اثنَيْن لا يَنفرِدُ به أحدُهُما، يُقالُ: شارَكْتُ فُلانًا في الشَّيءِ؛ إذا صِرتَ شريكَهُ، وأشركتُ فُلانًا؛ إذا جعلتَه شريكًا لَكَ[1]، والشِّرْكُ: يَأْتي بمعنى المُشارَكَةِ، وهي الانضِمامُ والمُخالَطَةُ بين الشَّريكَيْن، يُقالُ: شَرِكتُه في الأمر وشاركتُه؛ إذا انضممتُ إليه، وخالطتُه، وصرتُ شريكًا له[2]، ويُطلَقُ على الكُفْرِ كذلك، والمقصود بالشُّركاء في الآية: جمعُ شريكٍ، وهو المُشارِكُ، وأراد بهمُ الآلهةَ الَّتي كانوا يعبدونها من دون اللّه[3].

2) ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾: (شكس) أصل يدُلُّ على سوءِ خُلُقٍ[4]، الشَّكْسُ والشَّكِسُ والشَّرِسُ، جميعًا: السَّيِّئُ الخُلُقِ، وقيلَ: هو السَّيِّئُ الخُلُقِ في المُبايعةِ وغيرِها[5]، وتَشاكَسَ الرَّجُلانِ: تَضادّا، واللَّيْل

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (شرك).

(2) ابن قتيبة، غريب القرآن، ص: 27، والفيوميّ، المصباح المنير: (شرك).

(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (شرك).

(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عمدة الحفّاظ: (شكس).

(5) الخليل، العين، وابن منظور، لسان العرب: (شكس).

والنَّهار يتشاكسان، أي: يتضادّان[1]، والشُّركاءُ المُتشاكِسون: العَسِرون المختلفون الَّذين لا يتَّفقون[2]، والمرادُ بالتَّشاكُسِ في الآية: شدَّةُ الاختلافِ، وشِدَّةُ الاختلافِ في الرَّجُلِ: الاختِلافُ في استخدامه وتوجيهه[3].

3) ﴿سَلَمًا﴾: (سلم) أصلٌ يدلُّ على الإصحابِ والانقيادِ[4]، والسَّلَمُ، الَّذي يُسَمَّى السَّلَفَ، كَأَنَّهُ مالٌ أَسْلَمُ، ولَمْ يَمْتَنِعْ مِنْ إِعْطائِهِ[5]، والسَّلْمُ والسَّلامُ: الصُّلْحُ[6]، وسَلِمَ، فهو سالم، وسَلْمٌ وسِلْمٌ مصدران وُصِف بهما على معنى: ورَجُلًا ذا سَلَمٍ[7]، فسَلَم بفتح السّين واللّام: مصدرٌ وُصِف به على سبيل المبالغة[8]، ومن هذا الباب المُسْلِمُ: المُخْلِصُ للّه العبادةَ، من قولهم: سَلَّمَ لفلان الشَّيءَ، أي: خَلَّصَه له، وسَلِمَ له الشُّيءُ، أي: خَلَصَ، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾، معناه: خالصًا لسيِّدٍ واحدٍ، أي: لا شريكَ له فيه، ولا منازع[9].

4) ﴿يَسْتَوِيَانِ﴾: (سوي) أصلٌ يدُلُّ على استِقامةٍ واعتِدالٍ بَيْنَ شيئَين، يُقالُ: هذا لا يُساوي كذا، أي: لا يُعادِلُه، وفُلانٌ وفُلانٌ على سَوِيَّةٍ من هذا الأمر، أي: سَواء[10]، والتَّسوِيَةُ: ضِدُّ المُفاضَلَةِ[11]، وهي أيضًا: تَقويمُ الشَّيءِ وتَعديلُه، تَقولُ: سَوَّيْتُ الشَّيءَ فاستَوَى، أي: قَوَّمْتُهُ، فاستَقامَ[12]، والمقصودُ بالمساواة في الآية: جَعْلُ الأشياءِ متساويةً، والمرادُ: بيانٌ لجملة: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، فَبَيَّنَ غرَضَ التَّشبيهِ بأنَّ المَثَلَ مُرادٌ منهُ عدمُ تساوي الحالتينِ؛ ليُستَدَلَّ به على عَدَمِ مُساواةِ أصحابِ الحالةِ الأولى لصاحِبِ الصِّفةِ المُشبَّهةِ بالحالةِ الثّانيةِ[13].

---

(1) ابن سيده، المحكم، وابن منظور، لسان العرب: (شكس).
(2) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (شكس).
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 401.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).
(6) ابن سيده، المخصص: 3/ 380.
(7) الزّجّاج، معاني القرآن: 4/ 353.
(8) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 217.
(9) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/ 317.
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سوي).
(11) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (سوا).
(12) الجوهريّ، الصّحاح: (عدل).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 14/ 225، 23/ 402.

المَعنى الإجْماليّ:

يَضرِبُ الحقُّ سُبحانَه مَثَلًا للمُشرِك الَّذي يَعبُدُ آلِهةً شتَّى، بعَبدٍ مملوكٍ لِشُرَكاءَ مُتنازِعينَ، سَيِّئةٍ أخلاقُهم، وكلٌّ منهم يَستَخدِمُه بقَدْرِ مِلْكِه فيه، فهو يُعاني منهم لاختلافِهم، ولا يَقِرُّ له قَرارٌ، ولا يُمكِنُه أن يُرضِيَهم جميعًا، وضرَبَ مَثَلًا للموَحِّدِ الَّذي يَعبُدُ اللَّهَ وحْدَهُ، بعَبدٍ خالِصٍ لرَجُلٍ واحِدٍ، لا يَملِكُهُ غيرُهُ، فعَلِمَ مَقاصِدَ سَيِّدِه، وعَرَف الطَّريقَ إلى رِضاه، وهو في سَلامةٍ وطُمَأنينةٍ وراحةٍ مِن تَشاحُنِ الشُّرَكاءِ فيه، مع رَحمةِ مالِكِه به، وشَفَقَتِه عليه، وإحسانِه إليه، فهل يَستوي هَذانِ في العُقولِ؟ كلّا، لا يَستويانِ، فكذلك لا يَستوي المُشرِكُ الَّذي يَعبُدُ آلِهةً كثيرةً، والموحِّدُ الَّذي لا يَعبُدُ إلّا اللَّهَ وحْدَه، الحَمدُ للَّهِ، بل أكثَرُهم لا يَعلَمونَ[1].

مُتَّبِعُ الحَقِّ لا يُشَوَّش، ومُتَّبِعُ الباطِلِ يَتَعثَّرُ في مَزالِقِ الخُطا

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّةُ فصلِ الجملة:

فصل النَّظمُ الجليل جملةَ: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾؛ لأنَّها مستأنفةٌ سيقت لبيان المقصودِ من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾، فكانت الآيةُ السّابقة مقدِّمةً وتوطئةً لهذا المثل المضروب المبيِّن لحال أهل الشِّركِ وحالِ أهلِ التَّوحيد[2].

الشُّروع بذِكر مثالٍ من أمثلة القرآن البيِّنة

نُكْتَةُ استعمالِ مفردةِ الضَّربِ مادَّةً وصيغةً:

آثَرَ النَّظمُ الجليل استعمالَ مفردةِ الضَّرب في قوله جلَّ شأنه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾؛ للدَّلالة على المطابقة بين حالتين، فهو تطبيق حالةٍ عجيبة بأخرى وجَعْلِها مثلَها[3]، ولبيانِ قوَّةِ المثل المضروب على أذهان

الإيماءُ إلى قوَّة المثل المضروب في أثره وخطابه

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 196، 197، والواحديّ، الوجيز، ص: 933، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 96، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 723.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 399.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 253.

المخاطَبين، وقد آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل الماضي - "مع أنَّ ضرب هذا المثل ما حصل إلّا في زمن نزول هذه الآية - لتقريب زمن الحال من زمن الماضي؛ لقصد التَّشويق إلى عِلْم هذا المثل، فيُجعلُ كالإخبار عن أمر حصل؛ لأنَّ النُّفوس أرغبُ في عِلمه، كقول المُثوِّب: قد قامتِ الصَّلاةُ، وفيه التَّنبيه على أنَّه أمرٌ محقَّقُ الوقوع"[1].

نُكْتَةُ الالتفاتِ مِنَ التَّكلُّمِ إلى الغَيبةِ:

مناسبةُ ضَرْبِ الأمثال عمومًا إلى ضَرْبِ مَثَلِ التَّوحيد خصوصًا

التفت النَّظمُ الكريم من الخطاب في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ﴾ إلى الغَيبةِ في هذه الآية: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، فلم يقل: (ضربنا)؛ وذلك ليُناسب الانتقالَ من ذِكْر ضرْبِ الأمثال للنّاس جميعًا، والإشعارِ بالعناية بأمر الهداية للبشر، إلى ذِكرِ المَثَل الواحد المضروب في أمر التَّوحيد على وجه الخصوصِ، والإشعار بأنَّ اتِّخاذ شركاء مع اللّه تعالى من عظيم الأمور، وهو الذي لأجله آثرَ النَّظمُ ذِكْر اسم الجلالة؛ تعظيمًا لشأن المَثَل، فقد أورد الاسم الجليلَ الأعظم الجامع لجميع صفات الكمالِ، أي: إنَّ المَلِكَ الأعظم المتفرِّد بصفات الكمال هو الَّذي ضرب هذا المثل[2] المتعلِّقَ بالتَّوحيد؛ ليستحضر عظيمَ شأنِ الشِّرك، وأنَّ اللّه تعالى المتفرِّد بصفات الكمال هو الذي يضرب الأمثال.

نُكْتَةُ إظهار اسم الجلالةِ:

تعزيزُ مكانةِ التَّوحيد، وتقويةُ جانبِ المَثَل

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالاسم الأعظم دونَ غيرِه في قوله جلَّ شأنه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾، وهو الاسم الجامع لجميع كمال الصِّفات والجلال؛ تفخيمًا لشأن الأمثالِ وبيانِ عظَمتها[3]؛ ليُناسبَ موضوعَ المثلِ المضروب في أمر التَّوحيد، وتنزيهِ اللّه تعالى عنِ اتِّخاذ الأنداد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 399.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 497.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 497.

والشُّركاء، فإنَّ إسنادَ ضَربِ المَثَلِ للّه تعالى يُعزِّز مكانةَ التَّوحيد، ويقوّي جانبَ الاعتبار، وإنَّ للتَّصريح شأنًا لا يكون في التَّلويح.

لطيفةُ التَّعبيرِ بلفظِ المَثَل:

الدَّلائلُ الغريبةُ والمعاني الفريدةُ أشدُّ تأثيرًا في الأنفس

عبَّر النَّظمُ الجليل بلفظِ المَثَل في قوله جلَّ شأنه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾، والمراد به المعنى، أي: المعاني الغريبةُ التي لها وقعٌ في الأنفس[1]، وهي المعاني التي تُحَقِّق العِظَةَ، وتوقِدُ الفكرةَ، والمَثَلُ اسمٌ جامع للمعنى العزيزِ، واللَّفظِ الغزير، الذي يكون فيه حُسْنُ النَّظرِ، وبديعُ الاتِّعاظ، وتتَّجِهُ إليه الأنظارُ، على أنَّه موضِعُ الاعتبارِ.

نُكْتَةُ تخصيصِ لفظِ الرَّجلِ بالذِّكرِ:

الرِّجالُ مقدَّمون في الشَّدائد والمهمّات

خصَّ النَّظمُ الجليل ذِكْرَ الرَّجل دونَ غيره في قوله جلَّ شأنه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾، فلم يقل: (إنسانًا)؛ ليشملَ الرِّجالَ والنِّساءَ والصِّبيان، وذلك لأنَّ "الرَّجل هو الذي يسبق إلى أذهان النّاس في المخاطبات والحكايات، ولأنَّ ما يُراد من الرَّجل مِنَ الأعمال أكثرُ ممّا يراد من المرأة والصَّبيِّ، ولأنَّ الرَّجل أشدُّ شعورًا بما هو فيه من الدَّعة أو الكَدِّ، وأمّا المرأة والصَّبيُّ؛ فقد يغفلان، ويَلْهيان"[2].

نُكْتَةُ حرفِ الظَّرفيَّة ﴿فِيهِ﴾، وغرض تقديمه:

توجيهُ الأنظارِ إلى مواضعِ الاعتبار

استعمل النَّظمُ الكريم حرفَ الظَّرفيَّة في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾؛ لأنَّ الرَّجل هو موطنُ النِّزاع بين الشُّركاءِ المتشاكسين، ولتصوير حالِه بأنَّ في شأنه حصل النِّزاعُ والخِلاف؛ لتلتفت الأذهانُ إلى سَلْك طريقِ التَّأمُّل فيما يُقال في شأنه، فتتصوَّب الأنظار، وقدَّم النَّظمُ الجليل شِبهَ الجملة من الجارِّ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 517.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 401.

والمجرور على المبتدأ في قوله جلَّ شأنه: ﴿فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الاختلاف بين الشُّركاء وقعَ خاصَّة في هذا الرَّجل[1].

نُكْتَةُ جمعِ ﴿شُرَكَآءُ﴾ وتنكيرِها:

كثرةُ الشُّركاء تنفي الاتِّفاق وتوقِعُ في النِّزاع والشِّقاق

عبَّر النَّظمُ الجليل عن الشُّركاء بصيغة الجمع والتَّنكير في قوله جلَّ شأنه: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾؛ وذلك للدَّلالة على التَّكثير، وأنَّهم على درجات متفاوتةٍ في الشَّراكة، وبحسب التَّفاوت وقع الاختلافُ، وبحسب الكثرة وقع التَّشاكسُ والتَّناحُر والاقتتال، فهُم في العَدَدِ كثرةٌ أدَّت إلى كثرةِ الاختلاف، ولن يكون لكلمتهم جمعٌ أو اتِّفاق، بل هو تنازع وشقاق.

نُكْتَةُ استعمالِ مفردة ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ مادَّةً وصيغةً:

التَّشاكُسُ أحدُ ثمراتِ التَّشارك الباطل

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة اسم الفاعل: ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾؛ للدَّلالة على ثبوت صفةِ الاختلاف والمشاكسة فيهم، وجاء على وزن (التَّفاعل)؛ للدَّلالة على التَّجاذب بينهم، ومشاركةِ فعلِ المشاكسةِ بينهم، فهم "مختلفون عَسِرون، يتجاذبون مع سوء الأخلاقِ وضيقها وقباحةِ الشِّركة، فليس أحدٌ منهم يرضى بالإنصاف، فهو لا يَقدر أن يرضيَهم أصلًا"[2]، وقوّى هذا المعنى وقوعُ ﴿مُتَشَٰكِسُونَ﴾ صفةً لشركاء، فهي أوضحُ صفاتِهم، وأجلى نعوتِهم، فالتَّشاكسُ هو مَكْمَنُ الاختلافِ بينَ الشُّركاء، وهو نتيجةُ الشَّراكة في شيءٍ واحد.

غرضُ العطفِ ودلالتُه:

بيانُ اختلافِ الحالَين يقودُ إلى تبايُن المآلَين في الحقِّ والباطل

جاء عطف (رجلًا) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ﴾ على ﴿رَّجُلًا﴾ في قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾، فلمّا ذَكَر الرَّجُلَ الذي وقع بين شركاء مختلفين متنازعين فيه؛ عطفَ عليه رجلًا آخَرَ خالصًا من الشُّركاء، وهو

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 498، والسّمين الحلبيّ، الدّرّ المصون: 9/ 424.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 498.

مثالٌ للموَحِّد[1]، ونُكْتَةُ العطفِ ليقعَ التَّقابلُ الضِّدّيُّ بأمثل ما يكون عليه الحال، وليبيِّنَ الفرقَ بين الحالَين المختلفَين، فيقودُ ذلك إلى الاهتداءِ إلى الأمثل حالًا، والأفضلِ مثالًا.

دلالةُ التَّعبير بـ ﴿سَلَمًا﴾ مادَّةً وصيغةً:

الخُلوصُ من الشُّركاء صفةٌ أصيلةٌ راسخة في المَوَحِّد

عبَّر النَّظمُ الجليلُ بلفظ السَّلَم في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ الرَّجُلَ خالصٌ لسيِّدٍ واحدٍ، أي: لا شريك له فيه، ولا منازِع[2]، وجاء التَّعبيرُ بصيغة المصدر بمعنى أنَّه ذو سلامة؛ وذلك للمبالغة في هذا الوصف[3]، أي: إنَّه لكمال سلامتِه من الشُّركاء، صار هو عينَ السَّلامة وذاتَها[4].

نوعُ اللّامِ ودلالتها:

دلَّتِ (اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾ على الاختصاص، أي: إنَّه خلص له من الشِّركة سالمًا[5].

علَّةُ فَصْلِ جملةِ الاستفهام:

فصل النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾؛ لأنَّها مستأنَفةٌ سيقت لتقرير انكشاف التَّباين بين الرَّجلين المَذْكورين[6].

غرضُ الاستفهامِ وبلاغتُه:

إنكارُ مساواةِ الموحِّد للمشرك بالاستفهام مبالغةٌ في نفي التَّسوية

عبَّر النَّظمُ الجليل بالاستفهام في قوله جلَّ شأنه: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾؛ للدَّلالة على إنكار التَّسوية بينهما، فهو "إنكارٌ واستبعاد لاستوائِهما، ونفيٌ له على أبلغِ وجهٍ وآكدِه، وإيذانٌ بأنَّ ذلك من

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 253.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 3/ 317.
(3) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 178، وطنطاويّ، التّفسير الوسيط: 12/ 217.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 521.
(5) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 178.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 498.

الجَلاء والظُّهور بحيثُ لا يَقدِرُ أحدٌ أنْ يتفوَّه باستوائِهما أو يتلعثَم في الحُكْم بتباينهما ضرورةَ أنَّ أحدهما في أعلى عِلّيّين، والآخرَ في أسفلِ سافلينَ"[1]، ويجوز أن يكونَ الاستفهامُ تقريريًّا، فلا "يجيب عنه أحدٌ إلّا بأنَّهما لا يستويان، فلذلك عامَلَتْهُم العبارةُ الوجيزة على أنَّهم قد جاوبوا، فقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾"[2]، وقد آثر النَّظمُ الكريم الاستفهامَ بـ ﴿هَلۡ﴾ دونَ غيرِها؛ وذلك لتحقيق التَّقرير أو الإنكار[3].

نُكْتَةُ التَّعبير بصيغة المضارعِ ﴿يَسۡتَوِيَانِ﴾:

انتفاءُ المساواةِ بين المُختلفين حقيقةٌ دائمةٌ وبرهانٌ مستمرٌّ

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾؛ للدَّلالة على دوام انتفاء استوائهما، فلمّا أُنكِرَ الاستواءُ؛ دلَّ المضارعُ على أنَّ ذلك الحُكْمَ مستمرٌّ لا ينتقض بمرور الزَّمن، وجاء التَّعبيرُ بوزن (الافتعال)؛ للدَّلالة على أنَّ الاستواء ممتنعٌ بينهما، وإن طُلِبَ ذلك بغاية الجَهْد والعناية[4].

بلاغةُ التَّمييزِ ﴿مَثَلًا﴾:

المماثلةُ تبيِّن وجهَ انتفاءِ التَّسويةِ

جاء لفظُ ﴿مَثَلًا﴾ تمييزًا في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَرَجُلٗا سَلَمٗا لِّرَجُلٍ هَلۡ يَسۡتَوِيَانِ مَثَلًاۚ﴾؛ وذلك لبيان جهة الاستواء، فالاستواءُ مبهمٌ، فعَبَّرَ بالتَّمييز تبيينًا له، أي: هل يستوي مَثَلُهما؟[5] وللإيذانِ بأنَّ ذلك من الجلاء والظُّهور بحيثُ لا يقدِرُ أحدٌ أنْ يتفوَّه باستوائِهما، أو يتلعثَمَ في الحُكم بتباينهما، ضرورةَ أنَّ أحدَهما في أعلى عِلّيّينَ، والآخرَ في أسفلِ سافلينَ، وهو السِّرُّ في إبهام الفاضلِ والمفضولِ، وانتصابِ مثلًا على التَّمييزِ، أي: هل يستوي حالاهُما وصفتاهُما، والاقتصارُ في التَّمييزِ على الواحد لبيان الجِنسِ، فلم يقل: مَثَلين[6].

---

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 253.
(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 530.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 402.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 498.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 498.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 253.

علَّةُ فَصْلِ الجملة، وتعريف لفظ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾:

رجحـانُ أهـل الإيـمان نعمةٌ مـن الرَّحـمـن، موجبةٌ للحمد والثَّناء

فصل النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنَّها مستأنَفةٌ معترِضَةٌ سيقت لتقرير انتفاءِ الاستواء، متضمِّنةٌ التَّنبيهَ لأهل الحقِّ على أنَّ توحيدهم وإيمانَهم إنَّما هو بتوفيقِ اللّه تعالى، وأنَّها نعمةٌ جليلةٌ تستوجب الحمدَ والثَّناء[1]، فبعدَ إيرادِ السُّؤالِ عن استوائِهما، "فكأنَّهم قالوا: لا يستويان، وذلك هو ما يبتغيه المتكلِّمُ مِنِ استفهامه، فلمّا وافقَ جوابُهم بغيَةَ المستفهِم؛ حَمِدَ اللّهَ على نهوض حُجَّتِه"[2]، وتعريفُ لفظِ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ بالألف واللّام في قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ للجِنس والاستغراق[3]، أي: إنَّ الحمدَ كلَّهُ للّه تعالى، لا يشاركه فيه أحدٌ[4].

نوعُ اللّامِ ودلالتُها:

حرف (اللّام) في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾ قد تكون للاستحقاق فاللّه تعالى هو المستحق وحده للحمد الكامل؛ لأنَّه الخالق والمُدبِّر لكل شيء. فالحمد هنا ليس مجرد ثناء، بل هو اعتراف بأن اللّه وحده أهلٌ لأنْ يُحمد على نعمه وصفاته وأفعاله. كما يحتمل أن تكون اللام للاختصاص؛ أيْ: إنّ الحمد كلَّه للّه تعالى، ليس فيه شركةٌ مع أحدٍ سواه تعالى[5].

غرضُ إظهارِ اسم الجلالةِ:

وجـوبُ الحمد واستحقاقُه لله تـعالى الـذي لا يُكافِئُه حمدٌ

آثرَ النَّظمُ الكريم إظهارَ الاسم الجليل دونَ إضماره في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ﴾، فلم يقل: (الحمد له)؛ تفخيمًا لشأن الحمد، وإظهارًا لجانب الاستحقاق ووجوبِه، فالحمد كلُّه "للّه الذي لا مُكافِئَ

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 253.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 403.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 522.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 42.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 42.

له، يعلم ذلك كلُّ أحدٍ، لما له من الظُّهور، ولما عليه من الدَّلائل، فلا يصِحُّ أن يكونَ له شريكٌ"[1].

نوعُ ﴿بَلۡ﴾ ودلالتُها:

الانتقالُ مِن نفي التَّسوية إلى بيان جَهْل المشركين بانتفاء المساواة

عبَّر النَّظمُ الجليل بحرف الإضراب ﴿بَلۡ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وهي هنا للإضراب الانتقاليِّ، فانتقل "مِن بيانِ عدمِ الاستواءِ على الوجهِ المذكورِ إلى بيانِ أنَّ أكثرَ النّاسِ هم المشركون، لا يعلمون ذلك مع كمالِ ظُهورِه، فيَبْقَون في ورْطَةِ الشِّركِ والضَّلالِ"[2]، فلم يقل: (الحمد للّه إنَّهما لا يستويان)، بلِ انتقل إلى تبيين جهالةِ المشركين بانتفاء ذلك الاستواء.

سرُّ التَّعبيرِ بالأكثرِ دونَ الكلِّ:

الأكثرُ من النّاس جاهلون بشأن التَّوحيد

عبَّر النَّظمُ الجليل باسم التَّفضيل الدّالِّ على الأكثريَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، وهو هنا على بابه، فإنَّ القليل مِن النّاس مَن عَرَف التَّوحيدَ، وتكلَّم به، ورفضَ عبادةَ الأصنام، كوَرَقةَ وزيد وقِسٍّ[3]، فكان التَّعبيرُ بالأكثريَّة دونَ الكليَّةِ مطابِقًا للواقع.

علَّةُ حَذفِ مفعولِ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ونُكْتَةُ التَّعبيرِ بالمضارِع:

جَهِلوا أنَّ الحمد مستحَقٌّ لله تعالى وحدَه

حذفَ النَّظمُ الجليل مفعولَ الفعل (علم) في قوله جلَّ شأنه: ﴿بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ وذلك لطلب الإيجاز، فالسّياقُ دلَّ على المقصود، والتَّقدير: لا يعلمون أنَّ الحمد له لا لغيره، وأنَّ اللّه تعالى هو المستَحِقُّ للعبادة لا غيرُه[4]، وعبَّر النَّظمُ الجليل بالمضارع المَنفيِّ في قوله جلَّ شأنه: ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ وذلك للدَّلالة على تَجَدُّد النَّفي ودَوامِه، وأنَّ انتفاء عِلمِهم لا ينتقض بمَرِّ الزَّمان.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 499.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 253.
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 530.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 451.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

التَّشاكسُ والتَّنازعُ:

التَّشاكسُ التَّشاجرُ عن سوءِ الخُلُقِ، والتَّنازع أعمُّ المخاصمة

التَّنازُعُ هو المُجاذَبَة، ويُعَبَّرُ بها عن المُخاصَمة والمُجادَلة، قال تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ﴾ [النّساء: 59][1]، وأمّا الشَّكِسُ؛ فهو السَّيِّئُ الخُلُق، وقولُه تعالى: ﴿شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ﴾، أي: متشاجِرون لِشَكاسَةِ خُلُقِهم[2]، وهذا يدلُّ على شدَّة الاختلاف وقُبْحِه، فأسوأُ الخِلاف ما فارق فيه المختلِفون حُسْنَ الأخلاق، فعبَّر به في الآية؛ للدَّلالة على شدَّة اختلافِهم وغِلَظِهم فيه.

(1) الرّاغب، المفردات: (نزع).

(2) الرّاغب، المفردات: (شكس).

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ٣١﴾ [الزّمر: 30 - 31]

مُناسَبَةُ الآيَتَيْنِ لِما قبلَهُما:

العِبرةُ في الأفضليَّة في حُكمِ المآلِ يومَ القيامة

بعد أن بيَّن النَّظْمُ الجليل بطلانَ الشِّرك وإثباتَ التَّوحيد، وبيَّن الاختلافَ بين حالَي المشركين والموحِّدين، منبئًا بتفضيل أهل الإيمان، وختم ببيان جَهْلهم؛ أتبع ذلك بالإخبار بأنَّهم صائرون إلى اللّه تعالى بالموت وانتهاء الحياة، وأنَّ اللّه تعالى يحكم بينهم وبين المؤمنين يوم القيامة(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿تَخۡتَصِمُونَ﴾: (خصم) أصلٌ يدلُّ على المُنازَعة(2)، والخُصْمُ: طرَف الرّاوية(3)، ومنه قيل للخَصمَين: خَصْمانِ، لأخذِ كلِّ واحدٍ منهما في شِقٍّ من الحِجاج والدَّعوى(4)، والخَصِمُ: المُختصُّ بالخُصومة(5)، والذَّكَرُ والأُنثى فيه سواءٌ، والخُصومةُ: الاسم مِنَ التَّخاصُم والاختصام(6)، والمُراد بالاختصام في الآية: المُنازعةُ والمجادلةُ بالكلامِ، يعني: تخاصُم الكافر والمؤمن، والظّالمِ والمظلوم.

المَعْنى الإجماليُّ:

كلُّ متخاصمٍ صائرٌ إلى المَوتِ ثمَّ صائرٌ إلى حُكمِ العَدْلِ

تُبيِّنُ الآيةُ الكريمة أنَّ الموتَ واقعٌ على كلِّ بشر، وأنَّه سيَنزِلُ برسول اللّه ﷺ، كما سيَنزِلُ بأعدائِه، وما دام الأمرُ كذلك فأيُّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 403.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خصم).
(3) الخليل، العين، والأزهريّ، تهذيب اللّغة: (خصم).
(4) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (خصم).
(5) الرّاغب، المفردات: (خصم).
(6) الأزهريّ، تهذيب اللّغة، وابن منظور، لسان العرب: (خصم).

موجبٍ لتَعَجُّل الموت الَّذي يَعمُّ الخَلْق جميعًا، ثمَّ إنَّكم تَختَصِمونَ يومَ القيامةِ عِندَ اللهِ رَبِّكم فيما كُنتُم تَختَلِفونَ فيه في الدُّنيا، فيَفصِلُ بيْنَكم بالحَقِّ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

علَّة فصلِ جملة ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾:

تعليمُ الأنامِ ما يقع بعد الموت من خصام

فصل النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾؛ لأنَّها مستأنَفة سيقت تمهيدًا لبيان ما يعقب الموتَ يومَ القيامة من الاختصام بين أهلِ الحقِّ وأهلِ الباطل[2]، فَذَكَّرَهم تعالى بزوال هذه الحياة، وفيها حثٌّ للمؤمنين على المبادرة للعمل الصّالح، وإشعارُهم بأنَّ الرَّسول ﷺ يموت، كما مات مَن سبقه مِنَ الأنبياء، فيُقْبِلوا بحرصٍ على الانتفاع به في حياته ﷺ، وكي لا يختلفوا في موته، كما اختلفت الأُمم السّابقة في موت أنبيائها[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ وتأكيدها:

المـوت نـهـايـةٌ مؤكَّدةٌ لكلِّ حيٍّ

أكَّد النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾؛ للدَّلالة على أنَّ مآل النّاسِ الموتُ - لا محالةَ - ودلَّتِ الجملةُ الاسميَّة على المبالغة في وقوع مضمونها[4]، والموت وإن كان لا يُنكَر من قِبَل أحدٍ من البشر، فضلًا أن يقع فيه شكٌّ، إلّا أنَّ التَّأكيدَ جاء لتنزيل المخاطَبِ المُقرِّ منزلةَ الشّاكِّ، وليس الشَّكُّ هنا لشخص رسول الله ﷺ، بل لبعض أُمَّته الذين قد يقع منهم انقلابٌ على الأعقاب.

غرضُ الخطابِ في قوله: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾:

تخصيصُ رأسِ القوم بالخطابِ مبالغةٌ في تنبيه الأتباع

خصَّ النَّظمُ الجليل النَّبيَّ ﷺ بالخطاب في قوله جلَّ شأنه:

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 254، 255، والسّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 723، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 96، 98.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 253.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 404.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 523.

﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، وإن كان الخطاب مقصودًا به الأتباعُ ومَن سواهم؛ وذلك للمبالغة في التَّنبيه والإيقاظ؛ لأنَّ الخطاب إذا كان لسيِّد القوم؛ فإنَّه يكون أبلغَ في تنبيه الأتباع[1].

دلالةُ التَّعبير بصيغة ﴿مَيِّتٌ﴾ و﴿مَّيِّتُونَ﴾:

الموت حقٌّ ثابتٌ على الأحياء لا مفرَّ منه

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ عن الموت بصيغة التَّضعيف في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، دون أن يقول: (مائت، ومائتون)؛ لأنَّ (الميِّت) صفةٌ لازمة كالسَّيِّد، وأمّا (المائت)؛ فهو صفة حادثة[2]، فإنَّ الموت حُكمٌ ثابت لكلِّ حيٍّ لا يتخلَّف عنه.

فائدةُ العطفِ بالواوِ:

موتُ الأتباع محقَّقٌ كموت الأنبياء، وهو ممهِّدٌ لحساب القيامة

عطف النَّظمُ الجليل الجملةَ في قوله جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ على الجملة المستأنَفة في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ﴾، فهي مساقةٌ للتَّمهيد عمّا يعقب الموتَ يومَ القيامة، وفائدةُ العطف: حثُّ المؤمنين على المبادرة للعمل الصّالح، والمبادرة إلى الانتفاع بصحبة النَّبيِّ ﷺ[3]، والإعلامِ بأنَّ الموت واقعٌ على الجميع دونَ استثناء، وللجميع أجلٌ هم بالغوه.

تعيينُ مرجعِ الضَّمير:

عبَّر النَّظمُ الجليل بضمير الغيبةِ في قولِه جلَّ شأنه: ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ عن العباد كلِّهم، فهو شاملٌ لأتباع النَّبيِّ ﷺ وغيرهم[4].

لطيفةُ الإخبارِ بالموتِ:

تمهيدُ القلوب وتهيئة النُّفوس للفراق العظيم

أخبر النَّظمُ الجليل عن الموت في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾؛ وذلك لإعلام الصَّحابة عليهم الرِّضوان بموت النَّبيِّ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 500.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 337.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 404.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 500.

ﷺ، فقد كان بعضُهم يظنُّ أنَّ النَّبيَّ ﷺ لا يموت[1]، فالآيةُ نعيٌ له ﷺ، وإيماءٌ وتمهيدٌ لما سيكون، فيقع الاستعدادُ النَّفسيُّ لهذا الأمر، والانتفاعُ بحياته ما دام فيهم، والاستمساكُ والاعتصام بسُنَّتِه.

توجيهُ أنظار مَن يُطيل انتظارَ موتِ غيره

بلاغةُ التَّعريضِ:

عرَّض النَّظمُ الجليل بالمشركين في قولِه جلَّ شأنه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾، فإنَّهم كانوا يقولون: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيۡبَ ٱلۡمَنُونِ ٣٠﴾ [الطّور: 30]، فكانوا يتطلَّعون لموته ﷺ، فحُكمُ الموتِ سيأتيك، وسيأتيهم، فما يُعْلِمُهم أنَّهم لا يموتون قبلك؟[2] فالتَّعريض بهم في كونِهم سيموتون كما هو واقعٌ به، فالموتُ حقٌّ على كلِّ أحدٍ، فلا يتربَّص أحدٌ بآخر، بل ليتربَّص كلُّ إنسانٍ بما هو واقعٌ عليه.

الورود على الحساب أعلى رتبةً من ورود الموت

نوعُ ﴿ثُمَّ﴾ ودلالتُها:

عطف النَّظمُ الجليل بحرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾، وهي هنا للتَّرتيب الرُّتبيِّ، لا للتَّرتيب الزَّمنيِّ؛ لأنَّ رتبةَ الإخبار بوقوع الفصل بينهم يومَ القيامة، أعلى من رتبةِ الإخبار بأنَّهم سيموتون[3].

فكرةُ إنكارِ البعثِ زيفُ شبهةٍ وباعثُ شهوة

غرضُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ والتَّوكيدِ:

عبَّر النَّظمُ الجليل بالجملة الاسميَّة المؤكَّدة في قوله جلَّ شأنه: ﴿إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾؛ وذلك لردِّ إنكارِ المشركين البعثَ والحساب[4]، فإنَّهم غفلوا عن التَّفكُّر في البعث، وما يكون لهم من الحسابِ على سوء المُكث في الدُّنيا، وتضييع الأوقات في الغَفْلة عن الآخرة، بدعوى الاقتناع بفكرة إنكار البعث الزّائفة، وهم يعلمون

(1) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 530.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 404.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 404.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 405.

أنَّهم راجعون صائرون إلى يوم الحساب، فجاء التَّوكيدُ لهزِّ أعطاف أفكارِهم، وبَثِّ الرُّعبِ في ثنايا قلوبِهم، لعلَّهم يتوبون، فيرجعون.

نُكْتَةُ التَّغليبِ:

المخاطَبُ يُغَلَّب لعظمِ شرفه وعُلوِّ رُتبته

غلَّب النَّظمُ الجليل ضميرَ المخاطَب على ضمير الغائب في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾، دون أن يقول: (ثم إنَّك وإيّاهم)؛ وذلك أنَّ الاختصام سيكون لمن وقع لهم الخطابُ ولغيرهم؛ وذلك لشرف المخاطَبِ، وهو النَّبيُّ ﷺ، ودُنوِّ رتبةِ الغائب وإن كان أكثر عددًا[1]، أو أن يكون فيها حثٌّ للدُّعاة أن يوصلوا هذه الآية لكلِّ منكرٍ خَصْم، فيبلغه أنَّ اللّه تعالى سيُحاسبه يومَ القيامة في خصومتِه، وفي إنكارِه للحقِّ.

علَّةُ تقديم ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

يوم الحساب أوقعُ في النُّفوس من الحساب والخصام فيه

قدَّم النَّظمُ الجليل شبهَ الجملة من الظَّرف والمضاف إليه في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾، فلم يقل: (إنَّكم تختصمون يوم القيامة)؛ للاهتمام ورعايةِ الفاصلة[2]، فذِكْرُ يوم القيامة أشدُّ وقعًا وأهمُّ في الإخبار ممّا سيقع فيه.

دلالةُ الإضافة:

القيامةُ للّه تعالى حدثٌ مؤكَّد محقَّق لا شكَّ فيه

أضاف النَّظمُ الجليل اليومَ إلى القيامة في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾؛ تعريفًا لليوم بذِكْر القيامة، ومبالغةً في إثبات وقوعها، فقد ساقه للتَّعريف به، فكأنَّه لا خلافَ فيه[3].

غرضُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿عِندَ رَبِّكُمۡ﴾:

قدَّم النَّظمُ الجليل شبه الجملة ﴿عِندَ رَبِّكُمۡ﴾ في قوله تعالى:

---

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 523، وينظر: الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 127.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 405.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 501.

﴿عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾ فلم يقل: (إنَّكم تختصمون عند ربِّكم)؛ للاهتمام ورعاية الفاصلة[1].

سرُّ اختيارِ لفظِ الرُّبوبيَّة:

من مقتضيات الرُّبوبيَّة أصلُ الخَلْق ومحاسبةُ الخَلْق

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بلفظ الرُّبوبيَّة في قوله جلَّ شأنه: ﴿عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّه تعالى هو الذي ربّاكم بالخَلْق والرِّزق، فمِنَ الحِكمة أنَّه لا ينبغي لمن كان كذلك أن يدع عبادَه يبغي بعضُهم على بعضٍ يومَ الحساب، بل إنَّه سيعطي كلَّ ذي حقٍّ حقَّه[2]، فمن مقتضيات الرُّبوبيَّة الخَلْقُ، ومحاسبةُ الخَلْقِ.

نُكْتَة الإضافة في ﴿رَبِّكُمۡ﴾:

ربُّ العبادِ لطيفٌ بهم، لا يرضى لهم الظُّلمَ

أضاف النَّظمُ الجليل لفظَ الرَّبِّ إلى ضمير المخاطَبين في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾؛ إظهارًا للعناية بهم، وتنبيهًا على أنَّه ربُّ النّاس جميعًا، فلا يأذن بوقوع الظُّلم بين عباده.

بلاغةُ التَّعبير بالمضارعِ وصيغة الافتعال:

خصومةُ الحقِّ والباطل لا تنقطع

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالفعل المضارع في قوله جلَّ شأنه: ﴿عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾؛ للدَّلالة على دوام خصومتِهم واستمرارها، ولتصوير الحَدَث، واستجلاب الصّورة إلى أذهان السّامعين، وقد جاء التَّعبيرُ بصيغة (الافتعال)؛ للدَّلالة على تكلُّفهم تلك الخصومة، واجتهادِهم فيها، أي: تبالغون في الخصومة بينكم[3].

بلاغةُ الكناية:

دلالةُ اللُّزوم تقتضي المعاني المطويَّةَ

كنّى النَّظمُ الجليل بذِكْرِ الاختصام في قوله جلَّ شأنه: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ﴾ عن حُكمهِ تعالى بينهم، أي: إنَّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 405.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 501.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 501.

اللّٰه تعالى سيحكم بينكم فيما اختصمتم فيه في الدُّنيا من شأن الأديان والاعتقاد[1]، فهُم سيحاكَمون عند اللّٰه تعالى فيما اختلفوا فيه في الحياة الدُّنيا، فالاختصام يدلُّ لزومًا على إقامة مجالس القضاء بين العباد، والحُكْمِ بينهم فيما كانوا فيه يختصمون في الدُّنيا.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 23/ 405.

الجُزْءُ
الرَّابِعُ وَالعِشْرُونَ

﴿۞فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [الزمر: 32]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الفَضلُ في اختصامِ الخَلْقِ فيه تحذيرٌ وترهيبٌ

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة أنّ الموت مقضيٌّ به على النّاس جميعًا في هذه الدّنيا، وبيَّن أنَّ هذا الموتَ ليس هو خاتمةَ الأمرِ؛ إنَّما هو بدءُ مرحلةٍ جديدةٍ يكون فيها الفصلُ بينهم، ويوفَّى كلُّ جزاءَه؛ جاءت هذه الآيةُ لتكشفَ للمشركين عن المصيرِ الذى هم صائرون إليه يومَ الحسابِ، وهو مصيرٌ مشؤومٌ، حيث تكون النّارُ هى مَثواهم(1).

ومنها؛ لَما قرَّرَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ الاختصامَ الجاري بين أهلِ الكفرِ والإيمانِ - في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الزُّمر: 31]: بيَّنَ في هذه الآية حالَ المشركين عند الاختصامِ بذِكْرِ نوعٍ آخرَ من قبائحِ أفعالِهم، وهو أنّهم يكذبون على اللّهِ بزعمِهم للّه شركاءَ، وكذَّبوا بالرَّسولِ ﷺ بعد قيامِ الدّلائلِ القاطعةِ على صدقِ نُبوَّتِهِ؛ ذَكَر مصيرَهم بأنّهم في جهنَّم بقوله: ﴿أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَظْلَمُ﴾: (ظلم) أصلانِ صحيحانِ؛ أحدُهما خلافُ الضّياءِ والنّورِ، والآخَرُ وضعُ الشّيءِ غيرَ موضعِه تعدّيًا، يُقال في هذا الثّاني: ظلَمَه يَظْلِمُه ظُلْمًا، ويقولون: ما أشْبَهَ أباهُ فما ظلَمَ؛ أيْ: ما وضَعَ الشَّبَهَ غيرَ موضعِه. والظُّلْمُ يكونُ إمّا بنقصانٍ، أو بزيادةٍ، أو بعُدولٍ عن وقتِهِ أو مكانِه، ويُقال في مجاوزة الحقِّ الذي يجري مجرى نُقطةِ الدّائرةِ، ويُقال فيما يكثُر وفيما يقلُّ من التّجاوزِ، ولهذا يُستعمل في

(1) الخطيب، التفسير القرآني: 8/ 1151.

الذَّنْب الكبير وفي الذَّنْب الصَّغير، والمقصودُ بالظُّلْم هنا: الكذبُ على اللّهِ، والتّكذيبُ بالصِّدْقِ الذي هو القرآنُ الكريمُ[1].

2) ﴿بِٱلصِّدۡقِ﴾: (صدق) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على قوّةٍ في الشّيء قولًا وغيرَه، من ذلك: الصِّدقُ خلافُ الكذِب؛ سُمّيَ لقوّته في نفسه، ولأنَّ الكذبَ لا قوَّةَ له، وهو باطِلٌ، وأصلُ هذا من قولهم: شيءٌ صَدْقٌ؛ أيْ: صُلْبٌ، ورُمْحٌ صَدْقٌ، ويُقال: صدَقوهُم القتالَ، وفي خلافِ ذلك: كذَبوهُم، والمُرادُ بالصِّدقِ في الآية القرآنُ الكريمُ[2].

3) ﴿مَثۡوَى﴾: (ثوي) كلمةٌ صحيحةٌ تدلُّ على الإقامة؛ يُقال: ثَوى، يَثْوي، فهو ثاوٍ؛ والثَّويَّة والثّايَةُ: مأوى الغَنَم، والثَّويَّةُ: مكانٌ، وأُمُّ مَثْوى الرّجلِ: صاحبةُ منزلِه، والثَّواءُ الإقامةُ معَ الاستقرارِ؛ يُقال: ثَوَى يَثْوي ثَواءً؛ قال - ﷻ -: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 45]. وقال: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوًى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾ [الزّمر: 60]. والمقصودُ بالمثوى هنا: اسمُ مكانِ الثَّواءِ، وهو القرارُ، فالمَثْوى: المَقَرُّ[3].

المَعنى الإجْماليُّ:

بيانُ حالِ فريقِ أهلِ الباطلِ في موقفِ الاختصامِ وجزاؤهم

تُقرِّر هذه الآيةُ الكريمةُ أنّه لا أحدَ أظلمُ ممَّن كذبَ على اللّهَ؛ لأنّه أثبتَ للّهِ الشّريكَ والولدَ، وكذّبَ بالصِّدْقِ الذي جاء به النّبيُّ ﷺ، وهو القرآنُ العظيمُ؛ وأنَّ هذا الظُّلمَ من أبشعِ ما بشَّعَه الكتابُ العزيزُ، وأنَّ المتَّصِفَ به جديرٌ به أنْ يتوقَّفَ ويُراجعَ نفسه، وبعد أنْ حكمتِ الآيةُ عليهم بالظُّلم العليِّ، وبيَّنَت ظُلمَهم بالكذبِ والتّكذيب؛ قرَّرَت مصيرَهم باستفهامٍ يَزيد في ترهيبِهم منه، ويدفعُهُم - إنْ أنصفوا أنفسَهم - إلى المراجعةِ والتّفكيرِ؛ وهو أنَّ موضعَ إقامتِهم

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ظلم)، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 445 - 446، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 6.

(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (صدق)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 6.

(3) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ثوى)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 7.

واستقرارِهِم في جهنّم التي تلقاهم بالعُبوسِ والتَّجهُّم؛ كما كانوا يَلقون الصِّدْقَ والحقَّ بذلك.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ تقديمِ الحديثِ عن الظّالمين:

خطابُ هؤلاءِ الظّالمين هو المقصودُ في المقامِ الأوّلِ

قُدِّمَ الحديثُ عن الظّالمين في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ على أهل الصِّدقِ؛ لأنَّ خطابَ هؤلاء الظّالمين هو المقصودُ في المقامِ الأوَّل، وليُجاوِرَ وصفُهم المبدوءُ به جهلَهُم المنصوصَ عليه قَبْلًا في قوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٢٩﴾ [الزمر: 29][1]. وتناسُبًا مع تقديم مَثَلِ الرَّجل الذي فيه شركاءُ مُتشاكسون في السِّباق، ومع الحديثِ عنهم في آية: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِۦ سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الزمر: 24]. وما بعدها. وللعِلَّةِ المعنويَّةِ المأخوذةِ من الجوِّ العامِّ للسّورة؛ لأنَّها تأسَّسَتْ على دعوةِ الذين أنزل اللّهُ فيهم الكتابَ إلى إخلاصِ العبادةِ وتركِ الأوثانِ.

سِرُّ التّعبيرِ بالفاءِ دونَ الواوِ في قولِهِ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾:

ترتيبُ الحُكمِ على السَّببِ فيه إقناعٌ بالحُكْمِ

آثَرَ السّياقُ الحكيمُ التّعبيرَ بالفاءِ دونَ الواوِ في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾؛ لأنّها تفريعٌ لِما بعدها من مضمونِ جملةِ الاستفهامِ على ما قبْلها؛ وهو تفريعٌ للقضاءِ عن الخصومةِ التي في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ٣١﴾ [الزمر: 31]؛ إذِ الاختصامُ قد كُني به عن الحُكم بينهم فيما خالفوا فيه وأنكروه، وقد كُني عن كونِهم مَدينين بتحقيقِ أنَّهم أظلمُ؛ لأنَّ من العدل ألّا يُقَرَّ الظّالمُ على ظلمه؛ فإذا وُصف الخصمُ بأنّه ظالمٌ؛ عُلم أنّه محكومٌ عليه، والمعنى: (يقضي بينكم يومَ القيامةِ)؛ فيكونُ القضاءُ على من كذَبَ على اللّهِ، وكذَّب بالصّدقِ إذ جاءه؛ إذ هو الذي لا أظلمَ منه،

---

(1) المطعنيّ، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 434.

وفي التَّعبير بالفاءِ إشارةٌ إلى شدّة حضورِ الخصومةِ في القضاءِ والحُكْم، وأنَّ المُتلقّي كلَّما استحضر هذه الخصومةَ وأحوالَ طرفَيْها عَلِمَ صِدْقَ هذا الحُكْم وهذا القضاءِ، ولو جيء بالواوِ ونحوِها في موضع الفاء لَما كان ذلك.

بلاغةُ الاستفهامِ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾:

لَفْتُ الانتباهِ لاستقبالِ المطلوبِ

كلمةُ (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ اسمُ استفهامٍ في محلّ رفعٍ مبتدأٌ، ويُسأل بها عن العاقلِ، وأصلُ معنى الاستفهامِ التَّنبيهُ؛ وهو باقٍ مع كلِّ استفهام، ومِن شأنِه أنْ يُنطق المُتلقّيَ بالمطلوبِ بعد التّفكيرِ فيه؛ وهذه قيمةٌ بلاغيَّةٌ عامَّةٌ للاستفهامِ.

وذهبَ بعضُ العلماءِ إلى أنَّ هذا الاستفهامَ المجازيَّ الإنكاريَّ معناه النَّفيُ المَحْض، وأنَّ ما قيل من أنَّه إنكاريٌّ بمعنى النَّفي غيرُ وجيهٍ؛ لأنَّ الإنكارَ والنّفيَ إنِ اشتركا في أصلِ الدّلالةِ فإنَّ الإنكار أحْرَى أنْ يكون في هَمٍّ وعزمٍ على من هَمَّ أوِ ادَّعَى الأمرَ الذي يُسلّط عليه الإنكار، وهذا جارٍ في مثل هذه الصّيغة حيث وردتْ في القرآن[1].

سِرُّ العُدولِ عن صيغةِ الإخبارِ إلى الاستفهامِ:

توقيفُهم على ظُلمِهم بالاستفهامِ إحسانٌ إليهم

عُدِلَ عن صوْغِ الحُكْم عليهم بصيغة الإخبارِ إلى صوغِه في صورةِ الاستفهام؛ للإيماءِ إلى أنَّ السّامعَ لا يسعُهُ إلّا الجوابُ بأنَّهم أظلمُ؛ فالاستفهامُ مُستعملٌ مجازًا مُرسَلًا أو كنايةً؛ مُرادٌ به أنّهم أظلمُ الظّالمينَ، وأنّه لا ظالمَ أظلم منهم؛ فآلَ معناهُ إلى نفيِ أنْ يكون فريقٌ أظلمَ منهم؛ فإنّهم أتَوا أصنافًا من الظُّلْم العظيم؛ ظلم الاعتداءِ على حُرْمةِ الرّبِّ بالكذبِ في صفاتِه؛ إذ زعموا أنَّ له شركاءَ في الرّبوبيّةِ، والكذبِ عليه بادِّعاء أنّه أمَرَهُم بما هم عليه من الباطلِ، وظلمِ الرّسولِ ﷺ بتكذيبِه، وظلمِ القرآنِ بنسبتِهِ إلى الباطلِ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 5 - 6، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/ 98، و3/ 434.

وظلمِ المؤمنين بالأذى، وظلمِ حقائقِ العالَم بقلبِها وإفسادِها، وظلمِ أنفسِهم بإقحامِها في العذابِ الخالدِ.

علّةُ التّعبيرِ بالظُّلْمِ في ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾:

إفـادةُ عمـومِ اللّفظِ وشمولِه

عبَّر القرآنُ بالظُّلْم الذي هو وضْعُ الشّيءِ في غير موضعِه في قولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾؛ لأنَّه يتَّسِعُ ليدخلَ فيه كلُّ ما اقترفَه أهلُ الكُفْرِ من جهةٍ، وأعظمُه الشِّرْكُ؛ من أنَّ للّهِ صاحِبةً وولَدًا، وغيرُ ذلك. وفيه فائدةُ التَّنْفيرِ من أحوالِ هؤلاءِ الظّالمين وعقيدتِهم وأقوالِهم وأفعالِهم، ولأنَّ الكذبَ على اللّهِ والتّكذيبَ بالرّسولِ وبما جاء به أعلى درجاتِ الظُّلم.

بلاغةُ صيغةِ التَّفْضيل ﴿أَظۡلَمُ﴾:

أشـدُّ الظّالمين ظلمًا من كَذَبَ على اللهِ وكَذَّبَ رسولَهَ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بصيغةِ أفعلِ التّفضيل ﴿أَظۡلَمُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ دونَ الإتيانِ بلفظٍ آخَرَ؛ للإيجازِ، ولتمكينِ المعنى في النَّفْسِ؛ لأنَّها تُحرِّكُ الذِّهن في بادئ التَّلقّي إلى النَّظَرِ في أحوالِ الطَّرفيْنِ - الكاذبين على اللّه، والمكذّبين بالصّدق -؛ وتُثبت أصلَ المعنى وزيادةً؛ والتَّعبيرُ بها للدّلالةِ على قبحِ ظُلْمِ هؤلاءِ؛ وعلى التَّبشيعِ والتّهويل في وصفِ هؤلاءِ الظّالمين.

وذهبَ البعض إلى أنَّ صيغةَ التَّفضيلِ ليست على بابِها، وإنّما المُرادُ إثباتُ معناها على جهةِ الإبلاغِ لـ (من كذب على اللّه وكذب بالصدق إذ جاءه)، وليس المُرادُ التّهويلَ بالمبالغةِ بصيغة التّفضيل؛ وإنّما المُرادُ الكَشْفُ عن حقيقةِ ظلم هؤلاءِ الكافرينَ[1].

بلاغةُ الكنايةِ في ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾:

الدَّعوةُ للرُّجوعِ إلى الحقِّ ونبذِ الباطلِ

مِما سيقت له الآيةُ إثباتُ أعلى درجاتِ الظُّلْم لأهلِ الكفرِ المقابلِ لأهلِ الإيمانِ، مع أنَّ الآيةَ لم تُصرِّح بأنَّهم أظلمُ الظّالمين، وأنْ لا أحدَ أظلمُ منهم، وإنّما كَنَّتْ عن ذلك وكونِهم مَدينينَ بتحقيق

(1) الشنقيطي، العذب النمير: 1/ 382.

أنّهم أظلمُ؛ لأنَّ من العدلِ أنْ لا يُقَرَّ الظّالمُ على ظُلمِهِ؛ فإذا وُصِف الخصمُ بأنَّه ظالمٌ عُلِم أنّه محكومٌ عليه؛ كما قال تعالى حكايةً عن داوود عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ﴾ [ص: 24][1].

دلالةُ (مِنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿مِمَّن﴾:

زيـادةُ عناصرِ الإيقاظِ والتّنبيهِ في الآيةِ

(مِن) في قوله تعالى: ﴿مِمَّن﴾ حرفُ جَرٍّ دخَل على (مَن) الموصولةِ، وأُدْغِم فيها لفظًا ورَسْمًا، ومعناها بيانُ الجنسِ؛ لأنّه يجوزُ في غير القرآنِ أنْ يُقال: (فمَنْ أظلم من الذي كذَبَ على اللّه وكذَّب بالصّدق إذْ جاءَه). وكونُ معناها ذلك يعني أنَّ ما قبلَها غامضٌ يفتقرُ إلى بيانٍ؛ وأنَّ الغموضَ فيه يُحرِّكُ النَّفْسَ إلى التَّطلُّع إلى الإيضاحِ، وهذا يُضاف إلى صيغةِ التّفضيلِ من حيثُ هي صيغةٌ.

دلالةُ التّعبيرِ بـ (مَنْ) دونَ (الذي)

إفـادةُ العمومِ والشُّمولِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بـ (مَنْ) دون (الذي) في قوله تعالى: ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾؛ لأنَّ (مَنْ) اسمٌ موصولٌ عامٌّ مشتركٌ للعاقِل؛ يصدُق على المُذكّرِ والمُؤنَّث، والمُفردِ والمُثنَّى والجَمْع. والتَّعبيرُ به يُفيدُ عمومَ الحُكْم بالظُّلْم؛ لِصِدْق صلةِ الموصولِ على كثيرينَ مختلفينَ؛ ذكورًا وإناثًا، بخلافِ التّعبيرِ بـ (الذي) الذي يدلُّ على المُفردِ المُذكَّرِ فقط، ولا يُؤدّي المعنى المُرادَ في جميع من يرتكبُ هذه الفعالَ المذمومةَ من الكذبِ على اللّهِ والتّكذيب برسولِه، فهذا ليس مخصوصًا بشخصٍ أو بجماعةٍ؛ بل هو عامٌّ في جميعِ من يصدرُ عنه ذلك؛ لذلك كان التّعبيرُ بـ (مَنْ).

دلالةُ اختلافِ مُتعلّقِ أسلوبِ ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾:

الأظْلَميَّةُ مُقيَّدَةٌ في سياقِها

القارئُ للقرآنِ الكريم يجدُ أنّ قولَه تعالى: (فمن أظلم) (ومن أظلم) تعدّد فيها المُتعلّق؛ فمرَّةً يأتي التّعبيرُ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ [الأنعام: 21]، ومرَّةً: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 5.

رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعۡرَضَ عَنۡهَآۚ﴾ [السجدة: 22]، وأخرى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وهو موضعُ الحديثِ هنا، فإذا نظرتَ إلى هذه الآياتِ في الظّاهرِ؛ فقد يتوهَّمُ البعضُ وجودَ تناقضٍ؛ لأنّه يُقال: لا أحدَ أظلمُ ممّن افترى على اللّه كذبًا - ولا أحدَ أظلمُ ممّن مَنع مساجدَ اللّهِ، ولا أحدَ أظلمُ ممّن كذَبَ على اللّهِ وكذَّبَ بالصّدقِ إذ جاءه.

وهنا يردُ سؤال: هل إثباتُ الأظلميّةِ يكونُ باعتبارٍ واحدٍ أو باعتباراتٍ متعدّدةٍ؟ وأجاب العلماءُ عن ذلك بأقوالٍ مختلفةٍ؛ منها تخصيصُ كلِّ واحدٍ في هذه المواضعِ بمعنى صلتِه؛ فكأنَّه قالَ: لا أحدَ من الكاذبين أظلمُ ممَّن كَذَبَ على اللّهِ وكذَّبَ بالصِّدقِ إذ جاءَه، ولا أحَدَ من المانعين أظلمُ ممَّن منَعَ مساجدَ اللّهِ.. وهكذا في بقيةِ الآياتِ، وإذا تخصّصت بالصّلات زال عنها التّناقضُ.

وذهب بعضهم إلى أنَّ التّخصيصَ بالنّسبةِ إلى السّبقِ لِما لم يسبقْ أحدٌ إلى مثلِه؛ حكمَ عليهم بأنّهم أظلمُ ممَّن جاء بعدَهم سالكًا طَريقتَهم[1].

نفيُ الأظلميَّةِ لا يستدعي نفيَ الظّالميّة

وذهب أبو حيّانَ إلى أنَّ "نفي الأظلميّةِ لا يستدعي نفيَ الظّالميّة؛ لأنَّ نفي المُقيَّد لا يدلّ على نفيٍ مُطلقٍ، وإذا لم يدلَّ على نفيِ الظّالميّة لم يلزم التّناقضُ؛ لأنّ فيها إثباتَ التّسويةِ في الأظلميّةِ، وإذا ثبتتِ التّسويةُ في الأظلميّة لم يكن أحدٌ ممّن وُصِفَ بذلك يزيدُ على الآخرِ؛ لأنّهم يتساوون في الأظلميّة، وصار المعنى: لا أحدَ أظلمُ ممّن كذَبَ على اللّه وكذَّب بالصِّدق إذ جاءه، وهكذا بقيّةُ الآياتِ، ولا إشكالَ في تساوي هؤلاءِ في الأظلميّةِ؛ لأنَّ هذه الآياتِ في الكفّار؛ فهم مُتساوون في الأظلميّةِ، وإنْ اختلفتْ طُرُقُها؛ فهي كلّها صائرةٌ إلى الكفرِ"[2].

(1) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/ 572.

(2) أبو حيَّان، البحر المحيط: 1/ 572.

بلاغةُ التّعبيرِ بجملةِ الصِّلةِ:

بلغَ الكافرون في الكَذبِ كلَّ مبلغٍ

قولُه تعالى: ﴿كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ صلةُ الموصولِ المجرورِ محلًّا، وجملة ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾ صلةٌ أيضًا؛ لأنَّه معطوفٌ على صلة. ولَمّا كان الأصلُ في الاسم الموصولِ أنَّه لا يُؤتَى به إلّا وصلتُه جملةٌ من الكلام قد سبقَ من السّامع علمٌ بها، وأمرٌ قد عرَفه للموصولِ[1] فإنَّ في نَظْم معنَى الكذبِ والتّكذيبِ صلةً مواجهةً لأهل الكفر بذلك، ودفْعِهم إلى النَّظر والتَّفكُّر في ظلمهم البَشِع القبيح؛ لأنَّ جملة الصِّلة قوامُ الظُّلْم المذكورِ. وجاء تمييزُهُم بالصِّلة تشهيرًا بهم؛ لكمالِ ذَمِّهم.

سِرُّ العدولِ عن الإتيانِ بضميرِهِم:

ليس أظلمُ من سَتْرِ الصِّدقِ الثّابتِ وإظهارِ ما لا حقيقةَ له

عدَلَ القرآنُ الكريمُ عن الإتيانِ بضميرِهِم بأنْ يقول: (فمَنْ أظلم منهم) إلى الإتيانِ بالموصولِ ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ تعميمًا للحُكْم وتعليقًا بالوصفِ؛ أيَ: لِما في الصِّلةِ من الإيماءِ إلى وجهِ كونِهم أظلمَ النّاسِ، وهذا إقناعٌ بالحُكْم، فكيف بسَتْرِ الصِّدقِ الثّابتِ وإظهارِ ما لا حقيقةَ له؟[2].

دلالةُ نَظْمِ كلٍّ من الكذبِ والتّكذيبِ ماضيًا:

رسوخُ الكذبِ في قلوبِ أهلِ الكفرِ

نظَم القرآنُ الكريمُ الفعليْن ﴿كَذَبَ﴾ ﴿وَكَذَّبَ﴾ في الآية كلًّا من معنى الكذبِ، فجاء ﴿كَذَبَ﴾ فعلًا ماضيًا؛ للدّلالةِ على تحقُّقِ المعنيَيْن في قلوبِ المُحدَّثِ عنهم، وللتّنبيه على أنَّه لا أحدَ أظلمُ ممَّن يتَّصفُ بأدْنَى مستوياتِ الكذبِ والتّكذيبِ؛ فكيف بالرّاسخينَ العريقينَ فيهما؟.

ويؤيدُ ذلك السّياقُ القرآنيُّ الذي تحدّث عن كذبِهم على اللّهِ بادِّعاءِ الشُّركاءِ، أو أنَّ للّه البناتِ، أو أنَّ للّه - سبحانه - ولدًا..

---

(1) عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص: 200.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 6/ 445 - 446، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 5.

إلى آخِر ضلالاتِهم التي كذبوا فيها على اللّهِ، وكان ذلكَ في صميمِ العقيدةِ التي محلُّها القلبُ.

دلالةُ التّعْبيرِ بقوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

القومُ الكافرون عريقون في الكذِبِ على اللهِ

قولُه تعالى: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّق بالفعل ﴿كَذَبَ﴾، و﴿عَلَى﴾ في الأصلِ للاستعلاءِ الحقيقيِّ، وقد تُستعمل في الاستعلاءِ المجازيِّ كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]. والتَّعبيرُ بالجارِّ والمجرور من باب التّشنيع عليهم لكذبهم على اللّهِ وعلى رسولِه، وما كان لهم أن يكذبوا؛ لأنَّ اللّهَ يعلمُ كلَّ شيءٍ فلا يغيب عن علمه شيءٌ.

وفيه إشارةٌ إلى أنَّ كذبَ هؤلاءِ يتعلَّقُ بالذّاتِ الإلهيَّةِ العَليَّةِ وأسمائِها الحُسْنَى وصفاتِها العُلَى، وإلى عظيمِ جهلِهم باللّهِ جلالًا وجمالًا وكمالًا.

سِرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ دونَ الرَّبِّ:

تبشيعُ الكذبِ على اللهِ ﷻ

عبَّر القرآنُ باسْمِ الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾ من بعد أنْ قال: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ٣١﴾ [الزمر: 31]؛ للإبلاغِ في بيانِ حقيقةِ قُبحِ الكذبِ على الإلهِ الحقِّ الملِكِ العظيم، وشناعتِه؛ فالكذبُ عظيمُ القباحةِ في نفسه، فكيف إذا كان على مَلِك الملوك وهو اللّهُ ربُّ العالمينَ؟! والمعنى: فمَن أظلمُ ممّن كذب على اللّه الذي الكبرياءُ رداؤُه، والعظمةُ إزارُه؛ فمَن نازعَه واحدةً منهما قصَمَه؛ فزعم في كذبِه أنَّ له سبحانه أندادًا وشركاءً وأولادًا، ففيه شديدُ ترهيبٍ من الكذبِ عليه تعالى[1].

دلالةُ الواوِ في قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ﴾:

تبشيعُ الكذبِ على اللهِ والتّكذيبِ بكلامِه

آثر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالواو في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ﴾؛ لأنَّها عطفت هذه الجملةَ على جملةِ: ﴿كَذَبَ

(1) البقاعي، نظم الدرَر: 6/ 446.

﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ التي هي صلة الموصولِ المجرورِ في قوله تعالى: ﴿مِمَّن﴾؛ لِما بينهما من التَّوسُّط بين الكمالَيْن؛ إذ جملةُ الصِّلةِ لا محلَّ لها من الإعرابِ، وهاتان الجملتان خبريَّتانِ في اللّفظِ والمعنى، وحسَّنَ الوصلَ كونُهُما فِعْليَّتَيْن.

وأيضًا لَمّا كان المعطوفُ على الصِّلةِ صلةً كانَ لترتيبِ جملتَي الصّلة: ﴿كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾، و﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ﴾: حِكْمةٌ. وعطفُ الثّانيةِ على الأولى من عطفِ العامِّ على الخاصِّ؛ للتّنْبيهِ على أنَّ الخاصَّ أصلُ العامِّ.

سِرُّ تقديمِ الكذبِ على اللهِ على تكذيبِ الصِّدقِ:

الكَذِبُ المُتعلِّقُ بالتّوحيدِ هو الأساسُ

قُدِّم الكذبُ على اللّه؛ لأنّه أشنعُ وأقبحُ؛ لأنَّ الذي يكذبُ على اللّهِ يكذبُ على رسولِهِ وعلى المؤمنين من بابٍ أَوْلى، ولا عُذر له قطُّ؛ لأنَّه يكذب مُتعمِّدًا عالِمًا بأنّه كاذبٌ. أمّا التَّكذيبُ بما أنزل اللّه؛ فقد يكون لشُبْهةٍ تُخامر المُكذِّبَ وسرعان ما تزولُ[1]. وأنَّ الكذبَ على اللّهِ يَستوجبُ الوصفَ بأعلى درجاتِ الظُّلْمِ، وتكذيبُ الصِّدْقِ تكذيبٌ للّهِ، وكذبٌ على اللّهِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بصيغةِ فَعَّلَ ﴿وَكَذَّبَ﴾ دون (كَذَبَ)

التّكذيبُ أعلى درجةً من الكَذِبِ

عبَّر القرآنُ بصيغةِ (فعَّل) في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ﴾؛ للدّلالةِ على التّكثيرِ؛ نظرًا إلى تعدُّدِ ما يشتملُ عليه القرآنُ ممّا كذبوه، وكثرته، وفي الجملة الأولى عُبِّر بالفعل المُجرَّد: ﴿كَذَبَ﴾؛ لأنَّ جهةَ الكذِبِ واحدةٌ، وهي ذو الجلال والإكرام، وكلُّ ما قيل ويُقال في هذا المقام يتعلَّقُ باللّه ﷻ مباشرةً، وأمّا هذا التَّكذيبُ فيتعلَّقُ رأسًا بنُبوَّة سيّدنا محمّدٍ ﷺ؛ وقد نزَّل اللّه عليه حديثًا هو أَحْسَنُ الحديثِ، وأيَّده بما لا يدخلُ فيه ريبٌ، فتكذيبُ القرآنِ هو تكذيبُه،

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 434 - 435.

وتكذيبُه تكذيبٌ لأخبارِه الكثيرةِ. والآيةُ "قرَنت الكذِبَ بالتّكذيب؛ ودلَّت على أنَّ الكاذبَ يُكذِّبُ، وهذا شأنُهُ"[1].

سِرُّ التّعبيرِ بالباءِ في ﴿بِٱلصِّدۡقِ﴾:

مِثْلُ الصِّدْقِ لا يُكذَّبُ ولا يُغيَّرُ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ للتّعدية مع أنّ الأصل أنْ لا توجَد؛ لأنَّ فِعْلَ التّكذيبِ يتعدَّى بنفسِه؛ فيُقال: كذَّبتُ فلانًا؛ أيْ: نسبتُه إلى الكذب، وفي حضورِها لتعديةِ الفعلِ بها إلى الصِّدقِ إنكارٌ لطيفٌ عليهم أنْ يُكذِّبوا القرآنَ الصِّدْقَ؛ لأنَّ من شأنِه أنْ لا يُكذَّبَ به، ولا يَقبلَ في نفسه التّكذيبَ، حتّى إنَّ القرآنَ لم يُسلِّط عليه التّكذيبَ مباشرةً؛ وإنّما تسلّطَ عليه بواسطةٍ.

وممّا يُذكر في سرِّ التّعبير بالباء أنَّ معناها المُلابسةُ أوِ الإلصاقُ؛ وهذا الأصلُ فيها، وهو لا يَكادُ يُفارِقُها، فتدلُّ على شدَّة تكذيبِ الصِّدْقِ؛ أيْ: إنَّ التّكذيبَ كأنّه أحاطَ بأفرادِ الصِّدْق، وتمكَّنَ منها، وهذا يعني تعمُّدَ التّكذيبِ، والجرأةَ على الصِّدقِ.

سِرُّ التّعبيرِ بالصِّدْقِ دونَ القرآنِ:

الصِّدْقُ بابٌ عظيمٌ يؤدّي إلى الإخلاصِ

عُبِّرَ عن القرآنِ بالصِّدْقِ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ وذلك لفتًا إلى أنَّ من شأنِ القرآنِ أنْ يدفعَهُم إلى عبادةِ اللّهِ، وإلى الإخلاصِ له تعالى في ذلك: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ [الزّمر: 2]. والصِّدْقُ بابٌ عظيمٌ يؤدّي إلى الإخلاصِ؛ وهو في أصلِ استعماله يَدُلُّ على قوّةٍ في الشّيءِ؛ قولًا كان أو غيرَهُ.

ولأنَّ القرآنَ هو الآيةُ الكبرى التي جاء بها النَّبيُّ ﷺ[2]، وفيها الأدلَّة القاطعةُ على صدقِ نُبوَّته ﷺ.

(1) محمد أبو موسى، الزمر - محمد وعلاقتهما بآل حم، ص: 231.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 599، والآلوسي، روح المعاني: 24/ 135، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 6.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ (الصّدق) دون اسمِ الفاعل:

القرآنُ هو عَيْنُ الحقِّ، ونَفْسُ الصِّدْقِ

آثرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالمصدرِ (الصِّدْق) في قولِهِ تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ﴾ دون اسمِ الفاعلِ (الصّادق)، وذلك لِما في صيغةِ المصدرِ من تقريرٍ للوصفِ الذي يتضمَّنُه المصدرُ للقرآنِ على جهةِ المبالغةِ والقوَّة؛ فالقرآنُ كاملٌ في هذه الصِّفةِ، وهي عريقةٌ فيه، لا تكادُ تنفكُّ عنه بحالٍ؛ ففي تكذيبِ ما ذلك شأنُه وحالُه كلُّ تقبيحٍ للمُكذِّبينَ، وكلُّ تشهيرٍ بهم، وتشنيعٍ عليهم، وتنفيرٍ من أحوالِهم، وللدّلالة على أنَّ القرآنَ هو عينُ الحقِّ ونفس الصِّدقِ وما جاء به النَّبيّ ﷺ، وفي التّعبير به مبالغةٌ دون اسم الفاعل فلا يؤدّي هذا المعنى من المبالغة.

دلالةُ حذفِ الموصوفِ في قوله: ﴿بِٱلصِّدۡقِ﴾:

بلوغُ القرآنِ الكريمِ درجةَ الكمالِ في الصِّدق

قوله تعالى: ﴿بِٱلصِّدۡقِ﴾ صفةٌ لموصوفٍ محذوفٍ تقديره؛ أي: بالقرآنِ الصِّدْقِ، وذلك لبلوغه درجةَ الكمالِ في الصِّدق؛ فصار عَلَمًا عليه، يؤكِّد هذا قولُه بعد ذلك: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾.

دلالةُ التَّعريفِ بألِ في قوله: ﴿بِٱلصِّدۡقِ﴾:

الدّلالةُ على كمالِ القرآنِ في كلِّ أوصافِهِ ومنها الصِّدقُ

عرَّفَ القرآنُ (الصدق) بأل في قوله تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ﴾؛ إمّا لبيان أنّهم يعرفونه؛ فهم يُكذِّبون شيئًا يَعهدونه، فهو ليس ببعيدٍ عنهم، ولا بصَعْبٍ عليهم فهْمُه، فأل للعهدِ الذِّهْنيِّ، وإمّا للدَّلالةِ على معنَى الكمالِ؛ كما في نحو: (هذا هو الرجل)؛ أي: الكاملُ في الرُّجولة، أيْ إنَّ القرآنَ كاملٌ في بابِ الصِّدْقِ، وهذا المعنى إمّا أنْ يُضافَ إلى دلالة صيغةِ المصدرِ، أو تُضافَ إليه صيغةُ المصدرِ، وعلى كلٍّ فالإبلاغُ في تقريرِ معنى: (الصِّدْق): إبلاغٌ في تحريكِهم نحوَ تدبُّرِه، والنَّظرِ فيه. وهذا يُقال في: (الصِّدْق) في الآية اللّاحقة: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾.

بلاغةُ الطِّباق: (الصدق) و(كَذَّب)

الـطِّـبـاقُ يُـبرزُ المعنـى ويحثُّ على التَّدبُّرِ

في الجمعِ بين كلمةِ: (الصِّدق) وفِعْلِ: (كَذَّبَ) مُحسِّنُ الطِّباقِ[1]. وفائدتُه تحريكُ المُتلقّي لتدبُّر معنى كلٍّ مِنهما فيتمكَّن المعنَى في النَّفْسِ، وهذا ينسجمُ مع الجملةِ الاستفهاميَّةِ في الآية، وفي هذا إبرازٌ لجمال المعنى ودعوةُ مُتلقّيه للتّأمُّل فيه.

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرْفِ ﴿إِذۡ﴾:

رفضُ الحقِّ من غيرِ تأمُّلٍ أو نظَرٍ في الدّليلِ دأبُ المُعانِدينَ

عبّر البيانُ الحكيمُ بـ ﴿إِذۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾؛ للدّلالة على أنه كذَّبَ بالقرآنِ وقتَ مجيئِه، وهو مُشْعِرٌ بالمقارنة بينَ الزّمن الذي تدلُّ عليه الجملةُ المُضافُ إليها وحصولِ مُتعَلَّقِه؛ وفيه دلالةٌ على سرعةِ تكذيبِه للحقِّ بمُجرَّدِ بلوغه إيّاه بدون مُهلةٍ؛ أيْ: بادَر بالتّكذيب عندَ بلوغه إيّاه من غيرِ رويّةٍ ولا اهتمامٍ للتّمْييزِ بينَ الحقِّ والباطِلِ، وتكون ﴿إِذۡ﴾ فُجائيَّةً؛ بدلالةِ السّياق، فظهَر أنَّ العيبَ فيهم لا في القرآنِ؛ لأنّهم لم يُعْطوا لأنفُسِهم فُرْصَةَ التَّدبُّرِ والتَّأمُّلِ فيهِ[2]، وفيه إظهارٌ لكمالِ شناعتِهم.

بلاغةُ المجاز ﴿بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾:

الـدّلالـةُ على كـمـالِ بـلـوغِـه إيّاهم مشاهدةً وسماعًا

تَظهرُ بلاغةُ المجازِ في التّعبيرِ بقولِه: ﴿بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾، والمُرادُ به القرآنُ الذي من شأنِه أنْ لا يكونَ منه مجيءٌ ولا إتيانٌ؛ وإنّما يُجاء به ويَبْلُغُ النّاسَ وهم يسمعونَه؛ فمجيءُ الصِّدْقِ إليهم: بلوغُه إيّاهُم؛ أيْ: سماعُهم إيّاه، وفَهْمُهُم إيّاه؛ فإنّه بلسانهم، وجاءَ بأفصحِ بيانٍ بحيثُ لا يُعْرِضُ عنه إلّا مُكابِرٌ؛ فيَحتمل التّعبيرُ أنْ يكون من بابِ استعارة المجيءِ لبلوغِه إيّاهُم؛ وهذه تصريحيّةٌ تبعيّة، والمجيءُ أبلغُ من البلوغِ والسّماعِ؛ لدلالته على كمال بلوغِه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 6.

(2) البقاعي، نَظْم الدُّرر: 6/ 446، وأبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 599، والآلوسيّ، روح المعاني: 24/ 135، وابن عاشور، التَّحرير والتَّنوير: 24/ 6.

إيّاهم؛ مُشاهدَةً وسماعًا، و"أنَّ هذا المُكذِّب بما أنزل الله قد تمكّن من معرفة الحقِّ والاستماعِ إلى آياته؛ فكفرَ عن عِلم"[1]. أو من بابِ تشبيه القرآنِ بمَن يكون منه المجيءُ، وهذه مَكنيَّةٌ، وإثباتُ المجيء له قرينتُها، وهي تخييليّةٌ.

عِلّةُ التّعبيرِ بالمجيءِ مادّةً وصيغة:

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالمجيءِ دون الإتيانِ في قوله تعالى: ﴿إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾؛ للدّلالة على أنَّ نُزول القرآنِ إلى النّاسِ - شيءٌ ذو خطَرٍ عظيم؛ إذ هو الصِّدقُ الذي يُحقِّقُ لهم السّعادةَ في الدُّنيا والآخرة؛ لذا عبَّر القرآنُ بالمجيءِ دونَ الإتيان. ولمّا كانَ ما أنكرَه أهلُ الكفرِ من أخبارِ القرآنِ قد تحقَّقَ نزولُه وبلوغُه إيّاهُم؛ نظَم القرآنُ معنَى المجيءِ فعلًا ماضيًا.

ما أعظمَ القرآنَ؛ فهو حُجَّةُ اللهِ على خَلْقِهِ

سِرُّ فَصْل قولِه: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾:

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها جوابُ سؤالٍ أثارَتْهُ الجملةُ السّابقةُ التي حكَمَتْ بأنّ هؤلاءِ الكافرينَ أظلمُ النّاسِ بمعونةِ ما قبلها: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمۡ تَخۡتَصِمُونَ ٣١﴾ [الزمر: 31]؛ وهو إذا كانَ الفريقانِ قدِ اختصما عندَ ربِّهم، وقد قضَى تعالى وحكَم بأنَّ الفريقَ الكافِرَ لا أحدَ أظلمُ منهُ؛ فما جزاؤُهُ؟ فهذه الجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ. وذهب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ جملة: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ مُبيِّنةٌ لمضمون جملة: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ أيْ إنَّ ظلمهم أوجبَ أنْ يكونَ مثواهُم في جهنّمَ[2]. فعلى هذا بينها وبين ما قبلها كمالُ اتِّصالٍ.

ليس بعدَ الخصومةِ والحُكْمِ إلّا الجزاءُ

بلاغةُ الاستفهامِ في ختامِ الآية:

تظهرُ بلاغةُ الاستفهامِ في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى

(1) المطعنيّ، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 435.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 6.

ترهيبُ الكافرين دعوةٌ للإقلاعِ عمّا هم فيه

﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾، وذلك بتصديرِها بهمزةِ الاستفهام، والاستفهامُ معناهُ النَّفْيُ، وقد دخَل على النَّفي: (ليس)، ونفيُ النَّفْيِ إثباتٌ؛ والمعنى: في جهنَّم مثوًى للكافرين، وكأنَّ الحقَّ تعالى يقولُ: (لو وجدتم ما يُصحِّحُ القولَ بأنَّ جهنّم ليست مثوى للكافرين فأجيبوا بهذا، ولن تجدوا)، وهذا فيه من التّوكيد ما لا يكونُ في الإثباتِ الصّريحِ أو ما يكونُ بدخولِ همزةِ التّحقيق على الإثبات في نحوِ: (أفي جهنّم مثوى للكافرين)؛ فهو استفهامُ تقريرٍ أصالةً، غرضُه التَّهديدُ والوعيدُ الشّديدانِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالاستفهامِ دون الخبر:

ما أقبحَ تصميمَهُم على الإعراضِ عن تدبُّرِ القرآنِ

جاءَ المعنى في صورةِ الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ دون الخبرِ بأنْ يُقال: (في جهنم مثوًى للكافرين)؛ ليرجع السّامعُ إلى نفسه، ويتدبَّرَ صورة جهنّم، ويتدبّرَ المثوى الذي هو الإقامةُ، ويتدبّرَ الكذبَ المُفْضيَ إلى المثوى في جهنّم، ثم يرى رأيَه، فإنْ أبَى إلّا النّارَ فله ما اختارَ، ولا يلومَنَّ إلا نفسَهُ. وذهب ابنُ عاشورٍ إلى جواز أنْ يكون الاستفهامُ إنكاريًّا؛ ردًّا لاعتقادِهم أنّهم ناجون من النّار، الدّالِّ عليه تصميمُهُم على الإعراضِ عن التّدبُّر في دعوة القرآنِ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّرفيّة ﴿فِي﴾:

أهلُ الكفرِ تحيطُ بهم جهنَّمُ من كلِّ الجهاتِ

دلَّ التَّعبيرِ بكلمةِ ﴿فِي﴾، ومعناها الظّرْفيّةُ، في قولِه تعالَى: ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ على أنَّ جهنَّم ظرفٌ لأهل الكفرِ، وهم مظروفونَ فيها، وفي هذا دلالةٌ على أنَّ عذابَ جهنّمَ مُحيطٌ بهم مُتمكِّنٌ منهم؛ كما تمكَّنوا من معرفةِ الصِّدقِ الحقِّ؛ ولم يُؤمنوا به؛ على ما يُفْهِمُه القيدُ: ﴿إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾. وفيه إشارةٌ إلى كفايةِ عذابِ جهنّم للكافرين؛ فهي تكفي عقوبةً لكفرهم وتكذيبهم، وهذا المعنى مفهوم من سياق الآية[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 7، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 434.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 24/ 2.

سِرُّ التَّعبير بـ﴿جَهَنَّمَ﴾ دون غيرِها:

ذكَر القرآنُ أنّ مثوى الكافرينَ في جهنّم دون غيرها من الدّركات كالسّعير والحُطمة لِما فيها من معنَى التَّجهُّم والغضبِ والعُبوسِ؛ لأنَّ أصلها يدورُ على خِلافِ البَشاشَةِ والطَّلاقَةِ؛ فالنّارُ تلقَى هؤلاءِ الكافرينَ بالتَّجهُّم والعُبوسَةِ كما كانوا يَلقونَ الحقَّ وأهلَه؛ ألم يرفضوا الصِّدقَ من غيرِ تدبُّرٍ ولا توقُّفٍ، والرّافِضُ للشّيءِ من غير نظَرٍ فيه إنّما هو كارِه له، عابِسٌ في وجْهِ من يعتقدُه[1].

العـقـابُ من جِنْسِ ما فعلوا

دلالةُ تقديمِ ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ على اسم (ليس)

قولُه تعالى: ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ خبرُ: (ليس)، وموقعُه التّأخيرُ؛ لتقدُّمِه على اسمِها، والتّقديرُ: (أليس مثوى الكافرين في جهنَّم؟) وعلى هذا تكون ﴿مَثْوَى﴾ اسمَها المُؤخَّرَ، وحقُّه التّقديمُ، ونكتةُ التّقديم تَهْويلُ سوءِ مصيرِهم؛ حيثُ بيَّنَ القرآنُ من أوّلِ الأمْرِ أنّ مَثْواهُم في جهنّم؛ لأنَّ المَثْوَى إذا لم يكُنْ في مَقَرِّ العَذابِ فلا سوءَ فيه، ثُمَّ أفادَ هذا التّقديمُ قَصْرَ مَثْواهُم على جهنّم، أي: مَثْواهُم في جهنَّمَ ليْسَ في غيرِها؛ قصرَ صفة على موصوف؛ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا[2]. وفيه أيضًا: إسراعٌ بذِكْرِ ما يُؤْلِمُهُم كما أسْرَعوا بفِعْلِ ما يُؤلِمُ نبيَّنا مُحَمّدًا ﷺ وأهلَ الإيمان؛ برَفْضِ الصِّدْقِ من غيرِ تأمُّلٍ ولا تفكُّرٍ.

قـصـرُ مـثـوى المـشـركـين على جهنَّمَ

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿مَثْوَى﴾:

دلَّ التَّعبير بـ ﴿مَثْوَى﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوَى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ على وعيدِ اللّهِ تعالى لهؤلاء الظّالمينَ واحتقارهم والاستهزاء بهم والسُّخريةِ منهم، وذلك لأنَّ المثوى هو المنزلُ المُهيَّأُ للإقامة فيه على وجه اللُّزوم؛ لأنَّ الثَّواءَ إقامةٌ مع استقرارٍ؛ وهل يتأتّى في جهنّم إقامةٌ فضلًا عن الاستقرارِ فيها؟[3].

مَـــن رفَـــض الـصِّـدْقَ دونَ أدنى نـظَـرٍ كان مستهزءًا به

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (جهم)، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 446.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 435.
(3) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 531، والبقاعي، نظم الدُّرر: 6/ 446.

سِرُّ التَّنكيرِ في قوله: ﴿مَثۡوَى﴾:

تنكيرُ المثْوَى عَيْنُ التَّعْريفِ به

نظَم القرآنُ اسمَ (ليس): ﴿مَثۡوَى﴾ نكرةً؛ للدّلالةِ على تفظيعه وتبشيعه[1]. وتفخيمه وتهويلِ شأنه؛ أيْ: لهم في جهنم مثوًى بلَغ في ذلك مبلغًا لا يُمكِنُ معه أنْ يُعرَفَ، ويُعينُ على فِقْهِ دلالةِ التّنكيرِ تقديمُ: ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ على: ﴿مَثۡوَى﴾؛ فإنّ المُتلقّي يَتلقَّى: ﴿مَثۡوَى﴾؛ وقد علِم أنّه في جهنّم.

دلالةُ (أل) في قولِه: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾:

الظّاهرُ حَمْلُ أل على العهد الذِّكْريِّ

أل في قوله تعالى: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ تُحمل على العهد الذِّكْري، ويكون المُرادُ بهم الكاذبين والمُكذِّبين في قوله تعالى: ﴿۞فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓ﴾، و﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ٣٠﴾ [الزمر: 30]، والمذكورين في قوله: ﴿وَقِيلَ لِلظَّٰلِمِينَ ذُوقُواْ مَا كُنتُمۡ تَكۡسِبُونَ ٢٤﴾ [الزمر: 24]. وعلى هذا فالتّعبيرُ بـ ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾ من وضعِ المُظهَرِ موضعَ المُضمَرِ: (لهم). ويجوزُ أن تكون أل للجنس المفيدِ للاستغراق؛ فشمِل الكافرين المُتحدَّثَ عنهم شمولًا أوّليًّا، وتكونُ الجملةُ مفيدةً للتّذييلِ أيضًا، ويكون اقتضاءُ مصير الكافرين المُتحدَّثِ عنهم إلى النّار ثابتًا بشبْه الدّليل الذي يَعُمُّ مَصيرَ جميعِ الجِنْسِ الذي هُم من أصنافِه، فليس في الكلامِ إظهارٌ في مُقام الإضمارِ[2].

سِرُّ وضْعِ المُظْهَرِ: (الكافرين) موضِعَ المُضْمَرِ:

هؤلاءِ الظّالمونَ تعمَّدوا الكذبَ على اللهِ

كانَ الظّاهرُ أنْ يقول القرآنُ: (أليس في جهنم مثوى لهم)؛ برجوعِ الضّميرِ إلى الموصولِ في قوله تعالى: ﴿مِمَّن كَذَبَ﴾؛ حملًا على معناه مع تغليب جماعة الذُّكور على جماعة الإناث، وإنّما عدَل عن الضَّميرِ إلى الاسم الظّاهرِ للتّسجيل عليهم بالكفر، وفيه إشعارٌ بعلَّةِ الجزاءِ المُعدّ لهم.

---

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 435.

(2) الآلوسي، روح المعاني: 24/ 135، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 7.

سِرُّ التَّعبير بالكافرين دونَ المُكذِّبين وغيرها:

الكفرُ سَتْرٌ للحقِّ بعد بيانِه من اللهِ للنّاس

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالكافرين دون المُكذِّبين أوِ الكاذبين مع وجودِ ما يدلُّ عليه من فعل الكذب والتّكذيب، ولم يُعبِّر بالظّالمين مع وجود ما يدلُّ عليه بقولِه: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾؛ وإنّما عبَّر بما يُضيفُ معنًى جديدًا في حقِّ هؤلاءِ؛ وهو الذي يُميِّزُ ظلمَهم وكذبَهم عن ظُلْمِ غيرِهِم وكذبِهم؛ وهو الكفرُ؛ فظلمُهم وكذبُهم وتكذيبُهم من بابِ الكفر، وهذا كلُّه علّةٌ في المعنى لجعْلِ مثواهم يومَ القيامةِ في جهنّم؛ فهذا العدولُ فيه تعميمٌ وتعليلٌ بالوصفِ؛ مُبيِّنًا أنّ الكذبَ كفرٌ؛ أيّ: سترٌ للصِّدق، وإظهارٌ لِما لا حقيقةَ له، والتّكذيبُ بالصِّدْق كذلك، وأنَّ الواحدَ من هؤلاءِ كذبَ على اللّه؛ وهو يعلمُ أنّه يكذبُ، وكذَّبَ بالصِّدْق لحظةَ مجيئِه؛ وهو يعلمُ أنّه كاذِبٌ؛ لأنَّ الكفرَ سَتْرٌ للحقِّ بعد بيانِه[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾

الـدّلالـةُ على رسـوخِـهـم في الكفرِ وعراقتِهم فيه

نظَم القرآنُ وصْفَ هؤلاءِ الظّالمين الكاذبين المُكذِّبين بالكفرِ بالاسميّة؛ فقال: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ للدّلالةِ على رسوخِهم في الكفر وعراقتِهم فيه، وما ثبتَ للأعلى هنا (الكافرين) من كون مثواهم في جهنّم ثابتٌ للأدنى (الذين كفروا)؛ بقرينة التّعبيرِ عن كذبهم وتكذيبهم بما يُعَبَّرُ به عن أدنى مستوياتِ المعنى؛ وهو: ﴿كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ﴾؛ فكلٌّ من الكذبِ والتّكذيبِ فِعْلٌ من أفعالهم، وليس وصفًا ثابتًا لهم؛ وإنْ كان المُضيُّ دلَّ على تحقُّقِ وقوعِه.

بلاغةُ الحَمْلِ على لفظ (مَنْ) ومعناها:

الإفـرادُ أسلـوبُ عـدولٍ وحَـمْـلٍ باعتبارَيْنِ

حمَلَ القرآنُ (مَنْ) على اللّفظِ بالإفراد والتّذكيرِ في: ﴿كَذَبَ﴾ ﴿وَكَذَّبَ﴾ ﴿جَآءَهُۥٓ﴾، فأمّا الإفرادُ فيدعو كلَّ مُتلقٍّ إلى أنْ يُفكّر في قضيّة الإيمان والكفر؛ وهو ينظرُ إلى مآلِه ومصلحتِه هو؛ لأنَّ أحدًا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 446، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 234.

لن يُسأل نيابةً عنه، ولن يتحمَّل وزرَه؛ فكلُّ نفسٍ بما كسبت رهينةٌ. وفيه أيضًا إبلاغٌ في تقرير الحُكْم بالظُّلْم؛ فإنّه يشملُ كلَّ من يصدُق عليه الكذبُ المذكورُ فردًا فردًا؛ ووراء هذا من المعنى التَّنبيهُ على عِلْم اللّه المُطلقِ، وقُدرتِه التّامَّة.

وفي التّذكيرِ إشارةٌ إلى خطورةِ مقام الكذب على اللّه والتّكذيب بالصِّدْقِ، وصعوبتِه وشدّتِه؛ وذلك نظرًا إلى المُكذِّبِ، وإلى المُكذَّبِ به.

جهنّمُ جديرةٌ بهؤلاءِ الكافرين

وممّا يُذكرُ في سرِّ هذا العدول حمْلُه على المعنى بالجَمْعِ مع تغليبِ جماعةِ الذُّكورِ على جماعةِ الإناثِ في قوله تعالى: ﴿لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ مع التّنبيه على أنَّ الأصلَ أنْ يُقال: (لهم). فأمّا الجَمْعُ فيدلُّ على العذابِ الجماعيِّ، وتعريةِ بعضِهم أمامَ بعضٍ؛ لأنَّ بعضَهم كذب على بعضٍ، وصدَّق بعضُهم بعضًا. وأمّا التّذكيرُ فلتمكينِ معنَى شدّةِ العذابِ المُستفادةِ من جعل مثواهم في جهنّم، وما ثبت للأقوى الذُّكورِ يثبتُ للأضعف، وهم الإناثُ.

سِرُّ الاقتصارِ على الكذبِ على اللهِ والتَّكذيب بالصِّدق:

إنّما اقتصَر القرآنُ في التّعليل على أنّهم كذبوا على اللّهِ وكذَّبوا بالصّدق؛ لأنَّ هذيْنِ الكَذِبيْنِ هما جِماعُ ما أتوا به من الظُّلْمِ المذكورِ والذي يتَّسِعُ لأنواعٍ كثيرةٍ ارتكبوها[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

المثوى والمأوى والملجأ:

الملجأُ أعمُّ من المثوى والمأوى

المَثْوى اسمُ مكانٍ من الثَّواءِ، فيه معنى الإقامةِ الطّويلة على سبيل التَّمكُّن معَ الاستقرارِ، يؤكِّد هذا قولُه تعالى: ﴿ٱلنَّارُ مَثۡوَىٰكُمۡ خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ [الأنعام: 128]، وقولُه: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ﴾ [يوسف: 23]. والمأوى: اسمُ مكانٍ مُخصَّصٍ للإقامةِ فيه، وهو في الأصلِ مصدرُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 6.

أوَى يأوي أويًّا ومَأْوًى، واستعمالاتُه تُفْهِمُ أنَّ فيه معنى الوِقاية والحِماية، تقولُ: أوَى إلى كذا: انضمَّ إليه، وقال ﷻ: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ [الكهف: 10]. وقال تعالى: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود: 43]. والملجأُ: المكانُ؛ يُلْتَجَأُ إليهُ؛ فهو مُستغاثٌ به، وقد يكونُ أهلًا للإيواءِ والاستقرارِ، وقد لا يكونُ كذلك[1].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (لجأ)، والراغب، المفردات: (أوى)، و(ثوى).

﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ٣٣﴾

[الزمر: 33]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التّرغيبُ بعدَ التّرهيبِ

لمّا ذَكَرَ ﷻ في الآيةِ السّابقة الكاذبَ المُكذِّب وجنايتَه وعقوبته؛ ذَكَر في هذه الآية الصّادقَ المُصدَّق وبيَّن أنّه من أهل التّقوى، وفي هذا ترغيبٌ بعد ترهيبٍ.

ومنها: لمّا بيَّن تعالى في الآية السّابقة حالَ الظّالمين وتكذيبَهم، وهم من طَرَفَي الاختصام في قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ٣١﴾ [الزمر: 31]، وقَضَى في حقِّهم، مُتْبِعًا ذلك ببيانِ جزائِهم في الآخرة: شرَع في هذه الآيةِ في بيانِ حالِ أضدادِهم الذين يُخاصمونهم عندَ ربِّهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾: (وقي) كلمةٌ واحدةٌ تدلُّ على دَفْعِ شيءٍ عن شيءٍ بغيره؛ يُقال: وقَيْتُه أقيهِ وقْيًا، والوِقايةُ: ما يَقي الشّيءَ، واتَّقِ اللّهَ: توقَّهُ؛ أي: اجْعَلْ بينَك وبينَه كالوِقايةِ، والمقصودُ بهم في الآية: الذين اتَّقَوا جهنَّم بالصِّدْقِ؛ فجانَبوا الظُّلْمَ والكذِبَ والتَّكْذيبَ[2].

المَعْنى الإجْماليُّ:

الصِّدقُ والتّصديقُ بابُ الوصولِ إلى الجنَّةِ

تُخْبِرُ الآيةُ الكريمةُ بأنَّ الذي جاءَ بالصِّدْقِ والقولِ الحقِّ هو رسولُ اللّهِ ﷺ وخاتمُ أنبيائِهِ وإمامُ رسلِهِ والذين صدَّقوا به وآمنوا بأنّه من عند اللّهِ همُ المتّقون؛ لأنَّهم دون سواهم همُ الذين جانَبوا الظُّلْمَ والكذبَ والتّكذيبَ؛ فليس لجهنّم عليهم سبيلٌ، ولا لهُم فيها مَنْزِلٌ ولا مَقيلٌ؛ بلِ الجنّة منزلُهم ودارُ خلودِهم ونعيمِهم[3].

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 6/ 446.

(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (وقى)، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 447.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 447.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في قولِه: ﴿وَٱلَّذِى﴾

الدّلالةُ على أنَّ الجامعَ بينهما التَّضادُّ والمُغايَرَةُ

الواو في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ عاطفةٌ لهذه الجملة على ما بعدَ الفاءِ في قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ﴾ من باب عطفِ معنًى على معنًى، أو عطفِ مجموعِ أكثر من جملةٍ على مجموعِ أكثر من جملةٍ، وهذا شاهدٌ لِمَن قال بجواز عطفِ الخبر على الإنشاءِ، والعكسِ، والجامعُ بينهما التَّضادُّ، والمُغايرةُ بينهما بالإنشاءِ والخبرِ لتصويرِ كمال المغايرة بينهما عملًا وجزاءً[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالموصولِ:

كلُّ الشَّرَفِ والعظمةِ في طريقِ الصِّدْقِ

عبَّر القرآنُ بالموصولِ (الذي) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾؛ لتمييزِ المُحدَّثِ عنه بالصِّلةِ، وهو الرّسول ﷺ ولكمالِ مدْحِه، والتّرغيبِ في الاقتداءِ به؛ لأنَّ الأصلَ أنَّ الاسمَ الموصولَ لا يُؤتَى به إلّا وصلتُه جملةٌ من الكلام قد سبَق من السّامع علمٌ بها، وأمرٌ قد عرَفه للموصولِ. وللإيماءِ إلى وجهِ بناءِ الخبرِ؛ لا سيما وقد سُبِقت الآيةُ بأضداد ذلك كلِّه.

سِرُّ التّعبيرِ بالمجيءِ دونَ الإتيانِ:

المُصطَفى من النّاس من شأنِه أنْ يُعاني

عبَّر القرآنُ بالمجيءِ دونَ الإتيانِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾؛ للتّنبيهِ على شرَف هذا المقام وعظمتِه، وأنَّه لا يقومُ به إلّا من اصطفاهم اللّه من الرُّسُلِ عليهم السلام وفي مقدّمتهم رسولُنا ﷺ، وللدّلالة على شدّة ما يَلْقاهُ من مشقَّةٍ وتعبٍ في سبيلِ تبليغِ رسالةِ ربِّه؛ لأنَّ المجيءَ إتيانٌ فيه صعوبةٌ. وفي المجيء "إشارةٌ إلى بذلِ الجهدِ بالذَّهابِ والخروجِ للبحثِ عن الشّيءِ، ثمّ بعد ذلك يصلُ إليه كأنَّه ذهبَ وخرجَ وبحث عنه، ثمّ جاءَ به، وفي هذا إشارةٌ إلى

(1) الشنقيطي، العذب النمير: 5/ 89.

أنَّ للصِّدْق مكامِنَ ومطارِحَ بعيدةً تَصِلُ إليها عقولُ العاشقين للحقيقةِ، والتّائقين إليها، وأنّهم أهلُ رحلةٍ وأهلُ أسفارٍ؛ وإنْ كانوا لم يبرحوا الحَضْرَة"[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمجيء ماضيا:

الصِّدقُ مُلازمٌ له ﷺ ولما جاءَ بِهِ

لَمّا كانَ مجيءُ رسولِنا محمّدٍ ﷺ بالصِّدْقِ الذي هو القرآنُ قد وقَع؛ نظَم القرآنُ المجيءَ فعلًا ماضيًا؛ للدَّلالة على تحقُّق المجيء، وإنْ كان لبعضه في هذا التّوقيتِ، حيث نزَّلَ مجيئَه ببعضِه منزلةَ مجيئِه به كلِّه.

دلالةُ الباءِ في قولِه: ﴿بِٱلصِّدۡقِ﴾

بيانُ العَلاقَةِ بينَ الرَّسولِ والرِّسالةِ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾: واسطةٌ بينَ فِعْلِ المجيءِ والصِّدْقِ؛ فهي لتعدية فِعْلِ المجيءِ اللّازم، وإيصالِه إلى المفعول به. ومعنَى الإلصاقِ والاختلاطِ لا يُفارِقُها؛ فأوْحَتِ الباءُ بشِدّة حِرْصِ الجائي على تبليغِ الصِّدْقِ، وإبراز أهميّتِهِ وإظهارِه، والمُراد به القرآنُ.

بلاغةُ العطفِ في قولِهِ: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾

الجمعُ بين الصِّدْقِ والتّصديق به سبيلٌ للتّقوى

قولُه تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾: معطوفٌ على قوله تعالى: (الذي جاء بالصدق)؛ عَطْفَ جملةِ موصولٍ كاملةٍ على جملةِ موصولٍ كاملةٍ، فقولُه: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ صلةُ موصولٍ محذوفٍ، تقديرُه: (والذي صدَّق به)؛ لأنَّ المُصدِّقَ غيرُ الذي جاءَ بالصِّدْق، والقرينةُ ظاهرةٌ؛ لأنَّ الذي صدَّقَ غيرُ الذي جاءَ بالصِّدْق؛ فهو ليس من عطفِ صلة على صلةٍ. وسِرُّ الوصلِ ما بينهما من التَّوسُّط بين الكماليْنِ؛ فكلٌّ منهما خبريَّةٌ لفظًا ومعنًى، وحسَّنَ العطفَ بينهما كونُ كلٍّ منهما موصولًا وصلةً[2].

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 237.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 7.

دلالةُ التَّرتيبِ في الآية:

مَن كذَب على رسولِ اللهِ كمَن كذَبَ على اللهِ

جاءَ ترتيبُ الموصولَيْنِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ على الأصلِ والظاهرِ؛ لأنّ الرَّسولَ قائدٌ ومُتَّبَعٌ؛ لأنَّه مُبلِّغٌ عن اللّهِ، وأمّا المُصدِّقُ فتابعٌ له. وهذا التّرتيبُ يتناغَى مع ترتيب ﴿مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ﴾ في الآية السّابقةِ؛ لأنَّ الرَّسولَ مُشرِّعٌ عن اللّه؛ لأنَّه محلُّ وحْيِه تعالى؛ فمَن كذَبَ على رسولِ اللّهِ كمَن كذب على اللّه، وأمّا التَّقابُلُ بين ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ و﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ﴾ فظاهرٌ.

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾:

لا يُكتفى بصدقِك فحسب؛ بل لا بدَّ من تصديقِكَ للصّادقين

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بجملةِ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ بعد قولِه: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾؛ للدّلالةِ على أنّه لا يُكتفى بصدقِك فحسبُ؛ بل لا بدَّ من صدقِك وتصديقِكَ للصّادقين؛ لأنّ كثيرًا من النّاسِ يصدقُ؛ ولكنَّه لا يصدّقُ غيره، وذلك لكبرٍ أو حسدٍ أو غيرِ ذلك. وفيه مدحٌ لِمَنْ جمعَ بينهما.

بلاغةُ الحذفِ في قولِه: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾:

قد تعلو رُتبةُ المُصدِّقِ إلى حدِّ القُربِ من رُتبةِ الجائي بالصِّدْقِ

في قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ اسمٌ موصولٌ محذوفٌ؛ أيْ: والذي صدَّقَ به، وقرينةُ الحذف ظاهرةٌ؛ لأنَّ الذى صدَّق غيرُ الذي جاء بالصِّدق، ويكون عطفُ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ على ﴿جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾ عَطْفَ صلةٍ على صلة؛ وفي هذا دلالةٌ على أنَّ الذي جاءَ بالصِّدْقِ مُصَدِّقٌ بالصِّدْقِ، وهذا المعنى - وإنْ كان ظاهرًا ومعلومًا لا ريبَ فيه - إلّا أنّه ذو أهميَّةٍ في مسألةِ وجوبِ إخلاصِ العبادةِ للّهِ تعالى؛ لأنَّه يعني أنَّ الذي جاءَ بالصِّدقِ أوّلُ وأكملُ من يعملُ بمُقْتَضَى ذلك الصِّدْقِ.

قربُ رُتبةِ الذي صدَّقَ به من الذي جاءَ بالصِّدْقِ

وفي الحذفِ أيضًا إشارةٌ إلى قُرْبِ رُتْبةِ الذي صدَّقَ به من الذي جاءَ بالصِّدقِ؛ لأنَّ كلًّا منهما لم يكذِبْ على اللّهِ وانقادَ له، ولأنَّ كلًّا منهما يُلاقي مشقَّةً بل مشقّاتٍ في سبيلِ الإيمانِ بذلك الصِّدْقِ

الذي هو القرآنُ الحكيمُ؛ وفيه ترغيبٌ عظيمٌ واضحٌ في التّصديقِ بالقرآنِ، وترهيبٌ شديدٌ واضحٌ من التَّكْذيبِ بالصِّدقِ مع ما في الحذفِ من فضيلةِ الإيجازِ، والحثِّ على تأمُّلِ المعنى الذي جرَى في حيِّزِه الحذفُ.

سِرُّ التّعبيرِ بقولِهِ: ﴿وَصَدَّقَ﴾ على صيغة (فَعَّل)

القرآنُ الصِّدقُ مِـن شـأنِـه أنْ يُخرِّجَ صِدّيقينَ

آثر القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالفعلِ ﴿وَصَدَّقَ﴾ على وزن (فعَّل) دون الفعلِ المُجرَّدِ (صدَق)؛ لأنَّه يحمل معنى التَّصديق من الأتباع؛ لأنَّهم همُ الذين صدقوا الرَّسول واتّبعوا ما أُنزل معه من القرآن؛ لأنّه السَّبب في وصفه بالصِّدق؛ لأنّه معجزةٌ، والمعجزة تصديقٌ من اللّه لرسوله، ومن باب التَّناسب مع الآيةِ السّابقة في قوله: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ﴾، حيث جاء على وزن (فَعَّل).

سِرُّ إيثارِ التّصديقِ على الإيمان:

المُـصـدِّقُ أبْـصَـر في القرآنِ بقوَّةِ الصِّدْقِ ودلائلِه

في إيثارِ التَّصديقِ على الإيمانِ في قولِه: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ دون أن يقول: (وآمَنَ به) ونحْوِه إشارةٌ إلى أنَّ المُصدِّقَ أبْصَرَ في القرآنِ بقوَّةِ الصِّدْقِ ودلائله، ويُؤكِّد هذا أنَّ السّورةَ قامت على بيان الأدلّةِ الموجِبةِ للإيمانِ والدَّعوةِ إلى إخلاصِ العبادةِ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي:

التَّصْديقُ مقامٌ عَلِيٌّ شريفٌ

لَمّا كان المقامُ لبيانِ حالِ الفريقِ المؤمنِ في ساحةِ الاختصام عندَ الرَّبِّ ﷻ، وكانَ المحكومُ عليه من الأعمالِ من شأنِه أنْ يكونَ قد كانَ نظَم القرآنُ معنَى التَّصديقِ فعلًا ماضيًا في قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾. ولم يَقُلْ تعالى: (والمُصدِّقُ به)؛ للإشارة إلى أنَّ أدنى درجاتِ التَّصديقِ رُتْبَةٌ عَليَّةٌ؛ يكون بها صاحبُها من الكُمَّلِ المُتَّقِينَ.

سِرُّ تعديَةِ الفعلِ ﴿وَصَدَّقَ﴾ بالباءِ:

فِعْلُ التَّصديقِ يتعدَّى بنفسِه، وإنّما عدّاه القرآنُ بالباء؛ للتَّنْبيه

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 28.

على أنَّ هذا التّصديقَ مبنيٌّ على تأمُّلٍ ونظَرٍ وتفكُّرٍ وتدبُّرٍ في القرآنِ؛ لأنَّ مِثْلَ ما يُسَمَّى الصِّدْقَ يُتدبَّرُ؛ بخلاف ما ذُكرَ في الآيةِ السّابقةِ في قولِهِ: ﴿إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ﴾ الذي دلَّ على تكذيبِ الصِّدْقِ في أوَّلِ مجيئِه من غيرِ تدبُّرٍ فيه ولا تأمُّلٍ؛ فهل يستويانِ مآلًا؟!

لا يستوي من كذَّبَ بالصِّدقِ ومَن صدَّقَ بِهِ

ومِمّا يُذكرُ في سِرِّ التَّعبيرِ بالباءِ أنّها لمّا دلَّتْ مع التّعديةِ على تأمُّلِ المُصدِّقِ في القرآنِ؛ دلَّتِ الباءُ - التي لا يُفارِقُها معنى الإلصاقِ والاختلاطِ - على طولِ التَّأمُّلِ والنَّظَرِ، وعُمْقِ المُتأمَّلِ فيه وكثرته وكمالِ جمالِه وجلالِه، وأنَّ المُصدِّقَ لم يُصدِّقْ به إلّا بعدَ أنْ اختلطَتْ معانيه بنفسِهِ وقلبِهِ وفؤادِهِ وفطرتِهِ وعقلِهِ؛ ولهذا عبَّر القرآن بـ ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾.

التّصديقُ بالقرآنِ بعدَ اختلاطِ معانيه بالنَّفسِ

مرجعُ الضّميرِ في قولِهِ: ﴿بِهِۦٓ﴾:

الضّميرُ المجرورُ محلًّا في قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ يجوزُ أنْ يعودَ على (الصدق) في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِي جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ﴾، ويجوزُ أنْ يعود على (الذي)، والتّصديقُ بكليهما مُتلازِمٌ[1]. والظّاهرُ عوْدُه على (الصدق)؛ ليُقابِلَ قولَه تعالى: ﴿وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ﴾، والمُراد به: القرآنُ.

الإيمانُ بالرّسولِ وما أُرسلَ به من القرآنِ متلازمان

دلالةُ إفرادِ الضَّميرِ في ﴿بِهِۦٓ﴾:

أُفردَ الضَّميرُ في قولِه: ﴿بِهِۦٓ﴾ إشارةً إلى قلّة الموصوفِ بهذا الوصفِ من الصِّدقِ، وهذا الفريق هو الرّسل وأتباعُهم، ولذلك حصر التَّقوى فيهم بقوله: ﴿هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[2].

دلالةُ التَّعريفِ باسْمِ الإشارةِ للبعيد:

عبَّر القرآنُ الكريمُ باسمِ الإشارةِ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾؛ للدّلالة على أنَّ المقصودَ به في الآية جديرٌ بما يأتي بعد اسمِ الإشارة؛ لاتِّصافِه بالذي جاء قبلَه. وللعنايةِ

أهلُ الصِدْقِ أهلُ الرُّتبةِ العاليةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 8.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 447.

بتمييزِهم أكملَ تمييز. والبُعْدُ فيه دالٌّ على بُعْد المكانةِ؛ فهم أصحابُ الرُّتْبَة في الدُّنيا والدّين والآخرة[1].

بلاغةُ أسلوبِ القصر:

التّقوى مقصورةٌ على أهلِ الصِّدْقِ

تظهرُ بلاغةُ القصرِ في قولِهِ تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾، وذلك بضمير الفَصْل ﴿هُمُ﴾ الذي يدلُّ على القَصْرِ، وكذلك تعريفُ الطَّرفيْن: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ ﴿ٱلۡمُتَّقُونَ﴾؛ مع دلالةِ كلٍّ من الطّرفيْن عليه على حِدَةٍ، وهو قصرُ جنسِ المتّقين على ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾؛ قصْرَ صفة على موصوف قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ لأنّه لا مُتَّقيَ يومئذٍ غيرُ رسول الله ﷺ وأصحابه، وكلُّهُم مُتَّقون؛ لأنَ المؤمنين بالنّبيّ ﷺ لَمّا أشرقت على نفوسهم أنوارُه ﷺ تطهّرت ضمائرُهم من كلِّ سيِّئة؛ فكانوا محظوظين من اللّه بالتّقوى، والمعنى: أولئك همُ الذين تحقَّقَ فيهم ما أُريدَ من إنزال القرآن الذي أُشير إليه في قوله تعالى: ﴿لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ٢٨﴾ [الزُّمر: 28][2].

سِرُّ التّعبيرِ بالتَّقوى دون غيرِها في قوله: ﴿ٱلۡمُتَّقُونَ﴾

أحوالُ كلِّ فريقٍ حاضرةٌ في الحديثِ عن ضِدِّهِ

وصَف القرآنُ الكريمُ الموصولَ الذي جاء بالصّدق وصدّق به بالتَّقْوَى: ﴿هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾؛ لأنَّ إثباتَ هذا المعنى لهم ينفي عنهم ما ثبَت لأضدادهم في الآية السّابقة؛ من الظُّلْم والكذبِ والتّكذيبِ؛ فإنَّ كلمة: ﴿ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ ناظرةٌ إلى جملة ﴿فِى جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ﴾؛ فإذا كان أهلُ الكذبِ لا مثوَى لهم إلّا جهنّم؛ فإنَّ طريقَ الوِقاية هو الصِّدْق؛ فهو الدَّواءُ النّاجِعُ في كلِّ الأجيال، ووراءَ هذا من المعنى شدّةُ التّرهيبِ مِمّا سلكَه الكافرونَ من الظُّلْم والكذبِ والتَّكذيبِ. ولا يجوز التّعبيرُ بـ (المفلحون)؛ لأنَّ هذا المعنى لا يلتئمُ مع قوله:

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 6/ 447، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 8، وأبو موسى، الزّمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 238.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 447، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 8، وأبو موسى، الزّمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 238.

﴿فِي جَهَنَّمَ مَثْوَى﴾، ولو عُبِّر به لضاع المعنى البيانيُّ الذي يَضيعُ معَه رونقُ البلاغةِ[1].

بلاغةُ التَّعْريفِ بأل: ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾:

بلوغُ درجةِ الكمالِ في التَّقوى

ورَد وصفُ التَقوى مُعرَّفًا بأل: ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ دلالةً على معنى الكمالِ؛ أيِ: (أولئك هم الكاملون في التَّقْوى)؛ لبيانِ عظيمِ المجاهدةِ في تبليغِ الصِّدقِ، وفي التَّصديقِ بهِ؛ ترغيبًا في التَّأسّي بهم، وللإيماءِ إلى كمالِ وقوعِ أضدادِهِم في الكذبِ والتّكذيبِ والظُّلْم.

سِرُّ حذفِ مفعولِ اسمِ الفاعلِ: ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾:

يُمدحُ أهلُ التَّقْوى بكمالِ تقواهم

لم يَذْكُرِ القرآنُ مفعولًا لاسمِ الفاعلِ ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ الذي يعملُ عمَلَ الفِعْلِ؛ تنزيلًا لِما في معنى الفعلِ المُتعدّي منزلةَ اللّازمِ؛ لقصدِ إثباتِ المعنى في نفسِه لهم من غيرِ تعرُّضٍ لذِكْرِ مفعولٍ؛ كما تقولُ: (فلانٌ يَحُلُّ ويَعْقِدُ، ويأمُرُ وينهى)؛ أيِ: صار إليه الحِلُّ والعقدُ والأمرُ والنَّهيُ، وصار بحيثُ يكونُ منه حِلٌّ وعَقْدٌ وأمرٌ ونهيٌ؛ لأنَّ الغرضَ مدحُهُم بكونِ التَّقْوى من ديدنِهِم؛ فهم يتَّقون كلَّ شيءٍ يُؤدّي إلى غضبِ اللهِ، وعذابِ اللهِ، ووراء هذا من المعنى أنَّ الوقايةَ من الكذب على اللهِ والتّكذيبِ بالصِّدقِ تحتاجُ إلى تقوًى عظيمةٍ، وأنَّ من اتَّقى هذيْنِ فقد صار كاملًا في التَّقْوَى. ونتَج عن الحذفِ لغرضٍ معنويٍّ توافُقُ الفواصلِ.

دلالةُ الاسميّة ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾:

في الاسميّةِ بُشْرَى ثُبوتِ الأتْباعِ على التّقوى الكاملةِ

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ جملةٌ اسميَّة؛ تدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوامِ، واسميَّتُها: نتاجُ أغراضٍ معنويَّةٍ اقتَضَتْ عناصرُها الاسميَّةَ، وهي مفيدةٌ الحُكْمَ على أهلِ الصِّدقِ بالتّقوى والوقاية على جهةِ الاستمرارِ والدَّوامِ والثُّبوتِ؛ وهذا إبلاغٌ في مدحِهِم، وترغيبٌ في التّأسّي بهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 447، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 239.

سِرُّ الإفرادِ والجمعِ في الآيةِ:

الصِّدْقُ في نفسِه عظيمٌ؛ فكذلك من يتعلَّقُ به

أفردَ القرآنُ عائدَ الموصول في قوله: ﴿وَصَدَّقَ﴾؛ رَعْيًا للفظ (الذي)؛ وذلك كلُّه من الإيجازِ، والحاصلُ أنَّ الإفرادَ هنا في ﴿وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ على خلاف الأصل، وأمّا في قوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ﴾ فعلى الأصل؛ لكون المُرادِ به نبيَّنا محمّدًا ﷺ؛ لكنَّ الموصول في قوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾ عامٌّ يشملُ كلَّ رسولٍ، وكلَّ مُتَّبِعٍ له؛ صدَّقَ بما جاءَ به؛ ولعلَّ القرآنَ أفرَدَ الضّميرَ؛ إشارةً إلى قلَّة الموصوفِ بهذا الوصفِ من الصِّدْقِ؛ وهذا الفريقُ هو الرُّسُل وأتْباعُهُم؛ ولذلك حصَر التَّقْوى فيهم. وفي الجمع في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾: إشارةٌ إلى عَظَمَتِهم؛ وإنْ كانوا قليلًا. وفي كونِ: ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ جمعَ قِلَّةٍ إشارةٌ إلى تميُّزِهم واصطفائِهم؛ شأنَ كلِّ قليلٍ لا سيّما في مقامِ المدحِ والثّناءِ[1].

بلاغةُ الاحتباك في الآية وسابقتِها:

الاحتباكُ سبيلٌ للموازنةِ بين المعاني؛ لأنَّ قِوامَه الحذفُ والذِّكْرُ

اشتملت هذه الآيةُ والآيةُ التي قبْلَها على ما يُسمَّى بفنِّ الاحتباكِ؛ فقد ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ المثوى في جهنّم دليلًا على حذفِ ضدِّه ثانيًا في هذه الآيةِ. وذكرت الآيةُ الثّانيةُ الاتِّقاءَ؛ دليلًا على حذفِ ضدِّه في الآية الأولى؛ وسِرُّ ذلكَ: أنَّ القرآن ذكَر أنكأ ما للمُجْرِم من الكفر وسوءِ الجزاءِ، وأسَرَّ ما للمسلم من قصْر التَّقْوى عليه، وذكَر أحَبَّ جزائه إليه، والإشارةَ إلى عراقته في الإحسان. وفي الآيتيْن احتباكٌ آخَرُ؛ ذكَر القرآنُ الكذبَ والتّكذيبَ أوّلًا؛ دليلًا على الصِّدْقِ والتّصديق ثانيًا، والاتِّقاءَ وجزاءَه وما يتْبَعُه ثانيًا؛ دليلًا على ضِدِّه أوّلًا؛ وسِرُّه أنَّه ذَكَر في شِقِّ المُسيءِ أنكأ ما يكونُ من الكذب والتّكذيبِ في أقبح مواضعه، ولا سيّما عند العرب، وأسَرَّ ما يكون في شِقِّ المُحسِن من استقامة الطَّبْع وحُسْنِ الجزاءِ[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 447، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 8.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 447.

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤﴾ [الزُّمر: 34]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الآيـةُ السّابقةُ تُـصـوِّرُ النَّجاةَ من النّار، وهذه تُـصـوِّرُ الـفـوزَ بالجنَّةِ

لَمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ بيانَ ما لهم في الدّنيا من محاسنِ الأعمالِ والثّناءِ عليهم ومدحتِهم على تقواهم في قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾؛ ذكرتْ هذه الآيةُ ما لهم في الآخرةِ من حُسنِ المآب بقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾.

ومنها: لَمّا بيَّن تعالى حالَ الفريقِ الصّادقِ والمُصدِّقِ الذي هو ضِدُّ الفريقِ الكاذِبِ والمُكذِّبِ، وأثبتَ له عكسَ ما أثبتَه لهذا الفريقِ؛ مُبيِّنًا ما له من محاسن الأعمال؛ بيَّن في هذه الآية الجزاءَ المُعدَّ لهم في الآخرة من حُسْنِ المآبِ؛ كما أعقبَ بيانَ حالِ الفريقِ الأوّلِ بذِكْرِ جزائِه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾: (حسن) أصلٌ واحدٌ؛ يدلُّ على ما هو خلافُ القُبْحُ؛ يُقال: رجلٌ حَسَنٌ، وامرأةٌ حَسْناءُ وحُسّانةٌ؛ فالحُسْنُ عبارةٌ عن كلِّ مُبْهِجٍ مرغوبٍ فيه؛ ولذلك كانَ الإحسانُ أعمَّ من الإنعام، وفوقَ العَدْلِ؛ وذلك أنَّ العدل أنْ يُعْطِيَ ما عليه، ويأخذَ ما له، والإحسانُ أنْ يُعْطِيَ أكثرَ مِمّا عليه، وأنْ يأخذَ أقلَّ مِمّا لهُ؛ ولذلك عظَّمَ اللّهُ ثوابَ المُحْسِنينَ، والمقصودُ بـ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ في الآية: الذين أحسنوا أعمالَهُم، فاستحقّوا الجزاءَ الحسَنَ[2].

---

(1) أبو السُّعود، إرشاد العقل السَّليم: 5/ 599، وأبو موسى، الزُّمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 239.

(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللُّغة، والأصفهاني، المُفردات: (حسن)، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 6/ 600.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ثوابُ اللهِ لأهلِ الصِّدقِ

تُقرِّرُ الآيةُ الكريمةُ جزاءَ أهلِ الصِّدْقِ الذين جاءوا به، والذين صدَّقوا به؛ وهو أنَّ اللّٰه القادرَ الكريمَ المُنْعِمَ المُحْسِنَ يُحقِّقُ لهم كلَّ ما يَشْتَهونه ويُحِبّونه فيريدونه ويشاءونه؛ لأنّه يُعامِلُهم معاملةَ المُحْسِنِ إليهم اللّطيفِ بهِم؛ لأنّهم أهلُ إحسانٍ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ جملة ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾:

مدحُهُم على تقواهُم أثار في النَّفس سؤالًا عن ثوابِهم

فُصِلت جملة: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها مستأنفةٌ استئنافًا بيانيًّا؛ لأنّهم لَمّا قُصِر عليهم جنسُ المُتَّقين، والتَّقوى في أعلى صورها: كان ذلك مُشْعِرًا بمزيَّة عظيمةٍ؛ فكان يقتضي أنْ يسألَ السّامِعُ عن جزاءِ هذه المَزيّة؛ فبُيِّن له أنّ لهم ما يشاءون عند ربهم(1).

دلالةُ اللّامِ في قولِه: ﴿لَهُم﴾

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لَهُم﴾ لامُ الاختصاصِ، وهي تمهيدٌ للقَصْرِ، وتُفيد التَّأكيدَ على كمال تفوُّقِهم وتميُّزِهم في جزائِهم كما تميَّزوا وتفوَّقوا في أعمالهم.

بلاغَةُ بناءِ حركةِ المعنَى في الآيةِ على الجمعيَّةِ:

تصويرُ حالةِ النَّعيمِ الجماعيِّ

ذكرتِ الآيةُ الكريمةُ جزاءَ أهلِ الصِّدْقِ في صيغةِ الجمعيَّةِ التي تضُمُّ الرُّسُلَ وأتْباعَهُم؛ فدلَّ ذلك على إرادةِ بيانِ النَّعيم الجماعيِّ الذي يكونُ فيه هؤلاءِ، وأنَّ الرُّسُلَ تتمتَّعُ برؤيةِ أهلِ الحقِّ والتَّصديقِ مُنعَّمينَ معهم في الجِنانِ، وأنَّ الأتْباعَ يتمتَّعون بمشاهدةِ من اتَّبَعوهم، واهتدوا بهم، فتزدادُ فرحتُهم، وتعلو سعادتُهم؛ فلا يَكاد أحدٌ منهم ينشغلُ بغيرِ النَّعيم؛ لأنَّ الآية السّابقة أبرزت

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 447، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 8.

عملًا مشتركًا بينهم؛ وهو أنَّ الرُّسُل جاءوا بالصِّدْقِ، وبلَّغوه الأتباعَ وغيرهم، وأنَّ المُصدِّقينَ صدَّقوا به، وتلقَّوْه بالقَبول والاستحسانِ، والدِّفاعِ عنه.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿لَهُم﴾:

انفردوا بالعمل؛ فانفردوا بجزائِه

تقدَّم ﴿لَهُم﴾ على المبتدأ في قوله تعالى: ﴿مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾؛ لأنَّ ﴿مَّا﴾ مبتدأٌ مُؤَخَّرٌ قُدِّم خبرُه من باب التّشويق إلى المُؤخَّرِ؛ لِعظَمِه في بابِه. وفيه أيضًا: دلالةُ قَصرِ المُؤخَّرِ على المُقدَّم؛ أيْ: ليس تحقُّقُ ما تشاؤه النَّفْسُ عندَ الرَّبِّ في الجِنانِ إلّا لهم؛ فهو من باب قصرِ الصِّفة على الموصوفِ قصرًا حقيقيًّا، وهذا يعني عظيمَ قُربِهم من ربِّهم؛ كما كانوا قريبينَ منه بالصِّدْقِ والتَّصديقِ في الدُّنيا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالموصوليَّةِ: ﴿مَّا﴾:

على قدرِ المَشقَّةِ يكونُ الثَّوابُ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿مَّا﴾ الموصوليّة، وصلتُها قوله: ﴿يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾، وذلك لما فيها من العموم الذي يدلُّ عليه حذفُ العائد، وما تشاؤه النَّفْسُ الإنسانيَّةُ وهيَ في دارِ النَّعيم لا حدَّ لهُ، ولا يُدرَك كُنْهُه الآنَ؛ فصوَّرَ القرآنُ فخامتَه وعظمتَه كمًّا وكيفًا بـ ﴿مَّا﴾ التي يكتنفُها الغموضُ. ولمّا كانَ من شأنِ الصِّلةِ أنْ تكونَ معلومةً من قبلُ للسّامعِ؛ حتّى يُخاطَبَ بالموصولِ، أو يُسلِّم بها عند سماعِها؛ دلَّ ذلك هنا على تميُّزِهم بالصّلة إعلامًا بهم؛ لكمال مدحِهم.

سِرُّ التَّعبيرِ بالمشيئةِ في: ﴿يَشَآءُونَ﴾

أهلُ الصِّدْقِ لهم في الجنَّةِ كلُّ ما يشاءون

عبَّر القرآنُ بالمشيئة مُسندةً إلى أهل الصِّدْقِ وهم في الجِنانِ؛ للدّلالة على أنَّ لهم فيها ما تطلبُه وتشتهيه نفوسُهم؛ قال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ﴾ [الزُّخرف: 71]. والمشيئةُ موضِعُها النَّفْسُ، وكأنَّ ما يخطر فيها بمثابة إيجادِ اللّه لها، ومشيئةُ الإنسان إنّما تكونُ بعد مشيئةِ اللّهِ، واللّهُ ﷻ يُحيط بكلّ ما تشاؤه نفوسُ عبادِه

الذين أكرمهم برضوانه، والذين هم أهلُ الصِّدق، والذين شأنُهم الصِّدقُ، وكلُّ ما يخطر ببالِ أيِّ واحدٍ فيهم يجدُه بينَ يديه، وهذا عجيبٌ وهو فوقَ كلِّ خيالٍ[1].

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَشَآءُونَ﴾:

تجدُّدُ التّشهّي واستمرارُه للنَّفسِ المؤمنة

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالمضارع ﴿يَشَآءُونَ﴾؛ لدلالته على التَّكرارِ والاستمرار، وذلك لأنَّه من المعلوم أنَّ ما تشاءُه النَّفْسُ الواحدةُ وهي في الدُّنيا كثيرٌ جدًّا، وأنَّ ما تشاءُه وهيَ في الجنَّةِ أكثرُ؛ لأنّ الآخرة دارُ الجزاءِ بلا عملٍ، ثمّ ما تشاءُه النُّفوسُ التي فيها أكثرُ وأكثرُ، وما دامَ كونُ النَّفْسِ هي التي تشتهي وتشاءُ؛ فلن يكون منها ذلك في وقتٍ واحدٍ؛ بل يكونُ في وقتٍ بعدَ وقتٍ، فصوَّر القرآنُ ذلك كلَّه بنَظْمِ معنَى المشيئةِ فعلًا مضارعًا.

سِرُّ حذفِ عائدِ الموصولِ:

إفادةُ العمومِ وسُرعةِ الحصولِ على ما يشاءون

حذفَ القرآنُ عائدَ الموصولِ في الصِّلة في قوله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾، والتّقديرُ: (لهم ما يشاءونه عند ربهم)؛ للإشارةِ إلى معنى عمومِه؛ وهذا تمكينٌ لدلالة الموصول. وللتّنبيهِ على معنَى سرعة حصولِ ما يشاءون؛ وأنَّ ذلك من النَّعيم؛ فما في الجِنانِ من أنواعِ النَّعيم إنّما يتحقَّقُ لأهلِها بمُجرَّدِ خطورِه في النَّفْسِ، وسببُ كلِّ هذا الصِّدْقُ، والتَّصديقُ بالصِّدْقِ.

دلالةُ التّعبيرِ بقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾

لأهلِ الصِّدقِ المنزلةُ العاليةُ عند ربِّهم

دلَّ التَّعبيرُ بقولِه: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ على أنَّ لأهلِ الصِّدْقِ ما يشاؤونه من جَلْبِ المنافعِ ودَفْعِ المَضارِّ في الآخرةِ، لا في الجنّة فحسبُ؛ لِما أنّ بعضَ ما يطلبونه من تكفير السّيّئاتِ والأمنِ من الفَزَعِ الأكبرِ وسائرِ أهوالِ القيامة إنّما يقَع قبل دخولِ الجنّة. وأفاد أيضًا ما يُسبغه

---

(1) الراغب، المفردات: (شيء)، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 240.

تعالى عليهم؛ من التّكريم والرِّضى؛ فهو سبحانه لم يَقُلْ: (لهم في الجنة ما يشاؤون)؛ وإنّما قال: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾؛ فأَفْهَمَ أنَّ الذي يشاؤونه يَفِدُ عليهم من عند ربِّهم، وأنّ ربَّهم يفتحُ لهم أبوابَ خزائنِه؛ إكرامًا لهُم، وأنَّ اللّٰه قدِ ادَّخر لهم ما يبتغونه؛ وهذا القيدُ من صيغ الالتزام، ووعْدِ الإيجاب، يُقال: لك عندي كذا؛ أيّ: ألتزمُ لك بكذا[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ:

مزيدُ إنعامٍ وإحسانٍ

عَبَّر القرآنُ بوَصْفِ الرَّبِّ الذي أُضيفَتْ إليهِ العِنْديَّةُ في قوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ دونَ اسمِ الجلالةِ؛ إيماءً إلى أنّه تعالى يُعطيهم عطاءَ الرُّبوبيّة والإيثارِ بالخيرِ؛ وتمهيدًا لوصفِهم بالإحسانِ؛ ليتطابَقَ العملُ والجزاءُ[2].

دلالةُ الإضافةِ: ﴿رَبِّهِمۡۚ﴾:

كمالُ العنايةِ الإلهيّةِ بهم

أضاف القرآنُ وصفَ الرَّبِّ إلى ضميرِ المُتّقينَ أهلِ الصِّدْقِ في قوله تعالى: ﴿رَبِّهِمۡۚ﴾؛ تنبيهًا على أنَّه الذي ربّاهُم وأخَذ بأيديهم وألْهَمَهُم حُبَّ الصِّدْق فصدَقوا وصدَّقوا؛ فلَمّا سلَّموا له في الأولى ما يشاءُ؛ سلَّم لهم في الأخرى ما يشاؤون[3].

سِرُّ فصلِ جملةِ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

جوابٌ لعِلَّةِ العطاءِ الذي لا حِسابَ له

فُصلتْ جملةُ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ عمّا قبلها؛ لأنَّها جاءت جوابًا عن علَّة الجزاءِ في قولِه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾؛ لأنَّه لّمّا كانَ ما أوتيَه أهلُ الصِّدْقِ من الجزاء العظيم لِما فيه من السَّعة؛ فهو ليس محدودًا، وليس وقْفًا على إرادة أحدٍ؛ وإنّما هو مُتَّسِعٌ باتِّساعِ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 599 - 600، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 9، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 240 - 241.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 8.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 447، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 8، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 241.

مشيئتِهم حرَّكَ ذلك المُتلقّيَ للسّؤالِ عن علّةِ ذلك الجزاءِ: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾؛ فكانت تلك الجملةُ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ جوابًا عنه، وبيانًا له؛ فهي استئنافٌ بيانيٌّ[1].

سِرُّ التّعبيرِ باسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

مقامُ الصِّدْقِ عَليٌّ، وجزاؤُه عَليٌّ

عبَّر القرآنُ عن الجزاءِ المُعبَّر عنه بقولِه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ باسْمِ الإشارةِ للمُفرد البعيدِ: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ ففي الإفرادِ إشارةٌ إلى كمالِ اقتدارِ اللّه سبحانه على تحقيقِ ذلك الجزاءِ مع عظيمِ سَعَتِه إلى حدٍّ لا يُدْرِكُه إلّا فاعلُه القادرُ عليه. وأمّا البُعْدُ الذي فيه فمُتضمِّنٌ "تعظيمًا لشأنِ المشارِ إليه"[2]. ودالٌّ "على أنَّه شأْوٌ بعيدٌ؛ لأنَّ الصِّدْقَ مقامٌ كريمٌ، ومَنالٌ بعيدٌ، ومُداخلتُه للقلبِ والعقلِ حتّى يكونَ دَيْدَنَه وشأْنَه مقامٌ أكرمُ، وشَأْوٌ أبعدُ"[3].

دلالةُ التَّعبيرِ بالجزاءِ في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ﴾:

في التَّعبيرِ بالجزاءِ كلُّ ترغيبٍ مُمكنٍ في العملِ المُقابِلِ له

عبَّر القرآنُ الكريمُ عن كلِّ ما يشاؤونهُ بالجزاءِ في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ﴾؛ لأنَّه نِتاجُ ما قبلَه؛ فهو الألصقُ والأبَرُّ به؛ فإذا كان لهم كلُّ ما يشاؤونه، وكانَ المُحقّقُ لهم ذلك المُحْسِنَ إليهم في الدّاريْنِ اللّطيفَ بهم فيهما؛ كان ما يطلبونه فيه الغُنْيَةُ والكِفايَةُ، ووراءَ هذا من المعنى اتّساعُ فضلِ اللّه ونعيمِه وثوابِه وعطائِه بحيثُ يكونُ ما يشاؤونه شيئًا منه؛ وغيضًا من فَيْضِ كرمِه سبحانه؛ فإنَّ الجزاءَ هو الغناءُ والكِفايَةُ، ومادَّتُه تدورُ على قيامِ الشّيءِ مقامَ غيرِه، ومُكافأتِه إيّاهُ[4]. "ولأنَّ في كلمة ﴿جَزَآءُ﴾ إكرامًا لا حدودَ لهُ؛ إذْ هذا العطاء من مَحْضِ الفَضْلِ، ومِن مَحْضِ الفَضْلِ أيضًا أنْ يُسمّيَه ربُّنا جزاءً؛

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 447، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 240 - 241.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 9.

(3) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 241.

(4) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (جزى)، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 241.

لِيُدْخِل المَسَرَّة على قلوبِ أهل الصِّدْق، وأنَّ ثوابَ الصِّدْق وجزاءَه عندَ ربِّنا لا حدودَ له"[1].

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

اختصاصُ هذا الجزاءِ بالمحسنين

أضافَ القرآنُ الجزاءَ إلى وصْفِ الإحْسانِ في قوله تعالى: ﴿جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ للدّلالة على اختصاصِ الجزاءِ بالمُضافِ إليه، ولزومِه له. وفيها إشارةٌ إلى كمال ظهورِ علّة الإحسانِ في ذلك الجزاء؛ فهو جزاءٌ كلُّه إحسانٌ؛ لأنَّ علَّته من العملِ كلُّها إحسانٌ.

دلالةُ التّعريفِ بأل:

تحتملُ (أل) الدّلالةَ على معنَى الكمالِ

نظَم القرآنُ وصْفَ الإحسانِ مُعرَّفًا بأل في قوله: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، والمُرادُ بهم في الظّاهرِ أولئك الموصوفون بأنّهم المتّقون، فأل للعهد الذِّكْريِّ؛ فكان مقتضَى الظّاهر أنْ يُؤتَى بضميرِهم؛ فيُقال: (ذلك جزاؤُهُم)؛ فوقَع الإظهارُ في مقام الإضمارِ؛ لإفادة الثّناء عليهم بأنّهم مُحْسِنون. ويجوز أن تكون (أل) للجنس المُفيد للاستغراق؛ فيشملُ قولُه: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ أولئك المتّقين شمولًا أوّليًّا، ويدخلُ تحتَه كلُّ مُحسنٍ، وممّا يؤكّد ذلك أنَّ إضافة الجزاء إلى الإحسان تعني أنّ هذا العطاءَ الذي هو: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ جزاءُ كلِّ من أحْسَنَ، وليس مقصورًا على الذين تحدَّثَتْ عنهمُ الآيةُ؛ وهمُ الذين جاءوا بالصِّدْق وصدَّقوا به، وهذا يُرجِّحُ عمومَ اللّفظ، وأنَّ المُرادَ كلُّ من جاء بالصِّدْق إلى يوم القيامة، وكلُّ من صدَّقَ بالصِّدْق إلى يوم القيامة، وأنَّ الآيةَ تفتحُ هذا البابَ لكلِّ النّاسِ؛ وعلى هذا الوجه الثّاني لا إظهارَ في موضع الإضمار[2].

سرُّ التَّعبيرِ بالمُحسنين عن أهلِ الصّدقِ والتَّصديق:

في التّعبير بـ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ عن ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 241.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 446، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 9، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 241.

أهلُ الصِّدقِ والتَّصديقِ مخلصون للهِ في عبادتِه

بِهِۦٓ﴾ إشارةٌ جليلةٌ؛ وهي أنَّ الصِّدْقَ في الأمر كلِّه يُفْضي إلى الإحسانِ في الأمرِ كلِّه، فالإحسانُ ابنُ الصِّدْق، وثمرةٌ من ثمارِه؛ لأنَّ هذا يطَّردُ في السّياسة والاقتصاد وكلِّ ما يعيشُ فيه النّاسُ، وكلِّ ما تنهضُ به الأُمَمُ[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالظَّاهرِ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ دونَ الإضمار:

أيُّ إحسانٍ وأيُّ تقوَى أعظمُ من نبذِهم عبادةَ الأصنام

عبَّر تعالى بالإحسانِ اسْمًا في قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ - وكان الظّاهر أنْ يُقال: (ذلك جزاؤهم)؛ على أنَّ أل للعهد الذِّكريِّ؛ ليفيد شيئًا جديدًا من أوصافِ أهلِ الصِّدْقِ؛ هذا الشّيءُ يرجعُ إلى رأسِ السّورةِ وجذرِها؛ وهو أنّهم من أهلِ المُستوى الأعلى في المَقامِ الأعلى؛ وهو مقامُ الإحسانِ الذي هو كَمالُ التَّقوى؛ وأيُّ إحسانٍ وتقوَى أعظمُ من نبذِهم عبادةَ الأصنامِ وتحمُّلِهم مُخالفةَ ذويهم وأذاهُم، وصبرِهم على مُصادرة أموالِهم ... تصديقًا للذي جاء بالصِّدْق، وإيثارًا لرضَى اللّه؛ فكانوا بذلك عابدين للّهِ مُخلِصين له في العِبادَةِ؛ كما قال سبحانَه: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢﴾ [الزمر: 2]، وهذا جَذرُ السّورةِ، ومقصودُها الأعظمُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ في ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾:

ثبوتُ البُشْرى ودوامُها لأهلِ الإحسانِ

دلَّ التَّعبيرُ بالاسميّةِ في قولِه تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ على ثبوتِ البُشرى ودوامِها للذي جاء بالصِّدقِ والذي صدَّق به؛ إبلاغًا في التّرغيبِ في دخول دائرةِ أهلِ الإحسانِ؛ مع حصولِ كمال مدحِهم بذلك.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 9، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 28، و241 - 242.

﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٥﴾ [الزُّمر: 35]

۞ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

أقربُ النّاسِ إلى اللهِ أهلُ الصِّدقِ والتَّصْديقِ

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقةُ ما يلقاه المُتَّقون من أجرٍ عظيمٍ ورزقٍ كريمٍ، وهم في هذا المقامِ الرَّفيعِ بقولِه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾؛ جاءت هذه الآيةُ بمثابةِ تعليلٍ لهذا الجزاءِ الذي يُجزاه المحسنون من اللّهِ، وهو جزاءٌ يُضاعف فيه الإحسانُ إلى المُحسنِ، قال تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾؛ فبهذا الإحسان يمحو اللّه عنهم أسوأ ما في صحائفهم من الأعمال[1].

المُصدِّقون غيرُ معصومين قبلَ الإيمانِ وبعدَه

لَمّا قرَّرَ تعالى في الآيةِ السّابقةِ جزاءَ الذي جاء بالصِّدْقِ والذي صدَّقَ به، وأنَّه وسيعٌ جدًّا، وعلَّله بوصفِهم بأنَّهُم من أهلِ المستوى الأعلى من مستوياتِ مقامِ الإحسانِ الذي يعبدونَ اللّهَ فيه؛ كأنّهم يَرَوْنَه، وكانَ مِثْلُهُم قدوةَ الرّاغبينَ في الدُّخولِ في دائرةِ عبادةِ اللّه وحده؛ مع إخلاصِ العبادةِ له؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ مِثْلَهُم مع كمالِهم غيرُ معصومٍ من الوقوعِ في بعضِ المعاصي والمُخالَفاتِ قبلَ الإيمانِ وبعدَه.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

إخلاصُ العبادةِ للهِ بابُ الوصولِ إلى الإحسانِ

هذه الآيةُ تُبيِّن جانبًا من مظاهرِ تكريمِ اللّهِ ورحمتِه بعبادِهِ المحسنين بقولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ في الدُّنيا من الأعمالِ السَّيِّئةِ بسببِ ما كان منهم من توبةٍ وإنابةٍ ممّا اجترحوا من السّيئاتِ فيها، ويثيبهم اللّهُ على طاعتِهم في الدّنيا بأحسنِ ما عملوا، وهو الثّوابُ العظيمُ.

(1) الخطيب، التفسير القرآني: 8/ 1153.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ اللّامِ في قولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾:

اللّامُ في قولِه تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ لامُ التّعليلِ وهي متعلِّقةٌ بالمُحسنين؛ أي: الذين أحسنوا لكي يُكفِّر، ويجوزُ أن تتعلّق بفعلٍ محذوفٍ دلَّ عليه قولُه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ﴾ والمعنى: بَشّرهم اللّٰه بذلك ليُكفِّر؛ لأنَّ التّكفير لا يكون إلّا بعد التّيسيرِ للخيرِ[1].

ثـوابُ أهـلِ الصِّدْقِ الذي لا حدودَ له يَسْبِقُ التَّكْفيرَ والمُجازاةَ

دلالةُ ذِكرِ قولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ﴾ بعد قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

ذَكَر القرآنُ هذه البشارةَ من بابِ إعلامِهم بها ليطمئنّوا على عدمِ مؤاخذتِهم على ما سبقَ منهم في الجاهليّةِ من الشِّركِ وعبادةِ الأصنامِ وارتكابِ الفواحشِ.

بلاغةُ مجيءِ الأسلوبِ القرآنيِّ على خلافِ الظّاهر:

ظاهرُ التّعبيرِ القرآنيّ يقتضي تقديمَ تكفيرِ أسوأ الذي عملوا ومجازاتَهم على أحسنِ عملِهم؛ ليُعطيَهم ما يشاؤون؛ لأنَّ التّكفيرَ والمجازاةَ يَسْبقانِ الأجرَ، ولكنَّ الكلامَ جاءَ على هذا التّرتيبِ؛ ليفيد خصوصيَّةَ معنًى لأهلِ الصِّدْق؛ وهو أنَّ اللّٰه سبحانه لا يُكفِّرُ عنهم السّيّئاتِ؛ ليُثيبَهُم، وإنّما أثابَهُم الثّوابَ الذي لا حدودَ له؛ ليُكفّر عنهم، ولتُصبِح سيّئاتُهم مكفورةً ومُكفَّرةً بهذا العطاءِ، وأنّ حسابَهم حسابٌ يسيرٌ، ولا يكون حسابُهم مُنْقِصًا لهذه الدّرجة من العطاءِ، والذي وُعِدَ بأنَّ له ما يشاءُ كأنّه أُلْغيَ حسابُه؛ لأنّه ليس هناك ثوابٌ أعلى من أنْ يكون لك ما تشاءُ[2].

لـيـس هـنـاك ثـوابٌ أعـلى من أنْ يكون لك ما تشاءُ

دلالةُ التّعبيرِ بالتّكفيرِ في قولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾:

عبَّر القرآنُ بالتَّكْفير الذي هو من بابِ (كَفَرَ) في قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾؛ لأنَّ سَتْرَ السَّيِّئ من

سَـتْرُ الأسـوأِ من الذّنوبِ من كمالِ الإحسانِ

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 12/ 539.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 10، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 242.

الإحسانِ، وسَتْرُ الأسوأِ من كمال الإحسانِ؛ وقد وصفَهم تعالى من قبلُ بالإحسانِ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾. وعُبِّر به أيضًا؛ لأنّهم لَمّا صدَّقوا بالصِّدْقِ أعلنوه؛ إذ إعلانُه لازمُ التَّصْديقِ به؛ فأثابَهُم اللّٰه بسَتْرِ ما كانَ منهم من سيّئاتٍ.

دلالةُ صيغةِ (فَعَّلَ):

كثرةُ التَّكفير للسَّيّئاتِ دليلٌ على كامِلِ مَحْوِها

عبَّر القرآنُ بالتَّكْفيرِ في قوله: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾ على صيغةِ (فَعَّل) دون (فعل)؛ للدّلالةِ على الإحسانِ الإلهيِّ فيه بتعظيمِه؛ لِما فيه من معنى التَّكثيرِ في الفِعْلِ؛ فهو سبحانَه لا يتركُ لهم صغيرةً ولا كبيرةً من سيّئاتِهم إلّا ويسترُها.

دلالةُ التّعبيرِ بالمَصْدَرِ المُؤَوَّلِ ﴿لِيُكَفِّرَ﴾ دون الصَّريحِ:

تكفيرُ السّيّئاتِ يدلُّ على عِلْمِ اللهِ الشّامِلِ

نظَم القرآنُ معنَى التّكفيرِ مصدرًا مُؤوّلًا في قولِه تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ﴾ دونَ المصدرِ الصّريحِ: (لتكفيرِ)؛ للدّلالةِ على عظيمِ مَحَبَّةِ اللّٰهِ لأهلِ الصِّدْقِ؛ فهو يُحيطُ بكلِّ ما كانَ منهم، ولأنَّ المصدر المُؤوَّل يُلحظُ فيه الزَّمنُ بخلاف المصدر الصَّريح؛ لذلك فهو المناسب لهذا السّياق؛ لأنَّ صدورُ السّيّئاتِ منهم إنّما كان في وقتٍ دون وقتٍ؛ فكان على جهةِ التّجدُّدِ؛ فلَمّا كان تكفيرُ سيّئاتهم من شأنِه أنْ يَرْفعَ الحرَجَ عنهم، ويُدْخِلَ السُّرورَ عليهم؛ كفَّر تعالى عنهم سيّئاتهم على جهة التّعديدِ والاستمرار؛ إيماءً إلى أنَّ هذا التّكفيرَ كان كلُّه سرورًا وسعادةً، ويؤيِّدُ هذا كونُه بعدَ أنْ يُثابوا، فاللّٰهُ أثابَهُم؛ ليُكفِّرَ عنهم سيئاتِهم.

سِرُّ إظهارِ اسْمِ الجلالةِ في موضِعِ إضمارِ الرَّبِّ:

إظهارُ اسْمِ الجلالةِ إيقاظٌ لبصيرةِ المُتَلقّي

أسنَد القرآنُ فِعْلَ التّكْفيرِ إلى اسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾ مع سبْقِ ذِكْرِه بقوله: ﴿عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾؛ للدّلالةِ على الألوهيّة؛ إذ لا يَقْدِرُ على الغفران لَمَن يريدُ إلّا من له مُطلقُ التَّصرُّف، وللدَّلالة على زيادة تمكُّنِ الإخبارِ بتكفيرِ سيئاتِهم تمكينًا يُطمئنُ نفوسَهم بوعد اللّٰه

الذي لا رادَّ لحُكمه؛ فهو الإله الحقُّ له أنْ يفعلَ ما يشاء، فلا يُسأل عمّا يفعلُ؛ كإثابتِه أهلَ الصِّدّقِ هذه الإثابةَ العَليَّةَ قبلَ؛ ليكفّر عنهم أسوأ الذي عملوا، ويُثيبَهم على الأحسن من عملهم. وللإشارة إلى أنّه تعالى هو الذي هداهُم إلى المقام الأعلى في الإحسانِ، والمعنى: ليُكفِّر اللّهُ الذي نَصَبَ المُحْسِنُ جلالَه وجمالَه بينَ عيْنَيْه؛ فاستغْرَقَ في صفاته ابتغاءَ مرضاتِه فعبدَه؛ كأنَّه يراهُ. ولزيادة تمكُّن الإخبار بتكفير سيّئاتهم تمكينًا؛ لاطمئنانِ نفوسهم بوعد ربِّهم(1).

دلالةُ التّعبير بـ (عن) في قوله: ﴿عَنۡهُمۡ﴾:

طـهـارةُ أهـلِ الإحـسـانِ من السَّيِّئاتِ

آثر السّياق القرآنيُّ التَّعبير بـ (عن) في قوله تعالى: ﴿عَنۡهُمۡ﴾؛ لأنَّ معناه المُجاوَزَةُ؛ كما في قولك: (رميتُ عن القوس)؛ لأنّه يُقذف عنها بالسّهم، ويُبعدُه، فدلَّتْ هنا على تطهُّر أهلِ الصِّدّق والتّصديقِ من السّيّئاتِ، وأنَّ شيئًا منها لا يلتصقُ ولا يتعلَّقُ بهم، ولا يُنْسَبُ إليهم؛ وهذا من كمال الإحسان الإلهيِّ إليهم.

دلالةُ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَنۡهُمۡ﴾:

حـسـنـاتُ أهـلِ الـصِّـدْقِ تغلبُ سيِّئاتِهم

قدَّمَ القرآنُ قولَه تعالى: ﴿عَنۡهُمۡ﴾ على قوله تعالى: ﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ في قوله تعالى ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾، والذي حقُّه التّقديمُ؛ لأنّه مفعولٌ به؛ لبيانِ أنَّهم من اللّه بمكانٍ؛ فهم أهلُ القُرْبِ من رضوانه، وأنَّهُم قدَّموا ما جعلَهُم كذلك؛ وهو الصِّدّقُ والتَّصْديقُ، ولَوْ نُظِمَ الكلامُ على الأصلِ لرُبَّما أَفْهَمَ عِظَمَ ما ارتكبوه من سيِّئاتٍ، وهوانَهُم على اللّهِ.

سِرُّ التّعبيرِ بالسّوءِ مادة وصيغة:

زوالُ الغمِّ عنِ الإسعادِ

عبَّر القرآنُ بما هو من بابِ السّوءِ: ﴿أَسۡوَأَ﴾ دون غيره؛ لأنَّ السّوءَ هو كلُّ ما يَغُمُّ الإنسانَ، وتكفيرُ السّوء سببٌ عظيمٌ في إسعادِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 448، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 11.

المُكفَّرِ عنه، وفرحِه وسرورِه؛ وهذا من صميمِ الإحسانِ مُجازاةً على الإحسانِ: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

وقد جاءت ﴿أَسۡوَأَ﴾ في الآية على وزن (أفْعَل) التَّفضيلِ من (سوأ)، وتَحتملُ وجهَيْنِ: أحدُهما أنْ تكونَ ﴿أَسۡوَأَ﴾ على بابِها، وأنَّ هؤلاءِ المُحدَّثَ عنهم فعلوا السَّيِّئَ والأسوأَ؛ ووراءَ هذا من المعنَى دلالةٌ جليلةٌ؛ وهي أنَّ هؤلاءِ كانَ يبدرُ منهم السّيِّئُ والأسوأُ، وأنَّ هذا الذي يكونُ منهم لم يَحجبهم عن هذه الدّرجات العاليةِ، ولم يَحرمهم هذا العطاءَ من غير حسابٍ؛ طالما أنَّه ليس من ديدَنِهم. وإذا كُفِّرَ عنهم أسوأُ الذي عملوا؛ كُفِّرَ عنهم ما دونَه من سيِّئِ أعمالِهم بدلالةِ الفحوى؛ فأفاد أنّه يُكفِّر عنهم جميعَ ما عملوا من سيّئات؛ فإنْ أُريد بذلك ما سبَق قبل الإسلام؛ فالآيةُ تَعُمُّ كلَّ من صدَّق بالرّسول ﷺ بعد الكفر؛ فالإسلام يَجُبُّ ما قبلَه، وإنْ أُريدَ بذلك ما عسَى أنْ يعملَه أحدٌ منهم من الكبائرِ في الإسلامِ؛ كان هذا التَّكفيرُ خصوصيَّةً لأصحابِ نبيِّنا ﷺ.

ويجوزُ أنْ يكون: ﴿أَسۡوَأَ﴾ على بابه؛ من جهة أنَّ هؤلاءِ لفَرْط ورعِهم يستعظمون ما يكونُ منهم؛ فالسَّيِّئُ إذا كان منهم يكونُ عندَهم أسوأَ.

وجــهُ حــمْـلِ (أسوأ) على أصلِ الفعل

ويحتمل أن يكون حَمْلُ ﴿أَسۡوَأَ﴾ على أصلِ الفعل؛ فهو مسلوبُ المُفاضلةِ؛ وإنّما هو مجازٌ في السّوءِ العظيم؛ أي: العملُ الشَّديدُ السّوءِ؛ وهو الكبائرُ؛ كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: 33].

ولفظُ الآية يحتملُ كلَّ ذلك؛ فأهلُ الصّدق ليسوا جميعًا على درجة واحدة؛ مهما علت درجاتُهُم، وهذا الخبرُ عنهم من الحقِّ تعالى فيه دلالةٌ ظاهرةٌ على الرِّضا(1).

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 448، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 10، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 243 - 244.

أهلُ الإحسانِ يجعلون ذنوبَهم نُصْبَ أعيُنِهم للعملِ على هدمِها

دلالةُ إضافةِ ﴿أَسۡوَأَ﴾ إلى ما بعدَها:

إضافةُ صيغةِ ﴿أَسۡوَأَ﴾ إلى قولِه تعالى: ﴿ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ من بابِ إضافةِ الشّيءِ إلى ما بعدَه للقصدِ إلى التّحقيقِ والتّوضيحِ من غيرِ اعتبارِ تفضيلِه عليهم، وذلك بالنّظرِ إلى ما يليق بحالِهم من استعظامِ سيئاتِهم وإنْ قلّت، واستصغارِ حسناتِهم وإن كثُرتْ. ونوعُ الإضافةِ فيها إمّا أنْ تكون حقيقيَّةً؛ على أنَّ الصّيغة على بابِها. وإمّا أنْ تكونَ بيانيَّةً؛ على أنَّ الصّيغة تدلُّ على أصلِ الفعلِ؛ وأنَّ معنَى المُفاضَلة انْتُزِعَ منها[1].

أهلُ الصِّدْقِ لا يُنْكِرون سيّئاتِهم

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾:

عبّر القرآنُ بقوله: ﴿ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ دون أنْ يقول: (أسوأ عملهم)؛ للإشارة إلى أنَّهم قومٌ يعترفونَ بأخطائهم، ولا يتحرَّجون من ذلك؛ لأنَّ الموصولَ لا يُعبَّرُ به إلّا وصلتُه معلومةٌ للسّامعِ من قبلُ، أو كالمعلومة له؛ بحيثُ إذا سمِعَها سلَّمَ بها؛ فهم لا يتحرَّجون من المواجهة بها أيضًا، ولا يضرُّهم ذلك. وللتّنبيهِ على أنَّ عَمَلَ مِثْلِهم محلُّ نظرٍ ومُراقَبةٍ من الخَلْقِ؛ لأنَّهم صفوتُهم وأئمَّتُهم؛ فهو مدحٌ لهم بذلك؛ ولهذا اصطفى القرآنُ ﴿ٱلَّذِي﴾، وآثَرَه على (ما)؛ لأنَّ (ما) أشدُّ غموضًا وإبهامًا من ﴿ٱلَّذِي﴾.

أهلُ الإحسانِ بشرٌ يُصيبون ويُخطئون

دلالةُ التّعبيرِ بقولِه: ﴿عَمِلُواْ﴾:

عبَّر القرآنُ بقولِه: ﴿عَمِلُواْ﴾ صلةً للموصولِ - مُصرّحًا به، وكان من الممكن أنْ يُقال نحوُ: (أسوأ ما كان منهم) - للتّذْكير بأنَّهم بشرٌ يُصيبون ويُخْطِئون؛ فلهم أعمالٌ صالحةٌ كثيرةٌ؛ صدرتْ منهم عن قصدٍ وعِلْمٍ؛ كأعمالِهم السَّيِّئة، وهذا يفتح الباب لمجيءِ قولِه تعالى: ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ فيتَّصِلُ الكلامُ بعضُه ببعضٍ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 10.

دلالةُ التّعبيرِ بالماضي ﴿عَمِلُواْ﴾:

ولَمّا كان تكفيرُ السَّيِّئاتِ بعد إثابتِهم - في الآخرةِ - نظَم القرآنُ معنى العملِ ماضيًا، وذلك لِما فيه من إيحاءٍ لطيفٍ بأنَّ صدورَ السَّيِّئاتِ كان فعلًا منهم، ولم يكن لهم صفةً ثابتةً دائمةً.

بلاغةُ حذفِ عائدِ الموصول:

الآخرةُ دارُ الجزاءِ بلا عَمَلٍ

فِعْلُ العملِ يتعدَّى بنفسِه إلى مفعولٍ، والقرآنُ حذفَه في قوله: ﴿أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، والتّقدير: (أسوأ الذي عملوه)، وفي قولِه: ﴿بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾، والتّقدير: (بأحسن الذي كانوا يعملونه)، وهذا المحذوفُ هو عائدُ الموصولِ؛ ففيه فائدةُ الإيجازِ؛ للتّنْبيهِ اللّطيفِ على تمحُّضِهم للثَّوابِ والنَّعيمِ في الآخرةِ؛ فهم لا يُشْغَلون بما عملوا في الدُّنْيا، وإنّما هم مشغولونَ بالنَّعيم.

سِرُّ الوَصْلِ بالواوِ دونَ غيرِها:

نوَّرَهُم بأنوارِ الحَسَنِ بعد أنْ طهَّرَهُم من أوْضارِ السَّيِّئِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ العطفَ بالواوِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَجْزِيَهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ لأنَّها عاطفةٌ لهذه الجملةِ على جملةِ ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ أَسْوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾؛ فدلَّ العطفُ بها على إشراكِ الثّانيةِ مع الأولى في التَّعليلِ، وهذه الثّانيةُ هي المقصودُ من التّعليلِ للوعدِ الذي تضمَّنَه قولُه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمْ﴾، ومن مُحسِّناتِ الوصلِ الاتّفاقُ في المُسنَدِ إليه: ﴿ٱللَّهُ﴾، والتَّضادُّ بين ﴿أَسْوَأَ﴾ و(أحسن)[1]، ولا يتأتّى هذا التَّشريكُ إلّا من الواوِ.

نكتةُ تَقديمِ تكفيرِ السَّيِّئاتِ على الجزاءِ الحَسَنِ:

أهلُ الصِّدْقِ لا يشعرونَ بضررِ سيّئاتِهم يومَ القيامةِ

قُدِّم تكفيرُ السّيئاتِ على المُجازاةِ بالأجرِ الحَسَنِ مع أنَّ كُلًّا من المعطوفِ عليه والمعطوفِ عِلَّةٌ؛ للدّلالةِ على تصويرِ سَبْقِ تكفيرِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 11.

السّيِّئاتِ على مُجازاتِهم أجرَهُم؛ فالثَّوابُ بالعطاءِ سابقٌ على تكفيرِ السّيّئاتِ، ولاحِقٌ له أيضًا.

علّةُ التَّعبيرِ بالجزاءِ مُكرَّرًا في قولِهِ: ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ﴾:

تقريرُ كمالِ الثَّوابِ وسَعةِ العطاءِ

عبَّر القرآنُ بما هو من بابِ الجزاءِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ﴾ - وقد سبَق ذِكْرُه في قولِه: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ -؛ للإبلاغِ في تقريرِ كمالِ الثَّوابِ، وعُلوِّ العطاءِ واتِّساعِه؛ وهذا تمهيدٌ لقولِهِ: ﴿بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾. وفيه أيضًا إشارةٌ إلى أنَّ ذلك العطاءَ فوقَ أجرِهم بكثيرٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ﴾:

تجديدُ الإحسانِ داعٍ بقوّةٍ إلى اسْتِطْعامِه

نظَمَ القرآنُ معنَى الجزاءِ فِعْلًا مُضارِعًا ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ﴾؛ للدّلالةِ على استمرارِ النِّعيم الذي يكونُ لهُم، ويكونونُ فيه وتَكرارِه وتجدُّدِه، وهذا مُشاكِلٌ لتكفيرِ السّيّئاتِ من جهةٍ، ولنَظْمِ العملِ فعلًا مضارِعًا: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾ أيضًا.

سِرُّ التَّعبيرِ بالأجرِ دونَ غيرِه:

الصِّدْقُ أصلُ كلِّ خيرٍ وبِرٍّ ولُطْفٍ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالأجرِ دون غيرِه؛ لأنَّ الأَجْرَ معناه الكراءُ على العملِ؛ وفي هذا تكريمٌ للمحسنين للاعتدادِ بعملِهم الذي أهَمُّ أفرادِه في السّياق المجيءُ بالصِّدْق والتَّصديقُ به، ولأنَّ في الأجرِ إكرامًا عظيمًا؛ لأنَّ العطاءَ الذي لا حدودَ له والمدلولَ عليه بقوله: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾ هو من محضِ الفضلِ، وفي تسميتِهِ أجرًا تنبيهٌ على أنَّ ما عمله هؤلاء هو أجرُ عملٍ عملوه، وأنَّ الذي عملوه من المجيءِ بالصِّدْق والتَّصديق به عند اللّه لا يُقادَرُ قَدْرُه، ولا حدودَ لأجرِه[1].

دلالةُ الإضافةِ في قولِهِ: ﴿أَجۡرَهُم﴾

أضافَ القرآنُ الأجرَ إلى المُتَّقين المُحسنين في قوله تعالى:

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 244.

﴿أَجۡرَهُم﴾؛ للدّلالةِ على تشريفِهم وعظمتِهم وفخامتِهم باختصاصِهم به؛ ولَمّا كان الجزاءُ من جنسِ العملِ كان لا بُدَّ أنْ يكونوا قد اختصّوا بعملٍ صالحٍ؛ وهو المجيءُ بالصِّدقِ والتَّصديقُ به؛ فبانَ بهذا غايةُ شرَفِ ذلك العملِ.

الإضافةُ تشريفٌ واعتدادٌ شديدٌ بالعمل

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِأَحۡسَنِ﴾

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ جارَّةٌ للسّببيّةِ، وهي ظرفٌ مستقرٌّ صفةٌ لـ ﴿أَجۡرَهُم﴾، وليست مُتعلِّقةً بالفعل في قوله: ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ﴾، والمعنى: يجزيهم أجرًا على أحْسَنِ أعمالِهم. ولَمّا كان تعالى مُتفضِّلًا يزيدُ العملَ الصّالحَ ويُربّيه؛ زادَ الجارَّ (الباء) في الجزاءِ؛ إعلامًا بأنّه يجعل الأعمال الصّالحة كلَّها مِثْلَ أعلاها[1].

الاعتدادُ بالعملِ وصفتِه من الحُسْن

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿بِأَحۡسَنِ﴾:

التَّعْبيرُ بما هو من بابِ الإحسانِ في قوله تعالى: ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ﴾ يرجعُ به إلى قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ويُضْفي على الجزاء والأجر في قوله تعالى: ﴿وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم﴾ معنى الإحسانِ؛ ليكونَ معنى الإحسانِ حاضرًا في السّياقِ بقوّة؛ ليُفْهِمَ ذلك أنَّ عملَهم الأحسنَ هو المجيءُ بالصِّدقِ والتَّصديقُ به، والصِّدْقُ جوهرُ إخلاصِ العبادةِ للّه الذي هو جِذْرُ السّورة.

لا خلافَ عند العقلاءِ في حُسْنِ الصِّدْقِ والتَّصْديقِ

بلاغةُ صيغةِ التّفْضيلِ (أحسن):

عبَّر القرآنُ بصيغة أفعل (أحسن)؛ لأنَّ اللّه سبحانه يريدُ أنْ يُجزِلَ لهم الثّوابَ؛ فقصَد إلى أحْسَنِ أعمالِهم؛ لأنّها التي توجِبُ لهم الأوفرَ، وهذه الصّيغةُ تدلُّ هنا على المُجازاةِ على الحَسَنِ بقرينة معنى الصّيغة نفسِها؛ فإنّه يُؤْذِنُ بأنَّ علّة الجزاء هي الحُسْنيَّةُ، وهي تتضمَّنُ أنَّ لمعنى الحُسْنِ تأثيرًا في الجزاءِ؛ فإذا

الجزاءُ الأعلى قد يُهَيْمِنُ على الجزاءِ الأدنى

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 448، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 11.

كان جزاءُ أحسَنِ أعمالهم أنَّ ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ﴾؛ كان جزاءُ ما هو دونَ الأحسن من أعمالهم جزاءً دون ذلك؛ بأنْ يُجازوا بزيادةٍ وتنفيلٍ على ما استحقّوه على أحسن أعمالهم بزيادةِ تنعُّمٍ أو كرامةٍ أو نحوِ ذلكَ[1].

عطاءُ اللهِ لعبادِه لا يحدُّه حدٌّ

وأيضًا؛ لَمّا كانتِ المُجازاة على الأَحْسَنِ رُبَّما لا يلزمُ منها المُجازاةُ على الحَسَنِ؛ فقد تكونُ المُكافأةُ على أَحْسَنِ الأعمال فحسبُ مع تركِ حَسَنِها، وكانَتِ المُجازاةُ على الحَسَنِ دليلًا على المُجازاةِ على الأَحْسَنِ من باب أَوْلى؛ لذلك عبَّر بأفعلِ التّفضيلِ.

بلاغةُ الطِّباق بين ﴿أَسۡوَأَ﴾ و(أحسن):

الطِّباقُ سبيلُ ترابُطٍ وتدبُّرٍ

في الجمع بين كلمة ﴿أَسۡوَأَ﴾ وبين كلمةِ (أحسن) مُحسِّنُ الطِّباقِ[2]. وهذا داعٍ لتأمُّلِ كلٍّ من قِسْمَيِ المعنَى في الآيةِ في نورِ الآخَرِ؛ فيتمكَّنُ المعنَى في النَّفْسِ؛ وهذا إحسانٌ إلى المعنى القرآنيِّ وإلى المُتلقّيه جميعًا. والطِّباقُ مع الاتّفاق في الصّيغة ترابطٌ شديدٌ بين قِسْمَيِ المعنَى في الآية.

دلالةُ إضافةِ الأحسنِ والأسوأ إلى الموصول:

القصدُ إلى التَّحقيقِ والتَّوضيحِ من غيرِ اعتبارِ تفضيلِهِ عليه

أضاف القرآنُ ﴿بِأَحۡسَنِ﴾ إلى الموصولِ في قوله: ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، وكذلك أضاف ﴿أَسۡوَأَ﴾ إلى ما بعده في قوله: ﴿أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾، وهذه الإضافةُ ليست من قبيل إضافة المُفضَّلِ إلى المُفضَّلِ عليه؛ بل من إضافة الشّيءِ إلى بعضِه - نحوُ: (خاتم فضّة) - للقصد إلى التّحقيق والتّوضيح من غير اعتبار تفضيلِه عليه؛ وإنّما المُعتبَرُ فيهما مُطلقُ الفَضْلِ والزّيادةِ لا على المُضافِ إليه المُعيَّنِ بخصوصِهِ؛ خلا أنَّ الزّيادةَ المُعتبرةَ فيهما ليست بطريق الحقيقة؛ بل هي في الأوَّلِ بالنَّظر إلى ما يليقُ بحالِهم من استعظامِ سيّئاتهم

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 11، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 244.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 12.

وإنْ قلَّت، واستصغارِ حسناتهم وإنْ جلَّت، والثّاني بالنّظر إلى لُطْف أكرمِ الأكرمين من استكثارِ الحسنة اليسيرة ومقابلتِها بالمَثوبات الكثيرة، وحَمْل الزّيادة على الحقيقة(1).

بلاغةُ التّعبيرِ بالصِّلةِ والموصول:

مِن حقِّ المُحسنين أنْ يفرحوا بعملِهم الحَسَن

بنى القرآنُ الكريمُ المعنى في هذه الجملةِ على الموصوليّةِ فقال: ﴿بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾، ولم يقُل: (بأحسن عملهم)؛ لبيانِ كمال تميُّزِهم بالصِّلةِ؛ إعلامًا بهم؛ لكمال مدحهم؛ فهم بها يُعرفون، يؤكِّد هذا قيمةَ الصِّلةِ في السّياقِ لدلالتها على عملِ المحاسِن والصّالحاتِ على جهةِ الاستمرارِ حتّى كان عملُها من ديدنِهم. وفيه أيضًا مدحُ عملهم بأنَّه كان محلَّ الاتّساءِ والاقتداءِ والاحتذاءِ؛ ولهذا عبَّر القرآنُ بما هو أخفُّ غموضًا وإبهامًا من (ما) وهو ﴿ٱلَّذِي﴾.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿ٱلَّذِي﴾ دون (ما)

اللهُ ﷻ عنده حسنُ الجزاء

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالاسم الموصولِ ﴿ٱلَّذِي﴾ في قوله تعالى: ﴿بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ دون (ما) كما في سورة (النَّحل) في قوله: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٧﴾ [النَّحل: 97].

والنّاظر في الموضعَيْن يجد اختلافًا في استعمالِ الموصوليّة؛ ففي سورةِ (الزُّمر) جاء التَّعبيرُ بـ ﴿ٱلَّذِي﴾، وفي سورة (النَّحل) بـ ﴿مَا﴾ [النَّحل: 97]، وإن اشتركا في الموصوليّة إلّا أنّ الاستعمالَ جاء مناسبًا لسياقِ كلِّ سورةٍ منهما؛ فآيةُ (النَّحلِ) لمّا افتتحت بـ ﴿مَا﴾ [النحل: 96] الموصولةِ في قوله: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ﴾ [النحل: 96]؛ والمُراد بها الإطلاقُ والعموم؛ كانت في هذا الموضع أَوْلَى من لفظ (الذي)؛ أمّا في موضع (الزُّمر)؛ فجاء التَّعبير بـ ﴿ٱلَّذِي﴾؛ لأنَّها لا تُفارق الموصوليّة؛ فهي

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 448، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 600.

أعرقُ في التَّعريفِ من (ما)؛ لخروجِ (ما) عن الموصوليّةِ فتردُ شرطًا واستفهامًا، ولا يفارقها العمومُ والإطلاق؛ لذلك كان التَّعبيرُ في (الزُّمر) بـ ﴿ٱلَّذِى﴾؛ لأنَّها واردةٌ في سياقِ الخصوصِ المقصودِ به طائفةٌ بعينها يُؤكِّد ذلك ما ورد قبْلها من قوله: ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ﴾، والمقصودُ بذلك رسولُ اللّه ﷺ، والذي صدَّق به مُتقدّمو الصّحابة رضي الله عنهم، وهذا مقامٌ مخصوصٌ لا يُشاركُهُم فيه غيرُهُم؛ لذلك ناسبَ التّعبيرُ بـ ﴿ٱلَّذِى﴾ دون (ما)[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالكَوْنِ مع الأحسنِ مع عدمِ ذِكْرِه مع الأسوأ:

الإحسانُ في طَبْعِهِم، والسَّيِّئ عارِضٌ عليهم

عبَّر القرآنُ بمادّة الكونِ ﴿كَانُواْ﴾ - وكان من المُمكن أنْ يُقال: (أحسن الذي عملوا)؛ كما سَبَقَ في قولِه: ﴿لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ ليحصلَ التَّعادُلُ بين قِسْمَي المعنى -، ولكنّه عَبَّرَ بالكَوْنِ مع الأحْسَنِ؛ لإفادةِ أنَّ هذا العملَ منهم كان شأنًا من شئونهم، وجُزْءًا من طباعهم، وأنّ الصِّدْقَ ديدنُهم، فهم يُداومون على ذلك العملِ، ولم تأت (كان) مع (الأسوأ)؛ لأنَّ الأسوأ لم يكن شأنَهم، ولم يكن المألوفَ منهم؛ بخلافِ عملِ الأحْسَنِ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالماضي ﴿كَانُواْ﴾:

عملُ الأحسنِ راسخٌ في طباعِ المؤمنين حقَّ الإيمانِ

جاء التَّعبيرُ بفعل الكونِ ماضيًا في قوله: ﴿بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِى كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ للتّأكيد على أنَّ عملَ الأحْسَنِ والحَسَنِ في طباعهم مع دلالته على الوقوعِ في الدّار الدّنيا[2]، وفيه إشارةٌ إلى رسوخِ العملِ الأحسنِ في طباعِهم.

سِرُّ تَكرارِ العملِ في الفاصلةِ القرآنيّة:

أدركوا عِظَمَ القرآنِ؛ فعمِلوا به

كرَّر القرآنُ ذِكْرَ العملِ في الفاصلةِ ﴿كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ مع إمكانِ الاستغناءِ عنه، أوِ التّعبيرِ بضميره بوجهٍ من وجوهِ النَّظْمِ العديدةِ؛

(1) الغرناطي، ملاك التأويل، ص: 310.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 448، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 600، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 244.

للإشارةِ إلى أنّهم لم يَكتفوا بالتّصديقِ القلبيِّ بالصِّدْقِ؛ وإنّما اجتهدوا في العملِ أيضًا.

دلالةُ التّعبيرِ بالمُضارِع ﴿يَعۡمَلُونَ﴾:

أهلُ الإحسانِ مُداوِمون ومُستمِرّون في العملِ الأحسنِ

نظَم القرآنُ معنَى العملِ فعلًا مضارِعًا في قوله تعالى: ﴿يَعۡمَلُونَ﴾؛ لأنّه نِتاجُ كلمة الكون الماضي؛ فهم مستمرّون مُداوِمون في العمل الحَسَنِ والأحْسَنِ مُكرِّرونه مُجدِّدون له وقتًا بعد وقتٍ؛ لأنّه في طبائعهم؛ فهم عريقون في تعاطيه؛ فمَن كان في هذه الدّنيا مُحْسِنًا في وقتٍ ما يعبدُ اللّه كأنّه يراه؛ فهو في الآخرة في كلِّ حين يراهُ، وممّا يُذكر في سِرِّ التَّعبير بالمضارعِ موافقتُه للفواصلِ قبلَه وبعدَه[1].

۞ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

العملُ والفعلُ والصّنعُ:

الفِعْلُ أعمُّ من العملِ الذي هوَ أعمُّ من الصُّنْعِ

العملُ والفِعْلُ والصُّنْعُ... إلخ، أُسْرَةٌ لغويّةٌ واحدةٌ تشترك في معنًى عامٍّ، وهو عملُ شيءٍ بالجارحَةِ، ثمّ لكلِّ لفظٍ معنًى يختصُّ به؛ لأنَّ الفِعْلَ لفظٌ عامٌّ؛ فيُقال لِما كان بإجادةٍ، وبدونها، ولِما كان بعِلْمٍ أو غيرِ عِلْمٍ، بقصدٍ، أو غيرِ قصدٍ، ولِما كان من الإنسانِ والحيوانِ والجمادِ. وأمّا العملُ: فإنّه لا يُقال إلّا لِما كان من الحيوان دونَ ما كان من الجمادِ، ولِما كان بقصدٍ وعِلْمٍ دون ما لم يكن عن قصدٍ وعلمٍ.

وأمّا الصُّنْعُ في اللّغةِ فهو عملُ شيءٍ بمهارةٍ وحذقٍ وإجادةٍ، والصُّنْعُ هو ترتيبُ العملِ وإحكامُه بناءً على الخبرةِ التي اكتسبها، ولا يجوز نسبتُه إلى الجمادِ أو غيرِ العاقلِ، وعلى ذلك فالصُّنْعُ أخصُّ المعاني الثّلاثة، والفعلُ أعمُّها، والعملُ أوسطُها، فكلُّ صنعٍ عملٌ؛ وليس كلُّ عملٍ صنعًا، وكلُّ عملٍ فعلٌ، وليس كلُّ فعلٍ عملًا[2].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 448، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 600.

(2) العسكري، معجم الفروق اللغوية، ص: 321 - 323، والراغب، المفردات: (صنع)، و(عمل)، و(فعل).

﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٦﴾ [الزمر: 36]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

هـذهِ الآيـةُ من تمام ما قبْلَها، ونتيجةٌ له؛ فهي تُحقِّقُه

لَمّا ذَكَرَ اللّهُ تعالى فيما سبقَ الجزاءَ المُعدَّ للمتَّقين بإعطائِهم ما يشاءون في الجنَّةِ وتكفير سيئاتهم بقولِه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۡۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ الآية؛ ذَكَرَ في هذه الآيةِ ما يوصلُهُم إلى ذلك؛ لأنَّه يكفيهم في الدُّنيا كلَّ ما أهمَّهم، ولا يضرُّهم تخويفُ المشركين لهم من غضبِ الأوثانِ عليهم؛ لأن الأمور كلَّها بيده سبحانه؛ فمَنْ يُضلُّه فلن تجدَ له وليًّا مرشدًا.

ومنها: لَمّا ذكر اللّه ﷻ ما أعده للكاذبين والمُكذِّبين من طول المقام في جهنم وإكرام الصّادق والمُصدَّق بما أعدَّه لهم من كُنوز عطائِه التي لهم فيها ما يشاؤون؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ أنَّ تهديدَ الكذّابين والمُكذِّبين لأهل الإحسان لا يضرُّهم شيئًا؛ لأنَّ وعدَ اللّهِ لأهل الصِّدقِ فيه الكفايةُ؛ فقال تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِكَافٍ﴾: الكافُ والفاءُ والحرفُ المعتلّ أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على الحَسْبِ الذي لا مُسْتزادَ فيه؛ يُقال: كفاكَ الشَّيءُ، يَكْفيكَ، وقد كفَى كِفايةً؛ إذا قامَ بالأمرِ، ويُقال: كافيكَ فلانٌ من رَجُلٍ؛ كقولك: حسْبُك من رَجُلٍ، والكِفايةُ ما فيه سَدُّ الخُلَّةِ وبُلوغُ المُرادِ في الأمرِ؛ قال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: 25]. والمقصودُ بقوله:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 12، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 436، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 245.

﴿بِكَافٍ﴾ في سياق جملته: أنَّ اللّه يكفي عبده بما لا يستطيعُ أنْ يكفيَ به نفسَه - في كلِّ حالٍ[1].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

اللـهُ هو الكافي الهادي

ذكَرَ ﷻ في هذه الآية أنَّه وحدَهُ هو الذي يدفعُ عن عبادِه جميعًا الآفاتِ والمصائبَ والويلاتِ ويعطيهم ما يشاءون، وفي هذا تثبيتٌ لهم، وتسليةٌ لنبيِّه محمّدٍ ﷺ على ما قالَتْهُ قريشٌ له؛ حيث خوَّفَتْه أنْ تُخْبِلَه آلهتُهم، وأنْ تُصيبَه بمكروهٍ، ثمّ بيَّنَتِ الآيةُ أنَّ من يضلُّه اللّهُ عن طريقِ الحقِّ فلا أحد يهديه؛ لأنَّ الهدايةَ والإضلالَ بيده وحده، وأنَّ ما أرادَ من ذلك لا رادَّ له[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ هذه الآيةِ عمّا قبلَها:

في الوعدِ والوعيدِ كفايةٌ لإصلاحِ أحوالِ العبادِ

فُصِلت جملة ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنّها نتيجةٌ مُستفادةٌ ممّا قبلَها من قوله تعالى: ﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ﴾ إلى آخرِ قوله تعالى: ﴿بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾؛ حيث اشتملَ ما سبقَ على الوعيدِ والوعدِ، وفيهما كفايةٌ للعبادِ في صلاحِ أحوالِهم؛ فاللّهُ كافٍ عبدَه في مُجازاةِ الصّادقين والكذّابين؛ لأنّه يعلمُ الآفاقَ البعيدة في حياة النّاس لفضيلةِ الصِّدقِ، والآفاقَ البعيدةَ في حياةِ النّاسِ لرذيلةِ الكذبِ؛ فبينهما كمالُ اتِّصالٍ[3].

بلاغةُ الاستفهام: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾:

الاستفهامُ أبلغُ في التّثبيتِ والتّسليةِ

صُدِّرت الآيةُ بالاستفهام بالهمزة في قوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾، وذلك للتّقرير بكِفايةِ اللّهِ من شاءَ من عبادِه، ولتسليةِ

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (كفا)، والراغب، المفردات: (كفى).
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 532، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 12.
(3) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 245.

النّبيِّ ﷺ وتثبيته، وذهب أبو السُّعود إلى أنَّ غرضَه الإنكارُ والنّفيُ، ووجهُ ذلك جعلُه مُسلطًا على عدمِ الكفاية في ظنِّهم؛ فالاستفهامُ إنكارٌ عليهم ظنَّهم أنَّه لا حامي للرَّسول ﷺ من ضُرِّ الأصنام؛ فأفاد إثباتَ كفايةِ اللّهِ لرسولِه، والمآلُ واحدٌ في إثباتِ الكفايةِ[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ﴾ دون (آلله)

الله تعالى كافٍ عبدَه وهو حسبُهُ

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بهذا الأسلوبِ الاستفهاميِّ ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ دون أن يُقال: آللّه كافٍ عبدَه؟ وذلك للدّلالةِ على قوّة الثّقة في الإثبات، وأنّه لا يجدُ مُنكرٌ سبيلًا إلى الإنكار، وأنَّ الكفايةَ من التّحقُّقِ والظُّهورِ بحيثُ لا يَقْدِرُ أحدٌ على أنْ يتفوَّهَ بعدمِها، أو يتلعثَمَ في الجواب بوجودِها[2].

سِرُّ التّعبيرِ باسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

لأنّه الجامعُ لصفاتِ الجلالِ والجمالِ والكمالِ

عبَّر القرآنُ باسْمِ الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾؛ تعليلًا للمعنى الذي يُقرِّرُه الاستفهامُ؛ فالإلهُ الحقُّ من شأنِه أنْ يكفي عبادَه؛ فهو "الجامعُ لصفاتِ العَظَمَةِ كلِّها، المنعوتُ بنُعوتِ الكمالِ من الجلالِ والجمالِ"[3]. ويتّسِعُ معنى الكفايةِ باتِّساعِ مدلولِ اسمِ الجلالةِ؛ لذلك تهيَّأَتْ هذه الجملةُ لأنْ تكونَ الجملةَ الأُمَّ في آيتِها وللآيةِ التي بعدَها.

دلالةُ الباءِ في قولِهِ: ﴿بِكَافٍ﴾:

مِن كفايتِه تعالى عبدَه سُرعةُ حُصولِها

دخلتِ الباءُ على خبرِ (ليس) في قولِهِ تعالى: ﴿بِكَافٍ﴾ للدّلالةِ على أنَّ الكفايةَ المذكورةَ من شأنِه سبحانه، وهذا وجه كونِها تُفيدُ توكيدَ مضمونِ الجملةِ، ولأنَّها تدلُّ على توثيقِ العَلاقَةِ الشَّديدةِ بين المُسنَدِ إليه والمُسنَد، ولأنّه لمّا كان ما قبلَ جملة ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 255.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 601، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 13، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 436، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 245.

(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 6/ 448.

﴿عَبۡدَهُۥۖ﴾ مُنْتِجًا لها بقوّةٍ؛ بُنِيَتْ على الإبلاغِ في تقريرِ مضمونِها؛ وذلك بدخولِ الباءِ التي لا يُفارِقُها معنَى الإلصاقِ والاخْتِلاطِ؛ فتدلُّ هنا على أنَّ الكفايةَ خاصّةٌ به سبحانه؛ وذهب البقاعيُّ إلى أنّ التّوكيدَ الحاصلَ بدخولها يواجِه جزمَ أهلِ الكفرِ والكذبِ والتّكذيب بأنّهم غالبون[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بـ (كاف) دونَ غيرِه:

اللـهُ يكفي كلَّ من لجأ إليه من عبادِه

عبَّر القرآنُ بـ (كاف) في قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ دون غيره؛ لِما يحمله هذا اللَّفظُ من العموم؛ لأنَّه يتَّسِعُ لكلِّ ما يكونُ من اللّه تُجاه عبادِه؛ إذِ الكفايةُ ما فيه سَدُّ الخُلَّةِ وبُلوغُ المُرادِ في الأمرِ؛ قال تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: 25]. وهذا العمومُ في المعنى والذي زاد اتّساعًا باسم الجلالة ﴿ٱللَّهُ﴾ هو الأَبَرُّ بشأنِ الإله الحقِّ من جهةٍ، وبأحوالِ العبادِ من أهل الإيمان التي تستغرق في العموم من جهةٍ أخرى. ولأنَّ هذا المعنى (الكفاية) هو الأبلغُ والأعلى في التّثْبيتِ والتَّسليةِ للرَّسول ﷺ في صراعِهِ مع قومه؛ فمثلُ هذا الميدانِ الكفايةُ فيه عينُ التَّثبيتِ.

سِرُّ التّعبيرِ بالاسميَّةِ (كافٍ) دونَ الفعليّةِ (يكفي):

كـفـايـةُ الـلـهِ مُلازِمةٌ لعباده

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسميّة (كافٍ) دون الفعلية (يكفي)؛ لأنَّها تفيد الثّبوتَ والاستمرارَ، وهذا هو المناسبُ لشأنِ العبادِ؛ فهم في افتقارٍ دائمٍ إلى كفايةِ اللّهِ، ولمّا كانَتْ هذه الكفايةُ مُتعلِّقًا لهم، وكانوا يتعلَّقون بها على جهة الثُّبوت والدَّوام؛ عبّر بالاسميّة، ولم يُعبّر بالفعليّة التي تُفيد التّجدّد والحدوثَ، وفي هذا تسليةٌ للرّسول ﷺ وطمأنةٌ لأصحابه الذين اتّبعوه من أن ينالهم أذًى من أعدائهم.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 448.

سِرُّ التَّنكيرِ في قوله: ﴿بِكَافٍ﴾:

كفايةُ اللهِ عبدَه لا تُساويها كفايةُ غيرِه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بقولِهِ: ﴿بِكَافٍ﴾ مُنكّرًا، ولم يَقُلْ: (بالكافي) مُعرّفًا، وذلك لإبرازِ ما تدلُّ عليه سعتُها ودلالتُها على الألوهيّة الحقّة التي لها القدرةُ التّامّةُ، والعِلْمُ الشّاملُ المُحيطُ؛ وهو الفخامةُ والعظمةُ والجلالُ.

سِرُّ التَّعبيرِ بالعبوديَّةِ في قولِهِ: ﴿عَبۡدَهُۥۖ﴾:

كفايةُ اللهِ تعالى لِمَنْ قامَ في ساحةِ عبادتِه وعبوديَّتِه

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالعبوديّةِ في قوله: ﴿عَبۡدَهُۥۖ﴾؛ لأنَّ مادَّة هذه اللّفظة تدورُ على أصليْن؛ أحدُهما اللّينُ والذُّلُّ، فيُقال: عبَد يَعْبُد عِبادة، وهذا لا يُقال إلّا لِمَن يعبُد اللّه تعالى، فدلَّ هذا على أنَّ كفايتَه ﷻ إنّما تكونُ للواحدِ من عبادِ اللّه؛ الخالِصِ له، الذي لم يُشْرِك به أصلًا؛ فاللّهُ يكفيه مِمَّن كذَّبه، وقصَد مساءتَه، فينصره عليه؛ حتّى يُظْهرَ دينَه تعالى، ويُعليَ أمره، ويُغنيَ عبدَه عن أنْ يحتاج إلى غيره، أو يجنح إلى سواه؛ باعتقاد أنّ في يدِه شيئًا يستقلُّ به، وهذا لا يُنافي السَّعْيَ في الأسباب مع اعتقادِ أنّها بيد اللّهِ.

سِرُّ التَّعبير عن النَّبيِّ ﷺ بالعبوديّة:

جاء التَّعبيرُ عن النَّبيِّ ﷺ بالاسم الظّاهرِ ﴿عَبۡدَهُۥۖ﴾ دون ضمير الخطاب؛ لأنَّ المقصود توجيهُ الكلامِ إلى المشركينَ[1].

التّوجيهُ البلاغيُّ لقراءتيْ: ﴿عَبۡدَهُۥۖ﴾:

مَن أرادَ كفايةَ اللهِ فعليه أنْ يدخلَ من بابِ رسول الله ﷺ

تعدَّدت القراءاتُ في قوله تعالى: ﴿عَبۡدَهُۥۖ﴾؛ فقرأ حمزةُ والكسائيّ وأبو جعفر وخلَفٌ (عباده) بألفٍ على الجمع، وقرأ الباقون بغير ألفٍ[2]. ووجهُ مَن قرأ (عباده) أنَّها جمعُ (عبد)؛ فيدخل فيهم كلُّ

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (عبد)، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 448 - 449، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 13.

(2) الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 481.

من عبدَ اللّهَ من الأنبياء والمؤمنين، ووجهُ من قرأ بالإفراد ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ على أنَّ المُراد به محمّد ﷺ(1).

والقراءتان متكاملتان في أداء المعنى المُراد؛ لأنّه لمّا كانَتْ كفايةُ اللّهِ إنّما تكونُ لِمَن لم يشتملُ قلبُه إلّا على توحيدِه؛ فكانَ عابدًا للّه مُخلِصًا له الدّينَ، وكان لا يكملُ في هذا المقامِ إلّا نبيُّنا محمّدٌ ﷺ؛ لذلك أفرَدَه تعالى بالذِّكْرِ في قراءةِ: ﴿بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾، ويُؤنس بهذا قولُه تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾. فكان المُحتَذَى به؛ لأنَّه رأسُ أهلِ ذلك المقامِ العَليِّ؛ فلهذا توجَّه إليه الأمرُ بذلك في مطلعِ السّورة: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ [الزمر: 2].

الله تعالى هو الكافي لعباده جميعًا

وأمّا قراءةُ الجمع فتصدُق على أتباعِه من أُمَّته؛ فرْقًا بين كفاية اللّه عبدَه مُحمَّدًا ﷺ وكفايةِ اللّه غيرَه من عباد اللّه. وذهبَ بعضُهم إلى أنَّ قراءةَ الجمعِ (عباده) تصدقُ على الرّسولِ ﷺ وعلى أُمّته؛ فيكون في ذلك تقريرٌ لكفايةِ اللّهِ إيّاه من جهةِ التّكرارِ لا من جهةِ الخصوصِ والاختصاصِ، قال ابنُ عاشور في توجيه قراءةِ الجمع: "أي النّبيَّ ﷺ والمؤمنين؛ فإنّهم لمّا خوَّفوا النّبيَّ ﷺ فقد أرادوا تخويفَه وتخويفَ أتْباعِه، وأنّ اللّه كفاهم شرَّهُم"(2).

دلالةُ الإضافةِ في (﴿عَبۡدَهُۥ﴾ - عباده) على القراءتين:

مَن أضافَ قلبَه وكلَّه لله كفاه اللّهُ

أضاف القرآنُ (عبْد) و(عباد) - على القراءتيْن المُتواترتيْنِ - إلى ضميرِ اسْمِ الجلالةِ في الآية الكريمة، وذلك للتّشريفِ والاختصاصِ؛ ومعنَى الاختصاصِ فيها يعني متانةَ العبوديَّةِ وإخلاص العبادةِ للّه، فهي تمكينٌ لمدلولِ المُضافِ ودلالته؛ فليس في قلب العبدِ شائبةُ شِرْكٍ، ولا شيءٌ من شِرْكٍ؛ وإنّما فيه كمالُ المعرفة باللّه كمالَ جمالٍ وجلالٍ.

(1) الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 481، والشيرازي، الموضّح: 3/ 1113.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 14.

دلالةُ التَّعبيرِ بضميرِ الغيبةِ في ﴿عَبۡدَهُۥۖ﴾:

اللهُ تعالى حافظٌ رسولَه ﷺ وكافيه

في التَّعبير عن رسولِ اللّهِ ﷺ بضميرِ الغيبة دون ذِكْرِه تنويهٌ بشأنِهِ وإعلاءٌ لِذكْرِه، وأنَّه صلواتُ اللّهِ وسلامُهُ عليه هو وحده المَعنيُّ بهذا الحديث، وهو الجديرُ بهذه الإضافةِ، والتَّأكيدُ على أنّه غيرُ مُسْلِمِه إلى أعدائِه"[1].

سِرُّ حذفِ المفعولِ الثّاني لقولِهِ: (كاف):

إفادةُ العموم وظهورُ ما يدلُّ عليه

الفعلُ (كفى) يتعدَّى بنفسه إلى مفعولَيْن كما في قولِه تعالى: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلۡقِتَالَۚ﴾ [الأحزاب: 25]؛ أمّا هنا مع قوله: ﴿بِكَافٍ﴾؛ فلم يذكرْ إلّا المفعول الأوّل، وهو لفظُ: (عبد)، وأمّا المفعولُ الثّاني فمحذوفٌ لإفادة العمومِ، فيكون وراء ذلك إبلاغٌ في تقريرِ الكفايةِ على تسلُّطِها على المفعولِ الثّاني المخصوصِ الذي هو الإيذاءُ. وذهب ابنُ عاشور إلى أنّ سِرَّ الحذفِ ظهورُ أنَّ المقصودَ: (كافيك أذاهُم)، فأمّا الأصنامُ فلا تستطيعُ أذًى؛ حتّى يُكْفاهُ الرَّسولُ ﷺ[2].

نكتةُ تقديمِ جملةِ ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾:

مَن أراد أن يعرف قدرَ نبيِّنا فلينظر كيف تحدَّثَ القرآنُ عنه

قدَّمَ القرآنُ جملة: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ على جملة: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ - لتعجيلِ مساءة المشركين بذلك، ويستتبع ذلك تعجيلُ مسرّة الرّسول ﷺ بأنّ اللّه ضامِنٌ له الوقايةَ؛ كقوله: ﴿فَسَيَكۡفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ [البقرة: 137]. فلم يذكر تعالى لنبيِّه تخويفَ خصوم الدَّعوة إلّا بعد أنْ قدَّم بين يديه كفايته له؛ ليقع هذا الإخبارُ بالتّخويف من نفسه موقعًا هيِّنًا، فكانتِ الجملة الأولى تمهيدًا قويًّا للثّانية، وهذا شبيهٌ بتقديم العفو على موضع المؤاخذة في قوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ﴾ [التّوبة: 43][3].

(1) الخطيب، التّفسير القرآنّي: 8/ 1154.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 13.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 12 - 13، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 437.

بلاغةُ الواوِ في قولِهِ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾

كيف يُخوِّفونَ عبدًا اللهُ كافيه؟!

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ الظّاهرُ أنّها واوُ الحالِ؛ ووقوعُ ما بعدَها حالًا من جملة: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ يفيدُ التَّعجُّبَ من حالِهم، والتّهكُّمَ بهم من أجله، والمعنى: أنَّ عُبّادَ الأصنامِ يعلمون أنَّ اللّه يكفي من أراد، وأنَّ الأصنام لا كفايةَ عندَها بوجهٍ، والحالُ أنّهم يُخوِّفونك(1). وفي جعلِه حالًا مِمّا قبلَه ترهيبٌ شديدٌ؛ لأنَّ الاستفهامَ في الظّاهرِ يحتاجُ إلى جوابٍ، وجوابُه أظهرُ ما سيكونُ في معاملة هؤلاءِ الذين يُخوِّفون أكملَ الخَلْقِ وأعبدَهُم للكافي اللّهِ سبحانه. وجعلُه حالًا يلتئم مع ما قبلَه على قراءةِ الإفراد ﴿عَبۡدَهُۥۖ﴾، وأمّا على قراءة الجمع (عباده)؛ فتفيدُ الحالُ أنَّ تخويفَ أحدٍ من أتباعِه ﷺ كإرادة تخويفِه ﷺ؛ في أنَّ اللّه كافيهم مِثْلَ ما يكفيه.

النَّبيُّ ﷺ في حراسةِ اللهِ ورعايتِه

ويجوز أن يكونَ قولُه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ معطوفًا على مضمونِ قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾؛ والمعنى: اللّهُ هو الذي يرعاك ويحفظك، والمشركون يُخوِّفونك بآلهتِهم مع أنّهم لا يستطيعون أن يُلحقوا بكَ الأذى لأنّك في حراسةِ اللّهِ ورعايتِه(2).

بلاغةُ المجازِ المُرسَلِ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾:

التّعبيرُ بالفعلِ عن إرادةِ الفِعلْ

ذَكَرَ بعضُ المُفسِّرين سببَ نزولِ الآيةِ أنَّ قريشًا قالوا له ﷺ: إنّا نخافُ أنْ تُخْبِلَكَ آلهتُنا، وإنّا نخشَى عليك مَعَرَّتَها؛ لعَيْبِكَ إيّاها(3)؛ لكنَّ ذلك لم يكُن أبدًا؛ فمعنى الفعل (يُخوِّف) لم يكُن، ويؤيِّد هذا قولُه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾، فكان القرآنُ قد عبَّر بالفعل عن إرادة الفعل؛ أيْ: (ويريدون أن يُخوِّفوك بالذين من دونه)،

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 449.

(2) الخطيب، التفسير القرآني: 8/ 1155.

(3) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 4/ 532، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 449، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 602، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 12 - 13.

ولهم صوَّرَ القرآنُ ذلك بالتّعبير بالتّخويف؛ مجازًا مرسلًا عَلاقَتُه المُسبَّبَيَّةُ؛ فإنَّ الإرادةَ سببٌ في الخوفِ؛ كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأۡتَ ٱلۡقُرۡءَانَ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾ [النّحل: 98]؛ أيّ: أردتَ قراءتَه؛ بقرينة قوله: ﴿فَٱسۡتَعِذۡ﴾ [النحل: 98].

سِرُّ التَّعبير بالخوفِ في قولِهِ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾:

أهلُ الباطلِ يلجأون إلى التّخويفِ لِما هم فيه من الخوفِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بالخوفِ في قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ دون (يرهبونك)؛ لوجود فرقٍ بينهما؛ فالخوف تدور مادّته حول التّحذير من مكروهٍ يقع في المستقبل، وهذا ما قصَد إليه أهلُ الشِّرْكِ من تحذيرِهم نبيَّنا محمّدًا ﷺ من تَعْيِيبِه آلهتَهُم. وممّا يُؤكِّد ذلك إطلاقُ الخوفِ على الذُّعْرِ والفزَعِ[1]، ويُساعدُ على ذلك ما ذُكِر في بيانِ سببِ نزول هذه الآيةِ سابقًا؛ أمّا التَّرهيب بأن يقول: (ويُرهبّونك) لا يؤدّي المعنى المُراد؛ لأنَّ المقصود به الخوفُ الذي يصحبه اضطرابٌ شديدٌ، وهذا لا يتأتّى مع الرَّسول ﷺ.

دلالةُ التّعبيرِ بصيغةِ (فَعَّلَ):

بُني الفِعْلُ على صيغةِ (فَعَّلَ)؛ للدّلالةِ على بذلِهم الجهدَ في التّخويف من سبِّ آلهتهم، وشدّة رغبتِهم في تخويفه ﷺ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾:

شدّةُ بُغضِهم للرَّسول ﷺ بمثابةِ تجدُّدِ التّخويفِ

في التَّعبير بالمضارعةِ إشارةٌ إلى تَكرارِ مِثْلِ هذا التّخويفِ من المشركين للرّسول ﷺ ولأتباعِهِ في زمنِه وفي الأزمنةِ التي بعده يتجدَّد أمرُ التَّخويف من المشركين للمسلمين.

وممّا يُذكرُ في سِرِّ التَّعبيرِ أيضًا إشارتُهُ إلى ما يعتملُ في قلوبهم ونفوسِهم من الحقد والحسد مِمّا ترتَّب عليه إرادةُ تخويفه ﷺ؛ فنفوسُهم وقلوبُهم تنفعلُ بإرادة ذلك، ويغلي فيها، كأنَّه يتجدَّدُ وينمو فيهم.

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (خوف).

بلاغةُ الالتفاتِ في قولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾:

مَنْ آنَسَهُ اللهُ فلن يُخوِّفَه أحد

عدلَ القرآنُ عن أن يقول: (ويخوفونه) بإرجاع الضّمير إلى ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ على قراءة الإفراد، إلى التَّعبير بقوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ بالالتفاتِ من ضمير الغَيْبة العائد على ﴿عَبۡدَهُۥ﴾ إلى ضميرِ الخطابِ؛ المقصودِ به النّبيُّ محمّدٌ ﷺ لنكتة؛ وهيَ تمحيضُ قَصْد النّبيّ ﷺ بمضمون هذه الجملةِ؛ بخلاف جملة: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾[1]. ولَمّا أراد أهلُ الشِّرك تخويفَه، وسلْبَ شيءٍ من أَمْنِه: زادَه اللّه أُنْسًا وأَمْنًا وأمانًا بإحضارِه في ساحةِ الخطابِ الإلهيِّ؛ إنباءً بكمالِ حُبِّه نبيَّه، وبغضِه هؤلاء المشركينَ.

سِرُّ الإسنادِ إلى كافِ الخطابِ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾:

تعظيمُ اللهِ لنبيّه ﷺ والتّهوينُ من شأنِ تخويفِ المشركين له

لم يُسلِّطِ القرآنُ تخويفَ أهلِ الشِّرْكِ على اسم للنّبيِّ محمّدٍ ﷺ أو وصفٍ له؛ نحوُ: (ويُخوّفون مُحمَّدًا)، أو: (ويُخوّفون النّبيَّ)؛ وإنّما سلّطَه على كافِ خِطابِه؛ فقال: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾؛ إشارةً إلى أنَّ ذلكَ التّخويفَ لن يُصيبَه ﷺ؛ وإنّما هو مُجرَّدُ قولٍ لن يَظْهَرَ له فِعْلٌ؛ فالضّميرُ كالقولِ المُجرَّد، وكلٌّ من الاسمِ الظّاهرِ والوصفِ الظّاهرِ كالفِعْلِ. وفي تسليطِهِ على ضميرِهِ (كاف الخطاب) إشارةٌ إلى رِفْعةِ مكانتِهِ ﷺ وعُلوِّ قدرِهِ.

دلالةُ تَعديَةِ الفعلِ ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ بالباءِ:

التَّعجُّبُ من تخويفِ المشركين له ﷺ بالأصنام

عُدِّى الفعل ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾ بالباء في قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾ مع أنَّ فِعْلَ التّخْويفِ يتعدّى بنفسه إلى مفعولَيْن؛ نحوُ: (خوَّفْتُ الجنودَ المعصيةَ)؛ وإنّما تعدَّى هنا بواسطة الباء إلى الموصولِ الصّادقِ على الآلهةِ الباطلةِ التي يعبدُها أهلُ الشِّرْك من دون اللّهِ؛ للتّعجُّبِ من حال هؤلاءِ؛ فإنّ الذين اتّخذوهم من دونه آلهةً ليس من شأنهم التّخويفُ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 13.

دلالةُ التّعبيرِ بالباءِ في قولِهِ: ﴿بِٱلَّذِينَ﴾:

مِـن دأْبِ أهـلِ الباطِلِ الكَذِبُ والتَّدْليسُ

عُبِّر بالباء في قوله: ﴿بِٱلَّذِينَ﴾؛ لبيان غرضِهم من التّخويفِ؛ وهو تحقُّقُ التّخويفِ المذكورِ؛ بإيهامِ أنّهم أعرفُ النّاسِ بتلك الأصنام، وبما يكونُ منها في حالةِ الغضبِ، وهذا كلُّه كذِبٌ ودجَلٌ كعادةِ أهلِ الباطلِ في كلِّ عَصْرٍ ومِصْرٍ وجِنْسٍ. ويجوز أنْ يكون في الباء معنَى السَّببيَّةَ؛ أيْ: (ويخوفونك بسببِ الذين من دونه)؛ أيْ: (بسبب تعييبك الذين من دونه)، وهذا يُصوِّرُ إجلالَهم للأصنامِ وخوفَهُم منها؛ إيهامًا لأهلِ الإيمانِ بأنَّها آلهةٌ تنفعُ وتضرُّ.

دلالةُ التّعبيرِ بالموصوليَّةِ (الذين) عن الأصنام:

ما يعبده أهلُ الـكُـفـرِ صـارَ ضُحَكَةً وشُهَرَةً بينَ النّاسِ

أُطلقَ وصف التَّعبيرِ القرآنيِّ بالاسم الموصول (الذين) - الذي يُعبَّر به عن الذُّكور العقلاء - على الأصنامِ رغم أنَّها لا تعقل، وذلك للتّهكُّم والسُّخْرية والاستهزاءِ بما اعتقدوه في تخويف الأصنام؛ لأنَّ التَّخويف يقع ممَّن له اختيارٌ، وهذا شأن العقلاء؛ لذلك نزَّلوها منزلةَ العقلاءِ، ونسبوا إليها القوّة؛ لذلك نزّلوها منزلة الذُّكور من العقلاء، وهذا هو الألصق بسياق التَّخْويفِ الذي يحتاج إلى قوَّةٍ وشدَّةٍ وجرْأةٍ. وهذا التّنْزيلُ يُشاكِل - مُعرِّضًا بأهل الكفر - تنزيلَهم بالعبادة وغيرِها منزلةَ العقلاءِ مع اعترافهم بأنّهم لا عقلَ لهم؛ فصاروا بذلك ضحكةً وشهرةً بين النّاس[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿مِن دُونِهِۦۚ﴾:

ما أسفهَ عقولَ المشركين وأحقرَ ما يدعون من دون الله

قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦۚ﴾ جارٌّ ومجرورٌ ومُضافٌ ومُضافٌ إليه مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ؛ هو صلةُ الموصولِ: (الذين)؛ أيِ: الذين اتَّخذوهم من دونه، ونحوُ ذلك. وفي نَظْم هذا المعنَى صلةٌ تقريرٌ وتحقيقٌ لحقارةِ الأصنام وغيرِها مِمّا يُعْبَدُ من دونِ اللّهِ، وسفَّه عابديها؛ لأنّها مخلوقة للّه لا تنفعُ ولا تضُرُّ، فليس من شأنِها أنْ تُعْبَدَ؛ فضلًا عن التَّخويف بها.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 449.

سِرُّ حذفِ مُتعلّق ﴿مِن دُونِهِۦٓۚ﴾:

المبالغةُ في تحقيرِ تلك الآلهةِ الباطلةِ

حذَف القرآنُ ما يتعلّقُ به قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦٓۚ﴾ - كائنًا ما كان تقديرُه، وكلُّ تقديرٍ يشتملُ على عنصرٍ يعودُ على الموصولِ الذي هو الأصنامُ ومِثْلُها؛ نحو: (الذين اتخذوهم من دونه)، و(الذين عبدوهم من دونه)؛ إبلاغًا في تحقيرِ تلك الآلهةِ الباطلةِ المزعومةِ؛ فغيابُها من الكلامِ في الصِّلة دليلُ كمالِ بطلانها وضعفها عن أنْ تكون - كما يزعمون - آلهةً تنفع وتضرُّ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مِن﴾ في قولِهِ: ﴿مِن دُونِهِۦٓۚ﴾:

اعتقادُ بُطْلانِ هذه الآلهةِ الباطلةِ ينبغي أنْ يكون راسِخًا في النَّفْسِ

﴿مِن﴾ في قوله تعالى: ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓۚ﴾ بيانيّةٌ؛ لأنّ ما قبلها كاسم الجنس في غموضه وإبهامه؛ وهو الاسم الموصولُ الفقيرُ إلى صلةٍ تكشف حقيقته، وتوضِّحُه؛ فـ ﴿مِن﴾ من تمام عنصرِ التّشويقِ إلى معرفةِ حقيقة الموصولِ؛ قال البقاعيُّ: "وبيَّنَ حقارتَهم بقوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓۚ﴾ وهم معبوداتهم ضلالًا عن المَحَجَّة؛ فيقولون: إنّا نخشَى عليك أنْ تخْبِلك آلهتنا"[1].

عِلَّةُ التّعبيرِ بـ (دون):

في هذا نوعُ تحريكٍ للنّظرِ في الأعلى والأدنى

عبَّر بـ (دون) في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓۚ﴾ من باب التَّهكُّم والسُّخريّة؛ لأنَّها تُقال في الأصل للقاصِر عن الشّيء، وهذا يدلُّ على ضعفها وقصورها؛ يُؤكِّد ذلك تعبيرُ القرآن عن الأصنام بقوله: ﴿بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓۚ﴾؛ فهي تحمل كلَّ معاني القصور والعجز.

وقال بعضُهم: (دون) مقلوبٌ من (الدُّنوّ)، والأَدْوَنُ الدَّنيءُ، حتّى صار معناه في مِثْلِ هذا السّياقِ الذي نحنُ فيه: (غير)؛ أيْ: بالذين من غيره، وعلى كلٍّ ففيه معنَى الضَّعْفِ والحقارةِ[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 449.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 449، والراغب، المفردات: (دون).

سِرُّ التّعبيرِ بالإضمارِ دونَ الإظهار:

كمالُ ظهورِ نفي التّسويةِ بينَ اللهِ - وبينَ آلهتِهم المزعومةِ

للتّعبير عن اسم الجلالة (اللّه) بالضّمير في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ - دون الإظهار معَ أنّه الأصلُ -؛ لتصويرِ كمال ظهورِ نفي التّسْويةِ بينَ اللّه - وبينَ غيرِه ممّا يعبدُه أهلُ الكفرِ والشِّرْكِ من دونِ اللّهِ، وهذا ينسجمُ مع وقوعِ الضّمير عنصرًا في صلةِ الموصولِ. ولو عُبِّر باسْم الجلالة (اللّه) مُظْهَرًا في موضِع إضمارِه لأفْهَم اعتدادًا بالمُخوَّفِ به، وبالتّخويفِ، وهذا ضِدُّ الغَرَضِ الذي هو إثباتُ عكسِ ذلك تمامًا.

سِرُّ التَّعبير بالواوِ في قولِهِ: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ﴾:

رفضُ الكذبِ وتثبيتُ الصِّدقِ يفتقرُ إلى طولِ نَفَسٍ ومُعاناةٍ

آثَرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالواوِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾؛ لأنَّ هذه الجملة ثمرةٌ ونتيجةٌ لمجموعِ قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾؛ فهو من لوازِم ذلك؛ ثم إنّها توكيدٌ لمعنى أنَّ اللّه هو الكافي وهو الشّافي، وأنّكم كلّكم في قبضته، ولا حول ولا قوة إلّا بحولِه وقوّته؛ فكان الظّاهرُ غيابَ الواوِ؛ لكمال الاتّصالِ بين الطّرفيْنِ؛ ولكنَّ الواوَ التي لا يبرحُها معنى المُغايَرة دلَّت على استقلالِ ما بعدها عمّا قبلها؛ احتفالًا واعتناءً بمضمونِه؛ إبلاغًا في تهديدِ أهلِ الكذِب والتّكذيبِ والتّخويفِ، وفي تثبيتِ أهل الإيمانِ والصِّدْق والتّصديقِ، وتسليةِ رأسِهم نبيِّنا محمّدٍ ﷺ.

دلالةُ أسلوبِ الشَّرْطِ في الآية الكريمة:

تحقُّقُ ضلالِهم واستمرارِهم فيه

نظَم القرآنُ معنى الإضلالِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ في صورةِ الشّرطِ والجواب، وكذلك معنى الهدايةِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾؛ لإبرازِ كلٍّ من المعنيَيْنِ في وكادةٍ وحَسْمٍ وفصْلٍ؛ لأنَّ كلًّا منهما يُقرِّرُ الألُوهيّة الحقَّةَ التي يكون في قبضتِها كلُّ شيءٍ، ولا حول إلّا بحولها، ولا قوّةَ إلّا بقوّتها؛

ولهذا كان كلٌّ منهما معنًى وأسلوبًا تمهيدًا قويًّا لمجيء معنى قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (مَنْ):

الإفـرادُ أبلـغُ في إفـرادِ الأُلوهيّةِ الحَقَّةِ

آثرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ (مَنْ) في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾؛ لأنَّ لفظَها مُفردٌ مُذكَّرٌ؛ ومعناه الجمعُ بنوعيه، والقرآنُ حملَ على لفظِه، فبُني على أسلوب الإفرادِ والتّذكير، وظهَر هذا الحَمْلُ في الضّمير في قوله: ﴿لَهُۥ﴾ في الموضعَيْن، والمفعولُ المحذوفُ في قوله: ﴿يُضۡلِلِ﴾، وقوله: ﴿يَهۡدِ﴾ مُفردٌ مُذكَّرٌ أيضًا، وذلك؛ لأنَّ الإفرادَ أبلغُ في تقريرِ الألوهيَّة الحقَّةِ الكافيةِ الشّافيةِ التي في قبضةِ قدرتِها كلُّ شيءٍ، ولأنَّه أبلغُ في تسليةِ النّبيّ ﷺ والتّخفيفِ عنه في إذهاب نفسِه عليهم حسراتٍ، وأيضًا في إرعابِ أهلِ الشِّركِ وإرهابِهم. وهو أدلُّ على الغضبِ والجلالِ والقَهْرِ والهَيْمنةِ والإحاطةِ والجبروتِ؛ لأنّ القوم حاولوا أنْ يُخوِّفوا الرَّسول ﷺ بمخلوقٍ لا يملكُ لنفسِه نفعًا ولا ضَرًّا.

عـلى المـرءِ أن يُـراجِـعَ نفسَه ويُقيِّمَ إيمانَه

وفيه أيضًا حثٌّ لكلِّ نَفْسٍ كافرةٍ مشركةٍ على مراجعةِ ما تعتقدُه من غير تأثُّرٍ بأحدٍ من بني عقيدتها؛ لأنَّ كلَّ نَفْسٍ سوف تُجزى بما كسبت هيَ، وكلُّ نَفْسٍ بما كسبت رهينةٌ.

وفيه أيضًا حثٌّ لكلِّ نَفْسٍ مؤمنةٍ على حدةٍ على الثّباتِ؛ لأنَّ هذه النَّفْسَ معها شيءٌ عظيمٌ؛ هو هدايةُ اللّهِ. وأمّا التَّذكيرُ: فهو الأنْسَبُ بسياقٍ فيه الجلالُ والتَّرهيبُ والجمالُ والتَّرغيبُ.

دلالةُ التّعبيرِ بالإضلالِ في قولِه: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ﴾

الـكـذِبُ والـتَّـكـذيـبُ مـن أعـظـمِ أسبابِ الضَّلالِ والإضلالِ

عبَّر القرآنُ بالإضلالِ في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ تناسُبًا وتلاؤُمًا مع سياقِ الكذِبِ والتّكذيبِ في السِّباقِ القريبِ؛ فإنَّهما من أعظمِ أسبابِ الضَّلالِ والإضلالِ والعُدولِ الطّريقِ المستقيم، وهذا المعنى متناغٍ بقوّة مع هذيْنِ؛ لأنَّ بهما تتغيّر الحقائقُ، وأصلُ هذا

المعنى يدلُّ على ضَياعِ الشَّيءِ وذَهابِه في غيرِ حقِّه[1]. ففيه كلُّ تنفيرٍ من الكذِب والتَّكْذيب، والتَّرغيب في الصِّدْقِ والتّصديقِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارِعِ ﴿يُضۡلِلِ﴾:

مَظاهِرُ الألوهيّةِ مُـتـجـدِّدةٌ فلا مُعقِّبَ لحُكمِه

نظَمَ القرآنُ الكريمُ معنى الإضلالِ فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾؛ نظَرًا إلى تجدُّدِ خَلْقِ أسبابِ الإضلالِ الذي هو تأويلُ إسنادِه إلى اللّهِ في الظّاهرِ؛ لتفاوُتِ هذه الأسبابِ؛ وهذا يلمحُ من طَرْفٍ خفيٍّ إلى إمكانِ التَّبديلِ والتَّغييرِ؛ فلا يأسَ من رحمةِ اللّهِ ولُطفِه.

بلاغةُ الإسنادِ في: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾:

الإضـلالُ بـقـدَرِ اللهِ وأمرِه

أسنَدَ القرآنُ الإضلالَ إلى اللّه في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾، وهذا الإسنادُ على تأويلِ أنّه سبحانه خالِقُ أسبابِ الضَّلالِ والإضلال، وذلك من تصرُّفِه تعالى في الخَلْقِ، وهيمنته واقتدارِه عليهم، وهو من مظاهر حِكْمتِه العليَّةِ اللّطيفةِ. وفي هذا الإسنادِ إشارةٌ إلى أنَّ الضَّلال كائنٌ بمعرفةِ اللّه تعالى، وما يتْبَعُ تلك المعرفةَ. وفيه أيضًا إبلاغٌ في تقريرِ خلْقِ أسبابِه، وتحريكٌ للمُتلقّي لفَهْمِ تأويلِ الإسنادِ؛ فيتمكّن المعنى في نفْسِه؛ فيثبُتُ على الهدايةِ؛ إنْ كان مؤمنًا، ويُفكِّر فيما هو عليه من عقيدةٍ وعملٍ ضالّيْن؛ إنْ كانَ كافرًا. وذهب ابنُ عاشور إلى أنَّ إسنادَ إيجادِ الإضلالِ إلى اللّهِ "كنايةٌ عن تعسُّرِ أو تعذُّرِ اقتلاعِه من نفوسِهِم"[2].

سِرُّ حَذْفِ العائدِ في: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾:

القدرةُ الإلهيّةُ لا يحدُّها حدٌّ

حذَف القرآنُ العائدَ على اسْمِ الشّرط في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾ وهو مفعولُ فِعْلِ الشّرط، وهو ضميرٌ مُفرَدٌ مُذكَّرٌ بقرينةِ الضّميرِ في قوله: ﴿لَهُۥ﴾؛ أيْ: (ومَن يُضلله اللّهُ)، وسِرُّ الحَذْفِ

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (ضَلّ).

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 14.

تصويرُ كمالِ اقتدارِ اللّهِ سبحانه على كلِّ فَرْدٍ من خَلْقِه، ونَفاذِ أمرِه في خَلْقِه؛ فهو الإلهُ الحقُّ، وقدرتُه القدرةُ المُتفرِّدةُ معَ فائدةِ الإيجازِ المُناسِبِ؛ بما فيه من إسراعٍ لسياقِ الغضبِ والجلالِ، وسياقِ الشّرطِ من الفَصْلِ والحَسْمِ وفائدةِ تحريكِ المُتلقّي للتَّفكيرِ بقوَّةٍ في هذا المعنى عن طريقِ تأويلِ الحذفِ وتعيينِ المحذوفِ وفِقْهِ سِرِّه؛ فيتمكّن المعنى في نفوسِهم؛ وذلك سبيلٌ قويٌّ لأنْ ينظروا بتأنٍّ في الهُدى والضَّلالِ، فيختاروا أيَّ الطَّريقَيْنِ يسلكونه ويستمرّون فيه.

سِرُّ التَّعبيرِ بالإظهارِ ﴿ٱللَّهُ﴾ دونَ الإضمارِ:

كُلُّ شيءٍ في الكونِ يدلُّ على أنَّ اللهَ هو الواحدُ الأحدُ

كانَ الظّاهرُ أنْ يقولَ القرآنُ: (ومَنْ يُضلل)، أو: (ومَنْ يُضلله) بعدمِ ذِكْرِ اسْمِ الجلالةِ؛ لأنّ الأصلَ الإضمارُ؛ وإنّما أظْهَرَهُ القرآنُ "لتحقيقِ مضمونِ الكلامِ، وتربيةِ المَهابةِ"[1]. وللتَّنبيهِ على ظهورِ الأُلوهيَّةِ الحقَّةِ ظهورًا جليًّا بيِّنًا في شأنِه تعالى في مضمونِ هذه الجملةِ. وفيه أيضًا: إبلاغٌ في تسليةِ الرَّسولِ ومَن معَه ودعوتِهم إلى تسليمِ الأمرِ للّه وحده في أمرِ الكاذبينَ المُكذِّبينَ. وحسَّنَ الإظهارَ في موضِعِ الإضمارِ طولُ المسافةِ البيانيّةِ بين ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ﴾ وبين ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾؛ لأنَّه واردٌ في صدرِ جملة مستقلَّةٍ.

دلالةُ التّعبيرِ بالفاءِ في قولِهِ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾:

مَن تلبَّس بالإضلالِ لا يستطيعُ أحدٌ أن يهديَه إلّا اللهُ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ واقعةٌ في صدرِ جوابِ الشّرط؛ لأنّه جملةٌ اسميَّةٌ؛ فهي رابطٌ بينَ جملةِ الشّرطِ وجملةِ الجوابِ، فهذا الرَّبْطُ معناها، وتُلازمُها السّببيَّةُ؛ فتدلُّ هنا على قوّةِ تلبُّسِ الإضلالِ بمَن يُضلله اللّهُ، حتَّى إنّه لا يستطيعُ أحدٌ أنْ يهديه مُطلقًا.

دلالةُ التّعبيرِ بـ (ما)

النَّفيُ بها في الحالِ والاستقبالِ

قولُه تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ جملةٌ منفيَّةٌ، والنّافي فيها (ما)، وهي غيرُ عاملةٍ. ومعنَى الجملةِ التي نفتْه يوجّه زمانَ النَّفيِ بها؛ فهي

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 602.

في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ للنَّفْي في الحالِ والاستقبالِ، والمعنى: أنَّ من أخَذ بأسبابِ الهداية فاهتدَى؛ فلن يَصْرِفَه أحدٌ عن مقصده، ولن يُصيبَه بسوءٍ يُخِلُّ بسلوكه، ولن يُثْنيَه عن الاهتداءِ أحدٌ؛ لا في الحال ولا في المستقبل. وهذا العمومُ في النَّفْي تصويرٌ لجانبٍ من جوانب الألوهيّة الحقَّة التي لا رادَّ لفِعْلِها، ولا مُعارِضَ لإرادتِها.

دلالةُ اللّامِ في قولِه: ﴿لَهُۥ﴾:

ما يقضي به الله حَتْمٌ لازِمٌ

اللّامُ في ﴿لَهُۥ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ معناها الاختصاصُ الذي تتضمَّنُه الإضافةُ؛ فتكون تمهيدًا للقَصْرِ الحاصلِ بتقديم ﴿لَهُۥ﴾ على ما بعدَه؛ وذلك إبلاغٌ في إثباتِ الضّلالِ، ونفي محاولةِ تبديلِه؛ أيْ: إبلاغٌ في تقريرِ أنَّ أمْرَ العبادِ كلِّ العبادِ بيدِ اللّٰه الكافي الشّافي.

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ:

الإنباءُ بكمالِ قدرتِه تعالى على عبادِه

وفي التّعبير بالضّمير ﴿لَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ دون صريحِ الوصفِ إيجازٌ؛ يُساعِدُ في تحقيقِ سَمْتِ الجملةِ من الحَسْمِ والفَصْلِ والقَطْعِ. وينسجمُ معَ سياقِ الغضبِ والجلالِ. وفي الضّميرِ المُشْعِر بالذّاتِ إنباءٌ بكمالِ استيلائه تعالى على عباده.

سِرُّ تّقديمِ ﴿لَهُۥ﴾ هنا وتأخيرِه في سورة (الأعرافِ)

قصرُ نفيِ الإضلالِ على من هداهُ اللهُ

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿لَهُۥ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ على المبتدأ ﴿مِنۡ هَادٍ﴾؛ فأفادَ التّقديمُ قَصْرَ نفيِ الهدايةِ على من أضلَّه اللّه؛ كما قُصِر نفيُ الغَوْلِ على خمر الجنَّة في قوله تعالى: ﴿لَا فِيهَا غَوۡلٞ﴾ [الصّافات: 47]. ومعنَى هذا: أنَّ من أضلَّه غيرُ اللّه يُمكن أنْ يكون له هادٍ؛ كهؤلاء الذين تُضِلُّهم شياطينُ الإنس والجنّ ثمّ يرجعون، وهذا القصرُ يعني أيضًا أنّ من أضلَّه اللّه لا يهديه أحدٌ، ويمكنُ أنْ يَهديه اللّهُ؛ لأنّه هو الإلهُ الحقُّ الذي بيده كلُّ شيءٍ، وهذا تمكينٌ لمعنى أنَّ اللّه كافٍ عبدَه.

ويدلُّ القَصْرُ على شديدِ التّرهيبِ من الكذبِ والتّكذيبِ؛ لأنّ ذلك يجعلُ العبدَ يتعرَّضُ لإضلالِ اللهِ الذي لن يكون بعدَه هدايةٌ من أحدٍ.

وفي التّقديم اهتمامٌ بضميرِهم في مقامِ نفي الهادي لهم؛ لأنَّ ضلالَهم المَحكيَّ في السّياق بالغٌ في الشّناعة؛ إذا بلغ بهم حدَّ الطَّمَع في تخويفِ النّبيّ ﷺ بأصنامِهم في حالِ ظهورِ عدمِ اعتدادِه بأصنامِهم، وإذا بلَغ بهم اعتقادُ مقدرةِ أصنامِهم مع الغفلةِ عن قدرةِ الرَّبِّ الحقِّ.

وفي سورةِ (الأعرافِ) ورَدَ عكسُ هذا التّقديم؛ قال تعالى: ﴿مَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُۥۚ﴾ [الأعراف: 186]. والشّاهدُ: ﴿هَادِيَ لَهُۥۚ﴾ [الأعراف: 186]؛ وسببُ ذلك أنَّ في السّياق ذِكْرَ إعراضِهم عن النّظر في ملكوتِ السَّماوات والأرضِ؛ وهذا ضلالٌ دونَ ضلالِ التّخويفِ من بأس أصنامِهم كما في (الزُّمَر). وبناءُ اسم لا النّافية للجنس في (الأعراف) على الفتح: مشعرٌ بأنَّ المرادَ نفيُ الجنسِ نَصًّا، فلم تدخل: (مِنْ) في التّركيب كما دخلت في (الزمر)(1).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ﴿مِنۡ﴾ في قولِه: ﴿مِنۡ هَادٖ﴾

تمهيدٌ لتقريرِ عِزَّتِه تعالى وانتقامِه

الأصلُ أنْ يُقال: (فما له هاد)، من غير (مِنْ) ولكنْ ورَدَ التَّعبيرُ بها في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾؛ فأدخلَها على الاسم المُفيدِ للعموم من جهة تنكيرِه لوقوعه في سياقِ النَّفْي؛ بقرينة سياقِ المعنى لاستغراق النّفي، وشمولِ جميع أفرادِ المنفيِّ، "وتَنْصيصًا على نفي الجنس"(2)؛ فهي توكيدٌ للعموم وتكثيرٌ له؛ وهذا إبلاغٌ في تقريرِ النَّفي يَتْبَعُه إبلاغٌ في تخويفِ أهلِ الكذبِ والتّكذيبِ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 14، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 250، 252.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 14.

علَّةُ التّعبيرِ بـ ﴿هَادٍ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

مطلوبُ القرآنِ هدايةُ كلِّ ضالٍّ

آثَرَ القرآنُ التَّعبيرَ بوصفِ الهدايةِ في قولِهِ تعالى: ﴿هَادٍ﴾؛ لأنَّ مطلوبَه في الضّالِ هو أنْ يهديَه إلى الحقِّ والصَّوابِ والخيرِ. ونظَمَه القرآنُ اسْمًا ﴿هَادٍ﴾ إشارةً إلى ثُبوتِ النَّفْيِ؛ وإنْ كانَ الحريصُ على هدايتِه إلى الخيرِ مُطلقِ خيرِ مُهتديًا هو إلى كلِّ وجوهِ الخيرِ، وإنْ كانَ الحريصُ على ذلكَ دائمَ محاولةِ هدايتِه، ثابتًا في هذا المقامِ الدَّعَويِّ مُستمِرًّا فيه في كلِّ وقتٍ، وهذا إبلاغٌ في تقريرِ نفاذِ حُكمِ اللّهِ في إضلالِ من يضْلِلُه.

دلالةُ التَّنْكيرِ في قولِهِ: ﴿هَادٍ﴾:

نظَم القرآنُ المُسندَ إليه في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ نكرةً في سياقِ النَّفْيِ؛ لإفادةِ العمومِ؛ أيْ: أيِّ هادٍ، من قريبٍ أو بعيدٍ أو صديقٍ أو عدوٍّ.

بلاغةُ الكنايةِ في فاصلةِ الآيةِ:

لا هـــادِيَ ولا اهتداءَ

محصولُ جملةِ ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ نفيُ الهادي، وقد أُريدَ منه نفيُ حصولِ الاهتداءِ؛ فكُني عن عدم حصول الهدى بانتفاء الهادي؛ لأنَّ عدم الاهتداء يجعلُ هاديَهُم كالمنفيِّ[1]، فهو نفيٌ للمقصودِ بدليلٍ؛ وهذا أبلغُ في تقريرِ المطلوبِ.

بلاغةُ التَّعقيبِ بفاصلةِ الآيةِ:

القرآنُ يُرشدُهُم إلـــى ضـــرورةِ المراجعةِ

عقَّب القرآنُ بقولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ معَ ما قبلَه في آيةٍ مستقِلَّةٍ للفت أنظارِ أهلِ الكفرِ والشِّرْكِ لعظيم غفلتِهم الدّالِّ عليها قولُه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ﴾، والمُراد تخويفُهم الرَّسولَ الأكرمَ إلى قُبح الإصرارِ على الشِّرْكِ والكذبِ على اللّهِ والتَّكذيبِ بالصِّدْقِ. وإلى أنَّ الذين خوَّفوا الرَّسولَ به لن ينفعَهُم؛ فلن يهديَهم

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 14.

إذا أضلَّهُمُ اللّهُ، وإنّما الذي ينفعُهم، فيكون سببًا في هدايتهم؛ إذا أراد اللّه هدايتهم وشاءَها: الذي يُخوِّفونه؛ وهو النّبيّ ﷺ.

نكتةُ تقديمِ فعلِ الإضلالِ على فعلِ الهداية:

الأصلُ القَصْدُ إلى علاج مَرْضى القلوبِ والعقيدةِ

قدَّم القرآنُ قولَه تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ﴾ على قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾ من تقديم معنًى على معنًى، أو جملةٍ على جملةٍ؛ لأنَّ السّياقَ يغلبُ عليه الغضبُ والتَّهديدُ والوعيدُ؛ لاشتماله على إرادة تخويفِ خيرِ خَلْقِ اللّه على الإطلاقِ، وبدليلِ تعقيبِ هذيْنِ المُتعاطفيْنِ بجملة: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ٣٧﴾ [الزمر: 37]

هذه الآيةُ والتي قبلَها معنًى كلّيٌّ واحدٌ

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا بيّنَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقة أنَّ جميعَ العبادِ في قبضتِه، وأنْ لا حولَ ولا قوّةَ إلّا بحولِه وقوّته؛ وهذا ظاهرٌ في مسألةِ الإضلالِ فمَن يُضلّه اللّهُ فلا هاديَ له؛ بيَّنَ في هذه الآيةِ صورةً مُقابلةً لهاته؛ وهي صورَةُ أنّ من يهده اللّه فلا مُضِلَّ له، ثمّ ختمها بما يَرْجِعُ إلى صدرِ الآيةِ السّابقةِ رجوعَ العَجُزِ على الصَّدْرِ.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنتِقَامٍ﴾: (نقم) أصلٌ يدلُّ على إنكارِ شيءٍ وعيبِه؛ يُقال: نَقَمْتُ عليه، أَنْقِمُ: أنكرتُ عليه فِعْلَه، والنِّقْمةُ من العذابِ والانتقام؛ كأنّه أنكَر عليه؛ فعاقَبَه؛ فقولُه: نَقِمْتُ ونَقَمْتُه: إذا أنكرْتَه؛ إمّا باللِّسانِ، وإمّا بالعُقوبة؛ قال تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التّوبة: 74]. والنِّقْمةُ العُقوبةُ: ﴿فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [الأعراف: 136]. والمقصودُ بقوله: ﴿ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ أنَّ له سبحانه أنْ يُعاقِبَ من يشاءُ من عبادِه[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

من شأنِه تعالى أنْ يَحْمِيَ المُهتدين

بينت هذه الآيةُ القسمَ الثّاني، وهو الهداية المقابلَ للقِسْمِ الأوّلِ وهو الإضلالُ الذي سبَق ذِكْرُه في الآيةِ السّابقة؛ فقرَّرَت هذه أنَّ هُدَى اللّه إذا أصابَ عبدًا فلا مُضلَّ له؛ ثمّ توعّدَ تعالى الذين يُخوِّفون عبدَه بالذين هم من دونِ اللّهِ بعزّته وانتقامه؛ فكان ذلك، وانتقَم منهم يومَ بَدْرٍ وما بعدَه[2].

---

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والرّاغب، المُفردات: (نقم).
(2) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 532.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الوَصْلِ بالواوِ ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾:

هذه الجملةُ من لـوازمِ كفايتِه تعالى

قولُه تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾: معطوفٌ بالواو على قولِه تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾؛ لِمَا بينهما من التّوسُّط بين الكمالَيْنِ؛ فكلٌّ منهما خبرٌ في اللّفظ والمعنى، وبينهما تقابلٌ وتضادٌّ، والمُسندُ إليه فيهما واحدٌ، وبينهما تشاكُلٌ في البناءِ والنَّظْم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالهدايةِ في قوله: ﴿وَمَن يَهۡدِ﴾ مادّةً وصيغة:

مَن وُفِّقَ للهُدَى ليس له أنْ يَغْتَرَّ به

عبَّر القرآنُ بالهدايةِ في مقابلِ الإضلالِ في قولِه تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾ تنبيهًا على أنَّ كلًّا من الصِّدْقِ والتّصْديقِ الذي أقامَ اللّه فيه أهلَ الإسلامِ والإيمانِ إنّما بفَضْلِه وتوفيقِه؛ فهو خالقُ أسبابِ ذلك؛ لأنَّ "الهدايةَ هي الدَّلالةُ بلُطْفٍ"(1). ففيه تنبيهٌ على امتنانِ اللّه عليهم بأنْ هداهُم إلى الحقِّ بهدايتِهم إلى الصِّدْقِ والتّكذيبِ، وهذا من شأنِه أنْ يُثبِّتَهُم على الحقِّ وما هم فيه، وأنْ يُسلّيَهُم عمّا يَلْقَوْن من إيذاءٍ وضررٍ وسوءٍ.

وفي التَّعبيرِ بالمضارعِ دلالةٌ على تجدُّدِ خلقِ أسبابِ الهدايةِ، وعلى المُهتدي أن يسألَ اللّهَ التَّثبيتَ وألّا يغترَّ بحُسنِ حالِه من الاهتداءِ.

دلالةُ إسنادِ الهدايةِ إلى الله:

اللهُ تعالى خالقٌ لأسبابِ الهدايةِ

أسندَ القرآنُ الهدايةَ إلى اللّهِ تعالى في قوله: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾؛ للدَّلالة على أنَّه سبحانه خالقٌ لأسبابِ الهدايةِ، وذلك من كمالِ حكمتِه في الخلقِ وهيمنتِه واقتدارِه عليهم، وفيه تقريرٌ لحقيقةِ خلقِ أسبابِ الهدايةِ وتحريكِ نفسِ المؤمنِ للبحثِ عنها فيزداد ثبوتًا على هذه الهدايةِ.

---

(1) الراغب، المفردات: (هدى).

دلالةُ حذفِ العائدِ في قولِهِ: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾:

إذا أرادَ اللهُ هدايةَ أحدٍ فلا مُضلَّ له

حذفَ القرآنُ الكريمُ العائدَ على اسمِ الشَّرطِ في قوله: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾، وتقديره: (ومن يهده الله)، وذلك لتصويرِ كمالِ قدرتِهِ سبحانَه على خلقِهِ ونفاذِ أمرِهِ فيهم؛ فإذا أرادَ هدايةَ أحدٍ من الخلقِ؛ فلا يستطيعُ أن يُضلَّه أحدٌ.

دلالةُ التَّعبيرِ بإظهارِ اسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُ﴾:

تتجلَّى الأُلوهيّةُ الحقَّةُ في هدايةِ من شاءِ

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ بإظهارِ اسمِ الجلالةِ في قوله: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ﴾ دون أن يقول: (ومن يهديه)؛ لتحقيق مضمون الكلام ولتربية المهابة، وللتّنبيه على ظهور الأُلوهيّة الحقَّة ظهورًا بيّنًا في هداية من شاء.

وممّا يُذكر في سرِّ التَّعبير بالإظهارِ دون الإضمارِ كونُه ورَدَ في صدرِ آيةٍ مُستقلَّةٍ نظمَ فيها معنى الهدايةِ؛ بخلافِ الجملةِ السّابقةِ التي نَظَمَ فيها معنى الإضلالِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاءِ: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾:

إرادةُ اللهِ في الهدايةِ والإضلالِ لا رادَّ لها

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾ واقعةٌ في صدرِ جوابِ الشَّرطِ؛ لأنَّه جملةٌ اسميةٌ وربطت بين الشَّرطِ والجواب والتَّعبيرُ بها يدلُّ على قوَّةِ تلبُّس الهداية بمَنْ هداه اللّه؛ فلا يستطيع أحدٌ أن يُضلَّه، ولا أنْ يصرفَه عمّا هو فيه من هذا الفضلِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (ما) في: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾:

مَن أخذَ بأسبابِ الهدايةِ فلن يصرفه أحدٌ عن مقصدِهِ

دلَّ التَّعبيرُ بـ (ما) في قوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾ على النَّفي في الحالِ والاستقبالِ، والمعنى أنَّ من أخذَ بأسبابِ الهدايةِ فلن يصرفه أحدٌ عن مقصدِهِ، ولن يُصيبَه بسوءٍ يُخلُّ بسلوكِهِ، ولن يُثنيَه عن الاهتداءِ أحدٌ لا في الحالِ ولا في المستقبلِ، وفي هذا إبرازٌ لجانبِ من جوانبِ عَظَمَةِ الأُلوهيَّة التي لا رادَّ لفعلِها ولا معارضَ لإرادتِها.

دلالةُ اللّامِ في قولِهِ: ﴿لَهُۥ﴾:

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ تُفيد الاختصاصَ الذي تضمَّنته الإضافةُ؛ فتكون تمهيدًا للقصر الحاصل بتقديم ﴿لَهُۥ﴾ على ما بعده، وذلك للتَّأكيد على إثبات أمرِ الإضلالِ والهدايةِ للّه تعالى وأنَّ ذلك بيدِهِ وحدَه فقط.

الهدايةُ والإضلالُ بيدِ اللهِ وحدَهُ

دلالةُ الضَّمير في ﴿لَهُۥ﴾:

الضَّميرُ في ﴿لَهُۥ﴾ من قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ راجعٌ إلى ﴿مَن﴾، والمُراد به (المهتدى)، وفي التَّعبير به دون صريح الوصف إيجازٌ يساعدُ في إبرازِ البلاغةِ القرآنيّةِ في الحُكم والقضاءِ، وفيه إنباءٌ بمُلكهِ ﷻ وتدبيره لأمرِ عبادِه.

الأمرُ كلُّه للهِ وهو المُدبِّرُ لشئونِ خلقهِ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿مُّضِلٍّ﴾ مادَّةً وصيغَةً:

عبَّر القرآنُ بوصفِ الإضلالِ في قوله تعالى: ﴿مُّضِلٍّ﴾؛ لأنَّ مطلوبَه في المُهتدي هو أنْ يُضِلَّه عن الحقِّ والصَّوابِ والخيرِ. ونظمَه القرآنُ اسْمَ فاعل ﴿مُّضِلٍّ﴾ إشارةً إلى ثُبوتِ النَّفْي، وإنَّ هدفه هو مُطلقُ إضلالِهِ وإيقاعِه في أيِّ صورةٍ من صوَرِ الإضلالِ، ويدلُّ التَّعبيرُ على أنَّه دائمٌ في محاولةِ إضلالِهِ مُستمرٌّ فيها في كلِّ وقتٍ.

كلُّ مهتدٍ له عدوٌّ من أهلِ الضَّلالِ والإضلالِ

بلاغةُ الكنايةِ ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾:

أراد القرآنُ من نفي المُضِلِّ في جملةِ: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ نفيَ حصولِ الضَّلالِ؛ فكنّى عن عدم حصول الضَّلالِ بانتفاء المُضِلِّ؛ لأنَّ عدم الضَّلالِ يجعلُ مُضِلَّهُم كالمنفيِّ؛ فهو نفيٌ للمقصودِ بدليلٍ؛ وهذا أبلغُ في تقرير المطلوب.

لا إضلالَ، ولا ضلالَ

دلالةُ التَّنكيرِ في قولِهِ: ﴿مُّضِلٍّ﴾:

نَظَمَ القرآنُ الكريمُ المُسنَد إليه في قوله تعالى: ﴿فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾؛ لإفادة العموم؛ أيْ: (فما له مُضلٌ من قريبٍ أو بعيدٍ في

مَنْ هداهُ اللهُ فلا يمكنُ لأحدٍ أن يُضلَّه

الظّاهرِ والباطنِ)، ويُؤكِّد هذا ﴿مِن﴾ التي تُفيد استغراقَ النَّفيِ وشمولَ جميع أفرادِ المَنفيّ.

بلاغةُ الطِّباقِ ﴿يُضۡلِلِ﴾ و﴿يَهۡدِ﴾، و﴿هَادٍ﴾، و﴿مُّضِلٍّ﴾:

الطِّباقُ يجمعُ في الذِّهْنِ صورتَيِ الهداية والضَّلال في وقتٍ واحدٍ

في الجَمْعِ بين معنى ﴿يُضۡلِلِ﴾، و﴿يَهۡدِ﴾ مُحسِّنُ الطِّباقِ، وكذلك الجَمْعُ بين معنى ﴿هَادٍ﴾، و﴿مُّضِلٍّ﴾؛ ففي هذا دعوةٌ قويَّةٌ إلى المقارنة بينَ قِسْمَي المعنى اللّذيْنِ يشتملانِ على عناصر الطِّباقِ، وتأمُّلِ كلٍّ من قِسْمَي المعنى في نورِ الآخَرِ؛ لأنَّ فيهما نموذجيْنِ مُتلازِمينِ في الدُّنْيا؛ تلازُمَ اللّيلِ والنّهارِ؛ فلا يخلو من أحدهما زمانٌ ولا مكانٌ؛ وهذا تجسيمٌ للمعنى المُراد عند مُتلقّيه.

دلالةُ المجاورة بفاصلةِ الآية:

بشارةُ المؤمنين بنصر اللهِ لهم على أعدائهم

جعَل القرآنُ قولَه تعالى: ﴿وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾ مجاورةً لفاصلةِ الآية، وهي جملة: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ - وجعلَهما في آيةٍ مستقِلَّةٍ؛ إشارةً إلى خصوصيَّةٍ لأهلِ الهُدى والصِّدْقِ والتَّصْديقِ بمزيدِ إكرامِهم بحمايَتِهم والدِّفاعِ عنهم، وتبشيرُهُم بأنَّ اللّه ناصِرُهُم لا محالةَ؛ لأنَّهُ العزيزُ، ومنتقِمٌ من أعدائهم في الدُّنيا وفي الآخرة؛ لأنَّهُ ذو انتقامٍ.

سِرُّ فَصْلِ فاصلةِ الآيةِ عمّا قبْلها:

هذه الجملةُ نِتاجُ جميعِ ما قبلَها، وتعليلٌ في المعنى لهُ

وقعَتْ جملةُ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ مفصولةً عمّا قبلَها: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٦ وَمَن يَهۡدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّۗ﴾؛ لأنَّها تعليليّةٌ؛ فإنَّ الذي لا يَرُدُّ أحدٌ حُكْمَه من إضلالِ أحدٍ أو هدايته لهو العزيزُ الذي يَغْلِبُ ولا يُغْلَبُ ولا يُغالَبُ. ثمّ إنّه تعالى ينتقم لأهل هدايته من إهل إضلاله؛ إذا أرادوا بهم سوءًا.

ذهَب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ قولَه تعالى: ﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ اعتراضٌ بين جملة: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾، وجملةِ:

﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾، وقد قُصِد من الاعتراضِ بيانُ أنَّ ضلالَهم داءٌ عياءٌ؛ لأنّه ضلالٌ مُكوَّنٌ في نفوسهم وجِبلَّتِهم قد ثبَّتَتْه الأيّام، ورسّخه تعاقُبُ الأجيال، فرانَ بغشاوته على ألبابِهم، فصار ضلالُهم كالمجبول المطبوع، وأمّا جملةُ: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾ فقدِ استدعتها جملةُ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؛ حيثُ أفْهَمَتْ وجودَ فريقَيْنِ وعقيدتَيْنِ(1).

ضلالُ المشركين داءٌ راسخٌ في نفوسِهم وجِبلَّتِهم

بلاغةُ التَّوافُقِ في النَّظْم:

تشابهت جملةُ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ بجملة ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾؛ فالتّشابهُ بينهما واضحٌ وما بينهما اعتراضٌ؛ لأنَّها لو وردَت عقِبَها لكانَتْ تعليلًا في المعنَى لها، ولكانَتْ لازمًا من لوازِمها، ولمّا كان من الضّروريّ أيضًا إخلاصُ العبادةِ للكافي عبدَه فإنّ من الضّروريّ إخلاصَ العبادةِ للعزيز ذي الانتقام. وهاتانِ الجملتانِ مُتَّفقتانِ في النَّظْم، فتكونُ هاته الثّانيةُ راجعةً إلى الأولى؛ من ردِّ العجُزِ على الصّدْرِ - ليس من جهة المعنى فقط؛ حيثُ إنَّ كفايته (تعالى) مُؤسَّسَةٌ في السّياق على عزَّته وأنَّه ذو انتقام - من جهةِ صورةِ المعنى؛ وبهذا يترابَطُ الكلامُ والمعاني، وتصيرُ شُبْكَةً واحدةً.

بيانُ شدّةِ التّرابطِ بين الجُملِ ومعانيها

بلاغةُ الاستفهامِ في فاصلةِ الآية:

صدرتْ جملةُ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ على الاستفهام بالهمزة؛ وغرضُه التَّقريرُ بعِزّة اللّه وقوّةِ انتقامه من أعدائه؛ لأنَّ العِلْم بعِزَّة الله مُتقرِّرٌ في النُّفوس؛ لاعترافِ الكلِّ بألوهيَّته، والألوهيَّةُ تقتضي العِزَّةَ، ولأنَّ العِلْم بأنَّه منتقم مُتقرِّرٌ؛ من مُشاهَدة آثارِ أخْذِه لبعضِ الأُمَم؛ مِثْل عادٍ وثمودَ، فإذا كانوا يُقِرّون للّه بالوصفيْنِ المذكوريْنِ فما عليهم إلّا أنْ يعلموا أنَّه كافٍ عبدَه بعِزَّته

أهلُ الضَّلالِ والكذبِ في افتقارٍ شديدٍ إلى تأمُّلِ مضمونِ هذه الجملةِ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 14 - 15.

فلا يقدرُ أحدٌ على إصابةِ عبدِه بسوءٍ، وبانتقامِه من الذين يُخوِّفون عبده بالأذى، وفيه تهديدٌ لمُناوِئي الدَّعوة وخُصومِ الإسلام، وكلُّ ذلك من دلالةِ الاستفهامِ[1].

دلالةُ التّعبيرِ باسمِ الجلالةِ مُظْهَرا:

الذي بيدِه كلُّ شيءٍ عزيزٌ ذو انتقامٍ

لَمّا كانَ في جملةِ ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ كلُّ وعيدٍ وتهديدٍ صريحٍ لأهلِ الكذبِ والتَّكذيبِ والذين أرادوا تخويفَ حبيبِ الحقِّ ﷺ كان الأبلغُ تحقيقَ ذلك، وتفخيمَه وتعظيمَه بذِكرِ اسم الجلالةِ.

دلالةُ الباءِ في قولِه: ﴿بِعَزِيزٍ﴾:

العَظَمَةُ الإلهيَّةُ من شأنِها أنْ تُرْعِبَ وتُرْهِبَ

الأصلُ في نظم جملة ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ خلوُّها من الباء الدّاخلة على الخبرِ ﴿بِعَزِيزٍ﴾؛ وإنّما دخلتِ الباءُ لتوكيدِ مضمونِ الجملة؛ حيثُ إنّ معنى الإلصاقِ والاختلاطِ لا يُفارِقُها؛ فتدلُّ هنا على أنَّ من شأنِه تعالى أنْ يكون عزيزًا ذا انتقام، وأهلُ الشِّرْكِ يدلُّ لسانُ حالِهم ومقالِهم على إنكارِهم ذلك على سبيل الجَزْم؛ ألم يُحاوِلوا تخويفَه ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾؟ ومن كمال التَّرهيبِ والتّهديدِ والوعيدِ الإسراعُ إلى تحقيقِ آثارِ عِزّته وانتقامه، على ما يُفهِمُه قِصَرُ التّعبيرِ مع وجودِ الباءِ، ولو قيل: (أليس اللّه عزيزًا) بالنَّصْبِ؛ لكان فيه تطويلٌ من حيثُ اللَّفظُ.

سِرُّ التَّعبيرِ بـ (عزيز):

لفظُ (عزيز) الأنسبُ لتحقيق الكفايةِ بكلِّ معانيها

عبَّر القرآنُ بوصفِ العِزَّةِ (عزيز) خبرًا عن اسم الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ﴾؛ لأنَّه الأنسبُ والألصقُ بما قبلَه؛ فهو الأنسبُ بالكفايةِ في قولِه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾، والتي ينتُج عنها نصرُ عبدِه ﷺ على عدوِّه وغلبتُه عليه، وأنَّ لا يتمكَّن عدوُّه منه. وهو الرّادُّ على التّخويفِ الذي في قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾. وهو الأنْسَبُ بما في السّياق؛ "مِن أنّه لا يهدي

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 15، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 436.

أحدٌ من أضلَّه اللّهُ، ولا يُضِلُّ أحدٌ من هداهُ اللّه؛ لأنَّ العزيزَ هو المُتفرِّدُ، وهو الذي لا يُغالَبُ"[1]. وهو صفةٌ مُشْتقّةٌ من العِزِّ؛ وهو مَنَعَةُ الجانبِ، وأنْ لا يَنالَه المُتسلِّطُ، وهو ضِدُّ الذُّلِّ[2].

سِرُّ التّنكيرِ في قولِه: ﴿بِعَزِيزٍ﴾:

نظَمَ القرآنُ خبرَ (ليس) نكرةً في قولِه تعالى: ﴿بِعَزِيزٍ﴾؛ للدّلالةِ على التّعظيمِ والتَّهويلِ؛ أيْ: إنَّ اتِّصافَه تعالى بالعِزَّة بالغٌ مبلغًا لا يُمكن معَه التَّحديدُ أوِ التَّعيين، وأنَّ أهلَ التَّخويف والكذب والتَّكذيب كأنَّهم لا يعلمون شيئًا عن عِزَّته تعالى، وأنَّهم سيلقون نوعًا من الغَلَبَة ومنعةِ الجانبِ لم يعرفوه قبلُ، وهذا بلا ريبٍ إبلاغٌ في تهديدِهم وإرعابِهم وترهيبِهم مِمّا هم فيه من أحوالٍ جعلتهم أظلمَ الخَلْقِ.

الـدّلالـةُ على الـتَّـعـظـيـمِ والتّهويلِ

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿ذِي ٱنتِقَامٍ﴾ دونَ منتقم:

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ بقوله: ﴿ذِي ٱنتِقَامٍ﴾، ولم يَقُلْ: (منتقم)؛ للدّلالةِ على أنَّ له تعالى شأنًا عظيمًا أيَّ شأنٍ في بابِ الانتقام، ودلَّ بقوله: ﴿ٱنتِقَامٍ﴾ على الغضبِ الإلهيِّ؛ لأنّه يتضمَّنُ الإنكارَ على أهلِ التَّخويفِ والكذبِ والتّكذيبِ تخويفَهُم وكذبَهم وتكذيبَهم، والعقوبةَ على ذلك، ولَمّا كان هذا الوصفُ يرجعُ إلى قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾، وهم الذين أرادوا تخويفَ أشرفِ الخَلْقِ ﷺ فكان التَّعبيرُ بقوله: ﴿ذِي ٱنتِقَامٍ﴾ هو الذي يُناسِبُ حالَهُم من التَّهديدِ والوعيدِ الشَّديد والإبلاغ فيهما.

أيُّ ترهيبٍ أشدُّ مــن وعـــيـــدِه بانتقامِه؟!

وممّا يُذكرُ في سِرِّ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿ذِي ٱنتِقَامٍ﴾ دون (منتقم) أنَّه لم يَرِدْ في أسماء اللّه الحسنى؛ وإنما جاء باسم الفاعل مُقيَّدًا في قولِه: ﴿إِنَّا مِنَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ٢٢﴾ [السجدة: 22]، وفي هذا دليلٌ على أنَّ رحمةَ اللّهِ تسبقُ غضبَه، وأنَّ الانتقامَ لا يقعُ إلّا لصاحبِ الجريمة.

رحمةُ اللهِ تسبقُ غضبَه

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 254.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 15.

﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ ٣٨﴾ [الزمر: 38]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

أقوالُ أهلِ الشِّركِ تُخالفُ أفعالَهم

لمّا ذَكرتِ الآياتُ السّابقةُ أنَّ المشركين عبدوا الأصنامَ وجعلوها آلهة من دونِ اللّهِ، وخوّفوا الرّسولَ ﷺ من أذاها إذا عابهم؛ جاءتْ هذه الآيةُ لتُبيِّن تناقضَ المشركين، وأنَّ قولَهم يُخالف فعلَهم لمّا سُئِلوا: من خلقَ السّماوات الأرضَ؟ فقالوا: خلقهنّ اللّهُ.

ومنها؛ لَمّا تحدَّثَتِ الآياتُ السّابقةُ عن الذي كَذَبَ على اللّه وكذَّبَ بالصِّدْق إذ جاءَه وعاقبته، وحالِ الفريقِ الذي هو ضِدُّه في جميع ذلكَ، وذكَرَتْ تخويفَ أهلِ الشِّرْكِ النَّبيَّ ﷺ وردَّتْ على ذلكَ مُسليَّةً له ﷺ ومُثبِّتةً لَمن معَه؛ عادَ الحديثُ عن أهلِ الظُّلْم والكَذِبِ والتَّخويفِ في هذه الآيةِ من جهةٍ أخرى هي جهةُ ما سكَن في عقولِهِم من تناقُضات تعايَشَتْ وتسالَمَتْ؛ رغم أنَّ الذي بيْنَها من أشَدِّ ضُروبِ التَّناقُضِ معَ وجودِ وِصالٍ وتواصُلٍ قويٍّ بينَ معاني هذه الآيةِ وما قبلَها؛ ففيها امتدادٌ لجملة: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾، ورَدٌّ على جملة: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾: (رأى) أصلٌ يَدُلُّ على نَظَرٍ وإبصارٍ بِعَيْنٍ أو بَصيرَةٍ؛ فالرَّأْيُ هو ما يَراهُ الإنسانُ في الأَمْرِ، وجَمْعُهُ الآراءُ[2].

---

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 254.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).

والرُّؤْيَةُ: إدراك المَرْئيِّ؛ وذلك أضرُبٌ بحسب قوى النّفسِ؛ فمنها ما يكون بالحاسَّة وما يجري مجراها، وما يكون بالوهمِ والتَّخيّلِ، وما يكون بالتّفكُّر، وما يكون بالعقل. والرُّؤْيا: ما يُرى في المنام[1]. والرُّؤْيَةُ بالعَيْنِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولٍ واحِدٍ، وبِمعنى العِلْمِ تَتَعَدَّى إلى مَفْعولَيْنِ. والمقصود بالرُّؤيةِ في الآيةِ معناها الحقيقيُّ من الإبصارِ بالعينِ.

2) ﴿تَدْعُونَ﴾: الدُّعاءُ كالنِّداءُ؛ إلّا أنّ النّداء قد يُقال بـ (يا) أو (أيا) ونحوِ ذلك من غير أن يضمّ إليه الاسم، والدّعاء لا يكاد يُقال إلّا إذا كان معه الاسمُ، وأصْلُه: إمالَةُ الشَّيْءِ إلَيْكَ بِصَوْتٍ وكَلامٍ يكون مِنْكَ، ومنه سُمّيَتِ الرَّغْبَةُ إلى اللهِ ﷻ دُعاءً. تقولُ: دَعَوْتُ فُلانًا دُعاءً ودَعْوَةً؛ أيْ: نادَيْتُهُ[2]. ويأْتي الدُّعاءُ بِمعنى الطَّلَبِ والسُّؤالِ، يُقال: دَعَوْتُ اللّهَ، أدْعوهُ؛ أيْ: سَألْتُهُ[3]. ويُطلَق على الحَثِّ على الشَّيْءِ والتَّرْغيبِ فيه، فيُقال: دَعا قَوْمَهُ إلى اتِّباعِهِ؛ أيْ: حَثَّهُمْ ورَغَّبَهُم[4]. والمقصودُ بالدُّعاء في الآية: الطَّلَبُ والسُّؤالُ على جهة أنّه من إلهٍ يُعْبَدُ.

3) ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾: (كشف) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على سَرْوِ الشَّيْءِ عن الشَّيْءِ؛ كالثَّوْبِ يُسْرَى عن البدَنِ، ويُقال: كشَفْتُ الثَّوْبَ وغيرَه، أكْشِفُهُ، والأكْشَفُ: الرَّجُلُ الذي لا تُرْسَ معَه في الحَرْبِ، ويُقال: تكشَّفَ البَرْقُ: إذا ملَأ السّماءَ، والمعنَى صحيحٌ؛ لأنَّ المُتكشِّفَ بارِزٌ، والمقصودُ بقوله تعالى: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾: مُزيلاتٌ[5].

4) ﴿مُمْسِكَٰتُ﴾: (مسك) أصلٌ واحدٌ صحيحٌ يدلُّ على حَبْسِ الشَّيْءِ أو تحبُّسِه، والبخيلُ مُمْسِكٌ، والإمساكُ: البُخْلُ، ورَجُلٌ مُسَكَةٌ: لا يَعْلَقُ بشيءٍ فيتخلَّص منه، والمَسْكُ: الجِلْدُ المُمْسِكُ للبدَنِ، والمُسْكَةُ من الطَّعام والشَّرابِ: ما يُمْسِكُ الرَّمَقَ، والمقصودُ بقوله: ﴿مُمْسِكَٰتُ﴾ في الآية: مانعات[6].

(1) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ، والزبيدي، تاج العروس: (رأى).
(2) الجوهري، الصحاح، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن الأثير، النهاية في غريب الحديث: (دعا - دعو).
(3) الفيومي، المصباح المنير: (دعو).
(4) الأمير، التَّحبير: 4/ 5.
(5) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (كشف)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 17.
(6) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (مسك)، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 440.

الإقرارُ بالألوهيّةِ مركوزٌ في الفِطَرِ

المَعْنى الإجْماليُّ:

تُقرِّرُ الآيةُ الكريمةُ ما تنطوي عليه نفوسُ أهلِ الكُفْرِ والشِّرْكِ من الإقرارِ بأُلوهيّة اللّه؛ إذ هم يُقِرّون بفطرتِهم بأنَّ اللّهَ خالقُ السَّماواتِ والأرضِ، وأنَّك - يا مُحمَّدُ - لو سألتَهُم عن ذلك لأجابوا هذا الجوابَ بكلِّ وكادةٍ وثقةٍ؛ ثم أسَّسَ تعالى على ذلك سؤالَهُم ومناقشتَهُم فيما يدعون من دونِ اللّه على لسانِ نبيِّه محمّدٍ ﷺ، قل لهم يا مُحمَّدُ: هل ما تعبدونه من دون اللّه آلهةٌ من شأنها كَشْفُ الضُّرِّ عن من أراد اللّه ضُرَّه وإمساكُ الرَّحمة عن من أراد اللّهُ رحمتَه؟! ثمّ أمَرَ اللّه تعالى رسولَه بأنْ يَصْدَعَ بالاتِّكالِ على اللّه؛ لأنَّه حسْبُه من كلِّ شيءٍ، ومِن كلِّ ناصرٍ[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

تـعـدُّدُ معاني الواوِ ثراءٌ لحركةِ المعنى

دلالةُ الواوِ في: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾

الواو في: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم﴾ اعتراضيةٌ على أنَّ جملة ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ اعتراضٌ بينَ جملةِ ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ﴾ وجملةِ ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ويجوزُ أنْ تكونَ عاطفةً لهذه الجملةِ على: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥۖ﴾. وهذه الجملةُ المعترضةُ أوِ المعطوفُ تمهيدٌ لِما يأتي بعدَه من قولِه: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنّه قُصِد به التّوطئةُ إليه بما لا نِزاعَ فيه؛ لأنّهم يعترفون بأنَّ اللّه هو المُتصرِّفُ في عظائمِ الأُمور؛ أيْ: خَلْقُ السّماواتِ والأرضِ وما تحويانِه[2]. وإذا كانَتْ هذه الجملةُ معطوفةً على جملةِ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥۖ﴾؛ فإنَّ ذلك من بابِ خلافِ الأصلِ.

والذي يُنْعِمُ النَّظَرَ في معاني الآياتِ يَفْقَهُ أنَّ هذه الجملةَ معطوفةٌ

(1) ابن عطيّة، المُحرَّر الوجيز: 4/ 533، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 257.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 16.

مَعيّةُ اللهِ مانعةٌ نبيَّه من الخوفِ من دونِ الخالقِ

على جملةِ: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ التي تتعلّقُ بما قبلَها من معاني آيتِها وآيةِ ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ للتّنبيه على أنَّ خيرَ نفْسٍ ممتلئةٍ بهذا المعنى المعطوفِ عليه والمعاني التي تتعلَّقُ به في سياقِ السِّباقِ إنّما هي نَفْسُ رسولِ اللّه ﷺ، وأنّها لذلك كانَتْ مُهيَّأةً لأنْ تُحاجَّ هؤلاءِ، فلم يدخُل قلبَه الشَّريفَ شيءٌ من الخوفِ الذي أرادوا إلحاقَه به.

سِرُّ تصديرِ جملةِ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ بالواو:

اللّهُ خالقُ السَّماواتِ والأرضِ بقدرته

صُدِّرتْ جملةُ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ بالواو مع أنَّ ظاهرَ المعنى أنْ تكونَ جملة: (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن اللّه) غيرَ مُصدَّرةٍ بالواو؛ لأنّها نِتاجُ ما قبلَها، ولازمٌ من لوازمِه، سواءٌ كان الجملةَ المعطوفَ عليها، أو مجموعَ المعاني من قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥۖ﴾ إلى آخرِ جملة: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾، فبينهما كمالُ اتِّصالٍ، ولكنْ جاءَتِ الواوُ التي لا يبرحُها معنى المغايرةِ؛ فتُشْعِرُ باستقلالِ ما بعدَها عمّا قبلَها؛ لِتَلْفِتَ المُتلقّينَ إلى موقعِ هذه الجملةِ مِمّا قبلَها؛ لأنَّ مجيءَ الواو حينئذٍ خلافُ الأصلِ، وخلافُ الأصلِ من شأنِه اللَّفْتُ والتَّنْبيهُ والإيقاظُ.

بَلاغَةُ التَّوْكيدِ في الآية:

في التّوكيدِ تهيئةٌ قويّةٌ لِما يترتَّبُ على مجموعِ جملةِ القَسَمِ

تعدَّدتْ وسائلُ التَّوكيدِ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾، وذلك باجتماعِ القَسَمِ والشَّرْطِ ونونِ التَّوكيد الثَّقيلة في قوله: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾؛ لأنَّ (إنْ) للشّرط في المستقبل، واللّامُ لامُ القَسَم، وهذا الأسلوبُ له نكهةٌ خاصَّةٌ؛ لأنّه مُؤسَّسٌ على التّوكيد؛ وأوَّلُ ما فيه من عناصرِ التّوكيد هو القَسَمُ، والمعنَى المُقْسَمَ عليهِ لا بُدَّ أنْ يكون من الأهميّة بمكانٍ؛ لأنّه تواتَر عليه التّوكيدُ من جهة التَّكرار وإنابةِ أحد الجوابيْن مَنابَ الآخَر، وأيضًا من جهة أنَّه مُقْسَمٌ عليه، وجوابُ القَسَمِ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾. وإذا كانَ الذي أقْسَم

هو ربُّ السّماواتِ والأرض؛ كان للمُقْسَم عليه شأنٌ أيُّ شأنٍ، وهو إقرارُهم بأنَّ اللّهَ هو الذي خلَق السّماوات والأرض، وهذا الجوابُ هو أساسُ الوحدانيَّة؛ لأنّه ما دامَ قد خلَق هذا فلا يجوزُ في العقل والمنطق أنْ يُعْبَد غيرُه؛ لأنّ عبادةَ من خلَق هي الأصلُ والصّوابُ.

اللّه وحْدَه هو خالِقُ العالَمِ

ومِن أسرارِ التّوكيد بالقَسَم في صدرِ الجملة، واللّامِ ونونِ التّوكيدِ الثّقيلةِ في عجُزِها: ﴿لَيَقُولُنَّ﴾: تصويرُ اعتقادِهم الجازم في أنَّ اللّه وحْدَه هو خالِقُ العالَم؛ وإنْ كانَ ما يُمارِسونَه في الواقِعِ ضدَّ هذا، أو يُؤدّي إلى ضِدِّه. ومنها أيضًا: مواجهةُ إنكارِهم أنَّه خالقُ السّماوات والأرضِ؛ والذي يدلُّ عليه لسانُ حالِهم من عبادةِ الأصنامِ وغيرِ ذلك[1].

سِرُّ التّعبيرِ بـ (إنْ):

ما كان ينبغي أنْ يُسْألوا

عبَّر القرآنُ بأداةِ الشّرط (إنْ) التي لا يكونُ الشّرطُ فيها مقطوعًا بوقوعه في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ توبيخًا وتبكيتًا على كُفْرِ المسئولينَ وشِرْكِهم؛ لأنَّ الدّاعيَ إلى سؤالِهم هو مناقشتُهُم فيما سكَن في نفوسِهم من عقائد مُتضارِبةٍ ومُتناقِضةٍ؛ معَ ضميمةِ أنَّهُم في الواقِعِ على حالٍ يُخالِفُ بالكُلّيَّة إقرارَهم بخالقيَّةِ اللّه؛ أيْ: ألوهيَّته تعالى؛ فكان مقتضَى حالِهم سؤالَهم على جهة الكثرةِ والتَّكرار، لا على جهة القِلّةِ؛ لكِنْ لأجلِ ما رسَخ في نفوسِهم من اعتقادِ خالقيَّته تعالى، وما كان ينبغي أنْ يترتَّبَ عليه؛ من إبرازه في الواقعِ: كان سؤالُهم هذا إنّما يكونُ في الظّاهرِ قليلًا.

دلالةُ التّعبيرِ بالسُّؤالِ في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾:

لَمّا كان المطلوبُ أنْ يُقِرَّ به أهلُ الكُفْرِ والشِّرْك في غايةِ الأهميَّة،

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 440، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 255 - 256.

المطلوبُ عظيمٌ، والواقِعُ مريرٌ

وهو أصلُ الإيمانِ والتّوحيدِ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾؛ كانَتْ صورة طلبِ ذلك منهم هي السّؤالَ؛ لأنَّ الاستفهامَ يعني أهميَّةَ المُستفْهَم عنه وضرورةَ الالتفاتِ إليه والتَّنبُّهِ له؛ فعبَّر القرآنُ بالسّؤال في قوله تعالى: ﴿سَأَلۡتَهُم﴾؛ معَ ما في ذلك من الإيجازِ الذي لا يكونُ لو عُبِّر بغيرِه.

سِرُّ وضْعِ الماضي ﴿سَأَلۡتَهُم﴾ موضِعَ المضارِع:

التَّأكيدُ على إقرارِهم وعلمِهم بأنَّ اللهَ هو خالقُ السَّماواتِ والأرضِ

جاء التَّعبيرُ بالفعلِ الماضى ﴿سَأَلۡتَهُم﴾ مع أنَّ (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ للشَّرْطِ في الاستقبالِ، ولهذا كان الأصلُ في فِعْلِ الشَّرْطِ بعدَها أنْ يكون مضارعًا بقرينة المضارع في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾، ولكِنَّ القرآنَ نظَم السّؤالَ فعلًا ماضيًا في قوله تعالى: ﴿سَأَلۡتَهُم﴾ إبلاغًا في تقرير إقرارِهم وعلمِهم بأنَّ اللّه هو خالقُ السّماواتِ والأرضِ؛ فإنّه معنًى قديمُ السُّكون والرُّسوخِ في قلوبِهم؛ إبلاغًا في توبيخِهم وتبكيتِهم على ما هم عليه في الواقِع والذي استدعَى سؤالَهم المذكورَ.

دلالةُ الخطابِ مع السّائلِ والغيبةِ مع المَسئول:

إعلاءُ مقامِ السّائلِ والتَّهوينُ من شأنِ المسئولِ

جاءت صيغة فاعل السُّؤالِ في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ بتاءِ المخاطَبِ؛ والمُرادُ النّبيُّ ﷺ، والضّمير المفعولُ به (هم) في قوله: ﴿سَأَلۡتَهُم﴾ الذي سلَّطَ القرآنُ فِعْلَ السُّؤالِ عليهم، والمقصودُ أهلُ الكذِبِ على اللّه والتّكذيبِ بالصِّدْقِ. ففي إرشادِه ﷺ إلى سؤالِهم تنبيهٌ لطيفٌ على أنَّ شيئًا من الخوفِ لم يُصِبْ قلبَه ولا نفسه فلم يُفْلِحوا، وإنّما ازدادَ قلبُه ﷺ بمعاني الهدى التي دلَّت عليها الآياتُ السّابقة؛ فاشتدَّ تهيُّؤُه لحِجاجِهم ودعوتِهم من جديدٍ. وتوجيهُ السّؤالِ إليهم وراءَه من المعنَى أنَّهم بما اتَّصفوا به في سياقِ السِّباقِ كمَن أنكر أنَّ اللّه هو خالقُ السّماوات والأرضِ؛ فلهذا أُرْشِدَ النّبيُّ ﷺ إلى سؤالِهم.

دلالةُ ميمِ الجمعِ في قولِهِ: ﴿سَأَلۡتَهُم﴾:

أهلُ الشّركِ متناقضون بينهم وبين أنفسِهم

ميمُ الجمعِ في قوله: ﴿سَأَلۡتَهُم﴾ والتي أفادَتْ أنَّ المفعولَ به المسؤولَ جماعةُ أهلِ الشِّرْكِ تدلُّ على أنَّ خَلْقَ اللّه السّماواتِ والأرضَ أمرٌ تُقِرُّ به الجماعة؛ فهو معروفٌ شائعٌ مشهورٌ معلومٌ فيهم، وهذا إبلاغٌ في تصويرِ تناقُضِهم الجماعيِّ العجيبِ؛ حيثُ لم يَخْرُجْ عليهم واحدٌ منهم أو جماعةٌ صغيرةٌ تُنْكِرُ عليهم عبادتَهم الأصنامَ، وتواجهُهُم بأنَّ ذلك ضدُّ ما يعتقدون من خالقيَّةِ اللّهِ.

بلاغةُ الاستفهامِ في قولِهِ: ﴿مَّنۡ خَلَقَ﴾:

تأنيبُهُم وتوبيخُهُم على عبادةِ غيرِ الله

﴿مَّنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ اسمُ استفهامٍ، يُسأل به عن العاقلِ، والغرضُ منه التّقريرُ بفاعلِ الخَلْقِ[1] والدّعوةُ للتَّفكُّرِ فيما وراءَ الاستفهامِ؛ معنًى وغرضًا؛ لأنَّ مَحْضَ معناه التّنبيهُ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالخَلْقِ مادَّةً وصيغَةً:

ليس مَن يخلُقُ كمَن لا يخلُقُ

آثَرَ القرآنُ التّعبيرَ بالخَلْقِ في قوله: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ دون غيرِه؛ لأنّه يحملُ مع معنَى الإيجادِ معنَى الإبداعِ على غيرِ مِثالٍ؛ لأنَّ ذلك ليس إلّا للّه تعالى؛ لأنَّ السّياقَ للتَّفرقةِ بينَ الإلهِ الحقِّ وبينَ الأصنامِ التي يزعمونها آلهةً؛ فهو الدّالُّ على الألوهيَّةِ؛ لأنَّه يَعْني أنَّ آلهتَهُم لا تَستطيعُ أنْ توجِدَ شيئًا من عدمٍ؛ فضلًا عن أنْ يكونَ ليس له مِثالٌ سابقٌ يُحْتَذَى به؛ أيْ: لا يكونُ منها خَلْقٌ مُطلقًا، وهذا أبلغُ في الاستدلالِ والتّقريرِ، وفي الإنكارِ عليهم تخويفَهم النّبيَّ ﷺ بهذه الأصنامِ، ولو قيل: (مَنْ أبدعَ أو فطَر السّماواتِ والأرض) لَمَا كان ذلك. ولّما كانَ السُّؤالُ عن الخَلْقِ بقيدِ وقوعِه على السّماواتِ والأرضِ، وكان خَلْقُهُما قد وقَع ومضَى؛ نظَم تعالى معنى الخَلْقِ فعلًا ماضيًا.

---

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 439.

سِرُّ تخصيصِ السُّؤالِ بخلقِ السّماواتِ والأرض:

الاحتجاجُ بخلقِ السّمواتِ والأرضِ أظهرُ وأبهرُ

جعَل القرآنُ السُّؤال عن خَلْقِ السّماوات والأرضِ في قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ دون خلق أنفسهم؛ لأنّهما أعظمُ المخلوقاتِ خَلْقًا في أبصارِ العربِ؛ واللّهُ تعالى قال: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: 57]؛ فالاحتجاجُ بخَلْقِهما أظهَرُ وأبْهَرُ؛ لأنَّ كلَّ أحدٍ يُشاهِدُ السَّماءَ والأرضَ. ولأنَّ ذلك هو الألصقُ بسياقِ التّرهيبِ والتّهديدِ؛ فإذا كانَ اللّهُ خالقًا السّماواتِ والأرضَ، وكانوا هم يعيشون على الأرضِ؛ والسّماءُ فوقَهُم، وكانَ تعالى قادِرًا على أنْ ينتقِمَ مِمَّن يعبدُ سواهُ من دونه؛ فكان يأتيهم عذابُه من فوقِهِم ومِن تحتِهِم؛ كان التّعبيرُ بالسَّماواتِ والأرضِ أبلَغَ في تحقيقِ هذا الغرضِ من أنْ يُقال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ﴾؛ لأنَّ السَّؤال عن خلقِهِم هم ليس مقصودًا في هذا السّياقِ، ولأنَّ خَلْقَ السَّماواتِ والأرضِ يلزمُ منه خلقُ النّاسِ ففي الاقتصارِ عليهما إيجازٌ بديعٌ.

دلالةُ التَّعريفِ بأل:

مَن عرَف السّماواتِ والأرضَ عرَف اللهَ

نظَمَ القرآنُ مفعولَ الخَلْقِ الثُّنائيَّ مُعَرَّفًا بـ (أل) في قوله تعالى: ﴿مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ فأمّا (الأرض) فـ(أل) فيها للعهد الذِّهْنيِّ، وكذا السّماواتُ مع أنَّهم لم يَروا كلَّ السَّماواتِ، ولم يَعهدوها جميعًا، ولكِنْ لَمّا نُزِّلَ أهلُ الشِّرْكِ منزلةَ من عرَف السّماواتِ كلَّهُنَّ؛ لأنَّ من قدِر على خلْقِ سماءٍ قدِرَ على خلقِ أفرادٍ كثيرةٍ منها؛ فكانوا في حُكْم من شاهدَ السِّتَّ الباقيةَ، وعرَفَها؛ لذلك كانَتْ (أل) في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ للعهدِ الذّهنيِّ، وهذا يَعْني كمالَ ظهورِ المقصودِ من ذِكْرِ خَلْقِ السّماواتِ والأرض.

نكتةُ تقديم ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (الأرضِ)

قدَّمَ القرآنُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ على (الأرضِ) في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ لأغراضٍ عديدةٍ من ناحية

يريدُ القرآنُ أنْ يكونَ نَظَرُهُم في سبيلِ تَرَقّيهِم

فضلها وعلوّها سبقَ تفصيلُ القولِ فيها في الموسوعةِ في أكثرَ من موضعٍ، ويمكنُ أن نُضيف لها هنا غرضًا جديدًا يتناسبُ وسياقَ الآيةِ في إثباتِ الوحدانيةِ للّه تعالى وإبطالِ عقيدةِ المشركين في الأصنامِ وتوبيخِهم لعبادةِ من وصَفهُم القرآنُ بالدّونيَّةِ والحقارةِ ويتركون عبادةَ العليِّ الأعلى؛ فكان تقديمُ السّماواتِ من هذا البابِ؛ لأنَّ السَّماواتِ فوقَهم والأرضَ تحتَهم؛ فالأعلى أدلُّ على القهرِ والإحاطةِ والهيمنةِ، وهذا ألصقُ بقوله: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾، ومُتناسبٌ مع سياق الاستفهام؛ لأنَّ غرضَه التَّقريرُ بالفاعلِ، وهم إذا أقرّوا بالأعلى وهو ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لزمهم الإقرارُ بالأدنى وهو (الأرض)؛ فالتَّقديمُ تمكينٌ وتحقيقٌ للتّقريرِ.

سِرُّ الجمعِ والإفرادِ في ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾:

سبحانَ المحيطُ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعِلْمًا

جَمَعَ القرآنُ الكريمُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ وأفرد (الأرض) في قوله: ﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ - وسبقَ تفصيلُ القولِ في مثل ذلك في الموسوعةِ - لكنّا نُشير هنا إلى ما يتناسبُ وسياقَ الآية؛ فالجمعُ هنا أبلغُ في سياقِ الإنكارِ عليهم تخويفَهُم نبيَّهُم ﷺ بما يعبدونه من دون اللّهِ؛ لأنَّ الذي يُدافِعُ عن نبيِّه ويدفَعُ عنه إنّما هو خالقُ السّماواتِ؛ فالجَمْعُ ألصقُ وأنْسَبُ بالمُجاوَرِ السّابقِ المُباشِرِ ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾.

وأمّا (الأرضُ) فجاءَتْ مُفردةً في كلِّ القرآنِ؛ لأنَّها طبقاتٌ متلاصقةٌ ليس بينها فواصلُ فهيَ التي يُشاهِدونَها ويَعْرِفونَها؛ لكنَّهُم لا يتصوَّرون انتقامًا وعقابًا إلهيًّا من الأرضِ كلِّها إلّا على سبيلِ التَّبَعيَّةِ للسّماءِ.

دلالةُ التّعبيرِ بالقولِ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾:

عبَّر القرآنُ بالقولِ في جوابِ القَسَم في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾؛ لأنّهم إنْ سُئِلوا وأجابوا لم يُجيبوا إلّا بالقولِ؛ لأنَّ مُمارساتِهم

العقديَّةَ والعمليَّةَ الفِعْليَّةَ في الواقِع لا تدلُّ على اعتقادِهم هذا، وإنّما تدلُّ على إشراكِهم الأصنامَ معَ اللّهِ في الألوهيَّة؛ فيلزمُ من عبادتِهم إيّاها إثباتُ الخَلْقِ لها؛ فتكونُ خالقةً السّماواتِ والأرضَ وغيرَهُنَّ من المخلوقاتِ، وهذا باطلٌ.

يقولون بأفواهِهم ما ليس في قلوبِهم

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿لَيَقُولُنَّ﴾

نظَم القرآنُ القولَ الذي هو جوابُ القَسَمِ في قولِه تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ فعلًا مضارعًا؛ لأنَّ تعليقَ حصولِ الجوابِ بحصولِ الشَّرْطِ إنّما هو في الاستقبالِ. وفيه أيضًا إشارةٌ إلى ثبوتِ جوابِهم وعدمِ تغيُّرِه؛ فكلَّما سألهم سائلٌ قائلًا: ﴿مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ﴾ كرَّروا قولَهُم وجدَّدوه دونَ أدنى تغييرٍ: ﴿ٱللَّهُۚ﴾، وهذا يُصوِّرُ رسوخَ هذه الحقيقةِ في قلوبِهم، وفي هذا إقامةٌ للحُجَّةِ عليهم.

القولُ بلا عمَلٍ لا يُفيد وإنْ تكرَّرَ ألفَ مَرَّةٍ

دلالةُ التَّعبيرِ باسْمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهُۚ﴾:

ذكَر القرآنُ اسْمَ الجلالة ﴿ٱللَّهُۚ﴾ في جوابِ القَسَم ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾؛ لأنّه الاسمُ الذي لم يُطلَق على غيرِ اللهِ تعالى ﴿هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾ [مريم: 65] فهو نَصٌّ في الدَّلالةِ على الإلهِ الحقِّ؛ لأنّه عَلَمٌ على الذّاتِ العَليَّةِ؛ فقولُ أهلِ الشِّرْكِ: ﴿ٱللَّهُۚ﴾ يدلُّ على أنَّ إقرارَهُم تامٌّ واضِحٌ، وأنَّهُم يقصدونَ الإلهَ الذي يدعوهم نبيُّهُم محمّدٌ إلى عبادتِه وإخلاصِ العبادة له[1].

يُقرّون بالأُلوهيّة للهِ تعالى، ومع ذلك يُشركون بِهِ

بلاغةُ الحَذْفِ في قولِه: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾:

اسمُ الجلالة في ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ مقولُ القولِ؛ وهوَ إمّا فاعلُ فِعْلٍ محذوفٍ - معَ مفعولٍ محذوفٍ - والتّقديرُ: (خلقَهُنَّ اللّهُ) وقُدِّرَ فعلًا؛ لأنَّ المُفسِّرَ للمحذوفِ فِعْلٌ في قوله تعالى: ﴿مَّنۡ خَلَقَ﴾. وإمّا مبتدأٌ خبرُه الفِعْليُّ محذوفٌ، والتّقديرُ: (اللّهُ خلقَهُنَّ)؛ فالحذفُ على الأوَّلِ فيه دلالةُ الإسراعِ إلى النُّطْقِ بجوهرِ الجوابِ وهو اسْمُ

الـدّلالـةُ على سرعـةِ النُّطقِ بالجوابِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 450.

الجلالةِ؛ وهذا أبلغُ في التّقريرِ وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم؛ لأنَّ كونَه تعالى خالقهما أمرٌ لا جدالَ فيه عندَهُم، والحذفُ على الثّاني فيه أنّ إسنادَ خلقِهِنَّ أوِ الخَلْقِ عمومًا إلى اللهِ شيءٌ لا ريبَ فيه؛ فيكفي أنْ يُذكَر ذلك في صيغة السُّؤالِ، ولا داعيَ لتَكراره في الجوابِ لكمال ظهورِه. والوجهُ الأوَّلُ أعلى.

سِرُّ فَصْلِ الأمْرِ بـ ﴿قُلۡ﴾ عمّا قبلَهُ:

المُتلقّي مع الاستئنافِ البيانيِّ يَقِظٌ نشيطٌ

ورَد قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مفصولًا عمّا قبلَه؛ لأنَّ جوابَ أهلِ الشِّرْكِ: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾، ولَمّا كان مُخبرًا بحقيقة إسناد الأمر إليه سبحانه، ومع ذلك يُشركون به؛ كأنّه قيل: فماذا أصنعُ؛ فقال: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ على أسلوبِ حكايةِ المُقاوَلةِ والمُجاوَبةِ لكلامهم المحكيِّ بجملة: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾؛ ولذلكَ لم تُعطَفْ الثّانيةُ بالواوِ ولا بالفاءِ، والمعنَى: ليقولنَّ اللّهُ؛ فقل: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[1].

سِرُّ الأمْرِ بـ ﴿قُلۡ﴾:

إعلاءُ كلمةِ اللهِ ونصرُ رسولِهِ ومَنْ معه

لَمّا سبَقَ بيانُ أنّ أهلَ الكذِبِ والتَّكذيبِ أرادوا تخويفَ النّبيِّ محمّدٍ ﷺ المُبلِّغ عن اللّه تعالى، وكانَ الغرضُ من ذلكَ إخفاءَ دعوته ودينِه وقرآنِه، وإضعافَ ذلكَ كلِّه؛ عامَلَهُم اللّهُ بخلافِ قَصْدِهِم، وأنبأ ببعضِ عناصرِ التَّعبيرِ في السّياق عن ضدِّ ذلك؛ وهو التَّبْشيرُ بإعلاءِ كلمةِ اللّهِ، ونصرِ رسولِ اللّهِ ومَن معَه، وعلوِّهِم، واتِّساعِ رُقْعةِ أرضِ الإسلامِ؛ وهذا ظاهرٌ في أمْرِه ﷺ بالأمْرِ ﴿قُلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ﴾، وهذه البُشرى من الدّلالاتِ الغيبيّةِ التي يدلُّ عليها التَّعبيرُ بالقولِ.

سِرُّ تصديرِ الجملةِ الاستفهاميّةِ بالأمرِ ﴿قُلۡ﴾:

تصديرُ الجملةِ الاستفهاميَّةِ بفِعْلِ الأمرِ: ﴿قُلۡ﴾؛ للإيذانِ بأهميَّة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 450، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 16.

المَقولِ، والاعتناء بتبليغِه فَوْرَ تلقّيهِ والمواجَهَةِ به[1]، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الذي يهدي إلى اللّه هو اللّهُ، وأنَّه هو الذي يدلُّنا على الطّريقِ الذي يَصِل بنا إليه، وأنَّنا لا نعتقدُ فيه سبحانه إلّا ما هدانا إليه، ودلَّنا عليه، وأمَر خيرَ خلقِه أنْ يقولَه لخَلْقِه؛ وإنْ ضلّوا[2].

الذي يهدي إلى اللهِ هو اللهُ، وهو الذي يدلُّنا على الطّريقِ إليه

بلاغةُ الاستفهامِ في قولِه ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾:

جعَل القرآنُ مَقولَ القولِ جملةً استفهاميَّةً سلّط فيها همزةَ الاستفهام على رؤيةِ ما يدعوه المشركون من دونِ اللّهِ: ﴿قُلۡ أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ غرضُه التّقريرُ بالفرعِ بعدَ تقريرِهم بالأصلِ في جملة: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ معَ تقريعِهم؛ لتخويفهم نبيَّهُم ﷺ مِمَّن ليس له أمرٌ بعَقْدٍ ولا حَلٍّ.

الاستفهامُ أساسٌ وتمهيدٌ يتأسَّسُ عليه ما بعدَهُ

ويحتملُ أن يكون إنكاريًا؛ أي: إنكارُ عليهم دعوتَهم الأصنامَ من دونِ اللّهِ، أو إنكارٌ لظنِّهم أنّ آلهتهم تكشف ضرًّا.

وكلٌّ من التّقرير والإنكار والتّقريع والتَّبْكيتِ وما جَرَى في هذا الطّريق من المعنى قد قوي واشتدَّ بتفريع ما بعد الفاء على ما قبلها. وذهَب المطعني إلى أنَّ هذا الاستفهامَ حقيقيٌّ؛ الغرضُ منهُ استحضارُ صورةِ المُستفهَم عنه في الذّهن ليُحكم عليه؛ وهو حاضرٌ ماثلٌ فيه؛ لأنَّ الحُكْمَ على المجهولِ أو الغائبِ عن الشُّعورِ لا يُفيدُ[3].

سِرُّ تقديمِ قولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾

قُدّمت جملةُ ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم﴾ على قولِه: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾؛ لأنَّ غرضها تقريرُ أنَّ خالقَ العالمِ هو اللّه؛ لأنَّهم زعموا تخويفه ﷺ مَعرَّةَ الأوثان بدليلِ قولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾؛

المؤمنُ باللهِ حقَّ الإيمانِ لا يُخوِّفُهُ أحدٌ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 440.

(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 258.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 450، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 602، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 16، و22/ 324، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 312، 439.

فكان مُناسبًا تقديمُ مسألةِ التَّقرير التي ينبني عليها الجواب لتكون الحُجّةُ أثبتَ وألزَمَ للمشركين[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاءِ في ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾:

المُـقـارَنـةُ بـينَ الأشـياءِ تُظْهِرُ الحقَّ والباطلَ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ للسّببيّة والتّفريع؛ والمُسبَّبُ عنه المُفرَّعُ عنه اعترافُهم له سبحانه عن طريقِ نبيِّه بجميع الأمرِ، وهذا التَّفْريعُ يفيدُ مَحاجَّتَهُم على لازمِ اعترافِهم بأنَّ اللّه هو خالقُ السّماواتِ والأرضِ؛ كما في قولِه تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ ٦٤﴾ [الزُّمَر: 64]. وهذا تفريعُ الإلزام على الإقرارِ، والنّتيجةِ على الدّليلِ؛ فإنّهم لَمّا أقَرّوا بأنَّه خالقُ السّماواتِ والأرضِ؛ كان يلزمُهم أنْ يُقِرّوا بأنَّه المُتصرِّفُ فيما تَحْويه السّماواتُ والأرضُ[2].

على الإنسانِ أن يتعقَّل الأمـورَ ويزنَها

وقد تكونُ الفاءُ عاطفةً لِما بعدَها على محذوفٍ ليس مسكوتًا عنه؛ لأنَّ هذه الفاءُ نبَّهَت إليه، وتقديرُ الكلامِ: (قل أتنبَّهتُم ووعيتُم وعقلتُم فرأيتُم ما تدعون من دون اللّه آلهةً من شأنِها كشفُ الضُّرِّ عن من أرادَ اللّهُ ضُرَّه وإمساكُ الرّحمة عن من أراد اللّه رحمتَه؟)[3]، أو عطفٌ على ما قبلَه، والهمزةُ الاستفهاميّةُ مُقدَّمةٌ من مُؤخَّر، وهذا هو المناسبُ لبيانِ تعقيبِ ما بعده بما قبلَه[4].

سِرُّ التّعبيرِ بالرُّؤيَةِ في قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾

حَمْلُ الرُّؤيَةِ على الحقيقةِ كمالُ إقرارٍ بوحدانيّتِهِ سبحانه

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالرُّؤيةِ في قولِه: ﴿أَفَرَءَيْتُم﴾ لتعدُّد معانيها؛ فذهب جمهورُ العلماءِ إلى تفسير الرُّؤية في مِثْلِ هذا السّياق بالإخبار؛ أيْ: (أخبروني) على سبيل المجاز المرسل لعَلاقَة السَّببيَّةِ[5].

(1) الطّيبيّ، حاشية على الكشّاف: 13/ 392.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 450، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 16.
(3) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 257.
(4) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 532.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 24/ 135.

وذهَب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ الرُّؤية قلبيَّةٌ[1]؛ لكنَّ المطعني حقَّقَ المسألة؛ فذهب إلى أنَّ المُراد من الاستفهام إحضارُ صورة المُستَفهَم عنه في الذِّهن؛ ليَحكُم عليها؛ وهي حاضرةٌ ماثلةٌ فيه؛ فالرّسول ﷺ يأمرُهُم بأنْ يستحضروا حقيقةَ أصنامِهم في أذهانهم، وليسمعوا ما يصفُها به من أوصافٍ مُزْرِيةٍ؛ ليُبيِّنَ لهم خطأ ما هم فيه من سوء الاعتقاد؛ فالرُّؤيةُ بصريَّةٌ على ظاهرِها[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾:

المبالغةُ في توبيخِ المشركين لدعائِهم الأصنامَ

نظَم القرآنُ معنَى الرُّؤية في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾ فِعلًا ماضيًا؛ للإبلاغِ في تقريعِهم وتبكيتِهم وتوبيخِهم على عبادتِهم هذه الأصنامَ الباطلةَ الحقيرةَ من دون اللّه؛ فإنَّهم كأنَّهم لم يعرفوها من قبل، فلم يقفوا مع أنفسهم؛ يفكِّرون في حقيقتِها، وهل مِثْلُها يستحقُّ عبادةً ودعاءً؟ معَ أنَّ حقيقةَ أمرها وشأنِها لا يحتاجُ إلى طولِ نظرٍ وتَكرارِ فكرٍ؛ فلهذا لم تُنْظَم الرُّؤيةُ فعلًا مضارعًا.

سِرُّ التّعبيرِ بـ ﴿مَّا﴾ لغيرِ العُقلاءِ ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ﴾

تحقيرُ آلهتِهم يوجعُهُم من بَعْدِ تقريرِهم بخالِقيَّةِ الله تعالى

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿مَّا﴾ لغيرِ العقلاءِ في قولِه تعالى: ﴿مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بعدَ التّعبيرِ عنها بأداة الذُّكورِ العقلاءِ في قولِه: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ السّائلَ النَّصوحَ ينبغي له أنْ يُنَبِّه الخَصْمَ على محلِّ النُّكْتةِ ليَنْتَبِه من غفلتِه؛ فيرجعَ عن غلطتِه[3]، ولَمّا عظَّموا تلك الآلهةَ الباطِلةَ بتخويفِهم بها النَّبيَّ ﷺ وكانَ السّياقُ هنا لإثباتِ عجزِها عن أنْ تفعلَ شيئًا؛ حقَّرَها القرآنُ واستهزأ بها وسخِر منها؛ بالتّعبيرِ عنها بلفظ ما لا يَعقِلُ، وصَوَّرَ بما في ﴿مَّا﴾ من غموضٍ وإبهامٍ مع مدِّ ألِفِها أنَّها غارِقَةٌ في الضَّعْفِ والحقارةِ والعَجْزِ.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 16.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 439.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 450.

سِرُّ التّعبيرِ بالدُّعاءِ دونَ العبادة:

معنَى الدُّعاءِ مُمْسِكٌ بما قبلَه وبما بعدَه

عبَّر القرآنُ بالدُّعاءِ دونَ العِبادَةِ في قولِه تعالى: ﴿مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تناسُبًا معَ السِّباقِ واللِّحاقِ؛ فهذا الدُّعاءُ هو دُعاءُ السُّؤالِ والاستِغاثَةِ ونحوِ ذلكَ مما يدلُّ على اعتقادِ الدّاعي الألوهيَّةَ فيما يدعوهُ؛ ولذلك يُفسَّرُ الفعلُ ﴿تَدۡعُونَ﴾ بـ (تعبدون)، وبطلبِ الحاجةِ؛ ففي التَّعبيرِ به إشارةٌ إلى إقبالِهم بكُليّاتِهم على تلك الآلهةِ الباطلةِ، فهم ذَوو رغبةٍ عظيمةٍ في عبادتِها؛ وذلك جهلٌ عظيمٌ واعتقادٌ قبيحٌ؛ فالتَّعبيرُ به ألصقُ بقوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾، وبقوله: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، وقوله: ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾؛ لأنَّ هذا الكاشِفَ والمُمْسِكَ من شأنِه أنْ يُسأل ويُسْتَغاثَ به ويُلْجَأ إليه.

دلالةُ التّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَدۡعُونَ﴾:

في استحضارِ حالِ دُعائِهم بعدَ تقريرِهم بخالقيَّةِ اللهِ كلُّ ذَمٍّ لهُم

نظَم القرآنُ معنَى دُعائِهم آلهتَهُم في قولِه تعالى: ﴿مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ فعلًا مضارِعًا؛ إشارةً إلى استمرارِهم على الكُفْرِ والشِّرْكِ، وبقائِهم عليه؛ فعبادتُهم إيّاها مُتكرِّرَةٌ مُتجدِّدةٌ بتجدُّدِ ما يُلجئهم إلى دعائها؛ فهم في ضلالٍ عظيمٍ.

سِرُّ حذفِ عائد الموصول ﴿مَّا﴾:

مِن شأنِ آلهتِهم أنْ لا تُدْعَى من الأصلِ

حذَفَ القرآنُ العائدَ على الموصولِ ﴿مَّا﴾ وهو مفعول الفعلِ في قولِه: ﴿مَّا تَدۡعُونَ﴾، والأصلُ: (ما تدعونه)؛ إشارةً في لُطْفٍ إلى أنَّه ما كانَ ينبغي أنْ تَدْعوها من دون اللّه الذي خلَق السّماواتِ والأرضَ، وأنتم تُقِرّون بذلك؛ ففي الحذفِ إنكارٌ لطيفٌ عليهم أنْ يفعلوا ذلك، وتوبيخٌ، واستبعادٌ له، وتعجُّبٌ منهم. وحسَّنَ الحذفَ العِلْمُ بالمحذوفِ من السّياق. وفيه أيضًا: تهكُّمٌ بالمحذوفِ، وسخريةٌ منه؛ لإفادته أنّ هاتيك الأصنامَ إنما تُعْرَف بدعاءِ هؤلاءِ إيّاها، فلا حاجةَ لذلك إلى ذكرِها.

بلاغةُ موقعِ جملةِ ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

الأصنامُ ليستْ محلًّا للعبادةِ كما يزعُمُ المشركون

قولُه تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حالٌ من قوله تعالى: ﴿مَّا تَدۡعُونَ﴾، وفي نَظْمِه حالًا إشارةٌ إلى ظهورِ أنَّ هذه الآلهةَ الأصنامَ لا ترقَى إلى حالِ أنْ تُعْبَدَ وتُدْعَى وتُتَّخذَ آلهةً؛ فمِنَ الظّاهرِ جِدًّا أنَّها قاصِرةٌ عن ذلك؛ وبهذا تعلو نبرةُ الإنكارِ وغيرِه من معاني الاستفهامِ في قولِه تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿دُونِ﴾:

تحقيرُ الأصنامِ وعابديها

لَمّا سبقَ تحقيرُ هذه الآلهةِ التي يدعوها أهلُ الشِّرْكِ من دون اللّه بالتَّعبير عنها بـ ﴿مَّا﴾، امتدَّ التَّحقير لها بالتَّعبيرِ عنها بكلمة ﴿دُونِ﴾ التي تُقال في الأصل للقاصِر عن الشّيء، وقال بعضُهم: (دون) مقلوبٌ من الدُّنوّ، والأَدْوَنُ: الدَّنيءُ[1] حتّى صار معناه في مِثْلِ هذا السّياقِ الذي نحنُ فيه: (غير)؛ أيْ: بالذين من غيره، فهذه الكلمةُ زادَتْ في بيانِ حقارةِ الأصنامِ والأوثانِ.

وفي التّعبيرِ بقولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى بُعدِهم عن التَّخويف الذي زعمه المشركون في قوله: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾؛ لأنَّه لا شيءَ إلّا وهو من دونه ﷻ وتحت قهره.

سِرُّ التَّعبيرِ باسمِ الجلالةِ بالإظهارِ دونَ الإضمارِ:

كمالُ ألوهيَّتِه بادٍ في كلِّ شيءٍ؛ فلا يُدعى غيرُه

كان الظّاهرُ أنْ يُعبَّر عن اسم الجلالةِ بالضَّميرِ فيُقال: (من دونه) لذِكْره صراحةً من قبلُ في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾؛ ولكنْ جاء التَّعبيرُ باسمِ الجلالةِ مُظْهَرًا؛ لأنَّه يدلُّ على كمالِ ظهورِ ألوهيَّةِ اللّهِ في الكَوْنِ؛ بما يتلاشَى معَها أيُّ ادِّعاءٍ بألوهيَّةِ أيِّ شيءٍ؛ وهذا يتلاءمُ بشدَّةٍ معَ وقوعِ قولِه: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حالًا؛ فكلُّ شيءٍ ظاهرٌ جِدًّا أنَّه دونَه تعالى، وتحتَ قهرِه؛ فكيف يُخوِّفونه بالذين من دونه؟.

---

(1) الراغب، المفردات: (دون).

سِرُّ فَصْلِ جُملةِ ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾:

التَّفصيلُ بعدَ الإجمالِ المَصحوبِ بالتَّنبيهِ

فُصِلتْ جملةُ ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها بيانٌ وتفصيلٌ لجملةِ: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ مع المفعولِ الثّاني المحذوفِ؛ فبينهما كمالُ اتِّصالٍ. "وهذه الجملة الشّرطيّة وما عُطِف عليها هي المقصودُ من ذِكْرِ: ﴿مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ فليس المُرادُ: أفرأيتم ما تدعونَ من دونِ اللّهِ هل خَلقوا من الأرضِ أم لهم شِركٌ؟ وإنّما المرادُ: هل هنَّ كاشفاتُ ضُرٍّ أراده اللّهُ، وهل هنَّ مُمسكاتُ رحمةٍ أرادها اللّهُ"[1].

المفعولُ الثّاني لقولِه: ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾ بين الإثباتِ والحذفِ:

التّأكيدُ على أنَّ هذه الأصنام من شأنها ألّا تَخلُق

قولُه تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ في محلِّ نَصْبٍ مفعولٌ ثانٍ للفعلِ في قولِه: ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾؛ وهذا جارٍ على أنَّ معنى قولِه: (أرأيتم): أخبروني. وذهَب بعضُ العلماءِ إلى أنَّ المفعولَ الثّانيَ محذوفٌ، سدَّ مَسَدَّه جوابُ الشّرطِ المعترضُ بعدَ المفعولِ الأوّلِ؛ بناءً على قاعدةِ اللّغة العربيّة عندَ اجتماعِ مبتدأٍ وشرطٍ أنْ يجري ما بعدَهما على ما يُناسِبُ جملةَ الشّرطِ؛ لأنَّ المفعولَ الأوّلَ لأفعالِ القلوبِ في معنى المبتدأِ[2]. فعلى القولِ بأنَّ المفعولَ الثّاني للفعلِ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾ محذوفٌ؛ فإنَّ جواب الشّرط: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ دليلٌ على المفعولِ الثّاني لِفعْلِ الرُّؤية، والتّقديرُ: (أفرأيتم ما تدعون من دون اللّه كاشفاتِ ضرِّه؟)[3].

المشركون مُتناقضون في أفكارِهم

والأعلى في ضوء مناقشة أهل الشِّرْكِ في أمْرِ العقيدةِ على مُسْتَوًى قريبٍ يُلاحِظُ تناقُضَهُم الدّالَّ على ضعفِ تفكيرِهم لا محالةَ أنْ يكونَ تقديرُ المفعولِ الثّاني المحذوفِ نحوَ: (أفرأيتم ما تدعون

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 259.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 450، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 16، ومحيي الدين درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 518.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 17.

من دون اللّه تَخْلُقُ شيئًا؟)، ويكونَ ما بعد ذلك ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ تفصيلًا وبيانًا لمجموعِ هذه الجملة التي حُذِفَ فيها المفعولُ الثّاني. وسِرُّ الحَذْفِ هو تحقيقُ أنَّ من شأنِها أنْ لا تَخْلُق، والإسراعُ إلى تفصيلِ ذلك وبيانِه ببعضِ الشّواهدِ الدّالّة على نفيِ الخَلْقِ عنها.

بلاغةُ الاعتراضِ بجملةِ الشَّرط:

في الاعتراضِ توكيدٌ لعَجْزِ الأصنامِ عن أنْ يكونَ منها نوعُ خَلْقٍ

على القولِ بجواز كوْنِ جملة ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ اعتراضًا فإنَّ فائدةَ الاعتراضِ هي اللَّفْتُ إلى مضمونِه الذي هو في صميمِ التّوحيدِ، وفي صميمِ الرَّدِّ على شِرْكِهِم الكائنِ في قوله تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾؛ لأنَّ الاعتراضَ خلافُ الظّاهرِ. ووقوعُ هذا المعنى اعتراضًا معَ ضميمةِ ما سبَق من جملةِ التّخويفِ: إنباءٌ بمضمون ما بعده؛ وهو ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾. وإذا كان الاعتراضُ مُقدَّمًا من تأخيرٍ فإنَّ ما بعدَه بُنِيَ عليه بناءً مكَّنَه في موقعِه؛ كأنَّه ليس مُقدَّمًا من تأخيرٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿إِنۡ﴾:

إرْسالُه ﷺ للعالَمِينَ رحمةٌ

عبَّر القرآنُ بأداة الشّرط: ﴿إِنۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾؛ للدّلالة على الشّكِّ أو عدمِ القطعِ، وقد يكون نادرَ الوقوعِ أو قليلَه؛ فلهذا يُشَكُّ في وقوعِه؛ لذا عبَّر بها هنا؛ تعريفًا بجانبٍ من جوانبِ صفاتِ اللّهِ وشؤونِه؛ وهو أنَّ رحمتَه أوسعُ من غضبِه؛ فلهذا كانَتِ العافيةُ أكثرَ من البَلْوَى[1]، ومثلُ ذلك يُقال مع أنَّ المقدّرة في جملة الشّرطِ ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾؛ تأسيسًا على أنَّ في التّعبيرِ بالرَّحمةِ عن النَّفْعِ إشارةً إلى أنَّ إرسالَ اللّهِ محمّدَ بنَ عبدِ اللّهِ إليهم نبيًّا ورسولًا رحمةٌ، وأنَّ ما أنزلَه عليه من كتابِه رحمةٌ؛ فأهلُ الكُفْرِ والشِّرْكِ يشكّون في كونِ ذلك كلِّه رحمةً بهم وإحسانًا إليهم؛ بسبب دعائِهِم آلهتَهُم من دون اللّه.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 450.

بلاغةُ المجازِ المُرْسَلِ في فعلِ الإرادة:

الإرادةُ الحقيقيّةُ هي لله تعالى، وما نسبوه للأصنامِ باطلٌ

لّما كانَ المُرادُ من الإرادةِ في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ وقولِه تعالى: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ ما يتسبَّبُ عنها من وقوعِ الضُّرِّ ووقوعِ النَّفْعِ المُعبَّرِ عنه بالرَّحمةِ؛ لأنَّ كلًّا من الضُّرِّ والنَّفْعِ المذكورَيْن قد يَحْصُلُ، والأصلُ أنْ يُقالَ: (إنْ ضرَّني اللّهُ، أو رحِمَني)، فكانَ التَّعبيرُ بالإرادةِ عن الفِعْلِ المُسبَّبِ عنها مجازًا مُرْسلًا لعَلاقةِ السَّببيَّةِ؛ كما عُبِّر بالقراءةِ عن الإرادةِ مجازًا مُرسلًا لعَلاقَةِ المُسبَّبيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ [النَّحل: 98]. والقرينةُ هنا قولُه: ﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الدّالُّ على وقوعِ هذا الضُّرِّ، وقولُه: ﴿هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ﴾؛ الدّالُّ على وقوعِ هذه الرَّحمةِ.

الأصنامَ ليسَتْ لها إرادةٌ أصلًا

وبلاغةُ المجازِ كامِنةٌ في اللَّفْتِ بمعنى الإرادةِ المُسنَدة إلى اللّه إلى أنَّ الأصنامَ ليسَتْ لها إرادةٌ أصلًا؛ فَضْلًا عن أنْ يكونَ لها قدرةٌ على كَشْفِ ضُرٍّ، أو إمساكِ رحمةٍ؛ وهذا أبلغُ في تخويفِهم، وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، وتنفيرِهم من دعاءِ تلك الآلهةِ الباطلةِ، وترغيبِهم في عبادةِ اللّه، وإخلاصِ العبادةِ لهُ تعالى.

سِرُّ التَّعبيرِ بالإرادةِ دونَ المشيئة:

المشيئةُ من الله تقتضي وجودَ الشَّيْءِ، والإرادةُ منه لا تقتضي وجودَ المُرادِ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالإرادةِ دون المشيئةِ؛ لأنَّ المشيئةَ من اللّه تقتضي وجودَ الشَّيْءِ، وأمّا الإرادةُ منه تعالى فلا تقتضي وجودَ المُراد، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ [البقرة: 185]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ٣١﴾ [غافر: 31]، ومعلومٌ أنَّه قد يحصُلُ العُسرُ والتَّظالمُ فيما بين النّاس، والآيةُ جاءتْ بالحديثِ عن كشفِ الضُّرِّ بعدَ الحديثِ عن إرادتِه، ولم تذكرْ وُقوعَه وكذلك إرادةُ الرّحمةِ؛ لأنَّ وقوعَه لا يتخلَّفُ عن إرادتِه[1].

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 260.

دلالةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿أَرَادَنِيَ﴾:

نَظَمَ القرآنُ معنَى الإرادةِ المُسنَدةِ إلى اللهِ فِعْلًا ماضيًا في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾، والظّاهرُ والأصلُ أنْ تُنْظَم فعلًا مضارعًا؛ لأنَّ تعليقَ حصولِ الجزاءِ بحصولِ الشّرط بـ (إنْ)، و(إذا) إنّما يكونُ في الاستقبالِ؛ وإنَّما جاء التَّعبيرُ بالماضي إبلاغًا في تقريرِ إرادته سبحانه؛ ففي أحوالِ الخَلْقِ شواهدُ على ذلك؛ فيكون قد ظَهَرَتْ إرادتُه تعالى قبلُ؛ أليس اللّهُ خالقَ السّماواتِ والأرضِ؟ ألستم تُقرّونَ بذلك أيُّها المشركون؟! فإنَّ من كانَ خالقًا كان مُريدًا لا مَحالةَ، وأمّا آلهتُكم التي تدعونها من دونِ اللّهِ؛ فليس لها إرادَةٌ مُطلقًا.

في المُضيِّ تمكينٌ لإثباتِ الإرادة للهِ ونفيها عن آلهةِ المشركينَ

سِرُّ التَّعبيرِ بقولِهِ: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ﴾ دون (أرادكم)

أوْقَع القرآنُ فِعْلَ الإرادةِ على ياءِ المُتكلِّم، والمُرادُ به نبيُّنا محمّدٌ ﷺ دونَ أنْ يقولَ نحوَ: (إنْ أرادكم) في الموضعَيْن؛ تناسُبًا معَ قولِه تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾؛ فالكلامُ موجَّهٌ إلى ما خوَّفوه من ضُرِّ أصنامِهم إيّاهُ. ولما فيه من الإيذانِ بإمحاضِ النَّصيحةِ[1].

التَّوافقُ مع أمْرِ نبيِّنا ﷺ في مطلع السّورة بعبادة الله مُخلِصًا له الدّينَ

سِرُّ العُدولِ في قوله: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ﴾

عدَلَ القرآنُ عن تعديةِ فِعْلِ الإرادةِ للضُّرِّ والرَّحْمةِ إلى تعديتِه لضميرِ المُتكلِّمِ ذاتِ المضرورِ والمرحومِ؛ معَ أنَّ مُتعلَّقَ الإراداتِ المعاني دونَ الذَّواتِ؛ فكان مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يُقال: (إنْ أراد ضرّي أو أراد رحمتي)؛ وإنّما عُدِلَ عن ذلك لقصدِ الاهتمامِ بالمُرادِ به؛ لإيصالِ المُرادِ إليه؛ حتّى كأنَّ ذاته هيَ المُرادُ لَمَن يريدُ إيصالَ شيءٍ إليه؛ وهذا من تعليقِ الأحكامِ بالذّواتِ؛ والمُرادُ: أحوالُ الذَّواتِ؛ مِثْلُ: ﴿حُرِّمَتۡ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةُ﴾ [المائدة: 3]؛ أيْ: أَكْلُها، ونَظْمُ التَّركيبِ: إنْ أرادني وأنا مُتلبِّسٌ بضُرٍّ منهُ، أو برحمةٍ منهُ[2].

الـذّاتُ التي خلقَها اللهُ هيَ بينَ يديْهِ يفعلُ بها ما يريدُ

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 602، والآلوسي، روح المعاني: 24/ 6، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 18، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 260.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 17 - 18.

وفي هذه التَّعْدِيَةِ تصويرُ كمالِ الاقتدارِ الإلهيِّ على الذّاتِ المخلوقةِ، وأنَّ للّه تعالى التَّصرُّفَ المُطْلَقَ؛ وفيها إشارةٌ إلى أنَّه تعالى يريدُ ما يُناسِبُ هذه الذّاتَ وما تستحِقُّه، وهذا فيه إشارةٌ إلى كمالِ عِلْمِ اللّه بأحوالِ عبادِه، وإلى عظيمِ حِكْمتِه في تصريفِ أحوالِهم.

دلالةُ إسنادِ الإرادةِ إلى الله:

الإرادةُ إلهيَّةٌ؛ فليس لآلهتِهم مِثْلُها بالكُلِّيَّةِ

أَسْنَدَ السِّياقُ القرآنيُّ الإرادةَ إلى اللّهِ فقال: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، و﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾ ولم يُسندها إلى غيرِه بأن يقول القرآنُ الحكيمُ: (إنْ ضرَّني أحدٌ)، (أو رحمني أحدٌ)؛ للتَّنْبيهِ صراحةً على أنَّ هذا الضُّرَّ ضُرٌّ إلهيٌّ، وأنَّ هذه الرَّحمةَ رحمةٌ إلهيَّةٌ، وأنَّ إزالةَ هذا الضُّرِّ وكَشْفَه تدلُّ على ألوهيَّة المُزيل الكاشِفِ، وأنَّ إمساكَ هذه الرَّحمةِ يدلُّ على ألوهيَّة المُمْسِكِ؛ لأنَّ القضيَّةَ في الأساسِ قضيَّةُ التَّوحيدِ والشِّرْكِ، وكلُّ هذا إنَّما هو لطَرْدِ الخوفِ من غيرِ اللّهِ من القلوبِ، ورسوخِ الخوفِ منه تعالى وحْدَه.

سِرُّ التَّعبيرِ باسْمِ الجلالةِ مُظْهَرًا:

إبرازُ كمالِ الألوهيَّةِ جلالًا وجمالًا

كانَ الظّاهرُ أنْ يُسْنِد القرآنُ الإرادةَ إلى ضميرِ اسْمِ الجلالة في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ لذِكْرِ اسم الجلالة مُظْهَرًا في السِّباقِ القريبِ المُباشِرِ مرَّتَيْنِ؛ مرَّةً على الأصلِ في جوابِ القَسَم في قوله تعالى: ﴿لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾، ومرَّةً على خلافِه؛ وضْعًا للمُظْهَرِ موضِعَ المُضْمر في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ فصرَّح به في هذا الموضِعِ الثّالثِ كالثّاني؛ ليكونَ نَصًّا في بيانِ أنَّ المُريدَ والضّارَّ إلهٌ له كمالُ الألوهيَّة جلالًا وجمالًا، وأنَّ المُزيلَ والكاشِفَ إنْ أزالَ الضُّر، وكشَفَه إلهٌ كذلكَ؛ لأنَّ القومَ في غفلةٍ عظيمةٍ وتناقُضٍ شديدٍ؛ فهم يُقِرّون بأنَّ اللّهَ خالقُ السّماواتِ والأرضِ؛ وهم يدْعون من دونه هذه الأصنامَ.

دلالةُ تعديةِ فعلِ الإرادةِ بالباء:

فِعْلُ الإرادةِ قد يُقْصَدُ تعديتُه إلى شيئَيْنِ، وحينئذٍ يُعدَّى بنفسه إلى الأوَّلِ، ويُعدَّى إلى الثّاني بحرفِ جَرٍّ؛ نحو: ﴿مَنۡ أَرَادَ بِأَهۡلِكَ سُوٓءًا﴾ [يوسف: 25]. فهو هنا تعدَّى إلى الثّاني بالباء في قوله: ﴿بِضُرٍّ﴾، و﴿بِرَحۡمَةٍ﴾؛ ومعناها: الإلصاق والاختلاط، وهوَ المُعَبَّرُ عنهُ بالمُلابَسَة؛ فتدلُّ على كمالِ اقتدارِ اللّهِ تعالى على كلِّ ضُرٍّ وعلى كلِّ نفعٍ/رحمةٍ؛ لأنَّ مدخولَ الباءِ نكرةٌ تدلُّ في سياقِ الشّرْطِ على العمومِ؛ وهو مُحيطٌ بكلِّ ضُرٍّ وكلِّ نفعٍ ورحمةٍ.

سبحان من أحاطَ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا!

سِرُّ التَّعبيرِ بالضُّرِّ دونَ الشَّرّ:

عبَّرَ القرآنُ بالضُّر في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، ولم يُعبِّر بالشَّرِّ؛ لأنَّ الشَّرَّ يَرْغَبُ عنه كلُّ أحدٍ، فيكون فيه دلالةٌ على عدمِ الرِّضا والتَّسْليم، وعلى أنَّه انتقامٌ وعقابٌ، لا بلاءٌ. وأمّا الضُّرُّ فهو المناسِبُ لكونِه بلاءً، والدّالّ على الرِّضا والتَّسْليم.

ولأنَّ هذهِ الآيةَ بتمامِها تحقيقٌ وتوكيدٌ في المعنَى لجملة: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبۡدَهُۥ﴾ التي هي رَدٌّ في المعنَى على جملة: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾؛ فالذي استَدْعَى ذِكْرَ الضُّرِّ، والنَّفْعِ المُعبَّرِ عنه بالرَّحْمةِ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾ قولُه تعالى في السِّباقِ القريبِ: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾.

القرآنُ يُعلِّمُنا كيفَ نتأدَّبُ مع اللهِ خالقِنا

دلالةُ التَّنْكيرِ في قولِه: ﴿بِضُرٍّ﴾:

نظَم القرآنُ معنَى الضُّرِّ نَكرةً في قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾؛ للدَّلالةِ على كمالِ انتفاءِ الخالقيَّةِ عن الآلهةِ التي يعبدُها أهلُ الشِّرْكِ من دونِ اللّهِ بانتفاءِ القدرةِ عنها، ولأنَّ في التَّنْكيرِ دلالةَ التَّقْليلِ والتَّحقيرِ؛ أو دلالةَ العمومِ؛ أيْ: (إن أرادني الله بأي ضرٍّ فهل هنَّ كاشفاتُ ضُرِّه؟)؛ والمآلُ واحدٌ؛ فهذا إبلاغٌ في إقامةِ الحُجَّةِ على أهلِ الشِّرْك، وفي الرَّدِّ عليهم تخويفَهُم؛ فإنَّ آلهتَهُم ليس يتأتَّى منها كَشْفُ أدنى ضُرٍّ.

مَن لم يَكْشِفِ الضُّرَّ القليلَ لم يَكْشِفِ الكثيرَ

سِرُّ حذفِ الفاءِ من جوابِ الشَّرط:

الإسراعُ إلى مواجهةِ أهلِ الشِّركِ

حذَف القرآنُ الفاءَ في صدرِ جملة: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾؛ على أنَّها جوابُ الشَّرطِ في قوله: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾، وكذلك في صدرِ قولِه تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾؛ للدّلالةِ على الإسراعِ إلى مواجَهَةِ أَهْلِ الشِّرْكِ بهذيْنِ الاستفهامَيْنِ اللَّذَيْنِ هما ذِرْوَةُ سياقِ الحِجاجِ؛ إبلاغًا في إفحامِهم وتعجيزِهم. وفيه أيضًا إنباءٌ بكمالِ ظهورِ ترتُّبِ الجوابِ على الشَّرْط؛ أيْ: إنَّ من الظّاهرِ جِدًّا أنْ لا يكون من هذه الآلهة الباطلةِ كَشْفُ ضرِّه، ولا إمساكُ رحمتِه.

وممّا يُذكر في حذفِ الفاءِ أنَّها جاءتْ وفقَ استعمالِ العربِ إذا صُدِّر الجوابُ بأداة استفهام غيرِ الهمزةِ يجوزُ تجرُّدُه عن الفاءِ الرّابطة للجواب؛ كقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتَكُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغۡتَةً أَوۡ جَهۡرَةً هَلۡ يُهۡلَكُ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٧﴾ [الأنعام: 47]. ويجوزُ اقترانُه بالفاء؛ كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَٰقَوۡمِ أَرَءَيۡتُمۡ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّي وَءَاتَىٰنِي مِنۡهُ رَحۡمَةٗ فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ﴾ [هود: 63][1].

بلاغةُ الاستفهامِ بـ﴿هَلۡ﴾ دونَ الهمزة:

إقامةُ الحُجَّة على أهلِ الشِّركِ عابدي الأصنامِ

بنَى القرآنُ قولَه تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ وقولَه تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ على الاستفهام، وغرضُه الإنكارُ بمعنَى النَّفْي والتَّعْجيز وتَبْكيت المُخاطَبينَ، وإنَّما جعلَه بـ﴿هَلۡ﴾؛ لإفادةِ تحقيقِ الإنكارِ؛ لأنَّ (هَلْ) تَخْتَصُّ بالتَّصْديق، وتَجْعَلُ المضارعَ للاستقبالِ؛ فكانَ لها مزيدُ اختصاصٍ بما كونُه زمانيًّا أظهرَ كالفِعْلِ، فلَمّا دخلَتْ على اسميْنِ في هاتيْنِ الجملتيْنِ: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، و﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾؛ كانَتْ معاني الاستفهام من الإنكارِ وغيرِه أبلغَ؛ لأنَّ إبرازَ ما سيتجدَّدُ (هل تكشف ضره) و(هل تمسك رحمته) في مَعْرِضِ الثّابتِ ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ و﴿هَلۡ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 17، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 260.

هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ أدلُّ على كمال العنايةِ بحصولِه من إبقائه على أصله. والإنكارُ الذي في ﴿هَلۡ﴾ يُؤكِّد الإنكارَ المفهومَ من الهمزةِ في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم﴾[1]. وعبَّر بـ ﴿هَلۡ﴾ في هاتيْنِ الجملتيْن؛ لأنَّ مَضْمونَهُما ذِرْوَةُ إقامةِ الحُجَّةِ على أهلِ الشِّرْكِ عابِدي هذهِ الأصنام.

دلالةُ التَّأنيثِ في: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾ ﴿مُمۡسِكَٰتُ﴾

التَّـقـريـعُ والـتَّـوبـيـخُ لـلـمُـشـركـين بعبادةِ الضُّعفاءِ

عبَّر القرآنُ الكريمُ بالتَّأنيثِ عن الأصنامِ في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ وقولِه تعالى: ﴿مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ للإشارةِ إلى دناءتِها وسُفولِها إبلاغًا في تنبيهِهم ونُصْحًا لهم ليرجعوا عن ظاهر غيِّهم[2]. فالتّأنيثُ يتأسَّسُ عليه الاستفهامُ؛ فمِن شأنِ آلهةٍ هذه حالُها أنْ يُراجِعوا أنفسَهُم في عبادتِها ودعائِها من دونِ اللّهِ، وبالتَّأنيث تعلو نبرةُ التَّقريعِ والتَّبكيتِ والتَّشهيرِ والتَّوبيخ.

سِرُّ التّعبيرِ عن الأصنامِ بالتّذكيرِ ثمّ بالتّأنيث:

الأصنامُ لا تملكُ لنفسها ضرًّا ولا نفعًا

عَبَّر القرآنُ الكريمُ عن الأصنام بالتَّذكيرِ في قولِه تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾؛ ثمّ التَّأنيث بعد ذلك في قوله: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، ﴿مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾، وذلك لكون تأنيثهن لفظيًّا؛ حيث عبَّر باللّاتِ والعُزَّى ومَنات؛ أو لزعمِهم أنَّ الملائكةَ إناثٌ، قال تعالى: ﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلۡأُنثَىٰ ٢١﴾ [النَّجم: 21].

وللتَّنبيه على كمال ضعفها؛ لأنَّ الأنوثةَ طبيعتُها الضَّعفُ؛ فكيف يعبدون آلهةً تحتاجُ إلى من يحميها كما أنَّ الإناثَ تحتاجُ إلى مَن يحميَها، ولأنَّ الأُنوثةَ من باب اللّينِ والرَّخاوةِ، وفي هذا مزيدُ تهكُّمٍ بهم[3].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 17، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 439 - 440، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 260.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 450، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 17.
(3) القونويّ، حاشية القونويّ: 16/ 532.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾:

إبرازُ المعقولِ في سورةِ المحسوسِ

تظهرُ بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، والمُرادُ بكَشْف الضُّرِّ مَحْوُه وإزالتُه؛ فقد شُبِّه الضُّرُّ المعقولُ بشيءٍ حِسّيٍّ مُسْتَتِرٍ على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ، وإثباتُ الكَشْفِ لازمُ المُشبّهِ بهِ المحذوفِ للمشبَّه المذكور تخييليَّةٌ؛ وهي قرينةُ المكنيَّةِ، ويجوزُ أنْ تكونَ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً في اسْمِ الفاعِلِ: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾؛ فقد استُعير الكَشْفُ الحِسّيُّ للإزالةِ المعقولةِ.

ومن بلاغةِ هذه الاستعارةِ الإيحاءُ بأنَّ الضُّرَّ جاثمٌ فوقَ من نزلَ به، والجامعُ بينهما ما يترتَّبُ على كلٍّ من الكَشْفِ والإزالةِ من تبديلِ الأحوالِ"[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالكشفِ دونَ غيرِه:

الـضُّرُّ مُتمكِّنٌ ممَّن نـزلَ به، واللهُ وحدَه من يكشِفُهُ

آثَرَ القرآنُ التَّعبيرَ بالكَشْف دونَ غيرِه في قولِه: ﴿هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ لِما فيه من بلاغةٍ لا تتأتّى في معنى الإزالةِ، ولأنَّه الأنْسَبُ بطلبِ النَّبيِّ ﷺ منهم إقامةَ الحُجَّةِ على دعواهم أنَّ الأصنامَ آلِهَةٌ لها سلطةٌ وقوّةٌ، وأنّى لهم ذلك، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الضُّرَّ مُتمكِّنٌ ممَّن نَزَلَ به؛ لأنَّ الكشفَ لا يكون إلّا لِمَنْ تلبَّس به الضُّرُّ، قال تعالى: ﴿۞وَأَيُّوبَ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ٨٣ فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ فَكَشَفۡنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرّٖۖ﴾ [الأنبياء: 83 - 84].

التَّوجيهُ البلاغيُّ للقراءاتِ في: ﴿كَٰشِفَٰتُ﴾، و﴿مُمۡسِكَٰتُ﴾:

الدّلالةُ على أنَّ آلهتَهم الباطلةَ لا تملك كشفًا ولا إمساكًا

قرأ أبو عمرٍو ويعقوب قولَه تعالى: ﴿كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، وقولَه تعالى: ﴿مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾: بتنوين كلمتَيْ (كاشفات) و(ممسكات)، ونَصْبِ كلمةِ (ضرَّه) و(رحمتَه) على أنَّ المُنوَّنَ اسمُ فاعلٍ بشرطِه؛ فيعملُ عمَلَ فِعْلِه، ويتعدَّى لواحدٍ لنَفْسِه، وإلى آخَرَ

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 440.

بـ (عَنْ)، وهذا هو الأصلُ في اسْمِ الفاعلِ. وقرأهما الباقون بغيرِ تنوينٍ فيهما، وجَرِّ ﴿ضُرِّهِۦٓ﴾ و﴿رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ على الإضافةِ اللَّفظيَّة.

ووجهُ من قرأ بالتّنوين[1] - والتي هي الأصلُ لقراءةِ الإضافةِ معَ ضميمةِ أنَّ التَّنْوينَ قوَّةٌ وأنَّ الاسم يدلُّ على الثُّبوت والدَّوام - الدّلالةُ على قَصْدِ أصلِ كَشْفِ ضُرِّه، وأصلِ إمساكِ رحمته؛ أيْ: إنَّ كلًّا من الكَشْفِ والإمساكِ فيها قويٌّ كاملٌ تامٌّ. وتُحْمَلُ قراءةُ الإضافةِ التي يقِلُّ فيها ثِقَلُ التَّنْوينِ، ويَظْهَرُ فيها التَّخْفيفُ على قَصْدِ أدنى كَشْفٍ، وأدنى إمساكٍ؛ ووراءَ هذا من المعنَى تقريرُ أنَّ آلهتَهُم الباطِلةَ لا يكونُ منها البتَّةَ أيُّ مستوًى من مستوياتِ الكَشْفِ والإمساكِ المذكورَيْن، وإنَّما لم يُكْتَفَ بقراءة التَّنْوينِ التي هي الأصلُ تأسيسًا على "أنَّ الآيةَ بُنِيَتْ على البَسْطِ والتَّحْليل"[2].

سِرُّ التّعبيرِ بالإظهارِ في مقامِ الإضمار:

ما يَقْدِرُ عليه ذو الجلالِ والإكرامِ لا يَقْدِرُ عليه غيرُه أبدًا

كان الظّاهرُ أنْ يقولَ القرآنُ: (هل هن كاشفاتُه)، و(هل هن ممسكاتُها) بعوْدِ الضّميرِ المُضافِ إليه على الضُّرِّ والرَّحمة؛ كما قال تعالى: ﴿مَّا يَفۡتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحۡمَةٖ فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ وَمَا يُمۡسِكۡ فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦۚ﴾ [فاطر: 2]. قال: ﴿فَلَا مُمۡسِكَ لَهَاۖ﴾ [فاطر: 2]؛ أيْ: للرّحمة، وقال: ﴿فَلَا مُرۡسِلَ لَهُۥ﴾ [فاطر: 2]؛ أيْ: لِما أمسكه، أو لِما يُمسكه. ولكنَّهُ أعادَ ذِكْرَهُما بالإظهار فقال تعالى: ﴿كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ و﴿مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾؛ إشارةً - مع ضميمةِ الإضافةِ إلى ضميرِ اللّه تعالى - إلى أنَّ مِثْلَ ضُرِّه تعالى لا تكشفُه آلهتُهم، وأنَّ مِثْلَ رحمتِه لا تُمسكه آلهتُهم؛ فهما باقيانِ ظاهرانِ لا تؤثِّرُ فيهما تلك الأصنامُ الباطلةُ الحقيرةُ بشيءٍ!!. وتنبيهًا على أنَّ القرآنَ لو

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 531 - 532، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 451، والدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 481، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 18.
(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 260.

كرَّرَ عليهم مِثْلَ هذيْن السُّؤاليْن فلَنْ يُجيبوا إلّا بالإنكارِ والنَّفْي، ومِن سَمْتِ هذا الحِجاجِ في هذه الآيةِ التَّفْصيلُ.

فائدةُ الإضافةِ إلى ضميرِ اسمِ الجلالة:

المبالغةُ في تقريرِ صفةِ الخَلْقِ للهِ وقدرتِه

مِن فوائدِ إضافةِ الضُّرِّ والرَّحمةِ إلى ضميرِ اسْمِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿ضُرِّهِۦٓ﴾ و﴿رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ أنْ يتأسَّسَ عليها تَكرارُ ذِكْرِ الضُّرِّ والرّحمةِ؛ ليفيدَ ما ذكرناهُ من قبلُ؛ ومنها: المبالغةُ في تقريرِ خالقيَّةِ اللّهِ وقُدْرته؛ إمعانًا في لَفْتِ أهلِ الشِّرْكِ إلى خلوِّ آلهتِهم من ذلك على جهة الكمالِ والتَّمام إحسانًا إليهم؛ لأنَّهُم نيامُ العقلِ والقلبِ.

سِرُّ حَذْفِ مُتعلَّقِ فِعْلَي الكشفِ والإمساك:

آلهةُ المُشركين لا تُرْجَى في الشّدائدِ مطلقًا

حذَف القرآنُ مُتعلّق فِعْلَي الكَشْفِ والإمساكِ في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، وقولِه تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾، والتّقديرُ: (كاشفاتُ ضُرِّه عنّي، وممسكات رحمتِه عنّي)؛ أيْ: مانعاتُ رحمتِه عنّي(1)، وذلك لإفادةِ العمومِ؛ أيْ: إنَّهنَّ لا يَكْشِفْنَ أيَّ ضُرٍّ أرادَه اللّهُ بأيِّ أحدٍ، ولا يُمْسِكْنَ أيَّ رحمةٍ أرادَها اللّهُ بأيِّ أحد، وهذا يُراعي غفلةَ القومِ وغباءَهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بـ ﴿أَوۡ﴾:

إظهارُ كمالِ الأُلوهيّةِ على جهةِ الكمالِ والتَّمامِ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَرَادَنِي﴾؛ لأنَّ من معانيها التَّقسيمَ بقرينةِ التَّقابلِ بينَ إرادة الضُّرِّ وإرادة النَّفْعِ المُعبَّرِ عنه بالرَّحمةِ؛ فهما قِسْمانِ مُتقابِلانِ معنًى، ومُتشاكِلانِ نَظْمًا، وهذا من مُحسِّناتِ الوَصْلِ بينهما.

سِرُّ تقديمِ ما يتعلَّق بدفعِ الضُّرِّ على ما يتعلَّق بإمساكِ الرَّحمة:

دفعُ الضُّرِّ مُتقدِّمٌ على جلبِ النَّفعِ

قدَّم القرآنُ الكريمُ في الذِّكْرِ المعنى المُتعلِّقَ بدَفْعِ الضُّرِّ على المعنَى المُتعلِّقِ بدَفْعِ النَّفْعِ في قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ على قولِه: ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 451.

رَحۡمَتِهِۦۚ﴾؛ تناسُبًا مع تخويفِهم إيّاه بتلك الآلهةِ الباطلةِ في السِّباقِ القريبِ في قولِه تعالى: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ﴾؛ فهو تعريضٌ بهم بذلكَ؛ وبهذا يرجعُ هذا المعنى إلى ما قبلَه؛ كرجوع العَجُزِ إلى الصَّدْرِ؛ فتتَّضِحُ حركةُ المعنى في السّياقِ.

سِرُّ عدمِ ذِكْرِ (إنْ) مع قولِه: ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾:

عجزُ الآلهةِ المزعومةِ عن كشفِ الضُّرِّ يلزمُ منه العجزُ عن إمساكِ الرَّحمةِ

جاءَ التّعبيرُ القرآنيُّ: ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾ من غير ذِكْر (إنْ) كما في قوله: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ من بابِ الإشعارِ بكمالِ ظهورِ عَجْزِ الأصنام وغيرِها عن أنْ تَخْلُقَ شيئًا؛ كأنَّ عجْزَها عن أنْ تكشفَ ضُرًّا أراده اللّهُ به يلزمُ منه بقوَّةٍ عَجْزُها عن أنْ تُمسِكَ رحمةً أراده اللّهُ بها، فلا يحتاجُ البيانُ عن عجْزِها إلى مبالغةٍ بتكرارِ الأداةِ. ولو أُعيدَتْ: (إنْ) لأفْهَم تكرارُها الإبلاغَ في نفي الخَلْقِ والقدرةِ عنها من جهةِ احتمالِ أنّها قد تمسكُ رحمةً أراده اللّهُ بها وإنْ لم تكْشِفْ ضرًّا أرادَه به؛ فاحتيج إلى الدَفْع بتكرارِها، لكنَّ شأنَها ليس كذلك؛ وإنّما عجزُها في غايةِ الظُّهورِ والوضوحِ. ولمّا كان المعطوفُ على الشَّرْطِ شرطًا؛ كان الظّاهرُ والأصلُ أنْ لا تُعاد كلمةُ الشَّرطِ (إنْ) في جملة المعطوف؛ فلا يُقال: (أو إنْ أرادني برحمة).

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ في: ﴿أَرَادَنِي﴾:

السَّفَهُ والغباءُ من سماتِ عَبَدَةِ الأصنامِ

جاء التَّعبيرُ القرآنيُّ بالضَّمير عن اسم الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾ للدّلالةِ على كمالِ ظهورِ أَنَّ المُريدَ والفاعلَ إنّما هو اللّهُ تعالى؛ فمن شدَّةِ ظهورِ ذلك لم يحتجْ إلى إبرازِه بتَكرارِ اسمِ الجلالةِ اسْمًا مُظْهَرًا، وأنَّ الأصنامَ من الظّاهرِ جدًّا أنَّها لا إرادةَ لها.

بلاغةُ المجازِ المُرْسَلِ في قولِه: ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾

دينُ اللهِ رحمةٌ، ونبيُّه رحمةٌ

تَظهرُ بلاغةُ المجازِ في تعبيرِ القرآنِ عن النَّفْعِ بالرَّحمةِ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾ بقرينة قولِه تعالى: ﴿إِنۡ أَرَادَنِيَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾ مجازًا مُرسَلًا لعَلاقَة المُسبَّبيَّةِ؛ فإنَّ النَّفْعَ سببٌ في الرَّحْمة،

وللتَّعْريضِ بأنَّ ما اخْتَصَّ اللّهُ به نبيَّهُ محمَّدًا من كونِه نبيًّا ورسولًا ورحمةً للعالمين رحمةٌ وإحسانٌ، وأنَّ كلَّ نَفْعٍ لرسولِ اللّه ﷺ إنّما هو نَفْعٌ لأمَّتِه، ورحمةٌ لهُم.

دلالةُ التَّنْكيرِ في قولِه: ﴿بِرَحۡمَةٍ﴾:

اتِّساعُ دائرةِ الحِجاجِ أبلغُ في الإقناعِ

نظَم القرآنُ معنَى الرَّحمةِ نكرةً في قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَرَادَنِي بِرَحۡمَةٍ﴾ للدّلالةِ على العموم، أيْ: وإنْ أرادني اللّهُ بأيِّ رحمةٍ فهل هُنَّ ممسكاتُ رحمتِه؟ وهذا يُبْرِزُ كمالَ عَجْزِ الأصنام ومِثْلِها عن أنْ تَخْلُقَ شيئًا، أو أنْ تَقْدِر على شيءٍ؛ لأنَّه يوسِّعُ دائرةَ التَّحدّي، فلا يكادُ يفلتُ المشركونَ من الإقرارِ بذلك العجزِ.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾:

إبرازُ المنعِ المعنويِّ بالإمساكِ الحِسّيِّ تجسيدٌ للمعنى

تظهرُ بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦٓ﴾، وذلك باختيارِ لفظِ الإمساكِ الذي تدورُ مادَّتُه على حَبْسِ الشَّيْءِ أو تحبُّسِه. والرَّحْمةُ شيءٌ معنويٌّ معقولٌ؛ شبَّهَها القرآنُ بشيءٍ يُمْسَكُ؛ أيْ: يُحْبَسُ، وإثباتُ الإمساكِ لازم المُشَبَّهِ بهِ المحذوفِ للمُشَبَّه المذكورِ تَخْييليَّةٌ؛ وهيَ قرينةُ المَكْنيَّة. ويَجوزُ أنْ تكونَ استعارةً تصريحيَّةً تبعَيَّةً في اسْمِ الفاعِلِ: ﴿مُمۡسِكَٰتُ﴾؛ أيْ: مانعاتٌ، فقد شُبِّه المَنْعُ المعنويُّ بالإمساكِ الحِسّيِّ؛ تجسيمًا للمعنَى؛ ولِما في الإمساكِ من قوَّةِ المَنْعِ[1]. والإمساكُ الحِسّيُّ أبلغُ؛ لأنَّه الأنْسَبُ بطلبِ النَّبيِّ منهم إقامةَ الحُجَّةِ بالأصنامِ على أنّها آلِهَةٌ.

بلاغةُ الطِّباقِ في الآية:

تظهرُ بلاغةُ الطّباقِ في هذه الآيةِ لجمعِها بين الضّرِّ والرّحمةِ والإرادةِ والإمساكِ، وهذا مسلكٌ دقيقُ المأخذِ بليغُ المعنى اقتضاه المقامُ[2].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (مسك)، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 440.
(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 441.

سِرُّ فَصْلِ الأمْرِ بـ ﴿قُلۡ﴾ عمّا قبلَه:

مجموعُ ما قَبْلَ الأمرِ يُحرِّكُ النَّفْسَ لتلقّيهِ

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ[1] لَمّا عجزَ أهلُ الكفرِ والشِّرْكِ بهذه الحُجَّةِ الواردة في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيۡتُم مَّا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ولم يُحيروا ببِنْتِ شَفَةٍ؛ لِما يعلمون من لزوم التّناقُضِ كأنَّ النّبيَّ ﷺ سأل ربَّه قائلًا: وماذا أقولُ لهم بعد ذلك؟ أو أنَّ السّامعَ سأل عن ذلك؛ فكان الجوابُ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾.

وممّا يُذكرُ في سِرِّ الفصلِ أنَّ القرآنَ لم يعطفْ هذا الأمرَ على نظيرِه؛ لاختلافِ مَقولِ القولَيْنِ، وعدمِ القَصْدِ إلى ضمِّهما وإشراكِهما.

سِرُّ إعادةِ الأمرِ بالقولِ: ﴿قُلۡ﴾ دونَ إدراجِهِ في السّابق:

بيانُ أنَّ هذا القولَ شعارٌ للنّبيِّ ﷺ وللمؤمنين معه

أعادَ القرآنُ الأمرَ بالقولِ ولم ينظِمْ ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾ في جملةِ الأمرِ الأوَّلِ؛ لأنَّ هذا المأمورَ بأن يقولَه ليس المقصودُ توجيهَه إلى المشركين؛ فإنّ فيما سبقَه مَقنعًا من قلّةِ الاكتراثِ بأصنامِهم؛ وإنَّما المقصودُ أن يكون هذا القولُ شعارَ النّبيِّ ﷺ في جميعِ شؤونِه، وفيه كذلك تعليمٌ للمؤمنين في أمورِ دينِهم ودُنياهُم، وفيه إشارةٌ إلى استقلالِ هذا الغَرَضِ عن الغَرَضِ السّابقِ عليه[2].

سِرُّ تَكرارِ ﴿قُلۡ﴾ مع قولِهِ: ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾:

اللهُ كافٍ نبيّه وهو حسبُه

أعادَ القرآنُ الأمْرَ بـ ﴿قُلۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ ولم ينتظِم قولُه تعالى: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾ في جملة الأمْرِ الأوَّلِ السّابقِ على هذا الأمرِ؛ لأنَّ هذا المأمورَ بأنْ يقولَه الرّسولُ ليس المقصودُ توجيهَهُ إلى المشركينَ؛ فإنَّ فيما سبقَه مَقْنَعًا من قِلَّة الاكتراثِ بأصنامِهم؛ وإنّما المقصودُ أنْ يكون هذا القولُ شِعارَ النّبيّ ﷺ في جميعِ شؤونه، وفيه حَظٌّ للمؤمنينَ معَه حاصِلٌ من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 451، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 16.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 18.

قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ فإعادةُ الفِعْلِ ﴿قُلۡ﴾ للتَّنْبيهِ على استقلالِ هذا الغرضِ عن الغرضِ الذي قبلَه(1).

بلاغةُ مجاورة ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾:

للتَّجاوُرِ بينَ المعاني دلالاتٌ

تظهرُ بلاغةُ جملةِ ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾ مع ما قبلَها في شِدَّةِ الاتّصالِ؛ فهي مُمْسِكةٌ بما قبلَها؛ كأنَّها واقعةٌ موقِعَها؛ لأنَّ معناها أنَّ اللّه كافيني، ومَن اكتفَى باللّهِ لا يحومُ حولَه العوزُ، ولا يحومُ حولَه العجزُ، ومَن اعتقد أنَّ اللّه هو كافيه، لا يُتصوّر أنْ يجد لنفسه حاجةً عند غيرِ اللّهِ، وهذه الجملةُ تُشيرُ إلى أنَّ الذين خوطِبوا بقولِه تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ و﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾ قد ظلّوا مُتشبِّثِينَ بمَن يدعونهم من دونِ اللّهِ(2).

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (الحَسْب) في قولِه: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾:

للّفظِ معنًى مخصوصٌ يُناسِبُ حالَ النَّفْسِ في السّياقِ

عبَّر القرآنُ بالحَسَبِ في قولِه: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾؛ لأنَّها أنْسَبُ بموقعِ جملتِها في السّياقِ؛ فقد جاءت جملتُها بعدَ حِجاجِ أهلِ الشِّرْكِ وإقامةِ الحُجَّةِ عليهم، وسكوتِهم الدّالِّ على إصرارِهم على الكُفْرِ والشِّرْك، وهذا مِمّا يُؤذي الدّاعيَ والمُبلِّغَ ﷺ؛ ولأنَّ التَّعبير بـ ﴿حَسۡبِيَ﴾ هو الألصقُ في هذا المقامِ لِما فيه من معنَى التَّعْديدِ؛ كأنَّ قائلَ: ﴿حَسۡبِيَ﴾ يُفوِّضُ أمْرَه للّه؛ وهو يستحضرُ ما حدَثَ معَه، أو ما سيحدُثُ معَه من سوءٍ؛ مِمّا يقعُ من المُشْركين.

دلالةُ الإضافةِ إلى ياءِ المُتكلم في: ﴿حَسۡبِيَ﴾:

تفويضُ الأمورِ إلى اللّهِ فيه اطمئنانٌ للنَّفسِ

أضافَ القرآنُ الحَسْبَ إلى ياءِ المُتكلِّم ﷺ في قوله تعالى: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾؛ دلالةً على كمالِ الإحْساسِ بالافْتِقارِ إلى الكافي المُفوَّضِ إليه الأمْرُ، وهو اللّهُ تعالى، وإلقاءٌ بالذّاتِ وأحوالِها في ساحةِ التَّفويضِ والمُفوَّضِ إليه كلَّ أمْرٍ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 26/ 18.

(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 261 - 262.

نَفسُ المُفَوِّضِ شديدةُ الافتقارِ إلى أنْ تمتلئَ بالأُنْسِ باللهِ

سِرُّ التّعبيرِ باسْمِ الجلالةِ دونَ الإضمار:

عبَّر القرآنُ الكريمُ باسمِ الجلالةِ مُظهَرًا في قولِه: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾ دون أنْ يقول القرآن: (حسبي هو)، أو: (هو حسبي)، وضميرُ الفَصْلِ المقصودُ به اسْمُ الجلالة، لكنَّ القرآنَ صرَّحَ باسم الجلالة؛ إشارةً إلى أنَّ الأبَرَّ بنَفْسِ المُفوِّضِ في هذا السّياقِ الذي يُصِرُّ فيه أهلُ الكُفْرِ والشِّرْكِ على كفرِهم وشركِهم؛ فلم يُجيبوا على هذيْن الاستفهاميْن: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾، و﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾؛ مِمّا يوحِشُ نَفْسَ المُبلِّغِ عن اللّهِ استِحْضارُ كمالاتِ اللّهِ جلالًا وجمالًا؛ للأُنْسِ به سبحانه، ويُؤْنِسُ بهذا إضافةُ الحَسْبِ إلى ياءِ المُتكلِّم.

كـفـايـةُ الـلـهِ للمؤمنِ في كلِّ أمورِه

سِرُّ حذفِ مُتعلّقِ حسبي الله:

يُلاحَظُ أنَّ جملة ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾ لم تُقيِّد كفايةَ المؤمن بربِّه في كشفِ الضُّرِّ وطلبِ الرَّحمةِ، وإنّما أطْلَقَت المعنى؛ فلم تَقُلْ: (حسبي اللّه في هذا الأمر)؛ وإنّما قالت: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾ بحذفِ المتعلِّق؛ أيْ: (في كلِّ أمرٍ، وحسبي اللّه فيما كان، وفيما يكونُ، وفيما هو كائنٌ، وحسبي اللّه من كلِّ شيء، وفي كلِّ حالٍ)؛ فهذه الجملةُ لا حدودَ لها، ولا حدودَ لآثارِها، ولا حدودَ لِما تُكسِبُه قائلَها الصّادقَ من اطمئنانٍ ورِضًى وإحساسٍ بالكِفايَة وبالأَمْنِ[1].

شـدّةُ الاتّـصالِ بـيـن مـعـاني الجُمَلِ

سِرُّ فَصْلِ جملةِ ﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾:

فُصِلَ قولُه تعالى: ﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ عمّا قبله؛ لأنَّها نِتاجُ جملة ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾ التي هي نِتاجُ ما قبلَها؛ لأنَّها مُؤكِّدةٌ له؛ فهي موصولةٌ به من ذاتِ نفسِها، وموصولةٌ به أكملَ اتِّصالٍ[2]، وهذا التَّوكيدُ المُتتابِعُ لهذه الحقيقةِ الجليلةِ كلُّه توكيدٌ للتَّوحيد المُنْتِجِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 18، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 262.
(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 263.

للإنسانِ الذي حسْبُه اللّه، والإنسانِ الذي لا يتوكَّلُ ولا يُفوِّضُ في شأنِه أحدًا إلّا اللّه؛ فهذه الجملةُ القَصْريَّةُ: ﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ أكَّدتْ هذا المعنى.

بلاغةُ التَّذييلِ بجملةِ: ﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾:

كلُّ مؤمنٍ يعرفُ اللهَ حقَّ معرفتِهِ يعتمدُ على كفايتِه دونَ غيرِهِ

تظهرُ بلاغةُ التّذييلِ في جملة: ﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ في كونها صالحةً لأنْ تكون داخلةً في حيِّز القولِ، والمعنى: (قلْ حسبي اللّهُ، وقلْ: عليه يتوكّل المتوكّلون)، فتكون مِمّا أمَر اللّهُ بأنْ يقولَه نبيُّه ﷺ تذكُّرًا من النّبيّ، وتعليمًا للمسلمينَ؛ فتكون الجملةُ تذييلًا للتي قبلَها؛ لأنَّها أعمُّ منها باعتبارِ القائلين؛ لأنَّ قوله: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾ يؤول إلى معنى: (توكلتُ على اللّهِ)؛ أيْ: (حسبي أنا، وحسبُ كلِّ مُتوكِّلٍ).

وجملة ﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ صالحةٌ كذلك لأنْ تكون من تعقيبِ الحقِّ تعالى على الكلامِ الذي مضَى؛ فيكون اللّهُ قد خاطَب بها رسولَه ولم يأمرْه بأنْ يقولها؛ فتكون الجملةُ تعليلًا في المعنى للأمرِ بقولِ: ﴿حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾؛ أي: اجعلِ اللّهَ حسبَك؛ لأنَّ أهلَ التّوكُّل يتوكَّلون على اللّهِ دون غيرِهم، وهم الرُّسُلُ والصّالحونَ، وإذ قد كنتَ يا محمّدُ من رفيقِهم؛ فكُن مِثْلَهم في ذلك[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بـ (على)

الـدّلالـةُ على عظيمِ افتقارِ هؤلاءِ المتوكّلين إلى اللهِ لشدّةِ ضعفِهم وعجزِهم

الحرفُ (على) معناه الاستعلاءُ؛ وهو إمّا حِسّيٌّ؛ وهو الأصلُ، وإمّا مجازيٌّ كما في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾ [البقرة: 5]. وأمّا هنا فلا مجالَ للاستعلاءِ بنوعيْه هذيْن؛ لأنَّ الحرفَ مُسلَّطٌ على ضميرِ اسْمِ الجلالةِ؛ وإنّما يُفسَّرُ الحرفُ بما يُناسِبُ سياقَ معناه الواردِ هو في حيِّزه؛ فيدلُّ هنا أوَّلًا على عظيمِ افتقارِ هؤلاءِ المُتوكِّلينَ إلى اللّه؛ لِعظَمِ عجْزِهم وشديدِ ضعفِهم واعتمادِهم على اللّهِ مولاهُم، ويدلُّ ثانيًا على عظيمِ إقبالِهم بكُلّيّاتِهم على اللّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 19، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 263.

دلالةُ التَّعبيرِ بالضَّميرِ عن اسمِ الجلالةِ (الله)

مَن عرَف اللهَ فحصَل في قلبِه يقينٌ؛ توكَّلَ عليه

عبَّر القرآنُ عن اسمِ الجلالةِ بالضّميرِ في قولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ لأنَّ هذا هو الأصلُ؛ لأنَّ مقامَ التَّوكُّلِ مقامٌ عظيمٌ؛ إنّما يقومُ فيه وبه من كانَ عارفًا باللّهِ؛ أيْ: بصفاتِه التي تدلُّ على كمالِ جلالِه وكمالِ جمالِه؛ لأنَّه لا يُفوِّضُ الأمْرَ إلّا لِمَن يعتقدُ أنّه كافيه لا محالةَ، ولو عُبِّر باسْمِ الجلالة فقيل: (على اللّه يتوكّل المتوكّلون)؛ لدلَّ على شِدَّةِ صعوبةِ تحقيقِ التَّوكُّلِ، وكيفُ يكونُ كذلك؛ والغرضُ الحَثُّ على اتِّخاذِه شِعارًا في حياتِهم وشئونِهم.

دلالةُ تّقديمِ الجارِّ والمجرورِ عليه:

قصرُ توكُّلِ المُتوكِّلين على اللهِ

قدَّمَ القرآنُ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيۡهِ﴾ على الفِعْلِ في قولِه تعالى: ﴿يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على قَصْرِ توكُّلِ المُتوكِّلينَ على اللّهِ تعالى المُعبَّرِ عنه بالضَّميرِ في قولِه: ﴿عَلَيۡهِ﴾، والمعنى: أنَّهم يتوكَّلون عليه لا على غيرِه، وأنَّه هو الذي يُفوِّضُ خلْقُه أمرَهم إليه، ولا يُفوِّضونه إلى غيرِه، وهذا هو معنى قصرِ التَّوكُّلِ عليه؛ لأنَّ التّوكُّلَ بمعناه الحقيقيِّ لا يكونُ إلّا للّهِ. وهذا القصرُ حقيقيٌّ تحقيقيٌّ - وهو قصرُ صفةٍ على موصوفٍ - فيه تسليةٌ وتثبيتٌ لأهلِ الصِّدْقِ والتَّصديقِ، وفيه تعريضٌ بالمشركينَ؛ إذِ اعتمدوا في أمورِهم على أصنامِهم[1].

سِرُّ التَّعبيرِ بالتَّوكُّلِ دونَ غيرِه:

إظهارُ كمالِ العجزِ للهِ ربِّ العالمين

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالتّوكُّلِ دونَ غيرِه في قولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ لأنَّه الأنْسَبُ بمعاني السِّياقِ القريبِ؛ ففيه إظهارُ العَجْزِ في الأمرِ، والاعتمادُ على الغَيْرِ[2]. وفي هذا تعريضٌ بأهلِ الشِّرْكِ في عبادتِهم للأصنامِ؛ لأنَّ اللّهَ هو الذي يكشفُ الضُّرَّ ويُمسك الرَّحمةَ؛ ولأنَّ النّاسَ لا تتوكَّلُ إلّا عليه هو تعالى.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 19، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 440، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 263.

(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (وكل).

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

تَكرارُ التَّوكُّلِ المُطْلَقِ أدلُّ على ألوهيَّةِ اللهِ تعالى

نظَم القرآنُ معنَى التَّوكُّلِ فعلًا مضارعًا في قولِه تعالى: ﴿عَلَيۡهِ يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ للدَّلالةِ على استمرار توكُّلِهم على اللهِ في كلِّ شؤونِهم؛ لأنَّ فعل ﴿يَتَوَكَّلُ﴾ "يفيدُ بصيغتِه امتدادَ زمنِ توكُّلِهم وتجدُّدَه؛ فهم في كلِّ حدثٍ يتوكَّلون[1].

بلاغةُ المجازِ المُرسَل في قولِه: ﴿ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾:

كلُّ النّاسِ فقراء إلى التَّوكُّلِ على اللهِ

دلَّ قولُه تعالى: ﴿يَتَوَكَّلُ﴾ على أنَّ قولَه تعالى: ﴿ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ لا يُراد به ظاهرُه؛ فهو مجازٌ مُرسلٌ عَلاقَتُه اعتبارُ ما سيكونُ، والأصلُ: على اللّه يتوكَّلُ من يريد التَّوكُّلَ[2]. وفيه بيانُ شدّة احتياجهم لهذا التَّوكُّل على اللّه؛ فلا ملجأ لهم إلّا اللّهُ؛ ولذلك يُقْبِلون بكُلّيّاتِهم عليه سبحانه. ونتَج عن هذا المجازِ تَكرارُ معنى التَّوكُّل: ﴿يَتَوَكَّلُ ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾ تنبيهًا على شدَّةِ افتقارِ من يتعاملُ مع أهلِ الشِّرْكِ المُتناقِضين المُصِرّينَ على الضَّلالِ والإضلالِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالاسميَّةِ ﴿ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾:

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بالاسميّةِ في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ لأنّها تدلُّ على الثُّبوتِ والدَّوام؛ والمعنى: أنَّهُم من شأنِهم التَّوكُّلُ على اللّهِ، وأنَّهم عُرِفوا بذلك، وشُهِروا به[3].

دلالةُ التَّعريفِ بأل:

المُتوكِّلون هنا هم أهلُ هذا البابِ

نظَم القرآنُ فاعلَ التَّوكُّلِ مُعرَّفًا بأل في قوله تعالى: ﴿ٱلۡمُتَوَكِّلُونَ﴾؛ وهذهِ الألِفُ واللّامُ تفيدُ معنًى دقيقًا وجليلًا؛ وهوَ أنَّهم همُ الذين تتحقَّقُ فيهم صفةُ التَّوكُّلِ في صورتِها النَّقيَّةِ الصّائبةِ الصّادقة، وهذا المعنى وصفَه عبدُ القاهرِ بأنَّه خفيٌّ كالهمس، أو كمَسَرَى

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 263 - 264.

(2) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 3/ 441.

(3) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 264.

النَّفَسِ في النَّفْسِ، وبتحقُّقِ ذلك في التَّعبير القرآنيِّ تستشرفُ كلُّ نفْسٍ أنْ تدخُل في معناه(1).

سِرُّ التّعبيرِ بجمعِ المذكَّرِ ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾:

التّوكُّلُ على اللهِ ينبغي أن يكونَ شعارَ الأُمَّةِ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التَّعبيرَ بجمعِ المُذكَّرِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ إرشادًا للمُسلمين أن يجعلوا التّوكُّلَ شعارًا لهم في حياتِهم؛ ليسعدوا ويُفلحوا، وفيه بيانُ أنَّ المُتوكِّلين على اللّهِ جمعٌ كثيرٌ من المسلمين، وفيه إشارةٌ إلى مُراعاة الفواصلِ قبْلَها ﴿يَعْمَلُونَ﴾ ﴿ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ ﴿ٱلْمُتَّقُونَ﴾ ﴿لِّلْكَٰفِرِينَ﴾ إلخ، وبعدَها: ﴿تَعْلَمُونَ﴾ ﴿يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزمر: 42] ﴿وَلَا يَعْقِلُونَ ٤٣﴾ [الزمر: 43] ﴿تُرْجَعُونَ ٤٤﴾ [الزمر: 44] إلخ، وكلُّها مختومةٌ بالنّون.

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 263 - 264.

﴿قُلْ يَٰقَوْمِ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنِّى عَٰمِلٌ ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الزمر: 39 - 40]

مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قَبلَهُما:

بعدَ المَوْعِظَةِ إمّا اهتداءٌ أوِ استمرارٌ على الضَّلالِ

لَمّا أبلغهم اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ من الموعظةِ أقصى مبلغٍ ونصبَ لهم من الحُجَجِ أسطعَ حُجّةٍ، وثبّت رسولَه ﷺ أرسخَ تثبيتٍ؛ أمرَ رسولَه في هذه الآيةِ أن يقولَ لهم على وجهِ التّهديدِ: ﴿ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾ ما تستطيعونَ من العداوةِ؛ فهو ﷺ يوادِعهم موادعة مُستقرِبِ النَّصرِ، ويواعِدهم ما أعدَّ لهم من خُسرانٍ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾: المكانُ عند أهلِ اللُّغة: الموضِعُ الحاوي للشَّيْءِ، ويُقال: مكانٌ ومكانةٌ؛ فالمكانة: هي مؤنَّثُ المكانِ؛ روعيَ فيها معنَى البُقْعةِ، ومُكَنات الطَّيرِ ومكُناتُها: مقارُّه، وقال الخليلُ: المكانُ مَفْعَلُ من الكَوْنِ، ولكثرتِه في الكلامِ أُجْرِيَ مَجْرَى (فعال)؛ فقيل: تَمَكَّنَ وتَمَسْكَنَ بمعنى: تَمَنْزَلَ. والمقصودُ بقولِه: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾ يعني: حالتَكُم التي أنتم عليها من العداوةِ التي تَمكَّنتُم فيها على سبيلِ الاستعارةِ[2].

المَعنى الإجماليُّ:

المُتَشَبِّثونَ بالضَّلالِ والشِّرْكِ ليس لهُم إلّا العذابُ في الدّارَيْنِ

في هذه الآيةِ أمَر اللّهُ تعالى رسولَه محمّدًا ﷺ أن يتوعَّد أهلَ الشِّرْك؛ ويهدِّدَهم بعذابٍ يُخزيهم في الدُّنيا، وبعذابٍ دائمٍ في الآخرةِ لما فعلوه من أنواعِ المكرِ والكيدِ للرّسولِ ﷺ وللمسلمين معه، وأنّهم بذلك لن يزدادوا إلّا وبالًا وخسرانًا، وأمّا أنا فإنّي عاملٌ في

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 19.

(2) الراغب، المفردات: (مكن)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 602، والآلوسي، روح المعاني: 24/ 6، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 20.

تقريرِ ديني والسّعيِ في نشرِه بين النّاس؛ فسوف تعلمون حينئذٍ أيُّنا المُبطِلُ؛ أنا أم أنتم ومَن يحلُّ عليه العذابُ المُقيمُ الدّائِم في الآخرةِ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ الأمْرِ بـ ﴿قُلۡ﴾ عمّا قبلَه:

الانـتـقـالُ من غَـرَضِ الـدَّعـوةِ والمـحـاجّـةِ إلى غرضِ التّهديدِ

فُصِلت هذه الجملةُ عمّا قبلها؛ لأنّها وقعتْ جوابًا لسؤالٍ يرِدُ في الخاطرِ بعدما أمَرَ اللّهُ تعالى رسولَه بتفويضِ الأمرِ إليه؛ بالتَّوكُّلِ عليه وحْدَه، وبعد أنْ أمَرَ نبيَّه بأنْ يُقيم الحُجَّةَ على أهلِ الشِّرْكِ؛ كأنَّ سائلاً سألَ عن حالِهم وحالِ الرّسولِ معَهُم؛ هل قال لهُم شيئًا آخَرَ؟ فكانَ قولُه تعالى: ﴿قُلۡ يَٰقَوۡمِ ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٩ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ جوابًا عن ذلك؛ فهو استئنافٌ بيانيٌّ، ولدَفْعِ توهُّمِ أنْ يكونَ أمْرُهُ: ﴿قُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُۖ﴾ لقَصْدِ إبلاغِهِ إلى المشركينَ، ولأنَّها انتقالٌ من غرضِ الدَّعْوةِ والمَحاجَّةِ إلى غرَضِ التَّهْديدِ[2].

بلاغةُ النِّداءِ في قولِه: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

النِّـداءُ يسترعي إسماعَ المُنادين لأهميَّة ما يُلقى إليهم

صُدِّرَ مَقولُ القولِ في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ بنداءِ أهلِ الكفرِ بـ (يا) التي هي في الأصلِ عند المُحققِّين لنداء البعيدِ؛ لأنَّهُم في غفلةٍ عظيمةٍ وتناقُضٍ شديدٍ؛ فهم يُقِرّونَ بأنَّ خالق السّماواتِ والأرضِ هو اللّه، ومع ذلك يدْعون الأوثانَ من دونِه، ولذلك كان في ندائهم مزيدُ حِرْصٍ على نجاتِهم وشفقةٍ عليهم ورحمةٍ بهم.

عِلَّةُ التّعبيرِ بـ (قوم)

الـلَّـفْـظُ يحملُ الـتَّـرغـيـبَ والتَّرهيبَ في آنٍ واحدٍ

ابتدأ القرآنُ المقولَ بالنِّداءِ بوصفِ القوميَّةِ في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾؛ لِما يُشْعِر بهِ من التَّرْقيقِ لحالِهم والأسَفِ على ضلالِهم؛ لأنَّ

(1) الهرري، حدائق الروح والريحان: 25/ 19.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 18.

كونَهُم قومَه يقتضي أن لا يَدَّخِر لهم نُصْحًا[1]. وللفْتِهم إلى أنَّهم أهلُ قوامةٍ؛ فهم ذوو قوّةٍ تُعينُهم على فَهْمِ الخطابِ القرآنيِّ الإلهيِّ، والعملِ به؛ ففيه ترغيبُهم في المراجعة والتّفكير في شأن الأُلوهيّةِ الحقَّةِ والباطلةِ. ويجوزُ أنْ يكون فيه معنَى أنَّهم "فيهم كفايةٌ في القيام بما يُحاولونهُ"[2]؛ فيكون فيه تمهيدٌ للأمرِ في قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، وفيه إشارةٌ إلى إعلانِ حرصِهِ ﷺ لهدايتهم وتحذيرهم من مَغبَّةِ المعصيةِ فإنّه لن ينفعَهم شيئًا إذا لم يُؤمنوا.

دلالةُ الإضافةِ في قوله تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾:

تحبيبُهم في دعوتِهِ بإعلانِ حرصِهِ عليهم

أضافَ القرآنُ كلمةَ (قوم) إلى ياءِ المُتكلِّم مُرادًا بها النَّبيُّ ﷺ في سياقِ النِّداءِ لاستعطافِهِم، والمعنى: يا أقاربي الذين أرْتجيهم عند المُلِمّاتِ[3]. وللتَّنبيهِ على عظيمِ حرصِه عليهم. وفي الإضافةِ إنكارٌ لطيفٌ عليهم أنْ يكونَ منهم تُجاهَ النَّبيِّ ﷺ ما يُؤلِمُه من إصرارِهم على الشِّرْك والكفرِ.

سِرُّ حذفِ ياءِ المُتكلِّمِ في ﴿يَٰقَوۡمِ﴾

قرابةُ الإيمانِ هي الأصلُ وليستْ قرابةَ النَّسَبِ

أضافَ القرآنُ كلمةَ (قوم) في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰقَوۡمِ﴾ إلى ياءِ المُتكلِّمِ المحذوفةِ، وهذا مفهومٌ من سياقِ المعنى؛ وهو سياقُ النِّداءِ، وبقيَت الكسرةُ على الميم في (قومِ) دليلًا عليها إشارةً إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ غيرُ راضٍ عنهم حالًا وعقيدةً، فهو تبرُّؤٌ خفيٌّ منهم يتَّسِقُ مع ما في سياقِ خصوصِ لفظ (قوم) الذي حُذف منه الياءُ، وفي ذلك تهديدٌ بأنَّه لن ينفعَهُم بشيءٍ ما داموا في الكفرِ والشِّرْك وإنْ كانوا أقاربَه وقومَه.

سِرُّ فَصْلِ قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾:

ورَد قولُه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ مفصولًا عمّا قبلَه؛ لأنَّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 20، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 265.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 451.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 451.

استئنافٌ نحْويٌّ أوِ ابتدائيٌّ لفقدانِ المناسبةِ الخاصَّةِ بينه وبينَ ما قبلَها؛ فبينهما كمالُ الانقطاعِ بلا إيهامٍ.

دلالةُ التّعبيرِ بالعملِ في قولِهِ: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

ليس في أعمالِ المُشركين ما ينبني على العِلْمِ

عبَّر القرآنُ بالعملِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ للإشارةِ إلى غضبِ اللّهِ عليهم بتوسعةِ مجالِ التَّهديدِ من الأقوالِ والأفعالِ الاختياريَّةِ المُتعمَّدَةِ المقصودةِ، والمعنى: افعلوا أفعالًا مبنيَّةً على العِلْمِ؛ وفي التَّعبير تعريضٌ بالعملِ الذي مبناهُ العِلْمُ والمكانةُ التي مَحَطُّها الجمودُ بأنَّ أفعالَهم ليس فيها ما يَنْبَني على العِلْمِ؛ وإنّما هي جُزافٌ لا اعتبارَ لها، ولا وزنَ لها[1].

بلاغةُ الأمْرِ في قولِه: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾:

يقينُه ﷺ بأنَّهم على ضلالٍ مبينٍ

الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ ليس على ظاهرِهِ من الوجوبِ أوِ الإباحة؛ لأنَّه خطابٌ لأهلِ الشِّرْك، فكيف يُباح لهم أنْ يعملوا على مكانتهم؟ وإنّما يهدي سياقُ آيتِه إلى أنَّ المُرادَ به التَّهديدُ؛ لأنَّهُم معَ هذهِ الحُجَجِ القاطعةِ والأدلّةِ القامعةِ والبراهينِ السّاطعةِ التي لا دافعَ لها بوجهٍ كالأنعامِ لا يُبْصِرون إلّا الجزئيّاتِ حالَ وقوعِها؛ على ما يهدي إليه التَّعبيرُ بالعملِ، فهذا الأمرُ فيه غضبٌ شديدٌ وتهديدٌ ووعيدٌ[2].

دلالةُ التّعبيرِ بـ﴿عَلَىٰ﴾:

هؤلاءِ القومُ لا طمعَ في إيمانِهم

الحرفُ ﴿عَلَىٰ﴾ معناه الاستعلاء الحسّيّ أوِ المجازيّ، وهو في قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾: استعلاءٌ مجازيٌّ على مراعاةِ المجازِ في المكانةِ، وحقيقيٌّ على مراعاةِ ظاهرِ اللّفظِ. وفيه تنبيهٌ على شِدَّةِ تمسُّكِ أهلِ الكفرِ والشِّرك بكفرهم وشركهم؛ لأنَّهم مُتمكِّنُونَ من حالةِ الكفرِ والشِّركِ والكذبِ والتّكذيبِ والضّلالِ والإضلالِ التي أحاطَتْ بهم؛ وهذا غايةُ الضَّلالِ والإضلالِ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 451.

(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 6/ 451، والآلوسي، روح المعاني: 24/ 6، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 266.

بلاغةُ الاستعارةِ في قولِه: ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾:

عبَّر القرآنُ بالمكانة في قوله تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾، والمكانةُ: المكانُ روعيَ فيه معنَى البُقْعةِ فأُنِّث، وقدِ استُعير للحالة التي تُحيطُ بصاحبِها إحاطةَ المكانِ بالكائنِ فيه استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً، والاستعارةُ أبلغُ في ذمِّهم؛ لأنَّ المعنى عليها: (اعملوا على طريقتكم من عداوتي، وحالتكم التي ترتَّبْتُم فيها، وجمدتُّم عليها؛ لأنَّه لا جِبِلَّةَ لكم من الكَوْن والمُكْنة؛ لتُبْصِروا حقائقَ الأمور، فتنتقلوا عن أحوالكم السافلة إلى المنازل العالية)؛ فكأنَّ القرآنَ يشيرُ بذلك اللَّفظِ المُستعارِ إلى أنَّهم كالحيواناتِ العُجْم لا اختيارَ لهم. والمكانةُ نُقِلت من المكانِ المحسوسِ إلى الحالةِ التي عليها الشّخصُ، واستُعيرت لها استعارةَ المحسوسِ للمعقول؛ كما تُستعار (حيث) و(هنا) للزّمان والمكان بجامعِ الإحاطةِ والشُّمول[1].

يُحلِّلُ القرآنُ نفسيّاتِهم وحالَهُم لعلّهم يرجعون

دلالةُ التَّعبيرِ بالتّأنيثِ في قولِهِ: ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾:

في التَّعبيرِ بالتَّأنيثِ في قولِهِ: ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾ تنبيهٌ على بطلانِ هذه المكانةِ وضعفِها وحقارتِها، وما جرى في هذا الطّريقِ من المعنى. وفيه أيضًا: مشاكلةٌ لآلهتِهم التي أنَّثَها القرآنُ في قوله تعالى: ﴿هَلۡ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ وقوله: ﴿هَلۡ هُنَّ مُمۡسِكَٰتُ رَحۡمَتِهِۦۚ﴾؛ ففيه استحضارٌ لها معهم هنا في سياقِ الوعيدِ والذَّمِّ والتَّهديدِ.

التّحدّي يكشفُ عوارَ المشركين وتهافتَ حُججِهم

التَّوجيهُ البلاغيُّ في قوله: ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾:

تعدّدتِ القراءاتُ في قوله: ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾؛ فقرأ أبو بكرٍ عن عاصِمٍ قولَه تعالى: ﴿مَكَانَتِكُمۡ﴾ بالجمعِ هكذا: (مكاناتكم)، وقرأهُ الباقون بالإفرادِ[2]. ففي الإفرادِ إشارةٌ إلى ما يشتركُ فيه جميعُ

الخوفُ والقلقُ والاضطرابُ النَّفسيُّ سِمَةُ هؤلاءِ المشركين

---

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 6/ 451، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 602، والآلوسي، روح المعاني: 24/ 6، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 20، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 266.

(2) الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 482، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 20.

المخاطَبينَ من الكفرِ والشِّرْكِ والكذِب على اللهِ والتَّكذيبِ بالصِّدْقِ.

وفي قراءةِ الجَمْعِ إشارةٌ إلى ما هم فيه من تَشَتُّتٍ وتمزُّقٍ وتفرُّقٍ واضطرابٍ نفسيٍّ.

وممّا يُذكر في وجهِ قراءةِ الجمعِ (مكاناتكم) أنّها باعتبارِ تعدُّدِ الأفرادِ؛ فكلُّ واحدٍ له مكانةٌ يعملُ عليها.

دلالةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾:

مكانةُ المشركين صناعةٌ مزعومةٌ

أضافَ القرآنُ المكانةَ إلى ضميرِ القومِ المُشركين المُخاطَبين في قوله تعالى: ﴿مَكَانَتِكُمْ﴾، و(مكاناتكم) على القراءتَيْنِ المتواترتَيْنِ إشارةً إلى أنَّهُم همُ الذين صنعوا هذه المكانةَ وهذه المكاناتِ المزعومةَ على أيديهم، وأنَّهم الذين أوقعوا أنفسَهم فيها؛ لأنَّ الحقَّ قد تبيَّنَ لهُم.

سِرُّ فَصْلِ قولِه: ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾:

ورَد قولُه تعالى: ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ مفصولًا عمّا قبلَه؛ لأنَّه جوابُ من عساه أنْ يقولَ للنَّبيِّ ﷺ من أهل الشِّرك: فماذا تعملُ أنتَ؟ فهذه الجملةُ استئنافٌ بيانيٌّ[1].

دلالةُ التَّأكيدِ بقولِه: ﴿إِنِّي﴾:

الـرَّسـولُ مُـؤيَّدٌ من ربِّه سبحانَه وهو ناصِرُه

لَمّا كان المُتلقّي في نفْسِه تردُّدٌ بينَ أسئلةٍ: أهو عاملٌ أيضًا على مكانتِه أم عاملٌ على مكانةٍ أخرى؟ خصوصًا أنَّه مؤيَّدٌ من قِبَلِ من خلَقَ السّماواتِ والأرضَ فتستشرفُ نفْسُه إلى التَّعْيينِ؛ وهذا يقتضي تأكيدَ الحُكْمِ له في الجوابِ؛ فلهذا صُدِّرت هذه الجملةُ: ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾ بـ (إنَّ) التي تُفيد التَّأكيد.

دلالةُ الإخبارِ عن النَّبيِّ ﷺ بقولِه: ﴿عَٰمِلٌ﴾:

ذكَر القرآنُ أنَّ النَّبيَّ أخبَر عن نفسه بقوله: ﴿عَٰمِلٌ﴾ دون وصفٍ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 451.

آخر؛ ليلفتَهُم إلى كمالِ مغايرتِه لعملهم؛ معتمِدًا في ذلك على ما في السِّباقِ من نحوِ قولِه تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾، وقولِه: ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ﴾، وقولِه: ﴿قُلْ حَسْبِيَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، ولو قال: (إنّي كذلك)، أو: (إنّي مثلكم)؛ لفُهم منه الاشتراكُ في العملِ، ولكنَّ القرآنَ أرادَ بيانَ كمالِ المُغايرةِ بين العملَيْنِ، وأنَّ عملَه ﷺ مبنيٌّ على العِلْم.

لفتُ انتباهِ المشركين إلى مغايرةِ عملِه ﷺ لعملِهم

دلالةُ التّعبيرِ بالاسميَّةِ في قولِه: ﴿عَٰمِلٌ﴾:

ثبوتُه ورسوخُه على الحقِّ مهما آذاه المُشركون

نظَم القرآنُ العملَ المُسنَد إليه ﷺ ﴿عَٰمِلٌ﴾ اسمًا للدّلالة على رسوخِه وثبوتِه وعراقَته في بابِ العملِ الذي يُقيمُه اللّهُ فيه، وأنَّه لن يتخلَّى عن عقيدتِه وبرهانِ نبوَّتِه والأمرِ الذي أرسلَه اللّه به؛ ففي الاسم شموخُ الحقِّ وعِزَّةُ الإيمانِ وعلوُّ الصِّدْقِ.

دلالةُ التّنكيرِ في قولِه: ﴿عَٰمِلٌ﴾

الدّلالةُ على التّفخيمِ والتّعظيمِ

نظَم القرآنُ العملَ المتَّصِفَ به النَّبيُّ ﷺ في قولِه تعالى: ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾؛ للدّلالةِ على التَّفخيمِ والتّعظيمِ المُرادِ به التّهويلُ؛ نظرًا إلى الوصفِ الذي هو العمل؛ إبلاغًا في إرهابِ الخَصْمِ وإرعابِه.

سِرُّ حذفِ مُتعلّق ﴿عَٰمِلٌ﴾:

الحذفُ أبلغُ في التّهديدِ والوعيدِ

حذَفَ القرآنُ متعلَّقَ قولِه تعالى: ﴿إِنِّي عَٰمِلٌ﴾، والتّقديرُ: (إنّي عاملٌ على مكانتي) بقرينةِ قولِه تعالى: ﴿ٱعْمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ﴾؛ وسِرُّ الحذفِ - غير الاختصارِ - المبالغةُ في الوعيدِ؛ لأنَّه لو قيل: (على مكانتي) لتراءى أنَّه ﷺ على حالةٍ واحدةٍ لا تتغيَّرُ ولا تزدادُ؛ فلمّا أطلَقَ أشْعَرَ بأنَّ له ﷺ كلَّ زمانٍ مكانةً أخرى، وأنّه لا يزالُ يزدادُ قوَّةً بنصرِ اللّهِ تعالى وتأييدِه، ويؤيِّد ذلك قولُه تعالى: ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾؛ فإنَّه دالٌّ على أنَّه ﷺ منصورٌ عليهم في الدُّنيا والآخرةِ بدليلِ قولِه: ﴿مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ﴾؛ فإنَّه إشارةٌ إلى العذابِ الدُّنيويِّ، وقد نالَهُم يومَ بدرٍ، وقولِه: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ

مُّقِيمٌ﴾؛ فإنَّه إشارةٌ إلى العذابِ الأخرويّ؛ فإنَّ العذابَ المُقيمَ عذابُ النّارِ[1].

بلاغةُ مقابلةِ الجمعِ بالمُفرد: ﴿ٱعۡمَلُواْ﴾، ﴿عَٰمِلٞۖ﴾:

الحَقُّ قد ينتصرُ بالقليلِ

في قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ قوبلَ عملُ الجماعةِ بعملِ الواحدِ إشارةً إلى أنَّ عملَ الواحدِ الصّادقِ يعلو عملَ الجَمْعِ العَرَمْرَم من الكَذّابينَ والمُهوِّشينَ والدَّجّالينَ، وأنَّ سرَّ النَّجاح ليس من كثرة العامِلينَ؛ وإنَّما في الذي يُسدِّدُ ويُصيبُ ويُتْقِنُ ويَصْدُقُ[2].

دلالةُ التَّعبيرِ بالفاءِ في قولِه: ﴿فَسَوۡفَ﴾:

هذا من بابِ ترتُّبِ المُسبَّبِ على السَّبب

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ رتَّبَت علمَهم الذي سيقَع في المستقبلِ على قولِه تعالى: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾، يعني أنَّ هذا الخلافَ الشّديدَ بيني وبينكم، وأنتم لاجّون في الرَّفْض والإنكارِ، وأنا جادٌّ في البلاغِ والبيانِ سوف تعلمون نتائجَه في المستقبلِ المُتَّسِعِ للدّنيا والآخرة. وما بعدَ الفاءِ يُفْهِمُ أنَّه كأنَّه جوابٌ على سؤالٍ أثارته جملةُ: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ﴾ مَعَ السُّؤال السّابقِ ذِكْرُه؛ وهو أنْ يقول أحدُ المشركين: وماذا عساه أنْ يكون قولُه؟ إيذانًا بأنَّه على ثقةٍ من أمره؛ لأنَّ المُخْبِرَ له به هو اللّهُ[3].

علّةُ التّعبيرِ بـ (سوف)

في (سوف) مزيدُ ترغيبٍ ومزيدُ ترهيبٍ

(سوف) حرفُ تنفيسٍ، يختصُّ بالفعلِ المضارعِ، ويُخلِّصُه للاستقبالِ كالسّينِ، ومذهبُ البَصْرِيّينَ أنَّها أبلغُ من السّينِ في التَّنْفيسِ، وتدلُّ على توكيدِ حصولِ ما بعدها؛ بقرينة السّياقِ؛ أيْ: فسوف تعلمون بوعدٍ لا خُلْفَ فيه[4].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 262.
(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 267.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 451، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 266 - 267.
(4) المرادي، الجنى الداني، ص: 59، وما بعدها، وص: 458 - 459، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 451.

دلالةُ التَّعبيرِ بالعِلْم دونَ الرُّؤيةِ أوِ المشاهدةِ:

العلمُ يؤدّي إلى اليقين

عبَّر القرآنُ بالعِلْمِ في سياقِ تهديدِ القوم المشركين المُصِرّين على الكفر والشِّرك في قوله تعالى: ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ دونَ (ترون)، أو (تشاهدون).. ونحوِ ذلك؛ إبلاغًا في تهديدِهم وإرعابِهم وترهيبِهم؛ لأنَّ العِلْمَ يؤدّي إلى اليقين؛ فهو إدراكُ الشّيءِ بحقيقتِه من جهةِ الحُكْم على الشّيءِ بوجودِ شيءٍ هو موجودٌ له، وأصلُ مادَّته تدورُ على أثَرٍ بالشّيءِ يتميَّزُ به عن غيره[1]. فهو أعمُّ من الرُّؤيةِ والمُشاهَدةِ ونحوِهما.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿تَعۡلَمُونَ﴾:

حصولُ مضمونِه في المستقبلِ وتجدُّده

نظَم القرآنُ معنَى العِلْمِ المُسْنَدِ إلى المُخاطَبينَ من أهلِ الكُفْر والشِّرك فِعْلًا مُضارعًا في قوله تعالى: ﴿تَعۡلَمُونَ﴾؛ لأنَّ مضمونَه يَحْصُلُ في المستقبلِ؛ فسيحصلُ لهم العِلْمُ بالمذكورِ في آية: ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ﴾ الآية، في مستقبل أمرِهم في الدُّنيا؛ عندما يأذَنُ اللّه بعذابٍ لهم؛ وقد حصَل يومَ بدرٍ وغيره، وسيتجدَّدُ لهم عِلْمٌ بذلك في الآخرةِ عندما يحِلُّ عليهم عذابٌ مُقيمٌ.

بلاغةُ الوقفِ على قولِه: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾

تقسيمُ المعاني إلى آياتٍ ذو بلاغةٍ دقيقةٍ وغزيرةٍ

جملة ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾ هي نهايةُ الآية، ومفعول ﴿تَعۡلَمُونَ﴾ في أوّلِ الآية بعدَها ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ﴾، وكان يمكن أنْ تكون نِهايةُ الآية: ﴿إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾؛ وهي موضعُ وقفٍ، وتكون الآيةُ التي بعدها: ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٩ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ الآية؛ وإنّما جاءت على ما هيَ عليه؛ ليكون ترتّبُ ما بعد الفاءِ على ما قبلها في آيةٍ واحدةٍ؛ إبلاغًا في الوعيدِ والتَّهديدِ؛ لأنَّ هذا التَّرتُّبَ هو مَحْضُ الوعيدِ والتَّهديدِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ اللّهَ ناصرُه، وأنَّه سبحانه يُخزيهم في الدُّنيا والآخرة.

---

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (علم).

ومن أسرارِ الوقوفِ على رأسِ الآيةِ أنَّه يُعطي مُهلةً للمراجعةِ والتَّدبُّرِ في الوعيدِ والتَّهديدِ التي انتهَتْ إليه الآيةُ، ويُعطي مهلةً أيضًا لتدبُّر رأسِ الآيةِ الثّانية: ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾[1].

بلاغةُ إبهامِ المُعذَّبِ:

الإنـصـافُ خيرُ داعٍ لـقـبـولِ الدّعوةِ

جاء التّعبيرُ القرآنيُّ في هذه الآيةِ الكريمةِ ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾: دونَ (يأتيكم عذاب)؛ معَ أنَّ هذا هو المقصودُ من غير شَكٍّ؛ وإنّما أبْهَمَ تفاديًا لِما يوحِشُهم وترَك الأمرَ في صورِ المُحْتَمَل؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾ [سبأ: 24]. من غير أنْ يقولَ لهم: (إنّا على هدى وأنتم في ضلال)؛ وهذا مِمّا يُعلِّمُنا فيه ربُّنا أدبَ الخطابِ، وإذا كان هذا مع أشدِّ أعداءِ دينِه، ومعَ أهلِ الشِّرك الذين اتَّخَذوا من دونه أولياءَ؛ فكيف يكون الخطابُ مع غيرِهم؟[2].

سِرُّ التَّعبيرِ بالموصوليَّةِ ﴿مَن﴾:

الأمْرُ أمْرُ جماعةِ حـقٍّ وجمـاعةِ باطلٍ

آثَرَ القرآنُ الكريمُ التّعبيرَ بـ ﴿مَن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ دونَ (الذي)؛ لأنّ ﴿مَن﴾ اسمٌ موصولٌ عامٌّ للعاقلِ المفرد والمُثنَّى والجَمْع، والمُذكَّرِ والمُؤنَّث؛ ففي التّعبير به استحضارٌ لجميعِ أفرادِ الجماعةِ المسلمةِ المؤمنة، ولجميع أفرادِ الجماعة الكافرةِ المُشركة. والإبهامُ في الموصولِ يتَّسِقُ مع سياقِ التّهديد؛ لأنَّه يحتاجُ إلى صلةٍ توضِّحُه وتُبيِّنُه؛ فمعَه يكون تشوُّقُ المُتلقّي عمومًا إلى معرفةِ الصِّلة التي يتَّضِحُ بها محلُّ التّهديدِ بـ ﴿فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ﴾.

سِرُّ التَّعبيرِ بالإتيانِ في قولِه: ﴿يَأۡتِيهِ﴾:

عـذابُ المُشركين أمـرُهُ عـنـدَ اللهِ يسيرٌ

عبَّر القرآنُ بالإتيان في قوله تعالى: ﴿يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ إبلاغًا في التّهديدِ والوعيدِ بمجيءِ عذابهم في الدُّنيا؛ لأنَّ فيه معنَى

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 267.
(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 267.

السُّهولة التي يتبعُها هنا الكثرةُ والسُّرْعةُ، وهذا لا يتعانَدُ مع دلالة: (سوف) على قوّة التَّنْفيسِ؛ لأنَّ محصولَ المعنَى أنَّ اللّه إذا قضَى بعذابهم في الدُّنيا كان مقتدرًا على ذلك كمالَ اقتدارٍ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمُضارِع ﴿يَأۡتِيهِ﴾:

نظَم القرآنُ معنَى إتيانِ العذابِ فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿يَأۡتِيهِ عَذَابٌ﴾؛ إشارةً إلى تجدُّدِ أثَرِ ذلك العذابِ فيهم وتَكرارِه واستمرارِه؛ وهذا إبلاغٌ في تهديدِهم ووعيدِهم.

بلاغةُ الحَمْل على اللَّفْظ في الآية:

بالإفرادِ يعلو التَّرغيبُ ويشتدُّ التَّرهيبُ

جعَل القرآنُ مفعولَ الإتيانِ ضميرَ المُفردِ المُذكَّرِ في قولِه تعالى: ﴿يَأۡتِيهِ﴾، وكذلك في قوله تعالى: ﴿يُخۡزِيهِ﴾، وكذلك الضّميرُ المجرورُ في قولِه تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ﴾ حَمْلًا على لفظ: ﴿مَن﴾ بالإفرادِ والتّذكيرِ؛ وفي هذا إبلاغٌ في إبهامِ المُعذَّبِ؛ بما يَعْلو معَه الإنصافُ. وفيه أيضًا تصويرٌ لكمالِ قدرةِ اللّهِ تعالى وتمامِها وطلاقتِها، وسَعةِ علمِه تعالى بتقريرِ العذابِ لكلِّ فردٍ من أفرادِ الجماعةِ المُعذَّبةِ.

بلاغةُ إسنادِ الإتيانِ إلى العذابِ:

مَن يجعلُ الأوثانَ آلهةً لا يُنكِرُ إتيانَ العذابِ

يجوزُ أنْ يكون إسنادُ الإتيانِ إلى العذابِ دالًّا على تشبيهِ العذابِ بمَن يكونُ منه الإتيانُ - وهو الإنسانُ - على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ التّخييليَّةِ، ويجوزُ أنْ يكون دالًّا على حصولِ الإتيانِ من العذابِ على الحقيقةِ؛ على أنْ يكون إتيانًا خاصًّا لا يعلمُه إلّا اللّهُ؛ لأنَّ مُرْسِلَه هو اللّه؛ فانقيادُه للّهِ على جهةِ الحقيقةِ؛ وعلى كلٍّ فهذا الإسنادُ يدلُّ "على أنَّ العذابَ المُخْزيَ يترَصَّدُهم، ويستعظمُ جُرْمَهم، ويتهيَّأُ لمُهاجمتهم ومُباغتتهم، وأنَّه يأتيهم من كلِّ مكانٍ، وكأنَّ العذابَ يَرْصُدُ النّاسَ، ويُميِّزُ المُستحِقّينَ له، ويُباغِتُهم، وفيه شيءٌ من معنى قولِه تعالى: ﴿إِذَا رَأَتۡهُم مِّن مَّكَانِۭ بَعِيدٖ سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظٗا وَزَفِيرٗا ١٢﴾ [الفرقان: 12]."[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 21، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 267 - 268.

دلالةُ التَّعبيرِ بالعذابِ دونَ غيرِه:

يُباشِرُ المشركون العذابَ ويذوقونَه

جعَل القرآنُ فاعلَ الإتيانِ (العذابَ) في قوله تعالى: ﴿يَأۡتِيهِ عَذَابٌ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٌ﴾؛ لأنَّه الأنْسَبُ بشدّة تمسُّك أهلِ الشِّرْك بشركِهم وكفرِهم؛ لأنَّهم أصرّوا عليه حتى أتاهم العذابُ المُخزي في الدُّنيا، والعذابُ المقيم في الآخرةِ؛ قال ابنُ فارسٍ: "وناسٌ يقولونَ: أصلُ العذابِ الضَّرْبُ"[1].

سِرُّ التَّنكيرِ في قولِهِ: ﴿عَذَابٌ﴾:

تهويلُ العذابِ وتفخيمُهُ

نظَمَ القرآنُ المُسندَ إليه الإتيانُ نكرةً: ﴿عَذَابٌ﴾ في موضعَيْه في الآية؛ للدَّلالةِ على تعظيم العذابِ؛ والمُرادُ بالتَّعْظيم التَّهْويلُ؛ بقرينة الصّفةِ: ﴿يُخۡزِيهِ﴾، وإسنادِ الإتيانِ إلى العذاب، وبقرينةِ إصرارِهم على شركهم بأمرِهم بالعملِ على مكانتهم؛ الدّالِّ على الغضبِ والتّهديد الشّديد. وفي هذا كلُّ تنفيرٍ مِمّا هم فيه من ضلالٍ وإضلالٍ. وتنكيرُ الوصفِ ﴿مُّقِيمٌ﴾ تابعٌ لتنكيرِ الموصوفِ ﴿عَذَابٌ﴾؛ فهو تمكينٌ لمعنى التَّنكيرِ فيه.

بلاغةُ وصْفِ العذابِ بالخزي: ﴿يُخۡزِيهِ﴾:

العذابُ المُخْزي هو عذابُ الدُّنيا

نَظَمَ القرآن جملة ﴿يُخۡزِيهِ﴾ صفةً للموصوفِ: ﴿عَذَابٌ﴾؛ لأنّه يدلُّ على أنَّ هذا الوصفَ هو المقصودُ من إتيانِ العذاب والدّلالة على شدّته من جهة المعنى والصّيغة؛ فأمّا المعنَى: فالخزيُ مِن: خَزيَ الرَّجُلُ: لحِقَه انكسارٌ من نفسِه؛ وهو الحياءُ المُفْرِطُ، ومصدرُه الخِزايَةُ؛ ففيه إشارةٌ إلى أنَّ هذا العذابَ يُزيلُ عن المُعذَّب كلَّ شيءٍ يُمكن أنْ يستعذبَه؛ كما يُفْسِدُ الكذبُ حياةَ النّاسِ. وأمّا نَظْمُه فعلًا مضارعًا؛ فيدلُّ على استمرارِ ذلك وتجدُّدِه وتَكرارِه. والمُراد به هنا عذابُ السَّيْفِ يومَ بدرٍ[2].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (عذب).

(2) الراغب، المفردات: (خزي)، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 451، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 21، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتها بآل حم، ص: 268.

مَن غُضِبَ عليه في الدُّنيا؛ غُضِب عليه في الآخرة

بلاغةُ الوَصْلِ بالواو:

جملةُ ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ معطوفةٌ بالواوِ على جملةِ ﴿يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾؛ وهي صلةٌ؛ فالمعطوفُ على الصِّلةِ صلةٌ؛ وبينَ الجملتَيْن توسُّطٌ بين الكمالَيْن؛ فكلٌّ منهما خبرٌ في اللّفظِ والمعنى، والمُعذَّبُ فيهما واحدٌ، وحسَّنَ الوَصْلَ الاتِّفاقُ في الفِعْليَّة. وفي كونِ جملةِ ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ صلةً للموصولِ إشارةٌ إلى فضيحةِ المشركين يومَ القيامةِ.

عذابُ الدّنيا سابقٌ على عذابِ الآخرةِ

سِرُّ تّقديمِ عذابِ الدّنيا على عذابِ الآخرة:

قدَّم القرآنُ عذابَ الدّنيا في قولِه: ﴿يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ﴾ على عذابِ الآخرةِ في قولِه: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ ترقّيًا من الأدنى وهو عذاب الدّنيا، إلى الأكبر والأعلى وهو عذاب الآخرة؛ تجاوُبًا مع سياقِ الغضبِ من جهةٍ؛ فإنَّهم بإصرارِهم على الشِّرك في الدُّنيا يُعذَّبون فيها من أجلِه، فيترتَّبُ عليهم تعذيبُهم؛ من أجلِه في الآخرةِ، فليحذروا عذابَ الدنيا قبل حذرِهم من عذابِ الآخرةِ. ولو قُدِّم ذِكْرُ عذابِ الآخرةِ على ذِكْرِ عذابِ الدُّنيا لأفْهَم ذلك شدّةَ الغضبِ، وأنَّ عذابَ الدُّنيا آتيهم لا محالةَ، وأنَّهم لن يتوبوا ولن يرجعوا، وآتيهم لا محالة؛ وإنْ تابوا ورجَعوا؛ غضبًا وسخطًا عليهم، ولكنَّ القرآنَ عَكَسَ؛ ليفتح لهم بابَ الرُّجوعِ إلى اللّٰهِ؛ إحسانًا إليهم لعلَّهم يُصحِّحون موقفَهم؛ فيعبدون اللّٰهَ مُخلصينَ له الدّينَ.

أحاطَ بهمُ العنادُ؛ فأحاطَ بهمُ العذابُ

دلالةُ التَّعبيرِ بقولِه: ﴿وَيَحِلُّ﴾:

عبَّر القرآنُ بالحَلِّ مُسنَدًا إلى العذابِ في قولِه تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾؛ لِما يحملُهُ من معنى الوجوبِ؛ فهو مأخوذٌ مِن: حلَّ عليه الحقُّ، يحِلُّ (بالكسر)؛ أيْ: وجَب، وحَلَّ الدَّيْنُ: صارَ واجبًا، وأصلُ مادَّته يدلُّ على فَتْحِ الشَّيْءِ؛ مِمّا ينتُج عنه سَعتُه[1]. وفي التَّعبيرِ به إشارةٌ إلى أنَّ العذابَ يُحيطُ به من كلِّ مكانٍ.

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حلّ)، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 451 - 452.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿وَيَحِلُّ﴾:

تجدُّدُ العذابِ وإحاطتُهُ بأهلِ الشِّركِ

نظَم القرآنُ معنَى الحَلِّ المُسنَدَ إلى العذابِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ فعلًا مضارعًا؛ إشارةً إلى إحكامِ إحاطةِ العذابِ بأهلِ الكفرِ والشِّركِ، وتنبيهًا على أنَّهُم يتجدَّدُ لهم وفيهم الإحساسُ بالعذابِ؛ لأنَّ النُّزولَ بالمكان؛ للإقامةِ فيه قد يلزمُه استقرارٌ؛ وهذا هو الأصلُ، لكنَّ حلولَ العذابِ بهم أو عليهم ليس كذلك؛ فهم معه ليسوا بمُستقِرّينَ؛ بل هم في هَيجانٍ واضطرابٍ.

دلالةُ تعديةِ الفعلِ ﴿وَيَحِلُّ﴾ بـ (على) دونَ الباء:

عـمـلـوا على مكانتهم؛ فحلَّ عليهمُ العذابُ

عدَّى السّياقُ الحكيمُ الفعلَ ﴿وَيَحِلُّ﴾ بـ(على) دونَ الباءِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ﴾؛ ومعناها الاستعلاءُ المجازيُّ؛ فهي تدلُّ على تمكُّنِ العذابِ من كلِّ فردٍ من أفراد أهلِ النّارِ، وفيها معنى أنَّ العذاب يعلوهم ويقهرُهم، وأنَّه يثقُل عليهم[1]؛ وهذا إبلاغٌ في التّهديدِ والوعيدِ، ومَن يطيقه من بني آدم وقد خُلق الإنسانُ ضعيفًا؟! وهذا يشاكلُ عَمَلَهم على مكانتِهم بتعدّي العملِ على المكانةِ بـ (على).

سِرُّ تقديمِ الجارِّ والمجرورِ ﴿عَلَيۡهِ﴾:

تعظيمُ الوعيدِ في نفوسِ أهلِ الشِّركِ

قدَّمَ القرآنُ الجارَّ والمجرورَ ﴿عَلَيۡهِ﴾ على الفاعلِ وصفتِهِ ﴿عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ على خلافِ الأصلِ والظّاهرِ؛ وذلك للتّشْويقِ إلى المُسنَدِ إليه؛ ليعظم الوعيدُ ويهولُه في نفوسِ المُتلقّين؛ خصوصًا أهلَ الشِّركِ. وإبلاغًا في التَّنْكيلِ بالمُعَذَّبِ؛ لأنَّه محلُّ غضبِ اللّهِ تعالى بسببِ دعوتِه للأصنامِ وعبادتِها من دونِه.

دلالةُ تَكرارِ العذابِ في الآيةِ:

تَكرارُ العذابِ في الدّاريْنِ صورَةٌ لعِظَمِ جُرْمِهم في حقِّ الله

تكرَّرت كلمةُ ﴿عَذَابٞ﴾ في الآية للتّنبيه على كمالِ المغايرةِ بينَ العذابيْنِ؛ وهذا أبلغُ في التّهديدِ والوعيدِ لا محالةَ. وفيه أيضًا إشارةٌ

---

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (حلّ)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 21، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 268.

إلى وجودِ عذابَيْنِ أحدُهما في الدّنيا، والآخر في الآخرةِ، ولهذا فسَّر العلماءُ عذابَ الخزي بأنَّه عذابٌ في الدُّنيا، وفسَّروا العذابَ المُقيمَ بأنّه عذابُ الآخرة[1].

علّةُ التّعبيرِ بـ ﴿مُّقِيمٌ﴾:

الـدّلالـةُ على خلودِهم في نارِ جهنَّم

وصَف القرآنُ العذابَ بالمقيم في قولِه تعالى: ﴿وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾؛ ليُمْسِكَ بقولِه تعالى: ﴿وَيَحِلُّ﴾؛ لأنَّه الأنسبُ والألصقُ به؛ لأنَّ معنى (أحَلَّ بالمكان): أقامَ، وهم أهلُ مَحَلَّته؛ أيْ: أهلُ إقامته؛ ويُقال للقوم القاطِنين غيرِ المسافرين: هم حلالٌ؛ ولهذا كانَتْ كلمة ﴿وَيَحِلُّ﴾ مُشْعِرةً بكلمة ﴿مُّقِيمٌ﴾؛ لأنَّ الحُلول مُشعرٌ بالمُلازمةِ والإقامةِ معهم؛ فكان التَّناسُبُ والتَّناغي بين ﴿وَيَحِلُّ﴾، وبين ﴿مُّقِيمٌ﴾ جليًّا[2].

سِرُّ وصفِ العذابِ بقولِه: ﴿مُّقِيمٌ﴾:

إقامةُ العذابِ أبلغُ في تقريرِ إقامتِهم في النّارِ

وصَف القرآنُ العذابَ بالإقامةِ في قولِه تعالى: ﴿عَذَابٞ مُّقِيمٌ﴾ على جهةِ المجازِ في الإسنادِ؛ فإنَّ ﴿مُّقِيمٌ﴾ اسمُ فاعلٍ عاملٌ عمَلَ الفِعْلِ؛ يرفعُ فاعلًا هو ضميرٌ مُستترٌ يرجعُ إلى العذابِ؛ أيْ: مقيمٌ هو، فقد وُصِف العذابُ بغيرِ ما حقُّه أنْ يوصَف به، والأصلُ: عذابٌ مُقيمٌ فيه صاحبُه؛ للإبلاغِ في تقريرِ إقامةِ أهلِ الشِّركِ والكفرِ في العذابِ، حتَّى كأنَّ الإقامة سَرَتْ من المُعذَّبِ إلى العذابِ.

---

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 268.

(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (حلّ)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 603، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 21، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 268.

﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ٤١﴾ [الزمر: 41]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ما على الرّسول ﷺ إلّا البلاغُ ويتحمّلُ المشركون عواقبَ اختيارهم

أخبرتِ الآيةُ السّابقةُ أنّه مع الوقتِ سوف يثبُتُ مَنِ الذي سيواجه العذابَ نتيجةَ أفعاله؟! فأظهرتِ التّحدّيَ الصّريحَ للمشركين بأنّ عليهم الاستمرارَ في طريقهم إذا كانوا يعتقدون صحّتَه، وهنا في هذه الآية أوضح أنّ النّبيَّ ﷺ سيستمرّ في تبليغ رسالته، فالكتابُ ينزلُ عليه، وهو ملتزِمٌ بإبلاغه، وليس وكيلًا على أحدٍ فيما يختار منَ الهدى أوِ الضّلال، فقرّر في الآية السّابقة تفويضَهم إلى انتهاج ما يقتنعون به، لأنّهم مسؤولون عن عواقب اختيارهم، وحدّد هنا في هذه الآية مسؤوليّةَ الرّسول تجاهَهم، وما يجبُ عليه من أداء البلاغ، وما لا دخْلَ له فيه من تحمّل شيءٍ عنهم فيما اختاروا وأرادوا.

حُسنُ الأداءِ يوجبُ التّسليةَ والرّضاء

فارتباطُ هذه الآية بما قبْلَها هوَ أنّه لمّا بيّن حالَ الكُفّار بأنّهم مَجزيّون في الدّارَيْن بيَّن اللّه تعالى في هذه الآية أنّ إنزالَه القُرآنَ على رسوله الكريم للتّبليغ وقد أدّى ﷺ ما كُلِّف به فكفرُهم لا يضرُّ غيرَهم؛ ففيه تسليةٌ له ﷺ بهذا الطّريق إثرَ تسليته بكونه منصورًا عليهم في الدّارَين[1]. أي: "لمّا تجلّت عرائسُ هذه المعاني آخذةً بالألباب، ولمعت سيوفُ تلك المباني منَ المثاني قاطعةً الرّقابَ، وختمَها بما ختم من صادع الإرهاب، أنتجتْ ولا بدَّ قولَهُ مُعلّلاً لإتيان ما توعّدهم به مؤكّدًا لِما لهم منَ الإنكار لمضمون هذا الإخبار: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا﴾"[2].

(1) القونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 535.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 515.

وفيه تسليةٌ له ﷺ من حيث كونُه يعظمُ عليه عدمُ إيمانهم ورجوعِهم إلى ما أنزل اللّه تعالى عليه، فأخبره بإنزال القرآنِ عليه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِوَكِيلٍ﴾: (وكل) أصلٌ يدلّ على الاعتماد على غيرِك في أمرك[2]. والوَكيلُ فعيلٌ بمعنى المفعولِ، أي: بِموَكَّلٍ عليهم، وحافظٍ لهم[3]. والمعنى هنا: وما أنت بمسؤولٍ عنهم فيما اختاروا منَ الهداية أوِ الغَواية، ولستَ حافظًا لهم من عاقبة السّوء إنْ ضلّوا، ولا متحمِّلًا عنهم مصيرَهم إنِ اهتدوا أو ضلّوا.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الهدايةُ مسؤوليّةٌ فرديّةٌ وما الرّسولُ إلّا مُنذرٌ ومُبلّغٌ

افتُتِحتِ الآيةُ الكريمةُ بتّأكيد أنّ اللّه ﷻ هو الذي أنزل القرآنَ على النّبيّ ﷺ، وأنّ هذا الكتاب نزل ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ بما ينبّهُ على أنّ القرآن هو حقٌّ خالصٌ وهدىً للنّاس، وأنّ المؤمن به أبْعدُ ما يكون عنِ الضّلال والباطل. ثمّ بيّنتِ الآيةُ أنّ الهداية مسؤوليّةٌ فرديّة؛ فمن يهتدي فإنّما يهتدي لنفع نفسِه، أي: إنّ الشّخصَ هو الذي يختار الطّريقَ الصّحيحَ لنفسه ولا يجني ثمارَه إلّا هو. وفي المُقابل: مَنْ يَضلُّ فإنّما يَضلُّ على نفسه أيضًا، وهذا تقريرٌ أنّ الضّلال لا يعود إلّا بالضّرر على الضّالّ. ثمّ تنفي الآيةُ ولايةَ رسوله عليهم أو مسؤوليّتَه عنهم فيما يختارونه منَ الهدى أوِ الضّلال، فتوضّحُ أنّ النّبيّ ﷺ ليس وكيلاً أو مسؤولاً عنِ اختيار النّاس في إيمانهم أو كفرهم، بل عليه - فقط - أن يبلّغ ويبيّنَ. فالنّاسُ مسؤولون عن أفعالهم وما اختاروا، وليس على النّبيّ حسابُهم إنِ اختاروا الضلّال، فإنّما يُسئَل عن بلاغه فقط[4].

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 206.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وكل).
(3) الراغب، المفردات: (وكل).
(4) القنوجي، فتح البيان: 12/ 120، والسّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 725، والجزائري، أيسر التفاسير: 4/ 491.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملة: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا﴾ ممّا قبْلها:

تعليلُ الوعيدِ بالعذاب بذِكْرِ التّنزيل

جملةُ: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تعليليةٌ للأمر المُفتَتح به الوعيدُ في قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ فَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ ٣٩ مَن يَأۡتِيهِ عَذَابٞ يُخۡزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيۡهِ عَذَابٞ مُّقِيمٌ ٤٠﴾ [الزمر: 39 - 40]، أي: ذلك التّحدّي والوعيدُ لكم كذلك؛ لإنّا أنزلنا عليك الكتابَ للنّاس بالحقّ، وهم قد عارضوا وعاندوا، ومعنى التّعليل بجملة الإنزال: أي: لِأجل نزولِ الكتاب عليك هدايةً للنّاس، استحقّ الإنذارَ بالوعيد مَن تجافَى وأعرضَ من قومه[1].

نكتةُ تصديرِ الجملة بالتّأكيد:

التّوكيدُ لدحضِ الاستبعاد وتثبيتِ الحقيقة

صُدّرت جملةُ ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ بحرف التّوكيد: (إنّ)، وجاءتْ مُستَهَلّةً بنون الجلالة المعظّمة: (نا)؛ ليتأكّد الاحتجاجُ عليهم بعد وعيدهم. ولتحقيق مضمونِ الجملة؛ لأنّ مضمونَها هو مدارُ الإيمان، وحقيقةُ الغيب، ومَرجِعُ الرّسول في كلّ احتجاجٍ ومواجهة، ووعدٍ ووعيد، فلمّا كانت تلك الجملةُ تعليلًا لِما قبْلها منَ الوعيد والتّحدّي، أُكِّدتْ؛ لدفْعِ استبعادِهم ذلك، فهم يستبعدون الوعيدَ؛ لاستبعادهم الرّسالةَ والتّنزيلَ، فكان في التّأكيد طرْقٌ لأسماعِهم، وتقريرٌ لِخلاف مُعتقَدِهم، وإشفاقٌ عليهم لاستمالةِ قلوبهم، فإنّ مَنْ ترتجي الخيرَ له، فإنّك تؤكِّدُ له سببَ نجاتِه، وحصولِ الخيريّة له. وفي توكيد الجملة تثبيتٌ للمؤمن، وشفاءٌ للمُرتاب منَ الرّيْب. ومن مُسوّغات التّوكيد تعظيمُ شأن التّنزيل؛ ولذلك اقترن بضمير العظَمة والجلالِ. ومن مُسوّغات التّوكيد: تحقيقُ الإيمان بالتّنزيل في القلوب، وتعظيمُ شأن الإيمان بالغيب؛ لأنّ القرآن هو مجْمَعُ الإيمان بالغيب ومرجِعُه، ونزولُ القرآن نفْسُه غيْب، وأمّا القرآن نفسُه فمشهودٌ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 515، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 21.

نكتةُ التّعبير بضمير الفاعلِ الجَمعيّ:

الإسنادُ إلى نون العظمةِ يدلّ على نفاذ الفعل وشدّةِ تحقُّقه

عُبِّر بضمير الفاعل للجمْع في قوله: ﴿أَنزَلۡنَا﴾ تعظيمًا للفاعل ﷻ سبحانه بما له تعالى من باهر العظَمة ونافذِ الكلمة، وفي إسناد الفِعل إلى ضمير العظَمة تعظيمٌ لِلفعل؛ إذِ الإنزالُ المذكورُ من خصائص الألوهيّة، فلا يقدرُ عليه إلّا اللّه، وما كان كذلك كان فِعلًا فذًّا فريدًا، فيحتاجُ إلى عظمةٍ في القُدرة عليه، بل إلى قدرةٍ فريدةٍ وحيدة، وهي قدرةُ خالقِ القُدَر ﷻ، ولذلك جُمع الضّميرُ؛ لأنّ فِعلَ اللّهِ غالِبٌ أفعالَ كلِّ فِعلٍ سِواه، وقاهِرٌ عليها، فكان فِعلًا جمعيًّا في عظَمةِ نَفاذِه وشدّة تحقّقِه، وفِعلا فرديًّا؛ لصدوره عن الواحد الأحد، الفرد الصمد(1).

نكتةُ تعديةِ الإنزالِ بحرف الاستعلاءِ:

الاستعلاءُ في الإنزال علامةُ الهيمنةِ والوقايةِ

التّعديةُ بحرف الاستعلاء في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أفاد أنّ الكتابَ تمكّن من نفْسِه ﷺ حتّى أُشرِبَ به قلبُه، فهو كنايةٌ عنِ استحواذ التّنزيل عليه حتّى صارَ الكتابُ مَظَلَّتَه التي يَنضوي تحتَها، وتستعلي عليه بالعصمة والسّلام، ولا يخفى ما يفيده ذلك من معنى الوقايةِ التّامّةِ، والرّعاية الدّائمة، مع خضوعه ﷺ لمرجعيّة التّنزيل وعدمِ الخروج عن مداره، فالنّبيّ ﷺ مُحصَّنٌ بإنزال الكتاب عليه، مأمونٌ به، مسعودٌ بأنّ عُلوَّه في الحياةِ الكتابُ، فلا علوَّ آخَرَ لشيءٍ ولا لأحدٍ عليه، والكتابُ هو سماءُ حياته، التي لا يخرجُ عنها، ولا تَقْصُر عنه، ولا يستطيع أحدٌ أنْ يتفوّق عليه في وجودها؛ لأنّ فوقيّة الكتاب تحولُ عن ذلك، وتمنعُ منه(2).

نكتةُ العُدول عنِ التّعدية بـ(إلى):

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (أنزلنا إليك) كما في مواضعَ أخرى؛

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 515.
(2) ابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 287.

بل عدَّى الإنزالَ هنا بحرف الاستعلاء، ونكتةُ ذلك: كراهةُ التَّكرار، فإنّه في أوّل السّورة عدّاه بحرف الغاية، فقال: ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الزمر: 2]. فاقتضى هنا تعديتَه بحرف الاستعلاء: ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ﴾؛ زيادةً في المعنى، فقوله: ﴿أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ﴾ [الزمر: 2] إخبارٌ عن أنّ الرّسول هو غايةُ الإنزال، وقولُه: ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ﴾ إخبارٌ عن كيفيّة ذلك الإنزال في التحامه مع تلك الغاية، فأخبرَ بذلك أنّ الكتابَ مبلغُ انتهائه الذي وصل إليه هو الرّسولُ ﷺ، وأنّه وصلَ إليه، وصولَ المُستعلي عليه. فالتّعديةُ بـ(إلى) بيّنتْ غايةَ الإنزال، والتّعديةُ بـ(على) بيّنتْ كيفيّتَه مع تلك الغاية[1]. وناسبَ التّعديةَ بـ﴿عَلَيۡكَ﴾ في هذا الموضع؛ لأنّه لمّا كان في قوله: ﴿ٱعۡمَلُواْ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمۡ إِنِّي عَٰمِلٞۖ﴾ [الزمر: 39] تمكّنٌ منَ المحاججةِ والتّحدّي لهم، أخبر بعدَه أنّه ﷺ متمكِّنٌ في ذلك بتمكّنِ الكتاب منه، ولذا عدّى الإنزالَ بحرف الاستعلاء؛ ليفيدَ ذلك المعنى.

العدول في التّعدية لإثراء المعنى وتجنّبِ التّكرار

وفي تعدية الفعلِ ﴿أَنزَلۡنَا﴾ بحرف الجرّ (على) إشارةٌ إلى عُلوّ المُتنزِّل الذي نزل منه القرآنُ على رسول الله، وأنّه منَ اللّه ربِّ العالمين، القائمِ بسلطانه على هذه الوجوه[2].

ما نزلَ منَ العليِّ على النّبيّ عظيمُ المنزلة

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور على مُتعلِّقه:

تخصيصُ الرّسول ﷺ بالتّنزيل تشريفٌ وتفضيلٌ

قُدِّم الجارُّ والمجرور على المُتعلّق في قوله: ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾، ولم يُقلْ: (أنزلنا الكتاب عليك)؛ لإفادة الاختصاص والحصر؛ أيْ: أنزلناه عليك خاصّةً؛ لا على غيرك من أهل هذا الزّمان؛ لأنّك عندنا الخالصُ لنا، دون أهلِ الأرض كلّهم، لم يكن لشيء دوننا فيك حظٌّ[3]. ولا يخفى ما في تقديم شبْهِ الجملة من

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 515، وابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 287.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1159.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 515.

تقرير أفضليّة الرّسول ﷺ على سائر الخلْق؛ لاختصاصه بما لم يختصَّ به أحدٌ قبْلَه ولا بعدَه.

معنى (ال) في: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

تحديدُ الكتاب وتعيينُه ترسيخٌ لكماله وشموله الخيرَ

(ال) في: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ من قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ للعهد، والمرادُ: القرآن المكتوبُ في اللّوح المحفوظِ، "الجامعُ لكلِّ خير؛ لكونِه في غاية الكمال بما دلّ عليه (ال)"[1]. فالعهد عهدٌ حقيقيٌّ، وإنْ أريد الكتابُ الذي سيؤول إلى كتابته بعد نزوله، وهو القرآن الذي نزل مفرّقًا، فالمراد العهدُ المجازيّ؛ لأنّه سمّاه بمعهودٍ سيكون، فهو على عُهدةِ التّصوّر، وقوّةِ التّوقّع، أو باعتبار العهدِ البعضيِّ لا الكُليِّ، أي: الجزءُ الذي نزل حتّى نزولِ هذه السّورة، أي: ما نزل من قبْلُ، حتّى هذه الآية في قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: ذلك الجزءُ المعهود الذي نزل، وما يزال يتواتر نزولُ سائرِه.

بلاغةُ المجاز المرسَلِ في إطلاق: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

الكتابُ هو كيانٌ كاملٌ مِنَ الأحكام والتّوجيهات الموثوقةِ المعصومةِ المصدرِ

وإطلاقُ لفظ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، مجازٌ مرسل باعتبار المآل؛ لأنّه نزل متلوًّا لا مكتوبًا، وإنِ اعتُبِر لفظُ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ اسمًا للنّازل المتلوِّ باعتبار ما كان عليه من كتابته كلِّه في اللّوح المحفوظ أو في الصُّحف التي بأيدي الملائكة، فإنّه مجازٌ مرسل باعتبار ما كان، ومجازٌ مرسل لعلاقة الكليّة، فالمُرادُ جميعُ القرآن، ومع ذلك لم ينزل إلّا بعضُ القرآن وقتَ نزولِ هذه الآية، فإنْ أريد بـ﴿أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تحقيقُ نزوله عليه كلّه باعتبار ما تحقّق في قَدَرِ اللّه وقضائه، فلا مجازَ، وهو كذلك مَجازٌ مُرسلٌ لعلاقة التّعلُّق الاشتقاقيّ، فلفظُ ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ مصدرٌ على وزن (فِعال)، والمُراد به المفعولُ؛ أي: المكتوب[2].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 515.

(2) ابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 287.

دلالةُ وزن (فِعال) في: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾:

مُحتوَى القرآن متآلفٌ نظمًا ومضمونًا

صيغةُ (فِعال) في قوله: ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾ تدلّ على الامتناع، وعلى قربِ شيء من شيء، وهكذا ﴿ٱلۡكِتَٰبَ﴾، فالكتاب يمنعُ التحاقَ ما خرج عنه، عمّا كُتِبَ فيه، وكذا المكتوبُ فيه، فإنّه متقارِبٌ في حروفه وأجزائه منَ الكلمات والتّراكيب والمضامين(1).

معنى اللّام في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾:

القرآنُ مناطُ المصالح في المعاش والمعاد

اللّام في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ للعلّة، أي: لأجل النّاس؛ فإنّ إنزالَه مناطُ مصالحهم في معاشهم ومعادهم(2) وسبيلُ هدايتهم إلى الرّشاد وتوجيهِهم إلى السداد.

إجراءُ الكلام على حذف المضاف:

هدايةُ النّاس أولى المنافع

وفي قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ مضافٌ مفهومٌ تُؤذِن به اللّام من مُناسبة المقام، وهو تقديرُ معنى الفائدة والنّفع، أي: أنزلناه لنفعِ النّاس، أو ممّا يُؤذِن به التّفريعُ في قوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾، أي: أنزلناه لهداية النّاس(3).

معنى (ال) في: ﴿لِلنَّاسِ﴾:

(ال) في قوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ للاستغراق، أي: للنّاس عامّةً؛ لأنّ رسالته ﷺ عامّة(4). والقرآنُ هو خيرُ مُنزَّلٍ منَ الله سبحانه للنّاس جميعًا، ورحمةٌ منزّلةٌ منه سبحانه إليهم، وأنه إذا كان النّبيّ ﷺ هو الذي تلقّى هذه الرّحمةَ من ربّه؛ فإنّ النّاس جميعًا شركاءُ له فيها، ولكلٍّ واحدٍ منهم نصيبُه منها(5).

---

(1) السامرائي، معاني الأبنية، ص: 26.
(2) البيضاوي، أنوار التنزيل: 4/ 55، والقونوي وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البيضاوي: 16/ 535، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 21.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 21.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 516.
(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1159.

القرآنُ كلامُ الله تعالى وليس كلامَ رسوله

وفي كون القرآن أنزلَ ﴿لِلنَّاسِ﴾ سبيلَ هدايةٍ لكلّ مُعاندٍ ومستكبرٍ يأنفُ أن يتفضّل عليه النّبيّ ﷺ بهذا القرآن لظنّهم أنّه قرآنُه، يعطي منه مَن يشاء، ويمنعُ مَن يشاء! فالتّقرّب إلى كتاب اللّه، ومدُّ وشائج الصّلة به سبيلٌ للوصول إلى حقيقةِ أنّه ليس قرآنَ (محمّد) ﷺ وليس ملكَه؛ وإنّما هو كلامُ اللّه تعالى إلى عباده، ورحمتُه لخلقه. وما محمّدٌ ﷺ إلا مبلّغٌ ومُنذرٌ، وإنّها لرحمةٌ واسعةٌ لا حدودَ لها، ولكلّ إنسان حظُّه منها[1].

معنى الباء في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾:

القرآن حقٌّ، وأُنزل لدحض الباطل، وإشاعةِ الحقّ

الباء في قوله: ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾ للملابسة[2]، أي: ملتبسًا بالحقّ ممازِجًا له، غيرَ منفكٍّ عنه، أوِ الباء سببيّةٌ[3]، أي: بسبب الحقّ أنزلناه، أي: تقريرُ الحقّ كان هو الغايةَ التي لأجلها أنزل الكتابَ. ومعنى الملابسة أولَى؛ لأنّه يُقرّرُ أنّ الكتاب حقٌّ في نفسِه، وأنّه حين نزل، نزل الحقُّ مصحوبًا به، فيدلّ على أنّ الكتاب لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفِه، و"لا يقدرُ الخلقُ على أن يزيحوا معنى من معانيه عن قصده، ولا لفظًا من ألفاظه عن سبيله وحدَه؛ بل هو مُعجزٌ في معانيه - حاضرةً كانت أو غائبةً - ونظومِه، وألفاظه وأسماء سوره وآياته وجميعِ رسومه، فلا بُدَّ من إتيان ما فيه من وعدٍ ووعيدٍ"[4]. ولأنّ معنى الملابسة يستلزم معنى السّببيّة ويدلّ عليه؛ لأنّ الكتاب إذا كان مصحوبًا بالحقّ مُلابسًا له، فإنّه يلزمُ عن ذلك أن يكون مُقرِّرا لِحُجَج الحقِّ مُسبِّبًا لها، فهي تصدرُ عنه. ومن هنا فإنّ معنى الملابسة أدقُّ؛ لأنّ الاستصحاب يدلّ على مجرّد الاقتران، وأمّا المُلابسةُ؛ فتدلّ على الاقتران مع المُداخَلةِ والمُمازَجة، فكأنّ الحقّ

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1160.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 21.
(3) القونوي، حاشية القونوي: 16/ 535.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 516.

أُشرِبَ الكتابُ به، لا مجرّدَ أنّه صاحبَه واقترن به، فالملابسةُ هي مصاحبةٌ خاصّة.

معنى الفاء في قوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾:

إنـــزالُ الكـتـاب بـالـحقّ سبيلُ هدايةِ الخلق

الفاء في قوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ تفريعيّةٌ[1]؛ لترتيب مدخولِها على ما قبلها، والتّفريعُ أفاد معنى السّببيّة، أي: فبسبب إنزالِ الكتاب بالحقّ، كانت هدايةُ منِ اهتدى لنفسه[2]. وأفاد معنى التّفصيل، أي: أنزلنا الكتابَ لهداية النّاس، وتفصيلُ حالهم بعد إنزاله: منهمُ المهتدي، ومنهمُ الضّالّ[3]. ويصحُّ أن تكون الفاء فصيحةً، عاطفةً مدخولها على محذوفٍ مقدّر، أي: إذا تقرّر إنزالُ الكتاب عليك بالحقّ، فمَن اهتدى فلنفسه.

معنى (من) في: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾:

تـحـديـدُ الـجـزاء خـاضعٌ لاختيار العبد

(مَنْ) في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾ شرطيّةٌ أو موصولةٌ، فباعتبارها شرطيّةً، فالفاء في قوله: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ هي الرّابطةُ للجزاءِ بالشّرط، وباعتبارها اسمًا موصولًا، فالفاء لِعطفِ مدخولها وهو ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ على صِلةِ الموصول في قوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾، أوِ الفاءُ زائدةٌ، لِتأكيدِ إلحاقِ مدخولها: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ بجملةِ الجزاء، لِشبَهِها بها، لِكونِ الموصولِ مُضمَّنًا معنى الشّرط، وباعتبارها زائدةً تكون جملةُ ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ مُستأنفةً ممّا قبلها مع تمامِ المناسبةِ واتّصال المعنى[4].

فائدةُ التّعبير بجملة الشّرط:

من صور تحفيز النّفس اقترانُها بوعدٍ يحثُّها على العمل بشرائطه

التّعبير بأسلوب الشّرط في قوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾، لإظهار الكلام في صورة الوعد، الّذي يتحقّقُ باستيفاء شرطِه

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 21.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 516.

(3) القونوي، حاشية القونوي: 16/ 535.

(4) السمين، الدر المصون: 6/ 276، ودرويش، إعراب القرآن: 4/ 308، والخطيب، التفصيل: 6/ 261.

منَ العمل، وأكثرُ ما يُحفّز النّفوسَ، ويبعثُها على المَنْشَطِ والتّرقّبِ والجاهزيّةِ في كلّ وقتٍ هو أنْ ترتبطَ بموعودٍ يَؤزُّها إلى العمل بمقتضاه، والقيامِ بشرطه منَ الهداية والإخلاص.

دلالةُ التّعبير بفعل الشَّرط ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾ ماضيًا:

بِناءُ التّرغيب والتّرهيب على فعلٍ مُتيقّنِ الحصول أدْعى للامتثال

إيرادُ فعل الشّرط ماضيًا في قوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾؛ لبِناء الجوابِ على ما هو متحقِّقٌ، بالغُ التّمكّنِ في اليقين؛ للإشارة إلى أنّ الهداية المُرادةَ هي المتحقِّقةُ بجزمٍ ويقين. فعلى ذلك يكون المرادُ منَ الماضي معنى الاستقبال، أي: (ومن يهتدي)، وإنّما عبّر بالماضي؛ لتنزيل غيرِ المتيقَّن منزلةَ المتيقَّن وغيرِ الواقع منزلةَ الواقع، لإخراجه من حيّز الارتقاب إلى تصويره حاصلًا بالفعل، وفائدةُ ذلك: التّرغيبُ في الهداية، والتّرهيبُ من الضّلال، بجعل فعلّي الشّرط: ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾ و﴿ضَلَّ﴾ بمنزلة الواقع بالفعل؛ لينبنيَ التّرغيبُ والتّرهيبُ على متحقِّقٍ حاصلٍ[1]. وأيضًا عبّر بالمضيّ؛ ليدلّ على أنّ ذلك الشّرطَ ممّا يقع دفعةً واحدة، ومرّةً واحدة، فإنّ المقصودَ من قوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾، وقولِه: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾: الهدايةُ العامّةُ بالدّخول في الإسلام، والضّلالُ العامُّ بالكفر، وذلك ممّا يقع دفعةً واحدة، ولذلك عبّر بالمضيّ، ليدلّ على التّحقُّق منَ المرّة الواحدة دون تَكرار[2]، وأيضًا: التّعبيرُ بالماضي هنا؛ لمجيءِ التّركيبِ على نسَق الأحكامِ الثّابتةِ بالمُشاهدة، والحِكَمِ المُطّردةِ بالتّجربة، كقولهم: (من زرع حصد)، و(من سعى وصَل)، فكذلك (من اهتدى فلنفسه، ومن ضلّ فعليها)[3]. وأيضًا جاء فعلُ ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾ ماضيًا، لإرادة أولئك المخاطَبين بعد نزول الكتاب والمُزامِنُ حالُهم مع نزول هذه الآية، وكانوا فريقين بالفعل، فريقٌ اهتدى، وفريقٌ ضلّ، فبيّنَ ما لكلٍّ منَ الجزاء في جملتَي الجواب، في

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 56.
(2) السامرائي، معاني النحو: 4/ 57، 60.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/ 63.

قوله: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾. وعلى هذا يُراد منَ التّعبير بالماضي الزّمنُ الماضي حقيقةً[1].

عِلّةُ اقترانِ الجواب بالفاء:

الهدايةُ سبيلُ المنفعة

اقترن جوابُ الشّرط بالفاء وجوبًا في قوله: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾؛ لكون الجوابِ جملةً اسميّةً، فلا تصلحُ أن تكون شرطًا، وكلُّ جوابٍ لم يصلح أن يقع موقعَ الشّرط، وجب اقترانُه بالفاء. والفاءُ هنا في الجواب في قوله: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ أفاد بأنّ ما بعدها مُسبَّبٌ عمّا قبْلها[2]. أي: فنفْعُ هدايتِه لنفْسِه. فاهتداؤه سببٌ في منفعتِه نفْسَه. وفي هذا الموضع تحديدًا: ليست هذه مهمّةَ الفاء فقط، بل هي تفيدُ - أيضًا - في تعيين الجزاء، وإيضاحِ المعنى، لأنّ حذفَها يؤدّي إلى الإلباس، وعدمِ اكتمال المعنى؛ لأنّه لو قيل بحذف الفاء: (فمن اهتدى لنفسه)، لكان (لنفسه) متعلِّقًا بـ ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾، وبقي الكلامُ غيرَ تامّ، فلمّا جيء بالفاء، اتّضح القصدُ وتمّ المعنى[3].

معنى اللّام في: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾:

المآلاتُ حصادُ الأفعال قصدَها العبدُ أو لم يقصِدْها

اللّام في قوله تعالى: ﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ حرفُ اختصاصٍ أفاد معنى المِلْك والاستحقاق، كأنّه قال: الهُدى لَه، كما يُقال: الغلامُ له والعبدُ له، أوِ اللّام للتّعليل، أي: فلأجْلِ نفسِه أي: لِنَفْعِها، أو للعاقبة والصّيرورة باعتبار أنّ نَفْعَ النّفسِ بالهدى أو إضرارَها بالضّلال قد لا يكون غرضًا للفاعل، وهو المُهتدي أوِ الضّالّ، فيكونُ النّفع أوِ الإضرارُ مُترتّبًا عن فعل الفاعل لا مُعلَّلًا به[4].

موقعُ جملةِ ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ ممّا قبْلها:

الضّدّ يُظهرُ فضلَه الضدُّ

قوله: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ معطوفٌ على قولِه: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾، وغرضُ

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 65.
(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 5/ 111.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/ 106.
(4) الخضري، من أسرار حروف الجر، ص: 217، 259.

الوصل بالواو: استِتْمامُ التّفصيلِ في أحوال النّاس بعد مجيء الحقّ إليهم، فذكَر حالَ المهتدين وما يُقابِلهم من صِنْفِ الضّالّين[1].

بلاغةُ القصر في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾:

عاقبةُ الضّلال تقتصرُ على النّفس

(إنّما) في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ لفظٌ يفيد المبالغةَ والتّأكيد[2]، وينضمّ إليه - هنا - إفادةَ معنى القصر، أي: لا يَقعُ ضررُ الضّالِّ إلّا على نفسِه، وغرضُ مجيء التّركيبِ على طريقةِ القَصر: قطعُ توهّمِ الكافرين أنّهم بإعراضهم يَضرّون الرّسولَ والمؤمنين، بإضعافِهم أو إغاظَتِهم.

معنى (على) في قوله: ﴿عَلَيۡهَاۖ﴾:

أثرُ الضّلال على النّفس وخيمٌ

(على) في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ للاستعلاء المجازي، وفي التّعبير به في جانب الضّلالِ، تصويرُ معنى الخصومةِ بين الضّالّ ونفْسِه، كأنّه بضلالِه قدِ استعلى على نفْسِه بالخصومةِ فأوْبَقَها وأرداها بضلاله، فكان بذلك هو عليها، وكانت هي تحتَه مهزومةً مقهورةً[3].

بلاغةُ الاستعارة في جملة الضّلال:

الضّالُّ مستعْدٍ لنفسه مُمكّنٌ للزّيغ منه

وفي التّركيب: استعارةٌ تمثيليّةٌ، بتشبيه حال الضّالّ مع نفسِه، بحال مَنِ استعدى نفْسَه فهزَمَها بضلاله وأمّكَن منها به، وفي ذلك تشبيهٌ للضّلال بأداةٍ مؤذيةٍ أمْكَنَها في نفسِه؛ للاعتداء والإيذاء، فصارت ثابتةً عليها، كما يثبتُ السّلاح القاتلُ على رقبة الضّحيّة فيحزُّها، وذلك استعارةٌ مكنيّة، كأنّه قيل: (فإنّما يضلّ بضلاله على نفْسه، فيفتِك بها بالضّلال فتْكَ السّلاحِ بمن أصابه).

(1) صافي، الجدول: 12/ 189.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 2/ 500.
(3) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 10/ 6261.

بلاغةُ المقابلة في الآية:

بأضدادِها تَتَمايَزُ الأشياءُ

بين قوله تعالى: ﴿ٱهۡتَدَىٰ﴾، و﴿ضَلَّ﴾، و﴿يَضِلُّ﴾، و﴿فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾، و﴿عَلَيۡهَاۖ﴾ طِباقٌ سيقَ لِلمُفاصَلةِ والمُفاضَلة بين الحال وضدّه، لِتَتَمايَزَ الأحوالُ وعواقِبُها بين الفريقين، فبالأضدادِ تتمايزُ الأشياءُ، ونكتةُ سَوْقِ الكلامِ على أسلوب الطّباق: استيفاءُ البيان وإقامةُ الحجّة التي تقطع الأعذارَ بأخصر عبارةٍ وأتمِّ توصيف. وبين مجموع التّركيب في قوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ مع تركيب: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾ مُقابلةٌ بديعة تَصوغُ التّركيبَين مَصاغَ الأمثال السّائرة والقوانين المُطَّرِدةِ المُحكَمَة[1].

نكتةُ تقديمِ الهداية على الضّلال:

الـهـدايـةُ هي أصلُ الفطرة

قدّم الهدايةَ على الضّلال في الجملتَين الشّرطيتَين في قوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾، وقوله: ﴿وَمَن ضَلَّ﴾ ابتداءً بأصل الفطرة، وهو الهداية، فإنّ ابنَ آدم خُلِقَ مَهديًّا، ثمّ اجتالته الشّياطينُ، وأصلُ الفِطرة هو الأسبقُ في الوجود، فاستحقّ التّقديمَ، وللتّنبيه على أنّ الضّلال عرَضٌ طارئ، فلا ينبغي أنْ يُغَيِّرَ به العبدُ فِطرتَه، فيجعلَه مُستحكِمًا مُستَبِدًّا، بعدما كان عرَضًا لا يتماسَك.

بلاغةُ الحذف التّقابليّ في القصر:

ما كان مفهومًا فقد أغنى عنِ الذّكر

في قوله: ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ﴾ ورد معناه على القصر، ولفظُه على غير القصر؛ للنّكتة السّابقة، فحُذفت أداةُ القصر في أحد المتقابلين دون الآخر؛ لورود الآية على خطاب الرّسول، فلا حاجةَ أن يَمُنّ ويفتخِر عليهم باهتدائهم، فلم يَذكر أداةَ القصر؛ لانفهامِه بالمُقابلة، في قوله: ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾، ولكونها مذكورةً في موضعٍ آخرَ[2].

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/ 147.

(2) القونوي، حاشية القونوي: 16/ 335.

مواطنُ الضّرر أوْلى بالتّنبيه عليها من مواطن النّفع

نكتةُ اطّرادِ القصر في جانب الضّلال:

في مواضع: يونس، والنّمل، وسبأ، والزّمر، جاء التّعبيرُ في جانب الضّلال على طريقة القصر، ففي يونس: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَاۖ﴾ [يونس: 108]، وفي النّمل: ﴿وَمَن ضَلَّ فَقُلۡ إِنَّمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ٩٢﴾ [النمل: 92]، وفي سبأ: ﴿إِن ضَلَلۡتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفۡسِيۖ﴾ [سبأ: 50]، وفي الزمر: ﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ﴾، ذلك أنّ الضّلال خلافُ الأصل والفِطرة كما مَرّ، وما كان كذلك كان التّفجّعُ فيه أوجبَ، والحرصُ عليه أظهرَ، والأسفُ فيه أمْكَنَ، فجاء القصر مطّردًا في جانب الضّلال؛ لإظهار أسَفِ الرّسول عليهم إنْ هم ضلّوا، والذي يأسَفُ لشيءٍ يُبالِغُ في توكيده والتّحذيرِ منه، فكان القصرُ هنا في جانب الضّلال قصرَ قلبٍ؛ لتوكيدِ وتقريرِ خِلاف ما يعتقده الضّالّ المُخاطَبُ منَ الأمْنِ، وعدمِ الاكتراث، والجهلِ بمغارم الضّلال، وأنّه بمبْعَدَةٍ عن تلك المغارم، ولتقرير خِلاف ما قد يظنّه المُخاطَبون من عدم حِرصِ النّبيّ عليهم وإشفاقِه لحالهم أن يَرجِع ضلالُهم على أنفسِهم، فجاء بأسلوب القصر؛ ليدلّ به على أنّه ﷺ أشدُّ تكلّفًا وحرصًا على البيان والبلاغ في الحال التي تضرُّهم، أكثرَ منه في الحال التي تنفعُهم[1].

الرّسولُ ﷺ ناصِحٌ لا ضامِنٌ ومُبَلِّغٌ لا وكيلٌ

موقعُ جملةِ الفاصلة:

قولُه تعالى: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾ معطوفةٌ على جملة ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾، والعطفُ لإتمام التّفريع الحاصل في جملتَي التّفصيل ﴿فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ﴾، و﴿وَمَن ضَلَّ﴾؛ لأنّه إذا كان اهتداءُ المهتدي لنفسِه، وضلالُ الضّالّ على نفسِه، تحقّقَ أنّ النبيّ ﷺ غيرُ مأمورٍ منَ اللّهِ بأكثرَ منَ التّبليغ، وأنّه لا نفعَ لنفسِه في اهتدائِهم، ولا يَضرّه ضلالُهم، ويصحُّ توجيهُ الواوِ إلى معنى الاستئناف، باعتبار أنّ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 22.

جملة الفاصلة تأسيسٌ لبيانِ وظيفةِ الرّسولِ فيهم، وأنّها مُحدَّدَةٌ لِغاية عمَلِه فيهم، وهي النُّصحُ والتّبليغ فقط، فليس وكيلًا عنهم أو ضامِنًا لهم[1]. "فإنَّ الرّسالة إليهم لإقامة الحُجّة لا لقدرة الرّسول على هدايتهم ولا لعجز المُرسل عن ذلك"[2].

كلُّ مسؤولٌ عن نفسِه، فلا تُغْني نفسٌ عن نفسٍ شيئًا

فائدةُ التّعبير بالجملة الاسميّة:

التّعبير بالجملة الاسميّة المنفيّة في جملة الفاصلة أفاد دوامَ الحكْمِ المنفيِّ المذكور، وهو نفيُ وكالتِه ﷺ عنهم في أمر الاهتداء أوِ الضّلال فهم مالِكون لأمْرِهم مُختارون لِما يَتحمّلون عاقِبتَه وحدَهم[3].

تقديمُ ما حقُّه التّأخيرُ يكون لتخصيصِه أو قصْرِه

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿عَلَيۡهِم﴾:

الغرضُ من تقديم قولِه: ﴿عَلَيۡهِم﴾ على قوله: ﴿بِوَكِيلٍ﴾، ولم يقل: (وما أنت بوكيلٍ عليهم) للبدء بما دارَ حولَه المقصودُ على ما هو تَبَعٌ له، فلمّا كان الحكْمُ مَسوقًا أصالةً لنفي تصرّفه ﷺ في شأنِ اهتدائهم أو عدَمِه، قدّم ضميرَهم؛ لأنّ عائِدَ الحكْم مُتعلّقٌ بهم[4]. وفي تقديم ما هو أثْقَلُ في الفاصِلة ختمٌ بما هو أخفُّ وألْيَقُ بموقِع الحرفِ والصّوت، فلو قال: (وما أنت بوكيلٍ عليهم) لكانَ قَلِقًا في الفاصلة، غيرَ قارٍّ فيها ولا مَكين.

معنى الباء في قوله ﴿بِوَكِيلٍ﴾:

الباء في قوله: ﴿بِوَكِيلٍ﴾ مزيدةٌ للتّأكيد، وهي تفيدُ استغراقَ النّفيّ لِما في حيّزِه مِنْ حُكْم، أي: وما أنت عليهم بوكيلٍ أدنَى وكالَة[5].

دلالةُ التّعبير بـ(وكيل) من حيث المادّةُ والبناءُ:

الوكيلُ في مقام المَنُوب عنه في التّصرّف والضّمان

التّعبير بلفظ (وكيل) اختيرَ للدّلالة على معنى النّيابة في الموكولِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 22.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 517.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 22.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 517.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/ 3647.

إليه، ومعنى الاعتماديّة في الموكولِ عنه، وجاءت على صيغة (فعيل) لإفادة المبالغةِ في معنى الوصف، و(فعيل) - هنا - يصحُّ إجراؤها على معنى (فاعِل)، أي: قائِمٌ بالوكالة، أو(مفعول) أي: موكولٌ إليه الأمرُ، ومجيئُها على (فعيل) دون (فاعل) أو (مفعول) للدّلالة على ثبوتِ الصّفةِ لصاحبِها فكأنّها سَجيّةٌ له، واتّصافه بها بالفعلِ حالًا واستقبالًا، أي: الوصف قائمٌ بصاحبه، لا أنّه سيتَّصِفُ به مستقبلًا مع إمكان عدمِ اتّصافه به في الحال، وفي مجيء اللّفظ على هذا الوزن إيماءٌ إلى أنّ وصف الوكالة عنهم منفيٌّ عنِ الرّسول ﷺ من جميع الوجوه، فلا هو وكيلٌ عنهم لا في الحال ولا في الاستقبال ولا على جهةِ الدّوام ولا على جهة الاستمرار[1].

سرُّ التّعبير بـ(الوكيل) دون (الوصيّ):

نفيُ الأخصّ لا يستلزم نفيَ الأعمّ

الوصيُّ أخصُّ منَ الوكيل، ونفيُ الأخصّ لا يستلزم نفيَ الأعمّ؛ لأنّه إذا أُطلقَ في الوصيّة عمّت في كلّ شيء، وإذا أُطلقَ في الوكالة لم تعمَّ، والوصيةُ من فعل غيرِ المنوب؛ لأنّها من فعل الأب، والوكالةُ شيءٌ من فعل المنوب عنه لا من فعل الشّخص نفسِه فليس هذا تأكيدًا وإنّما هو تأسيس[2].

(1) السامرائي، معاني الأبنية، ص: 55.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/ 181.

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ ٤٢﴾ [الزمر: 42]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مَن يهتدي بهداية الله فإنّه يُعِدّ نفسَه لمواجهة الموتِ وما بعدَه

هذه الآية عجيبةُ التّناسب مع ما قبلَها، فإنّ الآية السّابقة تشيرُ إلى جانب الاختيار في حياة الإنسان وما يمكنُ أن يتحكّمَ به ويتصرّفَ فيه، وهو اختيارُ ما شاء منَ الهدى أوِ الضّلال. وفي هذه الآية انتقالٌ إلى جانب الاضطرار وما لا دخلَ للإنسان بالتّحكم فيه أوِ التّصرّف معه، وهو حقيقةُ الموت ومُلاقاةِ المصير، وكأنّه أراد الإخبارَ إلى أنّ اختيار الإنسان يؤثّرُ على مصيره، فما يختارُه موصولٌ بلحظة وفاتِه وموته. ومن جهةٍ أخرى: فإنّ اللّه يقيمُ الحجّةَ على خلقه بما لا يحتملُ التّردّدَ أوِ الرّيب، كأنّه يقول: كما أنّ توفّيَكم في منامكم وعند مماتكم حقٌّ لا ترتابون فيه، ولا دخلَ لكم في تصريفه، فكذلك إنزالُ الكتاب على رسوله حقٌّ لا ريبَ فيه، فليكن حالُكم الاهتداءَ به اختيارًا؛ توسّلًا به واستعدادًا إلى ساعة الاضطرار ومفارقةِ الحياة بالموت. فالآية هنا تمزجُ اختيارَ الإنسان مع الوعي بالموت، امتزاجَ الوسيلة بالغاية، فالآية قبْلَها تمهيدٌ لها.

ومن جهةٍ أخرى: فالآية هنا تُضفي منطِقًا مستقيمًا يوحي للنّاس أن يتّبعوا الكتابَ الذي نزل بالحقّ ويسلّموا لهدايته، كما هم يسلّمون بحقائق وجودِهم كمنامهم باللّيل والنّهار ووفاتِهم بالموتِ وبلوغ الأجل، فإنّ تصريف ذلك كلِّه راجعٌ إلى اللّه وحده، فالذي كتبَ عليهم النّومَ والموتَ هو الذي أنزل الكتابَ بالحقّ، فكما خضعوا لآثار أفعالِه فيهم، فلا أحدَ منهم يقدرُ على ألّا ينامَ، وألّا يموتَ، فليخضعوا كذلك لمقتضيات إرادتِه لهم بالإيمان والهداية.

العارفُ سرَّ الله في القدرة هانت عليه المصائبُ

ولمّا كانتِ الوكالةُ لا تصلحُ إلّا للقادر في إدارة الشّيء الموكَل فيه، وكان حفظُهم على الهدى وعنِ الضّلال لا يكون عليه إلّا لحاضرٍ لا يغيبُ ولا يعتريه نومٌ ولا يطرقُه موت، لم تصحَّ وكالةُ أحدٍ منَ الخلق فيه؛ لأنّهم سيضيعون عند نومه وموته. وزاد على هذا المعنى منَ الفوائد ما يُعرف بالتّأمّل من تشبيه الهداية بالحياة واليقظةِ والضّلال بالموت والنّوم، فكما أنّه لا يقدرُ على الإماتة والإنامة إلّا اللّه فكذلك لا يقدرُ على الهداية والإضلال إلّا اللّه، فمَن عرف هذه الدّقيقةَ عرف سرَّ اللّه في القدرة، ومن عرف السّرَّ فيه هانت عليه المصائبُ، فهي تسليةٌ له ﷺ[1].

كلُّ نفسٍ صائرةٌ الى اللّه تعالى بما فيها من هدى أو ضلال.

مناسبةُ هذه الآية لِما قبْلها هي أنَّ الآية السّابقة قد جاء فيها ذكرُ القرآن الكريم، الذي أنزله اللّه تعالى على نبيّه ﷺ هدى ورحمةً للنّاس، وروحًا وحياةً للنّفوس. وفي هذه الآية بيانٌ لمصير النّفس الإنسانيّة، وأنّها صائرةٌ إلى اللّه، بما تحملُ من هدى أو ضلال، وبما معها من نور القرآن، أو ظلامِ الشّرك[2].

❁ شَرْحُ المُْفْرَداتِ:

1) ﴿يَتَوَفَّى﴾: (وفى) أصلٌ يدلّ على إكمالٍ وإتمام. وتَوَفَّيْتَ الشّيءَ واستوفيتَه: إذا أخذتَه كُلَّه. ومنه يُقال للميّت: توفّاه اللّه[3]؛ أي: استكمل قبْضَ روحه عن جسده، فكأنّه استوفاها منه، فلم يترك له منها شيئًا. أو لأنّه استكمل أجلَه واستوفى رزْقَه، فكان ذلك تمهيدًا لموته. وهذا هو معنى: ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾، وتلك العبارةُ كنايةٌ عنِ الموت، لا أنّها الموتُ؛ لأنّ الموت لازمٌ عنِ استيفاء الآجال والأقدار، فإذا وُفّيَ العبدُ إيّاها - لزِم بعدَها أنْ يموت.

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 517.
(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 12/ 1160.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفى).

2) ﴿فَيُمۡسِكُ﴾: إمساكُ الشّيء: التّعلّقُ به وحفظُه. يُقال: أَمۡسَكۡتُ عنه كذا، أي: منعتُه[1]. وأصلُ (مسك) يدلّ على حبْس الشّيء أو تحبُّسِه[2]. ومعنى: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾، أي: يستبقي الرّوحَ التي توفّاها سبحانه لا يردُّها إلى بدنها إذا كان قد قضى عليها الموتَ[3]، فيكونُ بذلك قد حفظَها عنده، وحبسَها ومنعها أن تفيءَ إلى الجسد مرّةً أخرى.

3) ﴿وَيُرۡسِلُ﴾: (رسل) أصل يدلّ على الانبعاث والامتدادِ على تؤُدَةٍ[4]. ومعنى: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ أي: يبعثُ الأنفسَ الأخرى التي لم يقض عليها الموتَ، بانبعاث الرّوح فيها، وإمدادِه لها؛ لإكمال مُدَّتِها وأجلِها، وهذا الإرسالُ للأرواح إلى مقارّها في الأبدان حادثٌ على جهة اللّطف والتّؤُدة في سريانها إلى وِجْهتِها.

المَعْنى الإجْماليُّ:

نظامُ النّوم والموت داعٍ إلى زيادة الإيمان وتسليمِ الأنفس لمولاها ومُصرّفِها

تبيّن الآيةُ الكريمة قدرةَ اللّه الكاملةَ على التّحكّم في الأنفُس في النّوم والموت، في إشارةٍ إلى أنّ الموت والنّوم كلاهما وسائلُ لتذكير الإنسان بضعفِه وحاجتِه الدّائمة إلى خالقه. فيخبرُ اللّه سبحانه عن نفسه: أنّه يتوفّى النّفوسَ عند حلول أجلِها بالموت، فيقبضُ الأرواحَ التي قضى عليها بالموتِ الكامل. كما يتوفّى الأنفسَ الأخرى - وفاةً صغرى - التي لم يُكتب لها الموتُ عند النّوم، في إشارةٍ إلى أنَّ النّوم شبيهٌ بالموت؛ لأنَّ الرّوح تُقبَض فيه عنِ التّصرّف والتّمييز. فاللّه يُبقي الرّوحَ التي كُتب عليها الموتُ فلا تعودُ إلى الجسد، بل تبقى في عالم البرزخ. أمّا الأرواحُ التي لم يُقض عليها بالموت، فيعيدُها إلى أجسادها بعد النّوم؛ لِتُكمل حياتَها حتى يحينُ أجلُها المقدّر. ثمّ

(1) الراغب، المفردات: (مسك).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسك).
(3) جبل، المعجم الاشتقاقي: (مسك).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (رسل).

تُختَمُ الآيةُ بأنّ هذه العمليّةَ الإلهيّة - الإمساكَ والإرسالَ - فيها دلائلُ واضحةٌ على قدرة اللّه وحكمتِه، وهذه الدّلائلُ هي عبرةٌ - فقط - لِمَن يتأمّلُ ويتدبّرُ في عظمة الخلق وتصريفِ الأمور[1].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

موقعُ جملة: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾:

الحقيقُ بالوكالة عـلى الـخـلـق الـحـيُّ الـقـيّـومُ الذي لا ينامُ ولا يموتُ

قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾ ابتدائيّةٌ مستأنفةٌ ممّا قبْلها، ولذلك فُصِلَتْ، ويصحُّ أنْ تكون استئنافًا بيانيًّا مُعلِّلًا لجملة الفاصلة: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ﴾، كأنّه سأل سائلٌ عن علّة انتفاء وكالتِه عليهم، فأجيب: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾، على تقدير تضمّنِها لتعليل نفيِ الوكالة، أي: لأنّه لو وُكِّل إليك أمرُهم لضاعوا عند نومك وموتك[2]، فلمّا كان اللّه حيًّا لا ينامُ ولا يموتُ، وكان كلُّ مَن سواه ينامُ ويموتُ، كان حقيقًا هو بوكالته على الخلْق، دون غيره.

نكتةُ إيثارِ الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ على غيره:

إيــثــارُ اســم الجلال؛ للتّنبيه على الكمال

أسندَ التّوفّي إلى اسم الألوهيّةِ الأعظم في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾، فلم يقل: (الرّحمن يتوفّى، أوِ القدير، أو غيره)؛ للدّلالة به على مجامع الكمال؛ لأنّ المقام مقامُ تحدٍّ وجلال، وطلاقةِ قدرةٍ وعِلْم وحكمة، فعبّرَ بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾؛ لأنّه مجمعُ الصّفات جميعًا، إشارةً إلى كون التّوفّي الحاصلِ هو مُقتضًى لصفاتٍ عديدةٍ مجتمِعة، فعبّرَ عنها بأجمع اسم، وهو ﴿ٱللَّهُ﴾ الذي ليس لشائبةِ نقصٍ إليه سبيلٌ؛ لاقتضاء الحالِ له، ولا يصلحُ للوكالة غيرُه[3]، فتقع أفعالُه بالِغةَ التّمام والكمال، لا تعقيبَ عليها، ولا فتورَ يشوبُها.

---

(1) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 182، وابن جزي، التسهيل: 2/ 22، والبقاعي، نظم الدرر: 16/ 518، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 262، والقنوجي، فتح البيان: 12/ 120.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 517.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 517.

فائدةُ تقديمِ لفظِ الجلالة على المُسند الفعليِّ:

وفاةُ الأنفس فعلٌ مخصوصٌ بالله سبحانه

تقديمُ لفظِ الجلالة على المُسند الفعليِّ في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾، ولم يقل: (يتوفّى اللّهُ)؛ لإفادة قصرِ الفعل على الفاعل، وهو اللّه سبحانه[1]، أي: اللّه وحده هو الذي يتوفّى الأنفُس، فلا تحدثُ لها الوفاةُ من غيره، ولا يَشترِكُ معه أحدٌ في إحداثها، ولا تتوفّى هي من تلقاء نفسِها، فإنْ قيل: الملائكةُ يقبضون الأرواحَ، فيكونون مشتركين مع اللّه في إحداث الوفاة؟! فالجوابُ: أنّ توفّيَهم للأرواح لا من ذواتِهم، ولا بقدرتِهم؛ بل بتقدير اللّه وتسخيرِه لهم، فكان ذلك انقيادًا منهم لأمْرِ اللّه وفِعلِه فيهم، وليس اشتراكًا معه.

فائدةُ التّعبير بـ﴿يَتَوَفَّى﴾ مادّةً وصيغةً:

استيفاءُ مقادير الأنفس مُـؤذِنٌ بالموتِ والانتقال

التّعبيرُ بالتّوفّي في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ للدّلالة على معنى استيفاءِ مُتعلَّقاتِ الشّيء واستتمامِه؛ فالوافي: هو الذي بلغ التّمامَ[2]. والنّظمُ جارٍ على تقدير مضاف: (اللّه يتوفّى مقادير الأنفسِ حين موتها)، أي: حين يُميتُها يكون قدِ استوفى لها أقدارَها منَ الأجَل والرّزق وسائرِ مكتوباتها منَ القَدَرِ خيْرِه وشرِّه. ويصحُّ أن يكون التّوفّي واقعًا على ذات الأنفُس؛ أي: يستوفي النَّفْسَ منَ الحياةِ والحركة، فيتركُها حين يُميتُها بلا أدنى حركةٍ ولا حياة، فيلزمُ عنه انتهاءُ أقدارها واستتمامُ أجلها ورزقِها، فيكون وفاةُ النّفس كنايةً عن لازِمه من بلوغ غايةِ القدر والرّزقِ والأجَل. وعبّر بالمضارع: ﴿يَتَوَفَّى﴾؛ لكون الوفاة فِعلًا للّهِ في الأَنْفس متكرّرًا ومتجدِّدًا فيها على سبيل البدليّة، فيقعُ في نفْسٍ، ثم يحصلُ في أخرى، ومعنى على سبيل البدليّة، أي: تَكرار التّوفّي يقعُ في نفْسٍ بعد نفْس، فالتَّكرارُ لا يقعُ على النّفْس الواحدة؛ بل يقعُ في الأنفس جميعًا، بتبدّل الفعلِ في

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 262.

(2) الراغب، المفردات: (وفى).

إيقاعه واحدةً بعد أخرى، فلا يقعُ مرّتين على محلٍّ واحد. ومجيءُ الفعل على صيغة (تفعّل - توفّى)؛ ليدلّ على وقوع الفعل على أتمِّ وجْهٍ له في القوّة والإتقان، أي: يفعلُ في وفاتها فعلَ مَن يجتهدُ في ذلك؛ بأن يقبضها وافية؛ لا يدع شيئًا منها في شيء من الجسد[1].

عدمُ التّعبير بالأبدان للإشارة إلى سلب الرّوحِ وليس الجسدَ

ومع كون المُرادِ منَ الأنفُس الأبدانَ المسلوبةَ عنها الأرواحُ، فإنّه لم يُعبّر بها، فلم يُقلْ: اللّه يتوفّى الأبدانَ حين موتها؛ لأنّ التّعبير بالإبدان يوهِمُ أنّ التّوفّي والإماتةَ واقعٌ عليها في غير حالِ تعلّق الرّوح بها، ولذلك عبّر بالنّفس؛ ليدلّ على أنّ وفاتَها حين موتها يكون بسلبِ الرّوح منها التي هي مادّةُ حياتها، فيقعُ التّصوّر لعمليّة انعزال الرّوح عنِ الجسد، لأنّ ذلك هو الغرضُ، وإلّا لَما كان لذِكْر ﴿يَتَوَفَّى﴾، و﴿مَوۡتِهَا﴾ معنًى.

نكتةُ إيرادِ ﴿ٱلۡأَنفُسَ﴾ على جمع القِلّة:

جميعُ النّفوس تتساوى أمامَ قدرةِ الله تعالى

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (يتوفّى النّفوس)؛ بل آثرَ جمعَ القِلّة: ﴿ٱلۡأَنفُسَ﴾، مع أنّها نفوسٌ كثيرةٌ؛ إشارةً إلى أنها وإن تجاوزتِ الحصرَ فهي كنفسٍ واحدة، فهي قليلةٌ هيّنةٌ في جنْبِ قدرةِ اللّه، كما قال تعالى: ﴿مَّا خَلۡقُكُمۡ وَلَا بَعۡثُكُمۡ إِلَّا كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۚ﴾ [لقمان: 28][2].

نكتةُ العدولِ عنِ الواحد إلى الجمع:

اصطفاءُ الجمعِ يدفعُ توهّمَ الوفاة لنفسٍ واحدةٍ فقط

مع كون تلك النّفوس جميعًا هيّنةً على اللّه في جنْبِ قدرتِه، وقبْضُ جميعِها، كقبض واحدةٍ منها، فإنّه لم يقل: (يتوفّى النّفْس) بالتّوحيد، بل قال: ﴿ٱلۡأَنفُسَ﴾؛ لئلا يُتوهّمَ أنّ الوِحدةَ مُرادةٌ على حقيقتها[3]، فيُظنَّ أنّ الوفاة واقعةٌ لنفسٍ واحدة فقط، فأوردها على الجمع؛ لإرادة التّعديد، ولِأنّ ذِكْر النّفس الواحدة إنّما ورد على وجْه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 518.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 518.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 518.

التّشبيه، أي: تشبيه النّفوس العديدة بالنّفس الواحدة في سرعةِ ويُسْرِ إيقاع الفعل عليها، ولذلك قال: ﴿كَنَفۡسٖ وَٰحِدَةٍۗ﴾ [لقمان: 28] على التّشبيه لا على الحقيقة؛ لأنّ إيقاع الفعل على الحقيقةِ واردٌ على أَنْفُسَ شتّى عديدةٍ، لا على نفْسٍ واحدةٍ فقط، فلمّا خلا النّظمُ هنا منَ التّشبيه، صرّح بالأَنْفُسِ على صيغة الجمع.

معنى (ال) في ﴿ٱلۡأَنفُسَ﴾:

كلُّ يموتُ ولا نفسٌ مُستثناةٌ منَ التّوفّي

(ال) في ﴿ٱلۡأَنفُسَ﴾ لاستغراق الجنس، فينوبُ عنها لفظُ (كلّ)[1]، أي: يتوفّى كلَّ الأَنْفُس حين موتِها، والاستغراقُ حاصلٌ على التّوزيع؛ لأنّ الأنفس لا تموتُ جميعًا في حينٍ واحد، فلا يقعُ التّوفّي لها جميعًا على التّزامُن، بل على التّفريق.

بلاغةُ المَجازِ العقليّ في إسناد الموتِ إلى النّفس:

الموتُ يُتلِف الأبدانَ لا الأرواحَ

يصحُّ أن يكون إسنادُ الموت والنّوم إلى النّفس في قوله: ﴿مَوۡتِهَا﴾، و﴿مَنَامِهَاۖ﴾ مجازًا عقليًّا؛ لأنّ الموت والنّوم من أحوال الأبدان، لا من أحوال النّفْس. وهذا مبناه على المغايرة بين النّفْس والبدن، على اعتبارِ أنّ البدن ليس من بناء النّفْس، وأنّ النّفْس هي الرّوحُ المسلوكة في البدن، وعلامتُها جرَيانُ النَّفَس، ولذلك سمّيتْ نفْسًا باعتبار أثرِها من جرَيان النَّفَس في البدن دخولًا وخروجًا[2].

بلاغةُ المَجازِ المُرسلِ في لفظِ النَّفسِ:

دلالةُ النّفْس على البدن فقط دلالةٌ على جُزءِ المعنى

وقد سبق بيانُ أنّ المُرادَ بالنّفس الذّاتُ المكوَّنة منَ البدن والرّوح جميعًا[3]، وأنّ المُراد بالنّفس في الآية: البدنُ الظّاهر دون الرّوح؛ ودلالةُ النّفْس على البدن فقط دلالةُ تضمّن، وهي دلالةُ اللّفظ على جزء معناه، كما يُقال: البيت، ويُراد به غُرفةٌ فيه، أو طابِقٌ فيه. وهو من باب المجاز المرسل، لعلاقة الكليّة، بإطلاق الكلّ وإرادةِ الجزء.

---

(1) السامرائي، معاني النحو: 1/ 115.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 262.
(3) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 395.

تعطيلُ الشّيءِ من فائدتِه، كانتزاعِه وإزالتِه بالكليّة

وإنّما عبّر عن إفراغ الرّوح منَ الأبدان، بسلبِ النّفْس جميعِها، مبالغةً في جعلِ سلْبِ جزءٍ منَ النّفس، كسَلْبِ ذاتِ النّفْس، بتنزيل إزالةِ الفائدة منَ الشيء منزلةَ إزالة ذاتِ الشّيء؛ فالبدنُ بالموت لا فائدةَ منه، والرّوحُ إذا زالتْ عنه فسدَ تعلّقُها المُؤثّرُ بالحياة، فتكون النّفسُ في حُكم الزّائلِ بذاته[1].

حذفُ المُضافِ:

صحّ إجراءُ التّركيب على حذف المضاف، على معنى: (اللّه يتوفّى الأنفس حين موتِ أبدانها)[2]. وفي الاكتفاء بالمذكور سَعةٌ في المعنى، وثراءٌ في الدّلالة، وغنًى في التّعبير.

فائدةُ القيد بالظّرف في: ﴿حِينَ مَوۡتِهَا﴾:

وفاةُ الأنفس بإتمام قدَرِها واقعٌ إذا الموتُ حضرَها

ظرفُ الحين في قوله: ﴿حِينَ مَوۡتِهَا﴾ مُتعلّقٌ بقوله: ﴿يَتَوَفَّى﴾، وتقييدُ وفاة الأنفس بذلك الحين المُضافِ إلى الموت؛ لتعيين زمنِ التّوفّي المذكور وحالِه، أي: يتوفّاها في زمنِ وقوعِ موتها، أو في حالِ موتها، وإضافةُ الحين إلى الموت؛ لبيان ما في ظرف: ﴿حِينَ﴾ من إبهام، وهو من تخصيص النّكرة بالإضافة[3].

موقعُ جملةِ: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ﴾:

النّفسُ بين حالين مُتوفاةٌ بالموت ومستأنفةٌ بالنّوم

جملةُ: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ معطوفةٌ على: ﴿ٱلۡأَنفُسَ﴾[4]، أي: (الأنفس التي ماتت، والأنفس التي نامت)؛ للجمع بين حالين لا ثالثَ لهما من أحوال الأنفس، وهي استيفاءُ مقاديرها إذا ماتت، واستئنافُ مَن لم يمت منها إذا نامت.

بلاغةُ المجازِ بالحذف:

في جملة ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ مجازٌ بالحذف، والتّقدير:

---

(1) الطيبي، فتوح الغيب: 13/ 395.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 262.
(3) عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 9/ 670، والخطيب، التفصيل: 24/ 22.
(4) الخطيب، التفصيل في الإعراب: 24/ 23.

(والتي لم تمت في منامها لا يتوفّاها كمن ماتت)؛ لأنّه يستأنِفُها إلى سائر مقاديرها بالأجل المسمّى التي لم تبْلغه بعد. ويجوز أنْ يكون قوله: ﴿فِي مَنَامِهَا﴾ متعلّقًا بفعلِ وفاةٍ مقدّرٍ؛ لدلالة الأوّل عليه، فهو منَ الحذف التّقابليّ المجازيّ، أي: (يتوفى الأنفس حين موتها، ويتوفّى التي لم تمت في منامها)[1]. وتغيّرُ المتعلَّق يُؤذِن بتغاير الوَفاتين، فتوفّيها حين موتها بقطع الحياة عنها، وتوفّيها في منامها بقطع التّصرّف والإرادة عنها، فالتّوفّي الأوّلُ لا حياة معه، والتّوفّي الثّاني مع بقاء الحياة. والأوّلُ يقع في البدن ظاهرًا وباطنًا، والثّاني يقعُ في الظّاهر دون الباطن، فبين الوفاتين مشاكلةٌ لفظيّة، فالتّوفّي مع الموت توفٍّ كلّيٌّ، والتّوفّي مع النّوم توفٍّ جزئيٌّ. وكلاهما توفٍّ على الحقيقة بمعنى بلوغ التّمام في الحدّ المضروب، فحدُّ التّوفّي الأوّل الموتُ، ولذلك تُستوفَى به الآجالُ والأرزاق والمقادير كلُّها؛ لبلوغها غايةَ الموت، وحدُّ التّوفّي الثّاني النّومُ، ولذلك تُستوفَى به تصاريفُ اليوم ومقاديرُه التي انتهتْ بالنّوم.

توفّي الموت توفٍّ كـلّيٌّ، وتـوفّي النّوم توفٍّ جزئيٌّ

دلالةُ التّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

التّعريف بالصّلة في قوله: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَا﴾؛ للعهد، أي: وتلك الأنفسُ المعهودة بنومها وعدمِ موتها يتوفّاها كذلك وفاةً صغرى دون وفاةِ مَنْ ماتت. ويصحُّ أن يكون التّعريف بالصّلة لإرادة الجنس؛ أي: ذلك الجنسُ منَ النّفوس النّائمة. والفرقُ: أنّ العهد معلومٌ للمخاطَب، فكأنّه يُخاطِبُ في كلِّ واحدٍ نفْسَه، فيستحضِرُ حالَه وهو نائمٌ، وأمّا الجنس فغيرُ معلوم على الخصوص، بل على عمومِ التّصوّر والاستحضار[2]. وفي التّعريف بالصّلة هنا تمييزٌ للموصول بصلته، أي: تمييزُ تلك النّفس التي لم تمت في منامها،

النّـومُ موتةٌ صغرى، ففيه طَبْعٌ منَ الموت

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 262.

(2) السامرائي، معاني النحو: 1/ 122.

بأنّها نفْسٌ ناجيةٌ من مقتضى الموت، وهو النّوم، كأنّه حين قال: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾، بتقييد عدم موتها بمنامها - أراد أن يشير إلى أنّ النّوم من مقتضيات الموت ومَداريّجه، فكأنّ تلك النّفسَ النّائمة كانت بنومها على دَرَجٍ من مدارج الموت، ومع ذلك نجتْ ولم تمت في منامها، ولعلّ تلك الإشارةَ هي نكتةُ التّقييد بمضمون صلةِ الموصول، لأنّه كان يمكنُ أن يُقال في غير القرآن: (ويتوفّى التي نامت)، دون نفي حالِ الموت عنها بقوله: ﴿لَمۡ تَمُتۡ﴾.

بلاغةُ الاستعارة في الآية:

النّـائمُ متوفٍّ بالهيئة

في قوله: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾ استعارةٌ تصريحيّة، على تقدير: (والتي لم تمت في منامها يتوفّاها كذلك، لكنْ وفاةً صغرى)؛ إذ شبّه النّائمين بالمُتوفَّين منَ الأموات، بجامع زوالِ التّصرّف والتّمييز عن كلٍّ، فتقديرُ الوفاة مع النّوم تنزيلٌ للنّائم منزلةَ الميّت في ظاهر الحال[1].

معنى الفاء في ﴿فَيُمۡسِكُ﴾:

تفريعُ نتائجِ الوفاة وتفصيلُها بعد إجمال الحكم يُعين على التّفكّر

الفاء في قوله: ﴿فَيُمۡسِكُ﴾ للتّفريع؛ لإفادة أنّ مدخولَها فرعٌ مترتّبٌ على ما سبقها[2]، فالفاء تفريعٌ عن عمليّة التّوفّي، في قوله: ﴿يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾، والتّوفّي المقدّرِ في: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ﴾؛ لتبيين نتيجةِ هذا الفعل الإلهي. وهي كذلك فاءُ التّفصيل المبيِّنةُ لتفاصيل جزئيّاتٍ متعلّقة بأمرٍ مذكور سابقًا، كأنّه قيل: يتوفّى الأنفسَ حين موتها وفي منامها، وتفصيلُ ذلك وتكييفُه: كيتَ وكيتَ. فمعنى تفصيل الفاء: أنّها تفصّل وتبيّن ما يحدث لكلّ فصيلٍ ونوعٍ من هذه الأنفس: الميّتة، والنّائمة. وهو من باب تفصيل المصير، بعد إجمال الحكم، فحكمَ عليهما بالتّوفّي إجمالًا، ثمّ بيّن مصيرَ كلّ نوعٍ تفصيلًا، وهو ممّا

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 7/ 430.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 518، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 25.

يعينُ على التّفكّر والاستنباطِ والتّوقّف للملاحظة، ولذلك ختم الفاصلةَ بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوۡمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

بلاغةُ المجاز في فعل الإمساك:

الإمساكُ يدلّ على شدّة القبض والتّمكّن من الفعل

أصلُ الإمساك في قوله: ﴿فَيُمۡسِكُ﴾ هو القبضُ على الشّيء بالجارحة، فيمتنعُ عمّن سوى آخِذِه، ثمّ استُعمِل في الحبْس والمنع عمومًا، وإنْ لم يقع فيه تناولٌ بالجارحة، فالإمساكُ في الآية: مجازٌ عنِ الحبْس والمنع، أي: يحبسُها ويمنعُها عنِ التّعلّق بالجسد، وهو جارٍ على الاستعارة التّصريحيّة، شبّه منْعَ الشّيءِ في حيّز الحبْس، بإمساك شيءٍ والقبْضِ عليه في حيّز الكفّ، بجامع الانحباسِ في كلٍّ[1].

غرضُ التّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

لا مهربَ للنّفس من إمساكٍ ناتجٍ عن قضاءٍ نافِذٍ لا مُعقّبَ له

التّعبيرُ بالاسم الموصول وصلتِه في قوله: ﴿ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ الغرضُ منه: تمييزُ تلك الأنفس وتعيينُها بمضمون الصّلة، وهي كونُ الإمساكِ المذكور حاصلًا للأنفس التي قُضي عليها بالموت. ولذلك لم يقل: (فيمسك واحدةً ويرسل أخرى)؛ لأنّ المراد تقييدُ الإمساك بالميّتة دون غيرها، فتعيّن ذلك بمضمون الصّلة.

وأيضًا: تعريفُ النّفس بالصّلة في: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ مُشعِرٌ بعلّة الحكم، فالتّعبير بـ﴿قَضَىٰ﴾ في حيّز يدلّ على أنّ عِلّة إمساكِها بسبب القضاء عليها بالموت، وإذا كان ذلك قضاءً، فلا مفرَّ لهذه النّفس من ذلك الإمساك، فإمساكُها ناتجٌ عن قضاءٍ وحكمٍ نافِذ لا معقّبَ له[2].

نكتةُ تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيۡهَا﴾:

القضاءُ على النّفس بالموت مختصٌّ بها لا يُفْلِتها، ولا أن يلتحِق بغيرها

تقديمُ شبهِ الجملة ﴿عَلَيۡهَا﴾ في قوله: ﴿عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾، ولم يقل: (قضى الموت عليها)؛ لإفادة الاختصاص وتقوية الحكم، أي:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (مسك)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 22/ 252.
(2) السامرائي، معاني النحو: 1/ 120.

حين قضى عليها بالموت كان ذلك قضاءً مختصًّا بها، فلا يمكنُ أن يُفْلِتَها، ولا أن يلتحِق ما خُصِّص لها بغيرها. وعلى هذا التّوجيه، فالحصرُ مقترنٌ بالاختصاص.

دلالةُ حرفِ الاستعلاء:

تقديرُ الموت قدَرٌ علويٌّ لا مفرَّ منه

تعديةُ القضاء بحرف الاستعلاء في: ﴿قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ للإشارة إلى أنّ الموتَ تقديرٌ علويٌّ، لا خلاصَ للمرء منه، فهو متمكِّنٌ منه على رُغْمٍ منه وكُرهٍ، ودون سابقِ تخييرٍ أو إعلامٍ[1].

معنى(ال) في ﴿ٱلۡمَوۡتَ﴾:

لا يَستثني الموتُ أحدًا

(ال) في: ﴿ٱلۡمَوۡتَ﴾ من قوله: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ لتعريف ماهيةِ الجنس وحقيقتِه. فهو موتٌ لا يستثني أحدًا، ويجوز أن تكون عهديّةً يُراد بها الموتُ المعهود المذكور في أوّل الآية.

توجيهُ القراءاتِ القرآنيّة المتواترة:

حتميّةُ القضاء بوقوع الموت نافِذةٌ بلا احتمالِ أدنى تعقيبٍ أوِ استدراك

في قوله: ﴿قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ قرأ الجمهور: ﴿قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾ ببناء الفعل للفاعل ونصبِ الموت، وقرأه حمزةُ والكسائيّ وخلفٌ: (قُضِيَ عليها الموتُ) ببناء الفعل للمفعول وبرفع الموت[2]، وهو على مراعاة نزعِ الخافض. والتّقدير: (قُضي عليها بالموت)، فلمّا حُذف الخافضُ صار الاسمُ الذي كان مجرورًا بمنزلة المفعول به، فجُعل نائبًا عنِ الفاعل، أو على تضمين (قضي) معنى (كتب وقدّر)[3]، والفرقُ بين القراءتين: أنّ قراءة البناء للمفعول أشدُّ في معنى الفعل من قراءة البناء للفاعل، فإنّ عدم تسميةِ الفاعل وإنابةَ الموت مقامَه في: (قُضيَ عليها الموتُ) يُؤذِن بحتميّةٍ نافِذة في وقوع الفعل بلا احتمالِ أدنى تعقيبٍ أوِ استدراك.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 518.

(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 363.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 26.

معنى الواو في قوله: ﴿وَيُرۡسِلُ﴾:

اليقظةُ منَ النّوم بعثٌ جديد يستحقُّ الشّكرَ والتّواضعَ

جملةُ ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿فَيُمۡسِكُ ٱلَّتِي قَضَىٰ عَلَيۡهَا ٱلۡمَوۡتَ﴾[1]، والعطف بالواو؛ لاستتمام التّفصيلِ التّفريعي عن وفاة الأنفس، فكأنّه قيل: فمنها مُمْسَكٌ عنِ الحياة، ومنها مُرسَلٌ إلى استئنافِ أجَلِه في الحياة.

نكتةُ التّعبير بالفعل المضارع في ﴿وَيُرۡسِلُ﴾:

إمساكُ الأنفس وإرسالُها منَ الحقائقِ الثّابتة والقوانينِ المطّردة

عبّر بالمضارع في قوله: ﴿فَيُمۡسِكُ﴾، ﴿وَيُرۡسِلُ﴾؛ للدّلالة على تَكرار تلك الظّاهرة، واستمرارِ حدوثها، كما في قوله: ﴿يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ﴾ [الروم: 19]، فالتّعبير بالمضارعة إيذانٌ بأنّ ذلك منَ الحقائق الثّابتة والقوانينِ المطّردة. كما يدلُّ التّعبير بالمضارعة أيضًا على استمرار نفْس الإمساك في قوله: ﴿فَيُمۡسِكُ﴾، أي: يظلّ إمساكُها إنْ أمسكها، ويظلّ إرسالُها إنْ أرسلها.

بلاغةُ الطّباق بين ﴿فَيُمۡسِكُ﴾، و﴿وَيُرۡسِلُ﴾:

التّضادُّ في أحوال الأنفس يدلّ على هيمنةِ اللّه في مقابل عجزِ المخلوق

بين قوله: ﴿فَيُمۡسِكُ﴾، في حال الموت، وقوله: ﴿وَيُرۡسِلُ﴾ في حال الحياة بعد النّوم، طباقٌ بالإيجاب بين اللّفظين لتصويرِ تضادٍّ بين حالتين متناقضتَين، فالإمساكُ: يدلّ على الثّبات والدّيمومة، وهو مرتبطٌ بالأنفس التي قُضي عليها الموت. والإرسالُ: يدلّ على الإطلاق والعودة إلى الحياة، وهو مرتبطٌ بالأنفس التي لم تُكتب لها الوفاةُ بعد. وهذا التّقابل يُجلّي عن طلاقةِ قدرةِ اللّه وتدبيرِه في التّحكّم بأمر الحياة والموت، وطلاقةِ المشيئة في تقرير الشّيء ونقيضِه، وإيقاعِ كلٍّ في موقعه، بحسب مقتضيات الحكمةِ والعلم وكمالِ التّقدير والتّدبير.

وتظهرُ قيمةُ الطّباق في الإيجاز البديع لتفاصيل الحالةِ

---

(1) الخطيب، التفصيل: 24/ 24.

دقّةُ دلالةِ فعلَي الإمساك والإظهار على الحالة من صور الايجاز

الحاصلة: فالفعلُ ﴿فَيُمۡسِكُ﴾ يدلّ ضمنيًّا على استمرار الإمساك، دون الحاجة لتفصيلٍ زائدٍ. والفعلُ ﴿وَيُرۡسِلُ﴾ يختزل صورةَ العودة دون إطالة، ممّا يزيد النّصَّ قوّةً وتماسُكًا.

يناسبُ الإمساكُ الموتَ في الثّبات والقرار، ويناسب الإرسالُ الحياةَ في الحركة والاستمرار.

وتظهرُ أيضًا في المطابقة بين المعنى واللّفظ؛ باختيار فعلَي الإمساك والإرسال بما يعكسُه من معنى مقصودٍ بدقّة في هذا السّياق؛ إذ إنّ الإمساك يتناسبُ مع الموت (الثّبات والقرار)، في حين يتناسب الإرسالُ مع الحياة (الحركة والاستمرار).

تناسقُ الألفاظ صوتيًّا يخلقُ إيقاعًا يعينُ على تثبيت المعنى في الذّهن.

الانسجامُ الصّوتي والتّناسقُ بين اللّفظين المُتطابقَين في: ﴿فَيُمۡسِكُ﴾، ﴿وَيُرۡسِلُ﴾ يخلقُ إيقاعًا لطيفًا يعينُ على تثبيت المعنى في الذّهن، ويُظهر جماليّةَ الأسلوبِ القرآنيّ، فالقبضُ والبسطُ في اللّفظين حاصلٌ في الصّوت بهما، كما هو حاصلٌ في معنيَيْهما.

معنى(ال) في ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾:

(ال) في ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ من قوله: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ للعهد الذِّكري، إذِ المرادُ تلك النّفسُ التي سبق ذِكْرُها في قوله: ﴿وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾. وفيه - أي: العهد الذِّكريّ - إشارةٌ لطيفةٌ إلى فحص السّياق والانفعالِ الشّامل لمكوّناته.

بلاغةُ الإيجاز في لفظ ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾:

ما ظهر مضمونُه أغنى عنِ التّكرار

الاكتفاءُ بالمذكور وهو لفظُ ﴿ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ في قوله: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ ولم يقل: (ويرسل التي لم يقضِ عليها الموت) إيجازٌ بليغٌ يقتصدُ في اللّفظ ويُغني عنِ التّكلّف في التَّكرار فيما بان معناه، وظهر فحواه.

دلالةُ حرف الانتهاء في: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾:

حضورُ الأجلِ المُسمّى نهايةُ إرسالِ النّفس إلى الحياة

حرف الانتهاء في قوله: ﴿وَيُرۡسِلُ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ أفاد أنّ إرسال النّفسِ للحياة بعد توفّيها في نومها، مُغيًّا بغايةٍ ينتهي ذلك الإرسالُ ببلوغِها، تلك الغايةُ: هي حضورُ الأجل المسمّى، فإذا حضر، فلا إرسالَ.

نكتةُ تنكيرِ الأجل:

إبهامُ الأجل على أنّه صفةٌ غيبيّةٌ غيرُ معلومةٍ للعبد

تنكيرُ لفظِ الأجل في قوله: ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ على بابه من إفادة معنَى الإبهام، أي: أجلٍ منكورٍ غيرِ معلوم، ووصْفُه بـ﴿مُّسَمًّىۚ﴾ لم يرفع إبهامَه عند السّامع، بل أفاد أنّه غيرُ مُبهَمٍ في نفْسه، فإبهامُه حاصِلٌ من جهة السّامع، مُعلومٌ وظاهرٌ في جهتِه العليا عند اللّه، وهو يفيد أنّ إبهامَه مقصودٌ مُرادٌ لِحكْمَة؛ إذْ هو من صَفَحاتِ الغَيْب.

نكتةُ التّعبير باسم المفعول ﴿مُّسَمًّىۚ﴾:

لا حيلةَ للعبدِ في رزقِه وأجَلِه فكلاهما قدَرٌ مُسمًّى

مجيءُ وصفِ الأجَل بصيغة اسمِ المفعول ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمًّىۚ﴾ دلّ على ثلاثةِ معانٍ: الدّلالةُ على ذات المفعول، وهو الأجلُ نفسُه بمقدارِه وكيفيّته، والدّلالةُ على الحدَثِ الثّابت، فتسميَةُ الأجل ثابتةٌ دائمة لأنّها حكمٌ مَقْضيّ، والدّلالةُ على الحدوث وهي الفعليّةُ، فهو حادِثٌ في الزّمنِ الماضي، وباعتبار ميلادِ كلِّ إنسانٍ فأجَلُه يبدأ في الحدوثِ معه[1].

دلالةُ التّعبير بالأجل دون غيره:

إذا حضرتِ الآجالُ أغلِقتْ صفحةُ الأعمال

التّعبيرُ بالأجل دون المدّة أوِ الوقت، للدّلالةِ على آخر الوقت، فالأجلُ هو غايةُ الوقت ونقطةُ النّهايةِ التي ينقضي عندها، والمُدّةُ هي مَدٌّ ما بين النُّقطتين أوّلِ الزّمن وآخِره، والوقتُ هو جميعُ ذلك، لأنّه نفْسُ الزّمن، والمرادُ تحديدُ ذلك فيه[2].

(1) السامرائي، معاني الأبنية، ص: 52.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أجل)، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (مدد).

دلالةُ وصف الأجل بقوله: ﴿مُّسَمًّىۚ﴾ دون (معلوم):

قد يكون الشّيءُ معلومًا من غير تسمية

وصفَ السّياقُ الكريم الأجلَ بأنّه ﴿مُّسَمًّىۚ﴾ ولم يصفْه بأنّه (معلوم)؛ لأنّ ﴿مُّسَمًّىۚ﴾ أفادت معنى زائدًا على (معلوم) وهو (التّعيين والتّحديد)[1]، فهو معلومٌ على جهة تحديده وتقييدِه بصاحبه الخاصِّ به، فكأنّ صاحبَ الأجلِ سُمّيَ بأجِله الخاصِّ به، فلكلٍّ عمُرُه ولِكلٍّ مِقدارُه منَ الجزاء الذي ينالُه؛ أي: حُدِّد له أجلُه كما حُدِّد له اسمُه.

موقعُ جملةِ الفاصلة:

فيما تقرّرَ من حقائق الغيبِ آياتٌ لقومٍ يتفكّرون

جملةُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ أو تعليليٌّ ممّا قبلها، فباعتبارها استئنافًا بيانيًّا تكون كأنّها واقعةٌ جوابًا عن سُؤالٍ مُقدَّر: (فما في ذلك؟ ولِمَنْ ذلك؟)، فأجيب: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾. وعلى اعتبارها جملةً تعليليّةً، فتقديرُ المعنى: ذلك الذي تقرّر من حقائق الغيبِ التي ليس لكم منها إلّا ظواهرُها؛ لأجل أن يكون آياتٍ لقوم يتفكّرون[2].

فجملةُ الفاصلة تنبيهٌ على عظمته وما فيه منَ الأسرار، وفيه تقريعُ لِمَنْ يرميه بالأساطير وغيرها منَ الأباطيل[3].

دلالةُ الاستهلال بالتّوكيد:

التّأكيدُ على يقينيّة الآياتِ وتحفيزِ التّفكر لاستجلاء معانيها

استُهِلّتْ جملةُ الفاصلة بالتّوكيد: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، ثمّ التّوكيد في قوله: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾[4]؛ للإيذان بأنّ ما ورد في الآيات من دلائلَ وأحداثٍ هو أمرٌ قاطعٌ لا شكَّ فيه، والغرضُ: إشرابُ قلوبِ المخاطَبين باليقين في هذه الآيات التي هي وسائلُ إلى اليقين في الخالق ﷻ، وتحفيزُهم على تعاطي سببِ ذلك اليقين، وهو التّفكّر الذي يستأهِلُ العقلُ به استبصارَ الآياتِ واستجلاءَها.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 14/ 191.

(2) صافي، الجدول: 12/ 190.

(3) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 519.

(4) صافي، الجدول: 12/ 190.

بلاغةُ التّقديم والتّأخير:

تقديمُ ما يُرتَجى مناطُ التّأمّل والتّدبّر

تقديمُ الجارِّ والمجرور: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على الخبر: ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾[1] يلفتُ الانتباهَ إلى موضع التّأمّل والتّدبّر، وهو مرجعُ اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ الذي يعود إلى ما سبق ذِكْرُه من أحوال الموت والنّوم، وهذا التّقديمُ يعطي اهتمامًا لِما هو محلُّ التّفكير (مرجع الإشارة)، فيفيد اختصاصَه والتّنويهَ بشأنه أنْ كان مُستودعًا ومَجْمَعًا للآيات.

نكتةُ التّعبير باسم الإشارة للبعيد:

امساكُ الأنفسِ وإرسالُها ظواهرُ بعيدةُ التّمكّن والإعجاز في باب القُدرةِ

استعمال اسم الإشارة للبعيد في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾، ولم يَقُلْ: (إنّ في هذا)؛ للإيذان بتعظيم ما يُشار إليه من شؤون الأنفس ووفاتِها حين موتها وفي منامها، وأنّ تلك الظّواهرَ بعيدةُ التّمكّن والإعجاز في باب القُدرةِ والقهرِ الإلهيّ الواسع، ولذا استحقّتْ أنْ تنطوي على الآيات الفذّةِ المُختصّةِ بالفئة العليا وهم أهلُ التّفكّر.

الغافلُ لا يدركُ الآياتِ الفذّةَ المعجزةَ.

يدلُّ استعمالُ اسم الإشارة: ﴿ذَٰلِكَ﴾ على بُعدِ المُشار إليه عن إدراك الغافلين، مع بُعدِه في عقول المتفكّرين، فهو بعيدٌ عن عقول أهلِ الغفلة، وبعيدٌ في عقول أهلِ التّفكّر، فالبُعد عنِ العقول بمعنى فراغِها عن إدراكه، والبُعدُ في العقول بمعنى تمكّنِها من إدراكه.

نكتةُ التّخصيص في: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

المُتفكِّرون في آيات الله أهلٌ للتّشريف والذّكر

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ جاء الخطابُ بالآيات خاصًّا بفئةٍ معيّنة منَ النّاس، وهم أولئك الذين يتّصفون بالتّفكّر والتّدبّر في الآيات الرّبّانيّة في أحوال الأنفس، ممّا يبعثُ على التّأمّل والفكرِ العميق. وفي ذلك إشارةٌ إلى أنّ الفائدة منَ الآيات لا تُدرك إلّا من خلال التّأمّل والتّفكّر.

---

(1) صافي، الجدول: 12/ 190.

معنى اللّام في: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾:

واللّام في: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ هي لامُ الاختصاص؛ أي: آياتٌ تخصّ أهلَ التّفكّر، أو لامُ العلّة؛ أي: جُعِلَ في ذلك الآيات لأجل انتفاع واهتداءِ قومٍ يتفكّرون.

نكتةُ اصطفاءِ لفظ: (قوم):

القوميّةُ دالّةُ التّشاركيّة وتعزيزُ التّفكّر الجماعيّ

لم يَقُلْ في السّياق الكريم: (لآياتٍ للمتفكّرين)؛ بل عبّر بلفظ (القوم) فقال: ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ أولي الألباب أمّةٌ مجتمعةٌ اجتماعَ القوم على التّفكّر والتّدبّر، ذوو قوّةٍ في مزاولة الأمور[1]. ففيه إلماحٌ إلى أنّهم مُتعزِّزون بولايةِ بعضِهم بعضًا، وتقوُّم بعضِهم ببعض، وفيه إشارةٌ إلى أنّ التّفكّر في آيات الرّحمن من وظائف الأمّةِ التي ينبغي أنْ تجتمع عليه اجتماعَ القوم المتظاهرين، وفيه إشارةٌ أيضًا إلى أنّ التّفكر يتعزّز وينمو إلى كمالِه وتمامه بتآلف العقولِ عليه، فالعصمةُ في الجماعة لا في الآحاد، فكلّما كان التّفكُّر حاصلًا بتوافقٍ من جماعةٍ ومن قومٍ كان أمكنَ في الصّحّة وأقربَ إلى العصمة وعدمِ الشّذوذ. وفي التّعبير بلفظ (قوم) - أيضًا - إشارةٌ إلى أنّ التّفكّر ظاهرةٌ تنتشرُ بالعدوى الإيجابيّة، والمشاركةِ التّفاعليّة، فهي تتطلّب محيطًا تشاركيًّا تفاعليًّا، وفي هذا دعوةٌ أن يتدارس النّاسُ تلك الآياتِ ويجتمعوا على التّفكّر فيها، حتّى يصير لهم قوميّة وهويّة واجتماع على آيات الكتاب يتدارسونه تفكّرًا وتدبّرًا[2].

دلالةُ الجمع بين الآيات والتّفكّر:

الآياتُ دعوةٌ للتّفكّر العميق لا مجرّد المشاهدةِ السّطحيّة

الجمعُ بين الآيات، والتّفكّر في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يوحي بأنّ هذه الآياتِ ليست مجرّدَ دلائلَ ظاهرةٍ، بل

---

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 519.

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، اللسان، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (قوم).

هي دعوةٌ للاستبصار والتّفكير العميق، وأنّه لا يُكتَفى معها، بل لا تُستقْرأُ بمجرّد المشاهدة السّطحيّة، والتّفاعل العابِر. وإنّما بتجريد النّفس منَ الشّواغل والتّفكّر في عظمة هذا التّدبير ليُعلمَ به عظمةُ الخالق سبحانه[1].

التّفكّرُ فعلٌ متدرّجٌ وجهدٌ دائبٌ

عبّر بصيغة التّفعّل (التّفكّر) في قوله: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾، للدّلالة على تواتر الجُهد في إحداث الفِعل، وتناولِه بقوّةٍ وكُلْفة، وعلى التّدرّج والتّرقّي في حركة العقل بالفِكْر وتناميه ونُضجِه، فصيغةُ التّفعّل تدلّ على إتيان الفعل بقوّةٍ وإتقان. ولعلّها تشير أيضًا إلى أنّ التّفكّر في مبادئه يأتي تكلّفًا لا عفْوًا حتّى يعتاده الإنسانُ ويصيرَ حالًا عليه يسيرةً غيرَ مُتكلَّفة، أو يشيرُ إلى أنّ الآياتِ لمّا كانت حقائقُها باطنةً غيرَ ظاهرة، كان الوصولُ إلى تلك البواطن لا يحصلُ إلّا بضربٍ منَ التّكلّف، فالنّفاذُ لبواطن الظّواهر يقتضي التّكلّف في ملاحظتها؛ لِضمانِ الخلاصِ إلى لُبابها وبؤرتِها.

التّدبّر والتّأمّل عادةُ المتفكّرين

تآزرَ مع صيغة البناء، صيغةُ الزّمن، بالتّعبير بالمضارعة، ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾؛ للدّلالة على أنّ التّفكّر المُتْقَنَ ديدنُهم، يتحرَّوْنَه تحرّيَ الحريصِ المواظِب على الفِعل، حتّى صار من عاداتِه المألوفة، وأخلاقِه المكرورة. ويدلّ على أنّهم أبناءُ أوقاتهم، فهم لا ينفكّون عنِ التّفكّر في حاضرهم وآنِهم، ممّا يبعثُ المخاطَبَ ويحفّزُه على مُلابسة التّفكّر، وتكلّفِ الاتّصاف به.

بلاغةُ الكنايةِ بطريق الاقتضاء:

التّفكّر شرطُ إدراكِ الآيات

إنّ ذِكْرَ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ يقتضي أنّ التّفكُّر هو مفتاحُ الوصول إلى الفهم العميق لِمضامين الآيات، فيستلزمُ ذلك: التّنبيهَ على مدى فاعليّةِ العقل بوصفِه آلةً ضروريةً لإجراء التّفكّر الذي هو بوّابةُ اليقين، ومدخلُ الإيمان.

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 520.

المُتفكِّر مُنتفعٌ بالآيات، والغافلُ بخسرانه لها ضالٌّ للغايات

براعةُ أسلوبِ التّضادّ الضّمنيّ:

ذِكْرُ قولِه: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ يتضمّنُ تضادًّا مع أولئك الذين لا يتفكرون أو يغفلون عنِ الآيات، ممّا يُجَلّي للسّامع قيمةَ التّفكّر ويفتح مجالًا للموازنة بين الحالَيْن: حالِ الذين يتفكّرون فينتفعون بالآيات، وحالِ الذين يغفُلون، فيخسرون الآياتِ، فلا تُغني عنهم شيئًا. فكأنّه قيل: إنّ في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكّرون، وحُجُبٍ وأستارٍ وأغشية عن قومٍ لا يتفكّرون. والغرضُ من ذلك الأسلوب هنا: تحفيزُ الموازنة بين حالَي: (التفكّر والغفلة)، بما يكون كنايةً عن دعوةٍ غيرِ مباشرة للابتعاد عنِ الغفلة والانضمامِ إلى أهل التّفكّر. وأيضًا: تعميقُ المعنى بجعل النّصّ أكثرَ شموليّةً؛ إذ يوجّه الخطابَ لِمَن يتفكّرون صراحةً، ولِمَنْ يحتاجون التّحفيزَ للتّفكّر ضمنيًّا.

ثبوتُ حصرِ فهمِ الآياتِ بالمُتفكِّرين مُستفادٌ ضِمْنًا مِن نفيه عنِ الغافلين

بلاغةُ أسلوبِ الإيجابِ الضّمنيّ بالنّفيّ:

فقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يُثبت معنًى مُعيَّنًا ضمنيًّا من خلال نفي ضدّه أوِ الإشارةِ إلى مقتضاه، فثبوتُ فهمِ الآيات لِمَنْ يتفكّرون - فقط - مُستفادٌ ضِمْنًا من نفيه عنِ الغافلين، فإيجابُ ذلك على جهة الحصر ثابتٌ ضِمنًا بواسطةِ نفيِ الضّدّ، فالمعنى الضّمنيّ الموجَب: هو الحصرُ، وهو اقتصارُ الانتفاع بالآياتِ على (قومٍ يتفكّرون)، وهذا الاقتصارُ ناتجٌ عن نفي ذلك عنِ الضّدّ، وهو عدمُ انتفاع الغافلين بالآيات. فالإيجابُ الضّمنيّ بوساطة النّفي يركّزُ على إثبات الصّفة، أوِ المعنى من خلال نفي نقيضِها، وهو شبيهٌ بالإثبات بالمفهوم، أو دلالةِ المفهوم. وهنا تجدرُ الملاحظة إلى أنّ الإيجابَ بالحصر ضمنيٌّ، وأمّا إيجابُ المعنى من غير حصر، فصريحٌ، وأمّا نفيُ الضّدّ (ليس لقوم لا يتفكّرون)، فضمنيٌّ كذلك؛ لعدم صراحتِه في منطوق العبارة.

نكتةُ حذفِ متعلّق: ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾:

إدامــةُ الـتّـدبّـر والــتّــأمّــل في جميع الأحـوال والـحـوادث من خصال المتفكّرين

لم يَقُلِ السّياق الكريم: (يتفكّرون في أيّ شيء)، فحذفَ المتعلّقَ؛ لدلالة ما قبله عليه، وهو التّفكّرُ في الحال المذكورة في قوله: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ﴾، أو لإرادة العموم، فكونُ الآية تتحدّثُ عنِ التّفكّر، فقد جاءت بصيغة مفتوحةٍ تحتملُ الإشارةَ إلى السّياق القريب، أوِ السّياق الجامع البعيد، كأنّه يصفُهم بعموم التّفكّر في كلّ آيةٍ، وليسوا مُقتصرين على التّفكُّر في هذه الحال المذكورة في: ﴿يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾، فكأنّه بحذف المُتعلّقِ يمدحُهم مدحًا عامًّا بتلك الصّفةِ في عموم أحوالِهم ومواقفِهم، فإذا كانوا كذلك على كلّ حالٍ، فإنّهم في تلك الحال المذكورة في السّياق القريب أتقنُ لها وأعرفُ وأبصرُ وأجلى؛ لأنّ ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيما هو أوسعُ وأعمُّ، فمُدِحوا بوُسْعِهِم في التّفكّر، فحُذف المتعلّقُ لأجل ذلك.

﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ ۝٤٣ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ۝٤٤﴾ [الزمر: 43 - 44]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

مَن يملكُ تصريفَ الأنفس في موتها ومنامِها حقيقٌ بأن لا يُشرَك به شيءٌ

لمّا ذكر الله سبحانه في الآية السّابقه انفرادَه تعالى بالتّصرّف في حياة الخلْق وموتِهم ومنامِهم، وأنّهم خاضعون له، فيمسكُ الأنفسَ أو يعيدُها وفق مشيئتِه، وكان ذلك إشهادًا صريحًا على قدرته المُطلقةِ وألوهيّتِه المُستحقّةِ، أخبر هنا في هذه الآية عمّا يقابلُ هذا ويناقضُه، من بطلان عبوديّةِ غيره، واتّخاذِ مَن لا يملكُ شيئًا شفعاءَ من دونه، فقابَل في هذه الآية مع التي قبْلَها بين مَن يملك التّصرّفَ في كلّ شيءٍ، وضلّوا عن عبادته، مع ما لا يملكُ شيئًا، وقد عبدوه! فبعدَ أن تقرّر أنّه لا يقومُ شيءٌ مقامَه سبحانه، ولا يكونُ شيءٌ إلّا بإذنه، ولا يقربُ أحدٌ منَ القدرة على شيء من فعله، فكيف بالقربِ من رتبتِه فضلاً عن مماثلتِه، عادلَه بقوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾"[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿شُفَعَآءَۚ﴾: جمعُ شفيع. وأصلُ (شفع) يدلّ على مقارنة الشّيئَيْن[2]، والشّفيعُ هو مَن يتوسّط للآخرين لقضاء حاجةٍ أو دفعِ ضرر[3]. وسُمّي بذلك: لأنّه يأتي مُقارِنًا لِمَنْ يشفعُ له ثانيًا معه، مُلتمِسًا مَطلبَه ومُعينًا له[4]. والشَّفْعُ: ضمُّ الشّيءِ إلى مثله. والشَّفاعَةُ: الانضمامُ إلى آخرَ ناصرًا له وسائلًا عنه، وأكثرُ ما

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 520 - 521.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفع).
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 310.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شفع).

يستعملُ في انضمامِ من هو أعلى حُرمةً ومرتبةً إلى من هو أدنى[1].

ومعنى ﴿شُفَعَآءَۚ﴾ في الآية: وسطاءُ من آلهتهم بينهم وبين اللّه يرتجون نصرتَهم ويكونون لهم عِزًّا[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

حقيقةُ الشّفاعة فـي مـيزان التّوحيد، ونقضُ أوهام المشركين فيها

الآيتان الكريمتان تتحدّثان عن قضيّة الشّفاعة في العقيدة، وتنفيان الشّفاعةَ التي يتّخذُها المشركون من دون اللّه، مع تقرير أنّ الشّفاعة جميعَها ملكٌ للّه وحده. فهنا يوبِّخُ اللّه المشركين الذين اتّخذوا من دون اللّه وسطاءَ وشفعاءَ، سواء كانوا أصنامًا أو بشرًا، ظنًّا منهم أنّهم يستطيعون التّوسّطَ لهم عند اللّه، ويأمرُ نبيّه ﷺ أن يستنكِر عليهم قائلًا: ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾: تساؤلٌ استنكاريٌّ؛ أيْ: كيف يطلبون الشّفاعةَ من مخلوقاتٍ لا تملكُ شيئًا، ولا تعقلُ لِتُدرك طلباتِهم أو حاجاتِهم؟! ثمّ يردُّ اللّه عليهم آمِرًا نبيَّه أن يقول لهم: إنّ الشّفاعة كلّها مِلكٌ له وحده، فلا يشفعُ أحدٌ عنده إلّا بإذنه وبما يرضى، ذلك أنّ اللّه له ملكُ السّموات والأرض، فثبت له سبحانه بهذا المُلْك السّيادةُ المُطلقةُ على كلّ شيء، فلا يمكنُ أن تكون الشّفاعة إلّا في إطار إرادته. ثمّ يُذكّرُهم بالرّجوع إليه يومَ القيامة، حيث لا ينفع شفيعٌ إلّا مَن أذِن اللّهُ له، فليُخلِصوا العبوديّةَ للّه وحده، ولْيتنزّهوا قبل ذلك اليوم من أدران الشّرك، وعلائقِ الوسائط والشُّفعاء[3].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفَصْلِ في الآية:

مزاعمُ المشركين شـنـيـعـةٌ وأوهـامُـهـم في الاعتقاد فظيعةٌ

جملةُ ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾ استئنافيّةٌ منقطعةٌ عمّا

(1) الراغب، المفردات: (شفع).

(2) ابن أبي زمنين، تفسير ابن أبي زمنين: 4/ 114، وابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 310.

(3) ابن عطية، المحرَّر الوجيز: 4/ 534، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 456، والنسفي، مدارك التنزيل: 3/ 184.

قبْلها؛ لانقطاع ﴿أَمِ﴾ وإضرابِها عن مضمون السّياق قبْلها[1]، وعليه: فالجملةُ ابتدائيّةٌ؛ للإضراب الانتقاليّ - انتقالًا من تشنيع إشراكِهم إلى إبطال معاذيرِهم في شِركهم، ذلك أنّهم تأوّلوا إشراكَهم واعتذروا عنه بدعواهُم: ﴿مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ [الزمر: 3] كما حُكي عنهم في أوّل هذه السّورة، فلمّا اسْتوفيتِ الحُجُجُ على إبطال الشّرك؛ أقبل هنا على إبطال تأويلِهم منه ومعذرتِهم[2].

معنى: ﴿أَمِ﴾، وفائدةُ الإتيان بها:

الإضرابُ انتقالٌ بين متباينَيْن فيفيدُ انقطاعًا

الفرقُ بين (أم) المنقطعةِ، و(أم) المتّصلةِ: أنّ المنقطعة يُرادُ بها الاستدراكُ، والانتقالُ، والتّفريقُ والإضرابُ، وتصحيحُ المعنى، ولذلك كانت بمعنى (بل) والهمزةِ، فـ(بل)؛ للإضراب عمّا قبلها، والهمزة؛ للاستفهام عمّا بعدها. و(أم) المتّصلةُ: يُراد بها التّخييرُ بين شيئَيْن، وتعيينُ أحدِهما منَ الآخر[3].

و﴿أَمِ﴾ في مطلع الآية مُنقطعةٌ بمعنى: (بل) للإضراب، وهمزةُ الاستفهام للتّقرير والإنكار والتّوبيخ، والتّقدير: (بل أتَّخذوا؟!)، وهمزةُ الوصل محذوفةٌ، وهمزةُ القطع هي الاستفهاميّة[4]. ويجوز أن تكون متّصِلةً معطوفةً على جملة محذوفةٍ تقديرُها: (أجعلوا للّه شركاء أم اتخذوا من دونه شفعاء؟)[5]، أوِ التّقدير: (هل اقتنعوا بأنّ اللّه يملك كلَّ شيءٍ فلا شريك له ولا شفيع؟ أم اتّخذوا من دون اللّه شفعاء)[6]، فما بعدَ (أم) المتّصلةِ هو المُعادِل الموازي لِما قبْلها في طرحه للاستفهام، فهو جزءٌ منَ الطّرفين المُرادِ تعيينُ أحدهما واختيارُه.

---

(1) المظهري، التفسير المظهري: 8/ 219.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 26.
(3) السامرائي، معاني النحو: 3/ 247.
(4) القونوي، حاشية القونوي: 16/ 539.
(5) المظهري، التفسير المظهري: 8/ 219.
(6) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 521.

نكتةُ إيثارِ ﴿أَمِ﴾ على (بل):

اتّخاذُ المشركين الأصنامَ شفعاءَ من دون الله مبنيٌّ على الهوى والظّنّ، لا على العلم والسّلطان

وإذا كانت ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾ منقطعةً للإضراب بمعنى: (بل)، فالفرق بين قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾، وبين أن يُقال: (بل اتّخذوا)، أنّ ما بعد (بل) ميقونٌ، وما بعد (أم) مظنونٌ[1]، وهنا في الآية جاء بعد ﴿أَمِ﴾ اتّخاذُ الشّفعاء: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾، واستعمل مع هذا ﴿أَمِ﴾؛ لأنّ اتّخاذهم الأصنامَ شفعاءَ من دون اللّه - مبنيٌّ على الهَوى والظّنّ، لا على العلم والسّلطان، كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُۖ﴾ [النجم: 23]، ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا ٢٨﴾ [النجم: 28]، فلمّا كان ذلك متمحِّضًا في الظنّ وعدمِ الأحقيّة، لا جرمَ عبّر بـ﴿أَمِ﴾، دون (بل).

دلالةُ الاستفهامِ المُقدّرِ في: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾:

الاستفهامُ المُقدّرُ[2] في: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ﴾، على معنى: (بل آتّخذوا؟!)؛ للتّقرير وتسجيلِ اتّخاذهم عليهم، كأنّه قيل: (قدِ اتخذوا)[3]، مع الإنكار والتّوبيخ[4].

دلالةُ التّعبير بـ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ صيغةً:

القصدُ إلى الشِّرك والجهد فيه وجهٌ للانحراف يستحقّ التّوبيخَ

التّعبيرُ بصيغة (افتعل) في قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾ يدلّ على تعبهم ونصبِهم في الباطل، فـ(اتّخذ - افتعل) من (الاتّخاذ - الافتعال) يدلُّ على القصد، والجهدِ، والإصرارِ في اتّخاذ الشّفعاء من دون اللّه. وهذا يُظهر مدى انحرافِ المشركين، ويُبرز استحقاقهم للتوبيخ الإلهي على تصرّفهم الباطل، فاختيار صيغة الافتعال يُبرز الإصرار والتكلّف، فيشير إلى أنّ اتخاذهم

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/ 247.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 264.
(3) ابن أبي زمنين، تفسير القرآن العزيز: 4/ 114.
(4) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 534.

هذا ليس مُجرّد خطأٍ عارضٍ؛ بل شِركًا مبنيًّا على تصميم واعٍ[1]. ومجموع هذه الدلالات يتلخّص في أنّ ذروة الضّلال هي الاختيارُ المتعمّدُ للشّرك بعناء وإصرارٍ.

الإشارةُ إلى الكُلفة والمبالغة: فصيغةُ (افتعل) تفيد - غالبًا - وجودَ كُلفةٍ أو جُهْدٍ في الفِعل، ممّا يعني أنّ هؤلاء لم يكتفوا باتّباعٍ غيرِ اللّه عفويًّا، بل بذلوا جهدًا واتّخذوا قرارًا متعمَّدًا في إقامة الشّفعاء بينهم وبين اللّه مع وضوح الدّلائل[2]. وهذا يُبرزُ مدى ضلالِهم؛ إذ بذلوا الجهدَ في اتّخاذ ما لا ينفعُهم بل يضرّهم باختيارهم الشّخصيّ المكرور والمتعمَّد؛ فصيغةُ الافتعال تشير أيضًا إلى اختيارٍ قائمٍ على إرادةٍ ذاتيّة. وهذا يعني أنّهم أصرّوا على اتّخاذ الشّفعاءِ رغمٍ وضوحِ بطلانِ فِعلهم، ممّا يعكسُ تعمّدَهم في الإشراك باللّه.

مِـنَ الـضّـلال اصطناعُ المكانة الزّائفة الباطلة للأصنام

حضورُ معنى الإلصاق والتّصنّع: فصيغةُ (افتعل) قد تفيدُ التّصنّع أوِ الإلصاق. فـ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ تعني أنّهم نسبوا وألصقوا بأصنامهم وأوليائِهم صفاتٍ لا يملكونَها، مثل الشّفاعة، وجعلوهم في مقام لا يستحقّونه.

دلالةُ المُضي في الفعل ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾:

اتّخاذُ المشركين للشّفعاء ليس لحظةً عابرة، بل هو منهجٌ متكرِّرٌ في حياتهم

صيغةُ الماضي ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ لا تعني فقط أنَّ هذا الفعلَ وقع وتحقّق في الماضي، بل للدّلالةِ - أيضًا - على أنّ ذلك الفعلَ كان مستمرًّا بوصفه عادةً، أي: أنّ اتّخاذهم للشّفعاء ليس لحظةً عابرة؛ بل هو منهجٌ متكرِّرٌ في حياتهم.

بلاغةُ الكنايةِ في التّعبير بصيغة: ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾:

ثبوتُ مسؤوليّةِ المشركين في تصرّفهم الباطل

التّعبير بـ﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ على هذا البناء كنايةٌ عن توبيخٍ إلهيٍّ ضمنيٍّ؛ لأنّ الفعل فيه تحميلُ مسؤوليةٍ واضحةٍ على المشركين، بتحرّيهم ما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 521.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 521.

هو واضحُ البطلان، وهذا يجترُّ عليهم تضعيفَ إثْمِهِم، والتّنبيهَ على فساد اعتقادِهم، وعجْزِ شفعائهم.

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾ ابتدائيّةٌ، أي: ابتدؤوا اتّخاذَ الشّفعاء من جهةٍ سوى اللّه، و﴿مِن﴾ الابتدائيّة - هنا - أخصُّ في المعنى مِنْ أن يقول: (اتّخذوا دون اللّه)؛ لأنّه يُعيّن مبدأ الاتّخاذ، وتعيينُ المبدأ يفيدُ القُرب وعدمَ الفاصل؛ أي: اتّخاذٌ ناشئٌ منَ الجهة القريبة الدّانيةِ التي تلي اللّهَ في الرّتبة والمقام، فـ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ يدلّ على اعتقادهم ومسلكِهم، في أنّهم كانوا يتّخذون هذه المعبوداتِ لِتقرّبَهم إلى اللّه زُلفى، فهم يتّخذونها من دونه، أي: بعده مباشرةً، أو تدلّ على القرب الرُّتبي بمعنى أنّهم جعلوها في منزلةٍ قريبةٍ منَ اللّه في استحقاق العبادة، ولكنْ مع ذلك هي دونَه في الحقيقة ولا تُساويه أبدًا، ولو قال: (اتّخذوا دون اللّه) لاحتمل الاتساعَ وعدمَ القُرب الرُّتْبي، وهذا القربُ الرُّتبي هو كما بين الوسائلِ والغايات، فالوسيلةُ دونَ الغاية؛ لكنّها تقتربُ منها وتنشأُ قبل رُتبتِها. ويصحُّ أن تكون ﴿مِن﴾ صلةً زيدت؛ لتأكيدِ وضاعةِ اتّخاذهم. ويصحُّ أن تكون البيانيّةَ: توضّحُ مَن همُ الشّفعاء الذين اتّخذوهم، أي: أنّهم اتّخذوا من بين المخلوقات شفعاءَ، فـ﴿مِن﴾ هنا تبيّن المأخوذَ من دون اللّه.

مَن تولّى غيرَ اللّه كُتِبتْ عليه الوضاعةُ والدّونيّةُ

نكتةُ التّعبيرِ بالدّونيّة:

التّعبيرُ بقوله: ﴿مِن دُونِ﴾؛ للدّلالة على دُنوّ المكانة لأوليائِهم، وتفاوُتِ الحال بينهم وبين اللّه، وهو يُشعِرُ بنفي التّساوي بين معبوداتِهم الباطلة وبين اللّه سبحانه، فـ﴿دُونِ﴾ - هنا - اسمٌ بمعنى (غير) يدلّ على أدنى مكانٍ منَ الشّيء، وتفيدُ التّقصيرَ

العزّةُ لله جميعًا، فلا ينالُها إلّا أهلُ الإخلاص

عنِ الغاية المكانيّةِ الحسيّة والمعنويّة[1]، فأُتيَ به - هنا - للدّلالة على نزولِ ما عَبَدوه في الرُّتبةِ والمقامِ عن مقام العليّ الكبير، وأمّا (غير) فهي غيرُ مناسبةٍ لسياق الآية؛ لإبهام مفهومِها المرادِ منها، فهي لا تتعرّف بالإضافة، والمفهومُ المُرادُ في الآية مُتعيِّنٌ غيرُ مُبهم، وهي المعبوداتُ الباطلة، أو شفعاءُ مُحدَّدون، بخلاف قوله: ﴿هَلۡ مِنۡ خَٰلِقٍ غَيۡرُ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: 3]، وقوله: ﴿أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ [الأنعام: 14]، ولم يَقُلۡ: (من دون)، لأنّ المُراد بحُكم الغيريّة - في آيتَي الأنعام وفاطر - مُطلقُ ما سوى اللّه تعالى، فهو غيرُ مُتعيّن؛ فيشملُ أيَّ وليٍّ مهما كان، وأيَّ خالقٍ سواه سبحانه على جهة الافتراضِ والتّحدّي[2].

فائدةُ تقديمِ شبه الجملة: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾:

قدّم شبهُ الجملة ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، ولم يَقُلۡ: (اتّخذوا شفعاءَ من دون اللّه)؛ لتحريم أصلِ الاتّخاذ من دون اللّه، فلا ينبغي أن يقع اتّخاذٌ دونه في أيِّ شيءٍ، في الشّفعاء أو في غيرهم.

نكتةُ عدمِ إسقاطِ الجارّ:

كلُّ الرُّتَبِ بعد اللهِ وفي غير سبيله دوْن!

لم يَقُلۡ في السّياق الكريم: (اتّخذوا دون اللّه) بإسقاط الجارّ ﴿مِن﴾؛ لتقليل عددِ الرُّتَب تحت رُتبتِه ﷻ، فرُتَبُ الموجودات تحت رُتبتِه لا تُحصى ولا تكادُ تنحصر، وفي هذه الرُّتب ما لا يصلحُ شفيعًا؛ لحقارته وعدمِ اعتقادهم فيه، وإنّما المقصودُ تلك الرُّتَبُ التي توهَّموا لها استحقاقًا في الشّفاعة والعبوديّة، وليس المقصودُ إدخالَ كلِّ شيءٍ سوى اللّه سبحانه، فأدخل الجارَّ ﴿مِن﴾؛ ليدلّ على ما يصلحُ من تلك الرّتَب للاتّخاذ المذكور بحسب اعتقادِهم، وأمّا ما تحت ذلك، فهو ممّا لا يُؤبَه له؛ لحقارتِه[3].

(1) الشمسان، أحكام (دون) ودلالاتها السياقيّة، مجلة الحركة، العدد الثاني: 18/ 223.
(2) الراغب، المُفردات: (دون)، وابن عضيمة، دراسات لأسلوب القرآن: 2/ 205، و 9/ 674.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 14/ 441.

توجيهُ حذفِ المُضاف:

لا يشفعُ الله تعالى إلّا لِمَن أذِن له ممّن أرضاه

ويصحُّ أن يجري الكلامُ على حذف مضافٍ، في قوله: ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾، والتّقديرُ: (من دون إذْنِ اللّه أو رضاه؛ لأنّه سبحانه لا يشفعُ عنده إلّا مَن أذِن له اللّه ممّن أرضاه، ومثلُ هذه الجمادات الخسيسةِ ليست مرضيّةً ولا مأذونًا لها)[1]. و﴿دُونِ﴾ على حذف المُضافِ أفادت معنى (غير)، لا بمعنى (دون) الرُّتبة.

دلالةُ تنكير: ﴿شُفَعَآءَۚ﴾:

من وجوه كمالِ الخالق سبحانه انفرادُه بالنّفع والضّرّ

تنكيرُ ﴿شُفَعَآءَۚ﴾ في قوله: ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾، للتّعميم في الأنواع، فالشّفعاءُ ليسوا نوعًا واحدًا، أي: شفعاءُ في العبادة، أو في الاستعانة، أو في التّعلّق، فالتّعميم يدخلُ فيه الشّرك الأكبر دخولًا أوليًّا، ويلتحِقُ به الشّركُ الخفيُّ في التّعلّق والرّياء والتّعويلِ على النّاس في حصول الخير ودفْع الشّرّ، والانشغالِ بهم حتّى تَتَحَجّب النّفْسُ عن مُلاحظةِ كمالِ الخالق سبحانه في انفراده بالنّفع والضّرّ.

نكتةُ تنكير﴿شُفَعَآءَۚ﴾، وجمعِها:

لا قيمةَ للمعبود من دون الله تعالى طمعًا في شفاعتِه

جاءت كلمةُ ﴿شُفَعَآءَۚ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾ بصيغة الجمعِ المنكّر (غيرِ المعرّف)، والتّنكيرُ - هنا - يفيدُ التّقليل والتّحقير[2]. أي: إنّ هؤلاء الذين اتّخذوهم شفعاءَ ليسوا ذوي شأنٍ أو قدرٍ حقيقيٍّ، بل هم مُجرّدُ أوهامٍ لا تملك شفاعةً نافعةً، ولا قيمةً تُعتَبَرُ.

كلُّ شفيعٍ يُعبدُ من دون الله زائفٌ

والتّنكيرُ يفتحُ البابَ لتأمّلِ المعنى على إطلاقه؛ فكلُّ مَن يُتّخذُ شفيعًا دون اللّه، سواء كان صنمًا، أو بشرًا، أو مخلوقًا آخرَ، يدخلُ تحت هذا الوصف، ممّا يبيّنُ شموليّةَ الخطاب، وزيفَ كلِّ شفيعٍ يُعبدُ من دون اللّه.

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 264.
(2) السامرائي، معاني النحو: 1/ 40.

من زيغهم ظنُّهم أنّ تكثيرَ الشّفعاء يضمنُ الشّفاعةَ

فضلًا عن أنّ جمعَ الكلمة يُبرزُ المفارقةَ؛ فاللّه سبحانه واحدٌ أحدٌ، في حين أنّ هؤلاء الشّفعاء المزعومين كُثُرٌ، ومع ذلك لا يملكون - مجتمعين - أيَّ نفعٍ أو قدرةٍ على الشّفاعة إلّا بإذن اللّه. وعليه: فالتّنكيرُ مع الجمع أفاد: كثرةَ الأنواع، مع قلّتها وحقارتها المعنويّة، مع إفادة الإطلاقِ والتّعميم. مع ما في الجمع منَ الإشارة إلى تعزّزِهم بكثرة الشّفعاء، فليس شفيعًا واحدًا، فالكثرةُ تضمنُ حصولَ الشّفاعة التي اعتقدوها، وتُشْعِرُهم بالعِزّة التي ابتغَوها، كما قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمۡ عِزّٗا ٨١﴾ [مريم: 81].

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿قُلۡ﴾:

اتّخاذُ مَن لا يملكُ ولا يعقلُ شفيعًا أمارةُ انحطاطِ الفهم

جملةُ: ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ بعد الإضرابِ والاستفهام الإنكاريِّ المشمولِ فيه في قوله: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَۚ﴾، فكأنّ سائلًا سأل: (فما الجواب اللّائق عن حالهم تلك؟)، فأجيب: حريٌّ بهم أن يقال لهم: ﴿أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾. وهو جوابٌ تقريريٌّ بحال شفعائِهم، وهو تعليلٌ ضِمْنيٌّ لطرح الإضرابِ والاستفهام الإنكاريِّ قبله. يتضمّنُ الاعراضَ عنهم والإشارةَ إلى سفولهم عنِ الفهم[1].

دلالةُ التّعبير بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾:

فعلُ القول يُعزّزُ لهجةَ التّحدّي والاستنكار لمعتقَدات أهلِ البوار

التّعبيرُ بفعل الأمر ﴿قُلۡ﴾ في قوله: ﴿قُلۡ أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾، ليس الغرضُ منه - فقط - توجيهَ الخطابِ للرّسول بإبلاغِهم وإفحامِهم؛ بل يُستفادُ منه كذلك إظهارُ الحجّة وتثبيتُ الحقّ عن طريق استحضارِ الجهةِ العليا التي هي مصدرُ الرّسول في التّلقّي ومرجعُه في البيان. فاستخدامُ فعلِ الأمر ﴿قُلۡ﴾ يجعل الخطابَ مباشرًا ومجاهرًا به وقاطعًا، فضلًا عن كونه مُبْرِزًا لأهميّةِ ما سيُقال. وفيه إشارةٌ إلى توظيف النّبيّ ﷺ توظيفًا مباشرًا

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 521.

فاعِلًا بذاتِه وشخصِه إلى الحوار الجدليّ البنّاءِ المواجِهِ مع قومِه، ففيه تجليةٌ لِتفاعل النّبيِّ ﷺ بنفسِه والتحامِه المباشر مع قومه بما يدلّ على نبوّته ورسالتِه، فـ﴿قُلۡ﴾ تدلّ على أنّه يوحَى إليه من جهةٍ أعلى، لا تصرّفٌ له فيما تُمليه عليه، ولا تقوّلُ له خارجَ البيان والحدِّ الذي ألزمتْه به، بما يثبِتُ حياديّتَه وموضوعيّتَه وسلامةَ أغراضه منَ الهوى والانحياز، وهذا يُعزّزُ فسادَ معتقدِهم، وأحقيّةَ دعوتِه إلى التّوحيد الخالص والعبوديّةِ المستحقّةِ للّه وحده لا شريك له.

معنى الهمزةِ في: ﴿أَوَلَوۡ كَانُواْ﴾:

العاجزُ عن قابليّة الملكِ، والعقلِ لا يملك شفاعةً

الهمزةُ في قوله: ﴿أَوَلَوۡ كَانُواْ﴾ لإنكار الواقع واستقباحِه، والتّوبيخ عليه؛ أي: قل أتتّخذونهم شفعاءَ، ولو كانوا لا يملكون شيئًا منَ الأشياء، ولا يعقلونه فضلًا عن أن يملكوا الشّفاعةَ عند اللّه تعالى. أوِ الهمزةُ لإنكار الوقوع ونفيِه على أنّ المُراد بيانُ أنّ ما فعلوا من عبادة الأوثان ليس منِ اتّخاذ الشّفعاء في شيء؛ لعدم إمكانٍ وقابليّةِ تلك الأوثان للشّفاعة أصلًا، لثبوت عجزِها التّامّ عن قابليّة المِلْك، فلا إرادةَ لها، وقابليّةِ العقل، فلا تمييزَ لها، فكيف بالشّفاعة عند اللّه! وعليه؛ فالتّقديرُ: أتتوهّمون صلاحيّتَهم للشّفاعة، ولو كانوا لا يملكون شيئًا منَ الأشياء[1].

إقرارُ الواقع إنكارٌ له وتوبيخٌ عليه

ويصحُّ أن تفيد الهمزةُ التّقريرَ؛ لدخول همزةِ الاستفهام على واو العطف في: ﴿أَوَلَوۡ﴾، وألفُ الاستفهام إذا دخلتْ على واو العطف أو فائه أحدثت معنى التّقرير[2]. كأنّه قيل: (أتستشفِعون بهم ولو كانوا لا يملكون شيئًا)، فالتّقرير معناه إقرارُ الواقع، وهو يشتملُ على إنكار ذلك الواقع والتّوبيخ عليه كما في الوجه السّابق، فالغرضُ منَ التّقرير التّسجيلُ عليهم بالإنكار.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 257.

(2) ابن عطية، المُحرَّر الوجيز: 4/ 534.

عادةُ الكافر التّورّطُ بين المتناقضات، وهنا لا شفاعةَ لعاجز

معنَى الواو في: ﴿أَوَلَوْ﴾:

الواوُ بعد همزةِ الاستفهام في قوله: ﴿أَوَلَوْ﴾ عاطفةٌ مدخولَها على محذوفٍ مناسبٍ للسّياق بعد همزة الاستفهام، وقد سبق تقديرُه على معنى: (أتتخذونهم شفعاءَ ولو كانوا..). ويصحُّ أن يجريَ المعنى على غير حذفٍ، أي: الواو عاطفةٌ ما بعدَها على ما قبْلَها من غير تقديرِ محذوفٍ[1]. والمعنى: أنّ اتّخاذ هؤلاء لأصنامهم شفعاءَ مقترِنٌ بما يناقضُه منَ العجز التّامّ لتلك الأصنام عنِ التّملّك والتّعقّل، فجمعوا بذلك بين الشّيء ونقيضِه، وهذه عادةُ الكافر أنّه متورِّطٌ في التّناقض.

إظهارُ التّناقض في اتّخاذ العاجز شفيعًا أدعى إلى التّبكيت والتّحسير بالإشهاد على العبَثِ وقتَ التّلبّس بالفعل.

ويصحُّ أن تكون الواو حاليّةً[2]، على تقدير: أتتّخذونهم شفعاءَ حالَ كونِهم لا يملكون شيئًا ولا يعقلون. وفائدةُ الواو الحالية: إفادةُ أنَّ عدمَ مِلْكِهم شيئًا وعدمَ عقْلِهم ثابتٌ ومُتحقّقٌ قبل اتّخاذِهم شفعاءَ من قِبَلِ المشركين، فهذه الأوثانُ لا تملكُ شيئًا ولا تعقلُ شيئًا، سواء اتّخذتموها شفعاءَ أو لم تتّخذوها. وأيضًا: إفادةُ أنّ نفيَ المِلْك والعقل عنها مُزامِنٌ لوقت اتّخاذِهم لها شفعاءَ، كأنّه قيل: اتّخذوهم شفعاءَ في الوقت الذي لا تملِك فيها شيئًا لكم ولا تعقلُ عنكم شيئًا من أغراضكم فيها، وهذا أدعى إلى تبكيتِهم وتحسيرِهم بإشهادهم على عبَثِهم وقتَ تلبُّسهم به ومعالجتِهم لهم وعنائِهم في سبيله[3]، ولذلك كانتِ الواو الحاليةُ أبلغَ في الدّلالة منَ الواو العاطفةِ، فالعاطفةُ تفيدُ مُجرّدَ الرّبط، بجمْعِ وضمِّ المتعاطفَين أحدهما إلى الآخر، أمّا واوُ الحال فهي تُضيف إلى الجملة معنىً زائدًا وهو بيانُ

(1) ابن عُثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 312.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 264.
(3) السامرائي، معاني النحو: 2/ 297، 306.

هيئة الفاعل أوِ المفعول في زمن وقوعِ الفعل، فهذا البُعدُ البيانيُّ للكيفيّة والهيئةِ وتوصيفِ الحالة أثناءَ حدوث الفعل، يعمِّقُ وضوحَ الصّورة في عقل المُتلقّي أكثرَ وأدقَّ. وبهذا فهي أقوى في الإبلاغ عنِ التّفاصيل، وفائدتُها هنا: استنكارُ استمرار اتّخاذهم شفعاءَ لِمَنْ حالُه فقدانُ الأهليّة التّامّة للإرادة والتّمييز، فهو استنكارٌ ناشئ عن مدلول الواو الحاليّةِ في بيان الهيئةِ والحالِ التي تتنافر مع أفعالهم، وعلى الرّغم من ذلك يفعلون ما الحالُ ألْزَمُ إلى تركِه، وأدعى إلى التّبرّؤِ منه.

معنى: (لو) في: ﴿أَوَلَوْ﴾:

انـتـفـاءُ المـلـك والـعـقـل عـنِ الأصـنـام ثـابـتٌ ومُـتـحـقّـقٌ، وليس مُمتنعًا

(لو) في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانُواْ﴾ شرطيّةٌ غيرُ امتناعيّة[1]؛ لأنّه لا يصحُّ أن يُقال: امتنع اتّخاذُهم لامتناع عدم الملكيّة والعقل؛ لأنّ عدمَ الملكيّة والعقل لأصنامهم - ثابتٌ وليس مُمْتَنِعًا. واتّخاذُهم شفعاءَ (وهو الجواب المحذوف) حاصلٌ منَ العابدين كذلك وليس ممتنعًا، فثبتَت الشّرطيّةُ على بابها من غير امتناعٍ، بلِ الجوابُ هنا مُمْتَنِعٌ في الوقوع، ومنكورٌ في الواقع مُستبْعَدٌ؛ لثبوت الشّرط وتحقّقِه، فكأنّه قال: (يمتنع كونُهم شفعاءَ لكم وقوعًا، ويَقبحُ اعتقادُكم ذلك فيهم واقعًا؛ لثبوت أنّهم لا يملكون شيئًا ولا يعقلون)، وفي ذلك منّ التّقبيح لهم والنّعيِ على عقولهم ما فيه.

نكتةُ التّعبير بـ(لو)، دون (إنْ):

(لـو) تـعـبّـرُ عن أقـصى درجـاتِ الاستـبـعـاد، في حين تـتـرك (إن) احتمالًا

لم يُقَلْ في السّياق الكريم: (إنْ كانوا لا يملكون شيئًا)؛ للدّلالة على تحقيق الاستهجان والنّكارةِ المفهومةِ منَ الشّرط والجزاء؛ فالاشتراط بـ(لو) هو أقصى وأبعدُ ما يمكنُ اشتراطُه؛ لترتيب الجوابِ عليه، وأمّا الاشتراطُ بـ(إن) فمحتملٌ مشكوكٌ فيه غالبًا، فحين يقول سبحانه: ﴿أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ فإنّه

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 89.

يخبرُ بذلك أنّ مضمون الشّرط، وهو انتفاءُ الملكيّة والعقل بالكليّة عن أصنامهم هو أبعثُ شيءٍ وأقصاه في حُجَجِ العقول وأكفُّ سببٍ لأيّ عاقلٍ في أنْ يمتنع عنِ اتّخاذِ مَنْ صِفَتُهُ كذلك شفيعًا، فيكونُ بهذا الاشتراط قدِ استوفى غايةَ الحُجج وأبعدَها وأقصاها، بما يحملُهم عنِ التّراجع عنِ اعتقادهم، ومع ذلك يتّخذونهم شفعاءَ، فالمجيءُ بـ(لو) دون غيرها، فيه استعظامٌ للشّرط وإبلاغٌ عن بُعدِه وعراقته واستقصائِه في تثبيت الحُجّة وتقريرِ البرهان عليهم[1].

نكتةُ حذفِ جواب (لو):

في الإخبار عن كون معبوداتهم لا تملكُ شيئًا ولا تعقلُ استغناءٌ عنِ التّعريض بهم

حُذف جوابُ (لو) في قوله: ﴿أَوَلَوۡ كَانُواْ لَا يَمۡلِكُونَ﴾؛ للإيجاز وعدمِ التّكرار؛ لانفهامِه منَ السّياق، والتّقديرُ: (يتّخذونهم شفعاءَ برغم ذلك)، ويصلحُ أن يكون حذفُ الجواب لغرضِ انفعالِ السّامع بتقديره الجوابَ من تلقاء نفسه، مع ما في ذلك منَ التّخفيف عليه وعدمِ الإثقال. وفي الحذف طيٌّ لموضعِ التّعريض بهم، استغناءً عنه بالتّعرّض لمعبوداتهم، فإنّ الإخبار عن كونها لا تملكُ شيئًا ولا تعقلُ، هو استغناءٌ بالفعلِ عن ردّ الفِعل، لانهدام الثّاني واستيحاشِه، بمجرّد تقرّرِ الأوّل وتوصيفِه[2].

بلاغةُ الكنايةِ في نفي المِلك والعقل خاصّةً:

انعدامُ التّمييز والإدراك فقرٌ مُطلقٌ يستوجبُ انعدامَ الصّلاحيّة للشّفاعة

نفَى القرآن المِلكَ والعقلَ خاصّةً في قوله تعالى: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾؛ لأنّ عدمَ الملكيّة كنايةٌ عنِ الفقر التّامّ، وعدمُ العقل كنايةٌ عنِ انعدام الإدراك وانعدام التّمييز، فيلزمُ عنِ الأوّل: عجزُها عنِ النّفع والضّرر، ويلزمُ عنِ الثّاني: الانحجابُ التّام بينها وبين عابديها، فلا تسمعُهم إذا دَعوا، ولا تنفعلُ لهم إذا احتاجوا إليها، فضلًا عن أن تُلبّيَ أو تستجيبَ! وإذا كانت كذلك، فهي غيرُ

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 90، 91.

(2) الخطيب، التفصيل: 25/ 24.

صالحةٍ للشّفاعة أصلًا؛ إذ كيف يستشفِعون بمَنْ وصفُه العجزُ والفقرُ والانحجابُ وعدمُ الانفعال، فالتّركيبُ مُتضمّنٌ كذلك للتّعريض بهم والنّعي عليهم بالحماقة والسّفه؛ لأنّه لا يعبأ بمَنْ وصفُه كذلك إلّا الأحمقُ الذي لا مُخّ له.

نكتةُ تقديمِ نفي الملك على نفي العقل عنهم:

الملكُ أساسُ الشّفاعة

تقديمُ نفي الملك على نفي العقل في قوله: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾ لتوقّف الاستجداءِ في الشّفاعة على منفعةِ المِلك، وهو الجاهُ، فامتلاكُ الشّافع للجاه محفِّزٌ لتحصيل الشّفاعة وقبولِها، بخلافِ العقل، فلا تتوقّفُ الشّفاعة عليه، فقد يُستَشفَعُ بمن يملِك؛ لِوسْعه في المِلك، وإن كان غيرَ ذي وُسْعٍ في العقل، كالصّغير الذي لا يدركُ، لكنّه لثروته يُستشفَع باسمِه، وكالأحمق الذي لا يعقلُ، لكنّه لأجْل أملاكه يُستجدَى بما مَلَك، فلِمَكانِ المِلْك ومُكْنَتِه ونفاذِه في الشّفاعة قدّمَه.

دلالةُ تنكيرِ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في سياق النّفي:

العمومُ الذي أفاده التّنكير ينفي أيَّ صلاحيّة للشّفاعة أوِ العبادة

تنكيرُ لفظِ ﴿شَيۡـٔٗا﴾ في: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾، أفاد عمومَ كلّ ما يُمْلَك، فيدخلُ في عمومه جميعُ أنواع الشّفاعة، ولذلك عدلَ منَ الخصوص إلى العموم، فلم يقل: (لا يملكون الشّفاعة)، بلِ استغرق في نفي الملكيّةِ عنهم بالكليّة؛ ليتحقّق عدمُ صلاحيّتهم للشّفاعة فضلًا عن صلاحيّتهم للعبادة من كلّ وجه[1]؛ ليدلّ على أنّ هذه الأصنامَ لا تفيدُ شيئًا أبدًا، لا تشفعُ ولا تدفعُ، وهي قد سُلبتِ الشّفاعةَ لدخولها في العموم، يعني: لا يملكون الشّفاعةِ ولا غيرها[2].

دلالةُ التّعبير بالمضارع:

عبّر بالمضارع في: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَعۡقِلُونَ﴾؛ لينفي طروءَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 27.

(2) ابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 311.

ذلك عليهم في أي وقت، فالمضارعة؛ لاستمرار نفي ذلك عنهم، كأنّه قيل: (لا يملكون شيئًا، لا الآن، ولا بعدَ ذلك)[1].

موقعُ جملةِ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾:

تأكيدُ استحقاق الشّفاعة لله وحده

قولُه تعالى: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾ في موقع الاستئناف البيانيِّ بعد استهجانِ طلب الشّفاعة ممّا لا يستأهلُها؛ لعجزه التّامّ. فكأنّ سائلًا سأل: (فلِمَنْ ومِمَّنْ تكون الشّفاعة إذن؟) فأجيب: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾، أي: إذْنًا لِمَن يشفعُ، وإجازةً إذا شفَع. ويصحُّ أنْ تكون استئنافيّةً[2]؛ لتقرير استحقاقِ الشّفاعة للّه وحده - استقلالًا عمّا قبلها، وإجراءُ الجملة على الاستئناف المستقلّ أمْكَنُ في تجريد ساحة الرّبّ سبحانه عنِ المُقارنةِ مع أدنياء خلْقِه. فإنّ صفاتِ اللّه واستحقاقاتِه منَ الشّفاعة وغيرها مُقرَّرَةٌ له سبحانه، وإنْ آمن مَنْ آمن، أو كفر مَنْ كفر، فلا تحتاجُ تلك الجملةُ في تقريرها إلى البناء على ما قبلها كما في وجْه الاستئناف البيانيِّ.

معنى اللّام في قوله: ﴿لِّلَّهِ﴾:

الشّفاعة ملكٌ خاصٌّ لله وحده، لا ينازعُه أحدٌ فيها

اللّام في قوله: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ لامُ الاختصاص والمِلك والاستحقاق[3]. أي: للّه الشّفاعةُ اختصاصًا به، ومِلْكًا مُسْتحقًّا له، فهو وحده الذي يملِك منحَها لِمَنْ شاء ورضي، فلا يشفع أحدٌ إليه إلّا بإذنه، وفي هذا ردٌّ على الكفار في قولهم: إنّ الأصنام تشفعُ لهم[4].

دلالةُ تقديم شِبهِ الجملة في: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾:

تقديمُ الخبر المجرور على المبتدأ في قوله: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾؛ لإفادة الحصر، أي: للّه وحده الشّفاعةُ، ليس لسواه فيها مِنْ شيء، ولا لغيره فيها صلاحيةٌ وولايةٌ[5].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 521.
(2) الخطيب، التفصيل: 24/ 26.
(3) القونوي، حاشية القونوي: 16/ 540.
(4) ابن جزي، التسهيل: 2/ 222.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 28.

موقعُ قوله: ﴿جَمِيعًاۖ﴾ وأثرُه في البيان:

قولُه: ﴿جَمِيعًاۖ﴾ حالٌ من قوله: ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ مفيدةٌ للاستغراق، أي لا يشذّ جزئيٌّ من جزئيّات حقيقةِ الشّفاعةِ عن كونه ملكًا للّه، وقد تأكّد بلازمِ هذه الحال ما دلّ عليه الحصرُ المستفادُ من تقديم الخبر مِن انتفاء أن يكون شيءٌ منَ الشّفاعة لغير اللّه[1].

كـلُّ أنـواعِ الـشّـفـاعـة وأصنافِها ملك لله وحده

نكتةُ توكيدِ المُفردِ بالمؤكّد الجمعيّ:

قولُه: ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًاۖ﴾، معناه: الشّفاعةُ كلُّها مجتمِعةٌ للّه وحده، وأكّد المفردَ ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾ بـ﴿جَمِيعًاۖ﴾ وهو لتأكيد الجمع؛ لأنّ الشّفاعة مصدرٌ، فيصدقُ على الواحد والاثنين والجماعة[2]. ولم يَقُلْ: (الشّفاعة كلّها)؛ لأنّ استغراقَ (كلّ) مُستفادٌ من (ال) في: ﴿ٱلشَّفَٰعَةُ﴾، فأفاد التّأكيدُ بـ﴿جَمِيعًاۖ﴾ معنىً أوسعَ، وهو العمومُ الإحاطيُّ على سبيل الاجتماع، فيؤولُ معنى التّركيب: (كلّ الشّفاعةِ مجتمِعةٌ للّه)، فوقع العمومُ المُستفادُ على سبيل الانفراد؛ لقيام (ال) مقام (كلّ)، وعلى سبيل الاجتماع؛ لدلالة ﴿جَمِيعًاۖ﴾، فكلّ فردٍ من أفراد الشّفاعة للّه، والشّفاعةُ كلُّها مجتمعةٌ للّه. وهذا منَ التّجريد العقيديّ الخالص[3].

الإفرادُ في المصدر يُظهرُ عموميّة المعنى

موقعُ جملة: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾:

جملةُ: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ استئنافٌ بيانيٌّ، جوابًا عن سؤالٍ ذهنيٍّ تقديرُه: (لِمَ كانت له الشّفاعةُ جميعا)، فأجيب بما يتضمّن تعليلَ انفراده سبحانه بالشّفاعة، وهو قولُه: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ كأنّه قيل: (ذلك؛ لإنّ اللّه له ملك السماوات والأرض). فالجملة تعليليّةٌ كذلك[4].

تعليلُ استحقاقِ الـشّـفـاعـة بـالـنـسـبـة لله وحده

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 28.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 467.

(3) السامرائي، معاني النحو: 1/ 115، 4/ 145.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 265، وصافي، الجدول: 12/ 191.

نكتةُ التّعليل بالملك في: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ﴾:

إثباتُ الملك لله، ونفيُه عمّا سواه أبرزَ عظمةَ الألوهيّة

التّعليل بالملك في قوله: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾ فيه طباقٌ بالسّلب مع قوله: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾، فنفى الملكَ عن معبوداتِهم، ثمّ أثبتَه لنفسه، وأضاف ملكَه إلى السّماوات والأرض؛ ولم يثبتْه على غرار نفيِ الملك، بأن يُقال: (له ملك كلّ شيء)، كما قال: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ شَيۡـٔٗا﴾؛ لأنّ النّفي فيه إزاحةٌ وتجريدٌ كلّيٌّ، فيقع عموميًّا في التّصوّر أنّه لا مُلك لهم البتّة بوجهٍ. ولكنّه في طرَف الإيجاب حيث يثبتُ الملك للّه سبحانه، فإنّه أراد إثباتَه على وجهٍ منَ التّصوّر عظيمٍ؛ لإظهار التّفاوت المُبين بين مَن يملكُ ومَن لا يملكُ، ثمّ إضفاءِ العظمةِ على موضوعِ المُلْكِ الذي يجعله عنوانًا ودليلًا على امتلاك ما سواه، ولذلك قال: ﴿مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، فمُلكُ السّماوات والأرض لا عِدل له، ومَن يملكُهما فقد مَلَكَ العالَمَ؛ لأنّه لا يتحقّق ملكُهما إلّا بامتلاك ما سواهما، فحيازةُ الشّيء الأعظم، تستلزمُ حيازةَ ما دونَه، فإذا كان قد ملَكَ السّماواتِ والأرض، فقد مَلَك وقهَر معبوداتهم التي لا تملك شيئًا، وقد ملكَهم أنفسَهَم وقهرهم، وإذا كان ذلك كذلك، فقد وجب انقيادُهم له؛ لانقيادِ ما أكبرُ منهم ومن معبوداتهم في الخلْق والأمر، وهو السّماوات والأرض! فكان في إضافة الملك إلى السّماوات والأرض تعيينٌ ونصٌّ على عظمةِ المُلكِ بمِثالٍ يُقاسُ عليه، ليتحرّر به الاستدلالُ، ويتقوّمَ به البرهانُ.

مُلك السّماوات والأرض مختصٌّ بالله تعالى ولا يدّعيه أحدٌ مطلقًا

وخصَّ السّماواتِ والأرضَ، دون غيرهما؛ لأنّه لا أحدَ ينازعُ في امتلاكهما دون اللّه، فقد يدّعي أحدٌ ملكَ البلاد والمدائن، ولا يدّعي أحدٌ أبدًا ملكَ السّماوات والأرض. فملك السّماوات والأرض كنايةٌ عن مُلْك العالَم، وهو كلُّ ما سوى اللّه سبحانه[1].

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 265.

معنى اللّام في ﴿لَّهُۥ﴾:

اللّام في: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، كاللّام في: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ﴾، للاستحقاق والمِلْك والاختصاص[1]. وتقديمُها أفاد الحصْرَ، أي: له وحده مُلْكُ ذلك لا شريكَ له.

علّةُ وصلِ جملةِ: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾:

جملةُ: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ عطفٌ على جملة: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾، كأنّه جمعٌ بين ملك الحياة الدّنيا وملكِ الآخرة. ويصحُّ أن يكون معطوفًا على: ﴿لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾؛ ليجمع بين إثبات الشّفاعةِ له سبحانه في الأولى والآخرة[2].

الجمعُ بين ملك الله في الدّنيا والآخرة يوضّحُ العلاقةَ بين الشّفاعة والمرجع

بلاغةُ الكنايةِ في جملة الفاصلة:

قولُه: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ كنايةٌ عن مالكيّة الآخرةِ التي فيها معظمُ نفعِ الشّفاعة، وإيماءٌ إلى انقطاعِ الملك الصّوريّ عمّا سواه ﷻ. وإشارةٌ إلى إثبات البعث، وإلى أنّه لا يشفع أحدٌ عند اللّه بعد الحشر إلّا بإذنه سبحانه. وتهديدٌ لهم بعدم الإفلات منَ الجزاء على اتّخاذهم الشّفعاءَ من دون اللّه، كأنّه قيل: ثمّ إليه تُرجعون فتعلمون أنّهم لا يشفعون لكم ويخيبُ سعيُكم في عبادتهم[3].

التّهديدُ بالتّبعات الأخرويّةِ في سياق إثباتِ البعث، وانقطاعِ الملك عن غيرِ الله

معنى: ﴿ثُمَّ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في قوله: ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ للتّراخي الرُّتبي بعد قوله: ﴿لَّهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ﴾؛ لأنّ مضمون: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ أنّ للّه ملكَ الآخرة كما كان له ملكُ الدنيا، وملكُ الآخرة أعظمُ في المنزلة وأوسعُ وأبقى[4]. ويصحُّ أن تكون ﴿ثُمَّ﴾ للتّراخي الزّمني؛ لتأخّرِ اليوم الآخر الذي فيه المرجعُ[5].

الرّجوعُ إلى الله أعظمُ موازنةً بملك السّماوات والأرض

(1) القونوي، حاشية القونوي: 16/ 540.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 265.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 265، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 28.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 28.
(5) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 28.

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة: ﴿إِلَيۡهِ﴾:

تقديمُ شبهِ الجملة في قوله: ﴿إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾؛ للاعتناء والحصر، ورعايةِ الفاصلة، أي: إليه وحده الرّجوعُ، لا إلى غيره[1].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 522.

﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ٤٥﴾ [الزمر: 45]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تنكّرُ المشركين لسبيلِ الفطرةِ والتّوحيد ورَّطَهم في التّناقض

لمّا قرّر في الآية السّابقة مقتضياتِ التّوحيد الخالص منِ انفراده سبحانه بالملك والشّفاعةِ والمرجع، ذكر هنا تنكّرَ المشركين لمقتضيات التّوحيدِ والعبوديّةِ الخالصة، وأخبرَ عن مظهرٍ من مظاهر شِركِهم وتناقضِهم وجهلهم وحماقتِهم، وعلى هذا فهي اظهارٌ لنوع آخرَ منَ الأعمال القبيحة للمشركين، وهو أنّك إذا ذكرتَ اللّٰه وحده بانت آثارُ النُّفرة من وجوههم وقلوبهم، وإذا ذكرتَ الأصنامَ والأوثان بانت آثارُ الفرح والبشارة في قلوبهم وصدورهم[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾: اشمأزّ اشمئزازًا: انقبضَ واجتمع بعضُه إلى بعض. والشّمْزُ: نفورُ النّفْس منَ الشّيء تكرهُه. وقوله: ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ معناه: نَفَرَتْ[2]. وهذا النّفورُ هو الذي يورث انقباضًا وانجماعًا في النّفْس فتعافُ الشّيءَ وتتجافى عنه كراهةً له. وفي الاشمئزار: كراهةٌ باندفاعٍ وفرَق، ولذلك فسّروا المشمئزَّ بالمذعور[3] الذي يتباعد ممّا يخاف منه، وهو منَ التّعريف بالتّشبيه، كأنّ المُشمئزّ شبيهٌ بالمذعور في نفوره وتباعدِه واندفاعِه في جفائه.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ليس في قلوبِ المشركين مُتّسَعٌ للتّوحيد الخالصِ!

تكشفُ الآيةُ الكريمة عن جنايةٍ من جنايات المشركين على

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 457.
(2) ابن منظور، لسان العرب: (شمز).
(3) الجوهري، الصحاح، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شمز).

التّوحيد والإيمان، وتدلُّ على غفلة عظيمة وتناقضٍ بين الاعتراف بالألوهية، باتّخاذِهم شفعاءَ، والإنكارِ لها، بالاستيحاش من ذكر اللّه وحده، فقال: إنّه إذا قيل لا إله إلا اللّه وذُكِر اللّهُ وحده نفرتْ وضاقتْ قلوبُ أولئك المشركين الذين لا يؤمنون بالبعث والمَعاد بعد الموت، وإذا ذُكرتِ الآلهةُ التي يدعونها من دون اللّه استبشروا وفرحوا لفرطِ افتتانهم بهم ونسيانِهم حقَّ اللّه تعالى[1].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستئناف في الآية:

جهلُ المشركين وإصرارُهم على الإعراض يُعدِّدُ أحوالَهم القبيحة

جملةُ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾ جملةٌ شرطيّةٌ منَ الفعل والجواب - استئنافيّةٌ[2]؛ لشروعها في معنًى جديدٍ، وحالةٍ أخرى من أحوال المشركين الذين اتّخذوا من دون اللّه شفعاءَ، وهو كيفيّةُ انفعالهم تجاه ذِكْرِ اسم اللّه وحده، فيأنسون للشّرك، ويستوحِشون منَ الوَحدانيّة، واستعمالُ الواو لربط حالَيْن متقابلَين في الموقف.

فائدةُ التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

التّشبثُ بالشّرك طبعٌ مُتأصِّلٌ في قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة

التّعبيرُ بالجملة الشّرطيّة في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾؛ لتصوير حالةٍ نفسيّةٍ محدَّدةٍ ومُستمِرَّة، فاستعمالُ الجملة الشّرطيّة يكشِفُ أنّ هذا الشّعور بالاشمئزاز لا يحدثُ عرَضًا؛ بل هو استجابةٌ مُتكرِّرةٌ ومُتوقَّعةٌ عند تحقُّقِ الشّرط: ﴿ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾، فتعليقُ الجواب على الشّرط يُظْهِرُ طبيعةً متأصِّلةً في قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة. وفيه أيضًا: ربطُ السّبب بالنّتيجة[3]، فالجملة الشّرطيّة تُظهر العلاقةَ السّببيّةَ بين ذِكر اللّه وحده (الشّرط) واشمئزازِ قلوب الكافرين (الجواب).

---

(1) المراغي، تفسير المراغي: 24/ 15.
(2) الخطيب، التفصيل: 29/ 24.
(3) السامرائي، معاني النحو: 4/ 53.

هذا الرّبطُ يوضّحُ عمقَ كراهية هؤلاء للتّوحيد؛ لأنّهم مُتشبّثون بشِركهم ومصالحِهم المرتبطة به. وفي التّعبير بها أيضًا: التّوكيدُ على استحقاقهم للذّمّ، فالشّرطيّة تجعل الحالةَ وكأنّها قاعدةٌ مُطّرِدةٌ لا تتغيّر، ممّا يزيد من ذمّ هؤلاء، ويُبرزُ استحقاقَهم لهذا الوصف نتيجةَ فسادِ قلوبهم. كما في ذلك أيضًا من جهةٍ أخرى: إظهارُ المفارقة بينهم وبين المؤمنين، فيُفهم ضِمنًا أنّ المؤمنين عند ذكر اللّه وحده تزداد قلوبُهم اطمئنانًا وسكينةً، ممّا يُبرز التّناقضَ بين الطّرفين ويُظهر الفرقَ الجوهريَّ بينهما في موقفِ كلٍّ منَ اللّه. ولا يخفى أنّ الجملة الشّرطيّة كذلك، يحصل بها نوعٌ منَ الإثارة والتّنبيه، فهي تَلفِتُ الانتباهَ إلى الظّاهرة المذكورة (اشمئزاز القلوب)، ممّا يدعو القارئَ أوِ المستمعَ إلى التّأمّل في حال هؤلاء النّاس وأسبابِ انحرافهم.

نكتةُ التّعبير بـ(إذا) دون (إن):

تـزدادُ قلوبُ الذين لا يؤمنون اشمئزازًا عند ذِكر الله المُتحقِّق في الواقع

التّعبيرُ بـ(إذا) بدلاً من (إنْ) في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، يدلّ على تحقّق وقوعِ الفعل. فـ(إذا) تُستخدم - غالبًا - للتّعبير عن أمر مُتحقِّقِ الوقوع أو مُتكرِّر[1]، أي: إنّ ذِكْر اللّه وحده ليس احتماليًّا أو نادرًا، بل هو واقع بالفعل. لو عُبِّرَ بـ(إن) لكانتِ الجملة تفيدُ الشّرطيّةَ التي تحتمل الوقوعَ أو عدمَه، ممّا لا يتناسبُ مع هذا السّياق القرآنيِّ. النّكتةُ البيانيّة هنا تُظهر الاستمراريّةَ والتّكرار في ذِكر اللّه وحده، وكيف أنّ قلوب الذين لا يؤمنون تزدادُ نفورًا واشمئزازًا عند هذا الذّكر المُتحقِّق في الواقع.

نكتةُ بناءِ الفعل﴿ذُكِرَ﴾ للمفعول:

بناءُ الفعل ﴿ذُكِرَ﴾ لِما لم يُسمّ فاعلُه في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 72.

في إخفاء الذّاكر تركيزٌ على الفعل وتعظيمه، وإبراز ردّ فعل الكافرين

﴿ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾ يأتي لإبراز الفعلِ نفسِه والاهتمامِ به مع إخفاء فاعلِه لعدّة أغراضٍ بلاغيّةٍ[1]، منها: تعظيمُ الفعل: فعندما يُبنى الفعلُ للمفعول في هذا السّياق، يُصبح التّركيزُ على فعل ذِكر اللّه وحده، ممّا يعظّمُ الحدثَ ويُركّز الانتباهَ على أثره، وهو اشمئزازُ القلوب. وإظهارُ عموم الفاعل: فبناءُ الفعل للمفعول يشير إلى أنَّ ذكر اللّه قد يَصدرُ من أيّ مصدرٍ، سواء كان قرآنًا يُتلى، أو ذِكْرًا على ألسنة المؤمنين، أو خطبةً تُذكِّر باللّه، أو أيَّ وسيلة مهما كانت. وإبرازُ ردِّ فعل الكافرين: فالهدفُ هنا ليس الفاعلَ (مَنْ ذكرَ اللّه)، بل ردَّ فعلِ الكافرين أنفسِهم، وهو اشمئزازُ قلوبهم عند ذكْر اللّه وحده. هذه البلاغةُ القرآنيّة في بناء الفعل للمفعول تسلّطُ الضّوءَ على الحالة النّفسيّة للكافرين الذين يَضيقون بذِكْر اللّه مُنفردًا، وينشرحون بذِكْر غيرِه معه، ممّا يعكسُ بدقّةٍ عمقَ انحرافهم العقديّ.

الموقعُ النّحويُّ لقوله: ﴿وَحۡدَهُ﴾:

الـكـافـرون يـمـيـلـون إلى الشّرك وينفرون مِنَ التّوحيد

في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ﴾، كلمة ﴿وَحۡدَهُ﴾ حالٌ مِن اسم الجلالة، أي: حالَ كونه منفردًا دون إشراك غيره معه، فيكونُ معنى (ذكر اللّه وحده): ذكر تفرّده بالإلهيّة[2]. وهذه الحال تؤكِّدُ على التّوحيد الخالص للّه تعالى، وتبيّنُ أنّ اشمئزاز الكافرين يحدثُ عند ذكر اللّه دون أن يُذكر معه أحدٌ آخرُ، ممّا يكشفُ عن ميلهم إلى الشّرك ونفورهم مِنَ التّوحيد.

الذّكرُ المقصودُ لله الخالصُ له ذكرٌ معظّمٌ

ويصحُّ اعتبارُه مصدرًا، فيكون قولُه: ﴿وَحۡدَهُ﴾ مفعولًا مطلَقًا لفعل: ﴿ذُكِرَ﴾ لبيان نوعِه، أي: ذكرًا واحدًا، أي: لم يذكر مع اسم اللّه أسماءَ أصنامهم[3]. وإعرابُه مفعولا مطلقا مبيّنًا للنّوع - يشدّدُ

(1) السامرائي، معاني النحو: 2/ 72.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 29.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 29.

على أنّ الذّكر كان من نوع خاصّ ومميّز، وهو كونُه ذِكْرا خالصًا للّه وحده، دون أن يتضمّن ذكرَ أحدٍ منَ الشّركاء أوِ الأصنام، بما يدلّ على تعظيم فعلِ الذِّكر، فالمفعولُ المطلق هنا يضيفُ معنى التّعظيم لفعل الذّكر ذاتِه؛ إذ يُبيّن أنّ هذا الذّكرَ يتميّز بكونه مُنفردًا ومقصودًا للّه تعالى وحده، فتتجلّى بذلك أهميّةُ التّوحيد الخالص. كما يسلّطُ الضّوءَ على أثر هذا النّوع منَ الذِّكر، فبيانُ نوع الذِّكر ﴿وَحۡدَهُ﴾ يشير إلى أنّ السبب في اشمئزاز قلوبِ الكافرين ليس مُجرّدَ ذكر اللّه، بل كونُه ذِكرًا منفردًا خالصًا،؛ لأنّهم يقبلون ذكرَ اللّه مع غيره، لكنّهم ينفرون منَ التّوحيد. فإذا أُعربت حالًا، يكون التنبيه على حالة الانفراد للّه تعالى أثناء الذكر. وإذا أُعربت مفعولًا مطلقًا، يكون التّنبيه على نوع الذِّكر ذاتِه، وهو الذِّكرُ الخالص للّه وحده. فكلا الإعرابَيْن يحملان معنى التّوحيد، لكنَّ المفعولَ المطلق يُبرز فعْلَ الذّكر ونوعَه أكثر، أمّا الحالُ فيُظهِر حالَ اللّه سبحانه في مقام الانفراد أثناء الذِّكر.

دلالةُ التّعبير بـ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾ مادّةً وصيغةً:

الاشمئزازُ يوضّحُ شدّةَ النّفور واضطرابِ القلب

التّعبيرُ بلفظ ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ يحمل دلالاتٍ بلاغيّةً عميقةً ترتبطُ بالمادّة والصّيغة: ومنها النّفورُ الشّديد المبالَغُ فيه والتّقزّز؛ الذي يدلّ عليه مادّةُ (شمز)؛ فاختيارُ هذه المادّة يعكسُ حالةً شديدةً منَ الكراهية والنّفور الباطني، ممّا يصوّرُ عمقَ رفضهم الدّاخليّ للتّوحيد بذِكرْ اللّه وحده. ومنها اضطرابُ القلب: لِما يوحي به اللّفظ بأنَّ هذا النّفور ليس مجرّدَ شعورٍ عابرٍ، بل اضطرابٌ حقيقيٌّ وعميقٌ يصيب القلوبَ، ممّا يدلّ على تمحّض ضلالِهم وانحراف فطرتِهم[1].

(1) الجوهري، الصحاح، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شمز).

وزنُ (افْعَلَلّ) يدلّ غالبًا على اضطرابٍ في الحركة أوِ الشّعور. وهو وزنٌ يناسبُ الأفعال التي تعبّرُ عن تغيّرٍ داخليٍّ أو نفسيٍّ؛ مثل: (اشمأزّ)، (اقشعرّ)، (اطمأنّ)، (اضمحلّ)[1]. فالكلمةُ تدلّ على حدوث نفورٍ داخليٍّ شديدٍ، مصحوبٍ بحركة نفسيّةٍ واضطرابٍ في المشاعر. ويُظهرُ الوزن شعورًا نفسيًا فجائيًا وعميقًا، ممّا يناسبُ وصفَ نفور الكافرين عند ذكر اللّه وحده. أمّا منَ النّاحية الصّوتيّة فوزن (افعلّ) بصوته المكرّر، وتَكرارِ الحرف الأخير (الزاي المضعّفة) يعكسُ في نغمة الكلمة نفسِها صورةَ الاشمئزاز النّفسي، ممّا يجعلُ التّعبيرَ أكثرَ تصويرًا لحالتهم. ومع الفجأة في الحدوث، والتّغيّرِ السّريع في الانفعال، بالانتقال من حالٍ إلى حال، يحدثُ أيضًا تدرّجٌ وتَكرارٌ في تنامي الشّعور بالاشمئزاز إلى تناهيه وتكاملِه وبلوغِه مرحلةَ الذّروة والاشتداد في الإحساس والانفعال النّفسيّ الباطنيّ العميق، بما يؤكّدُ أنّهم يتفاعلون مع ذِكْر اللّه وحده بمشاعرَ حادّةٍ، وانفعالاتٍ تصادميّةٍ، وليس مجرّدَ رفْضٍ عاديٍّ أوِ اعتراضٍ عارضٍ عابِر.

بلوغُ ذروة الشّعور بالاشمئزازِ يؤكّدُ أنّهم يتفاعلون مع ذكر الله وحدَه بمشاعرَ حادّةٍ، وليس رفْضُهم عارضًا

نكتةُ إسنادِ الاشمئزاز إلى القلوب:

إسنادُ الاشمئزاز إلى القلوب في قوله تعالى: ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ يُراد منه بيانُ أنّ القلوب هي مصدرُ هذا الشّعور العميق منَ النّفور والكراهية لمبدأ الواحدانيّة، والإسنادُ إليها مجازٌ عقليٌّ؛ لأنّ الفاعل الحقيقيَّ للاشمئزاز هو الكافرون (أصحاب القلوب)[2]، ولكن أسندَ الفعل إلى القلوب مجازًا؛ لتوضيح أنّ هذا الشّعور هو شعورٌ باطنيٌّ وعميق يخرجُ من أعماقهم؛ ليدلّ بذلك على الأغراض الآتية:

الإسنادُ يظهرُ عمقَ النّفور ويؤكّدُ العلاقةَ بين القلب والإيمان

(1) الشاطبي، المقاصد الشّافية: 4/ 352.
(2) القونوي، حاشية القونوي: 16/ 541.

تغلغلُ الشّعور بالاشمئزاز إلى أعماقهم يُظهر شدّةَ كراهيتِهم

تأكيدُ قوّة التّأثير الدّاخلي؛ فإسنادُ الاشمئزاز إلى القلوب يُظهر أنَّ النّفور يحدثُ من دواخلهم، وليس فقط ردَّ فعلٍ ظاهريٍّ أو ماديٍّ. وهذا مبنيٌّ على أنّ القلوب هي مركزُ المشاعر والأحاسيس، والإشارةُ إلى اشمئزازها تؤكّدُ أنّ هذا الشّعور يتغلغلُ إلى أعماق الشّخص، ليُظهرَ كراهيتَهم الشّديدةَ للتّوحيد وذكر اللّه.

نفورُهم دائمٌ نافذٌ، وليس حدثًا عابرًا

والفعلُ ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾ يصوِّرُ الحالةَ النّفسيّة للمكذّبين؛ ولذلك استُعمِلَ لإظهار أنّ هذا النّفور ليس مجرّدَ تردّدٍ أو إعراضٍ؛ بل هو نفورٌ قويٌّ وعميقٌ، يصيب القلوبَ نفسَها. فيصوِّر القلوبَ في هذا السّياق وهي تنبضُ بالكراهية تجاه الذِّكر الخالص للّه، ممّا يوحي بأنّ هؤلاء الكافرين لن يستجيبوا لفطرة الإيمان بسهولةٍ ويُسْر.

نفورُ الكافرين يُبرزُ الخللَ الإيمانيَّ عندهم

وإسنادُ الاشمئزاز إلى القلوب يشير إلى أنّ الإيمان مرتبطٌ بالقلب، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ [الأنفال: 2]. فإسنادُ الاشمئزاز إلى القلوب في هذا السّياق، يُراد به أنّ نفورهم من ذكر اللّه يعكسُ خللًا في الإيمان عندهم، وأنّ قلوب هؤلاء الكافرين غيرُ مستعدّةٍ ولا جاهِزةٍ لقَبول الحقّ.

فالإسنادُ إلى القلوب - هنا - يعزّزُ فكرةَ أنّ النّفور ليس سطحيًّا، بل هو شعورٌ جِذريٌّ عميقٌ في نفوسهم، بما يُظهِر رفضَهم الكاملَ للتّوحيد، ويُبرز فُجورَهم في كراهية اللّه تعالى علوًّا كبيرًا.

غرضُ التّعبير بالاسم الموصول وصلتِه:

الاشمئزازُ لا يحدثُ من قلب أيِّ شخص إلّا قلوبُ الكافرين

التّعبيرُ بـ ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ منَ الموصول وصلتِه في قوله تعالى: ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾، أفاد تحديدَ نوعيّةِ الأشخاص الذين يصدرُ منهمُ الاشمئزاز، فالاسمُ الموصول ﴿ٱلَّذِينَ﴾ مع صلته ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ يبيّنُ أنّ الاشمئزاز لا يحدثُ من قلب أيِّ شخصٍ؛ بل من قلوب الكافرين الذين لا يؤمنون بالآخرة، ممّا يُحدّدُ بشكل دقيق من هم هؤلاء الذين ينفرون من

ذكر اللّه. كما أنّ التّعريفَ بالصّلة هنا يُظهر عِلّةَ الاشمئزاز، وهي أنّهم لا يؤمنون بالآخرة، فإنّ ذِكْر اللّه وحده يُسبِّبُ لهم اشمئزازًا؛ لأنّ التّوحيد يتناقضُ مع عقيدتهم في الشّرك والإنكار للحساب بعد الموت.

ومضمونُ الصّلة أيضًا، وهو (عدمُ إيمانهم بالآخرة) يوضّح المعنى النّفسيَّ الدّاخليَّ، وهو تعلّقُ ذلك النّفور الذي يصيبُهم بجانبٍ روحيٍّ وعَقَديٍّ، هو جانبُ اليوم الآخر، ويكأنّ ذِكْرَ اللّه وحده يذكّرهم بهذا الجانب الأخرويّ الرّافضين له، فيزدادون نفورًا واشمئزازًا، فليس ذلك مُجرّدَ اعتراضٍ ظاهريٍّ عارِض، بل هو نابعٌ من عقيدةٍ راسخةٍ داخلَ قلوب هؤلاء الكافرين، تتعلّق برؤيتهم لحياةِ ما بعد الموت[1].

دلالةُ التّعبير بالمضارع في: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾:

عـدمُ الإيـمـان فـعـلٌ مُـسـتـمـرٌّ للمشركين

علاوةً على ما ذُكِر فإنّ التَّعبير بمضمونِ الصّلة مضارعًا: ﴿لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ يُلوّحُ بدلالةٍ أخرى، وهي أنّ هؤلاء الأشخاصَ مُستمرّون في عدم الإيمان بالآخرة، وأنَّ هذه الحالةَ ثابتةٌ لديهم، ففيه إشارةٌ إلى أنّ النّفور من ذِكْر اللّه ليس ردَّ فعلٍ عابرٍ؛ بل هو جزءٌ من موقفهم الدّائم والمُعادي للإيمان[2].

معنى الباء في ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

إنـكـارُ الآخـرة عـنـوانٌ أصيـلٌ عـلـى فـسـاد العقيدة

الباء في ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ من قوله: ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾؛ للملابسة بين الإيمان والآخرة، أي: عدمُ إيمانهم مُلتبِسٌ بالآخرة ومُتعلّقٌ بها، وهذه الملابسةُ توضّحُ أنّ إنكار الآخرة هو جزءٌ أساسٌ من فساد عقيدة هؤلاء الكافرين، ممّا يُفسّرُ اشمئزازَ قلوبهم عند ذكر اللّه وحده.

(1) السامرائي، معاني النحو: 1/ 119- 122، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 30.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 522.

معنى (ال) في ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾:

(ال) في ﴿بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ للعهد الذِّهني، فتشيرُ إلى الآخرة المعروفةِ والمحدّدةِ في العقيدة والتي هي موضوعٌ من موضوعاتِ الإيمان وركنٌ أصيلٌ فيه، وهي الحياةُ الأخرى بعد الموت، التي تشملُ البعثَ والحسابَ والجنّة أوِ النار. كأنّه قال: الآخرةُ التي يعلمُها المؤمنون والكافرون على حدٍّ سواء، وإن أنكرها الكافرون.

إنكارُ الشّيء مع العلم به من أشدِّ الكفران

فائدةُ الاقتصارِ على نفي الإيمان بالآخرة:

الاقتصارُ على نفي الإيمان بالآخرة دون بقيّة الأركان في قوله: ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾؛ لأنّ الإيمان باليوم الآخر هو عنوانُ الإيمان، والمظهرُ العمليُّ له، فإنكارُ الآخرة يعني ضمنيًّا رفْضَ الإيمان باللّه ورسلِه وكتبه؛ لأنّ الآخرة تمثّلُ نتيجةَ الإيمان والتّصديق بالوحي الإلهيّ وسائرِ أركان الإيمان. فالآخرة مُرتبطةٌ بجميع أركان الإيمان الأخرى: الإيمانُ باللّه: لا معنى له إذا لم يكن هناك جزاءٌ في الآخرة. والإيمانُ بالرّسل، فرسالاتُهم قائمةٌ على التّبشير بالآخرة والتّحذير منَ الحساب. والإيمانُ بالكتب: مضمونُها يتعلّق بموضوعات الآخرة وحوادثِها. والإيمانُ بالقضاء والقدر: يتّضحُ تمامًا يومَ القيامة بعِلَلِه وحِكَمِه وأغراضه. إذن: مَن لا يؤمنُ بالآخرة، لا يؤمنُ عمليًّا بأيِّ ركن من أركان الإيمان.

إنكارُ الآخرة علّةُ فسادِ العقيدة

ونفيُ الإيمان بالآخرة يناسبُ سياقَ الآية الذي يتحدّثُ عنِ اشمئزاز قلوبِهم عند ذكر اللّه وحده. فالإيمانُ بالآخرة يجعلُ الإنسانَ يخشى اللّه ويحبُّ ذكرَه؛ لأنّه يعلمُ أنَّ الآخرة هي موعدُ الجزاء، فيستأنِسُ بذِكْرها واستحضارِها، فإذا ذُكِرَ اللّه، آنَسَهُ ذلك الذِّكْرُ؛ لأنّه يستصحِبُ به جزاءَ اللّه له في الآخرة، أمّا هؤلاء، فاشمئزازُهم من ذكر اللّه وحده دليلٌ على فساد عقيدتِهم التي تُنكر

الإيمانُ بالآخرة يحثُّ الانسانَ على خشية الله تعالى

الآخرةَ، فكونُهم يستوحشون من ذكْره تعالى وحده، هو لازمٌ عنِ استيحاشِهم وإنكارِهم للآخرة. فحصلَ بالاقتصار على نفيِ الإيمان بالآخرة: التّنبيهُ على أنّ إنكار الآخرة هو أصلُ فساد عقيدتِهم.

معنى الواو في قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ﴾:

من وجوه انحطاطِ المشركين اهمالُ العليّ واعلاءُ الدّون والسَّفل

جملةُ: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾، فالواو تربطُ بين حالتَيْن متقابلتَين من أحوال الكافرين، فالاشْمِئْزاز من ذكْرِ اللّه وحده ليس مجرّدَ حالةٍ عرضيّةٍ؛ بل يقابلُه تعلّقٌ شديدٌ بآلهتهم لدرجة الاستبشار بمجرّد ذِكْرِهم. فالواو تضيفُ تنويعًا في عرض الموقف؛ إذ تتناولُ الجملة الأولى ردّ فعلهم تجاهَ ذكر اللّه، والجملة الثّانية تتناول ردَّ فعلهم تجاهَ ذِكْر آلهتهم. وهذا الرّبطُ بين المتعاطفَين يعمّقُ المفارقةَ ويُظهرُ تناقضَهم في العبادة. كما أنّ الرّبطَ بالواو يورثُ تدرّجًا في استعراض النّظم، والانتقالِ من مقام إلى مقام، كأنّه قيل: (هذا حالُهم عند ذكر اللّه، لكنِ انظر إلى حالهم عند ذكر شركائهم!)[1].

فائدةُ التّعبير بالجملة الشّرطيّة:

إدمانُ الاستبشارِ بذكر غيرِ الله نتاجُ عقيدةٍ فاسدةٍ راسخةٍ

التّعبيرُ بالجملة الشّرطيّة في قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾؛ لتحقيق التّلازم الحدوثيِّ بين الشّرط وجوابه، فكلّما حدث الشّرطُ حصل الجوابُ، وهذا يفيدُ في إظهار حالهم على صورة العادةِ المكرورةِ والمُزمِنَة، فاستبشارُهم بذِكْر آلهتهم ليس طارئًا، أوِ انفعالًا عرضيًّا، قد يحدثُ وقد لا يحدثُ، بل ذلك الاستبشارُ هو عادةٌ لازمةٌ لهم متى حصل سببُها وهو ذِكْرُ الآلهة، فيدلُّ ذلك على رسوخ اعتقادِهم الفاسدِ؛ لأنّ إدمانَ الاستبشار بذكْرِ غيرِ اللّه هو نتاجُ عقيدةٍ فاسدة وراسخة.

(1) الخطيب، التفصيل في الإعراب: 24/ 29.

واستعمالُ أسلوب الشّرط - هنا - ضروريٌّ في تحقيق التّقابل بين هذه الجملة وما قبْلها، بالاطّراد على نفس الأسلوب، فكما اشترط في قوله: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ - اشترط هنا كذلك: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾؛ لإظهار المقابلة بين الحالَين على نفس المستوى منَ التّلازم والثّبوت، والتّكرار والاعتياد، بما يُظهر تناهيَ انحرافِهم وتمامَه. ولا يخفى في أسلوب الشّرط من إثارة ذهنيّةِ السّامع وانتباهِه، فاستعمالُ الشّرط يُحفِّز نوعًا منَ الإثارة والتّوقّع، حيث يترقّبُ القارئُ أوِ السّامعُ وينتظرُ معرفةَ جواب الشّرط، ممّا يجعلُه يتأمّلُ في دلالة الجملةِ ويتدبّرُ مضمونَها، فعندما يأتي الجوابُ، ينكشفُ له التّناقضُ الشّديد بين الحالين، فيدفعه ذلك إلى الاستعجاب والدّهشة من حال أولئك الكافرين[1].

غرضُ التّعبير بالموصول وصلتِه: ﴿ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾:

كلُّ معبودٍ غير الله سبحانه مُحقَّرٌ لا يستحقُّ الذّكرَ

التّعبيرُ بالموصول في: ﴿ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ بدلًا منَ التّصريح بأسمائِهم (مثل الأصنام أوِ الآلهة) يدلّ على احتقار شأنِهم وعدم اعتبارهم، فعدمُ ذكرهم بأسمائهم يُظهرُ أنّهم لا يستحقّون الذِّكر، وإنّما يُكتفى بالإشارة إليهم بكونِهم دون اللّه منزلةً وقدرةً. كما أنّ مضمونَ الصّلة: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ يُظهِرُ المفارقةَ الكبيرة بين اللّه سبحانه، المتفرّدِ بالألوهية، وهؤلاء الذين لا يملكون شيئًا، فضلًا عنِ امتلاكهم شيئًا من صفاتِ الألوهيّة أوِ القدرة، وهذه المفارقة تُظهر ضلالَ الكافرين الذين يستبشرون بما لا يُغني عنهم شيئًا، كمن يستبشِرُ بالسّراب والوَهْم. كما أنّ التَّعبيرَ بالموصول وصلتِه، أفاد العمومَ والشّمولَ لكلّ ما يُعبدُ من دون اللّه، سواء كانوا أصنامًا، بشرًا، ملائكةً، أو غيرَهم، وهذا الشّمولُ يزيد في ذمّ هؤلاء

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 53- 55.

المشركين، ويفضحُ عظيمَ انحرافهم، فإنّهم يتعلّقون بكلِّ ما هو دون اللّه، بغضِّ النّظر عن مدى انحطاطِه أو مستوى قصورِه[1].

معنى ﴿مِن﴾ في: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾:

دونيّةُ المعبوداتِ من دون الله بيّنةٌ ومحدّدةٌ في القدر والصّفة

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ ابتدائيّةٌ مجازيّةٌ؛ للابتداء المعنويِّ أوِ المكانيِّ الرُّتَبي، أي: إنّ هؤلاء المعبودين ينشأ وصفُهم ومكانتُهم من مرتبةٍ أدنى من مرتبة اللّه سبحانه. فهي دونيّةٌ واضحةٌ ومحدّدةٌ في القدر والصّفة. ويصحُّ أن تكون ﴿مِن﴾ تبعيضيّة، أي: إنّ هؤلاء الموصوفين بـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ هم جزءٌ ممّا هو أدنى منَ اللّه وأقلُّ مكانة. أي: الذين هم بعضُ المعبودات الباطلة التي تُعبدُ من دون اللّه.

نكتةُ التّعبير بالدّونيّة:

إلـزامُ الكافرين بـدونـيّـةِ المعـبـودات واسـتـحـقـاقِ النّفور منها

مجيءُ صلةِ الموصول بهذا التّعبير الدّالِّ على الدّونيّةِ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ فيه إلزامٌ حِجاجيٌّ للكافرين بحقيقة بطلانِ شركِهم؛ لأنّهم يعرفون ضِمْنًا أنّ هذه المعبوداتِ أدنى منَ اللّه في كلّ شيء، ممّا يجعل فرحَهم بها واستبشارَهم عند ذكرها سخافةً غيرَ معقولة، وانتكاسًا في المنطق والفطرة. كما أنّ التّعبير عن هذه المعبودات الباطلة بقوله: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ إيماءٌ إلى عدم استحقاقِها للعبادة؛ لأنّها لو كانت تستحقّ العبادةَ، لَما كانت في رُتبةِ الدّون، ولا يخفى ما يلزمُ عنه ذلك التّعبيرُ: ﴿مِن دُونِهِۦٓ﴾ منَ النّفور والاشمئزاز، ويكأنّ التّعبيرَ بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ فيه تعريضٌ بأولئك المُستبشرين، وتهكّمٌ بهم بخلاف معتقدِهم وحالهم ونقيضِهما، فكأنّه يقول لهم: إذا كان هؤلاء المذكورون همُ الذين من دونه، فأولى بكم أن تنفروا منهم وتشمئزّوا؛ لدونيّتِهم، لا أن تستبشروا وتفرحوا، فما لكم كيف تحكمون!!

(1) السامرائي، معاني النحو: 1/ 119- 122.

سرعةُ تأثّرهم استبشارًا دليلُ شدّةِ تعلّقِهم بالمعبودين الباطلين

معنى (إذا):

(إذا) هنا فجائيّةٌ، تُفيد وقوعَ الجواب (استبشارهم) بشكلٍ مفاجئٍ بمجرّدِ تحقّق الشّرط[1]: ﴿ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾. فكأنّه قيل: بمجرّد ذكْرِ الذين من دونه، تظهرُ استجابتُهم فورًا بالفرح والاستبشار، ممّا يُبرزُ شدّةَ تعلّقهم بهؤلاء المعبودين الباطلين. فالتّعبيرُ بـ(إذا) الفجائيّةِ هنا يدلّ على سرعةِ التّأثّر، فتُبرِز أنّ استبشارَهم يحدثُ بشكلٍ سريعٍ ومباشرٍ، ممّا يُظهر شدّةَ حبِّهم لهؤلاء الذين يُشركونَهم مع اللّٰه، مقابلَ اشمئزازهم عند ذكرِ اللّٰه وحده.

مع كونِها - أي: إذا - تُضفي إيجازًا بليغًا في التّصوير؛ إذ تختصرُ سرعةَ الانتقال منَ الشّرط ﴿ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾ إلى الجواب (استبشارهم) بكلمةٍ واحدة[2].

نكتةُ تقديمِ الضّمير على المسندِ الفعليّ:

إبرازُ ذواتِ المستبشرين بيانٌ لغرابة حالِهم

في قوله: ﴿هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، تقدّم الضّميرُ ﴿هُمۡ﴾ على المُسنَد الفعليِّ ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، جريًا على الأصل بتقديم المبتدأ وتأخيرِ الخبر[3]، والأصلُ لا يُعلّل، ولكنّ المُسندَ إليه هنا يحمل دلالاتٍ، منها تسليطُ الضّوء على شخص المستبشرين أنفسِهم، لغرض استحضارِ هؤلاء القوم تحديدًا، وإبرازِ غرابةِ حالهم. فكأنّه قيل: هم بذاتهم (الذين اشمأزوا من ذكر اللّٰه) يتحوّلون فجأةً إلى الاستبشار عند ذكر الذين من دونه.

الاستبشارُ بذكر الآلهة سلوكٌ ذاتيٌّ وحالٌ لازمةٌ راسخةٌ في الكافرين

وفي الإتيان بضميرهم المنفصل: ﴿هُمۡ﴾ ذمٌّ لهم بأنّهم بأشخاصهم هم أصحابُ هذا السّلوك المتكرّرِ والمناقِض للفطرة. وأنّ هذا السّلوك المنحرفَ مُلازِمٌ لهم ملازمةَ الطّباع للذّوات، فهي حالٌ لهم دائمةٌ، وديدنٌ ثابتٌ فيهم، يثيرُ الاستغرابَ منهم.

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 115.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 30.

(3) صافي، الجدول: 12/ 192.

والتّصديرُ بضميرهم هنا: ﴿هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ يستدعي مقابلةً بين موقفهم من ذكْرِ اللّه وذكْرِ مَن دونه. ففي الجملة الأولى: ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ (وهي جملة فعليّة تُركّزُ على الفعل؛ لأنّ الاشمئزاز حالةٌ شعوريّةٌ محدّدة). أمّا في الجملة الثّانية: ﴿هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾، تقديمُ ﴿هُمۡ﴾ هنا يُركّزُ على الذّات، ممّا يُظهِر أنّ العيبَ في طبائعهم ودواخلِ ذواتهم، ويجعلُ الاستبشارَ أكثرَ غرابة؛ لأنّه لا ينفعلُ بالاستبشار بما لا ينفعُ ولا يضرّ إلّا ذوات معطوبة، ولذا كان الاهتمامُ هنا بالذّوات قبل الفعل.

دلالةُ التّعبير بالفعل المضارع: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾:

لم يُقل في السّياق الكريم: (هم مستبشِرون)، بل جيء بالمضارع في: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾؛ لإفادة تجدّدِ استبشارِهم[1]. كلّما ذُكرت آلهتُهم؛ وذلك من أمارات رسوخ الفعل طبعًا وعادةً.

نكتةُ حذفِ متعلّق الاستبشار:

إيجازُ الحذف؛ للدّلالة الواضحة على المتعلّق المحذوف

حُذف متعلّقُ الاستبشار في: ﴿هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾؛ إيجازًا؛ لعدم تَكرارِ ما هو ظاهرٌ في السّياق، فالمتعلّقُ المحذوف مدلولٌ عليه بما قبله، وهو قوله: ﴿ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ﴾، أي: يستبشرون بهم، أو بذكرهم.

نكتةُ زيادةِ السّين والتّاء في: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾:

طلبُ البُشرى والانفعالُ بها دليلُ التّلبّس بها

السّين والتّاء في ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ أصلُها للطّلب، منَ الفعل: (استبشر) أي: طلبَ البشرى، ثمّ شبّه المنفعِل بالبشرى سرورًا بالطّالب لها، فيُقال: (استبشر فلان؛ أي: انفعل بالبشرى وتلبّس بأثرها منَ المسرّة والبهجة).

ونقِل معنى السين والتاء منَ الطّلب إلى التّأكيد والمبالغةِ في الاتّصاف بالفعل، وهذا في أصله جارٍ على معنًى بديعٍ، وهو أسلوبُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 30.

الاجتهادُ في طلب البشرى والمبالغةِ في تحقّقه

التّجريد[1]، كأنّهم جرّدوا من أنفسهم أشخاصًا يخاطبونهم يطلبون منهم البشرى، مبالغةً في تحقّق بُشراهم وتصميمِهم عليها. وجَعْلُ الفِعلِ مطلوبًا منهم، كنايةٌ عنِ المبالغة في الاتّصاف به، كأنّهم يحاولونه ويجتهدون في تحصيله، فيلزمُ عنه الاتّصافُ به على جهة التّأكيد والمبالغة، كأنّ المستبشِر طالبٌ من نفْسِه البشرى وحامِلُها عليها، فاستلزم معنى الطّلب، إفادةَ التّأكيد والمبالغة. وعلى هذا ففي قوله: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ استعارةٌ تمثيليّة؛ إذ جعلَ المستبشرَ في هذا السّياق، بمنزلة مَن جرّد من نفسِه شخصًا يطلبُ منه ذلك، فالتّمثيل حاصلٌ بتشبيه حال المستبشِر في انفعاله الشّديد والأكيد بالبشرى، بحالِ مَن يحرص على شيءٍ صعبٍ، فيطلبُه من غيره؛ ليُنْفِذَه له، بجامع الحِرص والاجتهاد والرّغبة الشّديدة في تحصيل الشّيء في كُلٍّ.

بلاغةُ الطّباق بين الحالتيْن:

المطابقةُ الكاملةُ بين غايةِ الكراهيةِ وغاية الفرحِ

مقابلةُ الاشمئزاز بالاستبشار في قوله: ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾، وقولِه: ﴿يَسۡتَبۡشِرُونَ﴾ مطابقةٌ كاملة؛ لأنّ الاشمئزازَ غايةُ الكراهية، والاستبشارَ غايةُ الفرح[2]. فوجهُ مقابلةِ الاستبشار بالاشمئزاز؛ أنّ كلَّ واحد منهما غايةٌ في بابه؛ لأنّ الاستبشار أن يمتلئَ القلب سرورًا حتى يظهر أثرُ ذلك السّرور وهو الانبساطُ في بَشرة الوجه فتراه متهلّلًا، والاشمئزازُ أن يعظمَ غمُّه وغيظُه فينقبضَ الرّوحُ إلى داخل القلب فيبقى في أديم الوجه أثرُ الغبرة والظّلمة الأرضية[3].

۞ الفُروقُ المُعجَميَّةُ:

الاشمئزازُ والبغضُ والكراهيةُ والمقتُ والشّنآنُ والامتعاضُ:

الاشمئزازُ: انقباضُ النّفس مع نفورٍ واستنكافٍ يورث تجافيًا وتباعدًا.

---

(1) حسن، البلاغة العربية: 2/ 434.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 30.

(3) الزمخشري، الكشاف: 4/ 134، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 457، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 208.

ألفاظُ (الاشمئزازِ، البغضِ، الكراهيةِ، المقتِ، الشّنآنِ) تتقاربُ في دلالتها العامّة على النّفور أو عدمِ القَبول، لكنّها تختلف في المعاني الدّقيقة والسّياقات التي تُستخدم فيها. فأصلُ (شمأَز) يدلّ على النّفور والانقباضِ الشّديد في النّفس مع إحساسٍ داخليٍّ بالتّقزّز أو عدم الرّاحة[1]. أمّا (البغض) فهو يدلّ على الكراهية الشّديدةِ والعداوة القلبيّةِ التي تجعل الشَّخص يرفض شيئًا أو يُجافي شخصًا بعينه[2]. في حين أنّ (الكُرْه) يدلّ على عدمِ القبول أوِ النّفور من شيء مع الميل إلى تجنّبه، وقد تكون الكراهيةُ أقلَّ شدّةً منَ البغض[3] وأعمَّ وأخفَّ منه؛ فهي مستعملةٌ لوصف النّفور العامّ دون عدم استلزام اقترانها بعداوةٍ شديدة. أمّا (المَقْتُ) فيدلّ على أشدّ أنواعِ الكراهية أوِ البغض، مقترِنًا بازدراءٍ شديدٍ واحتقارٍ للطّرَف الممقوت[4]. وأصلُ (شنأ) يدلّ على البُغض المقترنِ بعداوةٍ ظاهرةٍ أو كراهيةٍ مستمرّةٍ[5] أو كراهيةٍ قد تؤدّي إلى الظّلم وانتفاءِ العدل، فهو كراهيةٌ مخصوصةٌ يصحبُها عمَلٌ يدلّ عليها، ويتعدّى إلى الطّرف المشنوء. والاشمئزاز مصحوبٌ بأنَفةٍ واستنكافٍ، يصلُ إلى حدّ النّفور والفَرَق الذي يصيب المذعورَ منَ الشّيء.

واختيارُ لفظِ ﴿ٱشۡمَأَزَّتۡ﴾ دون غيره في الآية يوضّحُ حالةَ النّفور الشّديد والانقباض النّفسيّ الذي يصيب قلوبَ الكافرين عند سماع ذكرِ الله وحده، ويعكسُ عدمَ الرّاحة وعدمَ قَبولِ التّوحيد، وهو تعبير عن نفورٍ داخليٍّ أشدَّ خصوصيّةً ممّا توحي به الكلماتُ الأخرى. ومن هنا كان أنسبَ لسياق الآية.

(1) الراغب، المفردات: (شمأز)، وابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ، والفيروزابادي، القاموس المحيط، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شمز).

(2) ابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (بغض).

(3) ابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كره).

(4) ابن منظور، لسان العرب، والسمين، عمدة الحفاظ، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (مقت).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (شنأ).

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٤٦﴾ [الزمر: 46]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لا قدرة كاملةً، ولا علم تامًّا، ولا حُكمَ شاملًا إلّا لله تعالى

إنّه تعالى "لمّا حكى عنهم هذا الأمرَ العجيبَ الذي تشهد فطرةُ العقل بفساده؛ أردفَه بأمرين؛ أحدُهما: أنّه ذكر الدّعاءَ العظيم، فوصفَه أوّلا بالقدرة التّامة وهي قولُه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾. وثانيًا بالعلم الكامل وهو قولُه تعالى ﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾"[1]، فالإخبارُ عن سخافة عقولِهم باشمئزازهم من ذِكر اللّه، واستبشارِهم وإيناسِهم بذكر الأصنام، مدعاةٌ لاستحضار أسمائِه العظمى منَ القدرة والعلم ونسبةِ الحكم إليه، إذ غيرُه لا قدرةَ له ولا علمَ تامّ ولا حكمَ، وفي ذلك وصفٌ لحالهم السّيئ ووعيدٌ لهم وتسليةٌ للرّسول ﷺ[2]. ففيه تعريضٌ بالمشركين أنّ مَن يستأنسون بذكرهم ويشركونهم مع اللّه، لن ينفعوهم أو يحولوا بينهم وبين حُكْمِ عالمِ الغيب والشّهادة، الذي سيحسمُ لهم هذا التّناقضَ، ويفصلُ لهم بالحقّ والعدل فيجازيهم على ضلالهم وشركِهم، فتتجلّى لهم حقيقةٌ وبرهانُ ما كانوا فيه يختلفون.

انفرادُ الله بالشّفاعة من مقتضيات انفرادِه بالحُكْم

ثمّ إنّه تعالى لمّا أكّد في الآية السّابقة على أنّه سبحانه له وحده الملكُ والشّفاعة؛ عزّز هذا التّقريرَ هنا بصفاته الواسعة، بأنّه فاطرُ الوجود، وعالمُ الغيب والشّهود، والحَكمُ العدلُ يومَ الخلود، وأنَّ الأمر كلَّه مقصورٌ عليه. ولمّا أخبر في الآية السّابقة عن نفي الشّفاعة عن كلّ أحدٍ إلّا له، وكونِ شفعائهم ليسوا بأهلٍ للشّفاعة؛ أخبرَ هنا عمّا

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 457.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 209.

يتعلّقُ بهذا المضمون، وهو حكمُه بين عباده، والإذنُ بالشّفاعة له وحده، خاضعٌ لمقتضى انفراده تعالى بالحكم. وأنّه "لا بدَّ منَ الرّجوع إليه المُقتضي؛ لأن تُصرف الهممُ كلُّها نحوه، وتوجّهَ العزائمُ جميعُها تلقاءه، ولأنّه لا يُخشى سواه ولا يُرجى غيره، ذكرَ حالاً من أحوالهم فقال: ﴿وَإِذَا﴾"[1].

من يفوّضُ أمرَه إلى الله واثقٌ بحقّية دينه المطمئنّ بأنّ التّحكيم يُظهرُ حقَّه وباطلَ خصمِه.

ومنَ المناسبات أنّه لمّا كان أكثرُ ما تقدّم منَ السّورة مُشعرًا بالاختلاف بين المشركين والمؤمنين، وبأنّ المشركين مصمّمون على باطلهم على ما غمرهم من حُجج الحقّ دون إغناء الآيات والتّدبّر عنهم أُمر الرّسولُ ﷺ عقبَ ذلك بأن يقول هذا القولَ تنفيسًا عنه من كدر الأسى على قومه، وإعذارًا لهم بالنّذارة، وإشعارًا لهم بأنَّ الحقَّ في جانبهم مضاعٌ، وأنَّ الأجدرَ به ﷺ متاركتُهم وأن يفوّضَ الحُكمَ في خلافهم إلى الله. وفي هذا التّفويض إشارةٌ إلى أنَّ الذي فوّض أمرَه إلى الله هو الواثقُ بحقّية دينه المطمئنِّ بأنَّ التّحكيم يظهرُ حقّه وباطلَ خصمه[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿فَاطِرَ﴾: (فطر) أصلٌ يدُلُّ على فَتحِ شَيءٍ وإبرازِه[3]. والفَطْرُ: الشّقُّ طولًا، وفطرتُ البئرَ: ابتدعتُها وحفرتُها[4]. و﴿فَاطِرَ﴾، أي: خالِقِ ومُبتَدِئ، يُقالُ: فطَرَ اللّهُ الخَلْقَ، أي: ابتدَأهم وأوجدهم من عدَم[5]. ومعنى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: خالقهما إيجادًا منَ العدَم، كأنّما شقّ العدمَ وأخرجهما[6].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يأمر اللّه تعالى نبيّه محمّدًا ﷺ أن يدعو اللّه بأسمائه الحسنى وصفاتِه العظيمة التي

(1) البقاعي، نظم الدّرر: 16/ 522.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 30.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فطر).
(4) الراغب، المفردات، والسمين، عمدة الحفاظ: (فطر).
(5) الواحدي، البسيط: 18/ 399.
(6) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 335.

تدلّ على قدرته وعلمِه الشّامل وحكمِه العادل، فيخاطبُه سبحانه: قل أيّها الرّسول: اللَّهُمَّ خالقَ السّماوات والأرض على غير مثالٍ سابقٍ، عالمَ السّرّ والعلانية، أنت تفصلُ بين عبادك يومَ القيامة فيما كانوا فيه يختلفون منَ القول فيك، وفي عظمتِك وسلطانِك والإيمانِ بك وبرسولك، اهدني لِما اختُلِف فيه منَ الحق بإذنك، إنّك تهدي مَن تشاء إلى صراط مستقيم. وكان هذا مِن دعائه ﷺ[1]. فالآية توجّهُ المؤمنين إلى اللّجوء إلى الله، الخالقِ المبدعِ للسّماوات والأرض، والموجِدِ لهما منَ العدم، العالمِ بخفايا الأمور وظواهرِها، ليحكم بين عباده في أمور الدّين والدّنيا التي يختلفون فيها[2].

أعظمُ الاختلاف اختلافُ أهلِ الإيمان، مع أهل الشّرك من دون الله

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ الآية عن سابقتها:

جملةُ: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ استئنافيّةٌ ممّا قبلها، وفصِلتْ؛ لإبراز استقلالها في الانتقال منَ الجدال مع المشركين والاحتجاج على أحوالهم المنحرفة، إلى التّضرّع لله الذي يحسم الأمورَ، ويفصِل فيها بعلمِه وحكمِه. فالفصلُ هنا ليس انقطاعًا، بل انتقالٌ متدرِّجٌ منَ الشّهادةِ على الجُناة بتفصيل أحوالهم وجناياتهم، إلى الاحتكام إلى المرجع الإلهيّ الذي إليه الحكمُ والفصلُ بين المُختلفين ممّن آمن، وممّن كفر[3].

الانتقالُ منَ الاحتجاج إلى التّضرّع الإلهيّ

دلالةُ تّكرار الأمر بـ﴿قُلِ﴾:

تَكرارُ ﴿قُلِ﴾ في قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، لإبراز أهمّيّةِ مقولِ القول، وأنّه حاصلٌ بالتّلقّي والتّوجيه المباشر، وأنّه من خواصّ الأدعية، ولذلك افتتحه بالقول؛ ليدلّ على أنّه ليس كأيّ

تأكيدُ أهمّيّةِ الدّعاء بوصفه صيغةً توقيفيّةً

(1) مجموعة من العلماء، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد، ص: 463.
(2) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 726.
(3) الخطيب، التفصيل: 24/ 32.

دعاءٍ، بل هو صيغةٌ توقيفيّةٌ تُبلّغُ كما هي من غير تصرّفٍ بزيادةٍ أو نقصان، ولا يخفى ما في ذلك من تعزيز صدقِ رسولِ اللّه ﷺ، بما يؤكّد أحقّيّةَ نبوّتِه. ويشير فعلُ القول أيضًا إلى تعليم اللّهِ لنبيّه وأتباعِه منَ المؤمنين ما يكون بعده منَ المقولِ الموظَّفِ لسببِه من حصول الاختلاف والتّنازع، فعلّمهم ما يقولونه إذا اختلفوا مع سائر النّاس ممّن فارقوهم المنهجَ والسَّبيل.

علّةُ حذفِ أداةِ النّداء:

إنّ الله تعالى منَ القُرب بحيث لا يحتاجُ الدّاعي إلى واسطةٍ، أو تنبيهٍ

حذفُ أداةِ النّداء في جملة الدّعاء: ﴿ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ﴾؛ لكون الميم عوضًا عن (يا)، ولو حُذفتِ الميمُ، لوجب ذكرُ (يا)، فيُقال: (يا اللّه)[1]. والحذفُ هنا لحرف النّداء يُظهر بلاغةَ الإيجاز دون الإخلال بالمعنى؛ إذ إنّ ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ تُغني عنِ العبارة الكاملة (يا اللّه). فهذا الإيجازُ بالحذف يحقّقُ اقتصارًا لفظيًّا مع الإبقاء على العمق الدّلاليّ، بالإشعار بأنّ اللّه قريبٌ منَ الدّاعي، فلا يحتاجُ إلى تنبيهٍ أو واسطة بحرف النّداء، ممّا يُعطي انطباعًا إضافيًّا بالقُرب والرَّبط المباشر بين الدّاعي والمعبود. وأيضًا: لفظُ ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ يوحي بالتّفرّد الأسلوبيّ في الخطاب مع اللّه، فكلمة (اللَّهُمَّ) تُستخدمُ في دعاء اللّه وحده خاصّةً، ممّا يجعلها صيغةً مميّزة لا تُطلقُ على غيره، بخلاف أداةِ النّداء (يا) فإنّها تستعملُ مع أيّ منادى، فحذفُ (يا) وتعويضُها بالميم يُبرز تفرّدَ اللّه ﷻ بالعبوديّة والتّضرّع. وفي صيغة ﴿ٱللَّهُمَّ﴾ إيحاءٌ بالاستمراريّة والانسيابيّة في مناجاة اللّه دون حاجةٍ إلى مقدّمات.

علّةُ تصديرِ مَقول القول بالنّداء:

تصديرُ مَقول القول بالنّداء في قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ﴾؛ لأنّ المقام مقامُ توجيهٍ وتعليمٍ وتحاكم، فاقتضى النّداءَ؛ لغرض المناجاة والدّعاء[2].

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 325.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 31.

دلالةُ التّعبير بـ ﴿فَاطِرَ﴾ دون (خالق):

الإبداعُ وطلاقةُ القدرةِ في ابتداء الخلق

جاء التّعبيرُ بـ ﴿فَاطِرَ﴾ دون (خالق) في قوله: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾؛ للدّلالة على الإبداع، وابتداءِ الخلْق منَ العدم، وفي هذا المعنى إشارةٌ إلى طلاقة القدرة، وإعجازِ أفعال اللّه سبحانه. بخلاف (خالق)، فإنّه أوسعُ في الدّلالة على معاني الصّنع والتّقدير بعد وجود المادّة. ثمّ إنّ السّياق هنا يتحدّثُ عن خلق السّماوات والأرض، وهو حدَثٌ كونيٌّ عظيمٌ يرتبطُ بفعل الابتداءِ والإيجادِ الأوّل، فناسبه ﴿فَاطِرَ﴾. ويحملُ لفظ ﴿فَاطِرَ﴾ أيضًا معنى تفرّدِ اللّه في الخلق والإيجاد؛ إذ لا يشاركه أحدٌ في هذا الفعل. وتفرّدُه متضمِّنٌ معنى الإتقان والتّوازن في خلق السّماوات والأرض لدلالة لفظ ﴿فَاطِرَ﴾ على معنى الشّقّ والتّفصيل الدّقيق. يُزادُ على ذلك أنّ لفظَ (خالق)، وإن كان يدلُّ على عظمة اللّه، فقد يُطلق على الإنسان مجازًا، كما في قول اللّه: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ١٤﴾ [المؤمنون: 14] بمعنى الصّانع.

ويوجّه لفظُ ﴿فَاطِرَ﴾ الفِكرَ مباشرةً إلى أصل الإيجاد ومصدرِه، وهو اللّه ﷻ، فيعزّزُ مفهومَ التّوحيد الذي هو محورُ الآيات، بخلاف (خالق) الذي قد يرتبط بفعلٍ مستمرٍّ أو لاحقٍ في التّصوّر الذّهنيّ، في حين يركّز لفظُ ﴿فَاطِرَ﴾ على البداية المطلقة[1].

غرضُ إضافةِ ﴿فَاطِرَ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

السّماوات والأرض هما أعظمُ مشاهد عظمةِ الخلْق الكونيّ

إضافةُ ﴿فَاطِرَ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ يناسب سياقَ الدّعاء، والافتقارِ إلى حُكم اللّه وعِلمه، ففي الإضافة تخصيصُ هذه الصّفة الجليلة (الابتداء والإبداع منَ العدم) للّه وحده، ممّا يدلّ على استحقاقه وحدَه للعبادة والدّعاء.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فطر)، والآلوسي، روح المعاني: 11/ 335.

وفي الإضافة تجلٍّ لعظمة الخلْق الكونيّ، فالسّماوات والأرض هما أعظمُ مشاهدِ الخلق على الإطلاق، فحين يُضاف إليهما وصفُ: ﴿فَاطِرَ﴾، ففي ذلك تنويهٌ بأنّ اللّه ابتدأ إبداعَهما وإيجادَهما منَ العدم، فينبئُ ذلك عن عظمة قدرةِ اللّه في خلق هذا النّظام الكونيّ المُتقَن الذي يعجزُ البشر عنِ الإتيان بمثله.

وفي الإضافة تأكيدٌ على وحدانيّة اللّه وانفرادِه بالخلق والأمر من غير شريكٍ ولا ظهير، لأنّ اللّه وحده هو الذي شقّ السّماوات والأرضَ وفطرَهما منَ العدم، فلا أحد يدّعي اشتراكَه في ذلك مع اللّه فضلًا عنِ استقلاله به، فكان في الإضافة اتّساقًا مع السّياق الذي يقرّر الوَحدانيّةَ والدّعاء للّه وحده والخضوعَ لمقتضى علمه وحكمِه.

العبدُ عاجزٌ أمام هذا الخلقِ العظيم والتّدبيرِ المُحكَم العجيب

وفي إضافة ﴿فَاطِرَ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في سياق الدّعاء والالتجاء، ربْطٌ للدّعاء والتّضرّع إليه بالمشهد الكونيّ العظيم؛ ليشهد العبدُ تمامَ عجزه وفقرِه أمام هذا الخلق العظيم والتّدبيرِ المُحكَم العجيب، ويشهدَ من ذلك عظمةَ اللّه وطلاقةَ قدرته، وواسعَ حُكْمه وعِلمه، ويوقنَ أنّ مسألته وحاجتَه - بالنّسبة لذلك كلّه - هي أهونُ على اللّه أن يستجيبها ويحقّقَها له، فيورثَه ذلك اليقين والاضطرار إلى جنب اللّه، فيطمئنَّ ويخشعَ.

الإيجادُ الجامعُ العظيمُ المُتحقّقُ عن علمٍ وتقديرٍ دقيقٍ لا يقدرُ عليه إلّا خالقٌ حكيمٌ.

وفي إضافة ﴿فَاطِرَ﴾ إلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ - أيضًا - إشارةٌ إلى هذا التّوازن المُحكَم والدّقيق بين نظامي أعظم المخلوقات بوصفِه فاطرًا للسّماوات والأرض معًا، ممّا يعني أنّ هذا الإيجاد الجامعَ العظيمَ جاء عن علم وتقديرٍ دقيقٍ لا يمكن إلّا لخالقٍ حكيمٍ.

بلاغةُ الطّباق في الجمع بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾:

بلاغةُ الطّباق في الجمع بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ في قوله تعالى:

إظهارُ الشّمول الكونيّ في الخلق الإلهيّ

﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ تتجلّى في إبراز المقابلة بين طرفَين متضادّين في التّصوّر المكانيّ (العلوّ والدّنوّ)، وهذا الطباق مفعَمٌ بدلالاتٍ، منها:

الجمعُ بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ (رمز العلوّ والامتداد الشّاسع ﴿وَٱلۡأَرۡضِ﴾ (رمز الدّنوّ والقرب والاستقرار) يُظهر شمولَ قدرةِ اللّه وملكيّتِه المُطلقة لكلّ شيء، سواء كان بعيدًا في السّماء أو قريبًا على الأرض. فالطّباق هنا يستدعي دلالةَ أنّ اللّه تعالى هو الخالقُ لكلّ ما يُدركه الإنسان وما لا يُدركه. فخلقُ اللّه لا يقتصر على جهة معينة، بل يعمّ الجهاتِ جميعًا، في العلوّ وفي السّفل، بما يؤكّدُ على الإحاطة الكونيّةِ الوجوديّةِ الخاضعة لعظمة اللّه وقدرته، والصّادرةِ عنهما.

الـجـمـعُ بين ضدّين عظيمين مـتـبـايـنَـين في الوظائف والمهامّ مختصٌّ بالله وحده

والطّباقُ بين ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾، يشير إلى العلاقة التّوازنيّة بين العلوّ والسّفل، وما بينهما منَ الالتحام والرّبْط، بالنّظام والميزان، من غير انفكاكٍ ولا تفاوتٍ ولا نفور. ويبيّنُ أنّ اللّه وحده هو القادرُ على خلْق النّظام الجامع بين الأضداد، رغم تباينِها في الوظائف والمهامّ، والمستديمُ لها بالحفظ وعدم الاختلال والتّعطيل والفساد، فيستبينُ بذلك تفرّدُ الإله الحقّ بالعبوديّة والخضوع والتّعظيم. وهذا الأمرُ باعثٌ على التّأمّل التّعبّديّ الذي يزيد الإيمانَ ويعصمُ عنِ الكفر، حين يتأمّلُ الإنسانُ المُفارقةُ العظيمة بين العلوّ الشّاهق للأجرام السّماويّة مع الأرض المستقرّة السّهلة التي هي المأوى والمهاد.

نكتةُ تقديم صفة ﴿فَاطِرَ﴾ على ﴿عَٰلِمَ﴾:

كـمـالُ الـقـدرةِ أصلٌ في الحُكْم

تقديمُ وصفِ ﴿فَاطِرَ﴾ قبل وصف ﴿عَٰلِمَ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: "لأنّ شعور النّاس بقدرته سبحانه سابقٌ على شعورهم بعلمه، ولأنّ القدرة أشدُّ مناسبةً لطلب

الحُكم؛ لأنّ الحكم إلزامٌ وقهر، فهو من آثار القدرة مباشرةً"[1].

فالعلمُ بكونه تعالى قادرًا متقدّمٌ على العلم بكونه عالمًا[2].

نكتةُ فصلِ قوله: ﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

يمتنعُ مع النّعت الوصلُ

قوله: ﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ﴾ كقوله: ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، كلاهما صفةٌ للمنادَى في قوله: ﴿ٱللَّهُمَّ﴾، ولكنّها نُصبت؛ لأنّها مضافة[3]. ولذلك فصِلتْ؛ لأنّ موقع النّعت من موجبات الفصل، فلا يقترنُ النّعتُ بالعاطف.

معنى (ال) في ﴿ٱلۡغَيۡبِ﴾، و﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾:

استغراقُ العلم الإلهيّ لعوالمِ الغيب والشّهادة

(ال) في الغيب والشّهادة في قوله تعالى: ﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ هي (ال) الاستغراقيّةُ، فتفيد العمومَ والشّمولَ لكلّ أفراد الجنس الذي يصدقُ عليه اللّفظُ، أي: كلُّ ما غاب عنِ الحواس والعقول، وكلُّ ما هو مشهود ومعلومٌ ومدرَكٌ بالحواسّ يعلمُه اللّه سبحانه على التّفصيل والإجمال، والدّقّة والتّحقيق، والكمال والتّمام[4].

نكتةُ تقديمِ علم الغيب على الشّهادة:

تأكيدُ انفراد اللّه بالعلم المُطلق وإحاطتِه الشّاملة

تقديمُ علم الغيب على علم الشّهادة في قوله: ﴿عَٰلِمَ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾؛ للتّأكيد على خصوصيّة علم اللّه سبحانه؛ لأنّ علم الغيب أخصُّ وأعظمُ؛ لأنّه مخصوصٌ باللّه وحده، أمّا علمُ الشّهادة فيشترك فيه المخلوقاتُ على قدر ذواتهم، فتقديمُ الغيب؛ لإظهار انفرادِ اللّه بعلمٍ ما لا يمكن لأيّ مخلوقٍ أن يحيط به. وفيه أيضًا تقديمٌ للأصل؛ إذ كلُّ ما يظهر في عالم الشّهادة كان غيبًا قبل الإشهاد عليه، فكان الغيبُ هو منطلَقَ الشّهادة، فقدّمَ الأسبقَ على اللّاحق مراعاةً للتّرتيب الوجوديّ، والتّدرّج المنطقيّ، وتقديمُ الغيب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 31.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 457.
(3) ابن عثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 334.
(4) السامرائي، معاني النحو: 1/ 115.

على الشّهادة فيه تعظيمٌ لمقام اللّه سبحانه الذي يعلم ما غاب قبل ما ظهرَ، ممّا يؤكّد إحاطتَه الشّاملةَ والكاملة. ولا يخفى ما في هذا التّقديم منَ الإشارة إلى كمال عِلمِ اللّه سبحانه؛ لأنّ العِلمَ بالغيب أصعبُ وأعمقُ وأبعدُ منَ العلم بالشّهادة التي هي أقربُ وأيسرُ وأوْلَى، فقدّمَ ما هوفي القدرة أمْكَنُ وفي العِلمِ أكملُ.

موقعُ جملة: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾:

جريانُ الجملة الدّعائيّة على الاستقلال والانفصال

جملةُ: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾ جوابُ النّداء، كأنّه قيل: (يا اللّه أنت تحكم بين عبادك)، أي: احكم لي. فالجملة خبرٌ في معنى الدّعاء، ولذلك فصلتْ؛ لأنّها جملة دعاءٍ، والدّعاءُ يقتضي الانفصالَ والاستقلالَ في النّظم، كما اقتضى الانفصالَ والاستقلال في الواقع والحال والتّوجّه والقصد، ولذلك لم توصل الجملةُ بعاطفٍ[1].

نكتةُ مجيءِ: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ﴾ بصيغة الخبر لا الإنشاء:

تأكيدُ نفاذِ الحكم الإلهيّ

لم يُقَلْ في السّياق الكريم: (احكم بين عبادك) بصيغة الدّعاء، بل جاء بصيغة الخبر: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾، مع أنّه في مقام الدّعاء، وذلك لِنكاتٍ، منها:

التّأكيدُ على الواقع الثّابت، وهو أنّ حكم اللّه بين العباد أمرٌ واقعٌ وقطعيٌّ، سواء دعا أحدٌ بذلك أو لم يدعُ! وحكمُه تعالى نافذٌ في خلقه، وأنّ ذلك لا يتوقّفُ على رغبة أحدٍ أو رفضِه، يُجلّي عظمةَ اللّه سبحانه في الاستغناء والاستعلاء والجلال، فلا يُحوِجُه منْعُ المانعين، ولا يستعجله إلحاحُ المُلحّين.

التّنبيهُ بصيغة الخبر على أنّ حكم اللّه بين عباده جارٍ على ثبوت ما قبْلَه من كونه سبحانه فاطرَ السّماوات والأرض وعالمَ الغيب والشّهادة، فحكمُه بين عباده شأنٌ له سبحانه مطّردٌ ودائمٌ ومستمرٌّ؛

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 31.

لبنائه على مُقتضى صفاتِه الدّائمةِ الثّابتةِ، فكان لا بدّ من مجيء هذه الجملة بصيغة الخبرِ لا الدّعاء، اطّرادًا على نسَقِ النّظم. وفي ذلك تنبيهٌ بصيغة الخبر على حتميّة حكم اللّه وأنّه لا ملجأ ولا منجا منه إلّا إليه، فلا مَفَرَّ من حكمه وأمره؛ لأنّه جارٍ في العباد طوعًا وكرها.

التّيقّنُ من وقوع حُكمِ الله تعالى تعزيزٌ لثقة المؤمنين في ربّهم

ومجيءُ الجملة بصيغة الخبر يعزّزُ ثقةَ المؤمنين في ربّهم؛ لأنّهم يعلمون أنّ حُكمَ اللّه واقعٌ لا محالةَ، وإن لم يسألوه أو يستنزلوه بالاستغاثة والتّضرّع، فيطمئنّوا ويستريحوا. ويتعزّزَ لديهم مراعاةُ المسؤوليّة تجاه خالقِهم، وهي مسؤوليّةُ التّسليم والرّضا لِما حكمَ به اللّه، فهذا التّوجّه إلى اللّه بالدّعاء في صورة الخبر يُظهرُ تواضعَ العبد واعترافَه بأنّ اللّه هو الحكَمُ القادرُ - وحده لا شريك له - على الفصلِ فيما اختلف فيه النّاس وتنازعوا.

نكتةُ تقديمِ الضّمير على المُسنَدِ الفعليِّ:

قصرُ الحاكميّة على الله تعالى وحده تعظيمٌ للذّات الإلهيّة

في قوله: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ﴾ قدّمَ الضّميرَ ﴿أَنتَ﴾، على المسند الفعليِّ: ﴿تَحۡكُمُ﴾؛ لإفادة الاختصاصِ والحصرِ، أي: أنت وحدك تحكمُ، لا غيرُك[1]. ولا يخفى ما في تقديم الضّمير ﴿أَنتَ﴾ العائدِ على الذّات الإلهيّة من توكيد؛ إذْ إنّ مدارَ القصد على ذاته سبحانه، ومُبتدأ التّوجّهِ ومُنتهاه إليه، ولذا قدّم ضميرَ العزّة والجلال: ﴿أَنتَ﴾، والتّقديمُ من باب تقديم الذّات على الفِعل، فالحُكمُ بين العباد من أفعال الذّات، فحقيقٌ بالذّاتِ أن تسبقَ الفِعل وتتقدّمَ عليه.

بلاغةُ الكنايةِ في قصر المُسنَدِ الفعليِّ على المُسنَد إليه:

الـردُّ على الشّكوك وتأكيدُ استقلاليّة الحُكمِ الإلهيّ

تقديمُ المسندِ إليه على المسند الفعليّ في قوله: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾ فيه - كما سبق - قصرُ الحكم بين العباد على اللّه ﷻ، فهو قصرٌ للمسنَد على المسنَد إليه، وهذا التّركيبُ لا يعني - فقط

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 31.

- حصرَ الحكم في اللّه تعالى، بلِ القصرُ المستفادُ منَ التّركيب يستلزم تلويحًا كنائيًّا غيرَ مباشر إلى تشكيك بعضِ النّاس في هذا الحكم أو رفضِهم له، أو ظنِّهم أنّهم قادرون على حسم الاختلافات بعيدًا عن أحكام اللّه، فكان في القصر المستفاد منَ التّركيب تنبيهٌ لهؤلاء بأنّ حكمَ اللّه هو فصلُ الخطاب في هذه الخلافات، وأنّه يجبُ عليهم التّواضعُ والانصياعُ لهذا الحكم. كما أنّ في تكليف الرّسول ﷺ أن يقول ذلك القول: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾ إيماءً إلى عُذْرِ النّبيّ ﷺ، في أنّه أدّى الرّسالةَ على أكملِ وجهٍ، وبذلَ قُصارى جهده، وما خرج عن ذلك فحكمُه إلى اللّه وحده، وما عليه إلّا البلاغُ، ففي التّركيبِ وما أفاده منَ القصر: وعيدٌ لأولئك المتحرّينَ الأحكامَ من غير طريق اللّه، وتسليةٌ للنّبيّ ﷺ أنّه أدّى ما عليه[1].

دلالةُ التّعبير بالمضارع: ﴿تَحۡكُمُ﴾:

استمراريّةُ حكمِ اللّه ودوامِه في جميع الأوقات والأحوال

يفيد التّعبيرُ بالمضارع في قوله تعالى: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾ الاستمراريّةَ والدّوامَ في الحُكم، فحكمُ اللّهِ دائمٌ ومستمرٌّ بين عباده في جميع ما يختلفون فيه، فالمضارع يُظهرُ أنّ حُكمَ اللّه جارٍ في جميع الحالات والأوقات. فالتّعبيرُ بالمضارع يعكسُ قدرةَ اللّه المطلقةَ في استمرار الأحكام التي تستغرق كلَّ اختلافٍ في كلّ وقت. وأيضًا التّعبيرُ بالمضارعة فيه إيماءٌ إلى العباد بالاطمئنان والسّكينة كلّما جدّ لهم نزاعٌ أو خلاف؛ لأنّ حكم اللّه قائمٌ فيهم لا يخلو عنهم إذا طلبوه وآنسوا إليه، ففي تلك الصّيغة إيناسٌ وكفايةٌ للدّاعي المتوسِّل.

نكتةُ العدولِ عنِ الإضمار إلى الاسم الظّاهر:

شمولُ الحكم الإلهيّ وصلاحيّتُه لجميع العباد

عدل السياق القرآني في قوله: ﴿بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾ عنِ الإضمار إلى الاسم الظّاهر، فلم يَقُلْ: (تحكم بيننا)، "لِما في ﴿عِبَادِكَ﴾ منَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 32.

العموم؛ لأنّه جمعُ مضافٍ فيشمل الحكم بينهم في قضيّتهم هذه والحكمَ بين كلِّ مختلفين؛ لأنّ التّعميم أنسبُ بالدّعاء والمباهلة"[1].

نكتةُ إضافةِ العبادِ إلى ضمير الجلالة:

تعزيزُ الخضوعِ لحكم الله بعلاقةِ العبوديّة

إضافةُ (العباد) إلى ضمير الجلالة في قوله: ﴿تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾ يُعرِّف العبادَ[2] ويشرِّفُهم ويذكِّرُهم بالعلاقة الخاصّة والوثيقةِ بين اللّه ﷻ وعباده، ففي الإضافة إلزامٌ لهم بقَبولِ حكم اللّه فيهم؛ لأنّهم عباده، فلا يَسَعُهم إلّا الانقيادُ لحُكمه، وفي الإضافة إشعارٌ باستحقاق اللّهِ عليهم أن تجريَ عليهم أحكامُه، فلا يخرجون عن مُراده؛ لأنّهم عبادٌ له يملكُهم ويأخذُ بنواصيهم إليه. ولذلك عبّر بالعباد، فلم يَقُلْ: (تحكم بين النّاس)، أو (الخلق) أو غيرَ ذلك؛ لإظهار المحكومِ عليهم بمظهر العبوديّة الدّائم الذي لا ينفكّ عنهم طوعًا أو كرهًا، فيقتضي منهمُ الخضوعَ والتّعظيمَ لحكم اللّه، وليس الإباء أوِ الاستكبار عليه.

دلالةُ التّعبير بالموصول وصلتِه:

شموليّةُ حكم الله لجميع حالات الاختلاف

الاسمُ الموصولُ (ما) في قوله: ﴿فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أفاد العمومَ والشّمولَ[3]، فحكمُ اللّه يشملُ جميعَ الحالات التي يختلف فيها النّاسُ، من دون تخصيصٍ، سواء كانت في أمور دينيّةٍ أو دنيويّةٍ، مهما كان تباينُها وتعدّدُها. فالتّعبيرُ بالموصول وصلتِه أفاد فاعليّةَ حُكم اللّه سبحانه وقطعيّتَه في جميع ما اختلف فيه النّاس، ويشيرُ مضمونُ الصّلة: ﴿كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾ أيضًا إلى عِلّيَّة الحكم، كأنّ وقوع الاختلاف بين النّاس عِلّةٌ تستدعي الاستحكامَ إلى اللّه سبحانه، والتماسَ قضائه وفصلِه.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 31.
(2) السامرائي، معاني النحو: 3/ 123.
(3) السامرائي، معاني النحو: 1/ 131.

بلاغةُ الإتيانِ بفعل الكون صلةً لـ(ما):

استمراريّةُ الاختلاف يُظهرُ تمكّنَه منهم

الإتيانُ بفعل الكون صلةً لـ(ما) الموصولة، في قوله: ﴿فِي مَا كَانُواْ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾؛ للدّلالة على عمقِ الخلاف وتجذُّره واستمراره في الماضي بحيث كان من لوازمهم وعاداتِهم التي لا تنفكّ عنهم، كأنّ اختلافهم تحقّقَ فيهم تحقُّقَ العادات، وفي التّعبير بفعلِ الكون إشارةٌ إلى أنّ حكم اللّه يتناولُ ما استقرَّ وثبتَ من خلافاتِهم التي استمرّتْ من غير فصلٍ فيها، فيأتي أمرُ اللّهِ عليها بالحُكم والفصل، فتنفضُّ وتنحلُّ[1].

نكتةُ تقديمِ شبهِ الجملة ﴿فِيهِ﴾:

الخلافاتُ النّاشئةُ عن ظروفٍ غيرِ مستقرّة تزولُ باعتدال الظّروف

تقديمُ شبهِ الجملة في قوله: ﴿فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ﴾؛ لتخصيص محلِّ النّزاع، ومادّةِ الاختلاف (الأمر المختلف فيه) بالحكم، كأنّه قيل: يحكمُ بينهم في موادّ النّزاعِ خاصّة التي تحقّقَ خلافُهم فيها وتجذّرَ وتعمّقَ، وأما غيرُ ما هم عريقون في الاختلاف فيه؛ فلا يحكمُ بينهم فيه؛ لأنّها خلافاتٌ عرضيّةٌ غيرُ مقصودة، أو كانت نتيجةَ ظروفٍ غيرِ مستقرّة، فلم تورث نزاعًا حقيقيًّا أوِ افتراقًا حتميًّا، فلا تفتقرُ لحكم. فتقديمُ الجارِّ والمجرور للاختصاصِ، مع مراعاة الفاصلة ألّا تنخرمَ[2].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 31.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 525.

﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ٤٧﴾ [الزمر: 47]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

حكمُ اللهِ على المشركين وفصلُ الخلافِ بين المؤمنين والكافرين

لمّا ذكر في الآية السّابقة دعاءَ نبيّه ﷺ بالحكم بين عباده فيما اختلفوا فيه، وكان أعظمَ الاختلاف اختلافُ أهلِ الإيمان مع المشركين الذين استبشروا عند ذكر آلهتهم، واشمأزّوا عند ذكر الله، ذكر هنا في هذه الآية ما يدلّ على جوابه لدعاء رسوله، ببيان حكمِه على المشركين الظّالمين الذين ادّعوا أنّ لهم الحسنى، بمجازاتهم بما يستحقّون، بما يحسمُ الاختلافَ الحاصل بين العباد مؤمنِهم وكافرِهم. فذكر في وعيدهم أشياءَ أولُّها: أنّ هؤلاء الكفّار لو ملكوا كلَّ ما في الأرض من الأموال وملكوا مثلَه معه لجعلوا الكلّ فديةً لأنفسهم من ذلك العذاب الشّديد. وثانيها: ظهورُ أنواعٍ منَ العقاب لهم لم تكن في حسابهم. وثالثُها: ظهورُ آثار تلك السّيئات التي اكتسبوها بتنوّع العقاب ثم يحيقُ بِهِمْ هذا العقابُ من كلّ الجوانب جزاءَ ما كانوا يستهزئون به، فنبّه تعالى بهذه الوجوه على عظم عقابهم[1].

ومنَ المناسبات أنّه "لمّا نفى صلاحيةَ الوكالة على النّاس في الهدى والضّلال لغيره ودلَّ على ذلك بمُلكِه ومِلكِه وأخبر بتعمّدِهم الباطلَ، أنتج ذلك وجوبَ اللّجوء إليه والإعراضِ عمّا سواه وقصرِ العزم عليه فقال: مُعْلِمًا بذلك ومُعَلِّمًا لما يُقال عند مخالفة الدّاعي باتّباع الهوى: ﴿قُلِ﴾"[2].

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 458.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 523 - 524.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَٱفْتَدَوْا۟﴾: (فدي) أصل يدل على جعل شيءٍ مكانَ شيءٍ حِمًى لَهُ، يُقالُ: فَدَيْتُهُ أفديهِ، كأنَّكَ تَحميهِ بنَفسِكَ أو بشيءٍ يُعَوِّضُ عنهُ[1]، والفِدَى: جَمعُ فِديَةٍ. والفِداءُ: ما تَفدي به وتُفادي. والفِعلُ: الافتِداءُ[2]. وافتَدَى: إذا بَذَلَ ذلك عن نَفسِه[3]. وتَفادَى القومُ: استَتَرَ بعضُهم ببعض مَخافةً، وتَفَدَّيتُه وفَدَّيتُه واحدٌ[4]. والمقصودُ بـ ﴿لَٱفْتَدَوْا۟﴾ في الآية: إعطاءُ شيءٍ بدلًا عَن حَقٍّ للمُعطَى.

2) ﴿وَبَدَا﴾: (بدو) أصلٌ يدلُّ على ظهورِ الشَّيءِ ظهورًا بيِّنًا[5]، لكونه مطلعَ ظهور الشّيء وبدايتَه، ولذا لا يحتاجُ إلى مجهودٍ في استظهاره واكتشافِه؛ لأنّ أوائلَ الأشياء واضحةُ الظّهور؛، و"بدوتُ أبدو إذا ظَهَرْتُ. وبدا لي الشّيءُ بَدْواً وبُدوّاً إذا ظهر لك. وكلّ شيء ظهر لك فقد بدا لك"[6]. ومِنْ ذلكَ: البَدْوُ، وهو خلافُ الحَضَرِ، ويقالُ للمقيم بالباديةِ: بادٍ[7]، وسُمّيَتِ الباديةُ بذلكَ؛ لأنَّها يظهرُ كلُّ ما فيها؛ لخُلوِّها مِنْ ساترٍ[8]. والمرادُ بالبُدوِّ هنا: الظُّهورُ[9].

3) ﴿يَحْتَسِبُونَ﴾: (حسب) أصل يدل على العدّ والكفاية. يقال: حَسَبْتُ الشيءَ أَحْسُبُهُ حَسْبًا وحُسْبانًا، أي: عددتّه. ومن قياس الباب: (الحِسْبان) بمعنى: (الظّنّ)؛ لأنّه إذا قال: (حسِبْتُه كذا، فكأنّه قال: هو في الذي أَعُدُّه منَ الأمور الكائنة[10]. فآل إلى معنى العدّ. ويقال: حسْبُك من كذا، أي: يكفيك منه. والمعنيان (العدّ والكفاية) متلازمان؛ لأنّ في العدّ كفايةً عنَ الخطأ والوهَم في التّقدير. ومن ذلك اسمُ الله: الحسيب. الكافي عبدَه بتمام التّقدير وحسْن التّدبير. ومنه الحَسَب: مفاخرُ الإنسان في آبائه الذين يَعُدُّهم ويكتفي بهم

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فدي).
(2) ابن عبّاد، المحيط في اللّغة: (فدى).
(3) الرّاغب، المفردات: (فدى).
(4) الخليل، العين: (فدي).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بدو)، والراغب، المفردات: (بدا).
(6) ابن دريد الأزديّ، جمهرة اللّغة: (بدو).
(7) الراغب، المفردات: (بدو).
(8) السَّمين، عُمْدَة الحُفَّاظ: (بدو).
(9) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 302، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 94.
(10) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسب).

عمّا سواهم، وله في عدّهم وذِكْرِهِم مَنَعَةٌ وكفاية. والاحتسابُ هنا في الآية: "مبالغةٌ في الحساب بمعنى الظّنّ، مثل: اقترب بمعنى قرُب. والمعنى: ما لم يكونوا يظنّونه"[1]. فمعنى ﴿مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾: "ظنّوا أنّ أعمالهم في شِركِهم تنفعُهم، فلم تنفع"[2].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

مصيرُ الظّالمين يومَ القيامة وعجزُهم عنِ الافتداء منَ العذاب

تتحدّث الآية الكريمة عن حال الظالمين يومَ القيامة وما سيواجهونه من أهوال وشدّةٍ، "وأنّهم على - الفرض والتّقدير - لو كان لهم ما في الأرض جميعًا، من ذهبها وفضّتها ولؤلؤها وحيواناتها وأشجارها وزروعِها وجميعِ أوانيها وأثاثِها، ومثلُه معه، ثم بذلوه يومَ القيامة ليفتدوا به منَ العذاب ويَنجوا منه، ما قُبِل منهم، ولا أغنَى عنهم من عذاب الله شيئًا"[3]. وظهر لهم يومئذٍ من أمر الله وعذابِه ما لم يكونوا يحتسبون في الدّنيا أنّه نازِلٌ بهم[4].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

معنَى الواو:

نزولُ حُكمِ الله بالظّالمين على غايةٍ منَ الشدّةِ والقهر

جملةُ ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ استئنافيّةٌ مسوقةٌ "لبيان آثار الحُكم الذي استدعاه النّبيّ ﷺ، وغايةِ شدّتِه وفظاعتِه، أي: لو أنّ لهم جميعَ ما في الدّنيا منَ الأموال والذّخائر"[5]. ويصحُّ أن تكون الجملةُ معطوفةً على مُقدَّر، مفهوم من قوله: ﴿أَنتَ تَحۡكُمُ بَيۡنَ عِبَادِكَ﴾، والتّقديرُ: فأنا أحكم بينهم وأعذّبُهم، ولو علموا ذلك ما فعلوا ما فعلوا، والأوّلُ أظهرُ[6].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 33.
(2) ابن الجوزي، تذكرة الأريب، ص: 332.
(3) السعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 726.
(4) نخبة من العلماء، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد، ص: 463.
(5) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 258.
(6) القونوي، حاشية القونوي: 16/ 543.

معنَى (لو):

(لو) في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، شرطيّةٌ امتناعيّةٌ - امتناعَ الجواب؛ لامتناعِ الشّرط[1]، فالجوابُ: ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ﴾ ممتنعٌ؛ لامتناع الشّرط: وهو أن يكون لهم ما في الأرض جميعًا.

تصويرُ استحالةِ الفداء لمن لا يملكُ

فائدةُ التّعبير بالجملةِ الشّرطيّةِ:

التّعبير بالجملة الشّرطيّة في قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ بليغٌ في تقرير الوعيد، وإظهارِ شدّة العذاب يومَ القيامة، فالافتراضُ الحاصل في جملة الشّرط وجوابِه يكشفُ عن هَوْلِ الموقفِ وشدّته. فالشّرطُ يقرّر استحالةَ النّجاة بالعوض أوِ الفداء مهما بلغ حجمُه، ممّا يزيد من شعور الظّالمين بالنّدم واليأس يومَ القيامة، فالجملةُ الشرطيّة أظهرتِ الوعيدَ، وأظهرت عجزَ الظّالمين وانقطاعَ حيلتهم. وفي تعليق الجواب على الشّرط بالامتناع في الآية - ينبّهُ السّامعَ إلى بشاعة الظّلم المذكور في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، والذي وصل بهم إلى هذا المستوى منَ الحرمان وعدمِ القَبول؛ فأسلوب الشّرط يُحفّزُ الأذهان إلى النّظر في العواقب، ومفارقةِ الظّلم قبل فواتِ الأوان.

استحالةُ النّجاة بالعوض أوِ الفداء يزيدُ من شعور الظّالمين بالنّدم واليأس يومَ القيامة

نكتةُ تقديمِ خبر ﴿أَنَّ﴾ على اسمها:

تقديمُ الخبر في قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾، بدلًا من قول: (ولو أنّ ما في الأرض للذين ظلموا)؛ للاختصاص والاهتمام بسببِ الوعيد، وهو الظّلمُ، فيُستَنبَه القارئُ أوِ السّامعُ بالسّبب الجوهريِّ - أوّلًا - الذي انبنى عليه الوعيدُ، فيستسيغُ ويتوقّعُ ما يجيء بعد ذلك من حرمانِ الفداء وامتناعِ الخلاص؛ فقدّم الخبرَ مراعاةً لأولويّة الاهتمام.

تسليطُ الضّوء على محوريّة الظّلم في استجلاب العقوبة

معنى اللّام في: ﴿لِلَّذِينَ﴾:

اللّام في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ هي لامُ الملك أوِ الاختصاص،

لامُ الملك أوِ الاختصاص

(1) السامرائي، معاني النحو: 4/ 89.

وتفيد أنّ هذا الملكَ الافتراضيَّ ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ قد أصبح مختصًّا بالظّالمين أو في حوزتِهم لو تحقّق هذا الافتراضُ.

غرضُ التّعبير بالموصول وصلتِه:

في تحديد صفةِ الظّلم بذواتِهم تقبيحٌ لهم

التّعبيرُ بالموصول وصلتِه في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ يفيدُ العِليّةَ والرّبطَ بين الظّلم والعقوبة، فالظّلمُ الذي ارتكبوه هو السّببُ في استحقاقهم الوعيدَ المذكورَ. ولو قيل: (ولو أنّ للظالمين)، لأصبح التّعبيرُ عامًّا وشاملًا لكلّ مَن يتّصفُ بصفة الظّلم دون إفادة العِلّيّة. كما أنّ التّعبير بالموصول أفادَ إجراءَ مضمون الصّلة (صفة الظّلم) على ذواتهم، وفي ذلك تقبيحٌ لهم، مع تخصيصهم بالتّعيين والتّحديد، فهو يشيرُ إلى فئةٍ معيّنة اتّصفتْ بالظّلم، فاستحضَرَها بأشخاصِها والظّلمُ مُنطبِعٌ فيهم، بادٍ على ذواتهم، كأنّما يُشْهِدُ على ظلمِهم وهم متلبِّسون به.

معنى ﴿مَا﴾:

شموليّةُ الملكيّةِ الافتراضيّةِ في السّياق العقابيّ

﴿مَا﴾ في قوله سبحانه: ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا﴾ اسمُ موصولٌ، كأنّه قيل: (ولو أنّ للذين ظلموا ملكَ الذي في الأرض جميعًا)، فأفادت ﴿مَا﴾ هنا العمومَ والشّمولَ لكلّ ما تحويه الأرضُ من أملاكٍ وأموالٍ وثرواتٍ وخيراتٍ من غير استثناء[1]، كأنّه قيل: (لو أنّ لهم كلّ الذي في الأرض). وكأنّ ﴿مَا﴾ هنا تفسِحُ المجالَ للتّفكّر في استحالةِ امتلاكِ الإنسان كلّ ما في الأرض، ممّا يزيد في حسرة الظّالم، ويُضخِّمُ في حجم تلك الملكيّةِ الافتراضيّة، ويعظِّمُها، فيقوّي الافتراضَ؛ لغرض تهويلِ عجْزِهم والمبالغةِ في هوانِهم وانقطاعِ حيلِهم. كما أنّ مضمونَ الصّلة: ﴿فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ - على تقدير: (لهم ما استقرّ في الأرض) - أفاد في تعيين محلِّ الملكيّة، وهو مستودعاتُ الأرض كلّها مجتمِعةً بكنوزها ومواردِها وموجوداتِها.

(1) السامرائي، معاني النحو: 1/ 131.

سرُّ التّوكيد بالحال ﴿جَمِيعًا﴾:

أكّد تعيين محلِّ الملكيّة في قوله تعالى: ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾ - بما تحويه الأرض من مواردَ وثرواتٍ - بلفظ ﴿جَمِيعًا﴾ بيانًا لعظمة الأمر[1]. لذلك قوّى به معنى العموم والشّمول المتحصّل من ﴿مَا﴾ الموصولة.

نكتةُ التّعبير بالمثليّة: ﴿وَمِثۡلَهُۥ﴾:

إبـــرازُ ضـآلـةِ الفداء أمام هولِ العقاب

أصلُ المثل: المثيلُ، والمشابهُ تمامَ المشابهة، وشاع إطلاقُه على الشّيءِ المشابِه المكافئ[2]. وعَطْفُ قوله: ﴿وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ بعد قوله: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا﴾ مبالغةٌ في تأكيدِ استحالةِ الفداء، كأنّه قيل: حتّى لو امتلك الظّالمون ليس فقط كلَّ ما في الأرض، بل ضعفَ ذلك، فلن يُغنيَهم شيئًا. وفيه منَ الإدهاش ما يدفع الإنسانَ للتّفكير في مدى هولِ العذاب، بحيث لا يُغني عنه أعظمُ ما يمكن تصوّرُه. وفي تعبير المثليّة كنايةٌ عن حقارة الدّنيا بأسرها بحيث لم تنفع شيئًا في دفع العذاب، وكنايةٌ عن قيام حقيقةِ الإنسان على العجز والافتقار التّامّ؛ إذ إنّه لو ملك أقطارَها وأضعافَ ذلك، فسيظلُّ عاجزًا أمام مجابهة العذابِ ودفعِه.

فائدةُ تقييدِ المثليّة بالمعيّة[3]:

تضخيمُ الملكيّةِ المفترضةِ وشمولُها، وإظهارُ عبثيّةِ الفداء

الضّميرُ في قوله: ﴿مَعَهُۥ﴾ عائدٌ على: ﴿مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، أي: لهم مِلْك ما في الأرض ومِثْل هذا الملك كائنًا معه. وكلمة: ﴿مَعَهُۥ﴾ تناظِر كلمةَ ﴿جَمِيعًا﴾ فكلاهما يفيدُ تضخيمَ الملكيّةِ المفترَضَة، وكلاهما أفاد معنى الجمعِ والاقتران، أي: لهم كلُّ ما في الأرض مُجتَمِعًا، احترازًا أن يحصل لهم على جهة التّقطيع أوِ التّوزيع أو دفعاتٍ مرّةً تلو مرّة. وكذلك لو ملكوا مثلَ ذلك، وكان مُقترنًا به، مُنْضَمًّا إليه.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 526.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 1/ 337.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 526.

احترازًا من أن يحصلَ لهم المِثْل مفترِقًا عن مِلك ما في الأرض جميعًا، أو مُعاقِبًا وتاليًا له، فجاء بالمعيّة؛ ليدلّ على اصطحابِ وانضمام هذين المِلْكَين في وقت واحد: ملكُ ما في الأرض، وملكٌ مثلُه؛ ليقعَ المِلك المفترضُ على أقصى حدٍّ له في الاتّساع، فإذا لم ينجع ولم ينفع - على اتّساعه - في دفع العذابِ، عاد ذلك الملك ضئيلا غيرَ مؤثّر، وثبتَ أنّ العذاب أوسعُ وأعظمُ.

معنَى اللّام في ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ﴾:

التّهكمُ بالظّالمين تأكيدٌ لاستحالة النّجاة

اللّام في قوله: ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ﴾ واقعةٌ في جواب الشّرط، وهي لتوكيد وقوعِ العاقبةِ والنّتيجة التي هي مضمونُ الجواب حالَ تحقّقِ الشّرط، وفائدةُ التّوكيد هنا: التّسجيلُ على الكفرة والتّهكّم بهم في ادّعائهم أنّهم لا يذلّون لشيءٍ ولا يوْهِن قواهم شيءٌ[1].

نكتةُ حذفِ معمولِ الفداء في: ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ﴾:

حذفُ معمولِ الافتداء في قوله: ﴿لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ﴾؛ إيجازًا؛ لظهوره بدلالة ما قبْله عليه، والتّقدير: (لافتدوا به أنفسهم)[2].

دلالةُ (افتعل) في: (افتدى):

لن ينفعَ سعيُ الظّالمين اليائسُ للخلاص وإنِ اجتهدوا

لم يُقل في السّياق الكريم: (لَفَدَوا به)، بل عُبّر بصيغةِ الافتعال، (افتعل - افتدى)؛ للدّلالة على أنّه لو كان لهم ذلك؛ لاجتهدوا وبالغوا في محاولة الفداء، لانطوائِهم على اليأس والجزع، واستبعادِهم أن يُغاثوا أو يُنصَروا. فالتّعبيرُ بتلك الصّيغة فيه تلويحٌ باستحالة الفداء، وإياسِهم منَ النّجاة[3].

معنَى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ﴾:

﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ﴾، سببيّةٌ، أي: بسبب العذابِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 526.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 526.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 526.

تجنّبُ العذاب تمامًا من بدايته ومنشئِه

السّيئَ الذي شاهدوه افتدوا به. ويجوز أن تكون للبدل، أي: بدلًا عن ﴿سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ﴾[1]. وهي في ذلك لم تنفصل عن معنى الابتداءِ، أي: أنّ الفداء هنا موجّهٌ للتّحرّر من أصل العذابِ الذي يمثّلُ منشأَ المعاناة، فالافتداءُ هو دفْعٌ لبداية العذاب أن تصيبَهم، كأنّه قال: يحاولون الفداءَ ليكون العذابُ غيرَ واقع عليهم ابتداءً.

نكتةُ إضافةِ السّوء إلى العذاب:

المبالغةُ في وصف العذاب تصويرٌ لهولِه وعمقِ ألَمِه

إضافةُ السّوء إلى (العذاب) في قوله: ﴿سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ لبيان شدّةِ العذاب، وأنه عذابٌ بالغُ القسوةِ والإيلام بسبب سوْءِه. ووجهُ المبالغة: أنّ كلمة (العذاب) تحملُ معنى العقوبة، لكنّ إضافةَ الـ﴿سُوٓءِ﴾ تُعطي تخصيصًا نوعيًّا لهذا العذاب، بأنّه نوعٌ منَ العذاب سيّئٌ للغاية، بما اشتمل عليه من أذىً نفسيٍّ وإيلام جسديٍّ بالِغ. وهذه الإضافةُ تزيد الرّهبةَ في النّفوس؛ لأنّ كلمة الـ﴿سُوٓءِ﴾ تحملُ معانيَ القُبح والشّرّ، وإضافتُها للعذاب تُضخّمُ الشّعورَ بالرّعب والرّهبة من هذا العقاب، وتجعلُ السّامع يتخيّل عذابًا يفوق الوصفَ في قسوته وقبحه. فالتّعبيرُ بـ﴿سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ﴾ يجعلُ إدراكَ فداحةِ العذاب أكثرَ وضوحًا؛ لأنّ لفظَ السّوء يكثرُ استعمالُه في النِّقَم والمصائبِ المُزعجة، فيُقابلُه في الذّهن فضائلُ النّعم وزوائدُ الخيرات، فتتجلّى حقيقةُ العذاب وتتمايزُ بإدراك ذلك الضّدّ.

وفي الإضافة أيضًا إثارةٌ لمشاعر الإذلالِ والمهانةِ في الذّهن. ممّا يُظهرُ أنّ العذاب يومَ القيامة يجمعُ بين الآلام الجسديّة والنّفسيّة.

معنى(ال) في: ﴿ٱلۡعَذَابِ﴾:

تحديدُ عذابِ الآخرة وشدّتِه

(ال) في العذاب في قوله: ﴿سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ﴾؛ عهديّةٌ تُشير إلى عذابٍ مُعيَّن ومعروفٍ، وهو عذابُ يومِ القيامة، بقرينة قولِه بعده: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 33.

فائدةُ الظّرفيّة ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾:

ارتباطُ العذابِ بهولِ يومِ الحساب

التّقييدُ بـ ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ في قوله: ﴿سُوٓءِ ٱلۡعَذَابِ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ﴾ يُحدّدُ أنّ العذابَ المذكور هو عذابُ الآخرة، ممّا يُزيل أيَّ لبس عن نوعِ العذاب المقصود. والجمعُ بين ذِكْرِ العذاب وذِكْرِ يوم القيامة يُضخّمُ من هول العقابِ في أذهان السّامعين[1]. وفي التّقيّد بيوم القيامة إلماحٌ إلى وقوع ذلك العذاب بالعدل والاستحقاق، فكونُه يومَ القيامة، يلزم عنه أنّه لا ظلمَ فيه، ولا زيادةَ فيه على مقدار الاستحقاقِ والعدلِ؛ لأنّه عذابُ حسابٍ وجزاء.

ثمّ إنّ عذابه ليس كعذاب الدّنيا، بل هو عذابٌ غيبيٌّ لا يقدرُه قدرَه إلّا اللّه سبحانه، ولا يعلمُ مدى هولِه واستمرارِه وبشاعتِه إلّا هو.

بلاغةُ الاستعارةِ التّمثيليةِ في مضمون الشّرطيّة:

يومَ الحساب لا ينفعُ الظّالمين مُلكٌ أو فداء

في جملة الشّرط: ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦ﴾ استعارةٌ تمثيليّةٌ، بتشبيه حالِهم بحال من يحاولُ التّخلّص والفداءَ ممّا هو فيه بما ذكِرَ منَ الأملاك العظيمة، فلا يتقبّلُ منه، بجامع لزومِ البلاء وثبوتِه في كلٍّ، وجملةُ الشّرط جاريةٌ على فرضِ المحال؛ للإقناط والوعيد[2].

معنَى الواو في قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم﴾:

الجمعُ بين الافتراض التّهديديّ والتّقريرِ التّحقيقيّ

جملةُ: ﴿وَبَدَا لَهُم﴾ معطوفةٌ على الجملة الشّرطيّة ﴿وَلَوۡ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾، جمعًا بين الافتراض التّهديديّ، والتّقرير التّحقيقي. أي: لو كان لهم ذلك الافتراضُ ما نفعَهم ولا قُبِل منهم، وسيلْقون بالفعل ما لم يخطرْ لهم ببالٍ من سوء العاقبة وخزيِ المصير[3].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 526.

(2) القونوي، حاشية القونوي: 16/ 543.

(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 526.

ويصحُّ أن تكون الواو حاليّةً؛ لمزامنة ما بعدَها مع ما قبْلها، أي: لو أنّ لهم ذلك وافتدوا به ما قُبِل منهم؛ لأنّ ذلك كائنٌ في الوقت الذي بدا لهم فيه ما لم يحتسبوه[1]. والواو الحالية تفيدُ أيضًا أنّ ما بعدها ثابتٌ ومتحقّقٌ قبلَ حصول ما قبْلها، أي: الذي بدا لهم ممّا لم يكن في حُسبانهم، حاصلٌ ومتحقّقٌ لهم سواء جرى هذا الافتراض أو لم يجْرِ.

معنَى ﴿مِّنَ﴾:

﴿مِّنَ﴾ في قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ ابتدائيّةٌ، أي: ذلك الذي ظهر لهم مصدرُه اللّه، فذلك الظّهورُ ناشئٌ من جهته ﷻ، فاللّه هو الذي ابتدأه[2].

فائدةُ شبهِ الجملة ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾:

التَّأكيدُ على عدالةِ الجزاء الإلهيّ

التّقييدُ بقوله: ﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾، مع ظهور أنّ ذلك لا يكونُ إلّا منه سبحانه، فلم يقل: (وبدا لهم ما لم يكونوا يحتسبون)، وذلك للتّنصيص على مصدريّة الفعلِ في قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم﴾، فما ظهرَ لهم صادرٌ منَ اللّه مباشرةً، وليس من مصدرٍ آخرَ. وفي ذلك ترهيبٌ للظّالمين، بتعظيم هولِ ما ظهرَ لهم؛ لأنّ ما يصدرُ منَ اللّه يحملُ طابعَ العظمة والإحاطةِ والعدلِ المُطلقِ، ممّا يجعلُهم في مواجهة مباشرة مع قدرة اللّه. وفي صدوره منَ اللّه تعالى إيذانٌ بعدالة الجزاء؛ لأنّ ما ظهرَ لهم منَ الوعيد إذا كان منَ اللّه، فهو أتمُّ في العدالة، وأنفى للظّلم والبخس.

في انتفاء الواسطةِ بينهم وبين الله تعالى تعريضٌ بهم

في الإشارةُ إلى انتفاء الواسطة بينهم وبين اللّه تعريضٌ بهم في اتّخاذ الشّفعاء في الدّنيا، وتناسبٌ مع السّياق قبْله في: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعٗاۖ﴾، فيظهرُ لهم منَ اللّه مباشرةً ما يتحسّرون معه على

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 33.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 33.

اتّخاذ وسائطَ بينهم وبينه، فكأنّ الحال: اتّخذتُم مع اللّه شفعاءَ في الدّنيا، واللّه يعذّبكم يومَ القيامة وليس بينكم وبينه شفيعٌ ولا نصيرٌ.

علّةُ إيثارِ ﴿مَا﴾ الموصولة:

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ للإيهام والعموم، والإيهامُ؛ لتهويل ما ينالُهم منَ العذاب، فينفتح بذلك الإيهام في الأذهان مصارع الشّدّة والفزع بلا سقفٍ ولا حدّ[1].

فائدةُ التّعبير بالموصول وصلتِه:

مضمونُ الصّلة يقوّي الجزاءَ بعنصرِ المفاجأة

التّعبير بالموصول وصلتِه في: ﴿مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ أفاد عِلّيّةَ ما ظهر لهم، أي: بدا لهم العذابُ؛ بسبب ظنِّهم السّيّئ، وعدمِ حسابهم الأمورَ بحسابها المستقيم. فضلًا عمّا في مضمون الصّلة: ﴿لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ من بيانٍ لإبهام ﴿مَا﴾ بتقرير أنّ ما بدا لهم شيءٌ خارجٌ عن توقّعاتِهم وظنونِهم. وتقويةٍ للجزاء بعنصر المفاجأة، فالموصول وصلتُه ﴿مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ يؤذِنُ أنّ سببَ الجزاء الشّديد هو غيابُ توقّعهم لهذا العذاب، برغم أنّه نتيجةٌ حتميّةٌ لأعمالهم، فما بدا لهم ليس إلّا استجابةً عادلةً لِما كانوا عليه، فاللّه لم يظلمهم، بل كانت ظنونُهم الباطلةُ وأفعالُهم السببَ المباشرَ لعاقبتِهم، ممّا يُبرِزُ مفهومَ العليّة بوضوح.

فائدةُ فعلِ (الكون):

تأكيدُ استمراريّة الغفلةِ وانطباعِها في النّفوس

عبّر النّظمُ الكريم بقوله: ﴿مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾ ولم يقل: (مالم يحتسبوا)؛ لكونه أمكنَ وأتمَّ في الفاصلة، فاستعمالُ فعلِ الكون جعلَ الفعلَ ﴿يَحۡتَسِبُونَ﴾ مرفوعًا بثبوت النّون التي تمّتْ بها الفاصلة وازدانَتْ. وفيه فضلًا عن هذا تأكيدٌ لعراقتهم في الغفلة[2]، واستمرارِهم على عدم الاحتساب، فلم يكن عرَضًا مؤقّتًا، بل كان

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 33.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 527.

عادةً مستمرّةً لم ينفكّوا عنها، ففعلُ الكون أفادَ في توصيف كيفيّةِ الفعل المنفيّ: ﴿يَحْتَسِبُونَ﴾. على أنّ هذا الاستمرارَ مخصوصٌ بالإطار الزّمني الدّنيويّ، فعدمُ احتسابهم مقتصِرٌ على حياتهم الدّنيا، وأمّا في الآخرة فقد زال الغطاء وانكشف الحجابُ.

الظّالمُ مخطئُ الحسبةَ في كلّ توقّعٍ وظنّ.

ويُلمحُ فعلُ الكون إلى تحقيق عدمِ الاحتساب وشمولِه، كأنّهم أخطأوا الحِسبةَ في كلّ توقّعٍ وظنّ، فلم يصيبوا في موقفٍ أو رؤيةٍ. فضلًا عن كونه يحقّقُ التّناقضَ والمقابلةَ بين ثباتهم على الغفلة بعدم احتسابهم، وجلاءِ أفعالِ الله فيهم وحالِه سبحانه معهم، فهو يزيد المقابلةَ جلاءً مع قوله: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾.

دلالةُ صوغِ ﴿يَحْتَسِبُونَ﴾ على زِنة الافتعال:

سـمـةُ أهـلِ الـتّـفـريـطِ والاستخفاف إهمالُ التّقدير الـصّـحـيـح لعواقب الظّلم

لم يقل في السّياق الكريم: (يحسبون)، بل قال: ﴿يَحْتَسِبُونَ﴾ من (احتسب - افتعل)؛ لينفي عنهم بذلَ الجهد في القدر الواجبِ منَ التّخطيط والتّقدير في حسابِ الحقائق وقياسِها، كأنّه قيل: (لم يبذلوا القصدَ المفروضَ في استبيان وحسابِ ما كُلِّفوا به منَ الإيمان وحُذِّروا منَ الضّلال)، أي: لم يكن منهم تحرٍّ ونظرٌ. ولو قال: (يحسبون)؛ لَمَا أفْهَمَ به عن تقصيرهم الذي أنتج ضلالَهم واستوجب عقابَهم، وهو أنّهم استهزؤوا واستهتروا فلم يُقبِلوا بقصدٍ جادٍّ على ميزان الأمر وحسابِه. فصيغةُ الافتعال: (الاحتساب) مبالغةٌ في الاتّصاف بالفعل وقوّة إيقاعِه والقيام به[1]، والصّيغة كنايةٌ عن خلوّ طبائعِهم منَ الجدّيّة والحزمِ وأنّهم كانوا أهلَ تفريطٍ واستخفافٍ لا أهلَ عزيمةٍ وإنصاف. ولا يخفى أنّ (احتسب - افتعل) تدلُّ على التّدرّج الذي هو حالٌ من أحوال المُحتسِب حين يقدّرُ الأمورَ برويّةٍ وتصاعدٍ في الفِكَرِ والنّظر.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 527، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 33.

الإيجازُ بالحذف يوسّعُ دلالاتِ المفاجأة بالعذاب

نكتةُ حذفِ متعلّق الاحتساب:

حُذفَ متعلّقُ الاحتساب في قوله: ﴿مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ﴾؛ لوضوحه، بما يُغني عنِ التّصريح به، أي: (ما لم يكونوا يحتسبون وقوعَه، أو يحتسبونه)، والعائدُ المحذوفُ مرجعُه إلى الموصول ﴿مَا﴾.

الفروقُ المعجميّةُ:

بدا، وظهَر، وبرزَ:

صدورُ الشّيء بعد ضدّه يميّزُه، ويحقّقُه

أصلُ البُدوّ الظهورُ البيّنُ[1]. لكونِه مطلعَ ظهور الشّيء وبدايتَه، ولذا لا يحتاجُ إلى مجهودٍ في استظهاره واكتشافِه؛ لأنّ أوائلَ الأشياء واضحةُ الظّهور؛ لانطلاقها بعد خفاءٍ وعدَم، والشّيء حين يصدرُ بعد ضدّه يتميّزُ ويتحقّق؛ وهذا هو السّرُّ في تعريفهم البَداء والبدوّ بالظّهور البيّن؛ لِمُباينتِه وانفصالِه عنِ الخفاء الذي كان يسبقُه، ولأنّه في محلّ البداية، وبدايةُ الشّيء أوضحُ ما يكونُ منه[2]. وحين يقال: (أبديتُ الشّيءَ)، فباعتبارين: **الأوّل**: أنّه أظهره بإظهار مبدئِه وأوّلِه. **الثّاني**: أنّه الكشفُ المبدئيُّ عن هذا الشّيء، فهذه بداية الكشْف عنه.

أمّا (الظّهور) فيدلّ على قوّةٍ وبروز[3]. ولذا كان دالًّا على الوضوح التّامّ والجلاءَ الذي لا لبْس فيه ولا مَشوبَةَ. وأصلُ (برز) يدلّ على ظهور الشّيء في فضاء[4]. فهو ظهورٌ خاصّ، بخروج الشّيء من أثناء ما كان يكتنفُه ويُخفيه بجهدٍ وقوّةٍ ونفاذ[5]. ولفظُ البروز يُشعِر أيضًا باقتران الظّهور الحاصل بعنصرِ الإثارة والإلفات والفجأةِ في البينونةِ والمُثول.

(1) الراغب، المفردات: (بدا).
(2) الفيروزابادي، القاموس، المحيط: (بدا).
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ظهر).
(4) الراغب، المفردات: (برز).
(5) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (برز).

وخلاصةُ الفروق: أنّ بدا: بدايةُ الظّهور، ويتصاعدُ بتدريجٍ نحوَ الكمال. ظهر: وضوحٌ تامٌّ مكتمِل. برز: بروزٌ أو خروجٌ مصحوبٌ بلفْتِ الانتباه واستثارة الإدراك. وقولُ اللّه سبحانه في الآية: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُواْ يَحْتَسِبُونَ﴾، يدلّ على أنّ ما ظهر لهم كان أوّلَ مرّةٍ يظهرُ لهم، فقد كان مستورًا عنهم لم يحتسبوه. وأنّ ما ظهر لهم هو مبدأُ الأمر فقط، فهو إشعارٌ بأنّ هناك ما سيكتمِلُ ظهورُه بعد ذلك، فقط هم في بَداوةِ الأمر: أي: بدايتِه وأوّلِه. ومن هنا كان لفظُ (بدا) أنسبَ لسياقِ الآية.

﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ٤٨﴾ [الزّمر: 48]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

ذكرُ جزاءِ العملِ القبيحِ، عَقِبَ ذكرِ بشاعةِ الظّلمِ الصّريح

لمّا حكَى ﷻ عنِ المشركينَ أنَّهم يفرحونَ عندَ ذكرِ آلهتِهم، ويُظهِرونَ الكراهةَ والاشمئزازَ عندَ ذِكرِه تعالى؛ وأكّد أنّه لو كان لهم ما في الأرض جميعاً ومثلُه معه، لقدَّموه افتداءً لأنفسهم من سوء العذاب، ولكنّه لا ينفعُهم؛ لذلك عقَّبَهُ بذكرِ وعيدِهم، ومِنْ جملةِ الوعيدِ ظهورُ آثارِ سيِّئاتِهم واستهزائِهم يومَ القيامةِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سَيِّـَٔاتُ﴾: يدلُّ أصل الكلمة على القُبْح. يُقال: رَجُلٌ أَسْوَأُ، أيْ قَبيحٌ، وامْرَأةٌ سَوْآءُ، أيْ قَبيحَةٌ؛ لذلك سُمّيَتِ السَّيِّئَةُ سَيِّئَةً. وسُمّيَت النّارُ سوأى، لِقُبْحِ مَنْظَرِها[2]. وهي صفةٌ مُشبَّهةٌ مِنْ ساءَهُ، إذا فعلَ بِهِ ما يكرهُهُ، نقيضُ سرَّهُ[3]. والسّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الدُّنيويَّةِ والأُخرويَّةِ، ومِنَ الأحوالِ النَّفسيَّةِ والبدنيَّةِ، والخارجةِ مِنْ فَواتِ مالٍ وجاهٍ، وفقدِ حميم، وعُبِّرَ عن كلِّ ما يَقْبُحُ بالسّوأى، ولذلكَ قوبِلَ بالحُسْنَى، والسَّيِّئَةُ: الفَعْلَةُ القبيحةُ، وهي ضدُّ الحسنةِ. وهي المرادةُ هنا.

2) ﴿كَسَبُواْ﴾: (كسب) أصلٌ يدلُّ على طَلَبٍ وإصابةٍ[4]، ومِنْ ذلكَ: الكَسْبُ، وهو ما يطلبُهُ الإنسانُ ممّا فيهِ جلبُ نفعٍ، ككَسْبِ المالِ، وقد يُستعمَلُ فيما يظنُّ الإنسانُ أنَّهُ يجلبُ منفعةً، ثمَّ استجلبَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 458.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة: (سَوُءَ).
(3) ابن منظور، لسان العرب: (سوء).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كسب).

بِهِ مَضَرَّةً[1]، كما في كسبِ السَّيِّئاتِ، ويقالُ أيضًا: اكتسبَ، إذا تصرَّفَ واجتهدَ[2].

3) ﴿وَحَاقَ﴾: (حيق) أصلٌ يدلُّ على نزولِ الشَّيءِ بالشَّيءِ[3]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: حاقَ بِهِ كذا، أي: نزلَ بِهِ، وأصابَهُ[4]. حاق به الشّيء يحيقُ؛ أيْ: أحاط به. وحلَّ به[5]. والحَيْقُ ما حاقَ بالإنسان مِنْ مَكْرٍ أو سوء عَمَلٍ يَعْمَلُهُ فَيَنْزِلُ ذَلِكَ به ويُحيطه[6]. والمرادُ بـ ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ هنا: نزلَ بهم، وأحاطَ بهم مِنْ جميعِ الجوانبِ، ووَجَبَ لَهُم[7]، وثبتَ ولزمَ[8].

4) ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾: (هزأ) أصلٌ يدلُّ على السُّخرية[9] والاستخفافِ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: استهزأ بهِ يستهزئُ، أي: استخفَّ بهِ[10]، ويُطلَقُ الهُزْءُ أيضًا على المزحِ في خُفيةٍ، والاستهزاءُ: طَلَبُ الهُزْءِ[11]، وهو المرادُ هنا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

ظهورُ سوءِ المعاصي، وخُسرانِ الظّالمينَ يومَ القيامةِ

يُخبِرُ اللهُ تعالى عن حالٍ آخرَ مِنْ أحوالِ الظّالمينَ يومَ القيامةِ، فيقولُ: وظهرَ لهؤلاءِ المشركينَ يومَ القيامةِ آثارُ أعمالِهم السَّيِّئةِ الَّتي كسبوها في الدُّنيا، وأحاطَ بهِم العذابُ الَّذي كانوا يسخرونَ منهُ في الدُّنيا، ويستهزؤونَ بِهِ[12]، أي بدت لهم الأمور الّتي تسوؤهم، بسبب

(1) الرّاغب، المفردات: (كسب).
(2) الزّبيديّ، تاج العروس: (كسب).
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حيق).
(4) الرّاغب، المفردات: (حيق).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (حيق).
(6) ابن منظور، لسان العرب: (حيق).
(7) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 185.
(8) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 535.
(9) ابن فارس، مقاييس اللغة: (هزأ).
(10) السمين، عمدة الحفاظ: (هزأ).
(11) الراغب، المفردات: (هزأ).
(12) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 104.

صنيعهم وكسبهم[1]، فالعذاب يحيط بهم من كلّ جانب، ويوقنون بأنّهم لا نجاةَ لهم منه؛ لكفرهم واستهزائِهم بما كان يُنذرُهم به رسولُ اللّه ﷺ، في الدّار الدّنيا منَ العذاب"[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ الواوِ في جملة ﴿وَبَدَا﴾:

أهمّيّةُ معنى الواو، بين التّفسير والتّقرير

الظّاهرُ أنَّ الواوَ في قولِه تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها، وهي بمنزلةِ التَّفسيرِ لهُ، ببيانِ أنَّ ما لم يكونوا يحتسبونَ هو سيِّئاتُ ما كسبوا[3]. ويحتملُ أنْ تكونَ الواوُ للاستئنافِ، والجملةُ مستأنفةٌ مَسوقةٌ لإبرازِ وعيدِهم في أبلغ ما يكونُ الوعيدُ والتَّهديدُ[4].

سرُّ تكريرِ فعلِ (بدا):

يومُ القيامةِ مآبٌ، تظهر فيه أهوالُ العذاب

كُرِّرَ فعلُ (بدا) في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾، بعدَ ذكرِهِ في قولِه: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمۡ يَكُونُواْ يَحۡتَسِبُونَ ٤٧﴾ [الزمر: 47]؛ لزيادةِ التَّنصيصِ على ظهورِ سوءِ عاقبةِ ظلمِ الَّذينَ ظلموا، بظهورِ ما لم يكونوا يحتسبونَ، وظهورِ سيِّئاتِ أعمالِهم، أي "وظهرَ لهم حين تُعرضُ عليهم صحائفُ أعمالهم، ما كانوا اجترحوه منَ السّيئات، وارتكبوه منَ الآثام، وعلموا أنّهم مُجازون على النّقير والقِطمير، وأحاط بهم العذابُ من كلّ جانب، وأيقنوا أنّهم مواقعوه لا محالةَ"[5]، وفي ذلكَ زيادةُ وعيدٍ وتهديدٍ لهُم، تلائمُ مقامَ ذكرِ يومِ القيامةِ الَّذي تُكشَفُ فيه الحقائقُ، وتوضَعُ فيه الموازينُ القِسْطُ. وعُبِّرَ بالبُدوِّ؛ لأنَّهُ أبلغُ في تفظيعِ حالِ المشركينَ؛ لدلالتِهِ على

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 727.
(2) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 3985.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 544.
(4) درويش، إعراب القرآن الكريم: 8/ 429.
(5) المراغيّ، تفسير المراغي: 24/ 18.

أنَّ جزاءَ السَّيِّئاتِ قد ظهرَ ظهورًا تامًّا، كأنَّهُ في باديةٍ، بحيث يراهُ كلُّ أحدٍ[1].

نكتةُ استعمال الماضي في ﴿وَبَدَا﴾:

ما أخبر به الله مُجلٍّ للعذاب في أقصى مداه

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ ﷻ: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾، معَ أنَّ هذا البُدوَّ أمرٌ مستقبليٌّ يكونُ يومَ القيامةِ؛ لأنَّهُ مُتحقِّقُ الوقوعِ؛ إذ إخبارُ اللّهِ تعالى لا يتخلَّفُ، فكأنَّهُ قد وقعَ، وأُخبِرَ عنهُ، وفي ذلك ملاءمةٌ لمقامِ الوعيدِ والتَّخويفِ.

معنى اللّامِ في قوله: ﴿لَهُمۡ﴾:

عُقْبَى الظّالمينَ الـهـلاكُ، حين لايُجدي الإدّراكُ

اللّامُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ للاختصاصِ، فتدلُّ على أنَّ ظهورَ سيِّئاتِ الكسبِ أمرٌ مختصٌّ بهؤلاءِ الظّالمينَ، والمرادُ ظهورُ السَّيّئاتِ على وجهٍ يكونُ فيه خلودُهم في النّارِ.

غرضُ تقديمِ شبْهِ الجملة ﴿لَهُمۡ﴾:

الظّالمونَ أهلُ الويلِ والثُّبورِ، ولهم العذابُ المذكورُ

قُدِّمَ شِبْهُ الجملة ﴿لَهُمۡ﴾ في قولِه تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّم والتَّشويقِ للمُؤَخّرِ، وتعجيلِ المساءةِ، وتقويةِ اختصاصِ الظّالمينَ بظهورِ سيِّئاتِ الكسبِ لهُم، على وجهِ الإهلاكِ والتَّخليدِ في النّارِ، " يوم يَرونَ بأعينهم ما لم يَخطرْ لهم على بال منَ العذاب الأليم، وتظهرُ لهم سيّئاتُهم الّتي عملوها في الدّنيا، ويحيطُ بهم ما كانوا به يستهزئون"[2]، وفي ذلك غايةُ التّهويل، ودقّةُ الإبانة والتّعليل.

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظ (السَّيِّئاتِ):

الفعلُ السّيّئ المرتكَبُ، مَدعاةٌ للخِزي والعَتب

عُبِّرَ بالسَّيِّئاتِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الشِّركَ وغيرَهُ منَ المعاصي ممّا يَسوءُ صاحبَهُ، ويُلحِقُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 527.

(2) القطّان، تيسير التّفسير: 3/ 176.

بِهِ الأذى والغمَّ يومَ القيامةِ؛ إذ يجعلُهُ عُرْضةً لغضبِ اللّهِ وسَخَطِهِ، وفي ذلكَ مُلاءمةٌ لمقامِ الوعيدِ والحثِّ على هَجْرِ الشِّركِ والآثامِ.

بلاغةُ السَّيِّئاتِ بينَ المُشاكلةِ والمجازِ:

بيانُ أنّ السَّيِّئاتِ هـي أنـواعُ العذابِ المَسوقِ في الآياتِ

يحتملُ أنْ يرادَ بالسَّيِّئاتِ في قوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أنواعُ العذابِ الَّتي يُجازَوْنَ بها، سُمّيَتْ سيِّئاتٍ على سبيلِ المشاكلةِ[1]، أو على أنَّهُ تُجوِّزَ بالسَّيِّئاتِ عمّا تسبَّبَ عنها[2] على سبيلِ المجازِ المرسَلِ، بذكرِ السَّببِ وإرادةِ مسبَّبِهِ[3]. ويمكنُ حَمْلُ الكلامِ على حذفِ مُضافٍ تقديرُه: (حاق بهم جزاءُ ما كانوا به يستهزئون)[4].

دلالةُ المعنَى بتقديرِ المضافِ:

فنونُ العقابِ، هـي آثـارُ السَّـيِّـئـاتِ في سياقِ الخطابِ

ويحتملُ أنْ يكونَ المعنى: وظهرَتْ لهُم آثارُ تلكَ السَّيِّئاتِ الَّتي اكتسبوها، وهذهِ الآثارُ هي أنواعٌ مِنَ العقابِ[5]، فيكونُ الكلامُ على تقديرِ مضافٍ[6]. والمعنى: "حاق بهم جزاءُ ما كانوا به يستهزئون"، والمعنى: بَدا لَهُمْ مِنَ العالمِ بخفايا الأمورِ، أشياءُ لَمْ يَكونوا يظنّونها، ولا تخطر ببالهم، ولا يتوقّعونها، لأنّها عذابٌ فوق التّخمين والحسبان وحديثِ النّفس، ونظيرُ ما أوعدَ به الكافرين، ما وعد اللّه به المؤمنين، في قوله تعالى ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٧﴾ [السّجدة: 17][7].

وجهُ تأنيثِ لفظِ (السَّيِّئاتِ):

تغليبُ الأفعالِ على الاعتقادِ، مُـبرزٌ للمعنى المُستفادِ

تأنيثُ السَّيِّئاتِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾، باعتبارِ شهرةِ إطلاقِ السَّيِّئةِ على الفَعْلةِ، وإنْ كانَ فيما كَسَبوهُ ما هو مِنْ فاسدِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 133، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 342.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 342.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 267.
(4) ابن عطيَّة، المُحرَّر الوجيز، ص: 535.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 458.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 267.
(7) العاني، بيان المعاني: 3/ 546.

الاعتقادِ، كاعتقادِ الشُّركاءِ للّٰهِ، وإضمارِ البُغضِ للرَّسولِ والصّالحينَ، والأحقادِ والتَّحاسدِ، فجرى تأنيثُ الوصفِ على تغليبِ السَّيِّئاتِ العمليَّةِ، كالغصبِ والقتلِ والفواحشِ، تغليبًا لفظيًّا لكثرةِ الاستعمالِ[1].

دلالةُ الأداةِ ﴿مَا﴾:

احتمالُ الموصوليَّةِ والمصدريَّةِ، تنوّعٌ في الدّلالة السّياقية

تحتملُ ﴿مَا﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿وَبَدَا لَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ أنْ تكونَ موصولةً بمعنى الَّذي، أي: سيِّئاتُ أعمالِهم الَّتي كسبوها، وأنْ تكونَ مصدريَّةً، أي: سيِّئاتُ كسبِهم[2]. على أنَّ المرادَ بالكسبِ الحاصلُ بالمصدرِ، أي: سيِّئاتُ مكسوبِهم، فالمآلُ واحدٌ[3].

نكتةُ الإضافةِ في ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾:

كسبُ الكفرةِ موصوفٌ بالسّيئات المنكرة

الإضافةُ في قولِهِ تعالى: ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾، على معنى (مِنْ)، أو اللّامِ[4]، أي: سيِّئاتٌ ممّا كسبوا، أو سيِّئاتٌ لما كسبوا، ويحتملُ أنْ يكونَ مِنْ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ، أي: وبدا لهُم مكسوباتُهم السَّيِّئاتُ[5].

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿كَسَبُواْ﴾:

اكتسابُ السيِّئاتِ الموبقةِ مُفضٍ إلى العقوبة المتحقِّقة

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ ﷻ: ﴿كَسَبُواْ﴾؛ لأنَّ هذا الكسبَ أمرٌ قد مضَى وتحقَّقَ قبلَ زمانِ جزائِهم، وفي ذلكَ إقامةٌ للحُجَّةِ عليهِم، بأنَّ اللّٰهَ تعالى يُجازيهم على ما تحقَّقَ منهُم فعلُه، ولا يظلمُ ربُّكَ أحدًا.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

حذفُ ضميرِ الصِّلةِ، إيجازٌ مُتَّبَعٌ

على الرأيِ القائلِ إنَّ ﴿مَا﴾ في قولِ اللّٰهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۖ﴾ موصولةٌ؛ فالتَّقديرُ: سيِّئاتُ ما كسبوهُ، وقد حُذِفَ المفعولُ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 33 - 34.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 209، والسّمين، الدّر المصون: 9/ 432.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 544.
(4) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 267.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 33.

- وهو ضميرُ الهاءِ - إيجازًا؛ لشيوعِ حذفِ الضَّميرِ الرّاجعِ إلى الموصولِ مِنْ جملةِ الصِّلةِ.

دلالةُ الواوِ في جملة ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾:

كثرةُ ويلاتِ الظّالمينَ، ملمحٌ بارزٌ لهم يومَ الدّين

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، لعطفِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها. ويحتملُ أنْ تكونَ استئنافيَّةً. وأيًّا ما كانَ ففي هذهِ الجملةِ بيانُ جزاءٍ آخرَ للظّالمينَ يومَ القيامةِ، وهو أنَّهم ينزلُ بهم عقابُ استهزائِهم بالحقِّ وأهلِه في الدُّنيا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿وَحَاقَ﴾:

مناسبةُ الماضي لحتميّةِ نزولِ العذاب بالظّالمينَ يومَ القيامةِ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِه ﷻ: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، معَ أنَّ نزولَ العذابِ بهم أمرٌ مستقبلٌ يكونُ يومَ القيامةِ؛ لأنَّهُ مُتحقِّقُ الوقوعِ؛ إذ إخبارُ اللّهِ تعالى لا يتخلَّفُ، فكأنَّهُ قد وقعَ، وأُخبِرَ عنهُ، وفي ذلكَ مزيدُ تقويةٍ لِما تشتملُ عليه الآيةُ مِنَ التَّهديدِ والتَّخويفِ.

دلالةُ (الباءِ) في ﴿بِهِم﴾:

العذابُ محيطٌ بالظّالمينَ المُجانِفين للحقّ المُستبين

الباءُ في قولِه ﷻ: ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾ للتَّعديةِ، أو للإلصاقِ، فتفيدُ أنَّ نزولَ العذابِ بهِم قدِ اقترنَ بالإحاطةِ مِنْ جميعِ الجوانبِ، حتَّى كأنَّهُ التصقَ بهِم، فلا انفكاكَ لهُم عنهُ، ﴿وَحَاقَ بِهِم﴾: أي نزل بهم.. ومعنى هذا أنّ الحقّ الّذي كانوا يَستهزئون به، قد جاء ليُحاكمَهم، وليقتصَّ منهم لجنايتهم الّتي جنَوها عليه، بالانتصار للباطل، ومحاربة أولياء الحقّ"[1].

نكتةُ تقديمِ شبه الجملة ﴿بِهِم﴾:

الظّالمونَ جديرونَ بالمُساءةِ وسوءِ المصير

قُدِّمَ ﴿بِهِم﴾ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ للاهتمام بوقوعِ الإحاطةِ عليهِم، وتعجيلِ مُساءتِهم، والتَّشويقِ للمُؤخَّرِ، ولأنَّهُ لو أُخِّرَ لاختلَّ تلاؤمُ الفواصلِ.

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1174.

دلالةُ الأداة ﴿مَّا﴾:

احتمالُ الموصوليَّةِ والمصدريَّةِ مفيدٌ في اتّساع الدّلالة

تحتملُ ﴿مَّا﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ أنْ تكونَ موصولةً، أي: وحاقَ بهِم الَّذي كانوا يستهزؤونَ به. ويحتملُ أنْ تكونَ مصدريَّةً، أي: وحاقَ بهِم استهزاؤُهم[1].

بلاغةُ إسنادِ الحَوْقِ إلى ﴿مَّا﴾:

سوءُ نظرِ الظّالمِينَ مُستفادٌ من معنى (ما) في السّياق

يحتملُ أنْ يكونَ في قولِهِ تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ حذفُ مضافٍ، أي: جزاءُ هُزْئِهم[2]، وهو العذابُ، أو جزاءُ الَّذي كانوا بِهِ يستهزؤونَ[3]، فيكونُ في الكلامِ إيجازٌ بالحذفِ.

وإذا كانَتْ ﴿مَّا﴾ موصولةً فيحتملُ أنْ يكونَ قد عُدِلَ عنِ اسمِ العذابِ الصَّريحِ إلى الموصولِ؛ للتَّنبيهِ على ضلالِهم وسوءِ نظرِهم، حيثُ استهزؤوا بالحقِّ، فعرَّضوا أنفُسَهم لعذابِ اللّهِ.

نكتةُ إدخالِ (كانَ) الماضي على المضارعِ:

بيانُ أنّ الاستهزاء بالحقِّ أمرٌ راسخٌ ومُتجدّدٌ

أُدخِلَ فعلُ الكونِ الماضي على المضارعِ، في قولِهِ تعالى: ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾، ولم يُقَلْ: (وحاقَ بهم ما بهِ استهزؤوا)؛ للدَّلالةِ على رُسوخِ هذا الاستهزاءِ في الكفرةِ، وأنَّهُ كانَ فيهم طَبْعًا وجِبِلَّةً[4]، وأنَّهم كانوا مُستمرّينَ عليهِ، مُجدِّدينَ لهُ، كما هو مُقتضَى صيغةِ المضارعِ في قولِهِ: ﴿يَسْتَهْزِءُونَ﴾، وكأنَّ الاحتقارَ للحقِّ والاستهزاءَ بهِ لم يُفارِقْهم يومًا واحدًا في حياتِهم الدُّنيا. يضافُ إلى ذلكَ ما يترتَّبُ على التَّعبيرِ بالمضارعِ مِنْ مراعاةِ تلاؤمِ الفواصلِ.

دلالةُ الضّميرِ على الاستعارة المكنيّة:

الاستهزاءُ بالعذاب القريب مِن أعجبِ التّكذيب

الباءُ في قولِهِ تعالى: ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ للتَّعديةِ، والمستهزَأُ

---

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 267.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 133.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 535.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 527.

بِهِ هو عذابُ الآخرةِ، أي: يستهزؤونَ بذكرِهِ، تنزيلًا للعقابِ منزلةَ مُستهزَأٍ به، فيكونُ الضَّميرُ المجرورُ استعارةً مكنيَّةً.

ويحتملُ أنْ تكونَ الباءُ للسَّببيَّةِ، ويُجعَلَ مُتعلَّقُ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ محذوفًا، أي: يستهزؤونَ بالنَّبيِّ ﷺ بسببِ ذكرِهِ العذابَ[1].

بلاغةُ تقديمِ ﴿بِهِۦ﴾ في السّياق:

مسارعةُ الظّالمينَ في الاستهزاءِ بالحقِّ، من سوء التّقديرِ

قُدِّمَ ﴿بِهِۦ﴾ على ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾ في قولِ الباري جلَّ ذكرُهُ: ﴿كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾؛ للاهتمامِ بهِ[2]، والتَّنبيهِ على مسارعةِ الظّالمينَ في الاستهزاءِ بالحقِّ، وفي ذلكَ مِنْ تقبيحِ حالِهم ما لا يخفَى.

بلاغةُ صيغةِ الاستفعالِ ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾:

الاستهزاءُ بالحقِّ خسارٌ أكيدٌ ومآلٌ مُبيدٌ

يدلُّ التَّعبيرُ بصيغةِ الاستفعالِ، في قولِهِ تعالى: ﴿يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾، على غايةِ حرصِ الظّالمينَ على الاستهزاءِ بالعذابِ، وشدَّةِ طلبِهم لذلكَ[3]، وفي ذلكَ مزيدُ تخسيرٍ وتحسيرٍ لهُم، يلائمُ الدَّلالةَ على الاستمرارِ كما تقدَّمَ، والعاقلُ ليسَ مِنْ شأنِهِ طلبُ ما فيهِ هلاكُهُ، فكيفَ إذا جدَّ في الطَّلبِ، وحرصَ عليهِ؟!

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 34.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 34.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 527.

﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٤٩﴾ [الزّمر: 49]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الرّبطُ بين وقوع العذابِ ويقينِه، وبين نُكران الإنسانِ لنعَمِ الرّحمان

حكَى اللّهُ ﷻ بعضَ قبائحِ المشركينَ، وذكرَ عاقبتَها، ثمَّ أتبعَ ذلكَ بحكايةِ نوعٍ آخرَ مِنَ القبائحِ، وهو أنَّهم عندَ الوقوعِ في الضُّرِّ يَفزعونَ إلى اللّهِ، وفي حالِ النِّعمةِ يزعمونَ أنَّ حصولَ ذلكَ بكسبِهم[1]. وهذا على أنَّ المرادَ بالإنسانِ الكافرُ. ويحتملُ أنْ يكونَ المرادُ به مُطلَقَ الإنسانِ، ووجهُ التَّناسبِ: أنَّهُ تعالى أخبرَ عن وعيدِهِ للمشركينَ، ثمَّ أخبرَ عن حالِ مُطلَقِ الإنسانِ، وأنَّ جِبلَّتَهُ على أنَّهُ إذا مسَّهُ الضُّرُّ رجعَ إلى اللّهِ، وإذا مسَّهُ الخيرُ أظهرَ البَطَرَ[2].

شَرْحُ الْمُفْرَداتِ:

1) ﴿مَسَّ﴾: (مسس) أصلٌ يدلُّ على جَسِّ الشَّيءِ باليدِ[3]، ويقالُ مجازًا: مسَّهُ الكِبَرُ والمرضُ، ومسَّهُ العذابُ[4]، وكُنيَ بالمسِّ عنِ الوطءِ، فقيلَ: مسَّها وماسَّها[5]. وحكى أبو عبيدةَ: مسستُ الشّيءَ بالفتح أمسُّه بالضّم. وربّما قالوا مست الشّيء يحذفون منه السّين الأولى ويحوّلون كسرتَها إلى الميم، ومنهم مَن لا يحوّلُ ويتركُ الميمَ على حالها مفتوحةً[6]، والمُرادُ بالمَسِّ هنا: الإصابةُ[7].

(1) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 9، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 527، والزّحيليّ، التّفسير المنير: 24/ 30.
(2) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 404.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (مسس).
(4) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (مسس).
(5) الرّاغب، المفردات: (مسس).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (مسس).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 303.

2) ﴿ضُرٌّ﴾: (ضرر) أصلٌ يدلُّ على خلافِ النَّفْعِ[1]، ومِنْ ذلكَ: الضُّرُّ، وهو سوءُ الحالِ، إمّا في النَّفْسِ لقلَّةِ العِلمِ والفضلِ، وإمّا في البَدَنِ لعدمِ جارحةٍ أو نقصٍ، وإمّا في حالةٍ ظاهرةٍ مِنْ قلَّةِ مالٍ وجاهٍ[2]. والمرادُ به هنا: ما يصيبُهم مِنْ مرضٍ وفقرٍ ونحوِ ذلكَ[3].

3) ﴿خَوَّلْنَٰهُ﴾: (خول) أصلٌ يدلُّ على تعهُّدِ الشَّيءِ[4]، ومِنْ ذلكَ: الخائلُ، وهو الحافظُ للشَّيءِ[5]، والتَّخويلُ في الأصلِ: إعطاءُ الخَوَلِ - وهو الأتباعُ والرُّعاةُ والزُّرّاعُ - أو إعطاءُ ما يصيرُ لهُ خَوَلًا، أو إعطاءُ ما يحتاجُ أنْ يتعهَّدَهُ[6]. والمرادُ بالتَّخويلِ هنا: الإعطاءُ عن غيرِ مجازاةٍ.

4) ﴿عِلْمٍۚ﴾: (علم) أصلٌ يدلُّ على نقيضِ الجهلِ[7]، علِمَ فهو عالمٌ وعليمٌ، على المبالغة، وعَلّام، قال اللّه تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ١٠٩﴾ [المائدة: 109][8]، والعلمُ: إدراكُ الشَّيءِ بحقيقتِهِ[9]، والعالِمُ: ضدُّ الجاهلِ، والجمعُ: علماءُ.

5) ﴿فِتْنَةٌ﴾: (فتن) أصلٌ يدلُّ على الابتلاءِ والاختبارِ[10]، ومِنْ ذلكَ: الفَتْنُ، وهو إدخالُ الذَّهَبِ النّارَ؛ لتظهرَ جَوْدتُهُ مِنْ رداءتِهِ[11]، والفَتّانُ: الصّائغُ؛ لإذابتِهِ الذَّهَبَ والفِضَّةَ في النّارِ[12]، والفِتْنَةُ: اضطرابُ الحالِ وقَلَقُ البالِ مِنْ حدوثِ شرٍّ لا مَدْفَعَ لهُ[13]، والفِتْنَةُ أيضًا: الضَّلالُ، والإثمُ والمعصيةُ[14]. والمرادُ بها هنا: الاختبارُ والابتلاءُ والامتحانُ[15].

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ضرر).
(2) الرّاغب، المفردات: (ضرر).
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 18.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (خول).
(5) الجوهريّ، الصّحاح: (خول).
(6) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (خول).
(7) الخليل، العين: (علم).
(8) الحميريّ، شمس العلوم: (علم).
(9) الرّاغب، المُفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (علم).
(10) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فتن).
(11) الجوهريّ، الصّحاح: (فتن).
(12) الزّبيديّ، تاج العروس: (فتن).
(13) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 17/ 213.
(14) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (فتن).
(15) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 134، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 18.

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

الإنسانُ مُقبِلٌ في الشِّدَّةِ على الله، مُعرِضٌ في الرَّخاءِ عن مولاه

يُخبِرُ اللّهُ تعالى عن حالِ الإنسانِ معَ ربِّهِ في حالتَيِ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، فيقولُ: فإذا أصابَ الإنسانَ بُؤسٌ وشدَّةٌ دعانا مستغيثًا بنا؛ لنكشفَ عنهُ ما أصابَهُ، ثمَّ إذا كشَفْنا ما بهِ منَ الضُّرِّ والبُؤْسِ، وأبدَلْناهُ بذلكَ رخاءً وسَعَةً، وصحَّةً وعافيةً؛ قالَ: إنَّما أُعطيتُ الَّذي أُعطيتُ بسببِ علمي وقُدرتي. ثمَّ يقولُ تعالى في الرَّدِّ على هذا الجاحدِ: ليسَتْ هذهِ النِّعمةُ بسببِ قدرتِكَ وعلمِكَ، بل هي ابتلاءٌ واختبارٌ، ولكنَّ أكثرَ النّاسِ يجهلونَ ذلكَ(1).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ حرفِ الفاءِ في ﴿فَإِذَا﴾:

بيانُ تناقضِ المشركينَ وسَفَهِ رأيِهم

الفاءُ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا﴾ للسَّببيَّةِ، فتفيدُ أنَّ ما في هذهِ الآيةِ مُسبَّبٌ عن قولِهِ تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ [الزمر: 45]، والمعنى: أنَّهم يشمئزّونَ عن ذكرِ اللّهِ، ويَستبشرونَ بذكرِ الآلهةِ، فإذا مسَّ أحدَهم ضرٌّ دعا مَنِ اشمأزَّ مِنْ ذكرِهِ، دونَ مَنِ استبشرَ بذكرِهِ، وما بينَهما مِنَ الآيِ اعتراضٌ(2). ونكتةُ التَّسبُّبِ: أنَّهم لشدَّةِ عنادِهم وإبائِهم عنِ الحقِّ كأنَّهم جعلوا اشمئزازَهم عن ذكرِ اللّهِ وحدَهُ، واستبشارَهم بذكرِ غيرِه غرضًا، في أنْ إذا مسَّهم ضرٌّ دَعَوُا اللّهَ دونَ غيرِه، فحكَى اللّهُ تعالى عنهُم ذلكَ إنكارًا وتعجيبًا لخلقِهِ(3)، وفي ذلكَ مِنَ التَّنبيهِ على مناقضتِهم وتعكيسِهم ما لا يَخفى(4).

فائدةُ التَّعبيرِ بالشَّرطِ ﴿فَإِذَا﴾:

عُبِّرَ بأسلوبِ الشَّرطِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 303، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 209.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 134.

(3) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 404.

(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 45.

بيانُ أنّه لا مَفْزَعَ للإنسانِ إلّا باللّجوء للرّحمن

دَعَانَا﴾؛ لبيانِ ترتُّبِ دعاءِ الإنسانِ ربَّهُ، على مسِّ الضُّرِّ لهُ، ترتُّبًا جازمًا؛ إذ لا مَفْزَعَ للإنسانِ في ساعةِ الشِّدَّةِ إلّا اللّهُ، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ التَّقبيحِ لحالِ المشركِ الَّذي يُعرِضُ عنِ اللهِ في الرَّخاءِ، ويُقبِلُ عليهِ في الشِّدَّةِ.

نكتةُ التَّعبيرِ بـ(إذا) دونَ (إنْ):

المُعرِضُ عنِ اللهِ مُستوجِبٌ لضُرّه وبَلواه

عُبِّرَ بـ(إذا) دونَ (إنْ) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، و(إنْ) تُستعمَلُ في مقامِ عدمِ الجزمِ بوقوعِه، والمرادُ هنا التَّنبيهُ على أنَّ الإنسانَ يستحقُّ أنْ يمسَّهُ كلُّ ضررٍ؛ لبُعدِهِ عنِ الحقِّ، وارتكابِهِ الضَّلالاتِ، و(إذا) أنسبُ بذلكَ[1]، وفي ذلك تأكيدٌ لعدلِ اللّه في الجزاء والعقاب، انطلاقًا منَ الحيثيات والأسباب، إذ دعوتُه للّه تعالى في الضّرّاء، والإعراضُ عنه في السّرّاء دليلٌ على سفَهِ تمييزه وغيابِ عقله وخطئِه في وضع الشّيء في موضعه اللّائقِ به دون النّأيِ به عن أصله المعتاد وسبيلِه المُرتادِ.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمسِّ دون غيره:

بيانٌ مفصحٌ عن خَلْقِ العباد بضعفِ التّحمّلِ والاعتقادِ

عُبِّرَ بالمسِّ في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الإنسانَ بمجرَّدِ أنْ ينالَهُ شيءٌ مِنَ الضُّرِّ وإنْ قلَّ يفزعُ إلى اللهِ تعالى، وفي ذلكَ تنبيهٌ على ضعفِهِ، وأنَّهُ لا غِنى لهُ عن ربِّهِ الَّذي يُبارِزُهُ بالعصيانِ.

نكتةُ صيغةِ الماضي ﴿مَسَّ﴾:

مناسبةُ الماضيّ لِلحاقِ الضُّرّ بالمُعرِضِ من فصيح الدّلالة

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا﴾؛ لأنَّهُ لمّا كانَتْ (إذا) للجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، غُلِّبَ معَها لفظُ الماضي؛ لأنَّهُ أنسبُ بالقطعِ بحسَبِ اللَّفظِ، وإنْ كانَ المعنى على

(1) التّفتازانيّ، المطوّل: 1/ 661.

الاستقبالِ؛ لأنَّ (إذا) تَقلبُ الماضيَ إلى المستقبلِ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ مسَّ الضُّرِّ أمرٌ مقطوعٌ بهِ، وكذلكَ لجوءُ المسوسِ إلى اللهِ ﷻ بالضَّراعةِ والدُّعاءِ.

دلالةُ تعريفِ لفظ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾:

وصفُ الجنسِ بوصفِ غالبِ أفرادِهِ، مبيِّنٌ عن مراده

يحتملُ تعريفُ الإنسانِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا﴾، أنْ يكونَ للجنسِ، فيكونُ الكلامُ إخبارًا عنِ الجنسِ بما يغلبُ فيهِ، وإلّا فبعضُ أفرادِهِ ليسوا كذلكَ[1]. ولئن ورد أنّها نزلت في حذيفة بن المغيرة، فإنّ هذا الوصفَ معهودٌ في الإنسان على العموم، حيث يدعو الله ويرجعُ إليه إذا عظُم خطبُه، وأُحيط به من كلّ جانب، وعلمَ أن لا ملجأ منَ الله إلّا إليه، دعاه مع ما يصدر منه من كفرٍ مناوأةً وضلالةً، وقد قال تعالى عن فرعون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدۡرَكَهُ ٱلۡغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِيٓ ءَامَنَتۡ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ۝٩٠ ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ۝٩١﴾ [يونس: 90 - 91]. ويحتملُ أنْ يكونَ التَّعريفُ للعهدِ، ويُحمَلُ على الكافرِ الَّذي يشمئزُّ قلبُهُ إذا ذُكِرَ اللّهُ وحدَهُ... إلخ[2].

نكتةُ تقديمِ المفعولِ على الفاعلِ:

العنايةُ بمسِّ الضُّرِّ للإنسانِ مهمّةٌ في الدّلالة والبيان

قُدِّمَ المفعولُ ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ على الفاعلِ ﴿ضُرّٞ﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا﴾؛ للاهتمام بالمُقدَّم - وهو الإنسانُ المسوسُ - والتَّشويقِ للمُؤخَّرِ، وهو الضُّرُّ، وذلكَ أنسبُ بمقامِ تقبيحِ شأنِ الإنسانِ الَّذي لا يعرفُ اللّهَ إلّا في الشِّدَّةِ.

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿ضُرّٞ﴾:

مناسبةُ التَّقليلِ للفظِ المسِّ، مفيدةٌ في الدّلالة

تنكيرُ ﴿ضُرّٞ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا﴾ للتَّقليلِ، والمعنى: فإذا مسَّ الإنسانَ شيءٌ قليلٌ مِنَ الضُّرِّ دعانا، وفي التَّقليلِ مناسبةٌ للفظِ المسِّ المُنْبِئِ عنِ القلَّةِ أيضًا[3].

(1) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 45، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 258.
(2) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 544.
(3) التّفتازانيّ، المطوّل: 1/ 661.

نكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ العظمةِ:

لا يُدْعَى في الشَّدائدِ العظامِ إلّا العظيمُ

جيءَ بضميرِ العظمةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذِكرُهُ: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلۡإِنسَٰنَ ضُرّٞ دَعَانَا﴾؛ لتفخيمِ شأنِ المدعوِّ ﷻ في المقامِ الَّذي يظهرُ فيهِ ضعفُ البشرِ، ويعتصمونَ بذي العظمةِ والجلالِ؛ لكشفِ ما بهِم مِنْ ضُرٍّ، ويتركُ الكفرةُ دعاءَ آلهتِهم الَّتي كانوا يستبشرونَ بذكرِها[1]. قال البقاعيُّ: "ولفتُ القولِ إلى مظهرِ العظمة دالٌّ على أنّ أغلب النّاس، لا يُرجى اعترافُه بالحقّ وإذعانُه لأهل الإحسان إلّا إذا مُسّ بأضرار، فقال: ﴿دَعَانَا﴾ عالمًا بعظمتِنا دون آلهته، مع اشمئزازه من ذِكْرنا واستبشارِه بذِكْرِها"[2].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالأداةِ ﴿ثُمَّ﴾:

قُبْحُ نسيانِ الضُّرِّ، ووجوبُ نسبةِ النِّعَمِ إلى المُنعِمِ

لمّا كانَ الضُّرُّ الَّذي مسَّ الإنسانَ عظيمًا، يَبْعُدُ الخلاصُ عنهُ، مِنْ جهةِ أنَّهُ لا حيلةَ لمخلوقٍ في دفعِهِ؛ أشارَ إلى عظمتِه وطولِ زمنِهِ بأداةِ التَّراخي، فقالَ: ﴿ثُمَّ إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭ﴾، مُقبِّحًا عليهِ نسيانَهُ للضُّرِّ مَعَ عِظَمِهِ في نفسِهِ، ومع طولِ زمنِهِ[3].

ويحتملُ أنْ تكونَ ﴿ثُمَّ﴾ لاستبعادِ نسبةِ الإنسانِ الإيتاءَ إلى نفسِهِ، بعدَ سبقِ دعائِهِ للّهِ ﷻ، بل ينبغي عليهِ نسبةُ النِّعَمِ إلى المُنعِمِ بها.

فائدةُ التَّعبيرِ بالشَّرطِ ﴿إِذَا﴾:

سوءُ معاملةِ المخلوقِ الجاحدِ، مع خالقِهِ الواحدِ

عُبِّرَ بأسلوبِ الشَّرطِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭ﴾؛ لبيانِ ترتُّبِ نسبةِ الإنسانِ الجاحدِ إيتاءَ النِّعَمِ إلى نفسِهِ على إعطائِهِ النِّعَمَ مِنَ اللّهِ ترتُّبًا جازمًا، وفي ذلكَ تنصيصٌ على سوءِ معاملتِهِ مَعَ مولي النِّعَمِ ﷻ.

سرُّ التَّعبيرِ بـ﴿إِذَا﴾ دونَ (إنْ):

عُبِّرَ بـ ﴿إِذَا﴾ دونَ (إنْ) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 528.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 528.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 528.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۢ﴾؛ لأنَّ (إذا) تُستعمَلُ في مقامِ الجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ، و(إنْ) تُستعمَلُ في مقامِ عدمِ الجزمِ بوقوعِه، والمقصودُ هنا التَّنبيهُ على أنَّ إعطاءَ اللهِ تعالى النِّعَمَ للخلقِ مؤمنِهم وكافرِهم أمرٌ مقطوعٌ بهِ، إذ هو أثرٌ مِنْ آثارِ الرُّبوبيَّةِ والقيّوميَّةِ.

نِعَمُ اللهِ سابغةٌ لا تنقطعُ، لأنَّها دليلٌ على قيّوميّتِه

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿خَوَّلۡنَٰهُ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ ﷻ: ﴿إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۢ﴾؛ لأنَّهُ لمّا كانَتْ ﴿إِذَا﴾ للجزمِ بوقوعِ الشَّرطِ غُلِّبَ معَها لفظُ الماضي؛ لأنَّهُ أنسبُ بالقطعِ بحسَبِ اللَّفظِ، وإنْ كانَ المعنى على الاستقبالِ؛ لأنَّ (إذا) تقلبُ الماضيَ إلى المستقبلِ، والمقصودُ هنا التَّنبيهُ على أنَّ تخويلَ النِّعَمِ مقطوعٌ بهِ، وكذلكَ قولُ هذا الكَنودِ الجاحدِ.

بيانُ أنّ إحسانَ الرَّبِّ وإساءةَ الجاحدِ إيقانٌ

براعةُ التَّعبيرِ بضميرِ العظمةِ:

جيءَ بضميرِ العظمةِ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةً مِّنَّا﴾؛ لتفخيمِ شأنِ التَّخويلِ بأنَّهُ صادرٌ عنِ العظيمِ ﷻ[1]، الَّذي لا ينقطعُ إحسانُهُ عن خلقِه، وفيهِ أيضًا إشعارٌ بأنَّ تعقيبَ الضُّرِّ بهذا الإنعامِ، لا يَقدرُ عليهِ إلّا مَنْ كانَ متَّصفًا بصفاتِ العظمةِ والجلالِ.

لا يقدرُ على تعقيبِ الضُّرِّ بالإنعامِ إلّا ذو الجلالِ والإكرامِ

غرضُ تنكيرِ لفظِ ﴿نِعۡمَةً﴾:

تنكيرُ ﴿نِعۡمَةً﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةً مِّنَّا﴾ للتَّقليلِ، أي: خوَّلناهُ شيئًا مِنَ النِّعَمِ وقسمًا منها[2]، سواءٌ بدفعِ الضُّرِّ أو بغيرِهِ ممّا يَسُرُّ[3]، وفي ذلكَ تقبيحٌ لشأنِ الإنسانِ الجاحدِ بأنَّ تخويلَ شيءٍ مِنَ النِّعَمِ يحملُهُ على نسبةِ الإنعامِ لنفسِه، وجحدِ فضلِ اللهِ تعالى.

الانشغالُ بالنِّعمةِ عنِ المُنعِمِ جحودٌ وضلالٌ

بلاغةُ الطِّباقِ في مَدرجِ السّياقِ:

في الجمعِ بينَ الضُّرِّ والنِّعمةِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿فَإِذَا مَسَّ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 528.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 133.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 209.

ملمحُ تقلُّبِ حالِ الإنسانِ بينَ العُسْرِ واليُسْرِ

﴿ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۚ﴾، رعايةٌ للطِّباقِ بينَهما؛ إذِ الضُّرُّ يدلُّ على ما فيهِ شرٌّ، والنِّعمةُ تدلُّ على ما فيهِ خيرٌ، وفي الجمعِ بينَهما بيانٌ لحالِ الإنسانِ في حالتَيِ العُسْرِ واليُسْرِ، ولكيفيَّةِ تعامُلِه معَ خالقِهِ ﷻ في كلٍّ منهما.

بلاغةُ الوصفِ بقوله ﴿مِّنَّا﴾:

الفضلُ للهِ وحدَهُ، ومنه الإنعامُ لا من سواه

﴿مِّنَّا﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾ صفةٌ لـ ﴿نِعْمَةً﴾[1]، وفي هذا الوصفِ تأكيدٌ للتَّفضُّلِ الَّذي يشتملُ عليهِ لفظُ التَّخويلِ، وتنبيهٌ على أنَّهُ ليسَ لأحدٍ غيرِ اللّهِ تعالى شائبةُ مَنٍّ وفضلٍ[2]. وعليه فقولُه: ﴿خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا﴾، تعني أعطيناهُ إيّاها تفضُّلا، فإنَّ التَّخويلَ مُختصٌّ به، لا يُطلقُ على ما أُعطي جزاءً[3].

نكتةُ التَّعبيرِ بضميرِ العظمةِ:

بيانُ أنّه لولا المُنعِمُ الأعظمُ، لَمَا كانَتِ النِّعَمُ

عُبِّرَ بضميرِ العظمةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿مِّنَّا﴾؛ لزيادةِ التَّنبيهِ على عظمةِ العطاءِ والإنعامِ الصّادرِ عنهُ ﷻ، وللتَّنصيصِ على أنَّهُ لولا عظمةُ اللّهِ تعالى لَمَا كانَتْ هذهِ النِّعَمُ[4].

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ ﴿قَالَ﴾:

كلامُ المرءِ الظّاهرُ مُنبئٌ عمّا في السّرائرِ

معنى قولِهِ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۚ﴾: اعتقدَ ذلكَ، فجرَى في أقوالِهِ؛ إذِ القولُ على وفْقِ الاعتقادِ[5]، وكلامُ المرءِ دليلٌ على ما يَجولُ في قلبِهِ ونفسِه، فيفيدُ الكلامُ أنَّ هذا الجاحدَ، قدِ اعتقدَ جُحودَ فضلِ اللّهِ قبلَ أنْ يتلفَّظَ بما يدلُّ عليهِ، ولو كانَ كلامُهُ غيرَ مطابقٍ لاعتقادِهِ لربَّما هانَ الخَطْبُ.

(1) درويش، إعراب القرآن الكريم: 8/ 430.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 529.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 258.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 529.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 35.

الجاهلُ ينسبُ الفضلَ لنفسِه، ويَنسَى اللهَ في عَلياء قُدسِه

بلاغةُ القصرِ في السّياق:

الظّاهرُ أنَّ ﴿إِنَّمَآ﴾ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۭ﴾ للقصرِ، وهو مِنْ قصْرِ الموصوفِ على الصِّفةِ، والمعنى: ما أوتيتُ الَّذي أوتيتُهُ مِنْ نعمةٍ لشيءٍ مِنَ الأشياءِ إلّا لأجلِ علْمٍ منّي بطُرُقِ اكتسابِهِ، وهو يقولُ ذلكَ إذا ذُكِّرَ بنعمةِ اللّهِ عليه، فيكونُ قصرَ قلبٍ لكلامِ مَنْ يقولُ لهُ: إنَّ ذلكَ مِنْ رحمةِ اللّهِ تعالى به[1]، وفي ذلكَ تقبيحٌ لشأنِهِ وحالِه؛ إذ يُنكِرُ فضلَ اللّهِ عليه، ولا ينسبُ النِّعمةَ إلى مُفيضِها[2]. ويحتملُ على بُعْدٍ أنْ تكونَ (ما) في ﴿إِنَّمَآ﴾ موصولةً، والضَّميرُ في ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ عائدٌ عليها، أي: إنَّ الَّذي أوتيتُهُ على علمٍ[3]، وعليهِ فلا قصْرَ في الكلامِ.

الجاهلُ واثقٌ بنفسِهِ، غافلٌ بجحودِه عن عطاءِ ربِّهِ

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۭ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ الإيتاءِ ووقوعِهِ قبلَ زمنِ النُّطقِ بهذا الكلامِ، وللتَّنبيهِ على فَرْطِ وُثوقِ الجاحدِ بتحقُّقِ الإيتاءِ مِنْ قِبَلِ علمِهِ وكَسْبِهِ، لا مِنْ قِبَلِ اللّهِ تعالى، وذلكَ علامةٌ مِنْ علاماتِ انطماسِ البصيرةِ.

الجاحدُ مفتونٌ بنفسِهِ، وبالنِّعمةِ الطّارئةِ

نكتةُ البناءِ للمفعولِ ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾:

بُنِيَ فعلُ ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ للمفعولِ؛ إشارةً إلى أنَّ الإنسانَ الجاحدَ لا نظرَ لهُ في تعرُّفِ المُعطي ليشكرَهُ، وإنَّما نظرُهُ في عظمةِ النِّعمةِ وعظمةِ نفسِهِ فقطْ[4]، وكأنَّهُ يُري غيرَهُ أنَّ كونَهُ هو المُؤتيَ بكسبِهِ وعقلِهِ أمرٌ جليٌّ ظاهرٌ، لا يحتاجُ إلى التَّنصيصِ عليهِ.

وجهُ تذكيرِ الضَّميرِ في ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾:

جيءَ بالضَّميرِ في ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾ مُذكَّرًا معَ أنَّهُ راجعٌ إلى النِّعمةِ؛

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 267، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 35.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 529.

(3) السّمين، الدّر المصون: 9/ 432.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 529.

النِّعمةُ بمعنى الإنعامِ، مفيدةٌ لبيان سياقِ الكلام

لأنَّها بمعنى الإنعام، أو لأنَّ الضَّميرَ عائدٌ إلى (ما)، في ﴿إِنَّمَآ﴾ على اعتبارِها موصولةً[1]، أو لأنَّ معنى قولِه: ﴿نِعۡمَةٗ مِّنَّا﴾: شيئًا مِنَ النِّعَم وقسْمًا منها[2]، فالتّذكيرُ باعتبارِ الشَّيءِ والقِسْم، أو لأنَّهُ على تأويلِ حكايةِ مقالتِهم، بأنَّها صادرةٌ عنهُم في حالِ حضورِ ما بينَ أيديهِم مِنَ النِّعَم، فهو مِنْ رجوعِ الضَّميرِ إلى ذاتٍ مُشاهَدةٍ، فالضَّميرُ بمنزلةِ اسمِ الإشارةِ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالإيتاءِ دونَ الإعطاءِ:

الجاهلُ يرَى النِّعَمَ إلزامًا لا إنعامًا

اختيرَ الإيتاءُ دونَ الإعطاءِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾؛ لأنَّ الإيتاءَ أقوى مِنَ الإعطاءِ؛ لأنَّهُ يُستعمَلُ في الأشياءِ العظيمةِ، ولأنَّ فيه معنى الوجوبِ والإلزامِ[4]، فيكونُ في التَّعبيرِ بهِ تنبيهٌ على استعظامِ الجاحدِ شأنَ النِّعمةِ الَّتي أوتيَها، وعلى أنَّهُ يرَى أنَّها واجبةٌ لهُ، ومستحَقَّةٌ لهُ بحسَبِ علمِهِ المزعوم.

دلالةُ الحرْفِ ﴿عَلَىٰ﴾ في السّياقِ:

شأنُ الجاهلِ استعظامُ علمِه، وظنُّه أنّه سببُ الإيتاءِ

عُبِّرَ بحرفِ الاستعلاءِ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الجاحدَ المعاندَ لفَرْطِ غرورِهِ وثقتِهِ بما أوتيَ؛ يرَى أنَّهُ قدِ استعلَى على العلمِ استعلاءً مُتمكِّنًا[5]، حتَّى كأنَّ العلمَ صارَ مَطيَّةً لهُ. ويحتملُ أنْ تكونَ (على) للتَّعليلِ، والمعنى: لأجلِ علمٍ، أي: بسببِ علمٍ[6].

بلاغةُ الحالِ في ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾:

بيانُ المبالغةِ في ادّعاءِ استحقاقِ الجاحدِ النِّعَمَ بنفسِهِ

قولُهُ تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾ حالٌ مِنَ الضَّميرِ المرفوعِ في ﴿أُوتِيتُهُۥ﴾،

---

(1) الشوكاني، فتح القدير: 4/ 537.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 459.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 35.
(4) زيدان، الفروق اللغوية، ص: 248 - 249.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 529.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 35.

أي: على علم منّي أنّي سأُعطاهُ؛ لِما فيَّ مِنَ الفضلِ والاستحقاقِ، أو على علمٍ مِنَ اللّهِ بي وباستحقاقي، أو على علم منّي بوجوهِ الكسبِ[1]. وأيًّا ما كانَ ففيهِ ما لا يخفَى مِنَ المبالغةِ في ادِّعاءِ الاستحقاقِ. وأمّا إنْ كانَتْ (ما) في ﴿إِنَّمَآ﴾ موصولةً، فهو خبرُ (إنَّ)[2].

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿عِلۡمٍۚ﴾:

الكِبْرُ المُستولي على نفسِ الجاحدِ، يَطمسُ بصيرتَه

تنكيرُ ﴿عِلۡمٍۚ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾ للتَّعظيم، والمعنى: على علم عظيمِ الشَّأنِ، وإنْ كانَ المعنى: على علم منّي بطُرُقِ الكسبِ والاجتهادِ[3]؛ ففي هذا التَّنكيرِ ما لا يخفَى مِنَ التَّنبيهِ على أنَّ الكِبْرَ قد نَفَخَ في خيشومِ هذا الإنسانِ الجاحدِ، حتَّى حسبَ الوَرَمَ شَحْمًا.

سرُّ عدمِ ذكرِ (عِنْدي) كما في القصصِ:

أثرُ العِنديّةِ في السّياقِ مفيدٌ في المعنى وجودًا وعدمًا

خولِفَ بينَ قولِه تعالى هنا: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾ وبينَ قولِ قارونَ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِيٓۚ﴾ [القصص: 78]، فلم يُذكَرْ هنا: (عِنْدي)؛ لأنَّ المرادَ بالعلمِ هنا مجرَّدُ الفِطْنةِ والتَّدبيرِ، وأُريدَ هناكَ علمُ صوغِ الذَّهبِ والفضَّةِ الَّذي اكتسبَ بِه قارونُ مِن معرفةِ تدابيرِها مالًا عظيمًا، وهو علمٌ خاصٌّ بِه، وأمّا ما هنا، فهو العلمُ الَّذي يوجدُ في جميعِ أهلِ الرَّأيِ والتَّدبيرِ[4]، حيث قالَ إنَّما أوتيتُهُ عَلى عِلْمٍ منّى بوجوه كسْبِه، أو بأنّي أُعطيتُه؛ لِما لي مِن استحقاقه"[5].

معنى الحرفِ ﴿بَلۡ﴾ في السّياق:

النِّعَمُ فضلٌ مِنَ اللهِ وامتحانٌ، لا كسبٌ مِنَ الانسان

﴿بَلۡ﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ للإضرابِ الإبطاليِّ، وهو إبطالٌ لزعمِهم أنَّهم أوتوا ذلكَ بسببِ علمِهم

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 133، والطّيبي، فتوح الغيب: 13/ 403.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 536، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 342.

(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 529.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 35.

(5) المظهريّ، التّفسير المظهريّ: 8/ 221.

وتدبيرِهم، أي: بل إنَّ النِّعمةَ الَّتي أوتوها إنَّما آتاهم اللّهُ إيّاها؛ امتحانًا واختبارًا أيشكرونَ أم يكفرونَ[1]، والمعنى: "أي: ليس ذلك الذي أعطيناك لِما ذكرتَ، بل هو محنةٌ لك، واختبارٌ لحالك أتشكر أم تكفر؟ "[2]، وفي ذلك تذكير بأهميّة شُكْر المُنْعِم ﷻ.

سرُّ تأنيثِ الضَّميرِ ﴿هِيَ﴾:

بيانُ أنّ النِّعمة سببُ ابتلاءٍ للمُنعَمِ عليهِ

أُنِّثَ ضميرُ ﴿هِيَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾؛ حملًا على لفظِ النِّعمةِ، ولأنَّ الخبرَ - وهو ﴿فِتۡنَةٞ﴾ - مُؤنَّثٌ[3]، وفي التَّأنيثِ تحقيرٌ للنِّعمةِ بالنِّسبةِ إلى قدرتِهِ سبحانَهُ، ولأنَّها أدَّتْ إلى الغرورِ، وتذكيرُها فيما سبقَ تعظيمٌ لها لإيجابِ شكرِها[4]. أو المعنى: الحالةُ أوِ الإتيانةُ فتنةٌ[5]." قال الفرّاءُ: أُنّث الضّميرُ في قوله: ﴿هِيَ﴾ لتأنيث الفتنة، ولو قال: بل هو فتنة لجاز، وقال النّحّاس: بل عطيّتُه فتنةٌ. وقيل: تأنيثُ الضّمير باعتبار لفظِ الفتنة، وتذكيرُ الأوّل في قوله: أوتيتُه باعتبار معناها"[6]. ويحتملُ أنْ يكونَ الضَّميرُ عائدًا إلى القولِ المستفادِ مِنْ ﴿قَالَ﴾، على طريقةِ إرجاعِ الضَّميرِ إلى المصدرِ المأخوذِ مِنَ الفعلِ، وإنَّما أُنِّثَ ضميرُهُ باعتبارِ الإخبارِ عنهُ بلفظِ ﴿فِتۡنَةٞ﴾، أو على تأويلِ القولِ بالكلمةِ، والمرادُ: أنَّ ذلكَ القولَ سببُ فتنةٍ أو مُسبَّبٌ عن فتنةٍ في نفوسِهم[7].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفتنةِ:

جَعْلُ النِّعَم فتنةً، ملمحٌ في البلاغة مفيدٌ

في التَّعبيرِ بالفتنةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ لطافةٌ، وذلكَ أنَّ المرادَ بها هنا الابتلاءُ والامتحانُ[8]، واللّهُ تعالى عالمٌ

---

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 133، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 36.
(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 12/ 128.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 134، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 186.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 529.
(5) السّمين، الدّر المصون: 9/ 433.
(6) الشّوكانيّ، فتح القدير: 4/ 537.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 36.
(8) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 134، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 45.

بخلقِه، وغنيٌّ عنِ اختبارِهم، فالفتنةُ دالَّةٌ على حالةٍ فيهم تُشبهُ حالةَ الاختبارِ لمقدارِ علمِهم باللهِ وشكرِهم إيّاهُ[1]، فيكونُ في الكلام استعارةٌ، وأيضًا في الإخبارِ عنِ النِّعمةِ بأنَّها فتنةٌ مبالغةٌ؛ لأنَّ النِّعمةَ آلةٌ لها[2]، فيكونُ لفظُ الفتنةِ مِنْ قَبيلِ المجازِ المرسَلِ. وأيًّا ما كانَ ففي التَّعبيرِ بها إيذانٌ بأنَّ ذلكَ ليسَ مِنْ بابِ الإيتاءِ المُنبئِ عنِ الكرامةِ، وإنَّما هو أمرٌ مباينٌ لهُ بالكلّيَّةِ[3].

نكتةُ تنكيرِ لفظ ﴿فِتۡنَةٞ﴾:

تنكيرُ ﴿فِتۡنَةٞ﴾ في قولِه تعالى: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾ للتَّعظيم، أي: بل هي فتنةٌ عظيمةُ الشَّأنِ، وأيُّ فتنةٍ أعظمُ مِنَ الفتنةِ الَّتي يَميزُ اللهُ بها الخبيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، والجاحدَ مِنَ الشّاكرِ؟!

بلاغةُ الجملةِ الاسميَّةِ:

بيانُ أنّ ابتلاءِ اللهِ لخلقِهِ بالنِّعَمِ أمرٌ ثابتٌ منذُ القِدمِ

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ تعالى: ﴿هِيَ فِتۡنَةٞ﴾؛ لما تدلُّ عليهِ مِنَ الثَّباتِ والدَّوامِ، فتفيدُ أنَّ كونَ النِّعمةِ فتنةً أمرٌ ثابتٌ، لا شكَّ فيهِ ولا ارتيابَ، وفي ذلكَ مزيدُ حثٍّ على الاعتبارِ والتَّيقُّظِ لحِكَمِ اللهِ تعالى في خلقِهِ، وعلى البُعدِ عنِ الإنكارِ والجحودِ.

براعةُ الإيجازِ في قوله: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾:

بين قِصرِ امتحانِ الدُّنيا، وقِصرِ العبارةِ تناسبٌ بليغٌ

بيَّنَ ﷻ قُبْحَ طريقةِ الجاحدينَ، فيما هم عليهِ عندَ الشِّدَّةِ والرَّخاءِ بكلامٍ وجيزٍ فصيحٍ، فقالَ: ﴿بَلۡ هِيَ فِتۡنَةٞ﴾[4]، ولم يقلْ: (بل أوتيتَهُ فتنةً). وهذهِ الكلماتُ بوَجازتِها، تَطوي كلَّ ما يُؤتاهُ العبدُ مِنَ الدُّنيا ونعيمِها، فما المالُ والجاهُ والسُّلطانُ ونحوُ ذلكَ مِنْ متاعِ الدُّنيا إلّا امتحانٌ قصيرٌ كقِصَرِ هذهِ العبارةِ. يضافُ إلى ذلكَ نكتةُ الجملةِ الاسميَّةِ كما تقدَّمَ.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 36.

(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 268.

(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 258.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 458.

معنى الواوِ في قوله ﴿وَلَٰكِنَّ﴾:

الواوُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ للاستئنافِ، والغرضُ مِنْ هذا الاستئنافِ بيانُ أنَّ أكثرَ النّاسِ يُفْتَتنُ، ولا يدركُ العِبْرَةَ في النِّعَمِ[1].

فائدةُ الاستدراكِ بلفظ (لَكِنَّ):

الاستدراكُ بقولِهِ تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ناشئٌ عن مضمونِ جملةِ ﴿إِذَا خَوَّلۡنَٰهُ نِعۡمَةٗ مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ﴾، أي: لكنْ لا يعلمُ أكثرُ النّاسِ - ومنهم القائلونَ - أنَّهم في فتنةٍ بما أوتوا مِنْ نعمةٍ، إذا كانوا مِثلَ هؤلاءِ القائلينَ الزّاعمينَ أنَّ ما هم فيهِ مِنْ خيرٍ نتيجةُ مَساعيهم[2].

العُقَلاءُ لا تَشغلُهمُ النِّعَمُ عنِ التَّدبُّرِ في كنهها

مرجعُ الضَّميرِ في ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾:

ضميرُ ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ عائدٌ إلى معلومٍ مِنَ المقامِ غيرِ مذكورٍ في الكلامِ؛ إذ لم يتقدَّمْ ما يناسبُ أنْ يكونَ لَهُ مرجعًا، والمرادُ بِهِ النّاسُ، أي: لكنَّ أكثرَ النّاسِ لا يعلمونَ أنَّ بعضَ ما أوتوهُ مِنَ النِّعَمِ في الدُّنيا يكونُ لهُم فتنةً، إذا تلقَّوهُ بقلَّةِ الشُّكرِ، وما يُفضي إلى الكفرِ، فدخلَ في هذا الأكثرِ جميعُ المشركينَ الَّذينَ يقولُ كلُّ واحدٍ منهُم: إنَّما أوتيتُهُ على علم[3]، وذلك أنّ " أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمونَ ولا يفهمون فتنتَنا واختبارَنا؛ لذلكَ يَنهمكون في بحرِ الكُفرانِ والطّغيانِ، وليس هذا القولُ مخصوصًا لهؤلاءِ الكفرةِ التّائهين في تيهِ الغفلةِ والكُفرانِ، بل قَدْ قالَها أي الكلمةَ المخصوصةَ التّي هي جملةُ ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭۚ﴾، عمومُ الكافرين المسرفين الَّذينَ مضَوا مِنْ قَبْلِهِمْ مثل قارونَ وغيرِه"[4].

أكثرُ الأنامِ غافلونَ عنِ الامتحانِ بالإنعامِ

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 530.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 36.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 36.
(4) علوان، الفواتح الإلهيّة: 2/ 250.

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليهِ على المُسنَدِ الفعليّ:

تأكيدُ انتفاءِ العلمِ عن أكثرِ النّاسِ

قُدِّمَ المُسندُ إليهِ ﴿أَكۡثَرَهُمۡ﴾ على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾، في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ لإفادةِ تقوّي الحُكمِ، أي: تَقوّي نسبةِ عدمِ العلمِ لأكثرِ النّاسِ، كأنَّهُ قد قيلَ مرَّتين: ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمونَ، ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمونَ.

سرُّ التعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

أهلُ الجحودِ مجبولونَ على الجهلِ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على استمرارِ عدمِ العلمِ وتجدُّدِه، لأنَّ المضارعَ يفيدُ الاستمرارَ والتَّجدُّدَ، فإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ، أفادَ استمرارَ الانتفاءِ، والمعنى: لا يتجدَّدُ لهُم علمٌ أصلًا؛ لأنَّهم طُبِعوا على الجهلِ والغَباوةِ[1] إلّا مَنْ تداركَهُ اللّهُ تعالى برحمتِه.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾:

الجهلُ بحقيقةِ التَّخويلِ مفيدٌ في بيانِ التّأويلِ

حُذِفَ مفعولُ ﴿لَا يَعۡلَمُونَ﴾ إيجازًا، لظهورِهِ مِنَ السّياقِ، والمعنى: ولكنَّ أكثرَهم لا يعلمونَ أنَّ هذا التَّخويلَ إنَّما كانَ لأجلِ الاختبارِ[2]. يُضافُ إلى ذلكَ ما في الحذفِ مِنْ رِعايةِ الفواصلِ. ويحتملُ أنْ يكونَ الفعلُ المتعدّي قد نُزِّلَ منزلةَ اللّازمِ، والمعنى: ولكنَّ أكثرَهم ليسوا مِنْ أهلِ العلمِ، وفي ذلكَ تقبيحٌ شديدٌ لحالِهم، ببيانِ أنَّهم ليسوا مِنْ زُمرةِ العلماءِ.

الفروقُ المُعْجَميَّةُ:

الإعطاءُ والتَّخويلُ:

التّخويلُ تفضّلٌ في العطاءِ دون جزاءٍ وهو غيرُ الإعطاءِ

التَّخويلُ أخصُّ مِنَ الإعطاءِ؛ لأنَّهُ الإعطاءُ على سبيلِ التَّفضُّلِ[3]، ومِنْ غيرِ طلبِ مجازاةٍ[4]؛ فالإعطاءُ الَّذي هو في مقابلةِ الأجرِ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 530.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 458، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 186.

(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 133.

(4) ابن عطيّة، المُحرّر الوجيز: 4/ 536، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 185.

والعِوَضِ لا يُسمَّى تخويلًا[1]. وقد عُبِّرَ بالتَّخويلِ هنا؛ لأنَّ عطاءَ اللّٰهِ تعالى تفضُّلٌ منهُ، وهو لا يطلبُ عِوَضًا عليهِ.

الفتنةُ والاختبارُ:

الفِتْنةُ امتحانٌ بليغٌ، والاختبارُ تمحيصٌ دقيقٌ

الفرقُ بينَ الفتنةِ والاختبارِ: أنَّ الفِتْنَةَ أشدُّ الاختبارِ وأبلغُهُ، وأصلُها: عَرْضُ الذَّهَبِ على النّارِ؛ ليتبيَّنَ صلاحُهُ مِنْ فسادِهِ، وتكونُ في الخيرِ والشَّرِّ[2]. وقد عُبِّرَ بها هنا؛ للتَّنبيهِ على أنَّ المقصودَ مِنَ النِّعمةِ تمييزُ الشّاكرينَ مِنَ الجاحدينَ.

---

(1) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 545.

(2) العسكريّ، الفروق اللّغويّة، ص: 396.

﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٥٠ فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ ٥١﴾ [الزُّمر: 50 - 51]

۞ مُناسَبَةُ الآيَتَينِ لِما قبلَهُما:

الرّبطُ بين فتنة النِّعم ونموذجِ الضّراعةِ في الضّرّاء وعاقبةِ الظّالمين

في مناسبةِ الآيتينِ لِما قبلَهما وجهانِ: **أحدُهما**: لَمّا كانَ كفّارُ مكَّةَ مقصودينِ معَ غيرِهم، بقولِهِ تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾؛ وضَّحَ ذلكَ بما في هاتينِ الآيتينِ[1].

والآخَرُ: جملةُ ﴿قَدۡ قَالَهَا﴾ مبيِّنةٌ لمضمونِ ﴿هِيَ فِتۡنَةٞ﴾؛ لأنَّ بيانَ مَغَبَّةِ الَّذينَ قالوا هذا القولَ في شأنِ النِّعمةِ الَّتي تنالُهم، يُبيِّنُ أنَّ نعمةَ هؤلاءِ كانَتْ فتنةً لهُم[2].

۞ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَغۡنَىٰ﴾: (غني) أصلٌ يدلُّ على الكفايةِ[3]، ومِنْ ذلكَ: الغِنى، وهو يقالُ على أنواعٍ: أحدُها: عدمُ الحاجاتِ، وذلكَ لا يكونُ إلّا للهِ تعالى. والثّاني: قلَّةُ الحاجاتِ. والثّالثُ: كثرةُ القُنْياتِ. ويقالُ: غَنِيْتُ بكذا، واستغنيتُ وتغنَّيتُ، وتغانيتُ. ويقالُ: أغناني كذا، وأغنَى عنّي كذا، إذا كفاني[4]. والمرادُ بعدمِ الإغناءِ هنا: عدمُ المنعِ والحمايةِ[5].

2) ﴿فَأَصَابَهُمۡ﴾: (صوب) أَصلٌ يدلُّ على نزولِ شيءٍ واستقرارِهِ، ومِنْ ذلكَ: الصَّوابُ في القولِ والفعلِ، كأنَّهُ أمرٌ نازلٌ مُستقرٌّ في قرارِهِ، وهو خلافُ الخطأِ[6]، وهو يقالُ على وجهينِ: أحدُهما:

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 530.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 37.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (غني).
(4) الرّاغب، المفردات: (غني).
(5) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 105.
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (صوب).

باعتبارِ الشَّيءِ في نفسِه، فيقالُ: هذا صوابٌ، إذا كانَ في نفسِه محمودًا ومرضيًّا، كقولِكَ: الكرمُ صوابٌ. والثّاني: باعتبارِ القاصدِ إذا أدركَ المقصودَ، فيقالُ: أصابَ كذا، أي: وجدَ ما طلبَ، ويقالُ: أصابَ السَّهمُ: إذا وصلَ إلى المرمى بالصَّوابِ[1]. والمرادُ بإصابةِ السَّيِّئاتِ لهُم هنا: نزولُها بهِم.

3) ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾: (عجز) أصلٌ يدلُّ على مُؤخِرِ الشَّيءِ، ومِنْ ذلكَ: عَجُزُ الإنسانِ، وهو مُؤْخِرُهُ، وبهِ شُبِّهَ مُؤَخَّرُ غيرِه، والعَجْزُ أصلُهُ التَّأخُّرُ عنِ الشَّيءِ، وحصولُهُ عندَ عَجُزِ الأمرِ، أي: مُؤَخَّرِه، وصارَ في العُرْفِ اسمًا للقُصورِ عن فعلِ الشَّيءِ، وهو ضدُّ القُدرةِ، ويقالُ: أعجَزْتُ فلانًا وعجَّزْتُهُ وعاجَزْتُهُ، أي: جعلتُهُ عاجزًا، والعَجوزُ سُمّيَتْ بذلكَ؛ لعَجْزِها في كثيرٍ منَ الأمورِ[2]. والمرادُ بعدمِ إعجازِهم هنا: عدمُ إفلاتِهم ونجاتِهم بأنفسِهم[3]، وعدمُ سبقِهم للّهِ تعالى[4].

المَعنى الإجْماليُّ:

أحوالُ الكفرةِ متشابهةٌ، وعواقبُهم متماثلةٌ

يُخبرُ اللّهُ تعالى عن مشابهةِ حالِ كفّارِ قريشٍ لحالِ مَنْ سبقَهم مِنْ كفرةِ الأممِ الخاليةِ، فيقولُ: قد قالَ هذهِ المقالةَ - وهي ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭ﴾ - كفرةُ الأممِ الماضيةِ، فلم يُغْنِ عنهُم حينَ أتاهُم بأسُ اللّهِ ما كانوا يكسبونَ منَ الأعمالِ أو مِنْ متاعِ الدُّنيا، فنزلَ بهِم عقابُ أفعالِهم السَّيِّئةِ، والظّالمونَ مِنْ كفرةِ قريشٍ سيصيبُهم أيضًا عقابُ سيِّئاتِهم، وليسوا بناجينَ مِنْ هذا العذابِ، ولا مُفلِتينَ مِنْ قدرةِ اللّهِ[5].

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (صوب).
(2) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (عجز).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 536.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 267.
(5) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 304، وابن كثير: 7/ 105.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نكتةُ فصلِ ﴿قَدۡ قَالَهَا﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ مبيِّنٌ لمضمونِ قولِهِ: ﴿هِيَ فِتۡنَةٞ﴾؛ لأنَّ بيانَ مَغَبَّةِ الَّذينَ قالوا هذا القولَ في شأنِ النِّعمةِ الَّتي تنالُهُم؛ يُبيِّنُ أنَّ نعمةَ هؤلاءِ كانَتۡ فتنةً لهُم[1]، فيكونُ الفصلُ لِما بينَ الجملتينِ مِنۡ كمالِ الاتِّصالِ.

مَـــنۡ نَـسـبَ النِّعَمَ لنفسِهِ، عانى من فتنتِه وتعسِه

دلالةُ الحرف ﴿قَدۡ﴾:

جيءَ بحرفِ التَّحقيقِ ﴿قَدۡ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ القولِ المذكورِ، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ التَّنصيصِ على العِظَةِ والعِبۡرةِ بأحوالِ السّابقينَ، وأنَّهم لم يَفوتوا اللّهَ سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ.

جُحـودُ النِّعَـمِ سنَّةٌ للظّالمينَ متَّبعةٌ

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿قَالَهَا﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ القولَ المذكورَ قد مضَى وتحقَّقَ، وسُجِّلَ في الصَّحائفِ، وفي ذلكَ تمهيدٌ لبيانِ إصابةِ العذابِ أصحابَ هذا القولِ؛ لتقويَةِ التَّحذيرِ والتَّهديدِ.

العـاقـلُ يعتبرُ بالأمثالِ، في كلِّ الأحوالِ

مرجعُ الهاءِ في ﴿قَالَهَا﴾:

الضَّميرُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿قَالَهَا﴾ راجعٌ إلى قولِهِ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾، وتأنيثُهُ على تأويلِ القولِ بالكلمةِ، أو على أنَّهُ جملةٌ مِنَ القولِ[2]. والمعنى: فقد قال هذه الكلمةَ الدّالّةَ على الجحود والغرور بعضُ الأقوامِ الّذين سبقوا قومَك، والّذين يُشبهونهم في البَطَرِ والكُنود، فكانت نتيجةَ ذلك أن أخذهم اللّه تعالى أَخۡذَ عزيزٍ مقتدرٍ، ولم ينفعۡهم شيئًا ما جمعوه من حُطام الدّنيا، وما اكتسبوه من متاعها"[3].

بـيــانُ قــولِ الإنسانِ المذكورِ، بتأويلِ الكلمةِ المقصودةِ

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 37.

(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 135، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 459.

(3) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 12/ 235.

كفّارُ الأممِ السّابقةِ، أُسْوَةٌ لِزُمرةِ كفّارِ قريشٍ اللّاحقةِ

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

المرادُ بالموصولِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾: قارونُ وقومُهُ وغيرُهم مِنَ الكفرةِ[1] الَّذينَ هم أشدُّ مِنْ كفّارِ قريشٍ قوَّةً وأكثرُ جمعًا[2]، فالإتيانُ في ذكرِهم بالموصولِ؛ لتعريفِ العهدِ مرادًا منهُ قومٌ معهودونَ مخصوصونَ.

معنى ﴿مِن﴾ في السّياقِ المُحكَم:

﴿مِن﴾ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ للتَّبعيضِ؛ إذ قائلُ هذا القولِ هم بعضُ الَّذينَ خلَوا مِنْ قبلِ كفّارِ قريشٍ، وهم قارونُ وأضرابُهُ كما تقدَّمَ بيانُهُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالقَبليَّةِ ﴿مِن قَبۡلِهِمۡ﴾:

العاقلُ لا يسيرُ في طريقِ الكفرةِ الهالكينَ

عُبِّرَ بالقَبليَّةِ في قولِ الباري عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾؛ للتَّنصيصِ على أنَّ الكفرةَ السّابقينَ قد سَبقوا كفّارَ قريشٍ بالزَّمنِ، وبهذهِ المقالةِ المُنكَرةِ، وحلَّ بهم ما حلَّ مِنَ العذابِ، فيكونُ في الكلامِ تهويلٌ للوعيدِ والتَّهديدِ؛ إذِ العاقلُ لا يسيرُ في طريقِ هلاكٍ هلكَ فيه غيرُهُ.

بلاغةُ المجازِ في سياقِ الآيةِ:

الرِّضا عنِ المُنكَرِ مُنكَرٌ، وتَكرارُ مقالِهِ اتّباعٌ لآلِهِ

يحتملُ قولُهُ تعالى: ﴿قَدۡ قَالَهَا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾، أنْ يكونَ فيهِ مجازٌ عقليٌّ، بأنْ يكونَ القائلُ بعضَهم كقارونَ مثلًا، ورضيَ بهِ قومُهُ، فيكونُ مِنْ بابِ إسنادِ ما للبعضِ إلى الكلِّ. ويجوزُ أنْ يكونَ التَّجوُّزُ في الطَّرَفِ، فـ﴿قَدۡ قَالَهَا﴾ بمعنى: قد شاعَتْ فيهِم[3]، وفي ذلكَ دلالةٌ على أنَّ الكفرةَ متشابِهونَ في أحوالِهِم وأقوالِهِم الفاسدةِ.

---

(1) ابن عطية، المحرّر الوجيز: 4/ 536، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 186.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 530.

(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 268.

معنى الفاءِ في ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾:

مقالةُ السّوءِ سببُ الهلاكِ، ومسلكُ البلاءِ والانتهاكِ

الفاءُ في قولِهِ جلَّ ذكره: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ للسَّببيَّةِ[1]، فتفيدُ تسبُّبَ عدم إغناءِ ما كَسَبوهُ عن مقالتِهم تلك، وتفرُّعَهُ عليها؛ فإنَّ عدمَ الإغناءِ مُشعِرٌ بأنَّهم حلَّ بهم مِنَ السّوءِ ما شأنُ مِثلِهِ أنْ يتطلَّبَ صاحبُهُ الافتداءَ منهُ، فإذا كانَ ذلكَ السّوءُ عظيمًا لم يكنْ لهُ فداءٌ، ففي الكلامِ إيجازُ حذفٍ يُبيِّنُهُ قولُهُ بعدَهُ: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ﴾[2].

معنى (ما) في سياق الآية المُحكَمة:

انتفاءُ الإغناءِ انتفاءً مُؤكَّدًا، مُبعدٌ لاحتمال النّجاة

الظّاهرُ أنَّ (ما) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم﴾ للنَّفيِ، أي: لم يُغنِ عنهُم. ويجوزُ أنْ تكونَ استفهاميَّةً، فيها معنى النَّفيِ[3] والإنكارِ، فتفيدُ انتفاءَ الإغناءِ انتفاءً مُؤكَّدًا، حتَّى كأنَّهُ يُسألُ عن مُغْنٍ، فلا يوجدُ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالماضي في ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾:

لا نجاةَ إلّا بالإيمانِ، ولا منجى للكفرة من عذاب الدّيّان

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ عدمَ الإغناءِ أمرٌ قد تحقَّقَ ومضَى، وأنَّ عاقبةَ الكفرةِ كانَتْ قبيحةً، وفي ذلكَ تيئيسٌ لكفرةِ قريشٍ مِنَ النَّجاةِ مِنَ العذابِ، وحثٌّ لهُم على الإيمانِ والارتداعِ عمّا هُم عليهِ مِنَ الكفرِ.

معنى (عَنْ) في السّياق المُحكَم:

لا بدلَ عنِ التّعذيبِ، ولا فرارَ منه لأهل التّكذيب

(عَنْ) في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ للبدلِ، أي: فما أغنى بدلًا منهُم ما كانوا يكسبونَ. ويحتملُ أنْ تكونَ للمجاوزةِ، والمعنى أنّه " قد قال هذه المقالةَ، وادّعى هذا الادّعاءَ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 547.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 37.

(3) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 266، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 211.

كثيرٌ منَ الأمم السّابقة، فلم يُغن عنهم شيئًا ما يكسبون من متاع الدّنيا، ولا ما يجمعون من حُطامها، حين أنزل اللّه بهم عقوبتَه، بسبب تكذيبِهم، واستهزائِهم برسل ربّهم إليهم"[1].

غرضُ تقديمِ ﴿عَنۡهُم﴾:

مفاجأةُ النَّفسِ بالتَّرهيبِ المرادِ مدعاةٌ لتركِ العنادِ

قُدِّمَ ﴿عَنۡهُم﴾ على الفاعلِ في قولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّم، والتَّشويقِ للمُؤخَّرِ، وتعجيلِ المُساءةِ للمشركينَ بالتَّنصيصِ على عدمِ الإغناءِ عنهُم، وذلكَ ممّا يُقوّي التَّرهيبَ، ويستنزلُ طائرَ الكِبْرِ والعنادِ.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾:

لا يُغني كسبُ الكفرةِ عنهُم مِنْ عذابِ اللهِ شيئًا

في قولِه تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، إيجازٌ بحذفِ مفعولِ ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ﴾، والتَّقديرُ: فما أغنَى عنهُم ذلكَ الاعتقادُ الباطلُ والقولُ الفاسدُ الَّذي اكتسبوهُ مِنْ عذابِ اللّهِ شيئًا[2]، أو فما أغنَى عنهُم متاعُ الدُّنيا مِنْ عذابِ اللّهِ شيئًا[3]، وفي الحذفِ تعميم، وإيماءٌ إلى أنَّ ما كسبوهُ لم يُغْنِ عنهُم شيئًا وإنْ قلَّ، ولو ذُكِرَ مفعولٌ معيَّنٌ لربَّما ظُنَّ أنَّهُ المرادُ دونَ غيرِه، وهانَ فيهِ الخَطْبُ، فلم يَحْسُنْ ذلكَ الحُسْنَ.

معنى الأداة ﴿مَّا﴾ في السّياق:

ملاءمةُ الدّلالةِ على العمومِ، لاستحقاقِ العذابِ المعلومِ

﴿مَّا﴾ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ موصولةٌ، والمعنى: فما أغنَى عنهُم الَّذي كانوا يَكسِبونَ مِنَ الأعمالِ، أو مِنْ متاعِ الدُّنيا، ويجمعونَ منهُ[4]، فلم يستطيعوا دفعَ العذابِ بأموالِهم أو بغيرِها، وفي التَّعبيرِ بها دلالةٌ على العمومِ، وفي ذلكَ ملاءمةٌ لمقامِ بيانِ عجزِهم واستيلاءِ العذابِ عليهِم، ببيانِ أنَّهم لو احتشدَ لنُصرتِهم كلُّ ما كَسَبوهُ مِنَ الأموالِ وغيرِها لم يُغْنِ ذلكَ عنهُم شيئًا.

---

(1) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 3987.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 459.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 135.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 135، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 259.

نكتةُ إدخالِ فعلِ الكونِ الماضي على المضارعِ:

الاستكثارُ مِنَ الكسب عند الكفرة غرورٌ به وأثرةٌ

أُدخِلَ فعلُ الكونِ الماضي على المضارعِ، في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، ولم يُقَلْ: (فما أغنَى عنهُم ما كَسَبوا)؛ للدَّلالةِ على رُسوخِ الكسبِ في الكفرةِ، وأنَّهُ كانَ فيهِم طَبْعًا وجِبِلَّةً[1]، وأنَّهم كانوا مُستمرّينَ عليهِ، مُجدِّدينَ لهُ، كما هو مُقتضَى صيغةِ المضارعِ في قولِهِ: ﴿يَكۡسِبُونَ﴾، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى شدَّةِ جَشَعِهم وحرصِهم على الاستكثارِ مِنْ متاعِ الدُّنيا، وأنَّ ذلكَ كانَ وُكْدَهم وقَصْدَهم، فلم يعملوا لآخرتِهم، وألقَوْا بأيديهِم إلى التَّهلُكةِ، أو هو إشارةٌ إلى إسرافِهم على أنفُسِهم بسوءِ العملِ.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾:

ما حرصَ المشركونَ على كسبِهِ بالأسبابِ، لا يُغني يومَ الحسابِ

حُذِفَ مفعولُ ﴿يَكۡسِبُونَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾؛ إيجازًا، وقد شاعَ حذفُ الضَّميرِ الرّاجعِ إلى الموصولِ، والأصلُ: يكسبونَهُ. وفي الحذفِ إشارةٌ إلى أنَّ هذا الكسبَ لمّا كانَ غيرَ مُغْنٍ عنهُم شيئًا فهو بمنزلةِ المعدومِ، فحقُّهُ ألّا يُذكَرَ في الكلامِ. وفي الحذفِ أيضًا رِعايةٌ للفاصلةِ.

معنى الفاءِ في قوله ﴿فَأَصَابَهُمۡ﴾:

العقابُ المأثورُ مُترتِّبٌ على عدمِ إغناءِ الكسبِ المذكورِ

الفاءُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ﴾، لتفريعِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾، أي: تسبَّبَ عن انتفاءِ إغناءِ الكسبِ عنهُم حلولُ العقابِ بهِم[2].

سرُّ مخالفةِ الظّاهرِ في ترتيبِ الجُملِ:

بطلانُ مقالةِ الظّالمينَ ظاهرٌ مُستبينٌ

كانَ مقتضَى الظّاهرِ في ترتيبِ الجُملِ، أنْ تكونَ جملةُ ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ﴾، مقدَّمةً على جملةِ ﴿فَمَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾؛ لأنَّ الإغناءَ إنَّما يُترقَّبُ عندَ حلولِ الضُّرِّ بهِم، فإذا

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 530 - 531.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 37.

تقرَّرَ عدمُ الإغناءِ يُذكَرُ بعدَهُ حلولُ المصيبةِ، فعُكِسَ التَّرتيبُ؛ لقصدِ التَّعجيلِ بإبطالِ مقالةِ قائلِهم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۭ﴾، أي: لو كانَ لعلمِهم أثرٌ في جلبِ النِّعمةِ لهُم لكانَ لهُ أثرٌ في دفعِ الضُّرِّ عنهُم[1].

نكتةُ صيغةِ الماضي في ﴿فَأَصَابَهُمۡ﴾:

بيانُ قُربِ العقابِ مِنَ المُكذِّبينَ مُفصحٌ عنِ الدّلالة مبينٌ

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي، في قولِ الباري ﷻ: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوٓاْۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ حلولَ العقابِ بالكفرةِ المذكورينَ أمرٌ قد تحقَّقَ ومضَى، بحيثُ لا يُشَكُّ فيه، وفي ذلكَ تقويةٌ لمقامِ الوعيدِ، وقَرْعِ العصا لكفّارِ قريشٍ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالسَّيِّئاتِ:

معاصي الإنسانِ مقرونةٌ بالذُّلِّ والهَوانِ

السَّيِّئةُ في الأصلِ: الفَعْلَةُ القبيحةُ[2]، والسّوءُ: كلُّ ما يغمُّ الإنسانَ مِنَ الأمورِ الأُخرويَّةِ والدُّنيويَّةِ[3]. وقد عُبِّرَ بالسَّيِّئاتِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوٓاْۚ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ نسبةَ المشركينَ الفضلَ لأنفسِهم قد ألحقَتْ بهِم الأذى والغمَّ، عندَ نزولِ العقابِ، وفي ذلكَ مناسبةٌ لمقامِ الوعيدِ والحثِّ على هَجْرِ الشِّركِ والآثامِ.

بلاغةُ السَّيِّئاتِ بينَ المُشاكلَةِ والمجازِ:

بيانُ أنّ أنواعَ العذابِ تسوءُ المُعذَّبينَ بأنواعِ العقابِ المهينِ

يحتملُ أنْ يرادَ بالسَّيِّئاتِ في قولِهِ تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوٓاْۚ﴾، أنواعُ العذابِ الَّتي يُجازَى بها الكفرةُ الَّذينَ نسبوا تخويلَ النِّعَمِ لأنفسِهم، وقد سُمّيَتْ سيِّئاتٍ على سبيلِ المُشاكلةِ[4]، رمزًا إلى أنَّ جميعَ أعمالِهم كذلكَ، أو على سبيلِ أنَّهُ تُجوِّزَ بالسَّيِّئاتِ عمّا تسبَّبَ عنها مِنَ الجزاءِ على سبيلِ المجازِ المرسَلِ، بذكرِ السَّببِ وإرادةِ مُسبَّبِهِ[5]. ويحتملُ أنْ يكونَ المعنى: فأصابَهم آثارُ تلكَ السَّيِّئاتِ الَّتي

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 37.
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (سوء).
(3) السّمين، عمدة الحفّاظ: (سوء).
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 45، والنّسفي، مدارك التّنزيل: 3/ 187.
(5) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 342.

اكتسبوها، وهذهِ الآثارُ هي أنواعٌ مِنَ العقابِ[1]، فيكونُ الكلامُ على تقديرِ مضافٍ[2]، فيكونُ فيهِ إيجازٌ بالحذفِ.

معنى الأداة ﴿مَا﴾ في السّياق:

ما كسبَهُ الكفرةُ عقابٌ نازلٌ بهم، ووبالٌ مُطبقٌ عليهِم

يجوزُ أنْ تكونَ ﴿مَا﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوٓاْ﴾ موصولةً، والمعنى: فأصابَهم سيِّئاتُ الَّذي كَسَبوهُ[3]. ويجوزُ أنْ تكونَ مصدريَّةً، أي: فأصابَهم سيِّئاتُ كسبِهم[4]، والمرادُ بالكسبِ الحاصلُ بالمصدرِ، أي: سيِّئاتُ مكسوبِهم، فالمآلُ واحدٌ[5].

نكتةُ الماضي في ﴿كَسَبُوٓاْ﴾:

بيانُ أنّ العذاب مُناطٌ بما كسبَ العبادُ في سالف الآمادِ

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿كَسَبُوٓاْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ كسبَ الكفرةِ للسَّيِّئاتِ أمرٌ قد مضَى وتحقَّقَ قبلَ زمانِ حلولِ العقابِ بهِم، وفي ذلكَ إقامةٌ للحُجَّةِ عليهِم، ببيانِ أنَّ اللّٰهَ تعالى ذِكْرُهُ إنَّما يُجازيهم على ما تحقَّقَ منهُم فعلُهُ، ولا يحاسبُهم على ذنبٍ لم يفعلوهُ.

بلاغةُ الإيجازِ بالحذفِ:

حذفُ ضميرِ الصِّلةِ، إيجازٌ مُتَّبَعٌ

إذا كانَتْ ﴿مَا﴾ في قولِ اللّٰهِ جلَّ ثناؤُهُ: ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوٓاْ﴾ موصولةً؛ فالتَّقديرُ: سيِّئاتُ ما كسبوهُ، وقد حُذِفَ المفعولُ - وهو ضميرُ الهاءِ - إيجازًا؛ لشيوعِ حذفِ الضَّميرِ الرّاجعِ إلى الموصولِ مِنْ جملةِ الصِّلةِ.

معنى الواوِ في ﴿وَٱلَّذِينَ﴾:

حالُ الكفّارِ اللّاحقين، كحالِ الكفرةِ السّابقين

الواوُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ استئنافيَّةٌ، وغرضُ الاستئنافِ توعُّدُ كفّارِ قريشٍ بأنَّهم سيصيبُهم عقابُ ما كَسَبوا، كما

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 458.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 342.
(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 343.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 209، والسّمين، الدّر المصون: 9/ 432.
(5) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 544.

أصابَ الَّذينَ مِنْ قبلِهم سيِّئاتُ ما كَسَبوا، وقد نالَهم شيءٌ مِنْ ذلكَ في يومِ بدرٍ وغيرِه[1].

سرُّ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

العقابُ لازمٌ للظّالمِ ما دامَ على ظلمِهِ يداومُ

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إصابةَ العقابِ لكفّارِ مكَّةَ أمرٌ متحقِّقٌ ما بقوا على كفرِهم وشقاقِهم، ومحاربتِهم للّهِ ورسولِه.

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ (الَّذينَ):

الظُّلمُ سببُ العذابِ والخُسْرانِ في كلّ عصرٍ وأوانٍ

أوثِرَ التَّعبيرُ بالموصولِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾؛ للإشارةِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ إلى علَّةِ إصابةِ السَّيِّئاتِ لهُم، وهي ظلمُهم، وفي ذلكَ إقامةٌ للحُجَّةِ عليهِم، وتنبيهٌ على أنَّ كلَّ مَنْ كانَ على شاكلتِهم فعاقبتُهُ عاقبتُهم.

بلاغةُ الماضي في ﴿ظَلَمُواْ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ ظلمَهم أمرٌ قد تحقَّقَ ومضَى، ولذلكَ كانوا بصَدَدِ أنْ يذوقوا العذابَ الأليمَ جزاءً عليهِ.

نكتةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿ظَلَمُواْ﴾:

العُتوُّ والشِّركُ، كلاهما مِنْ أعظمِ صوَرِ الظُّلمِ

حُذِفَ متعلَّقُ الظُّلمِ، في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ﴾؛ لظهورِه مِنَ السّياقِ، والتَّقديرُ: والَّذينَ ظلموا بالعُتوِّ[2] بقولِهم: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍۚ﴾، أو الَّذينَ ظلموا بالشِّركِ؛ إذِ الشِّركُ ظلمٌ عظيمٌ[3]، أو لأنَّ المقصودَ التَّسجيلُ عليهِم باتِّصافِهم بالظُّلمِ دونَ التفاتٍ لنوعِ الظُّلمِ.

---

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 536.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 45.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 548.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ (الظُّلمِ):

عُبِّرَ بالظُّلمِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ لأنَّهُ في الأصلِ تجاوزُ الحدِّ[1]، ووضعُ الشَّيءِ في غيرِ محلِّه[2]، وفيه "تهديدٌ ووعيدٌ لهؤلاء المشركين الظّالمين من قريش، وأنّهم سيقعُ بهم ما وقع بالظّالمين قبلَهم ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۝٦٢﴾ [الأحزاب: 62]، فاللّه سبحانه لا يبدّلُ سنّتَه مع هؤلاء الظّالمين"[3]، ولا شكَّ أنَّ الكفرةَ قد جاوزوا الحدَّ بنسبةِ النِّعَمِ لأنفُسِهم، وإشراكِهم باللّهِ تعالى، ووضعِهم العبادةَ في غيرِ محلِّها الصَّحيحِ.

الظّالمُ متجاوزٌ للحدِّ، مقترفٌ للظّلمِ بلا عدٍّ

معنى الحرف ﴿مِنْ﴾ في السّياق:

يحتملُ أنْ تكونَ ﴿مِنْ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ للبيانِ، فإنَّهم كلَّهم ظالمونَ؛ إذِ الشِّركُ ظلمٌ عظيمٌ، ومِنْ للبيان، والتّقدير: سَيُصيبُهُمْ سَيِّئاتُ ما كَسَبوا جزاءَ كسبهم كما أصاب أولئك، وقد أصابهم، فإنّهم قحطوا سبعَ سنين، وقُتل صناديدُهم في بدر[4]. ويحتملُ أنْ تكونَ للتَّبعيضِ، فالمرادُ بهِم مَنْ أصرَّ على الظُّلمِ حتَّى يصيبَهم العذابُ، وهم بعضٌ منهُم[5].

كلُّ مشركٍ ظالمٍ سيبوءُ بالخِزيِ والعذاب

نكتةُ التَّعبيرِ باسمِ الإشارةِ:

الإشارةُ في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ للمشركينَ مِنْ أهلِ مكَّةَ، وقد جرَتْ عادةُ القرآنِ إذا ذُكِرَتْ فيه هذه الإشارةُ أنْ يكونَ المرادُ بها المشركينَ مِنْ قريشٍ[6]. وفائدةُ هذهِ الإشارةِ زيادةُ التَّعيينِ لهُم الملائمِ لمقامِ التَّهديدِ.

مَنْ هُدِّدَ بالعذابِ، فحقُّهُ الارتداعُ عنِ الظُّلمِ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 548.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 531.
(3) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1176.
(4) الزّحيليّ، التّفسير المنير: 24/ 30.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 45، والخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 343.
(6) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 38.

نزولُ العذابِ بالظّالمينَ، حاصلٌ بيقين

فائدةُ السّينِ في ﴿سَيُصِيبُهُمۡ﴾:

السّينُ في قولِه تعالى: ﴿سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ﴾، لتأكيدِ إصابةِ السَّيِّئاتِ للظّالمينَ، وقد أصابَتْهم أيَّ إصابةٍ، حيثُ أصابَهم القَحْطُ سبعَ سنينَ، وقُتِلَ صناديدُهم يومَ بدرٍ[1].

نكتةُ صيغةِ المضارعِ ﴿سَيُصِيبُهُمۡ﴾:

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ سبحانَهُ: ﴿سَيُصِيبُهُمۡ﴾؛ لأنَّ الإصابةَ أمرٌ مستقبلٌ بالنِّسبةِ لزمنِ نزولِ هذهِ الآيةِ، وصيغةُ المضارعِ تدلُّ على الاستقبالِ.

المشركونَ لهُم صَغارٌ عندَ ربِّهم

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ (السَّيِّئاتِ):

عُبِّرَ بالسَّيِّئاتِ في قولِه ﷻ: ﴿سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الشِّركَ والمعاصيَ سببٌ لغمِّ الظّالمينَ، عندَ نزولِ العذابِ بهم؛ لأنَّ السَّيِّئةَ في الأصلِ هي الفَعْلَةُ القبيحةُ الَّتي تسوءُ صاحبَها.

الفعلُ القبيحُ، طريقُه مسدودةٌ، وعُقباه غيرُ محمودةٍ

براعةُ السَّيِّئاتِ بينَ المُشاكلةِ والمجازِ:

يجوزُ أنْ يرادَ بالسَّيِّئاتِ في قولِهِ تعالى: ﴿سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ﴾، أنواعُ العذابِ الَّتي تصيبُ كفّارَ قريشٍ، سُمّيَتْ سيِّئاتٍ على سبيلِ المُشاكلةِ، أو على سبيلِ المجازِ المرسَلِ، حيث تُجوِّزَ بالسَّيِّئاتِ عمّا تسبَّبَ عنها[2]، فذُكِرَ السَّببُ، وأُريدَ المُسبَّبُ[3]. ويحتملُ أنْ يكونَ المعنى: سيصيبُهم آثارُ تلكَ السَّيِّئاتِ الَّتي اكتسبوها، وهذهِ الآثارُ هي أنواعٌ مِنَ العقابِ[4]، فيكونُ الكلامُ على تقديرِ مضافٍ[5]، وهو مِنَ الإيجازِ بالحذفِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 259.
(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 342.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 267.
(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 458.
(5) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 267.

معنى الأداة ﴿مَا﴾ في السّياق:

يجوزُ أنْ تكونَ ﴿مَا﴾ في قولِ الحقِّ جلَّ ذكرُهُ: ﴿سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ موصولةً، والمعنى: فأصابَهم سيِّئاتُ الَّذي كَسَبوهُ. ويجوزُ أنْ تكونَ مصدريَّةً، أي: فأصابَهم سيِّئاتُ كسبِهم، والمرادُ بالكسبِ الحاصلُ بالمصدرِ، أي: سيِّئاتُ مكسوبِهم، فالمآلُ واحدٌ.

ما كسبَهُ الكفرةُ شرٌّ وعقابٌ، سوف يُفضي إلى العذابِ

بلاغةُ الماضي في ﴿كَسَبُواْۚ﴾:

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿كَسَبُواْۚ﴾؛ لأنَّ كسبَ المشركينَ أمرٌ قد مضَى وتحقَّقَ قبلَ زمانِ الإخبارِ بهذهِ الآيةِ، وفي ذلكَ إيماءٌ إلى أنَّهُ ﷻ لا يُهلِكُهم إلّا وهم ظالمونَ، مستحِقّونَ لما ينزلُ بهم مِنَ العذابِ والهلاكِ.

الجزاءُ على سيِّئاتٍ مُتحقِّقةٍ، مؤكَّدٌ بالآياتِ المُصدّقة

نكتةُ حذفِ المفعولِ في السّياق:

إذا كانَتْ ﴿مَا﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْۚ﴾ موصولةً؛ فالأصلُ: كَسَبوهُ، وقد حُذِفَ المفعولُ إيجازًا؛ لشيوعِ حذفِ ضميرِ الصِّلةِ الرّاجعِ إلى الموصولِ. وفيه إشارةٌ إلى هَوانِ هذا المكسوبِ، بحيثُ لا يستحقُّ الذِّكرَ.

حذفُ ضميرِ الصِّلةِ الرّاجعِ إلى الموصولِ، من فصيحِ القَوْل

معنى الواوِ في ﴿وَمَا هُم﴾:

الواوُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على ما قبلَها، وفائدةُ العطفِ: أنَّهُ بعدَ أنْ بُيِّنَ أنَّ السَّيِّئاتِ ستصيبُ الظّالمينَ بُيِّنَ أنَّهم لا أملَ لهُم في النَّجاةِ مِنْ ذلكَ، وفي هذا قطعٌ لأطماعِهم بالنَّجاةِ، وتقويةٌ للوعيدِ والتَّهديدِ(1). ويحتملُ أنْ تكونَ الجملةُ استئنافيَّةً، والغرضُ ما ذُكِرَ.

العطفُ وصلٌ للمعنى، وبيانٌ للعلائقِ بين أجزاءِ التّركيب

سرُّ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّة:

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ لإفادةِ الثَّباتِ والدَّوامِ في نسبةِ المسنَدِ للمسنَدِ إليهِ، وهي نسبةُ نفيهِ

دوامُ النّسبةِ في السّياق، مفيدةٌ عدمَ إعجازِهم لله على الدّوام

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 459.

عنِ المسنَدِ إليهِ؛ لأنَّ الخصوصيّاتِ الَّتي تُعتبَرُ في حالةِ الإثباتِ تُعتبَرُ في حالةِ النَّفيِ[1]، فيفيدُ الكلامُ أنَّ عدمَ إعجازِهم أمرٌ ثابتٌ دائمٌ.

غرضُ تقديمِ ﴿هُم﴾:

تأكيدُ عدمِ الإعجازِ، مبينٌ على مُطلقِ القدرةِ الإلهيّةِ

قُدِّمَ ﴿هُم﴾ على ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾؛ لأنَّهُ المسنَدُ إليهِ، وتقديمُهُ هو الأصلُ، وللعنايةِ بهِ، وهو يفيدُ التَّقوّيَ أيضًا على رأيِ بعضِ البلاغيّينَ، فيكونُ عدمُ الإعجازِ قد نُسِبَ إليهِم مرَّتينِ: إحداهما بنسبةِ الخبرِ إلى المبتدأِ، والثّانيةُ باشتمالِ الخبرِ (معجزينَ) على ضميرٍ راجعٍ إلى المبتدأِ، وكأنَّهُ قد قيلَ: وما هم بمعجِزينَ، وما هم بمعجِزينَ.

دلالةُ الباءِ في قولِه ﴿بِمُعۡجِزِينَ﴾:

التّوكيدُ بالباءِ الدّاخلةِ على الخبرِ، مُفصحٌ عنِ البيانِ المُقرَّرِ

الباءُ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ صلةٌ لتوكيدِ النَّفيِ، والغالبُ زيادتُها في الخبرِ في مِثلِ هذا التَّركيبِ[2]، فتفيدُ هنا توكيدَ عدمِ إعجازِهم. بمعنى وما هم بفائتينَ اللهَ هربًا يومَ القيامةِ، بل مرجعُهم إليهِ، ويصنعُ بهم ما شاءَ منَ العقوبةِ[3]، وذلك لمطلقِ قدرتِه، وجلالِ قيّوميّتِه في ملكِه.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإعجازِ:

الإعجازُ مجازٌ عنِ استحالةِ الإفلاتِ منَ العذابِ

في التَّعبيرِ بالإعجازِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ مجازٌ لطيفٌ، وذلكَ أنَّ المُعجِزَ في الحقيقةِ هو الَّذي يجعلُ طالبَ الشَّيءِ عاجزًا عنِ الحصولِ عليهِ، ويُستعمَلُ مجازًا في معنى الإفلاتِ منْ تناوُلِ طالبِهِ[4]، والمعنى هنا: وما هم بمُفلِتينَ منْ عذابِ اللهِ وناجينَ بأنفسِهم[5]، أو ما هم بخارجينَ عن قدرةِ اللهِ.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 89.
(2) ابن هشام، مغني اللّبيب: 1/ 131.
(3) المراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 20.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 8/ 89.
(5) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 536.

بلاغةُ صيغةِ اسمِ الفاعلِ (مُعْجِزينَ):

عُبِّرَ بصيغةِ اسم الفاعلِ المجموعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾؛ لِما تفيدُهُ الصّيغةُ مِنَ الثَّباتِ في الوصفِ، فتفيدُ في هذا السّياقِ المقرونِ بالنَّفيِ، انتفاءَ اتِّصافِهم بالإعجازِ.

الظّالمونَ غيرُ مُعجِزينَ لمن لا يُعجزه شيءٌ

نكتةُ حذفِ مفعولِ (معجِزينَ):

حُذِفَ مفعولُ (معجِزينَ) في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَمَا هُم بِمُعۡجِزِينَ﴾ إيجازًا؛ لدلالةِ المقامِ عليه، والتَّقديرُ: وما هم بمعجزينَ اللّهَ[1]؛ لأنَّهُ ﷻ هو المُعذِّبُ. وفي الحذفِ أيضًا مراعاةٌ للفاصلةِ.

الظّالمونَ لا يُعجِزونَ اللهَ الّذي يُمهلُ ولا يُهملُ

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 276.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الزّمر: 52]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ مولي النِّعَمِ بعدَ تأكيد سوءِ عاقبةِ مَن ظَلَم

لمّا أبطلَ ﷻ نسبةَ الإنسانِ النِّعَمَ لنفسِه، وذكرَ أنَّهُ لا دافعَ لعذابِه حينَ ينزلُ بالظّالمينَ؛ بيَّنَ مَنْ هو مولي النِّعَمِ والأرزاقِ، والمُتفضِّلُ بها[1]، إذْ " إنَّ في ذلِكَ البسطِ والقبضِ لآياتٍ دالّةً على أنّ الحوادث كلَّها منَ اللّه بلا واسطة، لِقَوْمٍ يُؤْمِنونَ، إذ هم المُستدلّون بها على أنّ القابض والباسط هو اللّه، دون غيره"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبۡسُطُ﴾: (بسط) أصلٌ يدلُّ على امتدادِ الشَّيءِ[3]، ونَشْرِهِ وتوسيعِهِ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: بسطَ الثَّوبَ، أي: نشرَهُ[4]، والبِساطُ: الأرضُ المتَّسعةُ، وبَسْطُ اليدِ: مدُّها، وهو يُستعملُ تارةً للطَّلبِ، وتارةً للأخذِ، وتارةً للضَّربِ، وتارةً للبذلِ والإعطاءِ[5]. و"في أسماءِ اللّه تعالى (الباسطُ)، هو الّذي يبسط الرّزق لعباده، ويوسّعُه عليهم بجوده ورحمته، ويبسطُ الأرواحَ في الأجساد عند الحياة"[6]. والمرادُ ببَسْطِ الرِّزقِ هنا: التَّوسعةُ فيه[7].

2) ﴿ٱلرِّزۡقَ﴾: (رزق) أصلٌ يدلُّ على عطاءٍ لوقتٍ، ثمَّ يُحمَلُ عليهِ غيرُ الموقوتِ[8]، فيقالُ الرِّزقُ للعطاءِ الجاري تارةً دنيويًّا كانَ

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 536، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 531.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 90.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بسط).
(4) الجوهري، الصّحاح: (بسط).
(5) الراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس: (بسط).
(6) ابن الأثير، النّهاية في غريب الحديث والأثر: (بسط).
(7) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 105.
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (رزق).

أم أُخرويًّا، وللنَّصيبِ تارةً، ولِما يصلُ إلى الجوفِ ويُتغذَّى بهِ تارةً[1].

والمرادُ بالرِّزقِ هنا: ما يقسمُهُ اللّٰهُ تعالى لعبادِهِ ممّا فيه بقاؤُهم وصلاحُ أمرِ دنياهُم.

3) ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾: (قدر) أصلٌ يدلُّ على مَبْلَغِ الشَّيءِ وكُنْهِهِ ونهايتِهِ، فيقالُ: قَدْرُهُ كذا، أي: مَبْلَغُهُ[2]، ويقالُ: الأمورُ تَجْري بقَدَرِ اللّٰهِ ومِقْدارِهِ وتقديرِهِ وأقدارِهِ ومَقاديرِهِ[3]، ويقالُ: رجلٌ ذو قُدرةٍ ومَقْدِرةٍ، أي: يَسارٍ، يعني: أنَّهُ يَبْلُغُ بغِناهُ مِنَ الأمورِ المَبْلَغَ الَّذي يوافقُ إرادتَهُ[4]، والتَّقديرُ: تبيينُ كمّيَّةِ الشَّيءِ[5]. وقدرَ اللّٰه تعالى على الإنسان رزقَه: أي ضيّق، قال اللّٰه تعالى: ﴿فَقَدَرَ عَلَيۡهِ رِزۡقَهُۥ﴾ [الفجر: 16]، ومنه قولُه تعالى: ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ﴾ [الأنبياء: 87]، أي: نضيِّق، ولا يجوز أن يكون مِنَ القدرة فيكون كفرًا؛ لأنّه تعجيزٌ للّٰه تعالى عن ذلك[6]، والمرادُ بـ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ هنا: يُضيِّقُ[7].

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

لـلـهِ الخـلـقُ والأمــرُ، وهـو بـاسـطُ الـرّزق وقابضُه

يُخبِرُ اللّٰهُ تعالى عن جهلِ المشركينَ وغَباوتِهم، فيقولُ: أوَلم يَعلم المشركونَ الَّذينَ ينسُبونَ النِّعَمَ لأنفُسِهم أنَّ الشِّدَّةَ والرَّخاءَ والسَّعةَ والضّيقَ بيدِ اللّٰهِ وحدَهُ، يوسِّعُ على مَنْ يشاءُ في الرِّزقِ، ويُضيِّقُ على مَنْ يشاءُ فيه، وفي ذلكَ دلالاتٌ وعلاماتٌ لقومٍ يُصدِّقونَ بالحقِّ، تدلُّهم على أنَّهُ لا تصرُّفَ في الكونِ والخلقِ لغيرِ اللّٰهِ[8].

---

(1) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفاظ: (رزق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).
(3) الزّمخشريّ، أساس البلاغة: (قدر).
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (قدر).
(5) الرّاغب، المفردات: (قدر).
(6) الحميري، شمس العلوم: (قدر).
(7) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 26/ 459، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 187.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 305، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 536.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الاستفهامِ في السّياق:

لا يغفلَ عن حكمةِ الرَّزّاقِ الودود، إلّا جاهلٌ كنودٌ

الاستفهامُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ ليسَ على حقيقتِه، بلِ المرادُ بِهِ الإنكارُ، أُنكِرَ عليهِم عدمُ علمِهِم بأنَّ اللّهَ ﷻ هو الَّذي بيدِه الأرزاقُ، وهو يَقسِمُها على وفْقِ مشيئتِهِ وحكمتِهِ، وفي هذا الإنكارِ توبيخٌ لهُم أيضًا[1].

«واقتُصِر في الإنكار على إنكار انتفاءِ العلم بأنَّ بَسْطَ الرِّزق وقَدرَه مِن فعل اللّه تعالى؛ لأنَّه أدنى لمشاهدتهم أحوالَ قومهم، فَكَمْ مِن كادٍّ غيرِ مرزوق، وكَمْ مِن آخرَ يجيئه الرِّزقُ مِن حيث لا يحتسبُ»[2].

بلاغةُ عطفِ ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ﴾:

انتفاءُ العلمِ معَ ظهورِ الدَّلائلِ وصفٌ مُلازمٌ لكلِّ جاهلٍ

يحتملُ أنْ تكونَ الواوُ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةِ ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾. ووجهُ العطفِ: أنَّهُ تعالى بعدَ أنْ وصفَ أكثرَهم بانتفاءِ العلمِ بأنَّ التَّخويلَ فتنةٌ وابتلاءٌ لهُم، عطفَ عليهِ إنكارَ انتفاءِ علمِهِم بأنَّ أمرَ الرِّزقِ بيدِ اللّهِ، وإنكارَ إهمالِهم النَّظرَ في الأدلَّةِ المفيدةِ للعلم، حتَّى بقوا في جهالةٍ مركَّبةٍ، وكانَ الشَّأنُ أنْ يعلموا أنَّ اللّهَ يبسطُ الرِّزقَ لِمَنْ يشاءُ ويقدرُ[3]. ويحتملُ أنْ تكونَ الواوُ لعطفِ هذهِ الجملةِ على جملةٍ محذوفةٍ، والتَّقديرُ: أقالوها ولم يعلموا؟! إلخ، أو: أغَفَلوا ولم يعلموا؟! إلخ[4].

غرضُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ:

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ، في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ

(1) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 548، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 38.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 38.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 38.

(4) الجمل، حاشية على الجلالين: 6/ 439، واطفّيش، تفسير اطفّيش: 9/ 182.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾؛ للدَّلالةِ على تجدُّدِ عدمِ العلمِ، وأنَّ المشركينَ غارقونَ في غفلتِهم وجهلِهم، بأنَّ الرِّزقَ بيدِ اللّهِ، بحيثُ لا يُرجَى انتباهُهم مِنْ غفلتِهم، إلّا مَنْ شاءَ اللّهُ تعالى لهُ الهدايةَ بعدَ ذلكَ، واستمرارُ جهلِهم وتجدُّدُهُ، هو سببُ توبيخِهم والإنكارِ عليهِم.

الكافرُ غارقٌ في الجهالة، وجاحدٌ لرزق الله ذي الجلالة

سرُّ التَّعبيرِ بالعلمِ دونَ الرُّؤيةِ:

عُبِّرَ بالعلمِ في قولِهِ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾، ولم يُعبَّرْ بالرّؤيةِ كما في قولِهِ: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ [الرّوم: 37]؛ لمناسبةِ نفيِ العلمِ عنِ الأكثرِ في قولِهِ: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾، ولأنَّ مقصودَ السّورةِ بيانُ أنَّهُ تعالى صادقُ الوعدِ، ومطلقُ العلمِ كافٍ فيه، بخلافِ ما مضَى في الرّومِ[1].

يقينُ وعدِ اللهِ للعبادِ، بكونِه لا يُخلفُ الميعادَ

نكتةُ التَّوكيدِ في السّياقِ المجيدِ:

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ بـ﴿أَنَّ﴾ واسميَّةِ الجملةِ؛ لتأكيدِ كونِ التَّوسعةِ في الرِّزقِ والتَّضييقِ فيه بيدِ اللّهِ تعالى، لا بيدِ المُنعَمِ عليهِم مِنَ العبيدِ، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ توبيخِ المشركينَ على جهلِهم، وقطعٌ لكلِّ رجاءٍ تعلَّقَ بغيرِ اللّهِ تعالى.

مفاتحُ الخيرِ بيدِ اللهِ، ولا باسطَ للرِّزقِ سواه

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليهِ على المُسنَدِ الفعليِّ:

قُدِّمَ المُسنَدُ إليه ﴿ٱللَّهَ﴾ على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿يَبۡسُطُ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾؛ لإفادةِ الحصرِ المناسبِ للرَّدِّ على مَنْ زعمَ مِنَ النّاسِ أنَّ النِّعَمَ تكونُ بكسبِهِ وعلمِهِ، أي: أوَلم يعلموا أنَّ اللّهَ لا غيرَهُ يبسطُ الرِّزقَ... إلخ[2]، وهذا يتضمَّنُ تقوّيَ الحكمِ أيضًا، أي: تقوّيَ نسبةِ البَسْطِ والقَدْرِ له ﷻ.

إفادةُ حصرِ تدبيرِ الرِّزقِ في اللهِ وحدَهُ، أنَّه لا رازقَ غيرُه

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ:

عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ دونَ غيرِهِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 532.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 532.

تدبيرُ شؤونِ الأرزاقِ، بيدِ الله الرّزّاق

﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾؛ لأنَّهُ الاسمُ الأعظمُ الدّالُّ على جميعِ صفاتِ الجلالِ والكمالِ والجمالِ[1]، فيكونُ أنسبَ بمقامِ التَّنصيصِ على كونِ اللّٰهِ تعالى هو المُتولّي تدبيرَ شؤونِ الرِّزقِ الَّتي تقتضي القدرةَ التّامَّةَ، والحكمةَ البالغةَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

كونُ الرِّزقِ بيدِ اللهِ باستمرارٍ مناسبٌ للمضارعيّة

جيءَ بالأفعالِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ مضارعةً؛ للتَّنبيهِ على أنَّ أمرَ الرِّزقِ توسعةً وتضييقًا، بيدِ اللّٰهِ تعالى على الاستمرارِ والتَّجدُّدِ، وفي ذلكَ تأكيدٌ لإقامةِ الحُجَّةِ على مَنْ ينسبُ النِّعَمَ لنفسِهِ، وزرعٌ للطُّمأنينةِ في قلوبِ أهلِ الإيمانِ والعلمِ، حيثُ يوقنونَ أنَّ رزقَهم بيدِ اللّٰهِ تعالى، وهو يرزقُهم كما يشاءُ على وفْقِ حكمتِهِ، ومَنْ ضُيِّقَ عليهِ اليومَ فقد يوسَّعُ عليهِ غدًا، ولن تموتَ نفسٌ حتَّى تستوفيَ رزقَها.

نكتةُ تقديمِ البَسْطِ على القَدْرِ:

اليُسْرُ غالبٌ للعُسْرِ، والبسطُ سابقٌ للقبض

قُدِّمَ البَسْطُ على القَدْرِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾؛ تغليبًا لجانبِ اليُسْرِ على جانبِ العُسْرِ؛ ليزدادَ الموقنونَ بفضلِ اللّٰهِ إيقانًا، ولأنَّ الكفرةَ قد أعماهُم ما هُم فيهِ مِنَ النِّعَمِ عنِ التَّدبُّرِ فيها، ونسبتِها إلى المُنعِمِ الحقيقيِّ بها، فنسبوها لأنفسِهم، فقُدِّمَ البَسْطُ الَّذي نسبوا أثرَهُ لأنفُسِهم؛ للمسارعةِ إلى بيانِ أنَّهُ بيدِ اللّٰهِ لا بأيديهِم.

نكتةُ تعريفِ الرِّزقِ في السّياقِ المُحكَم:

الرِّزقُ بيدِ اللهِ الكريمِ، وتصريفُهُ بتقديرِهِ الحكيم

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ الرِّزقِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ للجنسِ المُستغرِقِ لجميعِ أفرادِهِ، فجميعُ الأرزاقِ بيدِ اللّٰهِ تعالى، يُدبِّرُها كيفَ يشاءُ، فينبغي أن تتوجَّهَ القلوبُ إلى الرَّزّاقِ ذي القوَّةِ المتينِ، ولا تتعلَّقَ بمخلوقٍ ضعيفٍ، لا يملكُ لنفسِهِ ضَرًّا ولا نفعًا.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 532.

معنى اللّامِ في ﴿لِمَن﴾:

اللّامُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ للتَّعليلِ، والمعنى: يبسطُ الرِّزقَ لأجلِ مَنْ يشاءُ. "أي: يوسّعُه لِمَنْ يَشاءُ ويَقْدِرُ؛ أي: يضيّقُ لِمَن يشاء بلا سبب ولا علّة، أو: يجعلُه على قدر القوت من غير زيادة ولا نقصان، وهو من إتمام النّعمة. وفي الحِكَم: (من تمام النّعمة عليك، أن يعطيَك ما يكفيك، ويمنعَك ما يُطغيك)"[1].

الــــرِّزقُ لأجــلِ الأنــام، تفضّلٌ مــنَ الــلــه ذي الجلال والإكرام

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ (مَنْ):

عُبِّرَ بالموصولِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾؛ للدَّلالةِ على العموم، فيشملُ كلَّ مَنْ تعلَّقَتْ مشيئةُ اللّهِ تعالى ببسطِ الرِّزقِ لهُ، صالحًا كانَ أو طالحًا، ويلزمُ مِن انتفاءِ علمِهم بذلكَ أنَّهم توهَّموا بَسْطَ الرِّزقِ علامةً على القُرْبِ مِنَ اللّهِ، وضدَّهُ علامةً على البُعدِ عنهُ. وفي الكلامِ أيضًا إيماءٌ إلى افتقارِ الخلقِ جميعًا إلى اللّهِ ﷻ، وأنَّهم موقوفونَ على ربوبيَّتِهِ ومشيئَتِهِ.

الخلقُ موقوفونَ على مشيئةِ اللهِ تعالى وربوبيَّتِهِ

براعةُ عطفِ جملة ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾:

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ على قولِهِ: ﴿يَبۡسُطُ﴾؛ للتَّنصيصِ على أنَّ كلَّ ما يتعلَّقُ بالرِّزقِ بيدِ اللّهِ تعالى، فلا يوسَّعُ على عبدٍ إلّا بمشيئةِ اللّهِ، ولا يُضيَّقُ على عبدٍ إلّا بمشيئةِ اللّهِ، فأنَّى للإنسانِ أنْ يدَّعيَ أنَّهُ أوتيَ ما أوتيَ على علمٍ عندَهُ؟!

القَبْضُ والبَسْطُ للهِ وحــدَهُ دون سواه

بلاغةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾:

حُذِفَ متعلَّقُ الفعلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾؛ إيجازًا؛ لظهورِهِ مِنَ السّياقِ، والمعنى: ويَقدِرُه - أي: الرِّزقَ - لِمَنْ يشاءُ[2]. " أي يقبضُه على مَن يشاء أن يقبضَه، ويضيّقَه عليه، وإن كان قويًّا شديدَ الحيلة ابتلاء، وقيل: يجعلُه على قدرِ قوتٍ، قال مقاتل: وعَظَهم اللّه؛ ليعتبروا

أثـرُ الاستغناءِ بدلالةِ السّياقِ، عن ذكرِ المفعولِ

(1) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 90، وابن عطاء الله، حكم ابن عطاء الله، ص: 37.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 259.

في توحيده، وذلك حين مُطروا بعد سبع سنينَ، فقال: أولم يعلموا أنّ اللّه يوسّعُ الرّزق لمن يشاء؟ ويقتّرُ على من يشاء؟ فلا قابضَ ولا باسطَ إلّا اللّه تعالى"[1].

بلاغةُ الطِّباقِ بينَ البَسْطِ والقَدْرِ:

البسطُ والقبضُ يأتيان على مُقتضى مشيئةِ الرّحمن

في الجمعِ بينَ البَسْطِ والقَدْرِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ رِعايةٌ لمُحسِّنٍ معنويٍّ، وهو الطِّباقُ، بذكرِ صورةِ البَسْطِ وصورةِ القَدْرِ، وإظهارِ أنَّ كلًّا منهما بيدِ اللّهِ ﷻ، فيدركُ العاقلُ أنَّ العُسْرَ واليُسْرَ بأمرِ اللّهِ وقدرتِه.

علَّةُ فصلِ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾:

في شؤونِ الأرزاقِ عِبرةٌ للعُقَلاءِ الحُذّاقِ

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لأنَّهُ استئنافٌ لتأكيدِ ما تضمَّنَهُ قولُهُ تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ﴾ مِنْ أنَّ في بَسْطِ الرِّزقِ وقَدْرِه عِظَةً وعِبْرةً لكلِّ عاقلٍ.

بلاغةُ توالي المؤكِّداتِ في السّياق:

الغافلُ بمنزلةِ المُنكِرِ، إذْ لا يُعذرُ الجاهلُ بجهلِه

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾ بـ﴿إِنَّ﴾ واللّامِ المزحلَقةِ واسميَّةِ الجملةِ؛ للاعتناءِ بمضمونِه، ولأنَّ أفعالَهم أفعالُ مَنْ يُنكِرُ أنْ يكونَ في بَسْطِ الرِّزقِ وقَدْرِه عِبْرةٌ[2]، فاحتاجوا إلى الإيقاظِ والتَّنبيهِ مِنْ غفلتِهم.

غرضُ تقديمِ شبْهِ الجملةِ ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

محلُّ العِبْرةِ أحقُّ بالتَّقديمِ في السّياقِ الحكيم

قُدِّمَ ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ على ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ في قولِه تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ﴾؛ للعنايةِ بالمُقدَّم، والتَّشويقِ للمُؤخَّر، وهو الآياتُ، وللمسارعةِ في التَّنبيهِ على محلِّ العِظَةِ والعِبْرةِ؛ إذْ" إنّ مرجع ذلك، عائدٌ إلى الحكمة والرّحمة، وأنّه أعلمُ بحال عبيده، فقد يضيّقُ عليهم الرّزقَ

(1) القِنّوجيّ، فتحُ البيان في مقاصد القرآن: 12/ 129.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 532.

لطفًا بهم، لأنّه لو بسطَه لبغَوا في الأرض، فيكون تعالى مراعيًا في ذلك صلاحَ دينهم الّذي هو مادّةُ سعادتِهم وفلاحِهم"[1].

البَسْطُ والقَدْرُ ظرفٌ للعِبَرِ البيِّنات، بالدّروس والعِظاتِ

معنى الحرفِ ﴿فِي﴾ في السّياق:

لمّا كانَ في بَسْطِ الرِّزقِ وقَدْرِه علاماتٌ للمؤمنينَ، دالَّةٌ على قدرةِ اللّهِ تعالى وتفرُّدِهِ بالرُّبوبيَّةِ؛ عُبِّرَ بحرفِ الجرِّ الدّالِّ على الظَّرفيَّةِ، فقيلَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ﴾، فأفادَ الكلامُ أنَّ البَسْطَ والقَدْرَ بمنزلةِ المَعْدِنِ للعِبَرِ والعِظاتِ الَّتي تفيضُ منهما.

وجهُ إفرادِ اسمِ الإشارةِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

المشارُ إليه بتقديرِ المذكورِ، مُفصِحٌ عنِ المعنى المراد

أُفرِدَ اسمُ الإشارةِ في قولِهِ تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ﴾ مع أنَّهُ راجعٌ إلى أمرينِ اثنينِ - وهما البَسْطُ والقَدْرُ - لأنَّ المشارَ إليهِ بتقديرِ المذكورِ، والمعنى: إنَّ في المذكورِ فيما مضَى لآياتٍ[2].

بلاغةُ اسمِ الإشارةِ للبعيدِ ﴿ذَٰلِكَ﴾:

عظمةُ شأنِ بَسْطِ الرِّزقِ وقَدْرِهِ، من بليغ الدّلالةِ على هذا المعنى

عُبِّرَ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ﴾؛ لتعظيمِ شأنِ المشارِ إليهِ - وهو بَسْطُ الرِّزقِ وقَدْرُهُ - إذ رِفعةُ الشَّأنِ تتنزَّلُ منزلةَ البُعدِ الحسّيِّ، والمعنى: إنَّ في ذلكَ الأمرِ العظيمِ لآياتٍ[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظ (آياتٍ):

الحوادثُ كافَّةً مِنَ اللهِ ﷻ، فلا اعتراضَ على تقديره

عُبِّرَ بالآياتِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٍ﴾؛ لدلالةِ الآيةِ بحسَبِ معناها اللُّغويِّ على العلامةِ، فتدلُّ الآياتُ هنا على أنَّ في بَسْطِ الرِّزقِ وقَدْرِهِ علاماتٍ دالَّةً على أنَّ الحوادثَ كلَّها مِنَ اللّهِ ﷻ[4].

نكتةُ جمعِ الآياتِ وتنكيرِها:

نُكِّرَتِ الآياتُ وجُمِعتْ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ

(1) السّعديّ، تيسير الكريم الرّحمن، ص: 727.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 259.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 532.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 7/ 259.

في أحوالِ الرِّزقِ آياتٌ كثيرةٌ، ودلائلُ أثيرةٌ

﴿لَأٓيَٰتٖ﴾؛ للدَّلالةِ على كثرتِها وتعدُّدِها وتنوُّعِها؛ لأنَّ اختلافَ أحوالِ الرِّزقِ الدّالَّةِ على أنَّ التَّصرُّفَ بيدِ اللّهِ، يُنبئُ عن بقيَّةِ الأحوالِ، فتحصَّلَ في ذلكَ آياتٌ كثيرةٌ، دالَّةٌ على انفرادِ اللّهِ تعالى بالتَّصرُّفِ في نفسِ الأمرِ[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بلفظِ (القومِ):

الإيمانُ في المؤمنينَ، ضمانٌ لوصْلِهم بالكريمِ الرّزّاقِ

عُبِّرَ بقولِه تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ دونَ أنْ يقالَ: (للَّذينَ يؤمنونَ)، أو (للمؤمنينَ)؛ لأنَّ إجراءَ وصفِ الإيمانِ على لفظِ (قوم) يومِئُ إلى أنَّ ذلكَ الوصفَ سجيَّةٌ فيهم، ومِنْ مُكمِّلاتِ قوميَّتِهم؛ فإنَّ للقبائلِ والأممِ خصائصَ تُميِّزُها عن غيرِها، وتشتهرُ بها، "وإنّما خَصَّ المؤمنين؛ لأنّهمُ المنتفعون بالآيات، المتفكّرون فيها، ثمّ لمّا ذكر سبحانه ما ذكره منَ الوعيد، عقبَه بِذِكْر سَعة رحمتِه، وعظيم معرفته"[2].

دلالةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

بيانُ أنّ إيمانَ المؤمنِ مُستمِرٌّ ومتجدّدٌ

جيءَ بصيغةِ المضارعِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على تجدُّدِ الإيمانِ واستمرارِهِ في كلِّ وقتٍ، وهذا هو شأنُ الإيمانِ النّافعِ عندَ اللّهِ تعالى[3]. قال القاسميّ: "إنّه تعالى قويٌّ بذاته، له تقويّةُ مَن يشاء، وتضعيفُ مَن يشاء، ومنها أنّه فيّاضٌ بذاته، لا يتوقّف فيضُه على الشّفعاء. ومنها أنّه فاعلٌ بذاته لا يتوقّف فعلُه على سبب وواسطة"[4].

نكتةُ حذفِ متعلَّقِ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾:

الإيمانُ ثقةٌ بأنَّ اللهَ مالكُ الأمرِ، وواجبُ الإيمانِ بقيّوميّته

حُذِفَ مُتعلَّقُ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ إيجازًا؛ لظهورِه منَ السّياقِ، والمعنى: يؤمنونَ بأنَّ الحوادثَ كلَّها منَ اللّهِ تعالى[5]، أو يؤمنونَ بأنَّهُ لا قابضَ

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 39.
(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 12/ 129.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 532.
(4) القاسميّ، محاسن التّأويل: 8/ 293.
(5) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 46.

ولا باسطَ إلّا اللّهُ ﷻ[1]، ولمراعاةِ الفاصلةِ أيضًا. ويحتملُ أنْ يكونَ ﴿يُؤۡمِنُونَ﴾ المُتَعدّي قد نُزِّلَ منزلةَ اللّازم، وجُعِلَ مدارُ الاهتمام اتِّصافَهم بالإيمانِ بصرفِ النَّظرِ عنِ المُؤمَنِ بهِ، والمعنى: لقومٍ يتَّصفونَ بالإيمانِ.

اللّفظُ مُناطٌ بالإفصاحِ عنِ الدّلالة المطلوبة

سرُّ تخصيصِ المؤمنينَ بالذِّكرِ:

خُصَّ المؤمنونَ بالذِّكرِ في قولِهِ تعالى: ﴿لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾؛ لأنَّهم همُ الَّذينَ يتدبَّرونَ الآياتِ، وينتفعونَ بها، ويعلمونَ أنَّ سَعَةَ الرِّزقِ قد تكونُ مكرًا واستدراجًا، وتقتيرَهُ قد يكونُ رِفعةً وإعظامًا[2]، وأمّا الكافرونَ فهم غافلونَ عنِ الآياتِ والبيِّناتِ[3].

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 187.

(2) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 267.

(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 548.

﴿۞قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٥٣﴾

[الزّمر: 53]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الرّبطُ بين ترغيب العُصاةِ بما سبقَ منَ التّرهيب

لمّا أطنبَ ﷻ في الوعيدِ أردفَهُ بشرحِ كمالِ رحمتِهِ وفضلِهِ وإحسانِهِ[1]؛ حثًّا للعُصاةِ على التَّوبةِ والإنابةِ[2]، وفي ذلك دعوة للعُصاة والكفرة والمسرفين على أنفسهم إلى التّوبة النّصوح، والإنابةِ المخلصةِ إلى الله تعالى، مُذَكّرا لهم، بأنّه يغفر الذّنوب بالكليّة، لمن تاب وأناب، ورجع عنِ الغيّ والمعصيّة[3].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾: (عبد) أصلٌ يدلُّ على لينٍ وذُلٍّ[4]، ومِنْ ذلكَ: العُبوديَّةُ، وهي إظهارُ التَّذلُّلِ[5]، والعبدُ يقالُ على أضرُبٍ: الأوَّلُ: عبدٌ بحُكْمِ الشَّرعِ؛ وهو الإنسانُ الَّذي يصحُّ بيعُهُ وشراؤُهُ مِنَ النّاسِ. الثّاني: عبدٌ بالإيجادِ، وذلكَ لا يكونُ إلّا للّهِ. والثّالثُ: عبدٌ بالعِبادةِ والخِدْمةِ، والنّاسُ في هذا نوعانِ: عبدٌ للّهِ مُخلَصٌ، وعبدٌ للدُّنيا مُعتكِفٌ على خِدْمتِها ومراعاتِها[6]. والمرادُ بالعبادِ هنا: مَنْ أوجدَهمُ الخالقُ ﷻ.

2) ﴿أَسۡرَفُواْ﴾: (سرف) أصلٌ يدلُّ على مجاوزةِ الحدِّ[7] في كلِّ فعلٍ يفعلُهُ الإنسانُ، واشتهرَ ذلكَ في الإنفاقِ[8]، والسّرفُ: التّبذير،

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 463، والنّيسابوري، غرائب القرآن: 6/ 9.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 533، والمراغيّ، تفسير المراغي: 24/ 21.
(3) حومد، أيسر التفاسير، ص: 3990.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (عبد).
(5) السّمين، عمدة الحفّاظ: (عبد).
(6) الرّاغب، المفردات: (عبد).
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزّبيدي، تاج العروس: (سرف).
(8) الرّاغب، المفردات، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (سرف).

أسرف الرّجل في ماله إسرافًا، إذا عجلَ فيه وأكل ماله سرفًا. ثمّ كثُرَ ذلك في كلامهم، حتّى قالوا: قَتل فلانٌ بني فلانٍ فأسرفَ، إذا جاوز في ذلك المقدارَ، وتكلّم بإسراف، إذا جاوز المقدارَ أيضًا[1]. ويُطلَقُ الإسرافُ أيضًا على التَّقصيرِ في طاعةِ اللّهِ تعالى[2]. والمرادُ بـ ﴿أَسۡرَفُواْ﴾ هنا: أفرطوا في الجنايةِ على أنفسِهم بالإكثارِ مِنَ الذُّنوبِ والمعاصي[3].

3) ﴿لَا تَقۡنَطُواْ﴾: (قنط) أصلٌ يدلُّ على اليأسِ مِنَ الشَّيءِ[4]، ومِنْ ذلكَ: القُنوطُ، وهو اليأسُ مِنَ الخيرِ[5]. "وقد قَنَطَ يقْنِطُ قُنوطًا، مثل جلس يجلِسُ جلوسًا. وكذلك قنَطَ يقْنُطُ مثل: قعد يقعُد، فهو قانطٌ. وفيه لغةٌ ثالثة: قنِط يقنَطُ قَنَطًا، مثل تعب يتعب تعبًا، وقناطة، فهو قنِط[6]، والمرادُ بالنَّهيِ عنِ القُنوطِ هنا: عدمُ اليأسِ[7].

۞ المَعْنى الإجْماليُّ:

دعـوةُ المُذنـبينَ إلــى الإنـابـةِ ورجــاءِ غـفرانِ الله ورحمته

يأمرُ اللّهُ تعالى نبيَّهُ ﷺ أنْ يُبلِّغَ عبادَهُ ما يستجلبُ قلوبَهم إليه، فيقولُ: قل يا محمَّدُ: يقولُ اللّهُ: يا عباديَ الَّذينَ أكثروا مِنَ المعاصي بالشِّركِ وغيرِهِ، لا تيأسوا مِنْ رحمةِ اللّهِ، إنَّ اللّهَ يسترُ الذّنوبَ كلَّها بعَفْوِهِ عن أهلِها إذا تابوا منها، إنَّهُ هو المتَّصفُ بالمغفرةِ والرَّحمةِ[8].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

التَّوبةُ والإنابةُ سبيلُ النَّجاةِ، وملاذُ العُصاة

نكتةُ فصلِ ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ﴾ عمّا قبلَهُ؛ لِما

(1) ابن دريد، جمهرة اللغة: (رسف).
(2) السّمين، عمدة الحفّاظ: (سرف).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 537، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 46.
(4) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والجوهريّ، الصّحاح: (قنط).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (قنط).
(6) الجوهريّ، الصّحاح: (قنط).
(7) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 537.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 306، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 106.

بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّ هذهِ الجملةَ استئنافٌ بيانيٌّ؛ لأنَّ الزَّواجرَ السّابقةَ تُثيرُ في نفوسِ المواجَهينَ بها خاطرَ التَّساؤلِ عن مسالكِ النَّجاةِ[1]، فبيَّنَتْ هذهِ الآيةُ وما بعدَها سبيلَ النَّجاةِ.

تعيينُ المخاطَبِ بـ ﴿قُلۡ﴾:

أمرُ النَّبيِّ بالقول، تكليفٌ بالبلاغِ عنِ الله

المُخاطَبُ في قولِ الباري ﷻ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ هو النَّبيُّ ﷺ[2]؛ إذ هو المُكلَّفُ بتبليغِ الوحي، ومِنْ جملتِهِ هذا النَّبأُ العظيمُ الشَّأنِ، والعلماءُ ورثتُه، وهم مُكلَّفونَ بأنْ يُبلِّغوا النّاسَ ذلكَ أيضًا.

نكتةُ تصديرِ الآيةِ بالأمرِ بالقولِ:

عِظَمُ الأمرِ بالمَقول دعوةٌ للتّوبة بالسّياق المنقول

تصديرُ قولِهِ تعالى: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ بالأمرِ بالقولِ؛ للإيذانِ بأنَّ المَقولَ أمرٌ جليلٌ، لهُ شأنٌ خطيرٌ، لا بدَّ مِنَ الاعتناءِ بِهِ أمرًا وائتمارًا، ولتشريفِ النَّبيِّ ﷺ بالتَّصريحِ بالتَّكليفِ، وإلّا فهو مُكلَّفٌ بالبلاغِ، صُرِّحَ بذلكَ أو لم يُصرَّحْ.

دلالةُ الأمرِ بالقولِ:

وجوبُ تبليغِ الكلامِ المذكورِ بفعلِ الأمرِ المأثور

الأمرُ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ﴾ للوجوبِ؛ إذ هو الأصلُ، ولا مُقتضيَ للعدولِ عنهُ، بل مقامُ التَّكليفِ بالتَّبليغِ يقتضيهِ، فيفيدُ الكلامُ أنَّ على النَّبيِّ ﷺ أنْ يُبلِّغَ العبادَ هذا البيانَ الإلهيَّ.

بلاغةُ النِّداءِ في السّياقِ:

النِّداءُ استجلابٌ لقلوبِ المخاطَبينَ

افتُتِحَ قولُهُ تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ بالنِّداءِ؛ لتنبيهِ العبادِ وتهيئتِهم لتلقّي ما بعدَ النِّداءِ مِنَ الكلامِ بنفوسٍ يَقْظَى وآذانٍ واعيةٍ؛ لأنَّهُ كلامٌ خطيرُ الشَّأنِ، فيهِ نجاتُهم عندَ اللّٰهِ تعالى، فلا بدَّ مِنَ التَّنبيهِ والإيقاظِ لهُ. وفي النِّداءِ أيضًا اهتمامٌ بالمُنادَيْنَ، والمعنى: ربُّكم المُحسِنُ إليكم يقولُ: يا عباديَ... إلخ[3].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 39.
(2) الجَمَل، حاشية على الجلالين: 6/ 439.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 533.

نكتةُ النِّداءُ بـ (يا) دونَ غيرِها:

مناسبةُ البعدِ في النّداء، لبُعْد العُصاةِ عنِ الطّاعات

عُبِّرَ بأداةِ نداءِ البعيدِ (يا) دونَ غيرِها في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ لِما تشيرُ إليه مِنْ أنَّ المخاطَبينَ لكثرةِ انهماكِهم في المعاصي وبُعدِهم عن ساحةِ الطّاعةِ، حتَّى ظنّوا أنَّهُ لا توبةَ لهُم قد غَرِقوا في أوحالِ الغفلةِ، فنُزِّلوا منزلةَ البعيدِ؛ حثًّا لهُم على نَفْضِ غُبارِ الغفلةِ عنهُم، وعلى الإقبالِ لتلقّي الخطابِ.

سرُّ النِّداءِ بوصفِ العُبوديَّةِ:

مَنْ تذلَّلَ وافتقرَ للهِ، فازَ بالإكرامِ من مولاه

اختيرَ في النِّداءِ بقولِه تعالى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ وصفُ العبوديَّةِ؛ للحثِّ على الإقبالِ والاستجابةِ، وللإشعارِ بحصولِ المغفرةِ والرَّحمةِ لَمَنْ أقبلَ على اللّهِ؛ لما في هذا الوصفِ مِنَ الدَّلالةِ على الذِّلَّةِ والاختصاصِ المقتضيَيْنِ للتَّرحُّمِ[1]، ومِنَ التَّنبيهِ على أنَّ المُذنِبَ لم تُسْلَبْ عنهُ صفةُ العبوديَّةِ[2].

نكتةُ إضافةِ الضّميرِ في ﴿يَٰعِبَادِيَ﴾:

مَنْ أُضيفَ إلى اللهِ، شَرُفَ به، ونال رضاه

إضافةُ العبادِ إلى ضميرِ المتكلِّمِ الرّاجعِ إلى الحقِّ ﷻ في قولِه: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ لتشريفِهم وبيانِ اختصاصِهم، وشرفُ الإضافةِ إليهِ يفيدُ أمنَ العاصي التّائبِ مِنَ العذابِ[3]، وأنَّهُ قد ذاقَ حلاوةَ التَّقريبِ بعدَ مرارةِ العصيانِ والوعيدِ[4]. ومَنْ قالَ: إنَّ الخطابَ للمؤمنينَ فقطْ؛ استدلَّ بهذهِ الإضافةِ؛ لأنَّها تدلُّ على قُرْبِ المنزلةِ، والكافرُ لا منزلةَ لهُ عندَ اللّهِ تعالى[5]. ومَنْ يقولُ بالعمومِ يمكنُهُ حملُ الإضافةِ على أنَّها باعتبارِ كونِهم مخلوقينَ للّه، أو على سبيلِ استمالةِ قلوبِ الجميعِ كما تقدَّمَ.

---

(1) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 409.
(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 10.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 464، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 211.
(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 533.
(5) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 549.

غرضُ التَّعبيرِ بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾:

الإســــرافُ في المعاصي، مَظِنَّةُ اليأسِ مِنْ رحمةِ الآخذِ بالنّواصي

عُبِّرَ بالموصولِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ للتَّنبيهِ بما في حيِّزِ الصِّلةِ على علَّةِ هذا النِّداءِ والتَّقريبِ والنَّهي عنِ القُنوطِ؛ لأنَّ إسرافَهم قد يحملُهم على القُنوطِ مِنْ رحمةِ اللّهِ، ولأنَّ الموصولَ مِنْ ألفاظِ العمومِ، فيشملُ كلَّ عُصاةِ المؤمنينَ، ويشملُ الكافرينَ أيضًا عندَ مَنْ قالَ: إنَّ الخطابَ شاملٌ لهُم أيضًا[1].

نكتةُ الماضي في ﴿أَسۡرَفُواْ﴾:

إســـرافُ المـخـاطَـبـيـنَ مُتحقِّقٌ بيقين

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِ الباري ﷻ: ﴿أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ إسرافَ المخاطَبينَ على أنفُسِهم أمرٌ قد تحقَّقَ وثبتَ، ولذلكَ خوطِبوا هذا الخطابَ الدّاعيَ إلى التَّوبةِ والإنابةِ.

نكتةُ تعْديةِ ﴿أَسۡرَفُواْ﴾ بـ ﴿عَلَىٰٓ﴾:

تضمينُ الإسرافِ معنى الجنايةِ أوِ الحَمْلِ

عُدّيَ ﴿أَسۡرَفُواْ﴾ بـ﴿عَلَىٰٓ﴾ لتضمينِه معنى الجنايةِ[2]؛ لِما يُشْعِرُ به حَرْفُ الاستعلاءِ من الحَمْلِ والمَشَقَّةِ والتَّبِعةِ والضَّرَرِ؛ لأنَّ الإكثارَ هنا مِنْ أعمالٍ تتحمَّلُها النَّفسُ وتثقُلُ بها، وذلكَ مُتعارَفٌ في التَّبِعاتِ والعدوانِ، تقولُ مثلًا: أكثرتُ على فلانٍ، فمعنى ﴿أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: أنَّهم جلبوا لأنفسِهم ما تُثقِلُهم تَبِعتُهُ؛ ليشملَ ما اقترفوهُ مِنْ شِرْكٍ وسيِّئاتٍ[3].

سرُّ تخصيصِ ضررِ الإسرافِ بـ ﴿عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾:

ذلُّ المعصيةِ عقابٌ للعاصي، وردعٌ عنِ المعاصي

خُصِّصَ ضررُ الإسرافِ المُشعِرةُ بهِ ﴿عَلَىٰٓ﴾ بأنفُسِ العُصاةِ؛ للإيماءِ إلى الرَّحمةِ؛ إذ معنى ﴿أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾: أنَّ ضررَ تلكَ الذُّنوبِ ما عادَ إليهِ تعالى، بل هو عائدٌ إليهِم، فيكفيهِم مِنْ ذنوبِهم رجوعُ مَضارِّها إليهِم، ولا حاجةَ إلى إلحاقِ ضررٍ آخرَ بهِم[4]، كما

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 39.

(2) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 343، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 269.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 41.

(4) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 464.

يقالُ في المَثَلِ: أحسِنْ إلى مَنْ أساءَ، كفى المُسيءَ إساءتُه، فالعبدُ إذا أساءَ ووقفَ بينَ يدَيْ سيِّدِهِ ذليلًا خائفًا، عالمًا بسُخْطِ سيِّدِهِ عليهِ، ناظرًا لإكرامِ غيرِهِ ممَّنْ أطاعَ؛ لَحِقَهُ ضررٌ؛ إذِ استحقاقُ العقابِ عقابٌ عندَ العُقَلاءِ(1).

دلالةُ النَّهيِ في ﴿لَا تَقۡنَطُواْ﴾:

النَّهيُ عنِ القُنوطِ، أمرٌ بالرَّجاءِ في رحمة الله

يدلُّ النَّهيُ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ على حُرمةِ اليأسِ والقُنوطِ مِنْ رحمةِ اللّهِ تعالى، وفي ذلكَ أمرٌ بالرَّجاءِ يُشعِرُ بالرَّحمةِ؛ إذِ الكريمُ سبحانَهُ إذا أمرَ بالرَّجاءِ فلا يليقُ بِهِ إلّا الكرمُ(2).

معنى الحرف ﴿مِن﴾ في السّياق:

رحمةُ اللهِ ابتداءٌ لكلِّ خيرٍ، ومفتاحٌ لكلِّ رجاء

الظّاهرُ أنَّ ﴿مِن﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ لابتداءِ الغايةِ، فتفيدُ النَّهيَ عن جعلِ رحمةِ اللّهِ تعالى ابتداءً لليأسِ والقُنوطِ، بل حقُّها أنْ تكونَ ابتداءً للرَّجاءِ والطَّمعِ بالعفوِ والمغفرةِ. قال عليّ كرّم اللّه تعالى وجهَه: أيُّ آيةٍ أوسعُ؟ فجعلوا يذكرون آياتٍ منَ القرآنِ ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ﴾ [النّساء: 110] الآيةَ ونحوَها، فقال عليّ بن أبي طالب ﷺ: ما في القرآنِ أوسعُ آيةً من: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ﴾ الآيةَ(3).

سرُّ ذكرِ الرَّحمةِ دونَ المغفرةِ:

رحمةُ اللهِ مقرونةٌ بمغفرتِهِ، وذلك من لُطفِهِ بخليقتِه

إذا كانَ المرادُ بالعبادِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ المؤمنينَ؛ فكأنَّهُ قيلَ: أيُّها المؤمنونَ المذنبونَ لا تقنطوا مِنْ رحمةِ اللّهِ، أي: لا تيأسوا مِنْ مغفرتِهِ سبحانَهُ وتفضُّلِهِ، وإنَّما لم تُذكَرِ المغفرةُ؛ لأنَّها مُدرَجةٌ في الرَّحمةِ، أو لأنَّ الرَّحمةَ مُستلزِمةٌ لها؛ لأنَّ مَنْ لم يُغفَرْ لهُ لم يُرحَمْ(4).

(1) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 269.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 465، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 212.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 271.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 269.

رحمةُ العظيمِ عظيمةٌ

بلاغةُ الإضافةِ في ﴿رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾:

أُضيفَتِ الرَّحمةُ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾؛ لتعظيمِ شأنِها؛ لأنَّ لفظَ الجلالةِ أعظمُ أسماءِ اللّهِ وأجلُّها؛ إذ هو مشتملٌ على معاني جميعِ الأسماءِ، فالرَّحمةُ المضافةُ إليهِ أعظمُ أنواعِ الرَّحمةِ والفضلِ[1]، وفي ذلكَ دلالةٌ على أعظمِ أنواعِ الكرمِ واللُّطْفِ[2].

لفظُ الجلالةِ دالٌّ على أنّ الرّحمة بالمخلوقات، من مقتضى الذّات

بلاغةُ الإظهارِ في مقامِ الإضمارِ:

وُضِعَ الظّاهرُ موضعَ الضَّميرِ في قولِهِ تعالى: ﴿مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾، ولم يُقَلْ: (مِنْ رحمتي)؛ للإتيانِ بلفظِ الجلالةِ الدّالِّ على استجماعِهِ لجميعِ الصِّفاتِ؛ إشعارًا بأنَّ الرَّحمةَ والمغفرةَ مِنْ مُقتضَى ذاتِهِ تعالى، لا لشيءٍ آخرَ مِنْ توبةٍ أو غيرِها. وهذا على رأيِ مَنْ يرَى أنَّ غُفرانَ الذُّنوبِ هنا غيرُ مشروطٍ بالتَّوبةِ[3]، وفي ذلكَ مِنَ التَّنبيهِ على سَعَةِ الرَّحمةِ ما لا يخفَى[4].

الله تعالى يغفرُ الذّنوبَ وإن عظُمتْ

سرُّ التَّعبيرِ بلفظِ الجلالةِ دونَ الرَّحمنِ:

قيلَ: ﴿مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾، ولم يُقَلْ: (مِنْ رحمةِ الرَّحمنِ) معَ مناسبتِهِ للرَّحمةِ؛ لأنَّ لفظَ الجلالةِ دالٌّ على جميعِ الصِّفاتِ[5]، ومنها الرَّحمةُ، ولأنَّ الإنسانَ قد يستعظمُ ذنوبَهُ، وييأسُ مِنْ مغفرتِها، فعُبِّرَ باللَّفظِ الدّالِّ على العظمةِ والجلالِ والقدرةِ؛ لبيانِ أنَّهُ ﷻ يرحمُ ويغفرُ الذُّنوبَ وإنْ عَظُمَتْ.

الاستئنافُ التّعليليُّ مفيدٌ للتّيقُّن بغفران الله المجيد

نكتةُ فصلِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ﴾:

فُصِلَ قولُهُ تعالى شأنُهُ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ عمّا قبلَهُ؛

---

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 465، والسّمين، الدّر المصون: 9/ 433.

(2) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 10.

(3) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 344.

(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 212.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 534.

لِما بينَهما مِنْ شِبْهِ كمالِ الاتِّصالِ؛ لأنَّهُ استئنافٌ تعليليٌّ لهُ[1]، كأنَّهُ قيلَ: ما سببُ نهيهم عنِ القُنوطِ مِنَ الرَّحمةِ؟ فأُجيبَ بأنَّ سببَ النَّهيِ هو أنَّ اللّهَ يغفرُ الذُّنوبَ جميعًا[2].

نكتةُ توكيدِ الجملةِ الاسميّة:

مغفرةُ اللهِ مُتحقِّقةٌ يقينًا، فلا شكَّ في ذلك على الإطلاق

صُدِّرَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾ بالتَّوكيدِ؛ للدَّلالةِ على المبالغةِ في الوعدِ بالمغفرةِ[3]، وأنَّهُ مُتحقِّقٌ، لا شكَّ فيهِ، ولا ارتيابَ. قال القنّوجي: "فيالها من بشارةٍ ترتاحُ لها قلوبُ المؤمنين المحسنين ظنَّهم بربّهم، الصّادقين في رجائه، الخالعين لثياب القُنوط، الرّافضين لسوء الظّنِّ بمَن لا يتعاظمُه ذنبٌ، ولا يبخلُ بمغفرته ورحمته على عباده المُتوجّهين إليه في طلب العفو، المُلتجئين به في مغفرة ذنوبهم"[4].

نكتةُ إظهارِ لفظِ الجلالةِ في موضعِ إضمارِه:

مغفرةُ اللهِ جاريةٌ مَجْرى الأمثالِ

مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يقالَ: (إنَّهُ يغفرُ الذُّنوبَ جميعًا)؛ لتقدُّمِ ذكرِ لفظِ الجلالةِ في قولِه: ﴿مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾، لكنْ عُدِلَ إلى الإظهارِ في قولِه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾؛ للمبالغةِ في تأكيدِ المغفرةِ؛ لأنَّها صادرةٌ عن ذي العظمةِ والجلالِ المُستغني عن كلِّ شيءٍ[5]، ولتأكيدِ استقلالِ الجملةِ، بحيثُ تجري مَجْرى الأمثالِ السّائرةِ.

بلاغةُ صيغةِ المضارعِ في ﴿يَغۡفِرُ﴾:

مغفرةُ اللهِ تعالى مُستمرَّةٌ ومتجدّدةٌ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ غفرانَ الذُّنوبِ مُتجدِّدٌ مستمرٌّ[6]، وإنْ كَثُرَ العصيانُ وتجدَّدَ، وفي ذلكَ مِنَ الإطماعِ والحثِّ على التَّوبةِ والإنابةِ ما لا يخفَى.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 409.
(2) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 552.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 465، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 212.
(4) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 12/ 130.
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 465، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 46.
(6) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 10.

كلُّ الذُّنوبِ قابلةٌ للمغفرةِ، فلا يُستثنَى إلّا ما استثناه الله

نكتةُ تعريفِ ﴿ٱلذُّنُوبَ﴾:

الظّاهرُ أنَّ تعريفَ الذُّنوبِ في قولِه ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾؛ للجنسِ المفيدِ للاستغراقِ، فإنْ كانَ الغُفرانُ مشروطًا بالتَّوبةِ فذلكَ شاملٌ للشِّركِ أيضًا؛ إذ هو يُغفَرُ بشرطِ الإيمانِ، وإنْ لم يكنِ الغفرانُ مشروطًا بالتَّوبةِ فالغُفرانُ خاصٌّ بالذُّنوبِ دونَ الشِّركِ؛ إذ هي الَّتي يمكنُ أنْ يغفرَها سبحانَهُ بلا توبةٍ إنْ شاءَ[1].

الذُّنوبُ هَباءٌ منثور، في مقابلِ مغفرةِ الغفور

بلاغةُ الحالِ بلفظِ ﴿جَمِيعًاۚ﴾:

جيءَ بالحالِ ﴿جَمِيعًاۚ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾؛ لتأكيدِ الاستغراقِ المستفادِ مِنْ تعريفِ الذُّنوبِ[2]، فيغفرُ سبحانَهُ كلَّ ذنبٍ منها إنْ شاءَ[3]. وفي التَّعبيرِ بهِ إشارةٌ لطيفةٌ أيضًا، وهي تصويرُ إيقاعِ المغفرةِ على ذنوبٍ كثيرةٍ مجتمعةٍ، فتُمحَى جملةً واحدةً.

أسلوبُ التّعليلِ بالتّذييلِ، مُفصحٌ عنِ المُرادِ المُستفادِ

علّةُ فصلِ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

فُصِلَتْ جملةُ ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عن جملةِ ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ﴾؛ لأنَّها تعليلٌ لها[4]، أي: لا يُعجِزُهُ أنْ يغفرَ جميعَ الذُّنوبِ وإنْ كَثُرَتْ؛ لأنَّهُ غفورٌ رحيمٌ[5]. وهذا الاستئنافُ فيه تذييلٌ للكلامِ السّابقِ وتأكيدٌ لهُ[6].

اتّصافُ اللهِ بالمغفرةِ والرَّحمةِ، أمرٌ مُتيقَّنٌ لا ريبَ فيه

بلاغةُ توالي المؤكّداتِ في الجملةِ:

أُكِّدَ قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ بـ(إنَّ) وضميرِ الفصلِ واسميَّةِ الجملةِ؛ للاعتناءِ بمضمونِه، والتَّنبيهِ على أنَّ اتِّصافَهُ تعالى بالمغفرةِ والرَّحمةِ أمرٌ ثابتٌ، لا شكَّ فيه[7]، ولدفعِ الاستبعادِ الَّذي قد

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 534.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 534.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 42.
(4) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 46.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 42.
(6) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 269.
(7) السّمين، الدّرّ المصون: 9/ 433.

يخالجُ قلوبَ بعضِ النّاسِ بسببِ الإسرافِ في الذُّنوبِ وكثرتِها[1]. ولا يخفَى ما في كلِّ ذلكَ مِنْ ملاءمةِ مقامِ الإطماعِ والحثِّ على الإنابةِ.

بلاغةُ القصرِ في السّياقِ المُحكَم:

لا غفورَ ولا رحيمَ إلّا اللهُ العظيم

قولُهُ تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ فيهِ قصرٌ مستفادٌ مِنْ تقديمِ المُسنَدِ إليهِ، ومِنْ ضميرِ الفصلِ، وتعريفِ الخبرِ، ومعناهُ: أنَّهُ لا غفورَ ولا رحيمَ إلّا هو ﷻ، وذلكَ يفيدُ الكمالَ في وصفِهِ سبحانَهُ بالغُفرانِ والرَّحمةِ[2].

نكتةُ تذييلِ الآيةِ بـ ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

أهـمـيّـةُ خـتْـمِ الـكـلامِ بـمـا يناسبُ ابتداءَهُ في المعنى

خُتِمَتِ الآيةُ بصفتَيِ ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لمناسبتِهما لما سبقَ مِنَ الكلامِ؛ فالغفورُ إشارةٌ إلى إزالةِ موجِباتِ العقابِ، والرَّحيمُ إشارةٌ إلى تحصيلِ موجباتِ الثَّوابِ[3]، وهذا يُسمَّى في البلاغةِ تشابُهَ الأطرافِ، وهو ختمُ الكلامِ بما يناسبُ ابتداءَهُ في المعنى[4].

علَّةُ تقديمِ المغفرةِ على الرَّحمةِ:

بيانُ أنّ التَّخلية مـقـدَّمـةٌ على التَّحليةِ

قُدِّمَتِ المغفرةُ على الرَّحمةِ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾؛ لأنَّ إزالةَ موجِباتِ العقابِ مقدَّمةٌ على تحصيلِ موجِباتِ الثَّوابِ، والتَّخليةُ مقدَّمةٌ على التَّحليةِ، وتعقيبُ المغفرةِ بالرَّحمةِ شبيهٌ بذكرِ السَّببِ بعدَ المسبَّبِ؛ فإنَّ غُفرانَ الذُّنوبِ مِنْ آثارِ رحمتِهِ ﷻ.

سرُّ حذفِ متعلَّقَيِ ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾:

حُذِفَ مُتعلَّقا المغفرةِ والرَّحمةِ في قولِهِ تعالى: ﴿ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، فلم يُقَلْ: الغفورُ لكذا، والرَّحيمُ بكذا؛ لإفادةِ العمومِ[5]، وهو المناسبُ لمقامِ الحثِّ على الإقبالِ على اللّهِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 534.

(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 465، وابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 550.

(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 465.

(4) التّفتازانيّ، المختصر، ص: 681.

(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 269.

الفروقُ المعجميَّةُ:

(اليأسُ) و(القُنوطُ) و(الإبلاسُ):

القُنوطُ قرينُ الإسرافِ في الذُّنوبِ، والإبلاسُ حزنٌ مقرونٌ باليأس

القُنوطُ أشدُّ مبالغةً مِنَ اليأسِ(1). واليأسُ مِنْ صفةِ القلبِ، والقُنوطُ: أنْ يظهرَ أيضًا على الإنسانِ آثارُ اليأسِ بالانكسارِ ونحوِهِ. والإبلاسُ: الحزنُ المعترضُ مِنْ شدَّةِ اليأسِ، أو هو التَّحيُّرُ واليأسُ، ولذلكَ كَثُرَ استعمالُهُ في القرآنِ في سياقِ الكلامِ عنِ العذابِ(2). وقد عُبِّرَ بالقُنوطِ هنا؛ لدلالتِهِ على عِظَمِ اليأسِ(3)، فيناسبُ مقامَ حثِّ المسرفينَ على التَّوبةِ والإنابةِ.

(1) العسكريّ، الفروق اللّغوية، ص: 245.

(2) زيدان، الفروق اللّغويّة، ص: 41 - 45.

(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 537.

﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ٥٤﴾ [الزّمر: 54]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الرّبطُ بين الرّجاء في الغفران وبين العمل لاتّقاء عذابِ الرّحمن

لمّا وعدَ ﷻ بالمغفرةِ، وفتحَ بابَ الرَّجاءِ؛ أعقبَ ذلكَ بالإرشادِ إلى وسيلةِ المغفرةِ، وهي الإنابةُ وما عُطِفَ عليها[1]، وفيه "دعوةٌ إلى رحاب اللّه، بعد أن فُتحتِ الأبوابُ، ومُدّت موائدُ رحمته.. فلم يتبقّ إلّا أن يمدَّ المدعوون أيديَهم إلى هذه الموائد، وأن ينالوا منها ما يشتهون"[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾: (نوب) أصلٌ يدلُّ على اعتيادِ مكانٍ ورجوعٍ إليه[3]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: انتابَ فلانٌ القومَ انتيابًا، أي: أتاهم مرَّةً بعدَ أخرى[4]، ونابَتْهُ نائبةٌ، أي: حادثةٌ مِنْ شأنِها أنْ تَنوبَ على الدَّوام، والإنابةُ إلى اللّهِ تعالى: الرُّجوعُ إليهِ بالتَّوبةِ والطّاعةِ[5]، وهي المرادُ هنا[6].

2) ﴿وَأَسۡلِمُواْ﴾: (سلم) أصلٌ يدلُّ على الصِّحَّةِ والعافيةِ[7]، والتَّعرّي مِنَ الآفاتِ الظّاهرةِ والباطنةِ[8]، ومِنْ ذلكَ: التَّسليمُ، وهو التَّحيَّةُ بالسَّلام، أي: الأمانِ والسَّلامةِ، ومنهُ أيضًا: الإسلامُ، وهو الانقيادُ؛ لأنَّهُ يَسلمُ من الإباءِ والامتناعِ[9]، ومعنى ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 466، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 212، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 43.
(2) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1181.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، وجبل، المعجم الاشتقاقيّ: (نوب).
(4) الجوهريّ، الصّحاح: (نوب).
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (نوب).
(6) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 269، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 271.
(7) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).
(8) الرّاغب، المفردات: (سلم).
(9) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سلم).

هنا: اخضَعوا لهُ وأطيعوا[1]، أو أخلِصوا لهُ العملَ[2]، أو صدِّقوا بالنَّبيِّ ﷺ والقرآنِ، واتَّبعوا شرائعَ الإسلامِ[3].

المَعْنى الإجْماليُّ:

من أنابَ وأسلمَ، نجا منَ العذابِ الأعظمِ

يقولُ تعالى ذكرُهُ للمُسرِفينَ على أنفسِهم: وأقبِلوا على ربِّكم بالتَّوبةِ، وارجِعوا إليهِ بالطَّاعةِ وإخلاصِ العملِ واتِّباعِ الحقِّ، قبلَ أنْ ينزلَ بكم العذابُ الَّذي لا يستطيعُ أحدٌ ردَّهُ عنكم، ولا تخليصَكم منهُ[4].

الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ جملة ﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾:

الجمعُ بينَ عدمِ النَّهيِ عنِ القُنوطِ وبينَ الإنابةِ، مفيدٌ في البيانِ

عُطِفَ قولُهُ تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ على ما قبلَهُ؛ للجمعِ بينَ النَّهيِ عنِ القُنوطِ مِنَ الرَّحمةِ وبينَ الإنابةِ جمعًا يقتضي المبادرةَ[5] إلى التَّوبةِ والطَّاعةِ، فهو مِنْ قبيلِ تكميلِ مقصودِ الكلامِ السَّابقِ. وجوَّزَ البقاعيُّ أنْ يكونَ ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ معطوفًا على محذوفٍ، والتَّقديرُ: فأقلِعوا عن ذنوبِكم، فإنَّها قاطعةٌ عنِ الخيرِ، وأنيبوا[6].

دلالةُ الأمرِ بالإنابةِ:

وجوبُ الطَّاعةِ والإنابةِ على طالبِ النَّجاةِ

الأمرُ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا صارفَ عنهُ هنا، فمَنْ أرادَ النَّجاةَ ونَيْلَ المغفرةِ دونَ سابقةِ عذابٍ فعليهِ بالتَّوبةِ والرُّجوعِ إلى اللّهِ تعالى بالطَّاعةِ. وهذا الخطابُ يأخذُ كلُّ فريقٍ منهُ بنصيبٍ؛ فنصيبُ المشركينَ الإنابةُ إلى التَّوحيدِ واتِّباعِ دينِ الإسلامِ، ونصيبُ المؤمنينَ منهُ التَّوبةُ والإكثارُ مِنَ الحسناتِ، وأمَّا الإسلامُ فحاصلٌ لهُم[7].

---

(1) القرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 269.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 188.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 43.
(4) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 311، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 24.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 43.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 535.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 43.

نكتةُ تعْديةِ ﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾ بـ﴿إِلَىٰ﴾:

عُدّيَ ﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾ بـ ﴿إِلَىٰ﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾؛ لأنَّ الإنابةَ هي التَّوبةُ، وفي التَّوبةِ معنى الرُّجوعِ، وهو يتعدَّى بـ ﴿إِلَىٰ﴾[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بالرُّبوبيَّةِ دونَ الألوهيَّةِ:

جزاءُ الإحسانِ الطّاعةُ وتقديمُ الشّكران

عُبِّرَ بالرُّبوبيَّةِ دونَ الألوهيَّةِ في قولِه تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾، مَعَ أنَّ الألوهيَّةَ قد سبقَ ذكرُها في الآيةِ السّابقةِ؛ للتَّنبيهِ على صفةِ الإحسانِ زيادةً في الاستعطافِ والحثِّ على الإقبالِ[2]، أي: وأنيبوا إلى المُحسِنِ إليكم، أو لتعليلِ الأمرِ بالإنابةِ[3]، أي: وأنيبوا إليه؛ لأنَّهُ ربُّكم؛ فإنَّ مَنْ يُحسِنُ إليكَ على الدَّوامِ جديرٌ بأنْ تُفرِدَهُ بالطّاعةِ والعبادةِ.

بلاغةُ الإضافةِ في قولِه: ﴿رَبِّكُمۡ﴾:

إضافةُ الرَّبِّ إلى ضميرِ المخاطَبينَ في قولِه جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾؛ لحثِّهم على المبادرةِ إلى الإنابةِ؛ إذِ الإنابةُ المأمورُ بها إنابةٌ إلى مولي النِّعَمِ كلِّها.

نكتةُ عطفِ جملةِ ﴿وَأَسۡلِمُواْ﴾:

سرُّ الإنابةِ والإسلامِ في الإخلاصِ لذي الجلالِ والإكرامِ

عُطِفَ ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ على ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾؛ للتَّنبيهِ على أهمّيَّةِ الإخلاصِ في العملِ، إنْ فُسِّرَ الإسلامُ بالإخلاصِ، وليعلمَ العبدُ أنَّ نجاتَهُ بفضلِ اللّهِ تعالى، لا بإنابتِهِ؛ لأنَّ إنابتَهُ فضلٌ مِنَ اللّهِ[4].

دلالةُ الأمرِ بالإسلامِ في السّياقِ:

وجوبُ الإسلامِ على المُسرِفينَ على أنفسِهم ملائمٌ لصيغةِ الأمرِ

الأمرُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا مُقتضيَ للعدولِ عنهُ، فيفيدُ الكلامُ وجوبَ الطّاعةِ، أوِ الإخلاصِ في العملِ، أوِ التَّصديقِ واتِّباعِ الشَّرائعِ، على الاختلافِ في المرادِ بالإسلامِ هنا.

---

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 43.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 535.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 271.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 271.

معنى اللّامِ في شبْهِ الجملة ﴿لَهُۥ﴾:

الإسلامُ للهِ تعالى ينفعُ العبدَ ويرفعُه

اللّامُ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ للتَّعليلِ، فتفيدُ أنَّ الإسلامَ ينبغي أنْ يكونَ لأجلِ اللّهِ تعالى، وفائدةُ ذلكَ راجعةٌ للعبدِ، وإلّا فاللّهُ تعالى لا تنفعُهُ طاعةٌ، ولا تضرُّهُ معصيةٌ. والإسلامُ للمولى، "هو رحمةٌ من رحمة اللّه، وإفساحٌ لطريق النّجاة، بالعودة إلى اللّه والمصالحةِ معه في أيّة لحظة من لحظات الحياة، قبل أن تدنوَ ساعةُ الموت، وينقطعَ العملُ، وينتقلَ الإنسان إلى الدّار الآخرة بما مات عليه فى الدّنيا"[1].

معنى ﴿مِن﴾ في قوله: ﴿مِن قَبۡلِ﴾:

في الظّرف دلالةٌ على ابتداءِ الإسلامِ قبلَ إتيانِ العذابِ

﴿مِن﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ لابتداءِ الغايةِ، فتفيدُ معَ لفظِ القبليَّةِ أنَّهُ ينبغي أنْ يكونَ ابتداءُ الإسلامِ للّهِ تعالى قبلَ زمنِ إتيانِ العذابِ، وفيه إشارةٌ إلى أنَّهُ يكفي إيقاعُ الإنابةِ في زمنٍ يكونُ قبلَ زمنِ إتيانِ العذابِ، ولا يُشترطُ فعلُ ذلكَ في جميعِ الأزمنةِ؛ لأنَّهُ لا يقدرُ أحدٌ أنْ يقدرَ اللّهَ حقَّ قَدْرِهِ، باستغراقِ الزَّمانِ في الطّاعةِ[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ:

جيءَ بصيغةِ المضارعِ، في قولِهِ تعالى: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾؛ للإيذانِ بوعيدٍ قريبٍ يكونُ في المستقبلِ، إنْ لم يُنيبوا ويُسلِموا[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالإتيانِ دونَ المجيءِ:

إهلاكُ المعاندين يسيرٌ على مالك الحياةِ والمصير

عُبِّرَ بالإتيانِ دونَ المجيءِ في قولِ الحقِّ ﷺ: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾؛ لأنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، ومِنْ ذلكَ قيلَ للسَّيلِ المارِّ على

(1) الخطيب، التّفسير القرآنيّ للقرآن: 12/ 1182.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 535.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 43.

وجهِهِ: أتيٌّ، وأتاويٌّ[1]، والمجيءُ أعمُّ[2]، فيكونُ في التَّعبيرِ بالإتيانِ هنا إشارةٌ إلى أنَّ إتيانَ العذابِ أمرٌ يسيرٌ على اللّهِ تعالى، وفي ذلكَ مزيدُ ملاءمةٍ لمقامِ التَّلويحِ بالوعيدِ.

بلاغةُ تعريفِ العذابِ:

العذابُ دُنيويٌّ وأُخرويٌّ وبهما البلاءُ في الأولى والآخرة

تعريفُ العذابِ في قولِهِ جلَّ ذكرُهُ: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ تعريفُ الجنسِ، وهو يقتضي أنَّهم إنْ لم يُنيبوا ويُسلِموا يأتِهم العذابُ، والعذابُ منهُ ما يحصلُ في الدُّنيا إنْ شاءَهُ اللّهُ، وهو خاصٌّ بالمشركينَ، وأمّا المسلمونَ فقدِ استعاذَ لهُم منهُ الرَّسولُ ﷺ، ومِنَ العذابِ عذابُ الآخرةِ، وهو جزاءُ الكفرِ والكبائرِ[3].

سرُّ التَّعبيرِ بالعذابِ دونَ العقابِ:

المُعذَّبُ مقطوعٌ عنهُ كلُّ عُذوبةٍ، مسلّطٌ عليه أشنعُ العقوبة

عُبِّرَ بالعذابِ دونَ العقابِ في قولِهِ عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الكلمةُ بالنَّظرِ إلى أصلِ وضعِها مِنْ قطعِ كلِّ ما فيه مَسَرَّةٌ للمُعذَّبِ، والمعنى: مِنْ قبلِ أنْ يأتيَكم العذابُ القاطعُ لكلِّ العُذوبةِ، المُجرِّعُ لكلِّ مَرارةٍ وصعوبةٍ[4].

دلالةُ ﴿ثُمَّ﴾ في السّياقِ المُحكَم:

عذابُ اللهِ لا يُرَدُّ، وبلاؤه لا يُصدُّ

جيءَ بأداةِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾؛ لأنَّ الإنسانَ ربَّما توقَّعَ ضررًا في إقدامِهِ على ما لَهُ فيهِ لذَّةٌ، وحاولَ دفعَهُ، فعُبِّرَ بهذهِ الأداةِ لتعظيمِ العذابِ، والإشارةِ إلى أنَّهُ لا يمكنُ دفعُهُ ولو طالَ زمنُ التَّعذيبِ[5].

بلاغةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ:

لا مَفَرَّ مِنْ عذابِ اللهِ، ولا ملجأ منه إلى سواه

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ المنفيِّ في قولِهِ تعالى: ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾؛

---

(1) الرّاغب، المفردات: (أتي).

(2) الرّاغب، المفردات: (جاء).

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 43.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 536.

(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 536.

للدَّلالةِ على تجدُّدِ عدمِ النَّصرِ واستمرارِهِ، أي: لا يتجدَّدُ لكم نوعُ نصرٍ أبدًا[1] وذلكَ لأنَّ المضارعَ يفيدُ الاستمرارَ، فإذا دخلَ عليهِ النَّفيُ أفادَ استمرارَ الانتفاءِ، وفي ذلكَ تيئيسٌ للمخاطَبينَ مِنَ النَّجاةِ مِنَ العذابِ، وفَتٌّ في عَضُدِهم.

نكتةُ بناءِ ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾ للمفعولِ:

بُنِيَ ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾ للمفعولِ؛ لأنَّ الغرضَ بيانُ عدمِ وقوعِ النَّصرِ دونَ نظرٍ لفاعلِهِ مَنْ هو، وفي ذلكَ استهانةٌ بكلِّ مَنْ يُظَنُّ منهُ النَّصرُ لهؤلاءِ المُهدَّدينَ بالعذابِ.

غرضُ حذفِ مُتعلَّقِ النَّصرِ:

قولُهُ تعالى: ﴿لَا تُنصَرُونَ﴾ معناهُ: لا تُمنَعونَ مِنْ عذابِ اللّهِ[2]، إنْ لم تتوبوا قبلَ نزولِهِ[3]، وقد حُذِفَ المُتعلَّقُ إيجازًا؛ لظهورِهِ مِنَ السّياقِ، ومراعاةً للفواصلِ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 536.
(2) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 270.
(3) النسفي، مدارك التنزيل: 3/ 188.

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥﴾ [الزُّمر: 55]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الأمرُ بمجاهدةِ النَّفسِ بعدَ الأمرِ بإسلامِ قيادِها للهِ

لمّا أمرَ ﷻ بإسلامِ القيادِ كلِّهِ إليهِ؛ أمرَ بما هو أعلى مِنْ ذلكَ، وهو مجاهدةُ النَّفسِ[1] "باتّباعِ ما أمرهم به - وهو أحسن ما أنزل اللّه إلى عباده - وباجتناب ما نهاهم عنه، من قبل أن ينزل بهم العذابُ فجأةً، وهم لا يشعرون، ولا ينتظرون وقوعَه حين يغشاهم"[2].

شرحُ المفرداتِ:

1) ﴿أَحۡسَنَ﴾: (حسن) أصلٌ يدلُّ على خلافِ القُبْحِ[3]، ومِنْ ذلكَ: الحَسَنُ، وهو كلُّ مُبهِجٍ مرغوبٍ فيه، والحَسَنةُ يُعبَّرُ بها عن كلِّ ما يَسُرُّ مِنْ نعمةٍ تنالُ الإنسانَ في نفسِهِ وبدنِهِ وأحوالِهِ، والسَّيِّئةُ تُضادُّها، وأكثرُ ما جاءَ في القُرآنِ مِنَ الحُسْنِ فللمُستحسَنِ مِنْ جهةِ البصيرةِ[4]، والمرادُ بالأحسنِ هنا: القرآنُ، أوِ النّاسخُ، أوِ الطّاعةُ[5]، أو هو اسمُ تفضيلٍ مُستعمَلٌ في معنى كاملِ الحُسْنِ، وليسَ في معنى تفضيلِ بعضِ المُنزَلِ على بعضٍ؛ لأنَّ جميعَ المُنزَلِ حَسَنٌ[6].

2) ﴿بَغۡتَةٗ﴾: (بغت) أصلٌ يدلُّ على مفاجأةِ الشَّيءِ[7] على غفلةٍ، مِنْ حيثُ لا يُحتسَبُ، ومِنْ ذلكَ يقالُ: بَغَتَ كذا فهو باغتٌ[8]، وهذا هو المرادُ هنا. "قال اللّيث: قد باغتَه إذا فاجأه. وقال اللّه

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 536.
(2) حومد، أيسر التّفاسير، ص: 3992.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حسن).
(4) الراغب، المفردات: (حسن).
(5) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 466.
(6) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 44.
(7) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (بغت).
(8) الرّاغب، المفردات، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (بغت).

جلّ وعزّ: ﴿أَخَذۡنَٰهُم بَغۡتَةٗ فَإِذَا هُم مُّبۡلِسُونَ ٤٤﴾ [الأنعام: 44]، أي: أخذناهم فجأةً"[1].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

اتِّباعُ الحقِّ المُنَزَّلِ مِنَ الله، يدفعُ العذابَ المباغتَ المُطبِقَ

ثمَّ يأمرُ اللّهُ تعالى بأمرٍ جديدٍ، فيقولُ: واتَّبِعوا أحسنَ ما أنزلَهُ اللّهُ تعالى إليكُم، وهو القرآنُ، أوِ الطّاعةُ والامتثالُ، أوِ النّاسخُ، مِنْ قبلِ أنْ يأتيَكم عذابُ اللّهِ فجأةً وأنتُم لا تعلمونَ بهِ، فيكونَ أشدَّ عليكُم؛ لأنَّ مباغتةَ العقابِ شديدةٌ[2].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ عطفِ جملة ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ﴾:

مفهومُ الإنابةِ يشملُ مجاهدةَ النّفسِ واتّباعَ الشَّرعِ

عُطِفَ قولُ الحقِّ ﷻ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ على ما قبلَهُ؛ للتَّنبيهِ على أنَّ الإنابةَ إلى اللّهِ تعالى والإسلامَ لهُ لا يكفيانِ لِمَنْ أرادَ النَّجاةَ التّامَّةَ، بل لا بدَّ مِنِ انضمامِ مجاهدةِ النَّفسِ إليهما[3]، واتِّباعِ أحسنِ ما جاءَ بِهِ الشَّرعُ. "أي: واتّبعوا هذا القرآنَ الكريم، الّذي هو أحسنُ ما أنزله سبحانه إليكم، بسبب ما اشتمل عليه من هداياتٍ ساميةٍ، ومن تشريعاتٍ حكيمةٍ، ومن آدابٍ قويمةٍ، فإنّ اتّباع ما اشتمل عليه هذا القرآنُ من توجيهات يُؤدّي إلى السّعادة في الدّنيا والآخرة"[4].

دلالةُ الأمرِ بالاتِّباعِ ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ﴾:

دلالـةُ الأمـرِ على الـوجـوب مُبينةٌ عـن قطعيّـة الإلزام بالاتّباع

الأمرُ بالاتِّباعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ للوجوبِ؛ لأنَّهُ الأصلُ، ولا صارفَ عنهُ هنا، وفي ذلكَ تنبيهٌ لِمَنْ أرادَ الفوزَ بالرِّضوانِ والنَّجاةَ مِنَ العذابِ أنَّهُ ينبغي عليهِ أنْ يسلكَ سبيلَ اتِّباعِ الشَّرعِ، وحملِ النَّفسِ على ذلكَ بالصَّبرِ والمجاهدةِ.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (بغت).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 312، والمراغيّ، تفسير المراغي: 24/ 24.
(3) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 536.
(4) طنطاويّ، التفسير الوسيط: 12/ 239.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ الافتعالِ:

عُبِّرَ بصيغةِ الافتعالِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾، ولم يُقَلْ: (واتْبَعوا)؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الصّيغةُ مِنَ التَّكلُّفِ ومعالجةِ النَّفسِ[1]، وحثِّها على السَّيرِ في رِكابِ الشَّرعِ.

دلالةُ ﴿أَحۡسَنَ﴾ بينَ التَّفضيلِ وعدمِهِ:

القرآنُ أحسنُ الحديثِ وما في القرآنِ كلُّه حَسَنٌ

يحتملُ أنْ تكونَ صيغةُ التَّفضيلِ في قولِهِ تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ على بابِها، والمرادُ بالأحسنِ: القرآنُ؛ فهو أحسنُ الحديثِ، والمعنى: واتِّبعوا القرآنَ، أوِ المرادُ: الاعتمادُ على النّاسخِ دونَ المنسوخِ[2]، أوِ المرادُ: ما تضمَّنَ الإرشادَ إلى خيرِ الدّارينِ دونَ القصصِ ونحوِها، أوِ العزائمُ دونَ الرُّخَصِ[3]. قال ابنُ عاشور: "وأحسنُ: اسمُ تفضيلٍ مُستعمَلٌ في معنى كامل الحسن، وليس في معنى تفضيل بعضِه على بعض، لأنّ جميع ما في القرآن حسنٌ، فهو من باب قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ﴾ [يوسف: 33]"[4]، وأيًّا ما كانَ ففي الكلامِ ما لا يخفَى مِنَ التَّرغيبِ باتِّباعِ القرآنِ.

دلالةُ الأداةِ ﴿مَآ﴾ في السّياقِ:

اتِّباعُ الأحسنِ كمالٌ والتزامٌ

﴿مَآ﴾ في قولِهِ ﷻ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ موصولةٌ تفيدُ العمومَ، والمعنى: واتِّبعوا أحسنَ جميعِ الَّذي أُنزِلَ إليكُم، والنّاسُ متفاوتونَ في درجاتِ امتثالِهم لهذا الأمرِ، وكمالُ الإيمانِ يحثُّ على التَّمسُّكِ بأذيالِ العمومِ.

دلالةُ الإضافةِ في ﴿أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ﴾:

إضافةُ ﴿أَحۡسَنَ﴾ إلى ﴿مَآ أُنزِلَ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 536.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 466، والقرطبيّ، الجامع لأحكام القرآن: 15/ 270.
(3) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 271.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 44.

﴿أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ مِنْ إضافةِ الصِّفةِ إلى الموصوفِ[1]؛ والمعنى: واتَّبِعوا المُنزَلَ الأحسنَ.

نكتةُ بناءِ ﴿أُنزِلَ﴾ للمفعولِ:

لا يُتصوَّرُ إنزالُ الوَحْيِ مِنْ غيرِ اللهِ

بُنِيَ ﴿أُنزِلَ﴾ في قولِه ﷻ: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ للمفعولِ؛ للعلمِ بالفاعلِ، وهو اللّهُ ﷻ؛ إذِ الوَحْيُ منهُ، ولا يُتصوَّرُ مِنْ غيرِه، وفي ذلكَ تعظيمٌ للمُنزِلِ ببيانِ تفرُّدِهِ بهذا الأمرِ، وتعظيمٌ للمُنزَلِ أيضًا.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالماضي ﴿أُنزِلَ﴾:

المُنزَلُ مُتحقِّقٌ بفعلِ مَن يملكُ ماضيَ الزّمنِ وآتيَه

عُبِّرَ بصيغةِ الماضي في قولِه ﷻ: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ المُنزَلِ المأمورِ باتِّباعِه، وبيانِ أنَّهُ أمرٌ قد عرفَهُ المُخاطَبونَ دونَ شُبْهةٍ، فعليهِم المبادرةُ إلى اتِّباعِه؛ إذ ليسَ بعدَ اتِّضاحِ سبيلِ الحقِّ إلّا سلوكُهُ.

دلالةُ الحرف (إلى) في السّياق:

(إلى) في قولِ الباري ﷻ: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ لانتهاءِ الغايةِ[2]، فتفيدُ أنَّ غايةَ الوَحْيِ المُنزَلِ هي المُخاطَبونَ المُكلَّفونَ بالعملِ بهِ، وإذ قد وصلَ إليهِم فعليهِم اتِّباعُ أحسنِه.

دلالةُ ﴿مِّن﴾ في السّياقِ المُحكَم:

﴿مِّن﴾ في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ لابتداءِ الغايةِ، فتفيدُ أنَّ ابتداءَ الحقِّ والخيرِ والوَحْيِ منهُ ﷻ.

بلاغةُ إظهارِ لفظِ الرُّبوبيّةِ في موضعِ إضمارِه:

حقُّ الله المُنعِمِ، اتِّباعُ هَدْيِهِ، والتزامُ نهجِه

مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يقالَ: (أُنزِلَ إليكُم منهُ)؛ لتقدُّمِ ذكرِ لفظِ الرَّبِّ، لكنْ عُدِلَ عنِ الإضمارِ إلى الإظهارِ في قولِ الباري ﷻ: ﴿أُنزِلَ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 44.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 536.

﴿إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾؛ لزيادةِ التَّرغيبِ في اتِّباعِ الأحسنِ؛ إذ هو شديدٌ على النَّفسِ، ووجهُ التَّرغيبِ: أنَّ لفظَ الرَّبِّ يُنبِئُ بحسَبِ وضعِه اللُّغويِّ عنِ الإحسانِ، وجزاءُ الإحسانِ الاتِّباعُ للمُحسِنِ، أي: أُنزِلَ إليكُم مِنَ الَّذي لم يزلْ يُحسِنُ إليكُم وأنتم تبارزونَهُ بالمعاصي[1].

نكتةُ إضافةِ الضّميرِ في ﴿رَّبِّكُم﴾:

إضافةُ الرَّبِّ إلى ضميرِ المخاطَبينَ في قولِه تعالى: ﴿أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾؛ لحثِّهم على المسارعةِ في اتِّباعِ أحسنِ المُنزَلِ؛ إذ هو اتِّباعٌ لِما أنزلَهُ المُحسِنُ إليهم، المُتفضِّلُ عليهم.

دلالةُ ﴿مِّن﴾ في ﴿مِّن قَبۡلِ﴾:

مـــنِ اتّــقَـــى الــعــذابَ، نجا في الدّنيا ويـومِ الحساب

﴿مِّن﴾ في قولِ اللهِ ﷻ: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ لابتداءِ الغايةِ، فتفيدُ معَ لفظِ القَبليَّةِ وجوبَ ابتداءِ الاتِّباعِ لأحسنِ المُنزَلِ قبلَ زمنِ إتيانِ العذابِ، وإنَّما يعجلُ مَنْ يخشَى الفَوْتَ، والعاقلُ لا يَدَعُ سبيلًا للنَّجاةِ إلّا سلكَهُ، ولا يُفوِّتُ على نفسِهِ الفُرصةَ. والمعنى: من قبْلِ أن يفاجئَكم العذابُ وأنتم غافلون عنه لا تشعرون به، حيث يأتيهم بغتةً في الدّنيا بالقتل والأسر والخوفِ والقهرِ والجدْب، لا عذاب الآخرة ولا الموت؛ لأنّه لم يُسند الإتيان إليه[2].

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿يَأۡتِيَكُمُ﴾:

النَّجاة في حيِّزِ الإمكانِ لِمَن اتّبع الهدى بإحسان

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِه ﷻ: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾؛ للإعلامِ بوعيدٍ قريبٍ يكونُ في المستقبلِ إنْ لم يتَّبعِ المُخاطَبونَ أحسنَ ما أُنزِلَ إليهِم مِنْ ربِّهم، وفي ذلكَ تنبيهٌ على أنَّ النَّجاةَ لا تزالُ في حيِّزِ الإمكانِ.

بلاغةُ تعريفِ العذابِ:

تعريفُ العذابِ في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 537، والآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 271.
(2) القِنَّوجيّ، فتحُ البيان: 12/ 135.

﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ تعريفُ الجنسِ، وهو يقتضي أنَّهم إنْ لم يتَّبِعوا الأحسنَ يأتِهم العذابُ، والعذابُ منهُ ما يحصلُ في الدُّنيا إنْ شاءَهُ اللهُ، وهو خاصٌّ بالمشركينَ، وأمّا المسلمونَ فقدِ استعاذَ لهُم منهُ الرَّسولُ ﷺ، ومنهُ ما يحصلُ في الآخرةِ[1].

اتِّباعُ الحقِّ يَقي عذابَ الدُّنيا والآخرةِ

سرُّ التَّعبيرِ بالعذابِ دونَ العقابِ:

عُبِّرَ بالعذابِ دونَ العقابِ في قولِه جلَّ شأنُهُ: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذه الكلمةُ بالنَّظرِ إلى أصلِ وضعِها، مِنْ إزالةِ كلِّ ما فيهِ مَسَرَّةٌ للمُعذَّبِ، والمعنى: مِنْ قبلِ أنْ يأتيَكم الأمرُ الَّذي يزيلُ ما يَعْذُبُ ويَحلو لكُم في الدُّنيا أو في الآخرةِ[2].

مَنْ سلّط الله عليه نقمتَه أزالَ العذابُ مَسَرَّتَهُ

بلاغةُ الحالِ بلفظ ﴿بَغۡتَةٗ﴾:

جيءَ بالحالِ ﴿بَغۡتَةٗ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ﴾؛ لزيادةِ التَّخويفِ والتَّهديدِ؛ لأنَّ العذابَ إذا جاءَ فجأةً وعلى غيرِ موعدٍ يكونُ أشقَّ على النُّفوسِ[3]، فعذابُ الدُّنيا يحلُّ بغتةً، وعذابُ الآخرةِ كذلكَ؛ لأنَّهُ تظهرُ بوارقُهُ عندَ البعثِ[4].

أشدُّ العذابِ ما أتَى بغتةً بحقّ فأهلكَ ومَحَقَ

دلالةُ الواوِ في ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى ذكرُهُ: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾ للحالِ، والجملةُ حاليَّةٌ، جيءَ بها لزيادةِ التَّخويفِ والوعيدِ؛ والمعنى: ليسَ عندَكم شعورٌ بإتيانِه لا في حالِ إتيانِه ولا قبلَهُ بوجهٍ مِنَ الوجوهِ؛ لفَرْطِ غفلتِكم، فلا تتأهَّبونَ لهُ، فيكونُ أفظعَ ما يكونُ على النَّفسِ[5].

لا رادَّ لعذابِ اللهِ إذا حلّ إلّا حفظُه ﷻ

نكتةُ التَّعبيرِ بالجملةِ الاسميَّةِ:

عُبِّرَ بالجملةِ الاسميَّةِ في قولِه ﷻ: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾؛ لتأكيدِ

غفلةُ المخاطَبينَ علّةُ ورودِ العذاب وهم غيرُ شاعرين

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 44.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 537.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 466، والبقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 537.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 44.
(5) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 537، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 260.

غفلةِ المخاطَبينَ وعدمِ تيقُّظِهم للعذابِ المُهدَّدِ بهِ. "أي ليس عندكم شعورٌ بإتيانه، لا في حال إتيانه ولا قبْلَه بوجه من الوجوه، لفرط غفلتِكم، ليكون أفظعَ ما يكون على النّفس، لشدّة مخالفتِه، لِما هو مستقرّ فيها، وهي متوطّنةٌ عليه من ضدّه"[1].

غرضُ تقديمِ المُسنَدِ إليهِ على المُسنَدِ الفعليِّ:

غفلةُ المخاطَبينَ، مُؤكَّدةٌ بيقين

قُدِّمَ المُسنَدُ إليهِ (أنتُم) على المُسنَدِ الفعليِّ ﴿لَا تَشۡعُرُونَ﴾ في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ﴾؛ لإفادةِ تقَوّي الحكم؛ لأنَّ الإخبارَ عنِ المخاطَبينَ بعدمِ الشُّعورِ حُكْمٌ عليهم به، وفي ﴿لَا تَشۡعُرُونَ﴾ ضميرٌ راجعٌ للمخاطَبينَ، فيفيدُ نسبةَ عدمِ الشُّعورِ إليهم مرَّةً أخرى، كأنَّهُ قد قيلَ مرَّتين: وأنتم لا تشعرونَ، وأنتم لا تشعرونَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ المنفيِّ:

استمرارُ الغفلةِ إلى نزولِ التّعذيبِ مُستقبحٌ معيبٌ

عُبِّرَ بالمضارعِ المنفيِّ في قولِه عزَّ مِنْ قائلٍ: ﴿لَا تَشۡعُرُونَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ عدمَ شعورِ المخاطَبينَ أمرٌ مُتجدِّدٌ مُستمِرٌّ، وفي ذلكَ زيادةُ ذمٍّ لهُم وتوبيخ، وزيادةُ تقبيحٍ لحالِهم، أو لتصويرِ حالِهم عندَ نزولِ العذابِ بهِم بأنَّهم لاهونَ غافلونَ عنهُ.

نكتةُ حذفِ مُتعلَّقِ ﴿لَا تَشۡعُرُونَ﴾:

بيانُ أنّ عدمَ الشّعورِ هو الغفلةُ عنِ العذابِ

الظّاهرُ أنَّ متعلَّقَ ﴿لَا تَشۡعُرُونَ﴾ محذوفٌ إيجازًا؛ لظهورِه مِنَ السّياقِ، ومراعاةً للفواصل، والتَّقديرُ: وأنتم لا تشعرونَ بمجيءِ العذابِ[2].

ويحتملُ أنْ يكونَ الفعلُ المُتعدّي قد نُزِّلَ منزلةَ اللّازم، والتَّقديرُ: وأنتم لستُم مِنْ أهلِ الشُّعورِ، وفي ذلكَ مبالغةٌ في الذَّمِّ والتَّوبيخ.

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 537.

(2) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 46، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 260.

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦﴾ [الزُّمر: 56]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

بيانُ عاقبةِ نزولِ العـذابِ للحثِّ على تجنُّبِهِ بعدَ التَّحذيرِ منهُ

في مناسبةِ الآيةِ لِما قبلَها وجهانِ متقاربانِ: أحدُهما: لمّا خوَّفَهم ﷻ بالعذابِ بيَّنَ ماذا يقولونَ بتقديرِ نزولِهِ بهِم[1]. والآخرُ: لمّا خوَّفَهم سبحانَهُ بالعذابِ ذكرَ علَّةَ ذلكَ؛ فإنَّ للإنسانِ عندَ وقوعِ العذابِ أقوالًا وأحوالًا لو تخيَّلَها قبلَ وقوعِهِ لَباعدَ أسبابَهُ عنهُ[2].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾: (حسر) أصلٌ يدلُّ على كَشْفِ الشَّيءِ[3]، ومِنْ ذلكَ يقالُ: حَسَرْتُ عنِ الذِّراعِ؛ أيْ: كشفتُهُ[4]. والحاسرُ: الَّذي لا دِرْعَ عليهِ ولا مِغْفَرَ[5]، والحَسْرةُ: الغمُّ على ما فاتَ، والنَّدمُ عليهِ؛ كأنَّهُ انكشفَ أمرُ المُتحسِّرِ في جَزَعِهِ وقلَّةِ صَبْرِهِ[6]، أو كأنَّهُ انكشفَ عنهُ الجهلُ الَّذي حملَهُ على ما ارتكبَهُ، أوِ انحسرَتْ قواهُ مِنْ شدَّةِ غمِّهِ، أو أدركَهُ تَعَبٌ مِنْ تداركِ ما سبقَ منهُ[7]. والمرادُ بالحَسْرةِ هنا: النَّدامةُ الشَّديدةُ.

2) ﴿فَرَّطتُ﴾: (فرط) أصلٌ يدلُّ على إزالةِ الشَّيءِ مِنْ مكانِهِ وتنحيتِهِ عنهُ[8]، وعلى التَّقدُّمِ، ومنهُ الفارطُ إلى الماءِ، أي: المتقدِّمُ لإصلاحِ الدَّلْوِ، والإفراطُ: الإسرافُ في التَّقدُّمِ، والتَّفريطُ: التَّقصيرُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 466، والنّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 10.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 537، والمراغيّ، تفسير المراغيّ: 24/ 24.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسر).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، والزّمخشريّ، أساس البلاغة: (حسر).
(5) الرّاغب، المفردات: (حسر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حسر).
(7) السّمين، عمدة الحفّاظ: (حسر).
(8) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (فرط).

فيه[1]، والتَّفريطُ أيضًا: تركُ الشَّيءِ حتَّى يمضيَ وقتُ إمكانِه، ثمَّ يخرجَ إلى وقتٍ يمتنعُ فيه[2]. والمرادُ بالتَّفريطِ هنا: التَّقصيرُ في اللّازمِ[3]، وإهمالُ ما ينبغي أنْ يُقدَّمَ[4].

3) ﴿ٱلسَّٰخِرِينَ﴾: (سخر) أصلٌ يدلُّ على احتقارٍ واستذلالٍ، ومِنْ ذلكَ: تسخيرُ اللّهِ ﷻ الشَّيءَ، وذلكَ إذا ذلَّلَهُ لأمرِه وإرادتِه[5]، والسُّخريةُ: الاستهزاءُ[6]، وهو المرادُ هنا[7].

❁ المَعنى الإجْماليُّ:

بيانُ عاقبةِ الإعراضِ عنِ الحقِّ، وتجرّعِ الخسراتِ عند الفوات

يُخبِرُ ﷻ عن ندمِ المقصِّرينَ في طاعتِه، فيقولُ: امتثِلوا للأوامرِ السّابقةِ؛ لئلّا تقولَ نفسٌ: يا حسرتي على ما ضيَّعتُ مِنْ حقِّ اللّهِ وطاعتِه، وقد كنتُ مِنَ المستهزئينَ بالحقِّ وأهلِه[8].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ موقعِ ﴿أَن تَقُولَ﴾ الإعرابيّ:

لا تنفعُ الآهاتُ بعدَ الفواتِ، وقد أعذرَ مَنْ أنذرَ

قولُه تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ مفعولٌ لأجلِه، والتَّقديرُ: (أنيبوا وأسلِموا مِنْ أجلِ أنْ تقولَ نفسٌ...)[9]، أو (كراهةَ أنْ تقولَ نفسٌ...)، أو (أنذَرْناكم مخافةَ أنْ تقولَ نفسٌ...)[10]. أو هو تعليلٌ للأوامرِ الثَّلاثةِ السّابقةِ، على حذفِ لامِ التَّعليلِ معَ (أنْ)، وفيه حذفُ (لا) النّافيةِ بعدَ (أنْ)، والمعنى: لئلَّا تقولَ نفسٌ... إلخ[11]. وأيًّا ما كانَ

(1) الراغب، المفردات: (فرط).
(2) الجوهريّ، الصّحاح، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (فرط).
(3) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 538.
(4) النيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 11.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سخر).
(6) الرّاغب، المفردات: (سخر).
(7) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 538.
(8) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 313، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 110.
(9) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 538.
(10) السّمين، الدّر المصون: 9/ 434.
(11) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 44.

ففي الكلامِ بيانٌ لعاقبةِ عدمِ الامتثالِ بالأمرِ؛ لإقامةِ الحُجَّةِ على المخاطَبينَ المأمورينَ.

نكتةُ التَّعبيرِ بالمضارعِ ﴿أَن تَقُولَ﴾:

الحَسْرةُ تكونُ حينَ نزولِ العذابِ، ولاتَ حينَ متابٍ

عُبِّرَ بصيغةِ المضارعِ في قولِهِ ﷻ: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾؛ لأنَّ هذا القولَ أمرٌ مستقبلٌ بالنِّسبةِ لزمنِ الأمرِ بالأوامرِ السّابقةِ؛ إذ هذا القولُ مُترتِّبٌ على نزولِ العذابِ بالمخالفينَ التّاركينَ للامتثالِ، ولا شكَّ أنَّ عدمَ الامتثالِ يكونُ بعدَ الأمرِ.

غرضُ تنكيرِ لفظ ﴿نَفْسٌ﴾:

احتمالُ اللّفظِ معانيَ شتّى دليلٌ على بلاغتِه وسَعةِ دلالتِه

يحتملُ تنكيرُ ﴿نَفْسٌ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ﴾ أنْ يكونَ للتَّبعيضِ؛ لأنَّ المرادَ بها بعضُ الأنفُسِ، وهي نفسُ الكافرِ، بدليلِ قولِهِ: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ [الزمر: 57]؛ لأنَّ هذا لا تقولُهُ نفسٌ مؤمنةٌ[1]. ويحتملُ أنْ يكونَ للنَّوعيَّةِ، والمعنى: أنْ يقولَ صنفٌ مِنَ النُّفوسِ، وهو نفوسُ المشركينَ[2].

ويجوزُ أنْ يكونَ للإفرادِ شخصًا، ويرادَ نفسٌ مُتميِّزةٌ مِنَ الأنفُسِ، وهو الكافرُ الَّذي عُلِمَ منهُ اللَّجاجُ في الكفرِ في الدُّنيا، أوِ الكافرُ الَّذي شوهِدَ تعذيبُهُ الشَّديدُ في الآخرةِ[3]. ويجوزُ أنْ يرادَ التَّكثيرُ على سبيلِ الاستعارةِ؛ لأنَّ التَّنكيرَ غالبٌ في التَّقليلِ، فاستعمالُهُ في التَّكثيرِ مجازٌ، وعلى هذا يكونُ المرادُ بالنَّفسِ جميعَ الأنفُسِ المقصِّرةِ مِنَ المؤمنينَ والكافرينَ[4].

بلاغةُ النِّداءِ في مَطلعِ الجملة:

نداءُ الحَسْرةِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ

(1) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 136، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 412.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 45.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 136، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 412، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 260.
(4) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 136، والطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 412.

مخاطبة الحَسْرةِ مَثَلٌ على شدَّةِ التَّحسُّرِ

﴿ٱللَّهِ﴾ مِنْ قبيلِ إعلانِ التَّوجُّعِ والتَّفجُّعِ والحزنِ والنَّدم، وتوبيخ النَّفسِ على ما كانَ منها مِنَ الذُّنوبِ الَّتي أوصلَتْها إلى الخلودِ في العذابِ[1]، والمعنى: يا حَسْرتي احضُري، فهذا أوانُك؛ فأنا محتاجٌ إليك، أي: إلى التَّحسُّرِ، وقد شاعَ ذلكَ في كلامِهم، حتَّى صارَتْ هذه الكلمةُ كالمَثَلِ لشدَّةِ التَّحسُّرِ[2].

سرُّ النِّداءِ بـ (يا) دونَ غيرِها:

استُعمِلَتْ أداةُ نداءِ البعيدِ (يا) دونَ غيرِها مِنْ أدواتِ النِّداءِ في قولِهِ تعالى: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾؛ للتَّنبيهِ على كمالِ دهشةِ المُنادي، أو لأنَّ الحَسْرةَ لكونِها غيرَ محسوسةٍ كانَتْ بعيدةً[3].

بلاغةُ الاستعارةِ في نداءِ الحَسْرةِ:

الحَسْرةُ بمنزلةِ العاقلِ المُنادَى، تعبيرٌ دقيقٌ عنِ المرادِ في السّياقِ

في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ استعارةٌ مكنيَّةٌ، بتشبيهِ الحَسْرةِ بالعاقلِ الَّذي يُنادَى ليُقبِلَ، أي: يا حَسْرتي هذا وقتُك، فاحضُري، والنِّداءُ مِنْ روادفِ المشبَّهِ بهِ المحذوفِ[4]، وهو العاقلُ، قال ابن منظور: "إذا قال القائل: ما الفائدةُ في مناداة الحسرة، والحسرةُ ممّا لا يجيبُ؟ قال: والفائدةُ في مناداتها كالفائدة في مناداة ما يَعقلُ، لأنّ النّداء بابُ تنبيهٍ، إذا قلتَ يا زيدُ، فإن لم تكن دعوته لتخاطبَه بغير النّداء، فلا معنى للكلام، وإنّما تقول يا زيد لتنبّهَه بالنّداء، ثمّ تقولُ: فعلتُ كذا، ألا ترى أنّك إذا قلتَ لمن هو مقبلٌ عليك: يا زيدُ، ما أحسنَ ما صنعتَ؛ فهو أوكدُ من أن تقول له: ما أحسنَ ما صنعتَ، بغير نداء؛ وكذلك إذا قلتَ للمخاطب: أنا أعجب ممّا فعلتَ، فقد أفدتَه أنّك متعجّب، ولو قلتَ: واعجباه ممّا فعلتَ، ويا عجباه أن تفعل كذا، كان دعاؤك العجبُ أبلغَ في

(1) ابن حسن، التفسير: 12/ 259.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 45.
(3) القونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 557.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 45.

الفائدة"[1]، وفي استعمال الاستعارة هاهنا فائدةٌ أكيدةٌ، وصورةٌ بديعةٌ تُنبئُ عن دقّة الأسلوب القرآنيّ وبلاغتِه.

توجيهُ القراءاتِ في ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾:

شِدَّةُ ذُهولِ المُفرِّطِ وحسرته تعبيرٌ بليغٌ عن الحرج والنّدم

قرأ أبو جعفرٍ: (يا حَسْرتايَ) بياءٍ بعدَ الألفِ، وفتحَها عنهُ ابنُ جمّازٍ، واختُلِفَ عنِ ابنِ وردانَ في الفتحِ والإسكانِ[2]. وتوجيهُ هذهِ القراءةِ: أنَّها على الجمعِ بينَ العِوَضِ - وهو الألفُ - والمُعوَّضِ عنهُ، وهو الياءُ[3]. أو إنَّ المُفرِّطَ لمّا شاهدَ نتيجةَ كمالِ تفريطِه فيما يُنجّيه منْ ذلكَ العذابِ، ونهايةَ خيبتِه منَ الفوزِ والفلاحِ؛ تضجَّرَ وتفجَّعَ، ومدَّ صوتَهُ، كما يفعلُ الملهوفُ، فنزَّلَ الألفَ منزلةَ نفسِ الكلمةِ، وألحقَ حرفَ الياءِ المُعوَّضَ بهِ، أو أنَّهُ منْ هَوْلِ ذلكَ اليوم ذَهَلَ فلم يَدْرِ ما يقولُ[4]. ويحتملُ أنْ تكونَ تثنيةُ الحَسْرةِ مبالغةً، على لغةِ إبقاءِ المثنَّى على الألفِ في الأحوالِ كلِّها، والمرادُ حَسْرةُ فَوْتِ الجنَّةِ، وحَسْرةُ دخولِ النّارِ، واعتبارُ التَّكثيرِ مناسبًا لكثرةِ حَسَراتِهم يومَ القيامةِ[5]. وقرأ الباقونَ: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ على الأصلِ[6]، والألفُ عِوَضٌ عن ياءِ المُتكلِّمِ[7].

نكتةُ التَّعبيرِ بالحرفِ ﴿عَلَىٰ﴾:

حَسْرةُ المُفرِّطِ على تفريطِهِ تصويرٌ لحاله في مآله

يحتملُ أنْ تكونَ ﴿عَلَىٰ﴾ في قولِهِ تعالى ذكرُهُ: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ تعليليَّةً بمعنى الباءِ، أي: يا حَسْرتا بما قصَّرتُ[8]، أي: بسببِ ما قصَّرتُ. ويحتملُ أنْ تكونَ ﴿عَلَىٰ﴾ للاستعلاءِ، وتعديةُ الحَسْرةِ بها؛ للدَّلالةِ على تمكُّنِ التَّحسُّرِ منْ مدخولِ ﴿عَلَىٰ﴾[9].

---

(1) ابن منظور، لسان العرب: 4/ 189.
(2) النّشر، القراءات العشر: 2/ 363.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 137، وابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 4/ 538.
(4) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 13/ 413.
(5) الآلوسيّ، روح المعاني: 12/ 272.
(6) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 260.
(7) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 45.
(8) البيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 46، والقونويّ، حاشية على تفسير البيضاوي: 16/ 558.
(9) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 45.

وكأنَّ التَّحسُّرَ على التَّفريطِ قد كَثُرَ حتَّى غَمَرَ التَّفريطَ مِنْ جميعِ الجوانبِ، واستعلَى عليهِ.

معنى الأداة ﴿مَا﴾:

بيانُ أنّ التَّفريط هو المُتحسَّرُ عليهِ

الظّاهرُ أنَّ ﴿مَا﴾ في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾ مصدريَّةٌ، والمعنى: على تفريطي[1]، ونكتةُ تركِ التَّعبيرِ بالمصدرِ: أنَّ التَّعبيرَ بالفعلِ والفاعلِ أصرحُ في إسنادِ التَّفريطِ إلى المُتحسِّرِ وأفخمُ[2]. ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿مَا﴾ موصولةً، والتَّقديرُ: على ما فرَّطتُهُ[3].

بلاغةُ التَّعبيرِ بلفظ (التَّفريطِ):

فَواتُ أوانِ تداركِ التَّقصيرِ خيبةٌ في المصيرِ

عُبِّرَ بالتَّفريطِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾؛ لدلالتِهِ على التَّقصيرِ والتَّضييعِ معَ فَواتِ أوانِ التَّداركِ، فيكونُ ملائمًا لمقامِ إظهارِ النَّدمِ، ولِما فيه مِنَ الإشارةِ اللَّطيفةِ إلى انفراطِ نظامِ أمرِ المُتحسِّرِ كانفراطِ العِقْدِ[4].

نكتةُ الماضي في ﴿فَرَّطتُ﴾:

جيءَ بصيغةِ الماضي في قولِ اللّهِ ﷻ: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ﴾؛ للدَّلالةِ على تحقُّقِ التَّفريطِ، وفي ذلكَ زيادةٌ في التَّحسُّرِ؛ إذ فَواتُ وقتِ الطّاعةِ قد تُيُقِّنَ.

معنى الحرف ﴿فِي﴾:

التَّفريطُ في جَنْبِ اللهِ مُستشنعٌ قبيحٌ

يجوزُ أنْ تكونَ ﴿فِي﴾ الدّالَّةُ على الظَّرفيَّةِ، في قولِهِ تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، لتعديةِ فعلِ ﴿فَرَّطتُ﴾، فلا يكونُ للفعلِ مفعولٌ، ويكونُ المُفرَّطُ فيه هو جَنْبَ اللّهِ. ويجوزُ أنْ تكونَ ﴿مَا﴾ في ﴿مَا فَرَّطتُ﴾ موصولةً، وفعلُ ﴿فَرَّطتُ﴾ متعدٍّ بنفسِهِ، والمفعولُ محذوفٌ، وهو الضَّميرُ المحذوفُ العائدُ إلى الموصولِ، والمجرورُ

---

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 3/ 188، والسّمين، الدّر المصون: 9/ 435.

(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 538.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 45.

(4) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 538.

بـ﴿فِي﴾ حالٌ مِنْ ذلكَ الضَّميرِ، أي: كائنًا ما فرَّطتُهُ في جَنْبِ اللّهِ[1].
وأيًّا ما كانَ ففي الكلامِ بيانُ أنَّ هذا المتحسِّرَ قد بالغَ في التَّفريطِ فيما لا ينبغي التَّفريطُ بِهِ، وهو جَنْبُ اللّهِ.

سرُّ التَّعبيرِ بلفظ (الجنْبِ):

تفريطُ المتحسِّرِ في حقِّ اللهِ وطاعتِهِ مبينٌ عنِ المُرادِ

يحتملُ أنْ يكونَ الجَنْبُ في قولِهِ تعالى: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، مستعارًا للشَّأنِ والحقِّ، أي: شأنِ اللّهِ وحقِّهِ، تشبيهًا لذلكَ بمكانِ السّيِّدِ وحِماهُ إذا أُهمِلَ حتَّى اعتُدِيَ عليهِ أو أقفرَ[2]. ويحتملُ أنْ يكونَ المعنى: على ما فرَّطتُ في حقِّ اللّهِ، والتَّركيبُ مِنْ بابِ الكنايةِ[3]؛ لأنَّ مَنْ ضيَّعَ جهةً ضيَّعَ ما فيها[4]. ويحتملُ أنْ تكونَ جملةُ ﴿فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ تمثيلًا لحالِ النَّفسِ الَّتي أوقِفَتْ للحسابِ والعقابِ بحالِ العبدِ الَّذي عَهِدَ إليهِ سيِّدُهُ بحِراسةِ حِماهُ ورعايةِ ماشيتِهِ، فأهملَها حتَّى رُعِيَ الحِمى، وهلكتِ المواشي، وأُحضِرَ للعقابِ، فيقولُ: يا حَسْرَتا على ما فرَّطتُ في جَنْبِ سيِّدي. وعلى هذا الوجهِ يجوزُ إبقاءُ الجَنْبِ على حقيقتِهِ؛ لأنَّ التَّمثيلَ يعتمدُ تشبيهَ الهيئةِ بالهيئةِ[5].

بلاغةُ الإضافةِ في قوله ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾:

جَنْبُ اللهِ عظيمُ الشَّأنِ عميقُ المعاني

أُضيفَ الجَنْبُ إلى لفظِ الجلالةِ في قولِهِ تعالى: ﴿فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾؛ لتعظيمِهِ، وزيادةِ تقبيحِ شأنِ المفرِّطِ؛ لأنَّهُ فرَّطَ فيما لا ينبغي التَّفريطُ بِهِ، وهو جَنْبُ اللّهِ تعالى العظيمِ الشَّأنِ، ولذلكَ عُبِّرَ بلفظِ الجلالةِ دونَ غيرِهِ مِنَ الأسماءِ الحُسنى[6]. ومُفادُ الحالِ: "أنْ تَقولَ في حلوله وألمامه نَفْسٌ وازرةٌ منكم مقصّرةٌ عنِ الإنابة والرّجوع،

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 46.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 46.
(3) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 137، والبيضاويّ، أنوار التّنزيل: 5/ 46.
(4) الخفاجيّ، عناية القاضي: 7/ 345.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 46.
(6) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 538.

حين حلولِ العذاب عليها، يا حَسْرَتى، ويا ندامتا، على ما فَرَّطْتُ وقصّرتُ في جَنْبِ اللّه ورعايةِ جانبِه وحقّه في إطاعته وانقياده"[1].

معنى الواوِ في ﴿وَإِن كُنتُ﴾:

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ للحالِ، والجملةُ في محلِّ نصبٍ على الحالِ، كأنَّهُ قالَ: فرَّطتُ في جَنْبِ اللّهِ وأنا ساخرٌ، أي: فرَّطتُ في حالِ سُخريَتي[2]. ويحتملُ أنْ تكونَ الواوُ للاستئنافِ، والجملةُ إخبارٌ مِنَ المُفرِّطِ عن نفسِه بما كانَ عليهِ في الدُّنيا[3]. وأيًّا ما كانَ ففي الكلامِ زيادةُ تقبيحٍ لشأنِ المفرِّطِ بأنَّ تفريطَهُ كانَ مقرونًا بالسُّخريةِ، فلم يكتفِ بالتَّفريطِ بالحقِّ، بلِ استهزأ بهِ أيضًا، فتفريطُهُ تفريطُ السّاخرِ، لا تفريطُ الغافلِ[4].

تفريطُ المتحسِّرِ، مقرونٌ بالسُّخريةِ والهُزءِ

بلاغةُ استعمالِ الخبرِ في الإنشاءِ:

جملةُ ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ خبرٌ مُستعمَلٌ في إنشاءِ النَّدامةِ على ما فاتَ النَّفسَ مِنْ قَبولِ ما جاءَها بهِ الرَّسولُ ﷺ مِنَ الهُدى، فكانَتْ تسخرُ منهُ، وتستهزئُ به[5].

ندمُ المفرِّطِ على سُخريتِهِ مِنَ الحقِّ، مآلٌ لكلِّ مُفرِّطٍ في جنبِ الحقّ

بلاغةُ التَّأكيدِ في السّياقِ المجيد:

(إنْ) في قولِه تعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾، مخفَّفةٌ مِنَ الثَّقيلةِ، واللّامُ فارقةٌ بينَ (إنْ) المخفَّفةِ و(إنْ) النّافية[6]، فالكلامُ مشتملٌ على التَّأكيدِ، والغرضُ مِنْ هذا التَّأكيدِ تحقيقُ وتقريرُ حصولِ السُّخريةِ، ودفعُ توهُّمِ أنْ يكونَ المعذَّبُ المقهورُ، يبالغُ في الاعترافِ؛ رجاءَ العفوِ عنهُ[7].

سُخريةُ المفرِّطِ مِنَ الحقِّ ثابتةٌ وعليها كان عقابُه الأكيدُ

---

(1) علوان، الفواتح الإلهية: 2/ 251.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 467.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 214.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 46.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 46.
(6) النّيسابوريّ، غرائب القرآن: 6/ 11، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 47.
(7) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 538.

سرُّ التَّعبيرِ بفعلِ الكونِ الماضي:

عُبِّرَ بفعلِ الكونِ الماضي، في قولِ الباري ﷻ: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾؛ للتَّنبيهِ على أنَّ السُّخريةَ كانَتْ في طبعِ المفرِّطِ في جَنْبِ اللّهِ[1]، وأنَّهُ كانَ حريصًا عليها.

دلالةُ الحرف (مِنْ) في السّياق:

(مِنْ) في قولِهِ جلَّ مِنْ قائلٍ: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ للتَّبعيضِ، فتفيدُ أنَّ المفرِّطَ بعضُ السّاخرينَ، وهو منخرِطٌ في سِلْكِهم، ومندرجٌ في زُمْرتِهم.

سرُّ التَّعبيرِ بقوله ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾:

مَـنْ كـانَ مِـنَ السّاخرينَ، فهو أحمقُ مَهينٌ

مُقتضَى الظّاهرِ أنْ يقالَ: (وإنْ كنتُ لساخرًا)، لكنْ عُدِلَ عنهُ إلى قولِهِ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾؛ لأنَّهُ أبلغُ في الدَّلالةِ على اتِّصافِ النَّفسِ بالسُّخريَةِ[2]؛ إذ معناهُ: وإنْ كنتُ مِنَ الفئةِ الَّتي يَصدُقُ عليها هذا الوصفُ، وهو السُّخريةُ، وإذا كانتِ النَّفسُ مِنَ الفئةِ السّاخرةِ فهي ساخرةٌ أيضًا بطريقِ الكنايةِ الَّتي هي أبلغُ مِنَ التَّصريحِ. يضافُ إلى ذلكَ أنَّ في قولِهِ تعالى: ﴿لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ مراعاةً لتلاؤمِ فواصلِ الآياتِ.

سرُّ التَّعبيرِ بالسُّخريةِ:

المـفـرِّطُ عـدوٌّ للحقِّ وأهلِهِ

عُبِّرَ بالسُّخريةِ في قولِهِ تعالى شأنُهُ: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾؛ لِما تدلُّ عليهِ هذهِ الكلمةُ بحسَبِ وضعِها اللُّغويِّ مِنَ القَهْرِ والإذلالِ، فتشيرُ إلى أنَّ المفرِّطَ كانَ يطلبُ باستهزائِهِ بالحقِّ إذلالَ أتباعِهِ وقَهْرَهم، وفي ذلكَ ما لا يخفَى مِنْ تقبيحِ حالِهِ الَّذي استوجبَ ما هو فيهِ مِنَ الوَيْلاتِ والحَسَراتِ.

---

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 16/ 539.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 24/ 47.

غرضُ حذفِ مُتعلَّقِ السُّخريةِ:

قولُهُ تعالى: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ﴾ معناهُ: وإنْ كنتُ لَمِنَ المستهزئينَ بدينِ اللّهِ تعالى وأهلِهِ[1]، وقد حُذِفَ متعلَّقُ السُّخريةِ إيجازًا؛ لظهورِهِ مِنَ السّياقِ، ومراعاةً لتلاؤمِ الفواصلِ.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 260.

﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ٥٧﴾ [الزمر: 57]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

التَّناقُضُ في طَبْعِ هـذهِ الجماعةِ الكافرة

هذه الآيةُ الكريمةُ مِن تمامِ ما قبلَها: ﴿أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَٰحَسْرَتَىٰ﴾ [الزمر: 56] الآية، في سياقِ التَّعليلِ للأمرِ بالاتِّباعِ المذكورِ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم﴾ [الزمر: 55] الآية، فهاتانِ الآيتانِ كائنتانِ في الحديثِ عن أحوالِ الكُفْرِ والشِّرك حينَ يأتيهم العذابُ بغتةً وهم لا يشعرون، فالآيةُ الأولى تُبيِّنُ اعترافَ النَّفْسِ العاصيةِ الكافِرةِ بتفريطِها في جَنْبِ اللّه، وعظيمَ ندمِها على ما كانَ منها، وعلى تكبُّرِها على الحقِّ، وسُخْرِيَتِها منهُ، وهذا هو الأصلُ الكائنُ منها عندَ حُلولِ العذابِ بها، ولَمّا كانَتِ النَّفْسُ إذا وقَعَتْ في ورْطةٍ لا تَدَعُ وجهًا محتمَلًا حتَّى تتعلَّقَ بأذيالِه، وتمُتَّ بحِبالِه؛ جاء البيان الإلهيُّ حاكيًا كذِبَها؛ إذ لا يُغْني إلّا الصِّدْقُ: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ الآية[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿هَدَىٰنِي﴾: (هدي) أصلانِ، أحدُهما التَّقدُّمُ للإرشادِ، يُقال: هديْتُه الطَّريقَ هدايةً، أي: تقدَّمتُه؛ لأرشده، وكلُّ مُتقدِّمٍ لذلك هادٍ، والهدايةُ في قوله تعالى: ﴿هَدَىٰنِي﴾ مِن الهداية التي جعلَها اللّه للنّاس، بدعائه إيّاهُم على ألسنة الأنبياء، وإنزالِ القرآنِ، ونحوِ ذلكَ، فمعناها: أرشدني، ودلَّني على الحقِّ الذي إذا اعتقدْتُه، وعملتُ به؛ نُعِّمْتُ، ولم أُعَذَّبْ[2].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 464.
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (هدى)، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 607، والآلوسي، روح المعاني: 24/ 18.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

مَنْ مَدَّ يدَيْهِ إلى الله لا يرُدُّهُما صِفْرًا؛ حتَّى يَضَعَ فيهما خيرًا

هذه الآيةُ تُقرِّرُ أنَّ النَّفْسَ العاصيَةَ الكافِرةَ في حالِ إتيانِها العذاب بغتةً انتقَلَتْ مِن موقفِ المُصارَحة إلى موقفِ المُراوَغة، وحمَّلَت مسؤوليَّتها على أمرٍ غيبيٍّ ليس عندَها ولا عندَ غيرها عِلْمٌ به، وأنَّها تُحاوِلُ تبرئةَ نفسِها، وترجعُ بما هيَ فيه إلى قدَرٍ قدَّرَه اللّٰه عليها، وأنَّ اللّٰه أراد بها ذلك، ولو هداها، وبيَّن لها الحقَّ الهاديَ إلى النَّعيم؛ لاهتدَتْ، والغريبُ أنَّ قولَها: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ حقٌّ لا يُنازِع فيه مَن شهِد أنَّ اللّٰه حقٌّ، ولكنَّ هذا الحقَّ في منطقِ هذه النَّفْسِ أُريد به باطلٌ؛ لأنَّها به تتنصَّلُ مِن الفِعْل الذي اختارَتْه بمحضِ اختيارِها، وأفْضَى بها إلى هذا الموقفِ الذي نتج عن عدم اتِّقائها أسبابَ غضب اللّٰه وعذابه[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

معنى ﴿أَوۡ﴾ ودلالة التَّعبير بها:

كلُّ نَفْسٍ تذوقُ هذا العذابَ بغتةً تقولُ هذه الأقوالَ أو بعضَها

كلمةُ ﴿أَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَقُولَ﴾ في هذه الآية والآية التي بعدها: ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ﴾ حرفُ عطفٍ، وعُبِّر به؛ للدَّلالة على أنَّ النَّفْسَ عندَ نزول ما لا قِبَلَ لها به، لا تخلو مِن هذه الأحوال وهذه الأقوالِ؛ تحسُّرًا وتحيُّرًا وتعلُّلًا بما لا طائلَ تحتَه، فهي لمنع الخُلوِّ[2].

دلالة المضارعة في قوله: ﴿أَوۡ تَقُولَ﴾:

التَّعبيرُ بـ(أو) والمضارع يجريان في فلَكٍ واحدٍ

نَظَمَ القرآنُ القولَ فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَقُولَ﴾ في هذه الآيةِ والآيةِ اللّاحقة لها؛ إشارةً إلى تكرارِ هذا القولِ وتجدُّدِه مِن النَّفْسِ الواحدةِ؛ حسرةً على ما فرَّطَتْ في جَنْبِ اللّٰه، فهو تفصيلٌ وبيانٌ لقولها في الآية السّابقة: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 366.
(2) الشهاب، حاشية على تفسير البيضاوي: 7/ 347.

جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 56]، وإلى تكرارِه وتجدُّدِه مِن أكثرَ مِن نَفْسٍ؛ ولهذا عبَّر القرآنُ بـ ﴿أَوۡ﴾.

دلالةُ تأنيثِ الفعل ﴿تَقُولَ﴾:

في التَّأنيثِ كمالُ تصويرِ حالِ النَّفْسِ المُعذَّبَةِ

أنَّثَ القرآنُ القولَ؛ لتأنيثِ النَّفْسِ في قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَقُولَ﴾ في هذه الآيةِ والآيةِ اللّاحقة لها؛ لأنَّ فاعلَ القولِ ضميرُ النَّفْسِ؛ عطفًا على: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٌ﴾ [الزمر: 56]، وفي ذلك إشارةٌ "إلى ضعفِها عن حَمْلِ العذابِ، وغلَبَةِ النَّقائصِ لها"[1]، ففي التَّأنيثِ في نورِ هذه الدَّلالةِ تمهيدٌ لكذِب هذه النَّفْسِ على اللّهِ في قولها: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، وتمهيدٌ لِما يُبيِّنُ عن عظيمِ شِدَّةِ العذابِ؛ حتَّى تمنَّتْ هذه النَّفْسُ الرُّجوعَ إلى الدّارِ الدُّنيا: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾.

دلالةُ تكرارِ: ﴿تَقُولَ﴾، وعدمِ تكرارِ: (أَنْ):

سيطولُ ذلكَ العذابُ حتَّى يُقالَ معَه كلُّ هذه الأقوالِ

هذا التَّكْرارُ مُؤذِنٌ بأنَّ هذهِ المواقِفَ التي قيلَتْ فيها هذهِ الأقوالُ مُستقِلَّةٌ، وأنَّ هذه الأقوالَ مستقِلَّةٌ أيضًا، ومع هذا تجدُ حِسًّا مشترَكًا بينها، وتجدُ الحسرة التي كانَتْ رأسَ هذهِ القرائنِ لها أثَرٌ راسِخٌ يظهره السّياقُ[2]، وهذا الاشتراكُ أشار إليه القرآنُ بعدمِ تكرار: (أَنْ) النّاصبة، فلم يقل: (أو أن تقول) في صدرِ الآيتينِ: [الزمر: 57 - 58]، فالمُكرَّرُ هو القولُ المضارِعُ دونَها.

معنى: ﴿لَوۡ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

تمنّي ما تعلمُ النَّفْسُ استحالتَه، عذابٌ أليمٌ

كلمة ﴿لَوۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾، وقولِه تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ﴾ دالَّةٌ على امتناعِ جوابِها؛ لامتناعِ شرطِها، ويُقْصَدُ بها في هذيْنِ الموضعَيْنِ معنَى التَّمنّي، وهذا ظاهرٌ جدًّا، فقد أبْصَرتِ النَّفْسُ الحقيقةَ، بل الحقائقَ، وهي تُعذَّبُ بالعذابِ الذي أتاها بغتةً، فتمنَّتِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 465.

(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 368.

الرُّجوعَ إلى الزَّمانِ الذي قبلَ زمانِ العذابِ، وهيهات! وأظهرُ منهُ في قولِه تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ ما بعدَها كذِبٌ على اللّهِ، والتَّمنّي بـ: ﴿لَوۡ﴾ يَزْدادُ المُتمَنَّى فيه بُعْدًا واستحالةً، مِمّا يزيدُهم إحساسًا باليأسِ، واستحالةِ تحقُّقِ ما يطلبون حصولَهُ؛ لأنَّ العذابَ نزلَ بهم بغتةً، ولن يُرْفَعَ، وتلك الميزةُ بالتَّمنّي بـ ﴿لَوۡ﴾ ترجعُ إلى طبيعة دلالتِها؛ حيث إنَّها حرفُ امتناعٍ لامتناعٍ.

داعي التَّوكيدِ:

بقَدْرِ الإحساسِ بالضَّياعِ يَعْظُمُ تمنّي النَّفْسِ الإنقاذَ والرُّجوعَ

أكَّد القرآنُ مضمونَ جملة: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾، ومضمونَ جملةِ: ﴿أَنَّ لِي كَرَّةٗ﴾ بكلمة ﴿أَنَّ﴾ - معَ ضميمةِ اسميَّة الثّانية كاملةً، واسميَّة صدرِ الأولى فقط - تصويرًا لكمالِ رغبتِها في هدايةِ اللّه إيّاها، وفي أنْ يكونَ لها كَرَّةٌ، فالنَّفْسُ لشدَّة رغبتِها في ذلكَ وكمالِ إحساسِها بهِ أخْرَجَتِ المعنَى كما هوَ في داخلِها مُحَقَّقًا ومُؤكَّدًا؛ وإنْ كانَتْ تعلمُ أنَّ ذلكَ لن يكونَ، فليسَ بَيْنَ هذينِ الحالينِ تَعانُدٌ.

نكتةُ التَّقديمِ في قوله: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾:

لا هادي للأنفس إلّا الله

قدَّم القرآنُ المسندَ إليه على خبرِه الفعليِّ المُثْبِتِ في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾؛ تحقيقًا وتوكيدًا لمضمونِ الجملةِ الحاصلِ بإسنادِ الهدايةِ المُتعدّيةِ إلى ضميرِ النَّفْسِ إلى اسْمِ الجلالةِ؛ لتكرار ذِكْرِ المسند إليه، فهو مذكورٌ مرَّةً بلفظه ﴿ٱللَّهَ﴾، ومرَّة بضميره؛ إذ فاعل الهداية ضميرُ اسم الجلالة.

علَّةُ التَّعبيرِ بالهِدايَةِ:

يُقابِلون في لُطْفٍ بينَ ما هم فيه مِن شديدِ العقابِ وما يتمنَّونه من كرمِ النَّعيم

قولُه تعالى: ﴿هَدَىٰنِي﴾ خبرُ ﴿أَنَّ﴾، والمقصودُ بهذه الهداية هدايةُ الإرشاد، أي: أرشدني إلى الحقِّ، وبيَّنَ لي طريقَه[1]، فالتَّعبيرُ بالهدايةِ صورَةٌ لكمالِ الإحساسِ بشِدَّةِ العذابِ؛ لأنَّ "الهداية: الدَّلالةُ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 464، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 607.

بلُطْفٍ"[1]، فلو هداهُم اللّه بهذه الصِّفةِ - كما يزعمون كاذبينَ - لَما حلَّ بهم العذابُ بغتةً، يُؤلِمُهم، ويوجِعُهم، ويُهينُهم، بل كانوا في نعيمٍ هادئينَ مُطْمئنّين مُكَرَّمينَ.

يُرجِعون ضلالَهم على اللّه في الزَّمان الماضي كذبًا وافتراءً!

دلالة المُضيِّ في الفعل ﴿هَدَىٰنِى﴾:

نظَم القرآنُ معنَى الهدايةِ فعلًا ماضيًا في قوله تعالى: ﴿هَدَىٰنِى﴾؛ لأنَّهم إنَّما يتمنَّونَ هذهِ الهدايةَ في حالِ نزولِ العذابِ بهم، فهُم يتمنَّون حصولَها في الزَّمانِ الذي قبلَ زمانِ هذا العذابِ، أي: في الزَّمان الماضي؛ فجاء التَّعبير بالفعل ماضيًا ليظهر خبيئة نفوسهم وتحايلهم في أنَّهم لم يكن لهم من الأمر شيء، وأنَّ الزَّمان لو عاد للوراء، ولاحظتهم العناية؛ لتغيَّر حالهم، وما كانوا في هذا الموقف الذي لا نجاة منه.

المضرورُ المُعذَّبُ يُبالِغُ في الاعترافِ؛ رجاءَ القبولِ والانصرافِ

علَّةُ التَّعبير بالكَون الماضي:

قولُه تعالى: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ جوابُ ﴿لَوْ﴾، واللّامُ واقعةٌ في صدرِه، وكان مِن الممكن أنْ تقولَ هذه النَّفْسُ: (لاتَّقَيْتُ)، ولكنَّها استعملَتِ الكَوْنِ، فقالَتْ: ﴿لَكُنتُ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ جملةَ الشَّرط: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ لو تحقَّقَتْ - وهيَ في الدُّنيا في الزَّمان الَّذي قبل زمان إتيانِ العذابِ بغتةً - لكانَ مِن ديدنِها ومِن طبْعِها التَّقوى، فكانَتْ تُلازِمُ سُبُلَ التَّقوى لزومًا؛ كأنَّها مَطْبوعةٌ على التَّقوى وعلى كونها من أهل التَّقْوى[2]، والكَونُ نُظِم فعلًا ماضيًا؛ لأنَّ لُزومَ طريقِ التَّقوى والمُتَّقينَ إنَّما يكونُ قبل مجيءِ العذابِ، في الزَّمان الماضي بالنِّسبة لزمان تعذيبِهم.

دلالةُ العدول مِن المفرد إلى الجمع:

لَمّا قالَتْ هذه النَّفْسُ: ﴿لَكُنتُ﴾؛ كانَ الظّاهرُ أن تقولَ: (مُتَّقيًا)، أو (مُتَّقيةً)، أو (تَقيًّا)، أو (تقيَّةً)، أو نَحوَ ذلكَ؛ بحيثُ يكونُ خبرُ الكونِ مفردًا، ولكنَّها عدَلَتْ عن ذلك إلى جعْلِ الخبرِ جمعَ مُذكَّرٍ

---

(1) الراغب، المفردات: (هدى).
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 464.

سالمًا، فـ: ﴿مِنَ﴾ معناها التَّبْعيضُ، والمعنى: لكنتُ واحدًا مِن المتقين وبعضَهم، والغرضُ مِن العدولِ الإبلاغُ في إثباتِ صفةِ التَّقوى لهذه النَّفْسِ، والمعنى: لكنتُ بعضَ المشهورينَ بهذه الصِّفة، الرّاسخينَ العريقينَ فيها، المُمَيَّزينَ بها، البالغينَ فيها أعلى مستوًى مِن مستوياتها، وهو مستوى الكُمَّلِ.

النَّفْسُ تُبالِغُ في الإعلامِ بالإقلاعِ عمّا جعلَها تُعذَّبُ ذلك العذابَ

دلالة حذف المتُعلِّقِ:

قوله تعالى: ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾ جمعُ: المُتَّقي، وهو اسمُ فاعلٍ، يعملُ عمَلَ الفِعْلِ، فمعمولُه محذوفٌ، قال أبو السُّعود: "﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الشِّرْكَ والمعاصيَ"(1)، ففي حذفِهِ إشارةٌ إلى عمومِه؛ إبلاغًا في تقريرِ اتِّصافِ النَّفْسِ بالتَّقْوى، على عادةِ المُعذَّبِ المقهورِ الَّذي يُبالِغُ في دَعْواهُ؛ لعلَّه يُخفَّفُ عنه.

المبالغةُ في الادِّعاءِ مِن شأنِ أهلِ الباطلِ

نكتةُ التَّقديم بين الأقوال:

ورَدَتْ أقوالُ النَّفْسِ الكافِرَةِ الثَّلاثةُ على جهةِ الصِّدْقِ، الذي دفَعَها إليه فجأةُ العذابِ، ومُشاهَدةُ الحقائقِ، ثُمَّ على جهةِ الكذبِ، الذي لجأَتْ إليه؛ لِما رُكِّبَ في طِباعِهِم مِن الكذبِ على اللّه، فبقيَ ذلك فيهم، وهم في حالِ العذابِ؛ لذا فقد "حُكيَ كلامُ النَّفْسِ في ذلك الموقفِ على ترتيبِه الطَّبيعيِّ في جولانِه في الخاطِرِ، بالابتداءِ بالتَّحسُّرِ على ما أوْقعَتْ فيه نفسَها، ثم الاعتذارِ والتَّنصُّلِ؛ طمعًا أنْ يُنجّيَها ذلك، ثم بتمنّي أنْ تعودَ إلى الدُّنْيا؛ لتعملَ الإحسانَ، كقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾ [المؤمنون: 99 - 100]، فهذا التَّرتيبُ في النَّظْمِ هو أحْكمُ ترتيبٍ، ولو رُتِّبَ الكلامُ على خلافِه؛ لفاتَتِ الإشارةُ إلى تولُّدِ هذه المعاني في الخاطِرِ حينما يأتيهم العذابُ، وهذا هو الأصلُ في الإنشاءِ إلى تولُّدِ ما لم يوجَد ما يقتضي العدولَ عنه"(2).

ترتيبُ أقوالِ النَّفْسِ جاءَ على حَسَبِ استقبالِها العذابَ فرؤيتِها إيّاهُ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 607.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 47.

﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٥٨﴾ [الزمر: 58]

آخِرُ أقوالِ النَّفْسِ الكافِرَةِ مُنْبِئٌ بانتهاءِ أقوالِها

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا ذكر تعالى حالَ النَّفْسِ في الاعترافِ بالبُطْلانِ، ثُمَّ الفزع إلى الزّورِ والبُهْتانِ؛ أتْبَعَ ذلكَ التَّمَنّيَ الذي لا يفيدُ غيرَ الخُسْرانِ[1]، وهو الرُّجوعُ إلى ما قبلَ زمانِ العذابِ؛ لا ليعملوا صالحًا فقط، بل ليبلُغوا درجةَ الإحسانِ.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَرَّةٗ﴾: (كرر) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على جمعٍ وترديدٍ، مِن ذلك: كرَرْتُ؛ وذلك رجوعُكَ إليه بعدَ المَرَّةِ الأولى، والكَريرُ كالحَشْرَجة في الحَلْق، سُمّيَ بذلك؛ لأنَّه يُردِّدُها، والكَرُّ: حَبْلٌ، سُمّيَ بذلك؛ لتجمُّعِ قواهُ، والكِرْكِرَةُ: الجماعةُ مِن النّاسِ، والكَرْكَرَةُ: تصريفُ الرّياحِ السَّحابَ، وجمْعُها إيّاهُ بعدَ تفرُّقٍ[2]، والمقصودُ بقولِه تعالى: ﴿كَرَّةٗ﴾: الرُّجوع المُمكِنُ المُؤْنِسُ إلى الحياةِ الدُّنيا.

المَعْنى الإجْماليُّ:

النَّفْسُ الكافرةُ تتمنَّى كرَّةً إلى الحياةِ الدُّنيا التي فرَّطَتْ فيها في جَنْبِ اللهِ

يَحْكي اللهُ تعالى في هذه الآيةِ القولَ الثّالثَ والأخيرَ مِن أقوالِ النَّفْسِ الكافرةِ المُشْرِكةِ التي أصرَّتْ على عصيانِه سبحانه، وأنَّها قالَتْه حينَ رأتِ العذابَ مُرعوبةً خائفةً في ذُهولٍ مِن هَوْلِ المفاجأةِ، فلم تكُن تتوقَّعُ مجيئَه، فتمنَّتِ الانصرافَ مِن هذا الموقفِ إلى الحياةِ الدُّنيا؛ آمِلَةً أنْ يكونَ ذلك مُمْكِنًا؛ لتعبُدَ اللّهَ مُخْلِصَةً له الدّينَ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 464.

(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (كرّ)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 47.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الاختصاصِ بالقيدِ:

في التَّقييدِ توضيحٌ لزمانِ الأقوالِ الثَّلاثةِ

جاءَ الظَّرْفُ: ﴿حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ﴾ في هذه الآيةِ، ولم يأتِ في الآيتَيْنِ السّابقتَيْنِ؛ لأنَّ قولَ النَّفْسِ: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ﴾ كان في هذا الوقتِ، بخلافِ قولِها: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 56]، وقولِها: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾، فقد قالَتْ هذيْنِ القوليْنِ قبلَ رؤيةِ العذاب، وبعدَ كَشْفِ الغطاءِ ورؤيةِ الحقِّ، وأنَّها في مواجهةِ ما أنكرَتْ: ﴿لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾ [ق: 22].

علَّة التَّعبيرِ بالرُّؤيةِ:

العذابُ الذي يأتي بغتةً يُرَى، لا يُشاهَدُ

عبَّر القرآنُ بالرُّؤْيةِ في قوله تعالى: ﴿حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ﴾، وهي على حقيقتِها، وهذه الرُّؤْيةُ كائنةٌ بالحاسَّةِ، وجاء التَّعبيرُ بالرُّؤْيةِ مُؤسَّسًا على معنى إتيانِ العذابِ بغتةً في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ﴾ [الزمر: 55]، فالعذابُ يكونُ منه إتيانٌ، فهو لهذا يُرَى، كأنَّ النَّفْسَ تراهُ، وهوَ يُقْدِمُ إليها أو عليها، ولو عُبِّر بالفعل (تَشْهَدُ)؛ لأشْعَرَ بوجودِ نوعِ بُطْءٍ في إتيانِ العذابِ؛ حتَّى تمكَّنَتِ النَّفْسُ مِن مُشاهدَته، وهذا لا يتناسَبُ معَ قيدِ الإتيانِ: ﴿بَغۡتَةٗ﴾ [الزمر: 55]، فظَهر بهذا أنَّ التَّعبير بالرُّؤْيةِ هو الأبلغُ سياقًا؛ لأنَّ (ال) في: ﴿ٱلۡعَذَابُ﴾ [الزمر: 55] للعهد الذِّكْريِّ في قوله تعالى: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ﴾ [الزمر: 55].

دلالةُ المضارعةِ في الفعل ﴿تَرَى﴾:

كأنَّ النَّفْسَ لا تتوقَّعُ إتيانَ العذاب

نظَم القرآنُ فعل الرُّؤيةِ فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ﴾؛ إشارةً إلى تجدُّدِ النَّظَرِ والإبصارِ بعينِها إلى العذابِ بتجدُّدِ إتيانه، أي: إشارةً إلى حَرَكيَّة الرُّؤْيةِ، مِن هَوْلِ الفجأةِ والبَغْتةِ، فكأنَّ النَّفْسَ لا تُصدِّقُ إتيانَ العذابِ، فتحدق بعينَيْها نحوَه.

المعهودُ الذِّكريُّ يحضُر بما يتعلَّقُ به في السّياقِ

دلالة (ال) في ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾:

كلمةُ (ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ للعهد الذِّكريِّ؛ إذ ذكَرَه القرآنُ مِن قبلُ في قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥﴾ [الزمر: 55]، والمعنى على هذا: أو تقول حين ترى العذاب الذي أتاها بغتةً، فلمعنى إتيانه بغتةً حضورٌ في السّياقِ لطيفٌ، وهذا ربْطٌ للكلامِ بعضِه ببعضٍ، فهو مِن بابِ ردِّ العجُزِ على الصَّدر.

هَولُ العذابِ يُغيِّرُ حالَ النَّفسِ بالكُلّيَّة

علَّة التَّعبير بالعذاب:

قولُه تعالى: ﴿ٱلۡعَذَابَ﴾ مفعولُ فِعْلِ الرُّؤيةِ: ﴿تَرَى﴾، وعُبِّر به؛ لإفادةِ أنَّه يُزيلُ ما يَعْذُبُ، ويَحْلو للنَّفْسِ في الدُّنيا وفي الآخرة، فهو شديدٌ صعْبٌ عليها؛ لاستكبارِها وكذبِها على اللّه، وإصرارِها على المعصيةِ.

إنَّ رؤيةَ العذابِ سابِقةٌ في الزَّمانِ على هذا القولِ، أو مُصاحِبةٌ له

نكتة تقديم القيد:

قدَّمَ القرآنُ هذا القيدَ: ﴿حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ﴾ على مقولِ القولِ: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾؛ للإسراعِ إلى بيانِ مُفارَقةِ هذا القولِ للقولَيْنِ اللَّذيْنِ قبلَه مِن باديْ الأمرِ، وأنَّهما قيلا مِن قبلِ رؤية العذاب، وبعدَ كَشْفِ الغِطاءِ، وللإنباءِ بمضمونِ قولِها، وتهيئةِ نفْسِ المُتلقّي له؛ لأنَّ تمنّي الكرَّة إنَّما يكونُ عند رؤيةِ العذابِ، وفي التَّقديمِ أيضًا: إشارةٌ إلى عظمةِ العذابِ وهولِه وفخامته وفظاعته، فمُجرَّدُ رؤيتِه جعلَتِ النَّفس تقولُ هذا القولَ، وتتمنَّى الرُّجوعَ إلى زمانِ العملِ، فماذا كانت تقولُ؛ إذا باشَرَتِ العذابَ، ووقَع العذابُ عليها؟ إنَّ حرارةَ الموقفِ وحرارةَ المعنى وحسّاسيَّتَهُما قد اقتَضَتِ اللَّفْتَ إلى هذه الدَّلالةِ بالتَّقديم، ولمّا كان هذا القيدُ وارِدًا بين القولِ ومقولِه على خلافِ الأصلِ؛ مُحْدِثًا إيقاظًا ومفاجأةً وتنبيهًا، وكان العذابُ قد أتَى النَّفْسَ بغتةً؛ ظهَر التَّناسب والتَّكامل بين موقعِ القيدِ ومضمونِه.

دلالةُ اللّامِ في ﴿لِي﴾:

النَّفْسُ الكافرةُ أنانيَّةٌ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لِي﴾ معناها الاختصاصُ، ووراءَ هذا مِن المعنَى كمالُ إحساسِها بشدَّة العذابِ، فهي تريدُ أنْ تَفِرَّ منه فِرارًا، أي: لو أنَّ لي أنا خاصَّةً كرَّةً، كأنَّها تتبرَّأُ مِن غيرِها مِن نُفوسِ العاصينَ المشركينَ، وتبحثُ عن سبيلٍ للتَّفْريجِ عنها هيَ، ففي اللّام في نور هذا تمهيدٌ للقَصْرِ بالتَّقديم.

نكتة تقديم الخبر ﴿لِي﴾:

النَّفْسُ تستعطفُ ربَّها بحالِها الذي هو جديرٌ بأنْ يترتَّبَ عليه أنْ يكونَ لها كَرَّةٌ

قدَّم القرآنُ خبرَ أنَّ ﴿لِي﴾ على اسمها ﴿كَرَّةً﴾؛ للدَّلالةِ على قَصْرِ الكَرَّةِ على ضميرِ النَّفْسِ ياءِ المُتكلِّم، أي: ما كرَّةَ إلّا لها، وهو قصر صفةٍ على موصوفٍ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ لأنَّ هذه النَّفْسَ غيرُ مشغولةٍ بشيءٍ سواها في ذلك الموقفِ الذي ترى فيه العذابَ هاجمًا عليها، فلا تعتني بشأنِ نَفْسٍ سواها؛ ولذلك هي تتمنَّى الفِرارَ وحدها مِن ذلك الموقفِ، وإذا كان في اللّامِ في قوله تعالى: ﴿لِي﴾ توطئةٌ للقَصْرِ؛ كان في مجموعهما إبلاغٌ في تقريرِ طلبِ الرُّجوعِ إلى زمانِ العملِ قبلَ زمانِ إتيانِ العذابِ؛ لكمالِ الإحْساسِ بالضَّياعِ واليأسِ مِن رَفْعِ العذابِ، وكمالِ الإحساسِ بالوَحْشَةِ النَّفْسيَّةِ ممّا جعلَها تقصرُ الكَرَّةَ عليها.

علّة التَّعبير بـ: ﴿كَرَّةً﴾:

تعرَّتْ هذه النَّفْسُ مِن كلِّ شيءٍ، فتمنَّتِ الرُّجوعَ إلى الدّارِ الدُّنْيا التي كانَتْ مُحاطَةً فيها بالنِّعَم

تمنَّتِ النَّفْسُ الكافرةُ أنْ يكونَ لها كرَّةٌ في قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً﴾؛ وفسَّرَها العلماءُ بالرَّجْعةِ، وأصلُ الكَرِّ يدلُّ على جَمْعٍ وترْديدٍ، ففَضَلُ التَّعبيرِ بالكَرَّةِ على الرَّجعةِ: أنَّ في الكَرَّةِ إشارةً إلى معنى إمكانِ الرُّجوعِ، فهي تتمنَّى أنْ تعودَ إلى ما كانَتْ فيه مِن الحياةِ الدُّنْيا، فكونُ اللّهِ قد أعطاها نعمةَ الوجودِ في الدُّنيا، وفرصةَ العملِ فيها، جديرٌ به أنْ يكونَ سببًا في تكرارِ ذلك لها، وأنْ يُعيدَها اللّهُ إليها بعدَ المَرَّةِ الأولى، ثم هيَ تتمنَّى أنْ يكونَ هذا الرُّجوعُ؛ لأنَّه

يُحقِّقُ لها أُنْسًا؛ لِما أحاطَ بنفْسِها مِن وحْشَةٍ مِمّا جعلَها تطلبُ الفِرارَ وحْدَها مِن ذلك الموقفِ العصيبِ.

سِرُّ تنكير ﴿كَرَّةً﴾:

تنكيرُ الكَرَّةِ تعريفٌ بالرُّجوعِ الذي تتمنّاهُ النَّفْسُ

نظَم القرآنُ اسْمَ أنَّ نكرةً: ﴿كَرَّةً﴾؛ للدَّلالةِ على النَّوعيَّةِ، أي: نوعًا مخصوصًا مِن الكَرّاتِ، ألا ترى أنَّ النَّفْسَ طلبَتْ ذلك؛ لَمّا اسْتَوْحَشَتْ، وأحسَّتْ بشدَّةِ العذابِ، وعظيمِ هولِه، وأنَّه كائنٌ لا محالةَ؟ أو للعموم، أي: كرَّةً أيَّ كرَّةٍ، المُهِمُّ أنْ تُتاحَ لها لحظةٌ يُقْبَلُ فيها عملٌ منها؛ لأنَّه لن يكونَ لها فيها إلّا الإحسانُ، والمُحْسِنُ هو الذي يَعبدُ اللهَ، وكأنَّه يراهُ، ويكفي مِن هذا لحظةٌ واحدةٌ تغسلُ الحسرةَ التي هوَ فيها[1].

سِرُّ حذفِ متعلِّقِ الكَرَّةِ:

معلومٌ أنَّ كرَّةَ النَّفْسِ إنَّما تكونُ إلى الحياةِ الدُّنْيا

لاسْمِ ﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ﴾ متعلِّقٌ محذوفٌ، تقديرُه: (لو أنَّ لي كرَّةً إلى الحياةِ الدُّنْيا)[2]، أي: إلى زمانٍ ما قبلَ مجيءِ العذابِ، وإنَّما حذِفَ لإظهارِ حالِ النَّفْسِ الكافِرَةِ القائلةِ؛ بيانًا لضيقِ المقامِ التي هي فيه؛ لإتيانِ العذابِ إيّاها بغتةً، معَ كمالِ إحساسِها بالضَّياعِ، وعدمِ إمكانِ الرُّجوعِ إلى الحياةِ الدُّنيا، فلم تستطِعْ أنْ تنطِقَ بذِكْرِها.

معنى الفاء ودلالة التَّعبير بها:

الكَرَّةُ التي تتمنّاها النَّفْسُ في بصيرتِها كرَّةٌ عظيمةٌ؛ لأنَّها تُنْتِجُ الإحسانَ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَأَكُونَ﴾: عاطفةٌ لفعلِ الكونِ: (أكون) على ﴿كَرَّةٗ﴾ فإنَّها مصدرٌ، فعُطِفَ مصدرٌ مؤوَّلٌ على مصدرٍ مُصَرَّحٍ به[3]، ويجوزُ أنْ تكونَ الفاءُ للسَّببيَّةِ، و(أكون) فعلٌ مضارعٌ منصوبٌ بأن مضمرةً بعدَ فاءِ السَّببيَّةِ الواقعةِ جوابًا للتَّمنّي المفهوم مِن قوله تعالى: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ﴾، والفرقُ بينَ الوجهَيْنِ: أنَّه على الأوَّلِ يكونُ

---

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 375.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 47.

(3) السمين، الدرُّ المصون: 9/ 436.

الكونُ فيه مِن جملةِ المُتمَنَّى، وعلى الثّاني يكونُ الكونُ فيه مترتِّبًا على حصولِ المُتمنَّى، لا مُتَمَنًّى، وعطْفُه على الجوابِ أَوْفَقُ لبقيَّة الآياتِ التي مِن سِلْكِه[1]، والفاءُ على الوجهَيْن تدلُّ على كمالِ الرَّغبةِ في الكونِ مِن المحسنينَ، وللإبلاغ في التَّذَلُّلِ والاستعطافِ؛ لطلبِ التَّخْفيفِ والنَّجاة.

علّة التَّعبير بالكون المضارع:

المضارعة دالَّة على تجدُّد الإحسان وتكرُّره، لو تحقَّقت أمنيتهم

كان مِن الممكن أنْ تقولَ النَّفْسُ: (لو أن لي كرة فأحسن)، ولكنَّها عبَّرتْ بمادَّة الكونِ ﴿فَأَكُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ الكَرَّةَ يترتَّبُ عليها ملازمةُ الاتِّصافِ بالإحسانِ بحيثُ يكونُ الإحسانُ مِن طَبْعِ هذه النَّفْسِ، ومِن دَيْدنِها، لا مجرَّدَ الاتِّصافِ بالإحسانِ، ومِن دلائلِ ذلكَ في بصيرةِ هذه النَّفْسِ تكرارُ ما يدلُّ على الإحسانِ منها، فالمضارعُ: (أكون) يُنظر التَّجدُّدُ فيه إلى تكرارِ عملِ الإحسانِ، وكثرتِه، واستمرارِه؛ فكأنَّ مادَّةَ الكون تشيرُ إلى دَعْوى للنَّفْسِ، وكأنَّ المضارعةَ تشيرُ إلى برهانِها، وبابُ ذلك كلِّه الكرَّةُ إلى الحياةِ الدُّنْيا.

سِرُّ العدول عن الإفراد إلى الجمع:

تُبالِغُ النَّفْسُ في دَعْواها؛ لعلَّ اللهَ يعفو عنها

كان الظّاهرُ أنْ تقولَ النَّفْسُ الكافرةُ: (فأكون محسنةً)، أو (فأكون محسنًا)؛ بنظْم خبرِ الكونِ - الذي هو وصفٌ في المعنى لاسْم الكون ضميرِ النَّفْسِ - مفردًا، ولكنَّها عدلَتْ عن ذلك إلى الجمعِ المُذكَّر؛ لتُحقِّقَ قصْدَ الإبلاغِ فيما يترتَّبُ على الكرَّةِ، مِن غايةِ الإقلاعِ عن سُبُلِ الإساءةِ ومظاهرِها، بما في العدولِ إلى المذكورِ مِن الدَّلالة على أنَّ النَّفْسَ تكونُ مِن المعروفينَ بصفةِ الإحسانِ العليَّة، المشهورينَ بها، البالغينَ فيها أعلى ما يُمكن مِن رُتَبِها ومُسْتَوَياتِها؛ إبلاغًا في دَعْواها، على عادةِ المُترقِّقينَ في وقتِ الشَّدائدِ؛ لعلَّهم يُعادون إلى أجملِ العوائدِ[2].

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 528، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 464.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 539.

دلالةُ (ال) في ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

النَّفسُ الكافِرَةُ تتمنَّى أنْ تكونَ مِن أهلِ الصِّدقِ والتَّصْديقِ

(ال) في قولِه تعالى: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ يجوزُ حَمْلُها على الجنس، أي: جنسِ أهلِ الإحسانِ، الذين أحسَنوا إلى أنفسهم بأنِ اتَّبعوا أحسنَ ما أُنزِل إليهم مِن ربِّهِم، وأنابوا إليه، وأسلموا له مِن قبلِ أنْ يأتيَهُم العذابُ بغتةً، وحَمْلُها على العَهْدِ الذِّهْنيِّ، أي: فأكونَ مِن المحسنينَ المعهودة أوصافهم بالإسلامِ وعمل الصالحات.

دلالةُ الوصف بـ ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

كانَت هذه النَّفْسُ عريقةً في بابِ الإساءةِ قبلَ العذاب

قالَتْ هذه النَّفْسُ الكافرةُ: ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ولم تقل: (فأكون من الذين أحسنوا أو يُحسنون)، فجعلتِ الإحسانَ صفةً لها، لا فعلًا مِن أفعالِها، والفعلُ قد ينقطعُ، وأمّا الصفةُ المدلولُ عليها بالاسم؛ فلا، فدلَّ قولُه تعالى: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ على لسانِ النَّفْسِ، على معنى أنَّها إنْ رجَعَتْ إلى الحياةِ الدُّنْيا؛ ستكونُ مِن العالينَ في مقامِ الإحسانِ؛ لرسوخِ الإحسانِ وعَراقَتِه فيها؛ مبالغةً في بيانِ الرُّجوعِ عن الإساءةِ إلى الإحسانِ؛ ليرفع اللّٰه عنها العذابَ الشَّديدَ.

سِرُّ حذفِ متعلّقِ: ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾:

عمومُ المُتعلّقِ مِن وجوهِ الإبلاغِ عندَ اشتدادِ البلاءِ لرفعِهِ أو تخفيفه

لخبرِ الكونِ المضارعِ في قوله تعالى: ﴿فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾ متعلِّقٌ محذوفٌ، تقديرُه: (فأكون مِن المحسنين في العقيدةِ والعمل)[1]، وغرضُ الحَذْفِ إفادةُ عُمومِ المَحْذوفِ، أي: المُحْسِنينَ في كلِّ شيء، فتكونُ هذه النَّفْسُ مُحْسِنةً إلى نفسها، بتصديقِ الصِّدْقِ؛ إنْ جاءَها، ومُحْسِنةً إلى الذي يجيئُها بالصِّدْقِ الَّذي هو القرآنُ، ومُحْسِنةً إلى غيرِها مِن أهلِ الإيمانِ، وهَلُمَّ جرًّا.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 607.

﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ٥٩﴾ [الزمر: 59]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا حكَى القرآنُ الأقوالَ الثَّلاثةَ للنَّفْسِ المُصِرَّةِ على المعصيةِ والكُفْرِ والشِّرْكِ، وكانَ الثّالثُ مُشْعِرًا بأنَّه آخِرُ ما تقولُه النَّفْسُ في هذا السّياقِ، بتمنّي الرُّجوعِ إلى الحياةِ الدُّنْيا، وكانَ ثاني هذه الأقوالِ: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ مُقرِّرًا كذِبَها على اللهِ؛ لأنَّ معناه أنَّ اللهَ لم يهدِها، فلم تكن مِن المتقين، وكانَ للكذِبِ عليه - سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى - حضورٌ قويٌّ في حديثِ السّورةِ عن أهلِ الشِّرْكِ والكفرِ، كما في قوله تعالى: ﴿۞فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ [الزمر: 32]، شرَعَ القرآنُ في الجوابِ على ذلك الكذبِ في هذه الآيةِ.

لَمّا كانَ كذِبُ النَّفْسِ لافِتًا كالشُّبْهةِ؛ كانَ مِن البلاغةِ والحِكْمةِ الرَّدُّ عليهِ

❁ المَعنى الإجماليُّ:

تُقرِّرُ هذهِ الآيةُ الكريمةُ أنَّ هذه النَّفْسَ الكافرةَ قد جاءتها آياتُ اللهِ الكثيرةُ الدّالَّةُ على الألوهيَّة الحقَّةِ، والتي مِن شأنها أنْ تُقيمَ الحُجَّةَ عليها، فلم تأتِها آيةٌ واحدةٌ، بل آياتٌ، ولكنَّها كذَّبَتْ بها، ورفضَتْها بكُلّيَّتِها، واستكبرَتْ عليها، وعلى الرَّسولِ الذي جاءَ بها، فكانت مِن الرّاسخينَ في مقامِ الكفرِ، فاستحقَّتْ ذلك العذابَ.

في هذه الآيةِ جوابٌ على بعضِ المعاني المُضمَّنةِ في الأقوالِ السّابقةِ

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ تخصيصِ القولِ الثّاني للنَّفْسِ بالرَّدِّ:

هذه الآيةُ الكريمةُ: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ ردٌّ على قولِ النَّفْسِ في قوله تعالى على لسانِها: ﴿أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾، وإنَّما جاء الرَّدُّ على قولِها هذا خاصَّةً، فلم يأتِ ردٌّ على

الكَذِبُ على اللهِ شُبْهَةٌ لا ينبغي أنْ يُسْكَتَ عنها بحالٍ

قولِها قبلَه، ولا على قولِها بعدَه، وكان الرَّدُّ تكذيبًا لها في دَعْواها؛ لأنَّها وهي في هذا المقام الحرِج كذبت على اللّه، وكان حالُها كحال الذين قالوا: ﴿لَوۡلَآ أَرۡسَلۡتَ إِلَيۡنَا رَسُولٗا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ﴾ [القصص: 47]، أو الذين أقسموا لو جاءهم رسولٌ؛ ليكوننَّ أهدى مِن إحدى الأمم، وقد أرسل اللّهُ رسلَه، وأنزل كتبَه، وجاءتهم آياته؛ لكي لا يكون لأحدٍ على اللّه حُجَّةٌ، وهذه النَّفْسُ الآن تكذب، وتتجاوز هذا كلَّه، ولكَ أنْ تعدَّ قولَها: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ مِمّا كذبوا فيه على أنفسِهم، وهم يعلمون أنَّهم يكذبون[1].

بلاغةُ موقِعِ الآيةِ:

عـدمُ اقـترانِ الجوابِ بما هوَ جـوابٌ لـهُ هو الأبَـرُّ بكَشْفِ حالِ النَّفْسِ في سياقِها

إذا كانتْ هذهِ الآيةُ: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي﴾ ردًّا على قولِ النَّفْسِ: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾؛ لأنَّ معناه: ما هُديتُ، فلم أكُ مِن المتقين، فلماذا لم تجئ بعدَ آيةِ هذا القولِ، فتفصل بينَ القولِ الثّاني والقولِ الثّالثِ؟ أو لماذا لم يكُن هذا القولُ الثّاني في النَّظْمِ القرآنيِّ القولَ الثّالثَ؟ لأنَّ الظّاهرَ أنْ يُقرَنَ الجوابُ بما هو جوابٌ له.

وجوابُ السُّؤالِ الأوَّلِ: أنَّ الفَصْلَ بينَ القولَيْنِ الثّاني والثّالثِ بجوابِ الثّاني فيه تَبْتيرُ النَّظْمِ بالجَمْعِ بينَ القرائنِ، ووجهُ ذلكَ: أنَّ الآياتِ الثَّلاثَ التي هيَ مقالةُ النَّفْسِ، كأنَّها نَفْثةُ مَصْدور، فنفثها مُتلاحقة، فلا يُعْزَلُ بعضُها عن بعضٍ بمُداخَلةِ الرَّدِّ، مهما كان جوابُه؛ لأنَّ المطلوبَ أنْ تَسْترْسِلَ النَّفْسُ في هذا المقامِ الصَّعْبِ، وهذا الموقفِ الصَّعْبِ، وأنْ تُحدِّثَ بما تجِدُهُ وبما تراهُ أفْضَى بها إلى هذا الموقفِ الصَّعْبِ مِن غيرِ حَبْسِه.

وجوابُ السُّؤالِ الثّاني: أنَّ القرآنَ لم يجعَل قولَ النَّفْسِ: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ الثّالثَ في التَّرتيبِ؛ لِما في ذلك مِن

---

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 367.

نَقْضِ التَّرتيبِ، وهو التَّحسُّرُ على التَّفريطِ في الطّاعةِ، فهذا إقرارٌ بالخطأ، وإدانةٌ للنَّفْسِ، ثم جالَ في النَّفْس معنًى آخَرُ، وهو التَّعلُّلُ بفَقْدِ الهدايةِ، فقد خُذِلتْ، ولم يُصِبْها توفيقُ اللّه وهُداه، ولم يَبْقَ بعدَ ذلك إلّا تمنّي الكرَّة؛ لتكونَ مِن الصّالحين، وثمَّة جوابٌ ثانٍ، وهو أنَّ القولَ الثّالثَ معناه واضِحٌ في أنَّه النِّهاية؛ لأنَّ تمنّيَ الكرَّة هو آخِرُ المعاني، وليس مِن المقبول أنْ تتمنَّى النَّفْسُ الكرَّةَ؛ لتكونَ مِن المحسنينَ، ثمَّ تقول: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾[1].

سِرُّ فصلِ الآيةِ عمّا قبلها:

هذه الآيةُ من تمامِ ما قبلَها

هذه الآيةُ: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي﴾: مُصدَّرةٌ بكلمة: ﴿بَلَىٰ﴾، وهيَ حرفُ جوابٍ، مُخْتصٌّ بالنَّفي، فلا يقَعُ إلّا بعد نفيٍ في اللَّفظ، أو في المعنى - كما هنا - ففُصِلَتْ عمّا قبلَها كما يُفْصَلُ الجوابُ عن السُّؤالِ، وإنْ لم يكُن السّابقُ هنا سؤالًا؛ لأنَّه يُشْبِه السُّؤالَ، ثم إنَّ في: ﴿بَلَىٰ﴾ تقريرًا وتوكيدًا لِما ترجِعُ إليه، وتتعلَّقُ به، فكان بينهما ما يكونُ بين الجملتَيْنِ اللَّتَيْنِ لا محلَّ لهما مِن الإعرابِ مِن كمالِ الاتِّصال[2].

بلاغةُ موقع: ﴿بَلَىٰ﴾:

هدايةُ اللهِ متحقِّقة لجميع خلقه

كلمة: ﴿بَلَىٰ﴾ حرفٌ لإبطال منفيٍّ، أو فيه رائحةُ النَّفْي؛ لقصد إثبات ما نُفِيَ قبلَه، فتعيَّنَ أنْ تكون هنا جوابًا لقول النَّفْسِ: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾؛ لِما تقتضيه: ﴿لَوۡ﴾ التي استُعملت للتَّمنّي مِن انتفاء ما تمنّاه، وهو أنْ يكون اللّه هداهُ؛ ليكونَ مِن المتقين، أي: لم يهدِني اللّه، فلم أتَّقِ، فالآيةُ رَدٌّ ظاهرٌ على قولِ النَّفْسِ: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾؛ لأنَّ المقصودَ بالهداية مجيءُ البرهان والدَّليل والحُجَّة، وقد جاء ذلك في آيات اللّه وكُتُبه ورسلِه، وهذه

(1) الزمخشري، الكشاف: 13/ 416 - 419، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 374 - 376.

(2) المرادي، الجنى الداني، ص: 420 - 421.

النَّفْسُ التي قالت: ﴿لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى﴾ نفسٌ غابَتْ عن المَشْهد الذي جعَل اللّه في كلِّ شيءٍ فيه آية[1].

سِرُّ فَصْلِ جملة ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾:

تفصيلُ الرَّدِّ على كـذِب النَّفْسِ - وهـي تتلقّاه في الدُّنيا - عظيمُ إحْسانٍ إليها

فصَل القرآنُ جملة: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ عن كلمة ﴿بَلَىٰ﴾؛ لأنَّها تفصيلٌ للإبطالِ، وبيانٌ له، وهو مِثْلُ الجواب بالتَّسليم بعدَ المنع، أي: هداك اللّه[2]، وكلمة ﴿بَلَىٰ﴾ تمهيدٌ لهذا التَّفصيل، وتهيئةٌ له، وهذا التَّفصيلُ تحقيقٌ وتوكيدٌ لِما تفيدُه ﴿بَلَىٰ﴾ راجعةً إلى القولِ الثّاني للنَّفْسِ.

بلاغةُ التَّوكيد:

الـجـــواب مع التَّأكيد يتناسب مع القول والمقام

حقَّقَ القرآنُ مجيءَ الآياتِ، وأكَّدَه بإدخال كلمة: ﴿قَدْ﴾ على فِعْلِ المجيءِ المنظوم ماضيًا: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ﴾؛ حتَّى يبالِغَ في تأكيدِ مجيءِ الآياتِ بـ(إنَّ) و﴿قَدْ﴾ وتقديم المسند إليه على الخبر الفِعْليِّ، وذلك لأنَّ القرآنَ قابل كذِبَ النَّفْسِ الكافرةِ الذي يعني: إنكارَها مجيءَ آياتِ اللّه التي تدلُّها على الحقِّ، فأكَّد لها المجيءَ على الجملة، وراعَى أنَّ الحقائقَ قد انكشَفَتْ لها، فقد كُشِف الغطاءُ عنها، وأبصرتِ النَّفْسُ أنَّ الآياتِ آياتُ اللّهِ، وأنَّها الآياتُ التي قد جاءَتْها، ولكنَّها غفلَتْ عنها، فلم يَعُد لكذِبها ولا لإنكارِها قيمةٌ؛ فلأجل ذلك لم يُكثِر القرآنُ من عناصر التَّوكيد.

بلاغةُ المجازِ في قوله: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾:

حـجـجُ الـلـه تعالى قامت على جميع خلقه

يجوزُ أنْ يكون إسنادُ المجيءِ إلى الآياتِ في قوله تعالى: ﴿قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَٰتِى﴾ دالًّا على تشبيهِ الآياتِ بمَن يكونُ منه المجيء، وهو الإنسانُ، على سبيلِ الاستعارةِ المكنيَّةِ التَّخْييليَّةِ، كأنَّ الآياتِ أنفسَها رسلُ اللّهِ إلى النّاسِ؛ إبلاغًا في تقريرِ بلوغِها إيّاهُم، ويجوزُ أنْ يكونَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 48، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 372.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 48، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 372.

المجيءُ استعارةً تصريحيَّةً تبعيَّةً للبلوغ، فمجيء الآياتِ إليه: بلوغُها إيّاهُ، وسماعُه إيّاها، وفَهْمُه إيّاها، والقرآنُ الذي اشتمل على هذه الآياتِ قد نزَل بلسانِ العربِ المخاطبينَ هنا في المقام الأوَّل؛ بحيثُ لا يُعْرِضُ عن هذه الآياتِ إلّا المُستكبرُ الذي يتَّبِعُ هواهُ، ويُؤثِرُ اتِّباعَ الشَّهوة والباطلِ على اتِّباع الإنصافِ والحقِّ، ووجهُ أبلغيَّةِ المجيء وأفضليَّتِه على البلوغ والسَّماع دلالتُه على كمال بلوغ الآياتِ إيّاهُم؛ مشاهدةً وسماعًا وتلقّيًا وفَهْمًا، فقد تمكَّن كلُّ فردٍ مِن سماع الحقِّ وتلقّيه، فكان تكذيبُه واستكبارُه وكفرُه عن علم لا عن جهل، فقد قامت الحُجَّةُ عليه.

علَّة التَّعبير بالمجيء مادَّةً وصيغةً:

كان مجيءُ الآياتِ ظاهِرًا وواضِحًا جِدًّا

إذا كان أهلُ اللُّغة قد قرَّروا أنَّ الإتيانَ مجيءٌ بسهولةٍ، وأنَّه قد يُقال باعتبار القَصْد؛ وإنْ لم يكُن منه الحصولُ، وأنَّ المجيءَ عكسُه، ففيه صعوبةٌ، ويُقال اعتبارًا بالحصولِ[1]؛ فإنَّ قَصْدَ الدَّلالةِ على خطَرِ إتيانِ الآياتِ - الَّتي فيها سيما الخطابِ السماويِّ الحقِّ - وشرفَهُ وعظمتَهُ؛ إذ بالآيات سعادةُ الدّاريْنِ، وعلى نَفاذِ مجيئها إنَّما يكون بالتَّعبيرِ بالمجيء دونَ الإتيانِ، ولمّا كان سياقُ الكلامِ للرَّدِّ على الكذِبِ والإنكارِ في حالِ العذابِ بعدَ زوال فرصةِ العمل في الحياة الدُّنْيا، فكان الغرضُ إثباتَ المجيء في زمان ما قبل العذابِ؛ نُظِم المجيءُ فِعْلًا ماضيًا.

دلالة تسلُّطِ المجيء على ضمير المخاطَب:

الإبلاغُ في إقامة الحُجَّةِ على المُكذِّبِ الكافرِ إبلاغٌ في تعذيبه

كان مِن الممكن أن يقول القرآنُ: (قد جاءت آياتي، فكذَّبت بها)، بإسناد المجيء إلى الآيات، دونَ تسليطه على ضميرِ المخاطَب، بقرينة قوله: ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ ولكنَّ القرآنَ سلَّطَ المجيءَ على ضميرِ المُخاطَبِ الكافرِ الكاذِبِ المُكذِّبِ

(1) الراغب، المفردات: (جاء).

المُنكِر؛ للنَّصِّ على وصولِ الآياتِ إليه، وعرْضِها عليه؛ كأنَّ الآياتِ تقصدُ كلَّ فردٍ على حدةٍ، وأنَّ الآياتِ كأنَّها جاءَت تُعالِجُه هو، وتهديه هو، وترعاه هو، وتدخلُ في شكِّه وريْبِه وظُلْمتِه هو، وهذا إبلاغٌ في الرَّدِّ، تبقَى معه كلُّ حسرةٍ تُحيط بهذا الكافر.

بلاغة الالتفات في قوله: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكَ﴾:

في الالتفات إيقاظٌ لنَفْسِ المُتلقِّي؛ فيتمكَّنُ المعنَى في نفسِه

في الآياتِ السّابقةِ كان الحديثُ عن النَّفْسِ الكافرةِ بطريقِ الغَيْبةِ: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ﴾ [الزمر: 56] - ﴿أَوۡ تَقُولَ لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾ - ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ﴾، وفي هذهِ الآيةِ انتقَل الأسلوبُ إلى طريقِ الخطابِ: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكَ﴾ ﴿فَكَذَّبۡتَ﴾ ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ ﴿وَكُنتَ﴾؛ لأنَّ المواجهةَ أبلَغُ في الرَّدِّ وتكذيبِ الكذبِ، وأدلُّ على الغضَبِ.

علَّة التَّعبير بالآية:

الآياتُ مِن شأنِها أنْ تعرِضَ عليهم الحقَّ والهُدَى؛ ليتثبَّتوا مِن ذلك فيها

جعَل القرآنُ فاعلَ المجيءِ الآياتِ، وهي جمعُ آية، وفي الإتيان بها - دونَ التَّعبير بلفظ القرآنِ أو وصفٍ مِن أوصافِه كالهُدَى ونحوه - إشارةٌ إلى أنَّ أهل الكفرِ قد علِموا الحَقَّ والهُدَى مِن هذه الآياتِ، فهي الجهةُ التي توصِّلُ إلى اللّه، وتدلُّ على اللّه، ويقوَى هذا المعنى بإضافتها إلى ضميرِ الجلالة.

دلالةُ جمع المؤنَّث السالم:

إذا كثُرت الآياتُ الدّالَّةُ؛ كان المُستدَلُّ عليه عظيمًا

لم يجعلِ القرآنُ فاعلَ المجيءِ آيةً واحدةً، بل جعلَه آياتٍ في قولِه تعالى: ﴿جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي﴾؛ للدَّلالةِ على إحاطةِ معاني هذه الآياتِ بأحوالِهم، وعلى تعاضُدِ وتناصُرِ أكثرَ مِن آيةٍ على حقيقةِ التَّوحيدِ، وذلك أبلغُ في الرَّدِّ على كذِب النَّفْسِ الكافِرةِ في ادِّعائِها عدمَ هداية اللّه إيّاها إلى الحقِّ.

دلالةُ الإضافة في قوله: ﴿ءَايَٰتِي﴾:

جاءت الإضافة إشارةً إلى كمالِ ظهورِ التَّوحيدِ والألوهيَّةِ الحَقَّةِ في هذهِ الآياتِ التي تدلُّ على وحدانيَّة اللّه تعالى.

معنى الفاء، ودلالة التَّعبير بها:

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبۡتَ﴾ تُسبِّبُ، وتُرتِّبُ، وتعطفُ: (كذَّبت) على: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي﴾ بلا مهلة، وهذا فيه إشارةٌ إلى الحماقة والإصرار والعناد؛ لأنَّ شأن العاقل إذا جاءَتْهُ الآياتُ أنْ يتريَّثَ، ويدرس، ويراجع، ويتدبَّر، ويتأمَّلُ، ولا يُبادِر بالتَّكذيب، وفيه تكذيبٌ لقولهم: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾؛ لأنَّ المعنى: أنَّني هديْتُك بآياتي وحُجَّتي وسُلطاني، ولكنَّك لم تهتدِ، وبادرتَ بالتَّكذيبِ[1].

الـفـاءُ رتَّـبَـتْ وعطفت وسبَّبت

علَّةُ التَّعبير بالتَّكذيبِ مادَّةً وصيغةً:

جعَل القرآنُ المُرتَّبَ على مجيء الآياتِ التَّكْذيبَ بها؛ لأنَّ هذه الآياتِ هي آياتُ القرآنِ العظيم، وهذا القرآنُ هو الصِّدْقُ المُكذَّبُ به في قوله تعالى في سياقِ السِّباقِ البعيدِ: ﴿۞فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدۡقِ إِذۡ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾ [الزمر: 32]، وهذا مِمّا تأسَّسَتْ عليه السّورةُ في الحديثِ عن العاصينَ المخالِفينَ فيها الذين تدعوهم السّورةُ إلى مقصودها الأعظم، في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾ [الزمر: 2 - 3]، ونظَم القرآنُ التَّكذيبَ فعلًا ماضيًا؛ لأنَّه مِن وصف حالِ النَّفْسِ الكافرةِ القائلةِ كذبًا على اللّٰه: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾؛ مِن وصفِ حالها في زمانِ ما قبل زمانِ إتيانِ العذابِ.

الــكــذبُ والتَّكذيبُ ضِدُّ إخلاصِ العبادةِ لله وحده

دلالةُ تعدّي التَّكذيبِ بواسطةٍ:

عدَّى القرآنُ تكذيبَ الكافرِ إلى آياتِ اللّٰه تعالى بحرفِ الباءِ، وفِعْلُ التَّكذيبِ يتعدَّى بنفْسِه، كما في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُواْ رُسُلِيۖ﴾

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 372 - 373.

[سبأ: 45]. وقولِه سبحانه: ﴿فَكَذَّبُواْ عَبۡدَنَا﴾ [القمر: 9]، وفي التَّعدّي بواسطةٍ إشارةٌ إلى أنَّ هذه الآياتِ من شأنِها ألّا تُرفَض، وتُردَّ، فليس مِثْلُها يُكذَّبُ، ويَتسلَّطُ عليه التَّكذيبُ؛ حتّى إنَّ القرآنَ لم يُسلِّط عليها التَّكذيبَ مباشرةً، وإنَّما تسلَّطَ عليها بواسطةٍ، ولكنَّ القوم تجرَّؤوا على اللّٰه غيرَ مُبالين بعواقب ذلكَ.

أهلُ الكفر من شأنهم أنْ يتجرَّؤوا على آيات الله بتكذيبها

معنى الباء، ودلالة التَّعبير بها:

حرفُ الباءِ لا يُفارِقُه معنى الإلصاق والاختلاطِ، فيدلُّ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبۡتَ بِهَا﴾ على أنَّ التَّكذيبَ قد كان منهم، وهم مُتلبِّسون بالآيات، وهم يعلمون، ويعرفون أنَّها آياتُ اللّٰه الذي خلَق السَّماوات والأرض، فتكذيبُهم قد كان عن عِلْمٍ لا عن جَهْلٍ، فقد كان رفْضًا وإنكارًا وانصرافًا عن الحقِّ بعدَ ما تبيَّنَ، وتدلُّ أيضًا على أنَّ التَّكذيبَ قد أحاطَ بالآياتِ، وأنَّه كأنَّه مُؤسَّسٌ على بُغْضِ هذه الآياتِ، وعدمِ قَبولِها بالكُلّيَّةِ، وهذا يعني تعمُّدَ تكذيبِ الآياتِ والجرأة عليها.

الباءُ تكشفُ عن موقعِ الآيات في نفوس أهل الكفر

بلاغةُ الوَصْلِ بالواو:

قولُه سبحانه: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾ معطوفٌ بالواوِ على قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبۡتَ﴾، فهو داخلٌ معَه في التَّرتيبِ بلا مهلةٍ، والواوُ تفيدُ مُجرَّدَ الجَمْعِ مِن غيرِ إشارةِ ترتيب، وهذا يعني: أنَّه يُمكن أنْ يكون كذَّبَ، واستكبَر، ومُمكنٌ أنْ يكون استكبر، وكذَّب، وأنَّ هذا الاحتمالَ يجعلُ الكلمةَ مُصوِّرةً لأنفُسٍ كثيرةٍ، فمِن النّاسِ مَن دعاهُ استكبارُه إلى التَّكذيبِ، فاستكبَر، وكذَّب، ومنهم مَن بادَر بالتَّكذيب، وأعانَه عليه كِبْرٌ في صدْرِه[1]، والجملتانِ المُتعاطفتانِ كلٌّ منهما خبريَّةٌ في اللَّفظ والمعنى، والمسندُ إليهِ فيهما واحدٌ، وزمنُ الفعلين فيهما واحدٌ، فكلُّ ذلك ممّا حسَّن الوصل بينهما.

الكذِبُ والاستكبارُ قرينانِ

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتها بآل حم، ص: 373.

علَّةُ التَّعبيرِ بالاستكبار مادَّةً وصيغةً:

مُخْلِصُ العبادةِ للـه لـيـس في قلبِهِ مِثقالُ ذَرَّةٍ مِن كِبْرٍ

الاستكبارُ هو الامتناعُ عن قَبولِ الحقِّ مُعانَدةً وتكبُّرًا، والكِبْرُ هنا هو كِبْرُ الكُفْرِ والشِّرْكِ، والكِبْرُ بطرُ الحقِّ[1]، فهُم يعرفون أنَّ اللّٰه هو الإلهُ الحقُّ، ويُقِرّون بأنَّه خالقُ السَّماوات والأرض، ولكنَّهم اتَّخذوا مِن دونه أولياء يعبدونهم؛ ليقرِّبوهم إلى اللّٰه زلفى، كما في أوَّلِ السّورة، فهذا الكِبْرُ هو الذي منعَهُم مِن إخلاصِ العبادةِ للّٰه ربِّ العالمينَ؛ لذلك اقترَن بالتَّكذيب، وقد كان مانعًا قويًّا شديدًا؛ لأنَّهم كأنَّهم طلبوه، وأوجدوه، على ما تدلُّ عليه صيغةُ الاستفعالِ، وقال البقاعيُّ: "﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾، أي: عدَدْتَ نفسَكَ كبيرًا عن قَبولِها"[2].

علَّة التَّعبير بالكَوْنِ الماضي:

التَّـكـذيـبُ والاسـتـكـبـارُ رذيلتانِ عظيمتا الأثـــرِ خطيرتا النتيجة

كان الظّاهرُ أن يُقالَ: (فكذَّبت بها، واستكبرت، وكفرت)؛ ليتَّسِق البيانُ عن كفره مع البيان عن تكذيبه واستكبارِه؛ ولكنَّ نظْمَ الكفرِ فعلًا لا يُبِينُ عن حقيقةِ كُفْرِ المُحدَّثِ عنه، وإنّما يُبِينُ عنه ما عليهِ التَّنْزيلُ، ومنه التَّعبيرُ بمادَّةِ الكَوْنِ الَّتي تدلُّ على أنَّ تكذيبَ المُحدَّثِ عنه واستكبارَه نتج عنهما أنْ كان الكُفْرُ مِن طَبْعِهِ ودَيْدَنِه وشأنِه وجزءًا من ماهيَّتِه، كأنَّه جِبِلَّةٌ له؛ لشِدَّة توغُّله فيهما، وحرصِه عليهما؛ لأنَّ كلمة: (كان) في مِثْلِ هذا الموقع تدلُّ على أنَّ خبرَها جزءٌ مِن ماهيَّتِها، ووراء هذا إشارةٌ إلى معنًى جليلٍ، وهو أنَّ حقيقةَ الكفر يُفْضِي إليها رذيلتانِ، هما: المسارعةُ بالتَّكذيب مِن غير تدبُّر، والاستعلاءُ والتَّكبُّرُ الذي يَحول دون التَّدبُّر والتَّبصُّر والتَّعقُّل، وحيثما رأيتَ الكفرَ، فاعلم أنَّ وراءَه رذيلةَ الاستعلاءِ الَّتي تُصيب القلبَ بالعَمَه، ورذيلةَ المسارعة إلى التَّكذيب التي تخطفُ الحقيقة مِن تحتِ نور العقل، وتَذْهب بها

(1) ابن منظور، لسان العرب: (كبر).

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 464.

بعيدًا، فيكْذِب المُكذِّبُ مِن غير تعقُّلٍ، ويُكذِّب بالصِّدق، ويكون بذلك مِن أظلمِ الظّالمين(1).

سِرُّ العُدول عن الإفراد إلى الجَمْع:

العــدولُ إلى خـلافِ الأصـلِ تصويرٌ لحقيقة كفرِهِم وأصلِه

آثرَ القرآنُ نظم صفةِ الكفرِ جَمْعًا: ﴿مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فـ﴿مِنَ﴾ للتَّبْعيض، أي: وكنتَ بعضَ الكافرينَ، وإيثارُ الجمعِ - دون الإفراد - أشدُّ دلالةً على الاتِّصافِ بالكُفْرِ مِنَ الأصلِ، فقد صارَ واحدًا مِن المَشْهورينَ بالكُفْر، العريقينَ فيه، الذين الكفرُ دأْبُهُم وعادتُهُم، وهذا يعني: أنَّ المُحدَّثَ عنه سارَ على دُروبِهِم، وأنَّه سيكون واحدًا منهم في الآخرةِ أيضًا.

علَّةُ التَّعبير بوصف الكُفْر:

الكـفرُ مُسبَّبٌ حتْميٌّ للتَّكذيبِ بــالآيـــات، والاستكبار عنها

كانَتْ نتيجةُ التَّكذيبِ والاستكبارِ الاتِّصافَ بالكُفْرِ؛ لأنَّ الكُفْرَ سَتْرُ الحقِّ الذي قامَتْ على إثباتِه الدَّلائلُ بسَتْرِ هذه الدَّلائلِ وتغطيتِها، فهو الأشكلُ والألصقُ بذلك التَّكذيبِ، والاستكبارُ علَّةٌ للتَّكذيبِ، وهذا راجعٌ إلى اقترانِ الكذبِ والكُفْرِ في أوَّل السّورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾ [الزمر: 3]، وعلى كلٍّ فالكفرُ هو وصفٌ لما آلَ إليه التَّكذيبُ والاستكبارُ.

بلاغة (ال):

أهلُ الكُفْرِ جِنْسٌ وحْدَهُ

نظَم القرآنُ خبرَ الكونِ مُعرَّفًا بـ(ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وهذا وصفُ القرآن لهم، وذلك في وقتِ إتيانِهم العذابَ، فالأَوْلى الحَمْلُ على الجِنْسِ، أي: وكنتَ مِن جِنْسِ الكافرينَ الذي عُرِف بالكُفْر وشُهِر به(2)، وهذا يعني: أنَّه صارَ على طريقةِ هذا الجِنْسِ، وسلَكَ مَسْلَكَهُ، فلَمّا كان واحدًا منهم في الحياة الدُّنْيا عقيدةً وعملًا؛ كان واحدًا منهم في الآخرة جزاءً وعقابًا.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 465، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 373 - 374.
(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 373.

سِرُّ حذف مُتعلّق ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

هؤلاءِ الكافرونَ كفَروا بكلِّ أجزاءِ الإيمانِ

قوله تعالى: ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾: جمعُ كافرٍ اسمُ فاعلٍ، ومتعلِّقُه محذوفٌ، أي: وكنتَ مِن الكافرينَ بالآياتِ، أو الكافرينَ باللّهِ، وفي الحذفِ معنى عموم المُتعلِّق؛ تصويرًا لكمال رفضهم للتَّوحيد والإيمانِ، فهُم كفَروا بكلِّ شيءٍ يتعلَّقُ بالصِّدق؛ لَمّا جاءَهُم، وكذَّبوا بكلِّ شيءٍ في الآياتِ، فهذا الحذفُ مُؤسَّسٌ على تعدّي التَّكذيبِ بالباءِ إلى آياتِ اللّهِ.

بلاغة اللَّفِّ والنَّشْرِ:

مع تشويش النَّشْرِ تلتفت نفسُ المُتلقّي، فيتمكَّن المعنى فيها بقوَّةٍ

ذهَب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ في هذهِ الآيةِ وأقوالِ النَفْسِ الثَّلاثة في الآياتِ الثَّلاث السّابقةِ أسلوبَ اللَّفِّ والنَّشْرِ، فقد قوبل كلامُ النَّفْسِ بجوابٍ يُقابِلُه على عددِ قرائنِه الثَّلاث، وذلك بقوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا﴾، وهذا مقابلُ: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾، ثم بقوله: ﴿وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ﴾، وهو مقابلُ قولِها: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 56]، أي: ليْسَتْ نِهايَةُ أمرِك التَّفريط، بل أعظمُ منه، وهو الاستكبارُ، ثمَّ بقوله: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، وهذا مقابلُ قول النَّفْسِ: ﴿لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، فهذه قرائنُ ثلاث، والمعنى: أنَّ اللّه هداكَ في الدُّنيا بالإرشاد بآيات القرآن، فقابلْتَ الإرشادَ بالتَّكذيب والاستكبارِ والكفرِ بها، فلا عُذْرَ لك، وكان الجوابُ على طريقةِ النَّشْرِ المُشوَّش بعدَ اللَّفِّ؛ رَعْيًا لمُقتضَى ذلك التَّشْويش، وهوَ أنْ يقَع ابتداءُ النَّشْر بإبْطالِ الأهَمِّ، ممّا اشتمَل عليه اللَّفُّ، وهو ما ساقوه على معنى التَّنصُّلِ والاعتذارِ، مِن قولِهم: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي﴾؛ لقَصْد المُبادَرة بإعلامهم بما يدحض معذرتهم، فقوبل بقوله تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا﴾، ثم عاد إلى إبطالِ قولهم: ﴿عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾، فأبْطَله بقوله: ﴿فَكَذَّبۡتَ بِهَا﴾، ثم أكمل بإبطال قولهم: ﴿لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، بقوله:

﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ولم يورِد القرآنُ جوابًا عن قولِ النَّفْسِ: ﴿وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦﴾ [الزمر: 56]؛ لأنَّه إقرارٌ، ولو لم يَسْلُك القرآنُ هذا الأسلوبَ في النَّشْر لهذا اللَّفِّ؛ لفاتَ التَّعْجيلُ بدحضِ المعذرةِ، ولفاتَتْ مقابلةُ القرائنِ الثَّلاثِ المُجاب عنها بقرائنِ أمثالِها؛ لِما علمتَ مِن أنَّ الإبطالَ روعيَ فيه قرائن ثلاث على وزن أقوال النَّفْسِ، وأنَّ ترتيبَ أقوالِ النَّفس كان جاريًا على التَّرْتيبِ الطَّبيعيِّ، فلو لم يُشَوَّش النَّشْرُ؛ لوجَب أنْ يُقتصَر فيه على أقل مِن عدد قرائنِ اللَّفِّ، فتفوت نكتةُ المقابلة الَّتي هيَ شأنُ الجدالِ، معَ ما فيه مِن التَّورُّك[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 48 - 49.

﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ ٦٠﴾ [الزمر: 60]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

تعمُّدُ الكذِبِ على اللهِ عندَ مَسِّ العذابِ يوجِبُ البَسْطَ في التَّرهيبِ منه

لَمّا بيَّن تعالى جوابَ كذبِ النَّفْسِ في قولها: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ في الآية السّابقة؛ بيَّن في هذه الآيةِ جزاءَ أهلِ الكُفْرِ الكاذِبينَ على اللّهِ المُكذِّبينَ لرسولِه وكتابِه، وعقابَهُم يومَ القيامةِ، مُحذِّرًا من حالِهم وحالِ أمثالِهم، حاصِرًا علَّةَ الكفرِ وعقابه في الكذِب والاستكبارِ كما في الآيةِ السّابقةِ، ويُلاحَظُ أنَّ مجيءَ الآياتِ والتَّكذيبَ بها والاستكبارَ عنها، والكونَ من الكافرين، إنَّما يكونُ في الحياةِ الدُّنيا قبلَ إتيانِ العذابِ، وأنَّ رؤية الذين كذبوا على اللّه وجوههم مسودَّة، وكونَ جهنَّم مثوى لهم؛ لتكبُّرِهم، إنَّما يكونُ في الحياة الآخرة، فبين مضمون الآيتَيْنِ تقابُلٌ من هذه الجهة، كما ترى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَثۡوٗى﴾: (ثوي) كلمةٌ صحيحةٌ تدلُّ على الإقامةِ، يُقال: ثَوَى، يَثْوي، فهو ثاوٍ، والثَّويَّة والثّايَةُ: مأوَى الغَنَم، والثَّويَّةُ: مكانٌ، وأُمُّ مَثْوَى الرَّجلِ: صاحبةُ منزلِه، والثَّواءُ الإقامةُ معَ الاستقرارِ، يُقال: ثَوَى يَثْوي ثَواءً، قال ﷻ: ﴿وَمَا كُنتَ ثَاوِيٗا فِيٓ أَهۡلِ مَدۡيَنَ﴾ [القصص: 45]، وقال: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾، والمقصود بالمثوى هنا: اسمُ مكانِ الثَّواء، وهو القرارُ، فالمَثْوَى المَقَرُّ[1].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (ثوى)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 7.

❁ المَعنى الإجماليُّ:

الكـاذِبـون على الله لهم سوءُ المصيرِ

تُقرِّرُ الآيةُ الكريمةُ جزاءَ الذين كذبوا على الله، والذين منهم مَن قالوا: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، وأنَّك إذا رأيتَهُم يومَ القيامةِ؛ أبصَرْتَ سوادًا في وجوهِهم يدلُّ على سوءِ مصيرِهم؛ لأنَّ يوم القيامة يومٌ تبيضُّ فيه وجوهٌ، وتسوَدُّ وجوهٌ، وأنَّ محلَّ إقامتهم الذي يكونون خالدين فيها أبدًا هو جهنَّمُ الّتي تُقابِلُهم بمِثْلِ ما قابَلوا به آياتِ الله مِن العبوسِ والتَّجهُّم.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الوَصْلِ بالواوِ:

هــذه الآيــة تُـقرِّرُ حـالَ أهلِ الكذبِ على الله والاستكبارِ على آياتِه في الآخرة

هذه الآيةُ: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى﴾ معطوفةٌ بالواو على إحدى الجمل المُتقدِّمة بعذابِ المشركينَ في الدُّنْيا والآخرة، والأَحْسَنُ أَنْ تكونَ معطوفةً على جملةِ: ﴿وَٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ سَيُصِيبُهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُواْ﴾ [الزمر: 51]، أي: في الدُّنيا، كما أصاب الذين من قبلهم، ويوم القيامة تسودُّ وجوههم(1)، ووجهُ الحُسْنِ التَّقابُلُ بينَ المُتعاطِفيْن، وبالتَّقابُلِ يتمُّ معنًى كلّيٌّ يتعلَّقُ بهؤلاءِ الكافرين، وحسَّن هذا العطف كذلك أنَّ كلًّا من الجملتَين خبرٌ في اللَّفظ والمعنى، وأنَّ كلًّا منهما حديثٌ عن جزاء أهل الكذب على الله، فقولُ الواحد منهم؛ إذا خوَّلَه اللهُ نعمةً منه: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمِۭ﴾ [الزمر: 49]، وهو كذبٌ على اللهِ.

علَّة التَّعبير بالقيامة:

مَن ضيَّعَ سَعَةَ رحـمـةِ الـلـهِ؛ أذْهَلَه عذابُه

عبَّر النَّظم الكريم باسم ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ دون اسمٍ آخَرَ مِن أسمائها المستعملة في القرآنِ؛ تناسُبًا مع البغتة في قوله تعالى في السياقِ القريب: ﴿مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ٥٥﴾ [الزمر: 55]؛ لأنَّ القيامةَ أصلُها ما يكونُ مِن الإنسان مِن القيامِ دُفْعةً

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 48.

واحدةً، أُدْخِل فيها الهاءُ؛ تنبيهًا على وُقوعِها دُفْعةً، والقيامةُ عبارةٌ عن قيامِ السّاعة المذكورِ في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ﴾ [الروم: 12]، وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطففين: 6]، وقوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ [الكهف: 36][1].

بلاغة التَّعريف بـ(ال):

يومُ القيامةِ يومٌ لا ينبغي أن يُغفل عنه

(ال) في قوله تعالى: ﴿ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ للعهد الذِّهْنيِّ، أي: اليوم الذي تقومُ فيه السّاعةُ، ويقومُ النّاسُ فيه لربِّهم فزِعينَ خائفينَ، فطالما ما يُخبِرُ القرآنُ عن أنَّ بعدَ الموتِ يومًا سيكونُ فيه جزاءُ النّاسِ على عقيدتهم وأعمالِهم في الحياة الدُّنْيا، وذلك بدءًا في أوَّلِ سورةٍ في القرآنِ أُمِّ الكتابِ وفاتحتِه، في قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: 4].

نكتة تقديم الظَّرف:

قدَّم القرآنُ ما فيه تخويف وتهديد

قدَّم القرآنُ الظَّرْفَ في قوله: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ على الفِعْلِ: ﴿تَرَى﴾، على خلافِ الأصلِ والظّاهرِ؛ زيادةً في الإنباء بتهويلِ المُقيَّد، وتشويقًا إلى ما يكونُ في هذا اليوم، فيتمكَّن المعنى الذي بعد القيد في النَّفْس خيرَ تمكُّنٍ، وللمُبادَرة بالإنباء بسوءِ حالِ المُحدَّثِ عنهم.

بلاغةُ العدول إلى خطاب النَّبيِّ ﷺ:

في خطابِ النَّبيِّ تصديقٌ وتمكينٌ له

في الآية السّابقةِ كان الخطابُ الإلهيُّ للكافِرِ الكاذِبِ على اللّهِ، وفي هذه الآيةِ انتقَل القرآنُ من خطابه إلى خطاب النَّبيِّ ﷺ في الفعل: ﴿تَرَى﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌۚ﴾، وهو الذي لا يَفْهَمُ غيرُه الخطابَ حقَّ فَهْمِه؛ تسليةً له ﷺ لأنَّه الذي جاءَ بالقرآنِ الصِّدْق، وهو الذي جاء بآياته، فقوبِل بالتَّكْذيبِ، في قوله تعالى: ﴿۞فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓۚ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ٣٢ وَٱلَّذِي

(1) الراغب، المفردات: (قوم).

﴿جَآءَ بِٱلصِّدۡقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ ٣٣﴾ [الزمر: 32 - 33]، وزيادةً في التَّخويفِ لغيرِه ﷺ وذهبَ بعضُ المفسِّرينَ إلى أنَّ الخطابَ في قولِه: ﴿تَرَى﴾ لغيرِ مُعيَّنٍ[1]، ووراءَهُ مِن المعنى أنَّ هؤلاءِ المُحدَّثَ عنهم سيُفضحون على الملأ يوم القيامة، وفي هذا كلُّ ترهيبٍ مِن الكفرِ والكذِب والكِبْر.

علَّةُ التَّعبير بالموصوليَّة:

هؤلاءِ الكافرون عنوانُهم الكذبُ على الله

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ اسمُ الموصولِ مفعولُ الفِعْل: ﴿تَرَى﴾، وهو موصولٌ خاصٌّ بجَمْعِ الذُّكورِ العقلاءِ، و﴿كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ صلتُه لا محلَّ لها مِن الإعرابِ، وإنَّما عُبِّر بالموصولِ ﴿ٱلَّذِينَ﴾؛ ليحقِّق وصفهم بالصِّلة في قولِه: ﴿كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ إشارةً إلى أنَّهم عُرِفوا، وشُهِروا في الحياة الدُّنيا بمضمون الصِّلةِ، وهو الكذب على اللّه تعالى، وفي هذا كلُّ ذمٍّ وتوبيخٍ لهم، وأنَّهم بهذه الصِّفة في الآخرةِ، وهذا عذابٌ آخرُ، هو عذابُ الفضيحة، بدليلِ قوله: ﴿تَرَى﴾، فنَظْمُه صلةً ألصقُ بمعنى: ﴿تَرَى﴾، وفيه أيضًا لَفْتٌ إلى معنى الصِّلة؛ لأنَّه بيانُ الموصولِ المُبهَم، وهو علَّةٌ في المعنى لِما بعدَه مِن قوله: ﴿وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾.

علَّة التَّعبير باسْمِ الجلالة:

هؤلاءِ كذبوا على مِلِك الملوكِ

عبَّر النَّظم الكريم باسم الجلالة في قوله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ للإشارةِ إلى شِدَّة قبحِ الاجتراءِ على اللّه بالكذبِ عليه، فهو المُتَّصف بجميع صفاتِ الكمال، وقد وصَفوه بما لا يليقُ به - وهو مُنزَّهٌ عنه - من أنَّه فعَل ما لا يليقُ بالحِكْمة، مِن التَّكليف معَ عدمِ البيان: ﴿لَوۡ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِي لَكُنتُ مِنَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، ومن ادِّعاءِ شريكٍ له، ومِن خلْق الخلْقِ يعدو بعضُهم على بعضٍ مِن غير حسابٍ يقَع فيه الإنصافُ بين الظّالم والمظلوم[2].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 465.

(2) البقاعي، نظم الدرر، ص: 465.

كانَ حالُ المُحدَّثِ عنهم في الدُّنيا الكَذِبَ على الله

بلاغةُ الجملةِ الحاليَّة:

قولُه تعالى: ﴿وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ مُكوَّنٌ مِن مبتدأٍ وخبرٍ، وموقِعُ الجملةِ حالٌ مِن: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّ الرُّؤيةَ هنا بصريَّةٌ، لا يَنْصِبُ فِعْلُها مفعولَيْنِ، ولا يلزمُ اقترانُ جملةِ الحالِ الاسميَّةِ بالواو[1]، وإنَّما غابتِ الواوُ هنا؛ للدَّلالةِ على التصاقِ الحالِ بصاحبِها، فما في الآيةِ بمنزلةِ: ويوم القيامة ترى الَّذين كذبوا على اللّٰه مسودَّةً وجوهُهُم، ونَظْمُ هذا المعنى: ﴿وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ حالًا: يُقوّي ذلك، ويُؤْنِسُ به، فإنَّ حال الإنسانِ ما يبرزُ للآخرين، وما يُرَى منه بقوَّةٍ، وما يدُلُّ على صاحبِه، ففيه تعظيمٌ "في الشَّناعة، بجَعْلِ ذلك أمارةً عليهم؛ ليَعْرِفَهم مَن يراهُم، بما كذبوا في الدُّنيا، فإنَّهم لم يستحيوا مِن الكَذِب المُخْزي"[2]، وفي هذا تنفيرٌ شديدٌ مِن الكذِب على اللّٰه؛ لأنَّه أبْشَعُ المعاصي وأقبحُ المُخالَفات.

أهلُ الكَذِبِ في الدُّنيا هم أهلُ الخِزْيِ والصَّغارِ في الآخِرة

علَّةُ التَّعبير بالوجوه مادَّةً وصيغَةً:

قولُه تعالى: ﴿وُجُوهُهُم﴾ جمعُ وجه، والوجهُ أشْرَفُ أعضاءِ الإنسانِ، فهو الموقِعُ الذي تجتمعُ فيه الحواسُّ، وبه يُعْرَفُ، وفيه يظهرُ حالُه، مِن الغضبِ والفرحِ، والصِّدقِ والكذِب، والتَّواضُعِ والكِبْرِ، وغيرِ ذلك، فهو ألصقُ بذِكْرِ الرُّؤيةِ البصريَّةِ، في قوله تعالى: ﴿تَرَى﴾، فهو مناسبٌ لقوله: ﴿لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾، واقترانُه بالكذبِ على اللّٰه تعالى يدلُّ على ظهورِ كذبِهم في وجوههم حقيقةً، أو على تأويلِ كمالِ ظهورِ بطلانِ ما يدَّعونه في حقِّ اللّٰه سبحانه، وحقِّ دينه ورسولِه تَبَعًا لذلك، وفي إضافة الوجوه إلى ضميرِهم تمكينٌ للمعنى، وزيادةُ تحقيقٍ له.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 50.
(2) البقاعي، نظم الدرر، ص: 465.

دلالةُ التَّعبير بالاسميّة في ﴿مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾:

الكَذِبُ على الله ظلامٌ في القلبِ وفي الوجهِ

نظَمَ القرآن السَّواد، وهو صفة الوجوه ﴿مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ اسْمًا؛ للدَّلالةِ على أنَّ ذلكَ وصفٌ ثابتٌ دائمٌ للَّذين كذبوا على اللّه، زائدُ البَشاعةِ؛ لأنَّ الكَذِبَ عليه تعالى إساءةُ أدَبٍ، وإلحاقُ نَقْصٍ بجلالِ الألوهيَّة، وهذا بَشِعٌ جِدًّا[1].

اسودادُ الوجوهِ بينَ الحقيقة والكناية:

بئس عذابُ الكافرين في حالهم ومآلهم

يجوزُ أنْ يكونَ اتِّصافُ الوجوه بالاسوِدادِ في قوله تعالى: ﴿وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ على الحقيقةِ علامةً لهم، وباقي النّاسِ على خلافِهم؛ لأنَّ اللّه جعَل اسوداد الوجوه يومَ القيامة علامةً على سوءِ المصيرِ، وجعَل بياضَها علامةً على حُسْنِ المصير، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ﴾ [آل عمران: 106] الآية، ويجوز أنْ يكون كنايةً عن سوءِ العذاب، وأنَّ الكاذبين على اللّه يذوقون الجحيمَ[2].

سِرُّ فَصْلِ قوله: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾:

من شأنِ المُتكبِّرِ الكذِبُ على اللهِ

لَمّا كانَ معنى قولِه تعالى: ﴿وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾ على الحقيقة أو على غيرها من شأنِه أنْ يُحرِّك المُتلقّي للسُّؤالِ عن سببِ اسودادِ الوجوه؛ كانَ قولُه تعالى: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ جوابَ ذلك، وهو أنَّ في جهنَّم مثواهُم؛ لأنَّ السَّوادَ يُناسِبُ ما سيفلحُ وجوههم من مَسِّ النّار، فأُجيبَ بطريقةِ الاستفهام التَّقريريِّ، فهذه الجملةُ واقعةٌ موقِعَ الاستئنافِ البيانيِّ لجملة: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾[3].

معنى: ﴿فِي﴾ ودلالة التَّعبير بها:

كلمةُ ﴿فِي﴾ حرفُ جرٍّ، معناه الظَّرفيَّةُ، وهي في قوله تعالى: ﴿فِي

---

(1) البقاعي، نظم الدرر، ص: 465، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 377.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 49 - 50.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 50 - 51.

﴿جَهَنَّمَ﴾ حقيقيَّةٌ، فدلَّتْ على أنَّ هؤلاءِ الذين كذبوا على اللّه المُتكبِّرينَ على آياته مظروفونَ على الحقيقة في جهنَّمَ، وهذا يعني: أنَّ عذابَ جهنَّمَ مُحيطٌ بهم مِن كلِّ جانبٍ، ومُتمكِّنٌ منهم.

جهنَّمُ مثوى هؤلاءِ الكافرين الكاذبين المتكبِّرين

علَّة التَّعبير بـ: ﴿جَهَنَّمَ﴾:

عبَّر تعالى بـ: ﴿جَهَنَّمَ﴾ دونَ وصفٍ آخَر مِن أوصافِ النّارِ؛ تناسُبًا وتطابُقًا معَ حالِ أهلِ الكذِب على اللّه والتَّكبُّرِ على آياتِه، فإنَّ جهنَّم تلقَى مَن تلقَى فيها منهم بالتَّجهُّم والعُبوسَة، كما تلقَّوا آياتِ اللّه، ورسولَه ﷺ الَّذي جاءَهُم بالصِّدق الَّذي هو آياتُ القرآنِ العظيمِ، فالجزاءُ مِن جِنْسِ العمَلِ.

في عذابِهم ما يُقابِلُ أخصَّ أوصافِهم التي استوجبته

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

قدَّمَ القرآنُ الجارَّ والمجرورَ: ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ الذي هو خبرُ (ليس)، على اسمها ومتعلَّقها: ﴿مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾، ومِن أسرارِ ذلك الإسراعُ بذِكْرِ ما يُؤْلِمُهُم، وهو جهنَّمُ، وإيماءٌ إلى أنَّ جهنَّم كأنَّها تُسْرِع إليهم، كما أسرعوا إلى التَّكذيب بآيات اللّه، على ما تُفْهِمُه الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَكَذَّبۡتَ بِهَا﴾، وفيه أيضًا: تهويلٌ لجزائهم وسوءِ مآلهم؛ إذ بُيِّن مِن أوَّلِ الأمرِ أنَّ مثواهم في جهنَّم، لا في غيرها، وفيه أيضًا: قصرُ المثوى المُؤخَّرِ على جهنَّم المُقدَّمةِ، أي: ما مثواهم إلّا في جهنَّم، قصرَ صفة على موصوفٍ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا، والتَّأكيدُ الذي في القصر يُراعي كذبَهُم الدّالَّ على إنكارِهم وحيَ اللّه كلَّه، ومِن لطائفِ التَّقديم تهيئةُ العذابِ ﴿جَهَنَّمَ﴾ وتوطئتُه لذِكْرِ العملِ: ﴿لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾، وهذا يعني: أنَّهم بلَغوا في العمَلِ الموجبِ هذا الجزاءَ كلَّ مبلغٍ مُمْكِنٍ، وأنَّهُم تجاوَزوا حدَّ المعقولِ فيه.

أهلُ الكذِبِ على الله كأنَّ عملَهُم يُنادي على جزائِهم

سِرُّ تنْكير ﴿مَثۡوٗى﴾:

في نَظْمِ القرآنِ اسمَ (ليس) نكرةً ﴿مَثۡوٗى﴾ إشارةٌ إلى عظمته وفخامته؛ بقصدِ تهويلِ شأنِه، وبيانِ فظاعته وشناعته، أي: لهم في

تنكيرُ المثوى تعريفٌ بشيءٍ مِن حقيقتِه وحالِه

جهنَّم مثوًى بلَغ في ذلك مبلغًا لا يُمْكِنُ معَه أنْ يُعْرَفَ، ويُعينُ على فِقْهِ دلالةِ التَّنكيرِ تقديمُ: ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ على: ﴿مَثْوًى﴾، فإنَّ المُتلقّي يَتلقَّى: ﴿مَثْوًى﴾، وقد علِم أنَّه في جهنَّم.

معنى اللّام ودلالة التَّعبير بها:

مَن كذب على الله في لحظة إتيان العذاب جديرٌ بتحقيق المعنى له

قوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾ جارٌّ ومجرورٌ مُتعلِّقٌ بمحذوفٍ، صفةٌ لـ: ﴿مَثْوًى﴾، أي: مثوًى كائنٌ أو مستقرٌّ للمتكبِّرين، واللّامُ في: ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾: معناها الاختصاصُ، وهو الَّذي تتضمَّنُه الإضافةُ، والمعنى: أليس في جهنَّم مثوى للمتكبِّرين على جهة الخصوصِ؟ فيكونُ في الجملةِ إبلاغٌ في تقريرِ جزائِهم، كأنَّ عذاب يوم القيامة يختصُّ بهم دون غيرهم، وفي هذا تحذيرٌ شديد من مآل الاستكبار عن آيات الله تعالى والكذب عليه سبحانه.

بلاغةُ التَّعريف بـ(ال):

هؤلاءِ الكاذِبون على الله عُمَدٌ في بابِ التَّكبُّرِ على آياتِهِ

نظَم القرآنُ وصْفَ التَّكبُّرِ معرفةً بـ(ال) في قوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾، والتَّعريفُ بها للاستغراق، فيدخلُ تحتَ مدخولها كلُّ مراتبِ التَّكبُّر، والتي أقواها الشِّرْكُ[1]، أو للكمالِ، أي: للكاملينَ في التَّكبُّرِ، أو للجنس، أي: لجنسِ المُتكبِّرينَ، والحَمْلُ على العهدِ الذِّكري أولَى وأعلى سياقًا، فهؤلاءِ المُتكبِّرون هم: ﴿ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، فهُم كاذبون ومُتكبِّرون، بقرينةِ قولِه تعالى: ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ﴾؛ لأنَّهم تكبَّروا على دعوة الرَّسول إيّاهم وأمرِهم بالإنابة والإسلام والاتِّباع.

دلالةُ التَّعبير بالاسميَّةِ في ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾:

مَن كذب على الله كانَ مِنَ العالينَ في التَّكبُّرِ

نظَم القرآنُ التَّكبُّرَ اسْمًا في قوله تعالى: ﴿لِّلْمُتَكَبِّرِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على عراقة أهل الكذب على الله، ورسوخِهم في التَّكبُّرِ الذي هو

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 51.

وصفٌ ثابتٌ دائمٌ لهُم، فهُم مِن أهل المستوى الأعلى مِن مستوياتِه، وذلك شأنُ الكاذِب على اللّه تعالى.

سِرُّ حذفِ مُتعلّقِ ﴿لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾:

لا تعانُدَ بينَ الفائدةِ المعنويَّة والفائدة اللَّفظيَّةِ

حذف القرآن متعلِّق اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾، والتَّقديرُ: للمُتكبِّرينَ على آياتِه تعالى، أو للمُتكبِّرين على اتِّباعِ أوامر اللّه، ونحوِ ذلك، والمآلُ واحدٌ، وسِرُّ الحذفِ تمكينُ معنَى التَّكبُّرِ وكماله، بعدم القَرْنِ بينه وبين المُتكبَّر عليهِ، وحسَّنَ الحذفَ العِلْمُ بالمحذوفِ مِن السّياقِ، ونتَج عن حذف المتعلِّقَ في اللَّفظ موافقتُه للفواصلِ قبله: ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، ﴿ٱلۡمُحۡسِنِينَ﴾، ﴿ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، ﴿ٱلسَّٰخِرِينَ ٥٦﴾ [الزمر: 56]... إلخ، وبعدَه: ﴿يَحۡزَنُونَ﴾، ﴿ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، ﴿ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾، ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾... إلخ.

الفروق المعجمية:

الملجأ والمثوى والمأوى:

الملجأُ أعمُّ مِن المثوى والمأوى

المَثْوَى: اسمُ مكانٍ مِن الثَّواءِ، فيه معنى الإقامة معَ الاستقرارِ، والمأوى: اسمُ مكانٍ مُخصَّصٌ للإقامةِ فيه، وهو في الأصلِ مصدرُ أوَى يأوي أويًّا ومأْوًى، واستعمالاتُه تُفْهِمُ أنَّ فيه معنى الوقاية والحِماية، تقولُ: أوَى إلى كذا: انضمَّ إليه، وقال ﷻ: ﴿إِذۡ أَوَى ٱلۡفِتۡيَةُ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ﴾ [الكهف: 10]، وقال تعالى: ﴿سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ﴾ [هود: 43]، والملجأُ: المكانُ، يُلْتَجأُ إليه، فهو مستغاثٌ به، وقد يكونُ أهلًا للإيواءِ والاستقرارِ، وقد لا يكونُ كذلك[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 50.

﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦١﴾ [الزمر: 61]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

هذه الآيةُ هي الوجهُ المُقابِلُ للآيةِ قبلَها

لَمّا بيَّن تعالى حالَ أهلِ الكذِب على الله، والذين رفضوا دعوةَ ربِّهم، وجزاءَهُم يومَ القيامةِ؛ بيَّنَ في هذه الآية ثوابَ الذين استجابوا لربِّهم، وأنابوا، وأسلموا، واتَّبعوا أحْسَنَ ما أنْزَل إليهم، على عادةِ القرآنِ في شَفْعِ ذِكْرِ أهلِ الكُفْرِ بذِكْرِ أهلِ الإيمانِ، والعكسُ كائنٌ فيه أيضًا، وفي ذلك هنا ترغيبٌ في حالِ المُتَّقين؛ لأنَّ الأشياءَ تتبيَّنُ بأضْدادِها(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿بِمَفَازَتِهِمۡ﴾: (فوز) يدلُّ على أصلَيْنِ مُتضادَّيْنِ، أحدُهما النَّجاةُ، والأخرى الهَلَكةُ، فالأولَى قولُهم: فاز يفوزُ فوزًا؛ إذا نجا، وهو فائزٌ، وفازَ بالأمر؛ إذا ذهَب به، وخلَص، ويُقال لمَن ظفَر بخيرٍ، وذهَب به، كما قال تعالى: ﴿فَمَن زُحۡزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدۡخِلَ ٱلۡجَنَّةَ فَقَدۡ فَازَۗ﴾ [آل عمران: 185]، والفَوْزُ الظَّفَرُ بالخيرِ معَ حُصول السَّلامَةِ، والمَفازَةُ مصدرُ فازَ، والاسْمُ الفَوْزُ، والمقصودُ بالمَفازَةِ هنا الفوزُ مُرادًا به العملُ الصّالحُ على سبيلِ المجازِ المُرْسَلِ، أو الهلاكُ مُرادًا به العملُ الحَسَنُ، على سبيلِ المجازِ المرسلِ أيضًا(2).

المَعنى الإجماليُّ:

هذه الآيةُ من تمامِ ما قبلَها، كأنَّها جزءٌ منها

تُقرِّرُ هذهِ الآيةُ حالَ الَّذين أنابوا لربِّهم، وأسلموا له، واتَّبَعوا

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 539، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 385.
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (فوز)، والراغب، المفردات، ص: 386 - 387، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 466، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 52، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 387 - 388.

أَحْسَنَ ما أنزَل إليهم ربُّهُم، وأنَّ اللّه نجّاهُم مِن أهوالِ يوم القيامةِ فائزينَ بنعيم اللّه في الجِنانِ، دونَ أنْ يَمَسَّهُم العذابُ والحُزْنُ الذي يُحيطُ بالذين كذَبوا على اللّه ورسولِه.

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الوَصْلِ بالواو:

الأهوالُ المُعْتَدُّ بها أهوالُ يومِ القيامة

ما بعدَ الواو في قولِه تعالى: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾ معطوفٌ بها على جملة: ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ﴾ المُقيَّدِ بقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، فتكون تنجيتُهم مقيَّدةً بهذا القيدِ أيضًا، أي: ويُنَجّي اللّه الذين اتَّقَوا مِن جهنَّم؛ لأنَّهم ليسوا بمُتكبِّرينَ، وذهب بعضُ المفسِّرين إلى أنَّ هذا العطفَ مِن عطفِ جملةٍ على جملةٍ، لا على ﴿تَرَى﴾، أي: إنَّ مجموعَ المعطوفِ معطوفٌ على مجموعِ المعطوفِ عليه: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى﴾ الآية، إشارةً إلى أنَّ هذا فِعْلُهُ تعالى معهم في الدّارَيْن، وإشارةً إلى كثرة التَّنجية؛ لكثرةِ الأهوال كثرةً تفوتُ الحصرَ، وبينَ المُتعاطفَيْن توسُّطٌ بينَ الكمالَيْن، فكلٌّ منهما خبرٌ في اللَّفظ والمعنَى، مع جامعِ التَّضادِّ بينهما(1).

بلاغةُ موقِعِ الآيةِ:

السّورةُ مُؤسَّسَةٌ على معالجةِ الكاذبِ الكَفّارِ، فهُم أجدرُ بالتَّقْديم

إذا كانَتْ آيةُ: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ﴾ هي فاصلةَ الحديثِ عن الَّذين استجابوا مِن أهل الإيمان، وكانَتْ آيةُ: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾، هي فاصلةَ الحديثِ عن الذين لم يستجيبوا مِن أهل الكُفْرِ، وأنَّنا الآنَ في نِهايَة الفَصْل الذي بدأ بقوله تعالى: ﴿۞قُلْ يَـٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: 53]، فلماذا قُدِّمَتْ فاصلةُ الذين لم يستجيبوا على فاصلة الذين استجابوا؟ والجوابُ: أنَّ فاصلةَ الذين لم يستجيبوا جزءٌ مِن التَّحذيرِ الذي بدأ بقوله تعالى:

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 466، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 51 - 52.

﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٌ﴾ [الزمر: 56]، وهو تحذيرٌ كلُّه رحمةٌ؛ لأنَّ اللّه سبحانه يقولُ: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ﴾ [الزمر: 54]، ﴿وَأَسۡلِمُواْ﴾ [الزمر: 54]، ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ﴾ [الزمر: 55]، قبلَ يوم الحسرة: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: 56]، وهذا مَحْضُ رحمةٍ، ثمَّ إنَّ الذين استجابوا دلَّتِ الآيةُ عليهم دلالةً غيرَ واضحةٍ وُضوحَ الدَّلالة على الذين لم يستجيبوا، وموضِعُ الدَّلالة هو قولُه تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا﴾، ولم تأتِ آياتُ اللّهِ قومًا إلّا وكانَ منهُم مُستجيبٌ، وما أرسَلَ ربُّنا مِن رسولٍ إلّا ليُطاعَ بإذنِ اللّهِ، هذا مَوْقِعُ هذهِ الآيةِ في سياقِها[1].

دلالة المضارعة في قوله: ﴿وَيُنَجِّي﴾:

المضارعةُ تكشفُ عظمةَ معنى الفعلِ على القراءتَيْنِ جميعًا

نظَم القرآنُ معنَى النَّجاة فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي﴾؛ دلالةً على تجدُّدِ كلٍّ مِن الإنجاءِ والتَّنْجية بتجدُّدِ الأحوالِ والأزمانِ والأمكنة، مِن الموت، وأهوالِ القبور، وأهوالِ البَعْث، وأهوالِ الموقف، وأهوالِ الصِّراط، وأهوالِ الحسابِ إلى آخِر ذلك، ففي المضارعةِ تمهيدٌ قويٌّ للتَّعبير بالمفازة في قوله تعالى: ﴿بِمَفَازَتِهِمۡ﴾[2].

علّة التَّعبير باسم الجلالة مُظْهَرًا:

سبحان مَن يُبْعِدُ ناسًا بجلالِه، ويُقرِّبُهم بجلالِه

أظهر القرآنُ الاسم الأجل، ولم يُضْمِره؛ للزّيادةِ في تعظيم حال أهلِ التَّقْوى، وتسكينِ قلوبهم، وللإبلاغ في تقرير أنَّ ما في القيامة مِن أهوالٍ لا يُنَجّي منها إلّا اللّهُ، وأنَّه سبحانه لا يُنجّي منها إلّا أولياءَه، وحسَّنَ الإظهارَ في موضِعِ الإضمارِ اختلافُ حالِ المُحدَّثِ عنه في الآيةِ، وهم الذين اتَّقوا، عن حالِ المُحدَّثِ عنه في الآيةِ السّابقةِ، وهم الذين كذبوا على اللّه، وهم المتكبِّرون.

بلاغة التَّعبير بالموصوليَّةِ:

قولُه تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ اسمُ الموصولِ مفعولُ الفِعْلِ في قوله

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 386.
(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 387 - 388.

بلَغ النّاجونَ في التَّقوَى كلَّ مبلَغٍ مُمْكِنٍ لهُم

تعالى: ﴿وَيُنَجِّي﴾، وقولُه: ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾: جملةُ الصِّلةِ، لا محلَّ لها مِن الإعرابِ، وكانَ المفعولُ لفظَ الجَمْعِ المُذكَّرِ؛ ليقابِلَ نظيرَه في الآيةِ السّابقة: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾، فحالُ جماعةٍ يُخالِفُ حالَ جماعةٍ، والجماعةُ المُفضَّلةُ محلُّ الاتِّساءِ والاقتداءِ للجماعةِ المُفَضَّلِ عليها، وتغليبُ الذُّكورِ على الإناثِ؛ لبيانِ شرَفِ هذه الجماعة وعظمتِها ذُكورًا وإناثًا، واسمُ الموصولِ مُبْهَمٌ، توضِّحُه صِلَتُه، ففي هذا تشويقٌ إلى معنى الصِّلةِ؛ ليقَع في نفسِ المُتلقّي موقِعَه المطلوب، ولفْتٌ إليه؛ لأنَّه مناطُ النَّجاةِ إنجاءً وتنجيةً، وفي نَظْمِ الاتِّصافِ بالتَّقْوى صلةً إشارةٌ إلى أنَّهم عُرِفوا، وشُهِروا بها، وفي هذا كلُّ مدحٍ لهم، وكلُّ ترغيبٍ في الاقتداءِ بهم.

علَّة التَّعبير بالتَّقْوى مادَّةً وصيغَةً:

مَن يَقي نفْسَه غَضبَ ذي الجلالِ فهو الفائزُ

عرَّف القرآنُ النّاجينَ بصفةِ التَّقْوى في قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾؛ لأنَّها الألصقُ بمعنى النَّجاةِ مِن الأهوالِ، فهؤلاء قومٌ "بالَغوا في وِقايَة أنفسِهم من غضبِه، فكما وقاهُم في الدُّنْيا مِن المُخالَفاتِ حماهُم هناك من العقوبات"[1]، ومِن فوائدِ التَّعبيرِ بها: الإيذانُ بأنَّ التَّقوَى تُنافي الكِبْرَ؛ لأنَّ التَّقوَى كمالُ الخُلُقِ الشَّرعيِّ، وتقتضي اجتنابَ المَنْهيّاتِ وامتثالَ الأمرِ في الظّاهرِ والباطنِ، والكِبْرُ مرضٌ قلبيٌّ باطنيٌّ، فإذا كان الكِبْرُ مُلْقيًا صاحبَه في النّار بحُكْمِ قوله تعالى: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾، فضدُّ أولئك ناجونَ منها، وهمُ المُتَّقون؛ إذِ التَّقْوى تَحولُ دون أسبابِ العقاب التي منها الكِبْرُ[2]، والقرآنُ نظَم معنى التَّقْوى فعلًا ماضيًا؛ لأنَّ السّياقَ لحكايةِ اتِّصافِهم بها، وهم في الحياة الدُّنْيا.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 466.

(2) البقاعي، نظم الدرر:/ 466، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 51 - 52.

سِرُّ حذفِ معمولي التَّنْجية والتَّقوى:

ذِكْرُ النَّجاةِ والتَّقْوَى معَ ضميمةِ الآيةِ السّابقةِ يُحْضِرُ المحذوفَ ويدلُّ عليه بقوَّةٍ

فِعْلُ التَّقْوى يتعدَّى بنفْسِه إلى مفعولٍ، لكنَّ القرآنَ حذَفَه في قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾، وكذلكَ حذَف فيه معمولَ الفِعْلِ: ﴿وَيُنَجِّي﴾، والتَّقديرُ: وينجي اللّه الذين اتَّقوا الكذِبَ والتَّكبُّرَ والكُفْرَ والشِّرْكَ، مِن جهنَّم، وفي الحذفِ ميزةُ الإيجازِ، وهو مُؤسَّسٌ على بناءِ الآيةِ بناءً مِن شأنِه أنْ يَسْتَحْضِرَ الآيةَ السّابقةَ بقوَّةٍ، ففاصلةُ الآيةِ السّابقة: ﴿أَلَيۡسَ فِي جَهَنَّمَ مَثۡوٗى لِّلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾، وصدرُ هذه: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾، فكلٌّ مِن الإنجاءِ والتَّنْجيَةِ إنَّما يكونُ مِن جهنَّم، والاتِّقاءُ إنَّما يكونُ مِن الطُّرُقِ الموصِّلةِ إليها كالكذبِ والتَّكبُّرِ، قال أبو السعود: "﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾ الشِّرْكَ والمعاصيَ، أي: مِن جهنَّم"[1]، فللمَحْذوفِ حُضورٌ قويٌّ ظاهرٌ في السّياقِ، فحُذِف؛ لكمالِ العِلْمِ به، وذهَب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ الفِعْلَ في قوله: ﴿ٱتَّقَوۡاْ﴾ مُنَزَّلٌ منزلةَ اللّازم؛ لا يُقدَّرُ له مفعولٌ[2].

معنى الباء، ودلالة التَّعبير بها:

في الاعتدادِ بالطّاعةِ ترغيبٌ للجميعِ فيها

قوله تعالى: ﴿بِمَفَازَتِهِمۡ﴾: جارٌّ ومجرورٌ متعلِّقٌ بالفِعْلِ في قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي﴾، والباءُ معناها هنا المُلابَسَة، أو السَّببيَّةُ، والمعنى: وينجي اللّه الذين اتقوا مُتلبِّسينَ بالفوز، أو بسببِ ما حصَلوا عليه مِن الفوزِ[3]، والأعلى في سياقِ الكَرَمِ والإكرام الذي ابتدأ بالتَّعبير باسْمِ الجلالةِ حَمْلُ الباءِ على السَّببيَّةِ، وعلى هذا يكونُ القرآنُ قد احتفَل، واعتنَى بمفازتِهم احتفالًا عَليًّا واعتناءً بالِغًا.

علَّة التَّعبير بالمفازة:

رُبَّ شقاءٍ يوصِّلُ إلى الفوزِ والسَّعادةِ

عبَّر القرآنُ بالمفازةِ في قوله تعالى: ﴿بِمَفَازَتِهِمۡ﴾؛ لأنَّها الأنْسَبُ بفِعْلِ التَّقْوى في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾؛ على أنَّ المرادَ بها

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 608.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 52.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 52.

اسمُ الفَلاةِ، أي: الهلاكُ، وذلك على سبيلِ المجازِ المُرْسَل؛ لعَلاقَةِ السَّببيَّةِ، ومعنى: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾: "بسبب أنَّهُم عَدّوا أنفسَهُم في مفازةٍ بعيدةٍ مُخوِّفةٍ، فوَقَفوا فيها عن كلِّ عمَلٍ إلّا بدليلٍ؛ لئلّا يَمْشوا بغير دليلٍ، فيَهْلَكوا، فأدَّتْهُم تقواهُم إلى الفوز، وهو الظَّفرُ بالمراد، وزمانه ومكانه الذي سُمّيَتِ المفازةُ به تفاؤلًا؛ ولذلك فسَّر ابنُ عبّاسٍ - رضي الله عنهما - المفازةَ بالأعمالِ الحسَنةِ؛ لأنَّها سببُ الفوزِ، فقد سمَّى القرآنُ حياتَهُم مفازةً، ثم أرادَ بها العملَ الصّالحَ، ولأنَّها الأنْسَبُ للنَّجاةِ إنجاءً وتنْجيَةً في قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي﴾، على أنَّ معناها الفوزُ، وأنَّ المرادَ بالفوزِ العملُ الصّالحُ، على سبيلِ المجازِ المرسلِ أيضًا؛ لعَلاقَةِ المُسبَّبيَّةِ، وسُمّي العملُ الصّالحُ فوزًا؛ للإشارةِ إلى أنَّ العبدَ كلَّما زاوَل عملًا صالحًا يكونُ قد ظفر به، وفاز به؛ لأنَّ الفوز معناه الظَّفْرُ والسَّبْقُ، فكلَّما جَرَى لسانُكَ بذِكْرِ اللّه تكونُ قد ظفِرتَ، وفُزتَ بهذا الذِّكر، وهذا هو الذي فيه معنًى من قوله تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: 133]، ومن قولِه سبحانه: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ٢٦﴾ [المطففين: 26]، وفي التَّعبير عن الطّاعة بالفوز معنًى آخَرُ، وهو أنَّ الطّاعةَ تُفْضي - لا محالةَ - إلى الفوز، وهذا هو معنى قولِه جلَّ شأنُه: ﴿مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ﴾ [النساء: 147](1).

التَّوجيه البلاغيُّ لقراءَتَي قولِه: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾:

سبحانَ مَن وفَّقَ للصّالحاتِ، ومَن يجازي بها يومَ القيامةِ

قرأ شعبة وحمزةُ والكسائيُّ وخلَفٌ قولَه تعالى: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾ بالألفِ على الجَمْعِ: (بمفازاتهم)، وقرأه الباقونَ بالإفراد: ﴿بِمَفَازَتِهِمْ﴾، والمفازةُ مصدرٌ فازَ يفوزُ فوزًا، والمفازةُ تزيدُ على دلالة المصدر الدَّلالةَ على الزَّمان والمكان، فالفوزُ عامٌّ في الأزمنةِ كلِّها والأمْكِنةِ كلِّها، والمرادُ القيامةُ، وقراءة الجَمْعِ تُحقِّقُ ذلك بالنَّصِّ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 466، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 387 - 388.

عليه؛ إبلاغًا في تقريرِ كرمِ اللّه سبحانه وإكرامِه عبادَه الذين اتَّقوا، فهُم ناجون بمفازتِهم عندَ الموت، وناجون بمفازتهم مِن أهوالِ القبور، وناجون بمفازتهم مِن أهوال البَعْث، وناجون بمفازتهم مِن أهوال الموقف، وناجون بمفازتهم مِن أهوال الصِّراط، وأهوالِ الحسابِ، وغيرِ ذلك مِن الأهوالِ، كلُّ أولئكَ فيه نجاةٌ وفوزٌ[1]، وقال البقاعيُّ: وقُرِئَ بالجمعِ باعتبار أنواعِ المصدرِ، وذلك كلُّه بعناية اللّه بهم في الدّارَيْن، فمفازةُ كلِّ أحدٍ في الأُخْرَى على قدرِ مفازتِه بالطّاعاتِ في الدُّنْيا[2]، وقال ابن عاشور: إنَّ المصدرَ قد يُجمع، باعتبار تعدُّد الصّادر منه، أو باعتبار تعدُّد أنواعه، وكذلك تعدُّد أمكنة الفوز بتعدُّد الطَّوائفِ[3]، وقراءةُ الإفرادِ تَجْعَلُ للجميع مَفازةً واحدةً على التَّأويلِ بالجِنْسِ، والجِنْسُ فيه معنَى الجمعيَّة، وهذا الإفرادُ إشارةٌ إلى عظيمِ إكرامِ اللّه؛ إذ إنَّه يعتَدُّ بالقليلِ مِن طاعتِهم وأعمالِهم الصّالحةِ؛ لأنَّ أساسَها إخلاصُ العبادةِ للّه ربِّ العالَمينَ.

دلالةُ الإضافة في قولِه: ﴿بِمَفَازَتِهِمۡ﴾:

في الإضافة إبلاغٌ في الاعتدادِ بطاعة أهل التَّقوى

أضاف القرآنُ المفازة إلى الضَّميرِ العائد على المتقين في: ﴿بِمَفَازَتِهِمۡ﴾؛ "لتعريفها بهم، أي: المفازة التي علِمْتُم أنَّها لهُم، وهي الجنَّةُ، كما في قوله: ﴿إِنَّ لِلۡمُتَّقِينَ مَفَازًا ٣١ حَدَآئِقَ وَأَعۡنَٰبٗا ٣٢ وَكَوَاعِبَ أَتۡرَابٗا ٣٣﴾ [النبأ: 31 - 33]."[4]، وفي الإضافة كمالُ اعتدادٍ بطاعتهم وبهم جميعًا؛ إبلاغًا في كرمِهم وإكرامِهم.

دلالة فَصْلِ قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾:

فُصِلَتْ جملةُ: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ عمّا قبلَها: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ

(1) الدمياطي، إتحاف فضلاء البشر، ص: 482، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 387.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 466.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 52 - 53.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 53.

﴿ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ﴾؛ لأنَّها وما عُطِفَ عليها تفسيرٌ وبيانٌ وتفصيلٌ لِما قبلَها، مِن النَّجاةِ والمَفازَة، فبينهما كمالُ اتِّصالٍ[1]، ويجوزُ أنْ تكون جوابَ سؤالٍ أثارَتْه جملةُ: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ﴾، وهو: ما فعَل في تنجيتهم؟ فقال: ذاكرًا نتيجتَه: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾، ثم عطَف عليها جملة: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ فهي استئنافٌ بيانيٌّ[2]، ويجوزُ أنْ تُعْرَب حالًا مِن: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾، والمعنى على هذا: أنَّ اللّٰه يُنجّيهم حالةَ كونِهم لا يمسُّهم السّوءُ، وكانتِ النَّجاةُ معنًى، وحالُ النَّجاةِ الذي هو نفيُ السّوءِ معنًى آخَر، وهذا الوجهُ أظهرُ؛ لأنَّ النَّجاةَ أوسَعُ وأشملُ مِن نفي مَسِّ السّوءِ ونفي الحُزْنِ، فكان معنا ثلاثة أخبار، خبرٌ هو الأصل، وهو: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ﴾، وخبرٌ مُلحق بهذا الخبر، وهو: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾، وخبرٌ ثالثٌ، هو جزءٌ مِن الخبر الثّاني، وهو: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾، وهذه دلالة الجملة الحاليَّة، وليس الخبرانِ الثّاني والثّالثُ مُفسِّرَيْنِ للخبر الأوَّل، وإنَّما هو وصفٌ لحالِ وقوعِه[3].

حـرارةُ الموقفِ تُـغـلي الـقـولَ بالاستئنافِ البيانيِّ

معنى: ﴿لَا﴾ ودلالة التَّعبير بها:

قولُه تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ فيه نفيانِ، كلاهما بـ: ﴿لَا﴾، الأوَّلُ دخلَت فيه: ﴿لَا﴾ على الفعل المضارع، فخلَّصَتْه للاستقبال، بقرينةِ أنَّ ذلك النَّفي يكونُ يوم القيامة، ولهذا يصير معناه دوامَ النَّفي. والثّاني دخلَت فيه على الجملة الاسميَّة المُكوَّنةِ مِن مبتدأ، هو: ﴿هُمۡ﴾، ومِن خبرٍ، وهو: ﴿يَحۡزَنُونَ﴾، وحالُ النَّفْيِ بها فيه حالُه بها في الموضع الأوَّلِ؛ لجريانِ التركيبَيْنِ

خـلـودُ أهـلِ التَّقْوَى لا شقاءَ فيه مطلقًا

---

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 608، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 53، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 388.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 466.

(3) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 388، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 608.

في سياقٍ واحدٍ، ففي كلِّ أزمنة الآخرة وأمكنتها قبل دخول الجِنانِ، السّوءُ لا يمسُّهم، والحزنُ لا يلحقُهم، وكذلك ما داموا في الجِنانِ خالدينَ فيها، فالنَّفيُ ممتدٌّ في مستقبلٍ لا نِهايةَ له، وذلك كرمٌ وإكرامٌ عظيمٌ، والكلامُ عنهم في الآخرة؛ لأنَّ جملة: ﴿وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ﴾ معطوفةٌ على جملة: ﴿تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾.

علّة التَّعبير بالمَسِّ:

لا يلحقُ الذين اتَّقوا في الآخرة أدنَى سوءٍ

جعَل القرآنُ المنفيَّ هو مَسَّ السّوءِ في قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾، والمَسُّ أقلُّ قدرًا مِن الإصابة، فإذا كانَ السّوءُ لا يمسُّهم؛ فمِن باب أوْلَى لا يُصيبُهم، والمَسُّ يُقال فيما يكونُ معَه إدراكٌ بحاسَّة اللَّمْسِ، وفي كلِّ ما يَنالُ الإنسانَ مِن أذًى، والإصابةُ تدورُ مادَّتُها على نُزولِ شيءٍ واستقرارِه قرارَه[1]، فنفيُ الأدنى هنا يلزمُ منه نفيُ الأعلى، وهذا وصفٌ دقيقٌ لحالِ الذين اتَّقوا يوم القيامة، وأنَّ اللّه يُكرمُهم إكرامًا عظيمًا.

دلالةُ المضارعة في قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ﴾:

مُضارَعةُ المَسِّ تُحقِّقُ مُضارَعةَ النَّجاةِ

نظَم القرآنُ معنَى المَسِّ فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾، والفعلُ المضارعُ يدلُّ على التَّجدُّدِ والحُدوث، وهذا التَّجدُّدُ ناظِرٌ إلى تجدُّدِ المواقفِ والأهوالِ التي تَمَسُّ مَن يكونُ فيها بسوءٍ، أو يُمسَّ مَن يكونُ فيها بسوءٍ، مِن الموت والقبر والبعث والحشر والنَّشر والموقف والصِّراط والحساب، وغيرِ ذلكَ، وكذلك وهم في الجِنانِ؛ لكون مواقفِ النَّعيم وحالاتِ التَّمتُّع به مُتجدِّدَةً.

علَّة التَّعبير بالسّوء:

جعَل القرآنُ فاعلَ المَسِّ السّوء في قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ

---

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 389، والراغب، المفردات: (مسس)، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (صوب).

﴿ٱلسُّوٓءُ﴾؛ تنبيهًا على أنَّ الذين اتَّقوا لا يمسُّهُم شيءٌ مِمّا يَغُمُّ الإنسانَ مِن الأمور الدُّنْيويَّة والأخرويَّة، ومِن الأحوالِ النَّفْسيَّةِ والبدنيَّة، فما يُصيبُ الكافرينَ المُتكبِّرين الكاذبين، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡخِزۡيَ ٱلۡيَوۡمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٧﴾ [النحل: 27]، لا يلحقُهم ألبتَّة، وذلك لأنَّ طريق وقايتهم ذلك عظيم جدًّا، وهو الإيمانُ بالله، وإخلاصُ العبادةِ له تعالى، فكانوا أهلَ إحسانٍ، وهم في الحياة الدُّنيا، فكان جزاؤُهم إحسانًا إليهم، بألّا ينالهم السّوءُ.

مَن أحسَن في الدُّنيا لم يمسَّه السوء في الآخرة

بلاغة التَّعريف في ﴿ٱلسُّوٓءُ﴾:

نظَم القرآنُ فاعلَ المَسِّ مُعرَّفًا بـ(ال) في قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ للاستغراقِ؛ لأنَّ السّوءَ الَّذي يُلاحِقُ الإنسانَ من الموتِ إلى الانتهاءِ من الحسابِ والمَشْيِ على الصِّراطِ أنواعٌ كثيرةٌ جِدًّا، لا يكادُ بشرٌ يحصرُها، فَضْلًا عن أنواعِ السّوءِ التي تلحقُ الكافرَ والعاصيَ، وهو في النّارِ، وبنفيِ الأدنى الذي هو المَسُّ معَ استغراقِ جميعِ أنواعِ السّوءِ يظهرُ كمالُ فضلِ الله وإحسانِه على الذين اتَّقوا.

كلُّ ما هو سوءٌ وما السّوءُ منه بسبيلٍ؛ لا يَمَسُّ الذين اتَّقوا

نكتةُ تقديم جملة: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾:

قدَّم القرآنُ جملةَ: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾ على جملة: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ لأنَّ الأصلَ ألّا يمسَّهُم السّوءُ الذي يُعذِّبُ اللهُ به الَّذين كذَّبوا على الله، وتكبَّروا على آياته، وأمّا نفيُ الحزن عنهم؛ فمِن تمامِ ذلك، فنفيُ مَسِّ السّوءِ هو إنجاؤُهم، ونفيُ الحُزْن عنهم نفيٌ لأثَرِ المَسِّ بالسّوءِ؛ لأنَّ مَسَّ السّوءِ من شأنِه أنْ يُحْزِنَ[1]، ويجوزُ أنْ يكونَ ترتيبُ الجملتَيْنِ من بابِ تقديمِ التَّخْلية على التَّحلية، فنُفيَ المَسُّ بالسّوءِ أوَّلًا، فهذا سَلْبٌ ظاهرٌ، والمعنى معَه أنَّهم قد يكونون قد سُعِدوا بإعطائِهم ما تشتهيه نفوسُهُم، وأنَّهُم لم يُعْطَوا ذلك،

قُدِّم نفيُ مَسِّ السّوءِ؛ لأنَّ الأصلَ إثباتُ إحسانِهم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 608، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 53.

فلَمّا نُفي عنهم الحُزْنُ؛ دلَّ ذلك على أنَّهم قد أُعطوه، وأنَّه لا حُزْنَ يلحقُهم لفواتِ شيءٍ يشتهونه، ويُحِبّونه، ويرغبونَ فيه، فلا يحزنون على فائتٍ؛ لأنَّهم لا يفوت لهم شيءٌ أصلًا.

دلالةُ وصْلِ قولِه: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾:

اتَّقوا الكُفْرَ والشِّرْكَ والكَذِبَ على الله، فوقاهُم الله السّوءَ والحُزْنَ

قولُه تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ معطوفٌ بالواو على قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْنِ؛ فكلٌّ منهما خبرٌ في اللَّفظِ والمعنَى، والمُحدَّثُ عنه فيهما واحدٌ، والواو لمُجرَّدِ الجَمْعِ دونَ ترتيبٍ، وهذا يعني أنَّهم يمكنُ أنْ يكونوا لم يمسَّهُم السّوءُ، ولم يحزنوا، ويمكن أنْ يكونوا، لم يحزنوا، ولم يمسَّهم السّوءُ، وهذا يُصوِّرُ نَفسيّاتِ أفرادِ أهلِ التَّقوى، فمِنهم مَن تُحِسُّ نفْسُه بعدمِ السّوءِ قبلَ الإحساسِ بعدمِ الحُزْنِ، ومنهم مَن تُحِسُّ نَفْسُه بعدمِ الحُزْنِ قبلَ الإحساسِ بعدمِ السّوءِ، وهذا يُلمحُ مِن طرَفٍ إلى كثرةِ أفرادِ أهلِ الإيمانِ والتَّقْوَى.

دلالةُ التَّصريحِ بنفي الحُزْنِ:

لقد أخزَنَ الكاذِبونَ أهلَ الإيمانِ في الدُّنيا، فأسعَدَهُم الله في الآخرة

إذا كان الحزنُ المنفيُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ هو أثرُ عدمِ المَسِّ بالسّوءِ، فكان نفيُ الحُزنِ مُفْصَحًا مُصرَّحًا به؛ لأنَّ نَفْيَ أنْ يَمَسَّهُم السّوءُ يلزَمُه نفيُ الحُزْن عنهم، فإنَّ في ذلكَ إبلاغًا في تقريرِ جزائِهم ونجاتِهم وفوْزِهم؛ احتفالًا وفرَحًا بهم، وإذا كان المرادُ أنَّهم "لا يَطْرُقُ بواطنَهُم حُزْنٌ على فائِتٍ؛ لأنَّهُم لا يَفوتُ لهم شيءٌ أصلًا"[1]؛ كانَ شيئًا غيرَ الحُزْنِ الذي هو نتيجةُ المَسِّ بالسّوءِ، وكان ذِكْرُه؛ لبيان شيءٍ آخَرَ مِن جزائِهم؛ ترغيبًا في التَّأسّي بهم بعدَ مدحِهِم بذلك الجزاءِ تفصيلًا.

سِرُّ التَّفنُّنِ بالاسميَّة والفعليَّة:

صُدِّرت الجملةُ المنفيَّةُ الثّانيةُ بالاسم: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ لأنَّ

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 466.

أهل الجنّة سالمون من العذاب الجسديّ والنّفسيّ

أهلَ النّار في حزنٍ وغمٍّ ثابتٍ لازمٍ لهُم، ومِن شأنِ الأكدارِ القلبيَّةِ دوامُ الإحساسِ بها، وأمّا جانبُ نفيِ السّوءِ؛ فجيء فيه بالجملةِ الفعليَّة: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ﴾؛ لأنَّ ذلك لنفي حالةِ أهل النّار عنهم، وأهلُ النّار في مَسٍّ مِن السّوءِ مُتجدِّدٍ، وشأنُ الأَسْواءِ الجسديَّةِ تجدُّدُ آلامِها[1].

دلالة المضارعة في ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾:

الذين اتَّقوا لا يحزنون على الدَّوامِ

نظَم القرآنُ الحزن المُسْنَد إلى ضمير الذين اتَّقوا فعلًا مضارعًا في قوله تعالى: ﴿وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾؛ لأنَّه مُؤسَّسٌ على نفي مَساسِهِم بالسّوءِ المنظوم فعلًا مضارعًا؛ فكلَّما تجدَّدَ لهم موقفٌ لم يُمَسّوا فيه بسوءٍ؛ تجدَّدَ لهم عدمُ لحاقِ الحزنِ بهم، وعلى أنَّ الحزنَ في قوله تعالى: ﴿يَحۡزَنُونَ﴾ شيءٌ غيرُ الحزن الَّذي هو أثَرُ السّوءِ، فالمضارعةُ تشيرُ إلى أنَّهم لا يتجدَّدُ لهم حزنٌ على فائتٍ، كلَّما باشَروا نعيمًا في الآخرةِ قبلَ دخولِ الجنَّةِ، وبعدَ دخولِها.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 53.

﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾ [الزمر: 62]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

هذه الآيةُ وما بعدَها مِن آياتِ فصلِها مِن رَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ

لَمَّا كانَ جذرُ السّورةِ الأمرَ بعبادةِ اللّه وإخلاصِ العبادةِ له، وكانَتِ الآياتُ السّابقةُ في شأنِ الذي صرَف نفْسَه عن ذلك، بالكَذِب على اللّه، والتَّكبُّر على اتِّباعِ أوامرِه، والحديثِ عن جزائِه، واستَتْبَعَ ذلك الحديثُ عن الفريقِ الذي هو ضِدُّه في كلِّ شيءٍ؛ عادَتِ السّورةُ إلى الحديثِ عن هذا الجذْرِ، فكانَت هذه الآيةُ وما بعدها إلى آخِر قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فصْلًا من فصول السّورة، يدور حولَ إخلاصِ العبادةِ للّه، وهو المُعبَّرُ عنه بـ: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾، وهذا الفَصْلُ يدعو إلى تخصيصِ الحقِّ بالعبادة(1).

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَكِيلٞ﴾: (وكل) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على اعتمادِ غيرِك في أمرِكَ، مِن ذلك: الوُكَلة، والوَكَل: الرَّجل الضَّعيف، وواكَلَ فلانٌ؛ إذا ضيَّعَ أمْرَه مُتَّكِلًا على غيرِه، وسُمّي الوكيلُ بذلك؛ لأنَّه يوكَل إليه الأمرُ، ومِن أسماءِ اللّه تعالى الوكيلُ، وهو المُقيمُ الكَفيلُ بأرزاقِ العبادِ، وحقيقتُه أنَّه يستقِلُّ بأمرِ الموكولِ إليهِ، وفي التَّنْزيل العزيز: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلٗا ٢﴾ [الإسراء: 2](2)، وهذا هو المرادُ بقولِه تعالى هنا: ﴿وَكِيلٞ﴾؛ لأنَّه خبرُ ضميرِ اسم الجلالة، والخبرُ وصفٌ في المعنى لصاحبِه.

المَعنى الإجْماليُّ:

سبحانَ مَن أوْجَدَ الخلائقَ مِن عدَمٍ، فلم يَسْتَغْنوا عنه لَمْحَةً ما

تُقرِّرُ الآيةُ الكريمةُ وحدانيَّةَ اللّه ﷻ، وذلك بتقرير خالقيَّتِه،

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 539، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 392.
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب: (وكل).

وأنَّ متعلِّق هذه الخالقيَّةِ عامٌّ إلى حدٍّ لا يُدركُه بشرٌ، ولن يُدركه؛ لأنَّه تعالى خالقُ كلِّ شيء، و﴿شَيۡءٖۖ﴾ أعمُّ النَّكِرات، وأنَّ اللّٰه سبحانه يتولَّى التَّصرُّفَ في كلِّ شيء حسبما تقتضيه الحِكْمةُ، أو أنَّه حفيظٌ على كلِّ شيْءٍ[1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة فَصْلِ الآية عمّا قبلها:

خالقُ كلِّ شيء هو القادر على كلِّ شيء

فُصِلتْ جملة: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّ ما قبلَها يُنْتِجُ مضمونَها، وهيَ تعليلٌ مُؤكِّدٌ له في المعنى، فبينهما كمالُ اتِّصالٍ؛ لأنَّه لَمّا كان المخوف منه والمحزونُ عليه جامعَيْنِ لكلِّ ما في الكونِ؛ كانَ لا يقدرُ على دفعِهما إلّا المُبدِعُ القَيّومُ سبحانه وبحمده، وهي توكيدٌ للوعد والوعيد الذي مَضَى في جملة: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾، وقولِه: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾؛ لأنَّ يوم القيامة زمانُ الوعيد والوعدِ؛ وأنَّه لا يسوِّدُ وجهَ كلِّ كاذبٍ، ولا يُنجّي كلَّ مَنِ اتَّقى إلّا الذي خلَق كلَّ شيء، وهو على كلِّ شيء وكيلٌ، وله مقاليدُ السَّماوات والأرض، وذهب بعض المفسِّرين إلى أنَّ هذه الآيةَ استئنافٌ ابتدائيٌّ، غرضُه التَّمهيدُ لقولِه تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ﴾، في ذِكْر تمسُّكِ الرُّسول ﷺ والرُّسُلِ من قبله بالتَّوحيد، ونَبْذِ الشِّرْك، والبراءةِ منهُ، والتَّصلُّبِ في مقاومته، والتَّصميمِ على قطعِ دابره[2].

علَّة التَّعبير باسم الجلالة مُظْهَرًا:

ألوهيَّتُه تعالى باديةٌ في خَلْقِ كلِّ شيءٍ

صدَّر القرآنُ الآيةَ باسْمِ الجلالةِ مُظْهَرًا مع سبْق ذكره في قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ﴾؛ لقَصْدِ استقلالِ هذا الفَصْلِ من

---

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 539، والآلوسي، روح المعاني: 24/ 21.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 466، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 53، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 395.

الآياتِ عمّا قبله معَ اتّصالِه به؛ لأنَّه مُتَّصلٌ بغيرِه مِن معاني السّورةِ قبلَ هذه الآياتِ، حتَّى أوَّلُ السّورةِ هو مُتَّصِلٌ به، وفي إسناد الخالقيَّةِ إلى اسم الجلالة إشارةٌ إلى دلالةِ خلْقِ كلِّ شيء على الألوهيَّةِ الحَقَّة، وأنَّ مَن أرادَ أنْ يتعرَّفَ على الحقيقِ بالعبادة وإخلاصِ العبادة له، عليه أنْ ينظُر في ذلك الخَلْقِ، ففي التَّعبير به تعظيمٌ لذلك الخَلْق، "وبناءُ هذه الجملة على لفظ الجلالة يُضْفي الكمالَ والجلالَ على كلِّ ما تعلَّقَ بها"(1).

علَّة التَّعبير بـ: ﴿خَٰلِقُ﴾:

الاستدلالُ بالخَلْقِ مِن أهَمِّ الاستدلالاتِ التي اعتمَدَ عليها القرآنُ في مُحاوَرَة أهلِ الكُفْر

جعَل القرآنُ المسندَ إلى اسم الجلالةِ صفةَ الخالِقيَّة: ﴿خَٰلِقُ﴾؛ ليصِحَّ أنْ يكونَ دليلًا على المقصودِ، فتكونَ الآيةُ راجعةً إلى قوله تعالى في أوَّلِ السّورةِ: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: 5] الآية، وقولِه: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾ [الزمر: 6] الآية، وقولِه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: 38] الآية، وقولِه: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: 46] الآية، فهذا الخَلْقُ الَّذي هو إبداعُ الشَّيء مِن غيرِ أصلٍ ولا احْتِذاءٍ، وله حضورٌ في فصولِ السّورة ومقاطعِها، دليلٌ يُثْبِتُ أنَّ اللهَ لا شريكَ له، ولا ولدَ له، وأنَّه تعالى واحدٌ قاهرٌ تامُّ القدرةِ شامِلُ العِلْم، فيستحِقُّ أنْ يُعْبَد وحده، وأنْ تُخْلَصَ له العبادةُ، وعُبِّر بـ: ﴿خَٰلِقُ﴾ أيضًا؛ ليكونَ تعليلًا في المعنى للنَّفي في الآية السّابقة: ﴿لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾؛ لأنَّ هذا الخَلْقَ ليس إلّا مِن اللهِ، واللهُ هو الذي يُنجّيهم، والمعنى: أنَّ اللهَ المحيطَ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا الذي نجّاهُم لا يكونُ شيءٌ أصلًا إلّا بخَلْقِه، وهو لا يخلُق ما يتوقَّعون منه خوفًا، ولا يقَع لهم عليه حُزْنٌ(2).

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 397.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 466.

دلالة الاسميَّة في ﴿خَٰلِقُ﴾:

كونُه تعالى خالِقًا نتيجةٌ مُقرَّرةٌ لهُم

نظَم القرآنُ المسندَ إلى اللّه مِن صفةِ الخَلْق اسمًا: ﴿خَٰلِقُ﴾، دالًّا على ثبوتِ أنَّه خالقٌ ودوامِه؛ لأنَّ آيتَه توطئةٌ لقولِه تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾، وإنَّما يَقْوَى الإنكارُ في هذا الاستفهامِ ويبلُغ مبلَغَه حينَ يتأسَّسُ على تقريرِ أنَّه تعالى خالقٌ بهذه الصِّفةِ التي تدلُّ عليها الاسميَّةُ، وهم قد تقرَّرَ عندَهُم أنَّه تعالى الخالقُ، فهُم لا يُنازِعون في ذلك، والألصقُ بذلك الاسميَّةُ.

معنى: ﴿كُلِّ﴾، ودلالة التَّعبير بها:

ليس لغيرِ اللهِ مِنَّةٌ على النّاسِ كلِّهم بالإيجادِ؛ لأنَّهُم جميعًا عبيدٌ لله

عبَّر القرآنُ بكلمة: ﴿كُلِّ﴾ التي أُضيفَ إليها: ﴿خَٰلِقُ﴾، فهي مِن معنى المسند إلى اسم الجلالةِ، وهي مِن ألفاظِ العموم، وتُضافُ إلى المعرفة وإلى النَّكرة، فمادَّتُها تقتضي الاستغراقَ والشُّمولَ كالإكليل؛ لإحاطتِه بالرَّأسِ، وكالكلالةِ؛ لإحاطتِها بالوالدِ والولدِ، فلهذا كانَتْ أصْرَحَ صيغِ العمومِ؛ لشمولِها العاقل وغيره، المُذكَّر والمؤنَّث، والمفردَ والمُثنَّى والجمعَ، والعلماءُ على أنَّها أعمُّ ألفاظِ العمومِ، فيكونُ اسْتِحْضارُ صفةِ الخَلْقِ أقْوَى وأشدَّ معَ التَّعبيرِ بـ: ﴿كُلِّ﴾، فيكونُ التَّركيبُ تمهيدًا قويًّا بها لقولِه تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾؟ لأنَّها "أدخلَتْ كلَّ موجودٍ في أنَّه مخلوقٌ للّه تعالى، فهو وليُّ التَّصرُّفِ فيه، لا يخرُج مِن ذلك إلّا ذاتُ اللّهِ تعالى وصفاتُه، فهي مخصوصةٌ مِن هذا العمومِ، بدليلِ العقلِ"(1).

نكتة تقديم جملة: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾:

الجملتان مُرتَّبتان ترتيبَ المُقدِّمة والمقصود

قدَّم القرآنُ معنى جملة: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ على معنى جملة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾؛ لأنَّ الجملةَ الأولى تُقرِّرُ انفرادَه تعالى بإيجادِ كلِّ شيء، وهذا سابقٌ على ما تُقرِّرُه الثّانيةُ، مِن أنَّه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 54.

سبحانه وكيلٌ على كلِّ شيءٍ، والمعنى: أنَّ الموجوداتِ بعدَ أنْ أوجدَها تعالى لم تستغنِ عنه لَمْحَةً ما، فهي في احتياجٍ إليه بالإمدادِ، وهذا التَّرتيبُ مناسبٌ للتَّعريفِ باللّه تعالى؛ ليترتَّبَ عليه بقوَّةٍ قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾، فجملة: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ من شأنِها أنْ توصِّلَ بقوَّة إلى جملة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾، وهذه الثّانيةُ مؤسَّسة في المعنى عليها، فرُتِّبتِ الجملتانِ ترتيبَ المُقدِّمةِ والمقصودِ.

سِرُّ الوَصْلِ بالواوِ:

مَن أقَرَّ بخالقيَّتِه تعالى أقَرَّ بأنَّه وكيلٌ على كلِّ شيءٍ

قولُه تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ معطوفٌ بالواوِ على جملة: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ على خلافِ الأصلِ والظّاهرِ؛ لأنَّ كونَه خالقَ كلِّ شيءٍ يلزمُ منه أنْ يكونَ حافظًا له مُقيمًا على رِزْقِه كفيلًا بِه، ولا يَقومُ بذلِكَ كلِّه - وهوَ لا يُتصَوَّرُ أنْ يكونَ في مُكْنةِ بشَرٍ - إلّا القادرُ على خَلْقِه، ويُحقِّقُ هذا تكرارُ القيد: ﴿كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾، فقد بُنِيَت عليه هذه الجملةُ المعطوفةُ، وكأنَّ الأولى فَرْشٌ للثّانيةِ، فكان الظّاهرُ حذف الواوِ، ولكِنْ في حضورِها احتفالٌ بمضمونِ الجملةِ التي دخَلَتْ عليها، واهتمامٌ به، وكأنَّه معنًى جديدٌ، بما في الواوِ مِن معنَى المُغايرة الَّذي لا يكادُ يبرحُها؛ لأنَّ موقِعَ هذه الجملةِ ختامُ السّورة، والَّذي مِن شأنه أنْ يستجمِعَ كثيرًا مِن المعاني السّابقةِ، فهو في حُكْمِ المعنى الأُمِّ الذي تتأسَّسُ عليه معانٍ فرعيَّةٌ كثيرةٌ، ثمَّ في ذلك أيضًا إيقاظٌ للمُتلقّي ولفْتٌ وتنبيهٌ له إلى قيمةِ المعنى الذي دخلَت عليه الواو؛ لأنَّه رأسٌ في الدَّلالة على الألوهيَّة؛ لأنَّ هذا المُخاطَبَ سيتلقَّى قريبًا قولَه تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾، وقال ابن عاشور: وجيء بها معطوفةً؛ لأنَّ مدلولَها مُغايِرٌ لمدلولِ التي قبلها[1].

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 54.

علَّة التَّعبير بالضَّمير (هو):

عبَّر القرآنُ عن اسْمِ الجلالةِ بالضَّمير: (هو) في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ على الأصلِ والظّاهرِ، إلّا أنَّ لذلك دلالةً، وهي تأسيسُ جملةِ هذا الضَّمير على الجملةِ الَّتي قبلها: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ على معنًى: أنَّ مَن كان خالقَ كلِّ شيء، فهو جديرٌ بأنْ يكونَ وكيلًا على كلِّ شيءٍ، كأنَّ الجملةَ الثّانيةَ مقصودٌ للجملةِ الأولى، وكأنَّ الجملةَ الأولى توطئةٌ للثّانيةِ، وفي ذلك تنبيهٌ على قوَّةِ التَّلازُمِ بين مضمون الجملتيْن، وأنَّ مَن عرَف كونَه تعالى خالقَ كلِّ شيءٍ؛ عرَف كونَهُ تعالى وكيلًا على كلِّ شيءٍ.

كمالاتُه تعالى يدلُّ بعضُها على بعضٍ، ويُعضِّدُ بعضُها بعضًا

دلالةُ تكرار ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾:

قولُه تعالى: ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ هو مُتعلِّقُ الجملةِ السّابقةِ: ﴿ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، وقد بُنِيَتْ عليه هذه الجملةُ أيضًا: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾؛ لأنَّ في التَّكرارِ إبلاغًا في تقرير أنَّه تعالى وكيلٌ، وذلك لإبرازِ التَّعجُّبِ مِن المعنى؛ لعظمتِه إلى حدٍّ لا يكادُ أحدٌ يُحيطُ به، وبالتَّكرارِ يقوى كونُ الجملةِ تمهيدًا ومقدِّمةً للمقصود في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾، فهو توكيدٌ وتحقيقٌ للمعنى؛ ليتأسَّسَ عليه الغضبُ والإنكارُ الشَّديدُ في جملةِ الاستفهام بعده.

التَّكرارُ ناظِرٌ إلى ذاتِ معنى الجملةِ وإلى كونِها مُقدِّمةً للمقصود

نكتة تقديم ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ على ﴿وَكِيلٌ﴾:

قولُه تعالى: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ مُتعلِّقٌ بقوله تعالى: ﴿وَكِيلٌ﴾، والأصلُ: (وهو وكيلٌ على كل شيء)؛ لكنْ لَمّا كان المعنى مُلْفتًا؛ لكونه في غايةِ الغرابةِ والعُجْبِ؛ للعموم الذي في ﴿كُلِّ﴾ و﴿شَىْءٍ﴾، فلَمّا كان ذلك كذلك؛ قدَّمَ القرآنُ قولَه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ على قوله: ﴿وَكِيلٌ﴾؛ لأنَّ هذا المُتعلِّقَ هو الشّارح لقوله: ﴿وَكِيلٌ﴾، وهو المُبيِّنُ ما فيه مِن عُجْب وغرابَة وتفرُّد، فكأنَّه هو العُمدةُ في المعنى، وهذه علَّةُ

قدَّم القرآنُ مناطَ الألوهيَّةِ التي لا يغفلُ عنها إلّا الأعمى

معنويَّةٌ للاعتناء والاهتمام بالمُقدَّمِ، وقد حسَّنَ التَّقديمَ وقوّاهُ تكرارُ المُقدَّم بلفظه ومعناه.

علّة التَّعبير بـ: ﴿وَكِيلٌ﴾:

سبحان مَن بقدرته تدبيرُ شأن خلقهِ كلِّهم

جعَل القرآنُ المسندَ لفظَ: ﴿وَكِيلٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ دونَ غيرِه مِمّا هو قريبٌ منه في المعنى مِن أسماءِ اللّٰه وصفاته؛ لأنَّ هذه الجملةَ مِن مُقدِّماتٍ أربعةٍ لقولِه تعالى: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾، وقد أمرَ نبيَّنا ﷺ المشركونَ بأنْ يعبُد آلهتَهم على أنْ يَعبُدوا إلهَهُ، وهذا يرجِعُ إلى قوله تعالى في سياقِ السِّباقِ المديد: ﴿وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ﴾ [الزمر: 36]، فقال له اللّٰهُ تعالى هناك: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: 36]، وقال له: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: 38]، فلَمّا أمَرَهُ هنا بأنْ يقول لهم: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّىٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾؛ جعلَه يقولُه لهم على أساسٍ متينٍ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾، فهو ﷺ مقصودٌ بالخطاب بهذه الجملة أيضًا: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾، وهذه الجملةُ تستحضرُ جملةَ: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: 36]، وجملةَ: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الزمر: 38]، فالوكيلُ هو الكافي عبدَه وعبادَه، وهو الَّذي عليه يتوكَّل مَن يريد أن يتوكَّلَ على عظيمٍ قويٍّ متينٍ عليمٍ قديرٍ.

سِرُّ تنكيرِ ﴿وَكِيلٌ﴾:

لا يخرج شيءٌ عن أمر اللّٰه وتدبيره

نظَم القرآنُ المسندَ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ نكرةً؛ لإبرازِ غايةِ عظمةِ وكالته تعالى، وغاية فخامتِها، فليس من شأنِ أحدٍ مِن الخَلْقِ أنْ يُحيطَ بها عِلمًا، وذلك في نورِ متعلَّقه: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾، فكأنَّ لفظ: ﴿وَكِيلٌ﴾ يتَّسِعُ بالتَّنكيرِ؛ ليدخُلَ فيه كلُّ شيء، ولأجل هذا لم يتعلَّق في القرآنِ العظيم لفظُ: ﴿كُلِّ شَىْءٍ﴾ بشيء من أسمائه وصفاته تعالى إلّا إذا كان منظومًا نكرةً، لا معرفةً.

﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣﴾ [الزمر: 63]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الوكيل على كلِّ شيء هو الذي بيده مقاليد كلِّ شيء

لَمّا بيَّنَ اللّهُ تعالى في الآيةِ السّابقةِ أنَّه خالقُ كلِّ شيءٍ، وأنَّه على كلِّ شيءٍ وكيلٌ؛ بيَّنَ في الجملةِ الأولى في هذهِ الآيةِ عمومَ: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾، وأنَّه ظاهرٌ في أمْرِ السَّماواتِ والأرضِ، وأنَّ مِن شأنِ الخالِقِ أنْ يتصرَّفَ فيما خَلَقَ، وأنَّ مِن شأنِ الوكيلِ على كلِّ شيءٍ أنْ يكونَ بيدِه مقاليدُ كلِّ شيءٍ، فهذه الجملةُ مِن تمامِ ما قبلَها، ولَمّا وصَفَ اللّهُ سبحانه نفْسَه في الجملِ الثَّلاثِ السّابقةِ بالصِّفاتِ الإلهيَّةِ والجلاليَّة، وهو كونُه خالقًا للأشياءِ كلِّها، وكونُه على كلِّ شيءٍ وكيلًا، وكونِه مالِكًا لمقاليدِ السَّماواتِ والأرضِ بأسْرِها؛ قال بعدَ ذلك: والذين كفروا بهذه الآياتِ الظّاهرةِ الباهِرةِ أولئكَ هم الخاسرونَ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَقَالِيدُ﴾: (قلد) أصلانِ صحيحانِ، يدلُّ أحدُهما على تعليقِ شيءٍ على شيءٍ، وليِّه به، فمنه تقليدُ البَدَنة، وذلك أنْ يُعلَّقَ في عُنُقِها شيءٌ؛ ليُعْلَمَ أنَّها هَدْيٌ، وأصلُ القَلْد: الفَتْلُ، يُقال: قَلَدْتُ الحَبْلَ أقلِدُه قَلْدًا؛ إذا فتَلْتَه، وحَبْلٌ قليدٌ ومقلودٌ، وتَقَلَّدْتُ السَّيْفَ، ومُقَلَّدُ الرَّجُلِ: موضِعُ نِجادِ السَّيفِ على مَنْكِبِه، ويُقال: قلَّدَ فلانٌ فلانًا قِلادَةَ سَوْءٍ؛ إذا هجاه بما يَبْقَى عليه وسْمُه، والمقاليدُ هيَ المفاتيحُ والأمورُ الجامعةُ القويَّةُ، وهيَ الخزائنُ، ولعلَّها سُمّيَت بذلك؛ لأنَّها تُحْصِنُ الأشياءَ، أي: تحفظُها وتحوزُها، والعربُ تقولُ: أقْلَدَ البحرُ على خَلْقٍ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب.

كثيرٍ؛ إذا أحْصَنَهُم في جَوْفِه، وهي في الآية بملاحظة جملتِها كنايةٌ عن المُلْكِ والحِفْظِ والتَّدبيرِ، أو مجازٌ بالكنايةِ(1).

المَعْنى الإجْماليُّ:

كونُه تعالى مالِكَ السَّماوات والأرض، ومُدبِّرَ أمرِهما، وحافظَهما ظاهرٌ جِدًّا، ثم يكفرون بذلك كلِّه

بيَّنَتِ الآيةُ الكريمةُ كونَه تعالى على كلِّ شيءٍ وكيلًا، بأنَّه تعالى مُحيطٌ بشأنِ السَّماواتِ والأرضِ، وبيدِه خزائنُهما أو مفاتيحُهما، على أنَّ المعنى أنَّه المالِكُ لهما، والمُدبِّرُ أمرَهما، والمُتصرِّفُ فيهما، والحافِظُ لهما، وبيَّنَتْ موقفَ فئةٍ مِن النّاسِ إزاءَ ما ورَد مِن آياتٍ وبراهينَ على وحدانيَّةِ اللّه وألوهيَّتِه الحقَّةِ في الجملِ الثَّلاثِ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾، وهو الكفرُ بهنَّ، وبيَّنَتْ عاقبتَها على الجملةِ مِن الخُسْرانِ المُبينِ الكاملِ.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ فَصْلِ الآيةِ عمّا قبلها:

بعضُ المُقدِّمات شَرْحٌ وتفصيلٌ وبيانٌ لبعضٍ

فصَل القرآنُ جملةَ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّها تلزمُ الجملتَيْن اللَّتيْن قبلَها، فهي نِتاجُهما؛ فخالقُ كلِّ شيءٍ ووكيلُ كلِّ شيءٍ هو الَّذي في يدِه مقاليدُ كلِّ شيء، فهي معانٍ مُتداخِلةٌ جدًّا، وكأنَّ أصلَ المعنى واحدٌ، وهو عِزُّ الأُلوهيَّةِ(2)، فبينهما كمالُ اتِّصالٍ؛ فلهذا حُذِفَتِ الواوُ على الأصلِ والظّاهرِ، وإنَّما لم تأتِ الواوُ هنا؛ احتفالًا بما تدخلُ عليه؛ لأهمّيَّتِه في السّياقِ؛ إذ هو مُقدِّمةٌ من مُقدِّمات تترتَّبُ عليها النَّتيجةُ التي في قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾، كما في جملة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾؛ فرْقًا بين ما هو أُمٌّ من المعاني وما هو فرعٌ منها،

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (قلد)، والزمخشري، الكشاف: 13/ 422 - 423، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 467، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 54.

(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 394.

فهذه الجملةُ المفصولةُ فرعٌ لجملةِ: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾، وكذلك لجملة: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾، والحاصلُ أنَّ هذه الجملة المفصولةَ يصحُّ أنْ تكون بيانًا للجملتَيْن قبلها، وفهِم بعضُ المفسرين أنَّ المقصودَ كونُها بيانًا لجملة: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ خصوصًا؛ لخصوصيَّةِ العَلاقَة بينَ كونِه تعالى وكيلًا على كلِّ شيء وكونِه له مقاليدُ السَّماوات والأرضِ، فالوكيلُ على شيء يكونُ هو المُتصرِّفَ في العطاءِ والمنعِ، هذا ما يُفْهَم مِن قولِه ببيانِ هذه الجملة للتي قبلها خصوصًا[1].

دلالة اللّام في ﴿لَّهُۥ﴾:

اختصاصُه تعالى بشأنِ السَّماواتِ والأرضِ ظاهرٌ لكلِّ أحدٍ

اللّامُ في قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ﴾ لامُ الاختصاصِ، وهيَ الَّتي تتضمَّنُها الإضافةُ، وهيَ تمهيدٌ للقصرِ الحاصِلِ بتقديمِ المسند على المسند إليه، وهي معَ ضميمةِ هذا القَصْرِ إبلاغٌ في تقرير أنَّ له تعالى مقاليدَ السَّماوات والأرضِ، وفي هذا التَّوكيدِ والتَّحقيقِ زيادةُ تثبيتٍ للنَّبيِّ ﷺ الَّذي قال له ربُّه في اللَّحاقِ القريب: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾، وفيه أيضًا إشارةٌ إلى كمالِ ظهورِ هذا المعنى لجميعِ النّاسِ، ومنهم مَن يُخاطِبُهم الرَّسولُ بهذا الاستفهامِ.

علَّة التَّعبير بالضَّمير:

ما جاءَ على أصلِه في القرآنِ لا يخلو مِن حِكْمةٍ وفائدةٍ

عبَّر القرآنُ عن اسم الجلالة بالضَّمير في قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾، على الأصلِ والظّاهرِ؛ لبيانِ قوَّةِ التَّواصُلِ والتَّلازُمِ بين مضمونِ هذه الجملة ومضمونِ الجملةِ التي قبلَها، وأنَّ شأنَه تعالى مع السَّماوات والأرض، وشأنه فيهما يوصِلُ بسهولةٍ إلى إدراكِ العبدِ أنَّه سبحانه على كلِّ شيءٍ وكيلٌ، وأنَّ مَن أراد أنْ يُدرِك كونَه تعالى وكيلًا على كلِّ شيء؛ فلينظُر في شأنِه تعالى فيهما،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 54.

وكذلك العَلاقَةُ بينَ مضمونِ هذه الجملةِ ومضمونِ جملةِ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾.

نكتةُ تقديم الجارِّ والمجرور:

القَصْرُ يلفِتُ المتلقّينَ الكافرينَ إلى ما غفَلوا

قولُه تعالى: ﴿لَّهُۥ﴾ متعلِّقٌ بخبَرٍ مُقدَّم، وقولُه تعالى: ﴿مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ مبتدأ مُؤخَّرٌ، ويفيد تقديمِ المسندِ على المسند إليه معنى القَصْرِ، أي: مقاليدُ السَّماوات والأرض للّه، لا لغيره، قصر صفةٍ على موصوفٍ قصرًا إضافيًّا، وإنَّما استعمل القرآنُ أسلوبَ القصر، "معَ أنَّ المعنى دالٌّ على الاختصاصِ؛ لأنَّه لا يملكُ خزائنَ السَّماواتِ والأرضِ إلّا اللّه سبحانه"[1]؛ إبلاغًا في إثباتِ مقاليدِ السَّماوات والأرض للّه تعالى؛ إشارةً إلى كمالِ ظهورِ هذا المعنى؛ حتَّى لا يَبْقَى لأحدٍ نوعُ حُجَّةٍ أو شُبْهَةٍ، فيعدِل عن عبادته تعالى، أو يعبد معه غيرَه، أو يدعو إلى ذلكَ.

علَّة التَّعبير بـ: ﴿مَقَالِيدُ﴾:

المقاليدُ رأسُ معنًى كالخَلْقِ والوكالةِ

لفظ ﴿مَقَالِيدُ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾، قيل: لا واحدَ له مِن لفظِه، وقيل: هو جَمْعُ مِقْليد، ويُقال: إقليد، وأقاليد، وقيل: أصله فارسيٌّ، فإنْ قلتَ: ما للكتابِ العربيِّ المُبين وللفارسيَّةِ؟ فالجوابُ: التَّعْريبُ أحالَها عربيَّةً، كما أخرَجَ الاستعمالَ المُهْمَلَ مِن كونِه مُهْمَلًا، والمقاليدُ المفاتيحُ والأمورُ الجامعةُ القويَّةُ، ومعناها الخزائنُ، ولعلَّها سُمّيَت بذلك؛ لأنَّها تُحْصِنُ الأشياءَ، أي: تَحْفظُها، وتَحوزُها، والعربُ تقولُ: أقْلَدَ البحرُ على خَلْقٍ كثيرٍ؛ إذا أحْصَنَهُم في جَوْفِه[2]، فهو الألصقُ بـ ﴿وَكِيلٌ﴾، وهو نِتاجُ القَرْنِ بينَ إثباتِ الخَلْقِ وإثباتِ الوكالةِ له تعالى على صفةِ العمومِ التي

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 399.
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (قلد)، والزمخشري، الكشاف: 13/ 422 - 423، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 467، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 54.

أبانَ عنها لفظُ: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾، فكأنَّ معنى هذه الجملةِ رأسٌ بذاتِه معَ رأسِ جملةِ خلْقِ كلِّ شيء، ورأسِ جملةِ أنَّه على كلِّ شيءٍ وكيلٌ، فلفظ ﴿مَقَالِيدُ﴾ هو ألصقُ بالعُمومِ الذي في: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ لِما فيه مِن تفصيلٍ يرجعُ إلى معناه، وإلى صيغته أيضًا، أي: إنَّ مَن كان خالقَ كلِّ شيء، ومَن كان على كلِّ شيء وكيلًا؛ كان محيطًا بالكون كلِّه، وبيدِه مفاتيحُه وخزائنُه.

دلالة صيغة الجَمْعِ:

الكثرةُ مدخلُ العمومِ ومسلكُه، وهي عمودُ الجمل الثَّلاثِ

قوله تعالى: ﴿مَقَالِيدُ﴾ جَمْعُ كثْرَةٍ، وخزائنُ السَّماواتِ والأرض لا تكادُ تنفدُ، قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمۡ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٖۗ﴾ [النحل: 96]، وبهذه الكثرةِ غيرِ المُتناهيَةِ بالنِّسْبةِ لنا تَتَّسِقُ هذه الجملةُ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ معَ الجملتَيْنِ اللَّتيْنِ قَبْلَها: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾، و﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾، فهذه الكثرةُ تتقاطَعُ مَعَ العموم في لفظ: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾.

علَّة التَّعبير بـ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾:

السَّماواتُ والأرضُ مجلى وكالتِه وصورةُ عظَمَةِ خَلْقِهِ تعالَى

خَصَّ القرآنُ ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ بالذِّكْرِ في قولِه تعالَى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ لأنَّهما خزائنُ الكائناتِ، فهُما تفسيرُ لفظ العمومِ في الجملتَيْنِ السَّابقتَيْنِ: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ﴾؛ لأنَّ اللّه قد قرَّر أهل الكفر والشِّرْك خصوصًا بخلق كلِّ شيء بخلْقِ السَّماوات والأرض في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ﴾ [الزمر: 38]، وبهذا يَكمُلُ التَّآلُفُ بين الجملِ الثَّلاث: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ - ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ - ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾، وفي تخصيصِهما بالذِّكرِ تفصيلٌ للعموم، ووراءَ هذا التَّفصيلِ مِن المعنى إشارةٌ إلى كمالِ ظُهورِ أنَّ بيدِه تعالَى أمْرَ السَّماواتِ والأرض، فكيفَ يُغْفَلُ عنه تعالى؟ بل كيف يدعو أحدٌ أحدًا إلى عبادةِ شيءٍ معَ اللّهِ؟.

بلاغةُ الكناية والمجاز في الجملة:

ما عندَ الله مِن كُنوزٍ وخزائِنَ لا يَنْفَدُ، وهو وحده المُدَبِّر لها، المُتصرِّفُ فيها

قولُه تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ كنايةٌ عن صفة، وهي المُلْكُ والحِفْظُ والتَّدْبيرُ والتَّصرُّفُ؛ لأنَّ حافِظ الخزائنِ ومُدبِّرَ أمرِها هو الذي يملكُ مقاليدَها، ومنه قولُهم: فلانٌ أُلْقِيَتْ إليه مقاليدُ المُلْكِ، وهيَ المفاتيحُ، يُراد: صار مالِكًا حافِظًا مُدبِّرًا، ويحتملُ أنْ يكونَ استعارةً مكنيَّةً، وأنَّ ما في الأرضِ مِن كنوزٍ وذخائرَ، وما في السَّماءِ ممّا لا يعلمُه إلّا اللّهُ، كلُّ ذلك مُشَبَّهٌ بالكُنوز التي في الخزائنِ، وأنَّ حاجةَ النّاسِ إلى كلِّ ذلك حاجةٌ ماسَّةٌ، وحُذف المشبَّه به، ورُمِز له بشيء مِن لوازمِه، وهي المقاليدُ، وهذا الوجهُ جيِّدٌ؛ لأنَّ كلَّ ما يعيشُ به النّاسُ والحيوانُ والطَّيْرُ والدَّوابُّ، كلُّ ذلك مِن خزائن اللّه: ﴿قُل لَّوۡ أَنتُمۡ تَمۡلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحۡمَةِ رَبِّيٓ إِذٗا لَّأَمۡسَكۡتُمۡ خَشۡيَةَ ٱلۡإِنفَاقِۚ وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ قَتُورٗا ١٠٠﴾ [الإسراء: 100][1].

نكتة التَّقديم:

الجملةُ الثّالثةُ مِن تأليف المؤتلف، والرّابعةُ مِن تأليف المختلف

قدَّم القرآنُ جملةَ: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾ على جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ لأنَّ هذه الجملة المُقدَّمة مِن تمام ما قبلَها مِن الجملتَيْن: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾، فهي ثمرتُهُما؛ لأنَّه إذا كان سبحانه خالقَ كلِّ شيءٍ ومالِكَ كلِّ شيءٍ؛ فلا محالةَ أنْ تكونَ بيدِه مقاليدُ كلِّ شيءٍ، هذه نتيجةٌ مُتوقَّعةٌ، وهي أيضًا: توكيدٌ لهما؛ لأنَّ الذي بيدِه المقاليدُ هو الوكيلُ، وهو المالِكُ، ومع الجُمَل الثَّلاثة ينمو المعنى، ولكنَّك تدركُ أنَّ جزءًا كبيرًا مِن الذي في باطنها يُؤكِّدُ بعضُه بعضًا، فهذه الجُمَلُ الثَّلاثُ مُؤْتَلِفةٌ كما ترى؛ لأنَّها تجري في فَلَكٍ واحدٍ، وأصلُ المعنى فيهنَّ واحدٌ، وهو عِزُّ الألوهيَّة، وأمّا جملةُ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 13/ 423، والراغب، المفردات: (قلد)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 54، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 399.

﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾؛ فهي مُختلفةٌ عنِ هذهِ الجُمَلِ الثَّلاثِ؛ لأنَّها تُقرِّرُ موقفًا غريبًا مِن هذه الأدلَّةِ الظَّاهرةِ في الجُمَلِ الثَّلاثِ، وهو الكفرُ بها؛ لأنَّ الكفرَ بآياتِ اللّهِ كفرٌ بهنَّ[1].

سِرُّ الوَصْلِ بالواوِ:

هذهِ آياتُ اللهِ جليَّةٌ في الكَوْنِ، وهؤلاءِ قد كفروا بها

قولُه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ معطوفٌ بالواوِ على قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾، عطف جملة على جملة، على معنى: أنَّه عزَّ شأنُه مُتَّصِفٌ بهذه الصِّفات الجليلةِ الشَّأن، والذين كفروا، وجحدوا ذلك أولئك هم الكاملونَ في الخُسْرانِ، وليس معطوفًا على قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ﴾؛ لأنَّه مُتَّصلٌ بقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تَرَى ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى ٱللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسۡوَدَّةٌۚ﴾، فلو قيل بعدَ: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ﴾ الآية، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآية: لم يَحْسُنْ؛ لأنَّ الأحْسَنَ على هذا المَساقِ أنْ يُقدَّمَ على قولِه تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ﴾ الآية، ولأنَّ جملةَ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ الآية، كالتَّخلُّصِ إلى ما بعدَها، مِن حديثِ الأمرِ بالعبادةِ، وإخلاصِها للّه تعالى[2]، فبينَ هذه الجملةِ وما قبلها توسُّطٌ بينَ الكمالَيْنِ؛ لأنَّ كلًّا من هذه الجُمَلِ خبرٌ في اللفظِ والمعنى، وفي المعطوفِ عليه آياتُ اللّه التي كفر بها المُحدَّثُ عنهم، واسمُ الجلالةِ هو جوهرُ المعنى في الجملِ الأربعةِ، وحسَّنَ الوَصْلَ الاسميَّةُ فيهنَّ جميعًا.

علَّة التَّعبير بالموصول:

وَصَلوا الكُفْرَ بأنفُسِهم، فتمكَّن منهم، ورسَخ فيهم

في قولِه تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ عبَّر القرآنُ بالموصولِ الجمعيِّ الصّادِقِ على جماعةِ الذُّكورِ لفظًا وعليهم وعلى جماعةِ الإناثِ معنًى للتغليب؛ إشارةً إلى أنَّ هذا الكفرَ

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 393، 399، 340.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 24/ 23.

كانَ موقفَ جماعةٍ، أي: موقفًا جماعيًّا قويًّا، وأنَّ ممّا شجَّعَهُم عليه كونه موقفَ جماعةٍ، فقد قبِل كلٌّ منهم كذِب الآخرِ وباطِلَه وظُلْمَه، وصدَّقَ بعضُهم بعضًا، فلم يَنْهَ بعضُهم بعضًا، وقد أورد القرآنُ هذه الجملةَ عقبَ جُمَلٍ تبيِّن آياتِ اللَّه وعِزَّ الأُلوهيَّة، فكان مِن عظيم الجرم أنْ يَكْفُر أحدٌ بهذه الآياتِ الظّاهرةِ الباهِرةِ الجليَّةِ لكلِّ أحدٍ، وفي الموصولِ كذلك تشويقٌ إلى معرفةِ الصِّلةِ، وهذا مِن سُبُلِ تمكينِ المعنى في النَّفْسِ.

علَّةُ التَّعبير بالكفر مادَّةً وصيغةً:

الكفرُ بالأظهرِ والأبهرِ مِن الآياتِ عجيبٌ غريبٌ

جعَل القرآنُ فِعْلَ صلةِ الموصولِ الكُفْرَ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لأنَّه الأشكلُ بالآياتِ التي هي جَمْعُ آيةٍ، والآيةُ العلامةُ، هذه الآياتُ الظّاهرةُ الجليَّةُ التي فيها سَمْتُ الألوهيَّة قد سترَها هؤلاءِ القومُ المُحدَّثُ عنهم، "ولبَّسوا ما اتَّضح لهم مِن الدَّلالات، وجحدوا أنْ تكون الأمورُ كلُّها بيدِ اللَّه سبحانه"[1]، فكفروا بالوحدانيَّةِ والشَّريعةِ والنُّبوَّة، وتعمَّدوا ذلك كلَّه، وفي ذلك كلُّ عجبٍ وغرابةٍ مِن حالِهم، ولَمّا كان السّياقُ لحكايةِ حالِ هؤلاءِ فيما مَضَى؛ نظَم القرآنُ معنى الكفر فعلًا ماضيًا.

معنى الباء ودلالة التَّعبير بها:

يكفرون بالحقِّ بعدما تبيَّنَ أنَّه الحقُّ

الباءُ لا يكادُ يفارقُها معنى الإلصاقِ أو المُلابَسَةِ، فتدلُّ في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ على ما هو عجيبٌ وغريبٌ في بابِه؛ إذ مِن شأنِ الآياتِ ألّا يُكْفَر بها، حتى إنَّها لا يتسلَّطُ عليها الكفرُ في اللَّفظ، وهو أنَّ كفرَهُم أحاطَ بالآياتِ، وتمكَّنَ منها، وأنَّ كفرَهُم كانَ بعدَ عِلْمٍ بهذه الآياتِ، وأنَّها آياتُ ذي الجلالِ والإكرام، فكان كفرًا مُتعمَّدًا جريئًا، بعدَما قامَتِ الحُجَّةُ عليهم، وظهَرَتْ، وبهَرَتْ، وقَهَرَتْ.

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 467.

دلالةُ جَمْعِ القِلَّة:

في عدِّ جمع المؤنَّث السّالم جمع قلَّة رأيانِ، أحدُهما يقولُ: إنَّه موضوعٌ للقِلَّة، والآخَرُ يقولُ: إنَّه ملحقٌ بأوزان القِلَّة، ففي الجمعيَّةِ إشارةٌ إلى تعدُّدِ حُجَّةِ اللّه تعالى على العبادِ، فقد أحاطَهُم بما يدلُّهم عليه، ويوصِّلهم إليه، وأشارَتِ القِلَّةُ في الآياتِ إلى تميُّزِها، شأنُ كلِّ قليلٍ؛ لأنَّ فيها سيما جلالِ اللّه وجمالِ اللّه وكمالِ اللّه ﷻ، بقرينة الإضافةِ إلى اسمِ الجلالةِ ﴿ٱللَّهِ﴾ الذي هو أكبر أسمائه سبحانه وأجمعها[1].

قد قامَتْ على أهلِ الكفرِ الحُجَّةُ البالغةُ على جهةِ الكمالِ والتَّمامِ

علَّة التَّعبير باسم الجلالة مُظْهَرًا:

كان الظّاهرُ أنْ يقول القرآنُ: (والذين كفروا بآياته)، ولكنَّه صرَّح بلفظ الجلالةِ؛ تنبيهًا على كمال حضورِ جلالِه وجمالِه وكمالِه في الآياتِ، عندما تلقّاها أولئك الذين كفروا بها، ففي كلِّ آيةٍ سيما الألوهيَّةِ الحقَّةِ، قال البقاعيُّ: "﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، أي: الذي لا ظاهرَ غيرُها، فإنَّه ليس في الوجودِ إلّا ذاتُهُ سبحانه: وهي غيبٌ، لا يُمكن المخلوق دركها، وأفعالُه: وهي أظهرُ الأشياءِ، وصفاتُه: وهي غيبٌ مِن جهةٍ، شهادةٌ مِن جهةٍ أُخرَى"[2].

ظهَر لهم الحقُّ، فكفروا به

دلالة الإضافة في ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾:

أضافَ القرآنُ الآياتِ إلى لفظ الجلالة الجامع للكمالات المطلقة، والذي ترجِع كمالاتُه إلى هذه الآيات في قوله تعالى: ﴿بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾، فدلَّ هذا على أنَّ الآياتِ تكتسبُ مِن كماله تعالى ما يزيدُها جلاءً[3]، وأنَّ كمالَه ظاهرٌ بقوَّةٍ في الآياتِ؛ لدلالة الإضافة على معنى الاختصاصِ، فإنَّها في الأصلِ تكون لأدنى ملابسةٍ، كأنَّ

مَن أبْصَرَ الألوهيَّةَ في الآياتِ؛ آمَن بها

(1) القرطبي، الدامع لأحكام القرآن: 1/ 102.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 467.

(3) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 402.

المعنى: أنَّها ليست إلّا آياتِ اللّه، فهيَ تَنْطِقُ بألوهيَّةِ صاحبِها وكمالِ جلالِه وكمالِ جمالِه.

علّة التَّعبير بـ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾:

ضلّوا عن آيات الله، فخابوا، وخسروا

قولُه تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ خبرُ الموصولِ، وإنَّما عبَّر القرآنُ باسمِ الإشارةِ للبعيدِ: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، وكان مِن الممكن أنْ يقال: (والذين كفروا بآيات اللّه هم الخاسرون)؛ دلالةً على الغضبِ الإلهيِّ، مِن كفرِهم بالآياتِ الظّاهرة الباهِرةِ، ففيه معنى تمييزِهِم أكملَ تمييزٍ قبلَ الإخبارِ عنهم بأنَّهم هم وحْدَهم الخاسِرونَ، وفيه دلالةٌ على بُعْدِهِم مِن رضا اللّه ورضوانه، وهو بُعْدُ غضبٍ، وفيه تنبيهٌ على أنَّ المُشارَ إليهم خسروا لأجْلِ ما وُصِفوا به قبلَ اسْمِ الإشارةِ، وهو الكُفْرُ بآياتِ اللّه التي هي دلائلُ وجودِه ووحدانيَّتِه التي أشارَتْ إليها الجملُ الثّلاثُ السّابقةُ[1].

دلالة ضمير الفَصْل:

في ضمير الفصل مع تعريف الطَّرفيْنِ إبلاغٌ في لفْتِهم إلى عِظَم الخسارةِ في الآخرة

لفظُ: ﴿هُمُ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ ضميرُ فَصْلٍ، يدلُّ توسُّطُه بين طرفَي الإسناد على حصر الخسارة في المُحدَّثِ عنهم، وقصرِها عليهم قصرَ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا حقيقيًّا ادِّعائيًّا؛ بناءً على عدم الاعتداد بخسارة غيرِهم بالنِّسْبةِ إلى خسارتِهم، فخسارتُهم أعظمُ خسارةٍ"[2]، وهذا ناظرٌ إلى مطلق الخُسْرانِ، وكذلك إذا فهِمْنا أنَّه قصرٌ إضافيٌّ قلبيٌّ؛ نظرًا إلى أنَّ المُحدَّثَ عنهم مِن الكافرين يزعمون أنَّ المؤمنين هم الخاسرون، وإنَّما يكونُ قصرًا حقيقيًّا تحقيقيًّا؛ إذا لوحِظَ معنى الكمال في تعريف المسند: ﴿ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ بـ(ال).

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 467، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 55 - 56، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 402.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 55.

علَّة التَّعبير بالخسارة:

المحرومُ مَن لم ينقَدْ لآياتِ ذي السُّلْطانِ المطلقِ

وصَف القرآنُ الذين كفروا بآيات الله بأنَّهم هم: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾؛ لأنَّ الخبرَ وصْفٌ في المعنى لصاحبِه؛ نظرًا إلى معنى الفوز في قوله تعالى: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ بِمَفَازَتِهِمْ﴾؛ ليحصلَ التَّقابُلُ بينَ الفريقَيْنِ، ففريقٌ فازَ، وفريقٌ خسِرَ، "ولأنَّهم كفروا بآياتِ مَن له مقاليدُ خزائنِ الخيرِ، فعرَّضوا أنفسَهُم للحِرْمانِ مِمّا في خزائنِه، وأعظمُها خزائنُ خيرِ الآخرة"[1].

بلاغةُ التَّعريف بـ(ال):

كـمـلـوا في الكفر، فكملت خسارتهم وخسرانهم

عرَّف القرآنُ خبرَ اسم الإشارة بـ(ال) في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وبهذا التَّعريفِ وتعريفِ المسند إليه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾: يحصلُ معنى القصرِ، قصرِ المسند على المسند إليه، أي: ما الخاسرُ إلّا أولئك، و(ال) تدلُّ على معنى الكمالِ، أي: أولئك هم الكاملون في الخسارة أو الخُسْرانِ؛ لأنَّهم كفروا بمَن ظهَرت ألوهيَّتُه في آياته ظهورًا بيِّنًا لكلِّ ذي عينَيْنِ؛ لأنَّها حقائقُ ثابتةٌ، فقد ظهَر لهم أنَّه الخالقُ لكلِّ شيءٍ، وهم يُقِرّون بخالقيَّته، وأنَّه على كلِّ شيءٍ وكيلٌ، فهل مِن خالق غيرُ الله يرزقهم من السَّماوات والأرضِ؟ وهو الَّذي له مقاليدُ السَّماوات والأرض، فهو المُنْعِمُ عليهم مِن خلالهما نِعَمًا لا تكاد تُعَدُّ، ولا تُحْصَى.

سِرُّ حَذْفِ مُتعلِّقِ الخسران:

خسران الآخرة هو الخسران المبين

قولُه تعالى: ﴿ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ اسمُ فاعلٍ من الفِعْلِ الثُّلاثيِّ: (خَسِرَ)، وهو يعملُ عملَ الفِعْلِ، وفعلُه يتعدَّى بنفسِه إلى مفعولٍ، كما في غير قليل من آي القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف: 9]، ولَمّا كان هذا الخسران عظيمًا في بابِه؛ لأنَّه نتاج الكفر بما قامت

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 55.

فيه دلائلُ الألوهيَّة الحقَّة جليَّةً بيِّنةً باهِرةً؛ كانَ سرُّ الحذفِ الدَّلالةَ على عمومِ المحذوفِ إيجازًا؛ مشيرًا إلى غايةِ الغضبِ الإلهيِّ عليهم، أي: خسروا أنفسهم، وخسروا الحقَّ، وخسروا الإيمان، وخسروا صُحْبة النَّبيِّ ﷺ وخسروا القرب من الله، ورضاه عليهم، ورضوانه الأكبر، وغيرَ ذلك مِن خيرِ الحياة الآخرة.

﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ ٦٤﴾ [الزمر: 64]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لم يكتفوا بكفرهم بل دعوا الرَّسول نفْسَه إليه، فترقَّوا في باب المعصية

في الآيةِ السّابقةِ لَمّا ذكَر تعالى موقفَ جماعةٍ مِن النّاسِ؛ تجاهلوا آياتِ اللّه الدّالَّةَ على وحدانيَّته تعالى، والتي قرَّرتها جملٌ ثلاثٌ في سياقِ السِّباقِ المُباشرِ، مِن جملةِ الخَلْق، وجملةِ الوكالة، وجملةِ المقاليدِ، وكفروا بهذه الآياتِ، فكانوا كُمَّلًا في الخُسْرانِ، ترقَّى الخطابُ في الإخبارِ في هذه الآيةِ، فبيَّنَ فيها أنَّ القومَ الكافرينَ بلَغوا في الفُجور مبلغًا تجاوزَ كلَّ حدٍّ؛ لأنَّهم دَعَوا رسولَ اللّه محمَّدًا ﷺ نفْسَهُ إلى عبادةِ غيرِ اللّه، وأمروه بذلك، فأمَرَهُ بأنْ يرُدَّ عليهم، وأنْ يُنكِر عليهم ما كان منهم تُجاهَهُ بما يصدعهم به[1].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

المشركون جاهلون بالله تعالى وبحقِّ نبيِّه ﷺ

في هذه الآيةِ الكريمةِ يأمرُ اللّه نبيَّه ورسولَه محمَّدًا ﷺ أنْ يقولَ لأهلِ الكفرِ - الذين أمروه بأنْ يعبُد آلهتَهم، على أنْ يعبدوا إلهَهُ اللّهَ ربَّ العالمينَ - قولًا غليظًا، مُنكِرًا عليهم عبادتَه غيرَ اللّهِ، ممّا يدخلُ فيه آلهتُهم وغيرُها، أو مُنكِرًا عليهم أمْرَهُم إيّاهُ بذلك، ومُناديًا عليهم نداءَ إهانةٍ وتحقيرٍ بعُنْوانِ الجهل الذي رسخَ فيهم، وتمكَّنَ؛ إذ جهلوا الوحدانيَّة، وجهلوا الحقيقة المحمَّديَّةَ حتَّى تجرَّؤوا، فأمروه ﷺ بالكفرِ.

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الأمر: ﴿قُلۡ﴾:

أهلُ العِلْمِ مأمورونَ بالتَّصدّي للدَّعوة إلى غير دين الله تعالى

لَمّا كان الأمر الذي دعا المشركون إليه رسول اللّه ﷺ شيئًا شنيعًا، وهو عبادة غير اللّه تعالى؛ أمَر اللّهُ رسولَه محمَّدًا ﷺ بأنْ يقولَ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 545.

لهم: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾، أنْ يَرُدَّ عليهم، وأنْ يوبِّخَهُم، ويُعنِّفَهُم، ويُبكِّتَهُم، فما تجرَّؤوا عليه جِدٌّ عظيم، مِن شأنِه أنْ يتصدَّى له رسولُ اللّه ﷺ وأنْ يتصدّى له رُسُلُ رسولِ اللّه، مِن الدُّعاة إلى اللّه مِن أهلِ العِلْم؛ لأنَّهم الذين مِن شأنهم أنْ يتصدّوا لمِثْلِ ذلك، هذه دلالةٌ خاصَّةٌ لهذا الأمر هنا، والذي معناه الوجوبُ.

دلالةُ موقِعِ الأمر: ﴿قُلۡ﴾:

مِن أحوالِ أهلِ الكفرِ ما ينبغي أنْ ينتصِبَ له أهلُ العِلْمِ بالقرآنِ والسُّنَّةِ

ذكَر ابنُ عاشورٍ أنَّ فِعْلَ الأمر ﴿قُلۡ﴾ توسَّطَ بينَ التَّفريعِ والمُفرَّعِ عنهُ مُعترضًا بينهما؛ لتصيير المقام لخطابِ المشركين خاصَّةً، بعدَ أنْ كان مقامُ الكلامِ قبلَه مقامَ البيانِ لكلِّ سامعٍ مِن المؤمنينَ وغيرِهم، فكان قولُه تعالى: ﴿قُلۡ﴾ هو الواسطةَ في جَعْلِ التَّفْريعِ خاصًّا بهم، وهذا مِن بديعِ النَّظْم ووَفْرةِ المعاني، وهو حقيقٌ بأنْ نُسمّيَه: (تلوين البساط)[1]، والانتقالُ من العموم إلى الخصوصِ لا يحتاج إلى كلمة: ﴿قُلۡ﴾، فلو قال القرآنُ: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾؛ لحصَل هذا الانتقالُ، ولَمّا كان هناك لَبْسٌ، ولكنَّ هذا التَّعليلَ الذي ذكره الشَّيخُ الطّاهرُ جيِّدٌ؛ لأنَّه يشير إلى أنَّ هذا الأمر قطَع الكلامَ السّابقَ، واستأْنَفَ معنًى جديدًا، وهذا القَطْعُ، وهذا الاستئنافُ وراءَهُما أنَّ الكلامَ المُستأنَفَ له عندَ صاحبِ الكلامِ شأنٌ أيُّ شأنٍ، وهذا ظاهرٌ في الآية[2].

بلاغةُ الاستفهام:

في الاستفهام حرارةُ المعنى مِمّا يليقُ بشدَّة الغضب

صُدِّرتْ جملةُ مقولِ القولِ بالاستفهام بالهمزة: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾، والغرضُ منه الإنكارُ، ويردُف على هذا الإنكارِ التَّبْكيتُ والتَّوْبيخُ والتَّجْهيلُ، وما جَرَى في هذا الطَّريقِ مِن المعنى، "وإنَّما أنكر عليه السلام هذا الباطلَ بأداة الاستفهام، ولم يُنكره بحرف

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 56.

(2) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 405.

الإنكار، يعني: لم يقُل لهُم: لا ينبغي أنْ تأمروني بذلك؛ لأنّي لن أعبُد إلّا اللّه، وذلك ليَرْجِعوا إلى أنفسهم، ويَنظروا في الآيات البيِّنات، ويُراجِعوا ما هم عليه، فلعلَّ نفوسَهُم ترتدِع، ولعلَّ لَفْتةً مِن لفَتاتِ الحقِّ تكونُ باقيةً في الفِطْرة، فتُعْيي نفوسَهُم بما تواجَهُ، وترجع، وهذا الطَّريقُ فيه مزيدٌ مِن التَّشْنيعِ بهم؛ لأنَّه يقولُ لهم: لو راجَعْتُم؛ لارتدعْتُم، ولكِنَّكُم لا تُراجِعونَ[1]، والإنكارُ المُتعلِّقُ بالأمر توبيخيٌّ؛ لأنَّ المُنكَر قد كان، والإنكارُ المُتعلِّقُ بعبادة غير اللّه تكذيبيٌّ؛ لأنَّ ذلك لن يكونَ أبدًا.

معنى الفاء ودلالة التَّعبير بها:

هذه الآيةُ نتيجةُ المُقدِّمات، فهي المقصودُ بالإثباتِ

قد تقرَّرَ أنَّ آيةَ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ بدايةُ فَصْلٍ جديدٍ مِن المعنى، وأنَّ هذه الجملةَ والجملَ الثَّلاثَ التي بعدَها تمهيدٌ لقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾، فالفاءُ في قولِه تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ﴾ تفريعٌ للكلام المأمورِ الرَّسولُ ﷺ بأنْ يقولَه على هذه الجملِ الأربعِ؛ ليقرع به أسماعَهُم، فإنَّ هذه الحقائقَ المُتقدِّمةَ موجَّهةٌ إلى المشركينَ، فبعدَ تقرُّرِها عندَهم وإنذارِهم على مُخالَفةِ حالِهم؛ لِما تقتضيه تلك الحقائقُ؛ أُمِرَ الرَّسولُ ﷺ بأنْ يوجِّه إليهم هذا الاستفهامَ الإنكاريَّ مُفرَّعًا على ما قبلَهُ؛ إذ كانَتْ أنفسُهم قد خسئت بما جبَهها مِن الكلام السّابق؛ تأسيسًا لهم مِن محاولة صَرْف الرَّسول ﷺ عنِ التَّوحيدِ إلى عبادةِ غير اللّه، وما كان لهذا الإنكارِ أنْ يكون له هذا الثَّراءُ؛ لو لم تتقدَّمْ هذهِ الجُمَلُ[2]، ويجوزُ أنْ يكون ما بعد الفاء مفرَّعًا على محذوفٍ، وكأنَّ الكلامَ: أبعدَ ما سمعتُم الآياتِ البيِّناتِ الموجِبةَ للإيمانِ، تُرتِّبون عليها ليس رفض الإيمان فقط، وإنَّما طلب الكفر مِن

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 405.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 56، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 393.

المُؤيَّدِ بها؟ هذه الغايةُ التي ينتهي عندها فُجورُ الفَجَرة؛ لأنَّه ليس بعدَها موقعٌ لفُجورٍ[1].

سِرُّ العدولِ عن ذِكْرِ معبوداتِ الكفّارِ:

هذا العدولُ هو الأبلغُ في إنكار عبادتها والأمرِ بذلك

عبَّر القرآنُ عن الآلهة التي يعبدُها أهلُ الكفرِ والشِّركِ معَ اللّه أو مِن دونه بـ بالغيريَّة في قوله: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾، فلم يذكُر القرآنُ آلهتَهُم وأوثانَهُم وأصنامَهُم، وفي هذا كمالُ احتقارِها واحتقارِ عابديها بالانصرافِ عن ذِكْرِها، وفيه معنى الغضبِ عليهم، وفي عمومِ اللَّفظ: (غير اللّه) زيادةُ ذلكَ الغضَبِ، فكلُّ ما سوى اللّه ليس جديرًا بأنْ يُعبَد معَ اللّه أو مِن دونِه، وإنَّما الحقيقُ بذلك واحدٌ فقط، هو اللّهُ الواحدُ الأحدُ.

علَّة التَّعبير بـ: (غير) مادَّةً وصيغةً:

الأغيارُ كلُّهُم مُتساوون في مغايرةِ الله تعالى ذاتًا وصفاتٍ

في التَّعبير بالغَيْريَّةِ في قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى ظهورِ الاختلافِ بينَ الحق سبحانه، وبينَ آلهتهم خصوصًا وما سوى اللّه عمومًا في الذّاتِ والصِّفاتِ، فالمُغايرةُ ظاهرةٌ لكلِّ أحدٍ عاقِلٍ مُنْصِفٍ، ولو أنَّ أحدًا تأمَّلَ في كلِّ مخلوقٍ على حدةٍ، مهما عظُم؛ لأبصر أنَّ اللّه غيرُه، فهو تعالى ليس كمِثْلِه شيءٌ، وكذلك لو تأمَّلَ في كلِّ جماعةٍ أو طائفةٍ أو أُمَّةٍ، وهذا فائدةُ صيغة: (غير)؛ لأنَّها تأتي مع المفرد والمُثنَّى والجَمْع، والمُذكَّرِ والمُؤنَّث، وإنْ كانت تُجْمَع على: (أغيار).

نكتةُ تقديم المفعول (غير):

الألوهيَّةُ الحقَّةُ هيَ الدّاعيةُ إلى العبادة وإخلاصِها

أتَى القرآنُ بكلمة: (غير) عقبَ همزة الاستفهام والفاءِ، فدلَّ هذا على أنَّ: (غير اللّه) هو مَحَطُّ الإنكار، وتقديمُه وتوجيهُ الإنكارِ إليه يشيرُ إلى معنًى، هو أنَّ (غيرَ اللّهِ) يَفْقِدُ أهليَّةَ ما تدعونني إليه، وليس بمنزلة أنْ يُعبَد؛ لأنَّ الذي يُعبَد هو الَّذي خلَقَ كلَّ شيء، وهو

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 405، والآلوسي، روح المعاني: 24/ 23.

على كلِّ شيء وكيلٌ، وهو الذي له مقاليدُ السَّماوات والأرض، ومِثْلُه لا يجوز في العقل أنْ يكون له شريكٌ، وليس غيرُه أهلًا لأنْ يُعْبَدَ، والتَّقْديم مُؤَسَّسٌ أيضًا على أنَّ مقام الغَيْرة يقتضي مَحْوَ الأغيار، وأنَّ الغَيْرَ إذا انْمحَى؛ تبِعَه جميعُ أعراضِه، وتقديمُ محلِّ الإنكار على فعلهم أرجعُ لهم، وتأخيرُ ما سبق مِن الكلامِ أروعُ لهم[1].

موقع جملة: ﴿تَأۡمُرُوٓنِّيٓ﴾ ودلالتُه:

وقعَتْ جملةُ: ﴿تَأۡمُرُوٓنِّيٓ﴾ اعتراضًا بينَ معمول فِعْلِ العبادة: (غير اللّه) والفعل: ﴿أَعۡبُدُ﴾؛ للدَّلالة على أنَّهم أمروه به عقيبَ ذلك، وقالوا له: (استلِمْ بعضَ آلهتنا نؤمنْ بإلهك)؛ لفرط غباوتهم، ولذا نودوا بعنوان الجهل[2]، وفي وقوعِها اعتراضًا لفْتٌ إلى عظيم جُرْمِهم؛ لأنَّ الشَّناعةَ كلَّ الشَّناعة في كلمة: ﴿تَأۡمُرُوٓنِّيٓ﴾؛ لأنَّ الجرأةَ والفجور والاستكبار والاستهتار، كلُّ ذلك في أمرِهم للمُؤَيَّدِ بالآيات الظّاهرة الباهرة أنْ يعبُد الطّاغوتَ، ولو قال: (أفغير اللّه أعبد)؛ لكان كلامًا آخرَ، وكان أقرب إلى قوله تعالى: ﴿قُلۡ أَغَيۡرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيّٗا﴾ [الأنعام: 14][3]، ومِمّا يُقوّي هذا اللَّفْتَ مَدُّ الصَّوتِ في: ﴿تَأۡمُرُوٓنِّيٓ﴾، فهو أوكدُ في معنى الكلام، وأفزعُ، وأهولُ، وأفظعُ[4].

كيفَ تجرَّؤوا على أكمل الخَلْقِ، وأمَروهُ بالكُفْرِ

بلاغةُ الالتفات:

في الآية السّابقة كان الحديثُ عن أهلِ الكفر بطريقِ الغَيْبة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، وفي هذه الآيةِ كان يُمكن أنْ يُقالَ: (أفغير اللّه يأمروني)، ولكِنْ صرَفَ القرآنُ الكلامَ إلى خطابِهم؛ لأنَّه أقْعدُ في إرهابِهم، وأشدُّ في اكتئابِهم[5]،

لا بُدَّ مِن مواجهةِ الدُّعاةِ إلى الشَّرِّ والسّوءِ والكفرُ أقبحُ ذلك

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 467، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 406، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الحكيم: 3/ 447.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 610، والآلوسي، روح المعاني: 24/ 23.

(3) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 406.

(4) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 467.

(5) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 467.

وتأسَّسَ على هذا أنْ يقول بعدَه: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾، وأفاد الخطابُ أنَّ ثمَّة جارًّا ومجرورًا محذوفًا بعد فعلِ الأمر ﴿قُلْ﴾، أي: (قل لهم: أفغير الله تأمروني أعبد).

علَّة التَّعبير بالأمر مادَّةً وصيغةً:

استحكم الكفر في نفوسهم وقلوبهم؛ حتَّى صاروا دُعاةً إليه

عبَّر القرآنُ بالأمرِ في قولِه تعالى: ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ دونَ الطَّلبِ أو الدَّعوةِ ونحوِ ذلك - وهذا الأمرُ ضِدُّ النَّهْيِ - تصويرًا لكمالِ رغبةِ الذين كفروا بآيات الله في كفرِه ﷺ وعبادتِه ما يعبدونه مِن دون الله سبحانه، وحقَّقَ القرآنُ ذلك بالعُدولِ عن نَظْمِ الأمر ماضيًا إلى نَظْمِه مضارِعًا؛ لأنَّهم قد أمَروه قبلَ هذا الخطابِ، فالظّاهرُ أنْ يُقال: (أمرتموني)؛ وإنَّما قال: ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّهُم مُصِرّونَ على موقفِهم، وأنَّ شأنَهُم أنْ يُجدِّدوا أمرًا له ﷺ بما أمروه به قبلَ الخطابِ، وأنْ يَستَمِرّوا في ذلك وعليه.

التَّوجيه البلاغيُّ لقراءاتِ قولِه: ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾:

الأمـرُ بالكفرِ ذِرْوةُ المعصيةِ والجرأةِ على الله الخالقِ؛ فلهذا تعدَّدَت قراءتُه؛ احتفالًا به

فقرأ المدنيّان بتخفيف النون (تأمروني)، وقرأ ابن عامر بنونين خفيفتين الأولى مفتوحة والثانية مكسورة (تأمرونَني)، وقرأ الباقون بنون واحدة مشدَّدة ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾[1].

وفي قراءةِ الإدغام ﴿تَأْمُرُوٓنِّيٓ﴾ مَدٌّ ناتجٌ عن الإدغام، ومَدُّ الصَّوتِ أوكدُ في معنى الكلامِ، وأفزعُ، وأهولُ وأفظعُ، ولعلَّ الإدغامَ إشارةٌ إلى أنَّهُم حاولوه ﷺ في أمْرِ آلهتِهم على سبيلِ المَكْرِ والخِداعِ[2].

وفي قراءة إثباتِ النّونِ (تأمرونني) إشارةٌ إلى كمالِ رغبتِهم في تحقيقِ المأمورِ به، وفيه أيضًا: إشارةٌ إلى صبرهم وطولِ نفَسِهم في دعوته ﷺ إلى الكفر والباطل، وهذا مُؤسَّسٌ على امتلاءِ نفوسهم

(1) ابن الجزري، النشر: 2/ 363، 364.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 467.

وقلوبهم بالكفر وبكونه شيئًا حسَنًا، والذي تأسَّسَ عليه أمرُهم إيّاه ﷺ به، وهذا الامتلاءُ صورتُه إثباتُ النّونِ.

وفي حذفِ النّونِ على قراءة: (تأمروني) إشارةٌ إلى ضعفِ هذا الأمر وآمرِه، ونقصهما، وحقارتهما، وبطلانِ الأمرِ وبطلانِ غايةِ الآمرِ.

علَّةُ التَّعبير بالعبادة مادَّةً وصيغةً:

الخسيسُ مَن وقَع في منقصة فأحَبَّ أنْ يقع الشَّريفُ فيها

قوله تعالى: ﴿أَعۡبُدُ﴾: هو ناصِب: (غيرَ)، وإنَّما عبَّر القرآنُ بالعبادةِ دونَ الدُّعاءِ (أدعو)؛ لأنَّ الدُّعاءَ يُصَوِّرُ إقبالَ العابِد الدّاعي بكُلّيَّته على ما يعبدُه، أو ما يُراد له أنْ يَعْبُده، والعبادةُ أعمُّ من ذلكَ، وهم يأمُرونَه ﷺ بأصلِ العبادةِ، فالأهَمُّ عندَهم أنْ يُشارِكَهُم في عبادةِ آلهتِهم، وليس نوعًا مخصوصًا مِن أنواعِ العبادةِ، وفي نظمه مضارعًا إشارةٌ إلى عظيم رغبتهم في تحقُّقِ ما أمَروه به ﷺ كأنَّهم يريدونه أنْ يُجدِّدَ ذلك، ويستمرَّ عليه، ويُداوِمَ عليه، فليس رغبتُهم في أنْ يُصيب الكفرَ - حاشا مقامه الشَّريف - ولو مرَّةً واحدةً، وإنَّما في إدامةِ ذلك واستمراره.

نكتةُ التَّقديم:

في التَّقديم فائدةُ ترابُطِ المعاني وتماسُكِها، وبيانُ قَصْدِ السّياقِ

قدَّم القرآنُ جملةَ: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾ على جملة: ﴿أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾؛ لأنَّها الألصقُ معنًى بما قَبْلَه مباشرةً: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، فمِن وجوه المعنى فيه تفريعُ الفاء ما بعدها على مجموعِ الجملِ الأربعةِ قبلَها، وأمّا قولُه تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾؛ فهو راجِعٌ في الأساسِ إلى الجملِ الثَّلاثِ المشتملة على الدَّلائلِ التي جهلوا ما تفيدُه، من الوحدانيَّة: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾ - ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ﴾ - ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾، وفي هذا التَّقديم دلالةٌ على شدَّة الغضب؛ لأنَّ جملةَ النِّداءِ من شأنِها أنْ تأتيَ تمهيدًا لِما بعدَها، فكأنَّ الأصلَ أنْ يُقال: (أيُّها الجاهلون أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون)،

فكان في المُبادَرَةِ إلى الإنكارِ عليهم ما كان منهم تُجاهَ النَّبيِّ ﷺ دالًّا على قوَّة الغضبِ وشِدَّته.

بلاغةُ النِّداءِ:

خطابُ الجاهلينَ قد يكونُ خطابَ إيجازٍ غضبًا عليهم

قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ مِن فرائد سورة الزمر، فلم يتكرَّر في القرآنِ العظيم، وهو أسلوبُ نداءٍ، حُذِفَت فيه أداةُ النِّداءِ، فتُقدَّرُ بـ: (يا)؛ لأنَّها لنداءِ البعيدِ، وهؤلاءِ الجاهلونَ المُنادَوْنَ - وإنْ كانوا قريبينَ مِن المُنادي حِسًّا - بعيدونَ منه وعنه عقيدةً وعملًا، فهُم أبعدُ ما يكونون عن الحقِّ المُبِين، وهم في غفلةٍ في غاية العظمة؛ لأنَّهم صاروا دُعاةً إلى الكفرِ الذي ترفضُه الحقائقُ الثّابِتةُ الظّاهِرةُ الباهِرةُ، وتجرَّؤوا على النّورِ المحمَّديِّ الكاملِ المُكمِّلِ ﷺ بدعوته إلى عبادة آلهتهم؛ فلذلك نودوا، وكان النِّداءُ بـ: (يا)، وبولِغَ في إيقاظهم وطلبِ إصغائهم إلى الخطاب؛ لعلَّهم يهتدون بهاء التَّنْبيه، وفي حذفِ (يا) دلالةٌ "على المسارعة لقرْعِ أسماعهم بهذا الخطاب؛ لَمّا زادوا في فُجورِهم، وزادوا في عُتوِّهم، وكانوا كقوم فرعونَ الذين تعهَّدَهُم الرَّجُلُ الصّادقُ المؤمنُ، وحدَّثَهم برِفْقٍ وحُبٍّ وإخلاصٍ، وأخيرًا دعوه هم إلى الشِّرْكِ"[1]، وفيه أيضًا: إشارةٌ إلى كمال الغضبِ عليهم، كما يوجَزُ البيانُ في خطابِ الذي تضيقُ منهم الصُّدورُ، وتنقبضُ النُّفوسُ، ولله المَثَلُ الأعلى، وإنْ كان هذا صادقًا عليهم وعلى رسولِه ﷺ والمُنادَى هنا نكرةٌ مقصودةٌ: (أيُّ) مبنيٌّ على الضَّمِّ، و﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ بدلٌ منه، وفي مجيء ﴿ٱلْجَٰهِلُونَ﴾ البيانِ بعد: ﴿أَيُّهَا﴾ الإبهام إشارةٌ إلى أنَّهُم يُعرَّفونَ بالجَهْل، وبه يشتهرونَ، وفي هذا كلُّ ذمٍّ وتقبيحٍ لهم، وتشهيرٍ بهم.

علَّة التَّعبير بالجهل:

لَمّا كان الأمرُ بشيءٍ إنَّما يكونُ مُؤسَّسًا على العِلْمِ به، بل الإحاطةِ به،

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 404.

وكانَتْ عبادةُ غيرِ اللّه غيرَ ثابتةٍ، فلا يوجَدُ لها دليلٌ يُثْبِتُ صِحَّتَها، بل توجَدُ دلائلُ على نفي صِحَّتها، وإثباتِ بطلانها، فكانَتْ أجهلَ الجَهْلِ، وكانَ الجَهْلُ مَحَطَّ كلِّ سُفولٍ؛ وصفَ القرآنُ المُحدَّثَ عنهم بالجهل في قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾، والجهلُ هنا ضِدُّ العِلْم، وهو التَّقدُّمُ في الأمورِ المُنْبهِمة بغير عِلْم؛ لأنَّهُم جهلوا دلالةَ الدَّلائلِ المُتقدِّمة، فلم تفد منهم شيئًا، فعموا عن دلائل الوحدانيَّةِ التي هيَ بمَرْأى منهم ومَسْمَعٍ، فجهلوا دلالتَها على الصَّانِع الواحدِ، ولم يَكْفِهم هذا الحَظُّ من الجَهْلِ حتّى تدلّوا إلى حضيضِ عبادةِ أجسامٍ من الصَّخْرِ الأصَمِّ، وإطلاقُ الجهل على ضِدِّ العِلْمِ إطلاقٌ عربيٌّ قديمٌ[1].

وصفهم بالجهل غـايـة الغـضـب عليهم والرَّفْضِ لهم والانصرافِ عنهم

وفي ندائهم بوصف ﴿ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ فائدةٌ أُخْرَى، وهيَ تقريعُهُم بعدَ أنْ وُصِفوا بالخسرانِ في قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾، فجُمِع لهم بين نقصِ الآخرة ونقصِ الدُّنيا[2]، وإذا كانَ في وصفِهم بالجهلِ إيماءٌ إلى الغضبِ الإلهيِّ؛ فإنَّ في إثباتِه بصيغةِ الإيجاب ﴿ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾ الموجَزةِ - دونَ صيغةِ السَّلْبِ: (غير العالِمينَ) المُطْنبَة - إشارةً إلى شِدَّةِ ذلك الغضبِ.

دلالةُ الاسميَّة:

الأمرُ بالمعصيةِ كـمـالٌ في المعصيةِ

نظَم القرآنُ وصفَ الذين كفروا بآياتِ اللّه بالجهل اسمًا في قوله تعالى: ﴿ٱلْجَـٰهِلُونَ﴾؛ للدَّلالةِ على إصرارِهم على الكُفْرِ بآياتِ ذي الجلالِ سبحانه، فكانوا راسخينَ عريقينَ كاملينَ في الجهلِ، مِن أهلِ المستوى الأعلى مِن مستوياته، ووصولُهم إلى تلك الدَّرجةِ التي تجاوزوا فيها الكفرَ إلى الأمر به، بل إلى أمرِ رأسِ أهلِ الإيمانِ والإسلامِ، وسيِّدِ الأنبياءِ والرُّسُلِ، محمدِ بن عبد اللّه ﷺ إنَّ وصولَهُم إليها يستوجب الغضب الشَّديدَ والخسرانَ العظيمَ.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 467، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 56.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 56.

مَن أمَر غيرَه بالكفر؛ كان الجهلُ بالله طبْعًا ودَيْدَنًا له

سِرُّ حذفِ مفعول ﴿ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾:

فِعْلُ الجهل يتعدَّى بنفسِه، ويتعدَّى بواسطةِ حرفٍ، يُقال: جهِل فلانٌ حَقَّ فلانٍ، وجهِل فلانٌ عَلَيَّ، وجهِل فلانٌ بهذا الأمرِ[1]، ولكنَّ اسمَ الفاعلِ منه، والذي يعملُ عملَه، لا متعلِّق له في قوله تعالى: ﴿أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾، وإنَّما حُذِفَ مفعولُه؛ "لتنزيل الفِعْل منزلةَ اللّازم، كأنَّ الجهلَ صار لهم سَجيَّةً، فلا يفقهون شيئًا، فهُم جاهلون بما أفادَتْه الدَّلائلُ مِن الوحدانيَّة التي لو علِموها؛ لَما أشركوا، ولَما دعوا النَّبيَّ ﷺ اتِّباعِ شِرْكِهم، وهم جاهلون بمراتبِ النُّفوسِ الكاملةِ؛ جهلًا أطْمعَهُم أنْ يَصْرِفوا النَّبيَّ ﷺ عنِ التَّوحيد، وأنْ يستنزلوه بخُزَعْبلاتِهم وإطماعِهم إيّاهُ أنْ يعبدوا اللّه؛ إنْ هو شاركَهُم في عبادةِ أصنامهم، يَحْسَبون الدّينَ مُساوَمةً ومُغابَنةً وتطْفيفًا"[2]، ونتج عن تنزيل اسم الفاعل المتعدّي منزلةَ اللّازم مَيْزةُ موافقةِ الكلمة: ﴿ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾ للفواصلِ قبلها وللفواصلِ بعدَها.

(1) ابن منظور، لسان العرب: (جهل)، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 57 - 58.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 57.

﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ٦٥﴾ [الزمر: 65]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

إذا عَمَّ الفسادُ؛ جاءَ التَّذْكيرُ بأُصولِ الإصْلاحِ

لَمّا بيَّن تعالى في سياقِ السِّباقِ القريبِ أنَّ جماعةً تَشِذُّ عن الظّاهرِ الذي توجِبُه أدِلَّةُ التَّوحيدِ، فكفرت بآياتِ اللّه، فكانت مِن الخاسرين، ثم ارتقى الحديثُ في خبرِ مَن شَذَّ مُنتقِلًا مِمَّن كفَر إلى مَن يدعو غيرَه إلى الكُفْر، وهذا هو الأشَدُّ شُذوذًا، ثمَّ يزدادُ الفُجورُ، فيدعو داعي الطّاغوتِ رسولَ اللّه إلى عبادةِ الطّاغوتِ، وهذا يعني أنَّ الفسادَ بلَغ مبلغَه، واتَّسَعَتْ رُقْعتُه، وعَمَّتْ؛ كانَ مِن المناسب تقريرُ هذا الأصلِ النّاهي عن الشِّرْكِ، والمُؤْثِم للشِّرْك، وأنَّه أصلٌ في النُّبوّاتِ كلِّها، في أقدمِها، وفي أعرقِها، وفي أوَّلِها، وفي آخِرِها، فهو الأصلُ الذي قامَتْ عليه، وأنَّه لا مُسامَحة معَ مَن تسامَحَ في شيءٍ منه، ولو كان هذا الَّذي تسامَحَ مِن الذين أنعمَ اللّهُ عليهم مِن النَّبيّينَ، والذين اختارَهُم ربُّنا، وجعَل فيهم رسالاتِه[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿لَيَحۡبَطَنَّ﴾: (حبط) أصلٌ واحدٌ يدلُّ على بُطْلانٍ وألَم، يُقال: أَحْبَطَ اللّهُ عملَ الكافرِ، أي: أَبْطَلَه، وأمّا الألَمُ؛ فالحبَطُ: أنْ تأكُل الدّابَّةُ حتَّى تُنْفَخَ لذلك بطنُها، والمقصودُ بقوله تعالى هنا: ﴿لَيَحۡبَطَنَّ﴾: ليفسدنَّ، فيبطلنَّ عملك، فلا يُبْقي له أثرًا ما من جهة القادر؛ لأنَّه أشركَ به فيه، وهو غنيٌّ لا يقبل إلّا الخالص؛ لأنَّه لا حاجة به إلى شيء، وأمّا مِن جهة غيرِه؛ فلأنَّه لا يقدرُ على شيء[2].

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 407 - 408.

(2) ابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (حبط)، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 468.

المَعنى الإجماليُّ:

الشِّرك بالله هو الخسران المبين

هذه الآيةُ تُخاطِبُ أكرمَ خلْقِ الله على اللهِ رسولَ الله محمَّدًا ﷺ على سبيل الفرض[1]، وتقولُ له تعريضًا بكلِّ من أشرك[2]: إنَّنا أوحينا إليك وإلى النَّبيّينَ والمُرْسَلينَ مِن قبلك أنَّه مَن أشْرَكَ منكم يُحْبَطُ عملُه، فلا يُجازَى عليه؛ لضياعِ ثوابِه، وذَهابِه وبطلانه، ويكونُ في الآخرة من الخاسرين.

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

سِرُّ الوَصْل بالواو:

الدَّعوة إلى التوحيد ونبذ الشِّرك من الأصول التي كثرت في كتاب الله تعالى

الواوُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾ الآية، تعطفُ ما بعدَها على مجموعِ قوله تعالى: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾، والمعطوفُ يُؤكِّدُ الإنكارَ الذي في المعطوف عليه بذِكْرِ علَّتِه، والمعنى: كيف أعبدُ غيرَ اللّه، وأنا خاتمُ مَن أوحَى اللّهُ إليهم - وهم صفوةُ خلْقِه - أنَّ مَن أشركَ منهم؛ فهو من الخاسرين، وهذه هيَ اللُّحْمةُ التي بين المعطوفِ والمعطوفِ عليه، فإنكارُ أمرِهم أنْ يعبد غيرَ اللّهِ هوَ امتثالُه لأمرِ ربِّه باجتنابِ الشِّرْكِ، ما ظهَر منه، وما بطَن[3]، وذهب ابنُ عاشورٍ إلى أنَّ ما بعدَ الواو معطوفٌ على جملة: ﴿قُلۡ﴾، وأنَّ موقعَ المعطوف مِن المعطوفِ عليه هو التَّأييدُ لأمرِه بأنْ يقولَ الرَّسول للمشركينَ تلك المقالةَ مقالةَ إنكار أنْ يطمعوا منه في عبادة اللّه، بأنَّه قولٌ استحقّوا أنْ يُرموا بغلظته؛ لأنَّهم جاهلون بالأدلَّة، وجاهلون بنَفْسِ الرَّسول وزكائها، وأُعْقِبَ بأنَّهُم جاهلون بأنَّ التَّوحيدَ هو سُنَّة الأنبياء، وأنَّهم لا يتطرَّقُ الإشراكُ حوالي قلوبِهم[4].

---

(1) التفسير الوسيط، مجموعة من العلماء: 8/ 591.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 58.
(3) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 409.
(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 58.

سِرُّ التَّوكيدِ في قوله: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾:

في ذاتِ التَّوكيدِ خصوصيَّةٌ تُصوِّرُ كمالَ خصوصيَّةِ المعنى المؤَكَّدِ

أكَّد القرآن الجملة بلامِ القَسَم و(قد) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾؛ تأكيدًا لِما في الخبرِ مِن التَّعريضِ بالمشركينَ، بأنَّهم حاولوا النَّبيَّ ﷺ على الاعترافِ بإلهيَّةِ أصنامِهم[1]، وهذه اللّامُ الدّاخلةُ على حرف التَّحْقيقِ (قد) هيَ لامُ التَّوكيد، والأصلُ أنْ تدخل على الفِعْل، ولكنَّها دخلَتْ على كلمة (قد)؛ لأنَّ كلمة (قد) إذا دخلَتْ على الفِعْلِ؛ صارَتْ جزءًا منه، فدخلَتِ اللّامُ على جزءِ الفِعْلِ، وهذا يعني أنَّ كلمة: (قد) تجعلُ التَّحقيقَ كأنَّه جزءُ الفِعْل، واللّامُ مُؤكِّدةٌ لهذا التَّوكيدِ، وهذا يعني أنَّ المعنى المُحقَّقَ المُؤكَّدَ له عند الحقِّ جلَّ شأنُه مقامٌ أيُّ مقام؛ حتَّى أكَّدَه بهذه الصّورة.

علَّة التَّعبير بالوَحْيِ مادَّةً وصيغَةً:

تـقـريـر الـخـبر مـصـحـوب بشديد الغضب

الوحيُ في قولِه تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ﴾ هو الإعلامُ من اللّه بواسطةِ المَلِكِ[2]، وإنَّما عَبَّر به القرآنُ دونَ الإرسالِ ونحوه؛ ليرشَح، ويُضْفي على الموحَى به الجلالَ والأهميَّةَ الشَّديدَةَ والغرابةَ والعظمةَ؛ لأنَّ معنَى الإرسالِ في نفْسِه مألوفٌ، وأمّا الوَحْيُ؛ فغيرُ مألوفٍ، ففيه احتفالٌ بمعنى الكلام، يُضاف إلى الاحتفال به بحضورِ الواو في صدرِ الآيةِ على خلافِ الظّاهر كما تقدَّم، وفي التَّعبيرِ به معنى الحَسْمِ والفَصْلِ، والدَّلالةُ على الغضب؛ لأنَّ أصلَ الوحي الإشارةُ السَّريعةُ.

ونظَم القرآنُ معنى الوَحْي فعلًا ماضيًا؛ لبيانِ أنَّه أمرٌ مُقرَّرٌ لدى الأنبياءِ والرُّسُلِ السّابقينَ، ولدى نبيِّنا محمدٍ ﷺ فهذا الموحَى بِهِ أصْلُ أُصولِ الدّين الإسلاميِّ.

دلالة بناءِ الفِعْلِ لِما لم يُسَمَّ فاعِلُه:

كان مِن الممكن أنْ يُقال: (ولقد أوحى اللّه إليك وإلى الذين من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 58.
(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 58.

في حذف الفاعل تنزيهُه عن سياقِ الإشراك به؛ دلالةً على أنَّه لن يكون

قبلك)، ولكنْ بنَى القرآنُ فِعْلَ الوحي لِما لم يُسَمَّ فاعلُه، فحذَف الفاعلَ - وهو الحقُّ سبحانه - إيجازًا؛ للدَّلالةِ على أنَّ المقصود الأصليَّ هو الوحيُ الذي هو: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، وهذه إشارةٌ ثانيةٌ إلى العناية بمضمون الجملة التي لم تتكرَّر في الكتاب العزيزِ[1].

علَّة التَّعبير بـ: (إلى):

نبيُّنا رأسُ الموحِّدينَ والدُّعاةِ إلى التَّوحيدِ

قولُه تعالى: ﴿إِلَيْكَ﴾ جارٌّ ومجرورٌ متعلِّق بالفعل: ﴿أُوحِيَ﴾، و(إلى) حرفٌ معناهُ الانتهاءُ إلى الغايةِ في الزَّمان والمكانِ وغيرِهما، والضَّميرُ الذي دخلَتْ عليه (إلى) هو كافُ خطابِ نبيِّنا ﷺ والمعنى هنا: هذا الوحيُ مُنْتهٍ إليكَ يا محمَّدُ، ففي (إلى) إشارةٌ إلى أنَّه ﷺ المُبلِّغُ عن الله، الحامِلُ أمانتَه، المُصطفى مِن قِبَلِه، ففيها دلالةُ التَّكليفِ والتَّشريفِ الخاصَّيْن به ﷺ نبيًّا ورسولًا، وما قلناه في (إلى) في قوله تعالى: ﴿إِلَيْكَ﴾ يُقال فيه في قولِه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾، والذي هو معطوفٌ بالواوِ على قوله: ﴿إِلَيْكَ﴾.

سِرُّ تسلُّطِ (إلى) على ضميره ﷺ:

الاحتفالُ بالوَحيِ إليه ﷺ للتمكين في مواجهةِ أهلِ الشِّركِ

كان مِن المُمكِن أنْ يُقال: (ولقد أوحي إلى النَّبيّينَ أو الرُّسُل) بعموم المعنى، ولكنَّ القرآنَ خصَّ نبيَّنا ﷺ بالذِّكرِ على جهة الاستقلالِ، فقال: ﴿إِلَيْكَ﴾، ثمَّ قال: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ﴾؛ لمراعاةِ سياقِ السِّباقِ القريبِ؛ إذ أُمِرَ بالرَّدِّ على مَن أمَروه بالكفر في الآيةِ السّابقة: ﴿قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ﴾، وهذه الآيةُ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ﴾ الآية، تعليلٌ وتوكيدٌ للآيةِ السّابقة، فلا بُدَّ أنْ يكون له ﷺ حضورٌ مُستقِلٌّ في هذه الآيةِ.

علَّةُ ذِكرِ الأنبياءِ والرُّسُلِ السّابقينَ:

كان مِن المُمكن أنْ يَقْتَصِرَ القرآنُ على المُتعلِّق الخاصِّ به ﷺ وهو ﴿إِلَيْكَ﴾؛ لبناءِ هذه الآيةِ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ﴾، على الآيةِ

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 410.

السّابقةِ: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾ الآية، ولكنَّهُ ذَكَرَ الأنبياءَ والرُّسُلَ السّابقينَ قبلَ نبيِّنا ﷺ؛ للإشارة إلى أنَّ مَن سبَق رسولَنا لم يكُن منه إشراكٌ بالله، أفيكونُ مِن رأسِ الأنبياء والمرسلين شيءٌ مِن ذلك؟ ولتسليتِه بأنَّ مَن قبلَه مِن الأنبياءِ والرُّسُلِ أوذوا بمِثْلِ ذلك، ولأنَّ "التَّعميم أدْعَى إلى التَّقبُّلِ"[1]، فهو منهاجٌ لجميعِ الأنبياءِ والرُّسُلِ، وليس سيِّدُنا محمدُ بن عبد الله بدعًا فيه، فليتقبَّل مشركو مكَّةَ دعوتَه ﷺ إيّاهُم إلى إخلاصِ العبادةِ لله ربِّ العالَمِينَ، وفيه أيضًا بمُلاحَظةِ أهل الكفر والشِّرك دلالةٌ على زيادة الغضب وشدَّته؛ إذ كيف يكفرون بوحي الله تعالى لجميع أنبيائِهِ ورسله؟.

ما ظاهرُه الإطنابُ قد يكونُ ضَرْبًا مِن الإيجازِ

نكتةُ تقديم ذِكر الوحي إلى النَّبيِّ ﷺ:

كان مِن الممكن أنْ يقول القرآن: (ولقد أوحي إلى الذين من قبلك وإليك)؛ لا سيَّما أنَّ هذا التَّرتيبَ يتناسب مع باقي الآيةِ: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، وهو ترتيبٌ يُراعي الزَّمانَ، ولكِنَّ المقصودَ بالذِّكرِ في السّياقِ هو قولُه تعالى: ﴿إِلَيۡكَ﴾؛ لكون أهل الكفر والشِّرك أمروه بعبادة غير الله، فأمره الله بالرَّدِّ عليهم في الآية السّابقة، وأمّا قولُه تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾؛ فمِن تمامِه، وتابعٌ له وخادِمٌ لمعنى السّياق، فلهذا أُخِّرَ في الذِّكرِ.

هو ﷺ مركزُ حركة المعنى في السّياق

فائدةُ تكرار حرف الجرِّ (إلى):

كرَّرَ القرآنُ الحرفَ (إلى) في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾، وقد سبَقَ ذِكرُهُ في قوله تعالى: ﴿إِلَيۡكَ﴾، وذلك لكمالِ الاعتدادِ بالموحَى به إلى كلِّ نبيٍّ ورَسولٍ، فالاحتفالُ بذِكرِهم صورَةٌ للاحتفالِ بالموحَى به، وهو: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

هذا الموحَى به مُكرَّرٌ تقريرُه والتَّنبيهُ عليه معَ كلِّ نبيٍّ ورسولٍ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 468.

علَّة التَّعبير بالموصوليَّة:

بلغ الإعلانُ عن هذا الأصل الموحَى به كلَّ مبلَغٍ مُمْكِنٍ

لَمّا كان الاسمُ الموصولُ لا يُعبَّرُ به إلّا وصلتُه معلومةٌ للسّامعِ مِن قبلُ، أو كالمعلومةِ له، بحيثُ إذا سمِعَها سلَّمَ بها؛ نظَم القرآنُ الإخبارَ عن مَن سبَق نبيَّنا محمَّدًا ﷺ مِن الأنبياء والرُّسُل، في صورة الموصولِ وصِلَتِه، فقال: ﴿وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾؛ ليُقيم الحُجَّة على مَن أمروا نبيَّنا ﷺ بالكفر والشِّرك، فهُم يعلمون أخبارًا عن الأمم السّابقة، أفأشْرَك أحدٌ مِن الأنبياء والرُّسل السّابقين، وأمرُهم وأحوالُهم معلومةٌ مشهورةٌ باللّه ﷻ؛ حتّى تأمروا الرَّسولَ مُحمَّدًا بذلك؟ بل كان ينبغي أنْ يترتَّبَ على ذلك أنْ تكونوا مِثْلَهم؛ لأنَّ الأنبياء والرُّسُلَ "هم الذين حملوا رسالةَ التَّوحيد إلى خلْقِه، وكانَتِ الخُطْوةُ الأولى هي تبرئتهم هم أنفسهم مِن الشِّرك، وتحذيرهم منه، وأنَّه لا مُسامَحةَ فيه"[1].

دلالة التَّعبير بالقبليَّة:

الأنبياءُ والرُّسُلُ قبلَ رسول الله زمانًا، وهو ﷺ خاتمهم

كلمة (قبل) مجرورةٌ بـ: ﴿مِن﴾، والذين مِن قبله هم الأنبياء والرُّسُل، فالمرادُ القبليَّةُ في صفةِ النُّبوَّة، فـ ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ﴾ مُرادٌ به الأنبياءُ[2]، وفي القبليَّةِ إشارةٌ إلى أنَّه ﷺ خاتَمُهُم، ومِن شأنِ الخاتم واللّاحقِ في حياةِ النّاسِ أنْ يكونَ أكملَ المَعْدودينَ، وكذلك نبيُّنا محمَّدٌ ﷺ.

علَّة التَّصريحِ بكاف الخطاب النَّبَويِّ:

أنبياءُ الله تعالى جميعًا دينهم واحد

كان مِن المُمكِن أنْ يقول القرآنُ: (ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلُ) بحذف كاف الخطاب المقصود به النَّبيُّ محمَّدٌ ﷺ مِن: ﴿قَبۡلِكَ﴾ بقرينة: ﴿إِلَيۡكَ﴾، فهو قرينة الحذف ودليلُ المحذوفِ، ولكنَّ القرآنَ أرادَ تصويرَ الخيطِ الجامعِ والعُرْوةِ الوثْقَى بينَ أنبياءِ

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 410.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 58.

اللّهِ ورُسُلِه جميعًا، وهو الوحي والرِّسالة والنُّبوَّة، وأنَّه ما ذكَر الذين مِن قبل رسولِ اللّه محمَّدٍ ﷺ إلّا مِن أجل ذلك، فكان مِن البلاغة والحِكْمة إضافة: (قبل) إلى كاف الخطابِ النَّبَويِّ: ﴿قَبْلِكَ﴾.

بلاغةُ القَسَم في قوله: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾:

قولُه تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾، اللّامُ فيه لامُ القَسَم، موطِّئةٌ لهُ، أي: واللّهِ لئنْ أشركتَ، وفي القَسَمِ توكيدٌ لحقيقة الشِّرك، أي: لئن أشركت باللّه شيئًا يا محمَّد، ليبطلَنَّ عملك، ولا تنال به ثوابًا، ولا تدرك جزاءً إلّا جزاء من أشرك باللّه، وهذا من المؤخَّر الذي معناه التَّقديم، ومعنى الكلام: ولقد أوحي إليك لئن أشركت؛ ليحبطنَّ عملك، ولتكوننَّ من الخاسرين، وإلى الَّذين من قبلك، بمعنى: وإلى الذين من قبلك من الرُّسل من ذلك، مثل الذي أوحي إليك منه، فاحذر أن تشرك باللّه شيئًا، فتهلك[1]، وهذا القسم يدلُّ على الغضب الشَّديد على أهل الشِّرْكِ والكُفْرِ، وكمال الرِّضا على أهلِ التَّوحيدِ والإيمانِ.

التَّوحيدُ معنًى عميقٌ جِدًّا، وهو قضيَّةُ الوجودِ الإنسانيِّ

بلاغةُ أسلوبِ الشَّرط:

كلمةُ (إنْ) في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾ أداة شرطٍ دخَل عليها لامُ القَسَم، فاجتمع القَسَمُ والشَّرْطُ، وإذا كان أسلوبُ القَسَمِ مفيدًا للتَّوكيدِ؛ فإنَّ أسلوبَ الشَّرطِ فيه نوعُ حَسْمٍ وفَصْلٍ وقَطْعٍ في تقريرِ المعنى، وهذا يُضْفي عليه الجلالَ والهيبةَ والرَّهْبةَ، مِمّا يُؤكِّدُه، ويُحقِّقُه في النَّفْسِ.

أسلوبُ الشَّرطِ يـدلُّ على غاية وضـوحِ المعنى، وأنَّ المرادَ تمكينُه في الذِّهْنِ

علَّة التَّعبير بـ: (إنْ):

عبَّر القرآنُ بكلمة الشَّرْط: (إنْ) دون (إذا) في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ﴾، والخطابُ للنَّبيِّ محمَّدٍ، أو لكلِّ نبيٍّ، والأصلُ في: (إنْ) ألّا يكونَ الشَّرط فيها مقطوعًا بوقوعِه؛ لشكٍّ فيه، أو لنُدرتِه،

الحكم الذي لن يكـونَ مَـوْقِـعٌ لـ (إنْ)

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 411.

أو لاستحالتِه، أو لنحو ذلك، وإشراكُ الأنبياءِ والرُّسُلِ محالٌ، فكلمة (إنْ) على أصلِها والظّاهرِ منها.

علّة التَّعبير بالشِّرك:

الشِّرْكُ هو حالُ القومِ المُعرَّضِ بهم

عبَّر القرآنُ بالشِّرك دون الكفرِ في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ﴾؛ لأنَّ المقصودَ عدمُ إخلاصِ العبادةِ لله سبحانه، فالشِّرْكُ هنا هو الشِّرْكُ الأعظمُ الذي هو إثباتُ شريكٍ لله تعالى، والمعنى: لئن أشركتَ شيئًا مِن الأشياءِ في شيءٍ مِن عملِك باللّه[1]، ولأنَّ أهلَ الكفرِ والشِّرك أمروا نبيَّنا ﷺ بعبادة غير الله مِن آلهتهم معَ اللّهِ، والقومُ المشركونَ عبدوا غير الله؛ ليُقرِّبَهُم إلى الله زلفى، ففي التَّعبير بالشِّرْك تعريضٌ بهم بأنَّهم أشركوا، وأنَّ شركهم يُحبط أعمالهم، ويجعلُهم مِن الخاسِرينَ.

سِرُّ حذفِ متعلّق الإشراك:

في الحَذْفِ إسْراعٌ إلى ذِكْرِ جزاءِ الإشراكِ تخويفًا وإنذارًا

فِعْلُ الإشراكِ يتعدَّى بنَفْسِه إلى مفعولٍ، وإلى مفعولٍ ثانٍ بواسطةِ حرفِ جَرٍّ، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَشۡرِكۡهُ فِيٓ أَمۡرِي ٣٢﴾ [طه: 32]، وقوله: ﴿يُبَايِعۡنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشۡرِكۡنَ بِٱللَّهِ شَيۡـٔٗا﴾ [الممتحنة: 12]، وقد يُحْذَفُ المفعولُ الأوَّلُ، ويتعلَّقُ به جارٌّ ومجرورٌ، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ١١٦﴾ [النساء: 116]، وفي قولِه تعالى هنا: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ﴾، لم يذكُر القرآنُ للإشراكِ متعلِّقًا؛ لشدَّة ظهورِ أنَّ المعنى: (لئن أشركت باللّه شيئًا)؛ لأنَّ هذا المعنى أصلُ الأصولِ في النُّبوّاتِ، ففي الحَذْفِ دلالةٌ على أنَّ هذا الأصلَ مِن الأصولِ المُقرَّرةِ المعلومةِ في شريعةِ كلِّ نبيٍّ ورَسولٍ، فإنَّما يُحْذَفُ المعلومُ الذي قامَ عليه الدَّليلُ، والحَذْفُ إيجازٌ يتناسب معَ الحَسْمِ والفَصْلِ والغَضَبِ، ففيه ظِلالُ هذه المعاني، وهذا ضَرْبٌ مِن تحقيق المعنى في النَّفْسِ؛ لأنَّه يلفتُ إلى معنى الكلامِ، ويوقِظ النَّفْسَ له، فيتمكَّنُ فيها.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 468.

دلالةُ الإسناد في فعل الشِّرك:

التَّوحيدُ مَقْصِدُ المَقَاصِدِ القرآنيَّةِ

في إسناد فعل الشِّرْك للمخاطَب، وتَرتيب حَبْطِ العملِ عليه والكون مِن الخاسرين، في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، على أنَّ الخطابَ في: ﴿أَشۡرَكۡتَ﴾ له وحده، أو له ولِمَن قبلَه مِن الأنبياء والرُّسُلِ، وذلك إنَّما هو من باب فَرْضِ المُحالِ، ذكَرَه على جهة الإسنادِ؛ ليكون أرْوعَ للأتْباع؛ لأنَّ اللّٰه يعلمُ أنَّ المصطفين الأخيار مُبرَّؤون مِن الشِّرك، والمقصودُ مِن هذا الفَرْضِ والتَّقديرِ: هو بيانُ شناعةِ الشِّرْك، وكونه بحيث ينهى عنه من لا يكاد يباشره، وهم أنبياء اللّٰه تعالى، فكيف بمن عداه؟[1].

علَّة التَّعبير بالحَبْطِ مادَّة وصيغةً:

لا يُـقـبَـل مع الشِّرك أيُّ عمل

جعَل القرآنُ جوابَ القَسَم - وهو جوابُ الشَّرط في المعنى - معنى الحَبْطِ في قوله تعالى: ﴿لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾؛ مراعاةً لِمَن أجرَى القرآنُ الكلامَ عليه؛ وإنْ كان المقصودُ التَّعريضَ بأهلِ الشِّرك مِن قومه وغيرِهم مِن أُمَّته، وهو الرَّسولُ محمَّدٌ ﷺ مع ملاحظة الذين مِن قبلِه أيضًا؛ لأنَّه إذا عمِل الرَّجُلُ عمَلًا، ثم أفْسَدَه، قيل: حَبِطَ عملُه، وأحْبَطَه صاحِبُه، وأحْبَط اللّٰه أعمال مَن يُشرك به، ففيه معنى الإفسادِ مع الإشارة إلى البُطْلانِ، والمعنى: لئن أشركتَ؛ ليفسدنَّ، فيبطلنَّ عملك، فلا يُبْقي له أثرًا ما مِن جهة القادر؛ لأنَّه أشركَ به فيه، وهو غنيٌّ لا يقبل إلّا الخالص؛ لأنَّه لا حاجة به إلى شيءٍ، وأمّا مِن جهة غيره؛ فلأنَّه لا يقدرُ على شيء[2]، ونظَم القرآنُ الحبْطَ فعلًا مضارعًا: ﴿لَيَحۡبَطَنَّ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه لا اعتدادَ بأيِّ عملٍ صالحٍ يتجدَّدُ مِن العبدِ معَ فسادِ التَّوحيدِ بالشِّرك، فكلَّما عمِل عمَلًا صالحًا؛ أحْبَطَه الشِّرْكُ، فهذا المضارعُ فيه معنى الحال والاستقبال.

---

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 278.

(2) ابن منظور، لسان العرب، وابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (حبط)، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 468.

سِرُّ التَّوكيدِ:

التَّشديدُ في تقريرِ الجزاءِ صورةٌ لعظَمِ الجُرْمِ

أكَّد القرآنُ فِعْلَ الحَبْطِ وفِعْلَ الكونِ بنون التَّوكيد الثَّقيلة، في قوله تعالى: ﴿لَيَحْبَطَنَّ﴾ - ﴿وَلَتَكُونَنَّ﴾؛ للإبلاغ في التَّرهيبِ مِن الشِّركِ بالله شيئًا، بالإبلاغِ في تقرير ما يترتَّبُ عليه مِن حبْطِ العملِ، والكونِ مِن الخاسرينَ، وهذا التَّأكيدُ يُلاحظُ أيضًا إنكارَ المشركينَ مضمونَ الكلامِ؛ لأنَّ ذِكْرَ الشِّرْكِ هنا للتَّعريضِ بهم.

علَّة التَّعبير بالعَمَلِ مادَّةً وصيغَةً:

العملُ كالبناء الذي يتآكَلُ

جعَل القرآنُ العملَ فاعلًا للحبْطِ في قوله تعالى: ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾؛ للإشارة إلى خيْبَة السَّعْي، وأنَّ المُشْرِكَ يَبْني ما يهدمُه، ويهدمُ ما يَبْنيهِ في آنٍ، ونظَمَه اسْمًا؛ للدَّلالةِ على اطِّرادِ الحَبْطِ في كلِّ عمَلٍ، وبهذا يكون القرآنُ قد جمعَ بينَ التَّجدُّدِ والحُدوث والاستمرارِ: ﴿لَيَحْبَطَنَّ﴾ وبينَ الثُّبوتِ والدَّوام: ﴿عَمَلُكَ﴾ في جملةِ جوابِ القَسَم، وقال القرآنُ: ﴿عَمَلُكَ﴾، ولم يقُل: (أعمالك)؛ إبلاغًا في تقرير حَبْطِها.

دلالةُ الإضافة:

سيُبْصِرُ المُشْرِكُ ضَياعَ عملِه أمامَ عينيه في الدُّنيا والآخرة

أضافَ القرآنُ العملَ إلى كافِ الخِطابِ؛ لكونِ الإضافةِ أبلغ في التَّرهيب، وأقعد في التَّهديدِ للمُخاطَبِ في الظّاهرِ، وللمُعرَّضِ بهم في الباطِنِ، وهم أهلُ الشِّرْكِ والكُفْرِ، وسيُبْصِرُ المُشْرِكُ ضَياعَ عملِه أمامَ عينيه في الدُّنيا والآخرة.

سِرُّ الحذفِ:

هذا الحذفُ ضَرْبٌ سخيٌّ مِن الإيجازِ

في قولِه تعالى: ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾، للعملِ صفةٌ محذوفةٌ بقرينةِ قوله تعالى: ﴿لَيَحْبَطَنَّ﴾، أي: ليحبطنَّ عملُكَ الصّالحُ، وهو "الذي يُرْجَى منه الجزاءُ الحَسَنُ الأبَديُّ"[1]، وحذفُ الصِّفةِ يُراعي الذي جَرَى عليه الكلامُ ولفظُ التَّعريضِ، والمُعرَّضَ بهم وهم أهلُ الكُفْرِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 59.

والشِّرْكِ، فعملُ سيِّدِنا رسولِ اللهِ محمَّدٍ ﷺ ليس إلّا صالحًا؛ لأنَّه المعصومُ الكاملُ المُكمَّلُ، فلا حاجةَ لذِكْرِ الصِّفةِ، ففي هذا الحَذْفِ إبلاغ في تقريرِ الحَبْطِ وتوكيدِه وتحقيقِه، وهذا إبلاغٌ في التَّرهيبِ والتَّنْفيرِ مِن الإشراكِ باللّه، والتَّهْديدِ عليه.

نكتةُ تقديم حبط العمل على الخسران:

العـمـلُ عـمـودُ العقيدةِ وعمودُ الحياةِ

قدَّم القرآنُ جملةَ: ﴿لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ على جملة: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ لأنَّ الجملةَ الثّانيةَ إنْ كانَتْ مِن عطفِ المُسبَّبِ على السَّببِ، أي: ولتكوننَّ مِن الخاسرين؛ بسبب حُبوطِ عملِك، فإنَّ المقصودَ بالأصالةِ هو المُقدَّمُ، والثّاني تابعٌ خادمٌ له، وحركةُ المعنَى جاريَةٌ على هذا النَّسَق، إنْ أشركْتَ؛ حبط عملُك، وإنْ حبط عملُك؛ كنتَ مِن الخاسرينَ، فجملةُ الجوابِ الأولى سببٌ في وجودِ جملةِ الجوابِ الثّانيةِ، فكلٌّ منهما جوابٌ لجملة: (إن أشركت)، أي: لئن أشركت؛ ليحبطنَّ عملك، ولئن أشركت؛ لتكوننَّ مِن الخاسرين، وهذا الوجهُ يبرزُ عظيمَ جُرْمِ الشِّرْكِ؛ بترتُّبِ شيئَيْنِ عليه مِن جهةٍ، ويبرزُ جزاءَ حَبْطِ العملِ الصّالحِ، وأنَّه مسلَكُ الخُسْرانِ الأعظمُ، أي: إنَّه خسرانٌ عظيمٌ جدًّا مِن جهةٍ أُخرى، وإنْ كان مِن عطفِ جملةٍ على جملةٍ مِن غير ملاحظةِ عَلاقَة السَّببيَّة؛ فإنَّ حَبْطَ العملِ بأنْ يكونَ لَغْوًا غيرَ مُجازًى عليه سابقٌ على الكونِ مِن الخاسرينَ الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، فلهذا قُدِّم عليه[1].

سِرُّ الوَصْلِ بالواو:

الشِّرْك خُسْرانٌ عـظـيـم يــومَ القيامةِ

قولُه تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ معطوفٌ بالواو على قولِه تعالى: ﴿لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْنِ، فهما خبرانِ لفظًا ومعنًى، وحَبْطُ العملِ خُسْرانٌ وخسارَةٌ، والمُحدَّثُ

---

(1) الطيبي، حاشية على الكشاف: 13/ 427 - 428، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 412.

عنه فيهما واحدٌ، وحسَّنَ الوصلَ بالواو اتِّفاقُ الجملتَيْنِ في الفِعْليَّةِ والمُضارَعةِ، وفي التَّوكيدِ بالنّونِ الثَّقيلةِ، والواوُ لا يبرحُها معنى المُغايَرَةِ، فدلَّتْ على أنَّ الخسرانَ شيءٌ غيرُ حَبْطِ العمل، وأنَّ حبْطَ العملِ شيءٌ غيرُ الخُسْرانِ، والمعنى الجديدُ الذي في جملة: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ هو عقابُ الشِّرْكِ، فالشِّرْكُ له عقابانِ، الأوَّلُ: إحْباطُ العمل، فلا يُنتفع به، والثّاني العقوبةُ على الشِّرك، وهي الكونُ مِن الخاسرينَ الذين خسروا أنفسَهُم؛ بسبب موتِهم على الرِّدَّةِ، وهذا يعني أنَّ الخُسْرانَ عقوبةُ الرِّدَّةِ، وهذا غيرُ إحْباطِ العَمَلِ[1].

دلالة التَّكرار:

تكـرارُ الـلّام مُشْعِرٌ بخسارةٍ مستقلَّةٍ للمُشْرِك غير مُسبَّبَةٍ عن حَبْطِ العمل

كان ظاهرُ عَطْفِ قولِه تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ على قولِه تعالى: ﴿لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ غيابَ اللّامِ الدّاخلةِ على فِعْلِ الكون: (لتكوننَّ)؛ لأنَّ المعطوفَ على الجوابِ جوابٌ مِثْلُه، ففي تكرارِها إشعارٌ باستقلالِ ما بعدَها عمّا قبلَها، واحتفالٌ واعتناءٌ به، وهذا إبرازٌ لِعظَم الخسارة، ولفتٌ إليها، وتحقيقٌ وتوكيدٌ لحصولِ تلك الخَسارةِ.

دلالة التَّعريف بـ(ال):

عظيمُ الخسران خسرانُ المشركين

عرَّف القرآنُ خبرَ الكَوْنِ بـ(ال) في قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، والتَّعريفُ بـ (ال) يَحتمل أنْ يكونَ للاستغراقِ، ويَحتمل أنْ يكون للجِنْسِ، والأعلى سياقًا أنْ تكون (ال)؛ للدَّلالة على معنى الكمالِ في بابِ الخَسارةِ أو الخسران؛ لأنَّ المفقودَ هنا جِدُّ عظيمٍ، وهو الإيمانُ والعَمَلُ الصّالِحُ.

علَّة التَّعبير بالخسارة:

عبَّر القرآنُ بالخَسارةِ وصْفًا لِمَن أشركَ، فحبِط عملُه في قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾، مُلاحظةً لقولِه تعالى في سياقِ

(1) الزمخشري، الكشاف: 13/ 427 - 428، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 411 - 412.

السِّباقِ: ﴿وَيُنَجِّي ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ بِمَفَازَتِهِمۡ﴾، أي: بفوزهم؛ للإشارةِ إلى أنَّ ثمَّة تجارةً رابحةً معَ اللهِ سبحانه، وأنَّ رأسَ مالِ الإنسانِ فيها هو الإيمانُ، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝١٠ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الصف: 10 - 11]، وأنَّ الله اشترى مِن المؤمنين الموحِّدينَ أنفسهم، وأنَّ الذين أشركوا، واشتروا الضَّلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم[1]، وهذا التَّعبيرُ يُلاحظُ أيضًا قولَه تعالى: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾، وهذا ظاهرٌ، ويرجعُ إلى قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، فيُفْهِم أنَّ المشركَ الخاسِرَ قد كفر بآيات الله تعالى، وهذا يعني: أنَّ هذا الشِّركَ هو الشِّرْكُ الأعظمُ، وأنَّ صاحِبَه كافِرٌ، وهذا التَّعبيرُ ألصقُ بحَبْط الأعمالِ الصّالحةِ، فلا ثوابَ ولا جزاءَ عليها.

فاقِدُ التَّوْحيدِ فاقِدٌ لكلِّ شيءٍ خاسِرٌ لهُ

دلالة الاسميَّة:

نظَم القرآنُ خسارةَ المُشْرِكِ اسْمًا في قوله تعالى: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّ المُتَّصِفَ بالشِّركِ خسارتُه دائمةٌ ثابتةٌ، فهي لا تَنْفَكُّ عنه، وهو لا يَنْفَكُّ عنها، وهذا يعني عظمةَ هذه الخسارةِ، بما يفيدُ تهويلَها، والغرضُ مِن ذلك الإبلاغُ في ترهيبِ أهلِ الشِّرْكِ مِن شركِهم، وعظيمِ تهديدِهم عليه.

الخَسارةُ صِفَةٌ مُسْتقِرَّةٌ للمُشْرِكِ

سِرُّ الحذفِ:

قولُه تعالى: ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ اسمُ فاعلٍ مِن الفِعْلِ الثُّلاثيِّ: (خَسِرَ)، وهو يعملُ عملَ الفِعْلِ، وفعلُه يتعدَّى بنفسِه إلى مفعولٍ، كما في غير قليل مِن آيِ القرآن، كقوله تعالى: ﴿وَمَنۡ خَفَّتۡ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُم بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظۡلِمُونَ ۝٩﴾ [الأعراف: 9]، وسِرُّ حذفِ المفعولِ الدَّلالةُ على عمومِه؛ إبلاغًا في التَّرهيبِ والتَّنْفيرِ مِن الشِّرْكِ.

وجوهُ خَسارة المُشْرِكِ في الدُّنْيا والآخِرةِ لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 411 - 412.

﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ٦٦﴾ [الزمر: 66]

مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

على العَبْدِ المؤمنِ أنْ يُجدِّدَ إيمانَه؛ كُلَّما تعرَّضَ لبلاءٍ

لَمّا ذكَر تعالى الآياتِ الدّالَّةَ على وحدانيَّته، مِن كونه خالقَ كلِّ شيء، وأنَّه على كلِّ شيء وكيلٌ، وله مقاليد السَّماواتِ والأرضِ، وأنَّ قومًا كفروا بهذه الآياتِ، فخسروا، بل تجاوزوا ذلك إلى أمرِ رسولهم بالكفر، مِمّا اقتضى الرَّدَّ والإنكارَ والتَّذْكيرَ بأصلِ الأصولِ - وهو التَّوحيدُ - في جميعِ النُّبوّاتِ؛ ختَم تعالى هذا المقطعَ بتثبيتِ نبيِّه عليه السلام في مقام إخلاصِ العبادة له، وديمومته في ذلك بشُكْرِ تلك النِّعْمةِ العليَّة وغيرِها مِن النِّعَم، وكأنَّ أمْرَ اللّه تعالى حبيبَه محمَّدًا ﷺ بإخلاص العبادة له وبشكره في هذه الآية تجديدُ إيناسٍ له بربِّه مِمّا دخَل على نفْسِه الشَّريفة مِن أذًى؛ بسبب أمرِه بعبادة غير اللّه تعالى.

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

الأمرُ للنَّبيِّ ﷺ أمرٌ لأمَّتِه بالتَّبع

هذه الآيةُ الكريمةُ ردٌّ لما أمروه به من استلام بعض آلهتهم، كأنَّه قال: لا تعبد ما أمروك بعبادته، بل إن كنت فاعلًا؛ فاعبد اللّه، وأخلص له العبادة وحده، لا شريك له، وكن من الشّاكرين إنعامَ اللّهِ عليك الَّذي يضيق عنه نطاق الحصر، ومنه أن جعلك سيِّد ولد آدم، وبما أنَّ النَّبيَّ ﷺ إمام أُمَّته، فأمْرُه بعبادة اللّه وشكره تعالى وحده أمْرٌ لأُمَّته تبعًا له(1).

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ رَدِّ العَجُزِ على الصَّدْرِ:

هذه الآيةُ: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، مَعَ الآيتَيْنِ اللَّتَيْنِ

(1) مجموعة من العلماء، التفسير الوسيط: 8/ 593.

رُجوعُ آخرِ السّورةِ إلى أوّلِها يرسّخ أصولَ ما تدعو إليه

قبلَها: راجعةٌ إلى مطلعِ السّورةِ: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر: 2 - 3]، فقولُه: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾ معناه: لا أعبدُ إلّا اللّهَ مُخْلِصًا له الدّينَ، وقولُه: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ معناه: اعبدِ اللّه مخلصًا له الدّين، وقولُه: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ معناهُ: لا أعبدُ إلّا اللّه مخلِصًا له الدّين، وبهذا يلتقي آخِرُ جزءٍ مِن السّورة مُتعلّقٍ بالتَّكْليف بأوَّلِ السّورة المُتعلّق بالتَّكْليف، وما بعدَ هذا إنَّما هو في أحوالِ الآخرة التي ينتهي عندَها التَّكْليفُ، مِن النَّفْخ في الصّور وما بَعْدَه، وهذا كلُّه يُؤكِّدُ أنَّ المعنى الأُمَّ في السّورةِ هو إخلاصُ العبادةِ للّه ربِّ العالمينَ(1).

فائدةٌ: ﴿بَلِ﴾:

الإضرابُ تمهيدٌ لِما بعدَه مِن الأمرِ بعبادةِ الله وحْدَه

كلمةُ ﴿بَلِ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ معناها الإضرابُ الإبطاليُّ، فهي لإبطالِ مضمونِ جملةِ: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ﴾، أي: بل لا تُشْرِك، فهي تُبطل الشِّرك الَّذي جاء على سبيلِ الفرض والتَّقدير، أو لإبطالِ جملة: ﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾، فهي تُبطل ما أبطله الإنكارُ، والمعنى: لا تعبُد ما أمروكَ بعبادته، بل إنْ كنتَ عاقلًا؛ فاعبُدِ اللّهَ، ففي: ﴿بَلِ﴾ رَدٌّ لِما أَمَروهُ به، مِن استلامِ بعضِ آلهتِهم، وتأكيدٌ للأمر بعبادة اللّه وحده(2).

الموقع الإعرابيُّ لقوله: ﴿ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾:

تعدَّدَتْ وجوهُ الإعرابِ هنا؛ دلالةً على جذْريَّةِ معنى الآيةِ للسّورة

لفظُ الجلالةِ مفعولٌ به لفِعْلٍ محذوفٍ دلَّ عليه الفِعْلُ المذكورُ في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡ﴾، وما بعدَ الفاءِ لا يعملُ فيما قبلها، وتقديرُ الكلامِ: بل اللّهَ اعْبُدْ، فاعبد، ومفعولُ: (اعبد) المذكور محذوفٌ؛ لدلالة مفعولِ المحذوفِ عليه، يعني: عندنا فعلٌ محذوفٌ، وله مفعولٌ مذكورٌ، وفعلٌ مذكورٌ، وله مفعولٌ محذوفٌ، وهذا مِن دقيقِ الكلام،

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 408.

(2) الزمخشري، الكشاف: 13/ 428، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 59.

وقد أفاد التَّوكيد بالتَّكرار، وأفاد الاختصارَ بالحذف، وهذه الفاءُ هي التي اقتَضَتْ فعلًا محذوفًا، ومفعولًا محذوفًا[1].

علَّةُ التَّعبير باسم الجلالة:

الله الَّذي لم يغب جلالُه وجمالُه أحقُّ بأن يُعبد

كانَ مِن البلاغةِ والتَّناسُبِ التَّصريحُ باسم الجلالةِ في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾، دون أنْ يُقال: (بل فاعبده) ونحوُ ذلك؛ اعتمادًا على إفهامِه بقوَّةٍ بالسّياقِ؛ للإبلاغِ في الحثِّ على عبادة اللّه وإخلاصِ العبادةِ له، بالتَّنْبيهِ على علَّة ذلك، مِن كمالِ حضورِ تجلّياتِ كمالِه تعالى وجلاله وجماله، وأمَّةُ نبيِّنا ﷺ مقصودةٌ من وراءِ هذا الخطابِ، واسمُ الجلالةِ أنسبُ بسياقِ النَّهي العظيم والتَّهديدِ الفظيعِ في قوله تعالى: ﴿لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾.

نكتةُ تقديم اسم الجلالة:

التَّقديمُ يُنادي على مطلع السّورةِ ويشتبكُ معَه

أيًّا ما كان موقعُ اسمِ الجلالة: ﴿ٱللَّهَ﴾؛ فإنَّه مفعولٌ لفِعْلِ: (اعبد) المحذوفِ، أو المذكورِ، مُقدَّمٌ عليه، وهذا التَّقديمُ يفيدُ القصرَ قصرَ المُؤخَّرِ على المُقدَّم، أي: اعبدِ اللّهَ لا غيرَه قصرَ صفةٍ على موصوفٍ قصرًا إضافيًّا قلبيًّا؛ لكونِ الآيةِ وارِدَةً في سياقِ الرَّدِّ على المشركين، كما تضمَّنَه قولُه تعالى: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾، ولهذا كان القصرُ في هذا الموضع، وأمّا ما في أوَّلِ السّورة: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ﴾ [الزمر: 2]؛ فلفظُ الجلالة جاء مؤخَّرًا؛ لأنَّ السّياقَ هناك خالٍ مِن مُلاحظةِ هذا الرَّدِّ، وإنَّما دلَّ القرآنُ على معنى القَصْرِ بصريحِ قولِه: ﴿مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ [الزمر: 2][2]؛ لأنَّ مطلع السّورةِ مُؤسِّسٌ لِما بعدَه، فمِن البلاغة والتَّناسُبِ فيه التَّصريحُ

(1) الزمخشري، الكشاف: 13/ 429، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 60، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 416.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 60، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 416.

بالمعنى الأُمِّ وفروعِه الكلّيَّة الَّتي يتأسَّسُ عليها ما يأتي مِن معانٍ، وأمّا هذا الموضعُ؛ فهو في نهاية السّورةِ، فيُناسِبُه الإجمالُ.

بلاغة الفاء في قوله: ﴿فَٱعۡبُدۡ﴾:

في الفاء توجيهٌ للّذين كفروا بالآيات إلى دلائلِ الألوهيّة السّابق ذكرُها

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾: تُرتِّبُ الأمرَ بعبادةِ اللّه وحده على دليلِ الأُلوهيَّة المُتمثِّلِ في قولِه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾، كما فرَّعَتِ الفاءُ، ورتَّبَتِ الأمرَ بالعبادةِ مُقيَّدًا بالإخلاصِ على إنزالِ الكتابِ في مطلعِ السّورة: ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ [الزمر: 2]؛ لأنَّ هذه الآيةَ نِهايةُ السّورة، مِن جهة أنَّها تُحدِّثُ عن التَّكاليف، وأنَّ ما بعدَها بدايةُ القيامة ونِهايةُ التَّكاليف، وبهذا التَّفريع يُرَدُّ العجُز على الصَّدرِ، والصَّدْرُ هو إخلاصُ العبادةِ للّه، والعَجُزُ كذلك، وتكرارُ الفاءِ وتكرارُ كلمة ﴿فَٱعۡبُدۡ﴾ يُؤذِنُ بأنَّ مَحْضَ سورة الزُّمر هو إخلاصُ العبادةِ للّه ربِّ العالمين[1].

علّةُ التَّعبير بالعبادة:

إنَّما يُصَرِّحُ بالمعنى الأُمِّ ويُكرِّرُ

كانَ المأمورُ به هو العبادةَ في قوله تعالى: ﴿فَٱعۡبُدۡ﴾ مع ضميمة تعلُّقها باسم الجلالةِ: ﴿ٱللَّهَ﴾ مذكورًا أو محذوفًا؛ لأنَّ القومَ الكافرينَ قد أمَروه بعبادةِ غيرِ اللّه كما حكَى القرآنُ في قوله تعالى آمِرًا نبيَّه أنْ يُنكر عليهم ذلك؛ مُغْلِظًا لهم القولَ: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾؛ ولأنَّ جذْرَ السّورةِ ومعناها الأُمَّ قولُه تعالى في مطلع السّورة: ﴿فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ٢﴾ [الزمر: 2].

دلالةُ أمر النَّبيِّ ﷺ بالعبادة:

الثَّباتُ في مقاماتِ الطّاعاتِ نعمةٌ عَليَّةٌ

لم يغفل قلبُ نبيِّنا محمَّد ﷺ عن استحضارِ كمالاتِ اللّه تعالى، والتَّفكُّرِ فيها، فكان عابدًا للّه في كلِّ أحواله، معَ ضميمة أنَّه كان قرآنًا يمشي على الأرضِ، فمِثْلُه إذا أُمِرَ في سياقِ تقرير ابتلائه بأمْرِه مِن

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 415.

قِبَلِ أهلِ الكُفْرِ والشِّرْكِ بالكُفْرِ والشِّرْكِ، فإنَّ المرادَ مِن ذلك الأمرِ هو إبلاغُهُ مِن قِبَلِ ربِّه أنْ يَستثمِرَ ذلك البلاءَ، بأنْ يَثْبُتَ في مقام العبوديَّة، وأن يُداوِمَ على عبادته تعالى وعلى إخلاصِ العبادةِ له، وأنْ يستمرَّ في ذلك على جهة التَّرَقِّي في مقاماتِ العبادةِ، تلك الَّتي لا تتناهَى؛ لأنَّ كمالاته سبحانه لا تتناهَى.

نكتةُ تقديمِ الأمر بالعبادة على الأمر بالشُّكر:

المعنى المُقدَّمُ هو جذْرُ السّورةِ

قدَّم القرآنُ أمرَ الرَّسول ﷺ بعبادة اللّه وحده على طلبِ أنْ يكونَ ﷺ في عِداد الشّاكرين؛ لأنَّه المقصودُ المخصوصُ من السّياقِ، والثّاني تابعٌ خادِمٌ له، فقد أمَر أهلُ الكفر والشِّرك نبيَّنا محمدًا ﷺ بعبادة غير اللّه، فأمر اللّه رسولَهُ بالرَّدِّ عليهم في آية: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ أَيُّهَا ٱلۡجَٰهِلُونَ﴾، ثُمَّ قرَّر تعالى أنَّ توحيدَ اللّه وعدمَ الإشراكِ به أصلٌ من أصولِ الدّينِ الإسلاميِّ في آية: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، فلا بُدَّ أنْ تكونَ النَّتيجةُ، والمعنى الألصقُ بذلك: هو تثبيتَه ﷺ على ذلك التَّوحيدِ، وأمّا كونُه مِن الشّاكرينَ؛ فمِن تمامِ المُقدَّمِ، وتابِعٌ له.

سِرُّ الوَصْلِ بالواوِ:

العبادةُ أعلى وجوهِ الشُّكر، وإذا كانَتْ خالصةً لله؛ صحِبَها كلُّ شُكْرٍ بغيرِها

قولُه تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ معطوفٌ بالواو على قوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾؛ لِما بينهما من التَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْن، فكلٌّ منهما إنشاءٌ لفظًا ومعنًى، والآمِرُ فيهما واحدٌ، وهو اللّه - ﷻ - والمأمورُ فيهما واحدٌ، وهو النَّبيُّ محمَّدٌ ﷺ والواوُ تدلُّ على أنَّ مضمونَ الجملةِ الثّانيةِ غيرُ مضمونِ الجملةِ الأولى؛ لِما فيها من معنى المُغايَرةِ الذي لا يكادُ يبرحُها، أي: وكُنْ مِن الشّاكرينَ على ما أنعم به عليك، مِن أنْ جعلَك سيِّد ولدِ آدم في كلِّ شيء، فالمقصودُ بالشُّكرِ هنا العملُ الصالِحُ غيرُ العبادة الخالصة لله، ويجوزُ أنْ يكون المقصودُ به

الشُّكْرَ بالعبادة؛ إذ إنَّ عبادته لا يُمكن أنْ تقع إلّا شُكْرًا؛ لِما له مِن عموم النِّعَم سابقًا، وهذا الأمرُ بالشُّكْرِ يفيدُ عطفُه على ما سبقه أنَّ أجلَّ نعمةٍ يَمُنُّ اللهُ بها على الإنسانِ هيَ إخلاصُ العبادة، وهي الموجِبةُ للشُّكْر، وشُكْرُ نعمة الإخلاصِ شُكْرٌ له مَذاقٌ آخَرُ؛ لأنَّ مَن رُزِقَ الإخلاصَ في العبادة فقد رُزِق الإخلاصَ في الشُّكْر؛ لأنَّ الشُّكْر عبادةٌ، ومَن رُزِق الإخلاصَ في الشُّكْر؛ فقد ذاقَ حلاوةَ الإيمانِ[1].

علّةُ التَّعبير بالكَوْنِ:

ليس كمِثْلِ شُكْرِ نبيِّنا ربَّهُ شُكْرُ غيرِه ربَّهُ

كان الظّاهرُ أنْ يُقال: (واشكُره)، أو (واشكر)، على حذف معمول الشُّكر ومتعلِّقِه؛ اتِّساقًا مع قوله تعالى مِن قبل: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾، ولكِنَّ القرآنَ عدَل عن ذلكَ إلى ما هو أطولُ لفظًا في الظّاهرِ، ولكنَّه أعمقُ وأوسَعُ معنًى، وهو الألصقُ بحالِ المُحدَّث عنه ﷺ فأتى بكلمة الكون في قوله تعالى: ﴿وَكُن﴾؛ للإشارة إلى أنَّ شكر اللّه بالعمل الصّالح مِن ديدنه وشأنه، وجزءٌ مِن طَبْعِه ﷺ فمن شأنِه أنْ يُطلبَ منه الثَّباتُ على ذلك المقامِ العَليِّ.

دلالةُ الأمر (كن):

التَّرَقّي في مقاماتِ القُرْبِ مِن اللهِ لا حدَّ لهُ

المقصودُ بالأمر في قوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾، وقولِه تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾: ليس أصلَ المعنى؛ لأنَّه ﷺ عابدٌ للّه، ومخلِصٌ له العبادة، وشاكرٌ لربِّه بذلك وغيره، وما انقطع عن ذلك لحظةً واحدةً وأدنى مِن لحظةٍ، بل هو العابدُ الشَّكورُ اليَقِظُ قلبُه على الدَّوام، وإنَّما الغرضُ أن يزدادَ المُخاطَبُ ﷺ تمسُّكًا بما هو عليه مِن الحقِّ واليقينِ، ويستمرَّ على ذلك، ويُداوِمَ عليه، ويترقَّى فيه، كما في قولِه تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: 1]. فمن شأنه ﷺ أنْ يستثمر البلاءَ، وأنْ يترقَّى به في درجات الكمالِ النَّبَويِّ.

---

(1) الزمخشري، الكشاف: 13/ 429، والبقاعي، نظم الدرر: 6/ 469، وأبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 416.

نبيُّنا ﷺ أعلى الخلائق، فشكرُه أعلى شُكرٍ

سِرُّ العُدولِ عنِ المُفْرَدِ إلى الجَمْعِ:

كان الظّاهرُ أنْ يقولَ القرآنُ: (وكن شاكرًا)، ولكنَّه عدَل عن نظْمِ الخبرِ الَّذي هو وصفٌ في المعنى لصاحبِه مفردًا إلى نظْمِه بطريقةِ الجَمْعِ المُذكَّر، فقال: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، فأتى بـ ﴿مِّنَ﴾ التَّبْعيضيَّة، وأدخلَها على الاسم: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ على طريقة: (فلان من العلماء) الذي هو أبلغُ مِن طريقة: (فلان عالم) في إثباتِ الصِّفة؛ فطريقةُ الجَمْعِ تدلُّ على أنَّ المسند إليه الموصوفَ بالخبر من المعروفينَ المشهورينَ بالصِّفة؛ لأنَّه من الرّاسخينَ العالينَ فيها، والمقصودُ من وراءِ هذه الطَّريقة في سياقِ جنابِه ﷺ التَّرقّي في مقاماتِ الشُّكْرِ، أي: كُنْ مِن الذين يترقّون في سُلَّم مقاماتِ الشُّكْرِ؛ لأنَّه ﷺ رأسُ الشّاكرين، وكلُّ شُكْرٍ مِن أحدٍ؛ فهو دونَ شُكْرِه.

أبرز الله كمالَ نبيِّه محمَّد ﷺ بأمرِه بالشُّكْرِ

علَّةُ التَّعبيرِ بالشُّكْرِ:

أمَر اللَّهُ تعالَى نبيَّه محمَّدًا ﷺ بالشُّكْرِ في قوله تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ إبرازًا لعَظَمةِ نعمةِ العبادة وإخلاصِها للّه تعالى على جهة الخصوص، أو لعظمةِ نعمه سبحانه على نبيِّه ﷺ، على جهة العموم؛ لأنَّ الشُّكْرَ هو تصوُّرُ النِّعمةِ وإظهارُها، وضِدُّه الكُفْرُ، وهو نسيانُ النِّعمة وسترُها[1]، والسّياقُ يقتضي ذلك، فمِن وراءِ خطابِ النَّبيِّ ﷺ خطابُ أمَّتِه أمَّةِ الدَّعوة، ببيانِ عظيمِ قيمة إخلاصِ العبادةِ للّه تعالى، وبيانِ جليلِ نِعَمِ اللّه على نبيِّهم ورسولِهم، وسياقُ أمرِه ﷺ بالكفرِ والرَّدِّ عليه وإنكارِه يقتضي كشْفًا عن عظيمِ مكانته ﷺ عندَ ربِّه تعالى؛ لأنَّه أخلصُ عباد اللّه في عبادة اللّه.

بلاغةُ التَّعريفِ بـ(ال):

نظَم القرآنُ خبرَ الكونِ مُعرَّفًا بـ(ال) في قوله تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، وهذا يحتملُ الجنسَ أو الاستغراقَ في الظّاهر، والذي

(1) الراغب، المفردات: (شكر).

يليقُ بمقامِ المُحدَّثِ عنه الشَّريفِ ﷺ أنْ تكونَ: (ال)؛ للدَّلالةِ على معنى الكمالِ، وهذا مِن بابِ التَّوسُّعِ أيضًا؛ لأنَّه عليه السلام أكملُ الخَلْقِ، فلا أحدَ أكملُ منه عبادةً وشُكْرًا، وغيرَ ذلك، فهو مِن الكُمَّلِ على أنَّه أكملُهُم ورأسُهُم.

كلُّ الشَّرَفِ والفَخْرِ لجماعةِ الشّاكرينَ بكونِ رسولِ الله منهم

دلالةُ الاسميَّة:

جاء الخبر اسمًا في قوله تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾؛ للدَّلالةِ على أنَّه ﷺ مِن الَّذين يتَّصِفون بالشُّكْر على جهة الثُّبوت والدَّوام، فهو عريق فيه، وهو أكملُ الشّاكرين، وأعلاهُم وأشرفُهم على الإطلاقِ.

الكُمَّلُ المُصْطَفَونَ هم الثّابِتون في مقاماتِ الطّاعة، الدّائمونَ فيها

سِرُّ حذفِ متعلّقِ الشُّكر:

فِعْلُ الشُّكْرِ يتعدَّى بنفْسِه إلى مفعولٍ، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [الأحقاف: 15]. كما في قوله تعالى: ﴿أَنِ ٱشۡكُرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيۡكَ إِلَيَّ ٱلۡمَصِيرُ ١٤﴾ [لقمان: 14]، وفي قوله تعالى: ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ حذف القرآنُ متعلّقِ اسم الفاعل: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ الذي يعملُ عمل الفعل؛ إشارةً إلى أنَّ نعمتَه أو نِعَمَه تعالى على نبيِّه محمَّدٍ عليه السلام من شأنِها الشُّكْرُ الكثيرُ، فمقامُ شُكْرِه ربَّه وسيعٌ جِدًّا، سواءٌ كان متعلِّقُ الشُّكر نعمةَ إخلاص العبادة، فهي أمُّ باقي النِّعَم، أو جميعَ نعمِه تعالى عليه ﷺ وبهذا تتوافق هذه الكلمة: ﴿ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ مع الفواصل قبلها والفواصلِ بعدَها.

ليس كمِثْلِ فَضْلِ اللهِ على نبيِّهِ عليه السلام فَضْلُه على غيرِه مطلقًا

﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ٦٧﴾ [الزمر: 67]

مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

هذه الآيـةُ مِن تمام ما قبلَها، وفيها نوعُ توكيدٍ له

هذه الآيةُ بدايةُ أحوالِ القيامةِ التي خُتِمت بها السّورةُ، فهي بدايةُ النِّهاية، وهي مُرْتبطةٌ بالفصل الذي مَضَى؛ لأنَّ آياتِ اللّه الموجبةَ لعبادته وحده، وهي قولُه تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾، تولَّدَ منها ذِكْرُ الذين كفروا بها، وذِكْرُ الذين فجروا، وأمروه ﷺ أنْ يعبد غير اللّه، وهذه الآيةُ تُبيِّنُ لنا أنَّ كفرَهُم وفجورَهُم راجِعٌ إلى أنَّهم تنقصُهُم معرفةُ كُنْه جلالِه سبحانه وكُنْهِ عظمتِه وقدرتِه[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿مَطۡوِيَّٰتُۢ﴾: (طوي) أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على إدراجِ شيءٍ حتَّى يدرَج بعضُه في بعضٍ، ثمَّ يحمل عليه تشبيهًا، يُقال: طويتُ الثَّوْبَ والكِتابَ طَيًّا، أَطْويه، ويُقال: طَوَى اللّهُ عُمر الميِّت، والطَّويُّ: البئرُ المَطْوِيَّةُ، فهذا معنًى، ويُعبَّر بالطَّيِّ أيضًا عن مُضيِّ العُمُر، يُقال: طَوَى اللّهُ عُمُرَه، وقال الشّاعر: طَوَتْكَ خُطوبُ دَهْرِك بَعْدَ نَشْر.

وقولُه تعالى هنا: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ يصِحُّ أنْ يكونَ مِن الأوَّلِ، على جهة الاستعارة المكنيَّة في: (السّماوات)، وإثباتُ الطَّيِّ لها تخييلٌ، ويصِحُّ أنْ يكون مِن الثّاني، والمعنى: والسَّماوات مُهْلَكاتٌ[2].

---

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقته بآل حم، ص: 418.
(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، (طوى).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

الآيةُ تُحلِّلُ أنفُسَ القومِ الكافرينَ المُشْرِكينَ

تُقرِّرُ هذه الآيةُ الكريمةُ أنَّ الذين كفروا بآيات اللّه، وأشركوا به غيرَه، وأمروا نبيَّه محمَّدًا ﷺ بعبادةِ غيرِه ما عظَّموا اللّهَ كما يجبُ له، فإنَّه لو اسْتُغْرِقَ الزَّمانُ في عبادته وخالصِ طاعته بحيث لم يخلُ شيءٌ منها عنها؛ لَما كان ذلك حقَّ قدرِه، فكيف إذا خلا بعضُه عنها؟ فكيف إذا عُدِل به غيرُه؟ معَ أنَّ أحوالَ الأرضِ والسَّماواتِ، مِن أنَّ الأرضَ في قبضتِه، يتمكَّنُ منها تمامَ التَّمكُّنِ، والمقبوضُ لا تصرُّفَ له ولا تحرُّكَ، والسَّماواتُ مطويَّةٌ أفلاكُها وآفاقُها بيدِه تعالى، وذلك كلُّه على جهة التَّمْثيلِ، ثمَّ خُتِمَتِ الآيةُ بتنْزيه اللّه عن كلِّ نقصٍ، وعلوِّه عن كلِّ ما يُقال في حقِّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغة الوَصْلِ بالواو:

الآيةُ تنتقلُ إلى وصفِ يوم القيامة وأحوالِ الفريقَيْنِ فيه

الواو عاطفة، عطفت جملة: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على جملة: ﴿لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ﴾؛ انتقالًا مِن تقرير ملك اللّه عوالم الدُّنْيا إلى تقرير عظمة ملكه تعالى في العالَم الأخرويِّ الأبديِّ؛ إشارةً إلى أنَّ الذين كفروا بآيات اللّه الدّالَّة على ملكوت الدُّنيا قد خسروا بترك النَّظر، فلو اطَّلَعوا على عظيم ملك اللّه في الآخرة لقدروه حقَّ قدره، وعلى هذا يكونُ قولُه: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ معترضًا بين الجملتَيْن؛ اقتضاها التَّناسُبُ مع جملة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، ويجوز أنْ تكون جملةُ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ معطوفةً على جملة: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ﴾، وجملةُ: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ معطوفةً على جملة: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾، والمعنى هو هو إلّا أنَّ الحالَ أوضحُ إفصاحًا عنه[2].

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 469.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 61.

بلاغة: (ما) النّافية:

مَدُّ الألفِ في (ما) يتناسبُ مع عظيم جهلِهم بعظمة الله

كلمة (ما) في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ نافيةٌ غيرُ عاملة، والماضي بعدها باقٍ على مُضيِّه، والمنفيُّ مجموعُ قوله: ﴿قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، والمعنى: فما أحسنَ هؤلاء، ولا أجملوا حين دعوك للإشراك بالله، وما عبدوه حق عبادته؛ إذ أشركوا به(1).

بلاغةُ المعنى الثّاني لجملةِ النَّفي:

تعدُّدُ المعنى الثّاني للجملة المنفيَّة دليلُ سخائها

التَّقْديرُ المنفيُّ في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ هو التَّفكُّرُ في الأمر بحسبِ نظَر العقلِ وبناءِ الأمرِ عليه، وأصلُ هذه المادَّةِ يدلُّ على مبلَغ الشَّيءِ وكُنْهِه ونهايته، وهذا القَدْرُ يُرادُ به معنًى آخَر مع إرادته في السّياقِ، بدليلِ تقرير الكفرِ بآياتِ الله، وهو معنى التَّعظيم، فالأسلوبُ عند الطّيبي مِن بابِ الكناية؛ لأنَّ تعظيمَكَ الشَّيءَ واحترامَكَ إيّاه، وقيامَكَ بواجبه مُستلزمٌ لتقديرِكَ إيّاهُ في نفسِكَ حقَّ تقديره، وهو مُستلزمٌ لأنْ تكون قد عَرَفْتَه حقَّ معرفته، فذُكِرَ اللّازمُ الوَسَطُ، وأُريدَ الملزومُ، كما يُقال: فلانٌ نحّارٌ، أي: مِضْيافٌ، بدَلَ: مهزول الفصيل، وهو عندَ الزَّمخشريِّ - بناءً على ظاهر لفظه - من المجاز المرسلِ الذي أُطْلِق فيه السَّببُ المُركَّبُ على المُسبَّب، قال: لّما كان العظيمُ مِن الأشياء إذا عرَفَه الإنسانُ حقَّ معرفته وقدَّرَه في نفْسِه حقَّ تقديرِه؛ عظَّمَه حقَّ تعظيمِه، قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، وهو عند ابن عاشور من الاستعارة التَّمثيليَّة، قال: وهو تمثيل لحال الجاهل بعظمة شيء بحال مَن لم يُحقِّق مقدار صبرة، فنقصها عن مقدارها، فصار معنى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ﴾ ما عرَفوا عظمتَه؛ إذ لم يُنزِّهوه عمّا لا يليقُ بجلاله من الشَّريك في أُلوهيَّته(2).

---

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 549.

(2) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (قدر)، والطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب: 13/ 430، والزمخشري، الكشاف: 13/ 429 - 430، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 61، وابن منظور، لسان العرب: (قدر).

علَّةُ التَّعبير باسْمِ الجلالة:

هذا الإظهارُ في أحْسَنِ مواطنه

كان مِن الممكن أنْ يُقال: (وما قدروه حقَّ قدره)، بعود الضَّمير على اسم الجلالة في الآية السّابقة: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾، ولكنَّ القرآنَ أظهرَ اسم الجلالة، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾؛ للإشارةِ إلى كمال قيام حُجَّةِ اللّه عليهم، فكلُّ مخلوقاته تنطقُ بعظمتِه تعالى وبكمالِه وبجلالِه وبجماله، فهو الإله الحقُّ، ولا إلهَ سواهُ، ففيه إنكارٌ لطيفٌ عليهم، أنْ يكون منهم كفر وشرك به، وتعليقٌ على النَّفي بالتَّعجُّبِ والتَّوبيخِ والتَّشهير وما جرى في هذا الطَّريق مِن المعنى، ولو قيل: (وما قدروه حق قدره)؛ لَما تناسَبَ مع تقرير عظمته التي لا يحُدُّها حدٌّ، ولا يأتي عليها عَدٌّ.

دلالةُ الإضافة:

ظَهرت لهم سماءُ الأدِلَّةِ فكفروا بها

قولُه تعالى: ﴿حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ مفعولٌ مطلقٌ، مِن إضافة الصِّفة إلى الموصوف، أي: ما قدروا اللّه قدرَهُ الحقَّ، فانتصَب: ﴿حَقَّ﴾ على النِّيابة عن المفعول المطلق المُبيِّن للنَّوع[1]، وفي الإضافة دلالة ثبوت الصِّفة للموصوفِ على جهة عدم الانفكاك، وبلوغِ الموصوفِ فيها كلَّ مبلغ ممكن، ووراء هذا مِن المعنى كمالُ ظهور أُلوهيَّته تعالى وعظمتِه في الكونِ، مِمّا ينبغي أن يتأسَّسَ عليه أن يقدره العبادُ حقَّ قدرِه، ففي الإضافة إبلاغٌ في الإنكار عليهم أنْ يتَّصِفوا بهذا النَّفي، وفي ذمِّهِم، والتَّشْهيرِ بهم.

بلاغةُ جملة الحال:

كيف لا يقدرون اللهَ حقَّ قدره، وهو ذو القُدْرَة الكاملةِ التّامَّة؟

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ واو الحالِ، وصاحبُ الحالِ اسمُ الجلالةِ في جملة: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾، وجملةُ: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ معطوفةٌ عليها، والمعطوفُ على الحالِ حالٌ مِثْلُه، فلَمّا ذكَر تعالى تعظيمَ كلِّ شيء

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 61.

يُنْسَبُ إليه بجملةِ صاحبِ الحال؛ دلَّ على باهرِ قدرتِه الذي هو لازمُ القَبْضِ والطَّيِّ بما يكونُ مِن الحالِ في طَيِّ هذا الكَوْنِ[1]، والمقصودُ مِن هذه الحالِ المُؤكِّدةِ في المعنى لِما قبلَها التَّعجيبُ مِن عدم قدرهم اللَّهَ حقَّ قدرِه، وتوبيخُهم على ذلك، وذمُّهم والتَّشْهيرُ بهم.

نكتةُ تقديم (الأرض) على (السماوات):

إذا قرُب الدَّليلُ مِن النَّفْسِ؛ كانَ أشدَّ وضوحًا لها

قدَّم القرآنُ مثَلَ الأرضِ في قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على مَثَل السّماوات في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾؛ لمباشرةِ المُخاطَبين للأرضِ، ومعرفتهم بحقيقتِها[2]، فإدراكُ الحُجَّةِ بها أوَّلًا أبلغُ، وكذلك التَّهديدُ والتَّرهيبُ بفنائها أوَّلًا أبلغُ، وفي هذا التَّرتيبِ أيضًا إرشادٌ للمُتلقّينَ عمومًا وأهلِ الكفرِ والشِّركِ خصوصًا إلى التَّرَقّي في إدراكِ عظمةِ اللَّه، والتَّعرُّفِ عليه، والعِلْم بصفاته العَليَّة.

علَّةُ التَّعبير بـ: ﴿جَمِيعٗا﴾:

هيَّأتِ الكلمةُ لِما بعدَها، ومهَّدت له

جعَل القرآنُ ﴿جَمِيعٗا﴾ حالًا مِن (الأرض)، وإنَّما عبَّر بهذه الحالِ؛ تمهيدًا ومناسبةً لباقي المَثَل: ﴿قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ لأنَّ مادَّتَه تدلُّ على تَضامِّ الشَّيْءِ، يُقال: جَمَعْتُ الشَّيءَ جَمْعًا[3]، فهو جَمْعٌ ناشئٌ عن تضامٍّ، وهذا ظاهرٌ حاضِرٌ في القَبْضِ والقيام.

بلاغةُ القيدِ بـ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾:

الأرضُ جميعًا قبضتُه في الدُّنيا ويومَ القيامة

قولُه تعالى: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ قيدٌ لقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ﴾؛ سواءٌ كان متعلّقًا بمحذوفٍ، على أنَّه حالٌ مِن القبضة في قوله: ﴿قَبۡضَتُهُۥ﴾، أو متعلّقًا بها على تضمينها معنى مقبوضة[4]، والغرضُ مِن هذا القيدِ زيادةُ بيانِ عظمتِه وقدرتِه تعالى، بتهويلِ

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 469.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 469.
(3) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة: (جمع).
(4) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 6/ 536.

هذا الحدثِ، وبَثُّ الرُّعْبِ في نفوسِ المخاطبينَ؛ لتنبيههم على فناءِ الدُّنْيا وقيامِ السّاعةِ، وقال البقاعيُّ: ولّمّا كان في هذه الدُّنيا مَن يدَّعي المُلْك والقهرَ والعظمةَ والقدرةَ، وكان الأمرُ في الآخرة بخلاف هذا لانقطاعِ الأسبابِ؛ قال: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾[1].

علَّة التَّعبير بـ: ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ وتعريفها بـ(ال):

في هـذا القيد اسـتـحـضـارٌ لأحـوالِ الخَلْقِ على الجُمْلةِ مع حـال الأراضيـنَ والسَّماواتِ

خَصَّ القرآنُ هذا الاسم للحياة الآخرة ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ إشارةً إلى قيامِ النّاسِ فيه للبعثِ والنَّشْر والحَشْر والحسابِ والعقاب والثَّواب وغيرِ ذلك، قال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٦﴾ [المطففين: 6]، وفي ذلك بيانٌ لِما يكونُ فيه الخَلْقُ في ذلك اليوم مِن رُعْبٍ وأهوالٍ جِسامٍ فَخْمَةٍ؛ لأنَّهم سيقومون للذي لا يشِذُّ شيءٌ مِمّا في الأراضينَ السَّبْعِ والسَّماواتِ السَّبْعِ عن سُلْطانه، فهذا القيدُ ثابتٌ في المعنى لجملة: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ أيضًا.

وقد تأسَّسَ إفادةُ المقصودِ مِن القيدِ: ﴿يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ على ما يعهده المخاطَبون في بيان القرآن الكريم، مِن ذِكْرِ هذا اليوم، فـ(ال) في: ﴿ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ للعهد الذِّهْنيِّ المرتبط بتلقّي آي الذِّكرِ الحكيم.

سِرُّ الوَصْلِ بالواو:

تعدُّدُ المَثَلِ إبلاغٌ في إقامة الحُجَّةِ والامتنانِ عليهم وترهيبِهم

قولُه تعالى: ﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ معطوفٌ بالواو على قوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾؛ لِما بينهما مِن التَّوسُّطِ بينَ الكمالَيْن، فكلٌّ منهما خبرٌ في اللَّفظِ والمعنى، وحسَّنَ الوصلَ بينهما التَّقابلُ بين الأرضِ جميعًا والسَّمواتِ السَّبْعِ، واتِّفاقُهما في الدَّلالة على غاية عظمة الله وكمال قدرته، مِمّا ينبغي أنْ يترتَّب عليه أنْ يُقدره العبادُ حقَّ قدره.

سِرُّ فَصْلِ لفظ ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾:

فصَل القرآنُ جملة: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ﴾ عمّا قبلَها؛ لأنَّ ما قبلَها يُنْتِجُها

(1) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 469.

بعضُ البيانِ مِصباحٌ لبعضِه؛ يُفْهَمُ في نوره

ويُنتِج ما بعدها مِن جملة: ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾؛ ولأنَّها وما بعدها تحقيقٌ وتوكيدٌ لِما قبلها، فبينهما كمالُ اتِّصالٍ؛ فلهذا غابتِ الواوُ، ويجوزُ أنْ تكون هذه الجملة استئنافًا ابتدائيًّا باستئناف التَّسبيح والتَّنْزيهِ والتَّمجيد، وذلك عِزُّ الأُلوهيَّة، في قلوبِ أوليائِه الذين قَدَّروه حقَّ قدْرِه[1].

علَّة التَّعبير بـ: (سبحان) مادَّةً وصيغَةً:

تنزَّهَت ذاتُه سبحانه عن كلِّ نقص، وكملت

عبَّر القرآن بكلمة (سبحان) في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطۡوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ﴾ يقتضيها؛ لأنَّها تدلُّ على كمال الذّات، وللتنزيه عن كلِّ عجز ونقص؛ إذ مِن أوصافه كذلك، فهو المُنزَّهُ عن كلِّ عجز ونقص، و(سبحان) مصدرٌ منصوبٌ بفعل محذوفٍ، سدَّ مَسَدَّ فعلِه، أي: نُسبِّحُه سبحانًا، أو أُبَرِّئُ اللّٰهَ مِن السّوءِ براءةً[2]، فهو الأبلغُ في الدَّلالة على تنزيه ذاته سبحانه.

علَّة التَّعبير بـ (تعالى) مادَّةً وصيغَةً:

تنزَّهَت صفاتُه تعالى عن كلِّ نقصٍ، وكملت

اقتضَى قولُه تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ أنْ يكونَ في الفاصلة قولُه: (تعالى)؛ وذلك لأنَّ المُحدَّث عنهم أشركوا مع اللّٰه غيرَه في العبادة، وساووه بغيره؛ لقوله تعالى في السِّباق القريب: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾، وقولِه: ﴿قُلۡ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَأۡمُرُوٓنِّيٓ أَعۡبُدُ﴾؛ ولذلك جاء قبل الآية: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾، والتَّقديمُ في قوله: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾ يفيد القصر، وهو مِمّا يُقرِّر الوحدانيَّة، وينفي الشَّريكَ، ولذلك فإنَّ مَن أشركَ منهم؛ فهو مِمَّن وصفَهُم اللّٰهُ بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ

---

(1) أبو موسى، الزمر - محمد، وعلاقتهما بآل حم، ص: 433.

(2) الفيروزابادي، القاموس المحيط، فصل السّين، باب الحاء.

﴿حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾. وتخصيصُ لفظ التَّفاعُل: (تعالى)؛ لمبالغة ذلك منه، لا على سبيل التَّكلُّفِ كما يكون مِن البشر[1]، والمعنى: أنَّ عُلوَّه عن ذلك في غايةٍ مِن العُلوِّ لا يكون وراءَها غايةٌ؛ لأنَّه لو كان له شريكٌ؛ لنازَعَه هذه القدرةَ أو بعضَها؛ فمنعَه شيئًا منها، وهذه معبوداتُهُم لا قدرةَ لها على شيءٍ[2].

معنى (عن) ودلالة التَّعبير بها:

تجاوَزوا في حقِّه تعالى وهو المُنزَّهُ المُتعالي عن مِثْلِ ذلكَ منهم

الحرفُ: (عن) أصلُ معانيه المُجاوَزة، وهو أشهرُها، ولم يُثْبِت له البصريّون غيرَه، وهو مَعْناها في الآيةِ، فدلَّ التَّعبيرُ بها على أنَّ شِرْكَ أهلِ الشِّركِ لا يَقْترِبُ من ساحةِ الأُلوهيَّةِ الحَقَّة، وأنَّ هؤلاءِ الشُّركاءَ لا يكادون يقتربون منها؛ وذلك مؤسَّسٌ على استحضار معنى البُعْدِ والعُلوِّ في قوله تعالى: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾، أي: ما أبعد وما أعلى مَن هذه قدرتُه وعظمتُه عن إشراكهم أو عمّا يشركونه مِن الشُّركاءِ، فكلمة: (عن) تتعلَّقُ بما قبلها بهذا التَّأويلِ[3].

بلاغة: (ما) مصدريَّةٌ ومَوْصولةٌ:

تنزيهُ اللهِ عن الشِّرْكِ تنزيهٌ له عن الشُّركاءِ، والعَكْسُ صحيحٌ

كلمة (ما) في قوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ يحتمل أنْ تكون مصدريَّةً، فتكون هي وما بعدها في تأويل مصدرٍ مجرورٍ بـ (عن)، أي: عن شركِهم، ويحتمل أنْ تكون موصوليَّةً، وجملةُ: ﴿يُشۡرِكُونَ﴾ صلة لها، أي: عن الذي يشركونه من الشُّرَكاءِ، وعلى الأوَّلِ ففَضْلُ المصدرِ المؤوَّلِ على الصَّريحِ نظْمُ إشراكِهم فعلًا مضارِعًا؛ ففيه دلالةٌ على اطِّرادِ تنزيهِه وكمالِه تعالى، كلَّما تجدَّدَ من أهل الكفر والشِّرْكِ مَظْهَرٌ مِن مظاهرِ شِرْكِهم، وهذا يعني عظمةَ ما يكشفُ بُطْلانَ شِرْكِهِم ممّا يُبينُ عن تنزيه ذاته وصفاته - ﷻ - وكمالِهما،

---

(1) الراغب، المفردات، ص: 345، والتلب، بلاغة تشابه الأطراف في القرآن الكريم، (ﷺ) نموذجا، ص: 35.

(2) البقاعي، نظم الدرر: 6/ 470.

(3) المرادي، الجنى الداني، ص: 245، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/ 611، والآلوسي، روح المعاني: 24/ 27.

وعلى الثّاني ففَضْلُه على المصدريَّةِ نَظْم: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ صلةً للموصولِ (ما)، ففيه دلالةٌ على التَّعجُّبِ مِن حالِهم مِن الشِّرْكِ، فهُم يُشْرِكونَ به تعالى، واللهُ مُنزَّهٌ ذاتًا وصفاتٍ، على ما يدلُّ عليه أحوالُ مخلوقاتِهِ، فهُم يتجرَّؤون عليه تعالى كُفْرًا وشِرْكًا، وكلُّ شيء يدلُّ على أنَّه لا يليقُ به ذلك الكُفْرُ ولا ذلك الشِّرْكُ، وفي إبهام (ما) تصويرٌ لحقارةِ معبوداتهم، وحذفُ متعلِّق: ﴿يُشْرِكُونَ﴾؛ لتحقير ذِكْرِ الشَّريكِ أو الشُّركاءِ في سياقِ تنزيهه - سبحانه وتعالى - كأنَّ وراء ذلك مِن المعنى أنَّ مَن أبصر كمالَ الله ذاتًا وصفاتٍ؛ عدَل عن هؤلاء الشُّركاءِ، وانصرف عنهم بكُلِّيَّته مُقْبِلًا بها على الله ربِّ العالمين.

﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ ٦٨﴾

[الزمر: 68]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

الانـتـقـالُ من ضعف التَّعظيمِ في قلوب بعضِ العـبـاد إلى ما يوجب التَّعظيم

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقةُ ما يدلُّ على عظيم قدرتِهِ يومَ القيامةِ، وأنَّ العبادَ لا يرعوون عن معاصيهم وفسادِهم؛ ناسب أن يُتبعه ما يكون يوم القيامة مِن النَّفخِ في الصّور، فيُصعَق كلُّ مَن في السَّماوات والأرض إلّا ما شاء اللّه، ثم يُنفخ في الصّورِ مرَّةً أخرى؛ فإذا الخلقُ قيامٌ ينظرون، فهو انتقالٌ من بيان ضعف تعظيم اللّه تعالى في قلوب بعضِ العباد، إلى بيان ما يوجبُ ذلك التَّعظيم، ويحقِّق ذلك التَّهويل.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَنُفِخَ﴾: (نفخ) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلى انتِفاخٍ وعُلوٍّ، ومِنهُ انتفَخَ الشَّيءُ انتِفاخًا، ويُقالُ انتفَخَ النَّهارُ: عَلا، ونَفْخَةُ الرَّبيعِ: إعْشابُهُ؛ لأنَّ الأرضَ تَربو فيهِ، وتَنتَفِخُ، والمَنفوخُ: الرَّجُلُ السَّمينُ[1]، والنَّفخُ عامٌّ في كلِّ اندفاعٍ للهواء، ومنهُ نفْخُ الإنسان بِفيه، ونفْخُك النّارَ بالمِنفاخِ وغيره، وكلُّ ما فاؤه نونٌ، وعينه فاءٌ؛ يدلُّ على معنى الخروج والذَّهاب[2]، ومعنى النَّفخِ في الآيةِ الكريمة هو المعنى المعهودُ، فهو نفخٌ في الصّور؛ ليخرج صوتٌ يُعلم منه المقصودُ.

2) ﴿ٱلصُّورِ﴾: جمع صورةٍ، فهي تجمع على صوَر وصوْر، والمعنى:

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نفخ).

(2) ابن الأنباري، الزاهر: 2/ 223، وابن دريد، جمهرة اللغة: (نفخ).

نفخ في صورِ الأرواحِ[1]، ومعنى ﴿ٱلصُّورِ﴾ في الآية الكريمةِ: (صور) الصّور هو القرنُ الَّذي ينفُخ فيه إسرافيلُ[2].

3) ﴿فَصَعِقَ﴾: (صعق) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلَى شِدَّةِ صَوتٍ، فمِن ذَلِكَ الصَّعْقُ، وهوَ الصَّوتُ الشَّديدُ، يُقالُ: حِمارٌ صَعِقُ الصَّوْتِ؛ إذا كانَ شَديدَهُ، ومِنهُ الصّاعِقَةُ، وهيَ الوَقْعُ الشَّديدُ مِنَ الرَّعْدِ، ومِنهُ قَولُهُم: صَعِقَ؛ إذا ماتَ، كَأنَّهُ أصابَتهُ صاعِقَةٌ[3]، ومنه الصاعِقَةُ: صيحةُ العَذابِ، الصَّعِقُ: المغشيُّ عليه، يُقال: صعق صعقًا: غُشي عليه من صَوْتٍ يسمعه أو حِسٍّ، فهو حين يسمع صوتَ الهدَّة الشَّديدة يصعق لذلك عقلُهُ[4]، ولفظُ الصَّعقِ في الآية: المراد به موتُ الخلائق، نتيجة الصَّوت الشَّديد؛ جرّاء النَّفخ في الصور.

4) ﴿قِيَامٌ﴾: (قوم) أصل يَدُلُّ عَلَى انتِصابٍ أو عَزْمٍ، فَقَولُهُم: قامَ قيامًا، والقَومَةُ المَرَّةُ الواحِدَةُ؛ إذا انتَصَبَ، ويَكونُ قامَ بِمعنى العَزيمَةِ، كَما يُقالُ: قامَ بِهَذا الأمرِ؛ إذا اعتَنَقَهُ، والقيامُ في الآية مِن: قام يقوم قيامًا، وجاءَ على فِعال؛ إذ حوِّلت الواو منه ياء، من أجل انكسار الحاءِ قبلَها، فقيل فيه: قيامًا، كما قيل في (حيالًا وصيامًا)، وهو خلافُ القعودِ[5].

5) ﴿يَنظُرُونَ﴾: (نظر) أصلٌ صَحيحٌ يَرْجِعُ فُروعُهُ إلَى مَعنًى واحِدٍ، وهوَ تَأمُّلُ الشَّيءِ ومُعايَنَتُهُ، ثُمَّ يُستَعارُ، ويُتَّسعُ فيهِ، فيُقالُ: نَظَرْتُ إلَى الشَّيْءِ أنْظُرُ إلَيه؛ إذا عايَنْتَهُ، ويَقولونَ: نَظَرْتُهُ، أي: انتَظَرْتُهُ، وهوَ ذَلِكَ القياسُ، كَأنَّهُ يَنظُرُ إلى الوَقْتِ الَّذي يَأتي فيهِ[6]، والنّاظر: المتأمِّل الشَّيء بالعين، ونَظَرْته في معنى: انتظرْتُهُ، وفي التَّنْزيل: ﴿ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ [الحديد: 13]، وأنظرتُهُ أنظرهُ إنظارًا؛ إذا أخَّرته في بيع أو غيره[7]، ومعناهُ في الآية الكريمة حقيقةُ النَّظرِ، وهو التَّأمُّل وإدامة النَّظر بالعين بذهولٍ ودهشة، ولا يبعد معنى الإنظار وهو التَّأخيرُ[8]، فهو من احتمالات اللَّفظِ المناسب مع السِّياق، واجتماعُ المعنيَين بديعٌ إلى الذِّهن سريع.

(1) ابن الأنباري، الزّاهر، ص: 416، والأزهري، تهذيب اللغة: (صور).
(2) ابن جرير، جامع البيان: 24/ 29، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 272.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صعق).
(4) الخليل، العين، وابن دريد، جمهرة اللغة: (صعق)، وابن الأنباري، الزاهر: 2/ 223.
(5) ابن درستويه، تصحيح الفصيح، ص: 243.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نظر).
(7) ابن دريد، جمهرة اللغة: (نظر).
(8) الماوردي، النكت والعيون: 5/ 136.

۞ المَعنى الإجْماليُّ:

بيانُ حال الصَّعقتين في القيامةِ ما بين إماتةٍ وإقامةٍ

تصف الآيةُ الكريمة مشهدًا عظيمًا مِن أحداث يوم القيامة، حيثُ ينفخ المَلَكُ الموكَّل بالنَّفخ في القرن النَّفخةَ الأولى، فيموت كلُّ مَن في السَّماوات والأرض إلّا مَنِ استثناهم اللّه بحكمته، ثم ينفخ فيه، فيَبعث اللّهُ جميع الخلق أحياء للحساب، وهم في حالة ذهولٍ وترقُّبٍ لما ينتظرهم.

وهذا المشهد يؤكِّد قدرةَ اللّه المطلقة في إنهاء الخلقِ وإعادتهم للحياة، ويذكِّر بعظمة يوم القيامة وما فيه مِن رهبةٍ وعدلٍ إلهيٍّ، ففيه ثلاثُ نفخات؛ إحداها: نفخةُ الصَّعق المذكورة في الآية هنا، وهي نفخةُ الموت، وهذه هي الَّتي فيها الهلاك لجميع الموجودين مِن أهل السَّموات، ومَن في الأرض مِن الإنس، والجنِّ، والملائكة إلّا مَن شاء اللّهُ، والأخرى نفخةُ الإحياء، وما بينهما فهي مدَّةٌ زمانيَّةٌ ليس للخلقِ فيها شيءٌ، والثالثة: نفخةُ الفزعِ، وهي سابقةٌ لنفخة الصَّعق، بدليل قولِه تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النمل: 87][1].

۞ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ ودلالتُها:

التَّناسبُ في المعطوفات وحسنُ الانتقالِ في الاستئناف

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ حرفُ عطفٍ على ما تقدَّم في قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [الزمر: 67]، فالجملةُ مِن عطفِ الجملة على الجملة، للانتقالِ مِن إجمالِ عظمة القدرة يوم القيامةِ إلى تفصيلِها؛ لما فيه مِن تهويلٍ وتمثيلٍ، لمجموع الأحوال يومئذٍ، ممّا ينذر الكافر، ويبشِّر المؤمن،

---

(1) ابن جرير، جامع البيان: 24/ 30، والكرماني، لباب التفاسير، ص: 2578، وابن عطية، المحرر الوجيز: 4/ 272، والفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 17، والقرطبي الجامع لأحكام القرآن: 13/ 239، والسفاريني، لوامع الأنوار: 2/ 161.

ويذكِّرُ بإقامة العدل والحقِّ، وفي هذا العطف مِنَ التَّناسُبِ ما لا يخفى[1]، ويمكن كونُها استئنافيَّة لما في معنى الآية مِنَ الانتقال مِنَ الأهوال الدُّنيويَّة إلى أهوال يوم القيامة[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي:

التَّعبيرُ بالماضي لتحقيقِ الوقوعِ وحتميَّةِ الوجودِ

آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ مرادًا بِهِ الاستقبال والاستمرار، فلم يقل: (وسيُنفخ)؛ وذلك لتحقّقِ الوقوع، والفعل الماضي قد يحتمل غيرَ المضيِّ[3]؛ إذا اقترن بما يدلُّ على ذلك من السّياق، وهنا قد خرج الماضي عن غرضِه الحقيقيِّ إلى غرضٍ مجازيٍّ، فهو استعارةٌ تبعيَّةٌ؛ إذ شُبِّهَ فعلُ المستقبل بالفعل الماضي، وصُرِّحَ بالماضي؛ لبيان تحقُّقِ وقوعه وحتميَّته.

نكتةُ التَّعبيرِ بالفعلِ المبني للمفعولِ:

حكمةُ الخطابِ في توجيهِ الأنظارِ لـلـحـدثِ لا لمُحدِثِه

جاء فعلُ ﴿وَنُفِخَ﴾ مبنيًّا للمفعول؛ وذلك لعدم وجودِ غرضٍ لذكرِ الفاعل، فإنَّ النّافخَ معلومٌ، وهو المَلَك الموكَّل بالنَّفخ في القرن (إسرافيل)، والآمرُ بالنَّفخ معلومٌ، وهو اللهُ تعالى، فبات الأمرُ متَّجهًا إلى النَّفخ باعتبارِه الأمر المهول في ذلك اليوم، فكأنَّه قيل: وقع النَّفخ في الصّور، فَصَعِقَ مَنْ في السَّموات ومَن في الأرْضِ، أي: ماتوا بسببِ ذلك، ويحتمل أنَّهم يُغشى عليهم أوَّلًا، ثمّ يموتون، واستخدام المبنيِّ للمفعول في (نُفِخَ) يضفي جوًّا من الرَّهبة والغموض، ويُشعر المتلقّي بعظمة هذا الحدث الجَلَل الَّذي يفوق الإدراك البشريَّ، خاصَّة أنَّ النَّفخ مرتبطٌ بقيام السّاعة وما يتبعها، فينشغلُ المُخاطَبُ بفعل النّفخ نفسِه ولا ينشغلُ بمعرفة الفاعل[4].

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 64.

(2) علوان وآخرون، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2058.

(3) السامرائي، معاني النحو: 3/ 309.

(4) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 283.

دلالةُ استعمالِ حرفِ الظَّرفيَّة:

هيبةُ النَّفخةِ في الصّورِ تعمُّ المكان

في قولِهِ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾ تدلُّ ﴿فِي﴾ على الظَّرفيَّة المكانيَّة، وتبرز عمقَ التَّصوير البلاغي والمكاني للحدث، وذلك أنَّ النَّفخ يحدث داخل الصّورِ، الَّذي يُنفخ فيه لإعلان أهوال القيامة، فالنَّفخةُ فيها الإحاطة والانتشار في أرجاء السَّماواتِ والأرض، واختيارُ الظَّرفيَّة يؤكِّد هيبةَ النَّفخ، لشموليَّة تأثيره في الصّور، والمكانُ الَّذي يعمُّه النَّفخ، والَّذي يريده الحقُّ ﷻ مِن هذا السّياق ذِكر الحدث مع ما تعلَّق به من مجرور[1].

نكتةُ حذْفِ متعلّقِ النَّفخ:

بلاغةُ حذفِ مُتعلّقِ فعل النّفخ

حُذِفَ متعلِّقُ فعل النَّفخ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ﴾، وهو ما يمكن تقديرُهُ بـ(نفخة)، كما في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفۡخَةٞ وَٰحِدَةٞ ١٣﴾ [الحاقة: 13]، وحذْفُ المتعلِّق لتوجيه الأنظارِ إلى الحدث العظيم في ذلك اليوم، مع التَّركيز على الأثر المترتِّب على النَّفخ، وهو قيامُ الأموات لحشرهم، وهذا الموقف مدعاةٌ للتأمُّل في عظمة اللّٰه وقدرته على التَّحكُّم بمصير الخلق، كما أنَّه يُبرزُ الرَّهبة والعظمة المرتبطة بهذا الحدث الجلَل، ودلالةُ حذْفِ المتعلِّق هي التَّعميم والإطلاق؛ إذ يُفهم مِنَ السّياق أنَّ هذا النَّفخ هو أمرٌ عظيم شامل ومحدَّدٌ، يعرفه المخاطَبون ضمنيًّا؛ بسبب عظمةِ الحدثِ وارتباطِهِ بقيام السّاعة.

نوعُ الفاءِ ودلالتُها:

التَّعقيبُ المباشرُ، فبمجرَّدِ وقوعِ النَّفخِ يُصعَقُ الخلقُ

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ﴾ عاطفةٌ، وهو مِن باب عطفِ الجملةِ على الجملة، فجملةُ ﴿فَصَعِقَ﴾ معطوفةٌ على ما سبق، والعطفُ أفاد التَّعقيبَ المباشر، أي: إنَّ النَّفخ في الصّور يتبعه الصَّعق بلا تراخٍ أو مُهْلةٍ، للارتباط القويِّ بين الفعل ونتيجته.

(1) السامرائي، معاني النحو: 2/ 82.

وتحتمل الفاءُ أن تكونَ سببيَّة، فالنَّفخُ لما فيه مِن فزعٍ وهولٍ وشدَّةٍ، تَسبَّب بالصَّعق، أي: بالموت.

بلاغةُ استعمال مفردة الصَّعق:

تشبيهُ الغيب ممّا لم تجرِ به العادةُ إلى المشاهد المعلوم

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردةِ ﴿فَصَعِقَ﴾؛ لما فيه من التَّناسب مع السّياق الكونيِّ، الَّذي يتحدَّث عن نهاية الحياةِ في السَّماوات والأرض، فهي صوتٌ وأيُّ صوت؟ إنَّها قوَّةٌ هائلة تُسبِّب انهيارًا شاملًا للحياة، ممّا يجعل المشهدَ أكثر هيبةً ورهبةً في تصوُّر السّامع، وفعل (صعِقَ) دالٌّ على الحدث الَّذي يتحقَّق بأمرِ اللّه تعالى، ومعناه المحوريُّ: "اختراقٌ أثناء الشَّيء وعُمّقه، فينهار، أو انهيار الشَّيء لذَهاب الشِّدَّة من أثنائه، كخروجِ ذلك الخوار الصَّوت الشَّديد مِن جوف الثّور، وكذَهاب الشِّدَّة والتَّماسك من أثناء البئر"[1]، فهو صعقٌ يأتي مِن أعلى لمشابهته بالصّاعقة التي تنزل مِن علوٍّ، وفيه أثرُ الموت كالصّاعقة، وفيه شدَّة الصّوتِ كصوت الصّاعقة، لكنَّه صعقٌ غير مسموعٍ من قبل، فهو مِن باب الاستعارة التّصريحيّة، حيث شبّه الموت بالصّاعقة بجامع وقوع المفاجأة في كليهما، والهلاك الذي قد يترتّب عليهما.

نكتةُ استعمال الاسم الموصول:

شمولُ جميع المُدرِكين المقصودين بالصَّعقِ

استعمل النَّظمُ الكريمُ الاسمَ الموصول في قوله تعالى: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾، وجاء بـ ﴿مَن﴾ الَّتي هي اسمُ موصولٍ تُستعمل في الغالبِ للعاقل[2]، في المواضع الثَّلاثةِ في الآية، وذلك أنَّ العقلاءَ هم المقصودون بالصَّعقِ، وباقي المخلوقات تبعٌ لهم، فذكر المقصودَ بالاسم الموصول ﴿مَن﴾؛ ليشملَ العقلاء بالدَّرجة الأولى، وللدَّلالة على العمومِ من جهة أخرى، فإنَّ

(1) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (صعق).

(2) درويش، إعراب القرآن: 8/ 446.

﴿مَن﴾ أعمُّ مِن (الذي)، فيدخلُ في ذلك جميعُ المدركين العقلاء مِنَ المؤمنين والكافرين والبشر وغيرهم.

نكتةُ تقديم صعقِ أهل السَّموات على صعْقِ أهل الأرض:

جـهـة مـبـدأ الصَّعقِ مقدَّمةٌ على جهةِ المُنتهى

قُدِّم ذِكرُ السَّماوات على الأرض في أغلب المواضع في القرآن الكريم، لعظمها وشرفها عند اللّه تعالى، وأمّا تقديمها في قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ وذلك لأنَّ السّاعةَ إنَّما تأتي أهوالُها من قبل السَّماء، وهي غيب فيها، ومِن جهتها السّاعة تبدأ، وتنشأ، فقدَّم جهة المبدأ، على جهةِ المنتهى، ولمّا كان صعقُ أهلِ السَّماء غيرَ متصوَّرٍ ومستبعد للمخاطَبين؛ بدأ به ليُعلم أنَّه لا استثناء لهذا الصَّعق، بخلافِ ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: 61]؛ إذ السّياقُ في بيانِ علم اللّه تعالى بأعمال البشر وخفاياهم، فبدأ بالأرضِ؛ لأنَّ المخاطَبين سكّانها، وهم المقصودون بالخطابِ.

نوعُ الواو ودلالتُها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ عاطفةٌ[1] على قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ لتدلَّ على أنَّ التَّأثير الَّذي سيحدث سيشمل جميعَ الكائنات، دون استثناء.

غرضُ إعادة الاسم الموصول وصلته:

عـظـمُ الـحـدث وشـــدَّة الـهـول يقتضيان إفـرادَ كلِّ جهةٍ بالذِّكر

تكرار الاسم الموصول (مَنْ) في الآية يبرز غرضًا معيَّنًا في النَّصِّ القرآنيِّ، وهو قصدُ التَّنصيص على الأفراد، فالمقصودُ كلُّ فرد من أفراد الموجودين في السَّمَوَتِ والأرض، على وجه التَّخصيص، فكرَّر لأجل ذلك (مَنْ)؛ للدَّلالة على التَّفصيل والإحاطة[2]، فإفرادُ كلِّ مجموعة بالذِّكر لأجل إبراز شموليَّة الحدث وهوله فيها، والمبالغة

(1) علوان، إعراب القرآن: 4/ 2058.

(2) السامرائي، معاني النحو: 1/ 143.

في تصويره، ولا يخفى ما فيه من ملمحِ التَّقسيم والتَّنويع، فاللّهُ ﷻ قد قسم الخلق إلى جهتين عظيمتين: جهةٍ ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، وهم الملائكةُ وسكّانُ السَّماوات، وجهةٍ ﴿وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وهم الإنسُ والجنُّ وغيرُهما؛ إظهارًا للعناية بالمذكورين، فالسّياق القُرآنيُّ يَلْفت النَّظر إلى أنَّ الحدثَ عظيمٌ لتأثيرهِ في كلِّ طرفٍ، دون دمجهمِ اختصارًا.

بديعُ فنِّ الطِّباق:

التَّقابل يُضفي رهبةً على الموقف

الطِّباق يبرزُ التَّقابل بين الأعلى ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والأدنى ﴿ٱلْأَرْضِ﴾، من حيثُ التَّقابل المكاني بين العلوِّ والسُّموِّ للسَّماوات، والسُّفل والدنوِّ للأرض، وهذا التَّقابل يجمع بين متضادَّين، ويجعل المعنى أكثرَ تأثيرًا، ويُؤكِّد إحساسَ السّامع بعظمة الموقف وهيبته، كما أنَّ هذا الطِّباقَ يُضفي تناسقًا بيانيًّا يُعمِّق أثرَ النَّصِّ في النَّفس، ويوحي بكمال المعنى وترابطه، ونوع هذا الطِّباق: طباق إيجاب.

نوعُ الاستثناء ومعناه:

احتمالُ الاستثناءِ للاتِّصال والانقطاع

الاستثناءُ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ هو مِن الصَّعق الشّامل لمخلوقات السَّماوات والأرض، فـ﴿إِلَّا﴾ أداةُ استثناء، والاستثناء هنا قد يكون مُتّصلًا إن قصد كلَّ مَن في السَّماوات والأرض، والمعنى: إلّا مَن شاءَ اللّٰه، فَلَم يُصعَق، أي: لَم يَمُت، وقد يكون منقطعًا؛ إن أريد بالسَّمَوَتِ جهة العلو، فإنَّ حَمَلَةَ العرشِ ليسوا في السَّمَوَتِ بالمعنى المعروف[1]، وتكون أداة الاستثناء هنا بمعنى (لكن)، والمُستثنى ليس من جنس المُستثنى منه، ونقدّر الكلام بعد ﴿إِلَّا﴾ على أنّه استئنافٌ جديدٌ، وهذا الاستثناءُ يُظهر إرادةَ اللّٰه المطلقة؛ إذ يشمل الصَّعقُ الجميعَ إلّا مَن أرادَ اللّٰه استثناءَهُ لحكمة.

---

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 221، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 282.

وجهُ استعمالِ ﴿مَن﴾ دون (ما):

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمال الاسم الموصول في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾ وهي تُستعمل في الغالب للعقلاءِ، دون (ما)؛ لأنَّ الاستثناءَ إن وقع فلِلْعقلاءِ، فضلًا عن إفادتها لمعنى العموم.

فائدةُ حذف متعلّق فعلِ المشيئة:

سعةُ الأمرِ وعمومُهُ يناسبُه الحذفُ

حُذِف متعلّق فعلِ المشيئة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ﴾، فلم يقل: (إلّا مَن شاء الله ألّا يُصعق)؛ لتعميم المرادِ استثناؤُهُ من الصَّعق؛ لأنَّ مشيئة الله تعالى تقع بحسب علم الله تعالى وحكمته، والأمرُ أوسعُ مِن أن يُحصر في مذكورٍ، كما أنَّه قد جرتِ العادةُ الغالبة بحذفِ متعلِّقات أفعال المشيئة.

وقد أخفى الحقُّ ﷻ الخلق الَّذين استثناهم مِن تلك الصَّعقة، وجعل الأمر إليه وحدَهُ في معرفتهم، وإن ورد ذكر لبعض مَن لا تصيبُهم تلك الصَّعقة، إلا أنَّ مِن السَّلف من يجعل ذلك مِن علم اللّهِ، فهو وحدَهُ أعلَمُ مَن هُم، ولَيسَ في القُرآنِ والأخبارِ ما يَدُلُّ عَليهم صراحةً[1].

نوعُ حرفِ التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ ودلالته:

احتمالُ التَّراخي للزَّمنِ والرُّتبة

آثر النَّظمُ الكريمُ استعمالَ حرف التَّراخي ﴿ثُمَّ﴾ في قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ﴾؛ للإيماءِ إلى ما جاء في حديثِ أبي هريرة عن النَّبيِّ ﷺ قال: «بين النَّفختين أربعون، قالوا: يا أبا هريرة، أربعون يومًا، قال: أَبَيْتُ، قال: أربعون سنة، قال: أَبَيْتُ، قال: أربعون شهرًا، قال: أَبَيْتُ»[2]، فلم يُبيِّن الصحابيُّ الجليل ما تفسير الأربعين، هل هي سَنَةٌ، أو يومٌ، أو شَهْرٌ؟ ولكنَّ الَّذي يعنينا أنَّها أربعون، وهذه

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: (27/ 476).

(2) الحديث أخرجه البخاري في الصحيح، كتاب التفسير، باب سورة الزمر، حديث رقم: (4536)، والإمام مسلم في صحيحه، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين، حديث رقم: (2955).

الأربعون مهما كان جنسها، فهي مدَّةٌ متراخيةٌ من حيثُ الزَّمن، ويحتمل كذلك أن يكونَ التَّراخي رُتَبيًّا، فرتبةُ نفخةِ الصَّعقِ لحقتها رتبةُ صعقة البعث والإحياء.

فائدةُ إعادةِ فعلِ ﴿نُفِخَ﴾ مرَّةً ثانيةً:

بيانُ استقلالِ كلِّ نفخةٍ عنِ الأخرى

أعاد النَّظمُ الكريمُ فعلَ ﴿نُفِخَ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ﴾؛ وذلك لبيانِ أنَّ كلَّ نفخةٍ من النَّفختين مستقلَّةٌ عن الأخرى، بحدثِها وآثارِها، وهذا الأسلوبُ القُرآنيُّ يُحقِّق التَّوازن، بين الإيجاز البلاغي والإعجاز البياني، من حيثُ تعظيم الموقف الذي يضفي رهبة وهيبةً على المشهد، المرتبط بالقيامة، كما لا يخفى ما في جعل الفعل مبنيًّا للمفعول، من الدَّلالة على الاختلاف بين النَّفختين: فالنَّفخة الأولى: تُميت وتُدمِّر، والنَّفخة الثّانية: تُحيي، وتبعث، وإعادتُه بهذه الصّيغة توحي بأنَّ لكلِّ نفخةٍ دورًا مستقلًّا وعظيمًا، رغم أنَّ الفاعل ذاتُه، فالإعادةُ هنا ليست تَكرارًا، بل لإبراز اختلاف الأثر.

بلاغةُ استعمال مفردةِ ﴿أُخۡرَىٰ﴾:

النَّفخة الأولى إنهاءٌ للحياةِ الأولى، والنَّفخة الأخرى مقدِّمةٌ للحياةِ الأخرى

جاءت لفظةُ ﴿أُخۡرَىٰ﴾ في قولِهِ تعالى: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ﴾، نائبَ فاعلٍ لـ ﴿نُفِخَ﴾، ويجوز أن يكونَ الجار والمجرور ﴿فِيهِ﴾ قام مقام نائبِ الفاعل، وعلى هذا فإنَّ ﴿أُخۡرَىٰ﴾ تكونُ صفة لمصدر محذوف[1]، وجاء التَّعبيرُ بأخرى لبيان الاختلاف التّام بين النَّفختين، فهي أخرى غيرُ الأولى، فهي نفخةٌ مُخالفٌ تأثيرُها لتأثير النَّفخة الأولى؛ لأنَّ الأولى نفخةُ إهلاك وصعق، والثّانيةَ نفخةُ إحياءٍ وبعث، وذلك باختلاف الصّوتين، أو باختلاف أمرَي التَّكوين، وناسب اختيار هذه المفردة، باعتبارِ اليوم الآخر؛ فإنَّ الأخرى هي

(1) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 8/ 446.

الموقِظةُ لليوم الآخر، فالنَّفخة الأولى إنهاءٌ للحياةِ الأولى، والنَّفخة الأخرى مقدِّمةٌ للحياةِ الأخرى.

نوعُ الفاء ودلالتُها:

النَّفخةُ الأخرى إذنٌ بحلولِ الحياةِ وأمرٌ بسرعة القيام

الفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمۡ قِيَامٌ﴾ للعطفِ والتَّعقيب[1]، يعني: أنَّ قيامَهم مِنَ القبور يحصل عقيبَ هذه النَّفخة الأخيرة في الحال من غير تراخٍ[2]، فبمجرَّدِ النَّفخ يقع القيام، وتحلُّ الحياةُ فيهم سريعًا، وقيامهم إثره متهيِّئين، بدهشةٍ وذهولٍ؛ لما سيقع بهم[3]، وهي تحتمل السَّببيَّة الَّتي المراد منها لزوم ما بعدها لما قبلها[4]، فقيامُهم بهذه الحال منتظرين عاقبة المآل، سببٌ لما سبق من النَّفخ والإحياء.

نوعُ الأداة (إذا) ودلالتُه:

مشهدُ القيامةِ مفاجِئٌ في أحداثه المكانيَّة والزَّمانيَّة

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمۡ قِيَامٌ﴾ جيءَ بـ(إذا) في هذا السّياق للدَّلالة على المفاجأة، أي: إنَّهم الآن أحياءٌ قد أُعيدَتْ لَهُمُ الأبدانُ والأرواحُ، فقاموا ينظرونَ نَظَرَ المَبهوتِ، إذا فاجَأَهُ خَطبٌ عَظيمٌ[5]، وقد اختُلف في إعراب (إذا) فقيل: ظَرفُ مَكانٍ، وقيل: وظَرفُ زَمانٍ[6]، فعلى كونِها ظرفَ مكانٍ، فهي تُفيد معنى المفاجأة، المرتبط بمكان محدَّدٍ يقفون فيه، كأنَّهم انتقلوا فجأة من حال إلى حال في مكان بعينه، وعلى كونِها ظرفَ زمان، فإنَّها تُفيد وقوع الحدث فجأة في وقت معيَّن، وهو وقت البعث والنُّشور؛ لتدلَّ على سرعة التَّحوُّل من الموت إلى الحياة.

نكتةُ التَّعبير بالاسميَّة:

يومُ القيامةِ لا محيدَ عنه قبل ثبوتِ الحسابِ فالجزاء

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالجملةِ الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿هُمۡ

(1) المبرد، المقتضب: 3/ 178.
(2) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 16/ 548.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 65.
(4) الرضي، شرح الكافية: 1/ 93.
(5) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 222.
(6) المبرد، المقتضب: 3/ 178، وابن الشجري، أمالي الشجري: 1/ 334، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/ 515.

﴿قِيَامٌ﴾، بدلًا من الفعليَّة؛ لما فيها من أغراض بلاغيَّة شتّى، منها: تركيزُ المعنى بما هو أقوى وأوضحُ؛ إذ يُركِّز على حقيقة أنَّهم في موقفِ القيام والنَّظر، وفيه إفادة الثَّبات والاستمرار، ممّا يُشير إلى حالة قيامِهم ونظرهم المستمرِّ فلا مجالَ للانصراف أو التَّغيير.

لطيفةُ تقديم المسندِ إليه على المُسند الفعليّ:

قُدِّمَ المُسندُ إليه ﴿هُمۡ﴾ على المُسند الفعليّ ﴿قِيَامٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿هُمۡ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾؛ وذلك لتقوية الحُكم وتوكيده، فنظم الجملة مُشعرٌ بتحقّق قيامهم على هذه الحالة.

بلاغةُ استعمالِ لفظِ ﴿قِيَامٌ﴾ نكرةً:

التَّنكيرُ دليل تكثير المعاني في المشهد الغيبيِّ

نُكِّر لفظُ ﴿قِيَامٌ﴾، وجاء منوَّنًا بتنوين التَّمكين[1]؛ ليدلَّ على خفَّته وتمكُّنه في باب الاسميَّة ولإرادة التَّعميم؛ للدَّلالة على تعدُّد معنى القيام، فقد يقصدُ به القيام المعروف، وقد يكون بِمَعنى الوُقوفِ والخُمود والثَّبات في المكان، ويَجيءُ القيامُ بِمَعنى الوُقوفِ، وقاموا هُنا بِمَعنى: وقَفوا، وثَبَتوا في مكانهم غيرَ مُتقدِّمينَ ولا متأخِّرين؛ لأجل استيلاء الحَيرَةِ والدَّهشة عليهم، والموقف الَّذي هم فيه صادق فيه حالهم هذا[2]، ويمكن أن يكون التّنكير هنا للنّوعيّة؛ لأنّه يتعلّق بأحوال السّاعة وأهوالها، وما يجري فيها من أحداثٍ لا يُمكن إدراك كُنهها والوقوف على حقيقتها، فهو قيامٌ ليس كنوع القيام الذي نعلمه.

براعةُ استعمال مفردةِ ﴿يَنظُرُونَ﴾:

جمعُ معاني النَّظر والانتظار والدَّهشة والهلع في لفظٍ واحدٍ

آثرَ النَّظم الكريمُ استعمالَ مفردة ﴿يَنظُرُونَ﴾ دون (يُبصرون) ونحوها، وذلك لتنوُّعِ معاني هذه المفردة، والمعنى: ينتظرون ما يُؤمَرون به، أو ينتظرون ماذا يُفعل بهم، وقيل: يقلّبون أبصارَهم في الجهات

(1) السامرائي، معاني النحو: 3/ 294.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 27/ 477، وابن منظور، اللسان: (صعق).

نظرَ المبهوت؛ إذا فاجأه خطبٌ عظيم، وفيه إيماءٌ للهيبةِ والدَّهشة الَّتي حلَّت بهم بعد قيامِهم، فالعربُ تقول: النَّظرَةُ الهَيبَةُ، ولا يبعد ما في انتظارِهم وإنظارِهم من زيادة التَّقريع عليهم(1)، وقد يلمحُ فيه نظرُ الهَلع المختلط، كنظرِ الَّذي يُغشَى عليه من معالجةِ سكرات الموتِ، كما هو حال المنافقين يوم الأحزابِ، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلۡخَوۡفُ رَأَيۡتَهُمۡ يَنظُرُونَ إِلَيۡكَ تَدُورُ أَعۡيُنُهُمۡ كَٱلَّذِي يُغۡشَىٰ عَلَيۡهِ﴾ [الأحزاب: 19](2)، فجمعت المفردةُ بين النَّظرِ الَّذي هو بمعنى البصرِ، والانتظار، والهلع والخوف، والدَّهشة والمفاجأة، وهو ما لا تُؤدّيه مفردةٌ أخرى.

نكتةُ التَّعبير بصيغة الفعل المضارع:

التَّعبيرُ عن الانتظار والذُّهول في لحظة الهلع

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع للفعل ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ وذلك لدلالات عدَّة، منها: استحضار المشهد، واستشعار الموقف، كأنَّه يحدث الآن، في انتقالٍ سريعٍ من الموت والسُّكون، إلى الحياة، وكأنَّ النَّفخة الثانية تُصوَّر مباشرة أمامهم، وكذا في المضارع دلالةٌ على استمرار النَّظر وتجدُّده بعد القيام، وهم يتأمَّلون مصيرهم.

تنوُّعُ الإعرابِ لقوله تعالى: ﴿يَنظُرُونَ﴾:

ضمّ فعل (ينظرون) إلى الخبرِ حالَهم حين القيام

خُتِمت الآيةُ بالجملة الفعليَّة ﴿يَنظُرُونَ﴾، وهي هنا: فعل مضارع مرفوعٌ بثبوت النّون، وواو الجماعة هي الفاعل، وجملة: ﴿يَنظُرُونَ﴾ في محلِّ رفعٍ خبرٌ آخرُ للمبتدأ ﴿هُمۡ﴾، فهو خبرٌ بعد خبر(3)، وعلى جعْلِه خبرًا ثانيًا؛ فالمعنى: أنَّه يبرز حالتين متميِّزتين، بعد النَّفخة الثانية: قيامهم، ونظرهم، وتعدُّدُ الأخبار يزيد مِن تأكيد المعنى، ممّا يعكس شدَّة الحدث وعظمته، ويمكن أن تكون الجملة الفعليّة نعتًا لـ﴿قِيَامٞ﴾؛ أي وصفهم حينئذٍ يكون كذلك.

وتحتملُ الجملةُ أن تكونَ حالًا للضَّمير ﴿هُمۡ﴾، فالمشهدُ يظهر فيه

---

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (نظر)، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 283.
(2) ابن عطية، المحرر الوجيز: 12/ 13.
(3) بهجت، الإعراب المفصل: 10/ 219.

النّاس بعد النَّفخ والإحياء، وهم في حالةِ ترقُّب وانتظارٍ لمآل المصير، فهُم بعد إحيائهم قاموا حال كونِهم ينظرون، نظر المَشْدوه، وكلا المعنيين في الإعراب يُظهر غِنى النَّصِّ القرآني، ودقَّته في التَّعبير عن الأحداث الكبرى بأسلوبٍ بديعٍ.

نكتة حذف متعلِّق ﴿يَنظُرُونَ﴾:

إرادةُ العمومِ والإيجاز مع الإعجاز

حُذِف متعلِّقُ فعل ﴿يَنظُرُونَ﴾؛ لإطلاق الفعلِ عن القيود الَّتي من شأنها تقييدُ المعنى، فالمرادُ توجيهُ الأنظار إلى كون القائمين من قبورِهم ينظرون نظرَ المغشي عليه من الموت، أو نظر الهلع، أو نظر التَّربُّص، أو نظر الدَّهشة، ولو قيِّد الفعل بمتعلِّق؛ لانحصرَ المعنى فيه، فحذف المتعلِّق لإرادة العموم، ولا يخفى وجه التَّناسُبِ مع سياق الآية الَّذي يُصوِّر المفاجأة، فهُم ينتقلون فجأةً مِنَ الموت إلى حالة قيام كامل.

الفروقُ المعجميَّة:

الصَّعق والهلاك والموت:

الصَّعقُ أوَّل الموت، والهلاك فناء الميت

الصَّعق: هو المغشيُّ عَلَيهِ أو الَّذي يَموتُ فجأةً، ويُقال لكلِّ عَذابٍ مُهلك[1]، والصَّعق من أسباب الموت، وليس هو، والموت: هوَ الحِمامُ والحَتْفُ والمَنِيَّةُ، والمَنونُ - إذا أُنِّث - أُريدَ به المَنيَّة، وإذا ذُكِّرَ؛ فهوَ الدَّهرُ[2]، والهَلاك بفتح الهاء مصدر هلك، وهو افتقادُ الشَّيء عنك، ومنه فناءُ الشَّيء أو استحالتُه وفساده، ومنه الموتُ، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ [الجاثية: 24]، ولم يذكر اللهُ الموتَ بلفظ الهلاك؛ إذ يقصد به الذَّمَّ إلّا في هذا الموضع[3]، فالصَّعقُ في الإنسان أن يُغْشى عَليهِ، وإن لم يمت، والهلاك موتٌ لم يُعلن عنه إلّا بعد زمنٍ، وأمّا الموتُ؛ فهو إعلانُ انتهاء الحياةِ حقيقةً، فبين هذه الثَّلاثةِ عمومٌ وخصوصٌ مطلق.

(1) ابن منظور، اللسان: (صعق).
(2) العسكري، التلخيص، ص: 126.
(3) الراغب، المفردات: (هلك).

﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٦٩ وَوُفِّيَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا عَمِلَتۡ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ ٧٠﴾ [الزمر: 69 - 70]

مُناسَبَةُ الآيتَينِ لِما قبلَهُما:

الانتقالُ مِن ذِكرِ الأحداث في نهايةِ الحياةِ الدُّنيويَّة إلى غايتها في الحياة الأبديَّة

لمّا ذكرتِ الآيةُ السّابقة مشهدَ الصَّعق الَّذي يلحقُهُ مشهدُ الإحياءِ بعد الموت، ثم بيَّنت أنَّهم ينظرون ما سيكون لهم بعد الإحياء؛ كان مِن المناسبِ جدًّا بيانُ حال الأرض الَّتي استقرّوا فوقها، وما سيكون فيها مِن أحداثٍ جسام، تبدأ بالإشراقِ بنورِ ربِّها، ووضع الكتاب والمجيء بالشُّهداء، للقضاء بين العبادِ بالعدل الإلهيِّ، وللجزاءِ بتوفية كلِّ نفسٍ أعمالها، فالمناسبةُ في تسلسل الآيات تظهر جليَّة في الانتقال مِن مشهد الفناء الكوني الشّامل، إلى مشهد البعث والنّور، ممّا يُبرز عظمةَ التَّحوُّل مِن نهاية الحياة إلى بداية الحساب والعدالة الإلهيَّةِ، فهو انتقالٌ من بيان حدث النَّفخ في الصّور في النَّفختين، إلى بيانِ غايتهما، وهو القضاء بين العباد، والحساب والجزاء.

شَرحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَأَشۡرَقَتِ﴾: (شرق) أصلٌ واحِدٌ يَدُلُّ عَلى إضاءَةٍ وفَتح، مِن ذَلِكَ شَرَقَتِ الشَّمسُ؛ إذا طَلَعَت، وأشرَقَت؛ إذا أضاءَت، والشُّروقُ: طُلوعُها، ويَقولونَ: لا أفعَلُ ذَلِكَ ما ذَرَّ شارِقٌ، أي: طَلَعَ، يُرادُ بِذَلِكَ طُلوعُ الشَّمسِ[1]، والشُّروقُ: خلاف الغروب، كالطُّلوع، وهو يُقال لكلِّ شيءٍ طلع من قبل المَشْرِقِ[2]، ويُقال: شرقَ الشَّيءُ يشرق؛ إذا امتلأَ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرق).
(2) الخليل، العين: (شرق).

حتى كاد يفيضُ[1]، والمعنى في الآية: هو الإضاءةُ مع زيادة، وليس الإضاءة وحدها، وكأنَّ الأرضَ حين إشراقها بعدل اللّه، لا يبقى منها جزءٌ إلّا دخله ذلك النّور بإشراقةٍ، فهو أعمُّ مِنَ الإضاءة.

2) ﴿بِنُورِ﴾: (نور) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى إضاءَةٍ واضطِرابٍ وقِلَّةِ ثَباتٍ، مِنهُ النّورُ والنّارُ، سُمّيا بِذَلِكَ مِن طَريقَةِ الإضاءَةِ؛ لأنَّ ذَلِكَ يَكونُ مُضطَرِبًا سَريعَ الحَرَكَةِ، وتَنَوَّرْتُ النّارَ: تَبَصَّرتُها[2]، فالنّور: الضّياء، والفعل: نارَ وأنارَ ونَوَّرًا وإنارةً، واستنار، أي: أضاء، والنَّوْر: زَهر الشَّجَر قبل أن يتحوَّل إلى ثمرةٍ، والفِعلُ: التَّنوير، وتنويرُ الشَّجَرة: إزْهارُها، والنّوّار: نَوْرُ الشَّجَرِ، وتنوَّرْتُ نارًا: قَصَدْت إليها، والنّائرةُ: الكائنةُ تقعُ بينَ القَومِ[3]، والمعنى الَّذي سيقت له هذه الآية: هو الإضاءة الكاشفة، الَّتي تعمُّ الأرضَ، فهي إشراقٌ وزيادةٌ.

3) ﴿وَٱلشُّهَدَآءِ﴾: (شهد) أصلٌ يَدُلُّ عَلَى حُضورٍ وعِلْمٍ وإعلام، لا يَخْرُجُ شَيءٌ مِن فُروعِهِ عَنِ الَّذي ذَكَرناهُ، مِن ذَلِكَ لفظُ الشَّهادةِ، فهو يَجْمَعُ مع الحُضورِ، العِلْم، والإعلام، يُقالُ: شَهِدَ يَشهَدُ شَهادَةً، والمَشْهَدُ: مَحْضَرُ النّاسِ، ومِنَ البابِ: الشُّهودُ: جَمْعُ الشّاهِدِ[4]، والشُّهداء جمعُ شاهد، وهم الَّذين يُستَشهَدون يوم القيامة، وهو عامٌّ في جميع الشُّهداء مِن الملائكة، وأمَّة محمَّد ﷺ، والجوارح، والمكان، وأيًّا ما كان فهُم الشُّهداء، ومعنى الشُّهداء في الآية هو الشاهد حقيقة، وهم الَّذين يُؤتى بهم إلى موقف الحساب ليُدْلوا بشهادتهم أمام الملكِ الجبّار ﷻ.

4) ﴿وَقُضِيَ﴾: (قضى) أصلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ على إحكامِ أمرٍ وإتقانِهِ، وإنفاذِهِ لِجِهَتِهِ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبۡعَ سَمَٰوَاتٖ فِي يَوۡمَيۡنِ﴾ [فصلت: 12]، أي: أحكَمَ خَلقَهُنَّ، والقَضاءُ: الحُكْمُ، قالَ اللّهُ سُبحانَهُ في ذِكرِ مَن قالَ: ﴿فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ﴾ [طه: 72]، أي: اصنَعْ واحْكُم، ولِذلِكَ سُمّيَ القاضي قاضيًا؛ لأنَّهُ يُحكِمُ الأحكامَ ويُنْفِذُها[5]، وقضى في اللُّغة

(1) الصُّحاري، الإبانة في اللغة: 4/ 753.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (نور).
(3) الخليل، العين: (نور).
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (قضي).

على وجوه، مرجعها إلى انقطاع الشَّيء وتمامه، والمعنى في الآية الكريمة: هو منتهى الإحكامِ والإتقان لذلك القضاء الَّذي هو فصلٌ بين تلك الأنفس جميعًا.

5) ﴿بِٱلۡحَقِّ﴾: (حقق) أصلٌ واحِدٌ، وهوَ يَدُلُّ عَلى إحكام الشَّيءِ وصِحَّتِهِ، فالحَقُّ نَقيضُ الباطِلِ، ثُمَّ يَرجِعُ كُلُّ فَرعٍ إلَيهِ بِجَودَةِ الاستِخراجِ وحُسنِ التَّلفيقِ، ويُقالُ: حَقَّ الشَّيءُ وجَبَ، قالَ الكِسائيُّ: تقولُ العَرَبُ: "إنَّكَ لَتَعرِفُ الحِقَّةَ عَلَيكَ، وتُعفي بِما لَدَيكَ"، ويَقولونَ: "لَمّا عَرَفَ الحِقَّةَ مِنّي؛ انكَسَرَ"، والحاقَّةُ: القيامَةُ؛ لأنَّها تَحِقُّ بِكُلِّ شَيءٍ، قالَ اللّهُ تَعالَى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[1]، ومعنى الحقِّ في الآية الكريمة: الحقُّ الَّذي هو خلافُ الباطل، وذلك أنَّ هذا الموقفَ كلَّهُ حقٌّ في القضاء والتَّوفية، فلا ظلمَ اليوم.

6) ﴿وَوُفِّيَتۡ﴾: (وفى): كَلِمَةٌ تَدُلُّ عَلى إكمالٍ وإتمام، ومِنهُ الوَفاءُ: إتمامُ العَهدِ وإكمالُ الشَّرطِ، ووَفَى: أوفَى، فهوَ وفيٌّ، ويقولونَ: أوفَيتُكَ الشَّيءَ؛ إذا قَضَيْتَهُ إيّاهُ وافيًا، وتَوَفَّيْتُ الشَّيءَ، واستَوفَيتُهُ؛ إذا أخَذْتَهُ كُلَّهُ، حَتّى لَم تَترُكَ مِنهُ شَيئًا، ومِنهُ يُقالُ لِلمَيِّتِ: تَوَفّاهُ اللّهُ[2]، ويُقال: وفى يَفي وفاءً، وأوفى يوفي إيفاءً؛ لُغَتانِ فصيحتان، فَأمّا أوفَى على الشَّيء؛ إذا علا عَليه، فأوفَى لا غير[3]، وحقيقةُ التَّوفية: إكمالُ الجزاء وإتمامه لكلِّ نفسٍ.

المَعْنى الإجْماليُّ:

أرضُ المحشرِ تُشرقُ بنورِ الله عدلًا ورحمةً

تُبيِّن الآيتان الكريمتان أنَّ الأرضَ بعد النَّفخة الأخرى ستُشرق بنورِ ربها، على أرض المحشرِ، وهي الأرضُ المبدلة من الأرض

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (وفى).
(3) ابن دريد، جمهرة اللغة: (وفى).

المعروفة؛ إذ هذه الأرضُ عَرْصة القيامة، وليست بأرضنا الآن؛ لقوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُۖ﴾ [إبراهيم: 48]، وإشراقها حين ذلك أنَّها أضاءت عدلًا بِنورِ رَبِّها، المتجلّي لفصل القضاء، فالنّور الَّذي هو مِن أوصافه قائمٌ به، وإنَّما وُضِع الكتابُ، ودُعي النَّبيون والشُّهداء؛ لتكميل الحُجَّة وقطع المعذرة، لا لحاجة إليهم في علمهِ تعالى بما يعملون، وما يقولون، وأكمل الله جزاء كلِّ نفس، خيرًا كان عملُها أو شرًّا[1].

وترشدُ الآيتانِ إلى أنَّ الإنسانَ ينبغي له الاحترازُ مِنَ العمَل بما لا يُرضي الله تعالى، وأنَّه يَجب عليه أن يَحذَر منه؛ لأنَّ الله تعالى يَعلَمُ ذلك، والإنسانُ الحيُّ القَلْب لا شكَّ أنَّه سيَخجَل؛ إذا عَلِم أنَّ الله تعالى يَعلَم عمَلَهُ، ثمَّ عمِل ما لا يُرضيه[2].

الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالةُ العطفِ بالواو:

استكمالُ تصويرِ المشهد الكلّي ليوم القيامة

الواو في قولهِ تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ﴾؛ لعطفِ ما بعدَها على ما قبلَها؛ فهو من عطف القصّة على القصّة، أو من عطف الأحداث على الأحداث، إظهارًا لتسلسل المشاهد، وإشارةً إلى أنَّ إشراق الأرض بنور ربِّها جزءٌ من مشهد عظيم ومهيب، يشمل الحشر، والحساب، وظهور العدالة الإلهيَّة، فالعطفُ بالواو له دلالة تُسهم في استكمال تصوير المشهد الكلي ليوم القيامة.

بلاغةُ استعمال مفردةِ الإشراق:

الإشراقُ إشعارٌ بأصل النّورِ وسعة انتشاره

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردة الإشراق في قوله تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾؛ للتَّعبيرِ عن شدَّة الوَضاءة والنّور، وكثيرًا ما يُستعار النّور في القرآن للهدايةِ والحقّ، وتظهر نكتتها في

(1) المراغي، تفسير المراغي: 24/ 35.

(2) العثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 477.

جعل النّور يشرق في الأرض، ليعمَّها بالسَّكينة والطُّمأنينة، وهو يدلُّ على الوضوح، والإشراق، والتَّجلّي، وهو صورةٌ حسيَّة تدلُّ على عظمة العدلِ الإلهيِّ وانتشاره، وعدلَ في هذا السّياق عن مادَّة الفعل أضاء، فلم يقل: (وأضاءت)؛ لبيانِ مصدر النّور، فإنَّ الإشراقَ له مصدرٌ حقيقيٌّ، وهو ما يوحي بإزالة الظُّلمات الحسّيَّة والمعنويَّة، ممّا يعكس الكمالَ الإلهيَّ والعدالة المطلقة في ذلك الموقف.

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة الماضي:

حتميَّةُ الوقوعِ وقطعيَّة البعث

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ الماضي في قوله تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ﴾، وهي صيغةُ الفعل الماضي، الَّذي اتَّصلت به تاء التَّأنث السّاكنة، وهو رباعيٌّ مزيد على الثُّلاثي يَدُلُّ عَلَى إضاءَةٍ وفَتْحٍ[1]، والإشراقُ سيكون في المستقبلِ، وذلك لبيان قطعيَّة الوقوع، وأنَّه متحقِّق لا محيدَ عنه، فإنَّ توالي الإخبارِ عن الأحداث بصيغة الماضي يحتِّم وقوعَها.

وقد آثر النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بالفعل الماضي في قوله تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ﴾ مُرادًا بهِ الاستقبال والاستمرار، فلم يقُلْ: (وستشرق)؛ وذلك لتحقّقِ الوقوع، والفعل الماضي قد يحتمل غيرَ المضيِّ[2]؛ إذا اقترن بما يدلُّ على ذلك من السّياق، وهنا قد خرج الماضي عن غرضِه الحقيقيِّ إلى غرضٍ مجازيٍّ، فهو استعارةٌ تبعيَّةٌ؛ إذْ شُبِّهَ فعلُ المستقبل بالفعل الماضي، وصُرِّحَ بالماضي؛ لبيان تحقُّقِ وقوعه وحتميَّته.

لفتةُ المجاز العقليِّ في إسناد الإشراق للأرض:

شـدَّةُ الإشـراقِ إزالــةٌ لكـلِّ الـظُّـلـمـات وانـتـشـارٌ لـنـورِ العدلِ المطلق

أسندَ الحقُّ سبحانه في هذا السّياق فعلَ الإشراق إلى الأرض في قوله تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ﴾، والإشراق ليس فعلًا للأرض حقيقةً، وإنَّما هو من باب المجاز العقلي؛ إذ الَّذي يُضيء الأرض

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: 3/ 264.
(2) السامرائي، معاني النحو: 3/ 309.

حقيقةً هو اللّه ﷻ، يُنير الأرض بنورِه تعالى حين يَتجَلَّى للقَضاء بين العِباد بالعدل، ولكن أُسنِد الإشراق إلى الأرض؛ لتجلّي نور اللّه عليها وجعْلِها مشرقةً بنوره الكاشفِ للحقائق من غير شمس ولا قمر[1]، فهو مِن إسناد الفعل لمفعوله لا لفاعلِه، وهذا الإسنادُ يُبرز عظمةَ النّور الَّذي ليس كأيِّ نورٍ مألوفٍ، بل هو نورُ اللّه تعالى وعدله في هذا الموقف الذي يملأ الأرض إشراقًا وجلالًا في مشهدِ الحساب[2].

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡأَرۡضُ﴾:

الإشـــراقُ يعـمُّ كلَّ أرجاءِ الأرض المخصوصة

تعريفُ الأرض في قوله تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، للعهدِ الذِّكريِّ الضِّمنيِّ، فقد تضمَّن قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾، أنَّهم قيامٌ على قرار، فإنَّ القيام يستدعي مكانًا تقوم فيه تلك الخلائق، وهو أرضُ الحشر، وفُسِّرت بأنَّها الأرضُ البيضاء النَّقيَّة، وليس المرادُ الأرضَ التي كانوا عليها في الدُّنيا، فإنَّها قد اضمحلَّت[3]، فهي أرضٌ معروفةٌ ومخصوصة لهم، فقد أخبرهم ربُّهم بأنَّها غيرها، كما ورد في قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: 48]، فأرضُ القيامة تختلف عن الأرض الدُّنيويَّة.

نوعُ الباءِ ودلالتُها:

المعنى الذي قد لا يفارق الباء هو المصاحبة والملابسة، وعلى هذا يكون المعنى: وأشرقت الأرض مصاحبة لهذا النّور الرّبّانيّ، ويمكن أن تكون الباءُ سببيَّةً، وتفيد أنَّ إشراق الأرض لم يكن بنور مادّي معتاد، بل هو نورٌ خاصٌّ صادر عن عظمة اللّه وعدله.

بلاغةُ الاحتباكِ في مفردة النّور:

إشـــراقُ الأرض بـنـور الـلـه بعد إظلامها

لفظُ النّورِ في قول الحقِّ سبحانه: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ فيه حذفٌ تقابليٌّ؛

(1) ابن الأحنف، البستان في إعراب القرآن: 2/ 369.
(2) الهمذاني، الفريد: 5/ 471.
(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 66.

إذ إنَّ الأنوارَ الموجودة في الدُّنيا تذهب يوم القيامة، وتضمحلُّ، فقد أخبر تعالى بأنَّ الشَّمس تُكوَّر، والقمر يُخسَف، والنُّجومَ تتناثر مِن ظاهر وجهِ السَّماء، وتندثر، ويكون النّاس في ظلمةٍ، فتشرق عند ذلك الأرض بنور ربِّها، عندما يتجلَّى سبحانه وينزل للفصل والقضاء بينهم، وفي ذلك اليوم يجعل اللّهُ للخلق قوَّةً، وينشئهم نشأةً يَقوَونَ على ألّا يحرقَهم نورُه الرَّبّاني، ويتمكَّن المؤمنون أيضًا من رؤيته، وإلّا فنورُه تعالى عظيمٌ، وحجابُهُ النور لو كشفه؛ لأحرقت سُبُحاتُ وجهه ما انتهى إليه بصره من خَلقهِ(1).

دلالةُ استعمالِ عنوانِ الرُّبوبيَّة:

الرِّعاية والتَّدبيرُ مناسب لسياق المشهد الأخروي

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ عنوان الرُّبوبيَّةِ في قوله تعالى: ﴿وَأَشۡرَقَتِ ٱلۡأَرۡضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾، دون اسم الجلالة؛ لحكمةٍ بلاغيَّةٍ ومعنويَّةٍ عميقةٍ، تتناسبُ مع سياق الآية ومضمونها، فلفظ الرُّبوبيَّة يدلُّ على الرِّعاية والتَّدبير والهيمنة الكاملة، وهو أنسبُ لسياق يوم القيامة ذي الرَّهبة والدَّهشة، ولا يخفى ما في الرُّبوبيَّة من معنى الرَّحمة والعدل معًا، وهو ما يتناسب مع إشراق الأرض يوم القيامة، فيظهر أثرُ ربوبيَّتِهِ الشّاملة للخلق، في مشهدٍ مليءٍ بالهيمنة والعظمة.

نكتةُ إضافةِ لفظ الرُّبوبيّة إلى الضَّمير:

العدلُ زينةُ الأرض والجزاءُ مآل العبادِ

أضافَ النَّظمُ الكريم لفظَ (ربِّ) إلى الضَّمير العائد على الأرض في قوله تعالى: ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾؛ لتشريف المضافِ إليه، والإضافة بمعنى اللّام، أي: بنور خاصٍّ خلقه اللّه فيها لا بسطوع مصباح ولا بنور كوكب كشمس أو غيرها، ولأنَّه ربُّها وخالقها، وهو الَّذي يعدل فيها، وينصب موازين قسطهِ، ويحكم بالحقِّ بين أهلِها، ولا ترى

---

(1) مسلم، صحيح مسلم: (179)، والسعدي، تيسير الكريم الرحمن: 1/ 729، وجبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (كدر).

أزينَ للبقاع مِنَ العدل، ولا أعمر لها منه، وهو ذو دلالةٍ واضحة أنَّ مَن يعدل في هذه الأرض هو ربُّها وخالقها[1].

دلالة واو العطف:

الـكـتـابُ دليـلُ الحساب العادل والجزاء المقسط

الواو في قولِ الحقِّ ﷻ: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾: عاطفةٌ، وهي تُظهر ترتيب الأحداث يوم القيامة ممّا يدلُّ على عظمة المشهد، وتعدُّد أحداثه، في وقتٍ واحدٍ، والعطفُ هنا يربط بين إشراقِ الأرضِ بنور اللّه ووضع الكتاب، فيُبرز اتِّصال النور الإلهيِّ بالعدالة المطلقة، حيث يُقدَّم الكتابُ باعتبارِه دليلًا للحساب، ويضيف ترابطًا بين المشاهد، ممّا يعكس شموليَّة الموقف وهيبته، ويُذكِّر بأنَّ كلَّ هذه الأحداثِ جزءٌ من تدبير اللّه الكامل ليوم القيامة.

فائدةُ استعمالِ مفردة (وُضِعَ):

وضْـعُ الـكـتـابِ كنايةٌ عن الجزاءِ العادل

استُعمِلَ لفظُ (وُضِعَ) في قول اللّه ﷻ: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾؛ لتصويرِ مشهدِ البتِّ والحتم فيما سيكون مِن حسابِ النّاس، فإنَّ وضعَ الكتابِ يُمثِّل إحضارَهُ ووضعه لتحقيقِ الحساب والحُكم بين النّاس، فاستخدامُ مادَّة (وُضِع) ترسمُ صورةً حسّيَّة تجذب الذِّهن، وتجعلُهُ يتخيَّل الكتاب حاضرًا ومرئيًّا أمام الجميع، ممّا يجعل القارئ، وكأنَّه يشاهد الموقفَ، وهذا يوحي بأنَّ كلَّ شيءٍ قد أُعدَّ، وحُسم، وأنَّ لحظة الحساب قد بدأتْ بلا رجعة، وجاء التَّعبيرُ بالوضع، ولم يأتِ بالحطِّ؛ لأنَّه أعمُّ منه في الدَّلالة على إبراز أعمالِ العباد[2]، ووضْعُ الكتاب هو كنايةٌ عن الجزاءِ العادل بين العباد.

دلالةُ التَّعبيرِ بصيغة المبني للمفعول:

جاء الفعلُ (وُضِعَ) مبنيًّا للمفعولِ، لعدم الحاجة لذكرِ الفاعل، فإنَّ الآمرَ بذلك هو اللّهُ تعالى، فجاء على طريقِ الإيجازِ؛ فإنَّ طيَّ

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 145، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 66.

(2) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن: (وضع).

الفاعل إيجازٌ لفظيٌّ، وذلك لنقل ذهنِ القارئ مباشرة إلى الشَّيء الَّذي وُضِعَ؛ إذ يصوِّر المشهد الكتاب، باعتبارِهِ كيانًا مادّيًّا حاضرًا ومهيبًا، ممّا يُضفي شعورًا بالرَّهبة والوقار في مشهد الحساب، وهو يشيرُ إلى حضورهِ البارز، وكأنَّه محورُ هذا المشهد العظيم.

وضْعُ الكتابِ يضفي على المشهد شعورًا بالرَّهبة

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلْكِتَٰبُ﴾:

تعريفُ الكتابِ في قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ للجنسِ، أي: وُضِعَتِ الكُتُبُ، وهي صحائفُ أعمال العباد، وأحضرت للحساب بما فيها مِن صالحٍ وسيِّئٍ[1]، ويجوز جعلُ الكلام تمثيلًا واللّام هنا للاستغراق، وأمّا إن كان معنى الكتاب اللَّوح المحفوظ، وُضِعَ ليقابل به الصَّحائف، فلامُهُ للعهد، ولا يظهر في هذا الأخير معنى التَّوعُّد، الَّذي هو مقصدُ الآية[2]، والكتاب هنا يُشير إلى سجلّات الأعمال، ووضْعُهُ يوحي بتقديم الأدلَّة والبراهين أمام النّاس للحساب، ممّا يبرز المسؤوليَّة الشَّخصيَّة للإنسان أمام اللّه تعالى.

تقديمُ الأدلَّة والبراهين تبرز المسؤوليَّة الشَّخصيَّة للإنسان

وظيفةُ الواو العاطفةِ:

الواو في قولهِ تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ للعطف، وتفيدُ الرَّبط بين الأحداث في سياق مشهدِ يوم القيامةِ، والعطفُ هنا يشير إلى أنَّ مجيءَ النَّبيّين جزءٌ من سلسلة مترابطةٍ مِن أحداث يوم القيامةِ، مِن إشراقِ الأرض إلى وضعِ الكتاب، فالرَّبطُ بالواو يوحي بترابطِ الأحداث، وتكامل في موقفٍ عظيم؛ إذ تُجمع كلُّ الأطراف، الكتاب الشّاهد المكتوب، والنَّبيّون الشُّهود العقلاء، ممّا يُعزِّز صورةَ المحاسبة الكاملة.

تسلسلُ الأحداثِ الغيبيَّة وربطُها بغايةِ الحساب

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغةِ المبني للمفعولِ:

جاء فعلُ المجيء في قوله تعالى: ﴿وَجِاْىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ مبنيًّا

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 67.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 9/ 223، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 285.

توجيهُ الأنظار لمجيءِ النَّبيّين وغايةِ الإحضار

للمفعول؛ للعنايةِ بالحدث نفسِه الَّذي هو إحضار النَّبيّين والشُّهداء لتعظيم المشهد، وإبرازِ أهمّيَّته دون الحاجةِ لذكر الفاعل، فهذا الاستخدامُ يُظهر الهيبةَ والرَّهبةَ في سياق يوم القيامة؛ إذ تتجلّى عظمةُ الموقف، فالإحضارُ لا يكون إلّا بأمر اللّه تعالى وقدرته، فالتَّركيزُ على النَّتيجة لا على الكيفيَّة، ممّا يترك مجالًا للتَّأمُّل في عظمة الحدث.

نوعُ الباءِ ومعناها:

إحضارُ النَّبيّين لأداءِ وظيفةِ الشَّهادة على الأقوام

الباءُ في قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ للتَّعدية، وقد تُفيد المصاحبة، وهي تعني: انضمامَ شيءٍ إلى آخر، انضمامًا يقتضي تلازمهما، فيما يقع عليهما أو منهما، وهي باءٌ تُستخدم في هذا السّياق؛ للدَّلالة على أنَّ الإتيان لم يكن مجرَّدَ إحضارٍ للنَّبيّين وحدَهم، بل هو إحضارٌ لهم، ومعهم دورٌ عظيم أو غاية محدَّدة في ذلك الموقف، وهو إقامة الحجَّة والشَّهادة على أقوامهم يوم القيامة.

معنى تعريفِ لفظ ﴿بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾:

جميعُ النَّبيّين حاضرون للشَّهادة على أقوامهم

التَّعريفُ في لفظ النَّبيّن في قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، يحتمل أن يكونَ للجنس؛ لتشيرَ إلى جميع الأنبياءِ على الإطلاق، أي: تشملُ كلَّ مَن بعثَهم اللّه تعالى إلى البشريَّة منذ آدمَ عليه السلام، وحتى خاتم الأنبياء محمَّد صلى الله عليه وسلم، ودلالة الشُّمول لجميع الأنبياء يؤيِّدها ذلك المشهدُ العظيم، ممّا يبرزُ أهمّيَّة مكانتهم وأثرهم في إقامة الحجَّة والعدل بين الناس، ويحتمل أن تكونَ للعهدِ في ذهن السّامع، مقصودًا بها الأنبياء المعروفون الَّذين أُرسلوا إلى أقوامِهم.

نكتةُ تقديم وضع الكتابِ على الإتيان بالنَّبيّين:

تقديمُ الدَّليل المكتوبِ على الدَّليل المسموع

قُدِّم ذِكرُ وضعِ الكتاب على مجيء النَّبيّين في قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾؛ لتقديم الوسيلةِ المكتوبة على المسموعةِ، فالتَّقديمُ يظهرُ محوريَّةَ الكتاب في الحساب، ويُبيِّن أنَّه

المرجع الأساسُ للحكم؛ لاحتوائهِ على أعمال كلِّ فردٍ، ومنهم الأنبياءُ والشُّهداء، وفي التقديم ترتيبُ البراهين لإقامة الحججِ، فقُدِّمَ الكتاب أوَّلًا؛ لأنَّه يتضمَّن الحساب الشّامل الَّذي يخضع له الجميعُ، ثمَّ يُؤتى بالنَّبيّين والشُّهداء، ويُحضرون لاحقًا كحُجَّة وشهادة على أقوامِهم، وهذا التَّقديم يُجلّي كمالَ عدلِ اللّه ﷻ، فهو لا يحتاجُ إلى شهادةٍ؛ كي لا يكونَ للنّاس حجَّةٌ على اللّه تعالى، حينها يجعل حضور النَّبيّين والشُّهداء تأكيدًا وبيانًا على عدالةِ الموقف، فالكتابُ هو الحاكم الأوَّلُ قبلَ أيِّ شهادةٍ أخرى، وأفاد التَّقديمُ ترتيبَ مراحلِ الحساب في مشهد مرتَّبٍ ومنظَّمٍ.

نكتةُ عطف (الشُّهداء) على (النَّبيِّن):

عُطِفَ لفظُ (الشّهداء) على (النّبيين)؛ لاجتماعِهما في إقامةِ الحُجَّة؛ فالعطف يقتضي التّغاير بين الفريقَيْن مع الاشتراك في المجيء.

معنى تعريف لفظِ (الشُّهداء):

الشُّهداءُ في القيامةِ أدوات إقامة الحجَّة وجزاء العبادِ

التَّعريفُ في لفظِ الشُّهداءِ في قولهِ ﷻ: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾، إمّا أن يكونَ دالًّا على الجنس، فهي تشيرُ إلى عموم الشُّهداء، أي: جميع مَن ينطبقُ عليهم وصفُ الشَّهادة، كالشُّهداء الَّذين قُتِلوا في سبيلِ اللّه، والشُّهداء على أعمال النّاس يوم القيامةِ، كالحفظةِ والكتبةِ والملائكة، وشهداء البشرِ الَّذين يشهدون على أقوامِهم، كأمَّة محمَّد ﷺ الَّتي تشهدُ على الأممِ الأخرى، وأعضاء الإنسان نفسه، وهذا يقرِّرُ عظمةَ المشهد، ويبرزُ الدَّورَ الكبير للشَّهادة في إقامة الحجَّة على الخلق يوم القيامةِ.

وإن جعلتَ (ال) للعهد، فهي تشيرُ إلى شهداء معهودين؛ أيّ: معروفين ضِمن السّياق، كالأنبياء الَّذين يشهدونَ على أممهم، وأمَّة محمَّد ﷺ لتشهد للأنبياء على أقوامِهم، والملائكة والشُّهداء على الأعمال الَّذين ذُكروا في مواضع متفرِّقة مِنَ القرآن.

بلاغةُ استعمالِ لفظ (الشُّهداء):

صيغةُ جمعِ الشُّهداءِ فيها منَ الفخامةِ ما لا يوجد في الشُّهود

آثر النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بصيغة جمعِ (الشُّهَداءِ)، دون (الشهود)، وهم الَّذين يُؤتى بهم في ذلك الموطنِ المهيب؛ لتأكيد ما جاء في الكتاب، فذكرَ مِنهم الشُّهداء وهو جمعُ شهيد، وهو الشّاهد، وأصلُهُ يَدُلُّ عَلى حُضورٍ وعِلم وإعلام؛ ليدليَ بشهادته في المشهدِ الذي هو مَحضَرُ النّاسِ[1]، وعدلَ عنِ التَّعبير بجمع القلَّة (الشُّهود)؛ لما يكونُ عليه زيادة العدد المطلوبِ في الشَّهادة، من إثباتِها وعدم القدرة على دفعِها، فالشُّهداء هم الَّذين وُكِّلوا بالمكلَّفين، فشاهدوا أعمالهم، فشهدوا عليها، مع ما في صيغة الجمعِ من التَّفخيم والتَّعظيم.

نكتةُ تقديمِ النَّبيّين على الشُّهداء:

تبليغُ النَّبيّين للرِّسالات هو الأصل في وجود الشُّهداء

قُدِّم ذِكرُ النَّبيّين على الشُّهداء في قوله تعالى: ﴿وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ﴾؛ وذلك أنَّ النَّبيّين لهم الرُّتبة العليَّة، والشُّهداء سواء أكانوا مِنَ الملائكة أو البشر أو الأعضاء، أو ما هو أعمُّ من ذلك؛ فإنَّ رتبتَهم دونَ رتبةِ النَّبيّين، فالأنبياءُ هم أعلى مقامًا وأعظمُ منزلةً عند اللّٰه من عموم الشُّهداء، فهُم الَّذين اصطفاهم اللّٰه لتبليغ رسالتهِ وإقامة الحجَّة على النّاس؛ لأنَّهم أوَّلُ الشُّهود وأولاهم، وأكثرُهم أهليَّة لإقامة الحجَّة، كما يلحظ في ذِكر النَّبيّين أوَّلًا إثارة شعورِ العظمة والجلال في ذهن السّامع، فالأنبياءُ يمثِّلون الأصلَ في التَّبليغ والهداية، فهُم الَّذين وضعوا أُسس الرِّسالة، والشُّهداء يمثِّلون الشَّهادة على أفعال الأمم.

فائدةُ استعمالِ مفردة ﴿وَقُضِيَ﴾ ودلالتها الشُّموليَّة:

شمولُ القضاءِ لجميع المراتب والحقوق

استعملَ النَّظمُ الكريم مفردةَ ﴿وَقُضِيَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾؛ لبيانِ أنَّ ما سيصدرُ في حقِّ العبادِ هو قضاءٌ حتميٌّ،

---

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شهد).

فيدخلُ فيه الفصلُ؛ إذ دلالة التَّعبيرِ بالفعل ﴿وَقُضِيَ﴾، أي: صدر القضاء فيهم بما يستحقون، وهو مُسمّى الحقِّ، فمِن القضاء ما هو فصل بين الناس، في معاملات بعضِهم مع بعضٍ، مِن كلِّ ظالمٍ ومظلوم، ومعتدٍ ومعتدى عليه، في اختلاف المعتقدات، واختلاف المعاملات، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [النحل: 124]، ومن القضاءِ القضاءُ على كلِّ نفسٍ بما هي به حقيقة من مرتبةِ الثّواب أو العقاب، وهو قوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، فقضاءُ اللّٰه هو القضاء العام، الذي لا يقتصر على أنصافِ المتداعين، كقضاء القاضي، ولكنَّه قضاءٌ على كلِّ نفسٍ فيما اعتدت، وفيما سلكت، وفيما بدَّلت، ويزيد على ذلك بأنَّه قضاءٌ على كلِّ نفسٍ بما اختلت به مِن عملٍ، وبما أضمرته من ضمائر، إن خيرًا؛ فخيرٌ، وإن شرًّا؛ فشرٌّ، وإلى ذلك تشير المراتبُ الثَّلاث في الآية مرتبة: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، ومرتبة: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، ومرتبة وهو ﴿أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[1].

نكتةُ التَّعبيرِ بصيغة ﴿وَقُضِيَ﴾:

حتميَّةُ القضاءِ توجبُ حتميَّة الحساب والجزاء

جاء فعل ﴿وَقُضِيَ﴾ ماضيًا مبنيًّا للمفعول؛ للعلم بالَّذي يقضي بين العبادِ، وهو اللّٰهُ الواحد الأحد، القاضي بين الخلائقِ بعدل تامٍّ، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [النحل: 124]، والفعل الماضي هنا بمعنى المُستَقبَلِ، تَنزيلًا لِتَحَقُّقِ وُقوعِهِ مَنزِلةَ الوُقوعِ بِالفِعلِ، وكأنَّ الأمرَ قد وقع ومضى[2] على سبيل الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة بتشبيه ما سيكون بما مضى بجامع التّحقّق، كما أنَّ هذه الصّيغةَ توحي بعظيم شأنِ القضاءِ بين العبادِ، لعلَّهم يتركون المظالم فيما بينهم، ويُعطون الحقوقَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 67 - 68.
(2) الشنقيطي، أضواء البيان: 3/ 416.

لأصحابِها، ويؤدّون ما عليهم من واجباتٍ، فإنَّ حتميَّةَ وقوعِ القضاء يوجب حتميَّةَ الحساب والجزاء على الأفعال.

براعةُ ترتيب الأحداث في مشهد القضاء:

التَّرتيبُ بين أحداث القضاء قائمٌ على ما يعهده النّاس في الدُّنيا

آثر النَّظمُ الكريم تأخيرَ ذِكر القضاء بين العباد في قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ وَجِاْيٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾؛ إذ اقتضى المشهدُ تسلسلَ أحداثِه وترتُّبها، فالآيةُ تصوِّر مشهدَ يوم القيامة بما سيكون فيه مِن أحداثٍ يظهر فيها التَّسلسل؛ إذ تبدأُ بوضع الكتاب؛ فمجيء النَّبيّين والشُّهداء، كشهود تأكيدٍ وبيانٍ وإظهار للحجَّة على الأمم، ثم يُختم المشهد بإصدار القضاءِ الَّذي يأتي بعد استيفاء الحُجَّة وتقديم الأدلَّة، وهذا التَّرتيب يتجلّى فيه كمالُ العدلِ الإلهيِّ المبنيِّ على العلم التامِّ والحجَّة البالغة، فليس ثمَّةَ قضاءٌ إلّا بعد تقديم كلِّ الحُجج وتثبيت الأدلَّة، ولا يخفى ما في هذا المشهد من تهيئة نفسيَّة من خلال ربْط القضاء بعدم الظُّلم، وتأخيره في الذِّكر؛ ليكونَ أقرب إلى نفي الظُّلم في سياق الآية.

دلالةُ استعمال الظَّرف:

القضاءُ بين العباد بالحقِّ يشمل الجميع

جاء ذِكرُ الظَّرف (بين) في قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾، أي: بين العباد، مِن أهل الجنَّة والنّار، ولم يقل: (وقُضي بالحق)؛ ليقعَ تقييدُ الفعل بكونهِ بين العباد، وذلك في الفصل بينهم والقضاء لكلٍّ بحقِّه[1]، والظَّرف إما أن يدلَّ على المكان، أو الحالة الَّتي يحدث فيها القضاءُ؛ إذ (بين) ظرف في الأصل، يدلُّ على المكان، وقد يدلُّ على الزَّمان[2]، أي: إنَّ القضاءَ سيحدث بين جميع الأطراف، ويكون ذلك في إطار الحقِّ الَّذي يتضمَّن العدالة التّامَّة، كما يُبرز هذا التَّصويرُ القضاءَ الإلهيَّ وكيفيَّة جريانه بحضور الجميع؛ إظهارًا

(1) الدامغاني، إصلاح الوجوه والنظائر، ص: 385.
(2) السامرائي، معاني النحو: 2/ 209.

للمواجهة المباشرة بين المتخاصمين، حيث تُرد المظالم، ويُعطى كلُّ ذي حقٍّ حقَّهُ.

تعيينُ مرجع الضَّمير:

فواتُ المظالمِ من فوائت يوم القيامة

يرجعُ الضَّمير في قولهِ تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ إلى الجماعات المذكورةِ في سياق الآيات السّابقة، وهم عمومُ أهل المحشر[1]، ودلالةُ العودِ لهذا الضَّمير تشيرُ إلى شموليَّة القضاء، ولم يذكر السّياق جميعَ الفئات الَّتي يتناولها القضاءُ؛ لما في ذلك من إفادة الإيجازِ البلاغيِّ، مع الاحتفاظ بشموليَّة المعنى، وليس خافيًا جماليات السّياق من حيثُ ربطُ السابق باللاحق بطريقةٍ تتجلَّى فيها عظمةُ المشهد.

نوعُ الباء ودلالتها:

ملازمةُ القضاء للحقِّ والتحامُهما التّامُّ

الباءُ في قوله تعالى: ﴿بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ للإلصاق، وهو أصلُ معاني الباء، وذلك نحو قولِك: أمسكتُ زيدًا، يحتمل أن تكونَ باشرته نفسه، ويحتمل أن تكونَ منعتُهُ من التَّصرُّف من غير مباشرةٍ له، فإذا قلت: أمسكتُ بزيدٍ، فقد أعلمتَ أنَّك باشرتَهُ بنفسك[2]، فالباء في الآية للإلصاق الحقيقيِّ، وهي تعبيرٌ دقيق عن ملازمة القضاء للحقِّ والتحامهما التّام، بحيثُ لا يصدر الحكم إلّا متلبِّسًا بالعدل الخالص، وهذا الإلصاقُ يُظهر أنَّ الحقَّ ليس مجرَّد معيار نظريٍّ، بل هو العنصرُ الفاعل الَّذي التصق بالقضاء في تنفيذه، فصار القضاءُ والحقُّ شيئًا واحدًا لا انفكاك بينهما، وهذا السّياق يتجلّى فيه الإعجازُ البلاغيُّ المُظهر لكمال العدالة في الفصل بين الخلائق يوم القيامة.

---

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 67.

(2) سيبويه، الكتاب: 2/ 304، والمبرد، المقتضب: 4/ 142.

معنى تعريف لفظِ (الحقّ):

حقُّ الآخرة حقٌّ مطلق كامل

تعريفُ لفظ (الحق) في قوله تعالى: ﴿بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾ للجنس، فهي بيانُ حقيقةِ جنس الحق، وبيان ماهية الحقِّ؛ فالسّياق يشير إلى أنَّ القضاء قد تمَّ وفقَ الحقيقةِ المطلقة للعدلِ الَّذي ينطبق على كلِّ حالةٍ دون تخصيصٍ أو ارتباط بحالة سابقة أو عهد معيَّن، وقد لوحظ في السّياق جنس الحقِّ ذاته الَّذي هو الحقُّ المطلق من الله تعالى.

نوع الواو ودلالتها:

تعزيزُ الثِّقة بعدالة القضاء

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ هي واو الحالِ، وهي تفيد الرَّبطَ بين الجملة الحاليَّةِ والجملة السّابقة، فتُبيِّن حالَ العباد أثناء القضاءِ بينهم[1]، ودلالتُها إفادةُ أنَّ القضاءَ بالحقِّ يتمُّ في حالة من كمال العدل الإلهي، بحيثُ لا يُظلم أحدٌ أثناء ذلك، وتؤكِّد الجملة الحاليَّة أنَّ الظُّلم - وهو ضدُّ العدل - منفيٌّ تمامًا عن الله في كل لحظة من لحظات القضاء في هذا المقام، فالثِّقة بعدالة القضاء مرجعُها الكمال الإلهي في العدالة بين المخلوقين.

نكتةُ تقديمِ المسند إليه على النَّفي والمسند الفعليّ:

تقوية المعنى وترسيخ الحقيقة في ذهن المتلقي

قُدِّم المسند إليه على المسند الفعليِّ في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾؛ لتقوية الحكم وتوكيده، وإبراز أهمّيَّة الذَّوات المعنيَّة بالحكم، وهو تأكيد بأنَّ الظُّلمَ منفيٌّ عن العبادِ تمامًا، وأن السّياق يجعل تركيزَ المستمع والقارئ على النَّفي نفسه، وإعطائه أهمّيَّة كبرى؛ ليستقر في خلده يقينًا أنَّ الله تعالى لا يظلم أحدًا أبدًا، وهذا الختمُ للآية هو أكثر انسجامًا مع سياق المشهد الَّذي قرَّر في لحظة من لحظاتهِ عدل الله تعالى ورحمته بعبادهِ، والتَّقديم للمسندِ إليه يُؤتى به عادةً لتقوية المعنى، وترسيخه في ذهن المتلقي، ممّا يُضفي جماليَّة معنويَّة على النَّصِّ القرآنيِّ.

---

(1) ابن مالك شرح التسهيل: 2/ 359، والأشموني، شرح الأشموني: 2/ 36.

دلالةُ التَّعبيرِ بلفظ الظُّلم مادَّة وصيغة:

بيانُ عدالةِ الله المطلقة مع عباده

جاء التَّعبيرُ بنفي الظُّلم في قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ الذي هو وضع الشَّيء في غير موضعه؛ لأنَّ المقصودَ نفيُ كلِّ ما يتصوَّره الإنسانُ في الدُّنيا من وقوع الظُّلم بكافّة أنواعه وأشكاله، وآثر التَّعبير بصيغة المضارع ﴿يُظۡلَمُونَ﴾؛ لاستحضار الصّورة من ناحية وهم يقفون في ذلك اليوم العظيم دون أن تُهضم حقوقهم، وللدّلالة على التّجدّد الاستمراريّ في استمرار عدل اللّه وبقائه، وفي هذه الآية من المناسبةِ بينَ مَطلَعِها وخاتمتِها ما يُشعر بالانسجام العامِّ لجو المشهد الذي أضفتْهُ خاتمةُ سورةِ الزُّمر للحديث عن يوم القيامةِ ومشاهدِ الحسابِ، والآيةُ تأتي في إطار بيان عدالةِ اللّه المطلقةِ مع عبادِه، ممّا يجعل المناسبةَ بين العدل ونفي الظُّلم أمرًا جوهريًّا في فهم مشهد الحساب، فبعدَ إثبات العدل، يأتي نفْيُ الظُّلم لتُكمل الصّورةُ العدلَ الإلهيَّ، ولا يترك مجالًا للظُّلم، سواء بزيادة في العقابِ أم نقصان في الثّواب[1].

نكتةُ عطفِ التَّوفية على القضاء بين العباد:

تـدرُّجُ الأحـداث وترتيبُها يُبرز معالمَ العدالةِ الإلهيَّة

عطفَ النَّظمُ قولَهُ تعالى: ﴿وَوُفِّيَتۡ﴾ على الآية السابقة؛ إذ تتحدَّث عن القضاء بين النّاس بالحقِّ في قولهِ تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيۡنَهُم بِٱلۡحَقِّ﴾، ثمَّ تأتي الواو لتبيِّن نتيجةَ هذا القضاءِ، وهي توفيةُ كلِّ نفسٍ ما عملت من خيرٍ أو شرٍّ، وتظهر الواو الدَّلالة البلاغيَّة، وهي تدرُّج الأحداث وترتيبها؛ إذ إنَّ التَّوفيةَ على الأعمال تأتي عقب القضاءِ الإلهيِّ، فهي مرحلةٌ لاحقةٌ مرتبطةٌ به، وهي تربط بين مشهد القضاءِ الَّذي يوحي بالهيبة والرَّهبة، ومشهد الجزاء الَّذي يوحي بالدِّقَّة والتَّفصيل، وهذا كلّه يبرزه السّياق إظهارًا لكمال العدل الإلهيِّ المطلق.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 145.

إحاطةُ الجزاءِ بكلِّ صغيرةٍ وكبيرةٍ من أفعال الإنسان

دلالةُ التَّعبيرِ بالتوفيةِ مادَّة وصيغة:

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمال فعل ﴿وَوُفِّيَتْ﴾، وهو فعلٌ ماضٍ صيغ للمفعول؛ للدَّلالة على تحقُّق الكمال والتَّمام للوفاء والجزاء من الله تعالى، فالتوفيةُ دالَّةٌ على إعطاء الشَّيء وافيًا لا نقص فيه عن الحقِّ في إعطائه ولا عن عطاء أمثالِه[1]، والفعلُ متضمِّن الإتمام للجزاء، كما في قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ۝٣٠﴾ [الكهف: 30]، فدلَّ فعل التَّوفية على الكمال والتَّمام في القضاء والجزاء، وأنَّه لا يضيع حقُّ أحدٍ مِنَ العباد، وبُني الفعل للمفعول للعلم بالفاعل في ذلك اليوم، وهو اللّٰه تعالى، وللاهتمام بالجزاء الموفَّى، الَّذي تناله كلُّ نفس جزاء عملها كاملًا وبالتَّمام، سواء كان خيرًا أم شرًا، دون أيِّ زيادةٍ أو نقصان، وهو مناسب لسياق مشهد يوم القيامة.

استغراقُ الأفرادِ في الحساب كلٌّ بحسبِ أعماله

نكتةُ ذكرِ أداة العموم ﴿كُلُّ﴾:

ذكرَ النَّظمُ الكريم أداةَ العموم ﴿كُلُّ﴾، وهي اسمٌ يفيد الاستغراقَ والإحاطة بالأفراد والأجزاء، وهي أقوى صيغِ العموم؛ لصحَّة دخولها على العاقل وغيره، كما أنَّها تتناول النَّكرات والمعارف، وهي موضوعةٌ أصلًا لعموم الشُّمول، وهو أن تتناول كلمةُ العموم أفرادَ ما دخلت عليه عموم شمولٍ[2].

كلُّ نفسٍ تقع عليها رهبة الحساب ومسؤوليَّة الجزاء

نكتةُ تنكير لفظِ ﴿نَفْسٍ﴾:

جاء لفظُ ﴿نَفْسٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾ نكرةً لإفادة الإطلاق والعموم، وليشملَ كلَّ نفسٍ دون استثناءٍ، وليؤكِّد أنَّ اللّٰهَ تعالى سيُحاسب كلَّ نفس على عملها بمفردها، فلا يحمل أحدٌ وِزرَ أحدٍ، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ۝٣٨﴾ [المدثر: 38]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: 164]، وهذا السّياق

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 68.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 1/ 62، والسامرائي، معاني النحو: 4/ 138.

في هذا المشهد المهيب يختارُ هذه الكلمة؛ ليُضفي شعورًا بالرَّهبة والتَّأمُّل والهيبة والتَّشويق؛ إذ يوحي بأنَّ الجزاء شامل ودقيق، ويضع كلَّ قارئٍ للآية أمام مسؤوليَّتِهِ الفرديَّة، ممّا يدفعُهُ للتَّفكير في عواقب أعمالِهِ، وقد استغرق العمومُ كلَّ الأفرادِ استغراقًا شاملًا بإضافة أداةِ العموم ﴿كُلُّ﴾ إلى ﴿نَفْسٍ﴾.

بلاغةُ المجازِ بالحذف:

في قوله تعالى: ﴿مَّا عَمِلَتْ﴾ مضافٌ محذوف، أي: جزاء ما عملت؛ لظهور أنَّ ما عمله المرءُ لا يوفّاه بعد أن عملَهُ، وإنَّما يوفّى جزاءه[1]. وكذلك حُذف مفعول العمل؛ والتّقدير: (جزاء ما عملته)؛ وذلك لإنزال الفعل المُتعدّي منزلةَ الفعل اللّازم؛ ليعمّ كلّ عملٍ عملته هذه النّفس.

نكتةُ استعمال ﴿مَّا﴾ المصدرية:

جزاءُ كلِّ نفس مرهونٌ بكسبها على وجه الخصوص

استعملتِ الآيةُ الأداة ﴿مَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾، وهي وما بعدها بتأويل مصدرٍ في محل نصب مفعول به[2].

فالجملةُ تشير إلى أنَّ كلَّ ما عملَهُ الإنسان في الدُّنيا، مِن خير أو شرٍّ، صغيرًا كان أو كبيرًا، سيكون حاضرًا يوم القيامة ويجازى عليه، كما في قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ٧﴾ [الزلزلة: 7]، وكذلك توظيفُ ﴿عَمِلَتْ﴾ بدلًا من كلمة (العمل) المجرَّدة يُضفي قوَّةً معنويَّة؛ إذ يُبرز الفعليَّة والفاعليَّة فيما كسبته النَّفس بنفسها، وتؤكِّد عدالةَ اللّٰه المطلقة في جزاء النَّفس على ما قدَّمته بنفسها، مع الشُّموليَّة والدِّقَّة في الحساب.

نوعُ الواو ومعناها:

الواو في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ إمّا أن تكونَ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 68.

(2) بهجت، الإعراب المفصل: 10/ 217.

عاطفةً على ما سبق، أو حاليَّة، والجملة بعدها حاليَّةٌ، لتقرير علم اللّه المحيط بأفعال العباد؛ تأكيدًا يعمُّ كلَّ ما يفعلونه.

نكتةُ التَّعبير بالاسميَّة:

العلمُ الإلهيُّ ثابتٌ مطلقٌ يشملُ كلَّ المخلوقات

أفادتِ الجملةُ الاسميَّة في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ بِمَا يَفۡعَلُونَ﴾ تأكيدَ ثبوتِ وصف العلم المطلق للّه تعالى، فالبارئُ تَعالى لا يَخْفى عليه شيءٌ في الأرضِ ولا في السَّماءِ، يَعلَمُ ما كانَ وما يكونُ، ولا يُقَدَّرُ شيءٌ إلّا وهو عالمٌ به، والسّياقُ اقتضى الجملة الاسميَّة الدّالَّة على الاستمراريَّة والثَّبات؛ لما فيها مِن مناسبة علم اللّه، كما أنَّ هذا التَّعبيرَ يبرز إحاطةَ اللّهِ الكاملة بأفعال عبادِه، ظاهرها وباطنها، دون أن تخفى عليه خافيةٌ، سواء في نيّاتِهم أو أعمالهم الظّاهرة، ويضيف هذا التَّركيب توجيهًا للإنسان بأن يراقب نفسه في كلِّ أفعاله؛ إذ إنَّ العلمَ الإلهيَّ محيطٌ بكلِّ ما يصدر عنه، ممّا يعمِّق الإحساسَ بمراقبةِ اللّه، ويعزِّز مِن رهبةِ الوقوف بين يديه يوم الحساب.

نكتةُ استعمالِ صيغة أفعل التفضيل:

اسمُ التَّفضيلِ مسلوب المفاضلة بقصد المبالغةِ

جاء التَّعبيرُ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعۡلَمُ﴾ بصيغة أفعل التَّفضيل، وهي هنا مسلوبةُ المفاضلة؛ لأنّه لا يوجد مَن يُقارب اللّه تعالى في علمه؛ فالمقصودُ منها بيانُ المبالغة في الوصفِ بغرضِ إثبات العلم للّه تعالى وحدَه، واختصر هذا المعنى عطاء بن أبي رباح رحمه اللّه فقال: "يريد أنّي عالم بأفعالِهم لا أحتاج إلى كاتب ولا إلى شاهد"[1]، فلا معنى للمفاضلةِ بين علم اللّه وعلم العباد؛ لأنَّ علمَ اللّه مطلقٌ وكامل لا يعزب عنه مثقال ذرَّة، بينما علمُ العباد محدودٌ ناقص، والغرضُ مِن التَّعبير الإشارةُ إلى شموليَّة علم اللّه، ودقَّته في معرفة ما يفعل العباد، سواء أظهروا أم أخفوا أفعالهم، فهو يحمل دلالةً

(1) البغوي، معالم التنزيل: 7/ 132.

تأكيديَّة لعظمة علم اللّه، وليس مقارنة بينه وبين أحدٍ، فلا يقصد مِن هذا النَّظم القُرآني معنى المفاضلة بل المبالغة.

معنى (ما) وموقع الجملة بعدها:

إحاطةُ علمِ الله المطلق بأعمال البشر

السّياقُ في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾، جاءت (ما) اسمًا موصولًا مجرورًا بحرف الجرِّ الباء، والجملة الفعليَّة: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ هي صلةُ الموصول، وهي جملةٌ لا محلَّ لها مِنَ الإعراب؛ لأنَّها مكمِّلة لمعنى الاسم الموصول، والغرض من التّعبير بالاسم الموصول وصلته هنا هو التّعميم، فهذه الجملة تبيِّن مضمون العلم الإلهيِّ، الَّذي يشملُ أفعالَ العباد جميعها، سواء كانت ظاهرةً أم باطنةً، ماضية أم مستمرَّةً.

لطيفةُ استعمال فعل ﴿يَفْعَلُونَ﴾ مادَّة وصيغة:

الأفعالُ التي يُداوم عليها الإنسانُ أشدُّ حسابًا وأعظم جزاءً

آثر النَّظمُ الكريم استعمال مفردةِ ﴿يَفْعَلُونَ﴾، وهو فعلٌ مضارع من الجذر الثُّلاثي (فعل)، وجاء مجموعًا، على صيغة الأفعال الخمسة، وهذه الصيغةُ تحمل دلالات واسعة، تتعلَّق بذات السياق، فهو دالٌّ على العمل الشّامل والعام دون تخصيصِ نوعٍ معيَّن؛ ليشمل كلَّ ما يصدر عن الإنسان ظاهرًا وباطنًا، وهذه الصّيغة ﴿يَفْعَلُونَ﴾ - الدالَّةُ على التَّجدُّد والحدوث - صادقة في كلِّ ما كان له تأثير من جهة مؤثِّر، وذُكِرَ الفعلُ دون العملِ؛ هو من باب التّخويف والتّحذير لهم؛ فالفعل يشمل ما كان مقصودًا أو غير مقصودٍ من الأعمال، ليتَّسق الأمر مع ما استمرّوا عليه من أفعالهم، فالأفعال المقصودة هي الأفعال التي كانت ديدنهم في حياتهم، لا الأفعال التي هي أقربُ إلى الأفعال الجبلّيَّة، فالأفعال نوعان: أفعالٌ جبلّيَّة طبعيَّة، وأفعال ناشئة عن سلوكٍ معتاد، يداوم عليها الإنسان حتى تُصبح فعلًا يُشابه الأفعال الجبلّيَّة، وهذه أشدُّ وطأةً، وأعظم عقابًا وثوابًا من غيرها.

بلاغةُ الحذفِ مدعاةٌ لزيادة التَّأثير النَّفسي والتربوي

نكتة حذف مفعول ﴿يَفۡعَلُونَ﴾:

حُذِفَ مفعول فعل ﴿يَفۡعَلُونَ﴾؛ وذلك لما في الحذف من الإيحاء بالشموليَّة والتَّعميم؛ فالحذف يَترك المجال مفتوحًا أمام جميع أنواع التَّقديرات للمفعول من الأعمال الَّتي قد يصدرها النّاس، فحذْفُ المفعولِ يجعل المعنى أكثرَ شمولًا، بحيثُ يعبِّر عن عِلم اللّٰه بما يفعلون في جميع المواقفِ والأحوال دون تحديد نوع الفعل أو محدوديَّته، ولا يخفى ما في حذف المفعول من رشاقة العبارة واختصارها، والتَّركيز على الفعل نفسِهِ، بدل المفعول؛ لتحفيز الذِّهن على التَّفكير والتَّأمُّل في شموليَّة هذا العلم، ممّا يسهم في زيادة التأثير النَّفسي والتَّربوي.

﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٧١ قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾ [الزمر: 71 - 72]

مُناسَبَةُ الآيتينِ لِما قبلَهُما:

الانتقالُ مِن مقاماتِ الحسابِ إلى مقاماتِ الجزاءِ

لمّا ذكرتِ الآياتُ السّابقة مواقفَ العباد يوم القيامة، وأنَّه سيُقضى بينهم بالحقِّ، ولن يُظلم أحدٌ فيما نزل في حقِّه مِن حكم الله تعالى؛ ناسب الانتقال إلى نتيجةِ القضاء، وهو السَّوق إلى المآل في الجنَّة أو النّار، فإنَّ وضْعَ الكتابِ وإحضار الشُّهداء، والقضاء بينهم بالحقِّ، ما كان إلّا لهذه الغايةِ الَّتي هي مصير العبادِ في الآخرةِ، وناسب أن يبتدِئ بأهل الكفرِ؛ لأنَّه لمّا كان الأغلبُ على هذه المقاماتِ التَّحذير؛ قدَّم في هذه التَّوفيةِ حالَ أهلِ الكُفرِ[1].

شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَسِيقَ﴾: (سوق) أصلٌ واحِدٌ، وهوَ حَدْوُ الشَّيءِ، يُقالُ: ساقَهُ يَسوقُهُ سَوقًا، والسَّيِّقَةُ: ما استيقَ مِنَ الدَّوابِّ، ويُقالُ: سُقْتُ إلَى امرَأتي صَداقَها، وأسَقْتُهُ، والسّوقُ مُشْتَقَّةٌ من هَذا، لِما يُساقُ إليها مِن كُلِّ شَيءٍ، والجَمعُ أسواقٌ، والسّاقُ للإنسانِ وغيرِه، والجَمْعُ سوقٌ، إنَّما سُمّيَتْ بِذَلِكَ؛ لأنَّ الماشيَ يَنساقُ عَلَيها، والمَصْدَرُ السَّوَقُ[2]، وسيق أصلُهُ سَوق فعل ماضٍ بُني لما لم يُسمَّ فاعلُهُ، فصار: سوِقَ؛ لأنَّه

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 564.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوق).

مِنَ السَّوْق، استُثقِلَتِ الكسرةُ على الواو، فأُسكِنَت، ونُقِلَت حركتها إلى ما قبلها، ثم أُبدِلتِ الواوُ ياءً، وقاعدته: أنَّ الواو إذا سكِّنت، وانكَسَر ما قبلَها؛ انقلبتْ ياء، كما في ميعاد، وميزان[1]، والمقصود بالسَّوْقِ في الآيةِ قيادةُ أهل الكافرين إلى منتهى أمرهم في النّار.

2) ﴿زُمَرًا﴾: (زمر) يَدُلُّ عَلى قِلَّةِ الشَّيء، فالزُّمرَةُ فالجَماعَةُ[2] القَليلَةُ، ومنها قيلَ: شاةٌ زُمرةٌ قَليلَةُ الشَّعرِ، ورَجُلٌ زُمُرٌ قَليلُ المروءَةِ، وقالَ بَعضُهُم: اشتِقاقُ الزُّمرةِ مِنَ الزَّمَرِ، وهوَ الصَّوتُ؛ إذ الجَماعةُ لا تَخلو عَنهُ غالِبًا، والزُّمَرُ: الأفواجُ المُتَفَرِّقةُ بَعضُها في أثَرِ بَعضٍ، والطَّبَقاتُ المُختَلِفَةُ، وزُمَرُ الَّذينَ كَفَروا مُتَرتِّبَةٌ حَسْبَ تَرتيبِ دَرَكاتِهم في الضَّلالَةِ والشَّرارَةِ[3].

3) ﴿خَزَنَتُهَآ﴾: (خزن) أصلٌ يَدُلُّ عَلى صيانَةِ الشَّيءِ، يُقالُ: خَزَنْتُ الدِّرْهَمَ وغَيْرَهُ خَزْنًا، وخَزَنْتُ السِّرَّ[4]، والخَزَنَةُ في الآيَةِ: جَمْعُ خازِنٍ، ويُقالُ: خَزّان وخَزَن، والخازن هو كالبوّاب، وخَزَنَتُها، أي: جهَنَّم من الزَّبانيَةِ الذَّين هم غِلاظُ الأخلاقِ، شِدادُ القوى، يقولون على وجهِ التَّقريعِ والتَّوبيخِ والتَّنكيلِ للكفار: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾، وجاء ذِكر عددِهم في قوله سُبحانَه: ﴿عَلَيۡهَا تِسۡعَةَ عَشَرَ ٣٠﴾ [المدثر: 30][5].

4) ﴿حَقَّتۡ﴾: (حقق) أصلٌ واحِدٌ، وهوَ يَدُلُّ عَلى إحْكامِ الشَّيءِ وصِحَّتِه، فالحَقُّ نَقيضُ الباطِلِ، ثُمَّ يَرجِعُ كُلُّ فَرعٍ إلَيهِ بِجَودَةِ الاستِخراجِ وحُسنِ التَّلفيقِ، ويُقالُ: حَقَّ الشَّيءُ: وجَبَ، قالَ اللّهُ تعالَى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[6]، والحَقُّ نَقيضُ الباطِلِ؛ لأنَّ حقَّ الشَّيءِ يَحِقُّ حَقًّا، أي: وجَبَ وُجوبًا[7]، وحَقَّهُ يَحُقُّهُ حَقًّا وأحَقَّه، كِلاهُما أثْبَتَهُ، وصارَ عِنْدَهُ حَقًّا لا يَشُكُّ فيه[8].

5) ﴿فَبِئۡسَ﴾: (بأس) أصلٌ واحِدٌ، الشِّدَّةُ وما ضارَعَها، فالبَأْسُ الشِّدَّةُ في الحَرْبِ، ورَجُلٌ ذو بَأْسٍ وبَئِيسٌ، أي: شُجاعٌ، وقَد بَأسَ بَأسًا، فَإنْ نَعَتَّهُ بِالبُؤْسِ؛ قُلْتَ: بَؤُسَ، والبُؤْسُ:

(1) الحميري، شمس العلوم: 1/ 58.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (زمر).
(3) الراغب، مفردات ألفاظ القرآن: (زمر)، والزمخشري، الكشاف: 4/ 146، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 286.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خزن).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 264.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).
(7) الخليل، العين: (حق).
(8) ابن سيده، المحكم: 2/ 472.

الشِّدَّةُ في العَيْشِ، والمُبتَئِسُ: المُفْتَعِلُ مِنَ الكَراهَةِ والحُزْنِ[1]، ومنه البَئِسُ، والبَيِسُ على فَعِل: العَذاب الشَّديد، قال تعالى: ﴿بِعَذَابٍ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ١٦٥﴾ [الأعراف: 165][2]، وبِئس: فعلٌ جامدٌ للذَّمِّ، ضدَّ (نِعْمَ) في المَدْح، وفي التَّنْزيل العَزيز: ﴿بِئۡسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتۡ مُرۡتَفَقًا ٢٩﴾ [الكهف: 29][3]، ولا يَعْمل (نِعْمَ وبِئسَ) في اسم علم، إنَّما تعملان في اسم منكَّر، دالٍّ على جنس، أو اسم فيهِ ألفٌ ولامٌ يدلُّ على جنس[4].

6) ﴿مَثۡوَى﴾: (ثوى) كَلِمَةٌ واحِدَةٌ صَحيحَةٌ تَدُلُّ عَلَى الإقامَةِ[5]، والثَّواءُ: طولُ المُقام، وقد ثَوَى يَثْوي ثَواءً، والمَثوى: الموضع[6]، قالَ أبو عَليٍّ: المَثوى عِندي في الآيَةِ اسمٌ لِلمَصدَرِ دونَ المَكانِ لِحُصولِ الحالِ في الكَلام مُعمَلًا فيها، ألا تَرَى أنَّه لا يَخْلو مِنْ أن يَكونَ مَوضِعًا أو مَصْدَرًا؟ فَلا يَجوزُ أن يَكونَ مَوضِعًا؛ لأنَّ اسمَ المَوْضِعِ لا يَعْمَلُ عَمَلَ الفِعْلِ؛ لأنَّه لا مَعْنَى لِلفِعلِ فيه، فَإذا لَم يَكُن مَوضِعًا؛ ثَبَتَ أنَّه مَصدَرٌ[7].

المَعنى الإجماليُّ:

سَوقُ الكافرين إلى مثواهم السَّرمديِّ وتبكيتهم لاختيارِهم ذلك

بَيَّنَتِ الآيتان الكريمتان أنَّ الملائكةَ يسوقون الكافرين بالله إلى جهنَّم جماعاتٍ ذليلةً، حتى إذا جاؤوا جهنَّم؛ فتحت لهم خزنتُها من الملائكة الموكَّلين بها أبوابَها، واستقبلوهم - بالتَّوبيخ - قائلين لهم: ألم يأتِكم رسلٌ مِن جنسكم يقرؤون عليكم آياتِ ربِّكم المنزلة عليهم، ويخوِّفونكم لقاء يوم القيامة، لما فيه من عذابٍ شديدٍ؟ قال الَّذين كفروا مُقرّين على أنفسهم: بلى، قد حصل كلُّ ذلك، ولكن وجبت كلمةُ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بأس).
(2) الأزهري، تهذيب اللغة: (بأس).
(3) مجمع اللغة العربية بالقاهرة، المعجم الوسيط: (بئس).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة: 3/ 11.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ثوى).
(6) الخليل، العين: (ثوى).
(7) ابن منظور، لسان العرب: (ثوى).

العذاب على الكافرين، ونحن كنّا كافرين، قيل لهم؛ إهانةً لهم وتيئيسًا من رحمة الله، ومن الخروج من النّار: ادخلوا أبوابَ جهنَّم ماكثين فيها أبدًا، فساءَ، وقبحَ مَقَرُّ المتكبِّرين المتعالين على الحقِّ، والمُتكبِّرينَ عَلى اللّهِ في الدُّنيا أن يوحِّدوهُ، ويُفْرِدوا لَهُ الأُلوهَةَ، جَهَنَّمُ يَومَ القيامَةِ[1].

وترشدُ الآيتانِ الكريمتان إلى أنَّ أهلَ النّار يُفاجَؤون بها، فمِن حين إتيانِهم تُفتَح؛ ليَكونَ ذلك أشَدَّ مُباغتةً وأشَدَّ حَرارةً - والعياذُ باللّه - فلا يُمَكَّنون مِنَ الصَّبر عنها طَرْفةَ عَيْنٍ، مع أنَّهم يَوَدّون أنَّها لا تُفتَح، وإلى اجتِماع العَذاب القلبي والبدَني عليهم، وإلى تَمام إقامة اللّه الحُجَّة على بني آدَمَ بإرسال الرُّسُل منهم[2].

۞ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نوعُ الواوِ وفائدتها:

رَبطُ المَشاهِدِ؛ لإظْهارِ التَّبايُنِ

الواوُ في قَولِه تَعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾، واوُ العَطفِ، وهيَ تُفيدُ عَطْفَ الجُملَةِ عَلى الجُمْلَةِ؛ إذ تَتَحَدَّثُ الآياتُ السّابِقَةُ عَن مَشهَدِ القيامَةِ ومَصيرِ كُلٍّ مِنَ الفَريقَينِ إجمالًا، ثُمَّ تَنتَقِلُ إلَى بَيانِ مَصيرِ الكافِرينَ، ودلالَةُ العَطْفِ هُنا هي رَبْطُ هَذِهِ المَشاهِدِ؛ لإظهارِ التَّبايُنِ بَينَ المَصيرَيْنِ المُختلفَيْنِ في تَوضيحِ تَمايُزِ النِّهاياتِ بِناءً عَلى الإيمانِ والكفر.

نكتةُ استعمال مفردة السَّوق:

سَوْقُ الكافِرينَ بِعُنْفٍ وإزعاجٍ

آثرَ النَّظمُ الكريمُ استعمالَ مفردةِ ﴿وَسِيقَ﴾؛ لما فيها مِنَ الحَثِّ عَلَى المَسيرِ بِعُنْفٍ وإزعاجٍ، أي: سيقوا إليها بالدَّفع والعُنْفِ والإهانَةِ، أفواجًا مُتَفَرِّقَةً، بَعضُها في أثَرِ بَعضٍ، مُتَرَتِّبَةً حَسَبَ تَرَتُّبِ طَبَقاتِهم في الضَّلالَةِ والشَّرارَةِ[3]، والسَّوْق أن يُجعل الماشي ماشيًا آخر يسير

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 337، وجماعة من العلماء، المختصر في تفسير القرآن، ص: 466.
(2) العثيمين، تفسير سورة الزمر، ص: 484 - 485.
(3) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 286.

أمامَهُ ويلازمه، وضدُّهُ القود، والسّوق مشعرٌ بالإزعاج والإهانة، كما قال تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ﴾ [الأنفال: 6][1]، فجمع هذا اللَّفظُ بين الإهانةِ والعنف، وهو المناسب للكافرين في ذلك الموقف المهيب، واستعمالُهُ في حقِّ المؤمنين للمشاكلةِ، كما سيأتي.

بلاغةُ التَّعبيرِ بالفعل (سيق):

سَوقُ الكافرين حــقٌّ قــادمٌ وعذابُهم حتمٌ لازمٌ

جاء التَّعبيرُ بالماضي (سيقَ) عَلى إرادَةِ الاستِقبالِ؛ لأنَّهُ إخبارٌ عَنِ الأحداثِ المُستَقْبَلَةِ مَعَ قَصْدِ القَطعِ بِوُقوعِها، والقَصد تَحقيقُ الوُقوع، فهو من باب الاستعارة التّصريحيّة التّبعيّة بتشبيه ما لم يقع بما هو واقع بجامع التّحقّق، فَكَما أنَّهُ لا شَكَّ في حُدوثِ الفِعلِ الماضي، كَذَلِكَ لا شَكَّ في حُدوثِ هَذِهِ الأفعالِ؛ إذْ هيَ بِمَنزِلَةِ الماضي في تَحقيقِ الوُقوعِ[2]، كَما أنَّ هَذا الفِعلَ في الماضي قَد جاءَ مَبنيًّا لِلمَفعولِ إشارَةً إلى أنَّهُم وصَلوا إلَى أقصَى ما يَكونُ مِنَ الذُّلِّ بِحَيثُ إنَّهُم يَمتَثِلونَ قَولَ كُلِّ قائِلٍ[3]، وكذلك حتّى ينشغلوا بفعل السّوْق نفسه بغضّ النّظر عمّن يسوقهم.

نُكتَةُ البَدءِ بِذكرِ سَوقِ الكافِرينَ:

تَهيِئَةُ النَّفسِ لِلتَّفَكُّرِ في نَقيضِ العَذابِ

بدأتِ الآيةُ بِذِكر سَوقِ الكافرين، في قَولِهِ تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾، وتَقديمُهُم يُبرِزُ التَّناسُقَ في تَصويرِ المَشهَدِ يَومَ القِيامَة، حَيثُ يُظهِرُ عَدلَ المَلِكِ الحَقِّ سُبحانَهُ في التَّمييزِ بَيْنَ المُذنِبينَ والمُتَّقينَ بِأُسلوبٍ بَليغٍ مُؤَثِّرٍ، مُتَّسِقٍ تَمامًا مَعَ تَرتيبِ الأحداثِ وجَرَيانِها، فَسَوقُ الكافرينَ عاجِلٌ مُقتَرِنٌ بالرَّهبةِ والإذلالِ إلى مَصيرِهِم، وربَّما قدَّموا لكثرة عددِهم[4]، ويَبقَى المُؤمنونَ في مَقامِ التَّكريمِ والطُّمَأنينَة، يَنتَظِرونَ دُخولَهم إلَى الجَنَّةِ في مَوكِبٍ مَهيبٍ،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 69.
(2) السامرائي، معاني النحو: 3/ 314.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 566.
(4) الهلال، تفسير القرآن: 24/ 41.

ولا يَخْفَى ما في ذَلِكَ مِن تَعجيلٍ بالعُقوبَةِ لَهُم، وعَدَمِ الإنظارِ؛ نَكايَةً بِهِم، وهوَ يَحْمِلُ ضِمْنًا رِسالَةً تَحذيريَّةً لِلمُخاطَبينَ، لِيأخُذوا العِبْرَةَ، فَيُدْرِكوا سوءَ عاقِبَةِ الكُفْرِ والطُّغيانِ، كَما أنَّ في تَقديمِها - أعني العُقوبَةَ عَلى الثَّوابِ - إبرازًا لِمَشهدِ العِقابِ، وهَذا فيهِ ما فيهِ مِن تَهيئَةِ نُفوسِ المُؤمنينَ لِلتَّفكُّرِ في النَّقيضِ، وهوَ الثَّوابُ، فَيَكونُ وقْعُ نَعيمِ المُؤمنينَ حينَئِذٍ أعظَمَ وأبلَغَ.

غرضُ التَّعبيرِ بالاسمِ الموصولِ:

الكُفْرُ أساسُ العَذابِ والجَزاءُ مُرَتَّبِطٌ بِالفِعْلِ

آثَرَ النَّظمُ الكريمِ استعمالَ الاسمِ الموصولِ في قَولِهِ تَعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾؛ ذمًّا لهم وذلك للاستشهاد على الكافرين بما في حيِّزِ الصِّلة، فالاسمُ المَوصول مَعَ صِلَتِهِ يدلُّ على أنَّ الكُفْرَ هوَ الفِعلُ الَّذي يَستَحِقُّ العُقوبَةَ، مِمّا يُعَمِّقُ الوَعْيَ بأنَّ الحُكْمَ مُرْتَبِطٌ بالعَمَلِ نَفْسِهِ، بَدَلًا مِنْ مُجَرَّدِ وصفِهِم بالكُفْرِ، فَإنَّ الإشارَةَ إلَى فِعلِهِمْ بِوُضوحٍ في قَولِهِ: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ تُبرِزُ السَّبَبيَّةَ الَّتي هيَ أساسُ العَذابِ، وهوَ كُفْرُهُم، كَما يُضيفُ هَذا الأُسلوبُ، إلَى المَعنى نَوعًا مِنَ التَّفْصيلِ والشَّرْحِ، مِمّا يُعَزِّزُ التَّأْثيرَ البَلاغيَّ، ويوضِّحُ أنَّ العُقوبَةَ مُرتَبِطَةٌ بِما فَعَلوهُ، ويَزيدُ مِن قوَّةِ النَّصِّ في تَرسيخِ الفِكْرَةِ بِأنَّ الجَزاءَ مُرتبِطٌ بالفِعلِ.

نكتةُ استعمالِ عنوانِ الكفرِ دونَ الشِّركِ:

كلُّ مَنْ خالفَ التَّوحيدَ فداخلٌ في الوعيد

استعمل النَّظمُ الكريمُ مفردةَ الكفرِ في قوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾؛ ليعمَّ اللَّفظُ جميعَ الكافرين، من المشركين وأهل الكتاب والملاحدةِ والوثنيّين، ولو ذكر الشِّرك، فقال: (الذين أشركوا)؛ لاقتصر الأمرُ على فئة خاصَّةٍ، والمقصودُ عمومُ الكافرين بالله تعالى.

بلاغةُ استعمالِ مفردة ﴿زُمَرًاۖ﴾:

جاء استعمالُ مفردة (الزمر) في قولهِ تعالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ

تَصويرُ مَشهَدِ القيامَةِ وحال سَوْق الكافرين ومَآلهم

كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾، وهو جمع زُمْرةٍ، وهي الفوجُ من النّاس المتبوع بفوج آخرَ، فلا يُقال: مرَّت زمرةٌ مِنَ النّاس، إلّا إذا كانت متبوعة بأخرى، وهذا مِن الألفاظ الَّتي مدلولها شيءٌ مقيَّد، وذلك لأنَّهم جعلوا زمرًا لاختلاف درجات كفرِهم، فإن كان المرادُ بالَّذين كفروا مشركي قريشٍ المقصودين بهذا الوعيد؛ كان اختلافُهم على حسب شدَّة تصلُّبهم في الكفر، وما يخالطُه من حدبٍ على المسلمين أو فظاظة، ومن محايدة للنَّبيِّ ﷺ أو أذى، وإن كان المرادُ بهم جميعَ أهلِ الشِّرك كما تقتضيه حكاية الموقف مع قوله: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ﴾؛ كان تعدُّد زمرهم على حسب أنواع إشراكِهم[1]، ومفردة ﴿زُمَرًاۖ﴾ تُبَيِّنُ فيها هيئَةَ السَّوقِ في المَشهَدِ، فهي حالٌ، أي: مُبَيِّنَةً هيئَةَ الَّذينَ كَفَروا في ذَلِكَ السَّوقِ، في تَصويرٍ لِلمَشهَدِ وتَوضيحٍ لكَيفيَّةِ حُدوثِ (السَّوقِ)، وهوَ عَلى شَكلِ جَماعاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ، وليسَ كأفرادٍ أو جَميعِهِم دُفعَةً واحِدَةً، بَل إنَّهُم يُعامَلونَ بِحَسَبِ أصنافِهِم أو جَرائِمِهِم، فَيُساقُ كُلُّ صِنفٍ بِحَسَبِ نَوْعِ كُفْرِهِ، أو مُستَوى إجرامِهِ، ممّا يُبرِزُ الإهانَةَ والذُّلَّ الَّذي يُصيبُهُم في هَذا المَوقِفِ.

نُكْتَةُ تَنكيرِ لفظِ ﴿زُمَرًاۖ﴾:

التَّنكيرُ يَعكِسُ شِدَّةَ العَذابِ وتَعَدُّدَ طُرُقِهِ

جاءت كَلِمَةُ ﴿زُمَرًاۖ﴾ في قَولِهِ تَعالَى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ﴾ مُنَكَّرَةً، مُنَوَّنَةً بِتَنوينِ التَّمكينِ؛ إذِ النَّكِرة أخَفُّ، فَألحَقوها التَّنوينَ؛ دَليلًا عَلى الخِفَّةِ[2]، وتَضَمُّنُهُ مَعنى التَّنكيرِ لِلدَّلالَةِ عَلى التَّعَدُّدِ والتَّنَوُّعِ والكثرة في الجَماعاتِ الَّتي سَتُساقُ إلى جَهَنَّمَ، فالتَّنوينُ هُنا يُضيفُ مَعنى التَّجريدِ والعُموميَّةِ، ممّا يوحي بِأنَّ الكافِرينَ سَيُساقونَ في جَماعاتٍ عدَّة أو فِرَقٍ، ولِكُلٍّ مِنهُم حالُهُ وصِفَتُهُ الخاصَّةُ، وتَنَوُّعُ هَذا السَّوقِ في تِلكَ الجَماعاتِ؛ لإبرازِ عَظَمَةِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 69.

(2) ابن يعيش، شرح المفصل: 1/ 64.

وعِقابِ جَهنَّمَ، وإظهارِ شِدَّةِ العَذابِ وتَعَدُّدِ طُرُقِهِ، والتَّنوينُ هُنا قَد أكسَبَ المَشهَدَ انطِباعًا بأنَّ هَذا السَّوقَ إلى العَذابِ لَيسَ أمرًا واحِدًا مُتَكرِّرًا، بل يَحدُثُ بِتَنَوُّعِ الطُّرُقِ المُختَلِفَةِ.

نوعُ ﴿حَتَّىٰٓ﴾ ودلالتُها السّياقيّة:

الغايَةُ المؤلِمة للكافرين تتحقَّقُ في دارِ العقوبةِ

استعملَ النَّظمُ الكريم أداة ﴿حَتَّىٰٓ﴾ في قَولِه تَعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾؛ للدَّلالة عَلى مَعنى الغايَةِ[1]، وبَيانِ الحَدِّ الزَّمَنيِّ الَّذي يَصِلُ فيهِ الكافرونَ إلَى جَهَنَّمَ؛ إذْ تُبَيِّنُ أنَّ الوصولَ إلى جَهَنَّمَ هو الغايَةُ الَّتي يَتَّجِهونَ إليها، وحينها يَكونُ المَعنى: وسيقَ الَّذينَ كَفَروا إلى جَهَنَّمَ زُمَرًا، إلى أن تُفتَحَ أبوابُها وقتَ مَجيئِهم، فَيَنقَطِعَ السَّوقُ[2].

وأجازَ الزَّمَخشَريُّ كَونَها جارَّةً لـ﴿إِذَا﴾ بِمَعنى الوَقتِ، وعَلى هَذا لا تَكونُ حينَئِذٍ ظَرفًا، وجَوَّزَ كَونَها حَرفَ ابتداءٍ[3]، وتَكونُ دلالتُها حينَئِذٍ لإيصالِ المَعنى الزَّمَنيِّ، بِمَعنى "إلى أن"، أي: إنَّهم سَيَصِلونَ إلى جهنَّمَ في وقت مُعيَّن، وإن جَعَلْتَ "حتَّى" حَرفًا دالًّا على الابتداءِ، فتَكونُ الجُملَةُ التّاليَةُ: ﴿إِذَا جَآءُوهَا﴾ مُؤذِنَةً بِمَشهَدٍ جَديدٍ، مِمّا يُضيفُ عُنصُرَ التَّأثيرِ في الحَدَثِ وتَحديدِهِ.

بَلاغَةُ التَّعبيرِ بِالجُملَةِ الشَّرطيَّةِ:

الإيماءُ إلى ترتُّبِ الأحداثِ في خريطةِ بلوغِ أبوابِ جهنَّم

قولُهُ تَعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾ جاءَ مُحتَويًا عَلى أداةٍ شَرطيَّةٍ، وفِعلِ شَرطٍ وجوابه، والشَّرطُ أسلوبٌ خبريٌّ يعني اقترانَ أمرٍ بأمرٍ آخرَ، بحيثُ لا يتحقَّقُ الأمرُ الثّاني، إلّا بعدَ تحقُّق الأمر الأوَّل، وذلك بوجود أداة الشَّرط، وهَذِهِ الجُملَةُ تُؤَكِّدُ حَتميَّةَ وُقوعِ الحَدَثِ، وتُضيفُ إلَيهِ طابِعًا مُؤَكَّدًا في المُستَقبَلِ، فأداة (إذا) تجيء لوقتٍ معلوم، وهي للمقطوع بحصوله[4]، وهذا يعَزِّزُ مِنَ

(1) الزجاجي، حروف المعاني، ص: 64، وابن عقيل، شرح ابن عقيل: 2/ 114.
(2) أبو حيان، التذييل والتكميل: 7/ 322.
(3) ابن عقيل، المساعد: 7/ 322.
(4) سيبويه، الكتاب: 1/ 433، والسامرائي، معاني النحو: 4/ 71.

الإحساسِ بيَقينيَّةِ الحَدَثِ، وجَعْلِ المتلقّي يُدرك بأنَّ هَذا المَصيرَ - لا مَحالَةَ - قادِمٌ، والبَلاغَةُ في الجُملَةِ الشَّرطيَّةِ تَظهَرُ من خِلالِ مُلاحَظَةِ العَقدِ والرَّبطِ بَينَ الشَّرطِ والجَزاءِ، بِطَريقَةٍ تجعَلُ العَذابَ مُرتَبِطًا بِشَكلٍ مُباشِرٍ، وواضِحٍ بالكُفرِ، وهيَ تُضيفُ بُعدًا زَمَنيًّا يوَضِّحُ تَرتيبَ الأحداثِ، ويَجعَلُ التَّأثيرَ البَلاغيَّ أعْمَقَ، مِمّا يُعَزِّزُ من قوَّةِ النَّصِّ وتَأثيرِهِ في النَّفْسِ.

نكتةُ استعمالِ أداة ﴿إِذَا﴾ دون (إن):

القطعُ بيقينِ فتحِ أبوابِ جهنَّم عند مجيءِ الكافرين

آثرَ النَّظمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا﴾ استعمالَ أداة الشَّرط ﴿إِذَا﴾ دون (إن)؛ وذلك لأنَّ (إذا) فيها معنى الظَّرفيَّة، فهي لتعيين نقطة التقاء الحدثين، ولذلك سمّاها المبرد (مؤقِّتة)، وكأنَّها تضطلع بتعيين وقتِ حدوث الحدثِ الرَّئيس في الجملة[1]، وابن مالك عدَّها محمولةً على (متى)، فهي تساوي من حيثُ الدَّلالةُ (متى ما)[2]، فهي شرطيَّة تفيد اليقين؛ إذ تدلُّ على وقوع الشَّيء في المستقبل، عند تحقُّق شرط معين، وتُستخدم عندما يكون الحدث المتوقَّع محققًّا أو مؤكَّدًا؛ إذ تدلُّ على وقوع الفعلِ بالتَّأكيد عند تحقُّق الشرط، بخلافِ (إن) فهي تدور حول الاحتمالِ، وهذا إن كانت غيرَ جازمةٍ، أمّا إن جيء بها جازمةً؛ فهي تُستخدم للدَّلالة على وقوع الشَّيء بشرط التَّحقُّق، لكنَّها أقلُّ يقينًا من (إذا)؛ لذلك استعملت الآية في هذا السّياق ﴿إِذَا﴾، لبيانِ تحقُّقِ الوعيدِ ويقينيَّته.

لطيفةُ تعدية فعل المجيء بنفسِهِ:

حتميَّةُ الوقوفِ على باب جهنَّم يختلف عن بيانِ الطَّريق إليها

عُدّي الفعلُ (جاؤوا) بنفسه دون التَّعدية بحرف (إلى)، وذلك لتضمينهِ معنى فعلِ الإتيان، وذلك لغرضٍ سياقيٍّ، وهو تعزيزُ التَّأكيد واليقين في وصول الكافرين إلى جهنَّم، فالفعل (جاؤوا) عبَّر عن

(1) سيبويه، الكتاب: 3/ 60، والمُبرِّد، المُقتضب: 2/ 55، والفراء معاني القرآن: 2/ 103.
(2) ابن مالك، التَّسهيل، ص: 237.

القدوم المؤكَّد والمباشر إلى المكان، مع الإفصاح الكامل عن حتميَّة العقاب، وعدم وجود أيِّ تردُّدٍ أو شكٍّ في وقوعه، ممّا يُضيف قوَّةً في التَّعبير عن عدل اللهِ تعالى، كما أنَّ حذفَ حرف الجرِّ يساهم في تقوية المعنى وإضفاء المباشرة على الحدث، ممّا يجعل الوصول إلى جهنَّم محقَّقًا ومؤكَّدًا، فإنَّ مجيءَ جهنَّم ليس كالمجيءِ إليها، فالأوَّل فيه حتميَّة الوقوف على بابها، والآخر في طريق الوصول إليها.

غرضُ بناء الفعل للمفعول ﴿فُتِحَتۡ﴾:

فتحُ أبوابِ جهنَّم أعظم ممّا يتصوَّره البشر وأرهب ممّا يُخيَّل للمتأمِّلِ

تتجلّى الأساليب القرآنيَّة في تصوير المشاهد الغيبيَّة بروح حيَّة، تجعل المتلقّي يعيش المشهدَ بكلِّ عمقهِ وجلاله، فتُطلقُ خياله ليعوِّض قصورَ حواسِّه عن إدراك ما وراءَ المحسوسِ، وتتبدَّل الأفعال والجمل انسجامًا مع تنوُّع الأحداث، وتعدُّد الشَّخصيّات؛ لتصبحَ كلُّ كلمةٍ حقيقة أمام العيان، فتبدو ثابتةً، دامغة، لا تقبل جدالًا ولا نزاعًا، كما في قولهِ تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾، فالإتيانُ بالفعل مبنيًّا للمفعول، فيه دلالةٌ على تحقُّق الحدث أكبر وأعظم من كونِهِ مبنيًّا للفاعل، وعليه فإنَّ تلك الأبوابَ قبل مجيئهم لم تكن مفتوحةً، فهي كسائرِ أبواب السُّجون لا تزال مغلقةً حتى يأتي أصحابُ الجرائم، الَّذين يُسجنون فيها، فتُفتح ليدخلوها، فإذا دخلوها؛ أُغلِقَت عليهم، قال مقاتل: "أُطبِقت الأبواب عليهم، ثمَّ شُدَّت بأوتادٍ من حديد؛ حتى يرجعَ عليهم غمُّها وحرُّها"[1].

توجيهُ القراءاتِ القرآنيَّة:

تفتيحُ الأبواب تكرارٌ وفتحها بالجملة بغرض الدُّخول

تعدَّدت أوجهُ القراءة في قوله تعالى: ﴿فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا﴾؛ إذ قَرَأَ عاصِم وحمزة والكسائيُّ وخلف العاشر: ﴿فُتِحَتۡ﴾ بتخفيف التّاء في موضعَي السّورة، وقرأ الباقونَ بتشديدِهما[2]: (فُتِّحَتۡ)، فحجَّةُ

(1) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 604.

(2) ابن الجزري، النشر: 3/ 282.

مَن خفَّف: أنَّ الفعلَ الماضي مبنيٌّ للمفعول مِن (فَتَحَ) الثُّلاثيِّ، وقد دلَّ بذلك على فتحها مرَّةً واحدةً، فكان التَّخفيف أولى؛ لأنَّ الفعلَ لم يتردَّد، ولم يكثر، وهو صالحٌ للقليل والكثير[1]، وحجَّة مَن شدَّد أنَّ الفعل الماضي المبنيَّ للمفعول من (فَتَّحَ) مضعَّف العين، فأراد تكرير الفعل؛ لأنَّ كلَّ بابٍ منها فُتِّحَ[2].

نوعُ الواو ومعناها:

الجملُ المتعاطفةُ ثراءٌ للمشهدِ وكشفٌ للموقف

الواو في قولِه تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾، عاطفةٌ[3]؛ إذ جيءَ بها لعطفِ الجملة الَّتي هي إعلانُ الخزنة ذلك الاستفهام التَّوبيخي، لِمَن سيق إلى النار، فالواو جاءَت تفصيلًا لما حدث قبلها، وتُفهم الجملة على أنَّها جزءٌ مِن سردٍ للأحداث، في سياق الحساب أو العقاب، حيث تُعطف الجملة على جمل أخرى تسبقها، لربط المعنى، حتّى تكتمل بذلك صورة المشهد.

نوعُ اللّام ودلالتها:

لامُ الاختصاص تفخِّم مشهد التَّبكيت

عبَّر النَّظمُ القُرآني باللّام في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ﴾، وهي لام الاختصاص، وتُعرف أيضًا بلام التَّبليغ، أو لام التَّوجيه[4]، فهي تبرزُ العلاقةَ بين الفعل (قال)، ومَن وُجِّهَ إليه القولُ، وهم (الكافرون)، وإبراز أنَّ الخطاب موجَّهٌ إليهم، خاصًّا بهم دون غيرهم، وهي هنا ذاتُ دَلالةٍ بلاغيَّةٍ تكمُن في تعظيم المشهد، وإظهار عنصر إهانة الكافرين وتوبيخهم المباشر.

نكتةُ تقديم شبه الجملة:

أوَّلُ ما يُسمع في جهنَّم التَّبكيت والإذلال

قُدِّم الجارُّ والمجرورُ في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾، على الفاعل ﴿خَزَنَتُهَآ﴾ للتَّخصيص؛ إذ إنَّ الكلام موجَّهٌ خصيصًا لهم

---

(1) الفارسي، حجة القراءات: 5/ 172، وابن خالويه، الحجة، ص: 311.
(2) مكي، الكشف عن وجوه القراءات: 2/ 241، ومحيسن، المهذب: 2/ 193.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 548.
(4) دعاس وآخران، إعراب القرآن: 3/ 147.

بغرضِ التَّوبيخ والإذلال، فأوَّلُ ما يواجهه الكافرون عند دخولِهم النّار، هو هذا الخطابُ المباشر، ممّا يزيد من وقع المفاجأة، وإلحاق الرُّعب في قلوبِهم، ولا يبعد للنّاظر وضوح ذلك الإيجاز في التَّعبير، الَّذي حقَّقه التَّقديم، في انسجامٍ بليغٍ مع السّياق، فالآيةُ تأتي في سياق مشهدٍ رهيبٍ، أُعلن فيه عن سوقِ الكافرين إلى جهنَّم، وتفتيح أبوابها لهم؛ استعدادًا للعذاب والنَّكال.

بلاغةُ استعمال مفردة الخزنة:

شـدَّةُ إحكـامِ الزَّبانية لجهنَّم كإحكام الخازن لبيت المال

اختار النَّظمُ الكريمُ لفظَ الخزنة للبوّابينَ والسَّجّانينَ لأهلِ النّارِ، فقال سبحانه: ﴿وَقَالَ لَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ وهم الزَّبانية غِلاظُ الأخلاقِ، شِدادُ القوى، وجاء استعمال هذه المفردة لبيانِ شدَّة حرصِ أولئك الملائكة على ألّا يخرجَ مِنَ النّار أحدٌ، كما أُطلِقَ على البوّاب هذا الاسم؛ إذا كان يخزِّن المال، ففيه تشبيهُ الكفّار في النّار بالمال في الخزنة، وذلك على سبيل الاستعارة التّهكّميّة، وهؤلاء الملائكة يحرسون أبوابَ جهنَّم؛ كي لا يخرجَ منها أحدٌ، ولما فيها مِنَ الدَّلالة على القوَّة والقسوة في مهمَّتهم، وتُظهر أنَّ اللّٰه قد أوكَل إليهم الأمانةَ في تنفيذ أمره، فالخازنُ لا يفرِّط في الأمانة، ودلالة هذا الاستعمالِ تُنبئُ عن استحالة مغادرةِ النّارِ إلّا بإذنِ اللّٰه تعالى.

غرضُ الاستفهامِ وبلاغته:

إيـقـاعُ التَّوبيخ والـتَّـقـريـع لما يُـقرِّره المخاطَب مــن عـجـيـب التَّنكيل

جاء الاستفهامُ على وجهِ التَّقريعِ والتَّوبيخ والتَّنكيلِ لأهل النّار في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾[1]، واختيرتِ الهمزةُ مع (لم)؛ للدَّلالة على معنى الاستفهام التَّقريريِّ، وهذا مِن خصوصيات الاستعمال القرآنيِّ؛ إذ إنَّ الاستفهامَ التَّقريري استُعمل في جميع القرآن بأداة (لم) مسبوقة بـ (الهمزة)[2]، فالاستفهامُ ليس لطلب

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 118.
(2) السامرائي، معاني النحو: 4/ 198.

الإجابة، بل لتأكيد وقوعِ الأمر الَّذي لا يمكن إنكاره، و(لم) تُظهر نفيًا في الماضي، ما يعني أنَّ الرُّسل جاؤوا بالفعل، وبلَّغوا الرِّسالة، ممّا يجعل الحجَّة على الكافرين كاملة، والجمع بينهما يُبرزُ التَّقريع الشَّديد؛ إذ ذُكِّروا بأمرٍ لا مجال لإنكاره مع توبيخِهم على تقصيرِهم، والاستفهام يُضفي على سياق الآية إيجازًا بلاغيًّا، بكونه يجمع بين إقرار الحقائق الماضية وتوبيخ المكذِّبين، ليضاعف التَّأثير النَّفسي؛ حاملًا إيّاهم على إثارة النَّدم والاعتراف بالذَّنب، فهذا مشهدٌ يتمُّ فيه تذكيرهم بأنَّهم لم يستجيبوا لرسل من جنسِهم، كانوا يتلون عليهم آياتِ اللّه، وينذرونهم بعذاب اللّه.

دلالةُ التَّعبير بالفعل المضارع:

استحضارُ مشهدِ مجيءِ الرُّسُل لزرعِ الألـمِ وتحريك النَّدم

آثرَ النَّظمُ الكريم التَّعبيرَ بالمضارع: ﴿يَأۡتِكُمۡ﴾؛ للإخبارِ بما كان في الماضي على وجه الإثباتِ، فإنَّ المضارعَ إن تقدَّمَتْهُ همزةُ الاستفهام، وصار منفيًّا بـ (لم)؛ فهو يفيدُ الماضي المُثْبَتَ[1]، والتَّعبيرُ بالفعل ﴿يَأۡتِكُمۡ﴾ جاء لاستحضارِ مشهدِ مجيءِ الرُّسل، كأنَّه يحدثُ الآن، ممّا يزيدُ مِن تأثير التَّوبيخ والتَّقرير، كما يوحي باستمرار التَّبليغ وتكراره؛ ليؤكِّد أنَّ الحجَّة قائمةٌ عليهم بلا انقطاع، كما أنَّه يُشيرُ إلى قرب الرُّسل منهم، في مشهدِ الحساب، ممّا يُضاعف مسؤوليَّتهم، ويُضعف حجَّتهم بالنَّكير والتَّكذيب.

نكتةُ تنكير لفظ ﴿رُسُلٞ﴾:

كلُّ رسولٍ بلَّغ الرِّسالةَ فقد أقام الحجَّةَ على مدعوّيه

نُكِّر لفظ ﴿رُسُلٞ﴾ لتعظيم شأن الرُّسلِ، والتَّنويه بمقام النُّبوَّة، وأنَّ الرُّسل الَّذين أُرسلوا ليسوا مجرَّد أفرادٍ عاديّين، بل هم أصحابُ رسالةٍ عظيمةٍ، ومهمَّة واضحة، ممّا يزيد في ضخامة الحجَّة على أقوامهم، كما أنَّ التَّنوين يحمل دلالةَ الشُّمول والإطلاق والتّكثير، فيشملُ كلَّ الرُّسل الَّذين جاؤوا على مرِّ العصور، دون تخصيصٍ

(1) الشنقيطي، العذب النمير: 2/ 265.

أو حصرٍ، لتَعظم مسؤوليَّة الأقوام في تصديقهم، كما أنَّه - أعني التَّنوين - أفاد الإشارة إلى أنَّ الرُّسلَ كانوا كثيرين ومتعدِّدين، ممّا يعكس أهمّيَّة الرِّسالة الَّتي حملوها والجهود الكبيرة الَّتي بذلوها في تبليغها للنّاس.

غرضُ وصفِ الرُّسُل:

جاء وصفُ الرُّسل بقولِه تعالى: ﴿مِّنكُمۡ﴾، وغرضُ ذلك التَّخصيص لإقامة الحجَّة، فالنَّعت إن كان وصفًا لنكرة؛ أفاد تخصيصها، فهُم من المدعوّين، وهو يُشير إلى قُربهم مِن أقوامِهم.

نوعُ (مِنْ) ودلالتها البلاغيَّة:

الـرُّسـل بعضُ الأقـوامِ وهم منهم في الانتماء والانتساب

حرفُ (مِنْ) في قولهِ تعالى: ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾، يحتمل أن يكونَ للتَّبعيض، ويحتمل أن يكونَ للبيان، فعلى التَّبعيض، يكون حرف (مِنْ) مشيرًا إلى أنَّ الرُّسلَ بعضُ أفراد الأقوام أنفسِهم، أي: إنَّ اللّه اختارَهم مِنَ الجماعة نفسِها، فالمعنى: أنَّهم منكم، ومن بني جنسِكم، وأمّا إفادتُها البيان؛ فظاهرٌ في أنَّ هؤلاءِ الرُّسلَ ينتمون إلى المجتمع نفسه، فيُعرفون فيهم، ويخاطبونهم بلغتِهم، والغرض البلاغيُّ الَّذي مِن أجلهِ جيء بـ(مِنْ) في السياق، إزالةُ الأعذار؛ لتقوية الحجَّة عليهم، كما يلحظ في التَّعبير بـ(مِنْ) إبرازَ القرب والاتِّصال بين الرُّسل وأقوامهم، ممّا يجعل التَّكذيب أكثر ظلمًا.

الموقعُ النَّحويُّ لقوله: ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾:

مهمَّة المرسلين تـلاوةُ الآيـات والإنذار

عبَّر النَّظمُ الكريم في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾، وهذه الجملةُ بتمامها: ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾ جملةٌ فعليَّةٌ في محلِّ رفع صفة لـ﴿رُسُلٞ﴾ في قوله: ﴿رُسُلٞ مِّنكُمۡ﴾ أفادت توضيحَ الموصوفِ وتفصيلَهُ، ممّا يضيفُ معنًى إضافيًّا يخصُّ الاسم المنعوت، في هذا السّياق، وهو تسليطُ الضَّوء على خاصية معيَّنة للموصوف، وهي تحتملُ الحاليَّة؛ لأنَّ النَّكرة ﴿رُسُلٞ﴾

قد خصِّصت بـ ﴿مِّنكُمۡ﴾، والنَّكرة إذا خصِّصت؛ تُعامل معاملة المعرفة، فجاز إتيانُ الحالِ منها، لتوضيحِ وصف الحالةِ الَّتي يكون عليها الموصوف، عند وقوعِ الفعل، والجملةُ الحاليَّة تضيف بعدًا زمنيًّا، يخصُّ وقوعَ الفعل وكيفيَّة تحقُّقه، وهذا التَّنوُّع يقدِّم رؤيةً مختلفة، وتفاصيل إضافيَّة، تساعد في فهْمِ الموقف، بشكل أفضل وتحقِّقُ التَّأثير البلاغي المطلوب.

بلاغةُ استعمالِ مفردة التِّلاوة دون القراءة:

آياتُ الله المتلوَّة متلاحمةٌ في معانيها متآخيةٌ في ألفاظها

جاء استعمالُ مفردةِ التِّلاوة في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾ دون القراءة؛ لبيانِ أنَّ ما صنعه الرُّسُل الكرام هو التِّلاوة للآيات الإلهيَّة، فإنَّ التِّلاوة إذا أُطلقت؛ يُراد منها قراءة الآيات المنزَّلة مِنَ الله تعالى، وللإيماءِ إلى أنَّ هذه التِّلاوة قائمةٌ على التَّتابع والثَّبات في إسماع المدعوِّين آياتِ الله تعالى، فهي قراءةٌ للآيات يتبع بعضها بعضًا، ففيه إشارةٌ إلى تكامُل الآيات المتلوَّة، وأنَّها ذاتُ معانٍ متتابعة متلاحمة متعاضدة، وهذا لا يكون لعمومِ القراءةِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

الرُّسُل لا يملّون من دعوةِ أقوامِهم

جاء التَّعبيرُ بصيغة المضارع ﴿يَتۡلُونَ﴾؛ للدَّلالة على التَّكرار، فرسلُ الله تعالى كانوا يتلون آياتِهِ مرارًا وتكرارًا؛ لتصل إلى القلوب، وتُفهم بشكل أفضل، والتَّعبير بلفظ التِّلاوة فيه استشعارُ الفخامة لنقل رسالة السَّماء، وهذا هو الغالبُ في سياقات القرآنِ الكريمِ.

فنُّ التَّغليب:

الرُّسلُ الكرامُ جماعة تتعاون في إبلاغ الآيات

آثرَ النَّظمُ القرآنيُّ في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ﴾ إسنادَ فعل ﴿يَتۡلُونَ﴾ لضمير الجمع بدلًا من ضميرِ المفرد، ورسالة الله واحدة، لا تقبل التَّفرقة أو التَّفريق؛ إذِ الأنبياءُ أبناءُ عَلّاتٍ، أي: مِثلُ أولادِ عَلّاتٍ، وهمُ الإخوةُ لِأبٍ واحدٍ مِن أُمَّهاتٍ مُختلفةٍ، فهُم مُتَّفِقون فيما

يَتعلَّقُ بأُصولِ الدّياناتِ، كالتَّوحيدِ، والإيمانِ، وأُسنِدت التِّلاوة إلى جميع الرُّسل، وإن كان فيهم مَن ليس له كتاب، على طريقة التَّغليب(1).

نكتةُ تعديةِ فعل التِّلاوةِ بحرفِ الاستعلاء:

استُعمِل حرفُ الاستعلاء في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾؛ لبيان استعلاءِ الرُّسل بالتِّلاوةِ، فإنَّ الآياتِ المتلوَّة نزلت من الأعلى، وشأنُها أن تكونَ بتلاوةِ مَن هو أعلى.

غرضُ تقديمِ شبه الجملة:

الإيمــاءُ إلى حـرصِ الـرُّسُـل على أقوامِهم

قُدِّمَ الجارُّ والمجرور ﴿عَلَيۡكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ﴾ على المفعول ﴿ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾، لتخصيص المخاطَبين بالتِّلاوة، ممّا يُقوّي الحجَّة عليهم، ويُظهر أنَّهم محورُ الخطاب، كما أنَّ التَّقديم يشعر بقرب التِّلاوة منهم، فلا عذرَ لهم بعدم الفهمِ، أو الإعراض، وهذا التَّقديمُ يومِئ إلى عناية الرُّسُل بأقوامِهم، ومدى عنايته وحرصهم على إيمانِهم.

نوعُ إضافةِ الآيات إلى لفظ الرُّبوبيّة ودلالتها:

تشريفُ الآياتِ وتـعـظـيـم حجّيّتها

أُضيفتِ الآيات إلى لفظ الرَّبِّ في قولهِ تعالى: ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾، والإضافةُ بمعنى (من)، أي: آياتٍ مِن ربِّكم؛ لتشريفِ الآياتِ، وبيان حجّيَّتها عليهم، ولرفعة تلك الآيات، وإبراز قداستها ومصدرها الأعلى، فهي كلامُ اللهِ تعالى، لا كلام الرُّسُل.

نكتةُ إضافةِ لفظ الرُّبوبيّة إلى الضَّمير:

التَّوبيخُ الشَّديدُ على الجحود الصّادر عن العباد في حقِّ من أحسن إليهم

أُضيفَ لفظُ الرُّبوبيَّة إلى الضَّمير في قولهِ تعالى: ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ﴾، والإضافةُ بمعنى اللّام؛ للإشعارِ بمزيدِ النَّدامةِ والحسرة، فهي آياتُ ربِّهم وخالقهم ورازقهم ومدبِّر شؤونِهم، وهو الَّذي تولّاهم بالنِّعَم منذ خلقَهم، وعلى الرَّغم من

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 70.

ذلك، كفروا به، وعصوا أوامرَهُ، إلّا أنَّكم عن آياتِه أعرضتم، وكان فيها لو أنَّكم سمعتُم، وأطعتم هدايتَكم، فجاءتِ الإضافةُ لتوبيخِهم على كفرِهم بربوبيَّة اللّه، فالإضافةُ تحمل توبيخًا صريحًا وتوكيدًا قويًّا للحجَّة عليهم.

نوعُ الواو ووظيفتها الرّابطة:

الإنـذارُ ثـمرة التِّـلاوة وجناح الدَّعوة

الواو في قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ﴾ للعطف؛ ربطًا للجملةِ بما قبلها، وإظهارًا لتتابع الأفعال في السّياق، والمعنى: أنَّ الرُّسلَ لا تقتصر وظيفتُهم على التِّلاوة فحسب، بل ينذرون أقوامَهم كذلك، أي: يحذرونَ مِن العواقب الوخيمةِ؛ إذا لم يستجيبوا للهداية، وأفادتِ الواو التَّعداد، أي: إنَّ الفعلَين (التِّلاوة والإنذار) مترابطان ومتكاملان، ممّا يعني: أنَّ التِّلاوة الَّتي فيها التَّدبُّر والتَّفكُّر، كانت بالتَّحذير والوعيد من عواقب تَرْكِ الهداية[1].

دلالةُ التَّعبيرِ بالمضارع:

عبَّرتِ الآيةُ بالفعل المضارع (ينذرونكم) دونَ الماضي؛ لبيان أنَّ إنذارَهم كان مستمرًّا متجدِّدًا، ما دلَّ على حرصِ الأنبياء واجتهادهم في تبليغ الرِّسالة، والقيام بمهمَّة الدَّعوة.

دلالةُ ذِكرِ مفعولَي فعل الإنذار:

تـعـدُّدُ المفاعيل يُـضـفـي عـلى الإنــذار قـوَّة نفسيَّة ومعنويَّة

مفعولا فعلِ الإنذارِ في قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾، وهما الضَّمير الكاف المتَّصل بالفعلِ، ولفظ ﴿لِقَآءَ﴾، يُشير إلى أنَّ الإنذارَ كان واقعًا عليهم على وجهِ الخصوصِ، ومحدَّدًا بأمرٍ جللٍ، وهو ما يعكس دقَّةَ الرَّبط بين المخاطَبين (الكافرين)، وموضوع التَّحذيرِ (اليوم الموعود)، ممّا يجعل الخطاب أكثرَ وضوحًا وتأثيرًا، وهذا الأسلوبُ يعبِّر عن عمقِ البلاغة القرآنيَّة الَّتي توظِّف البناءَ النَّحويَّ؛ لتعميق الأثر النَّفسي والمعنويِّ في المخاطَبين.

(1) الدوري، دقائق الفروق، ص: 196.

المـوازنـةُ بين التَّرغيب والتَّرهيب في خطابِ المدعوّين

نكتةُ تقديمِ فعل التِّلاوة على الإنذار:

قُدِّم ذِكرُ فعل التِّلاوة على فعل الإنذار في قولهِ تعالى: ﴿يَتۡلُونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِ رَبِّكُمۡ وَيُنذِرُونَكُمۡ﴾؛ لإبراز الرَّحمة والهداية في دعوة الرُّسل قبل الإنذار، فهُم إنَّما جاؤوا بالبِشارة والنِّذارة، والتِّلاوة تمثِّل الجانب الإيجابي، والدَّعوة للتَّفكُّر والتَّدبُّر، ممّا يُهيّئ النُّفوس لقبول التَّحذير، وفهْم عواقب الإعراض، وهذا التَّرتيبُ يعكس أسلوبَ القرآن، الَّذي يبدأ بالتَّرغيب عبر عرض آيات اللّه، ثم ينتقلُ إلى التَّرهيب بالإنذار، ممّا يوجد توازنًا في الخطابِ بين التَّرغيبِ والتَّرهيب، ممّا يُعزِّز قَبول الرِّسالة، ولمّا كانت المتابعة بالتَّذكير أوقعَ في النَّفس؛ ذَكَرَ التِّلاوة أوَّلًا، ثمَّ الإنذار ثانيًا دليلًا على تقديم البشارة[1].

أصعبُ أيّام الشِّدَّةِ يوم دخول النّار

فائدةُ إضافة ﴿لِقَآءَ﴾ إلى ﴿يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾:

أُضيفَ لفظُ ﴿لِقَآءَ﴾ إلى ﴿يَوۡمِكُمۡ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾، والإضافة بمعنى اللّام أو في؛ ليكونَ التَّحذير أكثرَ قُربًا وتأثيرًا، حيث يشير إلى المبالغةِ في تعليق اليوم بهم وحدهم وبأفعالهم، كما تُبرز الإضافة مسؤوليَّتهم المباشرة عن الحساب، ممّا يضاعف شعورَ الرَّهبة والخوف من عاقبة أعمالهم، والآية تتكلَّم عن لقاءِ وقتِ دخولهم أبواب النّار لا عموم يوم القيامةِ.

يومَ دخولِ النّار مختصٌّ بكلِّ داخلٍ فيها

وجهُ إضافةِ اليوم إلى الضَّمير:

أفادت إضافةُ لفظِ اليوم إلى الضَّميرِ في قولهِ تعالى: ﴿لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾ الاختصاصَ بِهم؛ زيادةً في التَّقريع والتَّوبيخ والحطِّ منهم ومن مكانتهم، فكأنَّ عذابَ هذا اليوم عذابُهم دون غيرِهم، أو كأنَّ ذلك اليوم يومُ القيامة، وما يختصُّ بهم من عذابٍ وأهوالٍ، يومهم دون سواهم، ولا ينافيه كونه في ذاتِهِ غير مختصٍّ بهم، إنَّما

(1) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 565.

جُعِل لهم للاختصاص بهم[1]، فالإضافةُ بمعنى اللام، فهو يومٌ لهم في شدَّته وغلظته، وقد جاء استعمالُ اليوم والأيّام مستفيضًا في أوقات الشِّدَّة.

غرضُ التَّعبيرِ باسم الإشارة للقريب:

الإشـــارةُ إلى المشاهدِ أشدُّ من الوصفِ المجرَّد

استعمل النَّظْمُ الكريمُ اسمَ الإشارة ﴿هَٰذَاۚ﴾، في قوله تعالى: ﴿لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ﴾؛ لتصوير المشهدِ الَّذي يكون فيه أولئك الَّذين كفروا، فهُم على أبواب جهنَّم يعانون الشِّدَّة وهول الموقف، والخزنة يُشيرون إلى الوقت الذي هم فيه، ويقفون على أبوابِ جهنَّم ينتظرون الدُّخول، وإنَّما أشاروا بـ ﴿هَٰذَاۚ﴾؛ لما في الإشارةِ مِن مزيَّةٍ ترجِّح على التَّشخيص[2].

علَّةُ فصل جملة ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ عن السّابق:

الاسـتـئـنـاف البـيـانيُّ تجليةٌ للمحاورات بين الأطراف

جاءت جملةُ: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ مفصولةً عمّا سبقها، وعلَّة هذا الفصل شِبْهُ كمال الاتِّصال، وهو كونُ الجملة الثّانية قويَّة الارتباط بالأولى؛ لوقوعِها جوابًا عن سؤالٍ يُفهم مِنَ الجملة الأولى، فتُفصل عنها، كما يُفصل الجوابُ عن السُّؤال[3]، ولو جاءتِ الواو هنا؛ لما كان المعنى مستقيمًا؛ إذ وقوعُ الجملة جوابًا لسؤال اقتضته الأولى موجبٌ للفصل، كيف لا؟ والسُّؤال والجواب إن نُظِرَ إلى معنييهما؛ فبينهما شبهُ كمالِ الاتِّصال، وإن نُظِرَ إلى لفظيهما؛ فبينهما كمالُ الانقطاع؛ لكون السُّؤال إنشاءً، والجواب خبرًا، وإنْ نُظِرَ إلى قائلهما؛ فكلٌّ منهما كلامُ متكلِّم، ولا يُعطَف كلامُ متكلِّمٍ على كلام متكلِّمٍ آخرَ، فعلى جميع التَّقديرات الفصل متعيَّن[4].

نوعُ الواوِ ومعناها:

الواوُ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾

(1) الآلوسي، روح المعاني: 12/ 286.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 16/ 566.
(3) السبكي، عروس الأفراح: 1/ 484، وعصام، الأطول: 1/ 57.
(4) الدسوقي، حاشية الدسوقي على مختصر المعاني: 2/ 504.

الاستئنافُ يُبرز فصلًا دقيقًا بين الاعتراف والعاقبة

للاستئناف، وتأتي لاستئناف معنًى جديدٍ، يوضِّح سببًا أو نتيجة لما سبق، وفي هذا السّياق انتقالٌ مِن اعتراف الكافرين بالرُّسل، وآيات الله، إلى تقريرِ حتميَّة وقوع العذابِ عليهم، بعد ثبوت كفرهم، ممّا يُبرز فصلًا دقيقًا بين الاعتراف والعاقبة، والجملة الَّتي بعد الواو مستقلَّة في معناها، عن الجملة السابقة: ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾؛ إذ إنَّ مضمونَها ليس معطوفًا، بل يُبيِّن نتيجةً منفصلة عن الحوار السابق.

نكتةُ استعمال (لكن) بعد الواو:

توهُّمُ العفوِ يردُّه حرف الاستدراك

حرف (لكن) في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ﴾ لا يُفيد عطفًا، بل هي حرف مخفَّف مهملٌ؛ لأنَّ ما بعدها جملةٌ، فهي أفادتِ الابتداء، والاستدراك والتَّحقيق[1]، وتُبيِّن إضرابًا عن التَّوقُّع، أو رفع وهم قد ينشأ لدى السّامع، وهذا السّياق الَّذي فيه اعترافُ الكافرين بذنوبِهم، قد يُتوقَّع في أثنائِه العفو عنهم، إلّا أنَّ هذا الاستدراكَ قد حسم الأمر، ونفى ذلكم التَّوقُّع، فالاعترافُ لم يعد نافعًا لهم؛ لأنَّ حُكمَ العذاب قد تحقَّق، وثبت عليهم؛ بسبب كفرِهم وإصرارِهم، والجمع بين (الواو ولكن) يُبرز انتقالًا من موقفِ الكافرين بعد اعترافِهم، إلى تقرير حتميَّة وقوع العذاب اللّاحق بهم بفوت وقت العفو، وانتقالهم إلى استحقاق العقوبة لعنادِهم وكفرِهم.

دلالةُ التَّعبيرِ بالفعل ﴿حَقَّتۡ﴾ مادَّةً وصيغةً:

الحقُّ متحقِّقٌ حتمًا وصدقًا كوقوع ما وقع

آثر النَّظمُ الكريم استعمالَ مفردةِ ﴿حَقَّتۡ﴾، في قوله تعالى: ﴿حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ﴾، وذلك في معرض إخبارِ الكافرين بأنَّ ما هم مُقْدمونَ عليه إنَّما هو حقٌّ ثابتٌ، فقرَّر هذا المعنى بكلمة ﴿حَقَّتۡ﴾، وهي مشتقَّةٌ من الحقِّ الدّالِّ على إحكام الشَّيءِ وصِحَّتِه، فالحَقُّ نقيضُ الباطلِ، يُقالُ: حقَّ الشَّيءُ: وجبَ[2]، ولمّا كانت الأحداث

(1) ابن هشام، مغني اللبيب: 1/ 290، والسامرائي، معاني النحو: 1/ 307.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (حق).

والمشاهد - الَّتي تضمَّنتها هذه السّورة - متحقِّقةَ الوقوعِ مقطوعًا بحصولِها؛ فقد كانت بمنزلة تحقُّق ما قد مضى.

بلاغةُ الإسنادِ المجازي:

وعيدُ اللهِ تعالى ثابتُ الوقوعِ حتميُّ الوجوب

أُسنِدَ فعل ﴿حَقَّتْ﴾ إلى ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾، وهذا الإسنادُ مجازيٌّ عقليٌّ؛ إذ الكلمة لا تحقُّ بذاتِها، وإنَّما ما أوعد اللّه به عباده أن يكونَ في الآخرة هو الَّذي حقَّ، ونكتةُ الإسناد المجازيِّ بيانُ أنَّ كلمةَ اللّه ووعيده لا يتخلَّفان أبدًا، فما كان وعيدًا في الدُّنيا؛ صار حقًّا حتميًّا في الآخرة.

فصاحةُ التَّعبيرِ المجازي في لفظ ﴿كَلِمَةُ﴾:

الحكمُ إذا صدر؛ أصبح كلمةً نافذةً صدقًا وعدلًا

أُضيفت ﴿كَلِمَةُ﴾ إلى لفظ ﴿ٱلْعَذَابِ﴾؛ لتكونَ هذه الجملةُ كنايةً عن حكم العذابِ على الكافرين، فإنَّ اللّهَ عندما يقضي بين العبادِ، يحكم على الكافرين بالعذاب، أو يكون الحكمُ قد شُبِّه بالكلمة، وصرَّح بالكلمة على سبيل الاستعارةِ التَّصريحيَّة، والاستعارة أبلغُ من الحقيقة لما فيها من بيان أنَّ الحكمَ كلمةٌ قد صدرت في حقِّ أهلها، وهي قد حقَّت صدقًا وعدلًا، أمرًا وقضاءً.

معنى تعريف لفظِ ﴿ٱلْعَذَابِ﴾:

العذابُ الَّذي ينتظر الكافرين ذو أصنافٍ لا تتناهى

جاءتِ (ال) في قول المولى ﷻ: ﴿كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ﴾ للجنس، أي: إنَّ العذابَ المشار إليه هو عذابٌ شامل، بمعنى عذابٍ لا يتجزَّأ، ويشمل جميعَ ألوان العذابِ في الآخرة الَّتي استحقَّها الكافرون؛ نتيجةَ تماديهم في الكفرِ والجحودِ؛ لتضيفَ طابعًا مِنَ العموم، بحيث يُفهم مِنَ الآية أنَّ العذاب يتناول العقوبات، والعذاب الكامل والمطلق.

نكتةُ استعمالِ حرف الاستعلاء:

استعملَ النَّظمُ الكريم حرف الاستعلاءِ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾؛ للإشارة إلى استعلاءِ العذاب فوقَهم، وإحاطته بهم، ليُرشِّح معنى ثبات العذاب.

معنى تعريف لفظ ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

العـذابُ جزاءُ الكافرين بجميع أصنافِهم

جاء السّياقُ القُرآنيُّ في الآية الكريمة: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ بجمع الكافرين محلّاةً بالألف واللام المفيدة للجنس؛ لإفادة شمول جنسِ الكافرين وعمومِهم من غير استثناء، وهذا يعني أنَّ العذابَ لم يقتصر على فئةٍ أو طائفة معيَّنة، بل هو عذابٌ عامٌّ، لكلِّ مَن كفر في الزَّمن الماضي أو الحاضر أو المستقبل.

براعةُ العدولِ عن (الذين كفروا) إلى ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾:

تغايرُ التَّعبير تابعٌ لتغاير الأغراضِ البيانيَّة

آثرَ النَّظمُ الكريم استعمالَ الاسم الظاهر في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، دون الموصولِ، كما صُدِّرت به الآية القُرآنيَّة؛ لتأكيد وصفِ الكفرِ كصفةٍ دائمةٍ وملازمةٍ لهم، فالتَّعبيرُ بـ﴿ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ يحمل دلالةً عامَّةً وشاملةً، ومبدأُ الآية أشار إلى علَّةِ سوقهم إلى جهنَّم، وهو كفرُهم - كما سبق بيانه - وعليه فبدأتِ الآيةُ بتعليل سوق الكافرين، وانتهت بوصفِهم، فكأنَّه قيل: إنَّما سيقوا إلى جهنَّم؛ لأنَّهم كفروا في الدُّنيا، وحقَّت عليهم كلمة العذاب؛ لأنَّهم اتَّصفوا بالكفر وصفًا ثابتًا لهم.

نكتةُ إظهارِ ما حقُّه الإضمار:

الـجـمـعُ بين الوصف بالكفرِ وعلَّته

أظهر النَّظمُ الكريم وصفَ الكافرين دونَ الإضمارِ في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنۡ حَقَّتۡ كَلِمَةُ ٱلۡعَذَابِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾، فلم يقل: (ولكن حقت كلمة العذاب عليهم)؛ وذلك لإظهار وصفِهم الَّذي استحقّوا به العذابَ، وهو الكفرُ، فهو قريبٌ من غرض استعمال الاسم الموصول في الاستشهادِ عليهم بما في حيِّز الصِّلةِ، فيكون الإظهارُ لإبراز الوصفِ بالكفر، فيشملُ جميعَ الكافرين، مع الإيماء إلى علَّةِ العذاب.

جزالةُ الاستئنافِ البيانيِّ:

جاء قولُه تعالى: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ﴾ مفصولًا

عمّا قبله؛ لأنَّه استئنافٌ بيانيٌّ، وهذا الفصل يعبِّر عن الانتقال الحاسم والمباشر بين المشهدين، فعدمُ استخدام الواو استئنافٌ في غاية الجزالة والفخامة، لقطع كلِّ رجاءٍ أو فرصة للمراجعة.

عند تحقُّق الجزاء ينقطع الرَّجاء

نكتةُ بناءِ فعل ﴿قِيلَ﴾ للمفعول:

جاء فعل ﴿قِيلَ﴾ في قول الحق ﷻ: ﴿قِيلَ ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾ مبنيًّا للمفعول؛ وذلك للعناية بمضمون القول نفسِه، وهو (أمر الدُّخول إلى جهنَّم)، دون الانشغال والاهتمام بالقائل، وإن كان القائل: هم خزنتُها[1]؛ لأنَّ العِبرةَ هنا بالقول لا بالقائل، وبناء الفعل للمفعول فيه تهويلٌ وتعظيمٌ للمشهدِ.

إخفاءُ القائلِ يضفي على المشهد تهويلًا وتعظيمًا

غرضُ الأمر ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ﴾:

الأمرُ في قولِه تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، فيه إلزامٌ فعليٌّ، لكنَّه خرج عمّا وضع له؛ فإنَّه لا مناصَ للمخاطَبين إلّا التَّنفيذ، لا لأنَّهم قد استجابوا للأمر، بل لأنَّ الأمر واقعٌ - لا محالةَ - وليس لهم خيار في ذلك، وعليه فيكونُ الأمر خرج عن حقيقته إلى غرضٍ بلاغي، وهو التَّوبيخ والتَّبكيت والتَّقريع والتَّهوين، فالكفرةُ داخلون جهنَّم على كلِّ الأحوال، وهذا كقول الله: ﴿ٱعۡمَلُواْ مَا شِئۡتُمۡ إِنَّهُۥ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٤٠﴾ [فصلت: 40]، وكقول القاتلِ للمقتول عند النَّزع: مت، فهو ليس أمرًا بقدر ما أنَّه محمولٌ على غرضٍ آخر.

خرجَ الأمرُ عن حقيقتِهِ إلى التَّقريعِ والتَّوبيخ

بلاغةُ المجازِ في ذكر الأبواب لا محلها:

آثرَ النَّظمُ الكريم جعْلَ الدُّخول إلى الأبواب لا إلى جهنَّم في قوله تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، فلم يقل: (ادخلوا جهنَّم)، مع أنَّ ما يقتضيه الظّاهر هو أنَّ الدُّخولَ يكون لجهنَّم لا للأبواب، فالأبواب يُدخل منها، ولا يُدخل فيها، ووجهُ ذلك أنَّ الأبواب تُطلق على مكان الدُّخول، فأُطلق البابُ، وأُريد محلُّ الباب عند فتحهِ،

تصويرُ مشهد الكفّار على أبواب جهنَّم مأمورين في دخولها

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 71.

والمعنى: ادخلوا من المكان الَّذي كانت الأبوابُ فيه مغلَّقة، فأطلق البابَ، وأراد محلَّه من باب المجاز، ونكتة ذلك تصويرُ مشهدهم، وهم أمام الأبواب قبل فتْحِها، ثم إذا ما فُتِحت؛ قيل لهم ما قيل، ثم أُمِروا بالدُّخول من مكان الأبواب بعد فتحها، فهُم شاهدوها مغلَّقةً، وشاهدوها مفتوحةً، ثم أُمروا أن يدخلوا مِن حيث كانت الأبواب مغلَّقة، فهو مجازٌ مرسل علاقته الحاليَّة، أو باعتبار ما كان.

وجهُ إضافة ﴿أَبۡوَٰبَ﴾ إلى ﴿جَهَنَّمَ﴾:

أُضيفت أبوابٌ إلى جهنَّمَ في قولهِ تعالى: ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ أَبۡوَٰبَ جَهَنَّمَ﴾، والإضافةُ تحتملُ أن تكونَ بمعنى اللام، فهي أبوابٌ لجهنَّم، وتحتمل أن تكونَ بمعنى (من) أي: بعض أبواب جهنَّم.

نكتةُ استعمالِ لفظ ﴿جَهَنَّمَ﴾:

جهنَّمُ الاسم العَلَم والنّار جزءٌ منها

استعمل النَّظمُ الكريم اسم ﴿جَهَنَّمَ﴾ دون النّار؛ لأنَّها الاسمُ العَلَمُ المشتهر على المكان الَّذي سيُعذَّب فيه الكافرون، فهي أعمُّ من النّار، فالنّارُ في سياقات من الذِّكر الحكيم جزءٌ من جهنَّم، ففيه مزيدُ ترهيبٍ وتهويل لما سيكون فيها، وهذا التَّصريح بجهنَّم، يحمل دلالةً يظهرها السّياق، فهو يدعو إلى استحضارٍ أوضحَ لصورة العذاب، لافتًا الأنظار والأسماع إلى ما تحملُهُ لفظة ﴿جَهَنَّمَ﴾ من معانٍ، فهي البعيدةُ القعرِ، مأخوذة مِن قولهم: هذا بئرُ جِهنّام قعره بعيد، فكذلك النّار، فهي عميقةٌ وبعيدة القعر[1]، فجهنَّمُ هي مكان العذابِ والتَّعذيب، واختُصَّ لفظُ ﴿جَهَنَّمَ﴾ بالتَّعبير عن عذاب الآخرة حصرًا، فلم تُستخدم - ولو مجازًا - في التَّعبير عن أيِّ غرض من أغراض الدُّنيا، كما هو الحال في لفظ (النار).

(1) الأزهري، تهذيب اللغة: (جهم).

غرضُ التَّعبير باسم الفاعل:

جاء التَّعبيرُ باسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۖ﴾، و﴿خَٰلِدِينَ﴾ في موقع حالٍ مِنَ الضَّمير المتَّصل في ﴿ٱدۡخُلُوٓاْ﴾؛ للتَّنبيه على الدَّوام المُكتَسب من لفظ الخلود والصيغة.

نوعُ الفاءِ ودلالتها:

سوءُ عاقبةِ مثوى المتكبِّرين

الفاءُ في قولِه تعالى: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ هي فاء الاستئنافِ[1]؛ إذ تدلُّ على البدءِ بجملة جديدة؛ إظهارًا للمفاجأة والنَّتيجة، فالفاءُ هنا تفصلُ بين الجملتَين؛ إذ تأتي لتأكيد ما قبلها، وتشير إلى أنَّ العاقبةَ الَّتي سيتلقّاها المتكبِّرون هي عاقبة سيِّئة تتبع ما ذُكِر مِن أفعالهم، كأمر حتميٍّ لما قبله، ممّا يعزِّز مِن شدَّة التَّحذير، ويُبرز المعنى في صورة قاطعةٍ، بأنَّ مكان المتكبِّرين هو سوء العاقبة، وهو مثوًى سيّئٌ.

نكتةُ حذف المخصوص بالذَّمِّ:

حذْفُ المخصوصِ بالذَّمِّ في قوله تعالى: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ للإيجاز، وهو جهنَّم[2]، وحذْفُ لزيادة أثر الذَّمِّ، وليكون ما يقرع سمع المخاطَب استشعار فظاعة المثوى.

معنى تعريفِ لفظِ ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾:

جاءتْ كلمةُ ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ معرَّفةً بالألف واللام، وهي هنا لام الجنس؛ لتفيدَ العموم والشُّمول، أي: إنَّها تشمل كلَّ مَن يتَّصف بصفة الكِبر.

نكتةُ اختيارِ لفظ ﴿ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾ دون (الكافرين):

التَّكبُّر علَّة الكفر وسبب الهلاك

آثر النَّظمُ الكريم ذِكرَ وصف الكِبر على وصف الكفرِ المتقدَّم ذِكرُهُ في السّياق في قوله تعالى: ﴿فَبِئۡسَ مَثۡوَى ٱلۡمُتَكَبِّرِينَ﴾، فلم

---

(1) درويش، إعراب القرآن: 8/ 448.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 24/ 71.

يقل: (فبئس مثوى الكافرين)؛ للدَّلالةِ على أنَّ التَّكبُّر على اللّه في الدُّنيا، بالعدول عن توحيدِه، وإفراد الألوهيَّة له، هو السَّبب وراء الكفر، فالكفرُ يبدأ بالتَّكبُّر[1]، فهو تذكيرٌ بعلَّة كفرِهم باللّه تعالى، وهو التَّكبُّر، ففيه ردُّ آخرِ الآيةِ في ذِكر علَّة الكفر، على صدرِها الَّذي ذكرَ علَّة السَّوقِ، وهو الكفر.

الفُروقُ المعجميَّة:

الزُّمرة والشِّرذمة والشّيعة:

الزُّمرة الجماعة التالية لمثلها، والشِّرذمة القليلة المحتقرة، والشّيعة المتناصرة

الزُّمرَةُ: هيَ الجَماعَةُ القَليلَةُ؛ ومِنهُ قيلَ: شاةٌ زُمرَةٌ قَليلَةُ الشَّعرِ، واشتِقاقُ الزُّمرَةِ مِنَ الزَّمرِ، وهوَ الصَّوتُ؛ إذِ الجَماعَةُ لا تَخلو عَنهُ غالِبًا، والزُّمَرُ الأفواجُ المُتَفَرِّقَةُ[2]، والزُّمرة تُطلق على الجماعات المتتالية.

والشِّرذِمَةُ: هيَ القَليلُ مِنَ النّاسِ، فالذّالُ زائِدَةٌ، وإنَّما هيَ مِن شَرَمْتُ الشَّيءَ؛ إذا مَزَّقْتَه، فَكَأنَّها طائِفَةٌ انمزَقَتْ، وانمازت عَنِ الجَماعَةِ الكَثيرَةِ[3]، ويلحظ في إطلاق الشِّرذمة على بقيَّة الجماعة لضعفها وهوانها؛ أخذًا مِنَ الكلام عن الثَّوب الشَّراذم المتقطِّع البالي، ومنه قولُ اللّهِ ﷻ: ﴿إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَشِرۡذِمَةٞ قَلِيلُونَ ٥٤﴾ [الشعراء: 54]، أي: قطعة وبقيَّة؛ لأنَّ فرعونَ أضلَّ منهم الكثير، فبقيت منهم شِرذمة، أي: قطعة[4].

والشّيعَة: مِنَ الفعل (شيع)، وهو يَدُلُّ عَلى مُعاضَدَةٍ ومُساعَفَةٍ[5]، والشّياعُ: الانتشارُ والتَّقوية، يقال: شاع الخَبر، أي: كثر، وقوي، وشاعَ القومُ: انتشروا، وكثروا، وشَيَّعْتُ النّار بالحَطَبِ: قوَّيتها، والشّيعَةُ:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 21/ 338.
(2) الزمخشري، الكشاف: 4/ 146، والآلوسي، روح المعاني: 12/ 286.
(3) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شرذمة).
(4) العسكري، الفروق، ص: 281.
(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (شيع).

من يتقوّى بِهم الإنسانُ، وينتشرون عنه، ومنه قيل للشُّجاع: مَشيعٌ، فشيعَةٌ وشيَعٌ وأشياعٌ، هي لقوم يتشيَّعون، أي: يهوون أهواءَ قوم، ويتابعونهم، وشيعةُ الرَّجلِ: أصحابُهُ وأتباعه، وكلُّ قوم اجتمعوا على أمرٍ فهُم شيعةٌ، وأصنافُهم: شيَعٌ، قال اللّه تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: 54] وقال تعالى: ﴿۞وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِۦ لَإِبْرَٰهِيمَ ٨٣﴾ [الصافات: 83][1].

(1) الراغب، مفردات: (شاع).

المحتويات

